

الكشاف

عَنْ
حَقَائِقِ غَوَامِضِ النَّزِيلِ وَعَيُونِ الْأَقَاوِيلِ
فِي وَجْهِ النَّاوِيلِ

لِلْعَلَّامَةِ جَارِ اللَّهِ أَبِي الْقَاسِمِ مُحَمَّدِ بْنِ غَمَرَ الرَّمَحْشَرِيِّ
(٤٦٧-٥٣٨ هـ)

تَحْقِيقٌ وَتَعْلِيلٌ وَدِرَاسَةٌ
السَّيِّحُ عَادِلُ أَحْمَدَ عَبْدِ الْمَوْجِدِ الشَّيْخُ عَلِيُّ مُحَمَّدُ مَعْوُضٍ

شَارَكَ فِي تَحْقِيقِهِ
الْأَسَازُ الْاَلْتُورَفْتِيُّ عَبْدُ الرَّحْمَنِ أَحْمَدُ حِجَازِيُّ
أَسَازُ الْبَلَاغَةِ وَالْفَنَدِ بَكْلِيَّةُ الْاَلَّةِ الْعَرَبِيَّةِ بِمَامَعَةِ الْاَزْهَرِ

الْجُزْءُ الْخَامِسُ

مَكْتَبَةُ الْعَبِيدَاتِ

جميع الحقوق محفوظة للناشر

الطبعة الأولى

١٤١٨ هـ - ١٩٩٨ م

الناشر

مكتبة العبيكان

الرياض - طريق الملك فهد مع تقاطع العروبة

ص.ب. ٦٢٨٠٧ الرمز ١١٥٩٥

هاتف ٤٦٥٤٤٢٤ - فاكس ٤٦٥٠١٢٩

سورة لقمان

مكية [إلا الآيات ٢٧ و ٢٨ و ٢٩ فمدنية]
وآياتها ٣٤ وقيل ٣٣ [نزلت بعد الصافات]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿الْع ١﴾ تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْحَكِيمِ ﴿٢﴾ هُدًى وَرَحْمَةً لِّلْمُحْسِنِينَ ﴿٣﴾ الَّذِينَ يَقِيمُونَ
الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ ﴿٤﴾ أُولَٰئِكَ عَلَىٰ هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ وَأُولَٰئِكَ هُمُ
الْمُفْلِحُونَ ﴿٥﴾

﴿الْكِتَابِ الْحَكِيمِ﴾ ذي الحكمة. أو وصف بصفة الله تعالى على الإسناد المجازي. ويجوز أن يكون الأصل: الحكيم قائله، فحذف المضاف وأقيم المضاف إليه مقامه، فبانقلابه مرفوعاً بعد الجر استكن في الصفة المشبهة ﴿هُدًى وَرَحْمَةً﴾ بالنصب على الحال عن الآيات. والعامل فيها: ما في تلك من معنى الإشارة. وبالرفع على أنه خبر بعد خبر، أو خبر مبتدأ محذوف ﴿لِّلْمُحْسِنِينَ﴾ للذين يعملون الحسنات وهي التي ذكرها: من إقامة الصلاة، وإيتاء الزكاة، والإيقان بالآخرة ونظيره قول أوس: [المنسرح]

أَلْأَلَمَعِي الَّذِي يَظُنُّ بِكَ الظَّ - ظَنَّ أَجْمَلِي كَأَنَّ قَدْ رَأَى وَقَدْ سَمِعَا^(١)

| | |
|-----------------------------|-----|
| أيتها النفس أجملِي جزعا | (١) |
| إن الذي جمع السماحة والنَّ | |
| اللمعي الذي يظن بك الظَّ | |
| أودى فلا تنفع الإشاحة من | |
| إن الذي تحذرين قد وقعا | |
| خنجة والبر والتقوى جمعا | |
| ظَنَّ كَانَ قد رأى وقد سمعا | |
| أمر لمن قَدْ يحاول البدعا | |

لأوس بن حجر، يرثي فضالة بن كعدة. يقول: يا نفس احتملي جزعاً عظيماً، إن الذي تخافين منه قد حصل، وبينه بقوله: إن الذي جمع المكارم كلها أودى، أي: هلك. وجمع - بالضم -: توكيد للصفات قبله. والألمعي: نصب على الصفة للذي، وفسره بأنه الذي يظن بك، يعني كل مخاطب، أي: يظن الظن الحق، كأنه قد رأى وسمع ما ظنه أو يظن الظن فيصيب، كأنه قد رآه إن كان فعلاً، أو سمعه إن كان قولاً. وفيه نوع من البديع يسمى التفسير، وهو أن يؤتى بمعنى لا يستقل الفهم بمعرفته بدون تفسيره، ذكره السيوطي في شرح عقود الجمان. والإشاحة: الشجاعة والجد في القتال. وضمن «تنفع» معنى «تحفظ» فعده بمن، أي: فلا تحفظ الشجاعة من مكروه أحد. وعده «باللام» نظراً للفظه. والأقرب أن من واللام زائدتان لتوكيد الكلام، أي: فلا تنفع الإشاحة شيئاً من النفع أحدًا من الناس يحاول ويطلب بدائع الأمور وعظائمها، يعني: أن فضالة كان كذلك فمات. =

حكى عن الأصمعي: أنه سئل عن الألمعي فأنشده ولم يزد. أو للذين يعملون جميع ما يحسن من الأعمال، ثم خص منهم القائمين بهذه الثلاث بفضل اعتداد بها.

﴿رَمَنَ النَّاسِ مَنْ يَشْتَرِي لَهُوَ الْحَدِيثَ لِيُضِلَّ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَيَتَّخِذَهَا هُزُوًا أُولَٰئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ﴾ (٦) وَإِذَا نُنَادَىٰ عَلَيْهِ ءَايَتُنَا وَلَّىٰ مُسْتَكْبِرًا كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا كَأَن فِي أُذُنِهِ وَقْرٌ فَبَشَّرَهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ (٧)

اللهو كل باطل ألهى عن الخير وعما يعني ﴿لَهُوَ الْحَدِيثُ﴾ نحو السمر بالأساطير والأحاديث التي لا أصل لها، والتحدث بالخرافات والمضاحيك وفضول الكلام، وما لا ينبغي من كان وكان، ونحو الغناء وتعلم الموسيقى^(١)، وما أشبه ذلك. وقيل: نزلت في النضر بن الحارث، وكان يتجر إلى فارس، فيشتري كتب الأعاجم فيحدث بها قريشاً ويقول: إن كان محمد يحدثكم بحديث عاد وثمود فأنا أحدثكم بأحاديث رستم وبهرام والأكاسرة وملوك الحيرة، فيستمعون حديثه ويتركون استماع القرآن. وقيل: كان يشتري المغنيات. فلا يظفر بأحد يريد الإسلام إلا انطلق به إلى قينته فيقول: أطعميه واسقيه وغنيه، ويقول: هذا خير مما يدعوك إليه محمد من الصلاة والصيام وأن تقاتل بين يديه. وفي حديث النبي ﷺ: «لا يحل بيع المغنيات ولا شراؤهن ولا التجارة فيهن ولا أئمانهن» (١١٤٦). وعنه ﷺ «ما من رجل يرفع صوته بالغناء إلا بعث الله عليه شيطانين: أحدهما

١١٤٦ - ورد هذا الحديث عن جماعة من الصحابة وهم أبو أمامة، وعمر، وعلي، وعائشة.

- حديث أبي أمامة:

أخرجه الترمذي (٥٧٠/٣) كتاب البيوع: باب ما جاء في كراهية بيع المغنيات حديث (١٢٨٢)، وأحمد (٢٥٢/٥)، والطبري في «تفسيره» (٣٩/٢١)، والواحدي في «الوسيط» (٤٤١/٣) - بتحقيقنا)، والطبراني في «المعجم الكبير» (٢٣٣/٨) رقم (٧٨٠٥)، والبيهقي في «السنن الكبرى» (١٤/٦ - ١٥) كتاب البيوع: باب ما جاء في بيع المغنيات كلهم من طريق عبيد الله بن زحر عن علي بن يزيد عن القاسم عن أبي أمامة مرفوعاً.

وقال الترمذي: حديث أبي أمامة إنما نعرفه من هذا الوجه، وقد تكلم بعض أهل العلم في علي بن يزيد وضعفه وهو شامي.

والحديث ذكره عبد الحق في «الأحكام الوسطى» (٢٤٩/٣ - ٢٥٠) من جهة الترمذي، وقال: علي بن يزيد ضعيف وضعفه البخاري وأبو حاتم، وأبو زرعة، وأحمد بن حنبل.

وقال النسائي: علي بن يزيد أبو عبد الله متروك وأحسن ما سمعت فيه قول الجرجاني: علي بن يزيد في نفسه صالح، إلا أن يروى عنه ضعيف، وهذا الحديث رواه عن علي بن يزيد عبيد الله بن =

= وفيه نوع تسل.

قوله «وتعلم الموسيقى» يونانية. ومعناه: علم الغناء، وبغير راء: ذات الغناء، كذا قيل. (ع)

على هذا المنكب والآخر على هذا المنكب، فلا يزالان يضربانه بأرجلهما حتى يكون هو

= زحر صاحب كل معضلة والقاسم ضعفه أحمد بن حنبل ووثقه البخاري وقال أبو أحمد الجرجاني:
وذكر القاسم هذا كان خيراً فاضلاً. اهـ.

والحديث أخرجه ابن أبي شيبة وأبو يعلى وابن أبي حاتم وابن مردويه والثعلبي والبغوي كما في
تخريج الكشاف (٦٧/٣) وللحديث طريق آخر.

أخرجه ابن ماجه (٧٣٣/٢) كتاب التجارات باب ما لا يحل بيعه حديث (٢١٦٨) من طريق أبي
المهلب عن عبيد الله الإفريقي عن أبي أمامة به مرفوعاً.

وله طريق ثالث أخرجه الطبراني في «الكبير» (٢١٢/٨) رقم (٧٧٤٩) من طريق يحيى بن الحارث
عن القاسم عن أبي أمامة مرفوعاً.

- حديث عمر:

أخرجه الطبراني في «الكبير» (٧٣/١) رقم (٨٧) من طريق يزيد بن عبد الملك النوفلي عن يزيد بن
خليفة عن السائب بن يزيد عن عمر بن الخطاب - رضي الله عنه - أن رسول الله - ﷺ - قال:
«ثمن القينة سحت وغناؤها حرام والنظر إليها حرام وثمنها مثل ثمن الكلب وثمن الكلب سحت
ومن نبت لحمه على السحت فالنار أولى به».

وقال الهيثمي في «مجمع الزوائد» (٩٤/٤): وفيه يزيد بن عبد الملك النوفلي وهو متروك ضعفه
جمهور الأئمة ونقل عن ابن معين في رواية لا بأس به وضعفه في أخرى.

- حديث علي:

أخرجه أبو يعلى (٤٠٢/١) رقم (٥٢٧) من طريق الحارث بن نبهان عن أبي إسحاق عن الحارث
عن علي مرفوعاً بلفظ: «نهى رسول الله - ﷺ - عن المغنيات والنواحات وعن شرائهن وعن بيعهن
وتجارة فيهن وقال: كسبهن حرام».

والحديث ذكره الهيثمي في «مجمع الزوائد» (٩٤/٤) وقال: رواه أبو يعلى وفيه ابن نبهان وهو
متروك.

- حديث عائشة:

أخرجه ابن الجوزي في «العلل المتناهية» (٧٨٤/٢ - ٧٨٥) رقم (١٣٠٩) من طريق ليث بن أبي
سليم عن عبد الرحمن بن سابط عن عائشة.

وقال ابن الجوزي: لا يصح، ليث بن أبي سليم متروك قال ابن حبان اختلط في آخر عمره فكان
يقلب الأسانيد ويرفع المراسيل ويأتي عن الثقات ما ليس من حديثهم.

قال الحافظ في تخريج الكشاف: أخرجه الطبري وابن أبي حاتم وغيرهما من رواية عبيد الله بن
زحر عن علي بن يزيد عن القاسم عن أبي أمامة بهذا. وهو عند أحمد وابن أبي شيبة والترمذي
وأبي يعلى من هذا الوجه وهو ضعيف، ورواه الطبراني من طريق يحيى بن الحارث عن القاسم
نحوه. وله طريق آخر عند ابن ماجه من رواية عبيد الله الإفريقي عن أبي أمامة، قال: «نهى
رسول الله - ﷺ - عن بيع المغنيات وعن شرائهن، وعن كسبهن وعن أكل أثمانهن وفي الباب عن
عمر. أخرجه الطبراني وابن عدي من رواية يزيد بن عبد الملك النوفلي عن يزيد بن خفيف عن
السائب بن يزيد عن عمر نحوه. ويزيد بن عبد المطلب ضعيف وعن علي أخرجه أبو يعلى وابن
عدي وفيه الحارث بن نبهان وهو ضعيف، وعن عائشة أخرجه البيهقي وفيه ليث بن سليم وهو
ضعيف. انتهى.

الذي يسكت» (١١٤٧). وقيل: الغناء منفذة للمال، مسخطة للرب، مفسدة للقلب. فإن قلت: ما معنى إضافة اللهو إلى الحديث؟ قلت: معناها التبيين، وهي الإضافة بمعنى من، وأن يضاف الشيء إلى ما هو منه، كقولك: صفة خز، وباب ساج^(١). والمعنى: من يشتري اللهو من الحديث؛ لأن اللهو يكون من الحديث ومن غيره، فبين بالحديث والمراد بالحديث. الحديث المنكر، كما جاء في الحديث: «الحديث في المسجد يأكل الحسنات كما تأكل البهيمة الحشيش» (١١٤٨)، ويجوز أن تكون الإضافة بمعنى «من» التبعية، كأنه قيل: ومن الناس من يشتري بعض الحديث الذي هو اللهو منه. وقوله: ﴿يَشْتَرِي﴾ إما من الشراء، على ما روي عن النضر: من شراء كتب الأعاجم أو من شراء القيان. وإما من قوله: ﴿اشْتَرَوْا الْكُفْرَ بِالْإِيمَانِ﴾ [آل عمران: ١٧٧] أي استبدلوه منه واختاروه عليه. وعن قتادة: اشتراؤه: استحبابه، يختار حديث الباطل على حديث الحق. وقرئ: ﴿لِيُضِلَّ﴾ بضم الياء وفتحها. و﴿سَبِيلَ اللَّهِ﴾ دين الإسلام أو القرآن. فإن قلت: القراءة بالضم بينة، لأن النضر كان غرضه باشتراء اللهو: أن يصد الناس عن الدخول في الإسلام واستماع القرآن ويضلهم عنه، فما معنى القراءة بالفتح؟ قلت: فيه معنيان، أحدهما: ليثبت على ضلاله الذي كان عليه، ولا يصدق عنه، ويزيد فيه ويمدّه، فإن المخذول كان شديد

١١٤٧ - أخرجه الطبراني في معجمة الكبير (٢٤١/٨) رقم (٧٨٢٥)، وذكره الهيثمي في «مجمع الزوائد»: (١٢٢/٨ - ١٢٣)، وقال: رواه الطبراني بأسانيد ورجال أحدهما وثقوا وضعفوا.

وعزه الزيلعي في تخريج الكشاف (٦٩/٢) إلى أبي يعلى في مسنده كلاهما من حديث رشدين بن سعد عن يحيى بن أيوب عن عبيد الله بن زهر عن علي بن يزيد عن القاسم عن أبي أمامة به. وأخرجه الطبراني أيضاً في معجمه: (٢١٢/٨) رقم (٧٧٤٩)، والترمذي (٣٤٥/٥): كتاب تفسير القرآن باب ومن سورة لقمان، حديث (٣١٩٥)، وقال: هذا حديث غريب من طريق القاسم عن أبي أمامة به.

وأخرجه الواحدي في تفسيره: (٤٤١/٣) والشعلبي وابن مردويه في تفسيرهما كما في تخريج الكشاف للزيلعي (٧٠/٣) من طريق مطروح بن يزيد عن عبيد الله بن زحر عن علي بن يزيد الألهاني عن القاسم عن أبي أمامة به.

وبهذا السند والمسند أخرجه إسحاق بن راهويه، والحاثر بن أبي أسامة، والواحدي في أسباب النزول كما في تخريج الكشاف للزيلعي (٧٠/٣).

قال الحافظ في تخريج الكشاف: أخرجه أبو يعلى وإسحاق والحاثر من طريق أبي أمامة وهو عند الطبراني من رواية يحيى بن الحارث عن القاسم في الحديث الذي قبله. انتهى.

١١٤٨ - تقدّم في سورة التوبة.

(١) قوله «كقولك صفة خز وباب ساج» لعله محرف. وأصله جبة خز، ثم رأيت في الصحاح: صفة الدار والسرج: واحدة الصفف اهـ. فلعل صفة السرج تكون من خز. (ع)

الشكيمة في عداوة الدين وصدّ الناس عنه. والثاني: أن يوضع ليضل موضع ليضل، من قبل أن من أضل كان ضالاً لا محالة، فدل بالرديف على المردوف. فإن قلت: ما معنى قوله: ﴿يَغْيِرْ عَلَيَّ؟﴾ قلت: لما جعله مشترياً لهو الحديث بالقرآن قال: يشتري بغير علم بالتجارة وبغير بصيرة بها، حيث يستبدل الضلال بالهدى والباطل بالحق. ونحوه قوله تعالى: ﴿فَمَا رِجَعْتَ بِمُتَرْتُهُمْ وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ﴾ [البقرة: ١٦] أي: وما كانوا مهتدين للتجارة بصراء بها: وقرئ ﴿وَسَخِّدَهَا﴾ بالنصب والرفع عطفاً على يشتري. أو ليضل، والضمير للسبيل؛ لأنها مؤنثة، كقوله تعالى: ﴿وَتَصُدُّونَ / ٢ / ٩٣ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ مَنْ ءَامَنَ تَبِعُونَهَا عِوَجًا﴾. ﴿وَلَىٰ مُسْتَكْبِرًا﴾ زاماً^(١) لا يعبأ بها ولا يرفع بها رأساً: تشبه حاله في ذلك حال من لم يسمعها وهو سامع ﴿كَأَنَّ فِي أُذُنَيْهِ وَقْرًا﴾ أي ثقلاً ولا وفر فيهما، وقرئ: بسكون الذال. فإن قلت: ما محل الجملتين المصدرتين بكأن؟ قلت: الأولى حال من (مستكبراً) والثانية من لم يسمعها: ويجوز أن تكونا استثنافين، والأصل في كأن المخففة: كأنه، والضمير ضمير الشأن.

﴿إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ جَنَّاتُ النَّعِيمِ﴾ (٨) خَلِيدِينَ فِيهَا وَعَدَ اللَّهُ حَقًّا وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿٩﴾ خَلَقَ السَّمَوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا وَالْفِئَ فِي الْأَرْضِ رَوَاسٍ أَنْ تَمِيدَ بِكُمْ وَبَثَّ فِيهَا مِنْ كُلِّ دَابَّةٍ وَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ ﴿١٠﴾ هَذَا خَلْقُ اللَّهِ فَأَرَوُفْ مَاذَا خَلَقَ الَّذِينَ مِنْ دُونِهِ بَلِ الظَّالِمُونَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ ﴿١١﴾

﴿وَعَدَ اللَّهُ حَقًّا﴾ مصدران مؤكدان، الأول: مؤكد لنفسه والثاني مؤكد لغيره؛ لأن قوله: ﴿لَهُمْ جَنَّاتُ النَّعِيمِ﴾ في معنى: وعدهم الله جنات النعيم، فأكد معنى الوعد بالوعد. وأما ﴿حَقًّا﴾ فدل على معنى الثبات: أكد به معنى الوعد، ومؤكدهما جميعاً قوله: ﴿لَهُمْ جَنَّاتُ النَّعِيمِ﴾ ﴿وَهُوَ الْعَزِيزُ﴾ الذي لا يغلبه شيء ولا يعجزه، يقدر على الشيء وضده، فيعطي النعيم من شاء والبؤس من شاء، وهو ﴿الْحَكِيمُ﴾ لا يشاء إلا ما توجه به الحكمة والعدل ﴿تَرَوْنَهَا﴾ الضمير فيه للسماوات، وهو استشهاد برؤيتهم لها، غير معمودة على قوله: ﴿يَغْيِرْ عَمَدٍ﴾ كما تقول لصاحبك: أنا بلا سيف ولا رمح تراني فإن قلت: ما محلها من الإعراب؟ قلت: لا محل لها لأنها مستأنفة. أو هي في محل الجرّ صفة للعمد أي: بغير عمد مرئية، يعني: أنه عمدها بعمد لا ترى، وهي إمساكها بقدرته ﴿هَذَا﴾ إشارة إلى ما ذكر من مخلوقاته. والخلق بمعنى المخلوق. و﴿الَّذِينَ مِنْ دُونِهِ﴾ ألهمهم، بكتهم بأن

(١) قوله «زاما لا يعبأ بها» في الصحاح: زم بأنفه، أي: تكبر، فهو زام. (ع)

هذه الأشياء العظيمة مما خلقه الله وأنشأه. فأروني ماذا خلقته ألهمتكم حتى استوجبوا عندكم العبادة، ثم أضرب عن تبكيتهم إلى التسجيل عليهم بالتورط في ضلال ليس بعده ضلال.

﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا لُقْمَانَ الْحِكْمَةَ أَنِ اشْكُرْ لِلَّهِ وَمَن يَشْكُرْ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ ۖ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَفِيرٌ حَمِيدٌ﴾

هو لقمان بن باعورا: ابن أخت أيوب أو ابن خالته. وقيل: كان من أولاد آزر، وعاش ألف سنة، وأدرك داود عليه السلام وأخذ منه العلم، وكان يفتي قبل مبعث داود عليه السلام، فلما بعث قطع الفتوى، فقيل له؟ فقال: ألا أكتفي إذا كفيت؟ وقيل: كان قاضياً في بني إسرائيل، وأكثر الأقاويل أنه كان حكيماً ولم يكن نبياً، وعن ابن عباس - رضي الله عنهما -: لقمان لم يكن نبياً ولا ملكاً. ولكن كان راعياً أسود، فرزقه الله العتق، ورضي قوله ووصيته، فقص أمره في القرآن لتمسكوا بوصيته. وقال عكرمة والشعبي: كان نبياً. وقيل: خير بين النبوة والحكمة فاختر الحكمة^(١). وعن ابن المسيب: كان أسود من سودان مصر خياطاً، وعن مجاهد: كان عبداً أسود غليظ الشفتين متشفق^(٢). القدمين. وقيل: كان نجاراً. وقيل: كان راعياً وقيل: كان يحتطب لمولاه كل يوم حزمة. وعنه أنه قال لرجل ينظر إليه: إن كنت تراني غليظ الشفتين فإنه يخرج من بينهما كلام رقيق، وإن كنت تراني أسود فقلبي أبيض. وروي أن رجلاً وقف عليه في مجلسه فقال: أأنت الذي ترعى معي في مكان كذا؟ قال: بلى. قال: ما بلغ بك ما أرى؟ قال: صدق الحديث والصمت عما لا يعنيني. وروي أنه دخل على داود عيه السلام وهو يسرد الدرع وقد لين الله له الحديد كالطين، فأراد أن يسأله فأدركته الحكمة فسكت، فلما أتمها لبسها وقال: نعم لبوس الحرب أنت. فقال: الصمت حكمة وقليل فاعله، فقال له داود: بحق ما سميت حكيماً. وروي أن مولاه أمره بذبح شاة وبأن يخرج منها أطيب مضغتين. فأخرج اللسان والقلب، ثم أمره بمثل ذلك بعد أيام وأن يخرج أخبث مضغتين فأخرج اللسان والقلب، فسأله عن ذلك؟ فقال: هما أطيب ما فيها إذا طابا، وأخبث ما فيها إذا خبثا. وعن سعيد بن المسيب أنه قال لأسود: لا تحزن، فإنه كان من خير الناس

(١) ذكر محمود في ذلك اختلاف العلماء في نبوته، وذكر أثناء ذلك أنه خير بين النبوة والحكمة فاختر الحكمة. قال أحمد: وفي هذا بعد بين، وذلك أن الحكمة داخلة في النبوة، وقطرة من بحرهما، وأعلى درجات الحكماء تنحط عن أدنى درجات الأنبياء بما لا يقدر قدره. وليس من الحكمة اختيار الحكمة المجردة من النبوة.

(٢) قوله «متشفق» في الصحاح: «الشفق»: الرديء من الأشياء. يقال: غطاء مشفق، أي: مقلل اهـ. والظاهر أنه متشفق بقافين. (ع)

ثلاثة من السودان: بلال، ومهجع مولى عمر، ولقمان. ﴿أَنْ﴾ هي المفسرة، لأن إتياء الحكمة في معنى القول، وقد نبه الله سبحانه على أن الحكمة الأصلية والعلم الحقيقي: هو العمل بهما وعبادة الله والشكر له، حيث فسر إتياء الحكمة بالبعث على الشكر ﴿عَنْ﴾ غير محتاج إلى الشكر ﴿حَمِيدٌ﴾ حقيق بأن يحمد وإن لم يحمده أحد.

﴿وَإِذْ قَالَ لُقْمَنُ لِابْنِهِ وَهُوَ يَعِظُهُ يَبْنَىٰ لَا تُشْرِكْ بِاللَّهِ إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾ (١٣)

قيل: كان اسم ابنه «أنعم» وقال الكلبي: «أشكم» وقيل: كان ابنه وامرأته كافرين، فما زال بهما حتى أسلما ﴿لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾ لأن التسوية بين من لا نعمة إلا هي منه، ومن لا نعمة منه البتة ولا يتصور أن تكون منه -: ظلم لا يكتنه عظمه.

﴿وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَلَدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُ وَهْنًا عَلَىٰ وَهْنٍ وَفِصْلُ اللَّيْلِ فِي عَمَيْنِ أَنْ أَشْكُرَ لِي وَلِوَلَدَيْكَ إِلَىٰ الْوَصِيرِ﴾ (١٤) ﴿وَإِنْ جَاهِدَاكَ عَلَىٰ أَنْ تُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا وَصَاحِبَهُمَا فِي الدُّنْيَا مَعْرُوفًا وَاتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَيَّ ثُمَّ إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ (١٥)

أي ﴿حَمَلَتْهُ﴾ تهن ﴿وَهْنًا عَلَىٰ وَهْنٍ﴾ كقولك رجع عوداً/٢/٩٣ ب على بدء، بمعنى؛ يعود عوداً على بدء، وهو في موضع الحال. والمعنى: أنها تضعف ضعفاً فوق ضعف، أي: يتزايد ضعفها ويتضاعف؛ لأن الحمل كلما ازداد وعظم، ازدادت ثقلاً وضعفاً. وقرئ: وهنا على وهن، بالتحريك عن أبي عمرو. يقال: وهن يوهن. ووهن يهن. وقرئ: وفصله ﴿أَنْ أَشْكُرَ﴾ تفسير لوصينا ﴿مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ﴾ أراد بنفي العلم به نفيه، أي: لا تشرك بي ما ليس بشيء^(١)، يريد الأصنام، كقوله تعالى: ﴿مَا يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ مِنْ شَيْءٍ﴾ [العنكبوت: ٤٢]. ﴿مَعْرُوفًا﴾ صحاباً. أو مصاحباً معروفاً حسناً بخلق جميل وحلم واحتمال وبر وصلة، وما يقتضيه الكرم والمروءة ﴿وَاتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَيَّ﴾ يريد: واتبع سبيل المؤمنين في دينك ولا تتبع سبيلهما فيه - وإن كنت مأموراً بحسن مصاحبتهم في الدنيا - ثم إلي مرجعك ومرجعهم، فأجازيك على إيمانك وأجازيهما على كفرهما، علم بذلك حكم الدنيا وما يجب على الإنسان في صحبتهم ومعاشرتهم: من مراعاة حق الأبوة وتعظيمه، وما لهما من المواجه التي لا يسوغ الإخلال بها، ثم بين حكمهما وحالهما في

(١) قال محمود: «معناه: ما ليس بشيء، وعبر بنفي العلم عن نفي المعلوم» قال أحمد: هو من باب قوله: «على لاحب لا يهتدي بمناره» أي: ما ليس باله فيكون لك علم بالإلهية. وليس كما ذكره في قول فرعون ﴿مَا عَلِمْتُ لَكُمُ مِنْ إِلَهٍ غَيْرِي﴾ وقد مر معناه فيما تقدم.

الآخرة. وروي: أنها نزلت في سعد بن أبي وقاص وأمه. وفي القصة: أنها مكثت ثلاثاً لا تطعم ولا تشرب حتى شجروا فاهاً^(١) يعود. وروي أنه قال: لو كانت لها سبعون نفساً فخرجت، لما ارتددت إلى الكفر. فإن قلت: هذا الكلام كيف وقع في أثناء وصية لقمان؟ قلت: هو كلام اعترض به على سبيل الاستطراد، تأكيداً لما في وصية لقمان من النهي عن الشرك. فإن قلت: فقلوه: ﴿حَمَلَتْهُ أُمُّهُ وَهِيَ عَلَى وَهْيٍ لِّبَنِيَّ وَفِصْلَهُ فِي عَامَيْنِ﴾ كيف اعترض به بين المفسر والمفسر؟ قلت: لما وصى بالوالدين: ذكر ما تكابده الأم وتعانيه من المشاق والمتاعب في حملة وفصاله هذه المدة المتطاولة، إيجاباً للتوصية بالوالدة خصوصاً^(٢). وتذكيراً بحقها العظيم مفرداً، ومن ثم قال رسول الله - ﷺ - لمن قال له: من أبر؟ «أُمُّكَ ثم أُمُّكَ ثم أُمُّكَ» ثم قال بعد ذلك: «ثم أباك» (١١٤٩). وعن بعض العرب أنه حمل أمه إلى الحج على ظهره وهو يقول في حداثه بنفسه [من الرجز]:
أَحْمِلْ أُمِّي وَهِيَ الْحَمَّالَةَ تُزْضِعُنِي الدَّرَّةَ وَالْعُلَّالَةَ
وَلَا يُجَازِي وَالِدَ قَعَّالَةٍ^(٣)

١١٤٩ - أخرجه أبو داود (٣٣٦/٤): كتاب الأدب: باب في بر الوالدين، حديث (٥١٣٩)، والترمذي (٣٠٩/٤): كتاب البر والصلة عن رسول الله - ﷺ - باب ما جاء في بر الوالدين، حديث (١٨٩٧)، كلاهما من طريق بهز بن حكيم عن أبيه عن جده به. وقال الترمذي: وبهز بن حكيم هو أبو معاوية بن حيو القشيري وهذا حديث حسن. وقد تكلم شعبة في بهز بن حكيم، وهو ثقة عند أهل الحديث، وروى عنه معمر والثوري وحماد بن سلمة وغير واحد من الأئمة. وللحديث شاهد من طريق أبي هريرة. أخرجه البخاري (٤/١٢): كتاب الأدب: باب من أحق الناس بحسن الصحبة؟، حديث (٥٩٧١)، ومسلم (٣٤٣/٨ - النووي): كتاب البر والصلة والآداب، حديث (٢٥٤٨/١)، وابن ماجه (٢/١٢٠٧): كتاب الأدب: باب بر الوالدين، حديث (٣٦٥٨). كلهم من طريق جرير عن عمارة بن القعقاع عن أبي زرعة عن أبي هريرة به. قال الحافظ في تخريج الكشاف: أخرجه أبو داود، والترمذي من حديث بهز بن حكيم عن أبيه عن جده قال: «قلت: يا رسول الله، من أبر؟ الحديث» وله شاهد في الصحيحين من حديث أبي زرعة عن أبي هريرة قال: «جاء رجل إلى رسول الله - ﷺ -، فقال: من أحق بصحابتي؟ - الحديث». انتهى.

(١) قوله «حتى شجروا فاهاً يعود» في الصحاح: شجره بالرمح، أي: طعنه. (ع)

(٢) قال محمود: «فيه تخصيص حق الأم، وهو مطابق لبدايته، فذكرها في وجوب البر في الحديث المأثور» قال أحمد: وهذا من قبيل ما يقوله الفقهاء: إن اللأم من عمل الولد قبل الحلم جلّه، وهو مما يفيد تأكيد حقها، والله أعلم.

(٣) لعربي يحمل أمه إلى الحج، وهي الحماله: جملة حالية، أي: كثيرة الحمل بحسب ما كان. أو من عادتها ذلك، وترضع: حال متداخلة، والدرّة - بالضم: كثرة اللبن وسيلانه، والمراد بها: اللبن =

فإن قلت: ما معنى توقيت الفصال بالعامين؟ قلت: المعنى في توقيته بهذه المدة أنها الغاية التي لا تتجاوز، والأمر فيما دون العامين موكول إلى اجتهد الأم: إن علمت أنه يقوى على الفطام فلها أن تفضمه. ويدل عليه قوله تعالى: ﴿وَالْوَالِدَاتُ يُرْضِعْنَ أَوْلَدَهُنَّ حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ لِمَنْ أَرَادَ أَنْ يُنَمِّ الرِّضَاعَةَ﴾ [البقرة: ٢٣٣] وبه استشهد الشافعي - رضي الله عنه - على أن مدة الرضاع سنتان، لا تثبت حرمة الرضاع بعد انقضائهما، وهو مذهب أبي يوسف ومحمد. وأما عند أبي حنيفة - رضي الله عنه -، فمدة الرضاع ثلاثون شهراً. وعن أبي حنيفة: إن فطمته قبل العامين فاستغنى بالطعام ثم أرضعته، لم يكن رضاعاً. وإن أكل أكلاً ضعيفاً لم يستغن به عن الرضاع ثم أرضعته، فهو رضاع محرم.

﴿بَيِّنَتْ لَهَا أَنَّ تَكُ مَثْقَالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ فَتَكُنْ فِي صَخْرَةٍ أَوْ فِي السَّمَوَاتِ أَوْ فِي الْأَرْضِ يَأْتِيَهَا اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ﴾ (١١)

قرئ ﴿مَثْقَالَ حَبَّةٍ﴾ بالنصب والرفع، فمن نصب كان الضمير للهنة^(١) من الإساءة أو الإحسان، أي: إن كانت مثلاً في الصغر والقماء كحبة الخردل، فكانت مع صغرها في أخفى موضع وأحرزه كجوف الصخرة^(٢) أو حيث كانت في العالم العلوي أو السفلي ﴿يَأْتِيَهَا اللَّهُ﴾ يوم القيامة فيحاسب بها عاملها ﴿لَطِيفٌ﴾ يتوصل علمه إلى كل خفي ﴿خَبِيرٌ﴾ عالم بكنهه. وعن قتادة: لطيف باستخراجها، خبير بمسئقتها. ومن قرأ بالرفع: كان ضمير القصة، وإنما أنث المثنى لإضافته إلى الحبة؛ كما قال [من الطويل]:
كَمَا شَرِقتْ صَدْرُ الْقَنَاءِ مِنَ الدَّمِّ^(٣)

وروي أن ابن لقمان قال له: أرايت الحبة تكون في مقل البحر - أي: في مغاصه - يعلمها الله؟ فقال: إن الله يعلم أصغر الأشياء في أخفى الأمكنة؛ لأن الحبة في الصخرة أخفى منها في الماء. وقيل: الصخرة هي التي تحت الأرض، وهي السجين يكتب فيها أعمال الكفار. وقرئ: فتكن، بكسر الكاف. من وكن الطائر يكن: إذا استقر في وكنته، وهي مقره ليلاً.

= الكثير. والعلالة - بالضم -: بقية اللبن، والحلبة بين الحلبتين، وتطلق على بقية جري الفرس. والعلل: الشرب الثاني، والشرب الأول النهل: وروي ترضعني الدرة. والفعال - بالفتح -: فعل الخير وأراد بالوالد: الأم، أو ما يشمل الأب والأم.

(١) قوله «اللهنة من الإساءة» في الصحاح «هن»: على وزن أخ: كلمة كناية. ومعناه: شيء، ومؤنثه: هنة. والقماء: الصغر والحقارة. كذا في الصحاح. (ع)

(٢) قال محمود: «هذا من البديع الذي يسمى التتميم» قال أحمد: يعني أنه تتم خلفاءها في نفسها بخفاء مكانها من الصخرة، وهو من وادي قولها كأنه علم في رأسه نار.

(٣) تقدم

﴿يَبْقَى أَقْرَبُ الصَّلَاةِ وَأَمْرٌ بِالْمَعْرُوفِ وَأَنَّهُ عَنِ الْمُنْكَرِ وَأَصْبَرَ عَلَى مَا أَصَابَكَ إِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ

الْأُمُورِ ﴿١٧﴾﴾

﴿وَأَصْبَرَ عَلَى مَا أَصَابَكَ﴾ يجوز أن يكون عاماً في كل ما يصيبه من المحن، وأن يكون خاصاً بما يصيبه فيما أمر به من الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر: من أذى من يبعثهم على الخير وينكر عليهم الشر ﴿إِنَّ ذَلِكَ﴾ مما عزمه الله من الأمور، أي: قطعه قطع إيجاب والزام. ومنه الحديث «لا صيام لمن لم يعزم الصيام من الليل» (١١٥٠)، أي: لم يقطعه بالنية: ألا ترى إلى قوله عليه السلام: «لمن لم يبيت الصيام» (١١٥١)، ومنه: «إن الله يحب أن يؤخذ برخصه كما يحب أن يؤخذ بعزائمه» (١١٥٢). وقولهم: عزمة من عزومات

١١٥٠ - تقدّم في سورة البقرة.

١١٥١ - تقدّم أيضاً.

١١٥٢ - قال الزيلعي في تخريج الكشاف (٧١/٣): روي من حديث ابن عمر، ومن حديث ابن عباس، ومن حديث ابن مسعود، ومن حديث أبي هريرة، ومن حديث عائشة . اهـ.
أما حديث ابن عمر:

فأخرجه أحمد ١٠٨/٢، وابن حبان في صحيحه ٤٥١/٦ (٢٧٤٢)، ٣٣٣/٨ (٣٥٦٨) لكن في الموضوع الثاني بلفظ: «كما يجب أن تؤتى عزائمه».

والبزار ٤٦٩/١ (٩٨٨ - ٩٨٩ - كشف الأستار)، والبيهقي ١٤٠/٣ كتاب الصلاة / باب كراهية ترك التقصير والمسح على الخفين وما يكون رخصة رغبة عن السنة. والخطيب في تاريخه ٣٤٧/١٠، والقضاعى في مسند الشهاب (١٠٧٨) كما في فتح الوهاب بتخريج الشهاب للغماري (٢٠٥/٢) رقم (٦٧٧) قال الهيثمي في المجمع ١٦٥/٣: «رواه أحمد ورجاله رجال الصحيح، والبزار، والطبراني في الأوسط، وإسناده حسن» اهـ.

وله شاهد من حديث ابن عباس: رواه الطبراني في الكبير (١١٨٨٠ - ١١٨٨١)، وابن حبان في صحيحه ٦٩/٢ (٣٥٤) والبزار (٩٩٠ - كشف)، وأبو نعيم في الحلية ٢٧٦/٨، قال الهيثمي في المجمع ٣/١٦٥: «رواه الطبراني في الكبير والبزار ورجال البزار ثقات وكذلك رجال الطبراني» . اهـ.

وأما حديث ابن مسعود:

فأخرجه الطبراني في الكبير (١٠٣/١٠) رقم (١٠٠٣٠)، وفي الأوسط (٢٧٦/٣) رقم (٢٦٠٢)، وقال الهيثمي في «مجمع الزوائد»: (١٦٥/٣): رواه الطبراني في الكبير والأوسط، وفيه معمر بن عبد الله الأنصاري؛ قال العيني: لا يتابع على رفع حديثه . اهـ.

كما أخرجه أبو نعيم (١٠١/٢) كلهم مرفوعاً من طريق شعبة عن الحكم بن إبراهيم عن علقمة عن عبد الله بن مسعود قال: قال رسول الله - ﷺ -: «إن الله عز وجل يحب أن تقبل رخصه كما يحب أن تؤتى عزائمه».

وقال أبو نعيم في الحلية (١٠١/٢): لم يروه مرفوعاً عن شعبة إلا معمر ورواه غندر وبكر بن بكار وغيرهما مرفوعاً.

وأما حديث أبي هريرة:

ربنا (١١٥٣)، ومنه: عزمات الملوك. وذلك أن يقول الملك لبعض من تحت يده:

= فأخرجه ابن أبي شيبة وابن عدي في الكامل كما في تخريج الكشاف للزيلعي (ج ٣/٧٣).
وأما حديث عائشة:

فقد قال الزيلعي في تخريج الكشاف (٣/٧٣): رواه ابن عدي في الكامل من طريقين:
أحدهما: عن الحكم بن عبد الله بن سعد الأيلي، أنه سمع القاسم عن عائشة أن رسول الله - ﷺ -
قال: «إن الله يحب أن يعمل برخصه، كما يحب أن يعمل بفرائضه» وضعف الحكم هذا عن جماعة
جداً ووافقهم.

والآخر: عن عمر بن عبيد البصري: ثنا هشام بن عروة، عن أبيه عن عائشة مرفوعاً: «إن الله يحب
أن تؤتى رخصه كما يحب أن تؤتى عزائمه»، قلت: وما عزائمه؟ قال: «فرائضه»، وضعف عمر بن
عبيد هذا، وقال: لم يروه بهذا الإسناد غيره.

وبهذا السند والمتن أخرجه أبو يعلى الموصلي في معجمه، والطبراني في معجمه الأوسط كما في
تخريج الكشاف للزيلعي (٢/٧٤).

حديث آخر: أخرجه الطبراني في معجمه الأوسط (٥/٤٨٨) رقم (٤٩٢٤) من طريق الفضل بن
العباس القرطبي، عن إسماعيل بن عيسى العطار عن عمر بن عبد الجبار عن عبد الله بن يزيد بن
آدم، عن أبي الدرداء وأبي أمامة، ووائللة بن الأسقع وأنس بن مالك أن رسول الله - ﷺ - قال:
«إن الله يحب أن تؤتى رخصه كما يحب مغفرة ربه» اهـ.

وقال الطبراني: لا يروى هذا الحديث عن أبي الدرداء وأبي أمامة ووائللة وأنس إلا بهذا الإسناد،
تفرد به إسماعيل بن عيسى. اهـ.

قال الحافظ في تخريج الكشاف: أخرجه ابن أبي شيبة وابن عدي من طريق أبي سلمة عن أبي
هريرة: «أن رجلاً قال: يا رسول الله، أقصر الصلاة في سفري؟ قال: نعم، إن الله يحب أن يؤخذ
برخصه كما يحب أن يؤخذ بفريضته» وفيه عمر بن عبد الله بن أبي خشم اليمامي وهو منكر
الحديث؛ قاله ابن عدي، وأخرجه أيضاً من طريق سعد بن سعيد بن أبي سعيد، حدثني أخي
عبد الله عن أبيه. عن أبي هريرة مرفوعاً نحوه، ورواه ابن حبان وأحمد والبخاري، وأبو يعلى من
رواية حرب بن قيس عن نافع عن ابن عمر بلفظ: «إن الله يحب أن تؤتى رخصه كما يحب أن تؤتى
عزائمه» وفي الباب عن ابن عباس. أخرجه ابن حبان والطبراني، وأبو نعيم في الحلية من رواية
هشام بن حسان عن عكرمة عنه بلفظ ابن عمر وعن ابن مسعود أخرجه الطبراني، والعقيلي، وأبو
نعيم من رواية معمر بن عبد الله الأنصاري عن شعبة عن الحكم عن إبراهيم عن علقمة عنه تفرد
برفعه معمر، ووقفه غندر وروح بن عباد وغيرهما عن شعبة. أخرجه ابن أبي شيبة وغيره. وعن
عائشة: أخرجه ابن عدي من رواية الحكم بن عبد الله الأيلي عن القاسم عن عائشة ومن رواية
عمر بن عبيد البصري عن هشام عن أبيه عنها والحكم وعمر ضعيفان. وأخرجه الطبراني في
الأوسط من طريق إسماعيل بن عيسى العطار، حدثنا عمر بن عبد الجبار، حدثنا عبد الله بن زيد بن
آدم عن أبي الدرداء وأبي أمامة ووائللة وأنس به وقال: لا يروى إلا بهذا الإسناد تفرد به إسماعيل.
قلت: والإسناد مجهول. قوله: «وقولهم عزمة من عزمات ربنا» هذا طرف من حديث أخرجه أبو
داود، والنسائي، وأحمد، والحاكم والبيهقي من رواية بهز بن حكيم عن أبيه عن جده، في أثناء
حديثه قال فيه: «ومن منعها يعني الزكاة، فإننا أخذوها وشطر ماله عزمة من عزمات ربنا ليس لآل
محمد منها شيء» وإسناده حسن. انتهى.

١١٥٣ - أخرجه أبو داود (٢/١٠١): كتاب الزكاة، باب في زكاة السائمة، حديث (١٥٧٥)، والنسائي =

عزمت عليك إلا فعلت كذا، إذا قال ذلك لم يكن للمعزوم عليه بد من فعله ولا مندوحة في تركه. وحقيقته/٢/٩٤أ: أنه من تسمية المفعول بالمصدر، وأصله من معزومات الأمور، أي: مقطوعاتها ومفروضاتها. ويجوز أن يكون مصدر في معنى الفاعل، أصله: من عازمات الأمور، من قوله تعالى: ﴿فَإِذَا عَزَمَ الْأُمُورُ﴾ [محمد: ٢١] كقولك: جد الأمر، وصدق القتال. وناهيك بهذه الآية مؤذنة يقدم هذه الطاعات، وأنها كانت مأموراً بها في سائر الأمم وأن الصلاة لم تزل عظيمة الشأن، سابقة القدم على ما سواها، موصى بها في الأديان كلها.

﴿وَلَا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحًا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ﴾ (١٨)
 وَأَقْصِدْ فِي مَشْيِكَ وَأَغْضُضْ مِنْ صَوْتِكَ إِنَّ أَنْكَرَ الْأَصْوَاتِ لَصَوْتُ الْحَمِيرِ﴾ (١٩)

تصاعر، وتصعر: بالتشديد والتخفيف. يقال: أصعر خذه. وصعره، وصاعره: كقولك أعلاه وعلاه وعالاه: بمعنى. والصعر والصيد: داء يصيب البعير يلوي منه عنقه. والمعنى: أقبل على الناس بوجهك تواضعاً، ولا تولهم شق وجهك وصفحته، كما يفعل المتكبرون. أراد: ﴿وَلَا تَمْشِ﴾ تمرح ﴿مَرَحًا﴾ أو أوقع المصدر موقع الحال بمعنى مرحاً. ويجوز أن يريد: ولا تمش لأجل المرح والأشر، أي لا يكن غرضك في المشي البطالة والأشر كما يمشي كثير من الناس لذلك، لا لكفاية مهم ديني أو دنيوي. ونحوه قوله تعالى: ﴿وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ خَرَجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ بَطَرًا وَرِشَاءً﴾. والمختال: مقابل للماشي مرحاً، وكذلك الفخور للمصعر خذه كبراً ﴿وَأَقْصِدْ فِي مَشْيِكَ﴾ واعدل فيه حتى يكون مشياً بين مشيين: لا تدب دبیب المتماوتين، ولا تثب وثیب الشطار. قال رسول الله - ﷺ -: «سرعة المشي تذهب بهاء المؤمن» (١١٥٤). وأما قول عائشة في عمر - رضي الله

= (١٥/٥): كتاب الزكاة: باب عقوبة مانع الزكاة، وباب سقوط الزكاة عن الإبل إذا كانت رسلاً لأهلها ولحمولتهم، وأحمد في مسنده (٢/٥ و٤)، والحاكم في مستدرکه (١/٣٩٨) وقال: صحيح الإسناد ولم يخرجاه. اهـ.

وقال ابن حجر: وإسناده حسن.

١١٥٤ - قال الزيلعي في تخريج الكشاف (٢/٧٥): روي من حديث أبي هريرة، ومن حديث ابن عمر، ومن حديث الخدري. اهـ.

أما حديث أبي هريرة:

فأخرجه أبو نعيم في الحلية (١٠/٢٩٠)، والخطيب البغدادي في تاريخ بغداد (١/٤١٧)، وابن الجوزي في العلل المتناهية في الأحاديث الواهية (٢/٧٠٧ - ٧٠٨) رقم (١١٧٨).

كلهم من طريق محمد بن عبد الملك بن قريب الأحمر عن أبي معشر عن سعيد المقبري عن أبي هريرة به. قال الخطيب البغدادي في تاريخ بغداد (١/٤١٧): قال الشيخ أبو بكر: لم أسمع =

عنهما :- «كان إذا مشى أسرع» (١١٥٥)، وإنما أرادت السرعة المرتفعة عن دبيب

= لمحمد بن الأصمعي ذكر إلا في هذا الحديث .اهـ.

وقال ابن الجوزي في «العلل المتناهية» (٧٠٨/٢): وفيه أبو معشر، وقد ضعفه يحيى والنسائي والدارقطني .اهـ. وله طريق آخر:

أخرجه ابن الجوزي في «العلل المتناهية» (٧٠٨/٢)، وابن عدي في الكامل كما في تخريج الكشاف (٧٥/٣) من طريق عمار بن مطر عن ابن أبي ذئب عن المقبري عن أبي هريرة به . وقال ابن الجوزي: فيه عمار بن مطر قال الدارقطني: تفرد به عن ابن أبي ذئب قال أبو حاتم الرازي: كان يكذب. قال ابن عدي: متروك الحديث أحاديثه بواطل .اهـ.

وأما حديث ابن عمر:

فأخرجه ابن الجوزي في «العلل المتناهية» (٧٠٧/٢) رقم (١١٧٧)، والخطيب البغدادي في «الجامع لأخلاق الراوي وآداب السامع» (ج ١/ ٣٩٤ - ٣٩٥) رقم (٩٢٢) وابن حبان في «الضعفاء» (ج ٢/ ٨٢).

كلهم من طريق الوليد بن سلمة القاضي عن عمر بن صهبان عن نافع عن ابن عمر به .

قال ابن الجوزي في العلل المتناهية (٧٠٧/٢): هذا حديث لا يصح عن رسول الله - ﷺ - . فحديث ابن عمر فيه عمر بن صهبان، قال أحمد: لم يكن بشيء وقال يحيى: لا يساوي شيئاً، وقال النسائي والدارقطني: متروك .اهـ.

وقال ابن حبان في الضعفاء (٨١/٢ - ٨٢): عمر بن محمد بن صهبان الأسلمي روى عنه العرقاني وأهل الشام، كان ممن يروي عن الثقات المعضلات التي إذا سمعها من الحديث صناعته لم يشك أنها معمولة .اهـ.

وأما حديث أبي سعيد الخدري:

فقد أخرجه ابن عدي في الكامل؛ كما في تخريج الكشاف للزيلعي (٧٦/٣) من طريق الوليد بن سلمة عن ابن أبي ذئب عن سعيد المقبري عن أبي سعيد الخدري به . وقال ابن حبان في «الضعفاء» (٨٠/٣): الوليد بن سلمة الطبراني أبو العباس من أهل الطبرية، كان على قضاء الأردن، يروي عن عبيد الله بن عمر، روى عنه أهل الشام وابنه إبراهيم بن الوليد بن سلمة . كان ممن يضع الحديث على الثقات، لا يجوز الاحتجاج به بحال وابنه نفسه .اهـ.

وللحديث شاهد أيضاً من حديث أنس: أخرجه الخطيب البغدادي في «الجامع» (١٥٢/١) رقم (١٩٦) من طريق عبد السلام بن سليمان الأزدي عن أبان عن أنس بن مالك به .

قال الحافظ في تخريج الكشاف: جاء من حديث أبي هريرة وأبي سعيد وابن عمر، وأخرجه ابن عدي من رواية عمار بن مطر وهو متروك، وقد تابعه الوليد بن سلمة وهو أوهى منه، لكنه قال: عن ابن أبي ذئب عن المغيرة عن أبي سعيد والوليد بن سلمة . وفيه إسناد آخر أخرجه ابن عدي من روايته عن عمرو بن صهبان عن نافع عن ابن عمر، وأخرجه أبو نعيم في الحلية من طريق أبي معشر عن سعيد عن أبي هريرة وإسناده ضعيف أيضاً . انتهى .

١١٥٥ - قال الزيلعي في تخريج الكشاف (٧٦/٣): غريب، وفي النهاية لابن الأثير عن عائشة قالت: كان عمر إذا مشى أسرع، وإذا قال أسمع، وإذا ضرب أوجع .اهـ.

وأخرجه ابن سعد في الطبقات الكبرى (٢٢٠/٣) من طريق محمد بن عمر الأسلمي عن عمر بن سليمان بن أبي خيثمة عن أبيه قال: قالت الشفاء بنت عبد الله: كان عمر إذا مشى... إلى آخره سواء .

المتماوت. وقرئ: وأقصد، بقطع الهمزة، أي: سدّد في مشيتك من أقصد الرامي إذا سدّد سهمه نحو الرمية ﴿وَأَغْضَضَ مِنْ صَوْتِكَ﴾ وانقص منه واقصر؛ من قولك: فلان يغض من فلان إذا قصر به ووضع منه ﴿أُنْكِرَ الْأَصْوَاتِ﴾ أوحشها، من قولك: شيء نكر، إذا أنكرته النفوس واستوحشت منه ونفرت. والحمار مثل في الذم البليغ والشتيمة، وكذلك نهاقه. ومن استفحاشهم لذكره مجرداً وتفاديهم من اسمه: أنهم يكونون عنه ويرغبون عن التصريح به، فيقولون: الطويل الأذنين، كما يكنى عن الأشياء المستقدرة: وقد عدّ في مساوي الآداب: أن يجري ذكر الحمارة في مجلس قوم من أولي المروءة. ومن العرب من لا يركب الحمارة استنكافاً وإن بلغت منه الرحلة^(١)، فتشبيه الرافعين أصواتهم بالحمير، وتمثيل أصواتهم بالنهاق، ثم إخلاء الكلام من لفظ التشبيه وإخراجه مخرج الاستعارة - وإن جعلوا حميراً وصوتهم نهاقاً - ومبالغة شديدة في الذم والتهجين وإفراط في التشبيط عن رفع الصوت والترغيب عنه. وتنبه على أنه من كراهة الله بمكان. فإن قلت: لم وحد صوت الحمير ولم يجمع؟ قلت: ليس المراد أن يذكر صوت كل واحد من آحاد هذا الجنس حتى يجمع، وإنما المراد أن كل جنس من الحيوان الناطق له صوت، وأنكر أصوات هذه الأجناس صوت هذا الجنس، فوجب توحيده.

﴿الَّذِينَ تَرَوْنَ أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُمْ مَّا فِي السَّمٰوٰتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُ ظَهِرَةً وَبَاطِنَةً وَمِنَ النَّاسِ مَن يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَابٍ مُّبِينٍ ﴿٢٠﴾﴾

﴿مَّا فِي السَّمٰوٰتِ﴾ الشمس والقمر والنجوم والسحاب وغير ذلك ﴿وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾ البحار والأنهار والمعادن والدواب وما لا يحصى ﴿وَأَسْبَغَ﴾ وقرئ بالسبين والصاد، وهكذا كل سين اجتمع معه الغين والخاء والقاف، تقول في سلخ، صلخ، وفي سقر: صقر، وفي صالح: صالح^(٢) وقرئ: نعمه، ونعمة، ونعمته. فإن قلت: ما النعمة؟ قلت: كل نفع قصد به الإحسان، والله تعالى خلق العالم كله نعمة؛ لأنه إما حيوان، وإما غير حيوان. فما ليس

 = قال الحافظ في تخريج الكشف: ذكره ابن الأثير في النهاية، قلت: لعله أخذه عن الفائق، وفي الطبقات لابن سعد من رواية سليمان بن أبي حثمة. قال: قالت الشفاء بنت عبد الله، وهي أم سليمان: كان عمر إذا مشى... فذكره. انتهى.

- (١) قوله «منه الرحلة» أي: المشي برجله، يعني: وإن أتعبه المشي وعدم الركوب. وفي الصحاح «الرجل» بالتحريك: مصدر قولك: رجل - بالكسر - أي: بقي راجلاً. (ع)
 (٢) قوله «وفي صالح صالح» في الصحاح: سلغت البقرة والشاة، إذا أسقطت السن التي خلفت السديس والسلوغ في ذوات الأظلاف: بمنزلة البزول في ذوات الأخفاف. (ع)

بحيوان نعمة على الحيوان، والحيوان نعمة من حيث أن إيجاده حياً نعمة عليه. لأنه لولا إيجاده حياً لما صح منه الانتفاع، وكل ما أدى إلى الانتفاع وصححه فهو نعمة. فإن قلت: لم كان خلق العالم مقصوداً به الإحسان؟ قلت: لأنه لا يخلقه إلا لغرض، وإلا كان عبثاً، والعبث لا يجوز عليه ولا يجوز أن يكون لغرض راجع إليه من نفع؛ لأنه غني غير محتاج إلى المنافع، فلم يبق إلا أن يكون لغرض يرجع إلى الحيوان وهو نفعه. فإن قلت: فما معنى الظاهرة والباطنة؟ قلت: الظاهرة كل ما يعلم بالمشاهدة، والباطنة ما لا يعلم إلا بدليل، أو لا يعلم أصلاً، فكم في بدن الإنسان من نعمة لا يعلمها ولا يهتدى إلى العلم بها، وقد أكثروا في ذلك: فعن مجاهد: الظاهرة ظهور الإسلام والنصرة على الأعداء، والباطنة: الأمداد من الملائكة. وعن الحسن - رضي الله عنه -: الظاهرة: الإسلام. والباطنة الستر. وعن الضحاك: الظاهرة: حسن الصورة، وامتداد القامة. وتسوية الأعضاء. والباطنة: المعرفة. وقيل: الظاهرة البصر، والسمع، واللسان، وسائر الجوارح الظاهرة. والباطنة: القلب، والعقل، والفهم، وما أشبه ذلك. ويروى في دعاء موسى عليه السلام: إلهي، دلني على أخفى نعمتك على عبادك؛ فقال: أخفى/ ٢/ ٩٤ ب نعمتي عليهم النفس. ويروى: أن أيسر ما يعذب به أهل النار: الأخذ بالأنفاس (١١٥٦).

﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَشْعُ مَا وَصَّاهُ عَلَيْهِ آبَاءُنَا أَوَّلُوا كَانَ الشَّيْطَانُ

يَدْعُوهُمْ إِلَى عَذَابِ الشَّعِيرِ ﴿١١﴾

معناه: يتبعونهم ﴿أَوَّلُوا كَانَ الشَّيْطَانُ يَدْعُوهُمْ﴾ أي في حال دعاء الشيطان إياهم إلى العذاب.

﴿وَمَنْ يُسَلِّمْ وَجْهَهُ إِلَى اللَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَىٰ وَإِلَى اللَّهِ عَاقِبَةُ

الْأُمُورِ ﴿٢٢﴾

قرأ علي بن أبي طالب - رضي الله عنه -: ومن يسلم بالتشديد، يقال: أسلم أمرك وسلم أمرك إلى الله. فإن قلت: ماله عدى بإلى، وقد عدى باللام في قوله: ﴿بَلْ مَنْ أَرْسَلَهُ وَجْهَهُ لِلَّهِ؟﴾ قلت: معناه مع اللام: أنه جعل وجهه وهو ذاته ونفسه سالماً لله، أي خالصاً له. ومعناه - مع إلى -: أنه سلم إليه نفسه كما يسلم المتاع إلى الرجل إذا دفع إليه. والمراد: التوكل عليه والتفويض إليه ﴿فَقَدْ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَىٰ﴾ من باب التمثيل: مثلت

١١٥٦ - قال الزيلعي في تخريج أحاديث الكشاف (٧٧/٣): غريب جدا. اهـ.
وقال ابن حجر: لم أجده.

حال المتوكل بحال من أراد أن يتدلى من شاقق، فاحتاط لنفسه بأن استمسك بأوثق عروة من حبل متين مأمون انقطاعه ﴿وَإِلَى اللَّهِ عَاقِبَةُ الْأُمُورِ﴾ أي هي صائرة إليه.

﴿وَمَنْ كَفَرَ فَلَا يَحْزَنكَ كُفْرُهَا إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ فَنُنَبِّئُهُمْ بِمَا عَمِلُوا إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾ (٢٣) لَنُعَذِّبَهُمْ قَلِيلًا ثُمَّ نَضْضِرُّهُمْ فِي عَذَابٍ غَلِيظٍ (٢٤)

قرئ: يحزنك، ويحزنك: من حزن، وأحزن. والذي عليه الاستعمال المستفيض: أحزنه ويحزنه. والمعنى: لا يهمنك كفر من كفر وكيده للإسلام، فإن الله عز وجل دافع كيده في نحره، ومنتقم منه، ومعاقبه على عمله ﴿يُنَبِّئُهُمْ﴾ يعلم ما في صدور عباده، فيفعل بهم على حسبه ﴿نُعَذِّبُهُمْ﴾ زماناً ﴿فَنُضْضِرُّهُمْ﴾ بدنيهم ﴿فَنُنَبِّئُهُمْ﴾ في عذابهم ﴿يُنَبِّئُهُمْ﴾ شبه إلزامهم التعذيب وإرهاقهم إياه باضطراب المضطر إلى الشيء الذي لا يقدر على الانفكاك منه. والغلظ: مستعار من الأجرام الغليظة. والمراد: الشدة والثقل على المعذب.

﴿وَلَيْنَ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ لَنَعْلَمَنَّ اللَّهُ فَإِنَّ أَعْيُنَهُمْ لَا تَعْمُونَ﴾ (٢٥) اللَّهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ (٢٦) ﴿وَلَيْنَ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ الْبَحْرَ لَنَعْلَمَنَّ اللَّهُ فَإِنَّ أَعْيُنَهُمْ لَا تَعْمُونَ﴾ (٢٧) حِكْمَةُ

﴿فَلِإِلَهِ الْحَمْدُ﴾ إلزام لهم على إقرارهم بأن الذي خلق السموات والأرض هو الله وحده، وأنه يجب أن يكون له الحمد والشكر. وأن لا يعبد معه غيره، ثم قال: ﴿لَنَعْلَمَنَّ اللَّهُ﴾ أن ذلك يلزمهم، وإذا نبهوا عليه لم ينتبهوا ﴿إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ﴾ عن حمد الحامدين المستحق للحمد، وإن لم يحمده.

قرئ: والبحر، بالنصب عطفًا على اسم إن، وبالرفع عطفًا على محل إن، ومعمولها على ولو ثبت (٢٦) كون الأشجار أقلاما، وثبت البحر ممدوداً بسبعة أبحر. أو على الابتداء

(١) قال محمود: «شبه إلزامهم التعذيب باضطراب المضطر إلى الشيء الذي لا يقدر على الانفكاك منه» قال أحمد: وتفسير هذا الاضطراب في الحديث في أنهم لشدة ما يكابدون من النار يطلبون البرد، فيرسل الله عليهم الزمهرير. فيكون عليهم كشدة اللهب. فيتمنون عود اللهب اضطراباً. فهو إخبار عن اضطراب.

وبأذيال هذه البلاغة تعلق الكندي حيث يقول:

يرون الموت قداما وخلفا فيختارون والموت اضطرابا

(٢) قوله «ومعمولها على: ولو ثبت» لعله: على معنى ولو... إلخ. (ع)

والواو للحال، على معنى، ولو أنَّ الأشجار أقلام في حال كون البحر ممدوداً، وفي قراءة ابن مسعود: وبحر يمدّه على التنكير، ويجب أن يحمل هذا على الوجه الأول. وقرئ: يمدّه، ويمدّه. وبالتالي والياء. فإن قلت: كان مقتضى الكلام أن يقال: ولو أنَّ الشجر أقلام، والبحر مداد. قلت: أغنى عن ذكر المداد قوله: يمدّه، لأنه من قولك: مدّ الدواء وأمدّها، جعل البحر الأعظم بمنزلة الدواء، وجعل الأبحر السبعة مملوءة مداداً، فهي تصب فيه مدادها أبداً صباً لا ينقطع. والمعنى: ولو أنَّ أشجار الأرض أقلام، والبحر ممدود بسبعة أبحر. وكتبت بتلك الأقلام وبذلك المداد كلمات لله، لما نفذت كلماته ونفذت الأقلام والمداد، كقوله تعالى: ﴿قُلْ نَزَّلْنَا مَدَادًا لَكُمْ رَبِّي لَعَلَّ الْبَحْرَ قُلْ أَنْ تَنْفَذَ كَلِمَتِي رَبِّي﴾ [الكهف: ١٠٩]. فإن قلت: زعمت أنَّ قوله: ﴿وَالْبَحْرُ يَمُدُّهُ﴾ حال في أحد وجهي الرفع، وليس فيه ضمير راجع إلى ذي الحال. قلت: هو كقوله [من الطويل]:

وَقَدْ أَغْتَدِي وَالطَّيْرُ فِي وَكُنَاتِهَا
.....

و: جئت والجيش مصطف، وما أشبه ذلك من الأحوال التي حكمها حكم الظروف، ويجوز أن يكون المعنى: وبحرها، والضمير للأرض. فإن قلت: لم قيل ﴿مِنْ شَجَرَةٍ﴾ على التوحيد دون اسم الجنس الذي هو شجر؟ قلت: أريد تفصيل الشجر وتقصيصها شجرة شجرة، حتى لا يبقى من جنس الشجر ولا واحدة إلا قد برئت أقلاماً^(١). فإن قلت:

(١) وقد أغتدي والطير في وكُنَاتِهَا بمنجرد قيد الأوابد هيكلاً

لامرء القيس من معلقته، وقد: للتكثير. والوكُنَات: جمع وكنة بضمين. وبثلاث أوله وسكون ثانيه: موضع الطير الذي يبيت فيه، والباء للملازمة، والمنجرد: دقيق الشعر قصيره، أو سريع الجري. وشبه الفرس بالقيد تشبيهاً بليغاً: أي: لا تنفك منه الأوابد: وهي الوحوش، ولا تفوته هيكلاً: عظيم الجسم.

ينظر: ديوانه ص ١٩، وإصلاح المنطق ص ٣٧٧، وخزانة الأدب ٣/١٥٦، ٢٤٣، وشرح المفصل ٢/٦٦، ٦٨، ٥١/٣، ولسان العرب (قيد)، ١١/٧٠٠ (هكل)، وبلا نسبة في الأشباه والنظائر ٢/٤١٠، ٤١/٣، وخزانة الأدب ٤/٢٥٠، والخصائص ٢/٢٢٠، ورصف المباني ص ٣٩٢، وشرح شواهد المغني ٢/٨٦٢، وشرح عمدة الحافظ ص ٤٨٧، والمحتسب ١/١٦٨، ٢/٢٤٣، ومغني البيه ٢/٤٦٦.

(٢) قال السمين الحلبي: قال الشيخ: وهو من وقوع المفرد موقع الجمع والنكرة موقع المعرفة كقوله «مَا نُنَسِّخُ مِنْ آيَةٍ» قُلْتُ: وهذا يذهب بالمعنى الذي أبداه الزمخشري. ورده الشيخ: بأن جمع السلامة متى عُرِفَ بِالْغَيْرِ الْعَهْدِيَةِ أَوْ أُضِيفَ عَمَّ قُلْتُ: للناس خلاف في أن هل تَعْمُ أَوْ لَا؟ وقد يكون الزمخشري مِمَّنْ لَا يَرَى الْعُمُومَ وَلَمْ يَزَلِ النَّاسُ يَسْأَلُونَ فِي بَيْتِ حَسَّانَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: لَنَا الْجَفَنَاتُ الْغُرُّ يَلْمَعْنَ بِالضُّحَى...

ويقولون كيف أتى بجمع القلة في مقام المدح ولمْ لَمْ يَقُلْ الْجَفَنَاتُ وهو تقرير لما قاله الزمخشري واعترافاً بأنَّ أَلْ لَا تَوَثِّرُ فِي جَمْعِ الْقَلَّةِ تَكْثِيرًا. انتهى الدر المصون.

الكلمات جمع قلة، والموضع موضع الكثير لا التقليل. فهلا قيل: كلم الله؟ قلت: معناه أن كلماته لا تفي بكتبها البحار، فكيف بكلمة؟ وعن ابن عباس - رضي الله عنهما -: أنها نزلت جواباً لليهود لما قالوا: «قد أوتينا التوراة وفيها كل الحكمة» وقيل: إن المشركين قالوا: إن هذا يعنون الوحي - كلام سينفذ، فأعلم الله أن كلامه لا ينفذ. وهذه الآية عند بعضهم مدنية، وأنها نزلت بعد الهجرة، وقيل هي مكية، وإنما أمر اليهود وفد قريش أن يقولوا لرسول الله - ﷺ -: ألسنت تلتو فيما أنزل عليك: أنا قد أوتينا التوراة وفيها علم كل شيء ﴿إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ﴾ لا يعجزه شيء ﴿حَكِيمٌ﴾ لا يخرج من علمه وحكمته شيء، ومثله لا تنفذ كلماته وحكمه.

﴿مَا خَلَقَكُمْ وَلَا يَعْثُبُكُمْ إِلَّا كَنَفْسٍ وَاحِدَةٍ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ﴾ (٢٨)

﴿إِلَّا كَنَفْسٍ وَاحِدَةٍ﴾ إلا كخلقها وبعثها، أي: سواء في قدرته القليل والكثير، والواحد والجمع، لا يتفاوت، وذلك أنه إنما كانت تتفاوت النفس الواحدة والنفوس الكثيرة العدد: أن لو شغله شأن عن شأن وفعل عن فعل. وقد تعالى عن ذلك. ﴿إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ﴾ يسمع كل صوت ويبصر كل مبصر في حالة واحدة، لا يشغله إدراك بعضها عن إدراك بعض، فكذاك ٢/٩٥ الخلق والبعث.

﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُؤَلِّجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُؤَلِّجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى وَأَنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾ (٢٩) ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِ الْبَاطِلُ وَأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ﴾ (٣٠)

كل واحد من الشمس والقمر يجري في فلكه، ويقطعه إلى وقت معلوم: الشمس إلى آخر السنة، والقمر إلى آخر الشهر. وعن الحسن: الأجل المسمى: يوم القيامة؛ لأنه لا ينقطع جريهما إلا حينئذ. دل أيضاً بالليل والنهار وتعاقبهما وزيادتهما ونقصانهما وجرى النيرين في فلكيهما كل ذلك على تقدير وحساب، وبإحاطته بجميع أعمال الخلق: على عظم قدرته وحكمته. فإن قلت: يجري لأجل مسمى، ويجري إلى أجل مسمى: أهو من تعاقب الحرفين؟ قلت: كلا، ولا يسلك هذه الطريقة إلا بليد الطبع ضيق العطن^(١). ولكن المعنيين. أعني الانتهاء والاختصاص كل واحد منهما ملائم لصحة الغرض: لأن قولك يجري إلى أجل مسمى: معناه يبلغه وينتهي إليه. وقولك: يجري لأجل مسمى: تريد

(١) قوله «إلا بليد الطبع ضيق العطن» في الصحاح: «أنه مبرك الإبل عند الماء، لتشرب عللا بعد نهل. (ع)

يجري لإدراك أجل مسمى، تجعل الجري مختصاً بإدراك أجل مسمى. ألا ترى أن جري الشمس مختص بآخر السنة، وجري القمر مختص بآخر الشهر، فكلا المعنيين غير ناب به موضعه ﴿ذَلِكَ﴾ الذي وصف من عجائب قدرته وحكمته التي يعجز عنها الأحياء القادرون العالمون. فكيف بالجماد الذي تدعونه من دون الله، إنما هو بسبب أنه هو الحق الثابت إلهيته. وأن من دونه باطل الإلهية ﴿وَأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْعَلِيُّ﴾ الشَّانُ ﴿الْكَبِيرُ﴾ السلطان. أو ذلك الذي أوحى إليك من هذه الآيات بسبب بيان أن الله هو الحق، وأن إلهاً غيره باطل، وأن الله هو العلي الكبير عن أن يشرك به.

﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ الْفُلْكَ تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِنِعْمَتِ اللَّهِ لِيُرِيَكُمْ مِنْ آيَاتِهِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ﴾ (٣١)

قرئ: الفلك، بضم اللام. وكل فعل: يجوز فيه فعل، كما يجوز في كل فعل فعل، على مذهب التعويض. وبنعمات الله: بسكون العين. وعين فعلات يجوز فيها الفتح والكسر والسكون ﴿بِنِعْمَتِ اللَّهِ﴾ بإحسانه ورحمته ﴿صَبَّارٍ﴾ على بلائه ﴿شَكُورٍ﴾ لنعمائه، وهما صفتا المؤمن، فكانه قال: إن في ذلك لآيات لكل مؤمن.

﴿وَإِذَا غَشِيَهُمْ مَوْجٌ كَالظُّلَلِ دَعَوْا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الَّذِينَ فَلَمَّا بَجَحَتْهُمْ إِلَى الْبَرِّ فَنِصَّدْهُمْ مَقْنَصِدًّ وَمَا يَجْحَدُ بِآيَاتِنَا إِلَّا كُلُّ خَتَّارٍ كَفُورٍ﴾ (٣٢)

يرتفع الموج ويتراكب، فيعود مثل الظلل، والظلمة: كل ما أظلك من جبل أو سحاب أو غيرهما وقرئ: كالظلال. جمع ظلة. كقلة وقلال ﴿فَنِصَّدْهُمْ مَقْنَصِدًّ﴾ متوسط في الكفر والظلم، خفض من غلوائه، وانزجر بعض الانزجار. أو مقتصد في الإخلاص الذي كان عليه في البحر، يعني أن ذلك الإخلاص الحادث عند الخوف، لا يبقى لأحد قط، والمقتصد قليل نادر. وقيل: مؤمن قد ثبت على ما عاهد عليه الله في البحر. والختر: أشد الغدر. ومنه قولهم: إنك لا تمدّ لنا شبراً من غدر إلا مددنا لك باعاً من ختر؛ قال [من الوافر]:

وَإِنَّكَ لَوْ رَأَيْتَ أَبَا عَمِيرٍ مَلَأَتْ يَدَيْكَ مِنْ غَدْرِ وَخْثِرٍ^(١)

(١) الغدر: أشد الختر. وروي: أن رسول الله ﷺ رأى رجلاً عد بأصابع يده اليمنى: سبحان الله والحمد لله ولا إله إلا الله والله أكبر ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم، وبأصابع اليسرى: اللهم اغفر لي وارحمني واهدني وارزقني واجبرني، فقال رسول الله ﷺ: «ملأت يدك خيراً». شبه المعقول بالمحسوس على سبيل المكنية. وملء اليدين: تخييل، وذكرهما لأن الرجل عد بهما، فضر به الشاعر مثلاً لحال أبي عمير ومن يراه على سبيل الاستعارة التمثيلية التهكمية، فإن من رآه =

﴿يَأْتِيهَا النَّاسُ آتِفًا رَبِّكُمْ وَأَخْشَوْا يَوْمًا لَا يَجْزِي وَالِدٌ عَنْ وَلَدِهِ وَلَا مَوْلُودٌ هُوَ جَارٍ عَنْ وَالِدِهِ شَيْئًا إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِاللَّهِ الْغُرُورُ ﴿٣٣﴾﴾

﴿لَا يَجْزِي﴾ لا يقضي عنه شيئاً. ومنه قيل للمتقاضي: المتجازي. وفي الحديث في جذعة بن نيار: تجزي عنك ولا تجزي عن أحد بعدك (١١٥٧). وقرئ: لا يجزيء: لا يغني^(١). يقال: أجزأت عنك مجزاً فلان. والمعنى: لا يجزي فيه، فحذف ﴿الْغُرُورُ﴾ الشيطان. وقيل: الدنيا وقيل: تمنىكم في المعصية المغفرة. وعن سعيد بن جبير - رضي الله عنه -: الغرة بالله: أن يتمادى الرجل في المعصية ويتمنى على الله المغفرة. وقيل: ذكرك لحسناتك ونسيانك لسيناتك غرة. وقرئ بضم الغين وهو مصدر غرة غروراً. وجعل الغرور غاراً، كما قيل: جدّ جدّه. أو أريد زينة الدنيا لأنها غرور. فإن قلت: قوله: ﴿وَلَا مَوْلُودٌ هُوَ جَارٍ عَنْ وَالِدِهِ شَيْئًا﴾ وارد على طريق من التوكيد لم يرد عليه ما هو معطوف^(٢) عليه. قلت: الأمر كذلك؛ لأنّ الجملة الإسمية أكد من الفعلية، وقد انضم إلى ذلك قوله: ﴿هُوَ﴾ وقوله: ﴿مَوْلُودٌ﴾ والسبب في مجيئه على هذا السنن: أنّ الخطاب للمؤمنين وعليتهم^(٣): قبض آبائهم على الكفر وعلى الدين الجاهلي، فأريد حسم أطماعهم وأطماع الناس فيهم: أن ينفعوا آبائهم في الآخرة، وأن يشفعوا لهم، وأن يغنوا عنهم من الله شيئاً؛ فلذلك جيء به على الطريق الآكد. ومعنى التوكيد في لفظ المولود: أن الواحد منهم لو شفع للأب الأدنى الذي ولد منه، لم تقبل شفاعته، فضلاً أن يشفع لمن

١١٥٧ - تقدم في أوائل البقرة.

= وعد معاييه، كأنه ملأ يديه شراً لا خيراً وحذف العد إشارة إلى أنه بمجرد الرؤية يحصل ذلك.

ينظر: ديوانه (١٠٩)، البحر المحيط (١٨٢/٧)، الدر المصون (٣٩٢/٥).

(١) قوله «وقرئ لا يجزيء لا يغني» لعله: أي لا يغني. (ع)

(٢) قال محمود: «إن قلت: لم أكد الجملة الثانية دون الأولى؟ قلت: لأن أكثر المسلمين كان آبائهم قد ماتوا على الكفر، فلما كان إغناء الكافر عن المسلم بعيداً لم يحتج تأكيداً. ولما كان إغناء المسلم عن الكافر قد يقع في الأوهام أكد نفيه» قال أحمد: وهذا الجواب تتوقف صحته على أن هذا الخطاب كان خاصاً بالموجودين حينئذٍ، والصحيح أنه عام لهم ولكل من ينطلق عليه اسم الناس، فالجواب المعتبر - والله أعلم - أن الله تعالى لما أكد الوصية على الآباء، وقرن شكرهم بوجوب شكره عز وجل، وأوجب على الولد أن يكفي والده ما يسوءه بحسب نهاية إمكانه قطع ههنا وهم الوالد في أن يكون الولد في القيامة مجزيه بحقه عليه، ويكفيه ما يلقيه من أهوال القيامة كما أوجب الله عليه في الدنيا ذلك في حقه، فلما كان إجزاء الولد عن الوالد مظنون الوقوع - لأن الله حضه عليه في الدنيا - كان جديراً بتأكيد النفي لإزالة هذا الوهم، ولا كذلك العكس، فهذا جواب كاف شاف للعليل، إن شاء الله تعالى. (ع)

(٣) قوله «وعليتهم» أي أشرفهم وعظماؤهم. (ع)

فوقه من أجداده؛ لأنّ الولد يقع على الولد وولد الولد؛ بخلاف المولود فإنه من ولد منك.

﴿إِنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ الْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْأَرْحَامِ وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾ (٢٤)

روي أنّ رجلاً من محارب وهو الوارث بن عمرو بن حارثة أتى النبي ﷺ ٩٥/٢ فقال: يا رسول الله، أخبرني عن الساعة متى قيامها، وإني قد ألقيت حباتي في الأرض وقد أبطأت عنا السماء، فمتى تمطر؟ وأخبرني عن امرأتي فقد اشتملت ما في بطنها، أذكر أم أنثى؟ وإني عملت ما عملت أمس، فما أعمل غداً؟ وهذا مولدي قد عرفته، فأين أموت (١١٥٨). فنزلت وعن النبي ﷺ: «مفاتيح الغيب خمس» (١١٥٩). وتلا هذه الآية. وعن ابن عباس - رضي الله عنهما -: من ادعى علم هذه الخمسة فقد كذب، إياكم والكهانة فإن الكهانة تدعو إلى الشرك والشرك وأهله في النار. وعن المنصور أنه أهمه معرفة مدة عمره، فرأى في منامه كأن خيلاً أخرج يده من البحر وأشار إليه بالأصابع الخمس، فاستفتى

١١٥٨ - أخرجه الطبري في تفسيره (٢٢٦/١٠) رقم (٢٨١٧٣)، وابن أبي حاتم في تفسيره كما في تخريج الكشاف للزيلعي (ج ٣/٧٧) من حديث ابن أبي نجيح عن مجاهد قال: جاء رجل من أهل البادية فقال: يا محمد، إن امرأتي حبلى فأخبرني متى تلد؟ فذكره. وذكره الواحدي في تفسيره: (٤٤٧/٣) وفي كتابه «أسباب النزول» ص (٣٥٩)، والشعلبي في تفسيره كما في تخريج الكشاف (٧٧/٣) من غير سند ولا راو. وذكره السيوطي في «الدر المنثور»: (٣٢٥/٥) وزاد نسبه إلى الفريابي. قال الحافظ في تخريج الكشاف: هكذا ذكره الواحدي والشعلبي بغير سند، وأخرجه الطبري وابن أبي حاتم من طريق ابن أبي نجيح عن مجاهد. قال: «جاء رجل من أهل البادية فقال: يا محمد، إن امرأتي حبلى فأخبرني متى تلد؟ فذكره». انتهى.

١١٥٩ - أخرجه البخاري (٢٢٠/٣ - ٢٢١) كتاب الاستسقاء: باب لا يدري متى يجيء المطر إلا الله، حديث (١٠٣٩)، و(١٧٧/٩): كتاب التفسير: باب (وعنده مفاتيح الغيب لا يعلمها إلا الله)، حديث (٤٦٢٧)، و(٢٨٤/٩): باب سورة الرعد، و(٤٦٦/٩): باب قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ﴾ و(٣١١/١٥): كتاب التوحيد: باب قول الله تعالى: ﴿عَلِمَ الْغَيْبُ فَلَا يَظْهَرُ عَلَى غَيْبِهِ أَمَدًا﴾ (٦٦) حديث (٧٣٧٩).

والطبري في تفسيره (٢٢٧/١٠) رقم (٢٨١٧٨ - ٢٨١٧٩)، والواحدي في «تفسيره» (٤٤٨/٣) وفي «أسباب النزول» ص (٣٥٩ - ٣٦٠) رقم (٦٨٣) كلهم من طريق عبد الله بن دينار عن ابن عمر به. وذكره السيوطي في الدر المنثور (٣٢٥/٥) وزاد نسبه إلى الفريابي ومسلم، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عن ابن عمر به.

قال الحافظ في تخريج أحاديث الكشاف: أخرجه البخاري من حديث ابن عمر. انتهى.

العلماء في ذلك، فتأولوها بخمس سنين، وبخمس أشهر، وبغير ذلك، حتى قال أبو حنيفة رحمه الله: تأويلها أن مفاتيح الغيب خمس لا يعلمها إلا الله، وأن ما طلبت معرفته لا سبيل لك إليه ﴿عِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ﴾ أيان مرساها ﴿وَيُنَزِّلُ الْغَيْثَ﴾ في إبانها من غير تقديم ولا تأخير، وفي بلد لا يتجاوز به ﴿وَيَعْلَمُ مَا فِي الْأَرْحَامِ﴾ أذكر أم أنثى، أتام أم ناقص، وكذلك ما سوى ذلك من الأحوال ﴿وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِرَءٍ أَوْ فَاجِرَةٍ﴾ ﴿مَاذَا تَكْسِبُ غَدًا﴾ من خير أو شر، وربما كانت عازمة على خير فعملت شراً، وعازمة على شر فعملت خيراً ﴿وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ﴾ أين تموت، وربما أقامت بأرض وضربت أوتادها وقالت: لا أبرحها وأقبر فيها. فترمى بها مرامى القدر حتى تموت في مكان لم يخطر ببالها، ولا حدثتها به ظنونها. وروي أن ملك الموت مرّ على سليمان فجعل ينظر إلى رجل من جلسائه يديم النظر إليه، فقال الرجل من هذا؟ قال: ملك الموت، فقال: كأنه يريدني. وسأل سليمان أن يحمله على الريح ويلقيه ببلاد الهند، ففعل، ثم قال ملك الموت لسليمان كان دوام نظري إليه تعجباً منه، لأنني أمرت أن أقبض روحه بالهند وهو عندك (١١٦٠). وجعل العلم لله والدراية للعبد. لما في الدراية من معنى الختل والحيلة. والمعنى: أنها لا تعرف - وإن أعملت حيلها - ما يلصق بها ويختص ولا يتخطاها، ولا شيء أخص بالإنسان من كسبه وعاقبته، فإذا لم يكن له طريق إلى معرفتهما، كان من معرفة ما عداهما أبعد. وقرئ: بأية أرض. وشبه سيبويه تأنيث «أي» بتأنيث، كل في قولهم: كلتهن.

عن رسول الله - ﷺ -: «من قرأ سورة لقمان كان له لقمان رفيقاً يوم القيامة وأعطى من الحسنات عشراً عشراً بعدد من عمل بالمعروف ونهى عن المنكر (١١٦١)».

١١٦٠ - أخرجه ابن أبي شيبة في مصنفه (٧٠/٧) رقم (٣٤٢٦٨) من طريق عبد الله بن نمير عن الأعمش عن خيثمة قال: دخل ملك الموت على سليمان فجعل ينظر إليه... إلى آخره. وأخرجه أحمد بن حنبل في كتاب الزهد من طريق عبد الله بن نمير به، ومن طريق أحمد بن حنبل رواه الثعلبي في تفسيره كما في تخريج الكشاف للزيلعي (ج ٣/٧٨). قال الحافظ في تخريج الكشاف: موقوف. رواه أحمد في الزهد وابن أبي شيبة قالوا: حدثنا عبد الله بن نمير عن الأعمش عن خيثمة عن شهر بن حوشب قال: «دخل ملك الموت، فذكره». انتهى.

١١٦١ - تقدم برقم (٣٤٦) وهو حديث فضائل القرآن الموضوع على النبي - ﷺ -. قال الحافظ في تخريج الكشاف: أخرجه الثعلبي، وابن مردويه، والواحدي بأسانيدهم عن أبي بن كعب. انتهى.

سورة السجدة

مكية [إلا من آية ١٦ إلى غاية آية ٢٠ فمدنية]
وآياتها ٣٠ وقيل ٢٩ [نزلت بعد المؤمنون]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿الْعَلَمُ﴾ تَنْزِيلُ الْكِتَابِ لَا رَيْبَ فِيهِ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٢٠﴾ أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ بَلْ هُوَ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّا أَتَتْهُمْ مِنْ نَذِيرٍ مِّنْ قَبْلِكَ لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ ﴿٢١﴾

﴿الْعَلَمُ﴾ على أنها اسم السورة مبتدأ خبره ﴿تَنْزِيلُ الْكِتَابِ﴾ وإن جعلتها تعديداً للحروف ارتفع ﴿تَنْزِيلُ الْكِتَابِ﴾ بأنه خبر مبتدأ محذوف: أو هو مبتدأ خبره ﴿لَا رَيْبَ فِيهِ﴾ والوجه أن يرتفع بالابتداء، وخبره ﴿مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ و﴿لَا رَيْبَ فِيهِ﴾: اعتراض لا محل له. والضمير في (فيه) راجع إلى مضمون الجملة، كأنه قيل: لا ريب في ذلك، أي في كونه منزلاً من رب العالمين ويشهد لوجهه قوله: ﴿أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ﴾ لأن قولهم: هذا مفترى، إنكار لأن يكون من رب العالمين، وكذلك قوله: ﴿بَلْ هُوَ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ﴾ وما فيه من تقدير أنه من الله، وهذا أسلوب صحيح محكم: أثبت أولاً أن تنزيله من رب العالمين، وأن ذلك ما لا ريب فيه، ثم أضرب عن ذلك إلى قوله: ﴿أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ﴾ لأن «أم» هي المنقطعة الكائنة بمعنى: بل والهمزة، إنكاراً لقولهم وتعجباً منه لظهور أمره: في عجز بلغائهم عن مثل ثلاث آيات منه، ثم أضرب عن الإنكار إلى إثبات أنه الحق من ربك. ونظيره أن يعلل العالم في المسألة بعلّة صحيحة جامعة، قد احترز فيها أنواع الاحتراز، كقول المتكلمين: النظر أول الأفعال الواجبة على الإطلاق التي لا يعري عن وجوبها مكلف، ثم يعترض عليه فيها ببعض ما وقع احترازه منه، فيرده بتلخيص أنه احترز من ذلك، ثم يعود إلى تقرير كلامه وتمشيته. فإن قلت: كيف نفى أن يرتاب في أنه من الله، وقد أثبت ما هو أطم من الريب، وهو قولهم: ﴿أَفَرَأَيْتُمْ﴾؟ قلت: معنى ﴿لَا رَيْبَ فِيهِ﴾ أن لا مدخل للريب في أنه تنزيل الله، لأن نافي الريب ومميّطه معه لا ينفك عنه وهو كونه معجزاً للبشر، ومثله أبعد شيء من الريب. وأما قولهم: ﴿افْتَرَاهُ﴾ فإما قول متعنت مع علمه أنه من الله لظهور الإعجاز له، أو جاهل يقوله قبل التأمل والنظر لأنه سمع الناس يقولونه ﴿مَّا أَتَتْهُمْ مِنْ نَذِيرٍ مِّنْ قَبْلِكَ﴾ كقوله: ما أنذر آبائهم، وذلك أن قريشاً لم يبعث الله

إليهم رسولاً^(١) قبل محمد ﷺ. فإن قلت: فإذا لم يأتهم نذير لم تقم عليهم حجة. قلت: أما قيام الحجة بالشرائع التي لا يدرك علمها إلا بالرسول فلا، وأما قيامها بمعرفة الله وتوحيده وحكمته فنعم؛ لأن أدلة ٩٦/٢ العقل الموصلة إلى ذلك معهم في كل زمان ﴿لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ﴾ فيها وجهان: أن يكون على الترجي من رسول الله - ﷺ - كما كان (لعله يتذكر) على الترجي من موسى وهارون عليهما السلام، وأن يستعار لفظ الترجي للإرادة.

﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ مَا لَكُمْ مِّنْ دُونِهِ مَن وَّلِيٍّ وَلَا شَفِيعٍ أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ﴾ ﴿٤١﴾

فإن قلت: ما معنى قوله: ﴿مَا لَكُمْ مِّنْ دُونِهِ مَن وَّلِيٍّ وَلَا شَفِيعٍ﴾؟ قلت: هو على معنيين، أحدهما: أنكم إذا جاوزتم رضاه لم تجدوا لأنفسكم ولياً، أي: ناصراً ينصركم ولا شافعاً يشفع لكم. والثاني: أن الله وليكم الذي يتولى مصالحكم، وشفيعكم أي ناصركم على سبيل المجاز؛ لأن الشفيع ينصر المشفوع له، فهو كقوله تعالى: ﴿وَمَا لَكُمْ مِّنْ دُونِ اللَّهِ وَّلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ﴾ فإذا خذلكم لم يبق لكم ولي ولا نصير.

﴿يُدَبِّرُ الْأَمْرَ مِنَ السَّمَاءِ إِلَى الْأَرْضِ ثُمَّ يَعْرُجُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ أَلْفَ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ﴾ ﴿٥٠﴾

﴿الْأَمْرُ﴾ المأمور به من الطاعات والأعمال الصالحة ينزله مدبراً ﴿مِنَ السَّمَاءِ إِلَى الْأَرْضِ﴾ ثم لا يعمل به ولا يصعد إليه ذلك المأمور به خالصاً كما يريد ويرتضيه إلا في مدة متطاولة؛ لقلة عمال الله والخلص من عباده وقلة الأعمال الصاعدة، لأنه لا يوصف بالصعود إلا الخالص ودل عليه قوله على أثره ﴿فَلَيْلًا مَّا تَسْكُرُونَ﴾ [السجدة: ٩] أو يدبر أمر الدنيا كلها من السماء إلى الأرض: لكل يوم من أيام الله وهو ألف سنة. كما قال: ﴿وَإِنَّ يَوْمًا عِنْدَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ﴾، ﴿ثُمَّ يَعْرُجُ إِلَيْهِ﴾ أي يصير إليه، ويثبت عنده.

(١) قال محمود: «يعني قريشاً لأنها لم يبعث لها نبي قط. فإن قلت: إن لم يتقدم بعث نبي إليهم فيما قامت عليهم الحجة. قلت: قيام الحجة بالشرائع التي لا يدرك علمها إلا بالرسول لا سبيل إليه. وأما قيامها بمعرفة الله تعالى وتوحيده وحكمته فنعم؛ لأن أدلة العقل معهم في كل زمان» قال أحمد: مذهب أهل السنة: أنه لا يدرك علم شيء من أحكام الله تعالى التكليفية إلا بالشرع وما ذكره الزمخشري تفريع على قاعدة التحسين والتقييد بالعقل وقد مجها السمع فلم يبح بها القلم، فأعرض عنه حتى يخوض في حديث غيره. وإنما قامت الحجة على العرب بمن تقدم من الرسل إليهم كأبيهم إسماعيل وغيره، والمراد بقوله تعالى: ﴿مَّا أَنتَهُم مِّن نَّذِيرٍ﴾ يعني ذرية للعرب في زمانه عليه الصلاة والسلام، إذ لم يبعث إليهم نذير معاصر، فلطف الله تعالى بهم وبعث فيهم رسولاً منهم.

ويكتب في صحف ملائحته كل وقت من أوقات هذه المدة: ما يرتفع من ذلك الأمر ويدخل تحت الوجود إلى أن تبلغ المدة آخرها، ثم يدبر أيضاً ليوم آخر، وهلم جرا إلى أن تقوم الساعة. وقيل: ينزل الوحي مع جبريل عليه السلام من السماء إلى الأرض، ثم يرجع إليه ما كان من قبول الوحي أو رده مع جبريل وذلك في وقت هو في الحقيقة ألف سنة؛ لأن المسافة مسيرة ألف سنة في الهبوط والصعود؛ لأن ما بين السماء والأرض مسيرة خمسمائة سنة، وهو يوم من أيامكم لسرعة جبريل؛ لأنه يقطع مسيرة ألف سنة في يوم واحد. وقيل: يدبر أمر الدنيا من السماء إلى الأرض إلى أن تقوم الساعة، ثم يعرج إليه ذلك الأمر كله؛ أي يصير إليه ليحكم فيه ﴿فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ أَلْفَ سَنَةٍ﴾ وهو يوم القيامة. وقرأ ابن أبي عبلة: يعرج، على البناء للمفعول. وقرئ: يعدون، بالتاء والياء.

﴿ذَلِكَ عَلِيمٌ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ﴾ ﴿١﴾ الَّذِي أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلَقَهُ وَبَدَأَ خَلْقَ الْإِنْسَانِ مِنْ طِينٍ ﴿٧﴾ ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُ مِنْ سُلَالَةٍ مِنْ مَاءٍ مَهِينٍ ﴿٨﴾ ثُمَّ سَوَّاهُ وَنَفَخَ فِيهِ مِنْ رُوحِهِ وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ ﴿٩﴾

﴿أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ﴾ حسنه، لأنه ما من شيء خلقه إلا وهو مرتب على ما اقتضته الحكمة وأوجبه المصلحة: فجميع المخلوقات حسنة وإن تفاوتت إلى حسن وأحسن، كما قال: ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيرٍ﴾ ﴿١﴾ [التين: ٤] وقيل: علم كيف يخلقه من قوله: قيمة المرء ما يحسن. وحقيقته، يحسن معرفته أي يعرفه معرفة حسنه بتحقيق وإتقان. وقرئ: خلقه: على البذل، أي: أحسن. فقد خلق كل شيء^(١). وخلقه: على الوصف، أي: كل شيء خلقه فقد أحسنه. سميت الذرية نسلًا؛ لأنها تنسل منه، أي: تنفصل منه وتخرج من صلبه^(٢) ونحوه قولهم للولد: سليل ونجل. و﴿سَوَّاهُ﴾ قومه، كقوله تعالى: ﴿فِي أَحْسَنِ تَقْوِيرٍ﴾ ودل بإضافة الروح إلى ذاته على أنه خلق عجيب لا يعلم كنهه إلا هو، كقوله: ﴿وَنَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ...﴾ الآية كأنه قال: ونفخ فيه من الشيء الذي اختص هو به وبمعرفته.

﴿وَقَالُوا أَإِذَا ضَلَلْنَا فِي الْأَرْضِ أَإِنَّا لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ بَلْ هُمْ بِلِقَاءِ رَبِّهِمْ كَافِرُونَ﴾ ﴿١٠﴾ قُلْ

(١) قوله «أي أحسن فقد خلق كل شيء» لعل لفظ «فقد» مزيدة من قلم الناسخ. وعبارة النسفي: على البذل، أي: أحسن خلق كل شيء ويمكن أنه ليس مزيداً، بل هذا حاصل المعنى على البذل، كما أن عكسه الآتي هو حاصل المعنى على الوصف. (ع)

(٢) قوله «وتخرج من صلبه» لعل قبله سقطاً تقديره: كما سميت النطفة سلالة، لأنها تسل منه. وفي الصحاح «النجل»: النسل. ونجله أبوه. أي: ولده. (ع)

يَتَوَفَّكُم مَّلَكُ الْمَوْتِ الَّذِي نُكِّلَ بِكُمْ ثُمَّ إِلَيْكَ رَجَعُوكَ ﴿١٦﴾

﴿وَقَالُوا﴾ قيل القائل أبي بن خلف، ولرضاهم بقولهم أسند إليهم جميعاً. وقرئ: أنا وأنا، على الاستفهام وتركه ﴿ضَلَّلْنَا﴾ صرنا تراباً، وذهبنا مختلطين بتراب الأرض. لا نتميز منه، كما يضل الماء في اللبن أو غبنا ﴿فِي الْأَرْضِ﴾ بالدفن فيها، من قوله [من الطويل]:
وَأَب مُضْلُوهُ بِعَيْنِنِ جَلِيَّةٍ
.....

وقرأ علي وابن عباس - رضي الله عنهما -: ضللنا، بكسر اللام. يقال: ضل يضل وضل يضل. وقرأ الحسن - رضي الله عنه -: ضللنا، من ضل اللحم وأصل: إذا أنتن. وقيل: صرنا من جنس الصلة وهي الأرض. فإن قلت: بم انتصب الظرف في (أثنا ضللنا)؟ قلت: بما يدل عليه ﴿أَيُّنَا لَقِيَ حَتَّى حَبِيبٍ﴾ وهو نبعث. أو يجدد خلقنا. لقاء ربهم: هو الوصول إلى العاقبة، من تلقي ملك الموت وما وراءه، فلما ذكر كفرهم بالإنشاء، أضرب عنه إلى ما هو أبلغ في الكفر، وهو أنهم كافرون بجميع ما يكون في العاقبة، لا بالإنشاء وحده. ألا ترى كيف خوطبوا بتوفي ملك الموت وبالرجوع إلى ربهم بعد ذلك مبعوثين للحساب والجزاء، وهذا معنى لقاء الله على ما ذكرنا والتوفي: استيفاء النفس وهي الروح. قال الله تعالى: ﴿اللَّهُ يَتَوَفَّى الْأَنفُسَ﴾ [الزمر: ٤٢] وقال: أخرجوا أنفسكم، وهو أن يقبض كلها لا يترك منها شيء. من قولك: توفيت حقي/٢/٩٦ ب من فلان، واستوفيته إذا أخذته وافياً كاملاً من غير نقصان. والتفعل والاستفعال: يلتقيان في مواضع: منها: تقصيته واستقصيته، وتعجلته واستعجلته. وعن مجاهد - رضي الله عنه -: حويت لملك الموت الأرض، وجعلت له مثل الطست، يتناول منها حيث يشاء. وعن قتادة: يتوفاهم ومعه أعوان من الملائكة. وقيل: ملك الموت: يدعو الأرواح فتجيئه، ثم يأمر أعوانه بقبضها.

﴿وَلَوْ تَرَىٰ إِذِ الشَّجَرُونَ نَاكُوسًا رُّءُوسِهِمْ عَمْدَ رَبِّهِمْ رَبَّنَا أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا فَارْجِعْنَا نَعْمَلْ صَالِحًا إِنَّا مُوقِنُونَ ﴿١٧﴾ وَلَوْ شِئْنَا لَآتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هُدًى وَلَٰكِن حَقَّ الْقَوْلُ مِنِّي لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ ﴿١٨﴾﴾

(١) وآب مضلوه بعين جلية وغودر بالجولان حزم ونائل
يرثي ميتاً. والإياب: الرجوع. والإضلال: الدفق والتغيب. وجولان: جبل بالشام. والنائل: العطاء
يعني: بترك ذلك الموصوف بالحزم والكرم، فقد ترك الوصفات هناك.
وهو للناطقة الذبياني في ديوانه ص ١٢١، ولسان العرب (ضلل)، (جلا)، وتاج العروس (ضلل)،
(جلا)، وتهذيب اللغة ١١/١٨٧، ٤٦٥، وجمهرة اللغة ص ١٠٤٤، وبلا نسبة في جمهرة اللغة
ص ١٠٧٧، ومقاييس اللغة ١/٤٩٦، ٣/٣٥٦، ومجمل اللغة ٣/٢٧٧.

نَسِينَكُمْ وَذُوقُوا عَذَابَ الْخُلْدِ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٤﴾

﴿وَلَوْ تَرَى﴾ يجوز أن يكون خطاباً لرسول الله - ﷺ -، وفيه وجهان: أن يراد به التمني، كأنه قال: وليتك ترى، كقوله ﷺ للمغيرة: «لو نظرت إليها» (١١٦٢). والتمني لرسول الله - ﷺ -، كما كان الترجي له في ﴿لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ﴾ لأنه تجرّع منهم الغصص ومن عداوتهم وضرارهم، فجعل الله له تمني أن يراهم على تلك الصفة الفظيعة من الحياء والخزي والغم ليشتت بهم، وأن تكون لو الامتناعية قد حذف جوابها، وهو: لرأيت أمراً فظيلاً. أو: لرأيت أسوأ حال ترى. ويجوز: أن يخاطب به كل أحد، كما تقول: فلان لثيم، إن أكرمته أهانك، وإن أحسنت إليه أساء إليك، فلا تريد به مخاطباً بعينه، فكأنك قلت: إن أكرم وإن أحسن إليه، ولو وإذا كلاهما للمضي، وإنما جاز ذلك؛ لأن المترقب من الله بمنزلة الموجود المقطوع به في تحققه، ولا يقدر لنرى ما يتناوله، كأنه قيل: ولو تكون منك الرؤية، وإذ ظرف له. يستغيثون بقولهم ﴿رَبَّنَا أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا﴾ فلا يغاثون، يعني: أبصرنا صدق وعدك ووعدك وسمعنا منك تصديق رسلك. أو كنا عمياً وصماً فأبصرنا وسمعنا ﴿فَأَرِحْنَا﴾ هي الرجعة إلى الدنيا ﴿لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ﴾ على طريق الإلجاء والقسر، ولكننا بنينا الأمر على الاختيار^(١) دون الاضطرار، فاستحبوا العمى على

١١٦٢ - أخرجه أحمد (٢٤٤/٤ - ٢٤٥)، والدارمي (١٣٤/٢) كتاب النكاح - باب الرخصة في النظر للمرأة عند الخطبة، والترمذي (٣٩٧/٣) كتاب النكاح - باب ما جاء في النظر إلى المخطوبة - حديث (١٠٨٧)، والنسائي (٦٩/٦) كتاب النكاح باب إباحة النظر قبل التزويج، وابن ماجه (١/٦٠٠) كتاب النكاح - باب النظر إلى المرأة إذا أراد أن يتزوجها حديث (١٨٦٦)، وعبد الرزاق (١٣٣٥) وسعيد بن منصور رقم (٥٥١ - ٥١٨)، وابن الجارود ص (٢٢٦) كتاب النكاح حديث (٦٧٥)، والطحاوي في شرح معاني الآثار (١٤/٣)، كتاب النكاح - باب الرجل يريد تزوج المرأة هل يحل له النظر إليها أم لا؟ والدارقطني (٢٥٢/٣): كتاب النكاح - باب المهر - حديث (٣١)، والبيهقي (٨٤/٧) كتاب النكاح باب نظر الرجل إلى المرأة يريد أن يتزوجها. والخطيب في التاريخ (٣٤٤/٧)، والبغوي في شرح السنة (١٤/٥) - بتحقيقنا من طريق عاصم الأحول عن بكر بن عبد الله المزني عن المغيرة قال: «خطبت امرأة فذكرتها لرسول الله - ﷺ - فقال لي: هل نظرت إليها؟ فقلت: لا. قال: فانظر إليها؛ فإنه أحرى أن يؤدم بينكما».

قال الحافظ في تخریج الکشاف: هذا طرف من حديث أخرجه الترمذي، والنسائي، وابن ماجه، وابن أبي شيبه، وابن حبان، والحاكم، وأحمد والبخاري، وغيرهم من حديث المغيرة «أنه خطب امرأة فقال لي النبي - ﷺ - انظر إليها؛ فإنه أحرى أن يؤدم بينكما» ورواه أبو عبيد في الغريب بلفظ أنه قال للمغيرة وقد خطب امرأة: «لو نظرت إليها» الحديث. انتهى.

(١) قوله «ولكننا بنينا الأمر على الاختيار» لما أوجب المعتزلة على الله الصلاح قالوا: إنه قد شاء الهدى للكل، ولكن مشيئة تخير، لا مشيئة إجبار، فلذا لم يهتد الكل بل البعض، ولو شاء مشيئة قسر =

الهدى، فحققت كلمة العذاب على أهل العمى دون البصراء. ألا ترى إلى ما عقبه به من قوله: ﴿فَذُوقُوا بِمَا نَسِيتُمْ﴾ فجعل ذوق العذاب نتيجة فعلهم: من نسيان العاقبة، وقلة الفكر فيها، وترك الاستعداد لها. والمراد بالنسيان: خلاف التذكر، يعني: أن الانهماك في الشهوات أذهلكم وألهاكم عن تذكر العاقبة وسلط عليكم نسيانها، ثم قال: ﴿إِنَّا نَسِينَكُمُ﴾ على المقابلة، أي: جازيناكم جزاء نسيانكم. وقيل: هو بمعنى الترك، أي: تركتم الفكر في العاقبة، فتركناكم من الرحمة. وفي استئناف قوله إنا نسيناكم وبناء الفعل على إن واسمها تشديد في الانتقام منهم والمعنى فذوقوا هذا أي ما أنتم فيه من نكس الرؤوس والخزي والغم بسبب نسيان اللقاء، وذوقوا العذاب المخلد في جهنم بسبب ما عملتم^(١) من المعاصي والكبائر الموبقة^(٢).

﴿إِنَّمَا يُؤْمِنُ بِآيَاتِنَا الَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا بِهَا خَرُّوا سُجَّدًا وَسَبَّحُوا بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ﴾ (١٥) ﴿تَتَجَافَى جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ﴾ (١٦) ﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّا أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ (١٧)

﴿إِذَا ذُكِّرُوا بِهَا﴾ أي وعظوا: سجدوا تواضعاً لله وخشوعاً، وشكراً على ما رزقهم من الإسلام ﴿وَسَبَّحُوا بِحَمْدِ رَبِّهِمْ﴾ ونزهوا الله من نسبة القبائح إليه، وأثنوا عليه حامدين له ﴿وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ﴾ كما يفعل من يصبر مستكبراً كأن لم يسمعها. ومثله قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مِن قَبْلِهِ إِذَا يُتْلَى عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ سُجَّدًا وَيَقُولُونَ سُبْحَانَ رَبِّنَا﴾ [الإسراء: ١٠٧]: ﴿تَتَجَافَى﴾ ترتع وتنحى ﴿عَنِ الْمَضَاجِعِ﴾ عن الفرش ومواضع النوم، داعين ربهم عابدين له؛ لأجل خوفهم من سخطه وطمعهم في رحمته، وهم المتهجدون، وعن رسول الله - ﷺ - في تفسيرها: «قيام العبد من الليل» (١١٦٣)، وعن الحسن - رضي الله عنه -: أنه التهجّد.

١١٦٣ - أخرجه أحمد في «مسنده» (٢٣٢/٥ - ٢٤٢). وابن أبي شيبة، وإسحاق بن راهويه في مسنديهما كما في تخريج الكشاف للزيلعي (٨٤/٣) من طريق حماد بن سلمة عن عاصم بن بهدلة عن شهر بن حوشب عن معاذ عن النبي - ﷺ - قال في قوله تعالى: ﴿تَتَجَافَى جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ﴾ =

= لا هتدى الكل. وأهل السنة لم يوجبوا على الله شيئاً، وقالوا: كل ما شاء الله كان، وما لم يشأ لم يكن، خيراً كان أو شراً. واستلزام الإرادة لوقوع المراد لا يستلزم القسر والإجبار للعباد؛ لما لهم من الكسب في أفعالهم، وإن كانت في الحقيقة مخلوقة لله تعالى، كما تقرر في علم التوحيد. (ع)
(١) قال محمود: «معناه بما كنتم تعملون من الكفر والكبائر الموبقة» قال أحمد: قد تمهد من مذاهب أهل السنة أن المقضي لاستحقاق الخلود في العذاب هو الكفر خاصة. وأما ما دونه من الكبائر فلا يوجب خلوداً والمسألة سمعية. وأدلتها من الكتاب والسنة قطعية، خلافاً للقدرية.
(٢) قوله «والكبائر الموبقة» أي: المهلكة. (ع)

وعن رسول الله - ﷺ -: «إذا جمع الله الأولين والآخرين يوم القيامة جاء مناد ينادي بصوت يسمع الخلائق كلهم: سيعلم أهل الجمع اليوم من أولى بالكرم. ثم يرجع فينادي: ليقم الذين كانت تتجافى جنوبهم عن المضاجع؛ فيقومون وهم قليل. ثم يرجع فينادي: ليقم الذين كانوا يحمدون الله في البأساء والضراء، فيقومون وهم قليل، فيسرحون جميعاً إلى الجنة. ثم يحاسب سائر الناس» (١١٦٤). وعن أنس بن مالك - رضي الله عنه -: كان أناس من أصحاب رسول الله - ﷺ - يصلون من صلاة المغرب إلى صلاة العشاء الآخرة، فنزلت فيهم (١١٦٥). وقيل: هم الذين يصلون صلاة العتمة لا ينامون عنها ﴿مَا أُخْفِيَ لَهُمْ﴾

= قال: «قيام العبد من الليل». اهـ.

ومن طريق أحمد رواه الثعلبي، وبهذا الإسناد رواه ابن مردويه كما في تخريج الكشاف للزيلعي (٨٤/٣).

وله طريق آخر بمعناه عن معاذ أيضاً.

أخرجه الترمذي (١٣/٥ - ١٤): كتاب الإيمان: باب ما جاء في حرمة الصلاة، حديث (٢٦١٦)، وابن ماجه (١٣١٤/٢ - ١٣١٥): كتاب الفتن: باب كف اللسان في الفتنة، حديث (٣٩٧٣) عن معمر عن عاصم بن أبي النجود عن أبي وائل عن معاذ قال: «كنت مع النبي - ﷺ - في سفر، فأصبحت يوماً قريباً منه... إلى أن قال: «ألا أدلك على أبواب الخير: الصوم جنة، والصدقة تطفئ الخطيئة كما يطفئ الماء النار، وصلاة الرجل في جوف الليل» ثم قرأ: ﴿تَتَجَافَى جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ﴾ اهـ.

قال الترمذي: حديث حسن صحيح.

وله طريق آخر:

أخرجه الحاكم في المستدرک (٤١٣/٢) وقال: هذا حديث صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه. اهـ.

قال الحافظ في تخريج الكشاف: أخرجه أحمد، وابن أبي شيبة، وإسحاق، والحاكم من رواية أبي وائل عن معاذ في أثناء حديث مرفوع قال: «وصلاة الرجل في جوف الليل ثم قرأ: ﴿تَتَجَافَى جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ﴾. انتهى.

١١٦٤ - اختصره الحاكم في المستدرک في تفسير سورة النور (٣٩٨/٢ - ٣٩٩) عن أبي إسحاق عن عبد الله بن عطاء عن عتبة بن عامر الجهني به.

وأخرجه إسحاق بن راهويه، وأبو يعلى في مسنديهما والثعلبي في تفسيره، والبيهقي في شعب الإيمان كما في تخريج الكشاف للزيلعي (ج ٣/٨٥).

قال الحافظ في تخريج الكشاف: أخرجه إسحاق وأبو يعلى من رواية شهر بن حوشب عن أسماء بنت يزيد مطولاً، وهو عند الحاكم باختصار. انتهى.

١١٦٥ - أخرجه أبو داود (٣٥/٢): كتاب الصلاة: باب وقت قيام النبي - ﷺ - من الليل، حديث (١٣٢١) من طريق سعيد بن أبي عروبة عن قتادة عن أنس بن مالك به.

وأخرجه ابن مردويه في تفسيره من حديث الحارث بن رجة عن مالك بن دينار عن أنس بن مالك به كما في تخريج الكشاف للزيلعي (٨٦/٣).

وله سند آخر: عند البزار في مسنده: عن عبد الحميد بن سليمان عن مصعب عن زيد بن أسلم عن =

على البناء للمفعول. ما أخفى لهم على البناء للفاعل، وهو الله سبحانه. وما أخفى لهم. وما نخفي لهم. وما أخفيت لهم: الثلاثة للمتكلم، وهو الله سبحانه. وما: بمعنى الذي، أو بمعنى أي^(١). وقرئ: من قرّة أعين. وقرات أعين. والمعنى: لا تعلم النفوس - كلهنّ ولا نفس واحدة منهنّ لا ملك مقرب ولا نبي مرسل - أي نوع عظيم من الثواب ادخر الله لأولئك وأخفاه من جميع خلائقه، لا يعلمه إلا هو مما تقر به عيونهم، ولا مزيد على هذه العدة ولا مطمئع وراءها، ثم قال: ﴿جَزَاءٌ يَمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ فحسم أطماع المتمنين^(٢): وعن النبي ﷺ: «يقول الله تعالى: أعددت لعبادي الصالحين ما لا عين رأت ولا ٩٧/٢ أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر، بله^(٣) ما أطلعتهم عليه. اقرؤا إن شئتم: فلا تعلم نفس

= أبيه قال بلال: «كنا نجلس... إلى آخره بنحوه كما في تخريج الكشاف للزيلعي (٨٦/٣).

قال الحافظ في تخريج الكشاف: أخرجه ابن مردويه من رواية الحارث بن رحية عن مالك بن دينار: «سألت أنس بن مالك عن قوله تعالى: ﴿تَتَجَافَى جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ﴾ الآية فقال: كان ناس - فذكره» ورواه أبو داود من حديث سعيد عن قتادة عن أنس نحوه، قال: وكان الحسن يقول: «هو قيام الليل» والبخاري من طريق زيد بن أسلم عن أبيه، قال قال بلال: كنا نجلس وناس من أصحاب النبي ﷺ - يصلون بعد المغرب إلى العشاء فنزلت هذه الآية» قال: ولا نعلم له طريقاً إلا هذه. ولا روى أسلم عن بلال غيره. انتهى.

(١) قوله «أو بمعنى أي» لعله: أي شيء. (ع)

(٢) قال محمود: «هذا حسم لأطماع المتمنين» قال أحمد: يشير إلى أهل السنة لاعتقادهم أن المؤمن العاصي موعود بالجنة، ولا بد من دخوله إياها وفاء بالوعد الصادق، وأن أحداً لا يستحق على الله بعمله شيئاً، فلما وجد قوله تعالى: ﴿جَزَاءٌ يَمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ اغتنم الفرصة في الاستشهاد على معتقد القدرة في أن الأعمال أسباب موجبة للجزاء. ولا دليل في ذلك لمعتقدهم مع قوله ﷺ: «لا يدخل أحد منكم الجنة بعمله، قيل: ولا أنت يا رسول الله؟ قال: ولا أنا، إلا أن يتغمدني الله بفضل منه ورحمة» فهذا الحديث يوجب حمل الآية على وجه يجمع بينها وبينه، وذلك إما أن تحمل الآية على أن المراد منها قسمة المنازل بينهم في الجنة فإنه على حسب الأعمال، وليس بذاك فإن المذكور في الآية مجرد دخول الجنة لا اقتسام درجاتها. وإما أن تحمل - وهو الظاهر، والله أعلم - على أن الله تعالى لما وعد المؤمن جنته - ووعد به يجب أن يكون حقاً وصدقاً، تعالى وتقدس - صارت الأعمال بالوعد كأنها أسباب موجبات، فعملت في هذه العبارة معاملتها، والمقصود من ذلك: تأكيد صدق الوعد في النفوس، وتصوره بصورة المستحق بالعمل، كالأجرة المستحقة شاهداً على العمل من باب مجاز التشبيه، والله أعلم. وذكر الزمخشري الحديث المشهور وهو «أعددت لعبادي الصالحين ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر، اقرؤوا إن شئتم» ﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّا أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ﴾ وكان جدي رحمه الله يستحسن أن تقرأ الآية تلو الحديث المذكور بسكون الياء من أخفي، ورده إلى المتكلم، وهي من القراءات المستفيضة. والسبب في اختيار ذلك مطابقة صدر الحديث وهو: أعددت لعبادي ما لا عين رأت ولا أذن سمعت، ليكون الكل راجعاً إلى الله تعالى، مسنداً إلى ضمير اسمه عز وجل صريحاً، والله الموفق.

(٣) قوله «بله ما أطلعتهم عليه» في الصحاح «بله»: كلمة مبنية على الفتح مثل كيف؛ ومعناها: دع، كما =

ما أخفى لهم من قرة أعين (١١٦٦). وعن الحسن - رضي الله عنه -: أخفى القوم أعمالاً في الدنيا، فأخفى الله لهم ما لا عين رأت ولا أذن سمعت.

﴿أَفَمَنْ كَانَ مُؤْمِنًا كَمَنْ كَانَ فَاسِقًا لَا يَسْتَوُونَ﴾ (١٨) ﴿أَمَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَلَهُمْ جَنَّاتُ الْمَأْوَىٰ نُزُلًا بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ (١٩) ﴿وَأَمَّا الَّذِينَ فَسَقُوا فَمَأْوَاهُمُ النَّارُ كُلَّمَا أَرَادُوا أَنْ يَخْرُجُوا مِنْهَا أُعِيدُوا فِيهَا وَقِيلَ لَهُمْ دُفِعُوا فِي النَّارِ الَّتِي كُنتُمْ بِهِ تُكَذِّبُونَ﴾ (٢٠) وَلَنَذِقَنَّهُمْ مِنَ الْعَذَابِ الْأَلَدِّ دُونَ الْعَذَابِ الْأَكْبَرِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ (٢١)

﴿كَانَ مُؤْمِنًا﴾ و﴿كَانَ فَاسِقًا﴾ محمولاً على لفظ من و﴿لَا يَسْتَوُونَ﴾ محمول على المعنى بدليل قوله تعالى: ﴿أَمَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا﴾ و﴿وَأَمَّا الَّذِينَ فَسَقُوا﴾ ونحوه قوله تعالى: ﴿وَمِنْهُمْ مَنْ يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ حَتَّىٰ إِذَا خَرَجُوا مِنْ عِنْدِكَ﴾ [محمد: ١٦]. و﴿جَنَّاتُ الْمَأْوَىٰ﴾ نوع من الجنان:

١١٦٦ - ورد من حديث أبي هريرة، وأبي سعيد الخدري، وأنس بن مالك، وسهل بن سعد الساعدي، وحديث أبي الدرداء.

فأما حديث أبي هريرة:

أخرجه البخاري ٣٦٦/٦ في بدء الخلق، باب ما جاء في صفة الجنة وأنها مخلوقة (٣٢٤٤)، ومسلم ٢١٧٤/٤ - ٢١٧٥ في الجنة، في أوله (٢ - ٣ - ٤/٢٨٢٤)، والترمذي ٣٢٣/٥ في التفسير باب من سورة السجدة (٢١٩٧)، وابن ماجه ١٤٤٧/٢ في الزهد، باب صفة الجنة (٤٣٢٨)، وأحمد ٣١٣/٢، والحميدي في مسنده ٤٨٠/٢ برقم (١١٣٣)، وابن أبي شيبة ١٣/١٠٩، والطبراني في الصغير ٢٦/١، والطبري في تفسيره ٦٦/٢١ - ٦٧، وهناد في الزهد (١ - ٢)، وأبو نعيم في الحلية ٢٦/٩ من طرق عن أبي هريرة بنحوه.

وأما حديث سهل بن سعد الساعدي: فأخرجه مسلم في المصدر السابق (٢٨٢٥/٥).

وأما حديث أبي سعيد الخدري: فأخرجه أبو نعيم في الحلية ٢/٢٦٢، والطبراني في الأوسط والبيزار كما في المجمع ٤١٥/١٠ وقال الهيثمي: ورجال البيزار رجال الصحيح.

وأما حديث أنس: فرواه الطبراني في الأوسط كما في المجمع. وقال الهيثمي: فيه محمد بن مصعب القرمساني. وهو ضعيف بغير كذب.

وأما حديث أبي الدرداء: فأخرجه البيزار كما في المجمع. وقال الهيثمي: فيه زيادة بن محمد وهو ضعيف.

وروي من قول ابن مسعود موقوفاً أخرجه الفريابي وابن أبي شيبة وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم والطبراني والحاكم وصححه كما في الدر المنثور ١٧٦/٥.

قال الحافظ: متفق عليه، من طريق أبي الزناد عن الأعرج عن أبي هريرة - رضي الله عنه - . انتهى.

= أجازة الأخفش في قول كعب بن مالك [من الكامل]:

تذر الجماجم ضاحياً هاماتها بله الأكف كأنها لم تخلق

ويقال: معناها سوى. وفي الحديث: «أعددت لعبادي... إلخ». (ع)

قال الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ رَآهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ ۖ عِنْدَ سِدْرَةِ الْمُنْتَهَىٰ ۚ عِنْدَهَا جَنَّةُ الْمَأْوَىٰ ۖ﴾ (١٥) سميت بذلك لما روي عن ابن عباس - رضي الله عنه - قال: تأوي إليها أرواح الشهداء. وقيل: هي عن يمين العرش. وقرئ: جنة المأوى، على التوحيد ﴿تَزُلَّ﴾ عطاء بأعمالهم. والنزل: عطاء النازل، ثم صار عاماً ﴿فَمَأْوَاهُمُ النَّارُ﴾ أي ملجؤهم ومنزلهم. ويجوز أن يراد: فجنة مأواهم النار، أي النار لهم، مكان جنة المأوى للمؤمنين: كقوله: ﴿فَيَبْتَرُهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ۖ﴾ (١٦). ﴿الْعَذَابِ الْأَذَىٰ﴾ عذاب الدنيا من القتل والأسر، وما محنوا به من السنة^(١) سبع سنين. وعن مجاهد - رضي الله عنه -: عذاب القبر. ﴿الْعَذَابِ الْأَكْبَرِ﴾ عذاب الآخرة، أي: نذيقهم عذاب الدنيا قبل أن يصلوا إلى الآخرة ﴿لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ أي يتوبون^(٢) عن الكفر، أو لعلهم يريدون الرجوع ويطلبونه، كقوله تعالى: ﴿فَأَرْجِعْنَا نَعْمَلْ صَالِحًا﴾ وسميت إرادة الرجوع رجوعاً، كما سميت إرادة القيام قياماً في قوله تعالى: ﴿إِذَا قُضِيَ إِلَى الْفَلَكِ﴾ ويدل عليه قراءة من قرأ: يرجعون، على البناء للمفعول. فإن قلت: من أين صح تفسير الرجوع بالتوبة؟ و«لعل» من الله إرادة، وإذا أراد الله شيئاً كان ولم يمتنع، وتوبتهم مما لا يكون، ألا ترى أنها لو كانت مما يكون لم يكونوا ذائقين العذاب الأكبر؟ قلت: إرادة الله تتعلق بأفعاله وأفعال عباده، فإذا أراد شيئاً من أفعاله كان ولم يمتنع، للاقتدار وخصوص الداعي. وأما أفعال عباده: فإما أن يريدوا وهم مختارون لها، أو مضطرون إليها بقسره وإلجائه، فإن أرادها وقد قسرها عليها فحكمها حكم أفعاله، وإن أرادها على أن يختاروها وهو عالم أنهم لا يختارونها لم يقدح ذلك في اقتداره^(٣)، كما لا يقدح في اقتدارك إرادتك أن يختار عبدك طاعتك وهو لا يختارها، لأن اختياره لا يتعلق

(١) قوله «وما محنوا به من السنة» أي المجدة. أو المراد بها الجذب. كما يؤخذ من الصحاح. (ع)

(٢) قال محمود: «معناه لعلهم يتوبون. فإن قلت: من أين صح تفسير الرجوع بالتوبة ولعل من الله إرادة، وإذا أراد الله شيئاً كان، وتوبتهم مما لا يكون؛ لأنهم لو تابوا لم يكونوا ذائقين العذاب الأكبر. قلت: إرادة الله تعالى تتعلق بأفعاله وأفعال عباده فإذا أراد شيئاً من أفعاله كان ولم يمتنع، للاقتدار وخصوص الداعي. وأما أفعال عباده فإما أن يريدوا وهم مختارون لها، أو مضطرون إليها بقسره، فإن أرادها وقد قسرها عليها فحكمها حكم أفعاله، وإن أرادها على أن يختارها وهو عالم أنهم لا يختارونها لم يقدح ذلك في اقتداره. كما لا يقدح في اقتدارك: إرادتك أن يختار عبدك الطاعة لك وهو لا يختارها. لأن اختيارها لا يتعلق بقدرتك فلا يكون فقد عجزاً منك» قال أحمد: هذا الفصل رديء جداً مفرع على الإشراك الجلي لا على الإشراك الخفي، فاعتصم بدليل الوحدانية على رده واجتنابه من أصله، والله المستعان. وإنما جره في تفسير لعل إلى الإرادة، والحق في تفسيرها أنها لترجي المخاطبين امتناع الترجي على الله تعالى، كذا فسرهما سيبويه فيما تقدم، والله أعلم.

(٣) قوله «لم يقدح ذلك في اقتداره» أي عدم وقوعها وعدم اختيارهم إياها. فهذا على مذهب المعتزلة: من أنه قد يريد الشيء ولا يكون، ومذهب أهل السنة: أن كل ما أَرَادَهُ الله كان. (ع)

بقدرتك، وإذا لم يتعلق بقدرتك لم يكن فقده دالاً على عجزك. وروي في نزولها: أنه شجر بين علي بن أبي طالب - رضي الله عنه - والوليد بن عقبة بن أبي معيط يوم بدر كلام، فقال له الوليد: اسكت فإنك صبي: أنا أشب منك شباباً، وأجلد منك جلدًا، وأذرب منك لساناً، وأحد منك سنناً، وأشجع منك جنناً، وأملأ منك حشواً في الكتية. فقال له علي - رضي الله عنه -: اسكت، فإنك فاسق، فنزلت عامة للمؤمنين والفاستقين (١١٦٧). فتناولتهما وكل من كان في مثل حالهما^(١). وعن الحسن بن علي - رضي الله عنهما -: أنه قال للوليد: كيف تشتم علياً وقد سماه الله مؤمناً في عشر آيات، وسماك فاسقاً؟

﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ ذُكِّرَ بِآيَاتِ رَبِّهِ، ثُمَّ أَعْرَضَ عَنْهَا إِنَّا مِنَ الْمُجْرِمِينَ مُنْقِمُونَ﴾ (٢٢)

ثم في قوله: ﴿ثُمَّ أَعْرَضَ عَنْهَا﴾ للاستبعاد. والمعنى: أن الإعراض عن مثل آيات الله في وضوحها وإنارتها وإرشادها إلى سواء السبيل والفوز بالسعادة العظمى بعد التذكير بها مستبعد في العقل والعدل، كما تقول لصاحبك: وجدت مثل تلك الفرصة ثم لم تنتهزها استبعاداً لتركه الانتهاز؛ ومنه ثم في بيت الحماسة [من الطويل]:
وَلَا يَكْشِفُ الْغَمَاءُ إِلَّا أَبْنُ حُرَّةٍ يَرَى غَمَرَاتِ الْمَوْتِ ثُمَّ يَزُورُهَا^(٢)

١١٦٧ - أخرجه الواحدي في «أسباب النزول» (ص ٣٦٣) رقم (٦٨٧) من طريق عبيد الله بن موسى ثنا ابن أبي ليلى عن الحكم عن سعيد بن جبير عن ابن عباس.
وذكره السيوطي في «الدر المنثور» (١٧٧/٥) وعزاه للأصبهاني في «الأغاني» والواحدي وابن عدي وابن مردويه والخطيب وابن عساكر. اهـ. وينظر: تخريج الكشاف (٨٨/٣) للزيلعي.
قال المحافظ: أخرجه ابن مردويه والواحدي من رواية سعيد بن جبير عن ابن عباس قال: قال الوليد بن عقبة بن أبي معيط لعلي: «أنا أحد منك سنناً وأبسط منك لساناً وأملأ منك للكتية». فقال له علي: اسكت يا فاسق، فإنما أنت فاسق، فنزلت. وله طريق أخرى عند ابن مردويه من رواية الكلبي عن أبي صالح عن ابن عباس - رضي الله عنهما -.
تنبيه: قوله: إن ذلك شجر بينهما يوم بدر غلط فاحش. فما كان الوليد حينئذ رجلاً.

(١) قال محمود: «سب نزولها أنه شجر بين علي بن أبي طالب كرم الله وجهه والوليد بن عقبة يوم بدر كلام فقال له الوليد اسكت فإنك صبي أنا أشب منك شباباً وأجلد منك جلدًا وأذرب منك لساناً وأحد منك سنناً وأشجع منك جنناً وأملأ منك حشواً في الكتية، فقال له علي: اسكت فإنك فاسق. قال الزمخشري: فنزلت عامة للمؤمنين والكافرين تناولتهما معاً» قال أحمد: ذكر للسبب المحقق: لأن المراد بالفاستق وبالأذين فسقوا: الذين كفروا، لأنها نزلت في الوليد وهو كافر حينئذ، ثم أدرج فيه المؤمن تعصباً لمذهبه في وجوب خلود فساق المؤمنين كفساق الكافرين، فلم يزل يورد هذه العقائد الفواسد، ولقد اتسع الخرق على الراقع.

(٢) ولا يكشف الغمَاء إلا ابن حرة يرى غمرات الموت ثم يزورها

استبعد أن يزور غمرات الموت بعد أن رآها واستيقنها واطلع على شدتها. فإن قلت: هلا قيل: إنا منه منتقمون؟ قلت: لما جعله أظلم كل ظالم ثم توعد المجرمين عامة بالانتقام منهم، فقد دلّ على إصابة الأظلم النصيب الأوفر من الانتقام، ولو قاله بالضمير لم يفد هذه الفائدة.

﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ فَلَا تَكُنْ فِي مِرْيَةٍ مِّنْ لِّقَائِهِ وَجَعَلْنَاهُ هُدًى لِّبَنِي إِسْرَءِيلَ ۖ وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَيْمَةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ ۚ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ يَفْصِلُ بَيْنَهُم يَوْمَ الْقِيَمَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ۝﴾ (٢٤)

﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ فَلَا تَكُنْ فِي مِرْيَةٍ مِّنْ لِّقَائِهِ وَجَعَلْنَاهُ هُدًى لِّبَنِي إِسْرَءِيلَ ۖ وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَيْمَةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ ۚ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ يَفْصِلُ بَيْنَهُم يَوْمَ الْقِيَمَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ۝﴾ (٢٤)

الكتاب للجنس والضمير في ﴿لِقَائِهِ﴾ له. ومعناه: إنا آتيناه موسى عليه السلام مثل ما آتيناه من الكتاب، ولقيناه مثل ما لقيناه من الوحي، فلا تكن في شك من أنك لقيت مثله ولقيت نظيره كقوله تعالى: ﴿إِن كُنْتَ فِي شَكٍّ مِّمَّا أَنزَلْنَا إِلَيْكَ فَسَلِ الَّذِينَ يَقْرَأُونَ الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكَ﴾ [يونس: ٩٤] ونحو قوله: ﴿مِّنْ لِّقَائِهِ﴾ قوله: ﴿وَلَيْكَ لِلْفَلَكِ الْفُرَاتُ مِنْ لَّدُنْ حَكِيمٍ عَلِيمٍ﴾ (٦) وقوله: ﴿وَنُخْرِجُ لَهُ يَوْمَ الْقِيَمَةِ / ٩٧ / ٢ ب كِتَابًا يَلْقَاهُ مَنشُورًا﴾ [الإسراء: ١٣]. وجعلنا الكتاب المنزل على موسى عليه السلام ﴿هُدًى﴾ لقومه ﴿وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَيْمَةً يَهْدُونَ﴾ الناس ويدعونهم إلى ما في التوراة من دين الله وشرائعه، لصبرهم وإيقانهم بالآيات. وكذلك لنجعلن الكتاب المنزل إليك هدى ونوراً، ولنجعلن من أمتك أئمة يهدون مثل تلك الهداية لما صبروا عليه من نصرة الدين وثبتوا عليه من اليقين. وقيل: من لقاء موسى عليه السلام ليلة الإسراء أو يوم القيامة وقيل: من لقاء موسى عليه السلام الكتاب، أي: من

= نقاسمهم أسيافاً شر قسمة ففينا غواشيها وفيهم صدورها

لجعفر بن علبة الحارثي، شبه الداهية الغماء بأمر محسوس يغشى الناس ويغطيهم على طريق المكنية، والكشف تخيل وقال «ابن حرة» أي كريم؛ ليكون تهيجاً للسامع وبعثاً له على الهيجاء. والغمرة: الشدة. وغمرات الموت: شدائده وأحواله، كأحوال المعركة الشديدة. وقوله «ثم يزورها» أي يلاقيها برغبة، كلقاء المحبوب، وعطفه بشم؛ لأن بين رؤية الأحوال المفزعة، وبين الانحدار إليها برغبة بوناً بعيداً في العادة والتعقل. وشبه السيوف ممتدة متوسطة بينهم بشيء تجري فيه المقاسمة، ونقاسمهم تخيل لذلك، ثم فرع على تلك المقاسمة أن لهم غواشيها، أي ما يغشاهم منها وهي مقابضها. أو لأنها زائدة على النصل فهي غاشية له ولأعدائه «صدورها» أي أطرافها المتقدمة منها. وصدر كل شيء: مقدمه. وعبر بفي دون اللام، لأن «في» تفيد مجرد احتمال الأعداء على الصدور لدخولها في أجسامهم اللام تفيد الملك وليس مراداً. وإن كان مقتضى القسمة. فلعله دفع توهمه بالدول إلى «في» وذكرها أولاً تمهيداً للثانية. ينظر: الدر المصون (٣٩٩/٥).

تلقية له بالرضا والقبول. وقرئ: لما صبروا، ولما صبروا، أي لصبرهم. وعن الحسن - رضي الله عنه -: صبروا عن الدنيا. وقيل: إنما جعل الله التوراة هدى لبني إسرائيل خاصة، ولم يتعبد بما فيها ولد إسماعيل عليه السلام ﴿بِفَصْلِ بَيْنَهُمْ﴾ يقضي، فيميز المحق في دينه من المبطل.

﴿أَوَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ كَمْ أَهْلَكْنَا مِنْ قَبْلِهِمْ مِنَ الْقُرُونِ يَمْشُونَ فِي مَسْكِنِهِمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ أَفَلَا يَسْمَعُونَ﴾ (٢٦)

الواو في ﴿أَوَلَمْ يَهْدِ﴾ للعطف على معطوف عليه من جنس المعطوف، والضمير في ﴿لَهُمْ﴾ لأهل مكة. وقرئ بالنون والياء، والفاعل ما دلّ عليه ﴿كَمْ أَهْلَكْنَا﴾ لأن كم لا تقع فاعلة، لا يقال: جاءني كم رجل، تقديره: أولم يهد لهم كثرة إهلاكنا القرون. أو هذا الكلام كما هو بمضمونه ومعناه، كقولك: يعصم لا إله إلا الله الدماء والأموال. ويجوز أن يكون فيه ضمير الله بدلالة القراءة بالنون. و﴿الْقُرُونِ﴾ عاد وثمود وقوم لوط ﴿يَمْشُونَ فِي مَسْكِنِهِمْ﴾ يعني أهل مكة، يمرون في متاجرهم على ديارهم وبلادهم. وقرئ: يمشون: بالتشديد.

﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا سَوَّيْنَا الْمَاءَ إِلَى الْأَرْضِ الْجُرُزِ فَنُخْرِجُ بِهِ زَرْعًا تَأْكُلُ مِنْهُ أَنْعُمُهُمْ وَأَنْفُسُهُمْ أَفَلَا يُبْصِرُونَ﴾ (٢٧)

﴿الْجُرُزِ﴾ الأرض التي جرز نباتها أي قطع، إما لعدم الماء، وإما لأنه رعي وأزيل، ولا يقال للتي لا تنبت كالسباخ: جرز. ويدل عليه قوله: ﴿فَنُخْرِجُ بِهِ زَرْعًا﴾ وعن ابن عباس - رضي الله عنه -: إنها أرض اليمن. وعن مجاهد - رضي الله عنه -: هي أبين^(١). ﴿بِهِ﴾ بالماء ﴿تَأْكُلُ﴾ من الزرع ﴿أَنْعُمُهُمْ﴾ من عصفه ﴿وَأَنْفُسُهُمْ﴾ من حبه. وقرئ: يأكل، بالياء.

﴿وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْفَتْحُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ (٢٨) قُلْ يَوْمَ الْفَتْحِ لَا يَنْفَعُ الَّذِينَ كَفَرُوا إِيْمَانُهُمْ وَلَا هُمْ يُنْظَرُونَ ﴿٢٩﴾ فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَانْتَظِرْ إِنَّهُمْ مُنْتَضِرُونَ ﴿٣٠﴾

الفتح: النصر، أو الفصل بالحكومة، من قوله: ﴿رَبَّنَا أَفْتَحْ بَيْنَنَا﴾ [الأعراف: ٨٩] وكان المسلمون يقولون: إن الله سيفتح لنا على المشركين، ويفتح بيننا وبينهم، فإذا سمع

(١) قوله «هي أبين» في الصحاح «أبين»: اسم رجل نسب إليه عدن، فيقال: عدن أبين. اهـ. فتدبر. (ع)

المشركون قالوا: ﴿مَتَى هَذَا الْفَتْحُ﴾ أي في أي وقت يكون ﴿إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ في أنه كائن. و﴿يَوْمَ الْفَتْحِ﴾ يوم القيامة وهو يوم الفصل بين المؤمنين وأعدائهم، ويوم نصرهم عليهم. وقيل: هو يوم بدر. وعن مجاهد والحسن - رضي الله عنهما -: يوم فتح مكة. فإن قلت: قد سألوا عن وقت الفتح، فكيف ينطبق هذا الكلام جواباً على سؤالهم. قلت: كان غرضهم في السؤال عن وقت الفتح، استعجالاً منهم عن وجه التكذيب والاستهزاء، فأجيبوا على حسب ما عرف من غرضهم في سؤالهم فقليل لهم: لا تستعجلوا به ولا تستهزؤا، فكأنني بكم وقد حصلتم في ذلك اليوم، وأمتتم فلم ينفعكم الإيمان، واستنظرتهم في إدراك العذاب فلم تنظروا. فإن قلت: فمن فسر به يوم الفتح أو بيوم بدر كيف يستقيم على تفسيره أن لا ينفعهم الإيمان، وقد نفع الطلقاء يوم فتح مكة وناساً يوم بدر؟ قلت: المراد أن المقتولين منهم لا ينفعهم إيمانهم في حال القتل، كما لم ينفع فرعون إيمانه عند إدراك الغرق ﴿وَأَنْتَظِرُ﴾ النصره عليهم وهلاكهم ﴿إِنَّهُمْ مُنْتَظِرُونَ﴾ الغلبة عليكم وهلاككم، كقوله تعالى: ﴿فَرَيْصُواْ إِنَّا مَعَكمُ مُّرْصُونَ﴾ [التوبة: ٥٢] وقرأ ابن السميع رحمه الله: منتظرون، بفتح الظاء. ومعناه: وانتظر هلاكهم فإنهم أحقاء بأن ينتظر هلاكهم، يعني أنهم هالكون لا محالة. أو وانتظر ذلك؛ فإن الملائكة في السماء ينتظرونه.

عن رسول الله - ﷺ -: «من قرأ الم تنزِيل وتبارك الذي بيده الملك، أعطي من الأجر كأنما أحيا ليلة القدر» (١١٦٨). وقال: «من قرأ الم تنزِيل في بيته لم يدخل الشيطان بيته ثلاثة أيام» (١١٦٩).

١١٦٨ - تقدم تخريجه ويراجع حديث (٣٤٦).

قال الحافظ في تخريج الكشاف: أخرجه الثعلبي وابن مردويه والواحدي عن أبي، وله طريق أخرى عند الثعلبي من رواية أبي عصمة عن زيد العمي عن أبي بصرة عن ابن عباس عن أبي. وعند ابن مردويه من وجه آخر عن نافع عن ابن عمر، وفي إسناده داود بن معاذ وهو ساقط.

١١٦٩ - قال الحافظ الزيلعي في «تخريج الكشاف» (٨٩/٣) غريب جداً.

وقال الحافظ ابن حجر: لم أجده.

سورة الأحزاب

مدنية، وهي ثلاث وسبعون آية
[نزلت بعد آل عمران]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ اتَّقِ اللَّهَ وَلَا تُطِعِ الْكَافِرِينَ وَالْمُنَافِقِينَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿١﴾ وَاتَّبِعْ مَا يُوحَىٰ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ﴿٢﴾ وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ وَكِيلًا ﴿٣﴾﴾

عن زر قال: قال لي أبي بن كعب - رضي الله عنه -: كم تعدون سورة الأحزاب؟ قلت: ثلاثاً وسبعون آية. قال: فوالذي يحلف به أبي بن كعب، إن كانت لتعدل سورة البقرة أو أطول. ولقد قرأنا منها آية الرجم: الشيخ والشيخة إذا زنيا فارجموهما البتة نكالاً من الله والله عزيز حكيم (١١٧٠). أراد أبي - رضي الله عنه - أن ذلك من جملة ما نسخ/ ٩٨/٢

١١٧٠ - أخرجه أحمد في مسنده (١٣٢/٥)، والنسائي في الكبرى (٢٧١/٤ - ٢٧٢) (٧١٥٠) والحاكم في مستدركه (٣٥٩/٤)، وابن حبان في صحيحه (٢٧٤/١٠) (٤٤٢٩) وعبد الرزاق في المصنف (٣٢٩/٧ - ٣٣٠) (١٣٣٦٣)، وأبو داود الطيالسي في مسنده (٨/٢ - ٩) (١٩١٤)، والبيهقي في الكبرى (٢١١/٨) كلهم من طرق عن عاصم بن أبي النجود عن زر بن حبیش قال: قال لي أبي بن كعب: كآين تقرأ سورة الأحزاب أو كآين تعدها... فذكر الحديث.

قلت: وعاصم بن أبي النجود واسمه عاصم بن بهدلة أبو بكر المقرئ - صدوق له أوهام كما في التقريب وقال الحاكم، صحيح الإسناد ولم يخرجاه ووافقه الذهبي.

قلت: ووقع خطأ في مسند أحمد في الآية قال: «ولقد قرأنا فيها الشيخ والشيخة إذا زنيا فارجموهما البتة نكالاً من الله والله عليم حكيم» والصحيح في الروايات الأخرى «والله عزيز حكيم». وأخرجه الحاكم (٤١٥/٢) وابن حبان في صحيحه (٢٧٣/١٠) (٤٤٢٨) من طريق حماد بن سلمة عن عاصم بن أبي النجود عن زر عن أبي بن كعب، قال: كانت سورة الأحزاب توازي سورة البقرة. فكان فيها: الشيخ والشيخة إذا زنيا، فارجموهما البتة.

وقال الحاكم: وصحيح الإسناد ولم يخرجاه ووافقه الذهبي.

والحديث عزاه الزيلعي في تخريج الكشاف (٩٣/٣) وابن حجر للطبراني في الأوسط وابن مردويه في تفسيره.

من القرآن. وأما ما يحكى: أن تلك الزيادة كانت في صحيفة في بيت عائشة - رضي الله عنها - فأكلتها الداجن فمن تأليفات الملاحدة والروافض (١١٧١). جعل نداءه بالنبي والرسول في قوله: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ اتَّقِ اللَّهَ﴾ ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ﴾ [التحریم: ١]. ﴿يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ﴾ وترك نداءه باسمه كما قال: يا آدم. يا موسى، يا عيسى. يا داود: كرامة له وتشريفاً، وربنا بمحله وتوحيهاً بفضلها. فإن قلت: إن لم يوقع اسمه في النداء فقد أوقعه في الإخبار في قوله: ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ﴾ [آل عمران: ١٤٤]. ﴿مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ﴾ [الفتح: ٢٩]. قلت: ذاك لتعليم الناس بأنه رسول الله وتلقين لهم أن يسموه بذلك ويدعوه به، فلا تفاوت بين النداء والإخبار، ألا ترى إلى ما لم يقصد به التعليم والتلقين من الأخبار كيف ذكره بنحو ما ذكره في النداء ﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ﴾ [التوبة: ١٢٨]، ﴿وَقَالَ الرَّسُولُ يَكْرَبُ﴾ [الفرقان: ٣٠]، ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ﴾ [الأحزاب: ٢١]، ﴿وَاللَّهُ وَرَسُولُهُ أَحَقُّ أَنْ يُرْضَوْهُ﴾ [التوبة: ٦٢]، ﴿الَّذِي أُولَىٰ بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنفُسِهِمْ﴾ [الأحزاب: ٦]، ﴿إِنَّ اللَّهَ

= قال الحافظ في تخریج الکشاف: أخرجه النسائي وابن حبان والحاكم والطبراني في الأوسط وابن مردويه كلهم من هذا الوجه. انتهى.

١١٧١ - أخرجه ابن ماجه في سننه (١/٦٢٥ - ٦٢٦) - كتاب النکاح (٩) - باب رضاع الكبير حديث رقم (١٩٤٤). والدارقطني في سننه (٤/١٧٩) - كتاب الرضاع، والبيهقي في معرفة السنن والآثار (٦/٩١) (٤٧٢٩)، والطبراني في الأوسط (٨/٣٩٥) (٧٨٠١). كلهم من طريق محمد بن إسحاق عن عبد الله بن أبي بكر عن عمرة عن عائشة وعن عبد الرحمن بن القاسم عن أبيه عن عائشة قالت: «لقد أنزلت آية الرجم ورضاع الكبير عشرين...».

ووقع تصحيح في المطبوع من المعرفة للبيهقي «يحيى بن إسحاق» بدلاً من «محمد بن إسحاق» والصحيح ما أثبتناه.

وقال الطبراني: لم يرو هذا الحديث عن عبد الرحمن بن القاسم إلا محمد بن إسحاق. قلت: ومحمد بن إسحاق بن يسار أبو بكر إمام في المغازي ولكنه صدوق ويدلس وقد عنعن ولم يصرح بالتحديث هنا، ولكن للحديث شاهد عن ابن أبي بريد أن الرجم أنزل في سورة الأحزاب، وكان مكتوباً في خوصة في بيت عائشة فأكلتها شاتها أخرجه إبراهيم الحربي في غريبه والحديث عزاه الزيلعي في تخریج الکشاف (٣/٩٤) لأبي يعلى في مسنده والبخاري. وقال ابن حجر: قال إبراهيم الحربي في الغريب...

قال الحافظ في تخریج أحداث الکشاف: قلت: بل راويها ثقة غير متهم. قال إبراهيم الحربي في الغريب: حدثنا هارون بن عبد الله أن الرجم أنزل في سورة الأحزاب مكتوباً في خوصة في بيت عائشة. فأكلتها شاتها، وروى أبو يعلى والدارقطني والبخاري في الأوسط، والبيهقي في المعرفة؛ كلهم من طريق محمد بن إسحاق عن عبد الله بن أبي بكر عن عائشة وعن عبد الرحمن بن القاسم عن أبيه عن عائشة. انتهى. وكان المصنف فهم أن ثبوت هذه الزيادة يقتضي ما تدعيه الروافض: أن القرآن ذهب منه أشياء. وليس ذلك بلازم، بل هذا مما نسخت تلاوته وبقي حكمه، وأكل الدواجن لها وقع بعد النسخ. انتهى.

وَمَلِكَيْكُمْ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ ﴿[الأحزاب: ٥٦]﴾، ﴿وَلَوْ كَانُوا يُؤْمِنُونَ بِاللهِ وَالنَّبِيِّ﴾ [المائدة: ٨١]. اتق الله: واطب على ما أنت عليه من التقوى، واثبت عليه، وازدد منه، وذلك لأن التقوى باب لا يبلغ آخره ﴿وَلَا تُطِيعُ الْكَافِرِينَ وَالشَّافِقِينَ﴾ لا تساعدهم على شيء. ولا تقبل لهم رأيا ولا مشورة، وجانبهم واحترس منهم، فإنهم أعداء الله وأعداء المؤمنين، لا يريدون إلا المضارة والمضادة. وروي أن النبي ﷺ لما هاجر إلى المدينة وكان يحب إسلام اليهود قريظة والنضير وبني قينقاع وقد بايعه ناس منهم على النفاق فكان يلين لهم جانبه ويكرم صغيرهم وكبيرهم. وإذا أتى منهم قبيح تجاوز عنه، وكان يسمع منهم (١١٧٢). فنزلت. وروي أن أبا سفيان بن حرب وعكرمة بن أبي جهل وأبا الأعور السلمي قدموا عليه في المودعة التي كانت بينه وبينهم. وقام معهم عبد الله بن أبي ومعتب بن قشير والجد بن قيس، فقالوا للنبي ﷺ: ارفض ذكر آلهتنا وقل إنها تشفع وتنفع وتدعك وربك، فشق ذلك على رسول الله ﷺ - وعلى المؤمنين وهموا بقتلهم (١١٧٣)، فنزلت: أي اتق الله في نقض العهد ونبد المودعة، ولا تطع الكافرين من أهل مكة والمنافقين من أهل المدينة فيما طلبوا إليك. وروي أن أهل مكة دعوا رسول الله ﷺ - إلى أن يرجع عن دينه ويعطوه شطر أموالهم، وأن يزوجه شيبه بن ربيعة بنته، وخوفه منافقو المدينة أنهم يقتلونه إن لم يرجع. فنزلت ﴿إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا﴾ بالصواب من الخطأ، والمصلحة من المفسدة ﴿حَكِيمًا﴾ لا يفعل شيئا ولا يأمر به إلا بداعي الحكمة ﴿وَأَتَيْنَا مَا يُوحَىٰ إِلَيْكَ﴾ في ترك طاعة الكافرين والمنافقين وغير ذلك ﴿إِنَّ اللَّهَ﴾ الذي يوحى إليك خبير ﴿بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ فموح إليك ما يصلح به أعمالكم، فلا حاجة بكم إلى الاستماع من الكفرة. وقرئ: يعملون، بالياء، أي: بما يعمل المنافقون من كيدهم لكم ومكرهم بكم ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ﴾ وأسند أمرك إليه وكله إلى تدبيره ﴿وَكَيْلًا﴾ حافظا موكولا إليه كل أمر.

﴿مَا جَعَلَ اللَّهُ لِرَجُلٍ مِّن قَلْبَيْنِ فِي جَوْفِهِ وَمَا جَعَلَ أَزْوَاجَكُمُ النَّسَىٰ تُظَاهِرُونَ مِنْهُنَّ أُمَّهَاتِكُمْ وَمَا جَعَلَ أَدْعِيَاءَكُمْ أَبْنَاءَكُمْ ذَٰلِكُمْ قَوْلُكُمْ بِأَفْوَاهِكُمْ وَاللَّهُ يَقُولُ الْحَقَّ وَهُوَ يَهْدِي السَّبِيلَ﴾

ما جمع الله قلبين في جوف، ولا زوجية وأمومة في امرأة، ولا بنوة ودعوة في رجل.

١١٧٢ - قال الزيلعي في تخريج الكشاف (٩٥/٣)، غريب.
وقال الحافظ: لم أجده.

١١٧٣ - ذكره الواحدي في أسباب النزول ص ٣٦٤ حديث رقم (٦٨٨) بغير إسناد وعزاه الزيلعي وابن حجر للثعلبي.

قال الحافظ في تخريج الكشاف: هكذا ذكره الثعلبي والواحدي بغير سند.

والمعنى: أن الله سبحانه كما لم ير في حكمته أن يجعل للإنسان قلبين - لأنه لا يخلو إما أن يفعل بأحدهما مثل ما يفعل بالآخر من أفعال القلوب فأحدهما فضلة غير محتاج إليها، وأما أن يفعل بهذا غير ما يفعل بذلك، فذلك يؤدي إلى اتصاف الجملة بكونه مريداً كارهاً. عالمًا ظاناً، موقناً شاكاً في حالة واحدة - ولم ير أيضاً أن تكون المرأة الواحدة أمّاً لرجل زوجاً له؛ لأن الأم مخدومة مخفوض لها جناح الذل، والزوجة مستخدمة متصرف فيها بالاستفراش وغيره كالمملوكة وهما حالتان متناقضتان، وأن يكون الرجل الواحد دعياً لرجل وابناً له؛ لأنّ البنوة أصالة في النسب وعراقة فيه، والدعوة: إلصاق عارض بالتسمية^(١) لا غير، ولا يجتمع في الشيء الواحد أن يكون أصيلاً غير أصيل، وهذا مثل ضربه الله في زيد بن حارثة وهو رجل من كلب سبي صغيراً، وكانت العرب في جاهليتها يتغاورون ويتسابون، فاشترى حكيم بن حزام لعمته خديجة، فلما تزوجها رسول الله - ﷺ - وهبته له. وطلبه أبوه وعمه، فخير فاختار رسول الله - ﷺ -، فأعتقه. وكانوا يقولون: زيد بن محمد (١١٧٤)، فأنزل الله عز وجل هذه الآية، وقوله: ﴿مَا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ﴾

١١٧٤ - عزاه الزيلعي في تخريج الكشاف (٩٦/٣) لابن أبي خيثمة في أول تاريخه بسنده إلى ابن إسحاق قال: وكان من أمر زيد بن حارثة: أنه أصابته منة من رسول الله - ﷺ - وهو من سبايا العرب من كلب في بيت منهم، كان حكيم بن حزام اشتراه من سوق صبانة بمكة... وحفظ عن سالم بن عبد الله عن أبيه قال: «ما كنا ندعوه إلا زيد بن محمد حتى أنزل الله ﴿ادْعُوهُمْ لِأَبَائِهِمْ﴾ قلت: وهذه اللفظة الأخيرة.

أخرجها البخاري في صحيحه (٤٧١/٩) - كتاب التفسير (٦٥) - سورة الأحزاب (٤٧٨٢) ومسلم (٢٠٩/٨) - كتاب فضائل الصحابة (٤٤) - باب فضل زيد بن حارثة وأسامة - (٢٤٢٥) والترمذي (٣٥٣/٥) - كتاب تفسير القرآن - سورة الأحزاب - (٣٢٠٩).

قال المحافظ في تخريج الكشاف: هكذا ذكره ابن إسحاق وابن أبي خيثمة من طريقه، وزاد في آخره: «كان رسول الله - ﷺ - أكبر منه بعشر سنين فتبناه»، وعن سالم عن أبيه قال: «ما كنا ندعوه إلا زيد بن محمد حتى أنزل الله: ﴿ادْعُوهُمْ لِأَبَائِهِمْ﴾. انتهى. وهذه الزيادة في الصحيحين عن سالم بن عبد الله بن عمر عن أبيه: «ما كنا ندعو زيد بن حارثة مولى رسول الله - ﷺ - إلا زيد بن محمد حتى نزل القرآن: ﴿ادْعُوهُمْ لِأَبَائِهِمْ﴾ الآية. انتهى.

(١) قال محمود: «أسد ما ذكر فيه من التأويلات أنهم كانوا يدعون لابن خطل قلبين. فنفى الله صحة ذلك وقرنه بما كانوا يقولونه من الأقاويل المتناقضة، كجعل الأعداء أبناء والزوجات أمهات. قال: وهذه الأمور الثلاثة متنافية: أما الأول فلأنه يلزم من اجتماع القلبين قيام أحد المعنيين بأحدهما وضده في الآخر، وذلك كالعلم والجهل والأمن والخوف وغير ذلك. وأما الثاني فلأن الزوجة في مقام الامتهان والام في محل الإكرام، فنفاى أن تكون الزوجة أمّاً. وأما الثالث فلأن البنوة أصالة وعراقة. والدعوة لاصقة عارضة، فهما متنافيان. وذكر الجوف ليصور به صورة اجتماع القلبين فيه حتى يبادره السامع بالإنكار.

[الأحزاب: ٤٠] وقيل: كان أبو معمر رجلاً من أحفظ العرب وأرواهم، فقيل له: ذو القلبين. وقيل: هو جميل بن أسد الفهري، وكان يقول: إن لي قلبين، أفهم بأحدهما أكثر مما يفهم محمد (١١٧٥)، فروي أنه انهزم يوم بدر، فمَرَّ بأبي سفيان وهو معلق إحدى نعليه بيده والأخرى في رجله، فقال له: ما فعل الناس؟ فقال: هم ٩٨/٢ ب ما بين مقتول وهارب، فقال له: ما بال إحدى نعليك في رجلك والأخرى في يدك؟ فقال: ما ظننت إلا أنهما في رجلتي، فأكذب الله قوله وقولهم، وضربه مثلاً في الظهار والتبني. وعن ابن عباس - رضي الله عنهما -: كان المنافقون يقولون: لمحمد قلبان فأكذبهم الله (١١٧٦). وقيل: سها في صلاته، فقالت اليهود: له قلبان: قلب مع أصحابه، وقلب معكم. وعن الحسن: نزلت في أن الواحد يقول: نفس تأمرني ونفس تنهاني (١١٧٧). والتذكير في رجل، وإدخال من الاستغراقية على قلبين تأكيدان لما قصد من المعنى، كأنه قال: ما جعل الله لأمة الرجال ولا لواحد منهم قلبين البتة في جوفه. فإن قلت: أي فائدة في ذكر الجوف؟ قلت: الفائدة فيه كالفائدة في قوله: ﴿الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ﴾ [الحج: ٤٦] وذلك ما يحصل للسامع من زيادة التصوّر والتجلي المدلول عليه؛ لأنه إذا سمع به صور لنفسه جوفاً يشتمل على قلبين، فكان أسرع إلى الإنكار. وقرئ: اللايء^(١)، بياء وهمزة مكسورتين. واللائي، بياء ساكنة بعد الهمزة: وتظاهرون: من ظاهر. وتظاهرون. من اظاهر، بمعنى تظاهر. وتظهرون: من أظهر، بمعنى تظهر. وتظهرون: من ظهر، بمعنى ظاهر كعقد بمعنى عاقد. وتظهرون: من ظهر، بلفظ فعل من الظهور. ومعنى ظاهر من امرأته: قال لها: أنت عليّ كظهر أمي. ونحوه في العبارة عن اللفظ: لبي المحرم، إذا قال لبيك. وأفف الرجل: إذا قال: أف وأخوات لهنّ. فإن قلت: فما وجه تعديته وأخواته بمن؟ قلت: كان الظهار طلاقاً عند أهل الجاهلية، فكانوا يتجنبون المرأة المظاهر منها كما

١١٧٥ - أخرجه ابن جرير الطبري في تفسيره (٢٥٥/١٠) (٢٨٣١٩ - ٢٨٣٢١).

١١٧٦ - أخرجه ابن جرير الطبري في تفسيره (٢٥٥/١٠) (٢٨٣١٨).

١١٧٧ - أخرجه ابن جرير الطبري في تفسيره (٢٥٥/١٠) (٢٨٣٢٢) وعزاه السيوطي في الدر المنثور (٥/٣٤٧) لابن أبي حاتم.

(١) قوله «وقرئ اللايء بياء وهمزة مكسورتين» لعل مراده قراءتان إحداهما بياء مكسورة والأخرى بهمزة مكسورة، لكن الياء ليست ياء صرفة، بل هي همزة مسهلة ينطق بها بين الهمزة والياء والحاصل: أنه قرئ اللائي بياء ساكنة بعد الهمز. وقرئ اللاء بهمزة مكسورة من غير ياء. وقرئ: اللايي شبه الياء مكسورة وهي الهمزة التي ينطق بها بين بين، وقرئ: اللاي بياء ساكنة بعد الألف من غير همز، فهذه أربع قراءات في لفظ اللائي أينما كان في القرآن، كما في شرح الشاطبية. (ع)

يتجنبون المطلقة، فكان قولهم: تظاهر منها تباعد منها بجهة الظهار، وتظهر منها: تحرز منها. وظاهر منها: حاذر منها، وظهر منها: وحش منها^(١). وظهر منها: خلص منها. ونظيره: آل من امرأته، لما ضمن معنى التباعد منها عدّى بمن، وإلا فالآلى في أصله الذي هو بمعنى: حلف وأقسم، ليس هذا بحكمه. فإن قلت: ما معنى قولهم: أنت عليّ كظهر أمي؟ قلت: أرادوا أن يقولوا: أنت عليّ حرام كبطن أمي، فكنوا عن البطن بالظهر؛ لئلا يذكروا البطن الذي ذكره يقارب ذكر الفرج، وإنما جعلوا الكناية عن البطن بالظهر لأنه عمود البطن. ومنه حديث عمر - رضي الله عنه -: يجيء به أحدهم على عمود بطنه: أراد على ظهره. ووجه آخر: وهو أن إتيان المرأة وظهرها إلى السماء كان محرماً عندهم محظوراً، وكان أهل المدينة يقولون: إذا أتيت المرأة ووجهها إلى الأرض جاء الولد أحول، فلقصده المطلق منهم إلى التغليب في تحريم امرأته عليه، شبهها بالظهر ثم لم يقنع بذلك حتى جعله ظهر أمه فلم يترك. فإن قلت: الدعيّ فعيل بمعنى مفعول، وهو الذي يدعى ولداً فما له جمع على افعلاء، وبابه: ما كان منه بمعنى فاعل، كتنقى وأتقيا، وشقيّ وأشقياء، ولا يكون ذلك في نحو رمي وسمي. قلت: إن شذوذه عن القياس كشذوذ قتلاء وأسراء، والطريق في مثل ذلك التشبيه اللفظي ﴿ذَلِكُمْ﴾ النسب هو ﴿فَوَلَّكُم بِأَنفُسِكُمْ﴾ هذا ابني لا غير من غير أن يواطئه اعتقاد لصحته وكونه حقاً. والله عز وجل لا يقول إلا ما هو حق ظاهره وباطنه، ولا يهدي إلا سبيل الحق. ثم قال ما هو الحق وهدى إلى ما هو سبيل الحق، وهو قوله ﴿ادْعُوهُمْ لِآبَائِهِمْ﴾ وبين أن دعاءهم لآبائهم هو أدخل الأمرين في القسط والعدل، وفي فصل هذه الجمل ووصلها^(٢): من الحسن والفصاحة ما لا يغيب على عالم بطرق النظم. وقرأ قتادة: وهو الذي يهدي السبيل. وقيل: كان الرجل في الجاهلية إذا أعجبه جلد الرجل وظرفه: ضمه إلى نفسه وجعل له مثل نصيب الذكر من أولاده من ميراثه، وكان ينسب إليه فيقال: فلان ابن فلان ﴿فَإِنْ لَّمْ تَعْلَمُوا﴾ لهم آباء تنسبونهم إليهم ﴿فَإِخْوَانُكُمْ فِي الدِّينِ﴾ وأولياؤكم في الدين فقولوا: هذا أخي وهذا مولاي، ويا أخي، ويا مولاي: يريد الأخوة في الدين والولاية فيه ﴿مَّا تَعَمَّدَتْ﴾ في محل الجز عطفاً على ما أخطأتم. ويجوز أن يكون مرتفعاً على الابتداء، والخبر محذوف تقديره: ولكن ما تعمدت قلوبكم فيه الجناح. والمعنى: لا إثم عليكم فيما فعلتموه من ذلك مخطئين جاهلين قبل ورود النهي، ولكن الإثم فيما تعمدتموه بعد النهي. أو لا إثم عليكم إذا قلتم لولد غيركم يا بني على سبيل الخطأ وسبق اللسان، ولكن إذا قلتموه متعمدين. ويجوز أن يراد العفو عن الخطأ دون العمد على طريق العموم، كقوله عليه الصلاة

(١) قوله «وحش منها» أي خلا منها. أفاده الصحاح. (ع)

(٢) قوله «وفي فصل هذه الجمل ووصلها» أي: فصل ما فصل منها ووصل ما وصل. (ع)

والسلام: «ما أخشى عليكم الخطأ ولكن أخشى عليكم العمد» (١١٧٨)، وقوله عليه الصلاة والسلام: «وضع عن أمتي الخطأ والنسيان وما أكرهوا عليه» (١١٧٩). ثم تناول

١١٧٨ - ورد من حديث أبي هريرة وعائشة.

أما حديث أبي هريرة: فأخرجه أحمد في مسنده (٣٠٨/٢ - ٥٣٩) - والحاكم في مستدركه (٢/ ٥٣٤) وعنه البيهقي في شعب الإيمان (٢٨١/٧ - ٢٨٢) (١٠٣١٤)، وابن حبان في صحيحه (٨/ ١٦ - ١٧) (٣٢٢٢) كلهم من طريق جعفر بن برقان عن يزيد الأصم عن أبي هريرة قال: قال النبي - ﷺ - «ما أخشى عليكم بعدي الفقر... وما أخشى عليكم الخطأ ولكني أخشى عليكم العمد».

وقال الحاكم: حديث صحيح على شرط مسلم ولم يخرجاه ووافقه الذهبي.

وقال الهيثمي في المجمع (١٢٤/٣) رواه أحمد ورجاله رجال الصحيح.

وأما حديث عائشة فعزاه الزيلعي في تخريج الكشاف (٩٦/٣ - ٩٧) للطبراني في الأوسط ومسند الشاميين.

قال الحافظ في تخريج الكشاف: أخرجه ابن حبان، والحاكم، والبيهقي في الشعب من طريق جعفر بن برقان عن يزيد بن الأصم عن أبي هريرة مرفوعاً أتم منه. وأخرجه الطبراني في الأوسط، وفي مسند الشاميين من رواية ثابت بن عجلان حدثني عطاء عن عائشة - رضي الله عنها - انتهى.

١١٧٩ - أخرجه ابن ماجه (٦٥٩/١) كتاب الطلاق: باب طلاق المكره والناس حديث (٢٠٤٥) والعقيلي في «الضعفاء» (١٤٥/٤) والبيهقي (٣٥٦/٧ - ٣٥٧) كتاب الطلاق: باب ما جاء في طلاق المكره، كلهم من طريق محمد بن المصطفى ثنا الوليد بن مسلم عن الأوزاعي عن عطاء عن ابن عباس أن رسول الله - ﷺ - قال: «إن الله تعالى تجاوز لأمتي عما استكروها عليه وعن الخطأ والنسيان» ومن طريق محمد بن المصطفى.

أخرجه أبو القاسم الفضل بن جعفر التميمي المعروف بأخي عاصم في «فوائده» والضياء المقدسي في «الأحاديث المختارة» كما في «المقاصد الحسنة» (ص ٢٢٩).

قال الحافظ البوصيري في «الزوائد» (١٣٠/٢): هذا إسناد صحيح إن سلم من الانقطاع والظاهر أنه منقطع، قال المزني في «الأطراف» رواه بشر بن بكر التنيسي عن الأوزاعي عن عطاء عن عبيد بن عمير عن ابن عباس. انتهى. وليس يبعد أن يكون السقط من صنعة الوليد بن مسلم. اهـ.

وهذا كلام جيد من الحافظ البوصيري رحمه الله والطريق الذي أشار إليه الحافظ المزني.

أخرجه ابن حبان (١٤٩٨ - موارد) والدارقطني (١٧٠/٤ - ١٧١) كتاب النذور رقم (٢٣) والطحاوي في «شرح معاني الآثار» (٩٥/٣) كتاب الطلاق: باب طلاق المكره، والحاكم (٢/ ١٩٨) كتاب الطلاق والبيهقي (٣٥٦/٧) كتاب الخلع والطلاق: باب طلاق المكره، الطبراني في «الأوسط» كما في «التلخيص» (٢٨٢/١) كلهم من طريق بشر بن بكر عن الأوزاعي عن عطاء بن رباح عن عبيد بن عمير عن ابن عباس قال البيهقي: جوده بشر بن بكر.

وقال الطبراني: لم يروه عن الأوزاعي مجوداً إلا بشر. اهـ.

ومن هذا الطريق صححه ابن حبان. وقال الحاكم: صحيح على شرط الشيخين ووافقه الذهبي.

وللحديث طرق أخرى عن ابن عباس:

الطريق الأول: أخرجه الطبراني في «الكبير» (١٣٣/١١ - ١٣٤) رقم (١١٢٧٤) من طريق مسلم بن

خالد الزنجي حدثني سعيد هو العلاف عن ابن عباس قال: قال رسول الله - ﷺ -: «إن الله عز

لعمومه خطأ التبني وعمده. فإن قلت: فإذا وجد التبني فما حكمه؟ قلت: إذا كان المتبني

== وجل تجاوز لأمتي عن الخطأ والنسيان وما استكرهوا عليه.

قال الحافظ ابن رجب في «جامع العلوم والحكم» (ص ٣٢٦): أخرجه الجوزجاني وسعيد العلاف هو سعيد بن أبي صالح قال أحمد: وهو مكّي قيل له كيف حاله؟ قال: لا أدري وما علمت أحداً روى عنه غير مسلم بن خالد قال أحمد: وليس هذا مرفوعاً إنما هو عن ابن عباس قوله نقل ذلك عنه مهنا، ومسلم بن خالد ضعفوه. اهـ.

الطريق الثاني:

أخرجه ابن عدي في «الكامل» (٢٨٢/٥) من طريق عبد الرحيم بن زيد العمي حدثني أبي عن سعيد بن جبير عن ابن عباس أن رسول الله - ﷺ - قال: «عفى لي عن أمتي الخطأ والنسيان والاستكراه» وعبد الرحيم بن زيد. قال يحيى: ليس بشيء، وقال البخاري: تركوه، وقال السعدي: غير ثقة أسند ذلك عنهم ابن عدي في «الكامل».

وقال النسائي: متروك وضعفه أبو داود وأبو زرعة التهذيب (٢٧٣/٦) وزيد العمي قال الحافظ في «التقريب» (٢٧٤/١) ضعيف.

وللحديث شواهد من حديث أبي بكرة وأبي الدرداء وأم الدرداء وثوبان وعقبة بن عامر وابن عمر وأبي ذر.

- حديث أبي بكرة:

أخرجه أبو نعيم في «أخبار أصبهان» (٩٠/١ - ٩١) وابن عدي في «الكامل» (١٥/٢) من طريق جعفر بن جسر بن فرقد عن أبيه عن الحسن عن أبي بكرة قال: قال رسول الله - ﷺ -: «رفع الله عن هذه الأمة ثلاثاً الخطأ والنسيان والأمر يكرهون عليه».

قال الحسن قول باللسان فأما اليد فلا.

ومن هذا الوجه أخرجه الحافظ في «تخريج أحاديث المختصر» (٥٠٦/١) وقال هذا حديث غريب أخرجه ابن عدي في «الكامل» عن حذيفة بن الحسن عن أبي أمية محمد بن إبراهيم عن جعفر وعده في منكرات جعفر وقال: لم أر للمتقدمين فيه كلاماً ولعل ذلك من قبل أبيه فإني لم أر له رواية عن غيره.

قلت: - أي الحافظ - أبوه ضعفه يحيى بن معين والبخاري وغيرهما. اهـ.

- حديث أبي الدرداء:

أخرجه الطبراني كما في «نصب الراية» (٦٥/٢) من طريق أبي بكر الهذلي عن شهر بن حوشب عن أم الدرداء عن أبي الدرداء قال: قال رسول الله - ﷺ -: «إن الله تجاوز لأمتي عن النسيان وما أكرهوا عليه».

قال الحافظ في «التلخيص» (٢٨٢/١): وفي إسناده ضعف.

- حديث أم الدرداء:

أخرجه ابن أبي حاتم في «تفسيره» كما في «تخريج المختصر» (٥٠٩/١) من طريق أبي بكر الهذلي عن شهر بن حوشب عن أم الدرداء عن النبي - ﷺ - قال: «إن الله تجاوز لأمتي عن ثلاث عن الخطأ والنسيان والاستكراه» قال أبو بكر - الهذلي - فذكرت ذلك للحسن فقال: أجل أما تقرأ بذلك قرآناً ﴿رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَا إِن نَّسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا﴾.

قال الحافظ: وأبو بكر الهذلي ضعيف وفي الإسناد مع ذلك انقطاع أو إرسال بالنسبة لأم الدرداء لأنها إن كانت الكبرى فمقطوع وإن كانت الصغرى فمرسل وفي شهر مقال أيضاً. اهـ.

=

مجهول النسب وأصغر سناً من المتبني ثبت نسبه منه، وإن كان عبداً له عتق مع ثبوت

= والحديث ذكره السيوطي في «الدر المنثور» (١/ ٦٦٥) وعزاه لابن أبي حاتم.

- حديث ثوبان:

أخرجه الطبراني في «الكبير» (٩٧/٢) رقم (١٤٣٠) من طريق يزيد بن ربيعة الرحبي ثنا أبو الأشعث عن ثوبان عن رسول الله - ﷺ - قال: «إن الله تجاوز عن أمتي ثلاثة الخطأ والنسيان وما أكرهوا عليه».

قال الهيثمي في «المجمع» (٢٥٣/٦): رواه الطبراني وفيه يزيد بن ربيعة الرحبي وهو ضعيف.

والحديث ضعف سنده الحافظ في «التلخيص» (١/ ٢٨٢).

- حديث عقبة بن عامر:

ذكره الهيثمي في «مجمع الزوائد» (٢٥٣/٦) وعزاه للطبراني في الأوسط وقال: وفيه ابن لهيعة وحديثه حسن وفيه ضعف.

حديث ابن عمر:

أخرجه العقيلي في «الضعفاء» (١٤٥/٤) وأبو نعيم في الحلية (٣٥٢/٦) والطبراني في «الأوسط» كما في «مجمع الزوائد» (٢٥٣/٦) كلهم من طريق محمد بن المصنف عن الوليد ثنا مالك عن نافع عن ابن عمر عن النبي - ﷺ - قال: «إن الله وضع عن أمتي الخطأ والنسيان وما استكرهوا عليه».

قال أبو نعيم: غريب من حديث مالك تفرد به ابن مصنف عن الوليد وضعفه العقيلي وأعله بابن مصنف ونقل تضعيفه عن الوليد وقال الهيثمي في «المجمع» (٢٥٣/٦): رواه الطبراني في الأوسط وفيه محمد بن مصنف وثقه أبو حاتم وغيره وفيه كلام لا يضر وبقية رجاله رجال الصحيح.

- حديث أبي ذر:

أخرجه ابن ماجه (٦٥٩/١) كتاب الطلاق: باب طلاق المكره والناسي حديث (٢٠٤٣) من طريق أبي بكر الهذلي عن شهر بن حوشب عن أبي ذر مرفوعاً.

قال البوصيري في «الزوائد» (٢/ ١٣٠) هذا إسناد ضعيف لاتفاقهم على ضعف أبي بكر الهذلي.

قلت: وللحديث علتان أخرتان ضعف شهر بن حوشب والانقطاع بينه وبين أبي ذر.

قال العلائي في «جامع التحصيل» (ص ١٩٧): شهر بن حوشب عن تميم الداري وأبي ذر وسلمان - رضي الله عنهم - وذلك مرسل. اهـ.

وحديث الباب: «رفع عن أمتي الخطأ والنسيان» صححه الحاكم وابن حبان والضياء والذهبي والنووي في الأربعين (ص ٨٥) فقال: إنه حسن.

وحسنه الحافظ في تخريج المختصر (٥١٠/١) وقال: وبمجموع هذه الطرق يظهر أن للحديث أصلاً.

وتبعه تلميذه السخاوي في «المقاصد» (ص ٢٣٠).

ورمز له السيوطي بالصحة في «الجامع الصغير» (١٧٠٥).

قال الحافظ في تخريج الكشاف: أخرجه ابن عدي من رواية حسن بن برقة حدثني أبي عن الحسن عن أبي بكره رفعه: «رفع الله عن هذه الأمة ثلاثاً: «الخطأ والنسيان والأمر المكرهون عليه» هذه من منكرات جعفر. وأخرجه ابن ماجه، وابن حبان من حديث ابن عباس. فأما ابن حبان فقال: عن عطاء عن عبيد بن عمير عنه، بلفظ: «إن الله تجاوز»، وأما ابن ماجه فقال عن الأوزاعي: «إن الله وضع». انتهى.

النسب، وإن كان لا يولد مثله لمثله لم يثبت النسب، ولكنه يعتق عند أبي حنيفة رحمه الله تعالى، وعند صاحبيه لا يعتق. وأما المعروف بالنسب فلا يثبت نسبه/ ٢/ ٩٩ بالتبني وإن كان عبداً عتق ﴿وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا﴾ لعفوه عن الخطأ وعن العمد إذا تاب العامد^(١).

﴿الَّتِي أُولَىٰ بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنْفُسِهِمْ وَأَزْوَاجُهُمْ أُمَّهَاتُهُمْ وَأُولُوا الْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِي كِتَابِ اللَّهِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُهَاجِرِينَ إِلَّا أَنْ تَفْعَلُوا إِلَىٰ أَوْلِيَائِكُمْ مَعْرُوفًا كَانَ ذَلِكَ فِي الْكِتَابِ مَسْطُورًا ﴿٦١﴾﴾

﴿الَّتِي أُولَىٰ بِالْمُؤْمِنِينَ﴾ في كل شيء من أمور الدين والدنيا ﴿مِنْ أَنْفُسِهِمْ﴾ ولهذا أطلق ولم يقيد، فيجب عليهم أن يكون أحب إليهم من أنفسهم، وحكمه أنفذ عليهم من حكمها، وحقه أثر لديهم من حقوقها، وشفقتهم عليه أقدم من شفقتهم عليها، وأن يبدلوها دونه ويجعلوها فداءه إذا أعضل خطب، ووقاهه إذا لقحت حرب، وأن لا يتبعوا ما تدعوهم إليه نفوسهم ولا ما تصرفهم عنه، ويتبعوا كل ما دعاهم إليه رسول الله - ﷺ - وصرفهم عنه، لأن كل ما دعا إليه فهو إرشاد لهم إلى نيل النجاة والظفر بسعادة الدارين وما صرفهم عنه، فأخذ بحجزهم^(٢) لئلا يتهافتوا فيما يرمي بهم إلى الشقاوة وعذاب النار. أو هو أولى بهم، على معنى أنه أرفأ بهم وأعطف عليهم وأنفع لهم، كقوله تعالى: ﴿يَا مُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ﴾ وعن النبي ﷺ: «ما من مؤمن إلا أنا أولى به في الدنيا والآخرة، اقرؤا إن شئتم ﴿الَّتِي أُولَىٰ بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنْفُسِهِمْ﴾» فأيما مؤمن هلك وترك مالا فليثره عصبته من كانوا، وإن ترك ديناً أو ضياعاً فإليّ» (١١٨٠). وفي قراءة ابن مسعود: النبي أولى بالمؤمنين من أنفسهم. وهو أب لهم. وقال مجاهد: كل نبي فهو أبو أمته، ولذلك صار المؤمنون إخوة؛ لأن النبي ﷺ أبوهم في الدين ﴿وَأَزْوَاجُهُمْ أُمَّهَاتُهُمْ﴾ تشبيه لهن بالأمهات في بعض الأحكام، وهو وجوب تعظيمهن واحترامهن، وتحريم نكاحهن. قال الله تعالى: ﴿وَلَا أَنْ تَنْكِحُوا أَزْوَاجَهُمْ مِنْ بَعْدِهِ أَبْدًا﴾ [الأحزاب: ٥٣] وهن فيما وراء ذلك بمنزلة الأجنبية، ولذلك

١١٨٠ - أخرجه البخاري في صحيحه (٣٤١/٥) - كتاب الاستقراض (٤٣) - باب الصلاة على من ترك ديناً - (٢٣٩٩). وهو عند مسلم في صحيحه (٦٧/٦ - نووي) - كتاب الفرائض (٢٣) - باب من ترك مالا فلورثته (٤) (١٦١٩) بلفظ: «أنا أولى بالمؤمنين من أنفسهم...» دون ذكر الآية. قال الحافظ في تخریج أحاديث الكشاف: أخرجه البخاري من طريق عبد الرحمن بن أبي عمرة عن أبي هريرة - رضي الله عنه - بمعناه.

- (١) قوله «وعن العمد إذا تاب العامد» هذا عند المعتزلة، وقد يغفر بمجرد الفضل عند أهل السنة. (ع)
(٢) قوله «فأخذ بحجزهم» في الصحاح «حجزة الإزار»: معقده. وحجزة السراويل: التي فيها التكة. (ع)

قالت عائشة - رضي الله عنها - : لسنا أمهات النساء (١١٨١). تعني : أنهن إنما كن أمهات الرجال، لكونهن محرمات عليهم كتحريم أمهاتهم. والدليل على ذلك : أن هذا التحريم لم يتعد إلى بناتهن، وكذلك لم يثبت لهن سائر أحكام الأمهات. كان المسلمون في صدر الإسلام يتوارثون بالولاية في الدين وبالهجرة لا بالقرابة، كما كانت تتألف قلوب قوم بإسهام لهم في الصدقات، ثم نسخ ذلك لما دجا الإسلام^(١) وعزَّ أهله، وجعل التوارث بحق القرابة ﴿فِي كِتَابِ اللَّهِ﴾ في اللوح. أو فيما أوحى الله إلى نبيه وهو هذه الآية. أو في آية الموارث. أو فيما فرض الله كقوله : ﴿كَتَبَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ﴾. ﴿مِنَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُهَاجِرِينَ﴾ يجوز أن يكون بياناً لأولي الأرحام، أي : الأقرباء من هؤلاء بعضهم أولى بأن يرث بعضاً من الأجانب. ويجوز أن يكون لابتداء الغاية، أي : أولو الأرحام بحق القرابة أولى بالميراث من المؤمنين بحق الولاية في الدين، ومن المهاجرين بحق الهجرة. فإن قلت : مم استثنى ﴿أَنْ تَفْعَلُوا﴾؟ قلت : من أعم العام في معنى النفع والإحسان، كما تقول : القريب أولى من الأجنبي إلا في الوصية، تريد : أنه أحق منه في كل نفع من ميراث وهدية وصدقة وغير ذلك، إلا في الوصية. والمراد بفعل المعروف : التوصية لأنه لا وصية لوارث وعدى تفعلوا بآلى، لأنه في معنى : تسدوا وتزلوا^(٢) والمراد بالأولياء : المؤمنون والمهاجرون للولاية في الدين ﴿ذَلِكَ﴾ إشارة إلى ما ذكر في الآيتين جميعاً. وتفسير الكتاب : ما مر آنفاً، والجملة مستأنفة كالخاتمة لما ذكر من الأرحام.

﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ النَّبِيِّينَ مِيثَاقَهُمْ وَمِنْكَ وَمِنْ نُوحٍ وَإِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ وَأَخَذْنَا مِنْهُمْ مِيثَاقًا غَلِيظًا﴾ ﴿٧﴾ لَيْسَ لِلصَّادِقِينَ عَنْ صِدْقِهِمْ وَأَعَدَّ لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿٨﴾

﴿و﴾ اذكر حين ﴿أَخَذْنَا مِنَ النَّبِيِّينَ﴾ جميعاً ﴿مِيثَاقَهُمْ﴾ بتبليغ الرسالة والدعاء إلى الدين

١١٨١ - أخرجه ابن سعد في الطبقات (٥٣/٨) - ترجمة عائشة - من طريق الفضل بن دكين حدثنا سفيان عن فراس عن الشعبي عن مسروق «قالت : امرأة لعائشة : يا أمه قالت : إني لست بأمك إنما أنا أم رجالكم».

وعزه الزيلعي للدارقطني في كتابه المؤلف والمختلف.

قال الحافظ في تخريج الكشف : أخرجه الدارقطني من رواية مضر الأعنق حدثني حرفاء قالت : قلت لعائشة : «يا أم. فقالت : لست أم النساء، إنما أم الرجال» وفي الطبقات من طريق مسروق قال : «قالت امرأة لعائشة : يا أم. فقالت عائشة : إني لست بأمك إنما أنا أم الرجال». انتهى.

(١) قوله «دجا الإسلام» في الصحاح : دجا الإسلام، أي : قوي وألبس كل شيء. (ع)

(٢) قوله «لأنه في معنى تسدوا وتزلوا» في الصحاح : أزلت إليه نعمة. أي : أسديتها. وفي الحديث : «من أزلت إليه نعمة فليشكرها» اهـ. (ع)

القيم ﴿وَمِنْكَ﴾ خصوصاً ﴿وَمِنْ نُوحٍ وَإِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى﴾ وإنما فعلنا ذلك ﴿لَيْسَ لَكَ﴾ الله يوم القيامة عند تواقف الأَشْهَادِ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ صَدَقُوا عَهْدَهُمْ وَوَفُوا بِهِ، من جملة من أشْهَدَهُمْ على أنفسهم أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قالوا: بلى ﴿عَنْ صِدْقِهِمْ﴾ عهدهم وشهادتهم، فيشهد لهم الأنبياء بأنهم صدقوا عهدهم وشهادتهم وكانوا مؤمنين. أو ليسأل المصدقين للأنبياء عن تصديقهم. لأن من قال للصادق: صدقت، كان صادقاً في قوله. أو ليسأل الأنبياء ما الذي أجابتهم به أممهم. وتأويل مسألة الرسل: تبكى الكافرين بهم، كقوله: ﴿أَنْتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأَهْلِي إِلهَيْنِ مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾ [المائدة: ١١٦]. فإن قلت: لم قدم رسول الله - ﷺ - على نوح فمن بعده ^(١) قلت: هذا العطف لبيان فضيلة الأنبياء الذين هم مشاهيرهم وذرائعهم ^(٢)، فلما كان محمد ﷺ أفضل هؤلاء المفضلين: قدم عليهم لبيان أنه أفضلهم، ولولا ذلك لقدم من قدمه زمانه. فإن قلت: فقد قدم عليه نوح عليه السلام في الآية التي هي أخت هذه الآية، وهي قوله: ﴿شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ﴾ [الشورى: ١٣] ثم قدم على غيره. قلت: مورد هذه الآية على طريقة خلاف طريقة تلك، وذلك أن الله تعالى إنما أوردها لوصف دين الإسلام بالأصالة والاستقامة فكأنه قال: شرع لكم الدين الأصيل الذي بعث عليه نوح في العهد القديم، وبعث عليه محمد خاتم الأنبياء في العهد الحديث، وبعث عليه من توسط بينهما من الأنبياء المشاهير. فإن قلت/٩٩/٢ ب: فماذا أراد بالميثاق الغليظ؟ قلت: أراد به ذلك الميثاق بعينه. معناه: وأخذنا منهم بذلك الميثاق ميثاقاً غليظاً. والغلظ: استعارة من وصف الأجرام، والمراد: عظم الميثاق وجلالة شأنه في بابهِ. وقيل الميثاق الغليظ: اليمين بالله على الوفاء بما حملوا. فإن قلت: علام عطف قوله: ﴿وَأَعَدَّ لِلْكَافِرِينَ﴾؟ قلت: على أخذنا من النبيين، لأن المعنى أن الله أكد على الأنبياء الدعوة إلى دينه لأجل إثابة المؤمنين. وأعد للكافرين عذاباً أليماً. أو على ما دل عليه ﴿لَيْسَ لَكَ الصَّدِيقِينَ﴾ كأنه قال: فأثاب المؤمنين وأعد للكافرين.

(١) قال محمود: «قدم النبي ﷺ على نوح لأنهم ذكروا تخصيصاً بعد التعميم تفضيلاً لهم فقدم أفضل المخصوصين» قال أحمد: وليس التقديم في الذكر بمقتضى ذلك. ألا ترى إلى قوله:

بهاليل منهم جعفر وابن أمه علي ومنهم أحمد المتخير

فأخر ذكر النبي ﷺ ليختم به تشريعاً له. وإذا ثبت أن التفضيل ليس من لوازمه التقديم، فيظهر والله أعلم في سر تقديمه عليه الصلاة والسلام على نوح ومن بعده في الذكر: أنه هو المخاطب من بينهم، والمنزل عليه هذا المتلو، فكان تقديمه لذلك. ثم لما قدم ذكره عليه الصلاة والسلام: جرى ذكر الأنبياء صلوات الله عليهم بعده على ترتيب أزمنة وجودهم. والله أعلم.

(٢) قوله «هم مشاهيرهم وذرائعهم» ولعله «دراريهم» بالذال المهملة. والدراري: الكواكب العظام، كما أفاده الصحاح. (ع)

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَاءَتْكُمْ جُنُودٌ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا وَجُنُودًا لَمْ تَرَوْهَا وَكَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا ﴿٩﴾ إِذْ جَاءُوكُمْ مِنْ فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنْكُمْ وَإِذْ زَاغَتِ الْأَبْصَارُ وَبَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِاللَّهِ الظَّنُونَا ﴿١٠﴾ هُنَالِكَ ابْتُلِيَ الْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا زِلْزَالًا شَدِيدًا ﴿١١﴾

﴿أَذْكُرُوا﴾ ما أنعم الله عليكم يوم الأحزاب وهو يوم الخندق ﴿إِذْ جَاءَتْكُمْ جُنُودٌ﴾ وهم الأحزاب، فأرسل الله عليهم ريح الصبا. قال رسول الله - ﷺ -: «نصرت بالصباء وأهلكت عاد بالدبور» (١١٨٢). ﴿وَجُنُودًا لَمْ تَرَوْهَا﴾ وهم الملائكة وكانوا ألفاً: بعث الله عليهم صبا باردة في ليلة شاتية، فأخصرتهم^(١) وسفت التراب في وجوههم، وأمر الملائكة فقلعت الأوتاد، وقطعت الأطناب، وأطفأت النيران، وأكفأت القدور، وماجت الخيل بعضها في بعض، وقذف في قلوبهم الرعب، وكبرت الملائكة في جوانب عسكرهم، فقال طليحة بن خويلد الأسدي: أما محمد فقد بدأكم بالسحر، فالتجاء النجاء، فانهزموا من غير قتال، وحين سمع رسول الله - ﷺ - بإقبالهم ضرب الخندق على المدينة، أشار عليه بذلك سلمان الفارسي - رضي الله عنه -، ثم خرج في ثلاثة آلاف من المسلمين فضرب معسكره والخندق بينه وبين القوم، وأمر بالذراري والنساء فرفعوا في الآطام^(٢) واشتد الخوف، وظن المؤمنون كل ظن، ونجم النفاق من المنافقين حتى قال معتب بن قشير: كان محمد يعدنا كنوز كسرى وقصر لا نقدر أن نذهب إلى الغائط. وكانت قريش قد أقبلت في عشرة آلاف من الأحابيش وبني كنانة وأهل تهامة وقائدهم أبو سفيان، وخرج غطفان في ألف ومن تابعهم من أهل نجد وقائدهم عيينة بن حصن، وعامر بن الطفيل في هوازن، وضامتهم اليهود من قريظة والنضير، ومضى على الفريقين قريب من شهر لا حرب بينهم إلا الترامي بالنبل والحجارة، حتى أنزل الله النصر (١١٨٣). ﴿تَعْمَلُونَ﴾ قرئ بالتاء والياء ﴿مِنْ فَوْقِكُمْ﴾ من أعلى الوادي من قبل المشرق: بنو غطفان ﴿وَمِنْ أَسْفَلَ مِنْكُمْ﴾ من أسفل

١١٨٢ - تقدم تخريجه في سورة البقرة.

قال الحافظ في تخريج الكشاف: متفق عليه من حديث ابن عباس - رضي الله عنهما -.

١١٨٣ - أخرجه ابن إسحاق في «سيرته» (١٣٤٨ - سيرة ابن هشام) وذكره ابن هشام في سيرته (١٩٧/٣) من قول ابن إسحاق.

(١) قوله «فأخصرتهم» في الصحاح «الخصر» بالتحريك: البرد. وقد خصر الرجل: إذا ألمه البرد في

أطرافه اهـ. فأخصرتهم: أوقعتهم في الخصر أي البرد. (ع)

(٢) قوله «فرفعوا في الآطام» أي الحصون، وهو جمع أطم كعتق. (ع)

الوادي من قبل المغرب: قريش تحزبوا وقالوا: سنكون جملة واحدة حتى نستأصل محمداً ﴿زَاعَتِ الْأَبْصَارُ﴾ مالت عن سنها ومستوى نظرها حيرة وشخوصا. وقيل: عدلت عن كل شيء فلم تلتفت إلا إلى عدوها لشدة الروح. الحنجرة: رأس الغلصمة وهي منتهى الحلقوم. والحلقوم: مدخل الطعام والشراب، قالوا: إذا انتفخت الرئة من شدة الفزع أو الغضب أو الغم الشديد: ربت وارتفع القلب بارتفاعها إلى رأس الحنجرة، ومن ثمة قيل للجبان: انتفخ سحره. ويجوز أن يكون ذلك مثلاً في اضطراب القلوب ووجيبها وإن لم تبلغ الحناجر حقيقة ﴿وَتَطْنُونَ بِاللَّهِ الظُّنُونَا﴾ خطاب للذين آمنوا. ومنهم الثبت القلوب والأقدام، والضعاف القلوب: الذين هم على حرف، والمنافقون: الذين لم يوجد منهم الإيمان إلا بالسنتهم فظن الأولون بالله أنه يتبليهم ويفتنهم فخافوا الزلل وضعف الاحتمال، وأما الآخرون فظنوا بالله ما حكى عنهم. وعن الحسن: ظنونا ظنوناً مختلفة: ظن المنافقون أن المسلمين يستأصلون، وظن المؤمنون أنهم يتلون. وقرئ: الظنون، بغير ألف في الوصل والوقف وهو القياس، وبزيادة ألف في الوقف زادوها في الفاصلة؛ كما زادها في القافية من قال [من الوافر]:

أَقْلِي اللُّومَ عَاذِلَ وَالْعِتَابَا
.....

= وأخرجه الطبري في «تاريخه» (٥٦٥/٢) من طريق ابن إسحاق عن يزيد بن رومان عن عروة عن عبد الله بن أبي بكر ومحمد بن كعب وغيرهم من علمائنا فذكره.
قال الحافظ ابن حجر في «تخريج الكشاف»: أخرجه ابن إسحاق في المغازي ومن طريقه الطبري عن يزيد بن رومان عن عروة عن عبد الله بن أبي بكر ومحمد بن كعب وغيرهم من علمائنا فذكر القصة بطولها وأتم مما هنا وهو في السيرة لابن هشام من قول إسحاق. انتهى.
قال الحافظ في تخريج الكشاف: أخرجه ابن إسحاق في المغازي. ومن طريقه الطبري عن زيد بن رومان عن عروة عن عبد الله بن أبي بكر ومحمد بن كعب وغيرهم من علمائنا، فذكر القصة بطولها وأتم مما هنا. وهو في السيرة لابن هشام من قول إسحاق. انتهى.

(١) أقلي اللوم عاذل والعتابا وقولي إن أصبت: لقد أصابا
إذا غضبت علي بنو تميم وجدت الناس كلهم غضابا

لجريز، وزاد الألف في القافية للإطلاق، وبنو تميم ينشدون مثل ذلك بتنوين الترنم بدل حرف الإطلاق. قال الزمخشري: إذا وصل المنشد ولم يقف، وظاهر كلام النحويين: أنه إنما يجيء في الوقف. وعاذل: منادي، مرخم عاذله. يقول: اتركي ملامي وعتابي، وإن فعلت صوابا فاعترفي به، ويروى بكسر التاء، فالمعنى: أن لومك خطأ فإذا أردت الصواب فقولني: لقد أصاب، وجعل غضب بني تميم غضب كل الناس؛ لأن ما عداهم تبع، أو كالمعدوم. ويروى: إذا غضبت عليك، والخطاب لكل سامع.

ينظر: ديوانه ص ٨١٣، وخزانة الأدب ٦٩/١، ٣٣٨، ١٥١/٣، والخصائص ٦/٢، والدرر ٥/١٧٦، ٢٣٣/٦، ٣٠٩، وشرح أبيات سيبويه ٣٤٩/٢، وسر صناعة الإعراب ص ٤٧١، ٤٧٩، =

وكذلك الرسولا والسيلا. وقرئ: بزيادتها في الوصل أيضاً، إجراء له مجرى الوقف. قال أبو عبيد: وهن كلهن في الإمام بألف. وعن أبي عمرو إشمام زاي زلزلوا. وقرئ زلزالا بالفتح. والمعنى: أن الخوف أزعجهم أشد الإزعاج.

﴿وَإِذْ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَّرَضٌ مَّا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ إِلَّا غُرُورًا ۝١٢﴾ وَإِذْ قَالَتْ طَّائِفَةٌ مِّنْهُمْ يَا أَهْلَ يَثْرِبَ لَا مُقَامَ لَكُمْ فَارْجِعُوا وَيَسْتَأْذِنُ فَرِيقٌ مِّنْهُمُ النَّبِيَّ يَقُولُونَ إِنَّ بُيُوتَنَا عَوْرَةٌ وَمَا هِيَ بِعَوْرَةٍ إِن يُرِيدُونَ إِلَّا فِرَارًا ۝١٣ وَلَوْ دُخِلَتْ عَلَيْهِم مِّنْ أَقْطَارِهَا ثُمَّ سَأِلُوا أَلْفِتَنَةً لَّآتَوْهَا وَمَا تَلَبَّثُوا فِيهَا إِلَّا بَسِيرًا ۝١٤﴾

﴿إِلَّا غُرُورًا﴾ قيل قائله معتب بن قشير حين رأى الأحزاب قال: يعدنا محمد فتح فارس والروم، وأحدنا لا يقدر أن يتبرز فرقا^(١)، ما هذا إلا وعد غرور ﴿طَّائِفَةٌ مِّنْهُمْ﴾ هم أوس بن قيطي ومن وافقه على رأيه. وعن السدي: عبد الله بن أبي وأصحابه. ويثرب: اسم المدينة. وقيل: أرض وقعت المدينة في ناحية منها ﴿لَا مُقَامَ لَكُمْ﴾ قرئ بضم الميم وفتحها، أي لا قرار لكم ههنا، ولا مكان تقيمون فيه أو تقومون ﴿فَارْجِعُوا﴾ إلى المدينة: أمروهم بالهرب من عسكر رسول الله - ﷺ -، وقيل: قالوا لهم: ارجعوا كفاراً وأسلموا محمداً، وإلا فليست يثرب لكم بمكان. قرئ: عورة، بسكون الواو وكسرها، فالعورة: الخلل، والعورة: ذات العورة، يقال: عور المكان عوراً إذا بدا فيه خلل يخاف منه العدو والسارق. ويجوز أن تكون (عورة) تخفيف: عورة، اعتذروا / ٢ / ١٠٠ أأن بيوتهم معرضة للعدو ممكنة للسراق، لأنها غير محرزة ولا محصنة، فاستأذنه ليحصنها ثم يرجعوا إليه، فأكذبهم الله بأنهم لا يخافون ذلك، وإنما يريدون الفرار ﴿وَلَوْ دُخِلَتْ عَلَيْهِمُ الْمَدِينَةُ﴾ وقيل: بيوتهم، من قولك: دخلت على فلان داره ﴿مِّنْ أَقْطَارِهَا﴾ من جوانبها، يريد: ولو دخلت هذه العساكر المتحيزة التي يفرون خوفاً منها مدينتهم وبيوتهم من نواحيها كلها. وانثالت^(٢) على أهاليهم وأولادهم ناهبين سابيين، ثم سئلوا عند ذلك الفرع وتلك الرجفة ﴿أَلْفِتَنَةً﴾

= ٤٨٠، ٤٨١، ٤٩٣، ٥٠١، ٥٠٣، ٥١٣، ٦٧٧، ٧٢٦، وشرح الأشموني ١٢/١، وشرح شواهد المغني ٧٦٢/٢، وشرح المفصل ٢٩/٩، والكتاب ٢٠٥/٤، ٢٠٨، والمقاصد النحوية ٩١/١، وجمع الهوامع ٨٠/٢، ٢١٢، وبلا نسبة في الإنصاف ص ٦٥٥، وجواهر الأدب ص ١٣٩، ١٤١، وأوضح المسالك ١٦/١، وخزانة الأدب ٤٣٢/٧، ٣٧٤/١١، ووصف المباني ص ٢٩، ٣٥٣، وشرح ابن عقيل ص ١٧، وشرح عمدة الحفاظ ص ٩٨، وشرح المفصل ١٥/٤، ١٤٥، ٩/٧، ولسان العرب (خنا)، والمنصف ٢٢٤/١، ٧٠/٢، ونوادير أبي زيد ص ١٢٧.

(١) قوله «فرقا» أي خوفاً. (ع)

(٢) قوله «وانثالت» في الصحاح: انثال عليه الناس من كل وجه، أي: انصبوا. (ع)

أي الردة والرجعة إلى الكفر ومقاتلة المسلمين، لأتوها: لجأوها وفعلوها. وقرئ: لآتوها: لأعطوها ﴿وَمَا تَكْتُمُوا بِهَا﴾ وما ألبثوا إعطاءها ﴿إِلَّا يَسِيرًا﴾ ريثما يكون السؤال والجواب من غير توقف. أو وما لبثوا بالمدينة بعد ارتدادهم إلا يسيراً، فإن الله يهلكهم. والمعنى: أنهم يتعللون بإعوار بيوتهم، ويتمحلون ليفروا عن نصرة رسول الله - ﷺ - والمؤمنين، وعن مصافة الأحزاب الذين ملؤهم هولاً وروعاً؛ وهؤلاء الأحزاب كما هم لو كبسوا^(١) عليهم أرضهم وديارهم وعرض عليهم الكفر وقيل لهم كونوا على المسلمين، لسارعوا إليه وما تعللوا بشيء، وما ذاك إلا لمقتهم الإسلام. وشدة بغضهم لأهله، وحبهم الكفر وتهالكهم على حبه.

﴿وَلَقَدْ كَانُوا عَاهِدُوا اللَّهَ مِنْ قَبْلُ لَا يُؤَلُّونَ الْأَدْبَرَ وَكَانَ عَهْدُ اللَّهِ مَسْئُولًا ۝١٥﴾ قُلْ لَنْ يَنْفَعَكُمْ الْفِرَارُ إِنْ فَرَرْتُمْ مِنَ الْمَوْتِ أَوِ الْقَتْلِ وَإِذَا لَا تُمْنعُونَ إِلَّا قَلِيلًا ۝١٦﴾

عن ابن عباس: عاهدوا رسول الله - ﷺ - ليلة العقبة أن يمنعوه مما يمنعون منه أنفسهم. وقيل: هم قوم غابوا عن بدر فقالوا: لئن أشهدنا الله قتالاً لنقاتلن. وعن محمد بن إسحاق عاهدوا يوم أحد أن لا يفروا بعدما نزل فيهم ما نزل ﴿مَسْئُولًا﴾ مطلوباً مقتضى حتى يوفي به ﴿لَنْ يَنْفَعَكُمْ الْفِرَارُ﴾ مما لا بد لكم من نزوله بكم من حتف أنف أو قتل. وإن نفعكم الفرار مثلاً فمنعتم بالتأخير: لم يكن ذلك التمتع إلا زماناً قليلاً. وعن بعض المروانية: أنه مرّ بحائط مائل فأسرع، فتليت له هذه الآية فقال: ذلك القليل نطلب.

﴿قُلْ مَنْ ذَا الَّذِي يَعْصِمُكُمْ مِنَ اللَّهِ إِنْ أَرَادَ بِكُمْ سُوءًا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ رَحْمَةً وَلَا يَجِدُونَ لَهُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ۝١٧﴾

فإن قلت: كيف جعلت الرحمة قرينة السوء في العصمة ولا عصمة إلا من السوء؟ قلت: معناه أو يصيبكم بسوء إن أراد بكم رحمة، فاختصر الكلام وأجرى مجرى قوله [من مجزوء الكامل]:

مُتَقَلِّدًا سَيْفًا وَرُمْحًا^(٢)

(١) قوله «لو كبسوا» في الصحاح: كبسوا دار فلان: أغاروا عليها فجأة. (ع)

(٢) ورأيت زوجك في الوغى متقلداً سيفاً ورمحاً

الوغي: الحرب. ورمحاً: نصب بمحذوف يناسبه، أي: متقلداً سيفاً وحاملاً رمحاً. وروي بدل الشطر الأول: «يا ليت زوجك قد غدا» أي: ذهب إلى الحرب غدوة لابساً سلاحه.

وهو بلا نسبة في الأشباه والنظائر ١٠٨/٢، ٢٣٨/٦، وأمثالي المرتضى ٥٤/١، والإنصاف ٢/ =

أو حمل الثاني على الأول لما في العصمة من معنى المنع.

﴿قَدْ يَعْلَمُ اللَّهُ الْمُؤَوِّقِينَ مِنْكُمْ وَالْقَائِلِينَ لِإِخْوَانِهِمْ هَلُمَّ إِلَيْنَا وَلَا يَأْتُونَ الْبَاسَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ (١٨)
أَشْحَةً عَلَيْكُمْ فَإِذَا جَاءَ الْخَوْفُ رَأَيْتَهُمْ يَنْظُرُونَ إِلَيْكَ تَدُورُ أَعْيُنُهُمْ كَالَّذِي يُغْشَى عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ
فَإِذَا ذَهَبَ الْخَوْفُ سَلَفُوكُمْ بِالسِّنَةِ حِدَادٍ أَشْحَةً عَلَى الْخَيْرِ أُولَئِكَ لَمْ يُؤْمِنُوا فَأَحْبَطَ اللَّهُ
أَعْمَالَهُمْ وَكَانَ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرًا ﴿١٩﴾ يَحْسَبُونَ الْأَحْزَابَ لَمْ يَذْهَبُوا وَإِنْ يَأْتِ الْأَحْزَابُ يَوَدُّو
لَوْ أَنَّهُمْ بَادُونَ فِي الْأَعْرَابِ يَسْأَلُونَ عَنْ أَنْبَائِكُمْ وَلَوْ كَانُوا فِيكُمْ مَا قَتَلُوا إِلَّا
قَلِيلًا ﴿٢٠﴾

﴿الْمُؤَوِّقِينَ﴾ المبططين عن رسول الله - ﷺ - وهم المنافقون: كانوا يقولون ﴿لِإِخْوَانِهِمْ﴾
من ساكني المدينة من أنصار رسول الله - ﷺ -: ما محمد وأصحابه إلا أكلة رأس^(١)، ولو
كانوا لحمًا لالتهمهم أبو سفيان وأصحابه، فخلوهم و﴿هَلُمَّ إِلَيْنَا﴾ أي قربوا أنفسكم إلينا.
وهي لغة أهل الحجاز: يسوون فيه بين الواحد والجماعة. وأما تميم فيقولون: هلم
يا رجل، وهلموا يا رجال، وهو صوت سمي به فعل متعد مثل احضر وقرب (قل هلم
شهداءكم) ﴿إِلَّا قَلِيلًا﴾ إلا إتيانًا قليلًا يخرجون مع المؤمنين يوهمونهم أنهم معهم، ولا
نراهم يبارزون ويقاتلون إلا شيئًا قليلًا إذا اضطروا إليه، كقوله: ﴿مَا قَتَلُوا إِلَّا قَلِيلًا﴾.
﴿أَشْحَةً عَلَيْكُمْ﴾ في وقت الحرب أضناء بكم، يترففون عليكم كما يفعل الرجل بالذاب
عنه المناضل دونه عند الخوف ﴿يَنْظُرُونَ إِلَيْكَ﴾ في تلك الحالة كما ينظر المغشي عليه من
معالجة سكرات الموت حذرًا وخورًا ولو آذا بك، فإذا ذهب الخوف وحيزت الغنائم
ووقعت القسمة: نقلوا ذلك الشخ وتلك الضنة والرفرة عليكم إلى الخير - وهو المال
والغنيمة - ونسوا تلك الحالة الأولى، واجتروا عليكم وضربوكم بالسنتهم وقالوا: وفروا
قسمتنا فإننا قد شاهدناكم وقاتلنا معكم، وبمكاننا غلبتم عدوكم وبنا نصرتم عليه. ونصب
﴿أَشْحَةً﴾ على الحال أو على الذم. وقرئ: أشحة، بالرفع. وصلقوكم بالصاد. فإن قلت:
هل يثبت للمنافق عمل حتى يرد عليه الإحباط؟ قلت: لا ولكنه تعلم لمن عسى يظن أن
الإيمان باللسان إيمان وإن لم يوطئه القلب، وأن ما يعمل المنافق من الأعمال يجدي

= ٦١٢، وخزانة الأدب ٢/٢٣١، ٣/١٤٢، ٩/١٤٢، والخصائص ٢/٤٣١، وشرح شواهد الإيضاح
ص ١٨٢، وشرح المفصل ٢/٥٠، ولسان العرب (رغب)، (زجاج)، (مسح)، (قلد)، (جدع)،
(جمع)، (هدى)، والمقتضب ٢/٥١.

(١) قوله «ما محمد وأصحابه إلا أكلة رأس» أي قليلون يشبعهم رأس واحد، وهو جمع آكل، والالتهام:
الابتلاع، كذا في الصحاح. (ع)

عليه، فبين أن إيمانه ليس بإيمان، وأن كل عمل يوجد منه باطل. وفيه بعث على إتقان المكلف أساس أمره وهو الإيمان الصحيح، وتنبيهه على أن الأعمال الكثيرة من غير تصحيح المعرفة كالبناء على غير أساس، وأنها مما يذهب عند الله هباءً منثوراً. فإن قلت: ما معنى قوله: ﴿وَكَانَ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرًا﴾ وكل شيء عليه يسير؟ قلت: معناه: أن أعمالهم حقيقة بالإحباط، تدعو إليه الدواعي، ولا يصرف عنه/٢/ ١٠٠ ب صارف ﴿يَحْسِبُونَ﴾ أن الأحزاب لم ينهزموا، وقد انهزموا فانصرفوا عن الخندق إلى المدينة راجعين لما نزل بهم من الخوف الشديد ودخلهم من الجبن المفرط ﴿وَإِن يَأْتِ الْأَحْزَابُ﴾ كَرَّة ثانية، تمنوا لخوفهم مما منوا^(١) به هذه الكَرَّة أنهم خارجون إلى البدو حاصلون بين الأعراب ﴿يَسْتَلُونَ﴾ كل قادم منهم من جانب المدينة عن أخباركم وعما جرى عليكم ﴿وَوَرَّكَائُوا فِيكُمْ﴾ ولم يرجعوا إلى المدينة وكان قتال - ولم يقاتلوا إلا تعلقة^(٢) رياء وسمعة. وقرئ: بدّي، على فعل جمع باد كغاز وغزّي. وفي رواية صاحب الإقليد: بدّي، بوزن عدي. ويساءلون، أي: يتساءلون. ومعناه: يقول بعضهم لبعض: ماذا سمعت؟ ماذا بلغك؟ أو يتساءلون الأعراب كما تقول: رأيت الهلال وتراءيناه: كان عليكم أن تواسوا رسول الله - ﷺ - بأنفسكم فتوازروه وتثبتوا معه، كما آساكم بنفسه في الصبر على الجهاد والثبات في مرعى الحرب^(٣)، حتى كسرت رباعيته يوم أحد وشج وجهه.

﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُوا اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ

كَثِيرًا﴾

فإن قلت: فما حقيقة قوله: ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ﴾ وقرئ: أسوة^(٤)، بالضم؟ قلت: فيه وجهان، أحدهما: أنه في نفسه أسوة حسنة، أي: قدوة، وهو الموتى، أي: المقتدى به، كما تقول: في البيضة عشرون منا حديد، أي: هي في نفسها هذا المبلغ من الحديد. والثاني: أن فيه خصلة من حقها أن يؤتسى بها وتتبع. وهي المواساة بنفسه ﴿لِّمَن كَانَ يَرْجُوا اللَّهَ﴾ بدل من لكم، كقوله: ﴿لِّلَّذِينَ اسْتُضِغُوا لِمَن ءَامَنَ مِنْهُمْ﴾ [الأعراف: ٧٥] يرجو الله واليوم الآخر: من قولك رجوت زيدا وفضله، أي: فضل زيد. أو يرجو أيام الله. واليوم الآخر خصوصاً. والرجاء بمعنى الأمل أو الخوف ﴿وَذَكَرَ اللَّهَ

(١) قوله «مما منوا به» أي ابتلوا به. (ع)

(٢) قوله «إلا تعلقة» في الصحاح: علله بالشيء، أي: لها به، كما يعلل الصبي بشيء من الطعام يتجزأ به عن اللبن. يقال: فلان يعلل نفسه بتعلقة. (ع)

(٣) قوله «في مرعى الحرب» أي مكان إدارة رحاها. أفاده الصحاح. (ع)

(٤) قوله «وقرئ أسوة بالضم» يفيد أن قراءة الكسر هي المشهورة. (ع)

كثيراً ﴿٢١﴾ وقرن الرجاء بالطاعات الكثيرة والتوفر على الأعمال الصالحة، والمؤتسى برسول الله - ﷺ -: من كان كذلك .

﴿وَلَمَّا رَأَى الْمُؤْمِنُونَ الْأَحْزَابَ قَالُوا هَذَا مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَصَدَقَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَمَا زَادَهُمْ إِلَّا إِيمَانًا وَتَسْلِيمًا﴾ ﴿٢٢﴾

وعدهم الله أن يزلزلوا حتى يستغيثوه ويستنصروه في قوله: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تُدْخَلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُمْ مَثَلُ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِكُمْ﴾ [البقرة: ٢١٤] فلما جاء الأحزاب وشخص بهم واضطربوا ورعبوا الرعب الشديد ﴿قَالُوا هَذَا مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ﴾ وأيقنوا بالجنة والنصر. وعن ابن عباس - رضي الله عنهما -: قال قال النبي ﷺ لأصحابه: إن الأحزاب سائرون إليكم تسعاً أو عشرة، أي: في آخر تسع ليال أو عشر، فلما رأوهم قد أقبلوا للميعاد قالوا ذلك (١١٨٤). وهذا إشارة إلى الخطب أو البلاء ﴿إِيمَانًا﴾ بالله وبمواعيده ﴿وَتَسْلِيمًا﴾ لقضاياه وأقداره.

﴿مِنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُمْ مَن قَضَىٰ نَجْبُهُ وَمِنْهُمْ مَن يَنْظُرُ وَمَا بَدَلُوا تَبْدِيلًا﴾ ﴿٢٣﴾ لِيَجْزِيَ اللَّهُ الصَّادِقِينَ بِصِدْقِهِمْ وَيُعَذِّبَ الْمُنَافِقِينَ إِنْ شَاءَ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ إِنْ اللَّهُ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ ﴿٢٤﴾ وَرَدَّ اللَّهُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِغَيْظِهِمْ لَمْ يَنَالُوا خَيْرًا وَكَفَىٰ اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ الْقِتَالَ وَكَانَ اللَّهُ فَوِيًّا عَزِيزًا﴾ ﴿٢٥﴾ وَأَنْزَلَ الَّذِينَ ظَاهَرُوهُمْ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مِنْ صَيَاصِيهِمْ وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ فَرِيقًا تَقْتُلُونَ وَتَأْسِرُونَ فَرِيقًا﴾ ﴿٢٦﴾ وَأَوْرَثَكُم أَرْضَهُمْ وَدِيَارَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ وَأَرْضًا لَّمْ تَطْثُوهَا وَكَانَ اللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرًا﴾ ﴿٢٧﴾

نذر رجال من الصحابة أنهم إذا لقوا حرباً مع رسول الله - ﷺ - ثبتوا وقاتلوا حتى يستشهدوا، وهم: عثمان بن عفان، وطلحة بن عبيد الله، وسعيد بن زيد بن عمرو بن نفيل. وحمزة، ومصعب بن عمير، وغيرهم، - رضي الله عنهم - ﴿فَمِنْهُمْ مَن قَضَىٰ نَجْبُهُ﴾ يعني حمزة ومصعباً ﴿وَمِنْهُمْ مَن يَنْظُرُ﴾ يعني عثمان وطلحة. وفي الحديث: «من أحب أن ينظر إلى شهيد يمشي على وجه الأرض فلي نظر إلى طلحة» (١١٨٥)، فإن قلت: ما قضاء

١١٨٤ - بيض له الزيلعي في «تخريج الكشاف» (٣/ ١٠٠).

وقال الحافظ ابن حجر في «تخريج الكشاف»: لم أجده. انتهى.

١١٨٥ - أخرجه الترمذي (٥/ ٦٤٤) - كتاب المناقب (٥٠) - باب مناقب طلحة بن عبيد الله - رضي الله عنه - (٣٧٣٩) من طريق صالح بن موسى الطلحي من ولد طلحة بن عبيد الله عن الصلت بن دينار عن أبي نضرة قال: قال جابر بن عبد الله سمعت رسول الله - ﷺ - يقول: «من سره أن ينظر إلى =

النحب؟ قلت: وقع عبارة عن الموت؛ لأن كل حي لا بد له من أن يموت. فكأنه نذر لازم في رقبته، فإذا مات فقد قضى نحبه، أي: نذره. وقوله: ﴿فَمِنْهُمْ مَّنْ قَضَىٰ نَحْبَهُ﴾ يحتمل موته شهيداً، ويحتمل وفاءه بنذره من الثبات مع رسول الله - ﷺ -. فإن قلت: فما حقيقة قوله: ﴿صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ﴾؟ قلت: يقال: صدقني أخوك وكذبني، إذا قال لك الصدق والكذب. وأما المثل: صدقني سن بكره. فمعناه: صدقني في سن بكره، بطرح الجار وإيصال الفعل، فلا يخلو ﴿مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ﴾ إما أن يكون بمنزلة السن في طرح الجار، وإما أن يجعل المعاهد عليه مصدوقاً على المجاز، كأنهم قالوا للمعاهد عليه: سنفي بك، وهم وافون به فقد صدقوه، ولو كانوا ناكثين لكذبوه ولكان مكذوباً ﴿وَمَا بَدَلُوا﴾ العهد ولا غيره، لا المستشهد ولا من ينتظر الشهادة، ولقد ثبت طلحة مع رسول الله - ﷺ -. يوم أحد حتى أصيبت يده، فقال رسول الله - ﷺ -: «أوجب طلحة» (١١٨٦) وفيه تعريض بمن بدلوا من أهل النفاق ومرض القلوب: جعل المنافقون، كأنهم

= شهيد... فذكره.

وقال الترمذي: حديث غريب لا نعرفه إلا من حديث الصلت وقد تكلم بعض أهل العلم في الصلت بن دينار وفي صالح بن موسى من قبل حفظهما.

قلت: وتابع صالح بن موسى مسلم بن إبراهيم عند البغوي في تفسيره (٥٢٠/٣)، ووکیع عند ابن ماجه في سننه (٤٦/١) - المقدمة - فضل طلحة بن عبيد الله (١٢٥) بلفظ: «شهيد يمشي على وجه الأرض».

وأبو داود الطيالسي في مسنده (١٤٦/٢) (٢٥٤٧) حدثنا الصلت بن دينار به لكن: الصلت بن دينار الأزدي أبو شعيب المجنون متروك كما في التقريب (٣٦٩/١) وله طريق آخر عند الطبراني في معجمه الكبير (١١٧/١) (٢١٥) من طريق سليمان بن أيوب حدثني أبي عن جدي عن موسى بن طلحة عن أبيه قال: كان النبي - ﷺ - إذا رأيته قال: «من أحب أن ينظر...».

وهذا سند ضعيف فإن سليمان بن أيوب صاحب مناكير ولا يتابع على أحاديثه كما قال ابن مهدي. وقال الهيثمي في المجمع (١٤٩/٩) «رواه الطبراني، وفيه سليمان بن أيوب الطلحي وقد وثق وضعفه جماعة، وفيه جماعة لم أعرفهم».

قلت: وللحديث شواهد يرتقى بها إلى الصحة.

قال الحافظ في تخريج الكشاف: أخرجه الترمذي وابن ماجه والحاكم من طريق الصلت بن دينار عن أبي نصر عن جابر. والصلت ضعيف وله طريق أخرى عند الطبراني من طريق أولاد طلحة عن طلحة. انتهى.

١١٨٦ - قال الزيلعي في «تخريج الكشاف» (١٠١/٣) لم يرو هكذا بهذا اللفظ إلا الشعلبي: أخبرنا عبد الله بن حامد ثنا أحمد بن محمد بن شاذان ثنا جيعونة بن محمد الترمذي ثنا صالح بن محمد بن سليمان بن حرب عن جرير عن عروة عن عائشة في قوله تعالى: ﴿مِنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ﴾ قالت: منهم طلحة بن عبيد الله ثبت مع رسول الله - ﷺ -... إلى آخره. اهـ.

وقد روي هذا الحديث مفرقاً. فقله - ﷺ -: «أوجب طلحة».

أخرجه الترمذي (٢٠١/٤) كتاب الجهاد باب ما جاء في الدرع حديث (١٦٩٢) وفي (٦٤٣/٥)

قصدا عاقبة السوء وأرادوها بتبديلهم، كما قصد الصادقون عاقبة الصدق يوفائهم لأن كلا الفريقين مسوق إلى عاقبته من الثواب والعقاب، فكأنهما استويا في طلبهما والسعي لتحصيلهما. ويعذبهم ﴿إِنْ شَاءَ﴾ إذا لم يتوبوا ﴿أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ﴾ إذا تابوا ﴿وَرَدَّ اللَّهُ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ الأحزاب ﴿يَغْطِيهِمْ﴾ مغيطين، كقوله: ﴿تَبَّتْ يُالَ ذُنُوبٍ﴾ [المؤمنون: ٢٠]. ﴿لَمْ يَنَالُوا خَيْرًا﴾ غير ظافرين، وهما حالان بتداخل أو تعاقب/ ١٠١/٢. ويجوز أن تكون الثانية بيانا للأولى أو استثناءً ﴿وَكَفَى اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ الْقِتَالَ﴾ بالريح والملائكة ﴿وَأَنْزَلَ الَّذِينَ ظَاهَرُوا الْأَحْزَابَ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مِنْ صَيَاصِيهِمْ﴾ من حصونهم، والصيصية ما تحصن به، يقال لقرن الثور والطبي: صيصية، ولشوكة الديك، وهي مخلبه التي في ساقه، لأنه يتحصن بها. روي أن جبريل عليه السلام أتى رسول الله - ﷺ - - صبيحة الليلة التي انهزم فيها الأحزاب ورجع المسلمون إلى المدينة ووضعوا سلاحهم - على فرسه الحيزوم والغبار على وجه الفرس وعلى السرج، فقال: ما هذا يا جبريل؟ قال: من متابعة قريش: فجعل رسول الله - ﷺ - يمسح الغبار عن وجه الفرس وعن السرج، فقال: يا رسول الله، إن

 = (٦٤٤ - كتاب المناقب: باب مناقب طلحة حديث (٣٧٣٨) وأحمد (١٦٥/١) وابن حبان (٢٢١٢) - موارد) وابن سعد في «الطبقات الكبرى» (١٥٥/٣) وابن أبي شيبه (٩١/١٢) رقم (١٢٢٠٩) والحاكم (٢٥/٣) كلهم من طريق محمد بن إسحاق ثنا يحيى بن عباد بن عبد الله بن الزبير عن أبيه عن عبد الله بن الزبير عن أبيه به.

وقال الترمذي في الموضع الأول: حديث حسن غريب لا نعرفه إلا من حديث محمد بن إسحاق. وقال في الموضع الآخر: حديث حسن غريب صحيح. وقال الحاكم: صحيح على شرط مسلم ولم يخرجاه ووافقه الذهبي. وصححه ابن حبان. وابن إسحاق مدلس وقد صرح بالتحديث فزالت شبهة تدليسه.

وينظر سيرة ابن هشام (٨٦/٢) أما كونه أصيب يده. فأخرجه البخاري (١٠٥/٨) كتاب المغازي باب إذ همت طائفتان حديث (٤٠٦٣) عن قيس قال: رأيت يد طلحة شلاء وقى بها النبي - ﷺ - يوم أحد. وللحديث طريق آخر:

أخرجه النسائي (٢٩/٦ - ٣٠) كتاب الجهاد باب ما يقول من يطعنه العدو حديث (٣١٤٩) من طريق عمارة بن غزية عن أبي الزبير عن جابر فذكر حديثاً وفيه فقاتل طلحة قتال الأحد عشر حتى ضربت يده فقطعت أصابعه...

قال الحافظ في «تخريج الكشاف»: أخرجه الثعلبي من رواية جرير بن حازم عن عروة في قوله تعالى: ﴿مِنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ﴾ - الآية. منهم طلحة بن عبيد الله وقد روي مفرقاً من غير هذا الوجه فقضيته أن يده أصيبت أخرجها البخاري من رواية قيس بن أبي حازم «رأيت يد طلحة شلاء وقى بها رسول الله - ﷺ - يوم أحد» والنسائي من طريق عمارة بن غزية عن أبي الزبير عن جابر قال: لما كان يوم أحد كان رسول الله - ﷺ - في ناحية في اثني عشر رجلاً من الأنصار فذكر القصة مطولة.

الملائكة لم تضع السلاح، إن الله يأمرك بالمشير إلى بني قريظة وأنا عاهد إليهم، فإن الله داقهم دق البيض على الصفا، وإنهم لكم طعمة فأذن في الناس: أن من كان سامعاً مطيعاً فلا يصلي العصر إلا في بني قريظة، فما صلى كثير من الناس العصر إلا بعد العشاء الآخرة، لقول رسول الله - ﷺ -، فحاصرهم خمساً وعشرين ليلة حتى جهدهم الحصار، فقال لهم رسول الله - ﷺ -: تنزلون على حكمي؟ فأبوا، فقال: على حكم سعد بن معاذ؟ فرضوا به، فقال سعد: حكمت فيهم أن تقتل مقاتلتهم وتسبى ذراريهم ونساؤهم، فكبر النبي ﷺ وقال: «لقد حكمت بحكم الله من فوق سبعة أرقعة»^(١) ثم استنزلهم وخندق في سوق المدينة خندقاً، وقدمهم فضرب أعناقهم وهم من ثمانمائة إلى تسعمائة وقيل كانوا ستمائة مقاتل وسبعمائة أسير^(٢) (١١٨٧). وقرئ: الرعب، بسكون العين وضمها، وتأسرون، بضم السين. وروي أن النبي ﷺ جعل عقارهم للمهاجرين دون الأنصار، فقالت الأنصار في ذلك، فقال: إنكم في منازلكم، وقال عمر - رضي الله عنه -: أما تخمس كما خمست يوم بدر؟ قال: لا، إنما جعلت هذه لي طعمة دون الناس، قال: رضينا بما صنع الله ورسوله (١١٨٨). ﴿وَأَرْضًا لَّمْ تَطْهَرْهَا﴾ عن الحسن - رضي الله عنه -:

١١٨٧ - ذكره ابن هشام في «سيرته» (٢٢٧/٣) عن ابن إسحاق من قوله.

قال الحافظ ابن حجر في «تخريج الكشاف»: هو في سيرة ابن هشام في غزوة بني قريظة عن ابن إسحاق إلى القدر الأخير فأسنده ابن إسحاق من عاصم بن عمر عن عبد الرحمن بن عمرو بن سعد بن معاذ عن علقمة بن وقاص الليثي قال: قال رسول الله - ﷺ - فذكره. وروى أبو نعيم في الدلائل من طريق معاذ بن رفاع عن أبي الزبير عن جابر - رضي الله عنه - قال: لما رابطهم رسول الله - ﷺ - أتاه جبريل وهو يغسل رأسه. انتهى.

١١٨٨ - قال الزيلعي في «تخريج الكشاف» (١٠٤/٣) رواه الواقدي في المغازي حدثني معمر عن الزهري عن خارجة بن زيد عن أم العلاء قالت: لما غنم رسول الله - ﷺ - بني النضير قسم ما أفاء الله عليه فأعطى المهاجرين ولم يعط أحداً من الأنصار من ذلك الفئ شيئا إلا رجلين كانا محتاجين سهل بن حنيف وأبا دجاجة.

قال الحافظ: أخرجه الواقدي من رواية حارثة بن زيد عن أم العلاء قالت: «لما غنم رسول الله - ﷺ - بني النضير - الحديث ومن طريق المسور بن رفاع قال: قال عمر يا رسول الله ألا تخمس ما أصبت من بني النضير؟». انتهى.

(١) قوله «من فوق سبعة أرقعة» في الصحاح «الرقيع» سماء الدنيا. وكذلك سائر السموات. وفي

الحديث «من فوق سبعة أرقع» على لفظ التذكير، كأنه ذهب إلى السقف. (ع)

(٢) هو في سيرة ابن هشام في غزوة بني قريظة عن ابن إسحاق إلى القدر الأخير فأسنده ابن إسحاق عن

عاصم بن عمر عن عبد الرحمن أن عمر بن سعد بن معاذ عن علقمة بن وقاص الليثي قال: قال رسول الله ﷺ: فذكره. وروى أبو نعيم في الدلائل من طريق معاذ بن رفاع عن أبي الزبير عن جابر رضي الله عنه قال «لما رابطهم رسول الله ﷺ أتاه جبريل وهو يغسل رأسه».

فارس والروم. وعن قتادة - رضي الله عنه -: كنا نحدث أنها مكة. وعن مقاتل - رضي الله عنه -: هي خيبر. وعن عكرمة: كل أرض تفتح إلى يوم القيامة. ومن بدع التفسير: أنه أراد نساءهم.

﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُلْ لِأَزْوَاجِكَ إِن كُنْتُنَّ تُرِدْنَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا فَتَعَالَيْنَ أُمَتِّعْكُنَّ وَأُسَرِّحْكُنَّ سَرَاحًا جَمِيلًا ۖ وَإِن كُنْتُنَّ تُرِدْنَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَالدَّارَ الْآخِرَةَ فَإِنَّ اللَّهَ أَعَدَّ لِلْمُحْسِنَاتِ مِنكُنَّ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ (٢٩)

أردن شيئاً من الدنيا من بياب وزيادة نفقة وتغايرن، فغم ذلك رسول الله - ﷺ - فنزلت، فبدأ بعائشة - رضي الله عنها - وكانت أحبهن إليه - فخيرها وقرأ عليها القرآن، فاختارت الله ورسوله والدار الآخرة، فرؤي الفرح في وجه رسول الله - ﷺ -، ثم اختارت جميعهن اختيارها، فشكر لهن الله ذلك، فأنزل ﴿لَا يَحِلُّ لَكَ النِّسَاءُ مِنْ بَعْدُ وَلَا أَنْ تَبَدَّلَ بِهِنَّ مِنْ أَزْوَاجٍ﴾ [الأحزاب: ٥٢] (١١٨٩). روي أنه قال لعائشة: إني ذاك لك أمراً. ولا عليك أن لا تعجلي فيه حتى تستأمري أبويك ثم قرأ عليها القرآن فقالت: أفي هذا أستأمر أبوي، فإني أريد الله ورسوله والدار الآخرة (١١٩٠). وروي أنها قالت: لا تخبر أزواجك أنني اخترتك، فقال: إنما بعثني الله مبلغاً ولم يبعثني متعنتاً (١١٩١). فإت قلت: ما حكم

١١٨٩ - أخرجه الطبري في تفسيره (٢٨٩/١٠) (٢٨٤٦١) حدثنا ابن بشار قال: ثنا عبد الأعلى، قال: ثنا سعيد عن قتادة عن الحسن...

قال الحافظ: أخرجه الطبري من رواية سعيد عن قتادة عن الحسن نحو هذا. انتهى.

١١٩٠ - أخرجه البخاري في صحيحه (٤٧٣/٩) - كتاب التفسير (٦٥) - سورة الأحزاب حديث رقم (٤٧٨٥)، ومسلم (٣٣٥/٥) - كتاب الطلاق (١٨) - باب بيان أن تخيير امرأته لا يكون طلاقاً إلا بالنية (١٤٧٥).

والترمذي (٣٥٠/٥) - كتاب تفسير القرآن (٤٨) - سورة الأحزاب (٣٢٠٤) والنسائي (٥٥/٦) - كتاب النكاح (٢٦) - حديث رقم (٣٢٠١). كلهم من طريق الزهري عن أبي سلمة عن عائشة قالت: لما أمر رسول الله - ﷺ - بتخير أزواجه بدأ بي...

قال الحافظ: متفق عليه من رواية الزهري عن أبي سلمة عن عائشة وزاد ثم فعل أزواج النبي - ﷺ - مثل ما فعلت. انتهى.

١١٩١ - أخرجه مسلم في صحيحه (٣٣٧/٥ - ٣٣٨) كتاب الطلاق (١٨) - باب بيان أن تخيير امرأته لا يعد طلاقاً (٤) - (١٤٧٨) من حديث أبي الزبير عن جابر قال: دخل أبو بكر يستأذن على رسول الله - ﷺ -... وأخرجه أيضاً من حديث عائشة (٣٤٦/٥) (١٤٧٥).

قال الحافظ: أخرجه سالم من رواية أبي الزبير عن جابر في قصة التخيير. وفي آخره «وأسألك أن تخير امرأة من نسائك فإنه لا تسألني امرأة منهن إلا أخبرتها، إن الله لم يبعثني معنتاً ولا متعنتاً، ولكن بعثني معلماً ميسراً... وفي الصحيحين من رواية معمر عن الزهري عن عبد الله بن عبد الله =

التخيير في الطلاق؟ قلت: إذا قال لها اختاري، فقالت: اخترت نفسي. أو قال: اختاري نفسك، فقالت: اخترت، لا بد من ذكر النفس في قول المخير أو المخيرة - وقعت طلاقه بائنة عند أبي حنيفة وأصحابه، واعتبروا أن يكون ذلك في المجلس قبل القيام أو الاشتغال بما يدل على الإعراض، واعتبر الشافعي اختيارها على الفور وهي عنده طلاق رجعية وهو مذهب عمر وابن مسعود. وعن الحسن وقتادة والزهري - رضي الله عنهم -: أمرها بيدها في ذلك المجلس وفي غيره، وإذا اختارت زوجها لم يقع شيء بإجماع فقهاء الأمصار. وعن عائشة - رضي الله عنها -: خيرنا رسول الله - ﷺ - فاختارناه ولم يعده طلاقاً (١١٩٢). وروي: أفكان طلاقاً. وعن عليّ - رضي الله عنه -: إذا اختارت زوجها فواحدة رجعية، وإن اختارت نفسها فواحدة بائنة. وروي عنه أيضاً أنها إن اختارت زوجها فليس بشيء. أصل تعال: أن يقوله من في المكان المرتفع، لمن في المكان المستوطىء، ثم كثر حتى استوت في استعماله الأمكنة. ومعنى تعالين: أقبلن بإرادتكن واختياركن لأحد أمرين، ولم يرد نهوضهنّ إليه بأنفسهنّ، كما تقول: أقبل يخاصمني، وذهب يكلمني، وقام يهددني. ﴿أُمْتَعَكْنَ﴾ أعطكنّ متعة الطلاق. فإن قلت: المتعة في الطلاق واجبة أم لا؟ قلت: المطلقة ١٠١/٢ ب التي لم يدخل بها ولم يفرض لها في العقد، متعتها واجبة عند أبي حنيفة وأصحابه، وأما سائر المطلقات فمتعهنّ مستحبة وعن الزهري - رضي الله عنه -: متعتان، إحداهما: يقضي بها السلطان: من طلق قبل أن يفرض ويدخل بها. والثانية: حق على المتقين من طلق بعد ما يفرض ويدخل، وخاصمت امرأة إلى شريح في المتعة فقال: متعها إن كنت من المتقين ولم يجبره. وعن سعيد بن جبير - رضي الله عنه -: المتعة حق مفروض. وعن الحسن - رضي الله عنه -: لكل مطلقة متعة إلا المختلعة والملاعنة،

عن ابن عباس فذكر القصة مطولاً. وفي آخره عند مسلم قال معمر فأخبرنا أيوب أن عائشة قالت: لا تخبر نساءك أنني اخترتك. قال: إن الله أرسلني مبلغاً ولم يرسلني متعتاً. انتهى.

١١٩٢ - أخرجه البخاري (٤٦١/١٠) كتاب الطلاق باب من خير أزواجه حديث (٥٢٦٢)، (٥٢٦٣) ومسلم (١١٠٣/٢ - ١١٠٤) كتاب الطلاق: باب بيان أن تخيير امرأته لا يكون طلاقاً حديث (٢٤ - ١٤٧٧/٢٨) وأبو داود (٢٦٢/٢) كتاب الطلاق: باب في الخيار حديث (٢٢٠٣) والنسائي (٦/ ١٦١) كتاب الطلاق: باب في المخيرة تختار زوجها، والترمذي (٤٧٤/٣) كتاب الطلاق: باب ما جاء في الخيار حديث (١١٧٩) وابن ماجه (٦٦١/١) كتاب الطلاق: باب الرجل يخير امرأته حديث (٢٠٥٢) وأحمد (٤٧/٦ - ٤٨ - ١٧٣ - ٢٣٩) والطيالسي (٣١٤/١ - منحة) رقم (١٦١١) والدارمي (١٦٢/٢) وأبو يعلى (٤٣٧١) وابن حبان (٤٢٧٤) والطحاوي في «شرح معاني الآثار» (٨٢/٣) والبيهقي (٣٤٥/٧) كتاب الخلع والطلاق باب ما جاء في التخيير، كلهم من حديث عائشة. وقال الترمذي: حسن صحيح.
قال الحافظ: متفق عليه باللفظين. انتهى.

والمتمتع: درع وخمار وملحفة على حسب السعة والإقتار، إلا أن يكون نصف مهرها أقل من ذلك، فيجب لها الأقل منهما، ولا تنقص من خمسة دراهم؛ لأن أقل المهر عشرة دراهم فلا ينقص من نصفها. فإن قلت: ما وجه قراءة من قرأ: أمتعن وأسرحكن بالرفع؟ قلت: وجهه الاستئناف ﴿سَرَّامًا جَيَّالًا﴾ من غير ضرار طلاقاً بالسنة ﴿مِنْكَنَّ﴾ للبيان لا للتبعض.

﴿يَنْسَاءَ النَّبِيِّ مَنْ يَأْتِ مِنْكَنَّ يَفْلَحْشَةً مُبِينَةً يُضَعَّفَ لَهَا الْعَذَابُ ضِعْفَيْنِ وَكَانَ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرًا﴾ ﴿٢٥﴾ وَمَنْ يَقْنُتْ مِنْكُنَّ لِلَّهِ وَرَسُولِهِ وَتَعْمَلْ صَالِحًا نُؤْتِهَا أَجْرَهَا مَرَّتَيْنِ وَأَعْتَدْنَا لَهَا رِزْقًا كَرِيمًا﴾ ﴿٣١﴾

الفاحشة: السيئة البليغة في القبح وهي الكبيرة. والمبينة: الظاهرة فحشها، والمراد كل ما اقترفن من الكبائر. وقيل: هي عصيانهن رسول الله - ﷺ - ونشوزهن، وطلبهن منه ما يشق عليه أو ما يضيق به ذرعه ويغتم لأجله. وقيل: الزنا، والله عاصم رسوله من ذلك، كما مر في حديث الإفك، وإنما ضوعف عذابهن لأن ما قبح من سائر النساء كان أقبح منهن وأقبح؛ لأن زيادة قبح المعصية تتبع زيادة الفضل والمرتبة وزيادة النعمة على العاصي من المعصي، وليس لأحد من النساء مثل فضل نساء النبي ﷺ ولا على أحد منهن مثل ما لله عليهن من النعمة، والجزاء يتبع الفعل، وكون الجزاء عقاباً يتبع كون الفعل قبيحاً، فمتى ازداد قبحاً. ازداد عقابه شدة، ولذلك كان ذم العقلاء للعاصي العالم: أشد منه للعاصي الجاهل؛ لأن المعصية من العالم أقبح، ولذلك فضل حد الأحرار على حد العبيد، حتى أن أبا حنيفة وأصحابه لا يرون الرجم على الكافر ﴿وَكَانَ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرًا﴾ إيدان بأن كونهن نساء النبي ﷺ ليس بمغن عنهن شيئاً، وكيف يغني عنهن وهو سبب مضاعفة العذاب، فكان داعياً إلى تشديد الأمر عليهن غير صارف عنه. قرئ: يأت، بالتاء والياء. مبينة: بفتح الياء وكسرهما، من بين معنى تبين. يضاعف، ويضعف: على البناء للمفعول. ويضاعف، ونضعف: بالياء والنون. وقرئ: تقنت، وتعمل: بالتاء والياء. ونؤتيها: بالياء والنون. والقنوت: الطاعة، وإنما ضوعف أجرهن لطلبهن رضا رسول الله - ﷺ - بحسن الخلق، وطيب المعاشرة والقناعة، وتوفيرهن على عبادة الله والتقوى.

﴿يَنْسَاءَ النَّبِيِّ لَسْتُ كَأَحَدٍ مِنَ النِّسَاءِ إِنَّ أُنْقِيَّتُمْ فَارْتَضِعْنَ بِالْقَوْلِ فَيَطْمَعَ الَّذِي فِي قَلْبِهِ مَرَضٌ وَقَدْ قُولا مَعْرُوفًا﴾ ﴿٣٢﴾

أحد في الأصل بمعنى وحد، وهو الواحد، ثم وضع في النفي العام مستويا فيه

المذكر والمؤنث والواحد وما وراءه. ومعنى قوله: ﴿لَسْتَنَّ كَأَحَدٍ مِنَ النِّسَاءِ﴾ لستن كجماعة واحدة من جماعات النساء، أي: إذا تقصيت أمة النساء جماعة لم توجد منهن جماعة واحدة تساويكن في الفضل والسابقة، ومثله قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَلَمْ يَفْرُقُوا بَيْنَ أَهْلِ بَيْنِهِمْ﴾^(١) [النساء: ١٥٢] يريد بين جماعة واحدة منهم، تسوية بين جميعهم في أنهم على الحق المبين ﴿إِنْ أَتَيْتُمْ﴾ إن أردت التقي، وإن كنتن^(٢) متقيات ﴿فَلَا تَخْضَعْنَ بِالْقَوْلِ﴾ فلا تجبن بقولكن خاضعاً، أي: ليناً خثناً مثل كلام المربيات والمومسات ﴿فَيَطْمَعَ الَّذِي فِي قَلْبِهِ مَرَضٌ﴾ أي ريبة وفجور. وقرئ بالجزم، عطفاً على محل فعل النهي، على أنهن نهين عن الخضوع بالقول. ونهى المريض القلب عن الطمع، كأنه قيل: لا تخضعن فلا يطمع. وعن ابن محيصن أنه قرأ بكسر الميم، وسيله ضم الياء مع كسرهما وإسناد الفعل إلى ضمير القول، أي: فيطمع القول المريب ﴿قَوْلًا مَعْرُوفًا﴾ بعيداً من طمع المريب بجد وخشونة من غير تخنث، أو قولاً حسناً مع كونه خشناً.

﴿وَقَرْنَ فِي بُيُوتِكُنَّ وَلَا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ الْجَاهِلِيَّةِ الْأُولَىٰ وَأَقِمْنَ الصَّلَاةَ وَآتِينَ الزَّكَاةَ وَأَطِعْنَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا﴾^(٣)

﴿وَقَرْنَ﴾ بكسر القاف، ومن قر يقر وقاراً. أو من قر يقر، حذفت الأولى من رأي: أقرن، ونقلت كسرتها إلى القاف، كما تقول: ظلن، وقرن: بفتحها، وأصله: أقرن، فحذفت الراء وألقيت فتححتها على ما قبلها، كقولك: ظلن، وذكر أبو الفتح الهمداني في كتاب التبيان: وجهاً آخر، قال: قار يقار: إذا اجتمع. ومنه: القارة، لاجتماعها، ألا ترى إلى قول عضل والديش^(٣): اجتمعوا فكونوا قارة. و﴿الْجَاهِلِيَّةِ الْأُولَىٰ﴾ هي القديمة التي

(١) قال محمود: «معناه لستن كجماعة واحدة من جماعات النساء، أي: إذا تقصيت أمة النساء جماعة جماعة لم يوجد منهن جماعة واحدة تساويكن في الفضل والسابقة، ومثله: ولم يفرقوا بين أحد منهم» قال أحمد: إنما بعثه على جعل التفضيل بين نساء النبي عليه الصلاة والسلام وبين جماعات النساء لا آحادهن: أن يطابق بين المتفاضلين؛ لأن الأول جماعة، وقد كان مستغنياً عن ذلك بحمل الكلام على واحدة. ويكون المعنى أبلغ، والتقدير: ليست واحدة متكن كأحد من النساء، أي: كواحدة من النساء، ويلزم من تفضيل كل واحدة منهن على كل واحدة من آحاد النساء تفضيل جماعتهن على كل جماعة، ولا يلزم ذلك في العكس، فتأمله والله أعلم وجاء التفضيل ههنا كمجيئه في قوله تعالى: ﴿أَمَّنْ يَخْلُقُ كَمَنْ لَا يَخْلُقُ﴾ وقوله: ﴿وَلَيْسَ الذَّكَرُ كَالْأُنثَىٰ﴾ في تقديم الأفضل عن التفضيل، وقد مضت في ذلك نكتة حسنة، والله الموفق.

(٢) قوله «وإن كنتن متقيات» لعله «أو إن» كعبارة السفي. (ع)

(٣) قوله «إلى قول عضل والديش» في الصحاح «عضل»: قبيلة، وهو عضل بن الهون بن خزيمة أخو =

يقال لها الجاهلية الجاهلاء، وهي الزمن الذي ولد فيه إبراهيم عليه السلام: كانت المرأة تلبس الدرع من اللؤلؤ فتمشي وسط الطريق تعرض نفسها على الرجال، وقيل/٢/١٠٢أ: ما بين آدم ونوح. وقيل: بين إدريس ونوح. وقيل: زمن داود وسليمان، والجاهلية الأخرى: ما بين عيسى ومحمد عليهما الصلاة والسلام. ويجوز أن تكون الجاهلية الأولى: جاهلية الكفر قبل الإسلام. والجاهلية الأخرى جاهلية الفسوق والفجور في الإسلام، فكأن المعنى: ولا تحدثن بالتبرج جاهلية في الإسلام تشبهن بها بأهل جاهلية الكفر. ويعضده ما روي: أن رسول الله - ﷺ - قال لأبي الدرداء - رضي الله عنه -: «إن فيك جاهلية» قال: جاهلية كفر أم إسلام؟ فقال: «بل جاهلية كفر» (١١٩٣) أمرهن أمراً خاصاً بالصلاة والزكاة، ثم جاء به عاماً في جميع الطاعات؛ لأن هاتين الطاعتين البدنية والمالية هما أصل سائر الطاعات: من اعتنى بهما حق اعتنائه جرتاه إلى ما وراءهما، ثم بين أنه إنما نهاهن وأمرهن ووعظهن، لئلا يقارف أهل بيت رسول الله - ﷺ - المآثم، وليتصوّنوا عنها بالتقوى. واستعار للذنوب: الرجس، وللتقوى: الطهر؛ لأنّ عرض المقترف للمقبحات يتلوّث بها ويتدنس، كما يتلوّث بدنه بالأرجاس. وأما المحسنات، فالعرض معها نقي مصون كالثوب الطاهر. وفي هذه الاستعارة ما ينفر أولي الألباب عما كرهه الله لعباده ونهاهم عنه، ويرغبهم فيما رضىه لهم وأمرهم به. و﴿أَهْلَ آبَيْتِ﴾ نصب على النداء، أو على المدح. وفي هذا دليل بين على أنّ نساء النبي ﷺ من أهل بيته.

﴿وَأَذْكُرَنَّ مَا يَتْلَى فِي بُيُوتِكُنَّ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ وَالْحِكْمَةِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ لَطِيفًا

خَيْرًا ﴿٣٤﴾﴾

ثم ذكرهن أنّ بيوتهن مهابط الوحي، وأمرهن أن لا ينسين ما يتلى فيها من الكتاب الجامع بين أمرين: هو آيات بينات تدل على صدق النبوة؛ لأنه معجزة بنظمه. وهو حكمة

١١٩٣ - قال الزيلعي في «تخريج الكشاف» (١٠٧/٣) غريب.

وقال الحافظ: لم أجده عن أبي الدرداء.

قلت: الثابت أنه - ﷺ - قال ذلك لأبي ذر.

أخرجه البخاري (٢٠٦/٥) كتاب العتق باب قول النبي - ﷺ - «العبيد إخوانكم فأطعموهم مما تأكلون» حديث (٢٥٤٥).

قال ابن حجر: لم أجده عن أبي الدرداء وإنما هو في الصحيحين عن أبي ذر ولم يقل جاهلية كفر... إلى آخره. انتهى.

= الديش، وهما القارة. وفيه أيضاً «الدش بن الهون بن خزيمة» وربما قالوه بفتح الدال، وهو أحد القارة، والآخر عضل بن الهون، يقال لهما جميعاً: القارة. (ع)

وعلم وشرائع ﴿إِنَّ اللَّهَ كَانَتْ لَطِيفًا خَبِيرًا﴾ حين علم ما ينفعكم ويصلحكم في دينكم فأنزله عليكم. أو علم من يصلح لبنوته ومن يصلح لأن يكونوا أهل بيته. أو حيث جعل الكلام الواحد جامعاً بين الغرضين.

﴿إِنَّ الْمُسْلِمِينَ وَالْمُسْلِمَاتِ وَالْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَالْقَنِينَ وَالْقَنِينَ وَالصَّادِقِينَ وَالصَّادِقَاتِ وَالصَّادِرِينَ وَالصَّادِرَاتِ وَالْخَاشِعِينَ وَالْخَاشِعَاتِ وَالْمُتَصَدِّقِينَ وَالْمُتَصَدِّقَاتِ وَالصَّيْمِينَ وَالصَّيِمَاتِ وَالْحَافِظِينَ فُرُوجَهُمْ وَالْحَافِظَاتِ وَالذَّاكِرِينَ اللَّهَ كَثِيرًا وَالذَّاكِرَاتِ أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ مَغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا﴾

يروي أن أزواج النبي ﷺ قلن: يا رسول الله، ذكر الله الرجال في القرآن بخير، أفما فينا خير نذكر به؟ إنا نخاف أن لا تقبل منا طاعة (١١٩٤). وقيل: السائلة أم سلمة (١١٩٥).

١١٩٤ - أخرجه الترمذي (٣٣٠/٥) كتاب التفسير: باب سورة الأحزاب حديث (٣٢١١) من طريق حصين عن عكرمة عن أم عمار الأنصارية أنها أتت النبي ﷺ - فقالت: ما أرى كل شيء إلا للرجال وما أرى النساء يذكرن بشيء. فنزلت هذه الآية: ﴿إِنَّ الْمُسْلِمِينَ وَالْمُسْلِمَاتِ وَالْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ﴾.

وقال الترمذي: هذا حديث حسن غريب، وإنما يعرف هذا الحديث من هذا الوجه. والحديث ذكره السيوطي في «الدر المنثور» (٣٧٩/٥) وزاد نسبه إلى الفريابي وسعيد بن منصور وعبد بن حميد والطبراني وابن مردويه. وللحديث شاهد من حديث ابن عباس.

أخرجه الطبري في «تفسيره» (٣٠٠/١٠) والطبراني في «الكبير» (١٠٨/١٢) رقم (١٢٦١٤) من طريق قابوس بن أبي ظبيان عن أبيه عن ابن عباس قال: قالت النساء يا رسول الله ما بال يذكر المؤمنون ولم يذكر المؤمنات فنزل ﴿إِنَّ الْمُسْلِمِينَ وَالْمُسْلِمَاتِ﴾ وقال الهيثمي (٩١/٧) وفيه قابوس وهو ضعيف وقد وثق. وحسنه السيوطي في «الدر المنثور» (٣٧٩/٥) وزاد نسبه إلى ابن مردويه. قال الحافظ: أخرجه الطبراني وابن مردويه من رواية ابن ظبيان عن ابن عباس: قال النساء يا رسول الله ما لنا لا نذكر في القرآن... الحديث. انتهى.

١١٩٥ - أخرجه الطبري في «تفسيره» (٣٠٠/١٠) والثوري في «تفسيره» (ص ٢٤١ - ٢٤٢) كلاهما من طريق ابن أبي نجيح عن مجاهد عن أم سلمة به.

وأخرجه أحمد (٣٠١/٦) والطبراني في «الكبير» (٢٩٨/٢٣) رقم (٦٦٥) من طريق عبد الله بن رافع عن أم سلمة وأخرجه أحمد (٣٠٥/٦) والنسائي في «الكبرى» (٤٣١/٦) كتاب التفسير: باب قوله تعالى: ﴿إِنَّ الْمُسْلِمِينَ وَالْمُسْلِمَاتِ﴾ حديث (١١٤٠٥) والطبراني في «الكبير» (٢٩٤/٢٣) رقم (٦٥٠) من طريق عثمان بن حكيم ثنا عبد الرحمن بن شبة عن أم سلمة به والحديث ذكره السيوطي في «الدر المنثور» (٣٧٩/٥) وزاد نسبه إلى ابن المنذر وابن مردويه والفريابي وابن سعد وابن أبي شبة وعبد بن حميد وابن أبي حاتم.

قال الحافظ في «تخريج الكشاف»: أخرجه النسائي من رواية شريك عن محمد بن عمر عن أبي =

وروي أنه لما نزل في نساء النبي ﷺ ما نزل، قال نساء المسلمين: فما نزل فينا شيء (١١٩٦)؟ فنزلت. والمسلم: الداخل في السلم بعد الحرب، المنقاد الذي لا يعاند، أو المفوض أمره إلى الله المتوكل عليه من أسلم وجهه إلى الله. والمؤمن: المصدق بالله ورسوله وبما يجب أن يصدق به. والقانت: القائم بالطاعة الدائم عليها. والصادق: الذي يصدق في نيته وقوله وعمله. والصابر: الذي يصبر على الطاعات وعن المعاصي. والخاشع: المتواضع لله بقلبه وجوارحه. وقيل: الذي إذا صلى لم يعرف من عن يمينه وشماله. والمتصدق: الذي يزكي ماله ولا يخل بالنوافل. وقيل: من تصدق في أسبوع بدرهم فهو من المتصدقين. ومن صام البيض من كل شهر فهو من الصائمين. والذاكر الله كثيراً: من لا يكاد يخلو من ذكر الله بقلبه أو لسانه أو بهما. وقراءة القرآن والاشتغال بالعلم من الذكر. وقال رسول الله - ﷺ -: «من استيقظ من نومه وأيقظ امرأته فصليا جميعا ركعتين كتبا من الذاكرين الله كثيراً والذاكرات» (١١٩٧). والمعنى: والحافظاتها والذاكراته، فحذف؛ لأن الظاهر يدل عليه. فإن قلت: أي فرق بين العطفين، أعني عطف الإناث على الذكور، وعطف الزوجين على الزوجين؟ قلت: العطف الأول نحو قوله تعالى: ﴿تَبَيَّنَتْ وَابْتَكَرَا﴾

 سلمة عن أم سلمة قالت: يا رسول الله مالي أسمع الرجال يذكرون فأنزل الله تعالى: ﴿إِنَّ الْمُسْلِمِينَ وَالْمُسْلِمَاتِ﴾ الآية وأخرجه الطبراني والطبري من وجه آخر عن محمد بن عمر ورواه أحمد وابن راهويه والنسائي من رواية عثمان بن حكيم عن عبد الرحمن بن شيبه عن أم سلمة وأخرجه الحاكم من طريق مجاهد عن أم سلمة وروى الترمذي عن أم عمارة نحوه. انتهى.

١١٩٦ - أخرجه الطبري في «تفسيره» (٣٠٠/١٠) من طريق سعيد عن قتادة فذكره. ورواه ابن سعد عن الواقدي عن معمر عن قتادة نحوه كما في «تخريج الكشاف» للزيلعي (١٠٨/٣). وقال الحافظ ابن حجر: أخرجه الطبري من رواية سعيد عن قتادة قال: دخل نساء من المؤمنات على نساء النبي - ﷺ - فقلن: قد ذكرنا الله في القرآن... الحديث وأخرجه ابن سعد عن الواقدي عن معمر عن قتادة. انتهى.

١١٩٧ - أخرجه أبو داود (٣٣/٢) كتاب الصلاة: باب قيام الليل حديث (١٣٠٩) وفي (٧٠/٢) كتاب الصلاة: باب الحث على قيام الليل (١٤٥١) والنسائي في «الكبرى» (٤٣٢/٦) كتاب التفسير: باب قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ لَا يَأْمُرُهُمْ اللَّهُ بِالصَّالِحَاتِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْفَوَاحِشِ أُولَٰئِكَ هُمُ الرَّاغِبُونَ﴾ حديث (١١٤٠٦) وابن ماجه (٤٢٣/١ - ٤٢٤) كتاب الصلاة باب ما جاء فيمن أيقظ أهله من الليل حديث (١٣٣٥) وأبو نعيم في «أخبار أصبهان» (٨٨/٢) وابن حبان (٦٤٥ - موارد) والبيهقي في «السنن الكبرى» (٥٠١/٢) كتاب الصلاة: باب الترغيب في قيام الليل كلهم من طريق علي بن الأقرع عن الأقرع عن أبي سعيد وأبي هريرة قالا فذكراه مرفوعاً إلى النبي - ﷺ - والحديث صححه ابن حبان والحاكم (٤١٦/٢) على شرط الشيخين ووافقه الذهبي. قال الزيلعي في «تخريج الكشاف» (١٠٩/٣).

قال النووي في الخلاصة إسناده صحيح

قال الحافظ ابن حجر: أخرجه أصحاب السنن إلا الترمذي من رواية الأقرع عن أبي سعيد وأبي هريرة مرفوعاً. انتهى.

[التحريم: ٥] في أنهما جنسان مختلفان، إذا اشتركا في حكم لم يكن بد من توسيط العاطف بينهما. وأما العاطف الثاني فمن عطف الصفة على الصفة بحرف الجمع، فكان معناه: إن الجامعين والجامعت لهذه الطاعات ﴿أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ﴾.

﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَنْ يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ وَمَنْ يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا مُبِينًا﴾ (٣٦)

خطب رسول الله - ﷺ - زينب بنت جحش بنت عمته أميمة بنت عبد المطلب على مولاه زيد بن حارثة، فأبى وأبى أخوها عبد الله، فنزلت، فقال: رضينا يا رسول الله فأنكحها إياه وساق عنه إليها مهرها ستين درهماً وخماراً وملحفة ودرعاً وإزاراً وخمسين مداً من طعام وثلاثين صاعاً من تمر (١١٩٨). وقيل: هي أم كلثوم بنت عقبة بن أبي معيط، وهي أول من هاجر من النساء، وهبت نفسها للنبي ﷺ فقال: قد قبلت، وزوجها زيداً. فسخطت هي وأخوها وقالوا: إنما أردنا رسول الله - ﷺ - / ٢ / ١٠٢ ب، فزوجنا عبده (١١٩٩).

١١٩٨ - قال الزيلعي في «تخريج الكشاف» (١٠٩/٣) غريب بهذا اللفظ.

وأخرج الدارقطني (٣٠١/٣) والطبراني في «الكبير» (٣٩/٢٤) رقم (١٠٩) من طريق الحسن بن أبي السري العسقلاني ثنى الحسن بن أعين الحراني ثنا حفص بن سليمان عن الكميت بن زيد الأسدي حدثني مذكور مولى زينب بنت جحش عن زينب بنت جحش قالت: خطبني عدة من قريش فأرسلت أختي حمنة إلى رسول الله - ﷺ - أستشير، فقال لها: «أين هي ممن يعلمها كتاب ربها وسنة نبيها؟» قالت: ومن هو يا رسول الله؟ قال: «زيد بن حارثة» وقال: فغضبت حمنة غضباً شديداً، وقالت: يا رسول الله، أنزوج بنت عمك مولاك؟! قالت: وجاءتني فأعلمتني، فغضبت غضباً أشد من غضبها، وقلت أشد من قولها، فأنزل الله: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَنْ يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ﴾، قالت: فأرسلت إلى رسول الله - ﷺ - وقلت: إني أستغفر الله وأطيع الله ورسوله، أفعل ما رأيت، فزوجني زيد.

قال الزيلعي في تخريج الكشاف (١١٠/٣): والحسين بن أبي السري ضعفه أبو داود وغيره، وحفص بن سليمان الأسدي قال البخاري تركوه.

وذكره الهيثمي في مجمع الزوائد (٢٥٠/٩) وقال: رواه الطبراني في الكبير، وفيه حفص بن سليمان وهو متروك.

قال الحافظ ابن حجر: لم أجده موصولاً. وأوله في الدارقطني من رواية الكميت بن زيد الأسدي الشاعر عن مذكور بن زيد الأسدي مولى زينب بنت جحش عن زينب بنت جحش قالت: خطبني عدة من قريش. فأرسلت أختي حمنة تستشير رسول الله - ﷺ - فقال لها: أين هي من يعلمها كتاب الله؟ - الحديث، وإسناده ضعيف، وليس فيه ذكر مقدار المهر. نعم أخرجه ابن أبي حاتم عن مقاتل بن حيان مقطوعاً. انتهى.

١١٩٩ - أخرجه الطبري في «تفسيره» (٣٠١/١٠) رقم (٢٨٥١٧) عن عبد الرحمن بن زيد بن أسلم من قوله وذكره الثعلبي من غير سند ولا راو كما في «تخريج الزيلعي» (١١٠/٣).

قال الحافظ ابن حجر: أخرجه الثعلبي بهذا بغير سند وروى الطبري من رواية عبد الرحمن بن =

والمعنى وما صح لرجل ولا امرأة من المؤمنين ﴿إِذَا قَضَىٰ اللَّهُ رِسُولَهُ﴾ أي رسول الله أو لأن قضاء رسول الله هو قضاء الله ﴿أَمْرًا﴾ من الأمور: أن يختاروا من أمرهم ما شاءوا، بل من حقهم أن يجعلوا رأيهم تبعاً لرأيه، واختيارهم تلوا لاختياره. فإن قلت: كان من حق الضمير أن يوحد كما تقول: ما جاءني من رجل ولا امرأة إلا كان من شأنه كذا. قلت: نعم ولكنهما وقعا تحت النفي، فعما كل مؤمن ومؤمنة، فرجع الضمير على المعنى لا على اللفظ، وقرئ: يكون، بالتاء والياء. و﴿الْخَيْرَةُ﴾ ما يتخير.

﴿وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِي أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ وَاتَّقِ اللَّهَ وَخُفِيَ فِي نَفْسِكَ مَا اللَّهُ مُبْدِيهِ وَخَشِيَ النَّاسُ وَاللَّهُ أَحَقُّ أَنْ تَخْشَهُ فَلَمَّا قَضَىٰ زَيْدٌ مِنْهَا وَطَرًا زَوَّجْنَاهَا لِيَكُنِيَ لَكَ يَكُونُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ فِي أَزْوَاجِ أَدْعِيَائِهِمْ إِذَا قَضَوْا مِنْهُنَّ وَطَرًا وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ مَفْعُولًا﴾ (٢٧)

﴿لِلَّذِي أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِ﴾ بالإسلام الذي هو أجل النعم، وتوفيقك لعتقه ومحبه واختصاصه ﴿وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ﴾ بما وفقك الله فيه، فهو متقلب في نعمة الله ونعمة رسوله ﷺ، وهو زيد بن حارثة ﴿أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ﴾ يعني زينب بنت جحش - رضي الله عنها -، وذلك أن رسول الله - ﷺ - أبصرها بعدما أنكحها إياه، ف وقعت في نفسه، فقال: سبحان الله مقلب القلوب، وذلك أنَّ نفسه كانت تجفو عنها قبل ذلك لا تريدها، ولو أرادتها لاختطبها، وسمعت زينب بالتسبيحة فذكرتها لزيد، ففطن وألقى الله في نفسه كراهة صحبتها والرغبة عنها لرسول الله - ﷺ - فقال لرسول الله - ﷺ -: إني أريد أن أفارق صاحبتي، فقال: مالك: أراك منها شيء؟ قال: لا والله؛ ما رأيت منها إلا خيراً، ولكنها تتعظم علي لشرفها وتؤذي، فقال له: أمسك عليك زوجك واتق الله، ثم طلقها بعد، فلما اعتدت قال رسول الله - ﷺ -: ما أجد أحداً أوثق في نفسي منك، اخطب علي زينب. قال زيد: فانطلقت فإذا هي تخمر عجبتها، فلما رأيتها عظمت في صدري حتى ما أستطيع أن أنظر إليها، حين علمت أنَّ رسول الله - ﷺ - ذكرها، فوليتها ظهري وقلت: يا زينب، أبشري إنَّ رسول الله - ﷺ - يخطبك، ففرحت وقالت: ما أنا بصانعة شيئاً حتى أوامر ربي، فقامت إلى مسجدتها، ونزل القرآن (١٢٠٠). ﴿زَوَّجْنَاهَا﴾ فتزوجها

= زيد بن أسلم من قوله ذلك. انتهى.

١٢٠٠ - قال الزيلعي في «تخريج الكشاف» (١١١/٣) غريب بهذا اللفظ... وذكر الثعلبي في تفسيره الحديث بلفظ المصنف من غير سند. اهـ.

قال الحافظ ابن حجر: ذكره الثعلبي بغير سند وأخرج الطبري معناه من رواية عبد الرحمن بن زيد بن أسلم قوله، وفي الصحيحين عن أنس قصة زيد وزينب مختصرة، وليس فيه ما في أوله. انتهى.

رسول الله - ﷺ - ودخل بها، وما أولم على امرأة من نسائه ما أولم عليها: ذبح شاة وأطعم الناس الخبز واللحم حتى امتد النهار. فإن قلت: ما أراد بقوله: ﴿وَاتَّقِ اللَّهَ﴾؟ قلت: أراد: واتق الله فلا تطلقها، وقصد نهى تنزيه لا تحريم، لأن الأولى أن لا يطلق. وقيل: أراد: واتق الله فلا تدممها بالنسبة إلى الكبر وأذى الزوج. فإن قلت: ما الذي أخفى في نفسه؟ قلت: تعلق قلبه بها. وقيل: مودة مفارقة زيد إياها. وقيل: علمه بأن زيدا سيطلقها وسينكحها، لأن الله قد أعلمه بذلك. وعن عائشة - رضي الله عنها -: لو كنتم رسول الله - ﷺ - شيئاً مما أوحى إليه لكنتم هذه الآية (١٢٠١). فإن قلت: فماذا أراد الله منه أن يقوله حين قال له زيد: أريد مفارقتها، وكان من الهجنة أن يقول له: افعل، فإني أريد نكاحها؟ قلت: كان الذي أراد منه عز وجل أن يصمت عند ذلك، أو يقول له: أنت أعلم بشأنك. حتى لا يخالف سره في ذلك علانيته؛ لأن الله يريد من الأنبياء تساوي الظاهر والباطن، والتصلب في الأمور، والتجاوب في الأحوال، والاستمرار على طريقة مستتبّة، كما جاء في حديث إرادة رسول الله - ﷺ - قتل عبد الله بن أبي سرح واعتراض عثمان بشفاعته له: أن عمر قال له: لقد كان عيني إلى عينك، هل تشير إليّ فأقتله، فقال: إن الأنبياء لا تومض^(١)، ظاهرهم وباطنهم واحد (١٢٠٢). فإن قلت: كيف عاتبه الله في

١٢٠١ - تقدم تخريجه عند حديث ثلاث من تكلم بواحدة منهن... الحديث.

قال الحافظ ابن حجر: متفق عليه من حديث عائشة - رضي الله عنها - انتهى.

١٢٠٢ - وأخرج البيهقي في «دلائل النبوة» (٦٠/٥) من طريق الحسن بن بشر الكوفي قال: حدثنا الحكم بن عبد الملك عن قتادة عن أنس بن مالك قال: فذكر حديثاً طويلاً وفيه قوله - ﷺ - إنه ليس لنبي أن يومض.

وللحديث شاهد من حديث سعد بن أبي وقاص بلفظ: إنه لا ينبغي لنبي أن تكون له خائنة أعين. أخرجه أبو داود (٢٦٨٣ - ٤٣٥٩) والنسائي (٧٠/٢) والحاكم (٤٥/٣) وأبو يعلى (٧٥٧) من طريق مصعب بن سعد عن أبيه به وقال الحاكم: صحيح على شرط مسلم ووافقه الذهبي وله شواهد أخرى ينظر لها «تخريج الكشاف» (١١٣/٣ - ١١٤) للإمام الزيلعي.

قال الحافظ: لم أجده، وفي الدلائل للبيهقي من رواية الحسن بن بشر عن الحكم بن عبد الملك عن قتادة عن أنس - رضي الله عنه - قال: «أمن رسول الله - ﷺ - الناس يوم فتح مكة إلا أربعة من الناس» - فذكر الحديث قال: «ونذر رجل من الأنصار أن يقتل عبد الله بن سعد إذا رآه فأتى به عثمان فشفع له، فجعل الأنصاري يتردد ويكره أن يقدم عليه. فبايعه النبي - ﷺ - ثم قال للأنصاري: قد انتظرتك. قال: يا رسول الله أفلا أومضت إليّ؟ قال: إنه ليس للنبي أن يومض»، وأخرجه الطبري من رواية سعيد عن قتادة مرسلًا. وروى عبد الرزاق من طريق مقسم مولى ابن عباس قال: «لما كانت المدة بين رسول الله - ﷺ - وبين قريش - فذكر الحديث بطوله وفيه: «وأمن الناس إلا أربعة. وفيه فجاء عثمان بابن أبي سرح. فقال: بايعه يا رسول الله فأعرض عنه، ثم جاء =

قوله «لا تومض» في الصحاح: أومضت المرأة، إذا سارقت النظر. (ع)

ستر ما استهجن التصريح به ولا يستهجن النبي ﷺ التصريح بشيء إلا والشيء في نفسه مستهجن، وقالة الناس لا تتعلق إلا بما يستقيح في العقول والعادات؟ وما له لم يعاتبه في نفس الأمر ولم يأمره بقمع الشهوة وكف النفس عن أن تنازع إلى زينب وتتبعها؟ ولم يعصم نبيه ﷺ عن تعلق الهجنة به وما يعرضه للقاله؟ قلت: كم من شيء يتحفظ منه الإنسان ويستحي من اطلاع الناس عليه، وهو في نفسه مباح متسع، وحلال مطلق، لا مقال فيه ولا عيب عند الله، وربما كان الدخول في ذلك المباح سلماً إلى حصول واجبات يعظم أثرها في الدين ويجل ثوابها، ولو لم يتحفظ منه. لأطلق كثير من الناس فيه ألسنتهم إلا من أوتي فضلاً وعلماً وديناً ونظراً في حقائق الأمور ولبوبها دون قشورها. ألا ترى أنهم كانوا إذا طمعوا في بيوت رسول الله - ﷺ - بقوا مرتكزين في مجالسهم لا يريمون مستأنسين بالحديث، وكان رسول الله - ﷺ - يؤذيه قعودهم ويضيق صدره حديثهم، والحياء يصدده أن يأمرهم بالانتشار، حتى نزلت: ﴿إِنَّ ذَلِكُمْ كَانَ يُؤْذَى النَّبِيَّ فَيَسْتَحْيِي مِنْكُمْ وَاللَّهُ لَا يَسْتَحْيِي مِنَ الْخَيْرِ﴾ [الأحزاب: ٥٣] ولو أبرز رسول الله - ﷺ - مكنون ضميره وأمرهم أن ينتشروا، لشق عليهم، ولكان بعض المقالة^(١)، فهذا من ذاك القبيل، لأن طموح قلب الإنسان إلى بعض مشتبهاته من امرأة/ ١٠٣/ ٢ أو غيرها غير موصوف بالقبح في العقل ولا في الشرع، لأنه ليس بفعل الإنسان ولا وجوده باختياره، وتناول المباح بالطريق الشرعي ليس بقبيح أيضاً، وهو خطبة زينب ونكاحها من غير استئزال زيد عنها، ولا طلب إليه وهو أقرب منه من زَرَّ قيمصه أن يواسيه بمفارقها، مع قوة العلم بأن نفس زيد لم تكن من التعلق بها في شيء، بل كانت تجفو عنها، ونفس رسول الله - ﷺ - متعلقة بها، ولم يكن مستنكراً عندهم أن ينزل الرجل عن امرأته لصديقه، ولا مستهجنأ إذا نزل عنها أن ينكحها الآخر؛ فإن المهاجرين حين دخلوا المدينة استهم الأنصار بكل شيء، حتى إن الرجل منهم إذا كانت له امرأتان نزل عن إحداها وأنكحها المهاجر، وإذا كان الأمر مباحاً من جميع جهاته ولم يكن فيه وجه من وجوه القبح ولا مفسدة ولا مضرة بزيد ولا بأحد، بل كان مستجراً مصالح، ناهيك بواحدة منها أن بنت عمة رسول الله - ﷺ -

 = فبايعه فقال: لقد أعرضت عنه ليقنتله بعضهم، فقال رجل من الأنصار: هلا أومضت إلينا يا رسول الله؟ قال: إن النبي لا يومض، وهذا مرسل أيضاً، وأخرجه أبو داود وغيره من حديث سعد بن أبي وقاص نحو الأول، ولكن في آخره: «ثم أقبل على أصحابه فقال: أفما كان فيكم رجل رشيد، يقوم إلى هذا حيث رأيي كففت يدي عنه فيقتله؟ قالوا: وما يدرينا يا رسول الله ما في نفسك، هلا أومأت إلينا بعينك؟ قال: لا ينبغي لنبي أن يكون له خائنة الأعين. انتهى.

(١) قوله «ولكان بعض المقالة» لعله: القالة. (ع)

أمنت الأئمة والضيعة ونالت الشرف وعادت أما من أمهات المسلمين . إلى ما ذكر الله عز وجل من المصلحة العامة في قوله: ﴿لِيَكُنْ لَا يَكُونَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ فِي أَزْوَاجِ أَدْعِيَائِهِمْ إِذَا قَضَوْا مِنْهُنَّ وَطَرًا﴾ فبالحري أن يعاتب الله رسوله حين كتبه وبالع في كتبه بقوله: ﴿أَمْسِكَ عَلَيْكَ زَوْجَكَ وَاتَّقِ اللَّهَ﴾ وأن لا يرضى له إلا اتحاد الضمير والظاهر، والثبات في مواطن الحق، حتى يقتدي به المؤمنون فلا يستحيوا من المكافحة بالحق وإن كان مرأ. فإن قلت: الواو في ﴿وَتَخْفَى فِي نَفْسِكَ﴾، ﴿وَتَخَشَى النَّاسَ وَاللَّهَ أَحَقُّ﴾ ما هي؟ قلت: واو الحال، أي: تقول لزيد: أمسك عليك زوجك مخفياً في نفسك إرادة أن لا يمسكها^(١)، وتخفي خاشياً قاله الناس وتخشى الناس، حقيقة في ذلك بأن تخشى الله، أو واو العطف، كأنه قيل: وإذا تجمع بين قولك. أمسك، وإخفاء خلافه، وخشية الناس. والله أحق أن تخشاه، حتى لا تفعل مثل ذلك. إذا بلغ البالغ حاجته من شيء له فيه همة قيل: قضى منه وطره. والمعنى: فلما لم يبق لزيد فيها حاجة، وتقاصرت عنها همته، وطابت عنها نفسه، وطلقها، وانقضت عدتها ﴿زَوَّجْنَاكَهَا﴾ وقراءة أهل البيت: زوّجتها. وقيل لجعفر بن محمد - رضي الله عنهما -: أليس تقرأ علي غير ذلك، فقال: لا والذي لا إله إلا هو، ما قرأتها على أبي إلا كذلك، ولا قرأها الحسن بن علي على أبيه إلا كذلك، ولا قرأها علي بن أبي طالب على النبي ﷺ إلا كذلك ﴿وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ مَفْعُولًا﴾ جملة اعتراضية، يعني: وكان أمر الله الذي يريد أن يكونه، مفعولاً مكنوناً لا محالة، وهو مثل لما أراد كونه من تزويج رسول الله - ﷺ - زينب، ومن نفي الحرج عن المؤمنين في إجراء^(٢) أزواج المتبينين مجرى أزواج البنين في تحريمهم عليهم بعد انقطاع علائق الزواج بينهم وبينهن. ويجوز أن يراد بأمر الله: المكنون، لأنه مفعول بكن، وهو أمر الله.

﴿مَا كَانَ عَلَى النَّبِيِّ مِنْ حَرَجٍ فِيمَا فَرَضَ اللَّهُ لَهُ سُنَّةَ اللَّهِ فِي الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلُ وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ قَدَرًا مَقْدُورًا﴾ (٢٨) الَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسَالَاتِ اللَّهِ وَيَخْشَوْنَهُ وَلَا يَخْشَوْنَ أَحَدًا إِلَّا اللَّهَ وَكَفَى بِاللَّهِ

حَسِيبًا (٢٩)

﴿فَرَضَ اللَّهُ لَهُ﴾ قسم له وأوجب، من قولهم: فرض لفلان في الديوان كذا. ومنه فروض العسكر لرزقاتهم ﴿سُنَّةَ اللَّهِ﴾ اسم موضوع موضع المصدر - كقولهم: تربا،

(١) قال السمين الحلبي: وفيه نظر من حيث أنه مضارع مثبت فكيف تباشره الواو وتخريجه كتخريج: قمت وأصك عينه. أعني على إضمار مبتدأ. الدر المصون (٤١٨/٥).

(٢) قوله «ومن نفي الحرج عن المؤمنين في إجراء» لعله في عدم إجراء، ويمكن أن المراد: الحرج الذي يكون في الإجراء والتسوية لو حصل ذلك الإجراء. (ع)

وجندلا -: مؤكد لقوله تعالى: ﴿مَا كَانَ عَلَى النَّبِيِّ مِنْ حَرَجٍ﴾ كأنه قيل: سنَّ الله ذلك سنة في الأنبياء الماضين، وهو أن لا يحرَج عليهم في الإقدام على ما أباح لهم ووسع عليهم في باب النكاح وغيره، وقد كانت تحتهم المهائر والسراري، وكانت لداود عليه السلام مائة امرأة وثلاثمائة سرية، ولسليمان عليه السلام ثلاثمائة وسبعمائة ﴿فِي الَّذِينَ خَلَوْا﴾ في الأنبياء الذين مضوا ﴿الَّذِينَ يَبْلُغُونَ﴾ يحتمل وجوه الإعراب: الجزر، على الوصف للأنبياء. والرفع والنصب، على المدح على هم الذين يبلغون. أو على: أعني الذين يبلغون. وقرئ: رسالة الله، قدراً مقدوراً: قضاء مقضياً، وحكماً، ووصف الأنبياء بأنهم لا يخشون إلا الله: تعريض بعد التصريح في قوله تعالى: ﴿وَتَخَشَّى النَّاسَ وَاللَّهُ أَحَقُّ أَنْ تَخْشَاهُ﴾. ﴿حَسِبًا﴾ كافياً للمخاوف، أو محاسباً على الصغيرة والكبيرة، فيجب أن يكون حق الخشية من مثله.

﴿مَا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ وَلَكِن رَّسُولَ اللَّهِ وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا﴾

﴿مَا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ﴾ أي لم يكن أبا رجل منكم على الحقيقة، حتى يثبت بينه وبينه ما يثبت بين الأب وولده من حرمة الصهر والنكاح ﴿وَلَكِن﴾ كان ﴿رَسُولَ اللَّهِ﴾ وكل رسول أبو أمته فيما يرجع إلى وجوب التوقير والتعظيم له عليهم. ووجوب الشفقة والنصيحة لهم عليه، لا في سائر الأحكام الثابتة بين الآباء والأبناء، وزيد واحد من رجالكم الذين ليسوا بأولاده حقيقة، فكان حكمه حكمكم، والادعاء والتبني من باب الاختصاص والتقريب لا غير ﴿و﴾ كان ﴿وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ﴾ يعني أنه لو كان له ولد بالغ مبلغ الرجال لكان نبياً ولم يكن هو خاتم الأنبياء، كما يروى أنه قال في إبراهيم حين توفي. لو عاش لكان نبياً (١٢٠٣). فإن قلت: أما كان أبا للطاهر والطيب/٢/١٠٣ ب والقاسم

١٢٠٣ - أخرجه ابن ماجه (٤٨٤/١) كتاب الجنائز باب ما جاء في الصلاة على ابن رسول الله - ﷺ - حديث (١٥١١) من طريق إبراهيم بن عثمان ثنا الحكم بن عتيبة عن مقسم عن ابن عباس قال: لما مات إبراهيم ابن رسول الله - ﷺ - صلى رسول الله - ﷺ - وقال: إن له مرضعاً في الجنة ولو عاش لكان صديقاً نبياً ولو عاش لعنته: أخواله القبط وما استرق قبطي. وفي الزوائد: في إسناده إبراهيم بن عثمان أبو شيبه قاضي واسط قال فيه البخاري: سكتوا عنه وقال ابن المبارك: ارم به، وقال ابن معين: ليس بثقة، وقال أحمد منكر الحديث، وقال النسائي: متروك الحديث. اهـ. وللحديث شاهد من حديث ابن أبي أوفى أخرجه البخاري (٦١٩٤) عنه بلفظ: مات إبراهيم ابن رسول الله - ﷺ - ولو قضى أن يكون بعد محمد نبي لعاش ابنه ولكن لا نبي بعده قال الحافظ في «تخريج الكشاف»: أخرجه ابن ماجه من طريق مقسم عن ابن عباس في أثناء حديث وللبخاري من حديث ابن أبي أوفى «ولو قضى أن يكون بعد محمد نبي لعاش ابنه ولكن لا نبي بعده». انتهى.

وإبراهيم؟ قلت: قد أخرجوا من حكم النفي بقوله: ﴿مِنْ رِجَالِكُمْ﴾ من وجهين، أحدهما: أنَّ هؤلاء لم يبلغوا مبلغ الرجال. والثاني: أنه قد أضاف الرجال إليهم وهؤلاء رجاله لا رجالهم. فإن قلت: أما كان أباً للحسن والحسين؟ قلت: بلى ولكنهما لم يكونا رجلين حيثُذ، وهما أيضاً من رجاله لا من رجالهم، وشيء آخر: وهو أنه إنما قصد ولده خاصة، لا ولد ولده؛ لقوله تعالى: ﴿وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ﴾ ألا ترى أن الحسن والحسين قد عاشا إلى أن نيف أحدهما^(١) على الأربعين والآخر على الخمسين. قرئ: ولكن رسول الله بالنصب، عطفاً على ﴿أَبَا أَحَدٍ﴾ وبالرفع على: ولكن هو رسول الله. ولكن، بالتشديد على حذف الخبر، تقديره: ولكن رسول الله من عرفتموه، أي: لم يعيش له ولد ذكر. وخاتم بفتح التاء بمعنى الطابع، وبكسرهما بمعنى الطابع وفاعل الختم. وتقويّه قراءة ابن مسعود: ولكن نبياً ختم النبيين. فإن قلت: كيف كان آخر الأنبياء وعيسى ينزل في آخر الزمان؟ قلت: معنى كونه آخر الأنبياء أنه لا ينبا أحد بعده، وعيسى ممن نبىء قبله، وحين ينزل ينزل عاملاً على شريعة محمد، مصلياً إلى قبلته، كأنه بعض أمته.

﴿يَتَأَيَّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اذْكُرُوا اللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا ۝ (٤١) وَسِيَّحُوْهُ بُكْرَةً وَّاصِيلاً ۝ (٤٢)﴾

﴿اَذْكُرُوا اللَّهَ﴾ اثنوا عليه بضروب الثناء من التقديس والتحميد والتهليل والتكبير وما هو أهله. وأكثروا ذلك ﴿بُكْرَةً وَّاصِيلاً﴾ أي في كافة الأوقات قال رسول الله - ﷺ -: ذكر الله على فم كل مسلم (١٢٠٤). وروي في قلب كل مسلم، وعن قتادة: قولوا سبحان الله والحمد لله ولا إله إلا الله والله أكبر ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم، وعن

١٢٠٤ - قال الزيلعي في «تخريج الكشاف» (١١٥/٣) غريب بهذا اللفظ. وأخرجه الدارقطني (٢٩٥/٤) والبيهقي (٢٤٠/٩) وابن عدي في «الكامل» (٢٣٨١/٦) من طريق مروان بن سالم الأزاعي عن يحيى بن أبي كثير عن أبي سلمة عن أبي هريرة قال: سأل رجل رسول الله - ﷺ - الرجل منا يذبح وينسى أن يسمي قال... فذكره. قال الدارقطني: مروان بن سالم ضعيف. قال الزيلعي في «نصب الراية» (١٨٣/٤)، وأعله ابن القطان أيضاً به، وقال: هو مروان بن سالم الغفاري وهو ضعيف، وليس بمروان بن سالم المكي. انتهى. ورواه ابن عدي في «الكامل» وأسند تضعيفه عن أحمد والنسائي ووافقهما، وقال: عامة ما يرويه لا يتابعه الثقات عليه. انتهى. قال الحافظ في تخريج الكشاف: لم أجده بهذا اللفظ وروى الدارقطني والبيهقي وابن عدي من حديث أبي هريرة قال: «سأل رجل رسول الله - ﷺ - الرجل منا يذبح وينسى أن يسمي؟ قال: اسم الله على فم كل مسلم» وفيه مروان بن سالم وهو ضعيف جداً. انتهى.

(١) قوله «نيف أحدهما» أي: زاد. والنيف - بالتشديد والتخفيف -: الزيادة، كذا في الصحاح. (ع)

مجاهد: هذه كلمات يقولها الطاهر والجنب. والفعلان، أعني اذكروا وسبحوا موجهاً إلى البكرة والأصيل، كقولك: صم وصلّ يوم الجمعة، والتسبيح من جملة الذكر، وإنما اختصه من بين أنواعه اختصاص جبريل وميكائيل من بين الملائكة، لبيان فضله على سائر الأذكار، لأن معناه تنزيه ذاته عما لا يجوز عليه من الصفات والأفعال، وتبرئته من القبائح. ومثال فضله على غيره من الأذكار فضل وصف العبد بالنزاهة من أدناس المعاصي، والطهر من أرجاس المآثم، على سائر أوصافه من كثرة الصلاة والصيام، والتوفر على الطاعات كلها، والاشتغال على العلوم، والاشتغال بالفضائل، ويجوز أن يريد بالذكر وإكثاره: تكثير الطاعات، والإقبال على العبادات؛ فإن كل طاعة وكل خير من جملة الذكر، ثم خص من ذلك التسبيح بكرة وأصيلاً وهي الصلاة في جميع أوقاتها لفضل الصلاة على غيرها، أو صلاة الفجر والعشاءين؛ لأن أداءها أشق ومراعاتها أشد.

﴿هُوَ الَّذِي يُصَلِّي عَلَيْكُمْ وَمَلَائِكَتُكَ لِيُخْرِجَكُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَكَانَ بِالْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا ۝١٣﴾ نَحْبَتُهُمْ يَوْمَ يَلْقَوْنَهُ سَلَامٌ وَأَعَدَّ لَهُمْ أَجْرًا كَرِيمًا ﴿١٤﴾

لما كان من شأن المصلي أن ينعطف في ركوعه وسجوده استعير لمن ينعطف على غيره حنوّاً عليه وتروفاً، كعائد المريض في انعطافه عليه، والمرأة في حنوّها على ولدها، ثم كثر حتى استعمل في الرحمة والتروّف ومنه قولهم: صلى الله عليك، أي ترحم عليك وترأف. فإن قلت: قوله: ﴿هُوَ الَّذِي يُصَلِّي عَلَيْكُمْ﴾ إن فسرت به يترحم عليكم وترأف^(١)، فما تصنع بقوله: ﴿وَمَلَائِكَتُكَ﴾ وما معنى صلاتهم؟ قلت: هي قولهم: اللهم صل على المؤمنين، جعلوا لكونهم مستجابي الدعوة كأنهم فاعلون الرحمة والرأفة. ونظيره قوله: حياك الله، أي أحياك وأبقاك، وحييتك، أي: دعوت لك بأن يحييك الله؛ لأنك لا تكالك على إجابة دعوتك كأنك تبقيه على الحقيقة، وكذلك: عمرك الله، وعمرتك، وسقاك الله، وسقيتك، وعليه قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ وَمَلَائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ﴾ [الأحزاب: ٥٦] أي ادعوا الله بأن يصلي عليه. والمعنى: هو الذي يترحم عليكم وترأف: حيث يدعوكم إلى الخير ويأمركم بإكثار الذكر والتوفر على الصلاة والطاعة ﴿لِيُخْرِجَكُم﴾ من

(١) قال محمود: «إن جعلت يصلي بمعنى يرحم فما بال عطف الملائكة عليه؛ فأجاب بأنهم لما كانوا يدعون الله بالرحمة ويستجيب دعاءهم بذلك، جعلوا كأنهم فاعلون الرحمة، كما تقول: حياك الله، بمعنى أحبك، ثم تقول حييته، بمعنى دعوت الله له بالحياة، والمقصد بذلك جعل الحياة محققة له، كأنك قلت: دعوت له بالحياة فاستجبت الدعوة» قال أحمد: كثيراً ما يفر الزمخشري من اعتقاد إفادة الحقيقة والمجاز معاً بلفظ واحد، وقد التزمه ههنا، ولكن جعل الصلاة من الله حقيقة، ومن الملائكة مجازاً؛ لأنه حملها على الرحمة. وأما غيره فحملها على الدعاء، وجعلها من الملائكة حقيقة، ومن الله مجازاً، والله أعلم.

ظلمات المعصية إلى نور الطاعة ﴿وَكَانَ بِالْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا﴾ دليل على أن المراد بالصلاة الرحمة. ويروى أنه لما نزل قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ وَمَلَائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ﴾ قال أبو بكر - رضي الله عنه -: ما خصك يا رسول الله بشرف إلا وقد أشركنا فيه، فأنزلت ﴿يَحْيَتُهُمْ﴾ من إضافة المصدر إلى المفعول، أي: يحيون يوم لقائه بسلام، فيجوز أن يعظمهم الله بسلامه عليهم، كما يفعل بهم سائر أنواع التعظيم، وأن يكون مثلاً كاللقاء على ما فسرنا. وقيل: هو سلام ملك الموت والملائكة معه عليهم وبشارتهم بالجنة. وقيل: سلام الملائكة عند الخروج من القبور. وقيل: عند دخول الجنة، كما قال: ﴿وَالْمَلَائِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِمْ مِنْ كُلِّ بَابٍ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ﴾ [الرعد: ٢٣-٢٤] والأجر الكريم: الجنة.

﴿يَأْتِيهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَهِيدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا﴾ ﴿٤٥﴾ وَدَاعِيًا إِلَى اللَّهِ بِإِذْنِهِ وَسِرَاجًا مُنِيرًا ﴿٤٦﴾

﴿شَهِيدًا﴾ على من بعثت إليهم، وعلى تكذبيهم وتصديقهم، أي: مقبولا قولك عند الله لهم وعليهم، كما يقبل قول الشاهد العدل في الحكم، فإن قلت: وكيف كان شاهداً وقت الإرسال، وإنما يكون ٢/ ١٠٤ شاهداً عند تحمل الشهادة أو عند أدائها؟ قلت: هي حال مقدرة، كمسألة الكتاب: مررت برجل معه صقر صائداً به غداً، أي: مقدراً به الصيد غداً، فإن قلت: قد فهم من قوله: إنا أرسلناك داعياً: أنه مأذون له في الدعاء، فما فائدة قوله: ﴿بِإِذْنِهِ﴾؟ قلت: لم يرد به حقيقة الإذن. وإنما جعل الإذن مستعاراً للتسهيل والتيسير؛ لأن الدخول في حق المالك متعذر، إذا صودف الإذن تسهيل وتيسر، فلما كان الإذن تسهياً لما تعذر من ذلك، وضع موضعه، وذلك أن دعاء أهل الشرك والجاهلية إلى التوحيد والشرائع أمر في غاية الصعوبة والتعذر، ف قيل: بإذنه، للإيذان بأن الأمر صعب لا يتأتى ولا يستطيع إلا إذا سهله الله ويسره، ومنه قولهم في الشحيح: أنه غير مأذون له في الإنفاق، أي: غير مهمل له الإنفاق لكونه شاقاً عليه داخلاً في حكم التعذر. جلى به الله ظلمات الشرك واهتدى به الضالون، كما يجلى ظلام الليل بالسراج المنير ويهتدى به. أو أمد الله بنور نبوته نور البصائر، كما يمد بنور السراج نور الأبصار. وصفه بالإشارة لأن من السراج ما لا يضيء إذا قل سليطه ودقت فتيلته. وفي كلام بعضهم: ثلاثة تضيئ: رسول بطيء، وسراج لا يضيء، ومائدة ينتظر لها من يجيء. وسئل بعضهم عن الموحشين؟ فقال: ظلام سائر، وسراج فاتر. وقيل: وذو سراج منير. أو وتالياً سراجاً منيراً. ويجوز على هذا التفسير أن يعطف على كاف ﴿أَرْسَلْنَاكَ﴾^(١).

(١) قال السمين الحلبي: وفيه تظنر لأن السراج هو القرآن ولا يوصف بالإرسال بل بالإنزال إلا أن يقال =

﴿وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ بِأَنَّ لَهُمْ مِنَ اللَّهِ فَضْلًا كَبِيرًا﴾ (٤٧)

الفضل: ما يتفضل به عليهم زيادة على الثواب، وإذا ذكر المتفضل به وكبره فما ظنك بالثواب. ويجوز أن يريد بالفضل: الثواب، من قولهم للعطايا: فضول وفواضل، وأن يريد أن لهم فضلاً كبيراً على سائر الأمم، وذلك الفضل من جهة الله، وأنه آتاهم ما فضلوههم به.

﴿وَلَا يُطِيعُ الْكَافِرِينَ وَالْمُنَافِقِينَ وَدَعَا أَذُنَهُمْ وَتَوَكَّلَ عَلَى اللَّهِ وَكَفَى بِاللَّهِ وَكِيلًا﴾ (٤٨)

﴿وَلَا يُطِيعُ الْكَافِرِينَ﴾ معناه: الدوام والثبات على ما كان عليه. أو التهيج ﴿أَذُنَهُمْ﴾ يحتمل إضافته إلى الفاعل والمفعول، يعني: ودع أن تؤذيههم بضرر أو قتل، وخذ بظاهرهم، وحسابهم على الله في باطنهم. أو: ودع ما يؤذونك به ولا تجازهم عليه حتى تؤمر، وعن ابن عباس - رضي الله عنهما -: هي منسوخة بآية السيف ﴿وَتَوَكَّلَ عَلَى اللَّهِ﴾ فإنه يكفيكم، وكفى به مفوضاً إليه، ولقائل أن يقول: وصفه الله بخمسة أوصاف، وقابل كلا منها بخطاب مناسب له، قابل الشاهد بقوله: وبشر المؤمنين، لأنه يكون شاهداً على أمته وهم يكونون شهداء على سائر الأمم، وهو الفضل الكبير والمبشر بالإعراض عن الكافرين والمنافقين، لأنه إذا أعرض عنهم أقبل جميع إقباله على المؤمنين، وهو مناسب للبشارة والنذير بدع أذاهم، لأنه إذا ترك أذاهم في الحاضر - والأذى لا بد له من عقاب عاجل أو آجل - كانوا منذرين به في المستقبل، والداعي إلى الله بتيسيره بقوله: ﴿وَتَوَكَّلَ عَلَى اللَّهِ﴾ لأن من توكل على الله يسر عليه كل عسير، والسراج المنير بالاكتماء به وكيلاً؛ لأن من أناره الله برهانا على جميع خلقه، كان جديراً بأن يكتفي به عن جميع خلقه.

﴿يَتَأَيَّأُ الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا نَكَحَتُمُ الْمُؤْمِنَاتِ ثُمَّ طَلَقْتَهُنَّ مِنْ قَبْلِ أَنْ تَمْسُوهُنَّ فَمَا لَكُمْ عَلَيْهِنَّ مِنْ عِدَةٍ تَعُدُّوهنَّ فَمَتَّعُوهُنَّ وَسَرَّحُوهُنَّ سَرَاحًا جَمِيلًا﴾ (٤٩)

النكاح: الوطاء، وتسمية العقد نكاحاً لملاسته له، من حيث أنه طريق إليه. ونظيره تسميتهم الخمر إثماً؛ لأنها سبب في اقتراف الإثم، ونحوه في علم البيان قول الراجز [من الرجز]:

أَسْنِمَةُ الْآبَالِ فِي سَحَابِهِ^(١)

= إنه حمل على المعنى كقوله [من الكامل]:

فَعَلَفْتُهَا تَبْنًا وَمَاءً بَارِدًا

.....

وأيضاً «فَيُغْتَفَرُ فِي الثَّوَانِي مَا لَا يُغْتَفَرُ فِي الْأَوَائِلِ». انتهى. الدر المصون.

(١) أقبل كالمستن من ربابه كأنما الوابل في مصابه

أسنمة الآبال في سحابه

=

سمى الماء بأسنمة الآبال؛ لأنه سبب سمن المال وارتفاع أسنمته، ولم يرد لفظ النكاح في كتاب الله إلا في معنى العقد؛ لأنه في معنى الوطاء من باب التصريح به. ومن آداب القرآن: الكناية عنه بلفظ الملامسة والمماساة والقربان والتغشي والإتيان. فإن قلت: لم خص المؤمنين والحكم الذي نطق به الآية تستوي فيه المؤمنات والكتابيات؟ قلت: في اختصاصهنّ تنبيه على أن أصل أمر المؤمن والأولى به: أن يتخير لنطقته، وأن لا ينكح إلا مؤمنة عفيفة، ويتنزه عن مزاجاة الفواسق فما بال الكوافر، ويستنكف أن يدخل تحت لحاف واحد عدوة الله ووليه، فالتى في سورة المائدة: تعليم ما هو جائز غير محرّم، من نكاح المحصنات من الذين أوتوا الكتاب وهذه فيها تعليم ما هو الأولى بالمؤمنين من نكاح المؤمنات. فإن قلت: ما فائدة ثم في قوله: ﴿ثُمَّ طَلَّقْتُوهُنَّ؟﴾ قلت: فائدته نفي التوهم عمن عسى يتوهم تفاوت الحكم: بين أن يطلقها وهي قريبة العهد من النكاح، وبين أن يبعد عهدها بالنكاح ويتراخى بها المدة في حباله الزواج ثم يطلقها^(١): فإن قلت: إذا خلا بها خلوة يمكنه معها المساس، هل يقوم ذلك مقام المساس؟ قلت: نعم عند أبي حنيفة وأصحابه حكم الخلوة الصحيحة حكم المساس، وقوله: ﴿فَمَا لَكُمْ عَلَيْهِنَّ مِنْ عَدَةٍ﴾ دليل على أن العدة حق واجب على النساء للرجال ﴿تَعْدُوْنَهَا﴾ تستوفون عددها، من قولك: عدت الدراهم فاعتدها، كقولك، كلته فاكثاله/٢/١٠٤ب، ووزنته فاتزنه. وقرئ: تعتدونها، مخففاً؛ أي: تعتدون فيها؛ كقوله [من الطويل]:

وَيَوْمَ شَهِدْنَاْ (٢)

والمراد بالاعتداد ما في قوله تعالى: ﴿وَلَا تُشْكُوْهُنَّ ضَرًا إِنَّ لِعُدَّتِهِنَّ﴾ [البقرة: ٢٣١]. فإن قلت: ما هذا التمتع أوجب أم مندوب إليه؟ قلت: إن كانت غير مفروض لها كانت

= يصف مطراً بالكثرة والثروة. ويقال: استن الفرس، إذا قمص ولعب، وهو أن يرفع يديه ويطحهما تارة ورجليه أخرى على التعاقب. وقمص البحر بالسفينة: إذا حركها، فرفع مقدمها تارة ومؤخرها أخرى، فالمستن: اسم فاعل منه، واستعير للسحاب: إذ أقبل يتحرك وفيه المطر. والرياب: السحاب الأبيض المتلاصق. وضمير «أقل» و«ريابه» للمطر. والوابل: إظهار في مقام الإضمار، للدلالة على الكثرة وفي مصابه: حال له. وأسنمة الآبال: مبتدأ. وفي سحابه: خبر، والجملة خبر الوابل، وأعلى الأسنمة على الماء لأنه سبب سمنها، والمصاب: مصدر على زنة المفعول. الوابل: المطر الشديد الوقع. والأسنمة: جمع سنام. والآبال - بمد الهزمة -: جمع الإبل.

(١) قال السمين الحلبي: قال الشيخ: واستعمل عسى صلة لمن وهو لا يجوز قلْتُ: يُخْرِجُ قوله على ما خُرِّجَ عليه قول الآخر [من الطويل]:

وَأَنِّي كَرَامَ نَظْرَةٍ قَبْلَ التِّي
لَعَلِّي وَإِنْ شَطَطَتْ نَوَاهَا أَرْوَرَهَا

وهو إضمار القول. انتهى. الدر المصون.

(٢) تقدم.

المتعة واجبة، ولا تجب المتعة عند أبي حنيفة إلا لها وحدها دون سائر المطلقات، وإن كانت مفروضاً لها؛ فالمتعة مختلف فيها: فبعض على الندب والاستحباب، ومنهم أبو حنيفة. وبعض على الوجوب ﴿سَرَّامًا جَمِيلًا﴾ من غير ضرار ولا منع واجب.

﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَحْلَلْنَا لَكَ أَزْوَاجَكَ الَّتِي ءَاتَيْتَ أَجُورَهُنَّ وَمَا مَلَكَتْ يَمِينُكَ مِمَّا أَفَاءَ اللَّهُ عَلَيْكَ وَبَنَاتِ عِمِكَ وَبَنَاتِ عَمَتِكَ وَبَنَاتِ خَالِكَ وَبَنَاتِ خَالَاتِكَ الَّتِي هَاجَرْنَ مَعَكَ وَامْرَأَةً مُؤْمِنَةً إِنْ وَهَبَتْ نَفْسَهَا لِلنَّبِيِّ إِنْ أَرَادَ النَّبِيُّ أَنْ يَسْتَنْكِحَهَا خَالِصَةً لَكَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ قَدْ عَلِمْنَا مَا فَرَضْنَا عَلَيْهِمْ فِي أَزْوَاجِهِمْ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ لِكَيْلَا يَكُونَ عَلَيْكَ حَرَجٌ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا ﴿٥٥﴾﴾ تَرْجِي مَنْ تَشَاءُ مِنْهُنَّ وَتُفَوِّضْ إِلَيْكَ مَنْ تَشَاءُ وَمِنْ أَبْغَيْتَ مِمَّنْ عَزَلْتَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكَ ذَلِكَ أَدْنَى أَنْ تَقَرَّ أَعْيُنُهُنَّ وَلَا يَحْزَنَ وَيَرْضَيْنَ بِمَا ءَاتَيْنَهُنَّ كُلُّهُنَّ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا فِي قُلُوبِكُمْ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَلِيمًا ﴿٥٦﴾﴾

﴿أَجُورُهُنَّ﴾ مهورهن؛ لأن المهر أجر على البضع. . وإتاؤها: إما إعطاؤها عاجلاً. وإما فرضها وتسميتها في العقد. فإن قلت: لم قال: ﴿الَّتِي ءَاتَيْتَ أَجُورَهُنَّ﴾ و﴿مِمَّا أَفَاءَ اللَّهُ عَلَيْكَ﴾ و﴿الَّتِي هَاجَرْنَ مَعَكَ﴾ وما فائدة هذه التخصيصات؟ قلت: قد اختار الله لرسوله الأفضل الأولى، واستحبه بالأطيب الأزكى، كما اختصه بغيرها من الخصائص، وأثره بما سواها من الأثر، وذلك أن تسمية المهر في العقد أولى وأفضل من ترك التسمية، وإن وقع العقد جائزاً؛ وله أن يماسها وعليه مهر المثل إن دخل بها، والمتعة إن لم يدخل بها. وسوق المهر إليها عاجلاً أفضل من أن يسميه ويؤجله، وكان التعجيل ديدن السلف وستتهم، وما لا يعرف بينهم غيره، وكذلك الجارية إذا كانت سبية مالكة، وخطبة سيفه ورمحه، ومما غنمه الله من دار الحرب أحل وأطيب مما يشتري من شق الجلب. والسبي على ضربين: سبي طيبة، وسبي خبيثة؛ فسبي الطيبة: ما سبي من أهل الحرب. وأما من كان له عهد فالمسبي منهم سبي خبيثة، ويدل عليه قوله تعالى: ﴿مِمَّا أَفَاءَ اللَّهُ عَلَيْكَ﴾ لأن فيء الله لا يطلق إلا على الطيب دون الخبيث، كما أن رزق الله يجب إطلاقه على الحلال دون الحرام^(١)، وكذلك اللاتي هاجرن مع رسول الله - ﷺ - من قرأته غير المحارم أفضل من غير المهاجرات معه. وعن أم هانئ بنت أبي طالب: خطبني رسول الله - ﷺ - فاعتذرت إليه فعذرني، ثم أنزل الله هذه الآية، فلم أحل له؛ لأنني لم أهاجر معه، كنت

(١) قوله «كما أن رزق الله يجب إطلاقه على الحلال» هذا عند المعتزلة. أما أهل السنة فيطلقونه على القسمين. (ع)

من الطلقاء (١٢٠٥). وأحللنا لك من وقع لها أن تهب لك نفسها ولا تطلب مهرأ من النساء المؤمنات إن اتفق ذلك، ولذلك نكرها. واختلف في اتفاق ذلك، فعن ابن عباس - رضي الله عنهما -: لم يكن عند رسول الله - ﷺ - أحد منهن بالهبة. وقيل الموهوبات أربع: ميمونة بنت الحارث، وزينب بنت خزيمة أم المساكين الأنصارية، وأم شريك بنت جابر، وخولة بنت حكيم - رضي الله عنهن - قرئ ﴿إِنْ وَهَبْتَ﴾ على الشرط. وقرأ الحسن - رضي الله عنه - ﴿أَنْ﴾ بالفتح، على التعليل بتقدير حذف اللام. ويجوز أن يكون مصدراً محذوفاً معه الزمان، كقولك: اجلس ما دام زيد جالساً، بمعنى وقت دوامه جالساً، ووقت هبتها نفسها. وقرأ ابن مسعود بغير أن. فإن قلت: ما معنى الشرط الثاني مع الأول؟ قلت: هو تقييد الشرط في الإحلال هبتها نفسها، وفي الهبة: إرادة استنكاح رسول الله - ﷺ -، كأنه قال: أحللناها لك إن وهبت لك نفسها وأنت تريد أن تستنكحها؛ لأن إرادته هي قبول الهبة وما به تتم. فإن قلت: لم عدل عن الخطاب إلى الغيبة في قوله تعالى: ﴿نَفْسَهَا لِلنَّبِيِّ إِنْ أَرَادَ النَّبِيُّ﴾ ثم رجع إلى الخطاب؟ قلت: للإيذان بأنه مما خص به وأوثر، ومجيئه على لفظ النبي للدلالة على أن الاختصاص تكرمة له لأجل النبوة، وتكريره تفخيم له وتقرير لاستحقاقه الكرامة لنبوته. واستنكاحها: طلب نكاحها والرغبة فيه، وقد استشهد به أبو حنيفة على جواز عقد النكاح بلفظ الهبة لأن رسول الله - ﷺ - وأمته سواء في الأحكام إلا فيما خصه الدليل، وقال الشافعي: لا يصح، وقد خص رسول الله - ﷺ - بمعنى الهبة ولفظها جميعاً؛ لأن اللفظ تابع للمعنى، والمدعي للاشتراك في اللفظ يحتاج إلى دليل. وقال أبو الحسن الكرخي: إن عقد النكاح بلفظ الإجارة جائز، لقوله تعالى: ﴿وَاللَّاتِي أَتَيْتَ أَجُورَهُنَّ﴾ وقال أبو بكر الرازي: لا يصح؛ لأن الإجارة عقد مؤقت، وعقد النكاح مؤبد، فهما متنافيان ﴿خَالِصَةً﴾ مصدر مؤكد، كوعد الله، وصبغة الله، أي: خلص لك إحلال ما أحللنا لك خالصة، بمعنى خلوصاً، والفاعل والفاعلة في المصادر غير عزيزين كالخارج والقاعد، والعافية والكاذبة. والدليل على أنها وردت في أثر الإحلالات الأربع مخصوصة برسول الله - ﷺ - على سبيل ١٠٥/٢

١٢٠٥ - رواه الترمذي (٣٥٥/٥) كتاب التفسير، باب ومن سورة الأحزاب الحديث (٣٢١٤). ورواه الحاكم (١٨٥/٢) في النكاح، ورواه (٥٣/٤)، في معرفة الصحابة، وابن جرير في التفسير (١٠/٣٠٩) (٢٨٥٤٦) وذكره السيوطي في الدر (٣٩٣/٥). وعزه لابن سعد في الطبقات، وابن راهويه، وعبد بن حميد، وابن أبي حاتم، والطبراني، وابن مردويه.

وعزه الزيلعي في تخريج الكشاف (١١٦/٢) للثعلبي أيضاً. قال الحافظ: أخرجه الترمذي والحاكم، وابن أبي شيبة، وإسحاق، والطبري، والطبراني، وابن أبي حاتم، كلهم من رواية السدي عن أبي صالح عنها. انتهى.

التوكيد لها قوله: ﴿وَدَّ عَلَيْنَا مَا فَرَضْنَا عَلَيْهِمْ فِي أَزْوَاجِهِمْ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ﴾ بعد قوله: ﴿مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ﴾ وهي جملة اعتراضية، وقوله: ﴿لِكَيْلَا يَكُونَ عَلَيْكَ حَرَجٌ﴾ متصل بخالصة لك من دون المؤمنين، ومعنى هذه الجملة الاعتراضية أن الله قد علم ما يجب فرضه على المؤمنين في الأزواج والإماء، وعلى أي حد وصفة يجب أن يفرض عليهم ففرضه. وعلم المصلحة في اختصاص رسول الله - ﷺ - بما اختصه به ففعل: ومعنى ﴿لِكَيْلَا يَكُونَ عَلَيْكَ حَرَجٌ﴾ لئلا يكون عليك ضيق في دينك: حيث اختصاصك بالتنزيه واختيار ما هو أولى وأفضل، وفي دينك: حيث أحللتنا لك أجناس المنكوحات وزدنا لك الواهبة نفسها. وقرئ: خالصة، بالرفع، أي: ذاك خلوص لك وخصوص من دون المؤمنين ومن جعل خالصة نعتاً للمرأة، فعلى مذهبه: هذه المرأة خالصة لك من دونهم ﴿وَكَانَ اللَّهُ عَفُوًّا﴾ للواقع في الحرج إذا تاب ﴿رَحِيمًا﴾ بالتوسعة على عباده. روي أن أمهات المؤمنين حين تغايرن وابتغين زيادة النفقة وغظن رسول الله - ﷺ -، هجرهن شهراً، ونزل التخيير، فأشفقن أن يطلقهن، فقلن يا رسول الله، افرض لنا من نفسك ومالك ما شئت (١٢٠٦). وروي أن عائشة - رضي الله عنها - قالت: يا رسول الله إني أرى ربك

١٢٠٦ - قال الزيلعي (١١٧/٣): غريب بهذا اللفظ. وقال الحافظ: هذا ملفق من أحاديث.

قلت: روى مسلم في صحيحه (٣٣٨/٥ - نووي) كتاب الطلاق، باب بيان أن تخيير امرأته لا يكون طلاقاً الحديث (١٤٧٨) حدثنا زهير بن حرب حدثنا روح بن عبادة حدثنا زكريا بن إسحاق حدثنا أبو الزبير عن جابر عن عبد الله قال: دخل أبو بكر يستأذن على رسول الله - ﷺ - فوجد الناس جلوساً ببابه لم يؤذن لأحد منهم، قال: فأذن لأبي بكر فدخل ثم أقبل عمر فاستأذن فأذن له فوجد النبي - ﷺ - جالساً حوله نساؤه واجماً ساكتاً، قال: فقال: لأقولن شيئاً أضحك النبي - ﷺ - فقال: يا رسول الله لو رأيت بنت خارجة! سألتني النفقة فقممت إليها، فوجأت عنقها، فضحك رسول الله - ﷺ - وقال: هن حولي كما ترى يسألنني النفقة فقام أبو بكر إلى عائشة يجأ عنقها فقام عمر إلى حفصة يجأ عنقها. كلاهما يقول: تسألن رسول الله - ﷺ - ما ليس عنده فقلن: والله لا نسأل رسول الله - ﷺ - شيئاً أبداً ليس عنده، ثم اعتزلهن شهراً أو تسعاً وعشرين، ثم نزلت عليه هذه الآية: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُلْ لِأَزْوَاجِكَ﴾ فقال: حتى بلغ: ﴿لِلْمُحْسِنَاتِ مِنْكُنَّ أَجْرًا عَظِيمًا﴾، قال: فبدأ بعائشة فقال: «يا عائشة إني أريد أن أعرض عليك امرأة أحب أن لا تعجلي فيه حتى تستشير أبيك، قالت: وما هو يا رسول الله، فتلا عليها الآية قالت: أفيك يا رسول الله استشير أبيي؟ بل اختار الله ورسوله والدار الآخرة، أسألك أن لا تخبر امرأة من نسائك بالذي قلت. قال: «لا تسألني امرأة منهن إلا أخبرتها إن الله لم يعثني معتناً ولا متعتاً ولكن بعثني معلماً ميسراً».

والحديث رواه النسائي في الكبرى (٣٨٣/٥) كتاب عشرة النساء، باب إذا لم يجد الرجل ما ينفق على امرأته هل يخير امرأته الحديث (٩٢٠٨).

ونقل الزيلعي (١١٧/٣) عن مجاهد قال: كان للنبي - ﷺ - تسع نسوة فخشين أن يطلقهن فقلن: يا رسول الله اقسم لنا من نفسك ومالك ما شئت فنزلت: ﴿وَرَبِّيَ مَنْ نَشَأُ﴾... الآية.

=

يسارع في هواك (١٢٠٧)، ﴿تَرْجِي﴾ بهمز وغير همز: تؤخر ﴿وَتَوَيَّ﴾ تضم، يعني: تترك مضاجعة من تشاء منهم، وتضاجع من تشاء. أو تطلق من تشاء، وتمسك من تشاء. أولاً تقسم لأيتهن شئت، وتقسم لمن شئت. أو تترك تزوج من شئت من نساء أمتك. وتزوج من شئت. وعن الحسن - رضي الله عنه -: كان النبي ﷺ إذا خطب امرأة لم يكن لأحد أن يخطبها حتى يدعها (١٢٠٨). وهذه قسمة جامعة لما هو الغرض؛ لأنه إما أن يطلق، وإما أن يمسك؛ فإذا أمسك ضاجع أو ترك وقسم أولم يقسم. وإذا طلق وعزل، فإما أن يخلي المعزولة لا يبتغيها، أو يبتغيها. روي أنه أرجى منهن سودة وجويرية وصفية وميمونة وأم حبيبة، فكان يقسم لهن ما شاء كما شاء، وكانت ممن آوى إليه: عائشة وحفصة وأم سلمة وزينب - رضي الله عنهن - أرجى خمساً وآوى أربعاً (١٢٠٩). وروي أنه كان يسوي مع ما

= قال الحافظ: هذا ملفق من أحاديث. فأوله عند مسلم من طريق أبي الزبير عن جابر قال: «دخل أبو بكر على النبي ﷺ - والناس على الباب جلوس... الحديث»، وفيه قول أبي بكر وعمر قال: «فضحك رسول الله ﷺ - وقال: هن حولي كما ترى يسألنني النفقة - فذكر الحديث - وفيه: فأنزله الله آية التخيير»، وقوله: «واهجروهن شهراً»، هذا هو من حديث عائشة في الصحيحين. وقوله: «فأشفقن أن يطلقهن - إلى آخره» أخرجه ابن أبي شيبه من رواية رزين أن النبي ﷺ - أراد أن يفارق نساءه، فقلن له: اقسم لنا من نفسك ومالك ما شئت، ودعنا على حالنا» وهذا مرسل. وروي ابن مردويه من طريق سالم الأفتس عن مجاهد قال: كان للنبي ﷺ - تسع نسوة وخشبن أن يطلقهن، فقلن: يا رسول الله، اقسم لنا من نفسك ومالك ما شئت ولا تطلقنا فزلت: ﴿تَرْجِي مَن نَّشَاءُ يَتَنَّنَ﴾ الآية. انتهى.

١٢٠٧ - أخرجه البخاري (٢٠٥/١٠) كتاب النكاح باب حل المرأة أن تهب نفسها لأحد؛ حديث (٥١١٣) ومسلم (١٠٨٥/٢) حديث (١٤٦٤/٤٩) وهم الحاكم فاستدرك هذا الحديث. وقال: صحيح على شرط الشيخين.

وقال الحافظ ابن حجر: متفق عليه من حديث هشام عن أبيه عن عائشة في أثناء حديث وهم فاستدركه. انتهى.

١٢٠٨ - ذكره السيوطي في الدر (٣٩٧/٥) وعزاه لابن جرير وعبد بن حميد وقد رواه عبد الرزاق في تفسيره (١١٨/٢).

١٢٠٩ - رواه ابن أبي شيبه في المصنف (٥٠١/٣ - ٥٠٢) الحديث (١٦٤٧٧) حدثنا جرير عن منصور عن ابن أبي رزين في قوله تعالى: ﴿تَرْجِي مَن نَّشَاءُ يَتَنَّنَ﴾... الآية وكان ممن آوى عائشة وأم سلمة وزينب وحفصة فكان يقسم من نفسه وماله منهن سواء وكان ممن أرجى سودة وجويرية وأم حبيبة وميمونة وصفية فكان يقسم لهن ما شاء وكان أراد أن يفارقهن فقلن له: اقسم لنا من نفسك ما شئت ودعنا نكون على حالنا».

ورواه عبد الرزاق في تفسيره (١٢٠/٢) ورواه ابن جرير في تفسيره (٣١٣/١٠) الحديث (٢٨٥٦٧) والحديث (٢٨٥٦٩).

قال الحافظ: أخرجه ابن أبي شيبه عن جرير وعبد الرزاق عن معمر كلاهما عن منصور عن أبي رزين وهذا مرسل. انتهى.

أطلق له وخير فيه إلا سودة، فإنها وهبت ليلتها لعائشة وقالت: لا تطلقني حتى أحشر في زمرة نساءك (١٢١٠) ﴿ذَلِكَ﴾ التفويض إلى مشيتك ﴿أَذَقَ﴾ إلى قرّة عيونهن وقلة حزنهن ورضاهن جميعاً؛ لأنه إذا سوى بينهن في الإيواء والإرجاء والعزل والابتغاء. وارتفع التفاضل ولم يكن لإحدهن مما تريد ومما لا تريد إلا مثل ما للآخرى. وعلمن أن هذا التفويض من عند الله بوحيه - اطمأنت نفوسهن وذهب التنافس والتغاير، وحصل الرضا وقرّت العيون، وسلت القلوب ﴿وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا فِي قُلُوبِكُمْ﴾ فيه وعيد لمن لم ترض منهن بما دبر الله من ذلك وفوض إلى مشيئة رسول الله - ﷺ، - وبعث على تواطئ قلوبهن والتصافي بينهن والتوافق على طلب رضا رسول الله - ﷺ - وما فيه طيب نفسه. وقرئ: تقرّ أعينهن، بضم التاء ونصب الأعين، وتقرّ أعينهن، على البناء للمفعول ﴿وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا﴾ بذات الصدور ﴿حَلِيمًا﴾ لا يعاجل بالعقاب، فهو حقيق بأن يتقى ويحذر، ﴿كُلُّهُنَّ﴾ تأكيد لنون يرضين، وقرأ ابن مسعود: ويرضين كلهن. بما آتيتهن. على التقديم. وقرأ: كلهن، تأكيداً لـ (هن) في (آتيتهن).

﴿لَا يَحِلُّ لَكَ الْإِسَاءُ مِنْ بَعْدِ وَلَا أَنْ تَبَدَّلَ بِهِنَّ مِنْ أَزْوَاجٍ وَلَوْ أَعْجَبَكَ حُسْنُهُنَّ إِلَّا مَا مَلَكَتْ يَمِينُكَ وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ رَقِيبًا ۝٥٢﴾

١٢١٠ - عزاه الزيلعي للطبراني في الكبير في مسند سودة من حديث عائشة. وروى البيهقي في سننه (٧/ ٢٩٧) كتاب القسم والنشوز، باب ما جاء في قول الله عز وجل من حديث أبي الزناد عن هشام بن عروة عن أبيه قال: أنزل في سودة - رضي الله عنها - وأشباهها ﴿وَإِنْ أَمْرَأَةٌ خَافَتْ مِنْ بَعلِهَا شُورًا أَوْ إِعْرَاصًا﴾، وذلك أن سودة - رضي الله عنها - كانت امرأة قد أسنت ففرقت أن يفارقها رسول الله - ﷺ - وضنت بمكانها منه، وعرفت من حب رسول الله - ﷺ - عائشة ومنزلتها منه، فوهبت يومها من رسول الله - ﷺ - لعائشة - رضي الله عنها - فقبل ذلك رسول الله - ﷺ - . وروى الترمذي (٢٤٩/٥) كتاب التفسير الحديث (٣٠٤٠)، حدثنا محمد بن المثنى حدثنا أبو داود، حدثنا سليمان بن معاذ عن سماك عن عكرمة عن ابن عباس قال: خشيت سودة أن يطلقها النبي - ﷺ - فقالت: لا تطلقني وأمسكني، واجعل يومي لعائشة ففعل فنزلت: ﴿فَلَا جُنَاحَ عَلَيْنَا أَنْ يُصَلِّحَا بَيْنَهُمَا صُلْحًا وَالصُّلْحُ خَيْرٌ﴾. قال الحافظ: أما كونه يسوي فمن حديث عائشة - رضي الله عنها - «كان يقسم فيعدل» وأما قصة سودة فروى الترمذي عن ابن عباس: «أن سودة خشيت أن يطلقها رسول الله - ﷺ - فقالت: يا رسول الله، لا تطلقني وأمسكني واجعل يومي لعائشة، ففعل» وفي الطبراني من رواية ابن أبي الزناد عن هشام عن أبيه عن عائشة قالت: «ما كان رسول الله - ﷺ - يفضل بعضنا على بعض في القسم، وكان قل يوم إلا وهو يطيف بنا، ويدنو من كل واحدة منا من غير مسيس حتى ينتهي إلى التي هي يومها فيبيت عندها، ولقد قالت له سودة بنت زمعة، وقد أراد أن يفارقها: يومي منك ونصيبي لعائشة، فقبل ذلك منها، وفيها نزلت: ﴿وَإِنْ أَمْرَأَةٌ خَافَتْ مِنْ بَعلِهَا شُورًا أَوْ إِعْرَاصًا﴾ الآية. انتهى.

﴿لَا يَحِلُّ﴾ وقرئ بالتذكير، لأن تأنيث الجمع غير حقيقي. وإذا جاز بغير فصل في قوله تعالى: ﴿وَقَالَ نِسْوَةٌ﴾ كان مع الفصل أجوز ﴿مِنْ بَعْدُ﴾ من بعد التسع، لأن التسع نصاب رسول الله - ﷺ - من الأزواج، كما أن الأربع نصاب أمته منهن، فلا يحل له أن يتجاوز النصاب ﴿وَلَا أَنْ تَبَدَّلَ بَيْنَهُنَّ﴾ ولا أن تستبدل بهؤلاء التسع أزواجاً آخر بكلهن أو بعضهن، أراد الله لهن كرامة وجزاء على ما اخترن ورضين. فقصر النبي ﷺ عليهن، وهي التسع^(١) اللاتي مات عنهن: عائشة بنت أبي بكر، حفصة بنت عمر، أم حبيبة بنت أبي سفيان، سودة بنت زمعة، أم سلمة بنت أبي أمية، صفية بنت حيي الخيرية، ميمونة بنت الحارث الهلالية، زينب بنت جحش الأسدية، جويرية بنت الحارث المصطلقية، - رضي الله عنهن - (١٢١١). من في ﴿مِنْ أَرْوَاحٍ﴾ لتأكيد النفي، وفائدته استغراق جنس الأزواج بالتحريم. وقيل معناه: لا تحل لك النساء من بعد النساء اللاتي نص إحلالهن لك من الأجناس الأربعة من الأعربيات والغرائب، أو من الكتابيات، أو من الإماء بالنكاح. وقيل في تحريم التبديل: هو من البديل الذي كان في الجاهلية كان يقول الرجل للرجل: بادلني بامراتك، وأبادلك بامراتي، فينزل كل واحد منهما عن امرأته لصاحبه. ويحكي أن

١١٢١ - روى الحاكم في المستدرک (٣/٤) كتاب معرفة الصحابة، باب تسمية أزواج رسول الله - ﷺ - بسنده إلى أبي عبيد القاسم بن سلام - رحمه الله - قال: وقد ثبت وصح عندنا أن رسول الله - ﷺ - تزوج ثماني عشرة امرأة سبع منهن من قبائل قريش، وواحدة من خلفاء قريش، وتسعة من سائر قبائل العرب، وواحدة من بني إسرائيل من بني هارون بن عمران أخي موسى بن عمران قال أبو عبيدة: فأول من تزوج - ﷺ - من نسائه في الجاهلية خديجة ثم تزوج بعد خديجة سودة بنت زمعة بمكة في الإسلام، ثم تزوج عائشة قبل الهجرة لستين، ثم تزوج بالمدينة بعد وقعة بدر سنة اثنتين من التاريخ أم سلمة، ثم تزوج حفصة بنت عمر أيضاً سنة اثنتين من التاريخ، فهؤلاء الخمسة من قريش، ثم تزوج في سنة ثلاث من التاريخ زينب بنت جحش، ثم تزوج في سنة خمس من التاريخ جويرية بنت الحارث.

قال الحافظ: هذا مجمع عليه؛ كما قال الواقدي وغيره، لكن اختلف في ريحانة، وروى ابن أبي خيثمة عن الزهري وعن قتادة، وقال أبو عبيد: صح عندنا وثبت أن رسول الله - ﷺ - تزوج خديجة، فلم يتزوج عليها حتى ماتت. ثم تزوج سودة، ثم عائشة، ثم أم سلمة، ثم حفصة، ثم زينب بنت جحش، ثم جويرية، ثم أم حبيبة، ثم صفية، ثم ميمونة. ثم فاطمة بنت سريخ، ثم زينب بنت خزيمة، ثم هند بنت يزيد. ثم أسماء بنت النعمان، ثم هيلة بنت قيس أخت الأشعث، ثم أسماء بنت سبأ، وقال الواحدي: والمجمع عليه أنه تزوج أربع عشرة: التسع التي مات عنهن وتزوج أيضاً خديجة وزينب بنت خزيمة وريحانة ومتن عنده، تزوج أيضاً فاطمة بنت الضحاك، وأسماء بنت النعمان ولم يدخل بهما. انتهى.

(١) قوله «وهي التسع» لعله «وهن». (ع)

عيينة بن حصن دخل على النبي ﷺ وعنده عائشة من غير استئذان، فقال رسول الله - ﷺ -: يا عيينة، أين ١٠٥/٢ ب الاستئذان؟ قال: يا رسول الله، ما استأذنت على رجل قط ممن مضى منذ أدركت. ثم قال: من هذه الجميلة إلى جنبك؟ فقال ﷺ: هذه عائشة أم المؤمنين. قال عيينة: أفلا أنزل لك عن أحسن الخلق؟ فقال ﷺ: إن الله قد حرّم ذلك. فلما خرج قالت عائشة - رضي الله عنها -: من هذا يا رسول الله؟ قال: أحق مطاع، وإنه - على ما ترين - لسيد قومه (١٢١٢). وعن عائشة - رضي الله عنها -: ما مات رسول الله - ﷺ - حتى أحل له النساء، يعني: أن الآية قد نسخت (١٢١٣). ولا يخلو

١٢١٢ - ورد هذا الحديث عن أبي هريرة وجريير وعائشة - رضي الله عنهم -.

- حديث أبي هريرة:

أخرجه الدارقطني في سننه (٢١٨/٣): كتاب النكاح، رقم (٣)، والبزار في مسنده كما في تخريج الكشاف للزيلعي (١٢١/٣).

- وأما حديث جريير.

فأخرجه الطبراني في الكبير (٣٠٥/٢) رقم (٢٢٦٩) من طريق إسماعيل عن قيس عن جريير به. وذكره الهيثمي في المجمع (٤٨/٨)، وقال: رواه الطبراني عن شيخه علي بن سعيد بن بشير، وهو حافظ رجال قيل فيه: ليس بذلك، وبقيّة رجاله رجال الصحيح غير يحيى بن محمد بن مطيع وهو ثقة. اهـ.

- وأما حديث عائشة:

فأخرجه ابن سعد في كتابه «الطبقات الكبرى» في ترجمة عيينة بن حصن، كما في تخريج الكشاف للزيلعي (١٢٢/٣).

قال الحافظ: أخرجه البزار من حديث أبي هريرة بهذا وأتم منه، وفيه إسحاق بن عبد الله القروي، وهو متروك، وله شاهد من حديث جريير، وأخرجه الطبراني، وآخر عن عائشة أخرجه ابن سعد.

١٢١٣ - أخرجه الترمذي (٣٥٥/٥) كتاب التفسير باب ومن سورة الأحزاب حديث (٣٢١٤) والنسائي (٥٦/٦) كتاب النكاح: باب ما افترض الله عز وجل على رسوله عليه السلام، وأحمد (٢٠٦/٦) والحميدي (١١٥/١) رقم (٢٣٥) والطبري في «تفسيره» (٣٢/٢٢) والبيهقي في «السنن الكبرى» (٥٤/٧) كتاب النكاح: باب كان لا يجوز له أن يبدل من أزواجه أحدا ثم نسخ كلهم من طريق سفيان بن عيينة عن عمرو بن عطاء قال: قالت عائشة فذكره.

وقال الترمذي: حديث حسن صحيح. وللحديث طريق آخر عن عائشة.

أخرجه النسائي (٥٦/٦) كتاب النكاح باب ما افترض الله عز وجل وابن حبان (٢١٢٦ - موارد) والطبري في «تفسيره» (٣٢/٢٢) والحاكم (٤٣٧/٢) والبيهقي في «السنن الكبرى» (٥٤/٧) كتاب النكاح: باب كان لا يجوز له أن يبدل من أزواجه أحداً ثم نسخ، كلهم من طريق ابن جريج عن عطاء عن عبيد بن عمير عن عائشة به.

وقال الحاكم: صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه ووافقه الذهبي. وصححه ابن حبان.

ولحديث عائشة شاهد من حديث أم سلمة أخرجه ابن أبي حاتم في «تفسيره» كما في «تخريج الزيلعي» (١٢٤/٣) وعزاه أيضاً لابن سعد في الطبقات.

قال الحافظ: أخرجه الترمذي، وأحمد وإسحاق، والنسائي، وأبو يعلى، والطبري، والبزار، وابن =

نسخها إيماناً يكون بالسنة، وإما بقوله تعالى: ﴿إِنَّا آٰخِذُونَكَ بِتَرْتِيبِ النَّزُولِ لَيْسَ عَلَى تَرْتِيبِ الْمُصْحَفِ﴾ ﴿وَلَوْ أَعْجَبَكَ﴾ في موضع الحال من الفاعل، وهو الضمير في ﴿تَبَدَّلَ﴾ لا من المفعول الذي هو ﴿مِنْ أَزْوَاجٍ﴾ لأنه موغل في التنكير، وتقديره: مفروضاً إعجابك بهن. وقيل: هي أسماء بنت عميس الخثعمية امرأة جعفر بن أبي طالب، والمراد أنها ممن أعجبه حسنهن، واستثنى ممن حرم عليه: الإماء ﴿رَبِيبًا﴾ حافظاً مهيمناً، وهو تحذير عن مجاوزة حدوده وتخطي حلاله إلى حرامه.

﴿يَتَأَيَّأُ الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَدْخُلُوا بُيُوتَ النَّبِيِّ إِلَّا أَنْ يُؤْذَنَ لَكُمْ إِلَى طَعَامٍ غَيْرَ نَظِيرٍ إِنَّهُ وَلَكِنْ إِذَا دُعِيتُمْ فَادْخُلُوا فَإِذَا طَعِمْتُمْ فَانْتَشِرُوا وَلَا مُسْتَسْنِينَ لِحَدِيثٍ إِنَّ ذَلِكُمْ كَانَ يُؤْذَى النَّبِيَّ فَيَسْتَعِجِي مِنْكُمْ وَاللَّهُ لَا يَسْتَعِجِي مِنَ الْحَقِّ وَإِذَا سَأَلْتُمُوهُنَّ مَتَاعًا فَسَلِّتُوهُنَّ مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ ذَلِكُمْ أَطْهَرُ لِقُلُوبِكُمْ وَقُلُوبِهِنَّ وَمَا كُنْتُمْ أَنْ تُؤْذُوا رَسُولَ اللَّهِ وَلَا أَنْ تَنْكِحُوا أَزْوَاجَهُنَّ مِنْ بَعْدِهِ أَبَدًا إِنَّ ذَلِكُمْ كَانَ عِنْدَ اللَّهِ عَظِيمًا ﴿٥٣﴾﴾

﴿أَنْ يُؤْذَنَ لَكُمْ﴾ في معنى الظرف تقديره وقت أن يؤذن لكم. و﴿غَيْرَ نَظِيرٍ﴾ حال من ﴿لَا تَدْخُلُوا﴾ وقع الاستثناء على الوقت والحال معاً. كأنه قيل: لا تدخلوا بيوت النبي ﷺ إلا وقت الإذن، ولا تدخلوها إلا غير ناظرين^(١) وهؤلاء قوم كانوا يتحينون طعام رسول الله - ﷺ -، فيدخلون ويقعدون منتظرين لإدراكه. ومعناه: لا تدخلوا يا هؤلاء المتحينون للطعام، إلا أن يؤذن لكم إلى طعام غير ناظرين إنا، وإلا فلو لم يكن لهؤلاء خصوصاً، لما جاز لأحد أن يدخل بيوت النبي ﷺ إلا أن يؤذن له إذنًا خاصاً، وهو الإذن إلى الطعام فحسب. وعن ابن أبي عبله أنه قرأ: غير ناظرين، مجروراً صفة لطعام، وليس بالوجه، لأنه جرى على غير ما هو له، فمن حق ضمير ما هو له أن يبرز إلى اللفظ، فيقال: غير ناظرين إنا أنتم، كقولك: هند زيد ضاربه هي. وإني الطعام: إدراكه. يقال: أني الطعامم إنني، كقولك: قلاه قلبي. ومنه قوله: ﴿وَيَبِّحُ جَمِيرًا﴾ [الرحمن: ٤٤] بالغ إناه.

== حبان، والحاكم من حديث عائشة - رضي الله عنها - بالحديث دون التفسير، وأخرجه ابن أبي حاتم، وابن سعد من حديث أم سلمة - رضي الله عنها - . انتهى .

(١) قال السمين الحلبي: رد الشيخ الأول بأن النحاة نَصُّوا على أَنَّ «أَنْ» المصدرية لا تقع موقع الظرف لا يجوز لأنك أن يصيغ الديك وإن جاز ذلك في المصدر الصريح نحو أتيتك صياح الديك. ورد الثاني بأنه لا يقع بعد إلا في الاستثناء إلا المستثنى أو المستثنى منه أو صفته ولا يجوز في ما عدا هذا عند الجمهور وأجاز ذلك الكسائي والأخفش وأجازا ما قام القوم إلا يَوْمَ الجمعة ضاحكين. وإلى طَعَامٍ متعلق بيؤذن لأنه بمعنى إلا أن تَدْعُوا إلى طعام. انتهى. الدر المصون.

وقيل (إنه): وقته، أي: غير ناظرين وقت الطعام وساعة أكله. وروي أن رسول الله - ﷺ - أولم على زينب بتمر وسويق وشاة، وأمر أنسا أن يدعو بالناس، فترادفوا أفواجا يأكل فوج فيخرج، ثم يدخل فوج إلى أن قال: يا رسول الله، دعوت حتى ما أجد أحدا أدعوه، فقال: ارفعوا طعامكم وتفرق الناس، وبقي ثلاثة نفر يتحدثون فأطالوا: فقام رسول الله - ﷺ - ليخرجوا، فانطلق إلى حجرة عائشة - رضي الله عنها - فقال: السلام عليكم أهل البيت فقالوا: عليك السلام يا رسول الله، كيف وجدت أهلک؟ وطاف بالحجرات فسلم عليهن ودعون له؛ ورجع فإذا الثلاثة جلوس يتحدثون، وكان رسول الله - ﷺ - شديد الحياء، فتولى، فلما رآه متولياً خرجوا، فرجع ونزلت: ﴿وَلَا مُسْتَنْسِينَ لِحَدِيثٍ﴾ (١٢١٤)، نهو عن أن يطيلوا الجلوس يستأنس بعضهم ببعض لأجل حديث يحدثه به. أو عن أن يستأنسوا حديث أهل البيت. واستثناسه: تسمعه وتوجسه، وهو مجرور معطوف على ناظرين. وقيل: هو منصوب على: ولا تدخوها مستأنسين. لا بد في قوله: ﴿فَيَسْتَنِي مِنْكُمْ﴾ من تقدير المضاف، أي: من إخراجكم، بدليل قوله: ﴿وَاللَّهُ لَا يَسْتَنِي مِنَ الْحَقِّ﴾ يعني أن إخراجكم حتى ما ينبغي أن يستحيا منه. ولما كان الحياء مما يمنع الحي من بعض الأفعال، قيل: ﴿لَا يَسْتَنِي مِنَ الْحَقِّ﴾ بمعنى لا يمتنع منه ولا يتركه ترك الحي منكم، وهذا أدب أدب الله به الثقلاء. وعن عائشة - رضي الله عنها -: حسبك في الثقلاء أن الله تعالى لم يحتملهم وقال: فإذا طعمتم فانتشروا (١٢١٥). وقرئ: لا يستحي، بياء واحدة، والضمير في ﴿سَأْتَمُوهُنَّ﴾ لنساء النبي ﷺ، ولم يذكروا لأن الحال ناطقة بذكرهن ﴿مَتَعَا﴾ حاجة ﴿فَسَلُّوهُنَّ﴾ المتاع. قيل: إن عمر - رضي الله عنه - كان يحب ضرب الحجاب عليهن محبة شديدة. وكان يذكره كثيراً، ويود أن ينزل فيه، وكان يقول: لو أطاع فيكن ما رأتنك عين، وقال: يا رسول الله، يدخل عليك البر والفاجر، فلو أمرت أمهات المؤمنين بالحجاب (١٢١٦). فنزلت. وروي أنه مر عليهن

١٢١٤ - أخرجه البخاري (٤٨٣/٩ - ٤٨٤)، كتاب التفسير باب: قوله: ﴿ترجىء من تشاء...﴾ الآية، حديث (٤٧٩٣). ومسلم (٢٤٣/٥ - ٢٤٤)، كتاب النكاح، باب: زواج زينب بنت جحش، حديث (٨٩) - (١٤٢٨). كلاهما من طريق ثابت عن أنس.

قال ابن حجر: متفق عليه من حديث أنس وله طرق عندهما وألفاظ. انتهى.

١٢١٥ - عزاه الزيلعي في تخريج أحاديث الكشاف (١٢٥/٣) للثعلبي في تفسيره من طريق جويرية بن أسماء. قال ابن حجر: كذا بخط المخرج، وهو غلط واضح جداً، فإن العلاء إنما يروي عن ابن عائشة صاحب النوادر، ولم يدرك أصحاب عائشة أم المؤمنين - رضي الله عنها - فضلاً عنها، ولعله كان في الأصل ابن عائشة، فسقط ابن. انتهى.

١٢١٦ - أخرجه البخاري (٤٨٣/٩): كتاب التفسير: باب سورة الأحزاب، حديث (٤٧٩٠)، والنسائي =

وهن مع النساء في المسجد فقال: لئن احتجبتن، فإن لكن على النساء فضلاً، كما أن لزواجكن على الرجال الفضل، فقالت زينب - رضي الله عنها -: يا ابن الخطاب، إنك لتغار علينا والوحي ينزل في بيوتنا، فلم يلبثوا إلا يسيراً حتى نزلت (١٢١٧). وقيل: إن رسول الله - ﷺ - كان يطعم ومعه بعض أصحابه، فأصاب يد رجل منهم يد عائشة/ ٢/ ١٠٦، فكره النبي ﷺ ذلك، فنزلت آية الحجاب. وذكر أن بعضهم قال: أنهى أن نكلم بنات عمنا إلا من وراء حجاب، لئن مات محمد لأتزوجن عائشة. فأعلم الله أن ذلك محرم (١٢١٨). ﴿وَمَا كَانَ

= في تفسيره: (١٨٧/٢) رقم (٤٣٨)، والطبري في تفسيره: (٣٢٤/١٠) رقم (٢٨٦٠٩)، (١٠/٣٢٦) رقم (٢٨٦١٧)، والواحدي في تفسيره (٤٨٠/٣) وفي «أسباب نزول القرآن» ص (٣٧٤) رقم (٧٠٨) كلهم من طريق حميد عن أنس عن عمر - رضي الله عنه - قال: قلت: يا رسول الله يدخل عليك البر والفاجر، فلو حجبت أمهات المؤمنين، فأنزل الله عز وجل آية الحجاب. وذكره السيوطي في الدر المنثور (٤٠١/٥) وزاد نسبه إلى ابن مردويه في تفسيره. وأخرجه النسائي أيضاً في تفسيره (١٨٨/٢ - ١٨٩) عن مسعر عن موسى بن أبي كثير عن مجاهد عن عائشة قالت: كنت أكل مع النبي - ﷺ - حيساً في قعب، فمر عمر - رضي الله عنه - فدعاه فأكل فأصاب أصبعه أصبعي، فقال: حَسَّ (أو أَوْه) لو أطاع فيكن ما رأتن عين، فنزل الحجاب».

وذكره الهيثمي في «مجمع الزوائد» (٩٦/٧) وقال: رواه الطبراني في الأوسط، ورجاله رجال الصحيح غير موسى بن أبي كثير وهو ثقة».

وقد أخرجه الطبري في تفسيره (٣٢٥/١٠) رقم (٢٨٦١٦) من حديث هشيم عن ليث عن مجاهد مرسل - بمعناه وليس فيه تسمية عمر بن الخطاب - ويمثل ذلك أخرجه الواحدي في «أسباب النزول» ص (٣٧٤) رقم (٧٠٩) مرسل عن مجاهد.

وذكره السيوطي في الدر المنثور (٤٠٢/٥)، وزاد نسبه لابن مردويه عن عائشة، وقال: بسند صحيح. وأخرجه ابن سعد في «الطبقات» (١٤٠/٨) من طرق عن ابن عباس بنحوه.

قال الحافظ: متفق عليه من حديثين هذا أحدهما. أخرجه النسائي والبخاري في الأدب المفرد، والطبراني في الصغير من طريق مجاهد عن عائشة قالت: «كنت أكل مع النبي - ﷺ - حيساً في قصعة، فمر عمر فدعاه فأكل فأصاب أصبعه أصبعي، فقال عمر: أواه لو أطاع فيكن ما رأتن عين فنزل الحجاب»، ورواه ابن أبي شيبة والطبري من طريق مجاهد مرسل، وصوبه الدارقطني في العلل، والثاني أخرجه النسائي أيضاً من طريق أنس عن عمر - رضي الله عنه - قال: «قلت: يا رسول الله، يدخل عليك البر والفاجر، فلو حجبت أمهات المؤمنين، فأنزل الله آية الحجاب، وأصله في الصحيح. انتهى».

١٢١٧ - قال الحافظ ابن حجر: أخرجه الثعلبي من رواية مجاهد عن الشعبي قال: «مر عمر على نساء النبي - ﷺ - فذكره. انتهى».

١٢١٨ - أخرجه عبد الرزاق في تفسيره (١٢٢/٢) من طريق معمر عن قتادة.

وأخرج ابن سعد في الطبقات (١٦٢/٨)، من حديث أبي بكر بن محمد بن عمرو بن حزم في قوله: ﴿وَمَا كَانَ لَكُمْ أَنْ تُؤْذُوا﴾ الآية، قال: نزلت في طلحة بن عبيد الله، لأنه قال: إذا توفي رسول الله تزوجت عائشة.

لَكُمْ ﴿ وما صح لكم إيذاء رسول الله - ﷺ - ولا نكاح أزواجه من بعده، وسمي نكاحهن بعده عظيماً عنده، وهو من أعلام تعظيم الله لرسوله وإيجاب حرمة حيّاً وميتاً، وإعلامه بذلك مما طيب به نفسه وسر قلبه واستغزر شكره. فإن نحو هذا مما يحدث الرجل به نفسه ولا يخلي منه فكره. ومن الناس من تفرط غيرته على حرمة حتى يتمنى لها الموت لثلا تنكح من بعده. وعن بعض الفتيان أنه كانت له جارية لا يرى الدنيا بها شغفاً واستهتاراً^(١) فنظر إليها ذات يوم فتنفس الصعداء وانتحب فعلا نحيبه مما ذهب به فكره هذا المذهب، فلم يزل به ذلك حتى قتلها، تصوراً لما عسى يتفق من بقائها بعده وحصولها تحت يد غيره. وعن بعض الفقهاء أن الزوج الثاني في هدم الثلاث مما يجري مجرى العقوبة؛ فصين رسول الله - ﷺ - عما يلاحظ ذلك.

﴿إِنْ تَبَدُّوا شَيْئًا أَوْ تُخَفُّوهُ فَإِنَّ اللَّهَ كَانَتْ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا ۝٥٤﴾

﴿إِنْ تَبَدُّوا شَيْئًا﴾ من نكاحهن على ألسنتكم ﴿أَوْ تُخَفُّوهُ﴾ في صدوركم ﴿إِنَّ اللَّهَ﴾ يعلم ذلك فيعاقبكم به، وإنما جاء به على أثر ذلك عاماً لكل باد وخاف، ليدخل تحته نكاحهن وغيره ولأنه على هذه الطريقة أهول وأجزل.

﴿لَا جُنَاحَ عَلَيْهِنَّ فِيءِءَابَائِهِنَّ وَلَا أَبْنَائِهِنَّ وَلَا إِخْوَانِهِنَّ وَلَا أَبْنَاءَ أَخَوَاتِهِنَّ وَلَا نِسَائِهِنَّ وَلَا مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُنَّ وَآتَقِينَ اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدًا ۝٥٥﴾

روي أنه لما نزلت آية الحجاب قال الآباء والأبناء والأقارب: يا رسول الله، أو نحن أيضاً نكلمهن من وراء الحجاب، فنزلت ﴿لَا جُنَاحَ عَلَيْهِنَّ﴾ أي لا إثم عليهن في أن لا يحتجبن من هؤلاء ولم يذكر العم والخال، لأنهما يجريان مجرى الوالدين وقد جاءت تسمية العم أباً. قال الله تعالى: ﴿وَاللَّهُ ءَابَاؤُكُمْ إِِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ﴾ وإسماعيل عم

قال الحافظ: أخرجه ابن سعد عن الواقدي عن عبد الله بن جعفر عن ابن أبي عون عن ابن بكر بن حزام في هذه الآية نزلت في طلحة قال: إذا توفى رسول الله - ﷺ - تزوجت عائشة، وقال عبد الرزاق أخبرنا معمر عن قتادة أن رجلاً قال: لو قد مات محمد لأتزوجن عائشة - رضي الله عنها -، فأنزل الله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لَكُمْ أَنْ تُؤْذُوا رَسُولَ اللَّهِ...﴾ الآية. وروى ابن أبي حاتم، وابن مردويه من رواية داود عن عكرمة عن ابن عباس في هذه الآية قال: «نزلت في رجل هم أن يتزوج بعض نساء النبي - ﷺ - الحديث» من طريق السدي أن الذي عزم على ذلك عائشة - رضي الله عنها - انتهى.

(١) قوله «لا يرى الدنيا بها شغفاً واستهتاراً» في الصحاح: فلان مستهتر بالشراب، أي: مولع به. لا يبالى ما قيل فيه. (ع)

يعقوب . وقيل : كره ترك الاحتجاب عنهما لأنهما يصفانها لأبنائهما . وأبناءؤهما غير محارم ، ثم نقل الكلام من الغيبة إلى الخطاب ، وفي هذا النقل ما يدل على فضل تشديد ، فقيل : ﴿وَأَقْبَنَ اللَّهُ﴾ فيما أمرتن به من الاحتجاب وأنزل فيه الوحي من الاستتار ، واحططن فيه وفيما استثنى منه ما قدرتن . واحفظن حدودهما واسلكن طريق التقوى في حفظهما ؛ وليكن عملكن في الحجب أحسن مما كان وأنتن غير محجبات ، ليفضل سركن علنكن ﴿إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ﴾ من السر والعلن وظاهر الحجاب وباطنه ﴿شَهِيدًا﴾ لا يتفاوت في علمه الأحوال .

﴿إِنَّ اللَّهَ وَمَلَائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيمًا﴾ (٥٦)

قرئ : وملائكته بالرفع ، عطفاً على محل إن واسمها ، وهو ظاهر على مذهب الكوفيين ، ووجهه عند البصريين . أن يحذف الخبر لدلالة يصلون عليه ﴿صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا﴾ أي قولوا الصلاة على الرسول والسلام . ومعناه : الدعاء بأن يترحم عليه الله ويسلم . فإن قلت : الصلاة على رسول الله - ﷺ - واجبة أم مندوب إليها ؟ قلت : بل واجبة ، وقد اختلفوا في حال وجوبها . فمنهم من أوجبها كلما جرى ذكره . وفي الحديث : «من ذكرت عنده فلم يصل عليّ فدخل النار فأبعده الله» (١٢١٩) . ويروى أنه قيل :

١٢١٩ - ورد هذا الحديث عن جماعة من الصحابة هم أبو هريرة ، وجابر بن سمرة ، ومالك بن الحويرث وكعب بن عجرة وابن عباس وآخرون .

- حديث أبي هريرة :

أخرجه ابن حبان في صحيحه (١٨٨/٣) (٩٠٧) من طريق محمد بن عمرو عن أبي سلمة عن أبي هريرة أن النبي - ﷺ - «صعد المنبر فقال : «أمين أمين أمين...» وفيه «ومن ذكرت عنده فلم يصل عليك فمات فدخل النار فأبعده الله...» .

قلت : وهذا إسناد حسن ، فإن محمد بن عمرو وهو ابن علقمة بن وقاص الليثي صدوق له أوهام كما في التقريب (١٩٦/٢) (٥٨٣) .

- وحديث جابر بن سمرة :

أخرجه الطبراني في الكبير (٢٤٣/٢ - ٢٤٤) (٢٠٢٢) من طريق محمد بن عبد الله بن عبيد بن عقيل ثنا إسماعيل بن أبان ثنا قيس بن الربيع عن سماك عن جابر قال : صعد النبي - ﷺ - المنبر فقال ... وفيه : «ومن ذكرت عنده فلم يصل عليك فمات فدخل النار فأبعده الله...» .

قلت : وهذا إسناد حسن بشواهد كما يأتي وإن كان رجال الإسناد من محمد بن عبد الله إلى سماك قد تكلم فيهم ولكن لا ينزل حديثهم عن الحسن والله أعلم لا سيما وأن للحديث شواهد كثيرة .

- وحديث كعب بن عجرة :

أخرجه الطبراني في «الكبير» (١٤٤/١٩) (٣١٥) والحاكم في مستدركه (١٥٣/٤ - ١٥٤) =

يا رسول الله؛ أرايت قول الله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ وَلَكَجَتُهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ﴾ فقال ﷺ: «هذا

= وإسماعيل القاضي في فضل الصلاة على النبي - ﷺ - (١٩) كلهم من طريق سعد بن إسحاق بن كعب بن عجرة عن أبيه عن كعب بن عجرة قال: قال رسول الله - ﷺ -: «احضروا المنبر فحضر...» وفيه «بعد لمن ذكرت عنده فلم يصل عليك...».

وقال الحاكم: صحيح الإسناد ولم يخرجاه ووافقه الذهبي.
وقال الهيثمي في المجمع (١٦٩/١٠) رواه الطبراني ورجاله ثقات.
قلت: وفي كلامهم نظر «فإن إسحاق بن كعب بن عجرة، لم يرو عنه غير ابنه سعد». وذكره ابن حبان في الثقات على عادته في توثيق المجاهيل، وقال أبو الحسن القطان: لا يعرف، ما روى عنه غير ابنه سعد وهو مجهول الحال وقال الذهبي في الميزان «تابعي مستور».
وقال الحافظ في التقریب «مجهول».

- حديث عبد الله بن عباس:
أخرجه الطبراني في «الكبير» (٨٢/١١) (١١١/٥) من طريق يزيد بن أبي زياد عن مجاهد عن ابن عباس قال بينما النبي - ﷺ - على المنبر إذ قال: «أمين» ثلاث مرات... وفيه «من ذكرت عنده فلم يصل عليك فأبعده الله...».
وقال الهيثمي في المجمع (١٤٢/٨) رواه الطبراني بأسانيد وأحدها حسن.
- وحديث مالك بن الحويرث:

أخرجه الطبراني في معجمه الكبير (٢٩١/١٩ - ٢٩٢) (٦٤٩)، وابن حبان في صحيحه (١٤٠/٢) (٤٠٩) كلاهما من طريق الحسن بن علي الحلواني حدثنا عمران بن أبان ثنا مالك بن الحسن بن مالك بن الحويرث عن أبيه عن جده قال: صعد رسول الله - ﷺ - المنبر... وفيه فقال: «ومن ذكرت عنده فلم يصل عليك فأبعده الله...».

وقال الهيثمي في المجمع (١٦٩/١٠) رواه الطبراني وفيه عمران بن أبان وثقه ابن حبان وضعفه غير واحد، وبقي رجاله ثقات.

قلت: وعمران بن أبان هذا هو أبو موسى الطحان الواسطي ضعيف كما في التقریب (٨٢/٢) (٧١٣) لكن الحديث لا يضعف إسناده به وحده، فإن فيه أيضاً مالك بن الحسن، قال العقيلي: فيه نظر وقال الذهبي منكر الحديث، وقال ابن عدي في «الضعفاء» (٢٣٧٨/٦) بعد أن أورد حديثه هذا وأربعة أحاديث أخرى من طريق عمران الواسطي عنه «هذه الأحاديث بهذا الإسناد عن مالك بن الحسن هذا لا يرويه عن مالك إلا عمران بن أبان الواسطي، وعمران بن أبان لا بأس به، وأظن أن البلاء فيه من مالك بن الحسن هذا، فإن هذا الإسناد بهذا الحديث لا يتابعه عليه أحد».
ولكن للحديث شواهد يصح بها منها ما ذكرناه ومنها أيضاً وقال الهيثمي في المجمع (١٦٨/١٠) وفيه يزيد بن أبي زياد وهو مختلف فيه، وبقي رجاله ثقات.

قلت: وهو إلى التضعيف أقرب: فقال أحمد بن حنبل «ليس بذلك وقال يحيى بن معين: لا يحتج بحديثه، وقال أبو زرعة، لين يكتب حديثه ولا يحتج به، وقال أبو حاتم: ليس بالقوي، وقال ابن عدي: وهو من شيعة أهل الكوفة ومع ضعفه يكتب حديثه - راجع تهذيب الكمال (١٣٨/٣٢) - (١٤٠) ت (٦٩٩١).

وقال الحافظ في التقریب (٣٦٥/٢) ضعيف كبير، فتغير، صار يتلقن وكان شيعياً.
وله طريق آخر عند الطبراني عن ابن عباس (٨٣/١٢ - ٨٤) (١٢٥٥٢) من طريق إسحاق بن =

من العلم المكنون ولولا أنكم سألتُموني عنه ما أخبرتكم به، إنَّ الله وكل بي ملكين فلا أذكر عند عبد مسلم فيصلي عليّ إلا قال ذاك الملكان: غفر الله لك. وقال الله تعالى وملائكته جواباً لذینك الملكین: آمین، ولا أذكر عند عبد مسلم فلا يصلي عليّ إلا قال ذاك الملكان: لا غفر الله لك، وقال الله وملائكته لذینك الملكین: آمین» (١٢٢٠). ومنهم من قال: تجب في كل مجلس مرة، وإن تكرر ذكره، كما قيل في آية السجدة وتشميت العاطس، وكذلك في كل دعاء في أوله وآخره. ومنهم من أوجبها في العمر مرة، وكذا قال في إظهار الشهادتين. والذي يقتضيه الاحتياط. الصلاة عليه عند كل ذكر، لما ورد من الأخبار (١٢٢١). فإن قلت: فالصلاة عليه في الصلاة، أهى شرط في جوازها أم

= عبد الله بن كيسان عن أبيه عن سعيد بن جبير عن ابن عباس به.

وإسحاق بن عبد الله بن كيسان هذا قال الذهبي في الميزان (٣٤٦/١) (١١٤٩) لئنه أبو أحمد والحاكم، ولينه أيضاً أبو حاتم وأبوه ووثقه ابن حبان وراجع ترجمته في اللسان. وفي الباب عن غير هؤلاء انظر المجمع (١٦٧/١٠ - ١٧٠).

قال الزيلعي في تخريج الكشاف (١٣٠/٣): وهذه الأحاديث كلها كما نراها متطابقة، أن هذا الحديث من كلام جبريل يخاطب النبي - ﷺ - وليس من كلام النبي - ﷺ - والمصنف أوردته من كلام النبي - ﷺ - فاعلم ذلك. اهـ.

قال الحافظ: أخرجه ابن حبان من طريق محمد بن عمر عن أبي سلمة عن أبي هريرة، أن النبي - ﷺ - صعد المنبر فقال: آمين آمين آمين قال: إن جبريل أتاني فذكر الحديث، وفيه: «ومن ذكرت عنده فلم يصل عليك مات فدخل النار فأبعده الله»، وفي الباب عن مالك بن الحويرث عند ابن حبان والطبراني. وعن ابن عباس في الطبراني وكذلك عن جابر بن سمرة، وعبد الله بن الحارث بن جزة الزبيدي، وعن بريدة عند إسحاق بن راهويه، وعن عمار بن ياسر عند البزار، وعن جابر بن عبد الله عند البيهقي في الشعب. انتهى.

١٢٢٠ - أخرجه الطبراني في الكبير (٩١/٣ - ٩٢)، حديث (٢٧٥٣) وعزاه الزيلعي في تخريج أحاديث الكشاف (١٣١/٣) للثعلبي وابن مردويه في تفسيريهما.

قال ابن حجر: أخرجه الطبراني، وابن مردويه، والثعلبي من حديث الحسن بن علي وفيه الحكم بن عبد الله بن خطاف، وهو متروك.

١٢٢١ - فيه أحاديث كثيرة، فأخرج مسلم (٢٩١/٢ - الأبي) كتاب الصلاة باب الصلاة على النبي - ﷺ - بعد التشهد حديث (٤٠٨/٧٠)، والبخاري في «الأدب المفرد» (رقم (٦٤٥)، وأبو داود (٨٨/٢) كتاب الصلاة: باب في الاستغفار حديث (١٥٣٠)، والترمذي (٣٥٥/٢) كتاب الصلاة: باب ما جاء في فضل الصلاة على النبي - ﷺ - حديث (٤٨٥)، والنسائي (٥٠/٣) كتاب السهو: باب الفضل في الصلاة على النبي، والدارمي (٣١٧/٢) كتاب الرقاق باب فضل الصلاة على النبي، وأحمد (٣٧٢/٢ - ٣٧٥) وأبو عوانة (٢٣٤/٢) وإسماعيل القاضي في «فضل الصلاة على النبي» رقم (٩ - ١١)، وأبو يعلى (٣٨٠/١١) رقم (٦٤٩٥)، وابن حبان (٨٩٤) والبيهقي في «شعب الإيمان» (٢٠٩/٢) رقم (١٥٥٣) والبيهقي في «شرح السنة» (٢٨٤/٢) - بتحقيقنا) كلهم من طريق العلاء بن عبد الرحمن عن أبيه عن أبي هريرة قال: قال رسول الله - ﷺ -: «من صلى علي واحدة، صلى الله عليه عشرًا». وقال الترمذي: حسن صحيح.

لا؟ قلت: أبو حنيفة وأصحابه لا يرونها شرطاً وعن إبراهيم النخعي: كانوا يكتفون عن

= حديث آخر: أخرجه الترمذي (٥٥١/٥) كتاب الدعوات باب قول رسول الله - ﷺ - «رغم أنف رجل» حديث (٣٥٤٦) من طريق سليمان بن بلال عن عمارة بن غزويه عن عبد الله بن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب عن حسين بن علي بن أبي طالب قال: قال رسول الله - ﷺ -: «البخيل الذي من ذكرت عنده فلم يصل علي» وقال الترمذي: هذا حديث حسن صحيح غريب. وأخرجه ابن حبان (٢٣٨٨ - موارد)، وأبو يعلى (١٤٧/١٢) رقم (٦٧٧٦)، والحاكم (٥٤٩/١)، وأحمد (٢٠١/١)، والنسائي في «عمل اليوم والليلة» رقم (٥٥) وابن السني في «عمل اليوم والليلة» رقم (٣٨٢) وإسماعيل القاضي في «فضل الصلاة على النبي» رقم (٣٢) كلهم من طريق سليمان بن بلال به.

وصححه ابن حبان وكذا الحاكم ووافقه الذهبي وقال الحافظ في «الفتح» (١٦٨/١١): أخرجه الترمذي والنسائي وابن حبان والحاكم وإسماعيل القاضي وأطنب في تخريج طرقه وبيان الاختلاف فيه من حديث علي ومن حديث ابنه الحسين ولا يقصر عن درجة الحسن . اهـ.
حديث آخر:

أخرجه النسائي في «عمل اليوم والليلة» رقم (٦١)، وأبو داود الطيالسي (٢٥٩/١ - منحة) رقم (١٢٨٩) كلاهما من طريق المغيرة بن مسلم الخراساني عن أبي إسحاق عن أنس أن النبي - ﷺ - قال: «من ذكرت عنده فليصل علي فمن صلى علي مرة صلى الله عليه عشرًا». وأخرجه أبو يعلى (٤٠٠٢) من طريق إبراهيم بن طهمان عن أبي إسحاق عن أنس به. وأبو إسحاق لم يسمع من أنس بن مالك ينظر المراسيل لابن أبي حاتم ص ١٤٦.
حديث آخر:

أخرجه الترمذي (٣٥٤/٢) كتاب الصلاة باب ما جاء في فضل الصلاة على النبي - ﷺ - حديث (٤٨٤)، والبخاري في «التاريخ الكبير» (١٧٧/٥) كلاهما من طريق عبد الله بن كيسان عن عبد الله بن شداد عن ابن مسعود قال: قال رسول الله - ﷺ -: «أولى الناس بي يوم القيامة أكثرهم عليّ صلاة».

وقال الترمذي: حديث حسن غريب . اهـ. وقد روى هذا الحديث عبد الله بن كيسان عن عبد الله بن شداد بن الهاد عن أبيه عن ابن مسعود أخرجه أبو يعلى (٤٢٧/٨ - ٤٢٨) رقم (٥٠١١)، وابن حبان (٢٣٨٩ - موارد)، والبخاري في «التاريخ الكبير» (١٧٧/٥). قال الزيلعي في «تخريج الكشاف» (١٣٢/٣): وكذلك رواه البزار في مسنده، والطبراني في معجمه وهذا غير قاذح؛ فإنه روى عن أبيه، وعن ابن مسعود فلعله سمعه منهما ولكن أعله ابن القطان في كتابه بعدد الله بن كيسان وقال: إنه لا يعرف حاله ولا تعرف روى عنه إلا موسى بن يعقوب هذا. قال الزيلعي: روى عنه أيضاً ابنه إسحاق بن عبد الله بن كيسان . اهـ.

وفي الباب أحاديث آخر:

ينظر لها «تخريج الكشاف» للزيلعي (١٣٣/٣ - ١٣٦).

قال الحافظ: ومنها حديث أبي هريرة رفعه: «رغم أنف رجل ذكرت عنده فلم يصل علي» أخرجه الترمذي وابن حبان وفي الباب عن كعب بن عجرة أخرجه الطبراني والبيهقي في الشعب. وعن جابر في الأدب المفرد للبخاري، وفي الطبراني الأوسط، وعن عبد الله بن الحارث بن جزء في كتاب فضل الصلاة على النبي - ﷺ - لابن أبي عاصم ومنها حديث علي - رضي الله عنه - =

ذلك - يعني الصحابة - بالتشهد، وهو السلام عليك أيها النبي، وأما الشافعي رحمه الله فقد جعلها شرطاً. فإن قلت: فما تقول في الصلاة على غيره؟ قلت: القياس جواز الصلاة على كل مؤمن، لقوله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي يُصَلِّي عَلَيْكُمْ﴾ [الأحزاب: ٤٣] وقوله تعالى: ﴿وَصَلِّ عَلَيْهَا إِنَّ صَلَاتَكَ سَكَنٌ لَّهُمْ﴾ [التوبة: ١٠٣] وقوله ﷺ: «اللهم صل على آل أبي أوفى» (١٢٢٢). ولكن للعلماء تفصيلاً في ذلك: وهو أنها إن كانت على سبيل التبع كقولك: صلى الله على النبي وآله، فلا كلام فيها، وأما إذا أفرد غيره من أهل ١٠٦/٢ ب البيت بالصلاة كما يفرد هو، فمكروه، لأن ذلك صار شعاراً لذكر رسول الله ﷺ -، ولأنه يؤدي إلى الاتهام بالرفض، وقال رسول الله ﷺ -: من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فلا يقفن مواقف التهم (١٢٢٣).

﴿إِنَّ الَّذِينَ يُؤْذُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ لَعَنَهُمُ اللَّهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَأَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا مُهِينًا ٥٧﴾
وَالَّذِينَ يُؤْذُونَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ بَغَيْرِ مَا اكْتَسَبُوا فَقَدْ احْتَمَلُوا بُهْتَانًا وَإِثْمًا مُبِينًا ٥٨﴾

﴿يُؤْذُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾ فيه وجهان: أحدهما: أن يعبر بإيذاءهما عن فعل ما يكرهانه ولا يرضيانه: من الكفر والمعاصي، وإنكار النبوة، ومخالفة الشريعة، وما كانوا يصيبون به رسول الله ﷺ - من أنواع المكروه، على سبيل المجاز. وإنما جعلته مجازاً فيهما جميعاً، وحقيقة الإيذاء صحيحة في رسول الله ﷺ - لثلا أجعل العبارة الواحدة معطية معنى المجاز والحقيقة. والثاني: أن يراد يؤذون رسول الله ﷺ -، وقيل في أذى الله: هو

= «البخل من ذكرت عنده فلم يصل علي» أخرجه الترمذي من طريق عمارة بن غزية، عن عبد الله بن علي بن حسين عن أبيه عن حسين بن علي عن علي - رضي الله عنه -، وأخرجه النسائي وابن حبان من هذا الوجه بغير ذكر علي. وأخرجه الحاكم من هذا الوجه فقال عن عبد الله بن علي بن الحسين عن أبي هريرة ومنها حديث أنس رفعه، «من ذكرت عنده فليصل علي فمن صلى علي مرة صلى الله عليه عشراً» أخرجه النسائي، ومنها حديث ابن عباس - رفعه -: «من نسي الصلاة علي خطيء طريق الجنة» أخرجه ابن ماجه. وله طريق أخرى عن الحسين بن علي عند الطبراني. وأخرى عند البيهقي في القضايا من المعرفة عن أبي هريرة وأخرى عند ابن إسحاق وأبي يعلى عن أبي ذر بلفظ: «إن أضل الناس من ذكرت عنده فلم يصل علي»، ومنها حديث عمر - رضي الله عنه - قال: «الدعاء موقوف بين السماء والأرض لا يصعد منه شيء حتى يصل على النبي - ﷺ -» أخرجه الترمذي والبيهقي في الشعب عن علي نحوه ومنها حديث عبد الله بن عامر بن ربيعة عن أبيه - رفعه «من صلى علي صلت عليه الملائكة ما صلى علي، فليقل من ذلك أو ليكثر» أخرجه ابن ماجه، والأحاديث في فضل الصلاة على النبي - ﷺ - كثيرة جداً. انتهى.

١٢٢٢ - تقدم.

وقال الحافظ ابن حجر: متفق عليه وقد تقدم في براءة. انتهى.

١٢٢٣ - قال الزيلعي في تخريج أحاديث الكشاف (١٣٦/٣): غريب وتقدم في سورة يوسف.

وقال الحافظ ابن حجر: تقدم في يوسف. انتهى.

قول اليهود والنصارى والمشركين: يد الله مغلولة وثالث ثلاثة والمسيح ابن الله والملائكة بنات الله والأصنام شركاؤه. وقيل: قول الذين يلحدون في أسمائه وصفاته. وعن رسول الله - ﷺ - فيما حكى عن ربه «شتمني ابن آدم ولم ينبغ له أن يشتمني، وأذاني ولم ينبغ له أن يؤذيني، فأما شتمه إياي فقلوه: إني اتخذت ولدًا. وأما أذاه فقلوه: إن الله لا يعيدني بعد أن بدأتني (١١٢٤). وعن عكرمة: فعل أصحاب التصاوير الذين يرومون تكوين خلق مثل خلق الله (١١٢٥). وقيل في أذى رسول الله - ﷺ - قولهم: ساحر، شاعر، كاهن، مجنون. وقيل: كسر رباعيته وشج وجهه يوم أحد. وقيل: طعنهم عليه في نكاح صفية بنت حيي، وأطلق إيذاء الله ورسوله، وقيد إيذاء المؤمنين والمؤمنات؛ لأن أذى الله ورسوله لا يكون إلا غير حق أبدًا. وأما أذى المؤمنين والمؤمنات، فمنه ومنه. ومعنى ﴿يَعْتَرِ مَا اكْتَسَبُوا﴾ بغير جنابة واستحقاق للأذى. وقيل: نزلت في ناس من المنافقين يؤذون علياً - رضي الله عنه - ويسمعونه. وقيل: في الذين أفكوا على عائشة - رضي الله عنها -. وقيل: في زناة كانوا يتبعون النساء وهن كارهات. وعن الفضيل: لا يحل لك أن تؤذي كلباً أو خنزيراً بغير حق، فكيف^(١) وكان ابن عون لا يكرى الحوانيت إلا من أهل الذمة، لما فيه من الروعة عند كز الحول.

﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُلْ لِّأَزْوَاجِكَ وَبَنَاتِكَ وَنِسَاءِ الْمُؤْمِنِينَ يُتَبَيَّنُ عَلَيْنَّ مِنْ جَلْبَابِهِنَّ ذَلِكَ أَدَّى أَنْ يَعْرِفْنَ فَلَا يُؤْذِينَ وَكَانَ اللَّهُ حَقَّوًّا رَحِيمًا﴾ (٥٩)

الجلباب: ثوب واسع أوسع من الخمار ودون الرداء تلويه المرأة على رأسها وتبقي منه ما ترسله على صدرها. وعن ابن عباس - رضي الله عنهما -: الرداء الذي يستر من فوق إلى أسفل. وقيل: الملحفة وكل ما يستتر به من كساء أو غيره؛ قال أبو زيد [من البسيط]:

مُجَلْبَبٌ مِنْ سَوَادِ اللَّيْلِ جِلْبَابًا^(٢)

١٢٢٤ - أخرجه البخاري (٧٦٦/٩ - ٧٦٧)، كتاب: التفسير باب: قوله «الله الصمد» والعرب تسمي أشرافها الصمد، حديث (٤٩٧٥).

قال الزليعي: وهو من مفردات البخاري، وليس فيه: وأذاني.

١٢٢٥ - أخرجه الطبري في تفسيره (٣٣٠/١٠)، رقم (٢٨٦٣٩) من طريق سلمة بن الحجاج عن عكرمة. قال الحافظ ابن حجر: أخرجه الطبري من حديث أبي هريرة - رضي الله عنه - ومن حديث ابن عباس - رضي الله عنهما - نحوه. انتهى.

(١) «فكيف» عبارة النسفي: فكيف إيذاء المؤمنين والمؤمنات. (ع)

(٢) أهلاً بضيف أتى ما استفتح الباباً مجلبب من سواد الليل جلبياباً =

ومعنى ﴿يُذْنِبْنَ عَلَيْهِنَ مِنْ جَلْبَابِهِنَّ﴾ يرخينها عليهن، ويغطين بها وجوههن وأعطافهن. يقال: إذا زل الثوب عن وجه المرأة: أدنى ثوبك على وجهك، وذلك أن النساء كن في أول الإسلام على هجيراهن في الجاهلية متبذلات، تبرز المرأة في درع وخمار فصل بين الحرة والأمة، وكان الفتيان وأهل الشطارة يتعرّضون إذا خرجن بالليل إلى مقاضي حوائجهن في النخيل والغيطان للإماء، وربما تعرّضوا للحرة بعلّة الأمة، يقولون: حسبناها أمة، فأمرن أن يخالفن بزيهن عن زي الإماء بلبس الأردية والملاحف وستر الرءوس والوجوه، ليحتشمن ويهين فلا يطمع فيهن طامع، وذلك قوله: ﴿ذَلِكَ أَذَى أَنْ يَعْرِفَنَّ﴾ أي أولى وأجدر بأن يعرفن فلا يتعرّض لهن ولا يلقين ما يكرهن. فإن قلت: ما معنى (من) في (من جلابيهن)؟ قلت: هو للتبعض، إلا أن معنى التبعض يحتمل وجهين، أحدهما: أن يتجلبن ببعض ما لهن من الجلابيب، والمراد أن لا تكون الحرة متبذلة في درع وخمار، كالأمة والمهانة ولها جلبابان فصاعداً في بيتها. والثاني: أن ترخي المرأة بعض جلبابها وفضله على وجهها تتقنع حتى تتميز من الأمة. وعن ابن سيرين: سألت عبيدة السلماني عن ذلك فقال: أن تضع رداءها فوق الحجاب ثم تدبره حتى تضعه على أنفها. وعن الحمدي: أن تغطي إحدى عينيها وجبهتها، والشق الآخر إلا العين. وعن الكسائي: يتقنعن بملاحفهن منضمة عليهن، أراد بالانضمام معنى الإدناء ﴿وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا﴾ لما سلف منهن من التفريط مع التوبة^(١)؛ لأن هذا مما يمكن معرفته بالعقل.

﴿لَنْ يَنْفَعَكَ الْمَنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَالْمُرْجِفُونَ فِي الْمَدِينَةِ لَنُغْرِيَنَّكَ بِهِمْ ثُمَّ لَا يُحَاوِرُونَكَ فِيهَا إِلَّا قَلِيلًا﴾ (٦٦) ﴿مَلْعُونِينَ أَيْنَمَا نُفِيقُوا أَخَذُوا وَفُتِلُوا تَقْتِيلًا﴾ (٦٦) سُنَّةَ اللَّهِ فِي الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلُ وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلًا﴾ (٦٧)

﴿وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ﴾ قوم كان فيهم ضعف إيمان وقلة ثبات عليه. وقيل: هم

لأبي زيد. وأهلاً: مفعول لمحذوف وجوبا، أي: أتيت أهلاً. ويضيف: متعلق بمحذوف، أي: أرحب بضيف: ويجوز تعلقه بأهلاً؛ لأن فيه معنى الترحيب. وما: مصدرية، أي: مدة استقامة الباب. والمراد منه التعميم، أي: في أي وقت يطلب فتح الباب: وصفه بالآني في سواد الليل، مبالغة في التمدح بالكرم. ويجوز أن الضيف محبوبته، فيكون الليل أستر لها، وشبه استتار ضيفه بظلام الليل بلبس اللباس، والتجوز في الجلبيّة أو في الجلباب على طريق التصريح، ويجوز لأن ما نافية، وعلى هذا فيصح أن يكون خطاباً لملك الموت، حيث دخل ولم يطلب فتح الباب، وإن كان الضيف والحبيب قد يفعلان ذلك أيضاً.

(١) قوله «لما سلف لعنهن من التفريط مع التوبة» هذا عند المعتزلة. أو بمجرد الفضل عند أهل السنة. (ع)

الزناة وأهل الفجور من قوله تعالى: ﴿فَيَطْمَعَ الَّذِي فِي قَلْبِهِ مَرَضٌ﴾. ﴿وَالْمَرْجُوفُونَ﴾ ١٠٧/٢
 ناس كانوا يرجفون بأخبار السوء عن سرايا رسول الله - ﷺ -، فيقولون: هزموا وقتلوا،
 وجرى عليهم كيت وكيت، فيكسرون بذلك قلوب المؤمنين. يقال: أرجف بكذا، إذا أخبر
 به على غير حقيقة، لكونه خبراً متزلزلاً غير ثابت، من الرجفة وهي الزلزلة. والمعنى: لئن
 لم ينته المنافقون عن عداوتهم وكيدكم، والفسقة عن فجورهم، والمرجفون عما يؤلفون
 من أخبار السوء؟ لنامرنك بأن تفعل بهم الأفاعيل التي تسوؤهم وتنوؤهم^(١)، ثم بأن
 تضطهرهم إلى طلب الجلاء عن المدينة، وإلى أن لا يساكنوك فيها ﴿إِلَّا﴾ زمناً ﴿قَلِيلاً﴾
 ريثما يرتحلون ويلتقطون أنفسهم وعيالاتهم^(٢)، فسمى ذلك إغراء، وهو التحريش على
 سبيل المجاز ﴿مَلْعُونِينَ﴾ نصب على الشتم أو الحال، أي: لا يجاورونك إلا ملعونين،
 دخل حرف الاستثناء على الظرف والحال معاً، كما مر في قوله: ﴿إِلَّا أَنْ يُوْذَكَ لَكُمْ فِي
 طَعَامٍ غَيْرٍ نَّظِيرٍ إِنَّهُ﴾ ولا يصح أن ينتصب عن (أخذوا) لأن ما بعد كلمة الشرط لا يعمل
 فيما قبلها. وقيل في (قليلاً) وهو منصوب على الحال أيضاً. ومعناه: لا يجاورونك إلا
 أقلاء أذلاء ملعونين. فإن قلت ما موقع لا يجاورونك؟ قلت: لا يجاورونك عطف على
 لنغرينك، لأنه يجوز أن يجاب به القسم. ألا ترى إلى صحة قولك: لئن لم ينتهوا لا
 يجاورونك. فإن قلت: أما كان من حق لا يجاورونك أن يعطف بالفاء، وأن يقال:
 لنغرينك بهم فلا يجاورونك؟ قلت: لو جعل الثاني مسبباً عن الأول لكان الأمر كما قلت،
 ولكنه جعل جواباً آخر للقسم معطوفاً على الأول، وإنما عطف بشم، لأن الجلاء عن
 الأوطان كان أعظم عليهم وأعظم من جميع ما أصيبوا به، فتراخت حاله عن حال
 المعطوف عليه ﴿سِنَّةَ اللَّهِ﴾ في موضع مصدر مؤكد، أي: سن الله في الذين ينافقون
 الأنبياء أن يقتلوا حيثما ثقفوا وعن مقاتل: يعني كما قتل أهل بدر وأسروا.

﴿يَسْأَلُكَ النَّاسُ عَنِ السَّاعَةِ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا بِعِنْدِ اللَّهِ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ السَّاعَةَ تَكُونُ قَرِيبًا﴾ ﴿١٣﴾

كان المشركون يسألون رسول الله - ﷺ - عن وقت قيام الساعة استعجالاً على سبيل
 الهزء، واليهود يسألونه امتحاناً؛ لأن الله تعالى عمى وقتها في التوراة وفي كل كتاب، فأمر

(١) قوله «الأفاعيل التي تسوؤهم وتنوؤهم» في الصحاح، يقال: له عندي ما ساء وناء، أي أثقله، وما
 يسوؤه وينوؤه، وقال بعضهم أراد ساءه وناءه وإنما قال ناءه وهو لا يتعدى لأجل ساءه ليزدوج
 الكلام. (ع)

(٢) قال محمود: «المراد بقوله تعالى: ﴿إِلَّا قَلِيلاً﴾ ريثما يلتقطون عيالاتهم وأنفسهم لا غير» قال
 أحمد: وفيها إشارة إلى أن من توجه عليه إخلاء منزل مملوك للغير بوجه شرعي، يمهل ريثما ينتقل
 بنفسه ومتاعه وعياله برهة من الزمان، حتى يتحصل له منزل آخر على حسب الاجتهاد، والله أعلم.

رسول الله - ﷺ - بأن يجيبهم بأنه علم قد استأثر الله به، لم يطلع عليه ملكاً ولا نبياً، ثم بين لرسوله أنها قريبة الوقوع، تهديداً للمستعجلين، وإسكاتاً للممتحنين ﴿قَرِيبًا﴾ شيئاً قريباً. أو لأن الساعة في معنى اليوم، أو في زمان قريب.

﴿إِنَّ اللَّهَ لَعَنَ الْكَافِرِينَ وَأَعَدَّ لَهُمْ سَعِيرًا﴾ ﴿١٤﴾ خَلِيدِينَ فِيهَا أَبَدًا لَا يَجِدُونَ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴿١٥﴾

السعير: النار المسعورة الشديدة الإيقاد.

﴿يَوْمَ ثَقُلَتْ وُجُوهُهُمْ فِي النَّارِ يَقُولُونَ يَلَيْتَنَّا أَطَعْنَا اللَّهَ وَأَطَعْنَا الرَّسُولَ﴾ ﴿١٦﴾

وقرى: ثقل، على البناء للمفعول. وثقل، بمعنى تثقل. ونقلب، أي: نقلب نحن. وثقل: على أن الفعل للسعير^(١). ومعنى ثقلها: تصريفها في الجهات، كما ترى البضعة تدور في القدر إذا غلت فترامى بها الغليان من جهة إلى جهة. أو تغييرها عن أحوالها وتحويلها عن هيئاتها. أو طرحها في النار مقلوبين منكوسين، وخضت الوجوه بالذكر، لأن الوجه أكرم موضع على الإنسان من جسده، ويجوز أن يكون الوجه عبارة عن الجملة، وناصب الظرف ﴿يَقُولُونَ﴾ أو محذوف. وهو «اذكر» وإذا نصب بالمحذوف كان (يقولون) حالاً.

﴿وَقَالُوا رَبَّنَا إِنَّا أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكِبَرَاءَنَا فَأَضَلُّنَا السَّبِيلَ﴾ ﴿١٧﴾ رَبَّنَا ءَاتِهِمْ ضِعْفَيْنِ مِنَ الْعَلَابِ وَالْعَنَهُمْ لَعْنًا كَبِيرًا ﴿١٨﴾

وقرى: سادتنا وساداتنا: وهم رؤساء الكفر الذين لقنوهم الكفر وزينوه لهم. يقال: ضل السبيل وأضله إياه، وزيادة الألف لإطلاق الصوت: جعلت فواصل الآي كقوافي الشعر، وفائدتها الوقف والدلالة على أن الكلام قد انقطع، وأن ما بعده مستأنف. وقرئ: كثيراً، تكثيراً لإعداد اللعائن. وكبيراً، ليدل على أشد اللعن وأعظمه ﴿ضِعْفَيْنِ﴾ ضعفاً لضلاله وضعفاً لإضلاله: يعترفون، ويستغيثون، ويتمنون، ولا ينفعهم شيء من ذلك.

﴿يَتَأْتِيَ الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ ءَادُوا مُوسَىٰ فَبَرَّاهُ اللَّهُ مِمَّا قَالُوا وَكَانَ عِنْدَ اللَّهِ وَجِيهاً﴾ ﴿١٩﴾

﴿لَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ ءَادُوا مُوسَى﴾ قيل: نزلت في شأن زيد وزينب، وما سمع فيه من حالة

(١) قوله «على أن الفعل للسعير» يعني: وجوههم، بالنصب. (ع)

بعض الناس. وقيل: في أذى موسى عليه السلام: هو حديث المومسة التي أَرادها قارون على قذفه بنفسها، وقيل: اتهامهم إياه بقتل هارون، وكان قد خرج معه الجبل فمات هناك، فحملته الملائكة ومروا به عليهم ميتاً فأبصروه حتى عرفوا أنه غير مقتول. وقيل: أحياء الله أخبرهم ببراءة موسى عليه السلام. وقيل: قرفوه بعب^(١) في جسده من برص أو أدرة، فأطلعهم الله على أنه بريء منه ﴿وَجِبَا﴾ ذا جاه ومنزلة عنده، فلذلك كان يميّط عنه التهم/ ١٠٧/ ٢ ب، ويدفع الأذى، ويحافظ عليه، لئلا يلحقه وسم ولا يوصف بنقيصه، كما يفعل الملك بمن له عنده قرية ووجاهة. وقرأ ابن مسعود والأعمش وأبو حيوه. وكان عبد الله وجيهاً. قال ابن خالويه: صليت خلف ابن شنبوذ في شهر رمضان، فسمعتهم يقرؤها. وقراءة العامة أوجه؛ لأنها مفصحة عن وجاهته عند الله، كقوله تعالى: ﴿عِنْدَ ذِي الْعَرْشِ مَكِينٍ﴾ وهذه ليست كذلك، فإن قلت: قوله: ﴿مِمَّا قَالُوا﴾ معناه: من قولهم، أو من مقولهم؛ لأنّ (ما) إما مصدرية أو موصولة، وأيهما كان فكيف تصح البراءة منه؟ قلت: المراد بالقول أو المقول: مؤداه ومضمونه. وهو الأمر المعيب. ألا ترى أنهم سموا السبة بالقالة^(٢)، والقالة بمعنى القول؟

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَفُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا ۖ (٧٠) يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ۗ وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا ۖ (٧١) إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلَهَا وَاسْتَفْسَحْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الْإِنْسَانُ ۖ إِنَّهُمْ كَانُوا ظَالِمًا جَهُولًا ۖ (٧٢) لِيُعَذِّبَ اللَّهُ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ وَالْمُشْرِكِينَ وَالْمُشْرِكَاتِ وَيَتُوبَ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ ۚ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا ۖ (٧٣)﴾

﴿قَوْلًا سَدِيدًا﴾ قاصداً إلى الحق والسداد: القصد إلى الحق، والقول بالعدل. يقال: سدّد السهم نحو الرمية: إذا لم يعدل به عن سمتها، كما قالوا: سهم قاصد، والمراد: نهيمهم عما خاضوا فيه من حديث زينب من غير قصد وعدل في القول، والبعث على أن يسد قولهم^(٣) في كل باب؛ لأنّ حفظ اللسان وسداد القول رأس الخير كله. والمعنى: راقبوا الله في حفظ ألسنتكم، وتسديد قولكم، فإنكم إن فعلتم ذلك أعطاكم الله ما هو غاية

(١) قوله «وقيل قرفوه بعب» في الصحاح: قرفت الرجل، أي: عبته. ويقال: هو يقرف بكذا، أي: ترمي برؤيتهم. (ع)

(٢) قوله «ألا ترى أنهم سموا السبة بالقالة» في الصحاح: صار هذا الأمر سبة عليه - بالضم، أي: عاراً. (ع)

(٣) قوله «على أن يسد قولهم» في الصحاح: سد قوله يسدّ - بالكسر -: أي صار سديداً. (ع)

الطلبة: من تقبل حسناتكم والإثابة عليها، ومن مغفرة سيئاتكم وتكفيرها. وقيل إصلاح الأعمال التوفيق في المحيء بها صالحة مرضية وهذه الآية مقررة للتي قبلها، بنيت تلك على النهي عما يؤدي رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم، وهذه على الأمر باتقاء الله تعالى في حفظ اللسان؛ ليرتادف عليهم النهي والأمر، مع اتباع النهي ما يتضمن الوعيد من قصة موسى عليه السلام، واتباع الأمر الوعد البالغ فيقوى الصارف عن الأذى والداعي إلى تركه. لما قال: ﴿وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾ وعلق بالطاعة الفوز العظيم، أتبعه قوله ﴿إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ﴾ وهو يريد بالأمانة الطاعة، فعظم أمرها وفخم شأنها، وفيه وجهان، أحدهما: أن هذه الأجرام العظام من السموات والأرض والجبال قد انقادت لأمر الله عز وعلا انقياد مثلها - وهو ما يتأتى من الجمادات - وأطاعت له الطاعة التي تصح منها وتليق بها حيث لم تمتنع على مشيئته وإرادته إيجاباً وتكويناً وتسوية على هيئات مختلفة وأشكال متنوعة، كما قال: ﴿قَالَتَا أَأَنَّا طَائِعِينَ﴾ وأما الإنسان فلم تكن حاله - فيما يصح منه من الطاعات ويليق به من الانقياد لأوامر الله ونواهيه، وهو حيوان عاقل صالح للتكليف - مثل حال تلك الجمادات فيما يصح منها ويليق بها من الانقياد وعدم الامتناع، والمراد بالأمانة: الطاعة؛ لأنها لازمة الوجود، كما أن الأمانة لازمة الأداء. وعرضها على الجمادات وإباؤها وإشفاقها: مجاز. وأما حمل الأمانة فمن قولك: فلان حامل للأمانة ومحتمل لها، تريد: أنه لا يؤديها إلى صاحبها حتى تزول عن ذمته ويخرج عن عهدها؛ لأن الأمانة كأنها راكبة للمؤمن عليها وهو حاملها. ألا تراهم يقولون: ركبته الديون، ولي عليه حق، فإذا أداها لم تبق راكبة له ولا هو حاملاً لها. ونحوه قولهم، لا يملك مولى لمولى نصراً. يريدون: أنه يبذل النصرة له ويسامحه بها، ولا يمسكها كما يمسكها الخاذل؛ ومنه قول القائل [من الطويل]:

أَخُوكَ الَّذِي لَا تَمْلِكُ الْجِسَّ نَفْسُهُ وَتَرْفُضُ عِنْدَ الْمُحِفْظَاتِ الْكَتَائِفُ^(١)

أي لا يمسك الرقة والعطف إمساك المالك الضنين ما في يده، بل يبذل ذلك ويسمح

(١) للقطامي: وقيل: لذي الرمة. وحس له حساً: رق له وعطف. والحس أيضاً: العقل والتدبير والنظر في العواقب، والارفضاض من الترشرش والتناثر، وأحفظه إحفاظاً: أغضبه، فالمحفظات: المغضبات. والكتائف: جمع كتيفة، وهي الضغينة والحقد، يقول: أخوك هو الذي لا تملك نفسه الرحمة، بل يبذلها لك. أو لا تقدر نفسه على التدبير بالتأني، بل يسرع إليك بغتة وترتعد وتذهب ضغائنه من جهتك عند الأمور المغضبة لك، لأنها تغضبه أيضاً.

وهو للقطامي في ديوانه ص ٥٥، ولسان العرب (حس)، (رفض)، (حفظ)، (كتف)، وأساس البلاغة (حفظ)، ومقاييس اللغة ٥/١٦٠، وتهذيب اللغة ٣/٤٠٦، ٤/٤٦٠، وتاج العروس (رفض)، (حفظ)، (كتف).

به . ومنه قولهم ابغض حق أخيك؟ لأنه إذا أحبه لم يخرججه إلى أخيه ولم يؤده، وإذا أبغضه أخرجه وأذاه . فمعنى: فأبين أن يحملنها وحملها الإنسان، فأبين إلا أن يؤدينها وأبى الإنسان إلا أن يكون محتملاً لها لا يؤديها . ثم وصفه بالظلم لكونه تاركاً لأداء الأمانة . وبالجهل لأخطائه ما يسعده مع تمكنه منه وهو أدواها . والثاني: أن ما كلفه الإنسان بلغ من عظمه وثقل محمله: أنه عرض على أعظم ما خلق الله من الأجرام وأقواه وأشدّه: أن يتحملة ويستقل به، فأبى حملة والاستقلال به وأشفق منه، وحمله الإنسان على ضعفه ورخاوة قوته ﴿إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا﴾ حيث حمل الأمانة ثم لم يف بها، وضمنها ثم خاس^(١) بضمنان فيها، ونحو هذا من الكلام كثير في لسان العرب . وما جاء القرآن إلا على طرقيهم وأساليبهم من ذلك قولهم: لو قيل للشحم: أين تذهب؟ لقال: أسوي العوج، وكم وكم لهم من أمثال على السنة البهائم والجمادات . وتصوّر مقولة الشحم محال، ولكن الغرض/ ١٠٨/٢ أن السمن في الحيوان مما يحسن قبيحه، كما أن العجف مما يقبح حسنه، فصوّر أثر السمن فيه تصويراً هو أوقع في نفس السامع، وهي به آنس وله أقبل، وعلى حقيقته أوقف، وكذلك تصوير عظم الأمانة وصعوبة أمرها وثقل محملها والوفاء بها . فإن قلت: قد علم وجه التمثيل في قولهم للذي لا يثبت على رأي واحد: أراك تقدم رجلاً وتؤخر أخرى؛ لأنه مثلت حاله - في تميله وترجحه بين الرأيين وتركه المضي على أحدهما - بحال من يتردد في ذهابه فلا يجمع رجليه للمضي في وجهه . وكل واحد من الممثل والممثل به شيء مستقيم داخل تحت الصحة والمعرفة، وليس كذلك ما في هذه الآية؛ فإن عرض الأمانة على الجماد وإبائه وإشفاقه محال في نفسه، غير مستقيم، فكيف صح بناء التمثيل على المحال، وما مثال هذا إلا أن تشبه شيئاً والمشبه به غير معقول . قلت: الممثل به في الآية وفي قولهم: لو قيل للشحم أين تذهب . وفي نظائره مفروض، والمفروضات تتخيل في الذهن كما المحققات: مثلت حال التكليف في صعوبته وثقل محمله بحاله المفروضة لو عرضت على السموات والأرض والجبال لأبين أن يحملنها وأشفقن منها . واللام في ﴿لَيُعَذَّبَ﴾ لام التعليل على طريق المجاز؛ لأن التعذيب نتيجة حمل الأمانة، كما أن التأديب في ضربته للتأديب نتيجة الضرب . وقرأ الأعمش . ويتوب؛ ليجعل العلة قاصرة على فعل الحامل، ويبتدىء: ويتوب الله^(٢) . ومعنى قراءة العامة: ليعذب الله حامل الأمانة ويتوب على غيره ممن لم يحملها، لأنه إذا تيب على الوافي كان ذلك نوعاً من عذاب الغادر، والله أعلم .

(١) قوله «ثم خاس بضمنان فيها» في الصحاح: خاس به يخيس ويخوس، أي: غدر به يقال: خاس بالعهد، إذ نكث . (ع)

(٢) قوله «ويتوب» أي بالرفع، كما في النسفي . (ع)

قال رسول الله - ﷺ -: «من قرأ سورة الأحزاب وعلمها أهله وما ملكت يمينه، أعطي الأمان من عذاب القبر» (١٢٢٦).

١٢٢٦ - تقدم برقم (٣٤٦) وهو حديث فضائل القرآن سورة سورة.
قال الحافظ ابن حجر: أخرجه الشعلبي وابن مردويه من حديث أبي بن كعب - رضي الله عنه - .
انتهى .

سورة سبأ

مكية، [إلا آية ٦ فمدنية]

وآياتها ٥٤ [نزلت بعد لقمان]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَمْ يَمَلِكْ فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَلَهُ الْحَمْدُ فِي الْآخِرَةِ وَهُوَ الْحَكِيمُ
الْخَبِيرُ ﴿١﴾ يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِي الْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنْزِلُ مِنَ السَّمَاءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا وَهُوَ
الرَّحِيمُ الْغَفُورُ ﴿٢﴾﴾

ما في السموات والأرض كله نعمة من الله، وهو الحقيق بأن يحمد ويشنى عليه من أجله، ولما قال ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ﴾ ثم وصف ذاته بالإنعام بجميع النعم الدنيوية، كان معناه: أنه المحمود على نعم الدنيا، كما تقول: أحمد أخاك الذي كساك وحملك، تريد: أحمدته على كسوته وحملانه. ولما قال: ﴿وَلَهُ الْحَمْدُ فِي الْآخِرَةِ﴾ علم أنه المحمود على نعم الآخرة وهو الثواب. فإن قلت: ما الفرق بين الحمدين؟ قلت: أما الحمد في الدنيا فواجب، لأنه على نعمة متفضل بها، وهو الطريق إلى تحصيل نعمة الآخرة وهي الثواب. وأما الحمد في الآخرة فليس بواجب^(١)، لأنه على نعمة واجبة الإيصال إلى مستحقها^(٢)، إنما هو تمة سرور المؤمنين وتكملة اغتباطهم: يتلذذون به كما يتلذذ من به العطاش^(٣) بالماء البارد

(١) قال محمود: «الحمد الأول واجب لأنه على نعمة متفضل بها، والثاني: ليس بواجب، لأنه على نعمة واجبة على المنعم» قال أحمد: والحق في الفرق بين الحمدين: أن الأول عبادة مكلف بها، والثاني غير مكلف به ولا متكلف، وإنما هو في النشأة الثانية كالجلبات في النشأة الأولى، ولذلك قال عليه الصلاة والسلام: «يلهمون التسبيح كما يلهمون النفس، وإلا فالنعمة الأولى كالثانية بفضل من الله تعالى على عباده، لا عن استحقاق والله الموفق.

(٢) قوله «نعمة واجبة الإيصال إلى مستحقها، مبني على مذهب المعتزلة، أما أهل السنة فلا يوجبون على الله شيئاً، ولا يجب الحمد في الآخرة، لأنها ليست دار تكليف. (ع)

(٣) قوله «كما يلتذ من به العطاش» في الصحاح: «العطاش»: داء يصيب الإنسان: يشرب الماء فلا يروى. (ع)

﴿وَهُوَ الْحَكِيمُ﴾ الذي أحكم أمور الدارين ودبرها بحكمته ﴿الْخَيْرُ﴾ بكل كائن يكون. ثم ذكر مما يحيط به علما ﴿مَا يَلِجُ فِي الْأَرْضِ﴾ من الغيث كقوله: ﴿فَسَلَكَهُ يَنبِيعٌ فِي الْأَرْضِ﴾ [الزمر: ٢١] ومن الكنوز والدفائن والأموات. وجميع ما هي له كفات ﴿وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا﴾ من الشجر والنبات. وماء العيون، والغلة، والدواب، وغير ذلك ﴿وَمَا يَنْزِلُ مِنَ السَّمَاءِ﴾ من الأمطار والثلوج والبرد والصواعق والأرزاق والملائكة وأنواع البركات والمقادير، كما قال تعالى: ﴿وَفِي السَّمَاءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ﴾ [الذاريات: ٢٢] ﴿وَمَا يَعْزُجُ فِيهَا﴾ من الملائكة وأعمال العباد ﴿وَهُوَ﴾ مع كثرة نعمه وسبوغ فضله ﴿الرَّحِيمُ الْغَفُورُ﴾ للمفرطين في أداء مواجب شكرها. وقرأ علي بن أبي طالب - رضي الله عنه -: ننزل، بالنون والتشديد.

﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَأْتِينَا السَّاعَةُ قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّي لَتَأْتِيَنَّكُمْ عَلِيمُ الْغَيْبِ لَا يَعْزُبُ عَنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ فِي السَّمَوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ وَلَا أَصْغَرُ مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْبَرُ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ﴾ ﴿٢﴾ لِيَجْزِيَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَٰئِكَ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ﴾

قولهم ﴿لَا تَأْتِينَا السَّاعَةُ﴾ نفى للبعث وإنكار لمجيء الساعة. أو استبطاء لما قد وعدوه من قيامها على سبيل الهزء والسخرية، كقولهم: ﴿مَتَىٰ هَذَا الْوَعْدُ﴾. أوجب ما بعد النفي ببلى على معنى: أن ليس الأمر إلا إتيانها، ثم أعيد إيجابه مؤكداً بما هو الغاية في التوكيد والتشديد، وهو التوكيد باليمين بالله عز وجل، ثم أمد التوكيد القسمي إمداداً بما أنبع المقسم به الوصف بما وصف به، إلى قوله: ﴿لِيَجْزِيَ﴾ لأن عظمة حال المقسم به تؤذن بقوة حال المقسم عليه وشدة ثباته واستقامته، لأنه ١٠٨/٢ ب بمنزلة الاستشهاد على الأمر، وكلما كان المستشهد به أعلى كعباً وأبين فضلاً وأرفع منزلة، كانت الشهادة أقوى وأكد، والمستشهد عليه أثبت وأرسخ. فإن قلت: هل للوصف الذي وصف به المقسم به وجه اختصاص بهذا المعنى؟ قلت: نعم وذلك أن قيام الساعة من مشاهير الغيوب، وأدخلها في الخفية، وأولها مسارعة إلى القلب: إذا قيل عالم الغيب، فحين أقسم باسمه على إثبات قيام الساعة، وأنه كائن لا محالة، ثم وصف بما يرجع إلى علم الغيب، وأنه لا يفوت علمه شيء من الخفيات، واندرج تحته إحاطته بوقت قيام الساعة، فجاء ما تطلبه من وجه الاختصاص مجيئاً واضحاً. فإن قلت: الناس قد أنكروا إتيان الساعة وجحدوه، فهب أنه حلف لهم بأغلظ الأيمان وأقسم عليهم جهد القسم، فيمين من هو في معتقدهم مفتر على الله كذباً كيف تكون مصححة لما أنكروه؟ قلت: هذا لو اقتصر على اليمين ولم يتبعها الحجة القاطعة والبيئة الساطعة وهي قوله: ﴿لِيَجْزِيَ﴾ فقد وضع الله في العقول وركب في

الغرائز وجوب الجزاء^(١)، وأن المحسن لا بد له من ثواب، والمسيء لا بد له من عقاب. وقوله: ﴿لَيَجْزِيَنَّكُمْ﴾ متصل بقوله: ﴿لَتَأْتِيَنَّكُمْ﴾ تعليلاً له. قرئ: لتأتينكم بالتاء والياء. ووجه من قرأ بالياء: أن يكون ضميره للساعة بمعنى اليوم^(٢). أو يسند إلى عالم الغيب، أي ليأتينكم أمره كما قال تعالى: ﴿هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا أَنْ تَأْتِيَهُمُ الْمَلَائِكَةُ أَوْ يَأْتِيَ رَبُّكَ﴾ [الأنعام: ١٥٨] وقال: ﴿أَوْ يَأْتِيَ أَمْرُ رَبِّكَ﴾. وقرئ: عالم الغيب، وعلام الغيب: بالجر، صفة لربي. وعالم الغيب، وعالم الغيوب: بالرفع، على المدح. ولا يعزب: بالضم والكسر في الزاي، من العروب وهو البعد. يقال: روض عزيز: بعيد من الناس ﴿مِثْقَالُ ذَرَّةٍ﴾ مقدار أصغر نملة ﴿ذَلِكَ﴾ إشارة إلى مثقال ذرة. وقرئ: ولا أصغر من ذلك ولا أكبر. بالرفع على أصل الابتداء. وبالفتح على نفي الجنس، كقولك: لا حول ولا قوة إلا بالله، بالرفع والنصب. وهو كلام منقطع عما قبله. فإن قلت: هل يصح عطف المرفوع على مثقال ذرة، كأنه قيل: لا يعزب عنه مثقال ذرة وأصغر وأكبر وزيادة، لا لتأكيد النفي. وعطف المفتوح على ذرة بأنه فتح في موضع الجر لامتناع الصرف، كأنه قيل: لا يعزب عنه مثقال ذرة ولا مثقال أصغر من ذلك ولا أكبر؟ قلت: يأبى ذلك حرف الاستثناء، إلا إذا جعلت الضمير في (عنه) للغيب، وجعلت (الغيب) اسماً للخفيات. قبل أن تكتب في اللوح لأن إثباتها في اللوح نوع من البروز عن الحجاب، على معنى أنه لا ينفصل عن الغيب شيء، ولا يزل عنه إلا مسطوراً في اللوح^(٣).

(١) قوله «وركب في الغرائز وجوب الجزاء» هذا مقتضى الحكمة وإن لم يجب على الله تعالى شيء عند أهل السنة، فتدبر. (ع)

(٢) قال السمين الحلبي: ورده الشيخ بأنه ضرورة كقوله: ولا أرض أبقل إبقالها. وليس مثله وقيل أي الله بمعنى أمره ويجوز على قياس هذا الوجه أن يكون «عالم» فاعلاً ليأتينكم في قراءة من رفعه. انتهى الدر المصون.

(٣) قال السمين الحلبي: قال الشيخ: ولا يُحتاج إلى التأويل إذا جعلنا الكتاب ليس اللوح المحفوظ وقرأ زيد بن عليّ بخفض راء «أَصْغَرُ» و«أكْبَرُ» وهي مشكلة جداً وَخُرِجَتْ على أنهما في نية الإضافة إذ الأصل ولا أَصْغَرُهُ ولا أَكْبَرُهُ وما لا ينصرف إذا أَضِيفَ أُنْجِرَ في موضع الجر ثم حذف المضاف إليه ونوى معناه فترك المضاف بحاله وله نظائر كقولهم [من المنسرح]:

بَسِينٌ ذَرَاْعِي وَجَنَهِةُ الْأَسَدِ

ويا نَيْمَ عَدِيَّ على خلاف. وقد يُفَرَّقُ بأنَّ هناك ما يدل على المحذوف لفظاً بخلاف هنا وقد ردَّ بعضهم هذا التخريج لوجود «من» لأن أَفْعَلَ متى أَضِيفَ لم يجامع من وأجيب عن ذلك بوجهين. أحدهما: أنَّ من ليست متعلقة بأفعل بل بمحذوف على سبيل البيان لأنه لما حُذِفَ المضاف إليه اتَّيَهَ المضاف فَبَيَّنَ بمن ومجرورها أي أعنى من ذلك.

والثاني: أنه مع تقديره للمضاف إليه نوى طرحه فلذلك أتى بمن ويدل على ذلك أنه قد ورد التصريح بالإضافة مع وجود من قال الشاعر [من المنسرح]:

نَحْنُ بِعَرَسِ الْوَدَى أَغْلَمُنَا مِثْلًا بِرَكْضِ الْجِيَادِ فِي السَّدَفِ =

﴿وَالَّذِينَ سَعَوْا فِي آيَاتِنَا مُعْجِزِينَ أُولَٰئِكَ هُمُ عَذَابٌ مِّن رَّجْزٍ أَلِيمٍ ﴿٥﴾﴾

وقرى معجزين. وأليم، بالرفع والجر. وعن قتادة: الرجز: سوء العذاب.

﴿وَيَرَى الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ الَّذِي أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ هُوَ الْحَقُّ وَيَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ الْعَزِيزِ

الْعَمِيدِ ﴿٦﴾﴾

ويرى في موضع الرفع. أي: ويعلم أولو العلم، يعني أصحاب رسول الله - ﷺ - ومن يظاً أعقابهم من أمته. أو علماء أهل الكتاب الذين أسلموا مثل كعب الأحبار وعبد الله بن سلام - رضي الله عنهما -، ﴿الَّذِي أُنزِلَ إِلَيْكَ... الْحَقُّ﴾ هما مفعولان ليرى، وهو فصل من قرأ (الحق) بالرفع: جعله مبتدأ و(الحق) خبراً، والجملة في موضع المفعول الثاني. وقيل: (يرى) في موضع النصب معطوف على (ليجزي) أي: وليعلم أولو العلم عند مجيء الساعة أنه الحق. علماً لا يزداد عليه في الإيقان، ويحتجوا به على الذين كذبوا وتولوا. ويجوز أن يريد: وليعلم من لم يؤمن من الأحبار أنه هو الحق فيزدادوا حسرة وغماً.

﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا هَلْ نَذُكُّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ يَنْتَسِكُمْ إِذَا مِزَقْتُمْ كُلَّ مُمَرِّقٍ إِنَّكُمْ لَفِي خَلْقٍ جَسَدِيدٍ ﴿٧﴾﴾ أَفَرَأَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَمْ بِهِ جِنَّةٌ بَلِ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ فِي الْعَذَابِ وَالضَّلَالِ

الْبَعِيدِ ﴿٨﴾﴾

﴿الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ قرئش. قال بعضهم لبعض: ﴿هَلْ نَذُكُّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ﴾ يعنون محمداً ﷺ: يحدثكم بأعجوبة من الأعاجيب: أنكم تبعثون وتنشؤون خلقاً جديداً بعد أن تكونوا رفاتاً وتراباً ويمزق أجسادكم البلى كل ممزق، أي: يفرقكم ويبدد أجزاءكم كل تبديد. أهو مفتر على الله كذباً فيما ينسب إليه من ذلك؟ أم به جنون يوهمه ذلك ويلقيه على لسانه؟ ثم قال سبحانه ليس محمد من الافتراء والجنون في شيء، وهو مبرأ منهما؛ بل هؤلاء القائلون الكافرون بالبعث: واقعون في عذاب النار وفيما يؤديهم إليه من الضلال عن الحق وهم غافلون عن ذلك. وذلك أجبن الجنون وأشدّه إطباقاً على عقولهم: جعل وقوعهم في

= وَخُرُجَ عَلَىٰ هَذَيْنِ الْوَجْهَيْنِ إِمَّا التَّعْلُقُ بِمَحذُوفٍ وَإِمَّا نَيْئُ اطِّرَاحِ الْمُضَافِ إِلَيْهِ قُلْتُ: وَهَذَا كَمَا احتاجوا إلى تأويل الجمع بين آلٍ وَمِنْ أَفْعَلٍ كَقَوْلِهِ:

وَلَسْتُ بِالْأَكْثَرِ مِنْهُمْ حَصَى

وهذه توجيهات شذوذة لا يَطْلُبُ فيها أكثر من ذلك فليُفْتَحْ بمثل. انتهى. الدر المصون.

العذاب رسيلاً لوقوعهم في الضلال، كأنهما كائنان في وقت واحد؛ لأنّ الضلال لما كان العذاب من لوازمه وموجباته: جعلاً كأنهما في الحقيقة مقترنان. وقرأ زيد بن علي رضي الله عنه -: ينيبكم. فإن قلت: فقد جعلت الممزق مصدراً، كبيت الكتاب [من الوافر]:

أَلَمْ تَغْلَمْ مُسَرَّجِي الْقَوَافِي فَلَا عِيَا بِهِنَّ وَلَا اجْتِلَابَا؟^(١)

فهل يجوز أن يكون مكاناً؟ قلت: نعم. معناه ما حصل من الأموات في بطون الطير والسباع، وما مرّت به/ ١٠٩/٢ السيول فذهبت به كل مذهب، وما سفته الرياح فطرحت كل مطرح. فإن قلت: ما العامل في إذا؟ قلت: ما دلّ عليه ﴿إِنَّكُمْ لَعِنِّي حَتَّىٰ جَدِيدٍ﴾ وقد سبق نظيره. فإن قلت: الجديد فعيل بمعنى فاعل أم مفعول؟ قلت: هو عند البصريين بمعنى فاعل، تقول: جد فهو جديد، كحد فهو حديد، وقَلّ فهو قليل. وعند الكوفيين بمعنى: مفعول، من جده إذا قطعه. وقالوا: هو الذي جده الناسج الساعة في الثوب؛ ثم شاع. ويقولون؛ ولهذا قالوا^(٢) ملحفة جديد، وهي عند البصريين كقوله تعالى: ﴿إِنَّ رَحْمَتَ اللَّهِ قَرِيبٌ﴾ [الأعراف: ٥٦] ونحو ذلك. فإن قلت: لم أسقطت الهمزة في قوله: ﴿أَفَتَرَىٰ﴾ دون قوله: (السحر)، وكلتاها همزة وصل؟ قلت: القياس الطرح، ولكن أمراً اضطرهم إلى ترك إسقاطها في نحو (السحر) وهو خوف التباس الاستفهام بالخبر، لكون همزة الوصل مفتوحة كهمزة الاستفهام. فإن قلت: ما معنى وصف الضلال بالبعد؟ قلت هو من الإسناد المجازي؛ لأن البعيد صفة الضال إذا بعد عن الجادة، وكلما ازداد عنها بعداً كان أضل. فإن قلت: كان رسول الله - ﷺ - مشهوراً علماً في قریش، وكان إنبأوه بالبعث شائعاً عندهم، فما معنى قوله: ﴿هَلْ نَدُكُمُ عَلَىٰ رَجُلٍ يَبْتَئِكُمُ﴾ فنكروه لهم، وعرضوا عليهم الدلالة عليه كما يدل على مجهول في أمر مجهول. قلت: كانوا يقصدون بذلك الطنز والسخرية، فأخرجوه مخرج التحلي ببعض الأحاجي التي يتحاجى بها للضحك والتلهي متجاهلين به وبأمره.

(١) لجري، وهو من أبيات الكتاب. والمسرح: مصدر على زنة المفعول، فهو بمعنى التسريح، أي: الإرسال أو التسوية. وسرحت الجارية شعرها: مشطته، فاسترسل وحسن، وهو مضاف لياء الفاعل. والقوافي: مفعول، ونصب العي لشبهه بالمضاف، أو نونه للضرورة، أي: لا أعي بها، ولا أعجز عنها، ولا اجتلبها، ولا أسرقها، ويجوز أن العي ركابة المعنى. والاجتلاب: الاستتار، من جلبه الجرح، وهي قشرته الساترة له، فيهن: بمعنى فيهن.

ينظر: ديوانه ص ٦٥١، وشرح أبيات سيبويه ٩٧/١، والكتاب ٢٣٣/١، ٣٣٦، ولسان العرب (جلب)، (سحج)، وبلا نسبة في لسان العرب (يسر)، والمقتضب ٧٥/١، ١٢١/٢.

(٢) قوله «ولهذا قالوا» أي العرب. (ع)

﴿أَفَلَمْ يَرَوْا إِلَى مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِن نَّشَاءَ نُخِصِفْ بِهِمُ الْأَرْضَ أَوْ نُسْقِطَ عَلَيْهِمْ كِسْفًا مِّنَ السَّمَاءِ إِن فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّكُلِّ عَبْدٍ مُّنِيبٍ ﴿٩﴾﴾

أعموا فلم ينظروا إلى السماء والأرض، وأنهما حيثما كانوا وأيضا ساروا أمامهم وخلفهم محيطتان بهم، لا يقدرون أن ينفذوا من أقطارهما وأن يخرجوا عما هم فيه من ملكوت الله عز وجل، ولم يخافوا أن يخسف الله بهم أو يسقط عليهم كسفاً، لتكذيبهم الآيات وكفرهم بالرسول ﷺ وبما جاء به، كما فعل بقارون وأصحاب الأيكة ﴿٩﴾ في ذلك النظر إلى السماء والأرض والفكر فيهما وما يدلان عليه من قدرة الله ﴿لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ﴾ ودلالة ﴿لِكُلِّ عَبْدٍ مُّنِيبٍ﴾ وهو الراجع إلى ربه المطيع له؛ لأن المنيب لا يخلو من النظر في آيات الله، على أنه قادر على كل شيء من البعث ومن عقاب من يكفر به. قرئ يشأ ويخسف ويسقط: بالياء؛ لقوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ عَلَى اللَّهِ كُرْسِيًّا﴾ وبالنون لقوله: ﴿وَقَدْ عَلِمْتُمُ أَنَّ﴾ وكسفاً: بفتح السين وسكونه. وقرأ الكسائي: يخسف بهم، بالإدغام وليست بقوة.

﴿وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ أَنَّ دَاوُدَ مِنَّا فَضْلًا يَنْجِيَالُ أَوْبَى مَعَهُ وَالطَّيْرُ وَالنَّارُ لَهُ الْحَمِيدُ ﴿١٠﴾﴾
سَمِعَتْ وَقَدَّرَ فِي السَّرْدِ وَأَعْمَلُوا صَالِحًا إِلَى مَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿١١﴾ وَلَسَلِمْنَا لِرِيحٍ عَذُوبَةٍ
نَّهَرٌ وَرَوَّاحُهَا شَهْرٌ وَأَسَلْنَا لَهُ عَيْنَ الْقِطْرِ وَمَنِ الْجِنِّ مَن يَعْمَلُ بَيْنَ يَدَيْهِ بِإِذْنِ رَبِّهِ وَمَن يَرْجُ
بِهِمْ عَن أَمْرٍ نَّذِقُهُ مَن عَذَابِ السَّعِيرِ ﴿١٢﴾ يَعْمَلُونَ لَمْ مَّا يَشَاءُ مَن تَحْرِيبٍ وَتَمَثِيلٍ وَحِفَافٍ
كَلْجَوَابٍ وَقُدُورٍ رَّاسِخَتٍ أَعْمَلُوا آلَ دَاوُدَ شُكْرًا وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ الشَّكُورُ ﴿١٣﴾﴾

﴿يَنْجِيَالُ﴾ إما أن يكون بدلاً من ﴿فَضْلًا﴾، وإما من ﴿عَالِمًا﴾ بتقدير: قولنا يا جبال. أو: قلنا يا جبال. وقرئ: أوبي، وأوبي: من التأويب. والأوب: أي رجعي معه التسبيح. أو ارجعي معه في التسبيح كلما رجع فيه؛ لأنه إذا رجعه فقد رجع فيه: ومعنى تسبيح الجبال: أن الله سبحانه وتعالى يخلق فيها تسبيحاً كما خلق الكلام في الشجرة، فيسمع منها ما يسمع من المسبح: معجزة لداود. وقيل: كان ينوح على ذنبه بترجيع وتحزين، وكانت الجبال تسعده على نوحه بأصداثها^(١) والطير بأصواتها. وقرئ: والطير، رفعاً ونصباً، عطفاً على لفظ الجبال ومحلها. وجوزوا أن ينتصب مفعولاً معه، وأن يعطف على فضلاً، بمعنى وسخرنا له الطير. فإن قلت: أي فرق بين هذا النظم وبين أن يقال: ﴿عَالِمًا دَاوُدَ وَمَا فَضْلًا﴾ تأويب الجبال معه والطير؟ قلت: كم بينهما. ألا ترى إلى ما فيه من الفخامة التي

(١) قوله «بأصداثها» جمع صدى، وهو الذي يجيبك بمثل صوتك في الجبال وغيرها، كذا في الصحاح. (ع)

لا تخفى من الدلالة على عزة الربوبية وكبرياء الإلهية، حيث جعلت الجبال منزلة منزلة العقلاء الذين إذا أمرهم أطاعوا وأذعنوا، وإذا دعاهم سمعوا وأجابوا: إشعاراً بأنه ما من حيوان وجماد وناطق وصامت، إلا وهو منقاد لمشيئته، غير ممتنع على إرادته ﴿وَأَنَّا لَهُ الْحَدِيدُ﴾ وجعلناه له ليناً كالطين والعجين والشمع، يصرفه بيده كيف يشاء من غير نار ولا ضرب بمطرقة. وقيل: لأن الحديد في يده لما أوتي من شدة القوة. وقرئ: صابغات، وهي الدروع الواسعة الضافية، وهو أول من اتخذها وكانت قبل صفائح. وقيل: كان يبيع الدرع بأربعة آلاف فينفق منها على نفسه وعياله، ويتصدق على الفقراء. وقيل: كان يخرج حين ملك بني إسرائيل متكرراً، فيسأل الناس عن نفسه ويقول لهم: ما تقولون في داود؟ فيثنون عليه، فقيض الله له ملكاً في صورة آدمي فسأله على عادته، فقال: نعم الرجل لولا خصلة فيه فريع داود، فسأله؟ فقال: لولا أنه يطعم عياله من بيت المال، فسأل عند ذلك ربه أن يسبب له ما يستغني به عن بيت المال، فعلمه صنعة الدروع ﴿وَدَّرَ﴾ لا تجعل المسامير دقاقاً فتغلق، ولا غلاظاً فتفصم الحلق. والسرد: نسج الدروع ﴿وَأَعْمَلُوا﴾ الضمير لداود وأهله ﴿و﴾ سخرنا ﴿وَلِسْتَكُنَّ الرِّيحُ﴾ فيمن نصب: ولسليمان الريح مسخرة، فيمن رفع، وكذلك فيمن قرأ: الرياح، بالرفع ﴿عُدُّهَا شَهْرٌ﴾ جريها بالغداة مسيرة شهر، وجريها بالعشي كذلك. وقرئ: غدوتها وروحها. وعن/٢/١٠٩ ب الحسن - رضي الله عنه -: كان يغدو فيقبل باصطخر، ثم يروح فيكون رواحه بكابل. ويحكى أن بعضهم رأى مكتوباً في منزل بناحية دجلة كتبه بعض أصحاب سليمان: نحن نزلناه وما بنيناه ومبنياً وجدناه، غدونا من اصطخر فقلناه، ونحن راثحون منه فباتتون بالشام إن شاء الله. القطر: النحاس المذاب من القطران. فإن قلت: ماذا أراد بعين القطر؟ قلت: أراد بها معدن النحاس ولكنه أسأله^(١) كما ألان الحديد لداود، فنيح كما ينبع الماء من العين؛ فلذلك سماه عين القطر باسم ما آل إليه، كما قال: ﴿إِنِّي أَرْنِيَّ أَغْصُرُ حَمْرًا﴾ وقيل: كان يسبل في الشهر ثلاثة أيام ﴿يَا ذِينَ رَيْبٍ﴾ بأمره ﴿وَمَنْ يَزِغْ مِنْهُمْ﴾ ومن يعدل ﴿عَنْ أَمْرِنَا﴾ الذي أمرناه من طاعة سليمان وقرئ: يزغ من أزاغه. وعذاب السعير: عذاب الآخرة، عن ابن عباس - رضي الله عنهما - وعن السدي: كان معه ملك بيده سوط من نار، كلما استعصى عليه ضربه من حيث لا يراه الجني. المحاريب: المساكن والمجالس الشريفة المصونة عن الابتذال: سميت محاريب لأنه يحامي عليها ويذب عنها. وقيل: هي المساجد. والتماثيل: صور الملائكة والنبيين والصالحين، كانت تعمل في المساجد من نحاس وصفر وزجاج ورخام ليراها الناس فيعبدوا نحو عبادتهم. فإن قلت: كيف استجاز سليمان عليه السلام عمل التماثيل؟

(١) قوله «ولكنه أسأله كما ألان الحديد» لعله: أسأله له. (ع)

قلت: هذا مما يجوز أن تختلف فيه الشرائع؛ لأنه ليس من مقبحات العقل كالظلم والكذب، وعن أبي العالية: لم يكن اتخاذ الصور إذ ذاك محرماً. ويجوز أن يكون غير صور الحيوان كصور الأشجار وغيرها؛ لأنّ التمثال كل ما صور على مثل صورة غيره من حيوان وغير حيوان. أو تصوّر محذوفة الرؤوس. وروي أنهم عملوا له أسدين في أسفل كرسيه ونسرين فوقه، فإذا أراد أن يصعد بسط الأسدان له ذراعيهما، وإذا قعد أظله النسran بأجنحتهما. والجوابي: الحياض الكبار، قال [من الطويل]:

تَرُوحُ عَلَى آلِ الْمُحَلَّقِ جَفْنَةً كَجَابِيَةِ السَّيْحِ الْعِرَاقِيِّ تَفْهَقُ^(١)

لأنّ الماء يجبي فيها، أي: يجمع. جعل الفعل لها مجازاً وهي من الصفات الغالبة كالعادة. قيل: كان يعقد على الجفنة ألف رجل. وقرئ بحذف الياء اكتفاء بالكسرة. كقوله تعالى: ﴿يَوْمَ يَدْعُ الدَّاعِ﴾ [القمر: ٦]. ﴿رَاسِيَتٍ﴾ ثابتات على الأثافي لا تنزل عنها لعظمها ﴿أَعْمَلُوا آلَ دَاوُدَ﴾ حكاية ما قيل لآل داود. وانتصب ﴿شُكْرًا﴾ على أنه مفعول له، أي: اعملوا لله واعبدوه على وجه الشكر لنعمائه. وفيه دليل على أن العبادة يجب أن تؤدى على طريق الشكر. أو على الحال، أي: شاكرين. أو على تقدير اشكروا شكراً، لأن اعملوا فيه معنى اشكروا، من حيث أنّ العمل للنعم شكر له. ويجوز أن ينتصب باعملوا مفعولاً به. ومعناه: إنا سخرنا لكم الجنّ يعملون لكم ما شئتم، فاعملوا أنتم شكراً على طريق المشاكلة ﴿الشُّكُورُ﴾ المتوفر على أداء الشكر، الباذل وسعه فيه: قد شغل به قلبه ولسانه وجوارحه، اعتقاداً واعترافاً وكدحاً، وأكثر أوقاته. وعن ابن عباس - رضي الله عنهما -: من يشكر على أحواله كلها. وعن السدي: من يشكر على الشكر. وقيل: من يرى عجزه عن الشكر. وعن داود أنه جزأ ساعات الليل والنهار على أهله، فلم تكن تأتي ساعة من الساعات إلا وإنسان من آل داود قائم يصلي. وعن عمر - رضي الله عنه - أنه سمع رجلاً يقول: اللهم اجعلني من القليل، فقال عمر ما هذا الدعاء؟ فقال الرجل: إني سمعت الله يقول: ﴿وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ الشُّكُورُ﴾ فأنأ أدعوه أن يجعلني من ذلك القليل، فقال عمر: كل

(١) للأعشى في مدح المحلق. وروي «تلوح» بدل تروح؛ لأنها تظهر عند خروجها من البيت أول النهار مستعلة عليهم. والجفنة: قصعة الثريد. والجابية: الحوض يجبي الماء، أي: يجمعه إلى الحوض. والسيح: الماء الكثير الجاري. وفهق يفهق، كفرح يفرح: اتسع وامتلأ وتدقق. ومنه الحديث: أنه قام إلى باب الجنة فانفهرقت له، أي: انفتحت واتسعت. والمتفهيق: المكثّر من الكلام، فقله «تفهيق» أي تمتلئ مع اتساعها حتى تكاد تدقق.

ينظر: ديوانه ص ٢٧٥، ولسان العرب (حلق)، (فهق)، (جبي)، وتهذيب اللغة ٤/٥٠٤، ومقاييس اللغة ١/٥٠٣، ٤٥٦، ومجمل اللغة ٤/٦٧، وتاج العروس (فهق)، (جبي)، وبلا نسبة في المخصّص ١٠/٥٠.

﴿فَلَمَّا قَضَيْنَا عَلَيْهِ الْمَوْتَ مَا دَلَّكُمْ عَلَىٰ مَوْتِهِ إِلَّا دَابَّةٌ الْأَرْضِ تَأْكُلُ مِنسَأَتَهُ فَلَمَّا خَرَّ تَبَيَّنَتِ الْجِنُّ أَن لَّو كَانُوا يَعْلَمُونَ الْغَيْبَ مَا لَبِثُوا فِي الْعَذَابِ الْمُهِينِ ﴿١٤﴾﴾

قرئ: فلما قضى عليه الموت. ودابة الأرض: الأرضة، وهي الدويبة التي يقال لها السرفة والأرض فعلها، فأضيفت إليه. يقال: أرضت الخشبة أرضاً. إذا أكلتها الأرضة. وقرئ بفتح الراء، من أرضت الخشبة أرضاً، وهو من باب فعلته ففعل، كقولك: أكلت القوادح الأسنان أكلاً، فأكلت أكلاً. والمنسأة: العصا؛ لأنه ينسأ بها، أي: يطرد ويؤخر وقرئ بفتح الميم وبتخفيف الهمزة قلباً وحذفاً وكلاهما ليس بقياس، ولكن إخراج الهمزة بين بين هو التخفيف القياسي. ومنسأته على مفعلة، كما يقال في الميضأة ميضأة. ومن سأته، أي: من طرف عصاه، سميت بسأة^(١) القوس على الاستعارة. وفيها لغتان، كقولهم: قحة وقحة^(٢). وقرئ: أكلت منسأته ﴿تَبَيَّنَتِ الْجِنُّ﴾ من تبين الشيء إذا ظهر وتجلي/٢/١١٠ أ. و﴿إِنَّ﴾ مع صلتها بدل من الجن بدل الاشتمال، كقولك: تبين زيد جهله: والظهور له في المعنى، أي: ظهر أَنَّ الجن ﴿لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ الْغَيْبَ مَا لَبِثُوا فِي الْعَذَابِ﴾ أو علم الجن كلهم علماً بيناً - بعد التباس الأمر على عامتهم وضعفتهم وتوهمهم - أَنَّ كبارهم يصدقون في ادعائهم علم الغيب. أو علم المدعون علم الغيب منهم عجزهم، وأنهم لا يعلمون الغيب وإن كانوا عالمين قبل ذلك بحالهم، وإنما أريد التهكم بهم كما تهكم بمدعي الباطل إذا دحضت حجته^(٣) وظهر إبطاله بقولك: هل تبينت أنك مبطل. وأنت تعلم أنه لم يزل كذلك متبيناً. وقرئ: تبينت الجن، على البناء للمفعول، على أَنَّ المتبين في المعنى هو (أن) مع ما في صلتها، لأنه بدل، وفي قراءة أبي: تبينت

١٢٢٧ - أخرجه أبو بكر بن شيبه في مصنفه (٦٥/٦) كتاب الدعاء: باب ما ذكر عن أبي بكر وعمر رضي الله عنهما - من الدعاء، حديث (٢٩٥/٤). وذكره السيوطي في الدر المنثور (٤٣١/٥)، وزاد نسبه إلى عبد بن حميد وابن المنذر، وذكره الزيلعي في تخريج الكشاف (١٤١/٣). وزاد نسبه إلى أحمد بن حنبل في الزهد. قال ابن حجر: أخرجه ابن أبي شيبه وعبد الله بن أحمد في زيادات الزهد من رواية التيمي عن عمر فذكر نحوه. انتهى.

- (١) قوله «سميت بسأة القوس» في الصحاح «سبة القوس»: ما عطف من طرفها، وكان رؤبة يهمز: سية القوس، وسائر العرب لا يهمزونها. (ع)
- (٢) قوله «كقولهم قحة وقحة» كسعة وكمدة، بمعنى الوقاحة: وهي الصلابة. (ع)
- (٣) قوله «إذا دحضت حجته» في الصحاح: بطلت. (ع)

الإنس. وعن الضحاك: تباينت الإنس بمعنى تعارفت وتعاملت. والضمير في (كانوا) للجن في قوله: ﴿وَمِنَ الْجِنَّةِ مَن يَعْمَلُ بَيْنَ يَدَيْهِ﴾ أي علمت الإنس أن لو كان الجن يصدقون فيما يوهمونهم من علمهم الغيب؛ ما لبثوا. وفي قراءة ابن مسعود - رضي الله عنه -: تبينت الإنس أن الجن لو كانوا يعلمون الغيب. روي أنه كان من عادة سليمان عليه السلام أن يعتكف في مسجد بيت المقدس المدد الطوال، فلما دنا أجله لم يصبح إلا رأى في محرابه شجرة نابتة قد أنطقها الله، فسألها: لأي شيء أنت؟ فتقول لكذا، حتى أصبح ذات يوم فرأى الخروبة، فسألها، فقالت: نبت لخراب هذا المسجد؛ فقال: ما كان الله ليخربه وأنا حي، أنت التي على وجهك هلاكي وخراب بيت المقدس، فنزعها وعرسها في حائط له وقال: اللهم عم عن الجن موتي، حتى يعلم الناس أنهم لا يعلمون الغيب. لأنهم كانوا يسترقون السمع ويموهون على الإنس أنهم يعلمون الغيب، وقال لملك الموت: إذا أمرت بي فأعلمني، فقال: أمرت بك وقد بقيت من عمرك ساعة؛ فدعا الشياطين فبنوا عليه صرحاً من قوارير ليس له باب، فقام يصلي متكئاً على عصاه، فقبض روحه وهو متكئ عليها؛ وكانت الشياطين تجتمع حول محرابه أينما صلى، فلم يكن شيطان ينظر إليه في صلاته إلا احترق فمر به شيطان فلم يسمع صوته، ثم رجع فلم يسمع، فنظر فإذا سليمان قد خر ميتاً، ففتحوا عنه فإذا العصا قد أكلتها الأرضة، فأرادوا أن يعرفوا وقت موته، فوضعوا الأرضة على العصا فأكلت منها في يوم وليلة مقداراً، فحسبوا على ذلك النحو فوجدوه قد مات منذ سنة. وكانوا يعملون بين يديه ويحسبونه حياً، فأيقن الناس أنهم لو علموا الغيب لما لبثوا في العذاب سنة، وروي أن داود عليه السلام أسس بناء بيت المقدس في موضع فسقاط موسى عليه السلام، فمات قبل أن يتمه، فوصى به إلى سليمان، فأمر الشياطين بإتمامه، فلما بقي من عمره سنة سأل أن يعمى عليهم موته حتى يفرغوا منه، وليبطل دعوهم علم الغيب. روي أن أفريدون جاء ليصعد كرسيه، فلما دنا ضرب الأسدان ساقه فكسراها؛ فلم يجسر أحد بعد أن يدنو منه، وكان عمر سليمان ثلاثاً وخمسين سنة: ملك وهو ابن ثلاث عشرة سنة، فبقي في ملكه أربعين سنة، وابتدأ بناء بيت المقدس لأربع مئين من ملكه.

﴿لَقَدْ كَانَ لِسِ بٍ فِي مَسْكِنِهِمْ آيَةٌ جَنَّتَانِ عَنْ يَمِينٍ وَشِمَالٍ كُلُّوا مِن رِّزْقِ رَبِّكُمْ وَاشْكُرُوا لَمْ بَلَدَةٍ طَيِّبَةٍ وَرَبِّ غَفُورٍ ﴿١٥﴾ فَأَعْرَضُوا فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ سَيْلَ الْعَرِمِ وَبَدَّلْنَاهُمْ بِجَنَّتَيْهِمْ جَنَّتَيْنِ ذَوَاتِ أَكْمَلٍ خَمْطٍ وَأَثْلٍ وَشَيْءٍ مِّن سِدْرٍ قَلِيلٍ ﴿١٦﴾ ذَلِكَ جَزَيْنَاهُمْ بِمَا كَفَرُوا وَهَلْ نُجْزِي إِلَّا الْكَفُورَ ﴿١٧﴾﴾

قري ﴿لِسِ بٍ﴾ بالصرف ومنعه، وقلب الهمزة ألفاً. ومسكنهم: بفتح الكاف وكسرهما،

وهو موضع سكناهم؛ وهو بلدهم وأرضهم التي كانوا مقيمين فيها، أو مسكن كل واحد منهم. وقرئ: مساكنهم. و﴿جَنَّاتٍ﴾ بدل من آية. أو خبر مبتدأ محذوف، تقديره: الآية جنتان. وفي الرفع معنى المدح، تدل عليه قراءة من قرأ: جنتين، بالنصب على المدح. فإن قلت: ما معنى كونهما آية؟ قلت: لم يجعل الجنتين في أنفسهما آية، وإنما جعل قصتهما، وأن أهلها أعرضوا عن شكر الله تعالى عليهما فخربهما، وأبدلهم عنهما الخمط والأثل: آية، وعبرة لهم، يعتبروا ويتعظوا فلا يعودوا إلى ما كانوا عليه من الكفر وغمط النعم. ويجوز أن تجعلهما آية، أي: علامة دالة على الله، وعلى قدرته وإحسانه ووجوب شكره. فإن قلت: كيف عظم الله جنتي أهل سبأ وجعلهما آية، ورب قرية من قريات العراق يحتف بها من الجنان ما شئت؟ قلت: لم يرد بساتين اثنتين فحسب، وإنما أراد جماعتين من البساتين: جماعة عن يمين بلدهم، وأخرى عن شمالها، وكل واحد من الجماعتين في تقاربها وتضامها، كأنها جنة واحدة، كما تكون بلاد الريف العامة وبساتينها. أو أراد بستاني كل رجل منهم عن يمين مسكنه وشماله، كما قال: جعلنا لأحدهما جنتين من أعناب ﴿كُلُوا مِنْ رِزْقِ رَبِّكُمْ﴾ إما حكاية لما قال لهم أنبياء الله المبعوثون إليهم، أو لما قال لهم لسان الحال. أو هم أحقاء بأن يقال لهم ذلك، ولما قال: ﴿كُلُوا مِنْ رِزْقِ رَبِّكُمْ﴾ ﴿وَأَشْكُرُوا لِلَّهِ﴾ أتبعه قوله ﴿بَلَدٌ طَيِّبَةٌ وَرَبٌّ غَفُورٌ﴾ يعني: هذه البلدة التي فيها رزقكم بلدة طيبة، وربكم الذي رزقكم وطلب شكركم/ ٢/ ١١٠ ب رب غفور لمن شكره. وعن ابن عباس - رضي الله عنهما - : كانت أخصب البلاد وأطيبها: تخرج المرأة وعلى رأسها المكتل فتعمل بيديها وتسير بين تلك الشجر، فيمتلئ المكتل بما يتساقط فيه من الثمر (طيبة) لم تكن سبخة. وقيل: لم يكن فيها بعوض ولا ذباب ولا برغوث ولا عقرب ولا حية. وقرئ: بلدة طيبة ورباً غفوراً، بالنصب على المدح. وعن ثعلب: معناه اسكن واعبد ﴿الْعَرَمِ﴾ الجرذ^(١) الذي نقب عليهم السكر. ضربت لهم بلقيس الملكة بسد ما بين الجبلين بالصخر والقار، فحقنت به ماء العيون والأمطار، وتركت فيه خروفاً على مقدار ما يحتاجون إليه في سقيهم، فلما طغوا قيل: بعث الله إليهم ثلاثة عشر نبياً يدعونهم إلى الله ويذكرونهم نعمته عليهم، فكذبوهم وقالوا ما نعرف الله نعمة سلط الله على سدهم الخلد^(٢)، فنقبه من أسفله فغرقهم. وقيل: العرم جمع عرمة. وهي الحجارة المركومة.

(١) قوله «العرم الجرذ» في الصحاح «الجرذ»: ضرب من الفأر. وفيه: سكرت النهر سكرأ، إذا شددته.

(ع)

(٢) قوله «سلط الله على سدهم الخلد فنقبه» في الصحاح «الخلد»: ضرب من الجرذان أعمى. وفيه

«المكدس» بالضم. واحد أكداس الطعام. (ع)

ويقال للكُدس من الطعام: عرمة، والمراد: المسناة^(١) التي عقدوها سكرأ: وقيل: العرم اسم الوادي: وقيل: العرم المطر الشديد. وقرئ: العرم؛ بسكون الراء. وعن الضحاك: كانوا في الفترة التي بين عيسى ومحمد صلى الله عليهما وسلم. وقرئ: أكل، بالضم والسكون، وبالتنوين والإضافة. والأكل: الثمر. والخمط: شجر الأراك، وعن أبي عبيدة: كل شجر ذي شوك. وقال الزجاج: كل نبت أخذ طعماً من مرارة، حتى لا يمكن أكله. والأثل: شجر يشبه الطرفاء أعظم منه وأجود عوداً. ووجه من نون: أن أصله ذواتي أكل أكل خمط. فحذف المضاف وأقيم المضاف إليه مقامه. أو وصف الأكل بالخمط، كأنه قيل: ذواتي أكل بشع. ومن أضاف وهو أبو عمرو وحده، فلأن أكل الخمط في معنى البربر^(٢)، كأنه قيل: ذواتي بربر. والأثل والسدر: معطوفان على أكل، لا على خمط لأن الأثل لا أكل له. وقرئ: وأثلا. وشيثأ: بالنصب، عطفاً على جنتين. وتسمية البديل جنتين، لأجل المشاكلة وفيه: ضرب من التهكم. وعن الحسن رحمه الله: قال السدر، لأنه أكرم ما بدلوا. وقرئ: وهل يجازي. وهل نجازي، بالنون. وهل يجازي والفاعل الله وحده. وهل يجزي؛ والمعنى: أن مثل هذا الجزاء لا يستحقه إلا الكافر، وهو العقاب العاجل، وقيل: المؤمن تكفر سيئاته بحسناته، والكافر يحبط عمله فيجزي بجميع ما عمله من السوء، ووجه آخر: وهو أن الجزاء عام لكل مكافأة، يستعمل تارة في معنى المعاقبة، وأخرى في معنى الإنابة، فلما استعمل في معنى المعاقبة في قوله: ﴿جَزَيْنَهُمْ بِمَا كَفَرُوا﴾^(٣) بمعنى: عاقبناهم بكفرهم. قيل: ﴿وهل يجازي إلا الكفور﴾ بمعنى: وهل يعاقب؟ وهو الوجه الصحيح؛ وليس لقائل أن يقول: لم قيل: وهل يجازي إلا الكفور، على اختصاص الكفور بالجزاء. والجزاء عام للكافر والمؤمن، لأنه لم يرد الجزاء العام، وإنما أراد الخاص وهو العقاب، بل لا يجوز أن يراد العموم وليس بموضعه. ألا ترى أنك لو قلت: جزيناهم بما كفروا، وهل يجازي إلا الكافر والمؤمن: لم يصح ولم يسد كلاماً؟ فتبين أن ما يتخيل من السؤال مضمحل، وأن الصحيح الذي لا يجوز غيره ما جاء عليه كلام الله الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه.

﴿وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ الْقُرَى الَّتِي بَرَكْنَا فِيهَا قُرًى ظَهَرَ وَقَدَرْنَا فِيهَا السَّيْرَ سِيرُوا فِيهَا لِيَالِي وَأَيَّامًا مَّامِينِينَ ﴿٨﴾ فَقَالُوا رَبَّنَا بَعْدَ بَيْنِ أَسْفَارِنَا وَظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ فَجَعَلْنَاهُمْ أَحَادِيثَ وَمَزَّقْنَاهُمْ كُلَّ مُمَرِّقٍ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ﴿٩﴾﴾

(١) قوله «المراد المسناة التي عقدوها» في الصحاح: المسناة: العرم وفيه: العرم المسناة. وفي ذلك دور. (ع)

(٢) قوله «فلان أكل الخمط في معنى البربر» في الصحاح «البربر»: ثمر الأراك. (ع)

﴿الْقَرْىَ الَّتِي بَرَكْنَا فِيهَا﴾ وهي قرى الشام ﴿قَرْىَ ظَهْرَةَ﴾ متواصلة؛ يرى بعضها من بعض لتقاربها، فهي ظاهرة لأعين الناظرين. أو رابية متن الطريق: ظاهرة للسابلة؛ لم تبعد عن مسالكهم حتى تخفى عليهم ﴿وَقَدَّرْنَا فِيهَا السَّيْرَ﴾ قيل: كان الغادي منهم يقيل في قرية. والرائح يبيت في قرية إلى أن يبلغ الشام لا يخاف جوعاً ولا عطشاً ولا عدواً، ولا يحتاج إلى حمل زاد ولا ماء ﴿سَيَرُوا فِيهَا﴾ وقلنا لهم: سيروا؛ ولا قول ثم، ولكنهم لما مكنوا من السير وسويت لهم أسبابه؛ كأنهم أمروا بذلك وأذن لهم فيه. فإن قلت: ما معنى قوله: ﴿لَيَالِيًّ وَأَيَّامًا﴾؟ قلت: معناه سيروا فيها، إن شتتم بالليل وإن شتتم بالنهار، فإن الأمن فيها لا يختلف باختلاف الأوقات. أو سيروا فيها آمنين لا تخافون، وإن تطاولت مدة سفركم فيها وامتدت أياماً وليالي، أو سيروا فيها لياليكم وأيامكم مدة أعماركم، فإنكم في كل حين وزمان، لا تلقون فيها إلا الأمن. قرئ: ربنا باعد بين أسفارنا. وبعد. ويا ربنا، على الدعاء. بطروا النعمة، وبشموا من طيب العيش^(١)، وملوا العافية، فطلبوا الكد والتعب كما طلب بنو إسرائيل البصل والثوم مكان المن والسلوى، وقالوا: لو كان جنى جناتنا أبعد كان أجدر أن نشتهي. وتمنوا أن يجعل الله بينهم وبين الشام مفاوز ليركبوا الرواحل فيها ويتزودوا الأزواد، فجعل الله لهم الإجابة. وقرئ ربنا بعد بين أسفارنا، وبعد بين أسفارنا/ ١١١/٢ على النداء، وإسناد الفعل إلى بين ورفع به، كما تقول: سير فرسخان، وبوعد بين أسفارنا. وقرئ: ربنا باعد بين أسفارنا، وبين سفرنا، وبعد، برفع ربنا على الابتداء، والمعنى خلاف الأول، وهو استبعاد مسائرهم على قصرها ودنوها لفرط تنعمهم وترفهم، كأنهم كانوا يتشاجون^(٢) على ربهم ويتحازنون عليه ﴿أَحَادِيثٌ﴾ يتحدث الناس بهم ويتعجبون من أحوالهم، وفرقناهم تفريقاً اتخذها الناس مثلاً مضروباً، يقولون: ذهبوا أيدي سباً، وتفرقوا أيادي سباً. قال كثير [من الطويل]:

أَيَّادِي سَبَا يَا عَزَّ مَا كُنْتُ بَعْدَكُمْ فَلَمْ يَخْلُ بِالْعَيْنَيْنِ بَعْدَكَ مَنْظَرُ^(٣)

(١) قوله «وبشموا من طيب العيش» بشموا، أي: شموا. أفاده الصحاح. (ع)

(٢) قوله «كأنهم كانوا يتشاجون» في الصحاح «الشجون»: الهم والحزن. (ع)

(٣) لكثير صاحب عزة. وسباً: بلدة كانت كثيرة الخصب طيبة البساتين، فكفر أهلها نعمة الله فأرسل عليهم السيل، وبدلهم بالخصب جدياً، وبالرغد ضيقاً، وبالسمن غثاً، فصاروا لا ينالون الأقوات إلا من جهات بعيدة، والمراد بالأيادي: النعم، وأيادي سباً: استعارة لأحوال نفسه التي تشبه أحوال سباً في التشتت والتنقص. أو تشبيهه ببلغ على الخلاف. وفيه مجاز بالحذف، أي: أيادي أهل سباً ما كنته بعدكم. أي: ما كنت متصفاً به من الأحوال كأحوال سباً. ويجوز أن ما مصدرية، أي: أكواني وأحوالي بعدكم كأحوال سباً. أو المراد بأيادي سباً: أصحابها الذين كانوا يعمرونها، ففرقوا أنفسهم بأيديهم فشبهه بنفسه بهم لعدم استقراره. وتطلق سباً على قبيلة كانت تسكنها. ويحتمل أنها المراد هنا، بل هو أظهر. ويجوز أن المراد أبوها، وهو سباً بن يشجب بن يعرب بن قحطان: كان =

لحق غسان بالشام، وأنمار ييثرب، وجذام بتهامة، والأرد بعمان ﴿صَبَّارٌ﴾ عن المعاصي للنعم.

﴿وَلَقَدْ صَدَّقَ عَلَيْهِمْ إِبْلِيسُ ظَنَّهُ فَاتَّبَعُوهُ إِلَّا فَرِيقًا مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ ﴿١٦﴾ وَمَا كَانَ لَهُ عَلَيْهِ مِنْ سُلْطَانٍ إِلَّا لِيَعْلَمَ مَنْ يَتُومَنُ بِالْآخِرَةِ مِمَّنْ هُوَ فِي شَكٍّ وَرَيْكٌ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ حَفِيظٌ ﴿٢١﴾﴾

قرئ: صدق، بالتشديد والتخفيف، ورفع إبليس ونصب الظن، فمن شدد فعلى: حقق عليهم ظنه، أو وجده صادقاً؛ ومن خفف فعلى: صدق في ظنه أو صدق يظن ظناً، نحو: فعلته جهداً، وبنصب إبليس ورفع الظن؛ فمن شدد فعلى: وجده ظنه صادقاً؛ ومن خفف فعلى: قال له ظنه الصدق حين خيله إغواءهم، يقولون: صدقك ظنك. وبالتخفيف ورفعهما على: صدق عليهم ظن إبليس؛ ولو قرئ بالتشديد مع رفعهما لكان على المبالغة في صدق، كقوله: صدقت فيهم ظنوني، ومعناه: أنه حين وجد آدم ضعيف العزم قد أصغى إلى وسوسته قال إن ذريته أضعف عزمًا منه، فظن بهم اتباعه وقال: لأضلنهم، لأغوينهم. وقيل: ظن ذلك عند إخبار الله تعالى الملائكة أنه يجعل فيها من يفسد فيها. والضمير في ﴿عَلَيْهِمْ﴾ و﴿أَتَّبَعُوهُ﴾ إمّا لأهل سبأ، أو لبني آدم. وقلل المؤمنين بقوله: ﴿إِلَّا فَرِيقًا﴾ لأنهم قليل قليل بالإضافة إلى الكفار، كما قال: ﴿لَا تَحْتَسِبُكَ دَرِيَّةٌ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [الإسراء: ٦٢]، ﴿وَلَا يَحْدُ أَكْثَرُهُمْ شُكْرًا﴾ [الأعراف: ١٧]. ﴿وَمَا كَانَ لَهُ عَلَيْهِمْ﴾ من تسليط واستيلاء بالسوسة والاستغواء إلا لغرض صحيح وحكمة بينة، وذلك أن يتميز المؤمن بالآخرة من الشاك فيها، وعلل التسليط بالعلم والمراد ما تعلق به العلم. وقرئ: ليعلم على البناء للمفعول ﴿حَفِيظٌ﴾ محافظ عليه، وفعل ومفاعل: متآخيان.

= ذا مال وبنين، فتفرق بنوه بعضهم إلى اليمن وبعضهم إلى الشام إلى غير ذلك، فأطلق الأيادي عليهم؛ لأن بهم قوته كالأيادي. ثم شبه نفسه بهم في الشتات. وعز: مرخم، وفي ندائها معنى التوجع والاستعطاف، وخاطبها بضمير جمع المذكر تعظيماً، ولذلك لا تجده في مواضع ذمهن. وجملة النداء معترضة بين الخبر والمبتدأ؛ ويحتمل أن التقدير: أنا كأيادي سبأ مدة كوني بعدكم، فهي معترضة بين الجملة والظرف المتعلق بها، وحلا يحلو كدعا يدعو وغيره قليل، شبه الحسن بالحلاوة بجامع اللذة. وقيل: حلّى يحلّي، كرضى يرضى في المنظر. وحلا يحلو في الطعام، وما هنا من الأول فلا مجاز، والمنظر مصدر بمعنى النظر، ويجوز أن الحلاوة الحسن والمنظر - بالفتح -: مكان النظر، ويجوز أنه النظر. أي: فلم يحسن لعيني غيرك، ويجوز أن المراد بعدكم بعد ارتحالك أنت وأهلك. فالخطاب لها ولحبها! ولكن موارد الاستعمال يعرضها ما تقدم، وروي: فلن يحل، فزعم بعضهم أن «لن» قد تجزم كما هنا، وعلى المنع فحذف آخر الفعل للضرورة أو التخفيف.

﴿قُلِ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِي السَّمَوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ وَمَا لَهُمْ فِيهِمَا مِنْ شِرْكٍَ وَمَا لَهُ مِنْهُمْ مِّنْ ظَهِيرٍ﴾ (٢٢)

﴿قُلِ﴾ لمشركي قومك ﴿ادْعُوا الَّذِينَ﴾ عبدتموهم من دون الله من الأصنام والملائكة وسميتموهم باسمه كما تدعون الله. والتجثوا إليهم فيما يعروكم كما تلتجثون إليه، وانتظروا استجابتهم لدعائكم ورحمتهم كما تنتظرون أن يستجيب لكم ويرحمكم، ثم أجاب عنهم بقوله: ﴿لَا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ﴾ من خير أو شر، أو نفع أو ضرر ﴿فِي السَّمَوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ وَمَا لَهُمْ﴾ في هذين الجنسين من شركة في الخلق ولا في الملك، كقوله تعالى: ﴿مَا أَشْهَدُهُمْ خَلْقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ وما له منهم من معين يعينه على تدبير خلقه، يريد: أنهم على هذه الصفة من العجز والبعد عن أحوال الربوبية، فكيف يصح أن يُدعوا كما يدعى ويُرجوا كما يرجى، فإن قلت: أين مفعولاً زعم؟ (قلت): أحدهما الضمير المحذوف الراجع منه إلى الموصول. وأما الثاني فلا يخلو إما أن يكون ﴿مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾ أو ﴿لَا يَمْلِكُونَ﴾ أو محذوفاً فلا يصح الأول، لأن قولك: هم من دون الله، لا يلتزم كلاماً، ولا الثاني، لأنهم ما كانوا يزعمون ذلك، فكيف يتكلمون بما هو حجة عليهم؛ وبما لو قالوه قالوا ما هو حق وتوحيد؟ فبقي أن يكون محذوفاً تقديره: زعمتموهم آلهة من دون الله فحذف الراجع إلى الموصول كما حذف في قوله: ﴿أَهْلَكَ الَّذِي بَعَثَ اللَّهُ رَسُولًا﴾ [الفرقان: ٤١] استخفافاً، لطول الموصول لصلته. وحذف آلهة لأنه موصوف صفته ﴿مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾ والموصوف يجوز حذفه وإقامة الصفة مقامه إذا كان مفهوماً، فإذا مفعولاً زعم محذوفان جميعاً بسببين مختلفين.

﴿وَلَا تَنْفَعُ الشَّفَاعَةُ عِنْدَهُ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُ حَتَّىٰ إِذَا فُزِعَ عَنْ قُلُوبِهِمْ قَالُوا مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ لَهُمْ﴾ قَالُوا الْحَقُّ وَهُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ ﴿٢٣﴾

تقول: الشفاعة لزيد، على معنى أنه الشافع، كما تقول: الكرم لزيد: وعلى معنى أنه المشفوع له، كما تقول: القيام لزيد، فاحتمل قوله: ﴿وَلَا تَنْفَعُ الشَّفَاعَةُ عِنْدَهُ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُمْ﴾ أن يكون على أحد هذين الوجهين، أي: لا تنفع الشفاعة إلا كائنة لمن أذن له من الشافعين ومطلقة له. أو لا تنفع الشفاعة إلا كائنة لمن أذن له، أي: لشفعيه، أو هي اللام الثانية في قولك: أذن لزيد لعمره، أي لأجله، وكأنه قيل: إلا لمن وقع الإذن للشفع لأجله، وهذا وجه لطيف وهو الوجه، وهذا تكذيب لقولهم: هؤلاء شفعاؤنا عند الله. فإن قلت: بما اتصل قوله: ﴿حَتَّىٰ إِذَا فُزِعَ عَنْ قُلُوبِهِمْ﴾ ولأي شيء وقعت حتى غاية ١١١/٢ ب؟ قلت: بما فهم من هذا الكلام، من أن ثم انتظاراً للإذن وتوقعاً وتمهلاً وفزعاً من الراجين

لِلشَّفَاعَةِ وَالشَّفَعَاءِ، هل يؤذن لهم أو لا يؤذن؟ وأنه لا يطلق الإذن إلا بعد ملي من الزمان. وطول من التربص، ومثل هذه الحال دلّ عليه قوله عز وجل ﴿رَبِّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا الرَّحْمَنُ لَا يَمْلِكُونَ مِنْهُ خِطَابًا﴾ (٢٧) يَوْمَ يَقُومُ الرُّوحُ وَالْمَلَائِكَةُ صَفًّا لَا يَتَكَلَّمُونَ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمَنُ وَقَالَ صَوَابًا ﴿٢٨﴾ كأنه قيل: يتربصون ويتوقفون كلياً فرعين وهلين، حتى إذا فزع عن قلوبهم، أي: كشف الفزع عن قلوب الشافعين والمشفوع لهم بكلمة يتكلم بها رب العزة في إطلاق الإذن: تباشروا بذلك وسأل بعضهم بعضاً ﴿مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ قَالُوا﴾ قال: ﴿الْحَقُّ﴾ أي القول الحق، وهو الإذن بالشفاعة لمن ارتضى. وعن ابن عباس - رضي الله عنهما - عن النبي ﷺ «إِذَا أذن لمن أذن أن يشفع فزعت الشفاعة» (١١٢٨). وقرئ أذن له، أي: أذن له الله، وأذن له على البناء للمفعول. وقرأ الحسن: فزع، مخففاً، بمعنى فزع. وقرئ فزع، على البناء للفاعل، وهو الله وحده، وفزع، أي: نفى الوجل عنها وأفنى، من قولهم: فرغ الزاد، إذا لم يبق منه شيء. ثم ترك ذكر الوجل وأسند إلى الجار والمجرور، كما تقول: دفع إليّ زيد، إذا علم ما المدفوع وقد تخفف، وأصله: فرغ الوجل عنها، أي: انتفى عنها، وفنى ثم حذف الفاعل وأسند إلى الجار والمجرور، وقرأ: افرنقع عن قلوبهم، بمعنى: انكشف عنها. وعن أبي علقمة أنه هاج به المراء^(١) فالتف عليه الناس، فلما أفاق قال: ما لكم تكأكن عليّ تكأكنم على ذي جنة؟ افرنقوا عني، والكلمة مركبة من حروف المفارقة مع زيادة العين، كما ركب «اقمطر» من حروف القمط، مع زيادة الراء. وقرئ الحق بالرفع، أي: مقوله الحق ﴿وَهُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ﴾ ذو العلو والكبرياء، ليس لملك ولا نبي أن يتكلم ذلك اليوم إلا بإذنه، وأن يشفع إلا لمن ارتضى.

﴿قُلْ مَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ قُلِ اللَّهُ وَإِنَّا أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَىٰ هُدًى أَوْ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾ (٢٤)

أمره بأن يقرهم بقوله: ﴿مَنْ يَرْزُقُكُمْ﴾ ثم أمره بأن يتولى الإجابة والإقرار عنهم بقوله: يرزقكم الله. وذلك للإشعار بأنهم مقرّون به بقلوبهم، إلا أنهم ربما أبوا أن يتكلموا به؛ لأن الذي تمكن في صدورهم من العناد وحب الشرك قد ألجم أفواههم عن النطق بالحق

١٢٢٨ - قال الحافظ ابن حجر: لم أجده. انتهى.

(١) قوله «أنه هاج به المراء» في الصحاح «المراء»: بضم الميم: شجر مر، إذا أكلت منه الإبل قلصت عنه مشافرها. ومنه: بنو آكل المراء: وهم قوم من العرب. (ع)

مع علمهم بصحته، ولأنهم إن تفوهوا بأن الله رازقهم: لزهم أن يقال لهم: فما لكم لا تعبدون من يرزقكم وتوثرون عليه من لا يقدر على الرزق، ألا ترى إلى قوله: ﴿قُلْ مَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أَمَّنْ يَمْلِكُ السَّمْعَ﴾ [يونس: ٣١] حتى قال: ﴿فَسَيَقُولُونَ اللَّهُ﴾ ثم قال: ﴿فَمَاذَا بَعَدَ الْحَقِّ إِلَّا الضَّلَالُ﴾ فكانهم كانوا يقرون بالسنتهم مرة، ومرة كانوا يتلعثمون عناداً وضاراً وحذاراً من إلزام الحجة، ونحوه قوله عز وجل ﴿قُلْ مَنْ رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ قُلْ اللَّهُ قُلْ أَفَتَتَّخِذُونَ مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ لَا يَمْلِكُونَ لِأُنْثِيهِمْ نَفْعًا وَلَا ضَرًّا﴾ [الرعد: ١٦] وأمره أن يقول لهم بعد الإلزام والإلجام الذي إن لم يزد على إقرارهم بالسنتهم لم يتقاصر عنه ﴿وَلَيْتَ آوِيَاكُمْ لَعَلِّي هُدَىٰ أَوْ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾ ومعناه: وإن أحد الفريقين من الذين يتوحدو الرازق من السموات والأرض بالعبادة ومن الذين يشركون به الجماد الذي لا يوصف بالقدرة، لعلى أحد الأمرين من الهدى والضلال، وهذا من الكلام المنصف الذي كل من سمعه من موال أو مناف قال لمن خطب به: قد أنصفك صاحبك، وفي درجة بعد تقدمة ما قدم من التقرير البليغ: دلالة غير خفية على من هو من الفريقين على الهدى ومن هو في الضلال المبين، ولكن التعريض والتورية أنضل^(١) بالمجادل إلى الغرض، وأهجم به على الغلبة، مع قلة شغب الخصم وفل شوكته^(٢) بالهويونا ونحوه قول الرجل لصاحبه: علم الله الصادق مني ومنك، وإن ألدنا لكاذب^(٣)؟ ومنه بيت حسان [من الوافر]:

- (١) قوله «ولكن التعريض والتورية أنضل» في الصحاح «ناضله»: راماه، يقال: ناضلت فلاناً فنضلته إذا غلبته اهـ. فالأفضل الأشد رماً، فلذا عدى بإلى. (ع)
 (٢) قوله «وفل شوكته» أي كسرهما. (ع)
 (٣) قال محمود: «لما ألزهم الحجة في قوله: ﴿قُلْ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِي السَّمَوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ وَمَا لَهُمْ فِيهِمَا مِنْ شَرْكَ وَمَا لَهُ مِنْهُمْ مِنْ ظَهِيرٍ﴾ وهلم جرا إلى الآية المذكورة - وهذا الإلزام إن لم يزد على إقرارهم بالسنتهم لم يتقاصر عنه - أمره أن يقول ﴿وإنا وإياكم لعلى هدى أو في ضلال مبين﴾ ومعناه: أن أحد الفريقين من الموحدين الرازق من السموات والأرض بالعبادة، ومن الذين يشركون به الجماد الذي لا يوصف بالقدرة على ذرة: لعلى أحد الأمرين من الهدى أو الضلال، وهذا من الكلام المنصف الذي كل من سمعه من موافق أو مخالف قال للمخاطب به: قد أنصفك صاحبك، والتعريض أفضل بالمجادل إلى الغرض، وأهجم به على الغلبة، مع قلة شغب الخصم وفل شوكته بالهويونا. ونحوه قول الرجل لصاحبه: الله يعلم الصادق مني ومنك، وإن ألدنا لكاذب [من الوافر]:

أنهجه ولمست له بكفء؟ فشركما لخيركما الفداء

قال أحمد: وهذا تفسير مذهب واقتنان مستعذب، رددته على سمعي فزاد رونقاً بالترديد، واستعاذه الخاطر كأنني بطيء الفهم حين يفيد، ولا ينبغي أن ينكر بعد ذلك على الطريقة التي أكثر تعاطيها متأخرو الفقهاء في مجادلاتهم ومحاوراتهم، وذلك قولهم: أحد الأمرين لازم على الإبهام، فهذا المسلك من هذا الوادي غير بعيد، فتأمله والله الموفق.

أَتَهْجُوهُ وَلَسْتَ لَهُ بِكَفٍ؟ فَشَرُّكُمَْا لِخَيْرِكُمَْا الْفِدَاءُ^(١)

فإن قلت: كيف خولف بين حرفي الجزر الداخلين على الحق والضلال؟ قلت: لأن صاحب الحق كأنه مستعل على فرس جواد يركضه حيث شاء، والضال كأنه منغمس في ظلام مرتبك فيه لا يدري أين يتوجه. وفي قراءة أبي: وإنا وإياكم إما على هدى أو في ضلال مبين.

﴿قُلْ لَا تَسْأَلُونَ عَمَّا أَجْرَمْنَا وَلَا نَسْأَلُ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ (٢٥) قُلْ يَجْمَعُ بَيْنَنَا رَبُّنَا ثُمَّ يَفْتَحُ بَيْنَنَا بِالْحَقِّ وَهُوَ الْفَتَّاحُ الْعَلِيمُ ﴿٢٦﴾

هذا أدخل في الإنصاف وأبلغ فيه من الأول، حيث أسند الإجرام إلى المخاطبين والعمل إلى المخاطبين، وإن أراد بالإجرام: الصغائر والزلات التي لا يخلو منها مؤمن، وبالعَمَل: الكفر والمعاصي العظام^(٢) ١١٢/٢. وفتح الله بينهم: وهو حكمه وفصله: أنه يدخل هؤلاء الجنة وأولئك النار.

﴿قُلْ أَرُونِي الَّذِينَ أَلْحَقْتُمْ بِهِ شُرَكَاءَ ۖ كَلَّا بَلْ هُوَ اللَّهُ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ (٢٧)

فإن قلت: ما معنى قوله: ﴿أَرُونِي﴾ وكان يراهم ويعرفهم؟ قلت: أراد بذلك أن يريهم الخطأ العظيم في إلحاق الشركاء بالله، وأن يقايس على أعينهم بينه وبين أصنامهم ليطلعهم على إحالة القياس إليه والإشراك به. و﴿كَلَّا﴾ ردع لهم عن مذهبهم بعدما كسده بإبطال المقايسة، كما قال إبراهيم عليه الصلاة والسلام ﴿أَفِ لَكَؤُلُومًا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾ [الأنبياء: ٦٧] بعد ما حجهم، وقد نبه على تفاحش غلطهم وإن لم يقدروا الله حق قدره بقوله: ﴿هُوَ اللَّهُ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ كأنه قال: أين الذين ألحقتم به شركاء من هذه الصفات وهو راجع إلى الله وحده. أو ضمير الشأن، كما في قوله تعالى: ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾ [الإخلاص: ١].

﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَافَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ (٢٨)

(١) تقدم.

(٢) قال محمود: «وهذا القول أدخل في الإنصاف من الأول، حيث أسند الإجرام إلى النفس وأراد به الزلات والصغائر التي لا يخلو عنها مؤمن، وأسند العمل إلى المخاطبين وأراد به الكفر والمعاصي والكبائر» قال أحمد: فغير عن الهفوات بما يعبر به عن العظام. وعن العظام بما يعبر به عن الهفوات، التزاماً للإنصاف، وزيادة على ذلك أنه ذكر الإجرام المنسوب إلى النفس بصيغة الماضي الذي يعطي تحقيق المعنى، وعن العمل المنسوب إلى الخصم بما لا يعطي ذلك. والله أعلم.

﴿إِلَّا كَافَّةً لِلنَّاسِ﴾ إلا إرساله عامة لهم محيطه بهم؛ لأنها إذا شملتهم فقد كفتهم أن يخرج منها أحد منهم. وقال الزجاج: المعنى أرسلناك جامعاً للناس في الإنذار والإبلاغ، فجعله حالاً من الكاف وحق التاء على هذا أن تكون للمبالغة كثناء الراوية والعلامة، ومن جعله حالاً من المجرور متقدماً عليه فقد أخطأ؛ لأنَّ تقدم حال المجرور عليه في الإحالة بمنزلة تقدم المجرور على الجار، وكـ تـرى ممن يرتكب هذا الخطأ ثم لا يقع به حتى يضم إليه أن يجعل اللام بمعنى إلى؛ لأنه لا يستوي له الخطأ الأول إلا بالخطأ الثاني، فلا بد له من ارتكاب الخطأين^(١).

﴿وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْوَعْدُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ (٢٩) قُلْ لَكُمْ مِيعَادُ يَوْمٍ لَا تَسْتَشِيرُونَ
عَنْهُ سَاعَةً وَلَا تَسْتَقْدِرُونَ (٣٠)

قريء ميعاد يوم، وميعاد يوم، وميعاد يومًا، والميعاد: ظرف الوعد من مكان أو زمان، وهو ههنا الزمان. والدليل عليه قراءة من قرأ: ميعاد يوم فأبدل منه اليوم. إن قلت: فما تأويل من أضافه إلى يوم، أو نصب يومًا؟ قلت: أما الإضافة فإضافة تبيين، كما تقول: سحق ثوب، وبغير سانية. وأما نصب اليوم فعلى التعظيم بإضمار فعل تقديره: لكم ميعاد،

(١) قال السمين الحلبي: قال الشيخ: وأما قوله كذا فهو مختلف فيه ذهب الجمهور إلى أنه لا يجوز وذهب أبو علي وابن كيسان وابن برهان وابن ملكون إلى جوازه قال: وهو الصحيح. قال: ومن أمثلة أبي علي: زيد خيرٌ ما تكونُ خيرٌ منك التقدير زيد خيرٌ منك خيرٌ ما تكون فجعل خير ما تكون حالا من الكاف في منك وقدمها عليها وأنشد [من الطويل]:

إِذَا الْمَرْءُ أَغْيَشَهُ الْمَرْوَةُ نَاشِئًا فَمَطْلَبُهَا كَهْلًا عَلَيْهِ شَدِيدُ
أَي فَمَطْلَبُهَا عَلَيْهِ كَهْلًا. وأنشد أيضاً [من الطويل]:

تَسَلَّبْتُ طُرّاً عَنْكُمْ بَعْدَ بَيْنِكُمْ بِذِكْرَاكُمْ حَتَّى كَأَنَّكُمْ عِنْدِي
أَي عَنْكُمْ طُرّاً. وقد جاء تقديم الحال على صاحبها المجرور وعلى ما يتعلق به قال الشاعر:

مَشْغُوفَةٌ بِكَ قَدْ شَغِفْتُ وَإِنَّمَا حَمُّ الْفِرَاقِ فَمَا إِلَيْكَ سَبِيلُ
أَي قَدْ شَغِفْتُ بِكَ مَشْغُوفَةٌ. وقال الآخر [من الخفيف]:

عَافِلًا تَغْرِضُ الْمَنِيَّةُ لِلْمَرْءِ ۚ فَيُذْعَى وَلَا تَ جِبْنَ إِيَاءِ

أي تعرض المنيّة للمرء غافلاً. قال: وإذا جاز تقديمها على صاحبها وعلى العامل فيه فتقديمها على صاحبها وحده أجوز. قال: وممن حمله على الحال ابن عطية فإنه قال: قُدِّمَتْ للاهتمام والمنقول عن ابن عباس قوله إلى العرب وسائر الأمم وتقديره إلى الناس كافة. قال وقول الزمخشري لا يستوي له الخطأ الأول إلى آخره تشنيع لأنَّ القائل بذلك لا يحتاج إلى جعل اللام بمعنى إلى لأنَّ أَرْسَلَ يتعدى باللام قال تعالى: ﴿وَأَرْسَلْنَاكَ لِلنَّاسِ رَسُولًا﴾ وَأَرْسَلَ مما يتعدى باللام وبإلى أيضاً فقد جاءت اللام بمعنى إلى وإلى بمعناها. قُلْتُ: أمّا «أَرْسَلْنَاكَ لِلنَّاسِ» فلا دلالة فيه لاحتمال أن تكون اللام لام العلة المجازية وأما كونها بمعنى إلى والعكس فالبصريون لا يَتَجَوَّزُونَ في الحروف و«بشيراً ونذيراً» حالان أيضاً. انتهى. الدر المصون.

أعني يوماً أو أريد يوماً من صفته كيت وكيت. ويجوز أن يكون الرفع على هذا، أعني التعظيم. فإن قلت: كيف انطبق هذا جواباً على سؤالهم؟ قلت: ما سألوا عن ذلك وهم منكرون له إلا تعتأ، لا استرشاداً، فجاء الجواب على طريق التهديد مطابقاً لمجيء السؤال على سبيل الإنكار والتعنت، وأنهم مرصدون ليوم يفاؤهم، فلا يستطيعون تأخراً عنه ولا تقدماً عليه.

﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَنْ نُؤْمِنَ بِهَذَا الْقُرْآنِ وَلَا بِالَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَلَوْ تَرَىٰ إِذِ الظَّالِمُونَ مَوْقُوفُونَ عِنْدَ رَبِّهِمْ يَرْجِعُ بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ الْقَوْلَ يَقُولُ الَّذِينَ الَّذِينَ اسْتَضَعُّوا لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا لَوْلَا أَنْتُمْ لَكُنَّا مُؤْمِنِينَ ﴿٣١﴾﴾

الذي بين يديه: ما نزل قبل القرآن من كتب الله: يروى أن كفار مكة سألوا أهل الكتاب فأخبروهم أنهم يجدون صفة رسول الله - ﷺ - في كتبهم، فأغضبهم ذلك وقرنوا إلى القرآن جميع ما تقدمه من كتب الله عز وجل في الكفر، فكفروا بها جميعاً. وقيل: الذي بين يديه يوم القيامة. والمعنى: أنهم جحدوا أن يكون القرآن من الله تعالى، وأن يكون لما دل عليه من الإعادة للجزاء حقيقة، ثم أخبر عن عاقبة أمرهم ومآلهم في الآخرة فقال لرسوله عليه الصلاة والسلام أو للمخاطب ﴿لَوْ تَرَىٰ﴾ في الآخرة موقفهم وهم يتجاذبون أطراف المحادثة ويتراجعونها بينهم، لرأيت العجيب^(١)، فحذف الجواب. والمستضعفون: هم الأتباع، والمستكبرون: هم الرؤوس والمقدمون.

﴿قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا لِلَّذِينَ اسْتَضَعُّوا أَنْحُ صَدَدْنَكُمْ عَنِ الْهُدَىٰ بَعْدَ إِذْ جَاءَكُمْ بَلْ كُنْتُمْ تَجْرِمِينَ ﴿٣٢﴾﴾ وَقَالَ الَّذِينَ اسْتَضَعُّوا لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا بَلْ مَكْرُ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ إِذْ تَأْمُرُونَ أَرْكَانَكُمْ أَنْ تَكْفُرَ بِاللَّهِ وَتَجْعَلَ لَهُ أَندَادًا وَأَسَرُّوا النَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُا الْعَذَابَ وَجَعَلْنَا الْأَغْصَانِ فِي أَعْنَاقِ الَّذِينَ كَفَرُوا هَلْ يُجْرُونَ إِلَّا مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٣٣﴾﴾

أولى الاسم أعني ﴿أَنْحُ﴾ حرف الإنكار؛ لأن الغرض إنكار أن يكونوا هم الصادين لهم عن الإيمان، وإثبات أنهم هم الذين صدوا بأنفسهم عنه، وأنهم أتوا من قبل اختيارهم، كأنهم قالوا: نحن أجبرناكم وحلنا بينكم وبين كونكم ممكنين مختارين ﴿بَعْدَ إِذْ جَاءَكُمْ﴾ بعد أن صمتم على الدخول في الإيمان وصحت نياتكم في اختياره؟ بل أنتم منعتم أنفسكم حظها وآثرتم الضلال على الهدى وأطعتم أمر الشهوة دون أمر النهي، فكنتم

(١) قوله «لرأيت العجيب» لعله: العجب، كعبارة النفسي. (ع)

مجرمين كافرين لا اختياركم لا لقولنا وتسويلنا. فإن قلت: إذ وإذا من الظروف اللازمة للظرفية، فلم وقعت إذ مضافاً إليها؟ قلت: قد اتسع في الزمان ما لم يتسع في غيره، فأضيف إليها الزمان، كما أضيف إلى الجمل في قولك: جئتكَ بعد إذ جاء زيد، وحيثُذ، ويومئذ، وكان ذلك أوان الحجاج أمير، وحين خرج زيد. لما أنكر المستكبرون بقولهم: ﴿أَتَحْنُ صَدَدْتُمْ﴾ ١١٢/٢ ب أن يكونوا هم السبب في كفر المستضعين وأثبتوا بقولهم: ﴿بَلْ كُتِبَ تُجْرِمِينَ﴾ أن ذلك بكسبهم واختيارهم. كرّ عليهم المستضعفون بقولهم: ﴿يَا مَكْرُ أَلِيلٍ وَالنَّهَارِ﴾ فأبطلوا إضرابهم بإضرابهم، كأنهم قالوا: ما كان الإجماع من جهتنا، بل من جهة مكركم لنا دائماً ليلاً ونهاراً، وحملكم إيانا على الشرك واتخاذ الأنداد. ومعنى مكر الليل والنهار: مكركم في الليل والنهار، فاتسع في الظرف بإجرائه مجرى المفعول به وإضافة المكر إليه. أو جعل ليلهم ونهارهم ماكرين على الإسناد المجازي. وقرئ: بل مكر الليل والنهار بالتنوين ونصب الظرفين. وبل مكر الليل والنهار بالرفع والنصب، أي تكزون الإغواء مكرّاً دائماً لا تفترون عنه. فإن قلت: ما وجه الرفع والنصب؟ قلت: هو مبتدأ أو خبر، على معنى: بل سبب ذلك مكركم أو مكرّكم، أو مكركم أو مكرّكم سبب ذلك. والنصب على: بل تكزون الإغواء مكرّاً الليل والنهار؛ فإن قلت: لم قيل: ﴿قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا﴾، بغير عاطف؛ وقيل: ﴿وَالَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا﴾؟ قلت: لأن الذين استضعفوا مرّ أولاً كلامهم، فجاء بالجواب محذوف العاطف على طريقة الاستئناف، ثم جيء بكلام آخر للمستضعفين، فعطف على كلامهم الأول فإن قلت: من صاحب الضمير في ﴿وَأَسْرُوا﴾ قلت: الجنس المشتمل على النوعين من المستكبرين والمستضعفين، وهم الظالمون في قوله: ﴿إِنَّ الظَّالِمُونَ مَوْفُوقُونَ عَذَابٍ﴾ [سبا: ٣١] يندم المستكبرون على ضلالهم وإضلالهم، والمستضعفون على ضلالهم واتباعهم المضلين ﴿وَيُؤْتِيهِمُ الْغُلَاظُ الْغُلَاظُ﴾ أي في أعناقهم، فجاء بالصريح للتنويه بدمهم، وللدلالة على ما استحقوا به الأغلال. وعن قتادة: أسروا الكلام بذلك بينهم. وقيل: أسروا الندامة أظهروها، وهو من الأضداد.

﴿وَمَا أَرْسَلْنَا فِي قَرْيَةٍ مِّنْ نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَا إِنَّا بِمَا أُرْسِنْتُمْ بِهِ كَافِرُونَ﴾ (٢٤) وَقَالُوا نَحْنُ أَكْثَرُ أَمْوَالًا وَأَوْلَدًا وَمَا نَحْنُ بِمُعَذِّبِينَ﴾ (٢٥)

هذه تسلية لرسول الله ﷺ - مما مني^(١) به من قومه من التكذيب والكفر بما جاء به، والمنافسة بكثرة الأموال والأولاد، والمفاخرة^(٢) وزخارفها، والتكبر بذلك على المؤمنين،

(١) قوله «مما مني به من قومه» أي ابتلي به. (ع)

(٢) قوله «والمفاخرة وزخارفها» لعله «والمفاخرة بالدنيا وزخارفها». (ع)

والاستهانة بهم من أجله، وقولهم: ﴿أَيُّ الْفَرِيقَيْنِ سَيُفْلِحُ مَقَامًا وَاحْسِنُ لِلَّذِينَ﴾ [مريم: ٧٣] وأنه لم يرسل قط إلى أهل قرية من نذير إلا قالوا له مثل ما قال لرسول الله - ﷺ - أهل مكة وكادوه بنحو ما كادوه به، وقاسوا أمر الآخرة الموهومة أو المفروضة عندهم على أمر الدنيا، واعتقدوا أنهم لو لم يكرموا على الله لما رزقهم، ولولا أن المؤمنين هانوا عليه لما حرمهم؛ فعلى قياسهم ذلك قالوا: ﴿وَمَا نَحْنُ بِمُعَذِّبِينَ﴾ أرادوا أنهم أكرم على الله من أن يعذبهم، نظراً إلى أحوالهم في الدنيا.

﴿قُلْ إِنَّ رَبِّي يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ وَيَقْدِرُ وَلَئِكَ أَكْثَرُ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ (٢٦)

وقد أبطل الله تعالى حسابهم بأن الرزق فضل من الله يقسمه كما يشاء على حسب ما يراه من المصالح، فربما وسع على العاصي وضيق على المطيع، وربما عكس، وربما وسع عليهما وضيق عليهما، فلا ينقاس عليه أمر الثواب الذي مبناه على الاستحقاق. وقدر الرزق: تضييقه. قال تعالى: ﴿وَمَن قَدَّرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُ﴾ [الطلاق: ٧] وقرئ يقدر، بالتشديد والتخفيف.

﴿وَمَا أَمْوَالُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُمْ بِالَّتِي تُقَرَّبُكُمْ عَلَيْنَا إِلَّا مَن مِّنْهُم مَّنْ وَضَعَفَ صَالِحًا فَلَا نُجِزِيهِ إِلَّا جَزَاءَ الضَّعِيفِ بِمَا سَعَىٰ لَهُمْ فِي تَعَرُّفِهِمْ، وَأُولَٰئِكَ يُسْعَوْنَ فِي رَبِّهِمْ يُعْجِزُونَ أُولَٰئِكَ فِي أَعْيُنِنَا﴾ (٢٧)

﴿وَالَّذِينَ يَتَّبِعُونَكَ يَتَّبِعُونَكَ﴾ (٢٨)

أراد: وما جماعة أموالكم ولا جماعة أولادكم بالتي تقربكم، وذلك أن الجمع المكسر عقلاؤه وغير عقلائه سواء في حكم التأنيث، ويجوز أن يكون التي هي التقوى وهي المقربة عند الله زلفى وحدها، أي: ليست أموالكم بتلك الموضوععة للتقريب. وقرأ الحسن: باللاتي تقربكم؛ لأنها جماعات. وقرئ: بالذي يقربكم، أي: بالشيء الذي يقربكم. والزلفى والزلفة: كالكربي والكربة، ومحلها النصب، أي: تقربكم قربة، كقوله تعالى: ﴿أَلَيْسَ لَكُم مِّنَ الْأَرْضِ لِبَاقَةٌ﴾، ﴿إِلَّا مَن عَمَرَ﴾ استثناء من (كم) في (تقربكم)، والمعنى: أن الأموال لا تقرب أحداً إلا المؤمن الصالح الذي ينفقها في سبيل الله، والأولاد لا تقرب أحداً إلا من علمهم الخير وفقهم في الدين ورشحهم للصلاة والطاعة، جزاء ﴿الضَّعِيفِ﴾ من إضافة المصدر إلى المفعول، أصله: فأولئك لهم أن يجازوا الضعف، ثم جزاء الضعف، ثم جزاء الضعف، ومعنى جزاء الضعف: أن تضاعف لهم حسناتهم، الواحدة عشراً. وقرئ: جزاء الضعف. على: فأولئك لهم الضعف جزاء وجزاء الضعف على: أن يجازوا الضعف، وجزاء الضعف مرفوعان: الضعف بدل من جزاء. قرئ: ﴿فِي الْغُرُفَاتِ﴾ بضم الراء وفتحها وسكونها. وفي الغرفة.

﴿قُلْ إِنْ رَزَقَ / ٢ / ١١٣ أَيْسَرُ الرِّزْقِ لِمَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ لَهُ وَمَا أَنْفَقْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُ وَهُوَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ﴾ (٣٩)

﴿فَهُوَ يُخْلِفُهُ﴾ فهو يعوضه لا معوض سواه: إما عاجلاً بالمال، أو بالقناعة التي هي كنز لا ينفذ. وإما آجلاً بالشواب الذي كل خلف دونه. وعن مجاهد: من كان عنده من هذا المال ما يقيمه فليقتصد، فإن الرزق مقسوم، ولعل ما قسم له قليل وهو ينفق نفقة الموسع عليه، فينفق جميع ما في يده ثم يبقى طول عمره في فقر، ولا يتأولن: وما أنفقتُم من شيء فهو يخلفه، فإن هذا في الآخرة. ومعنى الآية: وما كان من خلف فهو منه ﴿خَيْرُ الرَّازِقِينَ﴾ وأعلام رب العزة، بأن كل ما رزق غيره: من سلطان يرزق جنده، أو سيد يرزق عبده، أو رجل يرزق عياله: فهو من رزق الله، أجراه على أيدي هؤلاء. وهو خالق الرزق وخالق الأسباب التي بها ينتفع المرزوق بالرزق. وعن بعضهم: الحمد لله الذي أوجدني^(١) وجعلني ممن يشتهي؛ فكم من مشته لا يجد، وواجد لا يشتهي.

﴿وَيَوْمَ يُحْشَرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ يَقُولُ لِلْمَلَائِكَةِ أَهَؤُلَاءِ إِيَّاكُمْ كَانُوا يَعْبُدُونَ﴾ (٤١) ﴿قَالُوا سُبْحَانَكَ أَنْتَ وَلَيْسَ مِنْ دُونِهِمْ بَلْ كَانُوا يَعْبُدُونَ الْجِنَّ أَكْثَرُهُمْ بِهِمْ مُؤْمِنُونَ﴾ (٤١)

هذا الكلام خطاب للملائكة وتقريع للكفار؛ وارد على المثل السائر [من الرجز]:
إِيَّاكَ أَغْنِي وَأَسْمِعِي يَا جَارَةَ^(٢)

(١) قوله «الحمد لله الذي أوجدني» في الصحاح: وجد مطلوبه وأوجده الله مطلوبه، أي أظفره به وأوجده أي: أغناه. (ع)

(٢) يا أخت خير البدو والحضارة كيف ترين في فتى فزاره؟
أصبح يهوى حرة معطاره إياك أعني واسمعي يا جاره
سهل بن مالك الفزاري، يخاطب أخت حارثة بن لأم، وكان قد سألها على أخيها فلم يجده فأنزلته وأكرمه، فرأها في غاية الجمال والكمال، فأنشد ذلك، فأجابه بقولها:

إنني أقول: يا فتى فزاره لا أبتغي الزوج ولا الدعاره
ولا فراق أهل هذى الحاره فارحل إلى أهلك باستحاره
فارتحل، ثم نزل عند أخيها مرة أخرى، وكان حسن الطلعة، فأرسلت إليه خفية أن يخطبها، ففعل، وتزوجها وارتحل بها. والبدو: هو البادية. والحضارة: هي الحضارة. والمراد أهلها، وكيف: اسم استفهام نصب على المفعولية بترين. والمعنى: أي حال ترين في فتى هذه القبيلة؟ يعني نفسه. وفيه تعريض بخطبتها. والمعطارة: كثيرة التعطر. ولحاق تاء التأنيث لمفعول شاذ - إن كانت للفرق بين المذكر والمؤنث كما هنا - ويمكن أنها لزيادة المبالغة، لا للتأنيث. والدعارة: الفسق والخبث والفساد. وهذي: اسم إشارة. وقولها: باستحاره: أي بكمال وعدم نقص. أو بتحير وعدم اهتداء. يقال: استحار الإناث، إذا امتلا وتكامل. واستحار الرجل: إذا نحر في رأيه.

ونحوه قوله تعالى: ﴿أَنْتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُنِي إِلَهُتَيْنِ مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾ [المائدة: ١١٦] وقد علم سبحانه كون الملائكة وعيسى منزهين برآء مما وجه عليهم من السؤال الوارد على طريق التقرير، والغرض أن يقول ويقولوا، ويسأل ويجيبوا؛ فيكون تقريرهم أشدّ. وتعبيرهم أبلغ، وخجلهم أعظم: وهو أنه ألزم، ويكون اقتصاص ذلك لطفاً لمن سمعه، وزاجراً لمن اقتص عليه. والموالة: خلاف المعادة. ومنها: اللهم وال من والاه، وعاد من عاداه، وهي مفاعلة من الولي وهو القرب، كما أن المعادة من العدواء وهي البعد، والولي: يقع على الموالي والموالي جميعاً. والمعنى أنت الذي نواليه من دونهم، إذ لا موالة بيننا وبينهم، فبينوا بإثبات موالة الله ومعادة الكفار: براءتهم من الرضا بعبادتهم لهم؛ لأن من كان على هذه الصفة كانت حاله منافية لذلك ﴿بَلْ كَانُوا يَعْبُدُونَ الْجِنَّ﴾ يريدون الشياطين، حيث أطاعوهم في عبادة غير الله. وقيل: صوّرت لهم الشياطين صور قوم من الجن وقالوا: هذه صور الملائكة فاعبدوها. وقيل: كانوا يدخلون في أجواف الأصنام إذا عبدت، فيعبدون بعبادتها. وقرئ: نحشرهم. ونقول، بالنون والياء.

﴿فَالْيَوْمَ لَا يَمْلِكُ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ نَفَعًا وَلَا ضَرًّا وَنَقُولُ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا ذُوقُوا عَذَابَ النَّارِ الَّتِي كُنْتُمْ بِهَا تَكْذِبُونَ﴾ (٤٢)

الأمر في ذلك اليوم لله وحده، لا يملك فيه أحد منفعة ولا مضرة لأحد؛ لأن الدار دار ثواب وعقاب، والمثيب والمعاقب هو الله، فكانت حالها خلاف حال الدنيا التي هي دار تكليف، والناس فيها مخلى بينهم، يتضارون ويتنافعون. والمراد: أنه لا ضار ولا نافع يومئذ إلا هو وحده، ثم ذكر معاقبته الظالمين بقوله: ﴿وَنَقُولُ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا﴾ معطوفاً على ﴿يَمْلِكُ﴾.

﴿وَإِذَا نُنَادِيهِمْ أَيْنَنَا بَيِّنَاتُ مَا هَذَا إِلَّا رَجُلٌ يُرِيدُ أَنْ يَصُدَّكُمْ عَمَّا كَانُوا يَعْبُدُونَ أَبَاؤَكُمْ وَقَالُوا مَا هَذَا إِلَّا إِنْكَارُ مَا كَفَرُوا لِيُحَقِّقَ لِمَا جَاءَهُمْ مِنْ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُبِينٌ﴾ (٤٣)

الإشارة الأولى: إلى النبي ﷺ. والثانية إلى القرآن. والثالثة: إلى الحق، والحق أمر

= ينظر: مجمع الأمثال ٤٩/١، وبلا نسبة في لسان العرب (عطر)، (عنا)، وتاج العروس (عطر)، والبيت الثاني من أمثال العرب، وهو في تمثال الأمثال ٣٦٦/١، وجمهرة الأمثال ٢٩/١، والحيوان ١٢٢/٣، وزهر الأكم ١٤٠/١، ٣٣٣، والعقد الفريد ٨٦/٣، ٣٣٥/٦، والفاخر ص ١٥٨، وفصل المقال ص ٧٦، ٧٧، وكتاب الأمثال ص ٦٥، والمستقصى ٤٥٠/١، والوسيط في الأمثال ص ٥٢، وتهذيب اللغة ٢١٢/٣.

النبوة كله ودين الإسلام كما هو. وفي قوله: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ وفي أن لم يقل وقالوا، وفي قوله: ﴿لِلْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ﴾ وما في اللامين من الإشارة إلى القائلين والمقول فيه، وفي لما من المبادهة بالكفر: دليل على صدور الكلام عن إنكار عظيم وغضب شديد، وتعجيب من أمرهم بليغ، كأنه قال: وقال أولئك الكفرة المتمردون بجراءتهم على الله ومكابرتهم لمثل ذلك الحق النير قبل أن يذوقوه ﴿إِنَّ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ﴾ فبتوا القضاء على أنه سحر، ثم بتوه على أنه بين ظاهر كل عاقل تأمله سماه سحراً.

﴿وَمَا آتَيْنَاهُمْ مِنْ كُتُبٍ يَدْرُسُونَهَا وَمَا أَرْسَلْنَا إِلَيْهِمْ قَبْلَكَ مِنْ نَذِيرٍ﴾ (٤٤) ﴿وَكَذَبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَمَا نُلْعَوُا مَعَ شَارٍ مَا آتَيْنَاهُمْ فَكَذَّبُوا رُسُلِي فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ﴾ (٤٥)

وما آتيناهم كتباً يدرسونها فيها برهان على صحة الشرك، ولا أرسلنا إليهم نذيراً ينذرهم بالعقاب إن لم يشركوا، كما قال عز وجل: ﴿أَمْ أَنْزَلْنَا عَلَيْهِمْ سُلْطَانًا فَهُوَ يَتَكَلَّمُ بِمَا كَانُوا بِهِ يُشْرِكُونَ﴾ [الروم: ٣٥] أو وصفهم بأنهم قوم أميون أهل جاهلية لا ملة لهم وليس لهم عهد بإنزال كتاب ولا بعثة رسول كما قال: ﴿أَمْ آتَيْنَاهُمْ كِتَابًا مِنْ قَبْلِهِ فَهُمْ بِهِ مُسْتَسْكِنُونَ﴾ [الزخرف: ٢١] فليس لتكذيبهم وجه متشبث، ولا شبهة متعلق، كما يقول أهل الكتاب وإن كانوا مبطلين: نحن أهل كتب وشرائع، ومستندون إلى رسل من رسل الله. ثم توعدهم على تكذيبهم بقوله: ﴿وَكَذَبَ الَّذِينَ﴾ تقدموهم من الأمم والقرون الخالية كما كذبوا، وما بلغ هؤلاء بعض ما آتينا أولئك من طول الأعمار/٢/١١٣ ب وقوة الأجرام وكثرة الأموال، فحين كذبوا رسلهم جاءهم إنكارى بالتدمير والاستئصال، ولم يغن عنهم استظهارهم بما هم به مستظهرون، فما بال هؤلاء؟ وقرئ: يدرسونها، من التدريس وهو تكرير الدرس. أو من درس الكتاب، ودرس الكتب: ويدرسونها، بتشديد الدال: يفتعلون من الدرس. والمعشار كالمرباع، وهما: العشر، والربع. فإن قلت: ما معنى ﴿فَكَذَّبُوا رُسُلِي﴾ وهو مستغنى عنه بقوله: ﴿وَكَذَبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ﴾؟ قلت: لما كان معنى قوله: ﴿وَكَذَبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ﴾: وفعل الذين من قبلهم التكذيب، وأقدموا عليه: جعل تكذيب الرسل مسبباً عنه ونظيره أن يقول القائل: أقدم فلان على الكفر فكفر بمحمد ﷺ، ويجوز أن يعطف على قوله: وما بلغوا، كقولك: ما بلغ زيد معشار فضل عمرو فتفضل عليه ﴿كَفَيْكَ كَانَ نَكِيرِ﴾^(١) أي للمكذبين الأولين، فليحذروا من مثله.

﴿قُلْ إِنَّمَا أَعْطِيَكُمْ بِوَاحِدَةٍ أَنْ تَقُومُوا لِلَّهِ مِثْلَ خِزْفَةٍ ثُمَّ تَلْفَكُونَهَا مَا يَصَاحِبِكُمْ مِنْ خِزْفَةٍ إِنَّ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ لَكُمْ بَيْنَ يَدَيْ عَذَابٍ شَدِيدٍ﴾ (٤٦)

(١) قوله «كفيك كان نكير» وفي النسفي: أن يعقوب قرأ «نكير» بالياء في الوصل والوقف. (ع)

﴿بِوَحْدَةٍ﴾ بخصلة واحدة، وقد فسرهما بقوله: ﴿أَنْ تَقُومُوا﴾ على أنه عطف بيان لها^(١)، وأراد بقيامهم: إما القيام عن مجلس رسول الله - ﷺ - وتفرقهم عن مجتمعهم عنده وإما القيام الذي لا يراد به المثل على القدمين، ولكن الانتصاب في الأمر والنهوض فيه بالهمة والمعنى: إنما أعظكم بوحدة إن فعلتموها أصبتم الحق وتخلصتم: وهي: أن تقوموا لوجه الله خالصاً. متفرقين اثنين اثنين، وواحدًا واحدًا ﴿ثُمَّ تَتَفَكَّرُوا﴾ في أمر محمد ﷺ وما جاء به، أما الاثنان: فيتفكران ويعرض كل واحد منهما محصول فكره على صاحبه وينظران فيه متصادقين متناصفين، لا يميل بهما اتباع هوى ولا ينبض لهما عرق عصبية، حتى يهجم بهما الفكر الصالح والنظر الصحيح على جادة الحق وسنته، وكذلك الفرد: يفكر في نفسه بعدل ونصفه من غير أن يكابرها ويعرض فكره على عقله وذنه وما استقرّ عنده من عادات العقلاء ومجاري أحوالهم، والذي أوجب تفرقهم مثني وفردى: أن الاجتماع مما يشوش الخواطر، ويعمي البصائر، ويمنع من الروية، ويخلط القول: ومع ذلك يقل الإنصاف، ويكثر الاعتساف، ويثور عجاج التعصب. ولا يسمع إلا نصرة المذهب، وأراهم بقوله: ﴿مَا يَصَاحِبُكُمْ مِنْ جِنَّةٍ﴾ أن هذا الأمر العظيم الذي تحته ملك الدنيا والآخرة جميعاً، لا يتصدى لادعاء مثله إلا رجلان: إما مجنون لا يبالي بافتضاحه إذا طولب بالبرهان فعجز، بل لا يدري ما الافتضاح وما رقبة العواقب. وإما عاقل راجع العقل مرشح للنبوة، مختار من أهل الدنيا، لا يدعيه إلا بعد صحته عنده بحجته وبرهانه، وإلا فما يجدي على العاقل دعوى شيء لا بينة له عليه، وقد علمتم أن محمداً ﷺ ما به من جنة، بل علمتموه أرجح قريش عقلاً، وأرزنهم حلماً وأثقبهم ذهنًا وأصلهم رأياً، وأصدقهم قولاً، وأنزههم نفساً، وأجمعهم لما يحمد عليه الرجال ويمدحون به؛ فكان مظنة لأن تظنوا به الخير، وترجحوا فيه جانب الصدق على الكذب؛ وإذا فعلتم ذلك كفاكم أن تطالبوه بأن يأتيكم بآية؛ فإذا أتى بها تبين أنه نذير مبين. فإن قلت: ﴿مَا يَصَاحِبُكُمْ﴾ بم يتعلق؟ قلت: يجوز أن يكون كلاماً مستأنفاً تنبيهاً من الله عز وجل على طريقة النظر في أمر رسول الله - ﷺ -. ويجوز أن يكون المعنى: ثم تفكروا فتعلموا ما بصاحبكم من جنة، وقد جَوَزَ بعضهم أن تكون ما استفهامية ﴿بَيْنَ يَدَيَّ عَذَابٍ شَدِيدٍ﴾ كقوله عليه الصلاة والسلام: «بعثت في نسمة الساعة» (١٢٢٩)^(٢).

١٢٢٩ - تقدم في سورة الأنبياء.

(١) قال السمين الحلبي: وهو مردود لتحالفهما تعريفاً وتكرياً. انتهى الدر المصون.

(٢) قوله «بعثت في نسمة الساعة» في الصحاح «نسم الريح»: أولها حين تقبل بلين قبل أن تشتد. ومنه =

﴿قُلْ مَا سَأَلْتُكُمْ مِنْ أَجْرٍ فَهُوَ لَكُمْ إِنَّ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى اللَّهِ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾ (٤٧)

﴿فَهُوَ لَكُمْ﴾ جزء الشرط الذي هو قوله: ﴿مَا سَأَلْتُكُمْ مِنْ أَجْرٍ﴾ تقديره: أي شيء سألتكم من أجر فهو لكم، كقوله تعالى: ﴿مَا يَفْتَحُ اللَّهُ لِلنَّاسِ مِنْ رَحْمَةٍ﴾ وفيه معنيان، أحدهما: نفي مسألة الأجر رأساً، كما يقول الرجل لصاحبه: إن أعطيتني شيئاً فخذ، وهو يعلم أنه لم يعطه شيئاً ولكنه يريد به البت؛ لتعليقه الأخذ بما لم يكن. والثاني: أن يريد بالأجر ما أراد في قوله تعالى: ﴿قُلْ مَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِلَّا مَنْ شَاءَ أَنْ يَتَّخِذَ إِلَٰهًا مِثْلَ سَيِّلِهِ﴾ (٥٧) [الفرقان: ٥٧] وفي قوله: ﴿قُلْ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَى﴾ [الشورى: ٢٣] لأن اتخاذ السبيل إلى الله نصيبهم وما فيه نفعهم، وكذلك المودة في القرابة، لأن القرابة قد انتظمت وإياهم ﴿عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾ حفيظ مهيم، يعلم أني لا أطلب الأجر على نصيحتكم ودعائكم إليه إلا منه، ولا أطمع منكم في شيء.

﴿قُلْ إِنْ رَجَىٰ يَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَٰمُ الْغُيُوبِ﴾ (٤٨)

القذف والرمي: تزجية^(١) السهم ونحوه بدفع واعتماد، ويستعاران من حقيقتهما لمعنى الإلقاء ومنه قوله تعالى: ﴿وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ﴾، ﴿إِنِّي أَفْذِيهِ فِي النَّابُوتِ﴾ ومعنى ﴿يَقْذِفُ بِالْحَقِّ﴾ يلقيه وينزله إلى أنبيائه. أو يرمي به الباطل فيدمغه ويزهقه ﴿عَلَمُ الْغُيُوبِ﴾ رفع محمول على محل إن واسمها، أو على المستكن ١١٤/٢ في يقذف، أو هو خبر مبتدأ محذوف. وقرئ بالنصب صفة لربي، أو على المدح. وقرئ: الغيوب بالحركات الثلاث، فالغيوب كالبیوت. والغيوب كالصبور وهو الأمر الذي غاب وخفي جداً.

﴿قُلْ جَاءَ الْخَلْقُ وَمَا يَبْدِئُ الْبَاطِلُ وَمَا يُعِيدُ﴾ (٤٩)

والحيي إما أن يبدىء فعلاً أو يعيده فإذا هلك لم يبق له إبداء ولا إعادة، فجعلوا قولهم: لا يبدىء ولا يعيد مثلاً في الهلاك؛ ومنه قول عبيد [من مخلع البسيط]:
أَقْفَرُ مِنْ أَهْلِهِ عَبِيدُ فَالْيَوْمَ لَا يُبْدِي وَلَا يُعِيدُ^(٢)

= وقال ابن حجر: تقدم في الأنبياء. انتهى.

= الحديث «بعثت في نسمة الساعة» أي: حين ابتدأت وأقبلت أوائلها. والنسم أيضاً: جمع نسمة وهي النفس. (ع)

(١) قوله «القذف والرمي تزجية السهم» في الصحاح: زجيت الشيء تزجية إذا دفعته برفق. (ع)

(٢) لعبيد بن الأبرص. وأقفر: خلا أو هلك عبيد من أهله. والإبداء والإعادة من لوازمهما الحياة،

فنفيهما كناية عن نفيا بالموت. كان المنذر بن ماء السماء يخرج في يوم من كل سنة فينعم على كل =

والمعنى: جاء الحق وهلك الباطل، كقوله تعالى: ﴿جَاءَ الْحَقُّ وَزَهَقَ الْبَاطِلُ﴾ وعن ابن مسعود - رضي الله عنه -: دخل النبي ﷺ مكة وحول الكعبة ثلاثمائة وستون صنماً، فجعل يطعنها بعود نبعة^(١) ويقول: (جاء الحق وزهق الباطل إن الباطل كان زهوقاً)، ﴿فَدَجَاءَ الْحَقُّ وَمَا يُبْدِيُ الْبَاطِلُ وَمَا يُعِيدُ﴾ (١٢٣٠). والحق: القرآن. وقيل: الإسلام. وقيل: السيف. وقيل الباطل: إبليس لعنه الله، أي: ما ينشئ خلقاً ولا يعيده، المنشئ والباعث: هو الله تعالى. وعن الحسن: لا يبدى لأهله خيراً ولا يعيده، أي: لا ينفعهم في الدنيا والآخرة. وقال الزجاج: أي شيء ينشئ إبليس ويعيده، فجعله للاستفهام. وقيل للشيطان: الباطل؛ لأنه صاحب الباطل؛ أو لأنه هالك كما قيل له: الشيطان، من شاط إذا هلك.

﴿قُلْ إِنْ ضَلَلْتُ فَإِنَّمَا أَضِلُّ عَلَى نَفْسِي وَإِنْ اهْتَدَيْتُ، نِعْمَ يُوْحَىٰ إِلَىٰ رَبِّي إِنَّهُ سَمِيعٌ قَرِيبٌ﴾

قري: ضللت أضل، بفتح العين مع كسرهما. وضللت أضل، بكسرهما مع فتحهما، وهما لغتان، نحو: ظلت أضل، وظللت أضل. وقري أضل: بكسر الهمزة مع فتح العين. فإن قلت: أين التقابل بين قوله: ﴿فَإِنَّمَا أَضِلُّ عَلَى نَفْسِي﴾ وقوله: ﴿فِيمَا يُوحَىٰ إِلَىٰ رَبِّي﴾، وإنما كان يستقيم أن يقال: فإنما أضل على نفسي، وإن اهتديت فإنما اهتدي لها، كقوله تعالى: ﴿مَنْ عَمِلْ صَالِحًا فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ أَسَاءَ فَعَلَيْهَا﴾ فمن اهتدى فلنفسه ومن ضل فإنما يضل عليها. أو يقال: فإنما أضل بنفسي. قلت: هما متقابلان من جهة المعنى؛ لأن النفس كل ما عليها فهو بها، أعني: أن كل ما هو وبال عليها وضار لها فهو بها وبسببها: لأن الأمانة بالسوء، وما لها مما ينفعها فبهداية ربها وتوفيقه، وهذا حكم عام لكل مكلف، وإنما أمر رسوله ﷺ أن يسنده إلى نفسه؛ لأن الرسول إذا دخل تحته مع جلالة حملة وسداد طريقته

١٢٣٠ - قال الحافظ ابن حجر: متفق عليه وقد تقدم في سورة الإسراء. انتهى.

= من يلقاه، وفي آخر فيقتل أول من يلقاه، فصادفه فيه عبيد، فقيل له: امدحه بشعر لعله يغفو عنك، فقال: حال الجريض دون القريض، أي منعت الغصة الشعر، فضرب ذلك مثلاً وقال هذا البيت بعد ذلك تحسراً، وفي مجاني الأدب: أن المنذر قال له: أنشدني: أقفر من أهله ملحوب، فقال: أقفر من أهله عبيد. وملحوب: اسم موضع، استنشدته بيتاً قديماً فعلم أنه يريد هلاكه، فقال: لا قدرة لي على إبداء شعر جديد، ولا على إعادة شعر قديم، ودخل في حشو البيت الزحاف الطي، ومن العلل القطع. فصار مستغلن على وزن مستعل بسكون اللام، وذلك في قوله «أهله».

ينظر ديوانه (ص ٤٥)، لسان العرب (قفر)، تهذيب اللغة (٩/ ١٢٠)، تاج العروس (قفر)، أساس البلاغة (عود)، الدر المصون (٥/ ٤٥٣).

(١) قوله «فجعل يطعنه بعود نبعة» لعله «معه» كعبارة النسفي. (ع)

كان غيره أولى به ﴿إِنَّهُ سَمِيعٌ قَرِيبٌ﴾ يدرك قول كل ضالٍّ ومهتدٍ، وفعله لا يخفى عليه منهما شيء.

﴿وَلَوْ تَرَىٰ إِذْ فِرْعَوْنُ فَلَا فُتُورَ وَأُخِذُوا مِنْ مَّكَانٍ قَرِيبٍ﴾ (٥١)

﴿وَلَوْ تَرَىٰ﴾ جوابه محذوف، يعني: لرأيت أمراً عظيماً وحالاً هائلة. و«لو» و«إذ» والأفعال التي هي «فزعوا» و«أخذوا» وحيل بينهم: كلها للمضي. والمراد بها الاستقبال؛ لأن ما الله فاعله في المستقبل بمنزلة ما قد كان ووجد لتحقيقه، ووقت الفزع: وقت البعث وقيام الساعة. وقيل: وقت الموت. وقيل: يوم بدر. وعن ابن عباس - رضي الله عنهما -: نزلت في خسف البيداء، وذلك أنَّ ثمانين ألفاً يغزون الكعبة ليخربوها، فإذا دخلوا البيداء خسف بهم ﴿فَلَا فُتُورَ﴾ فلا يفوتون الله ولا يسبقونه. وقرئ: فلا فون. والأخذ من مكان قريب: من الموقف إلى النار إذا بعثوا، أو من ظهر الأرض إلى بطنها إذا ماتوا. أو من صحراء بدر إلى القليب. أو من تحت أقدامهم إذا خسف بهم. فإن قلت: علام عطف قوله: ﴿وَأُخِذُوا﴾؟ قلت: فيه وجهان: العطف على فزعوا، أي: فزعوا وأخذوا فلا فوت لهم. أو على لافوت، على معنى: إذ فزعوا فلم يفوتوا وأخذوا. وقرئ: وأخذ، وهو معطوف على محل لافوت. ومعناه: فلا فوت هناك. وهناك أخذ.

﴿وَقَالُوا ءَأَمَّنَّا بِهِ ءَأَنَّىٰ لَهُمُ التَّنَافُسُ مِنْ مَّكَانٍ بَعِيدٍ﴾ (٥٢) وَقَدْ كَفَرُوا بِهِ مِنْ قَبْلُ وَيَقْدِرُونَ بِالْغَيْبِ مِنْ مَّكَانٍ بَعِيدٍ ﴿٥٣﴾ وَحِيلَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ مَا يَشْتَهُونَ كَمَا فُعِلَ بِأَشْيَاعِهِمْ مِنْ قَبْلُ إِنَّهُمْ كَانُوا فِي شَكٍّ مُرِيبٍ﴾ (٥٤)

﴿ءَأَمَّنَّا بِهِ﴾ بمحمد ﷺ لمرور ذكره في قوله: ﴿مَا يَصْحِكُكُمْ مِنْ حِجَّةٍ﴾: والتنافس والتناول: أخوان؛ إلا أنَّ التناوش تناول سهل لشيء قريب، يقال ناشه ينوشه، وتناوشه القوم. ويقال: تناوشوا في الحرب: ناش بعضهم بعضاً. وهذا تمثيل لطلبهم ما لا يكون، وهو أن ينفعهم إيمانهم في ذلك الوقت، كما ينفع المؤمنين إيمانهم في الدنيا: مثلت حالهم بحال من يريد أن يتناول الشيء من غلوة^(١) كما يتناوله الآخر من قيس ذراع تناولاً سهلاً لا تعب فيه وقرئ التناوش: همزت الواو المضمومة كما همزت في أجوه وأدور وعن أبي عمرو التناوش بالهمز التناول من بعد من قولهم: ناشت إذا أبطأت وتأخرت، ومنه البيت [من الطويل]:

(١) قوله «أن يتناول الشيء من غلوة» في الصحاح: غلوت بالسهم غلواً. إذا رميت به أبعد ما تقدر عليه. والغلوة: الغاية مقدار رمية. وفيه: يقال بينهما قبس رمح وقاس رمح، أي: قدر رمح. (ع)

أي أخيراً ﴿وَيَقْدِفُونَ﴾ معطوف على قد كفروا، على حكاية الحال الماضية، يعني: وكانوا يتكلمون ﴿بِالْغَيْبِ﴾ ويأتون به ﴿مِنْ مَّكَانٍ بَعِيدٍ﴾ وهو قولهم في رسول الله - ﷺ - شاعر، ساحر، كذاب، وهذا تكلم بالغيب والأمر الخفي، لأنهم لم يشاهدوا منه سحراً ولا شعراً/ ١٤/ ٢ ب ولا كذباً، وقد أتوا بهذا الغيب من جهة بعيدة من حاله، لأن أبعد شيء مما جاء به: الشعر والسحر، وأبعد شيء من عادته التي عرفت بينهم وجربت: الكذب والزور: وقرئ: ويقذفون بالغيب، على البناء للمفعول، أي: يأتيتهم به شياطينهم ويلقنونهم إياه، وإن شئت فعلقه بقوله ﴿وَقَالُوا آمَنَّا بِهِ﴾ على أنه مثلهم في طلبهم تحصيل ما عطلوه من الإيمان في الدنيا بقولهم آمنا في الآخرة، وذلك مطلب مستبعد بمن يقذف شيئاً من مكان بعيد لا مجال للظن في لحوقه، حيث يريد أن يقع فيه لكونه غائباً عنه شاحطاً، والغيب: الشيء الغائب، ويجوز أن يكون الضمير للعذاب الشديد في قوله: ﴿يَنْزِلُ بِدَىٰ عَذَابٍ شَدِيدٍ﴾ وكانوا يقولون: وما نحن بمعذبين، إن كان الأمر كما تصفون من قيام الساعة والعقاب والثواب، ونحن أكرم على الله من أن يعذبنا، قايسين أمر الآخرة على أمر الدنيا: فهذا كان قذفهم بالغيب، وهو غيب ومقذوف به من جهة بعيدة؛ لأن دار الجزاء لا تنقاس على دار التكليف ﴿مَا يَشْتَرُونَ﴾ من نفع الإيمان يومئذٍ والنجاة به من النار والفوز

- (١) ومولى عصاني واستبد برأيه
فلما رأى ما غب أمرى وأمره
كما لم يطع فيما أشار قصير
وناءت بأعجاز الأمور صدور
وتمنى نيشاً أن يكون أطاعني
وقد حدثت بعد الأمور أمور

لنهشل بن حرى، واستبد: انفرد واستغنى بأمره. وقصير: علم رجل كان حسن الرأي، وهو فاعل أشار. ومفعول «يطع» محذوف لدلالة المذكور عليه. أو لأن الفعل منزل منزلة اللازم، والأوجه رواية لم يطع مبنياً للمجهول. وقصير: نائب الفاعل، وضميره فاعل أشار، وبالعكس على الخلاف في باب التنازع. وغب الأمر: بلغ غبه بالكسر عاقبته. وناء - بالمد -: أصله نأى، فقلب: أي بعد، وشبه الأمر بشيء له صدر وعجز على طريق المكنية وإثباتهما له تخييل، كأن أوائل الأمور مضت بأواخرها، فلما مضت الأوائل ظهرت الأواخر بعد خفائها. ويقال: نأش بالهمز إذا تأخر. ونيشاً: نصب على الظرف، أي أخيراً، أي: تمنى في آخر الأمر أن يكون أطاعني في نصيحتي لما رأى عاقبة أمرى حسنة وعاقبة أمره سيئة، والحال أنه قد حدثت بعد الأمور السهلة أمور صعبة كانت خفية أوجبت تمنيه، فهي حال مبينة للمراد من الظرف. أو حدثت بعد الأمور السهلة التي كان يمكنه معها مطاوعتي أمور صعبة تمنعه من التخلص من ريكته، كما نصحته بذلك أولاً فلم يسمع ومضى على رأيه.

ينظر: ديوانه ص ٩٥، ولسان العرب (نأش)، والتنبيه والإيضاح ٣٢٥/ ٢، وتاج العروس (نأش)، وبلا نسبة في مقاييس اللغة ٣٧٧/ ٥، وتهذيب اللغة ٤١٧/ ١١، ومجمل اللغة ٣٦٧/ ٤، وأساس اللغة (نأش).

بالجنة. أو من الردّ إلى الدنيا، كما حكى عنهم ﴿فَارْجِعْنَا نَعْمَلْ صَالِحًا﴾. ﴿بِأَشْيَاعِهِمْ﴾
بأشباههم من كفره الأمم ومن كان مذهبه مذهبهم ﴿مُرِيبٍ﴾ إما من أرابه، إذا أوقعه في
الريبة والتهمة. أو من أراب الرجل، إذا صار ذا ريبة ودخل فيها، وكلاهما مجاز؛ إلا أنّ
بينهما فريقاً: وهو أنّ المرّيب من الأول منقول ممن يصح أن يكون مرّيباً من الأعيان إلى
المعنى، والمرّيب من الثاني منقول من صاحب الشك إلى الشك، كما تقول: شعر شاعر.
عن رسول الله - ﷺ -: «من قرأ سورة سبأ لم يبق رسول ولا نبيّ إلا كان له يوم
القيامة رفيقاً ومصافحاً» (١٢٣١).

١٢٣١ - تقدم حديث أبي بن كعب في فضائل القرآن برقم (٣٤٦).
وقال الحافظ ابن حجر في «تخريج الكشاف»: أخرجه الثعلبي وابن مردويه والواحدي بأسانيدهم
عن أبي بن كعب. انتهى.

سورة الملائكة

مكية، وهي خمس وأربعون آية

[نزلت بعد الفرقان]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ فَاطِرِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ جَاعِلِ الْمَلَائِكَةِ رُسُلًا أُولَى أَجْنَحَةٍ مَّتَنَّى وَتِلْكَ وَرُبْعٌ يَزِيدُ فِي الْخَلْقِ مَا يَشَاءُ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾

﴿فَاطِرِ السَّمَوَاتِ﴾ مبتدئها ومبتدعها. وعن مجاهد عن ابن عباس - رضي الله عنهما -: ما كنت أدري ما فاطر السموات والأرض، حتى اختصم إليّ أعرابيان في بشر فقال أحدهما: أنا فطرتهما (١٢٣٢)، أي ابتدأتها، وقرئ: الذي فطر السموات والأرض وجعل الملائكة. وقرئ: جاعل الملائكة، بالرفع على المدح ﴿رُسُلًا﴾ بضم السين وسكونها ﴿أُولَى أَجْنَحَةٍ﴾ أصحاب أجنحة، وأولو: اسم جمع لذو، كما أن أولاء اسم جمع لذا، ونظيرهما في المتمكنة: المخاض والخلفة ﴿مَّتَنَّى وَتِلْكَ وَرُبْعٌ﴾ صفات الأجنحة، وإنما لم تنصرف لتكرر العدل فيها. ذلك أنها عدلت عن ألفاظ الأعداد عن صيغ إلى صيغ آخر، كما عدل عمر عن عامر. وحذام عن حاذمة، وعن تكرير إلى غير تكرير. وأما الوصفية فلا يفترق الحال فيما بين المعدولة والمعدول عنها. ألا تراك تقول: مرتت بنسوة أربع، وبرجال ثلاثة، فلا يعرج عليها، والمعنى: أن الملائكة^(١) خلقاً أجنحتهم اثنان اثنان، أي: لكل واحد منهم جناحان، ونلقاً أجنحتهم ثلاثة ثلاثة، وخلقاً أجنحتهم أربعة أربعة ﴿يَزِيدُ فِي الْخَلْقِ مَا يَشَاءُ﴾ أي: يزيد في خلق الأجنحة، وفي غيره ما تقتضيه مشيئته وحكمته. والأصل الجناحان؛ لأنهما بمنزلة اليدين، ثم الثالث والرابع زيادة على الأصل، وذلك أقوى للطيران وأعون عليه. فإن قلت: قياس الشفع من الأجنحة أن يكون في كل شق نصفه، فما صورة الثلاثة؟ قلت: لعل الثالث يكون في وسط الظهر بين الجناحين يمدّهما بقوة. أو لعله لغير الطيران؛ فقد مرّ بي في بعض الكتب أن صنفاً من الملائكة لهم ستة أجنحة

١٢٣٢ - قال الحافظ تقدم في سورة الأنعام. انتهى.

(١) قوله «أن الملائكة خلقاً» لعله: متنوعه خلقاً... إلخ. (ع)

فجناحان يلفون بها أجسادهم، وجناحان يطيرون بهما في الأمر من أمور الله، وجناحان مرخيان على وجوههم حياء من الله. وعن رسول الله - ﷺ -: «أنه رأى جبريل عليه السلام ليلة المعراج وله ستمائة جناح» (١٢٣٣)، وروي أنه سأل جبريل عليه السلام أن يترأى له في صورته فقال: إنك لن تطيق ذلك. قال: «إني أحب أن تفعل فخرج رسول الله - ﷺ - في ليلة مقمرة، فأتاه جبريل في صورته فغشي على النبي ﷺ، ثم أفاق وجبريل عليه السلام مسنده وإحدى يديه على صدره والأخرى بين كتفيه، فقال: سبحان الله! ما كنت أرى أن شيئاً من الخلق هكذا، فقال جبريل: فكيف لو رأيت إسرافيل: له اثنا عشر جناحاً: جناح منها بالشرق، وجناح بالمغرب، وإن العرش على كاهله، وإنه ليتضاءل الأحايين لعظمة الله حتى يعود مثل الوصع»^(١) (١٢٣٤) وهو العصفور الصغير. وروي/٢/ ١١٥ عن رسول الله - ﷺ - في قوله تعالى: ﴿يَزِيدُ فِي الْخَلْقِ مَا يَشَاءُ﴾: «هو الوجه الحسن، والصوت الحسن، والشعر الحسن» (١٢٣٥). وقيل: «الخط الحسن»، وعن قتادة: الملاحاة في العينين (١٢٣٦). والآية مطلقة تتناول كل زيادة في الخلق: من طول قامه، واعتدال صورة، وتمام في الأعضاء؛ وقوة في البطش؛ وحصافة في العقل^(٢)، وجزالة في الرأي، وجراءة في القلب، وسماحة في النفس، وذلاقة^(٣) في اللسان ولباقة في التكلم^(٤)؛ وحسن تأن في مزاوله الأمور؛ وما أشبه ذلك مما لا يحيط به الوصف.

١٢٣٣ - تقدم برقم (٥٧٧).

قال الحافظ: متفق عليه من حديث ابن مسعود: «أن النبي - ﷺ - رأى جبريل في صورته له ستمائة جناح» ولفظ ابن حبان: رأيت جبريل عند سدة المنتهى وله ستمائة جناح ينتشر في ريشه الدر والياقوت». انتهى.

١٢٣٤ - عزاه الزيلعي في تخريج أحاديث الكشاف (١٤٦/٣) لابن المبارك في كتاب الزهد من طريق ابن شهاب، وللثعلبي في تفسيره من جهة ابن المبارك.

قال الحافظ: أخرجه ابن المبارك في الزهد والثعلبي من طريقه أخبرنا الليث عن عقيل عن الزهري بهذا وزاد «والوصع عصفور صغير حتى ما يحمل عرشه إلا عظمت» الوصع بفتح الصاد المهملة بعدها مهملة أيضاً. انتهى.

١٢٣٥ - عزاه السيوطي في الدر المنثور (٤٥٩/٥) لابن المنذر عن ابن عباس في قوله تعالى: ﴿يَزِيدُ فِي الْخَلْقِ مَا يَشَاءُ﴾ قال: حسن الصوت ولعبد بن حميد وابن أبي حاتم من طريق الزهري.

١٢٣٦ - عزاه السيوطي في الدر المنثور (٤٥٩/٥) للبيهقي في السنن عن قتادة.

(١) قوله مثل الوصع وهو العصفور في الصحاح: الوصع: طائر أصغر من العصفور. (ع)

(٢) قوله «وحصافة» أي: إحكام. أفاده الصحاح. (ع)

(٣) قوله «وذلاقة» أي: حدة وطلاقة، أفاده الصحاح. (ع)

(٤) قوله «ولباقة في التكلم» أي حذق، أفاده الصحاح. (ع)

﴿مَا يَفْتَحِ اللَّهُ لِلنَّاسِ مِنْ رَحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا وَمَا يُمْسِكُ فَلَا مُرْسِلَ لَهُ مِنْ بَعْدِهِ وَهُوَ الْعَزِيزُ

الْحَكِيمُ﴾

استعير الفتح للإطلاق والإرسال. ألا ترى إلى قوله: ﴿فَلَا مُرْسِلَ لَهُ مِنْ بَعْدِهِ﴾ مكان: لا فاتح له، يعني: أي شيء يطلق الله من رحمة أي من نعمة رزق أو مطر أو صحة أو أمن أو غير ذلك من صنوف نعمائه التي لا يحاط بعددها. وتنكيره الرحمة للإشاعة والإبهام، كأنه قال: من أية رحمة كانت سماوية أو أرضية^(١)، فلا أحد يقدر على إمساكها وحبسها، وأي شيء يمسك الله فلا أحد يقدر على إطلاقه. فإن قلت: لم أنت الضمير أولاً، ثم ذكر آخر؟ وهو راجع في الحالين إلى الاسم المتضمن معنى الشرط؟ قلت: هما لغتان: الحمل على المعنى وعلى اللفظ، والمتكلم على الخيرة فيهما، فأنت على معنى الرحمة، وذكر على أن لفظ المرجوع إليه لا تأنيث فيه، ولأن الأول فسر بالرحمة، فحسن اتباع الضمير التفسير، ولم يفسر الثاني فترك على أصل التذكير وقرئ فلا مرسل لها. فإن قلت: لا بد للثاني من تفسير، فما تفسيره؟ قلت: يحتمل أن يكون تفسيره مثل تفسير الأول. ولكنه ترك لدلالته عليه، وأن يكون مطلقاً في كل ما يمسكه من غضبه ورحمته، وإنما فسر الأول دون الثاني للدلالة على أن رحمته سبقت غضبه. فإن قلت: فما تقول فيمن فسر الرحمة بالتوبة وعزاه إلى ابن عباس - رضي الله عنهما -؟ قلت: إن أراد بالتوبة الهداية لها والتوفيق فيها - وهو الذي أراده ابن عباس - رضي الله عنهما - إن قاله - فمقبول؛ وإن أراد أنه إن شاء أن يتوب العاصي تاب، وإن لم يشأ لم يتب؛ فمردود؛ لأن الله تعالى يشاء التوبة أبداً^(٢)، ولا يجوز عليه أن لا يشاءها ﴿مِنْ بَعْدِهِ﴾ من بعد إمساكه، كقوله تعالى: ﴿فَن يَبْدِيهِ مِنْ بَعْدِ اللَّهِ﴾ [الجاثية: ٢٣]، ﴿فَأَيَّ حَدِيثٍ بَعْدَ اللَّهِ﴾ [الجاثية: ٦] أي من بعد هدايته وبعد آياته ﴿وَهُوَ الْعَزِيزُ﴾ الغالب القادر على الإرسال والإمساك ﴿الْحَكِيمُ﴾ الذي يرسل ويمسك ما تقتضي الحكمة إرساله وإمساكه.

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ أَذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ هَلْ مِنْ خَلْقٍ غَيْرِ اللَّهِ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَأَنْتُمْ تُؤْفَكُونَ﴾

- (١) قال السمين الحلبي: قال الشيخ: والعموم مفهوم من اسم الشرط و«من رحمة» بيان لذلك العام من أي صنف هو وهو مما اجتزى فيه بالنكرة المفردة عن الجمع المعروف المطابق في العموم لاسم الشرط وتقديره من الرحمت ومن في موضع الحال. انتهى. الدر المصون.
- (٢) قوله «يشاء التوبة أبداً» هذا وما بعده على مذهب المعتزلة، من أنه تعالى يجب عليه الصلاح للعبد. وعند أهل السنة: لا يجب عليه شيء. فالكلام على ظاهره، ورده مردود. (ع)

ليس المراد بذكر النعمة ذكرها باللسان فقط، ولكن به وبالقلب، وحفظها من الكفران والغمط^(١) وشكرها بمعرفة حقها والاعتراف بها وطاعة موليا. ومنه قول الرجل لمن أنعم عليه: اذكر أياديّ عندك. يريد حفظها وشكرها والعمل على موجبها. والخطاب عام للجميع لأن جميعهم مغمورون في نعمة الله. وعن ابن عباس - رضي الله عنهما -: يريد: يا أهل مكة اذكروا نعمة الله عليكم، حيث أسكنكم حرمه ومنعكم من جميع العالم، والناس يتخطفون من حولكم. وعنه: نعمة الله العافية. وقرئ: غير الله، بالحركات الثلاث؛ فالجَرّ والرفع على الوصف لفظاً ومحلاً، والنصب على الاستثناء. فإن قلت: ما محل ﴿يَرْزُقُكُمْ﴾؟ قلت: يحتمل أن يكون له محل إذا أوقعت صفة لخالق^(٢) وأن لا يكون له محل إذا رفعت محل من خالق، بإضمار يرزقكم، وأوقعت يرزقكم تفسيراً له، أو جعلته كلاماً مبتدأ بعد قوله: ﴿هَلْ مِنْ خَلْقٍ غَيْرُ اللَّهِ﴾. فإن قلت: هل فيه دليل على أن الخالق لا يطلق على غير الله تعالى^(٣)؟ قلت: نعم إن جعلت (يرزقكم) كلاماً مبتدأ وهو الوجه الثالث من الأوجه الثلاثة. وأما على الوجهين الآخرين وهما الوصف والتفسير. فقد تقيّد فيهما بالرزق من السماء والأرض، وخرج من الإطلاق، فكيف يستشهد به على اختصاصه، بالإطلاق؛ والرزق من السماء المطر، ومن الأرض النبات ﴿لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ﴾ جملة مفصلة لا محل لها، مثل: يرزقكم في الوجه الثالث، ولو وصلت كما وصلت

(١) قوله «وحفظها من الكفران والغمط» أي: الاحتقار. أفاده الصحاح. (ع)

(٢) قال محمود: «إن قلت: ما محل يرزقكم؟ قلت: يحتمل أن يكون له محل إذا أوقعت صفة لخالق، وأن لا يكون له محل إذا جعلته تفسيراً وجعلت من خالق مرفوع المحل بفعل يدل عليه هذا، كأنه قيل: هل يرزقكم خالق غير الله، أو جعلت يرزقكم كلاماً مبتدأ» قال أحمد: والوجه المؤخر أوجهها.

(٣) عاد كلامه. قال: فإن قلت: هل فيه دليل على أن الخالق لا يطلق على غير الله تعالى؟ قلت: نعم إن جعلت يرزقكم كلاماً مبتدأ، وهو الوجه الثالث من الأوجه الثلاثة. وأما على الوجهين الآخرين وهما الوصف والتفسير فقد تقيّد فيهما بالرزق من السموات والأرض، وخرج من الإطلاق، فكيف يستشهد به على نفيه مطلقاً؟ قال أحمد: القدريّة إذا قرعت هذه الآية أسماهم قالوا بجرأة على الله تعالى: نعم ثم خالق غير الله؛ لأن كل واحد عندهم يخلق فعل نفسه، فلهاذا رأيت الزمخشري وسع الدائرة، وجلب الوجوه الشاردة النافرة، وجعل الوجهين يطابقان معتقده في إثبات خالق غير الله. ووجهها هو الحق والظاهر، وآخره في الذكر تناسياً له، والذي يحقق الوجه الثالث وأنه هو المراد: أن الآية خوطب بها قوم على أنهم مشركون، إذا سئلوا عن رازقهم من السموات والأرض، قالوا: الله، فقررنا بذلك وقرعوا به، إقامة للحجة عليهم بإقرارهم، ولو كان على غير هذا الوجه قيد، لكان مفهومه إثبات خالق غير الله، لكنه لا يرزق وهؤلاء الكفرة قد تبرأوا عن ذلك، فلا وجه لتقريعهم بما يلائم قولهم هذا ترجيح الوجه الثالث من حيث مقصود سياق الآية. وأما من حيث النظم اللفظي، فلأن الجملتين اللتين هما قوله ﴿يَرْزُقُكُمْ﴾ وقوله: ﴿لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ﴾ سيقنا سياقاً واحداً. والثانية مفصلة اتفاقاً مما تقدم فكذاك ﴿وَرَبِّنَا﴾.

يرزقكم لم يساعد عليه المعنى؛ لأن قولك: هل من خالق آخر سوى الله لا إله إلا ذلك الخالق: غير مستقيم؛ لأن قولك: هل من خالق سوى الله إثبات لله، فلو ذهبت تقول ذلك: كنت مناقضاً بالنفي بعد الإثبات ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ أَنَّ إِلَٰهَكَ إِلَّا إِلَٰهٌ وَاحِدٌ﴾ فمن أي وجه تصرفون عن التوحيد إلى الشرك؟

﴿وَإِنْ يَكْذِبُوا فَقَدْ كَذَّبَتْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ وَإِلَىٰ اللَّهِ تَرْجِعُ الْأُمُورُ ۝١٥﴾

نعى به على قريش سوء تلقيهم لآيات الله، وتكذيبهم بها، وسلى رسوله ﷺ بأن له في الأنبياء قبله أسوة حسنة، ثم جاء بما يشتمل على الوعد والوعيد: من رجوع الأمور إلى حكمه ومجازاة المكذب والمكذب بما يستحقه. وقرئ: ترجع، بضم التاء وفتحها. فإن قلت: ما وجه صحة جزاء الشرط، ومن حق الجزاء أن يتعقب الشرط وهذا سابق له؟ قلت: معناه: وإن يكذبوك فتأس بتكذيب الرسل من قبلك، فوضع ﴿فَقَدْ كَذَّبَتْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ﴾ موضع: فتأس، استغناءً ١٥/٢ ب بالسبب عن المسبب: أعني بالتكذيب عن التأسى. فإن قلت: ما معنى التنكير في رسل؟ قلت: معناه فقد كذبت رسل، أي رسل ذوو عدد كثير. وألو آيات ونذر، وأهل أعمار طوال وأصحاب صبر وعزم، وما أشبه ذلك. وهذا أسلى له، وأحث على المصابرة.

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ فَلَا تَغُرَّكُمْ الْهَيْوَةُ الدُّنْيَا وَلَا يَغُرَّكُمْ بِاللَّهِ الْغُرُورُ ۝١٦﴾
 الشَّيْطَانُ لَكُمْ عَدُوٌّ فَاتَّخِذُوهُ عَدُوًّا إِنَّمَا يَدْعُوا حِزْبَهُ لِيَكُونُوا مِنَ الْمُحْسِنِينَ ۝١٧﴾
 لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ ۝١٨﴾

وعد الله الجزاء بالثواب والعقاب ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ﴾ فلا تخدعنكم ﴿وَلَا يَغُرَّكُمْ بِاللَّهِ الْغُرُورُ﴾ ولا يذهلنكم التمتع بها والتلذذ بمنافعها عن العمل للأخرة وطلب ما عند الله ﴿وَلَا يَغُرَّكُمْ بِاللَّهِ الْغُرُورُ﴾ لا يقولن لكم اعملوا ما شئتم فإن الله غفور يغفر كل كبيرة ويعفو عن كل خطيئة (١) والغرور الشيطان لأن ذلك ديدنه. وقرئ بالضم وهو مصدر غره كاللزوم والنهوك أو جمع غار كقاعد وقعود أخبرنا الله عز وجل أن الشيطان لنا عدو مبين، واقتصر علينا قصته وما فعل

(١) قال محمود: «معناه: ولا يقولن لكم الشيطان: اعملوا ما شئتم فإن الله غفور، يغفر كل كبيرة ويعفو عن كل خطيئة» قال أحمد: هو يعرض بأهل السنة في اعتقادهم جواز مغفرة الكبائر للموحد، وإن لم يكن توبة. وهذا لا يناقض صدق وعده تعالى؛ لأن الله تعالى حيث توعد على الكبائر قرن الوعد بالمشيئة في مثل قوله لهم ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ﴾ فهم إذا صدقوا بوعد الله تعالى، موقنون به على حسب ما ورد.

بأبينا آدم عليه السلام، وكيف انتدب لعداوة جنسنا من قبل وجوده وبعده، ونحن على ذلك نتولاه ونطيعه فيما يريد منا مما فيه هلاكنا، فوعظنا عز وجل بأنه كما علمتم عدوكم الذي لا عدو أعرق في العداوة منه، وأنتم تعاملونه معاملة من لا علم له بحاله ﴿فَاتَّخِذُوهُ عَدُوًّا﴾ في عقائدكم وأفعالكم، ولا يوجدن منكم إلا ما يدل على معاداته ومناصبته في سركم وجهركم. ثم لخص سر أمره وخطأ من اتبعه بأن غرضه الذي يؤمه في دعوة شيعة ومتبعي خطواته: هو أن يوردهم مورد الشقوة والهلاك، وأن يكونوا من أصحاب السعير. ثم كشف الغطاء وقشر اللحاء^(١)، ليقطع الأطماع الفارغة والأمانى الكاذبة، فبنى الأمر كله على الإيمان والعمل وتركهما.

﴿أَفَمَنْ زَيْنَ لَهُ سُوءَ عَمَلِهِ فَرَآهُ حَسَنًا فَإِنَّ اللَّهَ يُضِلُّ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً إِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ بِمَا يَصْنَعُونَ﴾

لما ذكر الفريقين الذين كفروا والذين آمنوا، قال لنبيه: ﴿أَفَمَنْ زَيْنَ لَهُ سُوءَ عَمَلِهِ فَرَآهُ حَسَنًا﴾ يعني: أفمن زين له سوء عمله من هذين الفريقين، كمن لم يزين له، فكأن رسول الله - ﷺ - قال: «لا» فقال: ﴿إِنَّ اللَّهَ يُضِلُّ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً﴾ ومعنى تزيين العمل والإضلال: واحد، وهو أن يكون العاصي على صفة لا تجدي عليه المصالح، حتى يستوجب بذلك خذلان الله تعالى وتخليته وشأنه، فعند ذلك يهيم في الضلال ويطلق أمر النهي، ويعتق طاعة الهوى، حتى يرى القبيح حسناً والحسن قبيحاً، كأنما غلب على عقله وسلب تمييزه؛ ويقعد تحت قول أبي نواس [من مجزوء الرمل]:

إِسْقِنِي حَتَّى تَرَانِي حَسَنًا عِنْدِي الْقَبِيحُ^(٢)

وإذا خذل الله المصممين على الكفر وخلاهم وشأنهم، فإن على الرسول أن لا يهتم بأمرهم ولا يلقي بالاً إلى ذكرهم، ولا يحزن ولا يتحسر عليهم: اقتداء بسنة الله تعالى في خذلانهم وتخليتهم. وذكر الزجاج أن المعنى: أفمن زين له سوء عمله ذهبت نفسك عليهم حسرة، فحذف الجواب لدلالة فلا تذهب نفسك عليه: أو أفمن زين له سوء عمله كمن هداه الله، فحذف لدلالة ﴿إِنَّ اللَّهَ يُضِلُّ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ﴾ عليه. حشرات: مفعول له

(١) قوله «وقشر اللحاء» في الصحاح: اللحاء - ممدود -: قشر الشجر. (ع)

(٢) نحن نخفيها فتأتي طيب ريح فتفوح

اسقني حتى تراني حسناً عندي القبيح

لأبي نواس. ونخفيها، أي: الخمر: فتفوح: أي راثحتها، ثم قال لساقى الخمر: اسقني حتى أسكر، فيحسن عندي القبيح، وحسناً: المفعول الثاني، والقبيح مرفوع به، واستحسانه: كناية عن اشتداد السكر.

يعني: فلا تهلك نفسك للحشرات. وعليهم صلة تذهب، كما تقول: هلك عليه حبا، ومات عليه حزناً. أو هو بيان للمتحسر عليه. ولا يجوز أن يتعلق بحشرات؛ لأن المصدر لا يتقدم عليه صلتة. ويجوز أن يكون حالاً، كأن كلها صارت حشرات لفرط التحسر؛ كما قال جرير [من الكامل]:

مَشَقَّ الْهَوَاجِرُ لَحْمَهُنَّ مَعَ السَّرَى حَتَّى ذَهَبْنَ كَلَاكِلًا وَصُدُورًا^(١)

يريد: رجعن كلاكلا وصدوراً، أي: لم يبق إلا كلاكلها وصدورها؛ ومنه قوله [من الخفيف]:

فَعَلَى إِنْهَارِهِمْ تَسَاقَطَ نَفْسِي حَسَرَاتٍ وَذَكَرُهُمْ لِي سَقَامٌ^(٢)

وقرئ: فلا تذهب نفسك ﴿إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا يَصْنَعُونَ﴾ وعيد لهم بالعقاب على سوء صنيعهم.

﴿وَاللَّهُ الَّذِي أَرْسَلَ الرِّيحَ فَثِيرُ سَحَابٍ فَسَقَنَهُ إِلَى بَلَدٍ مَتِّبٍ فَأَحْيَيْنَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا كَذَلِكَ اللَّهُ الَّذِي يُنْشِئُ الشُّورَ﴾

وقرئ أرسل الرياح. فإن قلت: لم جاء ﴿فَثِيرُ﴾ على المضارعة دون ما قبله، وما بعده؟ قلت: ليحكى الحال التي تقع فيها إثارة الرياح السحاب، وتستحضر تلك الصور البديعة الدالة على القدرة الربانية، وهكذا يفعلون بفعل فيه نوع تمييز وخصوصية، بحال تستغرب، أو تهتم المخاطب، أو غير ذلك، كما قال تأبط شراً [من الوافر]:

بِأَنِّي قَدْ لَقِيتُ الْغُولَ تَهْوِي بِسَهْبٍ كَالصَّحِيفَةِ صَخَصَحَانٍ فَأَضْرِبُهَا بِلَا دَهْشٍ فَخَرَّتْ صَرِيحاً لِلْيَدَيْنِ وَلِلْجِرَانِ^(٣) ١١٦/٢

(١) لجرير يصف نوقاً بالهزال. يقال: فرس مشوق، أي: طويل مهزول. وجارية مشوقة: رقيقة القوام. والهاجرة: شدة الحر. والسرى - بالضم -: سير الليل. والكلكل والكلكال: الصدر، وعطف الصدور على الكلاكل للتفسير، أي: صرن من شدة الحر والسير كأنهم عظام فقط لا لحم عليهن.

ينظر: ديوانه ص (٢٢٧)، خزانة الأدب (٩٩/٩٨/٤) شرح أبيات سيويه (٢٢٠/١)، الكتاب (١/ ١٦٢)، المقاصد النحوية (١٤٤/٣)، بلا نسبة في لسان العرب (كلل)، البحر المحيط (٣٠١/٧)، الدر المصون (٤٦٠/٥).

(٢) لما أصابه الحزن بعد ذهاب الأحباب وتمكن من نفسه، تخيل أنها تتناثر وتنزل من جسمه حال كونها حشرات متتابعة، وجعل النفس حشرات لامتزاجها بها، فكانها هي، أو تساقط بعدهم لأجل الحشرات والأحزان وهو أوجه. وذكرهم: أي تذكرهم سقام لي، وهو بالفتح مصدر كالسقم. ينظر: البحر المحيط (٣٠١/٧)، الدر المصون (٤٦٠/٥).

(٣) فمن ينكر وجود الغول إنني أخبر عن يقين بل عيان =

لأنه قصد أن يصوّر لقومه الحالة التي تشجع فيها بزعمه على ضرب الغول، كأنه يبصرهم إياها ويطلعهم على كنهها، مشاهدة للتعجب من جرأته على كل هول، وثباته عند كل شدة. وكذلك سوق السحاب إلى البلد الميت، وإحياء الأرض بالمطر بعد موتها: لما كان من الدلائل على القدرة الباهرة قيل: فسقنا، وأحيينا؛ معدولاً بهما عن لفظ الغيبة إلى ما هو أدخل في الاختصاص وأدلّ عليه. والكاف في ﴿كَذَلِكَ﴾ في محلّ الرفع، أي: مثل إحياء الموات نشور الأموات وروي أنه قيل لرسول الله - ﷺ -: كيف يحيي الله الموتي؟ وما آية ذلك في خلقه؟ فقال: «هل مررت بوادي أهلك محلاً ثم مررت به يهز^(١) خضرأ» قال: نعم. قال: «فكذلك يحيي الله الموتي وتلك آيته في خلقه» (١٢٣٧). وقيل

١٢٣٧ - أخرجه أحمد (١١/٤)، والحاكم (٤/٥٦٠)، كتاب الأهوال، باب: أن الله حرم على الأرض أن تأكل أجساد الأنبياء؛ والطبراني في الكبير (٢٠٨/١٩)، رقم (٤٧٠)، وأبو داود الطيالسي (٢/٢٢٥)، كتاب: قيام الساعة والنفخ في الصور والبعث والنشور، باب: ما جاء في قيام الساعة وحشر الناس إلى الموقف حديث (٢٧٩٥)، والواحي في تفسيره (٥٠٢/٣) جميعهم من طريق وكيع بن حوس عن عمه أبي رزين العقيلي، وعزاه الزيلعي في تخريج أحاديث الكشاف (١٤٧/٣) لإسحاق بن راهويه في مسنده، وللثعلبي في تفسيره، وللدارقطني، في المؤلفات والمختلف. قال الحاكم: هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه. قال الحافظ: أخرجه أحمد وإسحاق وابن أبي شيبه، والحاكم، والبيهقي في البعث كلهم من طريق حماد بن سلمة عن يعلى بن عطاء عن وكيع بن عدي عن عمه أبي رزين العقيلي أنه قال: «يا رسول الله، أكلنا يرى ربه يوم القيامة. وما آية ذلك في خلقه؟ فقال النبي - ﷺ -: «أليس كلكم ينظر إلى القمر مختلياً به؟ قالوا: بلى. قال: فالله أعظم. قال: قلت: يا رسول الله، كيف =

بأنني قد لقيت الغول تهوى
فأضربها بلا دهش فخرت
بسهب كالصحيفة صحصحن
صريعاً لليدين وللجيران

لتأبط شرأ. والغول: أنثى الشياطين. والعيان: المشاهدة بالعين. والهوى: الهبوط. والمراد: سرعة العدو. والسهب - بالفتح -: الفضاء المستوي البعيد الأطراف. والصحيفة: الكتاب. والصحصحن والصعصعان - بالفتح -: المستوي من الأرض. والجيران - ككتاب -: مقدم عظم العنق من الحلق إلى اللبة، وجمعه جرنه ككتبة، وأجرنه كأفئدة. يقول: فمن ينكر وجود الغول فقد كذب، فإني أخبر عن يقين، ويجوز أن المعنى: فإني أخبر بوجود الغول، إني أخبر إخباراً ناشئاً عن يقين، وهو ما كان بدليل قاطع بل عيان ومشاهدة بالعين، بأنني قد لقيتها تسرع في مكان متسع مستو، وكرر الوصف بذلك تأكيداً، وأظهر موضع الإضممار لزيادة تمكين الغول في ذهن السامع والتهويل، وكان الظاهر أن يقول: فضربتها، لكن عدل إلى المضارع ليحكي الحال الماضية كأنها موجودة الآن مشاهدة فيتعجب منها، وتعلم شجاعته، أي: فجعلت أضربها بلا خوف فسقطت مطروحة على يديها وعنقها. وفعل: يوصف به المذكر والمؤنث كما هنا.

ينظر: لسان العرب (جرن)، البحر المحيط (٣٠٢/٧)، الدر المنصور (٤٦٠/٥).

قوله «ثم مررت به يهز خضرأ» في الخازن: «يهتز». (ع)

(١)

يحيي الله الخلق بماء يرسله من تحت العرش كمضي الرجال، تنبت منه أجساد الخلق.

﴿مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْعِزَّةَ فَلِلَّهِ الْعِزَّةُ جَمِيعًا إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ وَالَّذِينَ يَمْكُرُونَ السَّيِّئَاتِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَكْرُ أُولَئِكَ هُوَ يَبُورُ﴾ (١٥)

كان الكافرون يتعززون بالأصنام، كما قال عز وجل: ﴿وَاتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ آلِهَةً لِيَكُونُوا لَهُمْ عِزًّا﴾ (مريم: ٨١) والذين آمنوا بالسنتهم من غير مواطاة قلوبهم: كانوا يتعززون بالمشركين، كما قال تعالى: ﴿الَّذِينَ يَتَّخِذُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ أَلِيبْتَغُوا عَنْهُمْ الْعِزَّةَ فَإِنَّ الْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا﴾ (النساء: ١٣٩) فبين أن لا عزة إلا لله ولأوليائه. وقال: ﴿وَالِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ﴾ (المنافقون: ٨) والمعنى فليطلبها عند الله، فوضع قوله: ﴿فَلِلَّهِ الْعِزَّةُ جَمِيعًا﴾ موضعه، استغناء به عنه لدلالته عليه؛ لأن الشيء لا يطلب إلا عند صاحبه ومالكه. ونظيره قولك: من أراد النصيحة فهي عند الأبرار، تريد: فليطلبها عندهم؛ إلا أنك أقمت ما يدل عليه مقامه. ومعنى ﴿فَلِلَّهِ الْعِزَّةُ جَمِيعًا﴾ أن العزة كلها مختصة بالله: عزة الدنيا وعزة الآخرة. ثم عرف أن ما تطلب به العزة هو الإيمان والعمل الصالح بقوله: ﴿إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ﴾ والكلم الطيب: لا إله إلا الله. عن ابن عباس - رضي الله عنهما -: يعني أن هذه الكلم لا يقبل. ولا تصعد إلى السماء فتكتب حيث تكتب الأعمال المقبولة، كما قال عز وجل: ﴿إِنَّ كِتَابَ الْأَنْزَارِ لَفِي عِلِّيَّاتٍ﴾ [المطففين: ١٨] إلا إذا اقترن بها العمل الصالح الذي يحققها ويصدقها فرفعها وأصعدها. وقيل: الرفع الكلم، والمرفوع العمل؛ لأنه لا يقبل عمل إلا من موحد. وقيل: الرفع هو الله تعالى، والمرفوع العمل. وقيل: الكلم الطيب: كل ذكر من تكبير وتسبيح وتهليل وقراءة قرآن ودعاء واستغفار وغير ذلك. وعن النبي ﷺ: «هو قول الرجل سبحان الله والحمد لله ولا إله إلا الله والله أكبر إذا قالها العبد عرج بها الملك إلى السماء فحيا بها وجه الرحمن فإذا لم يكن عمل صالح لم يقبل منه (١٢٣٨). وفي الحديث: «لا يقبل الله قولاً إلا بعمل،

= يحيي الله الموتى. وما آية ذلك في خلقه؟ قال: أما مررت بوادي أهلك ممحلاً؟ قال: بلى. قال: ثم مررت به يهتز خضراً؟ قال: قلت: بلى. قال: فكذلك يحيي الله الموتى. وذلك آية في خلقه» وأوله في سنن أبي داود وابن ماجه «ون مقصود الكتاب. انتهى.

١٢٣٨ - قال الزيلعي في تخريج أحاديث الكشاف (١٤٨/٣): لم أجده هكذا مرفوعاً عن النبي - ﷺ - إلا عند الثعلبي ورواه الحاكم موقوفاً على ابن مسعود (٤٢٥/٢)، كتاب التفسير، باب: «إليه يصعد الكلم الطيب والعمل الصالح يرفعه»، والطبري في تفسيره (٣٩٨/١٠ - ٣٩٩)، رقم (٢٨٩٣٧) كلهم من حديث المخارق بن سليم عن عبد الله بن مسعود.

قال الحاكم: صحيح الإسناد ولم يخرجاه. قال الحافظ: أخرجه الثعلبي وابن مردويه من رواية علي بن عاصم عن سهيل عن أبيه عن أبي هريرة مرفوعاً ورواه الحاكم والبيهقي في الأسماء =

ولا يقبل قولاً ولا عملاً إلا بنية، ولا يقبل قولاً وعملاً ونية إلا بإصابة السنة (١٢٣٩)، وعن ابن المقفع: قول بلا عمل كشريد بلا دسم، وسحاب بلا مطر، وقوس بلا وتر. وقرئ: ﴿إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ﴾ على البناء للمفعول. و﴿إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ﴾ على تسمية الفاعل، من أصدع. والمصعد: هو الرجل أي يصعد إلى الله عز وجل الكلم الطيب، وإليه يصعد الكلام الطيب. وقرئ: ﴿وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ﴾، بنصب العمل والرافع الكلم أو الله عز وجل. فإن قلت: مكر: فعل غير متعد. لا يقال: مكر فلان عمله فبم نصب ﴿السَّيِّئَاتِ﴾؟ قلت: هذه صفة للمصدر، أو لما في حكمه، كقوله تعالى: ﴿وَلَا يَحِيقُ الْمَكْرُ السَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِ﴾ [فاطر: ٤٣] أصله والذين مكروا المكرات السيئات. أو أصناف المكرات السيئات، وعنى بهن مكرات قريش حين اجتمعوا في دار الندوة وتداولوا الرأي في إحدى ثلاث مكرات يمكرونها برسول الله - ﷺ -: إما إثباته، أو قتله، أو إخراجهم كما حكى الله سبحانه عنهم ﴿وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ﴾ [الأنفال: ٣٠]. ﴿وَمَكْرُ أُولَئِكَ هُوَ يُبْزَوُ﴾ يعني: ومكر أولئك الذين مكروا تلك المكرات الثلاث هو خاصة ببور، أي: يكسد ويفسد، دون مكر الله بهم حين أخرجهم من مكة وقتلهم وأثبتهم في قليب بدر، فجمع عليهم مكراتهم جميعاً وحقق فيهم قوله: ﴿وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَكْرِينَ﴾ [الأنفال: ٣٠] وقوله: ولا يحيق المكر السيء إلا بأهله.

= والطبري مرفوعاً عن ابن مسعود - رضي الله عنه - . انتهى.

١٢٣٩ - روي من حديث أنس، ومن حديث أبي هريرة، ومن حديث ابن مسعود فأما حديث أنس: فرواه الخطيب البغدادي في كتاب الجامع لأدب الراوي والسامع (٣١٥/١)، باب: ذكر أخلاق الراوي حديث (٦٨٥).

وعزه الزيلعي في تخريج أحاديث الكشاف (١٤٩/٣) لابن الجوزي في كتاب التحقيق في مسألة نية الوضوء.

وأما حديث أبي هريرة: فأخرجه ابن حبان في الضعفاء (٢٧٦/١).

قال ابن حبان: وزكريا بن يحيى الوقاد قال فيه ابن عدي: كان يضع الحديث، وخالد بن عبد الدائم قال ابن حبان: يروي المناكير ويلزق المتن الواهية بالأسانيد المشهورة. انتهى.

وأما حديث ابن مسعود: فأخرجه ابن حبان في الضعفاء (١٥٠/١)، وأعله بأحمد بن الحسين بن أبان المصري.

قال الحافظ: أخرجه الخطيب في الجامع من رواية بقية بن إسماعيل بن عبد الله عن أبان عن أنس بهذا مرفوعاً، وأبان متروك، وله طريق أخرى عن أبي هريرة مرفوعاً أخرجه ابن عدي وابن حبان، كلاهما في الضعفاء عن خالد بن عبد الدائم عن نافع بن يزيد عن زهرة بن معبد عن سعيد بن المسيب عنه. بلفظ: «قرآن في صلاة خير من قرآن في غير صلاة» - الحديث. وفيه: «ولا قول إلا بعمل إلى آخره». ورواه ابن حبان أيضاً من رواية الزهري عن سعيد بن المسيب عن ابن مسعود. وفيه أحمد بن الحسن المصري. وهو كذاب. انتهى.

﴿وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ جَعَلَكُمْ أَزْوَاجًا وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنْثَى وَلَا تَضَعُ إِلَّا بِعِلْمِهِ وَمَا يُعَمِّرُ مِنْ مُعَمَّرٍ وَلَا يَنْقُصُ مِنْ عُمرِهِ إِلَّا فِي كِتَابٍ إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ﴾ (١١)

﴿أَزْوَاجًا﴾ أصنافاً، أو ذكراً وإناثاً، كقوله تعالى: ﴿أَوْ يُزَوِّجُهُمْ ذُكْرَانًا وَإِنْتِثَاءً﴾ [الشورى: ٥٠] وعن قتادة - رضي الله عنه -: زوج بعضهم بعضاً ﴿بِعِلْمِهِ﴾ في موضع الحال، أي: إلا معلومة له. فإن قلت: ما معنى قوله: ﴿وَمَا يُعَمِّرُ مِنْ مُعَمَّرٍ﴾؟ قلت: معناه (وما يعمر من أحد). وإنما سماه معمرأ بما هو صائر إليه. فإن قلت: الإنسان إما معمر، أي طويل العمر: أو منقوص العمر، أي قصيره. فأما أن يتعاقب عليه التعمير وخلافه فمحال، فكيف صح قوله: ﴿وَمَا يُعَمِّرُ مِنْ مُعَمَّرٍ وَلَا يَنْقُصُ مِنْ عُمرِهِ﴾؟ قلت: هذا من الكلام المتسامح فيه، ثقة في تأويله بأنهم السامعين، واتكالا على تسديدهم معناه بعقولهم/ ١١٦/٢ ب، وأنه لا يلتبس عليهم إحالة الطول والقصر في عمر واحد. وعليه كلام الناس المستفيض. يقولون: لا يثيب الله عبداً ولا يعاقبه إلا بحق. وما تنعمت بلداً ولا اجتويته إلا قل فيه ثوائي^(١). وفيه تأويل آخر: هو أنه لا يطول عمر إنسان ولا يقصر إلا في كتاب، وصورته: أن يكتب في اللوح: إن حج فلان أو غزا فعمره أربعون سنة، وإن حج وغزا فعمره ستون سنة، فإذا جمع بينهما فبلغ الستين فقد عمر. وإذا أفرد أحدهما فلم يتجاوز به الأربعون، فقد نقص من عمره الذي هو الغاية وهو الستون. وإليه أشار رسول الله - ﷺ - في قوله: «إن الصدقة والصلة تعمران الديار وتزيدان في الأعمار» (١٢٤٠). وعن كعب أنه قال حين طعن عمر - رضي الله عنه -: لو أن عمر دعا الله لأخر في أجله، فقليل لكعب: أليس قد قال الله ﴿إِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ فَلَا يَسْتَأْذِنُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِرُونَ﴾ [يونس: ٤٩] قال: فقد قال الله: ﴿وَمَا يُعَمِّرُ مِنْ مُعَمَّرٍ﴾ (١٢٤١). وقد استفاض على الألسنة: أطال الله بقاءك، وفسح في مدتك وما

١٢٤٠ - أخرجه أحمد (١٥٩/٦) من طريق القاسم عن عائشة، والبيهقي في الشعب (٢٦٦/٦)، الباب: السادس والخمسون وهو باب: في صلة الأرحام، رقم (٧٩٦٩)، وعزاه الزيلعي في تخريج أحاديث الكشاف (١٥١/٣) لأبي القاسم الأصبهاني في كتاب الترغيب والترهيب، من طريق أبي سعيد الخدري.

قال الحافظ: أخرجه أحمد من طريق القاسم عن عائشة، لكن قال: «وحسن الخلق» بدل: «الصدقة» ورواه البيهقي في الشعب من هذا الوجه كذلك، وزاد: «وحسن الجوار» وله طريق أخرى عند الأصبهاني عن أبي سعيد بلفظ: «صلة الرحم وحسن الخلق وبر الوالدين» وزاد: «وإن كان القوم فجاراً». انتهى.

١٢٤١ - عزاه الزيلعي في تخريج أحاديث الكشاف (١٥١/٣ - ١٥٢) لإسحاق بن راهويه في مسنده من =

(١) قوله «ولا اجتويته إلا قل فيه ثوائي» أي: كرهت المقام به، كذا في الصحاح. (ع)

أشبهه. وعن سعيد بن جبير - رضي الله عنه -: يكتب في الصحيفة عمره كذا وكذا سنة، ثم يكتب في أسفل ذلك: ذهب يوم، ذهب يومان، حتى يأتي على آخره (١٢٤٢). وعن قتادة - رضي الله عنه -: المعمر من بلغ ستين سنة، والمنقوص من عمره من يموت قبل ستين سنة (١٢٤٣). والكتاب: اللوح. عن ابن عباس - رضي الله عنهما -: ويجوز أن يراد بكتاب الله: علم الله، أو صحيفة الإنسان. وقرئ: ولا ينقص، على تسمية الفاعل من عمره بالتخفيف.

﴿وَمَا يَسْتَوِي الْبَحْرَانِ هَذَا عَذَبٌ فُرَاتٌ سَائِغٌ شَرَابُهُ وَهَذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ وَمَنْ كُلٍّ تَأْكُلُونَ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُونَ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا وَتَرَى الْفَلَكَ فِيهِ مَوَازِيرَ لِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلِعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ (١٧)

ضرب البحرين: العذب والمالح مثلين للمؤمن والكافر، ثم قال على سبيل الاستطراد في صفة البحرين وما علق بهما من نعمته وعطائه ﴿وَمِنْ كُلِّ﴾ أي: ومن كل واحد منهما ﴿تَأْكُلُونَ لَحْمًا طَرِيًّا﴾ وهو السمك ﴿وَتَسْتَخْرِجُونَ حِلْيَةً﴾ وهي اللؤلؤ والمرجان ﴿وَتَرَى الْفَلَكَ فِيهِ﴾ في كل ﴿مَوَازِيرَ﴾ شواق للماء يجريها، يقال: مخرت السفينة الماء. ويقال للسحاب: بنات مخر، لأنها تمخر الهواء والسفن الذي اشتقت منه السفينة قريب من المخر، لأنها تسفن الماء كأنها تقشره كما تمخره ﴿مِنْ فَضْلِهِ﴾ من فضل الله، ولم يجر له ذكر في الآية، ولكن فيما قبلها، ولو لم يجر لم يشكل، لدلالة المعنى عليه. وحرف الرجاء مستعار لمعنى الإرادة، ألا ترى كيف سلك به مسلك لام التعليل، كأنما قيل: لتبتغوا، ولتشكروا. والفرات: الذي يكسر العطش. والسائغ: المريء السهل الانحدار لعدوبته. وقرئ: سيغ، بورن سيد: وسيغ بالتخفيف. وملح: على فعل. والأجاج: الذي يحرق بملوحته. ويحتمل غير طريقة الاستطراد: وهو أن يشبه الجنسيتين بالبحرين، ثم يفضل البحر الأجاج على الكافر؛ بأنه قد شارك العذب في منافع من السمك واللؤلؤ: وجرى الفلك فيه والكافر خلو من النفع، فهو في طريقة قوله تعالى: ﴿ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُمْ مِنْ

= طريق الزهري عن سعيد بن المسيب.

قال الحافظ: أخرجه إسحاق في آخر مسند ابن عباس - رضي الله عنهما -. أخبرنا عبد الرزاق أخبرنا معمر عن الزهري عن سعيد. انتهى.

١٢٤٢ - أخرجه أبي الشيخ الأصبهاني في كتاب العظمة (٩١٨/٣ - ٩١٩) رقم (٤٥٢) - ٢٣. وعزاه السيوطي في الدر المنثور (٤٦٤/٥) لعبد بن حميد ولابن المنذر ولابن أبي حاتم في تفاسيرهم.

١٢٤٣ - ذكره السيوطي في «الدر المنثور» (٤٦٤/٥) وعزاه لابن أبي حاتم عن قتادة.

بَعْدَ ذَلِكَ فِيهِ كَالْجَارِقِ أَوْ أَشَدَّ نَسْوَةً ﴿٧٣﴾ ثُمَّ قَالَ: ﴿وَإِنَّ مِنَ الْجَارِقِ لَمَّا يَلْفَجِرُ مِنْهُ الْأَنْهَارُ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَّا يَنْفَجُّ مِنْهُ الْمَاءُ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَّا يَنْهِي عَنْ حَشْبَةِ اللَّهِ﴾ [البقرة: ٧٤].

﴿يُولِجُ اللَّيْلُ فِي النَّهَارِ وَيُؤَلِّجُ النَّهَارُ فِي اللَّيْلِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُّسَمًّى ذَلِكَ كُمْ اللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ الْمُلْكُ وَالَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ مَا يَمْلِكُونَ

مِنْ قُطْمِيرٍ ﴿٧٣﴾

﴿ذَلِكَ كُمْ﴾ مبتدأ. و﴿اللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ الْمُلْكُ﴾ أخبار مترادفة. أو (الله ربكم) خبران. وله الملك: جملة مبتدأة واقعة في قران قوله: ﴿وَالَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ مَا يَمْلِكُونَ مِنْ قُطْمِيرٍ﴾ ويجوز في حكم الإعراب إيقاع اسم الله صفة لاسم الإشارة. أو عطف بيان. وربكم خبراً. لولا أن المعنى يأباه^(١). والقطمير: لفافة النواة، وهي القشرة الرقيقة الملتفة عليها.

﴿إِنْ تَدْعُوا الْأَوْثَانَ﴾ لا تَسْمَعُوا دُعَاءَكُمْ ﴿٧٤﴾ لَأَنْهُمْ جَمَادٌ ﴿وَلَوْ سَمِعُوا﴾ على سبيل الفرض والتمثيل لـ ﴿مَا اسْتَجَابُوا لَكُمْ﴾ لأنهم لا يدعون ما تدعون لهم من الإلهية، ويتبرؤون منها. وقيل: ما نفعوكم ﴿يَكْفُرُونَ بِشِرْكِكُمْ﴾^(٢) وَلَا يَنْتَهِكَ مِثْلُ خَبِيرٍ ﴿٧٥﴾ ولا يخبرك بالأمر مخبر هو مثل خبير عالم به. ويريد: أن الخبير بالأمر وحده، هو الذي يخبرك بالحقيقة دون سائر المخبرين به. والمعنى: أن هذا الذي أخبرتكم به من حال الأوثان هو الحق، لأنني خبير بما أخبرت به. وقرئ: يدعون، بالياء والتاء^(٣).

﴿يَتَأْتِيَ النَّاسُ أُنْتُمْ الْفُقَرَاءُ إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ﴾^(١٥) إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ ﴿١٦﴾ وَمَا ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ بِعَزِيزٍ ﴿١٧﴾

فإن قلت: لم عرف الفقراء؟ قلت: قصد بذلك أن يريهم أنهم لشدة افتقارهم إليه هم

(١) قال السمين الحلبي: ورده الشيخ: بأن الله علم لا جنس فلا يوصف به ورد قوله: بأن المعنى يأباه قال: لأنه يكون قد أخبر عن المشار إليه، بتلك الصفات والأفعال إنه مالكم ومصلحكم. انتهى. الدر المصون.

(٢) قوله «يكفرون بشرككم» كأن تفسيره قد سقط، وفي النسفي: يكفرون بشرككم: بإشراككم لهم وعبادتهم إياهم، ويقولون: ما كنتم إيانا تعبدون، ولا ينتك... إلخ. (ع)

(٣) أي في الآية (١٣) ﴿... وَالَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ...﴾.

جنس الفقراء، وإن كانت الخلائق كلهم مفتقرين إليه من الناس وغيرهم، لأن الفقر مما يتبع الضعف، وكلما كان الفقير أضعف كان أفقر وقد شهد الله سبحانه على الإنسان بالضعف في قوله: ﴿وَخَلَقَ الْإِنْسَانَ ضَعِيفًا﴾ [النساء: ٢٨] وقال سبحانه وتعالى: ﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ ضَعْفٍ﴾ [الروم: ٥٤] ولو نكر لكان المعنى أنتم بعض الفقراء. فإن قلت: قد قيل الفقراء بالغنى، فما فائدة الحميد؟ قلت: لما أثبت فقرهم إليه وغناه عنهم - وليس كل غني نافعاً بغناه إلا إذا كان الغني/٢/ ١١٧ جواداً منعماً، فإذا جاد وأنعم حمده المنعم عليهم واستحق عليهم الحمد - ذكر الحميد ليدل به على أنه الغني النافع بغناه خلقه، الجواد المنعم عليهم المستحق بإنعامه عليهم أن يحمده. الحميد على ألسنة مؤمنهم ﴿يَعْبُدُونَ﴾ بممتنع، وهذا غضب عليهم لاتخاذهم له أنداداً، وكفرهم بآياته ومعاصيهم، كما قال: ﴿تَتَوَلَّوْا يَسْتَبَدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ﴾ [محمد: ٣٨] وعن ابن عباس - رضي الله عنهما -: يخلق بعدكم من يعبد لا يشرك به شيئاً.

﴿وَلَا تَزِرْ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ وَإِنْ تَدْعُ مُثْقَلَةٌ إِلَىٰ حِمْلٍ لَا يُحْمَلْ بِهِ شَيْءٌ وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ إِنَّمَا تُنذِرُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِالْغَيْبِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَمَنْ تَزَكَّىٰ فَإِنَّمَا يَتَزَكَّىٰ لِنَفْسِهِ ۚ وَإِلَى اللَّهِ الْمَصِيرُ﴾

الوزر والوقر: أخوان؛ ووزر الشيء إذا حمله. والوازية: صفة للنفس، والمعنى: أن كل نفس يوم القيامة لا تحمل إلا وزرها الذي اقترفته: لا تؤخذ نفس بذنب نفس، كما تأخذ جبابرة الدنيا: الولي بالولي، والجار بالجار. فإن قلت: هلا قيل: ولا تزر نفس وزر أخرى؟ ولم قيل وايزة؟ قلت: لأن المعنى أن النفوس الوازرات لا ترى منهن واحدة إلا حاملة وزرها، لا وزر غيرها. فإن قلت: كيف توفق بين هذا وبين قوله: ﴿وَلِيَحْمِلَ أَثْقَالَهُمْ وَأَثْقَالًا مَعَ أَثْقَالِهِمْ﴾ [المنكبات: ١٣]؟ قلت: تلك الآية في الضالين المضلين، وأنهم يحملون أثقال إضلال الناس مع أثقال ضلالهم، وذلك كله أوزارهم ما فيها شيء من وزر غيرهم. ألا ترى كيف كذبهم الله تعالى في قولهم: ﴿اتَّبِعُوا سَبِيلَنَا وَلْنَحْمِلْ خَطَايَكُمْ﴾ [المنكبات: ١٢] بقوله تعالى: ﴿وَمَا هُمْ بِحَامِلِينَ مِنْ خَطَايَهُمْ مِنْ شَيْءٍ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ﴾ [المنكبات: ١٢]. فإن قلت: ما الفرق بين معنى قوله: ﴿وَلَا تَزِرْ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ﴾ وبين معنى ﴿وَلَا تَدْعُ مُثْقَلَةٌ إِلَىٰ حِمْلٍ لَا يُحْمَلْ بِهِ شَيْءٌ﴾؟ قلت: الأول في الدلالة على عدل الله تعالى في حكمه، وأنه تعالى لا يؤاخذ نفساً بغير ذنبها، والثاني في أن لا غياث يومئذ لمن استغاث، حتى أن نفساً قد أثقلها الأوزار وبهظتها، لو دعت إلى أن يخفف بعض وقرها لم تجب ولم تغث، وإن كان المدعو بعض قرابتها من أب أو ولد أو أخ. فإن قلت: إلام أسند كان في ﴿وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ﴾؟ قلت: إلى المدعو المفهوم من قوله: ﴿وَلَا تَدْعُ مُثْقَلَةٌ﴾. فإن قلت: فلم

ترك ذكر المدعو؟ قلت: ليعم، ويشمل كل مدعو. فإن قلت: كيف استقام إضمار العام؟ ولا يصح أن يكون العام ذا قرى للمثقلة؟ قلت: هو من العموم الكائن على طريق البدل. فإن قلت: ما تقول فيمن قرأ (ولو كان ذو قرى) على كان التامة، كقوله تعالى: ﴿مَنْ كَانَتْ ذُو عُسْرَةٍ﴾ [البقرة: ٢٨٠]؟ قلت: نظم الكلام أحسن ملاءمة للناقصة؛ لأنّ المعنى على أن المثقلة إن دعت أحداً إلى حملها لا يحمل منه شيء، وإن كان مدعوها ذا قرى، وهو معنى صحيح ملتزم، ولو قلت: ولو وجد ذو قرى، لتفكك وخرج من اتساقه والتثامه^(١)، على أنّ ههنا ما ساغ أن يستتر له ضمير في الفعل بخلاف ما أوردته ﴿بِالْغَيْبِ﴾ حال من الفاعل أو المفعول، أي: يخشون ربهم غائبين عن عذابه أو يخشون عذابه غائباً عنهم. وقيل: بالغيب في السر، وهذه صفة الذين كانوا مع رسول الله - ﷺ - من أصحابه، فكانت عاداتهم المستمرة أن يخشوا الله، وهم الذين أقاموا الصلاة وتركوا مناراً منصوباً وعلماً مرفوعاً، يعني: إنما تقدر على إنذار هؤلاء وتحذيرهم من قومك، وعلى تحصيل منفعة الإنذار فيهم دون متمردبهم وأهل عنادهم ﴿وَمَنْ تَزَكَّى﴾ ومن تطهر بفعل الطاعات وترك المعاصي. وقرئ: ومن ازكى فإنما يزكي، وهو اعتراض مؤكد لخشيته وإقامتهم الصلاة، لأنهما من جملة التزكي ﴿وَالِلَّهِ الْمَصِيرُ﴾ وعد للمتزيين بالثواب. فإن قلت: كيف اتصل قوله ﴿إِنَّمَا تُنذِرُ﴾ بما قبله؟ قلت: لما غضب عليهم في قوله: ﴿إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ﴾ أتبعه الإنذار بيوم القيامة وذكر أهوالها، ثم قال: (إنما تنذر) كأن رسول الله - ﷺ - أسمعهم ذلك، فلم ينفع، فنزل ﴿إِنَّمَا تُنذِرُ﴾ أو أخبره الله تعالى بعلمه فيهم.

﴿وَمَا يَسْتَوِي الْأَعْمَىٰ وَالْبَصِيرُ﴾ ١٩ ﴿وَلَا الظُّلُمَاتُ وَلَا النُّورُ﴾ ٢٠ ﴿وَلَا الظِّلُّ وَلَا الْحَرُورُ﴾ ٢١ ﴿وَمَا يَسْتَوِي الْأَحْيَاءُ وَلَا الْأَمْوَاتُ﴾ ٢٢ إِنَّ اللَّهَ يُسْمِعُ مَن يَشَاءُ وَمَا أَنتَ بِمُسْمِعٍ مَّن فِي الْقُبُورِ ٢٣ ﴿أَنْتَ إِلَّا نَذِيرٌ﴾ ٢٤

﴿الْأَعْمَى وَالْبَصِيرُ﴾ مثل للكافر والمؤمن، كما ضرب البحرين مثلاً لهما أو للصنم والله عز وجل، والظلمات والنور والظّل والحُرور: مثلاً للحق والباطل، وما يؤدبان إليه من الثواب والعقاب. والأحياء والأموات: مثل للذين دخلوا في الإسلام والذين لم يدخلوا فيه، وأصروا على الكفر والحُرور: السموم؛ إلا أنّ السموم يكون بالنهار. والحُرور بالليل والنهار. وقيل: بالليل خاصة. فإن قلت: لا المقرونة بواو العطف ما هي؟ قلت: إذا وقعت الواو في النفي قرنت بها لتأكيد معنى النفي. فإن قلت: هل من فرق بين هذه الواوات؟ قلت: بعضها ضمت شفعاً إلى شفع، وبعضها وترأ إلى وتر ﴿إِنَّ اللَّهَ يُسْمِعُ مَن

(١) قوله «وخرج من اتساقه والتثامه» أي: انتظامه. (ع)

يَشَاءُ ﴿٢٢﴾ [فاطر: ٢٢] يعني أنه قد علم من يدخل في الإسلام ممن لا يدخل فيه، فيهدي الذي قد علم أن الهداية/٢/١٧ ب تنفع فيه، ويخذل من علم أنها لا تنفع فيه. وأما أنت فخفي عليك أمرهم. فلذلك تحرص وتهالك على إسلام قوم من المخذولين. ومثلك في ذلك مثل من لا يريد أن يسمع المقبورين وينذر، وذلك ما لا سبيل إليه، ثم قال: ﴿إِنَّ أَنتَ إِلَّا نَذِيرٌ﴾ ﴿٢٣﴾ أي ما عليك إلا أن تبلغ وتنذر، فإن كان المنذر ممن يسمع الإنذار نفع، وإن كان من المصرين فلا عليك. ويحتمل أن الله يسمع من يشاء وأنه قادر على أن يهدي المطبوع على قلوبهم على وجه القسر والإلجاء، وغيرهم على وجه الهداية والتوفيق، وأما أنت فلا حيلة لك في المطبوع على قلوبهم الذين هم بمنزلة الموتى.

﴿إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ بِالْحَقِّ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَإِنْ مِنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ﴾ ﴿٢٤﴾

﴿بِالْحَقِّ﴾ حال من أحد الضميرين، يعني: محققاً أو محققين، أو صفة للمصدر، أي: إرسالاً مصحوباً بالحق. أو صلة لبشير ونذير على: بشيراً بالوعد الحق، ونذيراً بالوعيد الحق. والأمة الجماعة الكثيرة. قال الله تعالى: وجد عليه أمة من الناس، ويقال لأهل كل عصر: أمة، وفي حدود المتكلمين: الأمة هم المصدقون بالرسول - ﷺ - دون المبعوث إليهم، وهم الذين يعتبر إجماعهم، والمراد ههنا: أهل العصر. فإن قلت: كم من أمة في الفترة بين عيسى ومحمد عليهما الصلاة والسلام ولم يخل فيها نذير؟ قلت: إذا كانت آثار النذارة باقية لم تخل من نذير إلى أن تدرس، وحين اندرست آثار نذارة عيسى بعث الله محمداً ﷺ. فإن قلت: كيف اكتفى بذكر النذير عن البشير في آخر الآية بعد ذكرهما؟ قلت: لما كانت النذارة مشفوعة بالبشارة لا محالة، دلّ ذكرها على ذكرها، لا سيما قد اشتملت الآية على ذكرهما.

﴿وَإِنْ يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ وَبِالْزُورِ﴾

﴿٢٥﴾ ثُمَّ أَخَذْتُ الَّذِينَ كَفَرُوا فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ ﴿٢٦﴾

﴿بِالْبَيِّنَاتِ﴾ بالشواهد على صحة النبوة وهي المعجزات ﴿وَبِالْزُورِ﴾ وبالصحف ﴿وَبِالْكِتَابِ الْمُنِيرِ﴾ نحو التوراة والإنجيل والزبور. لما كانت هذه الأشياء في جنسهم أسند المجيء بها إليهم إسناداً مطلقاً. وإن كان بعضها في جميعهم: وهي البينات، وبعضها في بعضهم: وهي الزبور والكتاب. وفيه مسلاة لرسول الله - ﷺ - .

﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ ثَمَرَاتٍ مُخْتَلِفًا أَلْوَانُهَا وَمِنَ الْجِبَالِ جُدَدٌ بِيضٌ وَحُمْرٌ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهَا وَغَرَابِيبُ سُودٌ﴾ ﴿٢٧﴾ وَمِنَ النَّاسِ وَالْذَوَابِّ وَالْأَنْعَامِ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ

كَذَلِكَ إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ إِنَّكَ اللَّهُ عَزِيزٌ غَفُورٌ ﴿٢٨﴾

﴿الْوَنَاءُ﴾ أجناسها من الزمان والتفاح والتين والعنب وغيرها مما لا يحصر أو هيئاتها من الحمرة والصفرة والخضرة ونحوها. والجدد: الخطط والطرائق، قال ليبيد [من الكامل]:
أَوْ مَذْهَبٌ جُدَّدَ عَلَى الْوَاكِهِ
.....

ويقال: جدة الحمار للخطبة السوداء على ظهره، وقد يكون للظبي جدتان مسكيتان تفصلان بين لوني ظهره وبطنه ﴿وَعَرَبِيٌّ﴾ معطوف على بيض أو على جدد، كأنه قيل: ومن الجبال مخطط ذو جدد، ومنها ما هو على لون واحد غرابيب^(٢). وعن عكرمة - رضي الله عنه -: هي الجبال الطوال السود. فإن قلت: الغريب تأكيد للأسود. يقال: أسود غريب، وأسود حلكوك: وهو الذي أبعد في السواد وأغرب فيه. ومنه الغراب. ومن حق التأكيد أن يتبع المؤكد كقولك: أصفر فاقع، وأبيض يقق^(٣) وما أشبه ذلك. قلت: وجهه أن يضمّر المؤكد قبله ويكون الذي بعده تفسيراً لما أضمر؛ كقول النابغة [من البسيط]:

وَالْمُؤْمِنُ الْعَائِذَاتِ الطَّيْرِ
.....^(٤)

(١) ينظر: ديوانه ص ١١٩، و الخصائص ١٩٣/١، والكتاب ١٥١/٤، ولسان العرب (ذهب)، (برز)، (نطق). (فعم)، وبلا نسبة في مجالس ثعلب ص ٢٣٢.

(٢) قوله «ما هو على لون واحد غرابيب» لعله. غريب. (ع)

(٣) قوله «وأبيض يقق» بفتح القاف الأولى، وحكى كسرهما. أفاده الصحاح. (ع)

(٤) فلا لعمر الذي طيفت بكعبته وما هريق على الأنصاب من جسد

والمؤمن العائذات الطير يرقبها ركباً مكة بين القيل والسند

ما إن أتيت بشيء أنت تكرهه إذا فلا رفعت سوطي إلى يدي

للنابغة. يعتذر للنعمان بن المنذر، ولا زائدة قبل القسم، لأنه في الغالب لنفي دعوى الخصم. والعمر: الحياة، وهو مبتدأ حذف خبره وجوبا، وطاف به يطيف طيفاً. أتى عليه ونزل به، وطاف به يطوف طوافاً وطوفانا، إذا دار حوله، ومنه: طيفت، وهو مبني للمجهول، وتائب الفاعل: الجار والمجرور، ولما كان مؤنثاً لحقت التاء الفعل شذوذاً، والفصيح تركها في مثله، والغيل والسند: أجمتان بجانب منى. وقيل: موضعاً ماء بجانب الحرم، وهو قريب مما قبله، أي: حياة الذي طاف الحجيج بكعبته قسمي، وماهريق، والمؤمن: بالرفع عطف على المبتدأ والعائذات منصوب بالمؤمن، والطير: عطف بيان للعائذات، ويجوز جعله بدلاً منه، وكذا كل موصوف تبع صفته، وهريق: أصله أريق. والجسد: البدن، وجسد به الدم؛ إذا لصق به، فهو جاسد وجسد. فعلى الأول «أريق» بمعنى ذبح، وعلى الثاني على ظاهره، لكنه كناية عن الذبح، أي وما ذبح على الحجارة المنصوبة حول الكعبة من الهدى، والذي آمن الطير العائذات اللاتذات بالحرم، حال كونها ينظرها الحجاج في منى ولا يؤذونها لإحرامهم. وروي: يمسحها وهو أبلغ في الأمن، وما أتيت جواب القسم، وإن زائدة. ويجوز أنها نافية مؤكدة ثم دعا على نفسه فقال: إذا كان ذلك مني فلا =

وإنما يفعل ذلك لزيادة التوكيد، حيث يدل على المعنى الواحد من طريقي الإظهار والإضمار^(١) جميعاً، ولا بد من تقدير حذف المضاف في قوله تعالى: ﴿وَمِنَ الْجِبَالِ جُدَدٌ بَمَعْنَى: ومن الجبال ذو جدد بيض وحمر وسود، حتى يزول إلى قولك: ومن الجبال مختلف ألوانه كما قال: ثمرات مختلفاً ألوانها ﴿وَمِنَ النَّاسِ وَالْذَوَاتِ الْأَنْعَامِ مُخْتَلِفٌ أَلْوَنُهُ﴾ يعني: ومنهم بعض مختلف ألوانه. وقرئ: ألوانها. وقرأ الزهري جدد، بالضم: جمع جديدة، وهي الجدة، يقال: جديدة وجدد وجدائد، كسفينة وسفن وسفائن. وقد فسر بها قول أبي ذؤيب يصف حمار وحش [من الكامل]:

..... جُونُ السَّرَاةِ لَهُ جَدَائِدُ أَرْبَعِ^(٢)

وروي عنه: جدد، بفتحيتين، وهو الطريق الواضح المسفر وضعه موضع الطرائق والخطوط الواضحة المنفصل بعضها من بعض. وقرئ: والدواب مخففاً ونظير هذا

= رفعت سوطي إلى يدي: بيان يدي، كناية عن أنه يضعف غاية الضعف، وروي «سوطاً» بدل «سوطي» أي يضعف حتى لا يقدر على رفعه.

ينظر ديوانه (ص ٢٥) وفيه «السعد» مكان «السند»، خزانة الأدب (٥/٧١، ٧٣، ١٨٣، ٨/٤٥٠، ٤٥١)، شرح المفصل (٣/١١) الدر المصون (٥/٤٦٧).

(١) قال السمين الحلبي: قال الشيخ: لا يصح إلا على مذهب من يُجوزُ حذف المؤكد ومن النحويين من مَنَعَهُ وهو اختيار ابن مالك. قُلْتُ: ليس هذا هو التوكيد المختلف في حذف مؤكده لأن هذا من باب الموصوف، ومعنى تسمية الزمخشري لها تأكيداً من حيث أنها لا تُقيدُ معنى زائداً إنما المبالغة والتوكيد في ذلك اللون والنحويون قد سَمَوْا الوصفَ إذا لم يُقَدَّ غير الأول وتأكيداً فقالوا: وقد تجيء لمجرد التوكيد نحو «بَجَّةٌ وَجَدَّةٌ» و«إِلَهَيْنِ اثْنَتَيْنِ» والتوكيد المختلف في حذف مؤكده إنما هو في باب التوكيد الصناعي ومذهب سيبويه جوازه، أجاز مَرَزْتُ بِأَخَوَيْكَ أنفسهما بالنصب والرفع على تقدير أعنيهما أنفسهما أو هما أنفسهما فأين هذا من ذاك؟ إلا أنه يشكُّ على الزمخشري هذا المذكور بعد «غَرَابِيبُ» ونحوه بالنسبة إلى أنه جَعَلَهُ مُفسراً لذلك المحذوف وهذا إنما عَهِدَ في الجَمَلِ لا في المفردات إلا في باب البدل وعطف البيان فبأي شيء يُسميه. والأولى فيه أن يُسمى توكيداً لفظياً إذ الأصل سَوْدٌ غَرَابِيبٌ سَوْدٌ.

(٢) والدهر لا يبقني على حدثانه جُونُ السَّرَاةِ لَهُ جَدَائِدُ أَرْبَعِ لأبي ذؤيب في مراثية بنيه. والجون: الأسود ويطلق على الأبيض، فهو من الأضداد. وسرة الظهر: أعلاه. وسرة كل شيء: أعلاه. وجديدة وجدد وجدائد، كسفينة وسفن وسفائن. والجدائد: الأثني التي جف لبنها. والمرأة الجداء: التي لا ثدي لها: يسلي عن بنيه بأن لك عادة الدهر، فهو لا يبقني مع ما فيه من الحدثان أحداً، حتى أسود الظهر كناية عن حمار الوحش له أثن أربع يرعى معهن في البراري وينزو عليهن. وقيل: إنه يعيش مائتي سنة فربما يتوهم أنه لا يصيبه الدهر بشيء. ويجوز قراءة «يقي» بالفتح. وجون بالرفع فاعل، وله جدائد: جملة حالية أي: لا بد أن تهلك أنه واحدة بعد واحدة، أو يهلك هو.

ينظر: ديوان الهذليين (١/٤)، الدر المصون (٥/٤٦٦).

التخفيف قراءة من قرأ ﴿وَلَا الضَّالِّينَ﴾ [الفاتحة: ٧] لأن كل واحد منهما فرار من التقاء الساكنين، فحرك ذاك أولهما، وحذف هذا آخرهما. وقوله: ﴿كَذَلِكَ﴾ أي كاختلاف الثمرات والجبال. المراد: العلماء به الذين علموه بصفاته وعدله وتوحيده، وما يجوز عليه وما لا يجوز، فعظموه وقدروه حق قدره، وخشوه حق خشيته، ومن ازداد به علماً ازداد منه خوفاً، ومن كان علمه به أقل كان آمن. وفي الحديث: «أعلمكم بالله أشدكم له خشية» (١٢٤٤). وعن مسروق: كفى بالمرء علماً أن يخشى، وكفى بالمرء جهلاً أن يعجب بعلمه. وقال رجل للشعبي: أفتني أيها/ ١١٨/٢ أ العالم، فقال: العالم من خشى الله. وقيل: نزلت في أبي بكر الصديق - رضي الله عنه - وقد ظهرت عليه الخشية حتى عرفت فيه. فإن قلت: هل يختلف المعنى إذا قَدِمَ المفعول في هذا الكلام أو أخر؟ قلت: لا بد من ذلك، فإنك إذا قدمت اسم الله وأخرت العلماء كان المعنى: إن الذين يخشون الله من بين عباده هم العلماء دون غيرهم، وإذا عملت على العكس انقلب المعنى إلى أنهم لا يخشون إلا الله، كقوله تعالى: ﴿وَلَا يَخْشَوْنَ أَحَدًا إِلَّا اللَّهَ﴾ [الأحزاب: ٣٩] وهما معنيان مختلفان. فإن قلت: ما وجه اتصال هذا الكلام بما قبله؟ قلت: لما قال (ألم تر) بمعنى ألم تعلم أن الله أنزل من السماء ماء، وعدد آيات الله وأعلام قدرته وآثار صنعته وما خلق من الفطر المختلفة الأجناس وما يستدل به عليه وعلى صفاته، أتبع ذلك ﴿إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ﴾ كأنه قال: إنما يخشاه مثلك ومن على صفتك: ممن عرفه حق معرفته وعلمه كنه علمه. وعن النبي ﷺ: «أنا أرجو أن أكون أتقاكم لله وأعلمكم به» (١٢٤٥). فإن قلت: فما وجه قراءة من قرأ (إنما يخشى الله من عباده العلماء) وهو عمر بن عبد العزيز ويحكي عن أبي حنيفة؟ قلت: الخشية في هذه القراءة استعارة، والمعنى: إنما يجعلهم ويعظمهم، كما يجعل المهيّب المخشي من الرجال بين الناس من بين جميع عباده ﴿إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ﴾ تعليل لوجوب الخشية، لدلالته على عقوبة العصاة وقهرهم وإثابة أهل الطاعة والعفو عنهم، والمعاقب المنيب: حقه أن يخشى.

١٢٤٤ - قال الزيلعي في تخريج أحاديث الكشاف (١٥٢/٣): غريب، وذكره الثعلبي هكذا وقال ابن حجر: لم أجده هكذا. وفي الصحيح: «أنا أعلمكم بالله وأشدكم له خشية». انتهى.

١٢٤٥ - أخرجه مالك في الموطأ (٢٩١/١ - ٢٩٢)، كتاب الصيام، باب: ما جاء في الرخصة في القبلة للصائم، حديث (١٣)، والشافعي في مسنده (٢٥٦/١ - ٢٥٧)، كتاب الصوم، باب: فيما يفسد الصوم وما لا يفسده. حديث (٦٨٩). كلاهما من طريق عطاء بن يسار.

قال الحافظ: أخرجه عبد الرزاق عن ابن جريج عن زيد بن أسلم ومالك في الموطأ والشافعي عنه عن زيد بن أسلم عن عطاء بن يسار به مرسلاً في أثناء حديث أوله: «أن رجلاً قبل امرأته وهو صائم». انتهى.

﴿إِنَّ الَّذِينَ يَتْلُونَ كِتَابَ اللَّهِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَنقَضُوا مَعًا رِزْقَهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً يَرْجُونَ تِجَارَةً لَّن تَبُورَ﴾ (٢٩) ﴿لِيُوفِيَهُمْ أَجُورَهُمْ وَيَزِيدَهُم مِّن فَضْلِهِ إِنَّهُ غَفُورٌ شَكُورٌ﴾ (٣٠)

﴿يَتْلُونَ كِتَابَ اللَّهِ﴾ يداومون على تلاوته وهي شأنهم وديندهم. وعن مطرف رحمه الله: هي آية القرآن. وعن الكلبي رحمه الله: يأخذون بما فيه. وقيل: يعلمون ما فيه ويعملون به. وعن السدي رحمه الله: هم أصحاب رسول الله - ﷺ - رضي عنهم. وعن عطاء: هم المؤمنون ﴿يَرْجُونَ﴾ خبر إن، والتجارة؛ طلب الثواب بالطاعة. و﴿لِيُوفِيَهُمْ﴾ متعلق بلمن تبور، أي: تجارة ينتفي عنها الكساد وتنفق^(١) عند الله ليوفيههم بنفاقها عنده ﴿أَجُورَهُمْ﴾ وهي ما استحقوه من الثواب ﴿وَيَزِيدَهُمْ﴾ من التفضل على المستحق، وإن شئت جعلت (يرجون) في موضع الحال على: وأنفقوا راجين ليوفيههم، أي فعلوا جميع ذلك من التلاوة وإقامة الصلاة والإنفاق في سبيل الله لهذا الغرض، وخبر إن قوله: ﴿إِنَّهُ غَفُورٌ شَكُورٌ﴾ على معنى: غفور لهم شكور لأعمالهم. والشكر مجاز عن الإثابة.

﴿وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ مِنَ الْكِتَابِ هُوَ الْحَقُّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ إِنَّ اللَّهَ بِعِبَادِهِ لَخَبِيرٌ بَصِيرٌ﴾ (٣١)

﴿الْكِتَابِ﴾ القرآن. ومن للتبيين أو الجنس. ومن للتبعض ﴿مُصَدِّقًا﴾ حال مؤكدة: لأن الحق لا ينفك عن هذا التصديق ﴿وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ مِنَ الْكِتَابِ هُوَ الْحَقُّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ﴾ إن الله بعباده لخبير بصير ﴿لِخَيْرٍ بَصِيرٍ﴾ يعني أنه خيرك وأبصر أحوالك، فأراك أهلاً لأن يوحى إليك مثل هذا الكتاب المعجز الذي هو عيار على سائر الكتب.

﴿ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِ وَمِنْهُمْ مُّقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِالْغَيْرَاتِ إِذْنُ اللَّهِ ذَلِكَ هُوَ الْفَضْلُ الْكَبِيرُ﴾ (٣٢) ﴿جَنَّتْ عَدْنٌ يَدْخُلُونَهَا يُجِئُونَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِنْ ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤًا وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ﴾ (٣٣) ﴿وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَذْهَبَ عَنَّا الْحَزْنَ إِنَّكَ رَبَّنَا لَغَفُورٌ شَكُورٌ﴾ (٣٤) ﴿الَّذِي أَحَلَّنَا دَارَ الْمُقَامَةِ مِن فَضْلِهِ لَا يَمَسُّنَا فِيهَا نَصَبٌ وَلَا يَمَسُّنَا فِيهَا لُغُوبٌ﴾ (٣٥)

(١) قوله «وتنفق عند الله» أي تروج. أفاده الصحاح. (ع)

فإن قلت: ما معنى قوله: ﴿ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ﴾؟ قلت: فيه وجهان، أحدهما: إنا أوحينا إليك القرآن ثم أورثنا من بعدك أي حكمنا بتورثه. أو قال: أورثناه وهو يريد نوره، لما عليه أخبار الله ﴿الَّذِينَ أَصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا﴾ وهم أمته من الصحابة والتابعين وتابعيهم ومن بعدهم إلى يوم القيامة؛ لأن الله اصطفاهم على سائر الأمم، وجعلهم أمة وسطا ليكونوا شهداء على الناس، واختصهم بكرامة الانتماء إلى أفضل رسل الله، وحمل الكتاب الذي هو أفضل كتب الله، ثم قسمهم إلى ظالم لنفسه مجرم وهو المرجأ لأمر الله، ومقتصد: هو الذي خلط عملاً صالحاً وآخر سيئاً، وسابق من السابقين. والوجه الثاني: أنه قدم إرساله في كل أمة رسولاً وأنهم كذبوا برسولهم وقد جاءهم بالبينات والزبر والكتاب المنير، ثم قال: إن الذين يتلون كتاب الله، فأثنى على التالين لكتبه العاملين بشرائعه من بين المكذبين بها من سائر الأمم واعترض بقوله: ﴿وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ مِنَ الْكِتَابِ هُوَ الْحَقُّ﴾ ثم قال: ﴿ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ أَصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا﴾ أي من بعد أولئك المذكورين، يريد بالمصطفين من عباده: أهل الملة الحنيفة، فإن قلت: فكيف جعلت ﴿جَنَّتٌ عَدْنٍ﴾ بدلاً من الفضل الكبير^(١) الذي هو السبق بالخيرات المشار إليه بذلك؟ قلت: لما كان السبب في نيل الثواب، نزل منزلة المسبب، كأنه هو الثواب، فأبدلت عنه جنات عدن، وفي اختصاص السابقين بعد التقسيم بذكر ثوابهم والسكوت عن الآخرين ما فيه من وجوب الحذر، فليحذر المقتصد، وليملك الظالم لنفسه حذراً وعليهما بالتوبة النصوح المخلصة من عذاب الله، ولا يغترا بما/ ١١٨/٢ ب رواه عمر - رضي الله عنه - عن

(١) قال محمود: «يعني بالمصطفين أمة محمد عليه الصلاة والسلام، ثم قسمتهم الآية إلى ظالم لنفسه: هو المرجأ لأمر الله، وإلى مقتصد: وهو الذي خلط عملاً صالحاً وآخر سيئاً، وإلى سابق. ثم قال الزمخشري: فإن قلت: كيف جعل الجنات بدلاً من الفضل الكبير، وذلك في تنمة الآية في قوله: ﴿ومنهم سابق بالخيرات باذن الله ذلك هو الفضل الكبير جنات عدن يدخلونها﴾ قلت: لأن الإشارة بالفضل إلى السبق بالخيرات وهو السبب في الجنات ونيل الثواب، فأقام السبب مقام المسبب. وفي اختصاص السابقين بذكر الجزاء دون الآخرين ما يوجب الحذر فليحذر المقتصد، وليملك الظالم لنفسه حذراً، وعليهما بالتوبة النصوح، ولا يغترا بما رواه عمر رضي الله عنه عن النبي ﷺ أنه قال: «سابقنا سابق، ومقتصدنا ناج، وظالمنا مغفور له» فإن شرط ذلك صحة التوبة فلا يعلل نفسه بالخدع» قال أحمد: وقد صدرت هذه الآية بذكر المصطفين من عباد الله، ثم قسمتهم إلى الظالم والمقتصد والسابق ليلزم الدراج الظالم لنفسه من الموحدين في المصطفين، وإنه لمنهم، وأي نعمة أنم وأعظم من اصطفاة للتوحيد والعقائد السالمة من البدع، فما بال المصنف يطنب في التسوية بين الموحد المصطفى والكافر المجترى، وقوله ﴿جَنَّتٌ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا﴾ الضمير فيه راجع إلى المصطفين عموماً، والجنات جزاؤهم على توحيدهم جميعاً، وإعراؤها: جنات مبتدأ، ويدخلونها الخبر، وقوله: ﴿يُكَاوَرُونَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِنْ ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤًا وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ﴾... إلى آخر الآية: خبر بعد خبر، وخبر على خبر، والله المستعان.

رسول الله - ﷺ -: «سابقنا سابق، ومقتصدنا ناج، وظالمنا مغفور له» (١٢٤٦). فإن شرط ذلك صحة التوبة^(١) لقوله تعالى: ﴿عَسَىٰ اللَّهُ أَن يَتُوبَ عَلَيْهِمْ﴾ [التوبة: ١٠٢] وقوله ﴿إِنَّمَا يَعِدُكُم وَإِنَّمَا يُتُوبُ عَلَيْهِمْ﴾ [التوبة: ١٠٦] ولقد نطق القرآن بذلك في مواضع من استقرأها اطلع على حقيقة الأمر ولم يعلل نفسه بالخدع. وقرئ سابق. ومعنى ﴿يَا ذِينَ اللَّهِ﴾ بتيسيره وتوفيقه. فإن قلت: لم قدم الظالم؟ ثم المقتصد ثم السابق؟ قلت: للإيذان بكثرة الفاسقين وغلبتهم، وأن المقتصدين قليل بالإضافة إليهم والسابقون أقل من القليل. وقرئ: جنة عدن على الأفراد، كأنها جنة مختصة بالسابقين. وجنات عدن: بالنصب على إضمار فعل يفسره الظاهر، أي يدخلون جنات عدن يدخلونها، ويدخلونها، على البناء للمفعول. ويحلون: من حليت: المرأة، فهي حال ﴿وَلَوْلُؤَا﴾ معطوف على محل من أساور، ومن داخلة للتبعيض، أي: يحلون بعض أساور من ذهب، كأنه بعض سابق لسائر الأبعاض، كما سبق المسورون به غيرهم: وقيل: إن ذلك الذهب في صفاء اللؤلؤ. وقرئ: ولؤلؤا بتخفيف الهمزة الأولى، وقرئ: الحزن، والمراد: حزن المتقين، وهو ما أهمهم من خوف سوء العاقبة، كقوله تعالى: ﴿إِنَّا كُنَّا قَلِيلٌ فِي أَهْلِنَا مُشْفِقِينَ﴾ [الطور: ٢٦ - ٢٧] ﴿فَسَرَ اللَّهُ عَلَيْنَا وَوَقَّنَا عَذَابَ السُّمُورِ﴾. وعن ابن عباس - رضي الله عنهما -: حزن الأعراض والآفات. وعنه: حزن الموت. وعن الضحاك: حزن إبليس ووسوسته. وقيل: هم المعاش. وقيل: حزن زوال النعم، وقد أكثروا حتى قال بعضهم: كراء الدار، ومعناه: أنه يعم كل حزن من أحزان الدين والدنيا حتى هذا. وعن رسول الله - ﷺ -: «ليس على أهل لا إله إلا الله وحشة في قبورهم ولا في محشرهم ولا في مسيرهم؛ وكأنني بأهل لا إله إلا الله يخرجون من قبورهم وهم ينفضون التراب عن رءوسهم ويقولون الحمد لله الذي أذهب عنا

١٢٤٦ - أخرجه الواحدي في تفسيره (٥٠٥/٣)، والعقيلي في الضعفاء (٤٤٣/٣)، حديث (١٤٩١)، وأعله بالفضل بن عمير، وقال: لا يتابع على إسناده، وقد روي بإسناد أصلح من هذا. انتهى. والبخاري في تفسيره (٥٧١/٣)، كلهم من طريق أبي عثمان النهدي عن عمر بن الخطاب، وعزاه الزيلعي في تخريج أحاديث الكشاف (١٥٣/٣) للثعلبي في تفسيره بنفس سند العقيلي. قال الحافظ: أخرجه البيهقي في الشعب من رواية ميمون بن سياه عن عمر - رضي الله عنه - مرفوعاً، وهذا منقطع، وأخرجه الثعلبي وابن مردويه من وجه آخر عن ميمون بن سياه عن أبي عثمان النهدي عن عمر، فيه الفضل بن عميرة: وهو ضعيف. ورواه سعيد بن منصور عن فرج بن فضالة عن أزهر بن عبد الله الحرازي عن عمر فذكره موقوفاً. انتهى.

(١) قوله «فإن شرط ذلك صحة التوبة» هذا عند المعتزلة. أما أهل السنة فيجوزون الغفران بمجرد الفضل. (ع)

الحزن^(١). وذكر الشكور: دليل على أن القوم كثير الحسنة، المقامة: بمعنى الإقامة، يقال: أقمت إقامة ومقاماً ومقامة ﴿مِنْ فَضْلِهِ﴾ من عطائه وإفضاله، من قولهم: لفلان فضول على قومه وفواضل، وليس من الفضل الذي هو التفضل؛ لأن الثواب بمنزلة الأجر المستحق، والتفضل كالتبرع. وقرئ: لغوب، بالفتح: وهو اسم ما يلغب منه، أي: لا تتكلف عملاً يلغبنا: أو مصدر كالقبول والولوج، أو صفة للمصدر، كأنه^(٢) لغوب لغوب، كقولك: موت مائت، فإن قلت: ما الفرق بين النصب واللغوب؟ قلت: النصب التعب والمشقة التي تصيب المنتصب للأمر المزاو له. وأما اللغوب فما يلحقه من الفتور بسبب النصب، فالنصب: نفس المشقة والكلفة. واللغوب: نتيجته وما يحدث منه من الكلال والفترة.

﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ نَارُ جَهَنَّمَ لَا يُقْضَىٰ عَلَيْهِمْ فِيمَوْتُوهَا وَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ مِنْ عَذَابِهَا كَذَٰلِكَ نَجْزِي كُلَّ كَافِرٍ﴾ (٣١) ﴿وَهُمْ يَصْطَرِّحُونَ فِيهَا رَبَّنَا أَخْرِجْنَا نَعْمَلْ صَالِحًا غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُم مَّا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَنْ تَذَكَّرَ وَجَاءَكُمُ النَّذِيرُ فَذُوقُوا فَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ نَصِيرٍ﴾ (٣٧)

﴿فِيمَوْتُوهَا﴾ جواب النفي، ونصبه بإضمار أن: وقرئ: فيموتون، عطفاً على يقضي، وإدخالاً له في حكم النفي، أي: لا يقضي عليهم الموت فلا يموتون، كقوله تعالى: ﴿وَلَا يُؤْذَنُ لَهُمْ فَيَعْدِرُونَ﴾ (٣١). ﴿كَذَٰلِكَ﴾ مثل ذلك الجزاء (يجزي) وقرئ: يجازي. ونجزي ﴿كُلَّ كَافِرٍ﴾ بالنون^(٣) ﴿يَصْطَرِّحُونَ﴾ يتصارخون: يفتعلون من الصراخ وهو الصياح بجهد وشدة. قال [من الطويل]:

..... كَصَرْخَةِ حُبْلَى أَسْلَمَتْهَا قَبِيلُهَا^(٤)

(١) أخرجه أبو يعلى وابن أبي حاتم والبيهقي في أول الشعب والطبراني في الأوسط من حديث ابن عمر. وفيه عبد الرحمن بن زيد بن أسلم وهو ضعيف وله طريق أخرى عند الطبراني والنسائي في الكنى عن ابن عمر. وأخرى عند البيهقي في الشعب. وفي الباب عن ابن عباس أخرجه تمام في فوائده والخطيب في ترجمة محمد بن سعيد الطائفي وعن أنس عن ابن مردويه.

(٢) «كأنه» لعله: كأنه قال. (ع)

(٣) قوله «ونجزي كل كفور بالنون» ونصب كل في هذه القراءة ورفعها فيما قبلها. (ع)

(٤) قصدت إلى عنس لأحرج رحلها وقد حان من تلك الديار رحيلها

فأنت كما أن الأسير وصرخت كصرخة حبلى أسلمتها قبيلها

للأعشى: وعنت المرأة عناً: إذا لم تخرج من بيتها للزواج مع بلوغها من السن. والعنس: الناقة

الصلبة الصعبة وحج من باب ضرب: إذا شد الرجل على الناقة. والحدوج: الرجال والهواذج، =

واستعمل في الاستغاثة لجهد المستغيث صوته. فإن قلت: هلا اكتفى بـ «صالحاً» كما اكتفى به في قوله تعالى: ﴿فَأَتَجَنَّا فَعَمَلٌ صَالِحاً﴾ وما فائدة زيادة ﴿غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ﴾ على أنه يؤذن أنهم يعملون صالحاً آخر غير الصالح الذي عملوه؟ قلت: فائدته زيادة التحسر على ما عملوه من غير الصالح مع الاعتراف به. وأما الوهم فزائل لظهور حالهم في الكفر وركوب المعاصي، ولأنهم^(١) كانوا يحسبون أنهم على سيرة صالحة، كما قال الله تعالى: ﴿وَمُحَسِّبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا﴾ [الكهف: ١٠٤] فقالوا: أخرجنا نعمل صالحاً غير الذي كنا نحسبه صالحاً فنعمله ﴿أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُمُ﴾ توبيخ من الله يعني: فنقول لهم. وقرئ: ما يذكر فيه، من أذكر على الإدغام وهو متناول لكل عمر تمكن فيه المكلف من إصلاح شأنه وإن قصر؛ إلا أن التوبيخ في المتناول أعظم. وعن النبي ﷺ: «العمر الذي أعذر الله فيه إلى ابن آدم ستون سنة» (١٢٤٧). وعن مجاهد: ما بين العشرين إلى الستين. وقيل: ثماني عشر وسبع عشر. و﴿الَّذِينَ﴾ الرسول ﷺ. وقيل: الشيب. وقرئ: وجاءكم النذر. فإن قلت/ ١١٩/ ٢: علام عطف وجاءكم النذر؟ قلت: على معنى: أولم نعمركم؟ لأن لفظه لفظ استخبار. ومعناه معنى إخبار، كأنه قيل: قد عمرناكم وجاءكم النذر.

١٢٤٧ - ذكره ابن كثير في تفسيره (٣/ ٥٥٩)، وعزاه إلى البزار، والزيلعي في تخريج الكشاف (٣/ ١٥٥)، وعزاه إلى البزار وابن مردويه وللحديث شواهد: أخرجه البخاري في صحيحه (١٣/ ١٤): كتاب الرقاق باب من بلغ ستين سنة فقد أعذر إليه في العمر وأحمد في مسنده (٢/ ٣٢٠)، والحاكم في المستدرک (٢/ ٤٢٧): كتاب التفسير، تفسير سورة الملائكة، وابن حبان في صحيحه (٧/ ٢٤٥): كتاب الجنائز باب في أعمار هذه الأمة، حديث (٢٩٧٩)، والبيهقي في السنن الكبرى (٣/ ٣٧٠)، كتاب الجنائز باب من بلغ ستين سنة فقد عذر الله إليه في العمر... والبخاري في شرح السنة (٧/ ٢٨٢): كتاب الرقاق باب قصر الأمل: حديث (٣٩٢٧)، والخطيب في تاريخ بغداد (١/ ٢٩٠). قال الحافظ: أخرجه البزار من رواية سعيد المقبري عن أبي هريرة مرفوعاً بهذا، وأصله في البخاري بلفظ: «من عمره الله ستين سنة فقد أعذر الله إليه في العمر» ووهم الحاكم فاستدركه. ورواه ابن مردويه به من حديث سهل بن سعد. انتهى.

= وهو بتأخير الجيم. وأما الجدح - بتأخير المهملة -: فهو اللت والخوض والمزج، أي: عمدت إلى ناقة صلبة لأشد رحلها عليها، والحال أنه جاء حين رحيلها من تلك الديار. والأئين: الصوت المنخفض للتحزن، أي: أنت كائنين الأسير في الأول، وصرخت برفع صوتها ثانياً كصرخة حبلى عند الطلق أسلمتها وتركتها قبيلها التي تخدمها عند الولادة. والقبيل والقبول والقبالة: التي تقوم بمصلحة المرأة عند الولادة وتتلقي الولد عند خروجه.

ينظر: ديوانه ص ٢٢٥، لسان العرب (قبل)، تاج العروس (قبل)، بلا نسبة في المخصص (١/ ٢٢)، (٢٥/ ١٤).

(١) قوله «ولأنهم كانوا يحسبون» لعله: أو لأنهم كانوا. (ع)

﴿إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ غَيْبِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ إِنَّهُمْ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾ (٣٨)

﴿إِنَّهُمْ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾ كالتعليل؛ لأنه إذا علم ما في الصدور وهو أخفى ما يكون، فقد علم كل غيب في العالم وذات الصدور: مضمراتها، وهي تأنيث ذو في نحو قول أبي بكر - رضي الله عنه -: ذو بطن خارجة جارية (١٢٤٨). وقوله [من الطويل]:

لِتُغْنِي عَنِّي ذَا إِنَائِكَ أَجْمَعًا

المعنى: ما في بطنها من الحبل، وما في إنائك من الشراب؛ لأن الحبل والشراب يصحبان البطن والإناء. ألا ترى إلى قولهم: معها حبل، وكذلك المضمرات تصحب الصدور وهي معها وذو: موضوع لمعنى الصحبة.

﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَكُمْ خَلَائِفَ فِي الْأَرْضِ فَمَنْ كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُ وَلَا يَزِيدُ الْكَافِرِينَ كُفْرُهُمْ إِلَّا رِجْمًا﴾ (٣٩)

يقال للمستخلف: خليفة وخليف؛ فالخليفة تجمع خلائف، والخليف: خلفاء،

١٢٤٨ - تقدم في سورة الإسراء. قال الحافظ: أخرجه في الموطأ عن ابن شهاب عن عروة عن عائشة: أن أبا بكر كان نحلي جداد عشرين وسقا - الحديث وفيه: «إنما هي أسماء فمن الأخرى؟ قال: ذو بطن بنت خارجة أراها جارية، فولدت جارية» وقد تقدم طرف منه في الإسراء. انتهى.

(١) وناولته من رسل كوماء جلدة وأغضبت عنه الطرف حتى تضلعا
إذا قال: قدنى قلت بالله حلفة لتغني عني ذَا إِنَائِكَ أَجْمَعًا

لحريث بن عتاب الطائي. وَالرُّسُلُ - بالكسر -: اللبن القليل. والكوماء: السمين. والجلدة: الصلبة. والإغضاء الغض والإغماض. والتضلع: امتلاء البطن حتى يرتفع الجنبان والضلوع. وغض طرفه عن الضيف كي لا يستحي إذا قال الضيف: قدني، أي حسبي من الشرب قلت: بالله. وروي: قال بالله، فكانه عبر عن نفسه بطريق الغيبة. ويروى: إذا قلت قدني قال، على أن الشاعر الضيف وليس بذاك. وحلفة: نصب بمعنى القسم قبله، أي: أحلف بالله حلفة، ولتغني: جواب القسم وفتح آخره لاتصاله تقديرًا بنون التوكيد الخفيفة، أي: لتمنني عني. وروى ثعلب لتغتن بنون التوكيد الثقيلة، أي: لتبعدني، وكان حقه على اللغة المشهورة لتغنين، لكن حذف ياءه بعد الكسرة على لغة فزارة. وروي لتغني بكسر اللام للتعليل، أي: اشرب لتغني عني صاحب إنائك وهو اللبن، وأضافه للإناء لأنه فيه، وأضاف الإناء لضمير الضيف لأنه في يده، وتبرأ من نسبته إلى نفسه دلالة على الكرم، وأجمع: توكيد للبن، أي لا ترد إلى ما في الإناء، بل أشربه كله.

ينظر: خزانة الأدب ٤٣٤/١١، ٤٣٥، ٤٣٩، ٤٤١، ٤٤٣، والدرر ٢١٧/٤، ومجالس ثعلب ص ٦٠٦، والمقاصد النحوية ٣٥٤/١، وبلا نسبة في تخليص الشواهد ص ١٠٧، وشرح ديوان الحماسة للمرزوقي ص ٥٥٩، وشرح شواهد المغني ٥٥٩/٢، ٨٣٠، وشرح المفصل ٨/٣، ومغني اللبيب ٢١٠/١، والمقرب ٧٧/٢، وجمع الهوامع ٤١/٢.

والمعنى: أنه جعلكم خلفاء في أرضه قد ملككم مقاليد التصرف فيها وسلطكم على ما فيها، وأباح لكم منافعها لشكروه بالتوحيد والطاعة ﴿فَنَ كَفَرُ﴾ منكم وغمط مثل هذه النعمة^(١) السنية، فوبال كفره راجع عليه. وهو مقت الله الذي ليس وراءه خزي وصغار وخسار الآخرة الذي ما بقي بعده خسار، والمقت: أشد البغض. ومنه قيل لمن ينكح امرأة أبيه: مقتي، لكونه ممقوتاً في كل قلب، وهو خطاب للناس. وقيل: خطاب لمن بعث إليهم رسول الله - ﷺ - جعلكم أمة خلفت من قبلها. ورأت وشاهدت فيمن سلف ما ينبغي أن تعتبر به، فمن كفر منكم فعليه جزاء كفره من مقت الله وخسار الآخرة، كما أن ذلك حكم من قبلكم.

﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ شُرَكَاءَكُمُ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَرُونِي مَاذَا خَلَقُوا مِنَ الْأَرْضِ أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِي السَّمَوَاتِ أَمْ آتَيْنَهُمْ كِتَابًا فَهُمْ عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْهُ بَلْ إِن يَعِدُ الظَّالِمُونَ بَعْضُهُمْ بَعْضًا إِلَّا غُرُورًا﴾

﴿أَرُونِي﴾ بدل من أرايتم؛ لأن المعنى: أرايتم أخبروني، كأنه قال: أخبروني عن هؤلاء الشركاء وعما استحقوا به الإلهية والشركة أروني أي جزء من أجزاء الأرض استبدوا بخلقه دون الله أم لهم مع الله شركة في خلق السموات، أم معهم كتاب من عند الله ينطق بأنهم شركاؤه فهم على حجة وبرهان من ذلك الكتاب. أو يكون الضمير في ﴿آتَيْنَهُمْ﴾ للمشركين، كقوله تعالى: ﴿أَمْ أَنْزَلْنَا عَلَيْهِمْ سُلْطَانًا﴾ أم آتيناهم كتاباً من قبله، بل إن يعد بعضهم وهم الرؤساء ﴿بَعْضًا﴾ وهم الأتباع ﴿إِلَّا غُرُورًا﴾ وهو قولهم: ﴿هَؤُلَاءِ شَفَعُونَا عِنْدَ اللَّهِ﴾ وقرئ: بينات.

﴿إِنَّ اللَّهَ يُمْسِكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ أَنْ تَزُولَا وَلَئِنْ زَالَتَا إِنْ أَمْسَكَهُمَا مِنْ أَحَدٍ مِنْ بَعْدِهِ إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا﴾

﴿أَنْ تَزُولَا﴾ كراهة أن تزولا. أو يمنعهما من أن تزولا: لأن الإمساك منع ﴿إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا﴾ غير معاجل بالعقوبة، حيث يمسكهما، وكانتا جديرتين بأن تهذا هَذَا، لعظم كلمة الشرك كما قال: ﴿تَكَادُ السَّمَوَاتُ يَفْقَطْنَ مِنْهُ وَتَشَقُّ الْأَرْضُ﴾ [مريم: ٩٠]. وقرئ: ولو زالنا، وإن أمسكهما: جواب القسم في ﴿وَلَئِنْ زَالَتَا﴾ سد مسدّ الجوابين، ومن الأولى مزيدة لتأكيد النفي، والثانية للابتداء. من بعده: من بعد إمساكه. وعن ابن عباس - رضي الله عنه - أنه قال لرجل مقبل من الشام: من لقيت به؟ قال: كعباً. قال: وما

(١) قوله «وغمط مثل هذه النعمة» أي: واحتقر. (ع)

سمعته يقول؟ قال: سمعته يقول: إِنَّ السَّمَوَاتِ عَلَى مَنْكَبِ مَلِكٍ. قَالَ: كَذَبَ كَعْبٌ. أَمَا تَرَكَ يَهُودِيَّتَهُ بَعْدَ ثَمَ قَرَأَ هَذِهِ الْآيَةَ (١٢٤٩).

﴿وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَئِنْ جَاءَهُمْ نَذِيرٌ لَيَكُونُنَّ أَهْدَىٰ مِنْ إِحْدَى الْأُمَمِ فَلَمَّا جَاءَهُمْ نَذِيرٌ مَّا زَادَهُمْ إِلَّا نُفُورًا ﴿٤٢﴾ اسْتِكْبَارًا فِي الْأَرْضِ وَمَكْرَ السَّيِّئِ وَلَا يَحِيقُ الْمَكْرُ السَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِ ۚ فَهَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا سُنَّتَ الْأَوَّلِينَ فَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَبْدِيلًا وَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَحْوِيلًا ﴿٤٣﴾ أُولَئِكَ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَكُنُوا أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعْجِزَهُمْ مِنْ شَيْءٍ فِي السَّمَوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ إِنَّهُ كَانَ عَلِيمًا قَدِيرًا ﴿٤٤﴾﴾

بلغ قريشاً قبل مبعث رسول الله - ﷺ - أن أهل الكتاب كذبوا رسلهم، فقالوا: لعن الله اليهود والنصارى أنتهم الرسل فكذبوهم، فوالله لئن أتانا رسول لنكوننَّ أهدى من إحدى الأمم، فلما بعث رسول الله - ﷺ - كذبوه. وفي ﴿إِحدى الْأُمَمِ﴾ وجهان، أحدهما: من بعض الأمم، ومن واحدة من الأمم من اليهود والنصارى وغيرهم. والثاني: من الأمة التي يقال لها إحدى الأمم، تفضيلاً لها على غيرها في الهدى والاستقامة ﴿مَّا زَادَهُمْ﴾ إسناده مجازي، لأنه هو السبب في أن زادوا أنفسهم. نفوراً عن الحق وابتعاداً عنه كقوله تعالى: ﴿فَزَادَهُمْ رَجْسًا إِلَىٰ رَجْسِهِمْ﴾. ﴿اسْتِكْبَارًا﴾ بدل من نفوراً. أو مفعول له، على معنى: فما زادهم إلا أن نفروا استكباراً وعلواً ﴿فِي الْأَرْضِ﴾ أو حال بمعنى: مستكبرين وماكرين برسول الله - ﷺ - والمؤمنين. ويجوز أن يكون ﴿وَمَكْرَ السَّيِّئِ﴾ معطوفاً على نفوراً فإن قلت: فما وجه قوله: (ومكر السيء)؟ قلت: أصله: وإن مكروا السيء، أي المكر السيء، ثم ومكروا السيء، ثم ومكر السيء. والدليل عليه قوله تعالى: ﴿وَلَا يَحِيقُ الْمَكْرُ السَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِ﴾ ومعنى يحيق: يحيط وينزل. وقرئ: ولا يحيق المكر السيء، أي: لا يحيق الله، ولقد حاق بهم يوم بدر. وعن النبي ﷺ «لا تمكروا ولا تعينوا ماكراً» (١٢٥٠). فإن الله تعالى يقول ﴿وَلَا يَحِيقُ الْمَكْرُ السَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِ﴾ ولا تبغوا/٢/١١٩ ب ولا تعينوا باغياً،

١٢٤٩ - أخرجه ابن جرير الطبري في جامع البيان (٤٢١/١٠) حديث (٢٩٠٣٩)، عن ابن مسعود ولم يذكر قوله: «لما ترك يهوديته بعد، كذلك ذكره السيوطي في الدر المنثور (٤٧٩/٥)، وعزاه إلى سعيد بن منصور وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر عن شقيق عن ابن مسعود بنحوه. قال الحافظ: لم أجده. وروى الطبري من رواية أبي وائل قال: جاء رجل إلى عبد الله بن مسعود - رضي الله عنه - فقال: من أين جئت؟ قال: من الشام فذكره مثله، إلا أنه لم يقل ما ترك يهوديته. انتهى.

١٢٥٠ - تقدم في سورة يونس.

قال الحافظ: أخرجه ابن المبارك في الزهد وقد تقدم في أول يونس. انتهى.

يقول الله تعالى: ﴿إِنَّمَا بَغْيُكُمْ عَلَى أَنْفُسِكُمْ﴾ [يونس: ٢٣]. وعن كعب أنه قال لابن عباس - رضي الله عنهما -: قرأت في التوراة: من حفر مغواة^(١) وقع فيها. قال: أنا وجدت ذلك في كتاب الله، وقرأ الآية. وفي أمثال العرب: من حفر لأخيه جباً وقع فيه منكباً. وقرأ حمزة: ومكر السيء، بإسكان الهمزة، وذلك لاستثقاله الحركات مع الياء والهمزة، ولعله اختلس فظن سكوناً أو وقف وقفة خفيفة، ثم ابتدأ ﴿وَلَا يَحِيقُ﴾ وقرأ ابن مسعود: ومكرأ سيئاً ﴿سُئِلَ الْأَوَّلِينَ﴾ إنزال العذاب على الذين كذبوا برسولهم من الأمم قبلهم، وجعل استقبالهم لذلك انتظاراً له منهم، وبين أن عادته التي هي الانتقام من مكذبي الرسل عادة لا يبدلها ولا يحولها، أي: لا يغيرها، وأن ذلك مفعول له لا محالة، واستشهد عليهم بما كانوا يشاهدونه في مسابيرهم ومتاجرهم في رحلهم إلى الشام والعراق واليمن: من آثار الماضين وعلامات هلاكهم ودمارهم ﴿لِيُعْجِزُوا﴾ ليسبقه ويفوته.

﴿وَلَوْ يُؤَاخِذُ اللَّهُ النَّاسَ بِمَا كَسَبُوا مَا تَرَكَ عَلَى ظَهْرِهَا مِنْ دَابَّةٍ وَلَٰكِنْ يُؤَخِّرُهُمْ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى فَإِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ فَأَبَرَّ اللَّهُ كَانَ يَعْكِدُهُ بِصِيرٍ﴾ ﴿٤٥﴾

﴿بِمَا كَسَبُوا﴾ بما اقترفوا من معاصيهم ﴿عَلَىٰ ظَهْرِهَا﴾ على ظهر الأرض ﴿مِنْ دَابَّةٍ﴾ من نسمة تدب عليها، يريد بني آدم. وقيل: ما ترك بني آدم وغيرهم من سائر الدواب بشؤم ذنوبهم. وعن ابن مسعود: كاد الجعل يعذب في جحره بذنب ابن آدم (١٢٥١)، ثم تلا هذه الآية. وعن أنس: إن الضب ليموت هزلاً في جحره بذنب ابن آدم (١٢٥٢). وقيل: يحبس المطر فيهلك كل شيء ﴿إِنَّ أَجَلَ ثَمَرٍ﴾ إلى يوم القيامة ﴿كَانَ يَعْكِدُهُ بِصِيرٍ﴾ وعيد بالجزاء.

عن رسول الله - ﷺ -: «من قرأ سورة الملائكة دعته ثمانية أبواب الجنة: أن أدخل من أي باب شئت» (١٢٥٣).

١٢٥١ - تقدم في سورة النحل.

وقال ابن حجر: أخرجه الحاكم وقد تقدم في النحل. انتهى.

١٢٥٢ - قال الحافظ ابن حجر: لم أجده عن أنس.

وقد تقدم في سورة النحل عن أبي هريرة وعزاه إليه المصنف فيه على الصواب. انتهى.

١٢٥٣ - تقدم برقم (٣٤٦).

وقال الحافظ: أخرجه الثعلبي وابن مردويه، والواحد من حديث أبي بن كعب - رضي الله عنه -.

(١) قوله «من حفر مغواة وقع فيها» في الصحاح: وقع الناس في أغوية، أي: في داهية. والمغويات - بفتح الواو مشددة -: جمع المغواة، وهي حفرة كالزبية، يقال: من حفر مغواة وقع فيها، والزبية: حفرة تحفر للأسد اهـ. أي: لصيد الأسد. (ع)

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

سورة يس

مكية، [إلا آية ٤٥ فمدنية] وآياتها ٨٣
نزلت بعد سورة الجن

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿يَس ١﴾ وَالْقُرْآنِ الْحَكِيمِ ﴿٢﴾ إِنَّكَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ ﴿٣﴾ عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴿٤﴾ تَنْزِيلَ الْعَزِيزِ الرَّحِيمِ ﴿٥﴾ لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّا أُنْذِرَ آبَاؤُهُمْ فَهُمْ غَافِلُونَ ﴿٦﴾ لَقَدْ حَقَّ الْقَوْلُ عَلَى أَكْثَرِهِمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٧﴾

قرئ: «يس» بالفتح^(١)، كأين وكيف، أو بالنصب على: اتل يس، وبالكسر على الأصل كجبر، وبالرفع على هذه يس، أو بالضم كحيث، وفخمت الألف وأميلت^(٢). وعن ابن عباس رضي الله عنهما: معناه يا إنسان (١٢٥٤) في لغة طييء، والله أعلم بصحته، وإن صح فوجهه أن يكون أصله يا أنيسين، فكثرت النداء به على ألسنتهم حتى اقتصروا على شطره، كما قالوا في القسم: م الله في أيمن الله ﴿الْحَكِيمِ﴾ ذي الحكمة، أو لأنه دليل ناطق بالحكمة كالحي، أو لأنه كلام حكيم فوصف بصفة المتكلم به ﴿عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ خبر بعد خبر، أو صلة للمرسلين. فإن قلت: أي حاجة إليه خبراً كان أو صلة، وقد علم أن المرسلين لا يكونون إلا على صراط مستقيم؟ قلت: ليس الغرض بذكره ما ذهب إليه من تمييز من أرسل على صراط مستقيم عن غيره ممن ليس على

١٢٥٤ - أخرجه الطبري في تفسيره (٤٢٥/١٠)، حديث، (٢٩٠٢٨)، وذكره السيوطي في تفسيره الدر المنثور (٤٨٤/٥) وزاد نسبه إلى عبد بن حميد، وابن المنذر وابن أبي حاتم.

- (١) قوله «قرئ يس بالفتح» يفيد أن السكون قراءة الجمهور، والحركات قراءات لبعضهم، فالفتح بناء أو نصب، والكسر بناء فقط، فتدبر. (ع).
(٢) قوله «فخمت الألف وأميلت» يعني: قرأ الجمهور بالتفخيم. وقرأ بعضهم بالإمالة، كما في النسفي. (ع).

صفته، وإنما الغرض وصفه ووصف ما جاء به من الشريعة، فجمع بين الوصفين في نظام واحد، كأنه قال: إنك لمن المرسلين الثابتين على طريق ثابت، وأيضاً فإن التنكير فيه دل على أنه أرسل من بين الصراط المستقيمة على صراط مستقيم لا يكتنه وصفه^(١)، وقرئ: ﴿تَزِيلُ الْعَزِيزِ الرَّحِيمِ﴾^(٢) بالرفع على أنه خبر مبتدأ محذوف، وبالنصب على أعني، وبالجر على البدل من القرآن ﴿قَوْمًا مَّا أَنْذَرْنَا أَبَائِهِمْ﴾ قوماً غير منذر آبائهم، على الوصف^(٣)، ونحوه قوله تعالى: ﴿لِنُنْذِرَ قَوْمًا مَّا أَنْتُمْ مِنْ نَذِيرٍ مِنْ قَبْلِكَ﴾ [القصص: ٤٦]، ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا إِلَيْهِمْ قَبْلَكَ مِنْ نَذِيرٍ﴾ [سبا: ٤٤]، وقد فسر ﴿مَّا أَنْذَرْنَا أَبَائِهِمْ﴾ على إثبات الإنذار. ووجه ذلك أن تجعل ما مصدرية، لتنذر^(٣) قوماً إنذار آبائهم، أو موصولة ومنصوبة على المفعول الثاني لتنذر قوماً ما أنذره آبائهم من العذاب؛ كقوله تعالى: ﴿إِنَّا أَنْذَرْتُمْ عَذَابًا قَرِيبًا﴾ [النبا: ٤٠]. فإن قلت: أي فرق بين تعلقي قوله: ﴿فَهُمْ غَفِلُونَ﴾ على التفسيرين؟ قلت: هو على الأول متعلق بالنفي؛ أي: لم ينذروا فهم غافلون، على أن عدم إنذارهم هو سبب غفلتهم، وعلى الثاني بقوله: ﴿إِنَّكَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ﴾^(٤) لتنذر، كما تقول: أرسلتك إلى فلان لتنذره، فإنه غافل، أو فهو غافل. فإن قلت: كيف يكونون منذرين غير منذرين لمناقضة هذا ما في الآي الأخر؟ قلت: لا مناقضة؛ لأن الآي في نفي إنذارهم لا في نفي إنذار آبائهم، وآبائهم القدماء من ولد إسماعيل وكانت النذارة فيهم^(٤). فإن قلت: ففي

(١) قال محمود: «إن قلت: ما سر قوله: (على صراط مستقيم) وقد علم بكونه من المرسلين أنه كذلك؟ وأجاب بأن الغرض وصفه ووصف ما جاء به، فجاء بالوصفين في نظام واحد، فكأنه قال: إنك لمن المرسلين على طريق ثابت، قال: وأيضاً ففي تنكير الصراط أنه مخصوص من بين الصراط المستقيمة بصراط لا يكتنه وصفه. انتهى كلامه. قال أحمد: قد تقدم في مواضع أن التنكير قد يفيد تفخيماً وتعظيماً، وهذا منه.

(٢) قال محمود: «إنه على الوصف كقوله: (لتنذر قوماً ما أناهم من نذير) قال: وقد فسر (ما أنذر آبائهم) على إثبات الإنذار على أن ما مصدرية أو موصولة. قال: والفرق بين موقع الفاء على التفسيرين أنها على الأول متعلقة بالنفي معني جواباً له، والمعنى أن نفي إنذارهم هو السبب في غفلتهم، وعلى الثاني بقوله: (إنك لمن المرسلين) لتنذر، كما تقول: أرسلناك إلى فلان لتنذره، فإنه غافل، أو فهو غافل، انتهى» قال أحمد: يعني أنها على التفسير الثاني تفهم أن غفلتهم سبب في إنذارهم.

(٣) قوله «على المفعول الثاني لتنذر» لعل بعده سقطاً تقديره: أي لتنذر. (ع).

(٤) قال محمود: فإن قلت: كيف يكونون منذرين على هذا التفسير غير منذرين في قوله: (ما أناهم من نذير من قبلك) وأجاب بأن الآية لنفي إنذارهم لا لنفي إنذار آبائهم، وآبائهم القدماء من ولد إسماعيل، وقد كانت النذارة فيهم. قال: فما تصنع بأحد التفسيرين الذي مقتضاه أن آبائهم لم ينذروا؛ وهو التفسير الأول في هذه الآية مع التفسير الثاني، ومقتضاه أنهم أنذروا، وأجاب بأن آبائهم الأبعد هم المنذرون لا آبائهم الأدنون. قال: ثم مثل تصميمهم على الكفر وأنهم لا يرجعون؛ ولا يرجعون بأن جعلهم كالمغلولين المقمحين في أنهم لا يلتفتون إلى الحق ولا يطأطئون رءوسهم له وكالحاصلين بين سدين لا يبصرون ما قدامهم ولا ما خلفهم، قال: والضمير للأغلال؛ =

أحد التفسيرين أن آباءهم لم يندروا وهو الظاهر، فما تصنع به؟ قلت: أريد آباؤهم الأذنون دون الأبعاد ﴿الْقَوْلُ﴾ قوله تعالى: ﴿لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ﴾ [السجدة: ١٣] يعني تعلق بهم هذا القول، وثبت عليهم ووجب؛ لأنهم ممن علم أنهم يموتون على الكفر.

﴿إِنَّا ٢/ ١٢٠ جَعَلْنَا فِيْ أَعْنَاقِهِمْ أَغْلَالًا فَهِيَ إِلَى الْأَذْقَانِ فَهُمْ مُّقْمَحُونَ ﴿٨﴾ وَجَعَلْنَا مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَدًّا وَمِنْ خَلْفِهِمْ سَدًّا فَأَغْشَيْنَاهُمْ فَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ ﴿٩﴾﴾

ثم مثل تصميمهم على الكفر، وأنه لا سبيل إلى ارعائهم بأن جعلهم كالمغلولين المقمحين؛ في أنهم لا يلتفتون إلى الحق ولا يعطفون أعناقهم نحوه، ولا يطأطئون رءوسهم له، وكالحاصلين بين سدين لا يبصرون ما قدامهم ولا ما خلفهم، في أن لا تأمل لهم ولا تبصر، وأنهم متعامون عن النظر في آيات الله. فإن قلت: ما معنى قوله: ﴿فَهِيَ إِلَى الْأَذْقَانِ﴾؟ قلت: معناه: فالأغلال واصله إلى الأذقان ملزوزة إليها، وذلك أن طوق الغل الذي في عنق المغلول، يكون ملتقى طرفيه تحت الذقن حلقة فيها رأس العمود، نادراً^(١) من الحلقة إلى الذقن؛ فلا تخليه يطأطئ رأسه ويوطئ قذاله^(٢)، فلا يزال مقمحاً. والمقمح: الذي يرفع رأسه ويغض بصره؛ يقال: قمح البعير فهو قامح: إذا روي فرج رأسه، ومنه شهراً قامح^(٣)؛ لأن الإبل ترفع رءوسها عن الماء لبرده فيهما، وهما الكانونان. ومنه: اقمحت السوق. فإن قلت: فما قولك فيمن جعل الضمير للأيدي، وزعم أن الغل لما كان جامعاً لليد والعنق. وبذلك يسمى جامعة - كان ذكر الأعناق دالاً على ذكر الأيدي^(٤)؟ قلت: الوجه ما ذكرت لك، والدليل عليه قوله: ﴿فَهُمْ مُّقْمَحُونَ﴾ ألا

= لأن طوق الغل يكون في ملتقى طرفيه تحت الذقن حلقة فيها رأس العمود نادراً من الحلقة إلى الذقن، فلا تخليه يطأطئ رأسه، فلا يزال مقمحاً. انتهى كلامه قال أحمد: إذا فرقت هذا التشبيه كان تصميمهم على الكفر مشبهاً بالأغلال، وكان استكبارهم عن قبول الحق وعن الخضوع والتواضع لاستماعه مشبهاً بالإقماح؛ لأن المقمح لا يطأطئ رأسه. وقوله: (فهو إلى الأذقان) تنمة للزوم الإقماح لهم، وكان عدم الفكر في القرون الخالية مشبهاً بسد من خلفهم، وعدم النظر في العواقب المستقلة مشبهاً بسد من قدامهم.

(١) قوله «رأس العمود نادراً» أي شاذاً، كما يفيد الصراح. (ع).

(٢) قوله «ويوطئ قذاله» في الصراح «القذال»: جماع مؤخر الرأس، فتدبر. (ع).

(٣) قوله «ومنه شهراً قامح» بوزن كتاب وغراب، كما نقل عن القاموس. وفي الصراح: سمي بذلك؛ لأن الإبل إذا وردت فيهما آذاها برد الماء فقامحت. (ع).

(٤) قال محمود: «فإن قلت: فما قولك فيمن جعل الضمير للأيدي وزعم أن الغل لما كان جامعاً لليد والعنق، وبذلك يسمى جامعة: كان ذكر الأعناق دالاً على ذكر الأيدي. وأجاب بأن الوجه هو الأول، واستدل على هذا التفسير الثاني بقوله: (فهم مقمحون) لأنه جعل الإقماح نتيجة قوله: (فهو إلى الأذقان) ولو كان الضمير للأيدي لم يكن معنى التسبب في الإقماح ظاهراً، وترك الحق الأبلج =

ترى كيف جعل الإقماح نتيجة قوله: ﴿فَهِيَ إِلَى الْأَذْقَانِ﴾ ولو كان الضمير للأيدي، لم يكن معنى التسبب في الإقماح ظاهراً؛ على أن هذا الإضمار فيه ضرب من التعسف وترك الظاهر الذي يدعوه المعنى إلى نفسه إلى الباطن الذي يجفو عنه وترك للحق الأبلج إلى الباطل اللجلج^(١). فإن قلت: فقد قرأ ابن عباس رضي الله عنهما: «في أيديهم»، وابن مسعود: «في أيماهم»، فهل تجوز على هاتين القراءتين أن تجعل الضمير للأيدي أو للإيمان؟ قلت: يأبى ذلك وإن ذهب الإضمار المتعسف ظهور كون الضمير للأغلال، وسداد المعنى عليه كما ذكرت. وقرئ: «سداً» بالفتح والضم. وقيل: ما كان من عمل الناس فبالفتح، وما كان من خلق الله فالبضم ﴿فَأَغَشَيْنَاهُمْ﴾ فأغشيناهم أبصارهم، أي: غطيناهم، وجعلنا عليها غشاوة عن أن تطمح إلى مرئي، وعن مجاهد: فأغشيناهم: فألبسنا أبصارهم غشاوة. وقرئ: بالعين من العشا. وقيل: نزلت في بني مخزوم؛ وذلك أن أبا جهل حلف لئن رأى محمداً يصلي ليرضخن رأسه، فأتاه وهو يصلي ومعه حجر ليدمغه به، فلما رفع يده أثبتت إلى عنقه ولزق الحجر بيده، حتى فكوه عنها بجهد، فرجع إلى قومه فأخبرهم، فقال مخزومي آخر: أنا أقتله بهذا الحجر، فذهب، فأعمى الله عينه (١٢٥٥).

﴿وَسَوَاءٌ عَلَيْهِمْ ءَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ ﴿١٠﴾ إِنَّمَا تُنذِرُ مَنِ اتَّبَعَ الذِّكْرَ وَخَشِيَ الرَّحْمَنَ الْغَيْبَ فَبَشِّرْهُ بِمَغْفِرَةٍ وَأَجْرٍ كَرِيمٍ ﴿١١﴾

فإن قلت: قد ذكر ما دلّ على انتفاء إيمانهم مع ثبوت الإنذار، ثم قفاه بقوله: ﴿إِنَّمَا

١٢٥٥ - أخرجه أبو نعيم في الدلائل ص (١٣٣)، وابن إسحاق (٢٨٤ - سيرة ابن هشام).

قال الحافظ: أخرجه ابن إسحاق في السيرة في كلام طويل. ورواه أبو نعيم في الدلائل من طريق ابن إسحاق: حدثني محمد بن محمد بن سعيد، أو عكرمة، عن ابن عباس: «أن أبا جهل قال: إني أعاهد الله لأجلسن غداً لمحمد بحجر ما أطيق حمله فإذا سجد في صلاته فضخت به رأسه، فذكر نحوه إلى قوله: قد يست يده على حجره، حتى قذف الحجر بين يديه: وأصله في البخاري من طريق عكرمة عن ابن عباس - رضي الله عنهما. أهـ

= للباطل اللجلج. انتهى كلامه» قال أحمد: ويحتمل أن تكون الفاء للتعقيب كالفاء الأولى في قوله: (فهي إلى الأذقان) أو للتسبب، ولا شك أن ضغط اليد مع العنق في الغل يوجب الإقماح؛ فإن اليد - والعياذ بالله تعالى - تبقى ممسكة بالغل تحت الذقن دافعة بها ومانعة من وطأنها، ويكون التشبيه أتم على هذا التفسير، فإن اليد متى كانت مرسلة مخلاة كان للمغلول بعض الفرج بإطلاقها، ولعله يتحيل بها على فكاك الغل، ولا كذلك إذا كانت مغلوطة، فيضاف إلى ما ذكرناه من التشبيهات المفارقة أن يكون انسداد باب الحيل عليهم في الهداية والانخلاع من ربة الكفر المقدر عليهم مشبهاً بغل الأيدي؛ فإن اليد آلة الحيلة إلى الخلاص.

(١) قوله: «إلى الباطل اللجلج» أي الذي يردد من غير أن ينفذ. أفاده الصحاح. (ع).

تُنذِرُ^(١) وإنما كانت تصح هذه التقفية لو كان الإنذار منفياً. قلت: هو كما قلت، ولكن لما كان ذلك نفيًا للإيمان مع وجود الإنذار، وكان معناه أن البغية المرومة بالإنذار غير حاصلة وهي الإيمان - فقي بقوله: ﴿إِنَّمَا تُنذِرُ﴾ على معنى: إنما تحصل البغية بإنذارك من غير هؤلاء المنذرين وهم المتبعون للذكر؛ وهو القرآن أو الوعظ، الخاشون ربهم.

﴿إِنَّا نَحْنُ نُحْيِي الْمَوْتَى وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُوا وَآثَرَهُمْ وَكُلُّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَاهُ فِي إِمَامٍ

مُبِينٍ ﴿١٢﴾﴾

﴿نَحْيِي الْمَوْتَى﴾ نبعثهم بعد مماتهم. وعن الحسن: إحيائهم: أن يخرجهم من الشرك إلى الإيمان ﴿وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُوا﴾ أسلفوا من الأعمال الصالحة وغيرها، وما هلكوا عنه من أثر حسن، كعلم علموه، أو كتاب صنفوه، أو حبس حبسوه، أو بناء بنوه، من مسجد أو رباط أو قنطرة أو نحو ذلك. أو سبيء، كوظيفة وظفها بعض الظلام على المسلمين، وسكة أحدث فيها تخسيرهم، وشيء أحدث فيه صدعن ذكر الله؛ من ألحان وملا، وكذلك كل سنة حسنة أو سيئة يستن بها. ونحوه قوله تعالى: ﴿يَبْنِي الْإِنْسُ يَوْمَئِذٍ بِمَا قَدَّمَ وَأَخَّرَ﴾ [القيامة: ١٣] أي: قَدَّمَ من أعماله، وأَخَّرَ من آثاره. وقيل: هي آثار المشائين إلى المساجد. وعن جابر: أردنا النقلة إلى المسجد والبقاع حوله خالية، فبلغ ذلك رسول الله ﷺ فأتانا في ديارنا، وقال: يا بني سلمة، بلغني أنكم تريدون النقلة إلى المسجد، فقلنا: نعم، بعد علينا المسجد والبقاع حوله خالية، فقال: عليكم دياركم. فإنما تكتب آثاركم. قال: فما ودنا حضرة المسجد لما قال رسول الله ﷺ (١٢٥٦). وعن عمر بن عبد العزيز: لو كان الله مغفلًا شيئًا لأغفل هذه الآثار التي تعفيها الرياح. والإمام: اللوح. وقرئ: «ويكتب ما قَدَّمُوا وآثارهم» على البناء للمفعول، «وكل شيء» بالرفع.

١٢٥٦ - أخرجه مسلم (١٨٢/٣) نووي: كتاب المساجد: باب فضل كثرة الخطا إلى المساجد، حديث (٦٦٥/٢٨٠)، وأحمد (٣٣٢/٣ - ٣٣٣)، والبيهقي في الكبرى (٦٤/٣)، وعبد الرزاق في مصنفه (٥١٧/١)، حديث (١٩٨٢)، وأبو عوانة (٣٨٧/١ - ٣٨٨)، وابن حبان في صحيحه (٣٩٠/٥) - (٣٩١)، حديث (٢٠٤٢)، والطبري (٤٢٩/١٠)، حديث (٢٩٠٧١، ٢٩٠٧٢). وذكره السيوطي في الدر (٤٨٨/٥) وعزاه لمسلم والطبري وابن مردويه عن جابر.

(١) قال محمود: «إن قلت: قد ذكرنا ما دل على انتفاء إيمانهم مع ثبوت الإنذار، ثم قفاه بقوله: (إنما تنذر) وإنما كانت التقفية تصح لو كان الإنذار منفياً، وأجاب بأن الأمر كذلك، ولكن لما بين أن البغية المرومة بالإنذار وهي الإيمان منفية عنهم قفاه بقوله: (إنما تنذر) أو إنما تحصل بغية الإنذار ممن اتبع الذكر. انتهى كلامه» قلت: في السؤال سوء أدب، وينبغي أن يقال: وما وجه ذكر الإنذار الثاني في معرض المخالفة للأول، مع أن الأول إثبات، والإنذار الثاني كذلك؟

﴿وَأَضْرِبْ لَهُمْ مَثَلًا مِّنَ الْقَرْيَةِ إِذْ جَاءَهَا الْمُرْسَلُونَ﴾ (١٣) إِذْ أَرْسَلْنَا إِلَيْهِمُ / ٢
 ١٢٠ ب فَعَزَّزْنَا بِبَالِكٍ فَقَالُوا إِنَّا إِلَيْكُمْ مُّرْسَلُونَ ﴿١٤﴾ قَالُوا مَا أَنتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا وَمَا أَنزَلَ الرَّحْمَنُ
 مِنْ شَيْءٍ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا تَكْذِبُونَ ﴿١٥﴾

﴿وَأَضْرِبْ لَهُمْ مَثَلًا﴾ ومثل لهم مثلاً، من قولهم: عندي من هذا الضرب كذا، أي: من هذا المثال، وهذه الأشياء على ضرب واحد، أي على مثال واحد. والمعنى: واضرب لهم مثلاً مثل أصحاب القرية، أي: اذكر لهم قصة عجيبة قصة أصحاب القرية. والمثل الثاني بيان للأول. وانتصاب إذ بأنه بدل من أصحاب القرية. والقرية أنطاكية. و ﴿الْمُرْسَلُونَ﴾ رسل عيسى عليه السلام إلى أهلها، بعثهم دعاة إلى الحق وكانوا عبدة أوثان، أرسل إليهم اثنين، فلما قربا من المدينة رأيا شيخاً يرعى غنيمات له، وهو حبيب النجار صاحب يس، فسألهما فأخبراه، فقال: أمعكما آية؟ فقالا: نشفي المريض ونبريء الأكمه والأبرص، وكان له ولد مريض من سنتين فمسحاه، فقام، فآمن حبيب وفشا الخبر، فشفي على أيديهما خلق كثير، ورقى حديثهما إلى الملك، وقال لهما: ألنا إله سوى آلهتنا؟ قال: نعم من أوجدك وآلهتك، فقال: حتى أنظر في أمركما، فتبعهما الناس وضربوهما. وقيل: حبسا. ثم بعث عيسى عليه السلام شمعون؛ فدخل متنكراً، وعاشر حاشية الملك حتى استأنسوا به، ورفعوا خبره إلى الملك فأنس به، فقال له ذات يوم: بلغني أنك حبست رجلين فهل سمعت ما يقولانه؟ فقال: لا، حال الغضب بيني وبين ذلك، فدعاهما، فقال شمعون: من أرسلكما؟ قال: الله الذي خلق كل شيء وليس له شريك، فقال: صفاه وأجزا. قال: يفعل ما يشاء ويحكم ما يريد. قال: وما آيتكما؟ قال: ما يتمنى الملك، فدعا بغلام مطموس العينين، فدعوا الله حتى انشق له بصر، وأخذاً بندقيتين فوضعهما في صدقيه فكانتا مقلتين ينظر بهما، فقال له شمعون: أرايت لو سألت إلهك حتى يصنع مثل هذا فيكون لك وله الشرف. قال: ليس لي عنك سر، إن إلهنا لا يبصر ولا يسمع ولا يضر ولا ينفع، وكان شمعون يدخل معهم على الصنم فيصلي ويتضرع ويحسبون أنه منهم، ثم قال: إن قدر إلهكما على إحياء ميت آمنا به، فدعوا بغلام مات من سبعة أيام فقام وقال: إني أدخلت في سبعة أودية من النار، وأنا أحذركم ما أنتم فيه فآمنوا، وقال: فتحت أبواب السماء فرأيت شاباً حسن الوجه يشفع لهؤلاء الثلاثة، قال الملك: ومن هم؟ قال شمعون: وهذان، فتعجب الملك. فلما رأى شمعون أن قوله قد أثر فيه، نصحه فآمن وآمن معه قوم، ومن لم يؤمن صاح عليهم جبريل عليه السلام صيحة فهلكوا ﴿فَعَزَّزْنَا﴾ فقوينا؛ يقال: المطر يعزز الأرض إذا لبدها وشدها، وتعزز لحم الناقة. وقرئ: بالتخفيف من عزه يعزه: إذا غلبه، أي: فغلبنا وقهرنا ﴿بِبَالِكٍ﴾ وهو شمعون. فإن قلت: لم ترك ذكر المفعول به؟ قلت: لأن الغرض ذكر المعزز به وهو شمعون، وما لطف فيه

من التدبير حتى عزَّ الحق وذَلَّ الباطل، وإذا كان الكلام منصّباً إلى غرض من الأغراض، جعل سياقه له وتوجهه إليه، كأن ما سواه مرفوض مطرح، ونظيره قولك: حكم السلطان اليوم بالحق، الغرض المسوق إليه: قولك بالحق، فلذلك رفضت ذكر المحكوم له والمحكوم عليه. إنما رفع «بشر» ونصب^(١) في قوله: ﴿مَا هَذَا بَشَرًا﴾ [يوسف: ٣١] لأنَّ «إِلَّا» تنقض النفي، فلا يبقى لما المشبهة بليس شبه، فلا يبقى له عمل. فإن قلت: لم قيل: ﴿إِنَّا إِلَيْكُمْ مُّرْسَلُونَ﴾ أولاً^(٢)، و﴿إِنَّا إِلَيْكُمْ لَمُرْسَلُونَ﴾ آخراً؟ قلت: لأنَّ الأول ابتداء إخبار، والثاني جواب عن إنكار.

﴿قَالُوا رَبَّنَا عَلِّمْنَا لِنَا إِيَّاكَ لَعَلَّكُم مَّرْسَلُونَ﴾ وَمَا عَلَّمْنَا إِلَّا الْبَلْغَ الْأَمِيثَ ﴿٧﴾

وقوله: ﴿رَبَّنَا عَلِّمْنَا﴾ جار مجرى القسم في التوكيد، وكذلك قولهم: شهد الله، وعلم الله، وإنما حسن منهم هذا الجواب الوارد على طريق التوكيد والتحقيق مع قولهم: ﴿وَمَا عَلَّمْنَا إِلَّا الْبَلْغَ الْأَمِيثَ﴾ ﴿٧﴾ أي: الظاهر المكشوف بالآيات الشاهدة لصحته؛ وإلا فلو قال المدعي: والله إني لصادق فيما أدعي، ولم يحضر البينة - كان قبيحاً.

﴿قَالُوا إِنَّا تَطَيَّرْنَا بِكُمْ لَئِن لَّمْ تَنْتَهُوا لَنَرْجُمَنَّكُمْ وَلَيَمَسَّنَّكُم مِّنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ ﴿٨﴾ قَالُوا طَائِرُكُم مَّعَكُمْ أَيْنَ ذُكِّرْتُمْ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ مُّشْرِقُونَ ﴿٩﴾

﴿تَطَيَّرْنَا بِكُمْ﴾ تشاء منا بكم، وذلك أنهم كرهوا دينهم ونفرت منهم نفوسهم^(٣)، وعادة الجهال أن يقيموا بكل شيء مالوا إليه واشتهوه وآثروه وقبلته طباعهم، ويتشاءموا بما نفروا عنه وكرهوه، فإن أصابهم نعمة أو بلاء قالوا ببركة هذا وبشؤم هذا، كما حكى الله عن القبط: ﴿وَإِنْ تُصِيبَهُمْ سَيِّئَةٌ يَطَّيَّرُوا بِمُوسَىٰ وَمَنْ مَّعَهُ﴾ [الأعراف: ١٣١]. وعن مشركي مكة: ﴿وَإِنْ تُصِيبَهُمْ سَيِّئَةٌ يَقُولُوا هَذِهِ مِنْ عِنْدِكَ قُلْ﴾ [النساء: ٧٨]. وقيل: حبس عنهم القطر فقالوا ذلك. وعن قتادة: إن أصابنا شيء كان من أجلكم ﴿طَائِرُكُمْ مَّعَكُمْ﴾ وقرئ: «طيركم» أي: سبب شؤمكم معكم وهو كفرهم، أو أسباب شؤمكم معكم، وهي كفرهم ومعاصيهم. وقرأ الحسن «أطيركم» أي تطيركم، وقرئ: «أئن ذكرتم» بهمزة الاستفهام وحرف الشرط، و «أئن» بألف بينهما^(٤)، بمعنى: أتطيرون إن ذكرتم؟ وقرئ: «أأن

(١) قوله: «إنما رفع بشر ونصب» عبارة النسفي: إنما رفع بشر هنا ونصب... إلخ» (ع).

(٢) قال محمود: «إن قلت: لم أسقط اللام هنا وأثبتها في الثانية عند قوله (ربنا يعلم إنا إليكم لمرسلون) قلت: الأول ابتداء إخبار، والثاني جواب إنكار» قال أحمد: أي فلاق توكيده.

(٣) قوله: «ونفرت منهم» لعله: منه كعبارة النسفي. (ع).

(٤) قوله: «وأئن بألف بينهما» الذي في النسفي أن هذا وما قبله بياء مكسورة بدل الهمزة الثانية. (ع).

ذكرتم» بهمزة الاستفهام وأن الناصبة، يعني: أنطيرتم لأن ذكرتم؟ وقرئ: أن، وإن بغير استفهام لمعنى الإخبار، أي تطيرتم/ ١٢١/٢ لأن ذكرتم، أو إن ذكرتم تطيرتم. وقرئ: «أين ذكرتم»: على التخفيف، أي: شؤمكم معكم حيث جرى ذكركم، وإذا شؤم المكان بذكرهم كان بحلولهم فيه أشأم ﴿بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ﴾ في العصيان، ومن ثم أناكم الشؤم، لا من قبل رسل الله وتذكيرهم، أو بل أنتم قوم مسرفون في ضلالكم متمادون في غيكم، حيث تتشاءمون بمن يجب التبرك به من رسل الله.

﴿وَجَاءَ مِنْ أَقْصَا الْمَدِينَةِ رَجُلٌ يَسْعَىٰ قَالَ يَنْفَوِرَ أَتَّبِعُوا الْمُرْسَلِينَ ﴿٢٥﴾ أَتَّبِعُوا مِنْ لَا يَسْتَلْكَوْا أَجْرًا وَهُمْ مُّهْتَدُونَ ﴿٢٦﴾ وَمَا لِي لَا أَعْبُدُ الَّذِي فَطَرَنِي وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٢٧﴾ أَأَتَّخِذُ مِنْ دُونِهِ ۚ إِلَٰهَةً إِنْ يُرِدْنِ الرَّحْمَنُ بِضُرٍّ لَا تُغْنِي عَنْهُمْ شَفَعَتُهُمْ شَيْئًا وَلَا يُنْقِذُونِ ﴿٢٨﴾ إِنَِّّي إِذَا لَفِيَ ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴿٢٩﴾ إِنْ تَأْمَنُّكُمْ رَبُّكُمْ فَأَسْمَعُونِ ﴿٣٥﴾﴾

﴿رَجُلٌ يَسْعَى﴾ هو حبيب بن إسرائيل النجار، وكان ينحت الأصنام، وهو ممن آمن برسول الله ﷺ، وبينهما ستمائة سنة؛ كما آمن به تبع الأكبر وورقة بن نوفل وغيرهما، ولم يؤمن بنبي أحد إلا بعد ظهوره. وقيل: كان في غار يعبد الله، فلما بلغه خبر الرسل أتاهم وأظهر دينه وقاول الكفرة، فقالوا: أوأنت تخالف ديننا؟ فوثبوا عليه فقتلوه. وقيل: توطئوه بأرجلهم حتى خرج قصبه^(١) من دبره. وقيل: رجموه وهو يقول: اللهم اهد قومي (١٢٥٧). وقبره في سوق أنطاكية، فلما قتل غضب الله عليهم فأهلكوا بصيحة جبريل عليه السلام. وعن رسول الله ﷺ: «سَبَاقُ الْأُمَمِ ثَلَاثَةٌ، لَمْ يَكْفُرُوا بِاللَّهِ طَرْفَةَ عَيْنٍ: عَلِيٌّ بْنُ أَبِي طَالِبٍ، وَصَاحِبُ يَسَّ، وَمُؤْمِنُ آلِ فِرْعَوْنَ» (١٢٥٨). ﴿مَنْ لَا يَسْتَلْكَوْا أَجْرًا وَهُمْ مُّهْتَدُونَ﴾

١٢٥٧ - أخرجه الطبري (٤٣٤/١٠) جامع البيان، حديث (٢٩٠٩٧) عن قتادة، وعبد الرزاق في تفسيره (١٤١/٢) عن قتادة.

وذكره السيوطي في الدر المنثور (٤٩١/٥) وعزاه لعبد الرزاق وعبد بن حميد وابن جرير، وابن المنذر وابن أبي حاتم عن قتادة بمعناه.

١٢٥٨ - أخرجه الطبراني في الكبير (٩٣/١١)، حديث (١١١٥٢)، والعقيلي في الضعفاء الكبير (١/٢٤٩).

وذكره الزيلعي في تخريج الكشاف (١٦٢/٣)، حديث (١٠٧٢). وزاد نسبه إلى ابن مردويه، والثعلبي.

أما السباق أربعة فأخرجه الحاكم في مستدركه (٢٨٥/٣) كتاب معرفة الصحابة: معرفة بلال رضي الله عنه، وابن أبي حاتم في العلل (٣٥٣/٢) حديث (٢٥٧٧).

(١) قوله: «حتى خرج قصبه» في الصحاح «القصب» بالضم: المتقى، والمعني: واحد الأمعاء. (ع).

كلمة جامعة في الترغيب فيهم، أي: لا تخسرون معهم شيئاً من دنياكم، وتربحون صحة دينكم؛ فينتظم لكم خير الدنيا وخير الآخرة، ثم أبرز الكلام في معرض المناصحة لنفسه، وهو يريد مناصحتهم ليتلطف بهم ويداريهم، ولأنه أدخل في إمحاض النصح حيث لا يريد لهم إلا ما يريد لروحه، ولقد وضع قوله: ﴿وَمَا لِي لَا أَعْبُدُ الَّذِي فَطَرَنِي﴾ مكان قوله: وما لكم لا تعبدون الذي فطركم. ألا ترى إلى قوله: ﴿وَاللَّيْلُ تُرْجَعُونَ﴾ ولولا أنه قصد ذلك لقال: الذي فطرني وإليه أرجع، وقد ساقه ذلك المساق إلى أن قال: ﴿ءَأَمِنْتُ بِرَبِّكُمْ فَاسْمَعُون﴾ يريد فاسمعوا قولي وأطيعوني، فقد نهتكم على الصحيح الذي لا معدل عنه؛ أن العبادة لا تصح إلا لمن منه مبتدؤكم وإليه مرجعكم، وما أدفع العقول وأنكرها لأن تستحبوا على عبادته عبادة أشياء، إن أرادكم هو بضرٍ وشفع لكم هؤلاء، لم تنفع شفاعتهم ولم يمكنوا من أن يكونوا شفعاء عنده؛ ولم يقدروا على إنقاذكم منه بوجه من الوجوه، إنكم في هذا الاستحباب لواقعون في ضلال ظاهر بين لا يخفى على ذي عقل وتمييز. وقيل: لما نصح قومه أخذوا يرجمونه فأسرع نحو الرسل قبل أن يقتل، فقال لهم: ﴿ءَأَمِنْتُ بِرَبِّكُمْ فَاسْمَعُون﴾ أي اسمعوا إيماني تشهدوا لي به. وقرئ: «إن يوردني الرحمن بضرٍ» بمعنى: إن يوردني ضرراً، أي يجعلني مورداً للضرر.

﴿يَبْلُ أَدْخَلَ الْجَنَّةَ قَالَ يَلَيْتَ قَوِي يَعْلَمُونَ﴾ ﴿٢٦﴾ يَمَا عَفَرَ لِي رَبِّي وَجَعَلَنِي مِنَ الْمُكْرَمِينَ ﴿٢٧﴾

أي: لما قتل ﴿يَبْلُ﴾ له: ﴿أَدْخَلَ الْجَنَّةَ﴾ وعن قتادة: أدخله الله الجنة وهو فيها حي يرزق، أراد قوله تعالى: ﴿بَلْ أَحْيَاءٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ فَرِحِينَ﴾ [آل عمران: ١٦٩ - ١٧٠] وقيل: معناه البشرى بدخول الجنة وأنه من أهلها. فإن قلت: كيف مخرج هذا القول في علم البيان؟ قلت: مخرجه مخرج الاستئناف؛ لأن هذا من مظان المسألة عن حاله عند لقاء ربه، كأن قائله قال: كيف كان لقاء ربه بعد ذلك التصلب في نصرة دينه، والتسخي لوجهه بروحه؟ فقليل: قيل: ادخل الجنة ولم يقل: قيل له؛ لأنصبا الغرض إلى المقول وعظمه، لا إلى المقول له مع كونه معلوماً، وكذلك ﴿قَالَ يَلَيْتَ قَوِي يَعْلَمُونَ﴾ مرتب على تقدير سؤال سائل عما وجد من قوله عند ذلك الفوز العظيم، وإنما تمنى علم قومه بحاله؛ ليكون علمهم بها سبباً لاكتساب مثلها لأنفسهم، بالتوبة عن الكفر، والدخول في الإيمان

= كتاب معرفة الصحابة: معرفة بلال - رضي الله عنه -، قال الحافظ: أخرجه الثعلبي من طريق عبد الرحمن بن أبي ليلى عن أبيه بهذا، وفيه عمرو بن جميع وهو متروك. ورواه العقيلي، والطبراني، وابن مردويه، من طريق حسين بن حسن الأشقر عن ابن عيينة عن ابن أبي نجيح عن مجاهد عن ابن عباس، بلفظ السباق ثلاثة، فالسابق إلى عيسى صاحب يس، وإلى محمد ﷺ - علي بن أبي طالب. أ. هـ

والعمل الصالح المفضيين بأهلها إلى الجنة. وفي حديث مرفوع: «نصح قومه حياً وميتاً» (١٢٥٩). وفيه تنبيه عظيم على وجوب كظم الغيظ، والحلم عن أهل الجهل، والترؤف على من أدخل نفسه في غمار الأشرار وأهل البغي، والتشمر في تخليصه والتلطف في اقتدائه، والاستغال بذلك عن السمات به والدعاء عليه؛ ألا ترى كيف تمنى الخير لقتلته والباغين له الغوائل وهم كفرة عبدة أصنام. ويجوز أن يتمنى ذلك ليعلموا أنهم كانوا على خطأ عظيم في أمره، وأنه كان على صواب ونصيحة وشفقة، وأن عداوتهم لم تكسبه إلا فوزاً ولم تعقبه إلا سعادة؛ لأن في ذلك زيادة غبطة له وتضاعف لذة وسرور. والأول أوجه. وقرئ: «المكرمين». فإن قلت: «ما» في قوله تعالى: ﴿يَا غَفَرَ لِي رَبِّي﴾ أي المآت هي؟ قلت: المصدرية أو الموصولة؛ أي: بالذي غفره لي من الذنوب. ويحتمل أن تكون استفهامية؛ يعني بأي شيء غفر لي ربي؛ يريد به ١٢١/٢ ب ما كان منه معهم من المصابرة لإعزاز الدين حتى قتل، إلا أن قولك: «بم غفر لي» بطرح الألف أجود، وإن كان إثباتها جائزاً؛ يقال: قد علمت بما صنعت هذا، أي: بأي شيء صنعت وبم صنعت.

﴿وَمَا أَرْزَلْنَا عَلَى قَوْمِهِ مِنْ بَعْدِهِ مِنْ جُنْدٍ مِّنَ السَّمَاءِ وَمَا كُنَّا مُنْزِلِينَ﴾ (٢٨) إِنْ كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً فَإِذَا هُمْ خَامِلُونَ ﴿٢٩﴾

المعنى: أن الله كفى أمرهم بصيحة ملك، ولم ينزل لإهلاكهم جنداً من جنود السماء، كما فعل يوم بدر والخندق، فإن قلت: وما معنى قوله: ﴿وَمَا كُنَّا مُنْزِلِينَ﴾؟ قلت: معناه: وما كان يصح في حكمتنا أن ننزل في إهلاك قوم حبيب جنداً من السماء؛ وذلك لأن الله تعالى أجرى هلاك كل قوم على بعض الوجوه دون البعض، وما ذلك إلا بناء على ما اقتضته الحكمة وأوجبه المصلحة، ألا ترى إلى قوله تعالى: ﴿فَمِنْهُمْ مَّنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا وَمِنْهُمْ مَّنْ أَخَذَتْهُ الصَّيْحَةُ وَمِنْهُمْ مَّنْ شَسَعْنَا فِي الْأَرْضِ وَمِنْهُمْ مَّنْ أَغْرَقْنَا﴾ [العنكبوت: ٤٠]. فإن قلت: فلم أنزل الجنود من السماء يوم بدر والخندق؟ قال تعالى: ﴿فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا وَجُودًا لَّمْ تَرَوْهَا﴾ [الأحزاب: ٩]، ﴿يَا أَيُّهَا الْمَلَأَتْ يَدَكَ مِرْدِفًا﴾ [الأنفال: ٩]، ﴿يَلْدَغُوا أَلْفًا مِّنَ الْمَلَكِ مِّنْزِلَيْنِ﴾ [آل عمران: ١٢٤]، ﴿بِحَسَّةٍ الْأَلْفِ مِنَ الْمَلَكِ مِسْمِينِ﴾ [آل عمران: ١٢٥]؟ قلت: إنما كان يكفي ملك واحد، فقد أهلكك مدائن

١٢٥٩ - ذكره الزيلعي في تخريج الكشاف (١٦٣/٣)، حديث (١٠٧٣)، وعزه لابن مردويه في تفسيره. قال الحافظ: ورد هذا في قصة عروة بن مسعود أخرجه ابن مردويه من حديث المغيرة بن شعبه، فذكر القصة وفي آخرها فكان يقول وهو في النزاع: يا معشر ثقيف اتوا رسول الله ﷺ - فاطلبوا منه الأمان، قبل أن يبلغه موتي فيغزوكم. فلم يزل كذلك حتى مات، فبلغ النبي ﷺ -. فقال: لقد نصح قومه حياً وميتاً، وشبهه بصاحب يس. أ. هـ

قوم لوط بريشة من جناح جبريل، وبلاد ثمود وقوم صالح بصيحة منه، ولكن الله فضل محمداً ﷺ بكل شيء على كبار الأنبياء وأولي العزم من الرسل، فضلاً عن حبيب النجار، وأولاده من أسباب الكرامة والإعزاز ما لم يوله أحداً؛ فمن ذلك أنه أنزل له جنوداً من السماء، وكأنه أشار بقوله: ﴿وَمَا أَنْزَلْنَا﴾ ﴿وَمَا كُنَّا مُنْزِلِينَ﴾ إلى أن إنزال الجنود من عظام الأمور التي لا يؤهل لها إلا مثلك، وما كنا نفعله بغيرك ﴿إِنْ كَانَتْ إِلَّا صَيَّحَةٌ وَجِدَةٌ﴾ إن كانت الأخذة أو العقوبة إلا صيحة واحدة. وقرأ أبو جعفر المدني بالرفع على كان التامة، أي: ما وقعت إلا صيحة، والقياس والاستعمال على تذكير الفعل؛ لأنَّ المعنى: ما وقع شيء إلا صيحة، ولكنه نظر إلى ظاهر اللفظ وأن الصيحة في حكم فاعل الفعل، ومثلها قراءة الحسن: «فأصبحوا لا ترى إلا مساكنهم» وبيت ذي الرمة [من الطويل]:

..... وَمَا بَقِيَتْ إِلَّا الضُّلُوعُ الْجَرَاشِعُ^(١)

وقرأ ابن مسعود: «إلازقية واحدة» من زقا الطائر يزقو ويزقي، إذا صاح. ومنه المثل: أثقل من الزواقي. ﴿حَكِيمُونَ﴾ خمدوا كما تخدم النار، فتعود رماداً؛ كما قال لبيد [من الطويل]:

وَمَا الْمَرْءُ إِلَّا كَالشَّهَابِ وَضُوءِهِ يَحُورُ رَمَاداً بَعْدَ إِذْ هُوَ سَاطِعُ^(٢)

(١) برى لحمها سير الفيافي وحرها وما بقيت إلا الضلوع الجراشع.

للبيد، يصف ناقته بأنها أذهب لحمها سير الأراضي القفرة؛ أي السير فيها وحرها الشديد، برى ما بقيت فيها إلا الضلوع. وكان الأفصح حذف التاء؛ لأن المعنى: ما بقي فيها شيء إلا الضلوع، لكنه أنث نظراً للضلوع. والجراشع: جمع جرشع كقنفذ، وهو الغليظ المرتفع. ويروى بدل الشطر الأول، طوى الحر والأجراز ما في عروضها، والأجراز: جمع جرز، وهي المفازة القفرة، والعروض: جمع عرض - بضم فسكون -: أي جنوبها. ويروى: النحز، بدل الحر، وهو بنون فمهملة فزاي: النخس والدفع. ويروى «غروض» بغيرين معجمة: جمع غرض، كقفل: وهو حزام الرحل، أراد به الصدر لعلاقة المجاورة. أو هو على حذف مضاف، أي محل غروضها. ويجوز أنه أراد بما في غروضها الصدر ذاته لا الشحم واللحم. ومعنى الطي التضمير أو الإذهاب على طريق المجاز.

ينظر ديوانه: ص ١٢٩٦، وتخليص الشواهد ص ٤٨٢، وتذكرة النحاة ص ١١٣، وشرح المفصل لابن يعيش ٨٧/٢، والمحتسب ٢٠٧/٢، والمقاصد النحوية ٤٧٧/٢، وبلا نسبة في شرح الأشموني ١٧٢/٢، وشرح ابن عقيل ص ٢٤٣.

(٢) وما المرء إلا كالشهاب وضوئه يحور رماداً بعد إذ هو ساطع وما المال والأهلون إلا ودائع ولا بد يوماً أن ترد الودائع.

للبيد العامري، أي: ليس حال المرء وحياته وبهجه ثم موته وفناؤه بعد ذلك إلا مثل حال شهاب النار وضوئه حال كونه يصير رماداً بعد إضاءته. ويمكن أن قوله: «يحور رماداً» استئناف مبين لوجه الشبه، وذلك تشبيه هيئة، ولا يصح تشبيه المرء بالشهاب وضوئه، وشبه مال الشخص وأقاربه بالودائع تشبيهاً بليغاً، يجامع أنه لا بد من أخذ كل، ويبن ذلك بقوله: ولا بد أن ترد الودائع في يوم =

﴿يَحْزَنُ عَلَى الْعِبَادِ مَا يَأْتِيهِمْ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ﴾ (٢٠)

﴿يَحْزَنُ عَلَى الْعِبَادِ﴾ نداء للحسرة عليهم، كأنما قيل لها: تعالي يا حسرة فهذه من أحوالك التي حقك أن تحضري فيها، وهي حال استهزائهم بالرسول؛ والمعنى: أنهم أحقاء بأن يتحسر عليهم المتحسرون، ويتلهف على حالهم المتلهفون، أو هم متحسر عليهم من جهة الملائكة والمؤمنين من الثقلين، ويجوز أن يكون من الله تعالى على سبيل الاستعارة في معنى تعظيم ما جنوه على أنفسهم ومحنوها به، وفرط إنكاره له وتعجيبه منه، وقراءة من قرأ: «يا حسرتنا» تعضد هذا الوجه؛ لأن المعنى: يا حسرتي. وقرئ: «يا حسرة العباد»، على الإضافة إليهم لاختصاصها بهم؛ من حيث إنها موجهة إليهم، ويا حسرة على العباد: على إجراء الوصل مجرى الوقف.

﴿أَلَمْ يَرَوْا كَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ مِنَ الْقُرُونِ أَنَّهُمْ إِلَيْهِمْ لَا يَرْجِعُونَ﴾ (٢١) وَإِنْ كُلٌّ لَمَّا جَمِيعٌ لَدَيْنَا مُحْضَرُونَ ﴿٢٢﴾

﴿أَلَمْ يَرَوْا﴾ ألم يعلموا، وهو معلق عن العمل في ﴿كَمْ﴾ لأن كم لا يعمل فيها عامل قبلها، كانت للاستفهام أو للخبر؛ لأن أصلها الاستفهام، إلا أن معناه نافذ في الجملة، كما نفذ في قولك: ألم يروا إن زيدا لمنطلق، وإن لم يعمل في لفظه. و﴿أَنَّهُمْ إِلَيْهِمْ لَا يَرْجِعُونَ﴾ بدل من ﴿كَمْ أَهْلَكْنَا﴾ على المعنى، لا على اللفظ، تقديره: ألم يروا كثرة إهلاكنا القرون من قبلهم كونهم غير راجعين إليهم. وعن الحسن: كسر إن على الاستثناف. وفي قراءة ابن مسعود: ألم يروا من أهلكنا، والبدل على هذه القراءة بدل اشتغال، وهذا مما يرد قول أهل الرجعة. ويحكي عن ابن عباس - رضي الله عنهما - أنه قيل له: إن قوماً يزعمون أن علياً مبعوث قبل يوم القيامة، فقال: بشس القوم نحن إذن، نكحنا نساءه وقسمنا ميراثه (١٢٦٠). ﴿لَمَّا﴾ قرئ: «لما» بالتخفيف، على أن «ما» صلة للتأكيد، «وإن» مخففة من الثقيلة، وهي متلقة باللام لا محالة. و«لما» بالتشديد، بمعنى:

١٢٦٠ - أخرجه الحاكم في مستدركه (١٤٥/٣)، كتاب معرفة الصحابة، و(٢٦٥/٢): كتاب التفسير، سورة البقرة، قال الحافظ: أخرجه الحاكم في تفسير البقرة نحوه باختصار، وأخرجه من حديث الحسن في فضائل الصحابة أتم منه، وليس فيه: بشس القوم نحن إذن، انتهى.

= من الأيام.

ينظر: ديوانه ص ١٦٩، حماسة البحري ص ٨٤، الدرر ٥٣/٢، لسان العرب (حور)، بلا نسبة في شرح الأشموني ١١٠/١.

إلا، كالتى في مسألة الكتاب، نشدتك بالله لما فعلت، وإن نافية، والتنوين في ﴿كُلُّ﴾ هو الذي يقع عوضاً من المضاف إليه، كقولك: مررت بكل قائماً، والمعنى أن كلهم محشورون مجموعون محضرون للحساب يوم القيامة. وقيل: محضرون معذبون. فإن قلت: كيف أخبر عن كل بجميع، ومعناها واحد^(١)؟ قلت: ليس بواحد؛ لأنّ كلاً يفيد معنى الإحاطة، وألا ينفلت/ ١٢٢/٢ منهم أحد، والجميع: معناه الاجتماع، وأن المحشر يجمعهم. والجميع: فاعل بمعنى مفعول: يقال: حي جميع، وجاءوا جميعاً.

﴿وَأَيُّهُمُ الَّذِينَ الْأَرْضُ الْمَيِّتَةُ أَحْيَيْتَهَا وَأَخْرَجْنَا مِنْهَا حَبًّا فَمِنْهُ يَأْكُلُونَ﴾ (٣٣) وَجَعَلْنَا فِيهَا جَنَّاتٍ مِنْ نَجِيلٍ وَأَعْنَابٍ وَفَجْرْنَا فِيهَا مِنَ الْعُيُونِ ﴿٣٤﴾ لِيَأْكُلُوا مِنْ ثَمَرِهِ وَمَا عَمِلَتْهُ أَيْدِيهِمْ أَفَلَا يَشْكُرُونَ ﴿٣٥﴾ سُبْحَنَ الَّذِي خَلَقَ الْأَزْوَاجَ كُلَّهَا مِمَّا تُنْبِتُ الْأَرْضُ وَمِنْ أَنْفُسِهِمْ وَمِمَّا لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٦﴾

القراءة بالميتة على الخفة أشيع، لسلسها على اللسان. و ﴿أَحْيَيْتَهَا﴾ استئناف بيان لكون الأرض الميتة آية، وكذلك نسلخ، ويجوز أن توصف الأرض والليل بالفعل؛ لأنه أريد بهما الجنسان مطلقين لا أرض^(٢) وليل بأعيانهما، فعوملاً معاملة النكرات في وصفهما بالأفعال، ونحوه [من الكامل]:

وَلَقَدْ أَمَرُ عَلَى اللَّيْلِمْ يَسْبُونِي^(٣)

وقوله: ﴿فَمِنْهُ يَأْكُلُونَ﴾ بتقديم الظرف للدلالة على أن الحب هو الشيء الذي يتعلق به معظم العيش، ويقوم بالارتزاق منه صلاح الإنس، وإذا قل جاء القحط ووقع الضر، وإذا فقد جاء الهلاك ونزل البلاء. قرئ: «وفجرنا» بالتخفيف والتثقيل، والفجر والتفجير، كالفتح والتفتيح لفظاً ومعنى. وقرئ: «ثمره» بفتحيتين وضميتين وضمة وسكون، والضمير لله تعالى، والمعنى: لياكلوا مما خلقه الله من الثمر ﴿و﴾ من ﴿وَمَا عَمِلَتْهُ أَيْدِيهِمْ﴾ من

(١) قال محمود: «إن قلت: لم أخبر عن كل بجميع ومعناها واحد؟ وأجاب بأن كلا تفيد الإحاطة لا ينفلت عنهم أحد، وجميع تفيد الاجتماع، وهو فاعل بمعنى مفعول، وبينهما فرق، انتهى كلامه» قال أحمد: ومن ثم وقع أجمع في التوكيد تابعاً لكل؛ لأنه أخص منه وأزيد معنى.

(٢) قال محمود: «يجوز أن يكون أحيينها صفة للأرض، وصح ذلك؛ لأن المراد بالأرض الجنس ولم يقصد بها أرض معينة وأن يكون بياناً لوجه الآية فيها، قال أحمد وغيره من النحاة: يمنع وقوع الجملة صفة للمعرف وإن كان جنسياً وليس الغرض منه معيّن، ويراعي هذا المانع المطابقة اللفظية في الوصفية ومنه:

ولقد أمر على اللثيم يسبني.

(٣) تقدم.

الغرس والسقي والآبار، وغير ذلك من الأعمال إلى أن بلغ الثمر منتهاه وإبان أكله، يعني أن الثمر في نفسه فعل الله وخلقه، وفيه آثار من كد بني آدم، وأصله من ثمرنا كما قال: وجعلنا، وفجرنا، فنقل الكلام من التكلم إلى الغيبة على طريقة الالتفات، ويجوز أن يرجع إلى النخيل، وترك الأعناب غير مرجوع إليها؛ لأنه علم أنها في حكم النخيل فيما علق به من أكل ثمره، ويجوز أن يراد من ثمر المذكور وهو الجنات؛ كما قال رؤبة [من الرجز]:

فِيهَا خُطُوطٌ مِنْ بَيَاضٍ وَبَلَقٌ كَأَنَّهُ فِي الْجِلْدِ تَوَلَّيْعُ الْبَهَقِ^(١)

ف قيل له، فقال: أردت كأن ذاك، ولك أن تجعل ﴿ما﴾ نافية على أن الثمر خلق الله، ولم تعمله أيدي الناس ولا يقدرين عليه. وقرئ على الوجه الأول، وما عملت من غير راجع، وهي في مصاحف أهل الكوفة كذلك، وفي مصاحف أهل الحرمين والبصرة والشام مع الضمير. ﴿الْأَزْوَاجِ﴾ الأجناس والأصناف ﴿وَمِمَّا لَا يَعْلَمُونَ﴾ ومن أزواج لم يطلعهم الله عليها، ولا توصلوا إلى معرفتها بطريق من طرق العلم، ولا يبعد أن يخلق الله تعالى من الخلائق الحيوان والجماد ما لم يجعل للبشر طريقاً إلى العلم به؛ لأنه لا حاجة بهم في دينهم وديناهم إلى ذلك العلم، ولو كانت بهم إليه حاجة لأعلمهم بما لا يعلمون؛ كما أعلمهم بوجود ما لا يعلمون. وعن ابن عباس رضي الله عنهما: لم يسمهم. وفي الحديث: «ما لا عين رأت»^(٢)، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر، بله ما أطلعهم عليه» (١٢٦١). فأعلمنا بوجوده وإعداداه ولم يعلمنا به ما هو، ونحوه: ﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مِمَّا أُخْفِيَ لَهُمْ مِنْ قُرَّةِ أَعْيُنٍ﴾ [السجدة: ١٧] وفي الإعلام بكثرة ما خلق مما علموه ومما جهلوه ما دلّ على عظم قدرته واتساع ملكه.

﴿وَأَيُّ لَّهُمْ آيَلٌ نَسْلَخُ مِنْهُ النَّهَارَ فَإِذَا هُمْ مُنْظِلُونَ﴾ (٣٧)

سلخ جلد الشاة: إذا كشطه عنها وأزاله. ومنه: سلخ الحية لخرشائها^(٣)، فاستعير لإزالة الضوء وكشفه عن مكان الليل وملقى ظله. ﴿مُنْظِلُونَ﴾ داخلون في الظلام، يقال: أظلمنا؛ كما تقول: أعتمنا وأدجينا^(٤). ﴿لِمُسْتَقَرٍّ لَهَا﴾ لحدّ لها مؤقت مقدّر تنتهي إليه

١٢٦١ - تقدم في سورة السجدة.

- (١) تقدم
- (٢) قوله: «في الحديث: ما لا عين رأت» أوله: «أعددت لعبادي الصالحين» كما مر في تفسير السجدة. (ع).
- (٣) قوله: «ومنه سلخ الحية لخرشائها» في الصحاح «الخرشاء»: مثل الحرياء: جلد الحية. (ع).
- (٤) قوله: «أعتمنا وأدجينا»، الدجى: وجع في حافر الفرس أو خوف البعير. أفاده الصحاح وغيره. (ع).

من فلكها في آخر السنة، شبه بمستقرّ المسافر إذا قطع مسيره، أو لمتهى لها من المشارق والمغارب؛ لأنها تتقصّها مشرقاً مشرقاً، ومغرباً مغرباً حتى تبلغ أقصاها، ثم ترجع فذلك حدّها ومستقرّها؛ لأنها لا تعدوه، أو لحدّها من مسيرها كل يوم في مرأى عيوننا وهو المغرب. وقيل: مستقرّها أجلها الذي أقرّ الله عليه أمرها في جريها، فاستقرت عليه وهو آخر السنة. وقيل: الوقت الذي تستقرّ فيه وينقطع جريها وهو يوم القيامة.

﴿وَالشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَهَا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ ٣٨﴾ وَالْقَمَرَ قَدَرْنَاهُ مَنَازِلَ حَتَّىٰ عَادَ كَالْعُرْجُونِ الْقَدِيرِ ٣٩ لَا لَشَّمْسٌ يَلْعَىٰ لَهَا أَنْ تُدْرِكَ الْقَمَرَ وَلَا أَيْلٌ سَابِقُ النَّهَارِ وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ ٤٠﴾

وقرىء: «تجري إلى مستقر لها»، وفرأ ابن مسعود: «لا مستقر لها»؛ أي: لا تزال تجري لا تستقرّ، وقرىء: «لا مستقر لها» على أنّ «لا» بمعنى ليس ﴿ذَلِكَ﴾ الجري على ذلك التقدير والحساب الدقيق الذي تكلّ الفطن عن استخراجِه وتَحْيِرِ الأفهام في استنباطه، ما هو إلا تقدير الغالب بقدرته على كل مقدور، المحيط علماً بكل معلوم. قرىء: «والقمر» رفعاً على الابتداء، أو عطفاً على الليل، يريد: «ومن آياته القمر، ونصباً بفعل يفسره قدرناه، ولا بدّ في ﴿قَدَرْنَاهُ مَنَازِلَ﴾ من تقدير مضاف؛ لأنه لا معنى لتقدير نفس القمر منازل، والمعنى: قدرنا مسيره منازل وهي ثمانية وعشرون منزلاً، ينزل القمر كل ليلة في واحد منها لا يتخطاه ولا يتقاصر عنه، على تقدير مستوٍ لا يتفاوت، يسير فيها كل ليلة من المستهل إلى الثامنة والعشرين، ثم يستتر ليلتين أو ليلة إذا نقص ١٢٢/٢ ب الشهر، وهذه المنازل هي مواقع النجوم التي نسبت إليها العرب الأنواء المستمطرة، وهي: الشرطان، البطين، الثريا، الدبران، الهقعة، الهنعة، الذراع، النثرة، الطرف، الجبهة، الزبرة، الصرفة، العوّا، السماك، الغفر، الزباني، الإكليل، القلب، الشولة، النعائم، البلدة، سعد الذابح، سعد بلع، سعد السعود، سعد الأخبية، فرغ الدلو المقدم، فرغ الدلو المؤخر، الرشا. فإذا كان في آخر منازلِه دقّ واستقوس، و ﴿عَادَ كَالْعُرْجُونِ الْقَدِيرِ﴾ وهو عود العذق، ما بين شماريخه إلى منبته من النخلة. وقال الزجاج: هو «فعلون» من الانعراج وهو الانعطاف. وقرىء: «العرجون» بوزن الفرجون^(١) وهما لغتان، كالبيزون والبيزون، والقديم المحول، وإذا قدم دق فأنحنى واصفر، فشبه به من ثلاثة أوجه. وقيل:

(١) قوله: «وقرىء العرجون بوزن الفرجون» في الصحاح «الفرجون»: المحسة، وقد فرجنت الدابة إذا فرجنتها. ومنه قول بعضهم: ادفنوني في ثيابي ولا تحسوا عني تراباً، أي: لا تنفضوه. وفيه «البيزون»: السندس. (ع).

أقل مدة الموصوف بالقدم الحول، فلو أن رجلاً قال: كل مملوك لي قديم فهو حرّ، أو كتب ذلك في وصيته - عتق منهم من مضى له حول أو أكثر. وقرئ: «سابق النهار». على الأصل، والمعنى: أن الله تعالى قسم لكل واحد من الليل والنهار وآيتهما قسماً من الزمان، وضرب له حداً معلوماً، ودبر أمرهما على التعاقب، فلا ينبغي للشمس؛ أي: لا يتسهل لها ولا يصحّ ولا يستقيم لوقوع التدبير على المعاقبة، وإن جعل لكل واحد من النيرين سلطان على حياله^(١) ﴿أَنْ تُدْرِكَ الْقَمَرَ﴾ فتجتمع معه في وقت واحد وتداخله في سلطانه فتطمس نوره، ولا يسبق الليل النهار؛ يعني آية الليل آية النهار وهما النيران، ولا يزال الأمر على هذا الترتيب إلى أن يبطل الله ما دبر من ذلك، وينقض ما ألف فيجمع بين الشمس والقمر، ويطلع الشمس من مغربها. فإن قلت: لم جعلت الشمس غير مدركة،

(١) قال محمود: «معناه أن كل واحد منهما لا يدخل على الآخر في سلطانه فيطمس نوره، بل هما متعاقبان بمقتضى تدبيره تعالى. قال: فإن قلت: لم جعلت الشمس غير مدركة والقمر غير سابق؟ قلت: لأن الشمس بطيئة السير فلكها في سنة والقمر يقطع فلكه في شهر، فكانت الشمس لبطنها جديرة بأن توصف بالإدراك، والقمر لسرعته جديراً بأن يوصف بالسبق، انتهى كلامه، قال أحمد: يؤخذ من هذه الآية أن النهار تابع لليل، وهو المذهب المعروف للفقهاء، وبيانه من الآية أنه جعل الشمس التي هي آية النهار غير مدركة للقمر الذي هو آية الليل، وإنما نفى الإدراك لأنه هو الذي يمكن أن يقع، وذلك يستدعي تقدم القمر وتبعية الشمس، فإنه لا يقال: أدرك السابق اللاحق، ولكن أدرك اللاحق السابق، وبحسب الإمكان توقيع النفي، فالليل - إذأ - متبوع والنهار تابع. فإن قيل: هل يلزم على هذا أن يكون الليل سابق النهار؟ وقد صرحت الآية بأنه ليس سابقاً، فالجواب: أن هذا مشترك الإلزام، وبيانه أن الأقسام المحتملة ثلاثة: إما تبعية النهار لليل، وهو مذهب الفقهاء. أو عكسه، وهو المنقول عن طائفة من النحاة. أو اجتماعهما، فهذا القسم الثالث منفي باتفاق «فلم يبق إلا تبعية النهار لليل، وعكسه، وهذا السؤال وارد عليهما جميعاً؛ لأن من قال: إن النهار سابق الليل لزمه أن يكون مقتضى البلاغة أن يقال: ولا الليل يدرك النهار، فإن المتأخر إذا نفى إدراكه كان أبلى من نفي سابقه، مع أنه يتناهى عن مقتضى قوله: (لا الشمس ينبغي لها أن تدرك القمر) تنائياً لا يجمع شمل المعنى باللفظ، فإن الله تعالى نفى أن تكون مدركة فضلاً عن أن تكون سابقة، فإذا أثبت ذلك فالجواب المحقق عنه أن المنفي السبقية الموجبة لتراخي النهار عن الليل وتخلل زمن آخر بينهما، وحينئذ يثبت التعاقب، وهو مراد الآية. وأما سبق أول المتعاقبين للآخر منهما فإنه غير معتبر. ألا ترى إلى جواب موسى بقوله: هم أولاء على أثري، فقد قريهم منه عذراً عن قوله تعالى: ﴿وَمَا أَتَجَلَّكَ عَنْ قَوْلِكَ﴾ فكانه سهل أمر هذه العجلة بكونهم على أثره، فكيف لو كان متقدماً وهم في عقبه لا يتخلل بينهم وبينه مسافة؟ فذاك لو اتفق لكان سياق الآية يوجب أنه لا يعد عجلة ولا سبقاً، فحينئذ يكون القول بسبقية النهار لليل مخالفاً صدر الآية على وجه لا يقبل التأويل، فإن بين عدم الإدراك الدال على التأخير والتبعية وبين سبق بوناً بعيداً ومخالفاً أيضاً لبقية الآية، فإنه لو كان الليل تابعاً ومتأخراً لكان أخرى أن يوصف بعدم الإدراك ولا يبلغ به عدم السابق، ويكون القول بتقدم الليل على النهار مطابقاً لصدر الآية صريحاً، ولعجزها بوجه من التأويل مناسب لنظم القرآن، وثبوت ضده أقرب إلى الحق من حبل وريده، والله الموفق للصواب من القول وتسديده».

والقمر غير سابق؟ قلت: لأن الشمس لا تقطع فلکها إلا في سنة، والقمر يقطع فلکه في شهر، فكانت الشمس جدیرة بأن توصف بالإدراك لتباطؤ سيرها عن سير القمر، خلیقاً بأن یوصف بالسبق لسرعة سيره ﴿وَكُلُّ﴾ التنوين فيه عوض عن المضاف إليه، والمعنى: وكلهم، والضمير للشمس والأقمار على ما سبق ذكره.

﴿وَأَيُّهُم مَّنْ أَنَا حَمَلْنَا ذُرِّيَّتَهُمْ فِي الْفَلَكِ الْمَشْحُونِ﴾ (٤١) وَخَلَقْنَا لَهُمْ مِن مِّثْلِهِ مَا يَرْكَبُونَ ﴿٤٢﴾ وَإِن نَّشَأْ نُغْرِقْهُمْ فَلَا صَرِيحَ لَهُمْ وَلَا هُمْ يُنْقَذُونَ ﴿٤٣﴾ إِلَّا رَحْمَةً مِنَّا وَمَتَاعًا إِلَىٰ حِينٍ ﴿٤٤﴾

﴿ذُرِّيَّتَهُمْ﴾ أولادهم ومن يهتمهم حملة. وقيل: اسم الذرية يقع على النساء؛ لأنهن مزارعها؛ وفي الحديث: أنه نهى عن قتل الذراري؛ يعني النساء. ﴿مِن مِّثْلِهِ﴾ من مثل الفلك ﴿مَا يَرْكَبُونَ﴾ من الإبل، وهي سفائن البر. وقيل ﴿الْفَلَكِ الْمَشْحُونِ﴾ سفينة نوح، ومعنى حمل الله ذرياتهم فيها: أنه حمل فيها آباءهم الأقدمين، وفي أصلاهم هم وذرياتهم، وإنما ذكر ذرياتهم دونهم؛ لأنه أبلغ في الامتنان عليهم، وأدخل في التعجيب من قدرته، في حمل أعقابهم إلى يوم القيامة في سفينة نوح. و ﴿مِن مِّثْلِهِ﴾ من مثل ذلك الصريح ﴿وَلَا هُمْ يُنْقَذُونَ﴾ لا ينجون من الموت بالغرق ﴿إِلَّا رَحْمَةً مِنَّا وَلِتَمْتِيعَ بِالْحَيَاةِ﴾ (١) ﴿إِلَىٰ حِينٍ﴾ إلى أجل يموتون فيه لا بد لهم منه بعد النجاة من موت الغرق، ولقد أحسن من قال [من الوافر]:

وَلَمْ أَسْلَمْ لِكَيِّ أَبْقَىٰ وَلَكِنْ سَلِمْتُ مِنَ الْجَمَامِ إِلَىٰ الْجَمَامِ (٢)
وقرأ الحسن رضي الله عنه: «نغرقهم».

﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّقُوا مَا بَيْنَ أَيْدِيكُمْ وَمَا خَلْفَكُمْ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ (٤٥) وَمَا تَأْتِيهِمْ مِّنْ عَآيَةٍ مِّنْ ءَآيَاتِ رَبِّهِمْ إِلَّا كَانُوا عَنْهَا مُعْرِضِينَ ﴿٤٦﴾

﴿اتَّقُوا مَا بَيْنَ أَيْدِيكُمْ وَمَا خَلْفَكُمْ﴾ كقوله تعالى: ﴿أَفَلَمْ يَرَوْا إِلَىٰ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ﴾

(١) قال أحمد: من هنا أخذ أبو الطيب.

ولم أسلم لكي أبقي ولكن سلمت من الحمام إلى الحمام
لأنه تعالى أخبر أنهم إن سلموا من موت الغرق فتلك السلامة متاع إلى حين، أي: إلى أجل يموتون فيه، ولا بد.

(٢) للمتنبى يقول: ولم أسلم من حوادث الدهر ومكآره الحرب لأجل أن أخلد، وإنما سلمت من الحمام - ككتاب -: أي الموت ببعض الأسباب إلى أن أموت ببعضها الآخر. أو منقلب إلى الموت ببعضها الآخر؛ لأنه لا خلود في الدنيا.

مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ ﴿سبأ: ٩﴾. وعن مجاهد: ما تقدّم من ذنوبكم وما تأخر (١٢٦٢). وعن قتادة: ما بين أيديكم من الوقائع التي خلت، يعني: من مثل الوقائع التي ابتليت بها الأمم المكذبة بأنبيائها، وما خلفكم من أمر الساعة (١٢٦٣) ﴿لَقَدْ كُنتُمْ رُحَمَاءَ لَتَكُونُوا عَلَى رِجَاءِ رَحْمَةِ اللَّهِ. وجواب «إِذَا» محذوف مدلول عليه بقوله: ﴿إِلَّا كَانُوا عَنْهَا مُعْرِضِينَ﴾، فكأنه قال: وإذا قيل لهم: اتقوا أعرضوا. ثم قال: ودأبهم الإعراض عند كل آية وموعظة.

﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ أَنْفِقُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ قَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ ءَامَنُوا أَنْطَعِمُ مَنْ لَوْ يَشَاءُ اللَّهُ أَطْعَمَهُ إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ ﴿٤٧﴾﴾

كانت الزناذقة منهم يسمعون المؤمنين يعلقون أفعال الله تعالى بمشيئته، فيقولون: لو شاء الله لأغنى فلاناً، ولو شاء لأعزّه، ولو شاء لكان كذا؛ فأخرجوا هذا الجواب مخرج الاستهزاء بالمؤمنين وبما كانوا يقولونه من تعليق الأمور بمشيئة الله. ومعناه: أنطعم المقول فيه هذا القول بينكم، وذلك أنهم كانوا دافعين أن يكون الغنى والفقر من الله؛ لأنهم معطلة لا يؤمنون بالصانع. وعن ابن عباس رضي الله عنهما: كان بمكة زنادقة، فإذا أمروا بالصدقة على المساكين قالوا: لا والله، أيفقره الله ونطعمه نحن؟ وقيل: كانوا يوهمون أن الله تعالى ١٢٣/٢ لما كان قادراً على إطعامه ولا يشاء إطعامه، فنحن أحق بذلك. نزلت في مشركي قريش حين قال فقراء أصحاب رسول الله ﷺ: أعطونا مما زعمتم من أموالكم أنها لله، يعنون قوله: ﴿وَرَجَعَلُوا لِلَّهِ مِمَّا ذَرَأَ مِنَ الْحَرْثِ وَالْأَنْعَامِ نَصِيبًا﴾ [الأنعام: ١٣٦]، فحرموهم وقالوا: لو شاء الله لأطعمكم.

﴿وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْوَعْدُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿٤٨﴾ مَا يَنْظُرُونَ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً تَأْخُذُهُمْ وَهُمْ يَخِصِّمُونَ ﴿٤٩﴾ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ تَوْصِيَةً وَلَا إِلَىٰ أَهْلِهِمْ يَرْجِعُونَ ﴿٥٠﴾﴾

﴿إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ﴾ قول الله لهم، أو حكاية قول المؤمنين لهم، أو هو من

١٢٦٢ - أخرجه الطبري (٤٩٧/١٠)، جامع البيان، حديث (٢٩١٦٩).

وذكره السيوطي في الدر (٤٩٨/٥)، وعزاه لعبد بن حميد، وابن المنذر، وابن أبي حاتم والطبري عن مجاهد.

١٢٦٣ - أخرجه الطبري (٤٤٧/١٠)، جامع البيان، حديث (٢٩١٦٨).

وعبد الرازي في تفسيره (١٤٤/٢) في تفسيره القوا ما بين أيديكم، عن قتادة، وذكره السيوطي في الدر المنثور (٤٩٧/٥)، وعزاه للطبري وعبد الرزاق، وعبد بن حميد، وابن المنذر وابن أبي حاتم عن قتادة.

جملة جوابهم للمؤمنين. قرىء: «وهم يخصمون» بإدغام التاء في الصاد مع فتح الخاء وكسرها، وإتباع الياء الخاء في الكسر، و«يختصمون» على الأصل. و«يخصمون»، من خصمه. والمعنى: أنها تبغتهم وهم في أمنهم وغفلتهم عنها، لا يخطرونها ببالهم مشتغلين بخصوماتهم في متاجرهم ومعاملاتهم وسائر ما يتخاصمون فيه ويتشاجرون. ومعنى يخصمون: يخصم بعضهم بعضاً. وقيل: تأخذهم وهم عند أنفسهم يخصمون في الحجة في أنهم لا يبعثون ﴿فَلَا يَسْتَطِيعُونَ﴾ أن يوصوا في شيء من أمورهم ﴿تَوْصِيَةً﴾ ولا يقدرّون على الرجوع إلى منازلهم وأهاليهم، بل يموتون حيث تفجّؤهم الصيحة.

﴿وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَإِذَا هُمْ مِنَ الْأَجْدَاثِ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يَنْسِلُونَ﴾ ﴿٥٦﴾ قَالُوا يَا بَوَلَّيْنَا مِنْ بَعْثِنَا مِنْ مَّرْقَدِنَا هَذَا مَا وَعَدَ الرَّحْمَنُ وَصَدَقَ الْمُرْسَلُونَ﴾ ﴿٥٧﴾

قرىء: «الصور» بسكون الواو وهو القرن، أو جمع صورة، وحركها بعضهم. و«الأجداث» القبور، وقرىء: بالفاء^(١). ﴿يَنْسِلُونَ﴾ يعدّون بكسر السين وضمها، وهي النسخة الثانية. وقرىء: «يا ويلتنا»، عن ابن مسعود رضي الله عنه: من أهبنا، من هب من نومه إذا اتّبه، وأهبه غيره، وقرىء: «من هبنا» بمعنى أهبنا: وعن بعضهم: أراد هب بنا، فحذف الجار وأوصل الفعل، وقرىء: «من بعثنا» و«من هبنا»، على من الجارة والمصدر، و﴿هَذَا﴾ مبتدأ، و﴿مَا وَعَدَ﴾ خبره، وما مصدرية أو موصولة. ويجوز أن يكون هذا صفة للمرقد، وما وعد: خبر مبتدأ محذوف، أي: هذا وعد الرحمن، أي: مبتدأ محذوف الخبر، أي: ما وعد ﴿الرَّحْمَنُ وَصَدَقَ الْمُرْسَلُونَ﴾ حق. وعن مجاهد: للكفار هجعة يجدون فيها طعم النوم، فإذا صبح بأهل القبور قالوا: من بعثنا، وأما ﴿هَذَا مَا وَعَدَ الرَّحْمَنُ﴾ فكلام الملائكة؛ عن ابن عباس. وعن الحسن: كلام المتقين. وقيل: كلام الكافرين يتذكرون ما سمعوه من الرسل فيجيبون به أنفسهم أو بعضهم بعضاً. فإن قلت: إذا جعلت «ما» مصدرية، كان المعنى: هذا وعد الرحمن وصدق المرسلين، على تسمية الموعود والمصدق فيه بالوعد والصدق، فما وجه قوله: ﴿وَصَدَقَ الْمُرْسَلُونَ﴾ إذا جعلتها موصولة؟ قلت: تقديره: هذا الذي وعده الرحمن والذي صدّقه المرسلون، بمعنى: والذي صدق فيه المرسلون، من قولهم: صدقوهم الحديث والقتال. ومنه: صدقني سن بكره. فإن قلت: ﴿مَنْ بَعَثَنَا مِنْ مَّرْقَدِنَا﴾ سؤال عن الباعث، فكيف طابقه ذلك جواباً؟ قلت: معناه بعثكم الرحمن الذي وعدكم البعث وأنبأكم به الرسل؛ إلا أنه جيء به على طريقة: سيئت

(١) قوله: «وقرىء بالفاء» في الصحاح «الجدف»: القبر، وهو إبدال الجدت. قال الفراء: العرب تعقب بين الفاء والتاء في اللغة، فيقولون: حدث وجدف، وهي الأجداث والأجداف. (ع).

بها قلوبهم، ونعيت إليهم أحوالهم، وذكروا كفرهم وتكذيبهم، وأخبروا بوقوع ما أنذروا به، وكأنه قيل لهم: ليس بالبعث الذي عرفتموه وهو بعث النائم من مرقده، حتى يهكم السؤال عن الباعث، إن هذا هو البعث الأكبر ذو الأهوال والأفزع، وهو الذي وعده الله في كتبه المنزلة على السنة رسله الصادقين.

﴿إِنْ كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً فَإِذَا هُمْ جَمِيعٌ لَدَيْنَا مُحْضَرُونَ﴾ (٥٣) ﴿فَالْيَوْمَ لَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا وَلَا تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ (٥٤) ﴿إِنَّ أَصْحَابَ الْجَنَّةِ الْيَوْمَ فِي شُغْلٍ فَكِهِونَ﴾ (٥٥) ﴿هُمْ وَأَزْوَاجُهُمْ فِي ظِلَالٍ عَلَى الْأَرَائِكِ مُتَكِفُونَ﴾ (٥٦) ﴿هُمْ فِيهَا فَكِكُهُمْ وَلَهُمْ مَا يَدْعُونَ﴾ (٥٧) ﴿سَلَامٌ قَوْلًا مِنْ رَبِّ رَحِيمٍ﴾ (٥٨)

﴿إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً﴾ قرئت منصوبة ومرفوعة ﴿فَالْيَوْمَ لَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا﴾ إِنَّ أَصْحَابَ الْجَنَّةِ الْيَوْمَ فِي شُغْلٍ^(١) حكاية ما يقال لهم في ذلك اليوم، وفي مثل هذه الحكاية زيادة تصوير للموعود، وتمكين له في النفوس، وترغيب في الحرص عليه وعلى ما يثمره ﴿فِي شُغْلٍ﴾ في أي شغل وفي شغل لا يوصف، وما ظنك بشغل من سعد بدخول الجنة التي هي دار المتقين، ووصل إلى نيل تلك الغبطة وذلك الملك الكبير والنعيم المقيم، ووقع في تلك الملاذ التي أعدّها الله للمرتضين من عباده، ثواباً لهم على أعمالهم مع كرامة وتعظيم، وذلك بعد الوله والصبابة، والتفضي من مشاق التكليف ومضايق التقوى والخشية، وتخطي الأهوال، وتجاوز الأخطار وجواز الصراط. ومعينة ما لقي العصاة من العذاب. وعن ابن عباس: في افتضاض الأبيكار (١٢٦٤). وعنه: في ضرب الأوتار (١٢٦٥). وعن ابن كيسان: في التزاور. وقيل: في ضيافة الله. وعن الحسن: شغلهم عما فيه أهل النار التنعم بما هم فيه (١٢٦٦). وعن الكلبي: هم في شغل عن أهاليهم من أهل

١٢٦٤ - أخرجه الطبري (٤٥٢/١٠) جامع البيان، حديث (٢٩١٨٩)، وذكره السيوطي في الدر المنثور (٥٠٠/٥)، وعزاه لابن أبي شيبة وابن أبي الدنيا والطبري وابن المنذر وابن أبي حاتم وابن مروية عن ابن عباس: قال في افتضاض الأبيكار.
١٢٦٥ - ذكره السيوطي في الدر المنثور (٥٠١/٥)، وعزاه لابن أبي حاتم عن ابن عباس، وقال أبو حاتم: هذا خطأ من السمع إنما هو افتضاض الأبيكار.
١٢٦٦ - أخرجه الطبري (٤٥٣/١٠)، حديث (٢٩١٩٣)، وذكره السيوطي في الدر المنثور (٥٠٠/٥)، وعزاه لعبد بن حميد والطبري، وابن المنذر عن الحسن - رضي الله عنه.

(١) قال أحمد: هذا مما التنكير فيه للتفخيم، كأنه قيل: في شغل أي شغل، وكذا قوله تعالى: سلام قولاً من رب رحيم.

النار، لا يهتمهم أمرهم ولا يذكرونهم، لثلا يدخل عليهم تنغيص في نعيمهم. قرىء: «في شغل» بضمسين وضمة وسكون، وفتحتين، وفتحة وسكون. والفاكهة والفكه: المتنعم والمتلذذ، ومنه الفاكهة؛ لأنها مما يتلذذ به، وكذلك الفكاهة، وهي المزاحاة. وقرىء: فاكهون وفكهون، بكسر الكاف وضمهما؛ كقولهم: رجل حدث وحدث^(١)، ونطس ونطس. وقرىء: «فاكهين» و«فكهين»، على أنه حال ١٢٣/٢ ب والظرف مستتر. ﴿هَبْ﴾ يحتمل أن يكون مبتدأ وأن يكون تأكيداً للضمير في ﴿فِي شُغْلٍ﴾ وفي ﴿فَكَهُونٌ﴾ على أن أزواجهم يشاركنهم في ذلك الشغل والتفكه والاتكاء على الأرائك تحت الظلال. وقرىء: «في ظلل»، والأريكة: السرير في الحجلة^(٢). وقيل: الفراش فيها. وقرأ ابن مسعود: «متكين» ﴿يَدْعُونَ﴾ يفتعلون من الدعاء، أي: يدعون به لأنفسهم؛ كقولك: اشتوى^(٣) واجتمل، إذا شوى وجمل لنفسه. قال ليبد [من الرمل]:

فَأَشْتَوَى لَيْلَةً رِيحاً وَاجْتَمَلَ

ويجوز أن يكون بمعنى يتداعونه؛ كقولك: ارتموه؛ وتراموه. وقيل: يتمنون، من قولهم: ادع عليّ ما شئت، بمعنى: تمنه عليّ، وفلان في خير ما أدعى، أي: في خير ما تمنى. قال الزجاج: وهو من الدعاء، أي: ما يدعو به أهل الجنة يأتيهم. و ﴿سَلِّمْ﴾ بدل مما يدعون، كأنه قال لهم: سلام يقال لهم ﴿قَوْلًا مِّنْ جِهَةِ رَبِّ رَجِيمٍ﴾، والمعنى: أن الله يسلم عليهم بواسطة الملائكة، أو بغير واسطة، مبالغة في تعظيمهم وذلك متمناهم، ولهم ذلك لا يمنعونه. قال ابن عباس: فالملائكة يدخلون عليهم بالتحية من رب العالمين (١٢٦٧). وقيل: ﴿مَا يَدْعُونَ﴾، مبتدأ وخبره «سلام»، بمعنى: ولهم ما يدعون سالم

١٢٦٧ - ذكره السيوطي في الدر (٥/٥٠١)، وعزاه لابن المنذر وابن أبي حاتم بلفظ: قال: «فإن الله هو يسلم عليهم».

- (١) قوله: «كقولهم رجل حدث وحدث» أي حسن الحديث، والنطس البالغ في التطهر والمدقق في العلم. أفاده الصحاح. (ع).
 - (٢) قوله: «السرير في الحجلة» هي بيت العروس يزين بالثياب والستور، كذا في الصحاح. (ع).
 - (٣) قوله: «واجتمل إذا شوى» في الصحاح: جملت الشحم أجمله جملاً، واجتملته: إذا أذبته. (ع).
 - (٤) وغلّام أرسلته أمه بالوك فبذلنا ما سأل
أرسلته فأتاه رزقه فاشتوى ليلة ريح واحتمل.
- للبيد بن ربيعة، والألوك: الرسالة، أي: ورب غلام أرسلته أمه إلينا برسالة وهي هنا السؤال، فبذلنا ما سألناه من الطعام عقب سؤاله، وبين ذلك بقوله: أرسلته فأتاه رزقه، وفيه دلالة على أنه لم يكن عندهم طعام حين أتاهم الغلام، أي: فأتاه رزقه من الصيد، فاشتوى لنفسه من اللحم في ليلة ريح مظلمة يقل فيها الجود، واحتمل: أي حمل كثيراً منه بنفسه لنفسه، ولأمله التي أرسلته. ويروى: =

خالص لا شوب فيه. و ﴿قَوْلًا﴾ مصدر مؤكد لقوله تعالى: ﴿وَهُمْ مَا يَدْعُونَ سَلَمٌ﴾ أي: عدة من رب رحيم. والأوجه: أن ينتصب على الاختصاص، وهو من مجازه. وقرئ: «سلم»، وهو بمعنى السلام في المعنيين. وعن ابن مسعود: «سلاماً» نصب على الحال، أي: لهم مرادهم خالصاً^(١).

﴿وَأَمْتَرُوا أَيْوَمَ أَيَّهَا الْمَجْرُمُونَ﴾

﴿وَأَمْتَرُوا﴾ وانفردوا عن المؤمنين، وكونوا على حدة، وذلك حين يحشر المؤمنون ويسار بهم إلى الجنة، ونحوه قوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يُنْفِقُونَ﴾ ^(١٤) فَأَمَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَهُمْ فِي رَوْضَةٍ يُحْبَرُونَ ^(١٥) وَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا... الآية [الروم: ١٤ - ١٥ - ١٦]. يقال: مازه فانماز وامتاز. وعن قتادة: اعتزلوا عن كل خير (١٢٦٨). وعن الضحاك: لكل كافر بيت من النار يكون فيه، لا يرى ولا يرى. ومعناه: أن بعضهم يمتاز من بعض.

﴿أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَبْنَىٰ ءَادَمَ أَن لَّا تَعْبُدُوا الشَّيْطَانَ إِنَّهُ لَكُمُ عَدُوٌّ مُّبِينٌ﴾ ^(١٦) وَإِنِ اعْبُدُونِي هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ ^(١٧)

العهد: الوصية، وعهد إليه: إذا وصاه، وعهد الله إليهم: ما ركز فيهم من أدلة العقل وأنزل عليهم من دلائل السمع. وعبادة الشيطان: طاعته فيما يوسوس به إليهم ويزينه لهم. وقرئ: «إعهد» بكسر الهمزة، وباب «فعل» كله يجوز في حروف مضارعة الكسر^(٢)، إلا في الياء. و«أعهد»، بكسر الهاء، وقد جوز الزجاج أن يكون من باب نعم ينعم وضرب يضرب. و«أعهد»: بالحاء، وأحد وهي لغة تميم. ومنه قولهم: دحا محاً^(٣). ﴿هَذَا﴾ إشارة إلى ما عهد إليهم من معصية الشيطان وطاعة الرحمن؛ إذ لا صراط أقوم منه، ونحو

١٢٦٨ - أخرجه الطبري (٤٥٦/١٠) جامع البيان، حديث (٢٩٢٠٩)، وذكره السيوطي في الدر المنثور (٥٠٢/٥)، وعزه لعبد بن حميد، وابن أبي حاتم والطبري. قال: «عزلوا عن كل خير».

- = اجتمعت، بالجيم: وفي الصحاح: جمعت الشحم واجتمعت إذا أذنته، وهذه الرواية أنسب وأفيد. ينظر: ديوانه (ص ١٧٨)، لسان العرب (جمل)، (شوا)، تهذيب اللغة (١١/١١٠)، تاج العروس (جمل)، بلا نسبة في مقاييس اللغة (٤/٢٢٥)، مجمل اللغة (٣/١٨٣).
- (١) قال السمين الحلبي: قال الشيخ: وإذا كان بدلاً كان «ما يدعون» خصوصاً، والظاهر أنه عموم في كل ما يدعونه، وإذا كان عموماً لم يكن بدلاً منه. انتهى. الدر المصون.
- (٢) قوله: «في حروف مضارعة الكسر» لعله مضارعه. (ع).
- (٣) قوله: «ومنه قولهم دحا محاً» أي: دحها معها. (ع).

التكثير فيه ما في قول كثير [من الطويل]:

لَئِنْ كَانَ يُهْدَى بَرْدٌ أَنْيَابَهَا الْعُلَى لَأُفْقِرَ مِنِّي إِنْ نِي لَفَقِيرٌ^(١)

أراد: إني لفقير بليغ الفقر، حقيق بأن أوصف به لكمال شرائطه في، وإلا لم يستقم معنى البيت، وكذلك قوله: ﴿هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ﴾ يريد: صراط بليغ في بابه، بليغ في استقامته، جامع لكل شرط يجب أن يكون عليه. ويجوز أن يراد: هذا بعض الصراط المستقيمة، توبيخاً لهم على العدول عنه، والتفادي عن سلوكه؛ كما يتفادى الناس عن الطريق المعوج الذي يؤدي إلى الضلالة والتهلكة؛ كأنه قيل: أقل أحوال الطريق الذي هو أقوم الطرق - أن يعتقد فيه كما يعتقد في الطريق الذي لا يضل السالك، كما يقول الرجل لولده وقد نصحه النصيح البالغ الذي ليس بعده: هذا فيما أظن قول نافع غير ضار، توبيخاً له عن الإعراض عن نصائح.

﴿وَلَقَدْ أَضَلَّ مِنْكُمْ جِبِلًّا كَثِيرًا أَفَلَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ﴾ (٦٢) هَذِهِ جَهَنَّمُ الَّتِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ ﴿٦٣﴾ أَصَلَوْهَا الْيَوْمَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ ﴿٦٤﴾

قرىء: «جبلا» بضمين، وضمة وسكون، وضمين وتشديدة، وكسرتين، وكسرة وسكون، وكسرتين وتشديدة. وهذه اللغات في معنى الخلق. وقرىء: «جبلا» جمع جبلة؛ كقطر وخلق، وفي قراءة علي رضي الله عنه: «جبلًا» واحداً، لا أجيال.

| | | |
|-----|--------------------------------|---------------------------|
| (١) | دعوت إلهي دعوة ما جهلتها | وربي بما تخفي الصدور بصير |
| | لئن كان يهدي برد أنيابها العلا | لأفقر مني إنسي لفقير |
| | فما أكثر الأخبار أن قد تزوجت | فهل يأتيني بالطلاق بشير؟ |

لكثير عزة. وقيل: لمجنون ليلي. وقوله: «ما جهلتها» معناه: أنها عن قصد وحضور قلب. وقوله: لئن كان يهدي، بيان للدعوة، وما بينهما اعتراض للتأكيد وإفادة أن الدعوة كانت في السر، أي: لئن كان يعطي برد أسنانها العليا، خصها لأنها التي تبدو كثيراً. وقيل: العلا الشريفة، لأحوج مني إني لبليغ في الفقر، فأنا أحق بها من كل محتاج؛ لأنني أحوج الناس إليها. ويجوز أن برد أنيابها: كناية عن ذاتها كلها، وإني لفقير: خبر بمعنى الإنشاء مجاز مرسل؛ لأن إظهار شدة الاحتياج يلزمه الطلب. ويجوز أنه كناية عنه وهو جواب القسم المدلول عليه باللام، وجواب الشرط محذوف وجوباً لدلالة المذكور عليه، وما تعجبية، وأكثر فعل تعجب، والأخبار معموله، وأن مخففة من الثقيلة، واسمها ضمير الشأن، وهي على تقدير حرف الجر، أي: أتعجب من كثرة الأخبار المخبرة بزواجها، وهل استفهام بمعنى التمني أو التعجب مجاز مرسل لعلاقة مطلق الطلب، أي: أتمنى ذلك أو أتعجب من عدمه.

ينظر: ديوانه ص ٤٩، تذكرة النحاة (ص ٤٦٣).

﴿الْيَوْمَ نَخْتِمُ عَلَىٰ أَفْوَاهِهِمْ وَتُكَلِّمُنَا أَيْدِيهِمْ وَنَشْهَدُ أَرْجُلُهُمْ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿٦٥﴾﴾

يروى أنهم يجحدون ويخاصمون؛ فتشهد عليهم جيرانهم وأهاليهم وعشائريهم، فيحلفون ما كانوا مشركين، فحينئذ يختم على أفواههم وتكلم أيديهم وأرجلهم. وفي الحديث: «يقول العبد يوم القيامة: إني لا أجزى عليّ شأداً إلا من نفسي، فيختم على فيه، ويقال لأركانه: انطقي فتتطق بأعماله، ثم يخلى بينه وبين الكلام فيقول: بعداً لكنّ وسحقاً، فعنك كنت أناضل»^(١) (١٢٦٩)، وقرئ: «يختم على أفواههم، وتتكلم أيديهم». وقرئ: «ولتكلمنا ١٢٤/٢ أيديهم وتشهد»، بلام كي والنصب على معنى: ولذلك نختم على أفواههم: وقرئ: «ولتكلمنا أيديهم وتشهد» بلام الأمر والجزم على أنّ الله يأمر الأعضاء بالكلام والشهادة.

﴿وَلَوْ نَشَاءُ لَطَمَسْنَا عَلَىٰ أَعْيُنِهِمْ فَاسْتَبَقُوا الصِّرَاطَ فَأَنَّى يُبْصِرُونَ ﴿٦٦﴾ وَلَوْ نَشَاءُ لَمَسَخْنَاهُمْ عَلَىٰ مَكَاتَتِهِمْ فَمَا اسْتَقْلَعُوا مُضْتَبًّا وَلَا يَرْجِعُونَ ﴿٦٧﴾﴾

الطمس: تعفية شق العين حتى تعود ممسوحة ﴿فَاسْتَبَقُوا الصِّرَاطَ﴾ لا يخلو من أن يكون على حذف الجار وإيصال الفعل. والأصل: فاستبقوا إلى الصراط، أو يُضْمَنَ معنى ابتدروا، أو يجعل الصراط مسبوqاً لا مسبوqاً إليه، أو ينتصب على الظرف. والمعنى: أنه لو شاء لمسح أعينهم، فلو راموا أن يستبقوا إلى الطريق المهيح^(٢) الذي اعتادوا سلوكه إلى مساكنهم وإلى مقاصدهم المألوفة التي تردّدوا إليها كثيراً - كما كانوا يستبقون إليه ساعين في متصرفاتهم موضعين^(٣) في أمور دنياهم - لم يقدرُوا، وتعابى عليهم أن يبصروا ويعلموا

١٢٦٩ - أخرجه مسلم (٣٢٧/٩) نوي، كتاب الزهد.

حديث (٢٩٦٩/٧)، والنسائي في الكبرى (٥٠٨/٦)، كتاب التفسير، باب سورة الانفطار، حديث (١١٦٥٣)، والبيهقي في الأسماء والصفات ص (٢١٧، ٢١٨) وأبو يعلى في مسنده (٧/٥٥، ٥٥)، حديث (٣٩٧٧، ٣٩٧٥)، وابن حبان في صحيحه (٣٥٨/١٦)، حديث (٧٣٥٨)، والحاكم في مستدركه (٦٠١/٤)، كتاب الأهوال، وذكره السيوطي في الدر المنثور (٥/٥٠٣، ٥٠٢)، وعزاه لأحمد ومسلم والنسائي، وابن أبي الدنيا في التوبة وابن أبي حاتم، وابن مرودية والبيهقي في الأسماء والصفات عن أنس به. قال الحافظ ابن حجر: أخرجه مسلم والنسائي من طريق الشعبي عن أنس ووهم الحاكم فاستدركه. انتهى.

(١) قوله: «كنت أناضل» أي أجادل. (ع).

(٢) قوله: «إلى الطريق المهيح» الهويح: الجبن، والهيحة: الذوبان والسيلان وكل ما أفزعك من صوت، كذا في الصحاح. ولعل المراد الذي سهله كثرة سلوكه. (ع).

(٣) قوله: «موضعين» في الصحاح: وضع البعير وغيره: أسرع من سيره وأوضعه راكبه. (ع).

جهة السلوك فضلاً عن غيره. أو لو شاء لأعماهم، فلو أرادوا أن يمشوا مستبقين في الطريق المألوف - كما كان ذلك هجيراًهم - لم يستطيعوا. أو لو شاء لأعماهم، فلو طلبوا أن يخلفوا الصراط الذي اعتادوا المشي فيه لعجزوا ولم يعرفوا طريقاً، يعني: أنهم لا يقدرّون إلا على سلوك الطريق المعتاد دون ما وراءه من سائر الطرق والمسالك؛ كما ترى العميان يهتدون فيما ألفوا وضروا^(١) به من المقاصد دون غيرها ﴿عَلَىٰ مَكَاتِبِهِمْ﴾ وقرئ: «على مكاناتهم» والمكانة والمكان واحد، كالمقامة والمقام؛ أي: لمسكنهم مسخاً يجمدهم مكانهم لا يقدرّون أن يبرحوه بإقبال ولا إدبار ولا مضي ولا رجوع. واختلف في المسخ: فعن ابن عباس: لمسكنهم قردة وخنازير. وقيل: حجارة (١٢٧٠). وعن قتادة: لأقعدناهم على أرجلهم وأزمناهم. وقرئ: «مضياً» بالحركات الثلاث، فالمضي والمضي كالعتي والعتي. والمضي كالصبي.

﴿وَمَنْ تُعَمِّرُهُ نُنَكِّسْهُ فِي الْخَلْقِ أَفَلَا يَعْقِلُونَ﴾

«ننكسه في الخلق» نقله فيه فنخلقه على عكس ما خلقناه من قبل؛ وذلك أنا خلقناه على ضعف في جسده، وخلو من عقل وعلم، ثم جعلناه يتزايد وينتقل من حال إلى حال ويرتقي من درجة إلى درجة، إلى أن يبلغ أشده ويستكمل قوته، ويعقل ويعلم ما له وما عليه، فإذا انتهى نكسناه في الخلق فجعلناه يتناقص، حتى يرجع في حال شبيهة بحال الصبي في ضعف جسده وقلة عقله وخلوه من العلم؛ كما ينكس السهم فيجعل أعلاه أسفله. قال عز وجل: ﴿وَمِنْكُمْ مَنْ يُرَدُّ إِلَىٰ أَرْدَلِ الْعُمُرِ لِكَيْلَا يَعْلَمَ مِنْ بَعْدِ عِلْمٍ شَيْئًا﴾ [الحج: ٥]، ﴿ثُمَّ رَدَدْتُهُ أَشْفَلَ سَفَلِينَ﴾ [التين: ٥] وهذه دلالة على أن من ينقلهم من الشباب إلى الهرم، ومن القوة إلى الضعف، ومن رجاحة العقل إلى الخرف وقلة التمييز، ومن العلم إلى الجهل بعد ما نقلهم خلاف هذا النقل وعكسه - قادر على أن يطمس على أعينهم، ويمسحهم على مكانتهم ويفعل بهم ما شاء وأراد، وقرئ بكسر الكاف^(٢). وننكسه وننكسه، من التنكيس والإنكاس ﴿أَفَلَا يَعْقِلُونَ﴾ بالياء والتاء.

﴿وَمَا عَلَّمْنَاهُ الشِّعْرَ وَمَا يَنْبَغِي لَهُ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ وَقُرْآنٌ مُبِينٌ﴾ [٦٩] لِيُنذِرَ مَنْ كَانَ حَيًّا وَيَحِقَّ الْقَوْلُ عَلَى الْكَافِرِينَ ﴿٧٨﴾

١٢٧٠ - ذكره السيوطي (٥/٥٠٤) وعزاه لابن المنذر وابن أبي حاتم عن أبي صالح يقول «لجعلناهم حجارة».

(١) قوله: «وضروا به» أي: مروا. (ع).

(٢) قوله: «وقرئ بكسر الكاف» يفيد أن القراءة المشهورة بضم الكاف، وهما من النكس. (ع).

كانوا يقولون لرسول الله ﷺ: شاعر، وروي أن القائل: عقبة بن أبي معيط، فقيل: ﴿وَمَا عَلَّمْنَاهُ الشِّعْرَ﴾ أي: وما علمناه بتعليم القرآن الشعر، على معنى: أن القرآن ليس بشعر وما هو من الشعر في شيء، وأين هو عن الشعر، والشعر إنما هو كلام موزون مقفى، يدل على معنى، فأين الوزن؟ وأين التفقية؟ وأين المعاني التي ينتحياها الشعراء عن معانيه؟ وأين نظم كلامهم من نظمه وأساليبه؟ فإذا لا مناسبة بينه وبين الشعر إذا حققت، اللهم إلا أن هذا لفظه عربي، كما أن ذاك كذلك ﴿وَمَا يَلْبِغِي لَهُ﴾ وما يصح له ولا يتطلب لو طلبه، أي: جعلناه بحيث لو أراد قرض الشعر لم يتأت له ولم يتسهل، كما جعلناه أمياً لا يتهدى للخط ولا يحسنه، لتكون الحجة أثبت والشبهة أدهض. وعن الخليل: كان الشعر أحب إلى رسول الله ﷺ من كثير من الكلام، ولكن كان لا يتأتى له. فإن قلت: فقله:

أَنَا السُّبِّيُّ لَا كَذِبٌ أَنَا ابْنُ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ (١٢٧١)
وقوله:

هَلْ أَنْتَ إِلَّا أَصْبُعٌ دَمِيَتْ وَفِي سَبِيلِ اللَّهِ مَا لَقِيتَ؟^(١) (١٢٧٢)

١٢٧١ - أخرجه البخاري (٦٢٢/٧): كتاب المغازي: باب قول الله تعالى ويوم حنين، حديث (٤٣١٦)، وأطرافه في (٢٨٦٤، ٢٨٧٤، ٢٩٣٠، ٣٠٤٢، ٤٣١٥)، ومسلم (٣٥٦/٦، ٣٥٧): كتاب الجهاد والسير، باب في غزوة حنين، حديث (١٧٧٦/٧٨) والترمذي (١٩٩/٤): كتاب الجهاد، باب ما جاء في الثبات عند القتال، حديث (١٦٨٨)، والبيهقي في السنن الكبرى (٤٣/٧)، وأحمد (٢٨٠/٤، ٢٨١، ٢٨٩، ٣٠٤).

والطبري في تفسيره، حديث (١٦٥٨٠)، (١٦٥٨١) والطيالسي (١٠٨/٢) ما جرى للنبي في غزوة هوازن يوم حنين، حديث (٢٣٧٣) وأبو يعلى في مسنده (٢٧١/٣)، حديث (١٧٢٧)، وابن أبي شيبه (٤١٦/٧)، حديث (٣٦٩٨٣) وابن حبان في صحيحه (٩٠/١١)، حديث (٤٧٧٠).

وقال ابن حجر: متفق عليه من حديث البراء بن عازب في حديث. انتهى.

١٢٧٢ - أخرجه البخاري (٢٣/٦): كتاب الجهاد: باب من ينكب في سبيل الله، حديث (٢٨٠٢)، =

(١) هل أنت إلا أصبع دميت وفي سبيل الله ما لقيت؟
يا نفس لا تقنطي بموتي هذي حياض الموت قد صليت
وما تمنيت فقد لقيت إن تفعلني فعلهما هديت

لعبد الله بن رواحة حين حمل اللواء بعد قتل زيد بن حارثة وجعفر بن أبي طالب فأصابت أصبعه في الحرب فدميت، وروى البخاري عن جندب أنه قال: بينما النبي ﷺ يمشي إذ أصابه حجر، فعرش، فدميت أصبعه، فقال: «هل أنت إلا أصبع دميت وفي سبيل الله ما لقيت» فأفاد أنه ﷺ يتمثل بشعر غيره، وهو بكسر التاء على وفق القافية، وقال الكرمانى: التاء في الرجز مكسورة، وفي الحديث ساكنة. وقال عياض: غفل بعض الناس فروى: دميت ولقيت، بغير مد، وخالف الرواية. وروى =

قلت: ما هو إلا كلام من جنس كلامه الذي كان يرمي به على السليقة، من غير صنعة ولا تكلف، إلا أنه اتفق ذلك من غير قصد إلى ذلك ولا التفات منه إليه إن جاء موزوناً؛ كما يتفق في كثير من إنشاءات الناس في خطبهم ورسائلهم ومحاوراتهم أشياء موزونة لا يسميها أحد شعراً ولا يخطر ببال المتكلم ولا السامع أنها شعر، وإذا فتشت في كل كلام عن نحو ذلك وجدت الواقع في أوزان البحور غير عزيز، على أن الخليل ما كان يعدّ المشطور من الرجز شعراً، ولما نفى أن يكون القرآن من جنس الشعر، قال: ﴿إِنَّ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ وَقُرْآنٌ مُبِينٌ﴾ يعني: ما هو إلا ذكر من الله تعالى يوعظ به الإنس والجن، كما قال: ﴿إِنَّ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ﴾ [التكوير: ٢٧] وما هو إلا قرآن كتاب سماوي، يقرأ في المحارب، ويتلى في المتعبدات، وينال بتلاوته والعمل بما فيه فوز الدارين، فكم بينه وبين الشعر الذي هو من همزات الشياطين ﴿يُنذِرُ﴾ القرآن ٢/١٢٤ ب أو الرسول، وقرئ: «التنذر»، بالتاء. ولينذر: من نذر به إذا علمه ﴿مَنْ كَانَ حَيًّا﴾ أي عاقلاً متأملاً؛ لأن الغافل كالميت، أو معلوماً منه أنه يؤمن فيحيا بالإيمان ﴿وَيَحَقُّ الْقَوْلُ﴾ وتجب كلمة العذاب ﴿عَلَى الْكَافِرِينَ﴾ الذين لا يتأملون ولا يتوقع منهم الإيمان.

= ومسلم (٣٩٤/٦ نووي): كتاب الجهاد: باب ما لقي النبي ﷺ من أذى المشركين، حديث (١٧٩٦)، والترمذي (٤٤٢/٥): كتاب التفسير: باب تفسير سورة الضحى، حديث (٣٣٤٥)، والحميدي (٣٤١/٢)، حديث (٧٧٦)، والطبراني في الكبير (١٧٢/٢، ١٧٣)، حديث (١٧٠٨)، وأيضاً (١٧٠٣، ١٧٠٧) وأحمد (٣١٢/٤، ٣١٣).

وابن حبان في صحيحه (٥٣٨/١٤ - ٥٣٩)، حديث (٦٥٧٧)، وأبو يعلى في مسنده (١٠١/٣) - (١٠٢)، حديث (١٥٣٣)، من حديث جندب بن عبد الله بن سفيان. قال الحافظ ابن حجر في «تخريج الكشاف» متفق عليه من حديث جندب بن سفيان في حديث انتهى.

= أحمد والطيالسي أنه ﷺ قاله حين كان خارجاً إلى الصلاة، ودميت: صفة أصعب، والمعنى: لم يحصل لك شيء من الأذى إلا أنك دميت، ولم يكن ذلك هدرأ، بل كان في سبيل الله ومرضاته لا غير، أي: الذي لقيته من الأذى في سبيل الله، فلا تحزني، ونزلها منزلة العاقل فخطبها بذلك تسلياً وتبتيباً لها، وهو في الحقيقة لنفسه، ثم صرح بخطاب النفس مثبتاً لها. بقوله: إن لم تقتلي في الحرب فلا بد لك من الموت، وهذه حياضه، فلا تفري منها؛ لأن الوقوع في البلاء أهون من انتظاره، وشبه الموت بسيل على سبيل المكنية، فأثبت له الحياض تخيلاً، وشبهه بالنار كذلك، فأثبت له الصلى وهو اقتحام النار، ولا مانع من تشبيه الشيء بأمرين مختلفين مع الرمز لكل منهما بما يلائمه، ويجوز استعارة الحياض للمعرفة تصريحاً، والذي تمنيته من الحرب المؤدي إلى الشهادة فقد لقيته، إن تفعلي كفعل زيد وجعفر، هديت إلى طريق الخير.

ينظر: كتاب العين (٦٥/٦)، تهذيب اللغة (٥١/٢)، تاج العروس (صبع)، جمهرة اللغة (ص ٦٨٦)، لسان العرب (صبع).

﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا خَلَقْنَا لَهُمْ مِمَّا عَمِلَتْ أَيْدِيَنَا أَنْعَمًا فَهُمْ لَهَا مَالِكُونَ ﴿٧١﴾ وَذَلَّلْنَاهَا لَهُمْ فَمِنْهَا رَكُوبُهُمْ وَمِنْهَا يَأْكُلُونَ ﴿٧٢﴾ وَهُمْ فِيهَا مَتَعِفُّ وَمَشَارِبٌ أَفْلَا يَشْكُرُونَ ﴿٧٣﴾﴾

﴿مِمَّا عَمِلَتْ أَيْدِيَنَا﴾ مما تولينا نحن إحدائه ولم يقدر على توليه غيرنا، وإنما قال ذلك لبدائع الفطرة والحكمة فيها، التي لا يصح أن يقدر عليها إلا هو. وعمل الأيدي: استعارة من عمل من يعملون بالأيدي ﴿فَهُمْ لَهَا مَالِكُونَ﴾ أي: خلقناها لأجلهم فملكناها إياهم، فهم متصرفون فيها تصرف الملاك، مختصون بالانتفاع فيها لا يزاحمون، أو فهم لها ضابطون قاهرون، من قوله [من المنسرح]:

أَضْبَحْتُ لَا أَحْمِلُ السَّلَاحَ وَلَا أَمْلِكُ رَأْسَ الْبَعِيرِ إِنْ نَفَرًا^(١)
أي: لا أضبطه، وهو من جملة النعم الظاهرة، وإلا فمن كان يقدر عليها لولا تذليله وتسخيره لها؛ كما قال القائل [من الوافر]:

يُصَرِّفُهُ الصَّبِيُّ بِكُلِّ وَجْهِ وَتَضْرِبُهُ الْوَلِيدَةُ بِالْهَرَاوِي
وَيَخْبِسُهُ عَلَى الْخَسْفِ الْجَرِيرِ فَلَا غَيْرَ لَدَيْهِ وَلَا نَكِيرَ^(٢)

| | |
|--------------------------|-----|
| أصبح مني الشباب مبتكراً | (١) |
| فارقنا قبل أن نفارقه | |
| أصبحت لا أملك السلاح ولا | |
| والذئب أخشاه إن مررت به | |
| إن بنا عني فقد ثوى عصرا | |
| لما قضى من جماعنا وطرا | |
| أملك رأس البعير إن نفرا | |
| وحدي وأخشى الرياح والمطر | |

للربيع بن منيع، قاله حين بلغ مائة وأربعين عاماً، عاش بعده مائة وستين. والمبتكر: المسافر أول النهار، فهو تشبيه بليغ، ثم تسلى بقوله: إن بنا، أي بعد عني فقد أقام عندي أزمنة طويلة، فارقنا، أي: ذهب عنا قبل أن نموت، فقله: «نفارقه» مجاز عن ذلك، أو كناية عنه، أو مجاز عن البغض. والجماع: معناه الاجتماع والمصاحبة، والوطر: الحاجة، وهذا كله ترشيح للتشبيه أول الكلام، ولا يخفى ما في البيت من إيهام ما كان ينبغي الاحتراس منه، فإن قضاء الوطر من الجماع اشتهر استعماله في مقام الوطء، ثم قال: صرت لا أضبط السلاح بيدي ولا رأس البعير إن ندمني ولا أقدر عليهما. ويروى: لا أحمل السلاح، أي: لا أقدر على حمله، وأخشاه: أي أخافه، إن مررت به وحدي، وأخاف الرياح والمطر ولو مع غيري، وكل هذا كناية عن بلوغه غاية الضعف والهزم.

ينظر: أمالي المرتضى ٢٥٥/١؛ وحماسة البحري ص ٢٠١؛ وخزانة الأدب ٣٨٤/٧؛ وشرح التصريح ٣٦/٢؛ والكتاب ٨٩/١؛ ولسان العرب ٢٥٩/١٣ (ضمن)؛ والمقاصد النحوية ٣٩٨/٣؛ وبلا نسبة في الرد على النحاة ص ١١٤؛ وشرح المفصل ١٠٥/٧؛ والمحتسب ٩٩/٢.

| | |
|-------------------------|-----|
| لقد عظم البعير بغير لب | (٢) |
| يصرفه الصبي بكل وجه | |
| وتضربه الوليدة بالهراوي | |
| فلم يستغن بالعظم البعير | |
| ويحبسه على الخسف الجري | |
| فلا غير لديه ولا نكير | |

لكثير عزة حين رآه عبد الملك بن مروان قصيراً حقيراً، فقال: تسمع بالمعيدي خير من أن تراه. وقيل: للعباس بن مرداس. وقيل: لمعاوية بن مالك الكلابي، وعظم: ضخم وطال. واللب: =

ولهذا ألزم الله سبحانه الراكب أن يشكر هذه النعمة ويسبح بقوله: ﴿سُبْحَانَ الَّذِي سَخَّرَ لَنَا هَذَا وَمَا كُنَّا لَهُ مُقْرِنِينَ﴾ [الزخرف: ١٣]. وقرئ: «ركوبهم»، و«ركوبتهم». وهما ما يركب، كالحلوب والحلوبة. وقيل: الركوبة جمع. وقرئ: «ركوبهم»؛ أي ذو ركوبهم، أو فمن منافعها ركوبهم ﴿مَنْفَعٌ﴾ من الجلود والأوبار والأصواف وغير ذلك ﴿وَمَسَارِبٌ﴾ من اللبن، ذكرها مجملة، وقد فصلها في قوله تعالى: ﴿وَجَعَلَ لَكُم مِّنْ جُلُودِ الْأَنْعَامِ بُيُوتًا...﴾ الآية [النحل: ٨٠]؛ والمشارب: جمع مشرب؛ وهو موضع الشرب، أو الشرب.

﴿وَاتَّخَذُوا مِن دُونِ اللَّهِ آلِهَةً لَّعَلَّهُم يُنصَرُونَ﴾ (٧٤) لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَهُمْ وَهُمْ لَهُمْ جُنْدٌ مُّحَضَّرُونَ ﴿٧٥﴾ فَلَا يَحْزُنكَ قَوْلُهُمْ إِنَّا نَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ ﴿٧٦﴾

اتخذوا الآلهة طمعاً في أن يتقوا بهم ويعتصوا بمكانهم، والأمر على عكس ما قدروا حيث هم جند لآلهتهم معدون ﴿مُحَضَّرُونَ﴾ يخدمونهم ويدبون عنهم، ويغضبون لهم؛ والآلهة لا استطاعة بهم ولا قدرة على النصر، أو اتخذوهم لينصروهم عند الله ويشفعوا لهم، والأمر على خلاف ما توهموا، حيث هم يوم القيامة جند معدون لهم محضرون لعذابهم؛ لأنهم يجعلون وقوداً للنار. وقرئ: «فلا يحزنك» بفتح الياء وضمها، من: حزنه وأحزنه، والمعنى: فلا يهمنك تكذيبهم وأذاهم وجفاؤهم، فإنما عالمون بما يسرون لك من عداوتهم ﴿وَمَا يُعْلِنُونَ﴾ وإنا مجازوهم عليه، فحقّ مثلك أن يتسلى بهذا الوعيد ويستحضر في نفسه صورة حاله وحالهم في الآخرة حتى ينقشع عنه الهم ولا يرهقه الحزن. فإن قلت: ما تقول فيمن يقول: إن قرأ قارئ: «أنا نعلم» بالفتح: انتقضت صلاته، وإن اعتقد ما يعطيه من المعنى: كفر؟ قلت: فيه وجهان: أحدهما: أن يكون على حذف لام التعليل، وهو كثير في القرآن وفي الشعر، وفي كل كلام وقياس مطرد، وهذا معناه ومعنى الكسر سواء. وعليه تلبية رسول الله ﷺ: «إِنَّ الْحَمْدَ وَالنَّعْمَةَ لَكَ» (١٢٧٣)، كسر أبو

١٢٧٣ - أخرجه مالك (٣٣١/١): كتاب الحج: باب العمل في الإهلال، حديث (٢٨)، والبخاري (٣/٤٠٨): كتاب الحج، باب التلبية، حديث (١٥٤٩)، ومسلم (٨٤١/٢): كتاب الحج: باب التلبية وصفتها ووقتها، حديث (١١٨٤/١٩)، وأبو داود (٤٠٤/٢): كتاب المناسك: باب كيف التلبية، حديث (١٨١٢)، والترمذي (١٨٧/٣) كتاب الحج: باب ما جاء في التلبية، حديث (٨٢٥)، =

= العقل، وأتى بالظاهر موضع المضمحل للتهويل في الطول والجسام، بكل وجه: في كل جهة، والخسف: الدل. والجري: جبل غير الزمام يربط به. والهراوي: جمع هراوة وهي العصا وجمعها دلالة على كثرة الضرب. والغير - بالتحريك - الغيرة. والنكير: الإنكار، يعني أن العبرة بالآليات والعقول، لا بالغلظ والطول.

ينظر: ديوانه ص ٨٧٧، لسان العرب (هرا)، تاج العروس (هرا).

حنيفة وفتح الشافعي، وكلاهما تعليل. والثاني: أن يكون بدلاً من ﴿قَوْلُهُمْ﴾؛ كأنه قيل: فلا

= والنسائي (١٦٠/٥): كتاب الحج: باب كيف التلبية، وابن ماجه (٩٧٤/٢): كتاب المناسك: باب التلبية، حديث (٢٩١٨)، والشافعي (٣٠٣/١): كتاب الحج: الباب الرابع فيما يلزم المحرم عند تلبسه بالإحرام، حديث (٧٨٩)، وأحمد (٤٨/٢)، والطيالسي (٢١١/١): كتاب الحج والعمرة: باب ما جاء في التلبية وصفتها ومدتها، حديث (١٠١٥)، والدارمي (٣٤/٢): كتاب المناسك: باب في التلبية، وابن الجارود ص: (١٥٣): باب المناسك، حديث (٤٣٣)، والطحاوي في شرح معاني الآثار (١٢٤/٢): كتاب مناسك الحج. باب التلبية كيف هي، والبيهقي (٤٤/٥): كتاب الحج: باب كيف التلبية، والحميدي (٢٩١/٢ - ٢٩٢)، رقم (٦٦٠)، والطبراني في «المعجم الصغير» (٨٧/١)، وابن خزيمة (١٧١/٤)، رقم (٢٦٢١، ٢٦٢٢) وابن حبان، رقم (٣٨٠٤) - الإحسان، وأبو نعيم في «الحلية» (١٩٦/٨)، والخطيب في «تاريخ بغداد» (٧٢/٣ - ٤٥/٦)، من طرق عن نافع، عن ابن عمر به، وقال الترمذي: حسن صحيح.

وأخرجه البخاري (٣٧٣/١٠) كتاب اللباس: باب التليد (٥٩١٥) ومسلم (٨٤٢/٢) كتاب الحج: باب التلبية وصفتها ووقتها حديث (١١٨٤/٢١) والنسائي (١٥٩/٥) كتاب الحج: باب كيف التلبية (٢٧٤٧) والبيهقي (٤٤/٥) من طريق الزهري عن سالم عن أبيه عبد الله بن عمر به.

وأخرجه أحمد (٣/٢، ٧٩) وأبو يعلى (٥٧/١٠) رقم (٥٦٩٢) والطبراني في «الصغير» (١٠/ ٥١ - ٥٢) من طرق عن بكر بن عبد الله المزني عن عبد الله بن عمر به.

وفي الباب عن عائشة وجابر وابن مسعود وأنس وعمرو بن معد يكرب وابن عباس.

- حديث عائشة:

أخرجه البخاري (٤٧٨/٣) كتاب الحج: باب التلبية حديث (١٥٥٠) وأحمد (٣٢/٦، ٢٣٠) والطحاوي في «شرح معاني الآثار» (١٢٤/٢) والبيهقي (٤٤/٥) وأبو نعيم في «الحلية» (٢٨/٩) وأبو يعلى (١٣٠/٨ - ١٣١) رقم (٤٦٧١) من طريق الأعمش عن عمارة عن أبي عطية عن عائشة قالت: كان النبي ﷺ يلبي: لبيك اللهم لبيك، لبيك لا شريك لك لبيك إن الحمد والنعمة لك...».

وأخرجه أحمد (١٠٠/٦) والطيالسي (٢١١/١ - منحة) رقم (١٠١٢) والبيهقي (٤٤/٥ - ٤٥) من طريق شعبة عن الأعمش سمعت خيثمة عن أبي عطية عنها.

وعلقه البخاري في «صحيحه» (٤٧٨/٣) رقم (١٥٥٠) من هذا الطريق فقال: وقال شعبة أخبرنا سليمان - الأعمش - سمعت خيثمة عن أبي عطية سمعت عائشة رضي الله عنها.

- حديث جابر:

وهو حديثه الطويل في صفة حجة النبي ﷺ وقد تقدم تخريجه.

- حديث ابن مسعود:

أخرجه أحمد (٤١٠/١) والنسائي (١٦١/٥) كتاب الحج: باب التلبية والطحاوي في «شرح معاني الآثار» (١٢٤/٢) وأبو يعلى (٤٤٠/٨ - ٤٤١) حديث (٥٠٢٧) من طريق حماد بن زيد ثنا أبان بن تغلب عن أبي إسحق عن عبد الرحمن بن يزيد عن عبد الله بن مسعود عن النبي ﷺ أنه قال: لبيك اللهم لبيك لبيك لا شريك لك لبيك إن الحمد والنعمة لك.

- حديث أنس:

أخرجه أبو يعلى (١٥٥/٥ - ١٥٦) رقم (٢٧٦٨) من طريق إسماعيل بن مسلم المكي عن الحسن =

يحزنك، أنا نعلم ما يسرون وما يعلنون. وهذا المعنى قائم مع المكسورة إذا جعلتها

= وقتادة عن أنس أن النبي ﷺ كان يلبي: لبيك اللهم لبيك لبيك لا شريك لك لبيك إن الحمد
والنعمة لك والملك لا شريك لك.

قال الهيثمي في «مجمع الزوائد» (٢٢٦/٣): رواه أبو يعلى من رواية عبد الله بن نمير عن إسماعيل
ولم ينسبه فإن كان ابن أبي خالد وهو من رجال الصحيح وإن كان إسماعيل بن إبراهيم بن مهاجر
وهو ضعيف وكلاهما روى عنه.

والحديث في «المطالب العالية» (١٢٠١) وعزاه ابن حجر إلى أبي يعلى.

- حديث عمرو بن معد يكرب:

أخرجه البزار (١٤/٢ - كشف) رقم (١٠٩٣) والطحاوي في «شرح معاني الآثار» (١٢٤/٢) من
طريق شرقي بن قطامي عن شراحيل بن القعقاع قال: ثنى أبو طلق العانذي قال سمعت عمرو بن
معدي كرب يقول: لقد رأيتنا في الجاهلية ونحن إذا حججنا البيت نقول [من الرجز]:

هذي زبيد قد أنتك قسرا تعدو بها مضمرات شزرا

يقطعن خبتاً وجبالاً وعرا قد تركوا الأصنام خلواً صفرا

قال: ونحن اليوم نقول كما علمنا رسول الله ﷺ: لبيك اللهم لبيك لبيك لا شريك لك لبيك إن
الحمد والنعمة لك والملك لا شريك لك.

وقال البزار: إسناده ليس بالثابت وإنما يحتمل إذا لم نعرف غيره وقد أسلم عمرو في زمن النبي ﷺ
ولم يحدث إلا بهذا.

وذكره الهيثمي في «مجمع الزوائد» (٢٢٦/٣)، وقال: رواه البزار والطبراني في الكبير والصغير
والأوسط... وفيه شرقي بن قطامي وهو ضعيف وقال البزار: إسناده ليس بثابت.

- حديث ابن عباس:

أخرجه أحمد (٣٠٢/١) من طريق شريك عن أبي إسحق عن الضحاك عن ابن عباس قال: كانت
تلبية النبي ﷺ لبيك اللهم لبيك لبيك لا شريك لك لبيك إن الحمد والنعمة لك والملك لا شريك
لك..

ذكره الهيثمي في «المجمع» (٢٥٥/٣) وقال: رواه أحمد ورجاله ثقات والضحاك بن مزاحم لم
يسمع من ابن عباس. وقال العلائي في «جامع التحصيل».. (ص - ١٩٩ - ٢٠٠): الضحاك بن
مزاحم الهلالي صاحب التفسير كان شعبة ينكر أن يكون لقي ابن عباس وروى عن يونس بن عبيد
أنه قال: ما رأى ابن عباس قط وعن عبد الملك بن ميسرة أنه لم يلقه إنما لقي سعيد بن جبير
بالري فأخذ عنه التفسير وروى شعبة أيضاً عن مشاش أنه قال: سألت الضحاك لقيت ابن عباس؟
قال: لا وقال الأثرم سمعت أحمد بن حنبل يسأل الضحاك لقي ابن عباس؟ قال: ما علمت قيل
فمن سمع التفسير؟ قال: يقولون سمعه من سعيد بن جبير قيل له فلقي ابن عمر؟ فقال أبو سنان
يروى شيئاً ما يصح عندي. أ.هـ.

وللحديث طريق آخر عن ابن عباس

أخرجه البزار (١٣/٢ - كشف) رقم (١٠٨٩) من طريق أبي كدينة عن عطاء بن السائب عن سعيد
ابن جبير عن ابن عباس قال: كانت تلبية موسى ﷺ لبيك عبدك وابن عبدك وكانت تلبية عيسى
ﷺ لبيك عبدك وابن أمتك وكانت تلبية النبي ﷺ لبيك لا شريك لك لبيك.

قال البزار: لا نعلمه عن ابن عباس إلا من هذا الوجه ولا رواه عن عطاء إلا أبو كدينة.

=

مفعولة للقول، فقد تبين أن تعلق الحزن بكون الله عالماً وعدم تعلقه لا يدوران على كسر «إن» وفتحها، وإنما يدوران على تقديرك، فتفصل إن فتحت؛ بأن تقدّر معنى التعليل ولا تقدّر البدل؛ كما أنك تفصل بتقدير معنى التعليل إذا كسرت ولا تقدّر معنى المفعولية، ثم إن قدرته كاسراً أو فاتحاً على ما عظم فيه الخطب ذلك القائل، فما فيه إلا نهى رسول الله ﷺ عن الحزن على كون الله عالماً بسرهم وعلايتهم، وليس النهي عن ذلك مما يوجب شيئاً، ألا ترى إلى قوله تعالى: ﴿فَلَا تَكُونَنَّ ظَهيراً لِلْكَافِرِينَ﴾ [القصص: ٨٦]، ﴿وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ [القصص: ٨٧]، ﴿وَلَا تَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهاً آخَرَ﴾ [القصص: ٨٨].

﴿أَوَلَمْ يَرِ الْإِنْسَانُ أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِنْ نُطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُبِينٌ﴾ (٧٧) وَضَرَبَ لَنَا مَثَلاً وَنَسَى خَلْقَهُ قَالَ مَنْ يُعْطِي الْعِظَمَ وَهِيَ رَيْبٌ (٧٨) قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنْشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ (٧٩) الَّذِي جَعَلَ لَكُم مِّنَ الشَّجَرِ الْأَخْضَرِ نَاراً فَإِذَا أَنْتُمْ مِّنْهُ تُوقَدُونَ (٨٠) أَوَلَيْسَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِقَدِيرٍ عَلَىٰ أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ بَلَىٰ وَهُوَ الْخَلَّاقُ الْعَلِيمُ (٨١) إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَن يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ (٨٢) فَسُبْحَانَ الَّذِي يَدِينُهُ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ (٨٣)﴾

قبح الله عز وجل إنكارهم البعث تقييحاً لا ترى أعجب منه وأبلغ، وأدل على تمادي كفر الإنسان وإفراطه في جحود النعم وعقوق الأيادي، وتوغله في الخسة وتغلغله في القحّة^(١)؛ حيث قرره بأن عنصره الذي خلقه منه هو أحسن شيء وأمهنة، وهو النطفة المذرة الخارجة من الإحليل ١٢٥/٢ الذي هو قناة النجاسة، ثم عجب من حاله بأن يتصدى مثله على مهانة أصله ودناءة أوله لمخاصمة الجبار، وشرز صفحته^(٢) لمجادلته، ويركب متن الباطل ويلج، ويمحك ويقول: من يقدر على إحياء الميت بعد ما رمت عظامه، ثم يكون خصامه في ألزم وصف له وألصقه به، وهو كونه منشأ من موات، وهو ينكر إنشاءه من موات، وهي المكابرة التي لا مطمح وراءها، وروي: أن جماعة من كفار

= وقال الهيثمي في «المجمع» (٢٢٥/٣): رواه البزار وفيه عطاء ابن السائب وهو ثقة ولكنه اختلط ببقية رجاله رجال الصحيح.
قال الحافظ في «تخريج الكشاف»: متفق عليه من حديث ابن عمر في أثناء حديث انتهى.

- (١) قوله: «وتغلغله في القحّة» في الصحاح: وقح الرجل قحّة ووقاحة، إذا صار قليل الحياء. (ع).
(٢) قوله: «وشرز صفحته... إلخ» في الصحاح «الشرز» الشرس، وهو الغلظ. والمحك: اللجاج. (ع).

قريش منهم أبي بن خلف الجمحي وأبو جهل والعاصي بن وائل والوليد بن المغيرة تكلموا في ذلك، فقال لهم أبي: ألا ترون إلى ما يقول محمد، إن الله يبعث الأموات، ثم قال: واللوات والعزى لأصيرن إليه ولأخصمنه، وأخذ عظماً بالياً فجعل يفته بيده وهو يقول: يا محمد، أترى الله يحيي هذا بعد ما قد رم؟ قال ﷺ: «نعم، ويبعثك ويدخلك جهنم» (١٢٧٤) وقيل: معنى قوله: ﴿إِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّينٌ﴾ فإذا هو بعد ما كان ماء مهيناً رجل مميز منطبق قادر على الخصام، مبين: معرب عما في نفسه فصيح، كما قال تعالى: ﴿أَوْمَن يُكَشِّفُ فِي الْحَيَاةِ وَهُوَ فِي الْخِصَامِ غَيْرُ مُبِينٍ﴾ [الزخرف: ١٨]. فإن قلت: لم سمى قوله: ﴿مَنْ يُعْطِ الْعِظَمَ وَهِيَ رَمِيمٌ﴾ مثلاً؟ قلت: لما دلّ عليه من قصة عجيبة شبيهة بالمثل، وهي إنكار قدرة الله تعالى على إحياء الموتى، أو لما فيه من التشبيه، لأن ما أنكر من قبيل ما يوصف الله بالقدرة عليه، بدليل النشأة الأولى، فإذا قيل: من يحيي العظام على طريق الإنكار لأن يكون ذلك مما يوصف الله تعالى بكونه قادراً عليه، كان تعجيزاً لله وتشبيهاً له بخلقه في أنهم غير موصوفين بالقدرة عليه. والرميم: اسم لما يلي من العظام غير صفة، كالرمة والرفات، فلا يقال: لم لم يؤنث وقد وقع خبر المؤنث؟ ولا هو فعيل بمعنى فاعل أو مفعول، ولقد استشهد بهذه الآية من يثبت الحياة في العظام، ويقول: إن عظام الميتة نجسة؛ لأن الموت يؤثر فيها من قبل أن الحياة تحلها. وأما أصحاب أبي

١٢٧٤ - قال الزيلعي في تخريج الكشاف (١٦٧/٣)، حديث (١٠٧٩): غريب بهذا اللفظ. وعزاه للشعبي عن قتادة.

وأخرجه ابن جرير الطبري (٤٦٤/١٠)، حديث (٢٩٢٤٣)، والحاكم في المستدرک (٤٢٩/٢) في التفسير: تفسير سورة يس.

وذكره السيوطي في الدر المنثور (٥٠٧/٥) وزاد نسبه لابن المنذر وابن أبي حاتم والإسماعيلي في المعجم وابن مردويه، والبيهقي في البعث، والضياء في المختارة، عن ابن عباس. لكن وجدته في الطبري عن سعيد بن جبیر.

وذكره السيوطي في الدر (٥٠٨/٥)، وعزاه لسعيد بن منصور، وابن المنذر والبيهقي. عن أبي مالك: جاء أبي بن خلف.

وأخرج الطبري (٤٦٤/١٠) جامع البيان، حديث (٢٩٢٤٤) عن ابن عباس، وذكره السيوطي في الدر المنثور (٥٠٧/٥)، وعزاه لابن جرير وابن مردويه عن ابن عباس: جاء عبد الله بن أبي. وذكره السيوطي في الدر (٥٠٨/٥)، وعزاه لابن مردويه عن ابن عباس، قال: نزلت في أبي جهل ابن هشام.

قال الحافظ: هكذا ذكره الشعبي عن قتادة بغير سند، وأخرجه الحاكم من رواية أبي بشر عن سعيد ابن جبیر عن ابن عباس، وأن العاص بن وائل أخذ عظماً من البطحاء، ففته بيده، ثم قال لرسول الله ﷺ: أياحي الله هذا بعد مارم؟ فقال: نعم، يملكك الله - الحديث، وروى البيهقي في الشعب من طريق حصين عن أبي مالك. قال: جاء أبي بن خلف بعظم نحر - الحديث، وروى ابن مردويه من طريق الضحاك عن ابن عباس قال: «جاء أبو جهل بعظم حائل»، انتهى.

حنيفة فهي عندهم طاهرة، وكذلك الشعب والعصب، ويزعمون أَنَّ الحياة لا تحلها فلا يؤثر فيها الموت، ويقولون: المراد بإحياء العظام في الآية ردها إلى ما كانت عليه غضة رطبة في بدن حيّ حساس ﴿وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ﴾ يعلم كيف يخلق، لا يتعاضمه شيء من خلق المنشآت والمعادات ومن أجناسها وأنواعها وجلائلها ودقائقها. ثم ذكر من بدائع خلقه انقذاح النار من الشجر الأخضر، مع مضادة النار الماء وانطفائها به؛ وهي الزناد التي تورى بها الأعراض وأكثرها من المَرخ والعفار، وفي أمثالهم: «في كل شجر نار، واستمجد المَرخ والعفار»، يقطع الرجل منهما غصنين مثل السواكين وهما خضراوان، يقطر منهما الماء فيسحق المَرخ وهو ذكر، على العفار وهي أنثى فتندحح النار بإذن الله. وعن ابن عباس رضي الله عنهما: ليس من شجرة إلا وفيها النار إلا العناب (١٢٧٥). قالوا: ولذلك تتخذ منه كذبنقات القصارين. قرئ: «الأخضر» على اللفظ، وقرئ: «الخضراء» على المعنى، ونحوه قوله تعالى: ﴿مِنْ شَجَرٍ مِّنْ زَيْتُونٍ مِّنْهَا لَبُتُونَ ﴿٥٤﴾ فَتَشْرِتُونَ عَلَيْهِ مِنَ الْحَبِيبِ﴾ [الواقعة: ٥٤]. من قدر على خلق السموات والأرض مع عظم شأنهما فهو على خلق الأناسي أقدر، وفي معناه قوله تعالى: ﴿لَخَلْقُ السَّمَكَاتِ وَالْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ﴾ [غافر: ٥٧]. وقرئ: «يقدر». وقوله: ﴿أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ﴾ يحتمل معنيين: أن يخلق مثلهم في الصغر والقماء^(١) بالإضافة إلى السموات والأرض أو أن يعيدهم؛ لأن المعاد مثل للمبتدأ وليس به ﴿وَهُوَ الْخَلَّاقُ﴾ الكثير المخلوقات ﴿الْعَلِيمُ﴾ الكثير المعلومات. وقرئ: «الخالق» ﴿إِنَّمَا أَمْرُهُ﴾: إنما شأنه ﴿إِذَا أَرَادَ شَيْئًا﴾ إذا دعاه داعي حكمة إلى تكوينه ولا صارف ﴿أَن يَقُولَ لَهُ كُنْ﴾ أن يكونه من غير توقف ﴿فَيَكُونُ﴾ فيحدث، أي: فهو كائن موجود لا محالة. فإن قلت: ما حقيقة قوله: ﴿أَن يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾؟ قلت: هو مجاز من الكلام وتمثيل؛ لأنه لا يمتنع عليه شيء من المكونات، وأنه بمنزلة المأمور المطيع إذا ورد عليه أمر الأمر المطاع. فإن قلت: فما وجه القراءتين في «فيكون»؟ قلت: أما الرفع فلأنها جملة من مبتدأ وخبر؛ لأن تقديرها: فهو يكون، معطوفة على مثلها، وهي أمره أن يقول له: كن. وأما النصب فللعطف على «يقول»، والمعنى: أنه لا يجوز عليه شيء مما يجوز على الأجسام إذا فعلت شيئاً مما تقدر عليه، من المباشرة بمحال القدرة، واستعمال الآلات، وما يتبع ذلك من المشقة والتعب واللغوب، إنما أمره وهو القادر العالم لذاته أن يخلص داعيه إلى الفعل، فيتكون؛ فمثله كيف يعجز عن مقدور حتى يعجز

١٢٧٥ - ذكره الزيلعي في تخريج أحاديث الكشاف (١٦٨/٣)، حديث (١٠٨٠) وقال الحافظ: لم أجده.

(١) قوله: «والقماء» الصغر والدَّلَّة. أفاده الصحاح. (ع).

عن الإعادة؟! ﴿فَسُبْحَنَّ﴾ تنزيه له مما وصفه به المشركون، وتعجيب من أن يقولوا فيه ما قالوا ﴿يَدِيهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ﴾ هو مالك كل شيء والمتصرف فيه بموجب مشيئته وقضايا حكمته. وقرئ: «ملكة/ ٢/ ١٢٥ ب كل شيء» و«ملك كل شيء». والمعنى واحد ﴿رُجَعُونَ﴾ بضم التاء وفتحها. وعن ابن عباس رضي الله عنهما: كنت لا أعلم ما روي في فضائل يس وقراءتها كيف خصت بذلك، فإذا أنه لهذه الآية.

قال رسول الله ﷺ: «إِنَّ لِكُلِّ شَيْءٍ قَلْبًا، وَإِنْ قَلْبَ الْقُرْآنِ يَس، مَنْ قَرَأَ يَسَ يَرِيدُ بِهَا وَجْهَ اللَّهِ، غُفِرَ اللَّهُ تَعَالَى لَهُ، وَأُعْطِيَ مِنَ الْأَجْرِ كَأَنَّمَا قَرَأَ الْقُرْآنَ اثْنَتَيْنِ وَعَشْرِينَ مَرَّةً، وَأَيُّمَا مُسْلِمٍ قَرَأَ عِنْدَهُ إِذَا نَزَلَ بِهِ مَلَكُ الْمَوْتِ سُورَةَ يَسَ، نَزَلَ بِكُلِّ حَرْفٍ مِنْهَا عَشْرَةُ أَمْلَاقٍ يَقُومُونَ بَيْنَ يَدَيْهِ صَفُوفًا يَصْلُونَ عَلَيْهِ وَيَسْتَغْفِرُونَ لَهُ، وَيَشْهَدُونَ غَسْلَهُ وَيَتَّبِعُونَ جَنَازَتَهُ وَيَصْلُونَ عَلَيْهِ وَيَشْهَدُونَ دَفْنَهُ، وَأَيُّمَا مُسْلِمٍ قَرَأَ يَسَ وَهُوَ فِي سَكْرَاتِ الْمَوْتِ، لَمْ يَقْبُضْ مَلَكُ الْمَوْتِ رُوحَهُ حَتَّى يَحْيِيَهُ رِضْوَانُ خَازِنِ الْجَنَّةِ بَشْرِيَّةً مِنْ شَرَابِ الْجَنَّةِ يَشْرِبُهَا وَهُوَ عَلَى فِرَاشِهِ، فَيَقْبُضُ مَلَكُ الْمَوْتِ رُوحَهُ وَهُوَ رِيَانٌ، وَيَمُكِّثُ فِي قَبْرِهِ وَهُوَ رِيَانٌ، وَلَا يَحْتَاجُ إِلَى حَوْضٍ مِنْ حِيَاضِ الْأَنْبِيَاءِ حَتَّى يَدْخُلَ الْجَنَّةَ وَهُوَ رِيَانٌ» (١٢٧٦). وقال عليه الصلاة والسلام: «إِنْ فِي الْقُرْآنِ سُورَةٌ تَشْفَعُ لِقَارِئِهَا، وَيَغْفِرُ لِمُسْتَمْعِهَا؛ أَلَا وَهِيَ سُورَةُ يَسَ» (١٢٧٧).

١٢٧٦ - أخرجه القضاعي في مسند الشهاب (١٨٧/٢)، حديث (٦٦١)، عن أبي بن كعب، وذكره الزيلعي (١٧١/٣)، حديث (١٠٨٠)، وزاد نسبه إلى ابن مروديه، والثعلبي عن أبي بن كعب. وأخرجه البزار، حديث (٢٣٠٤) من حديث أبي هريرة: «إِنْ لِكُلِّ شَيْءٍ قَلْبًا، وَفِي الْبَابِ عَنْ أَبِي بَكْرٍ، لَكِنْ لَا يَصِحُّ»، قال الحافظ بن حجر: أخرجه ابن مروديه والثعلبي من حديث أبي بن كعب، وأوله في الترمذي من رواية هرون أبي محمد عن مقاتل بن حيان عن قتادة عن أنس، وقال: غريب. وهرون مجهول، وفي الباب عن أبي بكر وأبي هريرة. فأما حديث أبي هريرة، فأخرجه البزار وفيه حميد المكي مولى آل علقمة. وهو ضعيف. وحديث أبي بكر: أخرجه الحكيم الترمذي، انتهى. ١٢٧٧ - ذكره الزيلعي في تخريج الكشاف (١٧١/٣)، وعزه للثعلبي قال الحافظ ابن حجر: أخرجه الثعلبي من طريق محمد بن عمير عن هشام عن أبيه عن عائشة، انتهى.

سورة الصفات

مكية، وهي مائة وإحدى وثمانون آية،
وقيل: واثنان وثمانون [نزلت بعد الأنعام]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿وَالصَّفَّاتِ صَفًّا ۝١﴾ فَالزَّجَرِجِ زَجْرًا ۝٢﴾ فَالتَّائِبِ ذِكْرًا ۝٣﴾ إِنَّ إِلَهَكُمْ لَوَاحِدٌ ۝٤﴾ رَبُّ
السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَرَبُّ الْمَشْرِقِ ۝٥﴾

أقسم الله سبحانه بطوائف الملائكة أو بنفوسهم الصفات أقدامها في الصلاة، من قوله تعالى: ﴿وَإِنَّا لَنَحْنُ الصَّافُونَ ۝١٦٥﴾ [الصفات: ١٦٥] أو أجنحتها في الهواء واقفة منتظرة لأمر الله ﴿فَالزَّجَرِجِ﴾ السحاب سوقاً ﴿فَالتَّائِبِ﴾ لكلام الله من الكتب المنزلة وغيرها. وقيل: ﴿وَالصَّفَّاتِ﴾: الطير، من قوله تعالى: ﴿وَالطَّيْرِ صَفَّاتٍ﴾ [النور: ٤١] والزاجرات: كل ما زجر عن معاصي الله. والتاليات: كل من تلا كتاب الله. ويجوز أن يقسم بنفوس العلماء العمال الصفات أقدامها في التهجد وسائر الصلوات وصفوف الجماعات، فالزجرات بالمواعظ والنصائح، فالتاليات آيات الله والدراسات شرائعه أو بنفوس قواد الغزاة في سبيل الله التي تصف الصفوف وتزجر الخيل للجهاد، وتتلو الذكر^(١) مع ذلك لا تشغلها عنه تلك

(١) قال محمود: «المقسم به طوائف الملائكة أو نفوسهم، والمراد صفهم في الصلاة وزجرهم السحاب أي سوقهم وتلاوتهم ذكر الله أو العلماء، والمراد تصافف أقدامهم في الصلاة وزجرهم بالمواعظ عن المعاصي وتلاوتهم الذكر... إلى أن قال: ... «ويكون التفاضل بين الطوائف إما على أن الأول هو الأفضل أو على العكس» قال أحمد: قد جوز أن يكون ترتيبها في التفاضل على أن الأول وهو الأفضل وعلى العكس، ولم يبين وجه كل واحد منهما من حيث صنعة البديع، ونحن نبينه فنقول: وجه البداية بالأفضل الاعتناء بالأهم. فقدم؛ ووجه عكس هذا الترتيب من الأدنى إلى الأعلى؛ ومنه قوله [من الطويل]:

بهايل منهم جعفر وابن أمه علي ومنهم أحمد المتخير
ولا يقال: إن هذا إنما ساغ لأن الواو لا تقتضي رتبة، فإن هذا غايته أنه عذر، وما ذكرناه بيان لما فيه من مقتضى البديع والبلاغة؛ وفي هذه الآية دلالة على مذهب سيبويه والخليل في مثل (والليل إذا يغشى والنهار إذا تجلى) فإنهما يقولان: الواو الثانية وما بعدها عواطف، وغيرهما يذهب إلى =

الشواغل؛ كما يحكى عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه. فإن قلت: ما حكم الفاء إذا جاءت عاطفة في الصفات؟ قلت: إما أن تدل على ترتب معانيها في الوجود؛ كقوله [من السريع]:

يَا لَهْفَ زِيَابَةِ لِحَارِثِ الصَّابِحِ فَالْغَائِمِ فَلَايِبِ^(١)

كأنه قيل: الذي صبح فغنم فآب. وإما على ترتبها في التفاوت من بعض الوجوه؛ كقولك: خذ الأفضل فالأكمل، واعمل الأحسن فالأجمل. وإما على ترتب موصوفاتها في ذلك؛ كقوله: رحم الله المحلقين فالمقصرين؛ فعلى هذه القوانين الثلاثة ينساق أمر الفاء العاطفة في الصفات، فإن قلت: فعلى أي هذه القوانين هي فيما أنت بصده؟ قلت: إن وحدت الموصوف، كانت للدلالة على أن ترتب الصفات في التفاضل، وإن ثلثته، فهي للدلالة على ترتب الموصوفات فيه، بيان ذلك: أنك إذا أجريت هذه الأوصاف على الملائكة وجعلتهم جامعين لها، فعطفها بالفاء يفيد ترتباً لها في الفضل: إما إن يكون الفضل للصف ثم للزجر ثم للتلاوة وإما على العكس، وكذلك إن أردت العلماء وقواد الغزاة. وإن أجريت الصفة الأولى على طوائف والثانية والثالثة على آخر، فقد أفادت ترتب الموصوفات في الفضل، أعني: أن الطوائف الصافات ذوات فضل، والزاجرات أفضل، والتاليات أبهر فضلاً، أو على العكس، وكذلك إذا أردت بالصفات: الطير، وبالزاجرات: كل ما يزجر عن معصية، وبالتاليات: كل نفس تتلو الذكر؛ فإن الموصوفات مختلفة. وقرئ: بإدغام التاء في الصاد والزاي والذال. ﴿رَبُّ السَّمَوَاتِ﴾ خبر بعد خبر، أو خبر مبتدأ محذوف. و ﴿الْمَشْرِقِ﴾ ثلثمائة وستون مشرقاً، وكذلك المغارب؛ تشرق الشمس كل يوم في مشرق وتغرب في مغرب، ولا تطلع ولا تغرب في واحد يومين. فإن قلت: فماذا أراد بقوله: ﴿رَبُّ الْمَشْرِقَيْنِ وَرَبُّ الْمَغْرِبَيْنِ﴾ [الرحمن: ١٧]؟ قلت: أراد مشرقي الصيف والشتاء ومغربيهما

﴿إِنَّا زَيْنَا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِزِينَةِ الْكَوَاكِبِ﴾ (١) وَحِفْظًا مِّنْ كُلِّ شَيْطَانٍ مَّارِدٍ (٢)

﴿الدُّنْيَا﴾ القريبى منكم. والزينة: مصدر كالنسبة، واسم لما يزان به الشيء؛ كالليقة اسم لما تلاق به الدواة، ويحتملها قوله: ﴿بِزِينَةِ الْكَوَاكِبِ﴾ فإن أردت المصدر، فعلى إضافته إلى الفاعل، أي: بأن زانتها الكواكب، وأصله/ ١٢٦/ ٢: بزينة الكواكب، أو على

= أنها حروف قسم؛ فوقع الفاء في هذه الآية موقع الواو والمعنى واحد؛ إلا أن ما تزيده الفاء من ترتبها دليل واضح على أن الواو الواقعة في مثل هذا السياق للعطف لا للقسم.

(١) تقدم.

إضافته إلى المفعول، أي: بأن زان الله الكواكب وحسنها؛ لأنها إنما زينت السماء لحسنها في أنفسها، وأصله ﴿زَيْنَةُ الْكَوَاكِبِ﴾ وهي قراءة أبي بكر والأعمش وابن وثاب. وإن أردت الاسم فللاضافة وجهان: أن تقع الكواكب بياناً للزينة؛ لأن الزينة مبهمة في الكواكب وغيرها مما يزان به، وأن يراد ما زينت به الكواكب. وجاء عن ابن عباس رضي الله عنهما: بزينة الكواكب: بضوء الكواكب، ويجوز أن يراد أشكالها المختلفة؛ كشكل الشرا وبنات نعش والجوزاء، وغير ذلك، ومطالعها ومساييرها. وقرئ على هذا المعنى: «بزينة الكواكب» بتنوين زينة، وجرّ الكواكب على الإبدال، ويجوز في نصب الكواكب أن يكون بدلاً من محل بزينة ﴿وَحَفْظًا﴾ مما حمل على المعنى؛ لأنّ المعنى: إنا خلقنا الكواكب زينة للسماء وحفظاً من الشياطين؛ كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ زَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ وَجَعَلْنَاهَا رُجُومًا لِلشَّيَاطِينِ﴾ [الملك: ٥] ويجوز أن يقدر الفعل المعلل؛ كأنه قيل: وحفظاً ﴿مِنْ كُلِّ شَيْطَانٍ﴾ زينها بالكواكب، وقيل: وحفظناها حفظاً. والمارد: الخارج من الطاعة المتملس^(١) منها.

﴿لَا يَسْمَعُونَ إِلَى آلِمًا لَّاَ عَظَمَىٰ وَيَقْدِفُونَ مِن كُلِّ جَانِبٍ﴾ (٨) دُحُورًا وَلَهُمْ عَذَابٌ وَاصِبٌ ﴿٩﴾ إِلَّا
مَنْ خَطِفَ الْخَطْفَةَ فَأَتْبَعَهُ شِهَابٌ ثَاقِبٌ ﴿١٠﴾

الضمير في «لا يسمعون» لكل شيطان، لأنه في معنى الشياطين. وقرئ بالتخفيف والتشديد، وأصله: يتسمعون. والتسمع: تطلب السماع. يقال: تسمع فسمع، أو فلم يسمع. وعن ابن عباس رضي الله عنهما: هم يتسمعون ولا يسمعون (١٢٧٨)، وبهذا ينصر التخفيف على التشديد. فإن قلت: لا يسمعون كيف اتصل بما قبله؟ قلت: لا يخلو من أن يتصل بما قبله على أن يكون صفة لكل شيطان، أو استثناءً فلا تصحّ الصفة؛ لأنّ الحفظ من شياطين لا يسمعون ولا يتسمعون لا معنى له، وكذلك الاستثناء؛ لأنّ سائلاً لو سأل: لم تحفظ من الشياطين؟ فأجيب بأنهم لا يسمعون: لم يستقم، فبقي أن يكون كلاماً منقطعاً مبتدأً اقتصاصاً، لما عليه حال المسترقة للسمع^(٢)، وأنهم لا يقدرون أن

١٢٧٨ - ذكره السيوطي في الدر المنثور (٥/٥١١)، وعزه لعبد بن حميد، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وابن مردويه عن ابن عباس قال: إنهم كانوا يتسمعون ولكن لا يسمعون!!

(١) قوله: «من الطاعة المتملس منها» في الصحاح: يقال: انملس من الأمر، إذا أفلت منه. (ع).

(٢) أبطل الزمخشري أن يكون (لا يسمعون) صفة؛ لأن الحفظ من شيطان لا يسمع لا معنى له، وأبطل أن يكون أصله لئلا يسمعو، فحذف اللام وحذفها كثير، ثم حذف أن وأهدر عملها مثل [من الطويل]:

ألا أي هذا الزاجري أحضر الوغى وأن أشهد اللذات هل أنت مخلدي؟ =

يسمعوا إلى كلام الملائكة، أو يتسمعوا وهم مقذوفون بالشهب مدحورون عن ذلك، إلا من أمهل حتى خطف خطفة واسترق استرقاً؛ فعندها تعاجله الهلكة بإتباع الشهاب الثاقب. فإن قلت: هل يصح قول من زعم أن أصله: لثلا يسمعوا فحذفت اللام؛ كما حذفت في قولك: جئتكم أن تكرمني، فبقي ألا يسمعوا فحذفت أن وأهدر عملها، كما في قول القائل [من الطويل]:

أَلَا أَيُّهَذَا الزَّاجِرِي أَخْضُرُ الْوَعَى^(١)

قلت: كل واحد من هذين الحذفين غير مردود على انفراده، فأما اجتماعهما فمنكر من المنكرات، على أن صون القرآن عن مثل هذا التعسف واجب. فإن قلت: أي فرق بين سمعت فلاناً يتحدث، وسمعت إليه يتحدث، وسمعت حديثه، وإلى حديثه؟ قلت: المعدى بنفسه يفيد الإدراك، والمعدى بإلى يفيد الإصغاء مع الإدراك و«الملا الأعلى»: الملائكة (١٢٧٩)؛ لأنهم يسكنون السماوات، والإنس والجن: هم الملا الأسفل؛ لأنهم سكان الأرض. وعن ابن عباس رضي الله عنهما: هم الكتبة من الملائكة. وعنه: أشرف الملائكة ﴿مِنْ كُلِّ جَانِبٍ﴾ من جميع جوانب السماء من أي جهة صعدوا للاستراق ﴿دُخُورًا﴾

١٢٧٩ - ذكره السيوطي في الدر (٥/٥١١)، وعزاه لابن أبي حاتم عن السدي في قوله لا يسمعون إلى الملا الأعلى: قال الملائكة.

= واستبعد اجتماع هذين الحذفين، وإن كان كل واحد منهما بانفراده سائغاً، ولما أبطل هذين الوجهين تعين عنده أن يكون ابتداء كلام اقتصاصاً لما عليه أحوال المسترق للسمع، قال أحمد: كلا الوجهين مستقيم، والجواب عن إشكاله الوارد على الوجه الأول: أن عدم سماع الشيطان سببه الحفظ منه، فحال الشيطان حال كونه محفوظاً منه هي حال كونه لا يسمع، وإحدى الحالين لازمة للأخرى، فلا مانع أن يجتمع الحفظ منه، وكونه موصوفاً بعدم السماع في حالة واحدة لا على أن عدم السماع ثابت قبل الحفظ بل معه وقسيمه، ونظير هذه الآية على هذا التقدير قوله تعالى: ﴿وَسَخَّرَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالنُّجُومَ مُسَخَّرَاتٌ بِأَمْرِي﴾ فقوله تعالى «مسخرات» حال مما تقدمه العامل فيه الفعل الذي هو سخر. ومعناه مستقيم؛ لأن تسخيرها يستلزم كونها مسخرة، فالحال التي سخرت فيها هي الحال التي كانت فيها مسخرة، لا على معنى تسخيرها مع كونها مسخرة قبل ذلك، وما أشار له الزمخشري في هذه الآية قريب من هذا التفسير؛ إلا أنه ذكر معه تأويلاً آخر كالمستشكل لهذا الوجه، فجعل مسخرات جمع مسخر مصدر كعمزق، وجعل المعنى: وسخر لكم الليل والنهار والشمس والقمر أنواعاً من التسخير، وفيما ذكرناه كفاية، ومن هذا النمط (ثم أرسلنا رسلنا) وهم ما كانوا رسلاً إلا بالإرسال، وهؤلاء ما كانوا لا يسمعون إلا بالحفظ، وأما الجواب عن إشكاله الثاني فورود حذفين في مثل قوله تعالى (يبين الله لكم أن تضلوا) وأصله لثلا تضلوا، فحذف اللام و«لا» جميعاً من محليهما.

(١) تقدم.

مفعول له؛ أي: ويقذفون للدحور وهو الطرد، أو مدحورين على الحال، أو لأنّ القذف والطرد متقاربان في المعنى؛ فكأنه قيل: يدحرون أو قذفاً. وقرأ أبو عبد الرحمن السلمي بفتح الدال على: قذفاً دحوراً طروداً، أو على أنه قد جاء مجيء القبول والولوع. والواصب: الدائم، وصب الأمر وصوباً، يعني أنهم في الدنيا مرجومون بالشهب، وقد أعد لهم في الآخرة نوع من العذاب دائم غير منقطع ﴿مَنْ﴾ في محل الرفع بدل من الواو في «لا يسمعون» أي: لا يسمع الشياطين إلا الشيطان الذي ﴿حَظِيَ لُحُفَةً﴾ وقرئ: «خطف» بكسر الخاء والطاء وتشديدها، و«خطف» بفتح الخاء وكسر الطاء وتشديدها، أصلها: اختطف. وقرئ: «فأتبعه» و«فاتبعه».

﴿فَاسْتَفْتَيْهِمْ أَهْمَ أَشَدُّ خَلْقًا أَمْ مَنْ خَلَقْنَا إِنَّا خَلَقْنَاهُمْ مِنْ طِينٍ لَّازِبٍ﴾ (١١)

الهمزة وإن خرجت إلى معنى التقرير، فهي بمعنى الاستفهام في أصلها، فلذلك قيل: ﴿فَاسْتَفْتَيْهِمْ﴾ أي: استخبرهم ﴿أَهْمَ أَشَدُّ خَلْقًا﴾ ولم يقل: فقرهم، والضمير لمشريكي مكة. قيل: نزلت في أبي الأشد بن كلد، وكني بذلك لشدة بطشه وقوته ﴿أَمْ مَنْ خَلَقْنَا﴾ يريد: ما ذكر من خلأته: من الملائكة، والسموات والأرض، والمشارق، والكواكب، والشهب الثواقب، والشياطين المردة، وغلب أولي العقل على غيرهم، فقال: «من خلقنا»، والدليل عليه قوله بعد عد هذه الأشياء: ﴿فَاسْتَفْتَيْهِمْ أَهْمَ أَشَدُّ خَلْقًا أَمْ مَنْ خَلَقْنَا﴾ بالفاء المعقبة. وقوله: ﴿أَمْ مَنْ خَلَقْنَا﴾ مطلقاً من غير تقييد بالبيان، اكتفاء ببيان ما تقدمه، كأنه قال: خلقنا كذا وكذا من عجائب الخلق وبدائعه، فاستفتهم أهم أشد خلقاً أم الذي خلقناه من ذلك، ويقطع به قراءة من قرأ: «أم من عدنا» بالتخفيف والتشديد. و «أشد خلقاً» يحتمل أقوى خلقاً من قولهم: شديد/ ٢/ ١٢٦ ب الخلق، وفي خلقه شدة، وأصعب خلقاً وأشقّه، على معنى الردّ لإنكارهم البعث والنشأة الأخرى، وأنّ من هان عليه خلق هذه الخلائق العظيمة ولم يصعب عليه اختراعها - كان خلق البشر عليه أهون. وخلقهم ﴿مِنْ طِينٍ لَّازِبٍ﴾ إما شهادة عليهم بالضعف والرخاوة؛ لأنّ ما يصنع من الطين غير موصوف بالصلابة والقوة، أو احتجاج عليهم بأن الطين اللازب الذي خلقوا منه تراب، فمن أين استنكروا أن يخلقوا من تراب مثله، حيث قالوا: ﴿أَءِذَا كُنَّا تُرَابًا﴾ [الرعد: ٥]. وهذا المعنى يعضده ما يتلوه من ذكر إنكارهم البعث. وقيل: من خلقنا من الأمم الماضية، وليس هذا القول بملائم. وقرئ: «لازب» و«لاتب» والمعنى واحد، والثاقب: الشديد الإضاءة.

﴿بَلْ عَجِبْتَ وَيَسْخَرُونَ﴾ (١٢) وَإِذَا ذُكِّرُوا لَا يَذْكُرُونَ (١٣) وَإِذَا رَأَوْا آيَةً يَسْتَسْخَرُونَ (١٤)

«بل عجبت» من قدرة الله على هذه الخلائق العظيمة ﴿و﴾ هم ﴿يَسْخَرُونَ﴾ منك ومن

تعجبك ومما تريهم من آثار فطرة الله، أو من إنكارهم البعث وهم يسخرون من أمر البعث وقرئ بضم التاء: أي: بلغ من عظم آياتي وكثرة خلائقي أنني عجبت منها، فكيف بعبادي وهؤلاء بجهلهم وعنادهم يسخرون من آياتي، أو عجبت من أن ينكروا البعث ممن هذه أفعاله، وهم يسخرون ممن يصف الله تعالى بالقدرة عليه. فإن قلت: كيف يجوز العجب على الله تعالى، وإنما هو روعة تعتري الإنسان عند استعظامه الشيء، والله تعالى لا يجوز عليه الروعة؟ قلت: فيه وجهان: أحدهما: أن يجرّد العجب لمعنى الاستعظام، والثاني: أن يُتخيل العجب ويفرض. وقد جاء في الحديث: «عجب ربكم من ألكم»^(١) وقنوطكم وسرعة إجابته إياكم» (١٢٨٠). وكان شريح يقرأ بالفتح، ويقول: إنّ الله لا يعجب من شيء، وإنما يعجب من لا يعلم، فقال إبراهيم النخعي: إنّ شريحاً كان يعجبه علمه وعبد الله أعلم، يريد عبد الله بن مسعود (١٢٨١)، وكان يقرأ بالضم. وقيل: معناه: قل: يا محمد بل عجبت. ﴿وَإِذَا ذُكِّرُوا﴾ ودأبهم أنهم إذا وعظوا بشيء لا يتعظون به ﴿وَإِذَا رُؤُءُ﴾ من آيات الله البينة كانشقاق القمر ونحوه ﴿يَسْتَسْخِرُونَ﴾ يبالغون في السخرية، أو يستدعي بعضهم من بعض أن يسخر منها.

﴿وَقَالُوا إِن هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ﴾ (١٥) ﴿أَيُّدَا مِنَّا وَكُنَّا لِرَأْيَا وَعِظْلًا أَوْثَانًا لِّمَبْعُوثُونَ﴾ (١٦) ﴿أَوْ أَبَاؤُنَا﴾
 ﴿الْأَوَّلُونَ﴾ (١٧) ﴿قُلْ نَعَمْ وَأَنْتُمْ كَاخِرُونَ﴾ (١٨) ﴿فَإِنَّمَا هِيَ زَجْرَةٌ وَاحِدَةٌ فَإِذَا هُمْ يَنْظُرُونَ﴾ (١٩)

﴿أَوْ أَبَاؤُنَا﴾ معطوف على محل ﴿إِنْ﴾ واسمها، أو على الضمير في «مبعوثون»، والذي جَوَزَ العطف عليه الفصل بهمزة الاستفهام. والمعنى: أيبعث أيضاً أبأؤنا على زيادة الاستبعاد؛ يعنون أنهم أقدم، فبعثهم أبعد وأبطل. وقرئ: «أو أبأؤنا» ﴿قُلْ نَعَمْ﴾ وقرئ: «نعم» بكسر العين وهما لغتان. وقرئ: «قال نعم» أي: الله تعالى أو الرسول ﷺ. والمعنى: نعم تبعثون ﴿وَأَنْتُمْ كَاخِرُونَ﴾ صاغرون ﴿فَإِنَّمَا﴾ جواب شرط مقدّر تقديره: إذا كان ذلك فما ﴿هي﴾ إلا ﴿زَجْرَةٌ وَاحِدَةٌ﴾ وهي لا ترجع إلى شيء، إنما هي مبهمة موضحها خبرها.

١٢٨٠ - قال الزيلعي في تخريج الكشاف (١٧٥/٣)، حديث (١٠٧٣): غريب قال الحافظ: أخرجه أبو عبيد في الغريب عن محمد بن عمرو يرفعه، ثم قال: فقال: الأول رفع الصوت بالدعاء، وقال بعضهم: يرويه الأول، وهو الشدة، انتهى.

١٢٨١ - ذكره السيوطي في الدر المنثور (٥١٣/٥)، وعزاه لعبد بن حميد، وأبو عبيد وابن المنذر وابن أبي حاتم، والبيهقي في الأسماء والصفات من طريق الأعمش عن شقيق بن سلمة عن شريح، وأخرجه عبد الرزاق في تفسيره (١٤٨/٢).

(١) قوله: «من ألكم وقنوطكم» الال: يأتي بمعنى السرعة والأئين والفساد. أفاده الصحاح. (ع).

ويجوز: فإنما البعثة زجرة واحدة^(١) وهي النفخة الثانية. والزجرة: الصيحة، من قولك: زجر الراعي الإبل أو الغنم: إذا صاح عليها فريعت لصوته. ومنه قوله [من المنسرح]:

زَجَرَ أَبِي عُرْوَةَ السَّبَاعَ إِذَا أَشْفَقَ أَنْ يَخْتَلِطَنَّ بِالْغَنَمِ^(٢)
يريد تصويته بها ﴿فَإِذَا هُمْ﴾ أحياء بصراء ﴿يَنْظُرُونَ﴾.

﴿وَقَالُوا يَوْمَئِذٍ هَذَا يَوْمُ الْقَصَصِ الَّذِي كُنْتُمْ بِهِ تُكَذِّبُونَ﴾ ﴿٢١﴾

يحتمل أن يكون ﴿هَذَا يَوْمُ الدِّينِ﴾ إلى قوله: ﴿احْشَرُوا﴾ من كلام الكفرة بعضهم مع بعض، وأن يكون من كلام الملائكة لهم، وأن يكون ﴿يَوْمَئِذٍ هَذَا يَوْمُ الدِّينِ﴾ كلام الكفرة. و ﴿هَذَا يَوْمُ الْقَصَصِ﴾ من كلام الملائكة جواباً لهم. ويوم الدين: اليوم الذي ندان فيه، أي: نجازى بأعمالنا. ويوم الفصل: يوم القضاء، والفرق بين فرق الهدى والضلالة.

﴿احْشَرُوا الَّذِينَ ظَنَّمُوا أَنزَوَجَهُمْ وَمَا كَانُوا يَعْبُدُونَ﴾ ﴿٢٢﴾ مِنْ دُونِ اللَّهِ فَأَهْدُوهُمْ إِلَى الْخَبِيرِ ﴿٢٣﴾
وَقَفُّهُمْ إِنَّهُمْ مَسْتَوْلُونَ ﴿٢٤﴾ مَا لَكُمْ لَا تَنَاصَرُونَ ﴿٢٥﴾ بَلْ هُمْ آيَوْمَ مُسْتَسْلِمُونَ ﴿٢٦﴾

﴿احْشَرُوا﴾ خطاب الله للملائكة، أو خطاب بعضهم مع بعض ﴿وَأَزَوَجَهُمْ﴾ وضرباهم عن النبي ﷺ، وهم نظراؤهم وأشباههم من العصاة: أهل الزنا مع أهل الزنا، وأهل السرقة مع أهل السرقة. وقيل: قرناؤهم من الشياطين. وقيل: نسأؤهم اللاتي على دينهم ﴿فَأَهْدُوهُمْ﴾ فعرفوهم طريق النار حتى يسلكوها؛ هذا تهكم بهم وتوبيخ لهم بالعجز. عن التناصر بعد ما كانوا على خلاف ذلك في الدنيا متعاضدين متناصرين ﴿بَلْ هُمْ آيَوْمَ مُسْتَسْلِمُونَ﴾ ﴿٢٦﴾ قد أسلم بعضهم بعضاً وخذله عن عجز، فكلهم مستسلم غير منتصر. وقرئ: «لا تتناصرون» و«لا تناصرون»، بالإدغام.

(١) قال السمين الحلبي: قال الشيخ: كثيراً ما يقول هو وابن مالك: إِنَّ الضَّمِيرَ يُفَسِّرُهُ خَبَرُهُ. وَوَقَفَ أَبُو حَاتِمٍ عَلَى «وَيْلُنَا» وَجَعَلَ مَا بَعْدَهُ مِنْ قَوْلِ الْبَارِي تَعَالَى وَبَعْضُهُمْ جَعَلَ «هَذَا يَوْمُ الدِّينِ» مِنْ كَلَامِ الْكُفَرَةِ فَيَقِفُ عَلَيْهِ. وَقَوْلُهُ: ﴿هَذَا يَوْمُ الْقَصَصِ﴾ مِنْ قَوْلِ الْبَارِي تَعَالَى، وَقِيلَ: الْجَمِيعُ مِنْ كَلَامِهِمْ وَعَلَى هَذَا فَيَكُونُ قَوْلُهُ: «تُكَذِّبُونَ» إِذَا التَّفَاتَا مِنَ التَّكَلُّمِ إِلَى الْخُطَابِ وَإِنَّمَا مَخَاطَبَةُ بَعْضِهِمْ لِبَعْضٍ. انْتَهَى. الدَّر الْمَصُون.

(٢) للنابغة الجعدي. وأبو عروة: كنية العباس عم النبي ﷺ، كانوا يزعمون أنه يصيح بالسباع فينفق مرارة الأسد في جوفه، وروي أن غارة أتتهم يوم حنين فصاح: يا صباحاه فأسقطت الحوامل، وكان يسمع صوته من مسافة ثمانية أميال، وزجره يزجره، إذا صاح بمنعه، أي: كزجر أبي عروة السباع عن الغنم إذا خاف اختلاطهن بها في البادية. ينظر: ديوان (ص ١٥٨)، لسان العرب (عرا)، تهذيب اللغة (٣/ ١٦٢).

﴿وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ﴾ (٢٧) قَالُوا إِنَّكُمْ كُنْتُمْ تَأْتُونَنَا عَنِ الْيَمِينِ ﴿٢٨﴾ قَالُوا بَلْ لَمْ تَكُونُوا مُؤْمِنِينَ ﴿٢٩﴾ وَمَا كَانَ لَنَا عَلَيْكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ بَلْ كُنْتُمْ قَوْمًا طَٰغِيْنَ ﴿٣٠﴾ فَحَقَّ عَلَيْنَا قَوْلُ رَبِّنَا إِنَّا لَذَٰئِقُونَ ﴿٣١﴾ فَأَعْوَيْنَكُمْ إِنَّا كُنَّا عَاوِينَ ﴿٣٢﴾ فَأَنَّهُمْ يَوْمَئِذٍ فِي الْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ ﴿٣٣﴾ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَفْعَلُ بِالْمُجْرِمِينَ ﴿٣٤﴾ إِنَّهُمْ كَانُوا إِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ يَسْتَكْبِرُونَ ﴿٣٥﴾

اليمين لما كانت أشرف العضوين وأمتنهما، وكانوا يتيمنون بها، فيها يصفاحون ويماسحون ويناولون ويتناولون، ويزاولون أكثر الأمور، ويتشاءمون بالشمال، ولذلك سموها: الشؤمى، كما سموا أختها اليمنى، وتيمنوا بالسنانح^(١)، وتطيروا/٢/ ١٢٧ بالبارح، وكان الأعسر معيياً عندهم، وعضدت الشريعة ذلك، فأمرت بمباشرة أفاضل الأمور باليمين، وأراذلها بالشمال، وكان رسول الله ﷺ يحب التيامن في كل شيء (١٢٨٢). وجعلت اليمين لكاتب الحسنات، والشمال لكاتب السيئات، ووعد المحسن أن يؤتى كتابه بيمينه، والمسيء أن يؤتاه بشماله، استعيرت لجهة الخير وجانبه، فقيل: أتاه عن اليمين، أي: من قبل الخير وناحيته، فصده عنه وأضله. وجاء في بعض التفاسير: «من أتاه الشيطان من جهة اليمين، أتاه من قبل الدين فلبس عليه الحق، ومن أتاه من جهة الشمال، أتاه من قبل الشهوات، ومن أتاه من بين يديه، أتاه من قبل التكذيب بالقيامة

١٢٨٢ - أخرجه البخاري (٣٢٣/١) كتاب الوضوء: باب التيمن في الوضوء والغسل حديث (١٦٧) وفي (٦٢٣/١) كتاب الصلاة: باب التيمن في دخول المسجد وغيره حديث (٤٢٦) وكتاب الأطعمة: باب التيمن في الأكل وغيره حديث (٥٣٨٠) وكتاب اللباس: باب يبدأ بالنعل اليمنى حديث (٥٨٥٤) وباب الترجيل والتيمن فيه حديث (٥٩٢٦) ومسلم (٢٢٦/١) كتاب الطهارة: باب التيمن في الطهور وغيره حديث (٢٦٨/٦٧) وأبو داود (٤٦٨/٢) كتاب اللباس: باب في الانتعال حديث (٤١٤٠) والترمذي (٥٠٥/٢ - ٥٠٦) كتاب الصلاة: باب ما يستحب من التيمن في الطهور حديث (٦٠٨) وفي «الشمال المحمدية» رقم (٣٤) والنسائي (٧٨/١) كتاب الطهارة: باب بأي الرجلين يبدأ بالغسل حديث (١١٢) وفي (٢٠٥/١) كتاب الغسل والتيمم: باب التيمن في الطهور حديث (٤٢١) وفي (١٨٥/٨) كتاب الزينة: باب التيامن في الترجل حديث (٥٢٤٠) وابن ماجه (١٤١/١) كتاب الطهارة: باب التيمن في الوضوء حديث (٤٠١) وأحمد (٩٤/٦، ١٣٠، ١٤٧، ١٧٨، ١٨٨، ٢٠٢، ٢١٠) وأبو عوانة (٢٢٢/١) والطيالسي (١٤١٠) وأبو الشيخ في «أخلاق النبي» (ص ٢٦١) وابن حبان (٥٤٥٦) والبلغوى في «شرح السنة» (٣١٠/١ - بتحقيقنا) كلهم من طريق الأشعث بن أبي الشعثاء عن أبيه عن مسروق عن عائشة. وقال الترمذي: هذا حديث حسن صحيح. قال الحافظ ابن حجر: متفق عليه من حديث عائشة رضي الله عنها أتم من هذا انتهى.

(١) قوله: «وتيمنوا بالسنانح» السنانح: المار من اليسار إلى اليمين. والبارح عكسه. أفاده الصحاح. (ع).

وبالثواب والعقاب، ومن أتاه من خلفه، خوفاً الفقر على نفسه وعلى من يخلف بعده؛ فلم يصل رحماً ولم يؤد زكاة». فإن قلت: قولهم: أتاه من جهة الخير وناحيته، مجاز في نفسه، فكيف جعلت اليمين مجازاً عن المجاز؟ قلت: من المجاز ما غلب في الاستعمال حتى لحق بالحقائق، وهذا من ذاك؛ ولك أن تجعلها مستعارة للقوة والقهر؛ لأن اليمين موصوفة بالقوة، وبها يقع البطش. والمعنى: أنكم كنتم تأتوننا عن القوة والقهر، وتقصدوننا عن السلطان والغلبة حتى تحملونا على الضلال وتقسرونا عليه؛ وهذا من خطاب الأتباع لرؤسائهم، والغواة لشياطينهم ﴿بَلْ لَمْ تَكُونُوا مُؤْمِنِينَ﴾ بل أبيتم أنتم الإيمان وأعرضتم عنه، مع تمكنكم منه مختارين له على الكفر، غير ملجئين إليه ﴿وَمَا كَانَ لَنَا عَلَيْكُمْ﴾ من تسلط نسلبكم به تمكنكم واختياركم ﴿بَلْ كُنْتُمْ قَوْمًا﴾ مختارين الطغيان ﴿فَنَحَقَّ عَلَيْنَا﴾ فلزمتنا ﴿قَوْلَ رَبِّنَا إِنَّا لَذَائِقُونَ﴾ يعني: وعيد الله بأننا ذائقون لعذابه لا محالة، لعلمه بحالنا واستحقاقنا بها العقوبة، ولو حكى الوعيد كما هو، ألا لقال: إنكم لذائقون، ولكنه عدل به إلى لفظ المتكلم؛ لأنهم متكلمون بذلك عن أنفسهم. ونحوه قول القائل [من الوافر]:

أَلَا زَعَمْتَ هَوَازِنَ قَلِّ مَالِي (١)

ولو حكى قولها لقال: قل مالك، ومنه قول المحلف للمحالف: احلف لأخرجن، ولتخرجن؛ الهمزة لحكاية لفظ المحالف، والتاء لإقبال المحلف على المحلف ﴿فَأَعْوَيْنَاكُمْ﴾ فدعوناكم إلى الغي دعوة محصلة للبغي، لقبولكم لها واستحبابكم الغي على الرشد ﴿إِنَّا كُنَّا غَوِيًّا﴾ فأردنا إغواءكم لتكونوا أمثالنا ﴿فَاتَّبَعْتُمْ﴾ فإن الأتباع والمتبوعين جميعاً ﴿يَوْمَئِذٍ﴾ يوم القيامة مشتركون في العذاب؛ كما كانوا مشتركين في الغواية ﴿إِنَّا﴾ مثل ذلك الفعل ﴿نَفَعَلْ﴾ بكل مجرم، يعني أن سبب العقوبة هو الإجماع، فمن ارتكبه استوجبها ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا إِذَا﴾ سمعوا بكلمة التوحيد، نفروا واستكبروا عنها وأبوا إلا الشرك.

﴿وَيَقُولُونَ إِنَّا لَنَارِكُوا إِلَهَ الْهَيْتَا لِشَاعِرٍ يَجْنُونِ﴾ (٣٦) ﴿بَلْ جَاءَ بِالْحَقِّ وَصَدَّقَ الْمُرْسَلِينَ﴾ (٣٧) ﴿إِنَّكُمْ

(١) ألا زعمت هوازن قل مالي وهل لي غير ما أنفقت مال؟
أسر به نعم ونعم قديماً على ما كان من مال وبال

ألا استفتاحية، وهوازن: امرأته، وضمن زعمت معنى قالت: فعدها إلى الجملة، ولو حكى قولها بلفظه لقال: قل مالك، ولكن جاء بياء المتكلم لجواز الحكاية بالمعنى، وهل: استفهام إنكاري، وغير: حال مقدمة، أي: ليس لي مال غير ما أنفقت في المكارم، وأسره: مبني للمجهول صفة لمال، أي: لا يسرني غير ما أنفقت، وبين جهة الإنفاق بقوله: نعم ونعم، أي جوابي للسائلين بذلك من قديم الزمان: هو وبال ومضرة على ما كان لي من مال، ويجوز أن أسر مبني للفاعل. ونعم الأولى مفعوله، أي: هل لي مال أسره من يجاب بنعم، والحال أن نعم وبال على المال، ومهلكة له قديماً، حيث أجيب السائل بها.

لَذَائِقُوا الْعَذَابِ الْأَلِيمَ ﴿٣٨﴾ وَمَا تَجَزَّوْنَ إِلَّا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٣٩﴾

﴿إِشَاعِرِ تَجْتَوْنَ﴾ يعنون محمداً ﷺ ﴿بَلْ جَاءَ بِالْحَقِّ﴾ رد على المشركين ﴿وَصَدَقَ الْمُرْسَلِينَ﴾؛ كقوله: ﴿مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ﴾ [البقرة: ٩٧]، وقرئ: «لذائقو العذاب»، بالنصب على تقدير النون؛ كقوله [من المتقارب]:

..... وَلَا ذَاكِرَ اللَّئِ إِلَّا قَلِيلًا^(١)

بتقدير التنوين. وقرئ: على الأصل «لذائقون العذاب» ﴿إِلَّا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ إلا مثل ما عملتم جزاء سيئاً بعمل سيئ.

﴿إِلَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ﴾ ﴿أُولَٰئِكَ لَهُمْ رِزْقٌ مَّعْلُومٌ﴾ ﴿فَوَكَهَهُمْ مَّكْرُمُونَ﴾ ﴿فِي جَنَّتٍ﴾
النَّعِيمِ ﴿٤٣﴾ عَلَى سُرُرٍ مُّتَقَابِلِينَ ﴿٤٤﴾ يُطَافُ عَلَيْهِمْ بِكَأْسٍ مِّنْ مَّعِينٍ ﴿٤٥﴾ بِبَصَّاءَ لِّذَةٍ شَدِيدٍ ﴿٤٦﴾
لَا فِيهَا غَوْلٌ وَلَا هُمْ عَنْهَا يُنْفَكُونَ ﴿٤٧﴾ وَعِنْدَهُمْ قَاصِرَاتُ الطَّرْفِ عِينٌ ﴿٤٨﴾ كَأَنَّهُنَّ بَصَّ
مَكُونٌ ﴿٤٩﴾

﴿إِلَّا عِبَادَ اللَّهِ﴾ ولكن عباد الله، على الاستثناء المنقطع. فسر الرزق المعلوم بالفواكه؛ وهي كل ما يتلذذ به ولا يتقوت لحفظ الصحة؛ يعني أن رزقهم كله فواكه؛ لأنهم مستغنون عن حفظ الصحة بالأقوات، بأنهم أجسام محكمة مخلوقة للأبد، فكل ما يأكلونه يأكلونه على سبيل التلذذ، ويجوز أن يراد: رزق معلوم منوع بخصائص خلق عليها: من طيب طعم، ورائحة، ولذة، وحسن منظر. وقيل: معلوم الوقت، كقوله: ﴿وَهُمْ رَزَقَهُمْ فِيهَا بُكْرَةً وَعَشِيًّا﴾ [مريم: ٦٢] وعن قتادة: الرزق المعلوم الجنة، وقوله ﴿فِي جَنَّتٍ﴾ يَأْبَاهُ، وقوله: ﴿وَهُمْ مُّكْرَمُونَ﴾ هو الذي يقوله وعن العلماء في حدّ الثواب على سبيل المدح والتعظيم، وهو من أعظم ما يجب أن تتوق إليه نفوس ذوي الهمم، كما أنّ من أعظم ما يجب أن تنفر عنه نفوسهم هوان أهل النار وصغارهم.

التقابل أتم للسرور وآس. وقيل: لا ينظر بعضهم إلى قفا بعض.

ويقال للزجاجة فيها الخمر: كأس، وتسمى الخمر نفسها كأساً، قال [من المتقارب]:
وَكَأْسٍ شَرِبْتُ عَلَى لَذَةٍ.....^(٢)

(١) تقدم.

(٢) وكأس شربت على لذة وأخرى تداولت منها بها

لكي يعلم الناس أنني امرؤ أتيت المعيشة من بابها

للأعشى، والكأس تطلق على الزجاجة فيها الخمر، وعلى الخمر فيها: مجاز مشهور، وهي مؤنثة =

وعن الأخفش: كل كأس في القرآن فهي الخمر، وكذا في تفسير ابن عباس ﴿مِنْ مَّعِينٍ﴾ من شراب معين، أو من نهر معين، وهو الجاري على وجه الأرض، الظاهر للعيون، وصف بما يوصف به الماء؛ لأنه ١٢٧/٢ ب يجري في الجنة في أنهار كما يجري الماء، قال الله تعالى: ﴿وَأَنْتَ مِنْ حَمْرِ﴾ [محمد: ١٥] ﴿بَيْضَاءَ﴾ صفة للكأس ﴿لَذَّةٍ﴾ إمّا أن توصف باللذة كأنها نفس اللذة وعينها، أو هي تأنيث اللذة، يقال: لذ الشيء فهو لذ ولذيذ. ووزنه: فعل، كقولك: رجل طب، قال [من الطويل]:

وَلَذُّ كَطَعْمِ الصَّرْخَدِيِّ تَرَكُّهُ بِأَرْضِ الْعِدَا مِنْ خَشْيَةِ الْحَدَثَانِ^(١)

يريد النوم. الغول: من غاله يغوله غولاً، إذا أهلكه وأفسده. ومنه: الغول الذي في تكاذيب العرب. وفي أمثالهم: الغضب غول الحلم، و ﴿يُتْرَفُونَ﴾ على البناء للمفعول، من نرف الشارب^(٢) إذا ذهب عقله. ويقال للسكران: نريف ومنزوف. ويقال للمطعون: نرف قمات إذا خرج دمه كله، ونزحت الركبة حتى نرفت: إذا لم تترك فيها ماء، وفي أمثالهم: «أجبن من المنزوف ضرطاً» وقرئ: «ينزفون» من أنزف الشارب إذا ذهب عقله أو شربه. قال [من الطويل]:

لَعَمْرِي لَشِنْ أَنْزَفْتُمُو أَوْ صَحَوْتُمُو لَيْشَسَ النَّدَامَى كُنْتُمُو آلَ أَبَجْرَا^(٣)

= بدليل تأنيث صفتها وضميرها. يقول: ورب كأس شربتها مع لذة، أو لأجل لذة فضررتني، فشربت كأساً أخرى تداويت من الأولى بها؛ ليعلم الناس أنني مجرب للأمور، وكنت عن ذلك بقوله: أتيت المعيشة من بابها، وشبه المعيشة مع أسبابها المناسبة لها لدار لها باب على طريق المكنية، وإثبات الباب تخييل، أي: كما داويت الداء من بابه أدرك المعيشة وأحصلها من الأسباب التي تناسبها. ويروى: بدل الشطر الثاني من البيت الأول «دهاق يرنح من ذاقها» ودهقه: كسره وغمزه غمزاً شديداً، وكأس داهق: مثلثة، ودهاق: مملوءة. وترنح: تميل، لكن هذا من قافية أخرى. ينظر: الدر المصون (٥٠٠/٥).

(١) اللذ: وصف، واللذة: مؤنثة، وهي اسم للكيفية القائمة بالنفس، واسم للشيء اللذيذ. والصرخد: موضع من الشام ينسب إليه الشراب. والحدثان: مصدر كالحدث، إلا أنه يدل على التجدد والتكرار، يقول: ورب شيء لذيق يعني النوم، طعمه كطعم الشراب الطيب، تركته بأرض الأعداء خوف نزول المكاره بي. ويروى بدل الشطر الثاني «عشية خمس القوم والعين عاشقة» وخمست القوم أخمسهم - بالضم -: أخذت خمس أموالهم. ينظر: لسان العرب (لذذ)، تهذيب اللغة (٤٠٩/١٤)، تاج العروس (لذذ)، مجمل اللغة (٤/٢٤٥)، أساس البلاغة (لذذ).

(٢) قوله: «من نرف الشارب في الصحاح: نرفت ماء البئر نرفاً، إذا نزحته كله. ونزفت هي: يُتَعَدَّى ولا يُتَعَدَّى.. ونزفت أيضاً على ما لم يسم فاعله. (ع).

(٣) للأبيرد. ونزف دمه: خرج منه حتى ضعف وانقطعت حركته. ونزف الرجل في الخصومة: انقطعت حجته، وأنزف: صار ذا نرف، فنزف وأنزف لازمان. وقوله: لشن أنزفتم، أي سكرتم وبطلت حركتكم، أو انقطع شرابكم، ولبشس الندامى: جواب القسم، وجواب الشرط مثله محذوف، =

ومعناه: صار ذا نرف. ونظيره: أقشع السحاب، وقشعته الريح، وأكب الرجل وكبته، وحقيقتهما: دخلا في القشع والكب. وفي قراءة طلحة بن مصرف: ينزفون: بضم الزاي، من نرف ينزف كقرب يقرب، إذا سكر. والمعنى: لا فيها فساد قط من أنواع الفساد التي تكون في شرب الخمر من مغص أو صداع أو خمار^(١) أو عريضة أو لغو أو تأثيم أو غير ذلك، ولا هم يسكرون^(٢)، وهو أعظم مفسادها فأفرزه وأفرده بالذكر، ﴿قَصِرَتْ أَوَّارُهُ﴾ قصرت أبصارهن على أزواجهن، لا يمددن طرفاً إلى غيرهم، كقوله تعالى: ﴿عَرَبًا﴾^(٣) [الواقعة: ٣٧] والعين: النجل العيون^(٤) شبههن ببض النعام المكنون في الأداحي، وبها تشبه العرب النساء وتسميهن بيضات الخدور.

﴿فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ﴾ ٥٠ قَالَ قَائِلٌ مِّنْهُمْ إِنِّي كَانَ لِي قَرِينٌ ﴿٥١﴾ يَقُولُ أَإِنَّكَ لَمِنَ الْمَصْدِقِينَ ﴿٥٢﴾ إِنْ هَذَا مِنْنا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظْمًا أَإِنَّا لَمَدِينُونَ ﴿٥٣﴾ قَالَ هَلْ أَنتُمْ مُّطْلِعُونَ ﴿٥٤﴾ فَأَطَّلَعَ فَرَّاءُهُ فِي سَوَاءِ الْجَحِيمِ ﴿٥٥﴾ قَالَ تَاللَّهِ إِن كِدْتَ لَتُرْدِينَ ﴿٥٦﴾ وَلَوْلَا نِعْمَةُ رَبِّي لَكُنْتُ مِنَ الْمُحْضَرِينَ ﴿٥٧﴾

فإن قلت: علام عطف قوله: ﴿فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ﴾؟ قلت: على يطاق عليهم. والمعنى: يشربون فيتحدثون على الشراب كعادة الشرب^(٥) قال [من الوافر]: وَمَا بَقِيَتْ مِنَ اللَّذَاتِ إِلَّا أَحَادِيثُ الْكِرَامِ عَلَى الْمُدَامِ^(٦)

- = وأنتم: هو المخصوص بالذم. وآل أبجر: منادى، وفيه نوع من التهكم والاستخفاف بهم.
- ينظر: لسان العرب (نرف)، بلا نسبة من جمهرة اللغة (ص ٨٢١)، خزانة الأدب (٣٨٨/٩)، الدرر (٢١٥/٥)، شرح عمدة الحفاظ ص (٧٩٣)، المحتسب (٣٠٨/٢).
- (١) قوله: «في الصحاح: الخمار: بقية السكر». (ع).
- (٢) قوله: «ولا هم يسكرون» لعله: ولا هم عنها يسكرون. (ع).
- (٣) قوله: «كقوله تعالى: عرباً» أي متحبات إلى أزواجهن كما يأتي. (ع).
- (٤) قوله: «النجل العيون» في الصحاح: النجل - بالتحريك: كشف العين. والرجل أنجل، والعين نجلاء، والجمع نجل. وفيه: مدح النعمة: موضع بيضها. وأدحها موضعها، وهو أفعول من دحوت؛ لأنها تدحوه برجلها ثم تبيض فيه اهـ والأداحي: جمعه. (ع).
- (٥) قوله: «كعادة الشرب» جمع شارب، كالصاحب جمع صاحب، كذا في الصحاح. (ع).
- (٦) للفرزدق، يقول: وما بقيت لذة من اللذات إلا لذة أحاديث الكرام، أو ما بقيت شهوة من الشهوات اللذيذة إلا أحاديث الكرام على الخمر، وأتى بحرف الاستعلاء؛ لأن الشراب يكون بين أيديهم والحديث من أفواههم فوقه، وكان الظاهر: وما بقي من اللذات، لكن أنث الفعل؛ لأنه مفرغ لما بعد إلا، أو للتأويل المتقدم.
- ينظر: البحر المحيط ٣٦/٧، الدر المصون (٥٠٣/٥).

فيقبل بعضهم على بعض ﴿يَسَاءَ لَوْ﴾ عما جرى لهم وعليهم في الدنيا، إلا أنه جيء به ماضياً على عادة الله في إخباره. قرئ: «من المصدقين»، من التصديق. ومن المصدقين مشدد الصاد، من التصديق، وقيل: نزلت في رجل تصدق بماله لوجه الله، فاحتاج فاستجدى بعض إخوانه؛ فقال: وأين مالك؟ قال: تصدقت به ليعوضني الله به في الآخرة خيراً منه، فقال: أئتتك لمن المصدقين بيوم الدين. أو من المتصدقين لطلب الثواب. والله لا أعطيك شيئاً (١٢٨٣) ﴿لَمَدِينُونَ﴾ لمجزيون، من الدين وهو الجزاء. أو لمسوسون مريبون. يقال: دانه ساسه. ومنه الحديث: «العاقل من دان نفسه» (١٢٨٤). ﴿قَالَ﴾ يعني ذلك القائل: ﴿هَلْ أَنْتَ مُطَّلِعُونَ﴾ إلى النار لأريكم ذلك القرين. قيل: إن في الجنة كوى ينظر أهلها منها إلى أهل النار. وقيل: القائل هو الله عز وجل. وقيل: بعض الملائكة يقول لأهل الجنة: هل تحبون أن تطلعوا فتعلموا أين منزلتكم من منزلة أهل النار. وقرئ: «مطلعون» فاطلع. وفأطلع بالتشديد، على لفظ الماضي والمضارع المنصوب: ومطلعون فاطلع وفأطلع بالتخفيف على لفظ الماضي والمضارع والمنصوب يقال: طلع علينا فلان، واطلع وأطلع بمعنى واحد، والمعنى: هل أنتم مطلعون إلى القرين فاطلع أنا أيضاً. أو عرض عليهم الاطلاع فاعترضوه، فاطلع هو بعد ذلك. وإن جعلت الإطلاع من أطلعه غيره، فالمعنى: أنه لما شرط في اطلاعه اطلاعهم، وهو من آداب المجالسة. أن لا يستبد بشيء دون جلسائه، فكأنهم مطلعوه. وقيل: الخطاب على هذا للملائكة. وقرئ: «مطلعون» بكسر النون، أراد: مطلعون إياي؛ فوضع المتصل موضع المنفصل، كقوله [من الطويل]:

١٢٨٣ - أخرجه عبد الرزاق في تفسيره (١٤٩/٢) بمعناه وذكره السيوطي في الدر المنثور (٥١٨/٥) وعزاه لعبد الزراق وابن المنذر عن عطاء الخرساني بمعناه وعزاه لابن أبي حاتم عن السدي بمعناه.

١٢٨٤ - قال الزيلعي (١٧٥/٣)، حديث (١٠٨٥) غريب بهذا اللفظ لكن ورد الحديث بلفظ: الكيس من دان نفسه وعمل لما بعد الموت والعاجز من اتبع نفسه هواها وتمنى على الله.

أخرجه الترمذي (٦٣٨/٤) كتاب صفة القيامة باب (٢٥) حديث (٢٤٥٩)، وابن ماجه (١٤٢٣/٢) كتاب الزهد: باب ذكر الموت والاستعداد له حديث (٧١٤٣)، وأحمد (١٢٤/٤)، والحاكم (١/٥٧)، وابن المبارك في «الزهد» (ص ٥٦ رقم (١٧١)، والبيهقي (٣/٣٦٩) كتاب الجنائز: باب ما ينبغي لكل مسلم أن يستعمله من قصر الأمل، وفي «شعب الإيمان» (٣٥٠/٧) رقم (١٠٥٤٦)، والطبراني في «الكبير» (٣٤١/٧) رقم (٧١٤٣)، وأبو نعيم في «الحلية» (١/٢٦٧)، والخطيب في «تاريخ بغداد» (٥٠/١٢)، والقضاعي في «مسند الشهاب» رقم (١٨٥)، كلهم من طريق أبي بكر بن أبي مريم عن ضمرة بن حبيب عن شداد بن أوس مرفوعاً وقال الترمذي: حديث حسن.

وقال الحاكم: صحيح على شرط البخاري ولم يخرجاه.

وتعقبه الذهبي فقال: لا والله أبو بكر واه.

قال الحافظ: أخرجه الترمذي وابن ماجه والحاكم وأحمد والبخاري وأبو يعلى والحديث والطبراني كلهم من رواية أبي بكر ابن أبي مريم عن ضمرة بن حبيب عن شداد بن أوس. انتهى.

هُمُ الْفَاعِلُونَ الْخَيْرَ وَالْأَمْرُؤُهُ (١).....

أو شبه اسم الفاعل في ذلك بالمضارع لتأخ بينهما، كأنه قال: تطلعون، وهو ضعيف لا يقع إلا في الشعر ﴿فِي سَوَاءٍ الْجَحِيرِ﴾ في وسطها، يقال: تعبت حتى انقطع سوائي، وعن أبي عبيدة: قال لي عيسى بن عمر: كنت أكتب يا أبا عبيدة حتى ينقطع سوائي (إن) مخففة من الثقيلة، وهي تدخل على «كاد» كما تدخل على «كان» ونحوه ﴿إِنْ كَادَ يُضِلُّنَا﴾ [الفرقان: ٤٢] واللام هي الفارقة بينها وبين النافية، والإرداء: الإهلاك. وفي قراءة عبد الله: لتغوين/ ١٢٨/٢ ﴿نِعْمَةُ رَبِّي﴾ هي العصمة والتوفيق في الاستمسك بعروة الإسلام، والبراءة من قرين السوء. أو إنعام الله تعالى بالثواب وكونه من أهل الجنة ﴿مِنَ الْمُخَصَّيْنِ﴾ من الذين أحضروا العذاب كما أحضرته أنت وأمثالك.

﴿أَفَمَا نَحْنُ بِمَمِيَّتِينَ ۖ ﴿٥٨﴾ إِلَّا مَوَلَّيْنَا الْأُولَىٰ وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ ۖ ﴿٥٩﴾﴾

الذي عطف عليه الفاء محذوف، معناه: أنحن مخلصون منعمون، فما نحن بميتين ولا معذبين. وقرئ: «بماتتين». والمعنى أن هذه حال المؤمنين وصفتهم وما قضى الله به لهم للعلم بأعمالهم أن لا يذوقوا إلا الموتة الأولى، بخلاف الكفار، فإنهم يتمنون فيه الموت كل ساعة، وقيل لبعض الحكماء: ما شر من الموت؟ قال: الذي يتمنى فيه الموت.

﴿إِنَّ هَذَا هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ۖ ﴿٦٠﴾ لِمِثْلِ هَذَا فَلْيَعْمَلِ الْعَامِلُونَ ۖ ﴿٦١﴾﴾

يقوله المؤمن تحدثاً بنعمة الله واغتراباً بحاله وبمسمع من قرينه؛ ليكون توبيخاً له يزيد به تعذباً، وليحكيه الله تعالى فيكون لنا لطفاً وزاجراً. ويجوز أن يكون قولهم جميعاً، وكذلك قوله: ﴿إِنَّ هَذَا هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ۖ ﴿٦٠﴾﴾ أي إن هذا الأمر الذي نحن فيه. وقيل: هو من قول الله عز وجل تقريراً لقولهم وتصديقاً له. وقرئ: «لهو الرزق العظيم»، وهو ما رزقوه من السعادة.

(١) هم الفاعلون الخير والأمرونه إذا ما خشوا من حادث الدهر معظما

الخير: نصب على المفعولية. ويقال: أمرتك الخير وأمرتك به، فالأمرونه: اسم فاعل متعد للمفعول الثاني بنفسه، وكان حقه الفصل فوصل، وربما كان في البيت أوقع منه في اسم الفاعل المجرد من اللام، وما زائدة: أي إذا خافوا من حادث الدهر أمراً معظماً. ويروى: مفضلاً، أي: مخيفاً فحقه في حرف العين.

ينظر: أمالي ابن الحاجب ١/٣٩١، وخزانة الأدب ٤/٢٦٦، ٢٦٩، ٢٧٠، والدرر ٦/٢٣٥، وشرح المفصل لابن يعيش ٢/١٢٥، والكتاب ١/١٨٨، ولسان العرب (طلع)، (حين)، (ها) وفيه «مفضلاً» مكان «معظماً»، ومجالس ثعلب ١/١٥٠، وجمع الهوامع ٢/١٥٧.

﴿أَذْلِكَ خَيْرٌ نُزْلاً أَمْ شَجَرَةُ الزَّقُومِ﴾ (١٧) إِنَّا جَعَلْنَاهَا فِتْنَةً لِلظَّالِمِينَ ﴿١٨﴾ إِنَّهَا شَجَرَةٌ تَخْرُجُ فِي أَصْلِ الْجَحِيمِ ﴿١٩﴾ طَلْعُهَا كَأَنَّهُ رِئُوسُ الشَّيْطَانِ ﴿٢٠﴾ فَإِنَّهُمْ لَا كُفُونَ مِنْهَا فَمَا لَوْنَ مِنْهَا الْبُطُونَ ﴿٢١﴾ ثُمَّ إِنَّ لَهُمْ عَلَيْهَا لَشَوْبًا مِّنْ حِمِيرٍ ﴿٢٢﴾ ثُمَّ إِنَّ مَرْجِعَهُمْ لَإِلَى الْجَحِيمِ ﴿٢٣﴾ إِنَّهُمْ أَلْفَوْا آبَاءَهُمْ ضَالِّينَ ﴿٢٤﴾ فَهُمْ عَلَىٰ نَارِهِمْ يُرْغَوْنَ ﴿٢٥﴾

تمت قصة المؤمن وقرينه، ثم رجع إلى ذكر الرزق المعلوم فقال: ﴿أَذْلِكَ﴾ الرزق ﴿خَيْرٌ نُزْلاً﴾ أي خير حاصلًا ﴿أَمْ شَجَرَةُ الزَّقُومِ﴾ وأصل النزول: الفضل والريع في الطعام، يقال: طعام كثير النزول، فاستعير للحاصل من الشيء، وحاصل الرزق المعلوم: اللذة والسرور، وحاصل شجرة الزقوم: الألم والغم، وانتصاب نزلاً على التمييز، ولك أن تجعله حالاً، كما تقول: أثمر النخلة خير بلحاً أم رطباً؟ يعني أن الرزق المعلوم نزل أهل الجنة. وأهل النار نزلهم شجرة الزقوم، فأيهما خير في كونه نزلاً. والنزل: ما يقال^(١) للنازل بالمكان من الرزق. ومنه إنزال الجند لأرزاقهم، كما يقال لما يقام لساكن الدار: السكن^(٢). ومعنى الأول: أن للرزق المعلوم نزلاً، ولشجرة الزقوم نزلاً، فأيهما خير نزلاً. ومعلوم أنه لا خير في شجرة الزقوم، ولكن المؤمنين لما اختاروا ما أدى إلى الرزق المعلوم واختار الكافرون ما أدى إلى شجرة الزقوم قيل لهم ذلك توبيخاً على سوء اختيارهم. ﴿فِتْنَةً لِلظَّالِمِينَ﴾ محنة وعذاباً لهم في الآخرة، أو ابتلاء لهم في الدنيا، وذلك أنهم قالوا: كيف يكون في النار شجرة والنار تحرق الشجر، فكذبوا. وقرئ: «نابتة» ﴿فِي أَصْلِ الْجَحِيمِ﴾ قيل: منبتها في قعر جهنم، وأغصانها ترتفع إلى دركاتها: والطلع للنخلة، فاستعير لما طلع من شجرة الزقوم من حملها؛ إما استعارة لفظية، أو معنوية، وشبه برءوس الشياطين دلالة على تناهيه في الكراهية وقبح المنظر؛ لأن الشيطان مكروه مستقبح في طباع الناس؛ لاعتقادهم أنه شر محض لا يخلطه خير، فيقولون في القبيح الصورة: كأنه وجه شيطان، كأنه رأس شيطان، وإذا صورته المصورون: جاءوا بصورته على أقبح ما يقدر وأهوله، كما أنهم اعتقدوا في الملك أنه خير محض لا شر فيه، فشبّهوا به الصورة الحسنة. قال الله تعالى: ﴿مَا هَذَا بَشَرًا إِنْ هَذَا إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ﴾ [يوسف: ٣١] وهذا تشبيه تخييلي. وقيل: الشيطان حية عرفاء لها صورة قبيحة المنظر هائلة جداً. وقيل: إن شجراً يقال له الأستن خشناً منتناً مرأ منكر الصورة، يسمى ثمره: رءوس الشياطين. وما سمت العرب هذا الثمر رءوس الشياطين إلا قصداً إلى أحد التشبيهين، ولكنه بعد التسمية بذلك

(١) قوله: «ما يقال للنازل بالمكان» لعله «ما يقام» كعبارة النسفي. (ع).

(٢) قوله: «لساكن الدار السكن» في الصحاح «السكن»: كل ما سكنت إليه. (ع).

رجع أصلاً ثالثاً يشبه به. ﴿مِنْهَا﴾ من الشجرة، أي من طلعتها ﴿تَمَالُؤُنَّ﴾ بطونهم؛ لما يغلبهم من الجوع الشديد، أو يقسرون على أكلها وإن كرهوها؛ ليكون باباً من العذاب، فإذا شبعوا غلبهم العطش فيسقون شراباً من غساق أو صديد، شوبه: أي مزاجه ﴿مِنْ جَمِيرٍ﴾ يشوي وجوههم ويقطع أمعاءهم، كما قال في صفة شراب أهل الجنة: ﴿وَمَزَاجُهُ مِنْ تَسْنِيمٍ﴾ [المطففين: ٢٧] وقرئ: «الشوباء» بالضم، وهو اسم ما يشاب به، والأول تسمية بالمصدر. فإن قلت: ما معنى حرف التراخي في قوله: ﴿ثُمَّ إِنَّ لَهُمْ عَلَيْهَا لَشَوْبًا﴾ وفي قوله: ﴿ثُمَّ إِنَّ مَرَجَهُمْ﴾؟ قلت: في الأول وجهان، أحدهما: أنهم يملئون البطون من شجرة الزقوم، وهو حارّ يحرق بطونهم ويعطشهم، فلا يسقون إلا بعد مليّ تعذيباً بذلك العطش، ثم يسقون ما هو أحرّ وهو الشراب المشوب بالحميم. والثاني: أنه ذكر الطعام بتلك الكراهة والبشاعة، ثم ذكر الشراب بما هو أكره وأبشع، فجاء بثم للدلالة على تراخي حال الشراب عن حال الطعام ومباينة صفته لصفته في الزيادة عليه. ومعنى الثاني: أنهم يذهب بهم عن مقارّهم ومنازلهم في الجحيم، وهي الدركات التي أسكنوها إلى شجرة الزقوم، فيأكلون إلى أن يمتلئوا، ويسقون بعد ذلك، ثم يرجعون إلى دركاتهم، ومعنى التراخي في ذلك بيّن، وقرئ: ثم إن منقلبهم، ثم إن مصيرهم، ثم إن منفذهم إلى الجحيم: علل استحقاقهم ١٢٨/٢ ب للوقوع في تلك الشدائد كلها بتقليد الآباء في الدين، واتباعهم إياهم على الضلال، وترك اتباع الدليل، والإهراع: الإسراع الشديد، كأنهم يحثون حثّاً. وقيل: إسراع فيه شبه بالردة.

﴿وَلَقَدْ صَلَّ بَعْلُهُمْ أَكْثَرَ الْأَوَّلِينَ﴾ (٧١) ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا فِيهِمْ مُنْذِرِينَ﴾ (٧٢) ﴿فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُنْذِرِينَ﴾ (٧٣) ﴿إِلَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ﴾ (٧٤)

﴿وَلَقَدْ صَلَّ بَعْلُهُمْ﴾ قبل قومك قريش. ﴿مُنْذِرِينَ﴾ أنبياء حذروهم العواقب. ﴿الْمُنْذِرِينَ﴾ الذين أنذروا وحذروا، أي أهلكوا جميعاً ﴿إِلَّا عِبَادَ اللَّهِ﴾ الذين آمنوا منهم وأخلصوا لله دينهم أو أخلصهم الله لدينه على القراءتين.

﴿وَلَقَدْ نَادَيْنَا نُوْحٌ فَلَنِعْمَ الْمُجِيبُونَ﴾ (٧٥) ﴿وَنَجَّيْنَاهُ وَأَهْلَهُ مِنَ الْكَرْبِ الْعَظِيمِ﴾ (٧٦) ﴿وَجَعَلْنَا ذُرِّيَّتَهُ هُمُ الْبَاقِينَ﴾ (٧٧) ﴿وَوَكَّلْنَا عَلَيْهِ فِي الْآخِرِينَ﴾ (٧٨) ﴿سَلَّمَ عَلَى نُوْحٍ فِي الْعَالَمِينَ﴾ (٧٩) ﴿إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ﴾ (٨٠) ﴿إِنَّهُمْ مِنْ الْمُؤْمِنِينَ﴾ (٨١) ﴿ثُمَّ أَعْرِفْنَا الْآخِرِينَ﴾ (٨٢)

لما ذكر إرسال المنذرين في الأمم الخالية وسوء عاقبة المنذرين، أتبع ذلك بذكر نوح ودعائه إياه حين أيس من قومه، واللام الداخلة على نعم جواب قسم محذوف،

والمخصوص بالمدح محذوف وتقديره: فوالله لنعم المجيئون نحن. والجمع دليل العظمة والكبرياء. والمعنى: إنا أجبناه أحسن الإجابة، وأوصلها إلى مراده وبغيته من نصرته على أعدائه والانتقام منهم بأبلغ ما يكون. ﴿هُرُّ الْبَاقِينَ﴾ هم الذين بقوا وحدهم وقد فني غيرهم، فقد روي أنه مات كل من كان معه في السفينة غير ولده. أو هم الذين بقوا متناسلين إلى يوم القيامة. قال قتادة: الناس كلهم من ذرية نوح (١٢٨٥). وكان لنوح عليه السلام ثلاثة أولاد: سام، وحام، ويافث. فسام أبو العرب، وفارس، والروم، وحام أبو السودان من المشرق إلى المغرب، ويافث أبو الترك وأجوج ومأجوج (١٢٨٦). ﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْهِ فِي الْآخِرِينَ﴾ من الأمم هذه الكلمة، وهي: ﴿سَلِّ عَلَى نُوحٍ﴾ يعني يسلمون عليه تسليماً، ويدعون له، وهو من الكلام المحكي، كقولك: قرأت: ﴿سُورَةُ أَنْزَلْنَاهَا﴾ [النور: ١] فإن قلت: فما معنى قوله: ﴿فِي الْعَالَمِينَ﴾؟ قلت: معناه الدعاء بثبوت هذه التحية فيهم جميعاً، وأن لا يخلو أحد منهم منها، كأنه قيل: ثبت الله التسليم على نوح وأدامه في الملائكة والثقلين يسلمون العالمين عليه عن آخرهم. علل مجازاة نوح عليه السلام بتلك التكرمة السنية من تبقية ذكره وتسليم العالمين عليه إلى آخر الدهر بأنه كان محسناً، ثم علل كونه محسناً بأنه كان عبداً مؤمناً؛ ليريك جلالة محل الإيمان، وأنه القصارى من صفات المدح والتعظيم، ويرغبك في تحصيله والازدياد منه.

﴿وَإِن مِّن شَيْعَةٍ لِّإِبْرَاهِيمَ﴾ (٨٢) إِذْ جَاءَ رَبَّهُ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴿٨٤﴾ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَاذَا تَعْبُدُونَ ﴿٨٥﴾ أَفَكُمُ الْإِلَهَةُ دُونَ اللَّهِ تُرِيدُونَ ﴿٨٦﴾ فَمَا ظَنُّكُمْ بِرَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٨٧﴾

﴿مِن شَيْعَةٍ﴾ أي ممن شايعه على أصول الدين وإن اختلفت شرائعهما. أو شايعه على التصلب في دين الله ومصابرة المكذبين. ويجوز أن يكون بين شريعتيهما اتفاق في أكثر الأشياء. وعن ابن عباس رضي الله عنهما: من أهل دينه وعلى سنته (١٢٨٧)، وما كان

١٢٨٥ - أخرجه عبد الرزاق في تفسيره (١٥٠/٢) عن قتادة: قال: ترك الله عليه ثناء حسناً في الآخرة. وابن جرير الطبري (٤٩٨/١٠)، حديث (٢٩٤٢٤)، وذكره السيوطي في الدر (٥٢٤/٥)، وعزاه لعبد بن حميد وعبد الرزاق والطبري وابن المنذر، وابن أبي حاتم عن قتادة: قال: فالناس كلهم من ذرية نوح.

١٢٨٦ - أخرجه البزار (١١٨/١ كشف)، حديث (٢١٨) عن أبي هريرة، وذكره السيوطي في الدر (٥/٥٢٤)، وعزاه للبزار وابن أبي حاتم والخطيب، عن أبي هريرة، وذكر فيه: وولد يافث مأجوج ومأجوج: مرفوعاً.

١٢٨٧ - ذكر السيوطي في الدر المنثور (٥٢٥/٥)، وعزاه لابن أبي حاتم عن ابن عباس قال من أهل ذريته.

بين نوح وإبراهيم إلا نبيان: هود وصالح، وكان بين نوح وإبراهيم ألفان وستمئة وأربعون سنة. فإن قلت: بم تعلق الظرف؟ قلت: بما في الشيعة من معنى المشايعة، يعني: وإن ممن شايعه على دينه وتقواه حين جاء ربه^(١) بقلب سليم لإبراهيم، أو بمحذوف وهو: اذكر ﴿بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾ من جميع آفات القلوب. وقيل: من الشرك، ولا معنى للتخصيص؛ لأنه مطلق، فليس بعض الآفات أولى من بعض فيتناولها كلها. فإن قلت: ما معنى المجيء بقلبه ربه؟ قلت: معناه أنه أخلص لله قلبه، وعرف ذلك منه فضرب المجيء مثلاً لذلك. ﴿أَيْفَكَ﴾ مفعول له، تقديره: أتريدون آلهة من دون الله إفكاً، وإنما قدّم المفعول على الفعل للعناية، وقدّم المفعول له على المفعول به؛ لأنه كان الأهمّ عنده أن يكافحهم بأنهم على إفك وباطل في شركهم. ويجوز أن يكون (إفكاً) مفعولاً به، يعني: أتريدون به إفكاً. ثم فسر الإفك بقوله: ﴿آلهة من دون الله﴾ على أنها إفك في أنفسها. ويجوز أن يكون حالاً، بمعنى: أتريدون آلهة من دون الله آفكين ﴿فَمَا ظَنُّكُمْ﴾ بمن هو الحقيق بالعبادة؛ لأن من كان رباً للعالمين استحق عليهم أن يعبدوه، حتى تركتم عبادته إلى عبادة الأصنام: والمعنى: أنه لا يقدر في وهم ولا ظن ما يصدّ عن عبادته. أو فما ظنكم به أي شيء هو من الأشياء، حتى جعلتم الأصنام له أنداداً؟ أو فما ظنكم به ماذا يفعل بكم وكيف يعاقبكم وقد عبدتم غيره؟.

﴿فَنَظَرَ نَظْرَةً فِي النُّجُومِ ۖ﴾ ﴿٨٨﴾ فَقَالَ إِنِّي سَقِيمٌ ﴿٨٩﴾ فَنَظَرُوا عَنْهُ مُذْبِرِينَ ﴿٩٠﴾

﴿فِي النُّجُومِ﴾ في علم النجوم أو في كتابها أو في أحكامها، وعن بعض الملوك أنه سئل عن مشتهاه، فقال: حبيب أنظر إليه، ومحتاج أنظر له، وكتاب أنظر فيه. كان القوم نجامين، فأوهمهم أنه استدل بأماراة في علم النجوم على أنه يسقم ﴿فَقَالَ إِنِّي سَقِيمٌ﴾ ﴿٨٩﴾ إني مشارف للسقم وهو الطاعون، وكان أغلب الأسقام عليهم، وكانوا يخافون العدوى؛ ليتفرقوا عنه، فهربوا منه إلى عيدهم وتركوه في بيت الأصنام ليس معه أحد، ففعل ١٢٩/ أ بالأصنام ما فعل. فإن قلت: كيف جاز له أن يكذب؟ قلت: قد جوزه بعض الناس في المكيدة في الحرب والتقية، وإرضاء الزوج والصلح بين المتخاصمين والمتهاجرين. والصحيح: أن الكذب حرام إلا إذا عرّض وورّى، والذي قاله إبراهيم عليه السلام معراض

(١) قال السمين الحلبي: قال الشيخ: لا يجوز؛ لأن فيه الفصل بين العامل والمعمول بأجنبي وهو «لإبراهيم»؛ لأنه أجنبي من «شيعتي» ومن «إذ» وزاد المنع إن قدره ممن شايعه حين جاء إبراهيم؛ «لأنه قدر ممن شايعه فجعل العامل قبله صلة لموصول وفصل بينه وبين إذ بأجنبي وهو لإبراهيم» وأيضاً فلام الابتداء تمنع أن يعمل ما قبلها فيما بعدها لو قلت إن ضارباً لقدام علينا زيداً تقديره إن زيداً قادم علينا لم يجز، انتهى. الدر المصون.

من الكلام، ولقد نوى به أن من في عنقه الموت سقيم. ومنه المثل: كفى بالسلامة داء. وقول لبيد [من الكامل]:

فَدَعَوْتُ رَبِّي بِالسَّلَامَةِ جَاهِداً لِيُصِحَّنِي فَإِذَا السَّلَامَةُ دَاءٌ^(١)

وقد مات رجل فجأة فالتف عليه الناس وقالوا: مات وهو صحيح، فقال أعرابي: أصحيح مَنْ الموت في عنقه. وقيل: أراد: إني سقيم النفس لكفركم.

﴿فَرَاغَ إِلَىٰ آلِهِمْ فَقَالَ أَلَا تَأْكُلُونَ﴾ (٩١) مَا لَكُمْ لَا نَطْقُونَ ﴿٩٢﴾ فَرَاغَ عَلَيْهِمْ ضَرْبًا بِالْيَمِينِ ﴿٩٣﴾

﴿فَرَاغَ إِلَىٰ آلِهِمْ﴾ فذهب إليها في خفية، من روعة الثعلب، إلى آلهم: إلى أصنامهم التي هي في زعمهم آلهة، كقوله تعالى: ﴿إِنَّ شِرْكَائِيَ﴾ [النحل: ٢٧]. ﴿أَلَا تَأْكُلُونَ﴾ مَا لَكُمْ لَا نَطْقُونَ استهزاء بها وبانحطاطها عن حال عبدتها ﴿فَرَاغَ عَلَيْهِمْ﴾ فأقبل عليهم مستخفياً، كأنه قال: فضربهم ﴿ضَرْبًا﴾ لأن راغ عليهم بمعنى ضربهم. أو فراغ عليهم ضرباً. أو فراغ عليهم ضرباً بمعنى ضارباً. وقرئ: «صفقا» و «سققا»، ومعناها: الضرب. ومعنى ضرباً ﴿بِالْيَمِينِ﴾ ضرباً شديداً قوياً؛ لأن اليمين أقوى الجارحتين وأشدّهما. وقيل: بالقوة والمتانة، وقيل: بسبب الحلف، وهو قوله: ﴿وَتَأْلَوْا لَأَكِيدَنَّ أَصْنَامَكُمْ﴾.

﴿فَأَقْبَلُوا إِلَيْهِ يَرْفُونَ﴾ (٩٤)

﴿يَرْفُونَ﴾ يسرعون، من زفيف النعام. وَيَرْفُونَ: من أَرْفَ، إذا دخل في الزفيف. أو من أَرْفَه، إذا حمّله على الزفيف، أي: يَرْفَ بعضهم بعضاً. وَيَرْفُونَ، على البناء للمفعول، أي: يحملون على الزفيف. وَيَرْفُونَ، من وزف يرف إذا أسرع. وَيَرْفُونَ: من زفاه إذا حداه^(٢)، كأن بعضهم يرفو بعضاً لتسارعهم إليه، فإن قلت: بين هذا وبين قوله تعالى:

(١) كانت قناتي لا تلين لغامز فألانها الإصباح والإساء
فدعوت ربي بالسلامة جاهدأ ليصحنني فإذا السلامة داء

للبيد بن ربيعة العامري، والقناة: الرمح، استعارها لإقامته أو قوته على طريق التصريح، والليونة والغمز: ترشيح. والغمزي: الحبى باليد. ويجوز أن الاستعارة تمثيلية في المركب، يصف قوته زمن الشباب، ثم ضعف حال المشيب بتتابع الأزمان عليه، وأنه تطلب فسحة الأجل، فكانت سبب اضمحلاله.

وهو للنمر بن تولب في ملحق ديوانه ص ٤٠٠، وللبيد بن ربيعة في نهاية الأرب ٧٠/٣، ولعمرو بن قميئة في ملحق ديوانه ص ٢٠٤، وزهر الآداب ٢٢٣/١، ولبعض شعراء الجاهلية في الكامل ٢٨٤/١، وبلا نسبة في جمهرة اللغة ص ٧٥، وكتاب الصناعتين ص ٣٨، وقبله في هذه المصادر.

(٢) قوله: «إذا حداه» أي ساقه. أفاده الصحاح. (ع).

﴿قَالُوا مَنْ فَعَلَ هَذَا بِإِبْرَاهِيمَ إِنَّهُمْ لَمِنَ الْفَٰلِغِينَ ٥٩﴾ قَالُوا سَمِعْنَا فَتًى يَذْكُرُهُمْ يُقَالُ لَهُ إِبْرَاهِيمُ ﴿٦٠﴾ [الأنبياء: ٥٩ - ٦٠] كالتناقض حيث ذكر ههنا أنهم أدبروا عنه خيفة العدوى، فلما أبصروه يكسرهم أقبلوا إليه متبادرين ليكفوه ويوقعوا به، وذكر ثم أنهم سألوا عن الكاسر، حتى قيل لهم: سمعنا إبراهيم يذمهم، فلعله هو الكاسر؛ ففي أحدهما أنهم شاهدوه يكسرها، وفي الآخر: أنهم استدلوا بزمه على أنه الكاسر. قلت: فيه وجهان، أحدهما: أن يكون الذين أبصروه وزفوا إليه نفرأ منهم دون جمهورهم وكبرائهم، فلما رجع الجمهور والعلية^(١) من عيدهم إلى بيت الأصنام ليأكلوا الطعام الذي وضعوه عندها لتبرك عليه ورأوها مكسورة اشمأزوا من ذلك، وسألوا: من فعل هذا بها؟ ثم لم ينم عليه أولئك النفر نائمة صريحة، ولكن على سبيل التورية التعريض بقولهم ﴿سَمِعْنَا فَتًى يَذْكُرُهُمْ﴾ لبعض الصوارف. والثاني: أن يكسرها ويذهب ولا يشعر بذلك أحد، ويكون إقبالهم إليه يزفون بعد رجوعهم من عيدهم وسؤالهم عن الكاسر. وقولهم: ﴿قَالُوا فَأَتُوا بِهِ عَلَىٰ أَعْيُنِ النَّاسِ﴾ [الأنبياء: ٦١].

﴿قَالَ أَتَعْبُدُونَ مَا لَنَحْنُونَ ٩٥ وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ ٩٦﴾

﴿وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ ٩٦﴾ يعني خلقكم وخلق ما تعملونه من الأصنام، كقوله: ﴿بَلْ زَكَّرْ رَبًّا لِّلْمَوْتِ وَالْأَرْضِ الَّذِي فَطَرَهُمْ﴾ [الأنبياء: ٥٦] أي فطر الأصنام، فإن قلت: كيف يكون الشيء الواحد مخلوقاً لله معمولاً لهم، حيث أوقع خلقه وعملهم عليها جميعاً؟ قلت: هذا كما يقال: عمل النجار الباب^(٢) والكرسي، وعمل الصانع السوار والخلخال،

(١) قوله: «والعلية» أي العظمة. (ع).

(٢) قال محمود: «يعني خلقكم وما تعملون من الأصنام، كقوله: (بل ربكم رب السموات والأرض الذي فطرهن) فإن قلت: كيف يكون الشيء الواحد مخلوقاً لله تعالى معمولاً لهم؟ وأجاب بأن هذا كما يقال: عمل النجار الباب... إلى أن قال: ... وفي ذلك فك للنظم وتبتيير كما لو جعلتها مصدريه» اهـ كلامه. قال أحمد: إذا جاء سيل الله ذهب سيل معقل، فنقول: يتعين حملها على المصدريه، وذلك أنهم لم يعبدوا هذه الأصنام من حيث كونها حجارة ليست مصورة، فلو كان كذلك لم يتعاونوا في تصويرها، ولا اختصوا بعبادتهم حجراً دون حجر، فدل أنهم إنما يعبدونها باعتبار أشكالها وصورها التي هي أثر عملهم، ففي الحقيقة أنهم عبدوا عملهم، وصلحت الحجة عليهم بأنهم مثله، مع أن المعبود كسب العابد وعمله، فقد ظهر أن الحجة قائمة عليهم على تقدير أن تكون ما مصدريه أوضح قيام وأبلغه، فإذا أثبت ذلك فليست كلامه بالإبطال. أما قوله: إنها موصولة، وأن المراد بعملهم لها عمل أشكالها فمخالف للظاهر، فإنه مفتقر إلى حذف مضاف في موضع اليأس يكون تقديره: والله خلقكم وما تعملون شكله وصورته، بخلاف توجيه أهل السنة، فإنه غير مفتقر إلى حذف البتة، ثم إذا جعل المعبود نفس الجوهر، فكيف يطابق توبيخهم ببيان أن المعبود من عمل العابد، مع موافقته على أن جواهر الأصنام ليست من عملهم؟ فما هو من عملهم =

والمراد عمل أشكال هذه الأشياء وصورها دون جواهرها، والأصنام جواهر وأشكال، فخالق جواهرها الله، وعاملو أشكالها الذين يشكلونها بنحتهم وحذفهم بعض أجزائها، حتى يستوي التشكيل الذي يريدونه. فإن قلت: فما أنكرت^(١) أن تكون ما مصدريه لا موصولة، ويكون المعنى: والله خلقكم وعملكم، كما تقول المجبرة^(٢)؟ قلت: أقرب ما يبطل به هذا السؤال بعد بطلانه بحجج العقل والكتاب، أن معنى الآية يأباه إباء جلياً، وينبو عنه نبؤاً ظاهراً، وذلك أن الله عز وجل قد احتج عليهم بأن العابد والمعبود جميعاً خلق الله، فكيف يعبد المخلوق المخلوق؟ على أن العابد منهما هو الذي عمل صورة المعبود وشكله، ولولاه لما قدر أن يصور نفسه ويشكلها، ولو قلت: والله خلقكم وخلق عملكم ولم يكن محتجاً عليهم^(٣) ولا كان لكلامك طباق. وشيء آخر: وهو أن قوله: ﴿وَمَا تَعْمَلُونَ﴾ ترجمة عن قوله: ﴿مَا تَنْحِتُونَ﴾ و (ما) في ﴿مَا تَنْحِتُونَ﴾ موصولة لا مقال فيها، فلا يعدل بها عن أختها إلا متعسف متعصب لمذهبه، من غير نظر في علم البيان، ولا تبصر لنظم القرآن. فإن قلت: اجعلها موصولة حتى لا يلزمني ما ألزمت، وأريد: وما تعملونه من أعمالكم. قلت: بل الإلزامان في عنقك لا يفكهما إلا الإذعان للحق، وذلك

= وهو الشكل ليس معبوداً لهم على هذا التأويل، وما هو معبودهم وهو جوهر الصنم ليس من عملهم، فلم يستقر له قرار في أن المعبود على تأويله من عمل العابد، وعلى ما قررناه يتضح. وأما قوله: إن المطابقة تنفك على تأويل أهل السنة بين ما ينحتون وما يعملون فغير صحيح، فإن لنا أن نحمل الأولى على أنها مصدريه وأنهم في الحقيقة إنما عبدوا نحتهم؛ لأن هذه الأصنام وهي حجارة قبل النحت لم يكونوا يعبدونها، فلما عملوا فيها النحت عبدوها، ففي الحقيقة ما عبدوا سوى نحتهم الذي هو عملهم، فالمطابقة إذاً حاصلة، والإلزام على هذا أبلغ وأمتن، ولو كان كما قال لقامت لهم الحجة، ولقالوا كما يقول الزمخشري مكافحين لقوله: (والله خلقكم وما تعملون) بأن يقولوا: لا ولا كرامة، ولا يخلق الله ما نعمل نحن، لأننا إنما عملنا التشكيل والتصوير وهذا لم يخلقه الله، وكانوا يجدون الذريعة إلى اقتحام الحجة، ويأبى الله إلا أن تكون لنا الحجة البالغة ولهم الأكاذيب الفارغة، فهذا إلزام بل إجماع لمن خالف السنة، وغل بعنقه، وعقر بكتفه، وضرب على يده، حتى يرجع إلى الحق آيئاً، ويعترف بخطئه تائباً.

- (١) قوله: «فإن قلت فما أنكرت؟ لعله: لم أنكرت. (ع).
 (٢) قوله: «كما تقول المجبرة» يريد أهل السنة حيث ذهبوا إلى أنه لا خالق إلا الله، فهو الخالق لعمل العبد، والمعتزلة يقولون: إن العبد هو الخالق لعمل نفسه، فجعلوا العبد شريكاً لله في الخالقية، مع أنهم سموا أنفسهم أهل العدل والتوحيد، قالوا: لو كان الله هو الخالق لفعل العبد لكان تعذيبه للعبد على المعاصي ظلماً لا عدلاً. قال أهل السنة: يعذبه عليها كما يشييه على الطاعة؛ لما له فيهما من الكسب والاختيار، فلا ظلم، لكن المعتزلة لم ينظروا في التوحيد تمام النظر، ولم يتبصروا في أدلته تمام التبصر. (ع).

- (٣) قوله: «لم يكن محتجاً عليهم» يكفي في الاحتجاج أن الله هو الخالق لهم ولأعمالهم في الأصنام وغيرها، والأصنام لا تخلق شيئاً، بل الانفراد بالخالقية أدل على الانفراد بالإلهية. (ع).

أنك وإن جعلتها موصولة، فإنك في إرادتك بها العمل غير محتج على المشركين، كحالك وقد جعلتها مصدرية، وأيضاً فإنك قاطع بذلك الصلة بين ما تعملون وما تنحتون، حيث تخالف بين المرادين بهما؛ ١٢٩/٢ ب فتريد بما تنحتون: الأعيان التي هي الأصنام، وبما تعملون: المعاني التي هي الأعمال؛ وفي ذلك فك النظم وتبتيه، كما إذا جعلتها مصدرية.

﴿قَالُوا ابْنُوا لَهُ بُنْيَانًا فَأَلْقُوهُ فِي الْجَحِيمِ ۖ﴾ (٩٧) فَأَرَادُوا بِهِ كَيْدًا فَجَعَلْنَاهُمُ الْأَسْفَلِينَ ﴿٩٨﴾

﴿الْجَحِيمِ﴾ النار الشديدة الوقود، وقيل: كل نار على نار وجمر فوق جمر، فهي جحيم. والمعنى: أن الله تعالى غلبه عليهم في المقامين جميعاً، وأذلهم بين يديه: أرادوا أن يغلبوه بالحجة فلقنه الله وألهمه ما ألقمهم به الحجر، وقهرهم فمالوا إلى المكر، فأبطل الله مكرهم وجعلهم الأذلين الأسفلين لم يقدروا عليه.

﴿وَقَالَ إِنِّي ذَاهِبٌ إِلَىٰ رَبِّي سَيِّدِينَ﴾ (٩٩) رَبِّ هَبْ لِي مِنَ الصَّالِحِينَ ﴿١٠٠﴾ فَبَشَّرْنَاهُ بِغُلَامٍ

حَلِيمٍ ﴿١٠١﴾

أراد بذهابه إلى ربه: مهاجرته إلى حيث أمره بالمهاجرة إليه من أرض الشام، كما قال إني مهاجر إلى ربي ﴿[العنكبوت: ٢٦]﴾ سِيرَشَدْنِي إِلَىٰ مَا فِيهِ صِلَاحِي فِي دِينِي ويعصمني ويوفقني، كما قال موسى عليه السلام: ﴿كَلَّا إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيِّدِينَ﴾ [الشعراء: ٦٢] كأن الله وعده وقال له: سأهديك، فأجرى كلامه على سنن موعد ربه. أو بناء على عادة الله تعالى معه في هدايته وإرشاده. أو أظهر بذلك توكله وتفويضه أمره إلى الله. ولو قصد الرجاء والطمع لقال كما قال موسى عليه السلام: ﴿عَسَىٰ رَبِّي أَن يَهْدِيَنِي سَوَاءَ السَّبِيلِ﴾ [القصاص: ٢٢]. ﴿هَبْ لِي مِنَ الصَّالِحِينَ﴾ هب لي بعض الصالحين، يريد الولد؛ لأن لفظ الهبة غلب في الولد وإن كان قد جاء في الأخ في قوله تعالى: ﴿وَوَهَبْنَا لَهُم مِّن رَّحْمَتِنَا أَخَاهُ هَارُونَ نَبِيًّا﴾ (٥٢) ﴿[مريم: ٥٣] قال عز وجل: ﴿وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ﴾ [الأنعام: ٨٤] ﴿وَوَهَبْنَا لِيُحْيَىٰ﴾ [الأنبياء: ٩٠] وقال علي بن أبي طالب لابن عباس رضي الله عنهم - حين هنأه بولده علي أبي الأملاك -: «شكرت الواهب، وبورك لك في الموهوب» ولذلك وقعت التسمية بهبة الله، وبموهوب، ووهب، وموهب، وقد انطوت البشارة على ثلاث: على أن الولد غلام ذكر، وأنه يبلغ أوان الحلم، وأنه يكون حليماً، وأي حلم أعظم من حلمه حين عرض عليه أبوه الذبح، فقال: ﴿سَتَجِدُنِي إِن شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾، ثم استسلم لذلك. وقيل: ما نعت الله الأنبياء عليهم السلام بأقل مما نعتهم بالحلم؛ وذلك لعزة وجوده، ولقد نعت الله به إبراهيم في قوله: ﴿إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَأَوَّاهٌ حَلِيمٌ﴾ [التوبة: ١١٤]، ﴿إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَحَلِيمٌ أَوَّاهٌ مُنِيبٌ﴾ (٧٥) ﴿[هود: ٧٥] لأن الحادثة شهدت بحلمهما جميعاً.

﴿فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ السَّعَىٰ قَالَ يَبْنَؤُ إِنِّي أَرَىٰ فِي الْمَنَامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ فَأَنْظُرُ مَاذَا تَرَىٰ﴾ قَالَ يَتَأَبَّى
أَفْعَلُ مَا تُؤْمَرُ سَتَجِدُنِي إِنْ شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّادِرِينَ ﴿١٢٢﴾

فلما بلغ أن يسعى مع أبيه في أشغاله وحوائجه. فإن قلت: ﴿مَعَهُ﴾ بم يتعلق؟ قلت: لا يخلو إما أن يتعلق ببلغ، أو بالسعي، أو بمحذوف، فلا يصح تعلقه ببلغ لاقتضائه بلوغهما معاً حدّ السعي، ولا بالسعي لأنّ صلة المصدر لا تتقدم عليه، فبقي أن يكون بياناً، كأنه لما قال: فلما بلغ السعي أي الحدّ الذي يقدر فيه على السعي قيل: مع من؟ فقال مع أبيه. والمعنى في اختصاص الأب أنه أرفق الناس به، وأعطفهم عليه، وغيره ربما عنف به في الاستسعاء فلا يحتمله؛ لأنه لم تستحكم قوته ولم يصلب عوده، وكان إذ ذاك ابن ثلاث عشرة سنة. والمراد: أنه على غضاضة سنه وتقلبه في حدّ الطفولة، كان فيه من رصانة الحلم وفسحة الصدر ما جسره على احتمال تلك البلية العظيمة والإجابة بذلك الجواب الحكيم، أتى في المنام فقيل له: اذبح ابنك، ورؤيا الأنبياء وحي كالوحي في اليقظة؛ فلهذا قال: ﴿إِنِّي أَرَىٰ فِي الْمَنَامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ﴾ فذكر تأويل الرؤيا، كما يقول الممتحن وقد رأى أنه راكب في سفينة: رأيت في المنام أنني ناج من هذه المحنة، وقيل: رأى ليلة التروية كأن قائلاً يقول له: إنّ الله يأمرك بذبح ابنك هذا، فلما أصبح روى في ذلك من الصباح إلى الرواح، أمن الله هذا الحلم أو من الشيطان؟ فمن ثم سمي يوم التروية، فلما أمسى رأى مثل ذلك، فعرف أنه من الله، فمن ثم سمي يوم عرفة، ثم رأى مثله في الليلة الثالثة، فهم بنحره فسمي يوم النحر. وقيل: إنّ الملائكة حين بشرته بغلام حليم قال: هو إذن ذبيح الله. فلما ولد وبلغ حدّ السعي معه قيل له: أوف بنذكرك ﴿فَأَنْظُرُ مَاذَا تَرَىٰ﴾ من الرأي على وجه المشاورة. وقرئ: «ماذا ترى»^(١)، أي: ماذا تبصر من رأيك وتبديه. وماذا ترى، على البناء للمفعول: أي: ماذا تريك نفسك من الرأي ﴿أَفْعَلُ مَا تُؤْمَرُ﴾ أي ما تؤمر به، فحذف الجار كما حذف من قوله [من البسيط]:

أَمَرْتُكَ الْخَيْرَ فَأَفْعَلُ مَا أُمِرْتُ بِهِ^(٢)

أو أملك على إضافة المصدر إلى المفعول، وتسمية المأمور به أمراً. وقرئ: «ما تؤمر به» فإن قلت: لم شاوره في أمر هو حتم من الله؟ قلت: لم يشاوره ليرجع إلى رأيه ومشورته، ولكن ليعلم ما عنده فيما نزل به من بلاء الله؛ فثبت قدمه ويصبره إن جزع، ويأمن عليه الزلل إن صبر وسلم؛ وليعلمه حتى يراجع نفسه فيوطنها ويهون عليها، ويلقى

(١) قوله: «وقرئ ماذا ترى» لعله بضم التاء وكسر الراء، من أراه يريه، فليحذر. (ع).

(٢) تقدم.

البلاء وهو/ ٢/ ١٣٠ أ كالمستأنس به، ويكتسب المثوبة بالانقياد لأمر الله قبل نزوله؛ ولأن المغافصة^(١) بالذبح مما يستسمح، وليكون سنة في المشاورة، فقد قيل: لو شاور آدم الملائكة في أكله من الشجرة لما فرط منه ذلك. فإن قلت: لم كان ذلك بالمنام دون اليقظة؟ قلت: كما أرى يوسف عليه السلام سجود أبويه وإخوته له في المنام من غير وحي إلى أبيه، وكما وعد رسول الله ﷺ دخول المسجد الحرام في المنام، وما سوى ذلك من منامات الأنبياء؛ وذلك لتقوية الدلالة على كونهم صادقين مصدوقين؛ لأن الحال إما حال يقظة أو حال منام، فإذا تظاهرت الحالتان على الصدق كان ذلك أقوى للدلالة من انفراد أحدهما.

﴿فَلَمَّا أَسْلَمَا وَتَلَّهُ لِلْجَبِينِ ۝ وَنَدَيْتُهُ أَنْ يَتَّبِعْنِي ۝ قَدْ صَدَقْتَ الرَّؤْيَىٰ ۝ إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ۝ إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْبَلَاءُ الْمُبِينُ ۝ وَنَدَيْتُهُ بِذَنبِ عَظِيمٍ ۝ وَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي الْآخِرِينَ ۝ سَلَّمَ عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ ۝ كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ۝ إِنَّهُمْ مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ ۝﴾

يقال: سلم لأمر الله وأسلم، واستسلم بمعنى واحد. وقد قرئ بهن جميعاً إذا انقاد له وخضع، وأصلها من قولك: سلم هذا لفلان إذا خلص له. ومعناه: سلم من أن ينازع فيه، وقولهم: سلم لأمر الله وأسلم له منقولان منه، وحقيقة معناهما: أخلص نفسه لله وجعلها سالمة له خالصة، وكذلك معنى: استسلم: استخلص نفسه لله. وعن قتادة في: ﴿أَسْلَمَا﴾ أسلم هذا ابنه وهذا نفسه (١٢٨٨) ﴿وَتَلَّهُ لِلْجَبِينِ﴾ صرعه على شقه، فوق أحد جبينيهِ على الأرض، تواضعا^(٢) على مباشرة الأمر بصبر وجلد، ليرضيا الرحمن ويخزيا الشيطان. وروي أن ذلك كان عند الصخرة التي بمنى، وعن الحسن: في الموضع المشرف على مسجد منى. وعن الضحاك: في المنحر الذي ينحر فيه اليوم. فإن قلت: أين جواب لما؟ قلت: هو محذوف تقديره: فلما أسلما وتله للجبين ﴿وَنَدَيْتُهُ أَنْ يَتَّبِعْنِي ۝ قَدْ صَدَقْتَ الرَّؤْيَىٰ﴾ كان ما كان مما ينطق به الحال ولا يحيط به الوصف من استبشارهما واغبتاطهما، وحمدهما لله وشكرهما على ما أنعم به عليهما، من دفع البلاء العظيم بعد حلوله، وما اكتسبا في تضاعيفه بتوطین الأنفس عليه من الثواب والأعواض

١٢٨٨ - أخرجه الطبري (٥٠٨/١٠)، حديث (٢٩٤٨١).

(١) قوله: «المغافصة» في الصحاح: غافصت الرجل، أي: أخذته على غرة. (ع).

(٢) قوله: «تواضعا على مباشرة الأمر» أي توفقاً. (ع).

ورضوان الله الذي ليس وراءه مطلوب، وقوله: ﴿إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ﴾ (٨٩) تعليل لتحويل ما خولهما من الفرج بعد الشدة، والظفر بالبغية بعد اليأس ﴿أَلَيْتُوا أَلَمِينَ﴾ الاختبار البين الذي يتميز فيه المخلصون من غيرهم. أو المحنة البينة الصعوبة التي لا محنة أصعب منها. الذبيح: اسم ما يذبح. وعن ابن عباس رضي الله عنهما: هو الكبش الذي قرّبه هابيل فقبل منه، وكان يرعى في الجنة حتى فدى به إسماعيل (١٢٨٩). وعن الحسن: فدى بوعل^(١) أهبط عليه من ثبير (١٢٩٠). وعن ابن عباس: لو تمت تلك الذبيحة لكانت سنة وذبح الناس أبناءهم (١٢٩١) ﴿عظيم﴾ ضخم الجثة سمين، وهي السنة في الأضاحي. وقوله عليه السلام: «استشرفوا ضحاياكم فإنها على الصراط مطاياكم» (١٢٩٢) وقيل: لأنه وقع فداء عن ولد إبراهيم. وروي أنه هرب من إبراهيم عليه السلام عند الجمرة فرماه بسبع حصيات حتى أخذه، فبقيت سنة في الرمي، وروي أنه رمى الشيطان حين تعرض له بالوسوسة عند ذبح ولده. وروي أنه لما ذبحه قال جبريل: الله أكبر الله أكبر، فقال الذبيح: لا إله إلا الله والله أكبر، فقال إبراهيم عليه السلام: الله أكبر والله الحمد، فبقي سنة، وحكي في قصة الذبيح أنه حين أراد ذبحه قال: يا بني خذ الحبل والمدية وانطلق بنا إلى الشعب نحتطب، فلما توسط شعب ثبير أخبره بما أمر. فقال له اشدد رباطي لا أضطرب، واكفف عني ثيابك لا ينتضح عليها شيء من دمي فينقص أجري وتراه أمي فتحزن، واشحذ شفرتك وأسرع إمرارها على حلقي حتى تجهز عليّ؛ ليكون أهون فإنّ الموت شديد، واقرأ على أمي سلامي، وإن رأيت أن تردّ قميصي على أمي فافعل؛ فإنه عسى أن يكون أسهل لها، فقال إبراهيم عليه السلام: نعم العون أنت يا بني على أمر الله، ثم أقبل عليه يقبله وقد ربطه، وهما يبكيان، ثم وضع السكين على حلقه فلم تعمل؛ لأنّ الله ضرب صفيحة من نحاس على حلقه، فقال له: كبني على وجهي فإنك إذا نظرت وجهي رحمتني وأدركتك رقة تحول بينك وبين أمر الله، ففعل، ثم وضع السكين على قفاه

١٢٨٩ - ذكره السيوطي في الدر المنثور (٥/٥٣٤)، وعزاه لابن أبي شيبة والطبري وابن المنذر وابن أبي حاتم عن ابن عباس.

١٢٩٠ - أخرجه الطبري (١٠/٥١٦)، حديث (٢٩٥٤٩) عن الحسن بلفظ ما فدى إسماعيل إلا بتيس من الأروى أهبط عليه من ثبير.

١٢٩١ - ذكره الزيلعي في تخريج الكشاف، حديث (٣/١٧٦)، حديث (١٠٨٦) وقال الحافظ: لم أجده.

١٢٩٢ - ذكره الزيلعي في تخريج الكشاف (٣/١٧٦)، حديث (١٠٨٧) وقال: غريب.

وأخرجه الديلمي في الفردوس (١/١١٩)، حديث (٢٦٧) عن ابن عباس. وقال الحافظ: لم أجده.

(١) قوله: «بوعل» في الصحاح: الوعل: الأروى اهـ، ويقال: التيس الجبلي. (ع).

فانقلب السكين، ونودي: يا إبراهيم قد صدقت الرؤيا، فنظر فإذا جبريل عليه السلام معه كبش أقرن أملح، فكبر جبريل والكبش، وإبراهيم وابنه، وأتى المنحر من منى فذبحه. وقيل: لما وصل موضع السجود منه إلى الأرض جاء الفرج. وقد استشهد أبو حنيفة رحمه الله بهذه الآية فيمن نذر ذبح ولده: أنه يلزمه ذبح شاة، فإن قلت: من كان الذبيح من ولديه؟ قلت: قد اختلف فيه؛ فعن ابن عباس وابن عمر ومحمد بن كعب القرظي وجماعة من التابعين: أنه إسماعيل. والحجة فيه: أن رسول الله ﷺ قال: «أنا ابن الذبيحين (١٢٩٣)» وقال له أعرابي: يا ابن الذبيحين، فتبسم، فسئل عن ذلك فقال: «إن عبد المطلب لما حفر بئر زمزم نذر لله: لئن سهل الله له أمرها ليزبحن أحد ولده، فخرج السهم على عبد الله، فمنعه أخواله، وقالوا له: افد ابنك بمائة من الإبل، ففداه بمائة من الإبل، والثاني إسماعيل» (١٢٩٤) وعن محمد بن كعب القرظي قال: كان مجتهد بني إسرائيل يقول إذا دعا: اللهم إله إبراهيم وإسماعيل وإسرائيل، فقال موسى عليه السلام: يا رب، ما لمجتهد بني إسرائيل إذا دعا قال: اللهم إله إبراهيم وإسماعيل وإسرائيل، وأنا بين ١٣٠/٢ ب أظهرهم، فقد أسمعني كلامك واصطفيتني برسالتك؟ قال: يا موسى، لم يحبني أحد حب إبراهيم قط، ولا خَيْرَ بيني وبين شيء قط إلا اختارني. وأما إسماعيل فإنه جاد بدم نفسه. وأما إسرائيل فإنه لم ييأس من روحي في شدة نزلت به قط (١٢٩٥)، ويدل عليه أن الله تعالى لما أتم قصة الذبيح قال: ﴿وَبَشِّرْنَاهُ بِإِسْحَاقَ نَبِيًّا﴾ [الصفات: ١١٢] وعن محمد بن كعب أنه قال لعمر بن عبد العزيز: هو إسماعيل، فقال عمر: إن هذا شيء ما كنت أنظر فيه، وإنني لأراه كما قلت، ثم أرسل إلى يهودي قد أسلم فسأله، فقال: إن اليهود لتعلم أنه إسماعيل، ولكنهم يحسدونكم معشر العرب (١٢٩٦)، ويدل عليه أن قرني الكبش كانا منوطين في الكعبة في أيدي بني إسماعيل إلى أن احترق البيت. وعن الأصمعي قال: سألت أبا عمرو بن العلاء عن الذبيح فقال: يا أصمعي أين عزب عنك

١٢٩٣ - ذكره الزيلعي في تخريج أحاديث الكشاف (١٧٧/٣)، حديث (١٠٨٩) وقال: غريب، ويض له ابن حجر.

١٢٩٤ - أخرجه الحاكم في المستدرك (٥٥٤/٢) في كتاب التاريخ والطبري (٥١٤/١٠)، حديث (٢٩٥٣٠)، وذكره الزيلعي في تخريج الكشاف (١٧٨/٣)، حديث (١٠٩٠) وزاد نسبه لابن مرويه. قال الحافظ: أخرجه الحاكم والثعلبي من رواية الضابحي عن معاوية رضي الله عنه وفيه قصة انتهى ط.

١٢٩٥ - أخرجه الطبري (٥١١/١٠)، حديث (٢٩٥٠٠) عن عبد الله بن عمير قال موسى: يا رب يقولون إن إله إبراهيم وإسحاق ويعقوب...

١٢٩٦ - أخرجه الطبري (٥١٤/١٠) جامع البيان، حديث (٢٩٥٢٩)، وذكره السيوطي في تفسيره الدر (٥٣٠/٥) وعزاه لابن إسحاق، وابن جرير.

عقلك؟ ومتى كان إسحاق؟ بمكة، وإنما كان إسماعيل بمكة، وهو الذي بنى البيت مع أبيه، والمنحدر بمكة، ومما يدلّ عليه أنّ الله تعالى وصفه بالصبر دون أخيه إسحاق في قوله: ﴿وإِسْمَاعِيلَ وَإِدْرِيسَ وَذَا الْكِفْلِ كُلٌّ مِنَ الصَّابِرِينَ﴾ [الأنبياء: ٨٥] وهو صبره على الذبح، ووصفه بصدق الوعد في قوله: ﴿إِنَّكُمْ كَانَكُمْ صَادِقَ الْوَعْدِ﴾ [مريم: ٥٤] لأنه وعد أباه الصبر من نفسه على الذبح فوفى به، ولأنّ الله بشره بإسحاق وولده يعقوب في قوله: ﴿فَصَبَّحْتَ بُشِّرَتْهَا بِإِسْحَاقَ وَمِنْ وَرَاءِ إِسْحَاقَ يَعْقُوبَ﴾ [هود: ٧١] فلو كان الذبيح إسحاق لكان خلفاً للموعد في يعقوب، وعن علي بن أبي طالب (١٢٩٧) وابن مسعود (١٢٩٨) والعباس (١٢٩٩) وعطاء وعكرمة (١٣٠٠) وجماعة من التابعين: أنه إسحاق. والحجة فيه أن الله تعالى أخبر عن خليله إبراهيم حين هاجر إلى الشام بأنه استوهبه ولدًا، ثم أتبع ذلك البشارة بغلام حلیم، ثم ذكر رؤياه بذبح ذلك الغلام المبشر به. ويدلّ عليه كتاب يعقوب إلى يوسف: من يعقوب إسرائيل الله ابن إسحاق ذبيح الله ابن إبراهيم خليل الله (١٣٠١). فإن قلت: قد أوحى إلى إبراهيم صلوات الله عليه في المنام بأن يذبح ولده ولم يذبح، وقيل له: ﴿قَدْ صَدَّقْتَ الرُّؤْيَا﴾، وإنما كان يصدقها لو صحّ منه الذبح، ولم يصحّ^(١) قلت:

١٢٩٧ - أخرجه عبد الرزاق في تفسيره (١٥٢/٢)، وسعيد بن منصور، وذكره السيوطي (٥٣١/٥) وعزاه لعبد الرزاق وسعيد بن منصور وابن المنذر عن علي.
١٢٩٨ - أخرجه عبد الرزاق (١٥٢/٢)، والحاكم في المستدرک (٥٥٩/٢)، وذكره السيوطي في الدر (٥/٥٣١) وعزاه لعبد الرزاق والحاكم عن ابن مسعود.
١٢٩٩ - أخرجه الطبري في تفسيره (٥١٠/١٠)، حديث (٢٩٤٩١)، (٢٩٤٩٥) وذكره السيوطي في الدر (٥٣١/٥) وعزاه لعبد بن حميد، والبخاري في تاريخه والطبري وابن المنذر وابن أبي حاتم وابن مردويه عن العباس.
١٣٠٠ - أخرجه الطبري (٥١٠/١٠)، حديث (٢٩٤٩٣) عن عكرمة عن ابن عباس والحاكم (٥٥٨/٢): كتاب التاريخ.

وعزاه السيوطي في الدر (٥٣١/٥) للفريابي وسعيد بن منصور وعبد بن حميد والطبري والحاكم.
١٣٠١ - قال الحافظ ابن حجر في «تخريج الكشاف»: أخرجه الترمذي في النوادر في الحادي والعشرين بعد المائتين: حدثنا عمر بن أبي عمر حدثنا عصام بن المثنى الحمصي عن أبيه عن وهب بن منبه قال: كتب يعقوب كتاباً فيه بسم الله الرحمن الرحيم من يعقوب نبي الله إلى آخره وأخرج الدارقطني في غرائب مالك من رواية إسحاق بن وهب الطوسي عن ابن وهب عن مالك عن نافع عن ابن عمر رفعه: أوحى إلى ملك الموت أن ائت يعقوب فسلم عليه فذكر الحديث - وفيه فقال: اكتبوا بسم الله الرحمن الرحيم من يعقوب إسرائيل الله بن إسحاق ذبيح الله بن إبراهيم خليل الله إلى عزيز مصر أما بعد فلما أهل بيت فذكره مطولاً قال الدارقطني: هذا موضوع وإسحاق يضع الحديث على ابن وهب وقد تقدم في يوسف من وجه آخر، انتهى.

(١) قال محمود: «فإن قلت: قد أوحى إلى إبراهيم في المنام أن يذبح ولده ولم يذبح، وقيل له: قد =

قد بذل وسعه وفعل ما يفعل الذابح: من بطحه على شقه وإمرار الشفرة على حلقة، ولكن الله سبحانه جاء بما منع الشفرة أن تمضي فيه، وهذا لا يقدح في فعل إبراهيم عليه السلام، ألا ترى أنه لا يسمى عاصياً ولا مفرطاً، بل يسمى مطيعاً ومجتهداً، كما لو مضت فيه الشفرة وفرت الأوداج وأنهرت الدم، وليس هذا من ورود النسخ على الأمور به قبل الفعل، ولا قبل أوان الفعل في شيء، كما يسبق إلى بعض الأوهام حتى يشتغل بالكلام فيه. فإن قلت: الله تعالى هو المفتدى منه؛ لأنه الأمر بالذبح، فكيف يكون فادياً حتى قال: ﴿وَقَدْ يَنْتَهُ؟﴾ قلت: الفادي هو إبراهيم عليه الصلاة والسلام، والله عز وجل وهب له الكبش ليفدي به وإنما قال: ﴿وَقَدْ يَنْتَهُ﴾ إسناداً للفداء إلى السبب الذي هو الممكن من الفداء بهيته. فإن قلت: فإذا كان ما أتى به إبراهيم من البطح وإمرار الشفرة في حكم الذبح. فما معنى الفداء، والفداء إنما هو التخليص من الذبح ببدل؟ قلت: قد علم بمنع الله أن حقيقة الذبح لم تحصل من فري الأوداج وإنهار الدم، فوهب الله له الكبش ليقم ذبحه مقام تلك الحقيقة حتى لا تحصل تلك الحقيقة في نفس إسماعيل، ولكن في نفس الكبش بدلاً منه. فإن قلت: فأى فائدة في تحصيل تلك الحقيقة، وقد استغنى عنها بقيام ما وجد من إبراهيم مقام الذبح من غير نقصان؟ قلت: الفائدة في ذلك أن يوجد ما منع منه في بدله حتى يكمل منه الوفاء بالمنذور وإيجاد الأمور به من كل وجه. فإن قلت: لم قيل

= صدقت الرؤيا، وإنما كان يصدقها لو صح منه الذبح، ولم يصح. فأجاب بأنه قد بذل وسعه وفعل ما يفعله الذابح من بطحه على شقه وإمرار الشفرة على حلقة، ولكن الله سبحانه منع الشفرة أن تمضي فيه، وهذا لا يقدح في فعل إبراهيم، ألا ترى أنه لا يسمى عاصياً ولا مفرطاً بل يسمى مطيعاً ومجتهداً، كما لو مضت فيه الشفرة وفرت الأوداج وأنهرت الدم، وليس هذا من ورود النسخ على الأمور به قبل الفعل ولا قبل أوان الفعل في شيء، كما يسبق إلى بعض الأوهام حتى يشتغل بالكلام عليه. انتهى كلامه» قال أحمد: كل ما ذكر دذنة حول امتناع النسخ قبل التمكن من الفعل، وتلك قاعدة المعتزلة. وأما أهل السنة فيثبتون جوازه؛ لأن التكليف ثابت قبل التمكن من الفعل، فجاز رفعه كالموت. وأيضاً فكل نسخ كذلك؛ لأن القدرة على الفعل عندنا مقارنة لا متقدمة، ثم يثبتون وقوعه بهذه الآية. ووجه الدليل منها أن إبراهيم عليه السلام أمر بالذبح بدليل (افعل ما تؤمر) ونسخ قبل التمكن بدليل العدول إلى الفداء، فمن ثم تحوم الزمخشري على أنه فعل غاية وسعه من بطحه على شقه وإمرار الشفرة على حلقة، وإنما امتنعت بأمر من الله تعالى، وغرضه بذلك أحد أمرين: إما أن يكون الأمر إنما توجه عليه بمقدمات الذبح، وقد حصلت لا بنفس الذبح، أو توجه الأمر بنفس الذبح وتعاطيه، ولكن لم يتمكن. وكلا الأمرين لا يخلصه. أما قوله: أمر بمقدمات الذبح فباطل بقوله: (إني أرى في المنام أنني أذبحك) وقوله: (افعل ما تؤمر) وأما قوله: لم يتمكن لأن الشفر منعت بأمر من الله تعالى بعد تسليم الأمر بالذبح، فحاصله أنه لم يتمكن من الذبح الأمور به، فكان النسخ إذاً قبل التمكن، وهو عين ما أنكره المعتزلة، ولما لم يكن في هذين الجوابين لهم خلاص لجأ بعضهم إلى تسليم أنه أمر بالذبح، ودعوى أنه ذبح ولكنه كان يلتحم، وهو باطل لا ثبوت له، وسياق الآية يخل دعواه ويقف ثيابه.

ههنا ﴿كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ﴾ وفي غيرها من القصص: إنا كذلك؟ قلت: قد سبقه في هذه القصة: ﴿إنا كذلك﴾، فكأنما استخف بطرحه اكتفاء بذكره مرة عن ذكره ثانية.

﴿وَبَشَّرْنَاهُ بِإِسْحَاقَ نَبِيًّا مِّنَ الصَّالِحِينَ﴾ ﴿وَبَارَكْنَا عَلَيْهِ وَعَلَىٰ إِسْحَاقَ وَمِن ذُرِّيَّتِهِمَا مُحْسِنٌ وَظَالِمٌ لِّنَفْسِهِ مُبِينٌ﴾

﴿نَبِيًّا﴾ حال مقدرة، كقوله تعالى: ﴿فَادْخُلُوهَا خَالِدِينَ﴾ [الزمر: ٧٣]. فإن قلت: فرق بين هذا وبين قوله: ﴿فَادْخُلُوهَا خَالِدِينَ﴾ وذلك أنَّ المدخول موجود مع وجود الدخول، والخلود غير موجود معهما، فقدرت مقدرين الخلود فكان مستقيماً، وليس كذلك المبشر به، فإنه معدوم وقت وجود البشارة، وعدم المبشر به فإنه معدوم وقت وجود البشارة وعدم المبشر به أوجب عدم حاله لا محالة؛ لأنَّ الحال حلية، والحلية لا تقوم إلا بالمحلى، وهذا المبشر به الذي هو إسحاق حين وجد لن توجد النبوة أيضاً بوجوده، بل تراخت عنه مدة متطاولة، فكيف يجعل نبياً حالاً مقدرة، والحال صفة الفاعل أو المفعول عند وجود الفعل منه أو به؛ فالخلود وإن لم يكن صفتهم عند دخول الجنة، فتقديرها^(١) صفتهم؛ لأنَّ المعنى مقدرين الخلود، وليس كذلك النبوة؛ فإنه لا سبيل إلى أن تكون موجودة أو مقدرة وقت وجود البشارة بإسحاق لعدم إسحاق. قلت: ١٣١/٢: هذا سؤال دقيق السلك ضيق المسلك، والذي يحل الإشكال: أنه لا بدَّ من تقدير مضاف محذوف، وذلك قولك: وبشرناه بوجود إسحاق نبياً، أي بأن يوجد مقدرة نبوته؛ فالعامل في الحال الوجود لا فعل البشارة، وبذلك يرجع، نظير قوله تعالى: ﴿فَادْخُلُوهَا خَالِدِينَ﴾ [الزمر: ٧٣] ﴿مِنَ الصَّالِحِينَ﴾ حال ثانية، وورودها على سبيل الثناء والتقريض؛ لأنَّ كل نبي لا بدَّ أن يكون من الصالحين. وعن قتادة: بشره الله بنبوة إسحاق بعد ما امتحنه بذبحه (١٣٠٢)، وهذا جواب من يقول: الذبيح إسحاق لصاحبه عن تعلقه بقوله: ﴿وَبَشَّرْنَاهُ بِإِسْحَاقَ﴾ قالوا: ولا يجوز أن يبشره الله بمولده ونبوته معاً؛ لأنَّ الامتحان بذبحه لا يصحَّ مع علمه بأنه سيكون نبياً ﴿وَبَارَكْنَا عَلَيْهِ وَعَلَىٰ إِسْحَاقَ﴾ وقرئ: «وَبَارَكْنَا» أي: أفضنا عليهما بركات الدين والدنيا، كقوله: ﴿وَمَا آتَيْنَاهُ آخِرَهُ فِي الدُّنْيَا وَإِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ﴾ [العنكبوت: ٢٧] وقيل: باركنا على إبراهيم في أولاده، وعلى إسحاق بأن أخرجنا أنبياء بني إسرائيل من صلبه. وقوله: ﴿وَعَالِمٌ لِّنَفْسِهِ﴾ نظيره: ﴿قَالَ وَمِن ذُرِّيَّتِي قَالَ لَا يَنَالُ عَهْدِي

١٣٠٢ - أخرجه الطبري (٥١٨/١٠)، حديث (٢٩٥٥٦).

(١) قوله: «فتقديرها صفتهم» لعله: فتقديره. (ع).

أَفَلَيْلَيْنِ ﴿البقرة: ١٢٤﴾ وفيه تنبيه على أن الخبيث والطيب لا يجري أمرهما على العرق والعنصر، فقد يلد البر الفاجر، والفاجر البر. وهذا مما يهدم أمر الطبايع والعناصر، وعلى أن الظلم في أعقابهما لم يعد عليهما بعب ولا نقيصة، وأن المرء يعاب بسوء فعله ويعاتب على ما اجتاحت يده، لا على ما وجد من أصله أو فرعه.

﴿وَلَقَدْ مَكَّنَّا عَلَىٰ مُوسَىٰ وَهَارُونَ ﴿١١٤﴾ وَخَيَّرْنَاهُمَا وَقَوْمَهُمَا مِنَ الْكَرْبِ الْعَظِيمِ ﴿١١٥﴾ وَنَصَرْنَاهُمْ فَكَانُوا هُمُ الْفَائِزِينَ ﴿١١٦﴾ وَإِلَيْنَاهُمَا الْكِتَابُ الْمُسْتَقِيمُ ﴿١١٧﴾ وَهَدَيْنَاهُمَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ ﴿١١٨﴾ وَتَرَكْنَا عَلَيْهِمَا فِي الْأَخْيَرِ ﴿١١٩﴾ سَلَامٌ عَلَىٰ مُوسَىٰ وَهَارُونَ ﴿١٢٠﴾ إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ﴿١٢١﴾ إِنَّهُمْ مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ ﴿١٢٢﴾﴾

﴿مِنَ الْكَرْبِ الْعَظِيمِ﴾ من الغرق. أو من سلطان فرعون وقومه وغشهم^(١). ﴿وَنَصَرْنَاهُمْ﴾ الضمير لهما ولقومهما في قوله: ﴿وَخَيَّرْنَاهُمَا وَقَوْمَهُمَا﴾. ﴿الْكِتَابُ الْمُسْتَقِيمُ﴾ البليغ في بيانه وهو التوراة، كما قال: ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَا التَّوْرَةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ﴾ [المائدة: ٤٤] وقال: ومن جوز أن تكون التوراة عربية أن تشتق^(٢) من وري الزند «فوعلة» منه، على أن التاء مبدلة من واو. ﴿الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾ صراط أهل الإسلام، وهي صراط الدين أنعم الله عليهم غير المغضوب عليهم ولا الضالين.

﴿وَإِنَّا إِلْيَاسَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ ﴿١٢٣﴾ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ أَأَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٢٤﴾ أَتَدْعُونَ بَعْلًا وَتَذَرُونَ أَحْسَنَ خَلْقِ اللَّهِ رَبَّكُمْ وَرَبَّ آبَائِكُمُ الْأَوَّلِينَ ﴿١٢٥﴾ فَكَذَّبُوهُ فَإِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ ﴿١٢٦﴾ إِلَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ ﴿١٢٧﴾ وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي الْأَخْيَرِ ﴿١٢٨﴾ سَلَامٌ عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ ﴿١٢٩﴾ إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ﴿١٣٠﴾ إِنَّهُمْ مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ ﴿١٣١﴾﴾

قرئ: «إلياس» بكسر الهمزة، واليأس: على لفظ الوصل. وقيل: هو إدريس النبي. وقرأ ابن مسعود: «وإن إدريس»، في موضع إلياس. وقرئ: «إدراش»، وقيل: هو إلياس بن ياسين، من ولد هارون أخي موسى ﴿أَتَدْعُونَ بَعْلًا﴾ أتعبدون بعلًا، وهو علم لصنم كان لهم كمناة وهبل. وقيل: كان من ذهب، وكان طوله عشرين ذراعاً، وله أربعة أوجه، فتنوا به وعظموه حتى أخدموه أربعمائة سادن، وجعلوهم أنبياءه، فكان الشيطان يدخل في جوف بعل ويتكلم بشريعة الضلالة، والسدنة يحفظونها ويعلمونها الناس، وهم أهل بعلبك

(١) قوله: «وغشهم» في الصحاح «الغشم»: الظلم. (ع).

(٢) قوله: «أن تشتق» لعله: يجوز أن تشتق. (ع).

من بلاد الشام، وبه سميت مدينتهم بعلبك. وقيل: البعل: الرب، بلغة اليمن، يقال: من بعل هذه الدار، أي: من ربها؟ والمعنى: أتعبدون بعض البعول وتتركون عبادة الله ﷻ رَيْكُزَ وَرَبِّ آبَائِكُمْ ﴿١٣٦﴾ قرئ: بالرفع على الابتداء، وبالنصب على البدل، وكان حمزة إذا وصل نصب، وإذا وقف رفع، وقرئ: على الياسين. وإدراسين. وإدراسين. وإدراسين، على أنها لغات في إلياس وإدريس. ولعل لزيادة الياء والنون في السريانية معنى. وقرئ: «على الياسين» بالوصل، على أنه جمع يراد به إلياس وقومه، كقولهم: الخبيبون والمهلبون. فإن قلت: فهلا حملت على هذا إلياسين على القطع وأخواته؟ قلت: لو كان جمعاً لعرف بالألف واللام. وأما من قرأ: «على آل ياسين» فعلى أن ياسين اسم أبي إلياس، أضيف إليه الآل.

﴿وَإِنْ لَوْ مَا لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ ﴿١٣٦﴾ إِذْ بَخَّيْنَهُمْ وَأَهْلَهُ أَجْمَعِينَ ﴿١٣٧﴾ إِلَّا عَجُوزًا فِي الْغَدِيرِ ﴿١٣٨﴾ ثُمَّ دَمَرْنَا الْآخَرِينَ ﴿١٣٩﴾ وَإِنَّكُمْ لَتَمُرُّونَ عَلَيْهِمْ مُّصْبِحِينَ ﴿١٤٠﴾ وَبِالْأَيْلِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿١٤١﴾﴾

﴿مُصْبِحِينَ﴾ داخلين في الصباح، يعني: تمرّون على منازلهم في متاجرهم إلى الشام ليلاً ونهاراً، فما فيكم عقول تعتبرون بها.

﴿وَإِنْ يُؤَسِّرْ لِمَنِ الْمُرْسَلِينَ ﴿١٣٩﴾ إِذْ أَبَقَ إِلَى الْفُلْكِ الْمَشْحُونِ ﴿١٤٠﴾ فَسَاهَمَ فَكَانَ مِنَ الْمُدْحَضِينَ ﴿١٤١﴾ فَالْتَقَمَهُ الْحَوْثُ وَهُوَ مُلِيمٌ ﴿١٤٢﴾ فَلَوْلَا أَنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُسَبِّحِينَ ﴿١٤٣﴾ لَلِئْتِ فِي بَطْنِهِ إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿١٤٤﴾ فَبَدَّنْهُ بِالْعَرَاءِ وَهُوَ سَقِيمٌ ﴿١٤٥﴾ وَأَلْبَسْنَا عَلَيْهِ سَجْرَةً مِنْ يَقْطِينٍ ﴿١٤٦﴾ وَأَرْسَلْنَاهُ إِلَى مِائَةِ أَلْفٍ أَوْ يَزِيدُونَ ﴿١٤٧﴾ فَفَاتَمَتُوا فَمَتَّعْنَاهُمْ إِلَى حِينٍ ﴿١٤٨﴾﴾

قرئ: «يونس» بضم النون وكسرهما. وسمي هربه من قومه بغير إذن ربه: إباقا على طريقة المجاز. والمساهمة: المقارعة. ويقال: استهم القوم، إذا اقترعوا. والمدحض: المغلوب المقروع. وحقيقته: المزلق/٢/١٣١ب عن مقام الظفر والغلبة. روي: أنه حين ركب في السفينة وقت، فقالوا: ههنا عبد أبق من سيده، وفيما يزعم البحارون أن السفينة إذا كان فيها أبق لم تجر، فاقترعوا، فخرجت القرعة على يونس، فقال: أنا الآبق، وزج بنفسه في الماء ﴿فَالْتَقَمَهُ الْحَوْثُ وَهُوَ مُلِيمٌ﴾ داخل في الملامة. يقال: رب لائم ملِيم، أي يلوم غيره وهو أحق منه باللوم. وقرئ: «ملِيم» بفتح الميم، من ليم فهو ملِيم، كما جاء: مشيب في مشوب، مبيئاً على شيب. ونحوه: مدعي، بناء على دعى. ﴿هُنَّ الْمُسَبِّحِينَ﴾ من الذاكرين الله كثيراً بالتسبيح والتقديس. وقيل: هو قوله في بطن الحوت ﴿لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ﴾ [الأنبياء: ٨٧] وقيل: من المصلين. وعن ابن عباس:

كل تسبيح في القرآن فهو صلاة (١٣٠٣). وعن قتادة: كان كثير الصلاة في الرخاء (١٣٠٤). قال: وكان يقال: إن العمل الصالح يرفع صاحبه إذا عثر، وإذا صرع وجد متكأً. وهذا ترغيب من الله عز وجل في إكثار المؤمن من ذكره بما هو أهله، وإقباله على عبادته، وجمع همه لتقييد نعمته بالشكر في وقت المهلة والفسحة؛ لينفعه ذلك عنده تعالى في المضايق والشدائد ﴿لَلَّيْلِ فِي بَطْنِهِ﴾ الظاهر لبثه فيه حياً إلى يوم البعث. وعن قتادة: لكان بطن الحوت له قبراً إلى يوم القيامة (١٣٠٥). وروي أنه حين ابتلعه أوحى الله إلى الحوت: إني جعلت بطنك له سجنًا، ولم أجعله لك طعاماً. واختلف في مقدار لبثه، فعن الكلبي: أربعون يوماً، وعن الضحاك: عشرون يوماً. وعن عطاء: سبعة. وعن بعضهم: ثلاثة. وعن الحسن: لم يلبث إلا قليلاً، ثم أخرج من بطنه بعيد الوقت الذي التقم فيه. وروي: أن الحوت سار مع السفينة رافعاً رأسه يتنفس فيه يونس ويسبح، ولم يفارقهم حتى انتهوا إلى البر، فلفظه سالماً لم يتغير منه شيء، فأسلموا، وروي: أن الحوت قذفه بساحل قرية من الموصلى. والعراء: المكان الخالي لا شجر فيه ولا شيء يغطيه ﴿وَهُوَ سَقِيمٌ﴾ اعتلّ مما حلّ به، وروي: أنه عاد بدنه كبدن الصبي حين يولد. واليقطين: كل ما ينسحق على وجه الأرض ولا يقوم على ساق كشجر البطيخ والقثاء والحنظل، وهو «يفعل» من قطن بالمكان إذا قام به. وقيل: هو الدباء. وفائدة الدباء: أن الذباب لا يجتمع عنده. وقيل لرسول الله ﷺ: إنك لتحب القرع، قال: «أجل هي شجرة أخي يونس» (١٣٠٦) وقيل: هي التين، وقيل: شجرة الموز، تغطي بورقها، واستظلّ بأغصانها، وأفطر على ثمارها. وقيل: كان يستظلّ بالشجرة وكانت وعلة^(١) تختلف إليه، فيشرب من لبنها.

١٣٠٣ - أخرجه الطبري (٢٠٨/٩)، وعبد الرزاق في تفسيره (١٨٢/٢) في تفسيره: «بالعشي والإبكار» عن قتادة، وذكره الزيلعي (١٨٠/٣) حديث (١٠٩٢)، وزاد نسيبه إلى ابن مردويه، قال الحافظ ابن حجر: أخرجه الطبري وابن مردويه من رواية سعيد بن جبيرة عن ابن عباس رضي الله عنهما - قوله ورواه عبد الرزاق عن معمر عن قتادة موقوفاً، انتهى.

١٣٠٤ - أخرجه الطبري (٥٢٧/١٠)، حديث (٢٩٥٩٩)، وذكره السيوطي في الدر المنثور (٥٤٣/٥)، وعزاه لأحمد وابن أبي حاتم والطبري عن الحسن... فذكر ذلك لقتادة قال: «لا، إنما كان يعمل في الرخاء».

١٣٠٥ - أخرجه الطبري (٥٢٧/١٠)، حديث (٢٩٥٩٩) مختصراً وذكره السيوطي في الدر (٥٤٤/٥) وعزاه لعبد بن حميد، والطبري، وابن المنذر وابن أبي حاتم عن قتادة.

١٣٠٦ - ذكره الزيلعي في «تخريج الكشاف» (١٨١/٣) وقال: غريب وعزاه لابن مردويه بنحوه. وقال الحافظ: لم أجده، وأخرجه ابن مردويه عن ابن مسعود في قصة يونس قال عبد الله: قال النبي ﷺ.. واليقطين القرع. انتهى.

(١) قوله: «وكانت وعلة يقال: هي شاة جبلية. (ع).

وروي: أنه مرّ زمان على الشجرة فبيست، فبكى جزءاً، فأوحى الله إليه: بكيت على شجرة ولا تبكي على مائة ألف في يد الكافر، فإن قلت: ما معنى ﴿وَأَنْبَتْنَا عَلَيْهِ شَجَرَةً﴾؟ قلت: أنبتناها فوقه مظلة له؛ كما يطنب البيت على الإنسان ﴿وَأَرْسَلْنَاهُ إِلَى مِائَةِ أَلْفٍ﴾ المراد به ما سبق من إرساله إلى قومه وهم أهل نينوى. وقيل: هو إرسال ثان بعد ما جرى عليه إلى الأولين، أو إلى غيرهم. وقيل: أسلموا فسألوه أن يرجع إليهم فأبى؛ لأنّ النبي إذا هاجر عن قومه لم يرجع إليهم مقيماً فيهم، وقال لهم: إن الله باعث إليكم نبياً ﴿أَوْ زَيْدُونَ﴾ في مرأى الناظر؛ أي: إذا رآها الرائي قال: هي مائة ألف أو أكثر، والغرض: الوصف بالكثرة ﴿إِلَى حِينٍ﴾ إلى أجل مسمى، وقرئ: «ويزيدون» بالواو، و«حتى حين».

﴿فَأَسْتَفْتِيهِمُ الرِّبَّكَ الْبَنَاتُ وَلَهُمُ الْبَنُونَ﴾ (١٤٩) ﴿أَمْ خَلَقْنَا الْمَلَائِكَةَ إِنَاثًا وَهُمْ شَاهِدُونَ﴾ (١٥٠) ﴿أَلَا إِنَّهُمْ مِّنْ إِفْكِهِمْ لَيَقُولُونَ﴾ (١٥١) ﴿وَلَدَ اللَّهُ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ﴾ (١٥٢) ﴿أَصْطَفَى الْبَنَاتِ عَلَى الْبَنِينَ﴾ (١٥٣) ﴿مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ﴾ (١٥٤) ﴿أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ (١٥٥) ﴿أَمْ لَكُمْ سُلْطَانٌ مُّبِينٌ﴾ (١٥٦) ﴿فَأَنْتُمْ بِكَيْبِكُمْ إِن كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ (١٥٧)

﴿فَأَسْتَفْتِيهِمُ﴾ معطوف على مثله في أول السورة، وإن تباعدت بينهما المسافة، أمر رسوله باستفتاء قريش عن وجه إنكار البعث أولاً، ثم ساق الكلام موصولاً بعضه ببعض، ثم أمره باستفتائهم عن وجه القسمة الضيزى التي قسموها؛ حيث جعلوا لله الإناث ولأنفسهم الذكور في قولهم: الملائكة بنات الله، مع كراحتهم الشديدة لهنّ، وأدبرنّ، واستنكفهنّ من ذكرهنّ. ولقد ارتكبا في ذلك ثلاثة أنواع من الكفر، أحدها: التجسيم؛ لأن الولادة مختصة بالأجسام، والثاني: تفضيل أنفسهم على ربهم حين جعلوا أوضاع الجنسين له وأرفعهما لهم، كما قال: ﴿وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِمَا صَرَبَ لِلرَّحْمَنِ مَثَلًا ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ﴾ (٧) [الزخرف: ١٧]، ﴿أَوْ مَن يُنَشِّئُوا فِي الْحُلِيِّ وَهُوَ فِي الْخِصَامِ غَيْرُ مُبِينٍ﴾ (٨) [الزخرف: ١٨]، والثالث: أنهم استهانوا بأكرم خلق الله عليه وأقربهم إليه، حيث أنشؤهم، ولو قيل لأقلهم وأدناهم: فيك أنوثة، أو شكلك شكل النساء، للبس لقائله جلد النمر، ولانقلبت حماليقه^(١)، وذلك في أهاجهم بين مكشوف، فكرر الله سبحانه الأنواع ١٣٢/٢ كلها في كتابه مرات، ودلّ على فظاعتها في آيات: ﴿وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَدًا﴾ (٨٨) ﴿لَقَدْ جِئْتُمْ شَيْئًا إِذَا﴾ (٨٩) ﴿تَكَادُ السَّمَوَاتُ يَفْطَرْنَ مِنْهُ﴾ [مریم: ٨٨ - ٨٩]، ﴿وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَدًا سُبْحَانَهُ بَلْ عِبَادٌ مُّكْرَمُونَ﴾ (٩٠)

(١) قوله: «ولانقلبت حماليقه» في الصحاح «حمالق العين»: باطن أجفانها الذي يسوده الكحل، اهـ. (ع).

[الأنبياء: ٢٦]، ﴿وَقَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا سُبْحَنَهُ بَلْ لَكُمْ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ [البقرة: ١١٦]، ﴿يَدْعُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ أَنَّى يَكُونُ لَهُ وَلَدٌ﴾ [الأنعام: ١٠١]، ﴿أَلَا إِنَّهُمْ مِنْ إِفْكَهِمْ يَقُولُونَ^(١) وَلَدَ اللَّهِ﴾ [الصافات: ١٥١ - ١٥٢]، ﴿وَجَعَلُوا لَهُ مِنْ عِبَادِهِ جُزْءًا﴾ [الزخرف: ١٥]، ﴿وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ الْبَنَاتِ سُبْحَنَهُ وَلَهُمْ مَا يَشْتَهُونَ^(٢)﴾ [النحل: ٥٧]، ﴿أَمْ لَهُ الْبَنَاتُ وَلَكُمْ الْبَنُونَ^(٣)﴾ [الطور: ٣٩]، ﴿وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ مَا يَكْرَهُونَ﴾ [النحل: ٦٢]، ﴿أَصْطَفَى الْبَنَاتِ عَلَى الْبَنِينَ^(٤)﴾ [الصافات: ١٥٣]، ﴿أَرِ اتَّخَذَ مِمَّا يَخْلُقُ بَنَاتٍ وَأَصْفَنَكُمْ بِالْبَنِينَ^(٥)﴾ [الزخرف: ١٦]، ﴿وَجَعَلُوا الْمَلَائِكَةَ الَّذِينَ هُمْ عِنْدَ الرَّحْمَنِ إِنثًا﴾ [الزخرف: ١٩]، ﴿أَمْ خَلَقْنَا الْمَلَائِكَةَ إِنثًا وَهُمْ شَاهِدُونَ﴾. فإن قلت: لم قال: ﴿وَهُمْ شَاهِدُونَ﴾ فخص علم المشاهدة؟ قلت: ما هو إلا استهزاء بهم وتجهيل لهم، وكذلك قوله: ﴿أَشْهَدُوا خَلَقَهُمْ﴾ [الزخرف: ١٩] ونحوه قوله: ﴿مَا أَشْهَدُهُمْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَلَا خَلَقَ أَنْفُسَهُمْ﴾ [الكهف: ٥١] وذلك أنهم كما لم يعلموا ذلك بطريق المشاهدة، لم يعلموه بخلق الله علمه في قلوبهم. ولا بإخبار صادق، ولا بطريق استدلال ونظر. ويجوز أن يكون المعنى: أنهم يقولون ذلك، كالكائنات قولاً عن ثلج صدر وطمانينة نفس لإفراط جهلهم، كأنهم قد شاهدوا خلقهم. وقرئ: «ولد الله» أي الملائكة ولده. والولد «فعل» بمعنى مفعول، يقع على الواحد والجمع، والمذكر والمؤنث. تقول: هذه ولدي، وهؤلاء ولدي. فإن قلت: ﴿أَصْطَفَى الْبَنَاتِ﴾ بفتح الهمزة: استفهام على طريق الإنكار والاستبعاد، فكيف صحت قراءة أبي جعفر بكسر الهمزة على الإثبات؟ قلت: جعله من كلام الكفرة بدلاً عن قولهم: ﴿وَلَدَ اللَّهُ﴾، وقد قرأ بها حمزة والأعمش رضي الله عنهما. وهذه القراءة - وإن كان هذا محلها - فهي ضعيفة، والذي أضعفها: أن الإنكار قد اكتنف هذه الجملة من جانبيها، وذلك قوله: ﴿وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ﴾. ﴿مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ^(٦)﴾؟ فمن جعلها للإثبات، فقد أوقعها دخيلة بين نسيين^(١). وقرئ: «تَذْكُرُونَ» من ذَكَرَ. ﴿أَمْ لَكُمْ سُلْطَانٌ﴾ أي حجة نزلت عليكم من السماء وخبر بأن الملائكة بنات الله، ﴿فَأَنذَرُوكُمُ الَّذِي أَنزَلَ عَلَيْكُمْ فِي ذَلِكَ، كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿أَمْ أَنزَلْنَا عَلَيْهِنَّ سُلْطَانًا فَهُوَ يَتَكَلَّمُ بِمَا كَانُوا بِهِ يَشْكُرُونَ^(٧)﴾ [الروم: ٣٥] وهذه الآيات صادرة عن سخط عظيم، وإنكار فظيع، واستبعاد لأقوالهم شديد؛ وما الأساليب التي وردت عليها إلا ناطقة بتسفيه أحلام قريش، وتجهيل نفوسها، واستركاك عقولها، مع استهزاء وتهكم وتعجيب، من أن يخطر مخطر مثل ذلك على بالٍ ويحدث به نفساً؛ فضلاً أن يجعله

(١) قال السمين الحلبي: قال الشيخ: وليست دخيلة بين نسبتيْن؛ لأن لها مناسبة ظاهرة مع قولهم: «ولد الله» فأما قوله: «وإنهم لكاذبون» فهي جملة اعتراض بين مقالتي الكفرة جاءت للتشديد والتأكيد في كون مقالتهن تلك هي من إفكهم. ونقل أبو البقاء: أنه قرئ «اصطفى» بالمد، قال: وهو بعيد جداً. انتهى. الدر المصون.

معتقداً ويتظاهر به مذهباً.

﴿وَجَعَلُوا بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْجَنَّةِ نِجَالًا وَلَقَدْ عَلِمَتِ الْجِنَّةُ إِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ ﴿١٥٨﴾ سُبْحَنَ اللَّهِ عما يَصِفُونَ ﴿١٥٩﴾ إِلَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ ﴿١٦٠﴾﴾

﴿وَجَعَلُوا﴾ بين الله وبين الجنة وأراد الملائكة ﴿نِجَالًا﴾ وهو زعمهم أنهم بناته، والمعنى: جعلوا بما قالوا: نسبة بين الله وبينهم، وأثبتوا له بذلك جنسية جامعة له وللملائكة. فإن قلت: لم سمي الملائكة جنة؟ قلت: قالوا: الجنس واحد، ولكن من خبت من الجن ومرد وكان شراً كله فهو شيطان، ومن طهر منهم ونسك وكان خيراً كله فهو ملك؛ فذكرهم في هذا الموضع باسم جنسهم، وإنما ذكرهم بهذا الاسم وضعاً منهم وتقصيراً بهم. وإن كانوا معظمين في أنفسهم أن يبلغوا منزلة المناسبة التي أضافوها إليهم. وفيه إشارة إلى أن من صفته الاجتنان والاستتار - وهو من صفات الأجرام - لا يصلح أن يناسب من لا يجوز عليه ذلك. ومثاله: أن تسوي بين الملك وبين بعض خواصه ومقرّبيه، فيقول لك: أتسوي بيني وبين عبدي؟ وإذا ذكره في غير هذا المقام وقرّره وكناه. والضمير في ﴿إِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ﴾ للكفرة. والمعنى: أنهم يقولون ما يقولون في الملائكة، وقد علم الملائكة أنهم في ذلك كاذبون مفترون، وأنهم محضرون النار معذبون بما يقولون، والمراد المبالغة في التكذيب؟ حيث أضيف إلى علم الذين ادّعوا لهم تلك النسبة. وقيل: قالوا إنّ الله صاهر الجن فخرجت الملائكة. وقيل: قالوا: إن الله والشيطان أخوان.

وعن الحسن: أشركوا الجن في طاعة الله. ويجوز إذا فسر الجنة بالشیاطين أن يكون الضمير في ﴿فَأَنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ﴾ لهم، والمعنى أن الشياطين عالمون بأن الله يحضرهم النار ويعذبهم، ولو كانوا مناسبين له أو شركاء في وجوب الطاعة لما عذبهم ﴿إِلَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ﴾ استثناء منقطع من المحضرين، معناه: ولكن المخلصين ناجون. وسبحان الله: اعتراض بين الاستثناء وبين ما وقع منه. ويجوز أن يقع الاستثناء من الواو في يصفون، أي: يصفه هؤلاء بذلك، ولكن المخلصون برآء من أن يصفوه به.

﴿فَأَنذَرْتُكُمْ نَارًا تَلَظَّى ﴿١٦١﴾ مَا أَنتُمْ عَلَيْهِ بِفَاتِنِينَ ﴿١٦٢﴾ إِلَّا مَنْ هُوَ صَالٍ الْجَحِيمِ ﴿١٦٣﴾﴾

والضمير في ﴿عَلَيْهِ﴾ لله عزّ وجلّ. ومعناه: فإنكم ومعبوديكم ما أنتم وهم جميعاً بفاتنين على الله إلا أصحاب النار الذين سبق في علمه أنهم لسوء أعمالهم يستوجبون أن يصلوها. فإن قلت: كيف يفتنونهم/٢/١٣٢ب على الله؟ قلت: يفسدونهم عليه بإغوائهم واستهزائهم، من قولك: فتن فلان على فلان امرأته، كما تقول: أفسدها عليه وخيبها

عليه. ويجوز أن يكون الواو في ﴿وَمَا تَعْبُدُونَ﴾ بمعنى مع، مثلها في قولهم: كل رجل وضيئته، فكما جاز السكوت على كل رجل وضيئته، وأن كل رجل وضيئته، جاز أن يسكت على قوله: ﴿فَأَنْتُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ﴾ (١٦٦)، لأن قوله: ﴿وَمَا تَعْبُدُونَ﴾ ساذ مسدّ الخبر؛ لأن معناه: فإنكم مع ما تعبدون. والمعنى: فإنكم مع آلهتكم، أي: فإنكم قرناؤهم وأصحابهم لا تبرحون تعبدونها، ثم قال: ﴿مَا أَنتَ عَلَيْهِ﴾ أي: على ما تعبدون ﴿بِبَاعِثِينَ﴾ بباعثين أو حاملين على طريق الفتنة والإضلال ﴿إِلَّا مَنْ هُوَ﴾ ضال مثلكم. أو يكون في أسلوب قوله [من الوافر]:

فَأِنَّكَ وَالْكِتَابُ إِلَى عَلِيٍّ كَذَابِغَةٍ وَقَدْ حَلِمَ الْأَدِيمُ^(١)
وقرأ الحسن «صالح الجحيم» بضم اللام. وفيه ثلاثة أوجه؛ أحدها: أن يكون جمعاً، وسقوط واوه لالتقاء الساكنين هي ولام التعريف. فإن قلت: كيف استقام الجمع مع قوله: ﴿مَنْ هُوَ﴾؟ قلت: من موحد اللفظ مجموع المعنى، فحمل هو على لفظه، والصالون على معناه، كما حمل في مواضع من التنزيل على لفظ من ومعناه في آية واحدة. والثاني: أن يكون أصله صائل على القلب، ثم يقال: صال في صائل، كقولهم: شاك في شائك. والثالث: أن تحذف لام صال تخفيفاً ويجري الإعراب على عينه، كما حذف من قولهم: ما باليت به بالة، وأصلها بالية من بالي، كعافية من عافى. ونظيره قراءة من قرأ: ﴿وَحَتَّى الْجَنَّتَيْنِ دَاكِ﴾ [الرحمن: ٥٤]، ﴿وَلَهُ الْجَوَارِ الْمُنْتَكَتُ﴾ [الرحمن: ٢٤] بإجراء الإعراب على العين.

﴿وَمَا مِنَّا إِلَّا لَهُ مَقَامٌ مَعْلُومٌ﴾ (١٦٦) وَإِنَّا لَنَحْنُ الصَّافُونَ (١٦٥) وَإِنَّا لَنَحْنُ الْمُسِيحُونَ (١٦٦) ﴿وَمَا مِنَّا﴾ أحد ﴿إِلَّا لَهُ مَقَامٌ مَعْلُومٌ﴾ فحذف الموصوف وأقيمت الصفة مقامه، كقوله [من الوافر]:

أَنَا أَبْنُ جَلَا وَطَلَاغُ الثَّنَائَا^(٢)

(١) لعمر بن العاص. وقيل للوليد بن عقبة بن أبي معيط، يحرض معاوية على حرب علي بن أبي طالب، وحلم الجلد حلماً، كتعب تعباً: إذا فسد ودود وتنقب. وحلم بالضم، حلماً بالكسر: عفى مع القدرة. وحلم بالفتح، حلماً بالضم: رأى في منامه شيئاً. يقول: فإنك وكتابك الواصل إلى علي ترجو به استقامته كرجل كثير الدبغ للجلد، أو كامراً دابغة له، والحال أنه قد فسد ولم ينفع فيه الدبغ. والمقصود: تشبيه حالة بأخرى. ويجوز أن الواو للمعية لا للعطف، فالمعنى تشبيه معاوية بالدابغة.

ينظر: البحر (١٨٥/٢)، (اللسان) (حلم)، الدر المصون (١/٥٥٠).

(٢) تقدم.

بِكَفِّي كَانَ مِنْ أَرْمَى الْبَشَرِ^(١)

مقام معلوم في العبادة، والانتهاه إلى أمر الله مقصور عليه لا يتجاوزه، كما روي: فمنهم رافع لا يقيم صلبه، وساجد لا يرفع رأسه ﴿لَتَحُ الْصَّافُونَ﴾ نَصْفُ أَقْدَامِنَا فِي الصَّلَاةِ، أو أجنحتنا في الهواء. منتظرين ما نؤمر. وقيل: نصفُ أجنحتنا حول العرش داعين للمؤمنين. وقيل: إِنَّ الْمُسْلِمِينَ إِنَّمَا اصْطَفُوا فِي الصَّلَاةِ مِنْذُ نَزَلَتْ هَذِهِ الْآيَةُ. وليس يصطف أحد من أهل الملل في صلاتهم غير المسلمين ﴿الْمُسْتَحُونَ﴾ المنزهون أو المصلون. والوجه أن يكون هذا وما قبله من قوله: ﴿سُبْحَنَ اللَّهِ عَمَّا يُصِفُونَ﴾ [الصفات: ١٥٩] من كلام الملائكة حتى يتصل بذكرهم في قوله: ﴿وَلَقَدْ عَلِمَتِ الْجِنَّةُ﴾ [الصفات: ١٥٨] كأنه قيل: ولقد علم الملائكة وشهدوا أن المشركين مفترون عليهم في مناسبة رب العزة، وقالوا: سبحان الله، فنزهوه عن ذلك، واستثنوا عباد الله المخلصين وبُرأهم منه، وقالوا للكفرة: فإذا صحَّ ذلك فإنكم وآلهتكم لا تقدرون أن تفتنوا على الله أحداً من خلقه وتضلّوه إلا من كان مثلكم ممن علم الله - لكفرهم، لا لتقديره وإرادته^(٢)، تعالى الله عما يقول الظالمون علواً كبيراً - أنهم من أهل النار، وكيف نكون مناسيين لرب العزة ويجمعنا وإياه جنسية واحدة؟ وما نحن إلا عبيد أذلاء بين يديه، لكل منا مقام من الطاعة لا يستطيع أن يزل عنه ظفراً؛ خشوعاً لعظمته وتواضعاً لجلاله، ونحن الصافون أقدامنا لعبادته وأجنحتنا، مذعنين خاضعين مسبحين ممجدين، وكما يجب على العباد^(٣) لربهم. وقيل: هو من قول رسول الله ﷺ، يعني: وما من المسلمين أحد إلا له مقام معلوم يوم القيامة على قدر عمله، من قوله: ﴿عَسَى أَنْ يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَحْمُودًا﴾ [الإسراء: ٧٩] ثم ذكر أعمالهم وأنهم هم الذين يصطفون في الصلاة يسبحون الله وينزهونه مما يضيف إليه من لا يعرفه مما لا يجوز عليه.

﴿وَإِنْ كَانُوا لَيَقُولُونَ﴾ (١١٧) ﴿لَوْ أَنَّ عِنْدَنَا ذِكْرًا مِنَ الْأَوَّلِينَ﴾ (١١٨) ﴿لَكُنَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ﴾ (١١٩) ﴿فَكَفَرُوا بِهِ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ﴾ (١٢٠)

هم مشركو قريش كانوا يقولون: ﴿لَوْ أَنَّ عِنْدَنَا ذِكْرًا﴾ أي كتاباً ﴿مِّنْ﴾ كتب ﴿الْأَوَّلِينَ﴾

- (١) تقدم.
(٢) قوله: «لا لتقديره وإرادته تعالى» مبني على مذهب المعتزلة أن الله لا يقدر الشر ولا يريده. وقال أهل السنة: إن كل كائن فهو بقضاء الله وقدره، كما بين في علم التوحيد. (ع).
(٣) قوله: «وكما يجب على العباد لربهم» لعله كما يجب. كعبارة النسفي. (ع).

الذين نزل عليهم التوراة والإنجيل؛ لأخلصنا العبادة لله، ولما كذبنا كما كذبوا، ولما خالفنا كما خالفوا، فجاءهم الذكر الذي هو سيد الأذكار، والكتاب الذي هو معجز من بين الكتب، فكفروا به. ونحوه ﴿فَلَمَّا جَاءَهُمْ نَذِيرٌ مَّا زَادَهُمْ إِلَّا نُفُورًا﴾ [فاطر: ٤٢] فسوف يعلمون مغبة تكذيبهم وما يحل بهم من الانتقام. و«إن» هي المخففة من الثقيلة، واللام هي الفارقة. وفي ذلك أنهم كانوا يقولونه مؤكدين للقول جادين فيه، فكم بين أول أمرهم وآخره.

﴿وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَيْمَنَاتُنَا لِإِبْرَاهِيمَ الْكَافِرِ ﴿١٧٦﴾ إِنَّهُمْ لَهُمُ الْمَنصُورُونَ ﴿١٧٧﴾ وَإِنَّ جُنَدَنَا لَهُمُ الْغَالِبُونَ ﴿١٧٨﴾﴾

الكلمة: قوله: ﴿إِنَّهُمْ لَهُمُ الْمَنصُورُونَ ﴿١٧٧﴾ وَإِنَّ جُنَدَنَا لَهُمُ الْغَالِبُونَ ﴿١٧٨﴾﴾ وإنما سماها كلمة وهي كلمات عدة؛ لأنها لما انتظمت في معنى واحد كانت في حكم كلمة مفردة. وقرئ: «كلماتنا» والمراد الموعد بعلوهم على عدوهم في مقام الحجاج وملاحم القتال في الدنيا، وعلوهم عليهم في الآخرة، كما قال: ﴿وَالَّذِينَ اتَّقَوْا فَوْقَهُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ﴾ [البقرة: ٢١٢] ولا يلزم انهزامهم^(١) في بعض المشاهد، وما جرى عليهم من القتل فإن الغلبة كانت لهم ولمن بعدهم في العاقبة، وكفى بمشاهد رسول الله ﷺ والخلفاء الراشدين مثلاً يحتذى عليها وعبراً يعتبر بها. ١٣٣/٢ وعن الحسن رحمه الله: ما غلب نبي في حرب ولا قتل فيها، ولأن قاعدة أمرهم وأساسه والغالب منه: الظفر والنصرة - وإن وقع في تضاعيف ذلك شوب من الابتلاء والمحنة - والحكم للغالب. وعن ابن عباس رضي الله عنهما: إن لم ينصروا في الدنيا نصروا في الآخرة. وفي قراءة ابن مسعود: «على عبادنا»، على تضمين سبقت معنى حقت.

﴿فَقَوْلَ عَنْهُمْ حَتَّىٰ حِينٍ ﴿١٧٩﴾ وَأَبْصِرْهُمْ فَسَوْفَ يُبْصِرُونَ ﴿١٨٠﴾﴾

﴿فَقَوْلَ عَنْهُمْ﴾ فأعرض عنهم وأغض^(٢) على أذاهم ﴿حَتَّىٰ حِينٍ﴾ إلى مدة يسيرة وهي مدة الكف عن القتال. وعن السدي: إلى يوم بدر. وقيل: إلى الموت. وقيل: إلى يوم القيامة ﴿وَأَبْصِرْهُمْ﴾ وما يقضى عليهم من الأسر والقتل والعذاب في الآخرة، فسوف يبصرونك وما يقضى لك من النصر والتأييد والثواب في العاقبة. والمراد بالأمر بإبصارهم على الحال المنتظرة الموعودة، الدلالة على أنها كائنة واقعة لا محالة، وأن كينونتها قريبة كأنها قدام

(١) قوله: «ولا يلزم انهزامهم» أي لا يرد نقضاً للغلبة والنصر. (ع).

(٢) قوله: «وأغض على أذاهم» في الصحاح «الإغضاء»: إثناء الجفون. (ع).

ناظريك. وفي ذلك تسلية له وتنفيس عنه. وقوله: ﴿فَسَوْفَ يُبْصِرُونَ﴾ للوعيد كما سلف لا للتبديد.

﴿أَفَعَدَّائِنَا يَسْتَعْجِلُونَ﴾ (١٧٦) فَإِذَا نَزَلَ بِسَاحَتِهِمْ فَسَاءَ صَبَاحُ الْمُنْذَرِينَ ﴿١٧٧﴾ وَقَوْلَ عَنْهُمْ حَتَّىٰ حِينٍ ﴿١٧٨﴾ وَأَبْصِرْ فَسَوْفَ يُبْصِرُونَ ﴿١٧٩﴾

مثل العذاب النازل بهم بعد ما أنذروه فأنكروه بجيش أنذر بهجومه قومه بعض نصاحهم فلم يلتفتوا إلى إنذاره، ولا أخذوا أهبتهم، ولا دبروا أمرهم تدبيراً ينجيهم، حتى أناخ بفنائهم بغتة، فشنّ عليهم الغارة وقطع دابرهم، وكانت عادة مغاويرهم أن يغيروا صباحاً، فسميت الغارة صباحاً وإن وقعت في وقت آخر، وما فصحت هذه الآية ولا كانت لها الروعة التي تحس بها ويروقك موردها على نفسك وطبعك إلا لمجيئها على طريقة التمثيل، وقرأ ابن مسعود: فبئس صباح. وقرئ: «نزل بساحتهم» على إسناده إلى الجار والمجرور كقولك: ذهب بزيد ونزل، على: ونزل العذاب. والمعنى: فسَاء صباح المنذرين صباحهم، واللام في المنذرين مبهم في جنس من أنذروا؛ لأنّ ساء وبئس يقتضيان ذلك. وقيل: هو نزول رسول الله ﷺ يوم الفتح بمكة. وعن أنس رضي الله عنه: لما أتى رسول الله ﷺ خيبر - وكانوا خارجين إلى مزارعهم ومعهم المساحي - قالوا: محمد والخميس، ورجعوا إلى حصنهم. فقال عليه الصلاة والسلام: «الله أكبر خربت خيبر، إنا إذا نزلنا بساحة قوم فساء صباح المنذرين» (١٣٠٧) وإنما ثنى ﴿وَقَوْلَ عَنْهُمْ﴾ ليكون تسلية

١٣٠٧ - أخرجه البخاري (١٠٧/٢) كتاب الأذان: باب «ما يحقن بالأذان من الدماء» رقم (٦١٠)، (١/٥٧٢) كتاب الصلاة: باب «ما يذكر في الفخذ» رقم (٣٧١)، (٢/٥٠٧، ٥٠٨) كتاب الخوف: باب «التبكير والغلس بالصبح، والصلاة عند الإغارة والحرب»، رقم (٩٤٧)، (٤/٤٨٩)، كتاب البيوع: باب «بيع العبد والحيوان بالحيوان نسيئة» رقم (٢٢٢٨) طرفاً منه، (٤/٤٩٤)، كتاب البيوع: باب «هل يسافر بالجارية قبل أن يستبرئها» رقم (٢٢٣٥)، (٦/٩٨) كتاب الجهاد والسير: باب «فضل الخدمة في الغزو» رقم (٢٨٨٩)، (٦/١٠١، ١٠٢) كتاب الجهاد والسير: باب «من غزا بصبي للخدمة» رقم (٢٨٩٣)، (٦/١٣٠) كتاب الجهاد والسير: باب «دعاء النبي ﷺ إلى الإسلام والنوبة» رقم (٢٩٤٣ - ٢٩٤٤ - ٢٩٤٥)، (٦/١٥٦) كتاب الجهاد والسير: باب «التكبير عند الحرب» رقم (٢٩٩١)، (٦/٢٢٢، ٢٢٣) كتاب الجهاد والسير: باب «ما يقول إذا رجع من الغزو» رقم (٣٠٨٥ - ٣٠٨٦)، (٦/٢٢٣، ٢٢٤) كتاب الجهاد والسير: باب «الصلاة إذا قدم من سفر» رقم (٣٠٨٧)، (٦/٧٣٢) كتاب المناقب: باب «٢٨» رقم (٣٦٤٧)، (٧/٤٣٦) كتاب المغازي: باب «أحد جبل يحبنا ونحبه» رقم (٤٠٨٣ - ٤٠٨٤)، (٧/٥٣٤) كتاب المغازي: باب «غزوة خيبر» رقم (٤١٩٧ - ٤١٩٨ - ٤١٩٩ - ٤٢٠٠ - ٤٢٠١)، (٧/٥٤٧) كتاب المغازي: باب «غزوة خيبر» رقم (٤٢١١ - ٤٢١٢ - ٤٢١٣)، (٩/٢٩) كتاب النكاح: باب «اتخاذ السراي، ومن أعتق جارية ثم تزوجها» رقم (٥٠٨٥)، (٩/١٣٢) كتاب النكاح: باب «البناء في السفر» رقم =

على تسلية. وتأكيذاً لوقوع الميعاد إلى تأكيد. وفيه فائدة زائدة وهي إطلاق الفعلين معاً عن التقييد بالمفعول، وأنه يبصروهم يبصرون ما لا يحيط به الذكر من صنوف المسرة وأنواع المساءة. وقيل: أريد بأحدهما عذاب الدنيا، وبالأخر عذاب الآخرة.

﴿سُبْحَنَ رَبِّكَ رَبِّ الْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾ ﴿٨٠﴾ وَسَلَّمْ عَلَى الْمُرْسَلِينَ ﴿٨١﴾ وَلِحَمْدُ اللَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٨٢﴾

أضيف الرب إلى العزة لاختصاصه بها كأنه قيل: ذو العزة، كما تقول: صاحب صدق لاختصاصه بالصدق. ويجوز أن يراد أنه ما من عزة لأحد من الملوك وغيرهم إلا وهو ربها ومالكها، كقوله تعالى: ﴿وَعَزَّزْنَا مَنْ تَشَاءُ﴾ [آل عمران: ٢٦]: اشتملت السورة على ذكر ما قاله المشركون في الله ونسبوا إليه، مما هو منزّه عنه، وما عاناه المرسلون من جهتهم، وما خولوه في العاقبة من النصرة عليهم، فختمها بجوامع ذلك من تنزيه ذاته عما وصفه به المشركون، والتسليم على المرسلين ﴿وَلِحَمْدُ اللَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ ﴿٨٢﴾ على ما قبض لهم من حسن العواقب، والغرض تعليم المؤمنين أن يقولوا ذلك ولا يخلوا به ولا يغفلوا عن

= (٥١٥٩)، (١٤٠/٩) كتاب النكاح: باب «الوليمة ولو بشاة» رقم (٥١٦٩)، (٤٤٠/٩) كتاب الأطعمة: باب «الخبز المرقق، والأكل على الخوان والسفرة» رقم (٥٣٨٧)، (٤٦٥/٩) كتاب الأطعمة: باب «الحيس» رقم (٥٤٢٥)، (٤٦٦/٩) كتاب الأطعمة: باب «ذكر الطعام» رقم (٤٤٢٨)، (٥٧٠/٩) كتاب الذبائح والصيد: باب «لحوم الحمر الإنسية» رقم (٥٥٢٨)، (٢٦/١٠) كتاب الأضاحي: باب «ما يؤكل من لحوم الأضاحي وما يتزود منها» رقم (٥٩٦٨)، (٥٨٤/١٠) كتاب الأدب: باب «قول الرجل: جعلني الله فداك» رقم (٦١٨٥)، (١٧٧/١١) كتاب الدعوات: باب «التعوذ من غلبة الرجال» رقم (٦٣٦٣)، (١٨٢/١١) كتاب الدعوات: باب «الاستعاذة من الجبن والكسل» رقم (٦٣٦٩)، (٣١٦/١٣) كتاب الاعتصام بالكتاب والسنة: باب «إثم من دعا إلى ضلالة أو سن سنة سيئة» رقم (٧٣٣٣)، ومسلم (١٠٤٣/٢)، (١٠٤٤) كتاب النكاح: باب «فضيلة إعتاقه أمة ثم يتزوجها» رقم (١٣٦٥/٨٤)، والنسائي (١٣١/٦)، (١٣٢)، (١٣٣)، (١٣٤)، كتاب النكاح: باب «البناء في السفر» رقم (٣٣٨٠)، وأحمد (١٠١/٣) - ١٠٢ - ١١١ - ١٦٣ - ١٦٤ - ١٨٦ - ٢٠٦ - ٢٤٦ - ٢٦٣ - ٢٧٠ - ٢٧١)، والبيهقي (٢٣٠/٢) كتاب الصلاة: باب «من زعم أن الفخذ ليست بعورة، وما قيل في السرة والركبة»، (٥٥/٩) كتاب السير: باب «قسمة الغنيمة في دار الحرب»، (٧٩/٩)، (٨٠)، كتاب السير: باب «قتل النساء والصبيان في التبيت والغارة من غير قصد، وما ورد في إباحة التبيت»، وابن حبان (٥١/١١)، (٥٢)، كتاب السير: باب «ذكر البيان بأن على المرأة إذا أتى دار الحرب أن لا يشن الغارة حتى يصبح» رقم (٤٧٤٧). ومالك في «الموطأ» (٤٦٨/٢ - ٤٦٩) كتاب السير: الخروج وكيفية الجهاد» رقم (٤٧٤٦)، والترمذي (١٢١/٤)، كتاب السير: باب «في البيات والغارات» رقم (١٥٥٠).

قال الحافظ ابن حجر: متفق عليه.

مضمنات كتابه الكريم ومودعات قرآنه المجيد. وعن علي رضي الله عنه: «من أحب أن يكتال بالمكيال الأوفى من الأجر يوم القيامة، فليكن آخر كلامه إذا قام من مجلسه: «سبحان ربك رب العزة عما يصفون وسلام على المرسلين والحمد لله رب العالمين» (١٣٠٨).

عن رسول الله ﷺ: «من قرأ والصفات أعطي من الأجر عشر حسنات بعدد كل جني وشيطان، وتباعدت عنه مردة الشياطين وبرئ من الشرك، وشهد له حافظه يوم القيامة أنه كان مؤمناً بالمرسلين» (١٣٠٩).

١٣٠٨ - أخرجه عبد الرزاق في مصنفه (٢/٢٣٦ - ٢٣٧) حديث (٣١٩٦)، والبغوي في تفسيره (٤/٤٦)، وزاد نسبه للثعلبي في تفسيره وابن أبي حاتم، وقال الحافظ ابن حجر: أخرجه عبد الرزاق والثعلبي من رواية الأصبع بن نباتة عن علي موقوفاً، ورواه ابن أبي حاتم من رواية الشعبي عن النبي ﷺ مرسلًا، انتهى.

١٣٠٩ - تقدم برقم (٣٤٦)، وقال الحافظ ابن حجر في تخريج الكشاف: أخرجه الثعلبي، وابن مردويه، والواحدي من طرف عن أبي بن كعب رضي الله عنه، انتهى.

سورة ص

مكية، وهي ست وثمانون آية، وقيل ثمان وثمانون آية
[نزلت بعد القمر]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿صَّ وَالْقُرْآنِ ذِي الذِّكْرِ﴾ ١ بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي عِزِّ وَشِقَاقٍ ﴿٢﴾

﴿صَّ﴾ على الوقف وهي أكثر القراءة. وقرئ: بالكسر والفتح لالتقاء الساكنين، ويجوز أن ينتصب بحذف حرف القسم وإيصال فعله، كقولهم: الله لأفعلن، كذا بالنصب، أو بإضمار حرف القسم، والفتح في موضع الجر، كقولهم: الله لأفعلن، بالجر وامتناع الصرف للتعريف والتأنيث؛ لأنها بمعنى السورة، وقد صرفها من قرأ ﴿صَّ﴾ بالجر والتنوين على تأويل الكتاب والتنزيل، وقيل: فيمن كسر هو من/ ١٣٣/٢ ب المصاداة وهي المعارضة والمعادلة. ومنها الصدى وهو ما يعارض الصوت في الأماكن الخالية من الأجسام الصلبة، ومعناه: ما عارض القرآن بعملك فاعمل بأوامره وانته عن نواهيه. فإن قلت: قوله: ﴿صَّ وَالْقُرْآنِ ذِي الذِّكْرِ﴾ ١ بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي عِزِّ وَشِقَاقٍ ﴿٢﴾ كلام ظاهره متنافر غير منتظم، فما وجه انتظامه؟ قلت: فيه وجهان، أحدهما: أن يكون قد ذكر اسم هذا الحرف من حروف المعجم على سبيل التحدي والتنبيه على الإعجاز كما مر في أول الكتاب، ثم أتبعه القسم محذوف الجواب لدلالة التحدي عليه، كأنه قال: ﴿وَالْقُرْآنِ ذِي الذِّكْرِ﴾ إنه لكلام معجز. والثاني: أن يكون ﴿صَّ﴾ خبر مبتدأ محذوف، على أنها اسم للسورة، كأنه قال: هذه ص، يعني: هذه السورة التي أعجزت العرب، والقرآن ذي الذكر، كما تقول: هذا حاتم والله، تريد: هذا هو المشهور بالسخاء والله؛ وكذلك إذا أقسم بها كأنه قال: أقسمت بص والقرآن ذي الذكر إنه لمعجز ثم قال: بل الذين كفروا في عزة واستكبار عن الإذعان لذلك والاعتراف بالحق وشقاق لله ورسوله، وإذا جعلتها مقسماً بها وعطفت عليها ﴿وَالْقُرْآنِ ذِي الذِّكْرِ﴾ جاز لك أن تريد بالقرآن التنزيل كله، وأن تريد السورة بعينها. ومعناه: أقسم بالسورة الشريفة والقرآن ذي الذكر، كما تقول: مرت بالرجل الكريم وبالنسمة المباركة، ولا تريد بالنسمة غير الرجل. والذكر: الشرف

والشهرة، من قولك: فلان مذكور، ﴿وَإِنَّهُ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ﴾ [الزخرف: ٤٤] أو الذكري والموعظة، أو ذكر ما يحتاج إليه في الدين من الشرائع وغيرها، كأقاصيص الأنبياء والوعد والوعيد. والتذكير في ﴿عِزَّةً وَشِقَاقِي﴾ للدلالة على شدتهما وتفاقمهما. وقرئ: «في غرة» أي: في غفلة عما يجب عليهم من النظر واتباع الحق.

﴿كَرَّ أَهْلَكُنَا مِنْ قَبْلِهِمْ مِّنْ قَرْنٍ فَنَادَواْ وَلَآتَ حِينَ مَنَاصٍ﴾

﴿كَرَّ أَهْلَكُنَا﴾ وعيد لذوي العزة والشقاق ﴿فَنَادَواْ﴾ فدعوا واستغاثوا، وعن الحسن. فنادوا بالتوبة ﴿وَلَآتَ﴾ هي لا المشبهة بليس، زادت عليها تاء التأنيث كما زادت على رَبٍّ، وثُمَّ للتوكيد، وتغير بذلك حكمها؛ حيث لم تدخل إلا على الأحيان ولم يبرز إلا أحد مقتضيهما: إما الاسم وإما الخبر، وامتنع بروزهما جميعاً، وهذا مذهب الخليل وسيبويه. وعند الأخفش: أنها لا النافية للجنس زادت عليها التاء، وخضت بنفي الأحيان. و ﴿حِينَ مَنَاصٍ﴾ منصوب بها، كأنك قلت: ولا حين مناص لهم. وعنه: أن ما ينتصب بعده بفعل مضمر، أي: ولا أرى حين مناص، ويرتفع بالابتداء: أي ولا حين مناص كائن لهم، وعندهما أن: النصب على: ولات الحين حين مناص، أي: وليس الحين حين مناص، والرفع على ولات حين مناص حاصلًا لهم. وقرئ: «حين مناص» بالكسر، ومثله قول أبي زيد الطائي [من الخفيف]:

طَلَبُواْ صَلَاحًا وَلَآتَ أَوَانٍ فَأَجَبْنَا أَنَّ لَاتَ حِينَ بَقَاءٍ^(١)

| | | |
|-----|--------------------------|-------------------------|
| (١) | بعثوا حربنا عليهم وكانوا | في مقام لو أبصروا ورخاء |
| | ثم لما تشذرت وأنافت | وتصلوا منها كربه الصلاء |
| | طلبوا صلحنا ولات أوانٍ | فأجبنا أن لات حين بقاء |

لأبي زيد الطائي، استعار البعث للتسبب. وتوئين مقام ورخاء للتعظيم. والتشذر: التهوي للقتال، والتشمر بأطراف الثوب، والتطاول، والوعيد، والركوب من خلف المركوب، والإنافة: الارتفاع، وكل هذا ترشيح لاستعارة البعث، ويجوز أنه شبه الحرب بفارس على طريق المكنية، والبعث والتشذر والإنافة: تخيل. وشبهها بالنار أيضاً فأثبت لها التصلي وهو التدفؤ بالنار تخيلاً. أو استعار التصلي لاقترام المكاره تصريحية، وطلبوا: جواب لما، أي: لما ذاقوا بأسنا طلبوا صلحنا، والحال أنه ليس الأوان أوان صلح، فأجبناهم بأن هذا ليس وقت بقاء، بل وقت فناء. وأوان: مبني على الكسر لنية الإضافة. وقيل: إنه مبني على الكسر أيضاً لنية الإضافة، ونون للضرورة، وشبهه بنزال في الوزن. وقيل: مجرور على إضمار «من» الاستغرافية الزائدة. وزعم الفراء: أن لات هنا حرف جر. وعليها فتوئين أوان للتمكين. وزعم الزمخشري: أنه على البناء توئين عوض، ورد بأنه لو كان كذلك لأعرب، وحين نصب على أنه خبر لات في بقاء، ثم تنزيلها منزلة نيتها في حين؛ لأن التقدير: أن لات حين بقائكم، وهو بعيد عن المعنى الجزل.

ينظر: البيت في ديوانه ص ٣٠، والإنصاف ص ١٠٩، وتخليص الشواهد ص ٢٩٥، وتذكرة النحاة =

فإن قلت: ما وجه الكسر في أوان؟ قلت: شبه بإذ في قوله: وأنت إذ صحيح، في أنه زمان قطع منه المضاف إليه وعوض التنوين؛ لأن الأصل: ولات أوان صلح. فإن قلت: فما تقول في حين مناص والمضاف إليه قائم؟ قلت: نزل قطع المضاف إليه من مناص؛ لأن أصله حين مناصهم منزلة قطعه من حين؛ لاتحاد المضاف والمضاف إليه، وجعل تنوينه عوضاً من الضمير المحذوف، ثم بنى الحين لكونه مضافاً إلى غير متمكن. وقرئ: «ولات» بكسر التاء على البناء، كجبر. فإن قلت: كيف يوقف على لات؟ قلت: يوقف عليها بالتاء كما يوقف على الفعل الذي تتصل به تاء التأنيث. وأما الكسائي فيقف عليها بالهاء كما يقف على الأسماء المؤنثة. وأما قول أبي عبيد: إن التاء داخلة على حين فلا وجه له، واستشهاده بأن التاء ملتزقة بحين في الأمام لا متشبث به، فكم وقعت في المصحف أشياء خارجة عن قياس الخط. والمناص: المنجا والقوت. يقال: ناصه ينوصه إذا فاته، واستناص: طلب المناص. قال حارثة بن بدر [من الكامل]:

غَمِرُ الْجِرَاءِ إِذَا قَصَرْتُ عَنَّا
بَيْدِي أَسْتَنَاصَ وَرَامَ جَزْيَ الْمُسْجَلِ^(١)

﴿وَعَجِبُوا أَنْ جَاءَهُمْ مُنْذِرٌ مِنْهُمْ وَقَالَ الْكَافِرُونَ هَذَا سِحْرٌ كَذَّابٌ﴾ ﴿أَجْعَلِ الْآلِهَةَ إِلَهًا وَاحِدًا إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عُجَابٌ﴾

﴿مُنْذِرٌ مِنْهُمْ﴾ رسول من أنفسهم ﴿وَقَالَ الْكَافِرُونَ﴾ ولم يقل: وقالوا؛ إظهاراً للغضب عليهم، ودلالة على أن هذا القول لا يجسر عليه إلا الكافرون المتوغلون في الكفر المنهمكون في الغي الذين قال فيهم: ﴿أُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ حَقًّا﴾ [النساء: ١٥١]، وهل ترى كفراً أعظم وجهلاً أبلغ من أن يسموا من صدقه الله بوحيه كاذباً، ويتعجبوا من التوحيد، وهو الحق الذي لا يصح غيره، ولا يتعجبوا من الشرك وهو الباطل الذي لا وجه لصحته.

= ص ٧٣٤، وخزانة الأدب ١٨٣/٤، ١٨٥، ١٩٠، والدرر ١١٩/٢، وشرح شواهد المغني ص ٦٤٠، ٩٦٠، والمقاصد النحوية ١٥٦/٢، وبلا نسبة في جواهر الأدب ص ٢٤٩، وخزانة الأدب ١٦٩/٤، ٥٣٩/٦، ٥٤٥، والخصائص ٣٧٠/٢، ووصف المباني ص ١٦٩، ٢٦٢، وسر صناعة الإعراب ص ٥٠٩، وشرح الأشموني ١٢٦/١، وشرح المفصل لابن يعيش ٣٢/٩، ولسان العرب (أون)، (لا)، (لات)، ومغني اللبيب ص ٢٢٥، وهمع الهوامع ١٢٦/١.

(١) لحارثة بن بدر، يصف فرساً بأنه كثير المجارة لغيره من الأفراس، إذا قصرت: أي جذبت عنانه، استناص: أي طلب النوص والهرب والنجاء من الأعداء. وشبه الفرس بمن تصح منه الإرادة على طريق المكنية، والروم تخيل، أي: أراد جرياً كجري المسجل وهو حمار الوحش، سمي به لكثرة سحاله، أي شهيته.

ينظر ديوانه (ص ٣٥٩)، لسان العرب (نوص)، (جرا)، تهذيب اللغة (٢٤٦/١٢)، بلا نسبة في كتاب العين (١٦٠/٧).

﴿وَأَنطَلَقَ الْمَلَأُ مِنْهُمْ أَنِ امْشُوا وَاصْبِرُوا عَلَىٰ آلِهِمْ﴾ إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ يُرَادُ ﴿٦﴾ مَا سَمِعْنَا بِهَذَا فِي آلِ إِمْلَةَ الْآخِرَةِ إِنَّ هَذَا إِلَّا خَيْالُكَ ﴿٧﴾ ﴿

۲۴۳

كونه فلا مرد له ولا ينفع فيه إلا الصبر، أو إن هذا الأمر لشيء من نوائب الدهر يراد بنا فلا انفكاك لنا منه، أو إن دينكم لشيء يراد، أي: يطلب ليؤخذ منكم وتغلبوا عليه. و (أن) بمعنى أي؛ لأن المنطلقين عن مجلس التقاول لا بد لهم من أن يتكلموا ويتفاوضوا فيما جرى لهم، فكان انطلقهم مضمناً معنى القول، ويجوز أن يراد بالانطلاق الاندفاع في القول، وأنهم قالوا: امشوا، أي: أكثروا واجتمعوا، من مشت المرأة إذا كثرت ولادتها. ومنه: الماشية؛ للتفاؤل، كما قيل لها: الفاشية. قال رسول الله ﷺ: «ضموا فواشيكم»^(١) (١٣١١) ومعنى ﴿وَأَصْبِرُوا عَلَىٰ آلِهَتِكُمْ﴾: واصبروا على عبادتها والتمسك بها حتى لا تزالوا عنها، وقرئ: «وانطلق الملاء منهم امشوا» بغير (أن) على إضمار القول. وعن ابن مسعود: «وانطلق الملاء منهم يمشون أن اصبروا» ﴿فِي آيَةِ الْآخِرَةِ﴾ في ملة عيسى التي هي آخر الملل؛ لأن النصارى يدعونها وهم مثلثة غير موحدة. أو في ملة قريش التي أدركنا عليها آبائنا، أو ما سمعنا بهذا كائناً في الملة الآخرة، على أن تجعل (في الملة الآخرة) حالاً من هذا ولا تعلقه بما سمعنا كما في الوجهين. والمعنى: أننا لم نسمع من أهل الكتاب ولا من الكهان أنه يحدث في الملة الآخرة توحيد الله. ما ﴿هَذَا إِلَّا أَخْلَقُ﴾ أي: افتعال وكذب.

﴿أَنْزَلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ مِنْ بَيْنِنَا بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ مِنْ ذِكْرِي بَلْ لَمَّا يَدُورُوا عَذَابٍ ﴿٨﴾ أَمْ عَنْهُمْ خَزَائِنُ رَحْمَةِ رَبِّكَ الْعَزِيزِ الْوَهَّابِ ﴿٩﴾ أَمْ لَهُمْ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا فَلْيَرْتَقُوا فِي الْأَسْبَابِ ﴿١٠﴾ جُنْدٌ مَا هُنَالِكَ مَهْزُومٌ مِنَ الْأَحْزَابِ ﴿١١﴾﴾

أنكروا أن يختص بالشرف من بين أشرافهم ورؤسائهم وينزل عليه الكتاب من بينهم، كما قالوا: ﴿لَوْلَا نُزِّلَ هَذَا الْقُرْآنُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ﴾ [الزخرف: ٣١]، وهذا الإنكار ترجمة عما كانت تغلي به صدورهم من الحسد على ما أوتي من شرف النبوة من بينهم ﴿بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ﴾ من القرآن، يقولون في أنفسهم: أما وأما. وقولهم: ﴿إِنْ هَذَا إِلَّا آخِلَقٌ﴾

١٣١١ - أخرجه مسلم (٢٠٣/٧) نووي: كتاب الأشربة: باب الأمر بتغطية الإناء...، حديث (٢٠١٣)، والبخاري في الأدب المفرد ص (٣٥٦)، حديث (١٢٢٦) وأحمد (٣٠١/٣)، (٣/٣٩٥) وابن خزيمة (٦٨/١)، حديث (١٣٢)، وابن حبان في صحيحه (٩١/٤)، (٩٢)، حديث (١٢٧٥)، (١٢٧٦)، والبغوي في شرح السنة (٥٥٥/٥): كتاب السير والجهاد: باب متى يخرج إلى السفر، حديث (٢٦٦٦) ومسنَد أبي يعلى (٣٠٥/٣)، حديث (١٧٧١)، من حديث جابر، وقال الحافظ: أخرجه ابن حبان من حديث جابر رضي الله عنه بلفظ «كفوا» وأصله في مسلم، انتهى.

(١) قوله: «ضموا فواشيكم» بقيته في الصحاح: «حتى تذهب فحمة العشاء». (ع).

كلام مخالف لاعتقادهم فيه يقولونه على سبيل الحسد. ﴿بَلْ لَّمَّا يَذُوقُوا عَذَابٍ﴾ بعد، فإذا ذاقوه زال عنهم ما بهم من الشك والحسد^(١) حينئذ، يعني: أنهم لا يصدقون به إلا أن يمسه العذاب مضطرين إلى تصديقه. ﴿أَمْ عِنْدَهُ خِزَائِنُ رَحْمَةِ رَبِّكَ﴾ يعني: ما هم بمالكى خزائن الرحمة حتى يصيبوا بها من شاءوا ويصرفوها عن شاءوا، ويتخيروا للنبوة بعض صناديدهم، ويرفعوا بها عن محمد عليه الصلاة والسلام. وإنما الذي يملك الرحمة وخزائنها العزيز القاهر على خلقه، الوهاب الكثير المواهب المصيب بها مواقعها، الذي يقسمها على ما تقتضيه حكمته وعدله، كما قال: ﴿أَمْ هُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ نَحْنُ قَسَمْنَا﴾ [الزخرف: ٣٢] ثم رشح هذا المعنى فقال: ﴿أَمْ لَهُمْ ثُلُكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ حتى يتكلموا في الأمور الربانية والتدابير الإلهية التي يختص بها رب العزة والكبرياء، ثم تهكم بهم غاية التهكم فقال: فإن كانوا يصلحون لتدبير الخلائق والتصرف في قسمة الرحمة، وكانت عندهم الحكمة التي يميزون بها بين من هو حقيق بإتياء النبوة دون من لا يحق له ﴿فَلْيَرْفَعُوا فِى الْأَسْبَابِ﴾ فليصعدوا في المعارج والطرق التي يتوصل بها إلى العرش، حتى يستوا عليه ويدبروا أمر العالم وملكوت الله، وينزلوا الوحي إلى من يختارون ويستصوبون، ثم خسأهم خساء^(٢) عن ذلك بقوله: ﴿جُنْدٌ مَا هُنَالِكَ مَهْزُومٌ مِنَ الْأَحْزَابِ﴾ يريد: ما هم إلا جيش من الكفار المتحزبين على رسل الله، مهزوم مكسور عما قريب^(٣) فلا تبال بما يقولون،

- (١) قال محمود: «معناه لم يذوقوه بعد. فإذا ذاقوه زال عنهم ما بهم... إلخ» قلت: ويؤخذ منه أن لما لائقة بالجواب، وإنما ينفي بها فعل يتوقع وجوده، كما يقول سيبويه، وفرق بينها وبين لم بأن لم نفي لفعل يتوقع وجوده لم يقبل مثبتة قد، ولما نفي لما يتوقع وجوده أدخل على مثبتة قد؛ وإنما ذكرت ذلك لأني حديث عهد بالبحث في قوله عليه الصلاة والسلام: «الشفعة فيما لم يقسم» فإني استدلت به على أن الشفعة خاصة بما يقبل القسمة، فقليل لي: إن غايته أنه أثبت الشفعة فيما نفي عنه القسمة، فإما أنها لا تقبل قسمة، وإما أنها تقبل ولم تقع القسمة، فأبطلت ذلك بأن آلة النفي المذكورة «لم» ومقتضاها قبول المحل للفعل المنفي وتوقع وجوده. ألا تراك تقول: الحجر لا يتكلم، ولو قلت: الحجر لم يتكلم؛ لكان ركيكاً من القول؛ لإفهامه قبوله للكلام.
- (٢) قوله: «ثم خسأهم خساء» في الصحاح: خسأت الكلب خساً: طردته، وخساً بنفسه يتعدى ولا يتعدى. (ع).

- (٣) قال محمود: «ثم تهكم بهم غاية التهكم، فقال: إن كانوا يصلحون لتدبير الخلائق والتصرف في قسمة الرحمة فكانت عندهم المعرفة التي يميزون بها بين من هو حقيق بإتياء النبوة دون من لا يستحق؛ فليرتقوا في المعارج والطرق الموصلة إلى العرش حتى يستوا عليه ويدبروا أمر العالم وملكوت الله تعالى، وينزلوا الوحي على من يختارونه. قال: ثم خسأهم بقوله: (جند ما هنالك مهزوم من الأحزاب) معناه: إن هؤلاء إلا جند متحزبون على النبي ﷺ عما قليل يهزمون ويولون الأديار» قال أحمد: الاستواء المنسوب لله ليس مما يتوصل إليه بالصعود في المعارج والوصول إلى العرش والاستقرار عليه والتمكن فوقه؛ لأن الاستواء المنسوب إلى الله تعالى ليس استواء استقرار =

ولا تكثر لما به يهزون. و (ما) مزيدة، وفيها معنى الاستعظام، كما في قول امرئ القيس [من البسيط]:

..... فَحَدِيثٌ مَا عَلَى قَصْرِ^(١)

إلا أنه على سبيل الهزء و ﴿هُنَالِكَ﴾ إشارة إلى حيث وضعوا فيه أنفسهم من الانتداب لمثل ذلك القول العظيم، من قولهم لمن ينتدب لأمر ليس من أهله: لست هنالك.

﴿كَذَبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَعَادٌ وَفِرْعَوْنُ ذُو الْأَوْتَادِ ﴿١٢﴾ وَثَمُودُ وَقَوْمُ لُوطٍ وَأَصْحَابُ لَيْكَةِ أُولَئِكَ الْأَحْرَابُ ﴿١٣﴾﴾ إِنَّ كُلَّ إِلَّا كَذَبَ الرُّسُلَ فَحَقَّ عِقَابُ ﴿١٤﴾ وَمَا يَنْظُرُ هَؤُلَاءِ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً مَّا لَهَا مِنْ فَوَاقٍ ﴿١٥﴾﴾

﴿ذُو الْأَوْتَادِ﴾ أصله من ثبات البيت المطنب بأوتاده، قال/ ٢/ ١٣٤ ب [من البسيط]:

وَالْبَيْتُ لَا يُبْنَى إِلَّا بِأَعْمَدَةٍ وَلَا عِمَادٍ إِذَا لَمْ تُرْسَ أَوْتَادُ^(٢)

فاستعير لثبات العز والملك واستقامة الأمر، كما قال الأسود [من الكامل]:

..... فِي ظِلِّ مُلْكٍ ثَابِتِ الْأَوْتَادِ^(٣)

= بجسم - تعالى الله عن ذلك - وإنما هو صفة فعل، أي فعل فيه فعلاً سماه استواء، هذا تأويل القاضي أبي بكر، وليست عبارة الزمخشري في هذا الفصل مطابقة للمفصل على جاري عاداته في تحرير العبارة على مراده.

(١) جد بالوفاق لمشتاق إلى سهره إن لم تجد فحديث ما على قصره

المراد بالوفاق: الوصال. وضمير «سهره» للمشتاق أو للوفاق. وحديث: مبتدأ خبره محذوف، أي: تجود به. وما زائدة للتعميم. ويجوز أنها للتعظيم. لكن الأول أوفق بالمقام. وعلى بمعنى مع، وضمير «قصره»: للحديث.

ينظر ديوانه ص (١٢٧)، لسان العرب (هنا)، مقاييس اللغة (٦٨/٦)، تاج العروس (هنا)، بلا نسبة في تهذيب اللغة (٤٣٦/٦)، ديوان الأدب (٢٩/٤)، والدر المصون ١/ ١٦٣.

(٢) والبيت لا يبنى إلا بأعمدة ولا عماد إذا لم ترس أوتاد

فلن تجمع أسباب وأعمدة وساكن بلغوا الأمر الذي كادوا

للمرافدة الأودي، يقول: لا ينال الأمر إلا بتوافر أسبابه، فاليبت من باب التمثيل: شبه توقف الأمر على أسبابه وتوقف أسبابه على أسبابها بتوقف ضرب الخيمة على انتصاب الأعمدة، وتوقف انتصابها على إثبات الأوتاد المشدودة بالحيال، ثم قال: فإن اجتمعت الحبال المشدودة بالأوتاد الثابتة وانتصبت الأعمدة ووجد الساكن بلغ مراده، وهو بمعنى الجمع، فصح جمع ضميره، وكاده كيداً: عالجه علاجاً، أي: بلغوا الأمر الذي كادوه، أي عالجه لتحصيله.

ينظر ديوانه (ص ١٠)، لسان العرب (كيد)، تاج العروس (٩/ ١٢٠) (كود).

(٣) ماذا أومل بعد آل محرق تركوا منازلهم وبعد إباد؟ =

وقيل: كان يشبح^(١) المعذب بين أربع سوار، كل طرف من أطرافه إلى سارية مضروب فيه وتد من حديد، ويتركه حتى يموت. وقيل: كان يمدّه بين أربعة أوتاد في الأرض ويرسل عليه العقارب والحيات. وقيل: كانت له أوتاد وحبال يلعب بها بين يديه ﴿أُولَئِكَ الْأَحْزَابُ﴾ قصد بهذه الإشارة الإعلام بأن الأحزاب الذين جعل الجند المهزوم منهم هم هم، وأنهم هم الذين وجد منهم التكذيب^(٢). ولقد ذكر تكذيبهم أولاً في الجملة الخبرية على وجه الإبهام، ثم جاء بالجملة الاستثنائية فأوضحه فيها: بأن كل واحد من الأحزاب كذب جميع الرسل؛ لأنهم إذا كذبوا واحداً منهم فقد كذبوهم جميعاً. وفي تكرير التكذيب وإيضاحه بعد إبهامه، والتنويع في تكريره بالجملة الخبرية أولاً وبالاستثنائية ثانياً، وما في الاستثنائية من الوضع على وجه التوكيد والتخصيص أنواع من المبالغة المسجلة عليهم باستحقاق أشد العقاب وأبلغه، ثم قال: ﴿فَحَقَّ عِقَابٌ﴾ أي: فوجب لذلك أن أعاقبهم حق عقابهم ﴿هَؤُلَاءِ﴾ أهل مكة. ويجوز أن يكون إشارة إلى جميع الأحزاب؛ لاستحضارهم بالذكر، أو لأنهم كالحضور عند الله. والصيحة: النفخة ﴿مَا لَهَا مِنْ قَوَاتٍ﴾

| | |
|----------------------------|--------------------------|
| جرت الرياح على مقر ديارهم | فكانهم كانوا على ميعاد |
| ولقد غنوا فيها بأنعم عيشة | في ظل ملك ثابت الأوتاد |
| فلذا النعيم وكل ما يلهي به | يوماً يصير إلى بلى ونفاد |

للأسود بن يعفر. يقول: لا أتمنى شيئاً بعدهم من الدنيا. ومحرّق: هو امرؤ القيس بن عمرو بن عدي اللخمي. والإياد - في الأصل -: تراب يجمع حول الحوض والبيت. يحفظه عن المطر والسيول، من الأيدي: وهو القوة. وإياد: علم علي بن نزار بن معد، فهو أخو مضر وربيعة. والمراد به هنا القبيلة. وروي: وآل إياد، عطفاً على آل محرّق. وغني بالمكان كرضي: أقام به. والبلى: الانمحاق. والنفاد: الفناء. يقول: تركوا منازلهم: جملة مستأنفة لبيان نفي التأمل، واعتراضية بين المتعاطفين. وقوله: «جرت الرياح» مستأنف لبيان حال القبيلتين، يقول: تفانوا فجرت الرياح على محل ديارهم، وجريان الرياح على مقر الديار؛ لانهدام الجدران التي كانت تمنع الرياح، وذلك كناية عن موتهم، وأفاد أن فناءهم كان سريعاً كأنه دفعة واحدة بقوله: فكانهم كانوا على ميعاد واحد، ولقد أقاموا بأرغد عيشة، وشبه الملك الذي به عزهم وصونهم بخيمة مضروبة عليهم، والظل: الترشيح، والأوتاد تخيل. وإذا معناها المفاجأة. أي فظهر بغتة أن كل نعيم لا محالة زائل، أي: فأدرّكهم المحاق والفناء.

ينظر الدر المصون (٣/٣٠٦).

- (١) قوله: «وقيل: كان يشبح المعذب» أي يمدّه، أفاده الصحاح. (ع).
- (٢) قال محمود: «قصد بهذه الإشارة الإعلام بأن الأحزاب الذين جعل الجند المهزوم منهم هم هم، وأنهم الذين وجد منهم التكذيب منهم» قال أحمد: وفي تكرار تكذيبهم فائدة أخرى: وهي أن الكلام لما طال بتعدد أحاد المكذبين، ثم أريد ذكر ما حاق بهم من العذاب جزاء لتكذيبهم، كرر ذلك مصحوباً بالزيادة المذكورة، ليلي قوله تعالى: (فحق عقاب) على سبيل التطرية المعتادة عند طول الكلام، وهو كما قدمته في قوله: (وكذب موسى) حيث كرر الفعل؛ ليقترن بقوله: (فأملت للكافرين).

وقرى بالضم: ما لها من توقف مقدار فواق، وهو ما بين حلبتي الحالب ورضعتي الراضع، يعني: إذا جاء وقتها لم تستأخر هذا القدر من الزمان، كقوله تعالى: ﴿إِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ لَا يَسْتَجِرُّونَ سَاعَةً﴾ [النحل: ٦١] وعن ابن عباس: ما لها من رجوع وترداد (١٣١٢)، من أفاق المريض إذا رجع إلى الصحة. وفواق الناقة: ساعة ترجع الدر إلى ضرعها، يريد: أنها نفخة واحدة فحسب لا تثنى ولا تردد.

﴿وَقَالُوا رَبَّنَا عَجِّلْ لَنَا قِطْعَانَا قَبْلَ يَوْمِ الْحِسَابِ﴾ (١٦)

القط: القسط من الشيء؛ لأنه قطعة منه، من قطه إذا قطعه. ويقال لصحيفة الجائزة: قط؛ لأنها قطعة من القرطاس، وقد فسر بهما قوله تعالى: ﴿عَجِّلْ لَنَا قِطْعَانَا﴾ أي نصيبنا من العذاب الذي وعدته، كقوله تعالى: ﴿وَيَسْتَعِزُّونَكَ بِالْعَذَابِ﴾ [الحج: ٤٧] وقيل: ذكر رسول الله ﷺ وعد الله المؤمنين بالجنة؛ فقالوا على سبيل الهزء: عجل لنا نصيبنا منها. أو عجل لنا صحيفة أعمالنا ننظر فيها.

﴿أَصْبِرْ عَلَى مَا يَقُولُونَ وَاذْكُرْ عَبْدَنَا دَاوُدَ ذَا الْأَيْدِ إِنَّهُ أَوَّابٌ﴾ (١٧) إِنَّا سَخَّرْنَا الْجِبَالَ مَعَهُ يُسَبِّحْنَ بِالْعِشِيِّ وَالْإِشْرَاقِ (١٨) وَالطَّيْرَ مَحْشُورَةً كُلٌّ لَهُ أَوَّابٌ (١٩) وَشَدَدْنَا مُلْكَكُمْ وَأَيَّنَّا لَهُ الْحِكْمَةَ وَفَصَّلَ الْخِطَابِ (٢٠)

فإن قلت: كيف تطابق قوله: ﴿أَصْبِرْ عَلَى مَا يَقُولُونَ﴾ وقوله: ﴿وَاذْكُرْ عَبْدَنَا دَاوُدَ﴾ حتى عطف أحدهما على صاحبه؟ قلت: كأنه قال لنبيه عليه الصلاة والسلام: اصبر على ما يقولون، وعظم أمر معصية الله في أعينهم بذكر قصة داود، وهو أنه نبي من أنبياء الله تعالى قد أولاه ما أولاه من النبوة والملك؛ لكرامته عليه وزلفته لديه، ثم زل زلة فبعث إليه الملائكة ووبخه عليها على طريق التمثيل والتعريض؛ حتى فطن لما وقع فيه فاستغفر وأناب، ووجد منه ما يحكى من بكائه الدائم وغمه الواصب^(١)، ونقش جنايته في بطن كفه حتى لا يزال يجدد النظر إليها والندم عليها، فما الظن بكم مع كفركم ومعاصيكم؟ أو قال له ﷺ: اصبر على ما يقولون، وصن نفسك وحافظ عليها أن تزل فيما كلفت من مصابرتهم وتحمل أذاهم، واذكر أخاك داود وكرامته على الله كيف زل تلك الزلة اليسيرة فلقني من توبيخ الله وتظليمه ونسبته إلى البغي ما لقي. ﴿ذَا الْأَيْدِ﴾ ذا القوة في الدين

١٣١٢ - أخرجه الطبري (٥٥٨/١٠)، حديث (٢٩٧٧٧، ٢٩٧٧٨).

(١) قوله: «وغمه الواصب» أي: الدائم. (ع).

المضطلع بمشاقه وتكاليفه، كان على نهوضه بأعباء النبوة والملك يصوم يوماً ويفطر يوماً، وهو أشد الصوم، ويقوم نصف الليل. يقال: فلان أيد، وذو أيد، وذو آد. وأياد كل شيء: ما يتقوى به ﴿أَوَّابٌ﴾ تَوَّاب رجاء إلى مرضاة الله. فإن قلت: ما ذلك على أنَّ الأيد القوة في الدين؟ قلت: قوله تعالى: ﴿إِنَّهُ أَوَّابٌ﴾ لأنه تعليل لذي الأيد. ﴿وَالْإِشْرَاقِ﴾ وقت الإشراق، وهو حين تشرق الشمس، أي: تضيء ويصفو شعاعها وهو وقت الضحى، وأما شروقها فطلوعها، يقال: شرقت الشمس، ولما تشرق^(١). وعن أم هانئ: دخل علينا رسول الله ﷺ فدعا بوضوء فتوضأ ثم صلى صلاة الضحى وقال: «يا أم هانئ هذه صلاة الإشراق» (١٣١٣). وعن طاووس، عن ابن عباس قال: هل تجدون ذكر صلاة الضحى في القرآن؟ قالوا: لا، فقرأ: ﴿إِنَّا سَخَرْنَا الْجِبَالَ مَعَهُ يُسَبِّحْنَ بِالْعُشِيِّ وَالْإِشْرَاقِ﴾ (١٣١٤) وقال: كانت صلاة يصليها داود عليه السلام، وعنه: ما عرفت صلاة الضحى إلا بهذه الآية، وعنه: لم يزل في نفسي من صلاة الضحى شيء حتى طلبتها فوجدتها في هذه الآية ﴿يُسَبِّحْنَ بِالْعُشِيِّ وَالْإِشْرَاقِ﴾ وكان لا يصلي صلاة الضحى (١٣١٥)، ثم صلاها بعد. وعن كعب أنه قال لابن عباس: إني لا أجد في كتب الله صلاة بعد طلوع الشمس، فقال: أنا أوجدك ذلك في كتاب الله تعالى، يعني هذه الآية. ويحتمل أن يكون من أشرق القوم إذا

١٣١٣ - أخرجه الطبراني في الأوسط (١٣٥/٥)، حديث (٤٢٥٨)، والبيهقي في تفسيره (٥١/٤) آية (١٨)، والحاكم في المستدرک (٥٣/٤): كتاب معرفة الصحابة: أم هانئ، وذكره الزيلعي (٣/١٨٧، ١٨٨) وزاد نسبته إلى الثعلبي وابن مردويه وذكره السيوطي في الدر (٥٦١/٥) ونسبه إلى الطبراني في الأوسط وابن مردويه.

قال الحافظ: أخرجه ابن مردويه، والثعلبي، والواحدي، والبيهقي، والطبراني كلهم من رواية أبي بكر الهذلي عن عطاء عن ابن عباس: حدثني أم هانئ، ورواه الحاكم من وجه آخر عن عبد الله ابن الحرث عن ابن عباس: «كان لا يصلي الضحى حتى أدخلناه على أم هانئ فقلت لها: أخبري ابن عباس قالت: دخل رسول الله ﷺ في بيتي فصلى صلاة الضحى ثمان ركعات، قال: فخرج ابن عباس وهو يقول: «هذه صلاة الإشراق» هذا موقف وهو أصبح. انتهى.

١٣١٤ - أخرجه عبد الرزاق (في مصنفه ٧٩/٣)، حديث (٤٨٧٠) وذكره السيوطي في الدر المنثور (٥/٥٦١) وزاد نسبته إلى عبد بن حميد. عن عطاء عن ابن عباس.
١٣١٥ - أخرجه عبد الرزاق في مصنفه (٧٩/٣) حديث (٤٨٧١).

(١) قال محمود: «الإشراق حين تشرق الشمس، أي يصفو نورها وهو وقت الضحى. وأما شروقها فطلوعها. يقال: شرقت الشمس ولما تشرق. ومنه أخذ ابن عباس صلاة الضحى. قال: ويحتمل أن يكون من أشرق القوم إذا دخلوا في وقت الشروق، ويكون المراد وقت صلاة الفجر؛ لانتهاه بشروق الشمس» قال أحمد: الوجه الثاني: يفرق بين العشي والإشراق، فإن العشي ظرف بلا إشكال، فلو حمل الإشراق على الدخول في وقت الشروق لكان مصدراً، مع أن المراد به الظرف؛ لأنه فعل الشمس وصفها التي تستعمل ظرفاً، كالطلوع والغروب وشبههما.

دخلوا في الشروق، ومنه/ ٢/ ١٣٥ أ قوله تعالى: ﴿فَاخَذَتْهُمْ الصَّبِيحَةُ مُشْرِقِينَ﴾ [الحجر: ٧٣] وقول أهل الجاهلية: أشرق^(١) ثبير، ويراد وقت صلاة الفجر لانتهائه بالشروق. ويسبحن: في معنى ومسبحات^(٢) على الحال. فإن قلت: هل من فرق بين يسبحن ومسبحات؟ قلت: نعم، وما اختير يسبحن على مسبحات إلا لذلك، وهو الدلالة على حدوث التسبيح من الجبال شيئاً بعد شيء وحالاً بعد حال، وكأن السامع محاضر تلك الحال يسمعا تسبح. ومثله قول الأعشى [من الطويل]:

..... إِلَى ضَوْءِ نَارٍ فِي يَفْعَاحٍ تَحَرَّقُ^(٣)

ولو قال: محرقة، لم يكن شيئاً. وقوله: ﴿تَحْشُورَةٌ﴾ في مقابلة (يسبحن) إلا أنه لما لم يكن في الحشر ما كان في التسبيح من إرادة الدلالة على الحدوث شيئاً بعد شيء، جيء به اسماً لا فعلاً. وذلك أنه لو قيل: وسخرنا الطير يحشرن - على أن الحشر يوجد من حاشرها شيئاً بعد شيء، والحشر هو الله عز وجل - لكان خلفاً؛ لأن حشرها جملة واحدة أدل على القدرة. وعن ابن عباس رضي الله عنهما كان إذا سبح جاويته الجبال بالتسبيح، واجتمعت إليه الطير فسبحت، فذلك حشرها. وقرئ: «والطير محشورة» بالرفع. ﴿كُلُّ لَهْ أَوَّابٍ﴾ كل واحد من الجبال والطير لأجل داود، أي: لأجل تسبيحه مسبح؛ لأنها كانت تسبح بتسبيحه، ووضع الأواب موضع المسبح: إنا لأنّها كانت ترجع التسبيح، والرجع

(١) قوله: «أشرق ثبير» كانوا يقولون: أشرق ثبير كيما نغير، كيما في الصحاح. (ع).

(٢) قال محمود: «إن قلت لم اختار يسبحن على مسبحات وأيهما وقع كان حالاً؟ وأجاب بأن اختيارهما لمعنى وهو الدلالة على حدوث التسبيح شيئاً بعد شيء، كان السامع محاضر لها فيسمعا تسبح، ومنه قول الأعشى:

..... إِلَى ضَوْءِ نَارٍ فِي يَفْعَاحٍ تَحَرَّقُ

ولو قال: محرقة لم يكن شيئاً. قال أحمد: ولهذه النكتة فرق سحنون من أصحابنا بين: أنا محرم يوم أفعل كذا بصيغة اسم الفاعل وبين أحرم بصيغة المضارع، فرأى أن المعلق بصيغة اسم الفاعل يكون محرمًا بوجود صيغة التعليق، ولا كذلك المعلق بصيغة الفعل المضارع، فإنه لا يكون محرمًا حتى يحرم، ويقال له: أحرم، فكأنه رأى أن صيغة الفعل خصوصية في الدلالة على حدوثه، ولا كذلك اسم الفاعل وإن كان متأخرًا. وأصحابنا اختلفوا في معنى قول سحنون في اسم الفاعل يكون محرمًا يوم يفعل، فمنهم من قال: أراد الفور فينشئ إحراماً، ومنهم من قال: يكون محرمًا في الحال بالتعليق الأول ولا يجدد شيئاً، ومذهب مالك: التسوية بين صيغتي اسم الفاعل والفعل في هذا المقام، والله أعلم. وحقق الزمخشري هذا الفرق بين اسم الفاعل والفعل في قوله: (والطير محشورة كل له أواب) فقال: لما كان الواقع حشر الطير دفعة واحدة، وكان ذلك أدل على القدرة، لم يكن لاستعمال الفعل الدال على الحدوث شيئاً فشيئاً معنى، فاستعمل فيه اسم المفعول على خلاف استعمال الفعل في الأول.

(٣) تقدم.

رجاع؛ لأنه يرجع إلى فعله رجوعاً بعد رجوع، وإما لأن الأواب - وهو التواب الكثير الرجوع إلى الله وطلب مرضاته - من عادته أن يكثر ذكر الله ويديم تسبيحه وتقديسه. وقيل: الضمير لله، أي: كل من داود والجال والطير لله أواب، أي مسبح مرجع للتسبيح. ﴿وَسَدَدْنَا مُلْكَهُ﴾ قويناه، قال تعالى: ﴿سَنَشُدُّ عَضُدَكَ﴾ [القصص: ٣٥] وقرئ: «وَشَدَدْنَا» على المبالغة. قيل: كان يبيت حول محرابه أربعون ألف مستلثم^(١) يحرسونه (١٣١٦) وقيل: الذي شد الله به ملكه وقذف في قلوب قومه الهيبة، أن رجلاً ادعى عنده على آخر بقره، وعجز عن إقامة البينة، فأوحى الله تعالى إليه في المنام أن اقتل المدعى عليه، فقال: هذا منام، فأعيد الوحي في اليقظة، فأعلم الرجل، فقال: إن الله عز وجل لم يأخذني بهذا الذنب، ولكن بأني قتلت أبا هذا غيلة، فقتله، فقال الناس: إن أذنب أحد ذنباً أظهره الله عليه، فقتله، فهابوه (١٣١٧). ﴿الْحِكْمَةُ﴾ الزبور وعلم الشرائع. وقيل: كل كلام وافق الحق فهو حكمة. الفصل: التمييز بين الشيثين. وقيل للكلام البين: فصل، بمعنى المفصول كضرب الأمير؛ لأنهم قالوا: كلام ملتبس، وفي كلامه لبس. والملتبس: المختلط، فقيل في نقيضه: فصل، أي: مفصول بعضه من بعض، فمعنى فصل الخطاب البين من الكلام الملخص الذي يتبينه من يخاطب به لا يلتبس عليه، ومن فصل الخطاب وملخصه: أن لا يخطئ صاحبه مظان الفصل والوصل، فلا يقف في كلمة الشهادة على المستثنى منه، ولا يتلو قوله: ﴿قَوَّبِلَ لِلْمُصَلِّينَ﴾ [الماعون: ٤] إلا موصولاً بما بعده، ولا ﴿وَاللَّهُ يَلْمُ وَأَنْتُمْ﴾ حتى يصله بقوله: ﴿لَا تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ٢٣٢] ونحو ذلك، وكذلك مظان العطف وتركه، والإضمار والإظهار والحذف والتكرار، وإن شئت كان الفصل بمعنى الفاصل، كالصوم والزور، وأردت بفصل الخطاب: الفاصل من الخطاب الذي يفصل بين الصحيح والفاقد، والحق والباطل، والصواب والخطأ، وهو كلامه في القضايا والحكومات، وتدابير الملك والمشورات. وعن علي بن أبي طالب رضي الله عنه، وهو قوله: البينة على المدعي واليمين على المدعى عليه. وهو من الفصل بين الحق والباطل، ويدخل فيه قول بعضهم: هو قوله: «أما بعد»؛ لأنه يفتتح إذا تكلم في الأمر الذي له شأن بذكر الله وتحميده، فإذا أراد أن يخرج إلى الغرض المسوق إليه: فصل بينه وبين ذكر الله بقوله: «أما بعد». ويجوز أن يراد الخطاب القصد الذي ليس فيه اختصار مخل ولا إشباع

١٣١٦ - أخرجه الحاكم في مستدركه (٥٨٦/٢) عن السدي وابن جرير الطبري (٥٦٣/١٠)، حديث (٢٩٨١٠) وذكره السيوطي في الدر المنثور (٥٦٣/٥) وعزاه لهما عن السدي.
١٣١٧ - أخرجه الطبري (٥٦٣/١٠)، حديث (٢٩٨١١).

(١) قوله: «مستلثم» أي: لابس اللأمة، وهي الدرع، أفاده الصحاح. (ع).

ممل. ومنه ما جاء في صفة كلام رسول الله ﷺ: فصل لا نذر ولا هذر (١٣١٨).

﴿وَهَلْ أَتَاكَ نَبَأُ الْخَصْمِ إِذْ سَوَّرُوا الْمِحْرَابَ﴾ (٢١) إِذْ دَخَلُوا عَلَى دَاوُدَ فَفَزِعَ مِنْهُمْ قَالُوا لَا تَخَفْ خَصِمَانِ بَعْضُكَ عَلَى بَعْضٍ فَأَحْكُم بَيْنَنَا بِالْحَقِّ وَلَا تُشْطِطْ وَاهْدِنَا إِلَى سَوَاءِ الصِّرَاطِ﴾ (٢٢)

كان أهل زمان داود عليه السلام يسأل بعضهم بعضاً أن ينزل له عن امرأته فيتزوجها إذا أعجبته، وكانت لهم عادة في المواساة بذلك قد اعتادوها. وقد روينا أن الأنصار كانوا يواسون المهاجرين بمثل ذلك، فاتفق أن عين داود وقعت على امرأة رجل يقال له أوريا، فأحبها، فسأله النزول له عنها، فاستحيا أن يرده ففعل، فتزوجها وهي أم سليمان، فقليل له: إنك مع عظم منزلتك وارتفاع مرتبتك وكبر شأنك وكثرة نساءك لم يكن ينبغي لك أن تسأل رجلاً ليس له إلا امرأة واحدة النزول، بل كان الواجب عليك مغالبة هواك وقهر نفسك والصبر على ما امتحنت به. وقيل: خطبها أوريا ثم خطبها داود، فأثره أهلها، فكان ذنبه أن خطب على خطبة أخيه المؤمن/٢/٣٥ب، مع كثرة نسائه. وأما ما يذكر أن داود عليه السلام تمنى منزلة آبائه إبراهيم وإسحاق ويعقوب فقال: يا رب إن آبائي قد ذهبوا بالخير كله، فأوحى إليه: إنهم ابتلوا ببلايا فصبروا عليها؛ قد ابتلي إبراهيم بنمرود وذبح ولده، وإسحاق بذبحه وذهاب بصره، ويعقوب بالحزن على يوسف، فسأل الابتلاء فأوحى الله إليه: إنك لمبتلى في يوم كذا وكذا، فاحترس، فلما حان ذلك اليوم دخل محرابه وأغلق بابه وجعل يصلي ويقرأ الزبور، فجاء الشيطان في صورة حمامة من ذهب، فمدَّ يده ليأخذها لابن له صغير، فطارت، فامتدَّ إليها، فطارت فوقعت في كوة، فتبعها، فأبصر امرأة جميلة قد نقضت شعرها فغطى بدنَّها، وهي امرأة أوريا وهو من غزاة البلقاء^(١)، فكتب إلى أيوب بن سوريا وهو صاحب بعث البلقاء. أن ابعث أوريا وقدمه على التابوت، وكان من يتقدم على التابوت لا يحل له أن يرجع حتى يفتح الله على يده أو يستشهد، ففتح الله على يده وسلم، فأمر برده مرة أخرى، وثالثة، حتى قتل، فأتاه خبر قتله فلم يحزن كما كان يحزن على الشهداء، وتزوج امرأته (١٣١٩). فهذا ونحوه مما يقبح أن

١٣١٨ - تقدم في سورة الأعراف، وقال الحافظ: هو حديث أم معبد، وقد تقدم في سورة الأعراف، وفي الأدب لأبي داود من حديث عائشة «كان كلام رسول الله ﷺ فصلاً يفهمه من سمعه. انتهى.
١٣١٩ - أخرجه الطبري (١٠/٥٧٠)، حديث (٢٩٨٥٢) عن ابن عباس وذكره السيوطي في الدر (٥/٥٦٦) وعزه للطبري عن ابن عباس بمعناه.

(١) قوله: «من غزاة البلقاء» في الصحاح: مدينة بالشام. (ع).

يحدث به عن بعض المتسمين بالصلاح من أفناء المسلمين^(١) فضلاً عن بعض أعلام الأنبياء. وعن سعيد بن المسيب والحارث الأعور أنّ علي بن أبي طالب رضي الله عنه قال: من حدثكم بحديث داود على ما يرويه القصاص جلدته مائة وستين، وهو حدّ الفرية على الأنبياء (١٣٢٠). وروي أنه حدث بذلك عمر بن عبد العزيز وعنده رجل من أهل الحق، فكذب المحدث به، وقال: إن كانت القصة على ما في كتاب الله فما ينبغي أن يلتبس خلافها، وأعظم بأن يقال غير ذلك، وإن كانت على ما ذكرت وكف الله عنها سترأ على نبيه فما ينبغي إظهارها عليه، فقال عمر: لسماعي هذا الكلام أحب إليّ مما طلعت عليه الشمس. والذي يدلّ عليه المثل الذي ضربه الله لقصته عليه السلام ليس إلاّ طلبه إلى زوج المرأة أن ينزل له عنها فحسب. فإن قلت: لم جاءت على طريقة التمثيل والتعريض دون التصريح؟ قلت: لكونها أبلغ في التوبيخ، من قبل أن التأمل إذا أذاه إلى الشعور بالمعرض به، كان أوقع في نفسه، وأشدّ تمكناً من قلبه، وأعظم أثراً فيه، وأجلب لاحتشامه وحيائه، وأدعى إلى التنبه على الخطأ فيه من أن يبادره به صريحاً، مع مراعاة حسن الأدب بترك المجاهرة، ألا ترى إلى الحكماء كيف أوصوا في سياسة الولد إذا وجدت منه هنة منكرة بأن يعرض له بإنكارها عليه ولا يصرح، وأن تحكى له حكاية ملاحظة لحاله إذا تأملها استسجم حال صاحب الحكاية فاستسجم حال نفسه، وذلك أزر له؛ لأنه ينصب ذلك مثلاً لحاله ومقياساً لشأنه، فيتصور قبح ما وجد منه بصورة مكشوفة، مع أنه أصون لما بين الوالد والولد من حجاب الحشمة. فإن قلت: فلم كان ذلك على وجه التحاكم إليه؟ قلت: ليحكم بما حكم به من قوله: ﴿لَقَدْ ظَلَمَكَ لِسُوَالِ نَجْمِكَ إِلَى نَجْمِهِ﴾ [ص: ٢٤] حتى يكون محجوجاً بحكمه ومعتزلاً على نفسه بظلمه. ﴿وَهَلْ أَتَاكَ نَبْوًا الْخَصْمُ﴾ ظاهره الاستفهام، ومعناه الدلالة على أنه من الأنبياء العجيبة التي حقها أن تشيع ولا تخفى على أحد، والتشويق إلى استماعه، والخصم: الخصماء، وهو يقع على الواحد والجمع، كالضيف. قال الله تعالى: ﴿حَدِيثُ ضَيْفٍ إِبْرَاهِيمَ الْمُكْرَمِينَ﴾ [الذاريات: ٢٤]؛ لأنه مصدر في أصله، تقول: خصمه خصماً؛ كما تقول: ضافه ضيفاً. فإن قلت: هذا جمع. وقوله: «خصمان» تشية، فكيف استقام ذلك؟ قلت: معنى خصمان: فريقان خصمان، والدليل عليه قراءة من قرأ: خصمان بغى بعضهم على بعض، ونحوه قوله تعالى: ﴿هَذَانِ خَصْمَانِ أَخَصَمُوا فِي رَبِّهِمْ﴾ [الحج: ١٩]. فإن قلت: فما تصنع بقوله: ﴿إِنَّ هَذَا أَخِي﴾ [ص: ٢٣]

١٣٢٠ - ذكره الزيلعي (١٨٨/٣)، حديث (١١٠١)، وقال الحافظ لم أجده.

(١) قوله: «من أفناء المسلمين» في الصحاح: يقال: هو من أفناء الناس إذا لم يعلم ممن هو. وعبرة النسفي بدل قوله: فهذا ونحوه... إلخ: فلا يليق من المتسمين... إلخ. (ع).

وهو دليل على اثنين؟ قلت: هذا قول البعض، المراد بقوله: بعضنا على بعض. فإن قلت: فقد جاء في الرواية أنه بعث إليه ملكان. قلت: معناه أن التحاكم كان بين ملكين، ولا يمنع ذلك أن يصحبهما آخرون. فإن قلت: فإذا كان التحاكم بين اثنين كيف سماهم جميعاً خصماً في قوله: ﴿تَبَوَّأَ الْخَصْمُ﴾ و ﴿حَصَمَانِ﴾؟ قلت: لما كان صاحب كل واحد من المتحاكمين في صورة الخصم صحت التسمية به. فإن قلت: بم انتصب (إذ)؟ قلت: لا يخلو إما أن ينتصب بأتاك، أو بالنبأ، أو بمحذوف، فلا يسوغ انتصابه بأتاك؛ لأن إتيان النبأ رسول الله ﷺ لا يقع إلا في عهده لا في عهد داود، ولا بالنبأ؛ لأن النبأ الواقع في عهد داود لا يصح إتيانه رسول الله ﷺ. وإن أردت بالنبأ: القصة في نفسها لم يكن ناصباً، فبقي أن ينتصب بمحذوف، وتقديره: وهل أتاك نبأ تحاكم الخصم. ويجوز أن ينتصب بالخصم لما فيه من معنى الفعل، وأما إذ الثانية فبدل من الأولى. ﴿سَوَّرُوا لِيحْرَابَ﴾ تصعدوا سورة ونزلوا إليه، والسور: الحائط المرتفع ونظيره في الأبنية: تسنمه، إذ علا سنامه، وتذراه: إذا علا ذروته. روي: أن الله تعالى بعث إليه ملكين في صورة إنسانين، فطلباً أن يدخل عليه، فوجداه في يوم عبادته، فمنعهما الحرس فتسورا عليه المحراب، فلم يشعر إلا وهما بين يديه جالسان ﴿فَنَزَعَ مِنْهُمَا﴾ قال ابن عباس: إن داود عليه السلام جزأ زمانه أربعة أجزاء: يوماً للعبادة، ويوماً للقضاء، ويوماً للاشتغال بخواص أموره، ويوماً يجمع ١٣٦/٢ بني إسرائيل فيعظهم ويبكيهم؛ فجاءوه في غير يوم القضاء فزع منهم، ولأنهم نزلوا عليه من فوق، وفي يوم الاحتجاب، والحرس حوله لا يتركون من يدخل عليه ﴿حَصَمَانِ﴾ خبر مبتدأ محذوف، أي: نحن خصمان. ﴿وَلَا تُشِطُّ﴾ ولا تجر. وقرئ: «ولا تشطط»، أي: ولا تبعد عن الحق. وقرئ: ولا تشطط، ولا تشاطط، وكلها في معنى الشطط: وهو مجاوزة الحد وتخطي الحق. و ﴿سَوَّاءَ الْمِرَاطِ﴾ وسطه ومحجته، ضربه مثلاً لعين الحق ومحضه.

﴿إِنَّ هَذَا أَخِي لَمْ تَسْعَ وَتَسْعُونَ نَجْعَةً وَلِي نَجْعَةً وَاحِدَةً فَقَالَ أَكْفَلْنِيهَا وَعَزَّنِي فِي الْخِطَابِ (٢٣)﴾

﴿أخي﴾ بدل من هذا، أو خبر لـ «إن»، والمراد أخوة الدين، وأخوة الصداقة والألفة، أو أخوة الشركة والخلطة؛ لقوله تعالى: ﴿وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ الْخُلَطَاءِ﴾ [ص: ٢٤] كل واحدة من هذه الأخوات تدلي بحق مانع من الاعتداء والظلم. وقرئ: «تسع وتسعون»، بفتح التاء. ونجعة، بكسر النون، وهذا من اختلاف اللغات، نحو نطع ونطع، ولقوة ولقوة. (١)

(١) قوله: «نحو نطع ونطع، ولقوة ولقوة» في الصحاح: «النطع» فيه أربع لغات. وفيه «اللقة»: داء في الوجه، والناقة السريعة اللقاح، والعقاب: الأثني، واللقة - بالكسر -: مثله. (ع).

﴿أَكْفَلْنِيهَا﴾ ملكنيها. وحقيقته: اجعلني أكفلها كما أكفل ما تحت يدي. ﴿وَعَزَّنِي﴾ وغلبنني، يقال: عزّه يعزّه. قال [من الوافر]:

قَطَاةٌ عَزَّهَا شَرْكَ فَبَاتَتْ تَجَاذِبُهُ وَقَدْ عَلِقَ الْجَنَاحُ^(١)

يريد: جاءني بحجاج لم أقدر أن أورد عليه ما أردّه به. وأراد بالخطاب: مخاطبة المحاج المجادل، أو أراد: خطبت المرأة وخطبها هو فخطبني خطاباً، أي: غالبنني في الخطبة فغلبنني؛ حيث زوّجها دوني. وقرئ: «وعازني» من المعازة وهي المغالبة. وقرأ أبو حيوة: «وعزني» بتخفيف الزاي طلباً للخفة، وهو تخفيف غريب، وكأنه قاسه على نحو: ظلت، ومست. فإن قلت: ما معنى ذكر النعاج؟ قلت: كأن تحاكمهم في نفسه تمثيلاً وكلامهم تمثيلاً؛ لأنّ التمثيل أبلغ في التوبيخ؛ لما ذكرنا، وللتنبية على أنه أمر يستحيا من كشفه، فيكنى عنه كما يكنى عما يستسج الإفصاح به، وللستر على داود عليه السلام والاحتفاظ بحرمته، ووجه التمثيل فيه أن مثلت قصة أوريا مع داود بقصة رجل له نعمة واحدة ولخليطه تسع وتسعون، فأراد صاحبه تمتة المائة فطمع في نعمة خليطه وأراده على الخروج من ملكها إليه، وحاجه في ذلك محاجة حريص على بلوغ مراده، والدليل عليه قوله: ﴿وَإِنَّ كَيْدًا مِنَ الْخُلَطَاءِ﴾ [ص: ٢٤] وإنما خصّ هذه القصة لما فيها من الرمز إلى الغرض بذكر النعجة. فإن قلت: إنما تستقيم طريقة التمثيل إذا فسرت الخطاب بالجدال، فإن فسرت بالمفاعلة من الخطبة لم يستقم. قلت: الوجه مع هذا التفسير أن أجعل النعجة استعارة عن المرأة، كما استعاروا لها الشاة في نحو قوله [من الكامل]:

يَا شَاةُ مَا قَنَصَ لِمَنْ حَلَّتْ لَهُ

(١) كأن القلب ليلة قيل يفدى
قطاة عزها شرك فباتت
بليلى العامرية أو يراح
تجاذبه وقد علق الجناح

لقيس بن الملوح مجنون ليلي العامرية، وقطاة: خبر كان، وعزها: بمهملة فمعجمة، بمعنى: غلبها وحبسها، يقال: عز يعز بالكسر: تعظم، وبالفصح: قوي. وعزه يعزه - بالضم -: غلبه، وما هنا من الثالث: شبه قلبه حين سمع برحيلها بحمامة أمسك الشرك جناحها في كثرة الخفقان والاضطراب.

(٢) يا شاة ما قنص لمن حلت له حرمت علي وليتها لم تحرم

لعترة من معلقته يتذكر محبوبته بعد وقوع الحرب بينه وبين قبيلتها؛ فلذلك حرمت عليه. وقيل: كان تزوجها أبوه فحرمت عليه، شبهها بالشاة الوحشية في الحسن والجمال والنفرة عن الرجال، وأن كلا يصطاد بالاحتيال على طريق الاستعارة التصريحية، وذكر القنص ترشيح؛ لأنه يلائم الشاة، وما زائدة، أي يا شاة القنص تعالي، فهذا وقت التفكير في شأنك. وقيل: المنادى محذوف، أي: يا قوم أحضروا شاة قنص، وتعجبوا من حالها، والقنص: الصيد. والقنص - بالتحريك - والقنص: المصيد. ويروى: يا شاة من قنص، فقيل: من زائدة، بناء على مذهب الكوفيين، من جواز زيادة =

[من الكامل]:

فَرَمَيْتُ غَفْلَةً عَيْنِهِ عَنْ شَاتِهِ^(١)
وشبهها بالنعجة من قال [من الخفيف]:
كَنِعَاجُ الْفَلَا تَعَسَّفَنَّ رَمْلًا^(٢)

= الأسماء. وقيل: نكرة موصوفة. وقنص صفتها من باب الوصف بالمصدر، أي يا شاة إنسان قانص. ولمن حلت: متعلق بمحذوف صفة لها، وحرمت علي: التفات على القول بنداها، وهو صفة لها، أو استئناف يبين شأنها، وتمنى عدم حرمتها: ندم على ما وقع من سبب الحرمة. ينظر ديوانه ص ٢١٣، والأزهية ص ٧٩، ١٠٣، ولسان العرب (شوه)، وخزانة الأدب ٦/١٣٠، ١٣٢، وشرح شواهد المغني ١/٤٨١، وشرح المفصل لابن يعيش ٤/١٢، والأشباه والنظائر ٤/٣٠٠، وخزانة الأدب ١/٣٢٩، والمغني ١/٣٢٩، وشرح جمل الزجاجة لابن عصفور ٢/٤٥٨، والضرائر لابن عصفور ٨١، وارثشاف الضرب ١/٥٤٦، والدرر ١/١١٠.

(١) قد كنت رائدها وشاة محاذر حذر يقل بعينه إغفالها
فظللت أرهاها وظل يحوطها حتى دنوت إذا الظلام دنا لها
فرميت غفلة عينه عن شاته فأصبت حبة قلبها وطحالها

للأعشى. وقيل: لعمر بن أبي ربيعة. وضمير رائدها مرجعه في البيت قبله كامرأة أو مفازة، ثم قال: ورب شاة رجل محاذر، فاستعار الشاة للمرأة الجميلة على طريق التصريحية. والمحاذر: الذي يحاذر غيره ويخاف مكره. والحذر: كثير الحذر مستمره، يقل: بضم أوله، من أقل الرباعي. وإغفالها، أي: إغفال عينه. فظللت أراقب الشاة وظل هو يحفظها، حتى قربت لها حين قرب الظلام ودخل الليل، فرميت شاته حين غفلة عينه عن شاته التي كان يحفظها، وفيه نوع تهكم به، وأضاف الغفلة إلى العين دون الشخص؛ لأنها المذكورة أولاً، وللدلالة على قصر الزمن وسرعة الظفر، ولأن القلب لا يغفل عنها لعزتها عنده، بل يذكرها في النوم. وأما العين فتغفل، فأصبت حبة قلبها أي وسطه، وأصبت طحالها، والرمي ترشيح للاستعارة؛ لأنه من ملائعات الشاة. ويصح أن يكون هذا البيت استعارة تمثيلية؛ حيث شبه حالة ظفره بمراده على حين غفلة من الرقيب وإصابة أحشاء المرأة بالحب، بحال من ظفر برمي الشاة بالسهم على غفلة من الراعي، بل يصح أن يكون قوله: وشاة محاذر... إلى آخر الأبيات: استعارة تمثيلية لتلك الحال، ولا استعارة في الشاة وحدها على هذا. ينظر ديوانه (ص ٧٧)، لسان العرب (حب)، (شوه)، كتاب العين ٣/٣١، بلا نسبة في تهذيب اللغة (٨/٤)، تاج العروس (حب)، أساس البلاغة (حب).

(٢) قلت إذ أقبلت وزهر تهادي كنعاج الفلا تعسفن رملا
وتنقبن بالحرير وأبدين حور المدايح نجلا

لعمر بن أبي ربيعة. وزهر: عطف على ضمير الفاعل المتصل، ومجيئه بلا فصل قليل. وتهادي: أصله تهادي، حذف منه إحدى التاءين، وهو صفة زهر. وشبههن بالنعاج الوحشية في حسن المشية وسعة العيون وسوادها. والزهر: جمع زهراء، أي: بيضاء، والفلا: القفر الخالي. والتعسف: الميل عن سواء السبيل، وهو حال من النعاج. ورملا: نصب على نزع الخافض، أي: تمايلن في رمل. وتنقبت المرأة: لبست النقاب. وحور: جمع حوراء، أي: صافيات، والمدايح: الحدقات، من الدعج وهو اتساع سواد العين. والنجل: جمع نجلاء، أي: واسعات.

لولا أن الخلطاء تأباه، إلا أن يضرب داود الخلطاء ابتداء مثلاً لهم ولقصتهم^(١). فإن قلت: الملائكة عليهم السلام كيف صحّ منهم أن يخبروا عن أنفسهم بما لم يتلبسوا منه بقليل ولا كثير ولا هو من شأنهم؟ قلت: هو تصوير للمسألة وفرض لها، فصوروها في أنفسهم وكانوا في صورة الأناسي، كما تقول في تصوير المسائل: زيد له أربعون شاة، وعمره له أربعون، وأنت تشير إليهما، فخطاها وحال عليها الحول، كم يجب فيها؟ وما لزيد وعمره سبد ولا لبد^(٢) وتقول أيضاً في تصويرها: لي أربعون شاة ولك أربعون فخطناها. وما لكما من الأربعين أربعة ولا ربعها. فإن قلت: ما وجه قراءة ابن مسعود: «ولي نعجة أنثى^(٣)»؟ قلت: يقال لك: امرأة أنثى للحسناء الجميلة. والمعنى: وصفها بالعراقة في لين الأنوثة وفورها، وذلك أملح لها وأزيد في تكسرها وتنبيها. ألا ترى إلى وصفهم لها بالكسول والمكسال؛ وقوله [من المتقارب]:

= في ملحق ديوانه ص ٤٩٨، وشرح أبيات سيبويه ١٠١/٢، وشرح عمدة الحفاظ ص ٦٥٨، وشرح المفصل لابن يعش ٧٦/٣، واللمع ص ١٨٤، والمقاصد النحويّة ١٦١/٤، وبلا نسبة في الإنصاف ٧٩/٢، والخصائص ٣٨٦/٢، وشرح الأشموني ٤٢٩/٢، وشرح ابن عقيل ص ٥٠١، والكتاب ٣٧٩/٢.

(١) قال محمود: «فإن قلت: طريقة التمثيل إنما تستعمل على جعل الخطاب من الخطابة، فإن كان من الخطبة فما وجهه؟ قال: الوجه حينئذ أن تجعل النعجة استعارة للمرأة، كما استعاروا لها الشاة في قوله [من الكامل]:

يا شاة ما قنص لمن حلت له

إلا أن لفظ الخلطاء يأباه، اللهم إلا أن يكون ابتداء مثل من داود عليه السلام، قال أحمد: والفرق بين التمثيل والاستعارة؛ أنه على التمثيل يكون الذي سبق إلى فهم داود عليه السلام أن التحاكم على ظاهره، وهو التخاصم في النعاج التي هي البهائم، ثم انتقل بواسطة التنبيه إلى فهم أنه تمثيل لحاله، وعلى الاستعارة يكون فهم عنهما التحاكم في النساء المعبر عنهن بالنعاج كناية، ثم استشعر أنه هو المراد بذلك.

(٢) قوله: «وما لزيد وعمره سبد ولا لبد» في الصحاح: ما له سبد ولا لبد، أي: لا قليل ولا كثير. والسبد: من الشعر، واللبد: من الصوف. (ع).

(٣) قال محمود: «فإن قلت: فما وجه قراءة ابن مسعود: ولي نعجة أنثى. وأجاب بأنه يقال: امرأة أنثى للحسناء الجميلة، ومعناه: وصفها بالعراقة في لين الأنوثة وفورها، وذلك أملح لها وأزيد في تكسرها وتنبيها. ألا ترى إلى وصفهم إياها بالكسول والمكسال، كقوله: «فتور القيام قطع الكلام». قال أحمد: ولكن قوله: (ولي نعجة) إنما أورده على سبيل التقليل لما عنده والتحقير؛ ليستجل على خصمه بالبغى لطلبه هذا القليل الحقير وعنده الجم الغفير، فكيف يليق وصف ما عنده والمراد تقليله بصفة الحسن التي توجب إقامة عذر ما لخصمه؛ ولذلك جاءت القراءة المشهورة على الاختصار على ذكر النعجة، وتأكيد قلتها بقوله: (واحدة)، فهذا إشكال على قراءة ابن مسعود، يمكن الجواب عنه بأن القصة الواقعة لما كانت امرأة أوربا الممثلة بالنعجة فيها مشهورة بالحسن، وصف مثالها في قصة الخصمين بالحسن زيادة في التطبيق؛ لتأكيد التنبيه على أنه هو المراد بالتمثيل.

فَتُورُ الْقِيَامِ قَطُوعُ الْكَلَامِ (١)

وقوله [من المنسرح]:

..... تَمْشِي رُوَيْدًا تَكَادُ تَنْعَرُفُ (٢)

﴿قَالَ لَقَدْ ظَلَمَكَ بِسُؤَالِ نَجْمِكَ إِلَى نَجْمِهِ وَإِنْ كَثِيرًا مِّنَ الْخُلَطَاءِ لَيَبْغِي بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ إِلَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَقِيلَ مَا هُمْ وَظَنَّ دَاوُدُ أَنَّمَا فَتَنَّاهُ فَاسْتَغْفَرَ رَبَّهُ وَخَرَّ رَاكِعًا وَأَنَابَ ﴿٢٤﴾ فَغَفَرْنَا لَهُ ذَلِكَ وَإِنَّ لَّهُ عِندَنَا لَزُلْفَىٰ وَحُسْنَ مَّآبٍ ﴿٢٥﴾﴾

﴿لَقَدْ ظَلَمَكَ﴾ جواب قسم محذوف. وفي ذلك استنكار لفعل خليطه وتهجين لطمعه. والسؤال: مصدر مضاف إلى المفعول، كقوله تعالى: ﴿مِن دُعَاؤِ الْخَيْرِ﴾ [فصلت: ٤٩]، وقد ضمن معنى الإضافة فعذى تعديتها، كأنه قيل بإضافة ﴿نَجْمِكَ إِلَى نَجْمِهِ﴾ على وجه السؤال والطلب. فإن قلت: كيف سارع إلى تصديق أحد الخصمين حتى ظلم الآخر قبل استماع كلامه (٣)؟ قلت: ما قال ذلك إلا بعد اعتراف صاحبه، ولكنه لم يحك في القرآن؛ لأنه

(١) فتور القيام قطع الكلام لعوب العشاء إذا لم تنم تبذ النساء بحسن الحديث ودل رخيم وخلق عجم
الفترة: ضعف حركة الأعضاء في العمل. فهي كثيرة الفترة في القيام. وقطوع الكلام: أي قليلته، أو كأنها لا تقدر على إتمام الألفاظ للينها واستحيائها، فكانها تقطعها تقطيعاً، كثيرة اللعب في وقت العشاء مع زوجها، وإذا لم تنم: إشارة إلى أنها قد تنام من أول الليل، وهو وصف لها بالكسل الذي هو من توابع اللين والأنوثة. وبذ الرجل: إذا ساء خلقه ورث حاله، وبذ الرجل: إذا غلبه، أي تغلبهن بحسن الحديث، والدل والدلال، والتيه، والتغنيج، والتشكيل، والتكسر، والرخاوة، والرخامة، ورقة الصوت ولينه، والتمنع مع الرضاء. واعتم النبت: طال، واعتم الشيء: تم، وجسم عميم: تام، والجمع عمم، كسرير وسرر، ورجل عمم - بالافراد -: أي تام، فالمراد أن خلقها أي جسمها تام حسن.

البيت لامرئ القيس، ينظر ديوانه (ص ١٥٧)، الأشباه والنظائر (٥/ ٢٣١).

(٢) ما أنس سلمى غداة تنصرف تمشي رويداً تكاد تنعرف
حذف ألف أنس للوزن، أي: لا أنساها، بل أتذكرها وقت انصرافها، وتمشي: بدل مما قبله. وعبر بالمضارع لاستحضار الصورة المستحسنة. ورويداً: نصب يتمشى، أي: مشياً بتؤدة وأناة، تكاد تنعرف: أي تقطع وتنكسر، وغرفته فانهرف: قطعت فانهرف، أو تكاد تؤخذ من الأرض، كما يغرف الماء باليد، فكانها ماء لتنكلها وتقطعها في تبخترها. وفرس غروف: كثير الأخذ من الأرض بقوائمه.

البيت لقيس بن الخطيم، ينظر: في ديوانه ص ١٠٦، ولسان العرب (كبر)، (غرف)، وديوان الأدب ١٨٣/١، وتهذيب اللغة ٢٠٤/٧، ١٠٣/٨، ٢٠٩/١٠، وتاج العروس (كبر)، (غرف)، وبلا نسبة في جمهرة اللغة ص ٧٧٩، وأساس البلاغة (خزر).

(٣) قال محمود: «فإن قلت: كيف سارع بتصديق أحد الخصمين قبل سماع كلام آخر، وأجاب بأن =

معلوم. ويروى أنه قال: أنا أريد أن آخذها منه وأكمل نعاجي مائة، فقال داود: إن رمت ذلك ضربنا منك هذا وهذا، وأشار إلى طرف الأنف ١٣٦/٢ ب والجبهة، فقال: يا داود أنت أحق أن يضرب منك هذا وهذا، وأنت فعلت كيت وكيت، ثم نظر داود فلم ير أحداً، فعرف ما وقع فيه و﴿الْخُلَطَاءُ﴾ الشركاء الذين خلطوا أموالهم، الواحد: خليط، وهي الخلطة، وقد غلبت في الماشية؛ والشافعي رحمه الله يعتبرها، فإذا كان الرجلان خليطين في ماشية بينهما غير مقسومة، أو لكل واحد منهما ماشية على حدة إلا أنّ مراحهما ومسقاها وموضع حلبهما والراعي والكلب واحد والفحولة مختلطة، فهما يزكيان زكاة الواحد، فإن كان لهما أربعون شاة فعليهما شاة وإن كانوا ثلاثة ولهم مائة وعشرون لكل واحد أربعون، فعليهم واحدة كما لو كانت لواحد. وعند أبي حنيفة: لا تعتبر الخلطة، والخليط والمنفرد عنده واحد، ففي أربعين بين خليطين؛ لا شيء عنده، وفي مائة وعشرين بين ثلاثة: ثلاث شياه. فإن قلت: فهذه الخلطة ما تقول فيها؟ قلت: عليهما شاة واحدة، فيجب على ذي النعجة أداء جزء من مائة جزء من الشاة عند الشافعي رحمه الله، وعند أبي حنيفة لا شيء عليه، فإن قلت: ماذا أراد بذكر حال الخلطاء في ذلك المقام؟ قلت: قصد به الموعظة الحسنة والترغيب في إثارة عادة الخلطاء الصالحاء الذين حكم لهم بالقلة، وأن يكره إليهم الظلم والاعتداء الذي عليه أكثرهم، مع التأسف على حالهم، وأن يسلى المظلوم عما جرى عليه من خليطه، وأنّ له في أكثر الخلطاء أسوة. وقرئ: «ليبغي» بفتح الياء على تقدير النون الخفيفة، وحذفها كقوله [من المنسرح]:

إِضْرِبْ عَنْكَ الْهُمُومَ طَارِقَهَا (١)

وهو جواب قسم محذوف. وليبغ: بحذف الياء، اكتفاء منها بالكسرة، و (ما) في

= ذلك كان بعد اعتراف خصمه، ولكنه لم يحك في القرآن؛ لأنه معلوم، قال أحمد: ويحتمل أن يكون ذلك من داود على سبيل الفرض والتقدير، أي: إن صح ذلك فقد ظلمك.

(١) إضرب عنك الهموم طارقها ضربك بالسوط قونس الفرس

لطفرة بن العبد، وقال أبو حاتم وابن بري: هو مصنوع عليه. واضرب فعل أمر بني على الفتح لاتصاله بنون التوكيد الخفيفة تقديراً، وحذفها لغير وقف ولالتقاء الساكنين قليل. وقيل: ضرورة، كما هنا. والمعنى: ادفع عنك الهموم، فهو استعارة مصرحة. وضربك بالسوط، أي: كضربك به ترشيح، وطارقها: بدل من الهموم، أي الفاشي لك منها، والسوط: معمول من جلد تساق به الفرس. ويروى: بالسيف، لكنه غير ملائم للفرس، بل للفارس، وقونسها: أعلى رأسها. وقيل: شعر عنقها. ويجوز تشبيه الهموم بحيوان يصح ضربه على طريق المكنية. والضرب تخييل، والطروق ترشيح.

ينظر: النوادر (١٦٥)، الخصائص (١٢٦/١)، الممتع (٣٢٣/١) شرح المفصل لابن يعيش (٩/٤٤)، الدر المصون (٩١/٦).

﴿وَقَلِيلٌ مَّا هُمْ﴾ للإيهام. وفيه تعجب من قلتهم. وإن أردت أن تتحقق فائدتها وموقعها فاطرحها، من قول امرئ القيس [من المديد]:

..... وَحَدِيثٌ مَا عَلَى قِصْرَةٍ^(١)

وانظر هل بقي له معنى قط، لما كان الظنّ الغالب يداني العلم، استعير له. ومعناه: وعلم داود وأيقن ﴿أَنَّمَا فَتَنَّتْ﴾ أنا ابتليناه لا محالة بامرأة أوريا، هل يثبت أو يزل؟ وقرئ: «فتناه» بالتشديد للمبالغة. وأفتناه، من قوله [من الطويل]:

لَئِنْ فَتَنَّتْنِي لَهَيَ بِالْأَمْسِ أَفْتَنْتُ^(٢)

وفتناه وفتناه، على أن الألف ضمير الملكين. وعبر بالرايع عن الساجد؛ لأنه ينحني ويخضع كالساجد. وبه استشهد أبو حنيفة وأصحابه في سجدة التلاوة على أنّ الركوع يقوم مقام السجود. وعن الحسن: لأنه لا يكون ساجداً حتى يركع، ويجوز أن يكون قد استغفر الله لذنبه وأحرم بركعتي الاستغفار والإنابة، فيكون المعنى: وخزّ للسجود رакعاً أي: مصلياً؛ لأنّ الركوع يجعل عبارة عن الصلاة، ﴿وَأَنَابَ﴾ ورجع إلى الله تعالى بالتوبة والتنصل. وروي أنه بقي ساجداً أربعين يوماً وليلة لا يرفع رأسه إلاّ لصلاة مكتوبة أو ما لا بدّ منه، ولا يرقأ دمه حتى نبت العشب من دمعه إلى رأسه، ولم يشرب ماء إلاّ وثلثاه دمع (١٣٢١)، وجهد نفسه راغباً إلى الله تعالى في العفو عنه حتى كاد يهلك، واشتغل

١٣٢١ - أخرجه الطبري (١٠/٥٧٤)، حديث (٢٩٨٥٨)، وذكره السيوطي في الدر (٥/٥٧٠) وعزاه لعبد الله بن أحمد والطبري عن مجاهد.

(١) تقدم.

(٢) لئن فتنتني لهي بالأمس أفنتت سعيداً فأمسى قد قلى كل مسلم

وألقي مصابيح القراءة واشترى وصال الغواني بالكتاب المنمنم

للأعشى الهمداني. وفتنته المرأة - بالتخفيف والتشديد - وأفتنته: دلته وحيرته. و«لهي بالأمس أفنتت» جواب القسم المدلول عليه باللام في قوله: لئن فتنتني. وجواب الشرط محذوف دل عليه جواب القسم. والمعنى: إن فتنتني فلا أحزن ولا أتعجب، فإن تلك عادتها من قبل، فالمراد بالأمس: الزمن الماضي. وسعيد: هو ابن جبير، كان عالماً تقيّاً. وقلى كل مسلم، أي: بغض كل مسلم سواها. وعبر بالمسلم؛ لأنه يبعد بغضه. والمصابيح: يجوز أنها حقيقة، وأنها مجاز عن الكتب. والغواني: الجميلات. والمنمنم: المحسن بنقوش الكتابة.

ينظر: لسان العرب (فتن)، والمخصص ٦٢/٤، وتاج العروس (فتن)، ولابن قيس الرقيات في الخصائص ٣/٣١٥، وليس في ديوانه، وبلا نسبة في لسان العرب (فتن)، وتهذيب اللغة ١٤/٢٨٩، وجمهرة اللغة ص ٤٠٦، ومقاييس اللغة ٤/٤٧٣، وديوان الأدب ٢/٣٣٤، وكتاب العين ٨/١٢٨.

بذلك عن الملك حتى وثب ابن له يقال له: إيشا على ملكه ودعا إلى نفسه، واجتمع إليه أهل الزبيغ من بني إسرائيل، فلما غفر له حاربه فهزمه. وروي أنه نقش خطيئته في كفه حتى لا ينساها (١٣٢٢). وقيل: إنَّ الخصمين كانا من الإنس، وكانت الخصومة على الحقيقة بينهما: إما كانا خليطين في الغنم، وإما كان أحدهما موسراً وله نسوان كثيرة من المهائر والسراري، والثاني معسراً ما له إلا امرأة واحدة، فاستنزله عنها، وإنما فزع لدخولهما عليه في غير وقت الحكومة أن يكونا مغتالين، وما كان ذنب داود إلا أنه صدق أحدهما على الآخر وظلمه قبل مسأله^(١).

﴿بَدَاوُدُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الْأَرْضِ فَاحْكُم بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ الْهَوَى فَيُضِلَّكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ إِنَّ الَّذِينَ يَصِلُونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ بِمَا نَسُوا يَوْمَ الْحِسَابِ﴾ ﴿٦٦﴾

﴿خَلِيفَةً فِي الْأَرْضِ﴾ أي: استخلفناك على الملك في الأرض، كمن يستخلفه بعض السلاطين على بعض البلاد ويملكه عليها. ومنه قولهم: خلفاء الله في أرضه. وجعلناك خليفة ممن كان قبلك من الأنبياء القائمين بالحق. وفيه دليل على أنَّ حاله بعد التوبة بقيت على ما كانت عليه لم تتغير. ﴿فَاحْكُم بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ﴾ أي بحكم الله تعالى؛ إذ كنت خليفة ﴿وَلَا تَتَّبِعِ﴾ هوى النفس في قضائك وغيره، مما تتصرف فيه من أسباب الدين والدنيا ﴿فَيُضِلَّكَ﴾ الهوى فيكون سبباً لضلالك ﴿عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ﴾ عن دلائله التي نصبها في العقول،

١٣٢٢ - أخرجه ابن جرير (٥٧٢/١٠)، حديث (٢٩٨٥٤)، عن عطاء الخرساني، وذكره السيوطي في الدر (٥٧٠/٥) وعزاه لأحمد والحكيم الترمذي والطبري عن عطاء الخرساني.

(١) قال محمود: «ونقل بعضهم أن هذه القصة لم تكن من الملائكة وليست تمثيلاً وإنما كانت من البشر، إما خليطين في الغنم حقيقة، وإما كان أحدهما موسراً وله نسوان كثيرة من المهائر والسراري، والثاني معسراً وما له إلا امرأة واحدة، فاستنزله عنها، وفزع داود وخوفه أن يكونا مغتالين لأنهما دخلا عليه في غير وقت القضاء، وما كان ذنب داود إلا أنه صدق أحدهما على الآخر ونسبه إلى الظلم قبل مسأله، قال أحمد: مقصود هذا القائل تنزيه داود عن ذنب يبعثه عليه شهوة النساء، فأخذ الآية على ظاهرها وصرف الذنب إلى العجلة في نسبة الظلم إلى المدعى عليه؛ لأن الباعث على ذلك في الغالب إنما هو التهاب الغضب، وكراهيته أخف مما يكون الباعث عليه الشهوة والهوى، ولعل هذا القائل يؤكد رأيه في الآية بقوله تعالى عقبها وصية لداود عليه السلام: (يا داود إنا جعلناك خليفة في الأرض فاحكم بين الناس بالحق ولا تتبع الهوى) فما جرت العناية بتوصيته فيما يتعلق بالأحكام إلا والذي صدر منه أولاً وبأن منه من قبيل ما وقع له في الحكم بين الناس، وقد التزم المحققون من أئمتنا أن الأنبياء عليهم الصلاة والسلام: داود وغيره - منزهون من الوقوع في صفات الذنوب مُتَبَرِّءُونَ من ذلك، والتمسوا المحامل الصحيحة لأمثال هذه القصة، وهذا هو الحق الأبلج، والسييل الأبهج، إن شاء الله تعالى.

وعن شرائعه التي شرعها وأوحى بها، و ﴿يَوْمَ الْحِسَابِ﴾ متعلق بنسوا، أي: بنسيانهم يوم الحساب، أو بقوله: (لهم)، أي: لهم عذاب يوم القيامة بسبب نسيانهم وهو ضلالهم عن سبيل الله. وعن بعض خلفاء بني مروان أنه قال لعمر بن عبد العزيز أو للزهري: هل سمعت ما بلغنا؟ قال: وما هو؟ قال: بلغنا أن الخليفة لا يجري عليه القلم ولا تكتب عليه معصية. فقال: يا أمير المؤمنين، الخلفاء أفضل أم الأنبياء؟ ثم تلا هذه الآية.

﴿وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَطْلًا ذَلِكَ ظَنُّ الَّذِينَ كَفَرُوا فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مِنَ النَّارِ﴾ (٧٧)

﴿بَطْلًا﴾ أي خلقاً باطلاً، لا لغرض صحيح وحكمة بالغة. أو مبطلين عابثين، كقوله تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْنَا السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَعِبٍ﴾ (٧٨) مَا خَلَقْنَاهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ ﴿١٣٧/٢﴾ [الدخان: ٣٩] وتقديره: ذوي باطل أو عبثاً، فوضع باطلاً موضعه، كما وضعوا هيناً موضع المصدر، وهو صفة، أي: ما خلقناهما وما بينهما للعبث واللعب، ولكن للحق المبين، وهو أن خلقناها نفوساً^(١) أودعناها العقل والتمييز، ومنحناها التمكين، وأزحنا عللها ثم عرضناها للمنافع العظيمة بالتكليف، وأعدنا لها عاقبة وجزاء على حسب أعمالهم. و ﴿ذَلِكَ﴾ إشارة إلى خلقها باطلاً، والظن: بمعنى المظنون، أي: خلقها للعبث لا للحكمة هو مظنون الذين كفروا. فإن قلت: إذا كانوا مقرين بأن الله خالق السموات والأرض وما بينهما بدليل قوله: ﴿وَلَكِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ﴾ [القمان: ٢٥] فبم جعلوا ظانين أنه خلقها للعبث لا للحكمة؟ قلت: لما كان إنكارهم للبعث والحساب والثواب والعقاب مؤدياً إلى أن خلقها عبث وباطل فجعلوا كأنهم يظنون ذلك ويقولونه؛ لأنَّ الجزاء هو الذي سبقت إليه الحكمة في خلق العالم من رأسها، فمن جحد فقد جحد الحكمة من أصلها، ومن جحد الحكمة في خلق العالم فقد سفه الخالق، وظهر بذلك أنه لا يعرفه ولا يقدره حق قدره، فكان إقراره بكونه خالقاً كلا إقرار.

﴿أَمْ يَجْعَلُ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَالْمُفْسِدِينَ فِي الْأَرْضِ أَمْ يَجْعَلُ الْمُتَّقِينَ

كَالْفُجَّارِ﴾ (٧٨)

﴿أَمْ﴾ منقطعة. ومعنى الاستفهام فيها الإنكار، والمراد: أنه لو بطل الجزاء كما يقول الكافرون لاستوت عند الله أحوال من أصلح وأفسد، واتقى وفجر، ومن سوى بينهم كان سفيهاً ولم يكن حكيماً.

﴿كَتَبَ أَرْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبْرَكٌ لِّيَذَّبُوا ءَايَاتِهِ وَلِيَتَذَكَّرَ أُولُو الْأَلْبَابِ﴾ (٧٩)

(١) قوله: «وهو أن خلقناها نفوساً» عبارة النسخة: وهو أنا خلقنا نفوساً.

وقرئ: «مباركاً»، وليتدبروا: على الأصل، ولتدبروا: على الخطاب. وتدبر الآيات: التفكير فيها، والتأمل الذي يؤدي إلى معرفة ما يدبر ظاهرها من التأويلات الصحيحة والمعاني الحسنة؛ لأن من اقتنع بظاهر المتلو، لم يحل منه بكثير طائل^(١)، وكان مثله كمثل من له لقحة درور لا يحلبها، ومهرة ثور لا يستولدها. وعن الحسن: قد قرأ هذا القرآن عبيد وصبيان لا علم لهم بتأويله: حفظوا حروفه وضيعوا حدوده، حتى إن أحدهم ليقول: والله لقد قرأت القرآن فما أسقطت منه حرفاً، وقد والله أسقطه كله، ما يرى للقرآن عليه أثر في خلق ولا عمل، والله ما هو بحفظ حروفه وإضاعة حدوده، والله ما هؤلاء بالحكماء ولا الوزعة^(٢)، لا كثر الله في الناس مثل هؤلاء. اللهم اجعلنا من العلماء المتدبرين، وأعدنا من القراء المتكبرين.

﴿وَوَهَبْنَا لِذَاوُدَ سُلَيْمَنَ نَّعِمَ الْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ﴾ (٣٥) إِذْ عَرَضَ عَلَيْهِ بِالْعَشِيِّ الصَّفَوْنَ ثَلَاثَ لَيْلٍ ﴿فَقَالَ إِنِّي أَحْبَبْتُ حُبَّ الْخَيْرِ عَنْ ذِكْرِ رَبِّي حَتَّى تَوَارَتْ بِالْحِجَابِ﴾ (٣٦) رُدُّوْهَا عَلَيَّ فَطَفِقَ مَسْحًا بِالسُّوفِ وَالْأَغْصَانِ ﴿﴾ (٣٧)

وقرئ: «نعم العبد» على الأصل^(٣)، والمخصوص بالمدح محذوف. وعلل كونه ممدوحاً بكونه أواباً رجاعاً إليه بالتوبة. أو مسبحاً مؤوباً للتسبيح مرجعاً له: لأن كل مؤوب أواب. والشافن: الذي في قوله [من الكامل]:

أَلِفَ الصَّفَوْنَ فَمَا يَزَالُ كَأَنَّهُ مِمَّا يَقُومُ عَلَى الثَّلَاثِ كَسِيرًا^(٤)

(١) قوله: «لم يحل منه بكثير طائل» في الصحاح: قولهم: «لم يحل منه بطائل» أي: لم يستفد منه كبير فائدة. وفيه: اللقح - بالكسر -: الإبل بأعيانها، الواحدة لقوح، وهي الحلوب، مثل: قلوب. وقلاص: واللقحة: اللقوح، والجمع لقح مثل قربة قرب، وفيه: ناقة درور، أي: كثيرة اللبن. وفيه: الثور، أي: كثيرة الولد.

(٢) قوله: «ولا الوزعة»، جمع وازع، وهو الذي يكف عن الضرر، والذي يتقدم الصف فيصلحه بالتقديم والتأخير. أفاده الصحاح. (ع).

(٣) قوله: «قرئ نعم العبد على الأصل» لعله بفتح النون وكسر العين. كما يفيد الصحاح. (ع).

(٤) لامرئ القيس. وقيل: للعجاج يصف فرساً. والصفون - بالمهمله -: الوقوف على سنك يد أو رجل. والسنبك: طرف حافر الفرس. والصفون - بالمعجمة -: الجمع بين اليدين في الوقوف، ومما يقوم: خير كان، أي: أحب الصفون، كأنه من الجنس الذي يقوم على ثلاث قوائم، أو كأنه مخلوق من القيام على ثلاثة كخلق الإنسان من عجل، حال كونه مكسور القائمة الرابعة، أو كاسرها أي ثانیها، فما موصولة أو مصدرية. وكسيراً: حال، والجملة: خبر يزال، وهذا ما استقر عليه رأي ابن الحاجب في الأمالي بعد كلام طويل، ولو جعلت ما مصدرية، وكسيراً: خبر كان، كان حقه الرفع، ولو جعلته خبر يزال كما اختاره ابن هشام، لكان المعنى: فلا يزال كسيراً، كأنه مما يقوم =

وقيل: الذي يقوم على طرف سنبك يد أو رجل: هو المتخيم. وأما الصافن: فالذي يجمع بين يديه. وعن النبي ﷺ: «من سره أن يقوم الناس له صفوفاً فليتبوأ مقعده من النار» (١٣٢٣) أي: واقفين كما خدم الجبابرة. فإن قلت: ما معنى وصفها بالصفون؟ قلت: الصفون لا يكاد يكون في الهجن، وإنما هو في العراب الخالص. وقيل: وصفها بالصفون والجودة؛ ليجمع لها بين الوصفين المحمودين: واقفة وجارية، يعني: إذا وقفت كانت ساكنة مطمئنة في مواقفها، وإذا جرت كانت سراعاً خفافاً في جريها. وروي أن سليمان عليه السلام غزا أهل دمشق ونصيبين فأصاب ألف فرس. وقيل: ورثها من أبيه وأصابها أبوه من العمالقة. وقيل: خرجت من البحر لها أجنحة، فقعد يوماً بعد ما صلى الأولى على كرسيه^(١) واستعرضها، فلم تزل تعرض عليه حتى غربت الشمس وغفل عن العصر أو عن ورد من الذكر كان له وقت العشي، وتهيبوه فلم يعلموه، فاغتم لما فاته، فاستردها وعقرها مقرباً^(٢) لله، وبقي مائة، فما بقي في أيدي الناس من الجياد فمن نسلها، وقيل: لما عقرها أبدله الله خيراً منها. وهي الريح تجري بأمره. فإن قلت: ما معنى: ﴿أَحَبُّتُ حُبَّ الْخَيْرِ عَنْ ذِكْرِ رَبِّي﴾؟ قلت: أحببت: مضمن معنى فعل يتعدى بعن، كأنه قيل: أنبت حب الخير عن ذكر ربي. أو جعلت حب الخير مجزياً أو مغنياً عن ذكر ربي. وذكر أبو الفتح الهمداني في كتاب التبيان: أن «أحببت» بمعنى: لزممت من قوله [من الرجز]:

١٣٢٣ - أخرجه أبو داود (٣٩٧/٤، ٣٩٨): كتاب الأدب: باب قيام الرجل للرجل، حديث (٥٢٢٩)، والترمذي (٩٠/٥، ٩١): كتاب الأدب: باب ما جاء من كراهية قيام الرجل للرجل (٢٧٥٥)، والبيهقي في شرح السنة (٣٥٧/٦، ٣٥٨، بتحقيقنا): كتاب الاستئذان باب لا يقيم الرجل...، حديث (٣٢٢٣)، والطبراني في معجمه الكبير (٣٢٠/١٩)، حديث (٧٢٤)، وأحاديث (٨١٩، ٨٢٠، ٨٢١، ٨٢٢، ٨٥٢)، وابن أبي شيبه (٢٣٤/٥)، حديث (٢٥٥٨٢)، وابن أبي حاتم في العلل (٣٣٦/٢)، حديث (٢٥٣١)، عن أبي مجلز قال خرج معاوية فقام عبد الله بن الزبير. وذكره الزيلعي (١٨٩/٣)، حديث (١١٠٢)، وقال: غريب - أي بهذا اللفظ الذي ذكره المصنف. قال الحافظ: لم أجده هكذا، أو في السنن حديث معاوية «من سره أن يتمثل الناس له قياماً» وفي الغريب لأبي عبيد من حديث البراء، رضي الله عنه، كنا إذا صلينا مع رسول الله ﷺ - فرفع رأسه قمنا معه صفوفاً. انتهى.

= على الثلاث، على ما مر. ويجوز أن يكون المعنى: فلا يزال كسيراً من قيامه على الثلاث، وكأنه اعتراض، وخبره محذوف، أي كأنه كسير. وفائدته الاحتراس.

ينظر: الأزهية (ص ٨٧)، أمالي ابن الحاجب (٦٣٥/٢)، شرح شواهد المغني (٧٢٩/٢)، لسان العرب (صفن)، معني اللبيب (٣١٨/١)، البحر المحيط (٣٨٨/٧)، الدر المصون (٥٣٤/٥).

(١) قوله: «بعد ما صلى الأولى على كرسيه» عبارة النسفي. صلى الظهر. (ع).

(٢) قوله: «وعقرها مقرباً لله» عبارة النسفي: تقرباً. (ع).

مِثْلُ بَعِيرِ السُّوءِ إِذَا أَحْبَبَا^(١)

وليس بذاك. والخير: المال، كقوله: ﴿إِنْ تَرَكَ خَيْرًا﴾ [البقرة: ١٨٠] وقوله: ﴿وَإِنَّهُ لِحُبِّ الْخَيْرِ لَشَدِيدٌ﴾ [العاديات: ٨] والمال: الخيل التي شغلته. أو سمي الخيل خيراً كأنها نفس الخير لتعلق الخير بها. قال رسول الله ﷺ: «الخيال معقود بنواصيها الخير إلى يوم القيامة» (١٣٢٤) وقال في زيد الخيل حين وفد عليه وأسلم: «ما وُصف لي رجل

١٣٢٤ - ورد عن جماعة من الصحابة: منهم، عروة البارقي، وعبد الله بن عمر، وأنس بن مالك، وأبي هريرة، وجابر بن عبد الله، وأبي كبشة، وابن مسعود وجابر.

أما حديث عروة البارقي فأخرجه البخاري ٦٤/٦ في الجهاد والسير، باب الخيل معقود في نواصيها الخير (٢٨٥٠)، و(٦٦/٦)، باب الجهاد ماض مع البر والفاجر (٢٨٥٢)، و(٦٥٣/٦) في فرض الخمس (٣١١٩)، و(٧٣١/٦) في المناقب (٣٦٤٣). ومسلم ٩٣/٣ في الإمارة. باب الخيل في نواصيها الخير إلى يوم القيامة (٨٧٣/٩٩/٩٨)، والنسائي ٢٢٢/٦ في الجهاد، باب قتل ناصية الفرس، وابن ماجه ٩٢٣/٢ في الجهاد، باب ارتباط الخيل في سبيل الله (٢٧٨٦)، وأحمد ٤/٣٧٥، ٣٧٦، وأبو يعلى (٦٨٢٨)، والحميدي في مسنده ٢٧٢/٢ - ٢٧٣ برقم (٨٤١، ٨٤٢)، والدارمي ٢/٢١١، ٢١٢ في الجهاد، باب فضل الخيل في سبيل الله، وسعيد بن منصور في سننه ١٩٨/٢ في الجهاد. باب الخيل معقود في نواصيها الخير إلى يوم القيامة (٢٤٢٦) والطيلاسي في الجهاد ٢٤١/١ برقم (١١٨٤، ١١٨٥)، والطبراني ١٥٥/١٧ برقم (٣٩٦ - ٤٠٠). والبيهقي ٦/١١٢ في القراض، باب المضارب يخالف بما فيه زيادة لصاحبه و(٣٢٩/٦) في قسم الفيء، باب الإسهام للفرس دون غيره من الدواب، ٥٢/٩ في السير. باب تفضيل الخيل و(١٥/١٠) في كتاب السبق والرمي، باب ارتباط الخيل عدة في سبيل الله عز وجل. والطحاوي في شرح معاني الآثار =

(١) كيف قربت عمك القرشبا؟ حين أذاك لاغباً مخبأ
حلت عليه بالقفيل ضرباً تبأ لمن بالهون قد ألأ

مثل بعير السوء إذا أحب

لأبي محمد الفقعسي. والقرشب - بكسر أوله وفتح ثالثة -: المسن، واللاغب، من اللغوب: وهو التعب. والمخب من أخيه: إذا حملة على الخب، وهو نوع من السير. أو من أخب: إذا لزم المكان كما قيل. وحلت: أي قمت ووثبت عليه. والقفيل: السوط. وضرباً: بمعنى ضارباً. أو تضربه ضرباً. والتب: الهلاك، وهو دعاء عليه، وفعله محذوف وجوباً. والهون - بالضم -: الهوان: وألب بالمكان: أقام به، ورواه الأصمعي هكذا:

كيف قربت شيخك الأذبا؟ لما أذاك يابسا قرشبا

قمت عليه بالقفيل ضرباً مثل بعير السوء إذا أحب

والذيب: كثرة الشعر وطوله. والأذب: البعير نبت على حاجبيه شعيرات، فإذا ضربته الريح نفر وهاج. وقال الجوهري: الإخباب: البروك. وهو في الإبل كالحران في الخيل. ينظر: جمهرة اللغة ص ٣٠٨، وشرح المفضل ٢٨/١، والكتاب ٣٢٦/٣، ولسان العرب (حب)، (رزب)، وما ينصرف وما لا ينصرف ص ١٢٣، ومجالس ثعلب ٢٠٢/١، والمقتضب ٩/٤، وتاج العروس (حب).

فرأيته إلا كان ١٣٧/٢ ب دون ما بلغني إلا

= ٢٧٤/١، ٢٧٥، وأبو نعيم في الحلية ١٢٧/٨ والبغوي في شرح السنة. بتحقيقنا ٥٣٠/٥ في السير والجهاد، باب اتخاذ الخيل للجهاد (٢٦٣٩) من طرق عنه به.

وأما حديث ابن عمر فأخرجه البخاري ٦٤/٦ في الجهاد والسير، باب الخيل معقود في نواصيها الخير إلى يوم القيامة (٢٨٤٩)، ٧٣١/٦ في المناقب (٣٦٤٤) ومسلم ١٤٩٢/٣، ١٤٩٣ في الإمامة، باب الخيل في نواصيها الخير إلى يوم القيامة (١٨٧١/٩٦) عن النسائي ٢٢١/٦ - ٢٢٢ في الخيل، باب قتل ناصية الفرس.

وأما حديث جرير فأخرجه مسلم ١٤٩٣/٣ في الإمامة، باب الخيل في نواصيها الخير إلى يوم القيامة (١٨٧٢/٩٧)، والنسائي ٢٢١/٦ في الخيل، باب قتل ناصية الفرس. وأحمد ٣٦١/٤ والطحاوي ٢٧٤/٣ والبغوي في شرح السنة بتحقيقنا ٥٣٠/٥ برقم (٢٦٤٠) من طريق يونس بن عبيد عن عمرو بن سعيد عن أبي زرعة عن جرير بن عبد الله قال: رأيت رسول الله ﷺ يلوي ناصية فرس بأصبعه وهو يقول: الخيل معقود بنواصيها الخير إلى يوم القيامة الأجر والغنمة.

وأما حديث أبي كبشة فأخرجه الطبراني ٣٣٩/٢٢ برقم (٨٤٩) وابن حبان (١٦٣٥ - موارد) والطحاوي ٢٧٤/٢، والحاكم ٩١/٢ - من طريق ابن وهب حدثني معاوية بن صالح. حدثني نعيم ابن زياد أنه سمع أبا كبشة صاحب النبي ﷺ يقول: الخيل معقود في نواصيها الخير، وأهلها معانون عليها. والمنفق عليها كالباسط يده بالصدقة.

وقال الحاكم: هذا حديث صحيح الإسناد، ولم يخرجاه بهذه الزيادة، ووافقه الذهبي.

وقال الهيثمي في المجمع ٢٦٢/٥. رجاله ثقات.

وأما حديث ابن مسعود عند أبي يعلى (٥٣٩٦). قال حدثنا داود بن رشيد. حدثنا بقية بن الوليد عن علي بن علي حدثني يونس عن الزهري عن عبيد الله بن عبد الله عن ابن مسعود قال: جاءه رجل فقال: أسمعت رسول الله ﷺ يقول في الخيل شيئاً؟ قال: نعم: سمعت رسول الله ﷺ يقول: الخيل معقود فذكره مطولاً.

وذكره الهيثمي في المجمع ٢٨٠/٥ وقال: رواه أبو يعلى. وفيه بقية بن الوليد وهو مدلس. وبقية رجاله ثقات.

وأما حديث جابر فأخرجه أحمد ٣٥٢/٣ من طريق إبراهيم بن إسحاق وعلي بن إسحاق، حدثنا ابن المبارك عن عتبة بن أبي حكيم حدثني حصين بن حرملة عن أبي مصبح عن جابر به. وأخرجه أبو يعلى في معجم شيوخه (١٩٥) من طريق يحيى بن سعيد الأموي عن مجاهد عن الشعبي عن جابر عن النبي ﷺ مرفوعاً.

وأخرجه ابن عدي في الكامل ٢٥٥٧/٧ من طريق الحسن بن سفيان حدثنا محمد بن الصباح. حدثنا علي بن ثابت عن الوازع عن أبي سلمة عن جابر.

وذكره الهيثمي في المجمع ٢٦١/٥ وقال: رواه أحمد، والطبراني في الأوسط باختصار ورجال أحمد ثقات.

وقال الحافظ في الفتح ٦٧/٦: روى حديث الخيل معقود في نواصيها الخير. جمع من الصحابة غير من تقدم ذكره. وهم ابن عمر وعروة وأنس وجرير وممن لم يتقدم سلمة بن نفيل ٢١٤/٦، وأبو هريرة عند النسائي. وعتبة بن عبد السلمي عند أبي داود (٢٥٤٢) وجابر، وأسماء بنت يزيد (٤٥٥/٦) وأبو ذر ١٨١/٥ عند أحمد وابن مسعود عند أبي يعلى وأبو كبشة عند أبي عوانة وابن =

زيد الخيل» (١٣٢٥) وسماء زيد الخير. وسأل رجل بلالاً رضي الله عنه عن قوم يستبقون: من السابق؟ فقال: رسول الله ﷺ. فقال له الرجل: أردت الخيل. فقال: وأنا أردت الخير (١٣٢٦). والتواري بالحجاب: مجاز في غروب الشمس عن تواري الملك. أو المخبأة بحجابهما. والذي دلّ على أن الضمير للشمس مرور ذكر العشي، ولا بد للضمير من جري ذكر أو دليل ذكر. وقيل: الضمير للصفائنات، أي: حتى توارت بحجاب الليل يعني الظلام. ومن بدع التفاسير: أن الحجاب جبل دون قاف بمسيرة سنة تغرب الشمس من ورائه. ﴿فَطَفِقَ مَسْحًا﴾ فجعل يمسح مسحاً، أي: يمسح بالسيف بسوقها وأعناقها، يعني: يقطعها. يقال: مسح علاوته، إذا ضرب عنقه، ومسح المسفر الكتاب^(١) إذا قطع أطرافه بسيفه. وعن الحسن: كسف عراقيها وضرب أعناقها، أراد بالكسف: القطع، ومنه: الكسف في ألقاب الزحاف في العروض. ومن قاله بالشين المعجمة فمصحف. وقيل: مسحها بيده؛ استحساناً لها وإعجاباً بها. فإن قلت: بم اتصل قوله: ﴿رُدُّوْهَا عَلَيَّ﴾؟ قلت: بمحذوف، تقديره: قال ردّها عليّ، فأضمر وأضمر ما هو جواب له، كأن قائلًا قال: فماذا قال سليمان؟ لأنه موضع مقتض للسؤال اقتضاء ظاهراً، وهو اشتغال نبي من أنبياء الله بأمر الدنيا، حتى تفوته الصلاة عن وقتها. وقرئ: «بالسؤوق» بهمز الواو لضممتها، كما في

= حبان في صحيحهما. وحذيفة عند البزار. وأبو أمامة وعريب، وهو يفتح المهملة وكسر الراء بعدها تحتانية ساكنة ثم موحدة - المليكي، والنعمان بن بشير وسهل بن الحنظلية عند الطبراني، وعن علي عند ابن أبي عاصم في الجهاد...»

وقال الحافظ ابن حجر: متفق عليه من حديث ابن عمر رضي الله عنهما. انتهى.

١٣٢٥ - أخرجه البيهقي في الدلائل (٣٣٧/٥) في وفد طيء، وابن سعد في الطبقات (٢٤٣/١)، وابن عساكر في تاريخ دمشق (٣٦/٦ تهذيب)، وابن إسحاق (١٩٦١ - سيرة ابن هشام)، والحديث بلفظ ما ذكر لي رجل من العرب بفضل ثم جاءني إلا رأيته دون ما يقال لي منه إلا زيد الخيل، وقال الحافظ: ذكره ابن إسحاق في المغازي بغير سند، والبيهقي في الدلائل من طريقه، وذكره ابن سعد عن الواقدي بأسانيد له مقطوعة. انتهى.

١٣٢٦ - ذكره الزيلعي في تخريج الكشاف (١٩١/٣)، حديث (١١٠٥) وعزاه لإبراهيم الحربي، وقال: رواه إبراهيم الحربي في كتابه: حدثنا ابن عائشة، عن أبي عوانة عن مغيرة. عن الشعبي قال: كان رهان فقال رجل لبلال: من سبق؟ قال: رسول الله ﷺ، قال فمن صلى؟ قال: أبو بكر، قال: إنما أعني في الخيل: قال وأنا أعني في الخير. انتهى. ذكره في باب صلى قال: والمصلي الذي يجيء على أثر السابق، قال الحافظ ابن حجر. أخرجه إبراهيم الحربي من رواية مغيرة عن الشعبي قال: كان رهان. فقال رجل لبلال: من سبق؟ قال: رسول الله ﷺ. قال: فمن صلى؟ قال: أبو بكر. قال: إنما أعني في الخيل. قال: وأنا أعني في الخير، انتهى.

(١) قوله: «ومسح المسفر الكتاب» الذي في الصحاح: سمرت الكتاب أسفره سفيراً. وسمرت المرأة: كشفت عن وجهها. وأسفر الصبح: أي أضاء. وأسفر وجهه حسناً، أي: أشرق، فليحرر. (ع).

أدور. ونظيره: الغور، في مصدر غارت الشمس. وأما من قرأ بالسوق فقد جعل الضمة في السين كأنها في الواو للتلاصق، كما قيل: مؤسى، ونظير ساق وسوق: أسد وأسد. وقرئ: «بالساق» اكتفاء بالواحد عن الجمع؛ لأمن الإلباس.

﴿وَلَقَدْ فَتَنَّا سُلَيْمَانَ وَأَلْقَيْنَا عَلَى كُرْسِيِّهِ جَسَداً ثُمَّ أَنَابَ﴾ (٣٤)

قيل: فتن سليمان بعد ما ملك عشرين سنة. وملك بعد الفتنة عشرين سنة. وكان من فتنه: أنه ولد له ابن، فقالت الشياطين: إن عاش لم تنفك من السخرة، فسيئنا أن نقتله أو نخبله، فعلم ذلك، فكان يغذوه في السحابة^(١)، فما راعه إلا أن ألقي على كرسيه ميتاً، فتنبه على خطئه في أن لم يتوكل فيه على ربه، فاستغفر ربه وتاب إليه. وروي عن النبي ﷺ: قال سليمان: «لأطوفن الليلة على سبعين امرأة، كل واحدة تأتي بفارس يجاهد في سبيل الله، ولم يقل: إن شاء الله، فطاف عليهن، فلم تحمل إلا امرأة واحدة جاءت بشق رجل، والذي نفسي بيده، لو قال: إن شاء الله، لجاهدوا في سبيل الله فرساناً أجمعون» (١٣٢٧)، فذلك قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ فَتَنَّا سُلَيْمَانَ﴾. وهذا ونحوه مما لا بأس به. وأما ما يروى من حديث الخاتم والشيطان وعبادة الوثن في بيت سليمان، فالله أعلم بصحته. حكوا أن سليمان بلغه خبر صيدون وهي مدينة في بعض الجزائر، وأن بها ملكاً عظيم الشأن لا يقوى عليه لتحصنه بالبحر، فخرج إليه تحمله الريح حتى أناخ بها بجنوده من الجن والإنس، فقتل ملكها وأصاب بنتاً له اسمها جرادة من أحسن الناس وجهاً، فاصطفاها لنفسه وأسلمت وأحبها، وكانت لا يرقأ دمعها حزناً على أبيها، فأمر الشياطين فمثلوا لها صورة أبيها، فكستها مثل كسوته، وكانت تغدو إليها وتروح مع ولائها يسجدن له كعادتهن في ملكه، فأخبر آصف سليمان بذلك فكسر الصورة وعاقب المرأة، ثم خرج وحده إلى فلاة وفرش له الرماد، فجلس عليه تائباً إلى الله متضرعاً، وكانت له أم ولد يقال لها: أمينة، إذا دخل للطهارة أو لإصابة امرأة وضع خاتمه عندها، وكان ملكه في خاتمه،

١٣٢٧ - أخرجه البخاري (١١٦/٦، ١١٧): كتاب الجهاد والسير: باب من طلب الولد للجهاد، حديث (٢٨١٩)، وأطرافه في (٣٤٢٤، ٥٢٤٢، ٦٦٣٩، ٦٧٢٠، ٧٤٦٩)، ومسلم (١٣١/٦) نووي: كتاب الأيمان: باب الاستثناء، حديث (٢٢ - ٢٥/٢٥٤) والنسائي (٢٦/٧) كتاب الأيمان: باب إذا حلف فقال له رجل: إن شاء الله هل له استثناء، حديث (٣٨٤٠) وأحمد (٢/٢٧٥)، ٢/٢٢٩، (٥٠٦) والبيهقي في الكبرى (٤٤/١٠): كتاب الأيمان، باب من قال وأيم الله، وابن حبان في صحيحه (١٨٠/١٠)، حديث (٤٣٣٧، ٤٣٣٨) قال الحافظ ابن حجر في «تخريج الكشاف» متفق عليه من حديث أبي هريرة رضي الله عنه. انتهى.

(١) قوله: «فكان يغذوه» في الصحاح: غذوت الصبي باللبن، أي ربيته به فاغذى. (ع).

فوضعه عندها يوماً وأتاها الشيطان صاحب البحر - وهو الذي دلّ سليمان على الماس حين أمر ببناء بيت المقدس واسمه صخر - على صورة سليمان، فقال: يا أمينة خاتمي، فتختم به وجلس على كرسي سليمان، وعكفت عليه الطير والجنّ والإنس، وغير سليمان عن هيئته فاتى أمينة لطلب الخاتم فأنكرته وطردته، فعرف أنّ الخطيئة قد أدركته، فكان يدور على البيوت يتكفف، فإذا قال: أنا سليمان حثوا عليه التراب وسبوه، ثم عمد إلى السماكين ينقل لهم السمك فيعطونه كلّ يوم سمكتين، فمكث على ذلك أربعين صباحاً عدد ما عبد الوثن في بيته، فأنكر آصف وعظماء بني إسرائيل حكم الشيطان، وسأل آصف نساء سليمان فقلن: ما يدع امرأة منا في دمها ولا يغتسل من جنابة. وقيل: بل نفذ حكمه في كل شيء إلاّ فيهنّ، ثم طار الشيطان وقذف الخاتم في البحر، فابتلعت سمكة ووقعت السمكة في يد سليمان، فبقر بطنها فإذا هو بالخاتم، فتختم به ووقع ساجداً، ورجع إليه ملكه، وجاب صخرة لصخر^(١) فجعله فيها، وسدّ عليه بأخرى، ثم أوثقهما بالحديد والرصاص، وقذفه في البحر (١٣٢٨). وقيل: لما افتتن كان يسقط الخاتم من يده لا يتماسك فيها، فقال له آصف: إنك لمفتون بذنبك، والخاتم لا يقرّ في يدك، فتب إلى الله عز وجل. ولقد أبى العلماء المتقنون قبوله وقالوا: هذا من أباطيل اليهود، والشياطين لا يتمكنون من مثل هذه الأفاعيل. وتسليط الله إياهم على عباده حتى يقعوا في تغيير الأحكام، وعلى نساء الأنبياء حتى يفجروا بهنّ قبيح، وأما اتخاذ التماثيل فيجوز أن تختلف فيه الشرائع ١٣٨/٢ ألا ترى إلى قوله: ﴿مِنْ تَحَرِيٍّ وَتَمَثِيلٍ﴾ [سبا: ١٣]، وأما السجود للصورة فلا يظنّ بنبيّ الله أن يأذن فيه، وإذا كان بغير علمه فلا عليه. وقوله: ﴿وَأَلْقَيْنَا عَلَىٰ

١٣٢٨ - أخرجه النسائي في تفسيره (١٨٦/١) حديث (١٣) عن سعيد بن جبير عن ابن عباس: قال كان الذي أصاب سليمان بن داود في سبب امرأة من أهله - يقال لها جراحة . . .

وذكره ابن كثير في تفسيره (٣٥/٤، ٣٦) عن ابن عباس، وقال: إسناده إلى ابن عباس رضي الله عنهما قوي ولكن الظاهر أنه إنما تلقاه ابن عباس رضي الله عنهما، إن صح عنه من أهل الكتاب، وفيهم طائفة لا يعتقدون بنوة سليمان. . . ، وقد رويت هذه القصة مطولة عن جماعة من السلف رضي الله عنهم كسعيد بن المسيب، وزيد بن أسلم وجماعة آخرين وكلها متلقاة من قصص أهل الكتاب، والله تعالى أعلم بالصواب.

وذكره الزيلعي في تخريج الكشاف (١٩٢/٣)، حديث (١١٠٧)، وزاد نسبه إلى ابن أبي حاتم في تفسيره من حديث ابن عباس. وقال ابن حجر: أخرجه النسائي في التفسير من رواية المنهال بن عمرو وعن سعيد بن جبير عن ابن عباس، وإسناده قوي، وأخرجه ابن أبي حاتم من حديث ابن عباس قريباً مما أورده المصنف. انتهى.

(١) قوله: «وجاب صخرة لصخر» أي: خرق أو قطع، أفاده الصحاح. (ع).

كُرْسِيِّ جَسَدًا ﴿ نَابٍ عَنْ إِفَادَةِ مَعْنَى إِنَابَةِ الشَّيْطَانِ مِنْهُ نَبَوّاً ظَاهِراً .

﴿ قَالَ رَبِّ اغْفِرْ لِي وَهَبْ لِي مُلْكًا لَا يَنْبَغِي لِأَحَدٍ مِنْ بَعْدِي إِنَّكَ أَنْتَ الْوَهَّابُ ﴾ (٣٥)

قَدَّمَ الاستغفار على استيهاب الملك جرياً على عادة الأنبياء والصالحين في تقديمهم أمر دينهم على أمور دنياهم . ﴿ لَا يَنْبَغِي ﴾ لا يتسهل ولا يكون . ومعنى ﴿ مِنْ بَعْدِي ﴾ دوني . فإن قلت : أما يشبه الحسد والحرص على الاستبداد بالنعمة أن يستعطي الله ما لا يعطيه غيره ؟ قلت : كان سليمان عليه السلام ناشئاً في بيت الملك والنبوة ووارثاً لهما ، فأراد أن يطلب من ربه معجزة ، فطلب على حسب إلفه ملكاً زائداً على الممالك زيادة خارقة للعادة بالغة حد الإعجاز ؛ ليكون ذلك دليلاً على نبوته قاهراً للمبعوث إليهم ، وأن يكون معجزة حتى يخرق العادات ، فذلك معنى قوله : ﴿ لَا يَنْبَغِي لِأَحَدٍ مِنْ بَعْدِي ﴾ وقيل : كان ملكاً عظيماً ، فخاف أن يعطى مثله أحد فلا يحافظ على حدود الله فيه ، كما قالت الملائكة : ﴿ أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ سَائِجِيحٌ بِحَدِّكَ وَتُقَدِّسُ لَكَ ﴾ [البقرة : ٣٠] وقيل : ملكاً لا أسلبه ولا يقوم غيري فيه مقامي ، كما سلبته مرة وأقيم مقامي غيري . ويجوز أن يقال : علم الله فيما اختصه به من ذلك الملك العظيم مصالح في الدين ، وعلم أنه لا يضطلع بأعبائه غيره ، وأوجبت الحكمة استيهابه ، فأمره أن يستوهبه إياه ، فاستوهبه بأمر من الله على الصفة التي علم الله أنه لا يضبطه عليها إلا هو وحده دون سائر عباد . أو أراد أن يقول : ملكاً عظيماً فقال : ﴿ لَا يَنْبَغِي لِأَحَدٍ مِنْ بَعْدِي ﴾ ، ولم يقصد بذلك إلا عظم الملك وسعته ، كما تقول : لفلان ما ليس لأحد من الفضل والمال ، وربما كان للناس أمثال ذلك ، ولكنك تريد تعظيم ما عنده . وعن الحجاج أنه قيل له : إنك حسود ، فقال : أحسد مني من قال : ﴿ وَهَبْ لِي مُلْكًا لَا يَنْبَغِي لِأَحَدٍ مِنْ بَعْدِي ﴾ وهذا من جرأته على الله وشيطنته ، كما حكى عنه : طاعتنا أوجب من طاعة الله ؛ لأنه شرط في طاعته فقال : ﴿ فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ ﴾ [التغابن : ١٦] وأطلق طاعتنا فقال : ﴿ وَأَوَّلُ أَمْرٍ مِنْكُمْ ﴾ [النساء : ٥٩] .

﴿ فَسَخَرْنَا لَهُ الرِّيحَ تَجْرِي بِأَمْرِهِ رُجَاءً حَيْثُ أَصَابَ ﴾ (٣٦) وَالشَّيْطَانِ كُلَّ بَنَاءٍ وَعَوَاصٍ ﴿ (٣٧) وَآخِرِينَ مُقَرَّنِينَ فِي الْأَصْفَادِ ﴾ (٣٨) هَذَا عَطَاؤُنَا فَامْنُنْ أَوْ أَمْسِكْ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿ (٣٩) وَإِنْ لَمْ عِنْدَنَا لُزْفٌ وَحُسْنُ مَقَابٍ ﴿ (٤٠)

قري : «الريح» والرياح . ﴿ رُجَاءً ﴾ لينة طيبة لا تزعزع . وقيل : طيبة له لا تمتنع عليه . ﴿ حَيْثُ أَصَابَ ﴾ حيث قصد وأراد . حكى الأصمعي عن العرب : أصاب الصواب فأخطأ الجواب . وعن رؤية أن رجلين من أهل اللغة قصدها ليسألاه عن هذه الكلمة ، فخرج إليهما فقال : أين تصيبان ؟ فقالا : هذه طلبتنا ورجعا ، ويقال : أصاب الله بك خيراً . ﴿ وَالشَّيْطَانِ ﴾

عطف على الريح، ﴿كُلَّ بَنَاءٍ﴾ بدل من الشياطين، ﴿وَالْآخَرِينَ﴾ عطف على كل داخل في حكم البدل، وهو بدل الكل من الكل، كانوا يبنون له ما شاء من الأبنية، ويغوصون له فيستخرجون اللؤلؤ، وهو أول من استخرج الدرّ من البحر، وكان يقرن مردة الشياطين بعضهم مع بعض في القيود والسلاسل؛ للتأديب والكف عن الفساد. وعن السدي: كان يجمع أيديهم إلى أعناقهم مغللين في الجوامع^(١) (١٣٢٩). والصفد: القيد، وسمي به العطاء؛ لأنه ارتباط بالمنعم عليه، ومنه قول علي رضي الله عنه: من برك فقد أسرك، ومن جفاك فقد أطلقك. ومنه قول القائل: غلّ يداً مطلقها، وأرق رقبة معتقها. وقال حبيب: إنَّ العطاء إيسار؛ وتبعه من قال [من الطويل]:

وَمَنْ وَجَدَ الْإِحْسَانَ قَيْدًا تَقَيَّدًا^(٢)

وفرقوا بين الفعلين فقالوا: صفده قيده، وأصفده أعطاه، كوعده وأوعده، أي: ﴿هَذَا﴾ الذي أعطيناك من الملك والمال والبسطة ﴿عَطَاؤُنَا﴾ بغير حساب، يعني: جمًّا كثيراً لا يكاد يقدر على حسبه وحصره؛ ﴿فَأَمْنُنْ﴾ من المنة وهي العطاء، أي: فأعط منه ما شئت ﴿أَوْ أَسِيكَ﴾ مفوضاً إليك التصرف فيه. وفي قراءة ابن مسعود: (هذا فامنن أو أمسك عطاؤنا بغير حساب) أو هذا التسخير عطاؤنا، فامنن على من شئت من الشياطين بالإطلاق، وأمسك من شئت منهم في الوثاق بغير حساب، أي لا حساب عليك في ذلك.

﴿وَأَذْكُرْ عَبْدَنَا أَيُّوبَ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُ أَنِّي مَسَّنِيَ الشَّيْطَانُ يَنْصُبْ وَعَذَابِ﴾ (٤١) ﴿أَرْكُضْ بِرَجْلِكَ هَذَا مَغْسَلُ بَارِدٍ وَشَرَابٍ﴾ (٤٢) ﴿وَوَهَبْنَا لَهُ أَهْلَهُ وَمِثْلَهُمْ مَعَهُمْ رَحْمَةً مِنَّا وَذِكْرَىٰ لِأُولَى الْأَلْبَابِ﴾ (٤٣) ﴿وَحُدِّ بِيدِكَ ضِرْفَةً فَأُصْرَبَ بِهِ وَلَا تَحْنُثْ إِنَّا وَجَدْنَاهُ صَابِرًا نِعَمَ الْعَبْدِ إِنَّهُ أَوَّابٌ﴾ (٤٤)

١٣٢٩ - أخرجه الطبري في تفسيره (٥٨٥/١٠) حديث (٢٩٩٢٨) بلفظ تجمع اليدين إلى عنقه. عن السدي.

(١) قوله: «في الجوامع» في الصحاح؛ «الجامعة»: الغل؛ لأنها تجمع اليدين إلى العنق. (ع).

(٢) وقيدت نفسي في ذراك محبة ومن وجد الإحسان قيداً تقيداً

للمتنبي، يقول: تركت سير الليل وراء ظهري، أي: بالغت في تركه لمن قل ماله؛ لأنه لا زال يبتغيه، واكتفيت بنعمتك العظمى، وشبه الآمال التي امتدت إليه وبلغت منها، بأفراس منعلة بالذهب على طريق التصريحة، والأنعام ترشيح. ويجوز أن ذلك كناية عن عظم النعمة، واستعار التقييد للمنع عن التطلع لغير الممدوح وقصر المدح عليه. ويجوز أنه شبه نفسه بحيوان، والتقييد: تخيل. والذرا - بالفتح -: كل ما ستر الشيء، يقال: أنا في ظل الجبل وفي ذراه، أو في ظل فلان وفي ذراه، أي: في كنفه وحماه، ومحبة: مفعول لأجله، وشبه الإحسان بالقيد؛ لأنه سبب استملاك النفس.

﴿أَيُّوبَ﴾ عطف بيان. و ﴿إِذْ﴾ بدل احتمال منه. ﴿أَيُّ مَسْنَى﴾ بأني مسني: حكاية لكلامه الذي ناداه بسبيه، ولو لم يحك لقال بأنه مسه؛ لأنه غائب. وقرئ: «بنصب» بضم النون وفتحها مع سكون الصاد، وبفتحهما، وضمهما، فالنصب والنصب: كالرشد والرشد، والنصب: على أصل المصدر، والنصب: تثقيل نصب، والمعنى واحد، وهو التعب والمشقة. والعذاب: الألم، يريد مرضه وما كان يقاسي فيه من أنواع الوصب^(١). وقيل: ١٣٨/٢ ب الضّر في البدن، والعذاب في ذهاب الأهل والمال. فإن قلت: لم نسبه إلى الشيطان، ولا يجوز أن يسلمه الله على أنبيائه ليقضي من إيتابهم وتعذيبهم وطره، ولو قدر على ذلك لم يدع صالحاً إلا وقد نكبه وأهلكه، وقد تكرر في القرآن أنه لا سلطان له إلا الوسوسة فحسب؟ قلت: لما كانت وسوسته إليه وطاعته له فيما وسوس سبباً فيما مسه الله به من النصب والعذاب، نسبه إليه، وقد راعى الأدب في ذلك حيث لم ينسبه إلى الله في دعائه، مع أنه فاعله ولا يقدر عليه إلا هو. وقيل: أراد ما كان يوسوس به إليه في مرضه من تعظيم ما نزل به من البلاء، ويغريه على الكراهة والجزع، فالتجأ إلى الله تعالى في أن يكفيه ذلك بكشف البلاء، أو بالتوفيق في دفعه وردّه بالصبر الجميل. وروي أنه كان يعود ثلاثاً من المؤمنين، فارتد أحدهم، فسأل عنه فقيل: ألقى إليه الشيطان: إن الله لا يبتلي الأنبياء والصالحين. وذكر في سبب بلائه أن رجلاً استغاثه على ظالم فلم يغثه (١٣٣٠). وقيل: كانت مواشيه في ناحية ملك كافر، فداهنه ولم يغزه. وقيل: أعجب بكثرة ماله. ﴿أَرْكَضَ بِرَجْلِكَ﴾ حكاية ما أجيب به أيوب عليه السلام، أي: اضرب برجلك الأرض. وعن قتادة: هي أرض الجابية^(٢) فضربها، فنبعت عين، فقيل: ﴿هَذَا مَغْسَلٌ بَارِدٌ وَشَرَابٌ﴾ أي: هذا ماء تغتسل به وتشرب منه؛ فيربأ باطنك وظاهره، وتنقلب ما بك قلبة^(٣). وقيل: نبعت له عينان، فاغتسل من إحدهما وشرب من الأخرى، فذهب الداء من ظاهره وباطنه بإذن الله، وقيل: ضرب برجله اليمنى فنبعت عين حارة فاغتسل منها، ثم باليسرى فنبعت باردة فشرب منها، ﴿رَحْمَةً مِنَّا وَذِكْرًا﴾ مفعول لهما، والمعنى: أن الهبة كانت للرحمة له ولتذكير

١٢٣٠ - ذكره السيوطي في الدر (٥٨٩/٤)، وعزاه لابن عساكر من طريق جوير عن الضحاك عن ابن عباس، بلفظ: إنما كان، ذنب أيوب أنه استعان به مسكين على ظلم يدرؤه عنه فلم يعنه، ولم يأمر بمعروف وبنه الظالم عن ظلم المسكين فابتلاه الله.

(١) قوله: «من أنواع الوصب»، في الصحاح: «الوصب»: المرض. (ع).

(٢) قوله: «هي أرض الجابية» مدينة بالشام، كما في الصحاح. (ع).

(٣) قوله: «وتنقلب ما بك قلبة»، في الصحاح: «القلاب» داء يأخذ البعير. وقولهم: ما به قلبة، أي: ليست به علة. (ع).

أولي الألباب؛ لأنهم إذا سمعوا بما أنعمنا به عليه لصبره، رغبتهم في الصبر على البلاء وعاقبة الصابرين وما يفعل الله بهم. ﴿وَخَذَ﴾ معطوف على اركض. والضغث: الحزمة من حشيش أو ريحان أو غير ذلك. وعن ابن عباس: قبضة من الشجر، كان حلف في مرضه ليضربن امرأته مائة إذا برئ، فحلل الله يمينه بأهون شيء عليه وعليها لحسن خدمتها إياه ورضاه عنها، وهذه الرخصة باقية. وعن النبي ﷺ: أنه أتى بمخدج^(١)، وقد خبث بأمة، فقال: «خذوا عثكالا فيه مائة شمراخ فاضربوه بها ضربة» (١٣٣١) ويجب أن يصيب

١٣٣١ - أخرجه أبو داود (١٦١/٤)، كتاب الحدود: باب إقامة الحد على المريض، حديث (٤٤٧٢). أنه أخبره بعض أصحاب رسول الله... والنسائي في الكبرى (٣١٢/٤، ٣١٣): كتاب الرجم: باب الضرير في الخلقة يصيب الحدود، حديث (٧٣٠٧، ٧٣٠٨). والبيهقي في السنن الكبرى (٢٣٠/٨): كتاب الحدود: باب الضرير في خلقة لا من مرض يصيب الحد بلفظ «أن رجلا» وأخرجه الطبراني في الكبير (٧٧/٦)، حديث (٥٥٦٨)، (٥٥٦٥، ٥٥٨٧) عن سهل بن حنيف.

وذكره الهيثمي في مجمع الزوائد (٢٥٥/٦) وعزاه للطبراني في الأوسط وقال رجاله ثقات. وأخرجه البغوي في شرح السنن (٤٧٤/٥)، حديث (٢٥٨٤) بتحقيقنا، والشافعي في مسنده (٢/٨٠)، حديث (٢٥٨) والدارقطني (١٠٠/٣)، حديث (٦٧) عن أبي أمامة عن ابن سهل بن حنيف وله شاهد من حديث عن سعد بن عباد.

أخرجه ابن ماجه (٨٥٩/٢): كتاب الحدود: باب الكبير والمريض يجب عليه الحد، حديث (٢٥٧٤)، وقال البوصيري في الزوائد: مدار الإسناد على محمد بن إسحاق وهو مدلس وقد رواه بالنعنة وأحمد في المسند (٢٢٢/٥)، والبيهقي في الكبرى (٢٣٠/٨): كتاب الحدود: باب الضرير في خلقة لا من مرض تصيب الحد، والطبراني في الكبير (٦٣/٦)، حديث (٥٥٢١)، وأخرجه البغوي في شرح السنة (٤٧٥/٥)، حديث (٢٥٨٥) بتحقيقنا.

وذكره الهيثمي في المجمع (٢٥٥/٦) عن أبي سعيد وعزاه للطبراني وقال رجاله رجال الصحيح، وعن سهل بن سعد الساعدي وقال رواه النسائي باختصار، والطبراني وفيه أبو بكر بن أبي سبر، وهو متروك.

وحديث أبي سعيد أخرجه الدارقطني (١٠٠/٣)، حديث (٦٦) وذكره الزيلعي (١٩٤/٣)، حديث (١١٠٨) وزاد نسبه إلى ابن أبي شيبة والبخاري وإسحاق بن راهوية.

وذكره السيوطي في الدر (٥٩٢/٥) وعزاه لعبد الرزاق وسعيد بن منصور وابن جرير عن أبي أمامة. وعزاه لأحمد وعبد بن حميد وابن جرير والطبراني وابن عساكر من طريق ابن أمامة عن سعيد بن عباد. وعزاه لعبد الرزاق وعبد بن حميد عن ثوبان وعزاه للطبراني عن سهل بن سعد.

وقال الحافظ ابن حجر: أخرجه النسائي، وأحمد، وإسحاق، وابن أبي شيبة، والبخاري، والطبراني من رواية أبي أمامة بن سهل عن سعيد بن عباد. قال: «كان بين أبياتنا رجل ضعيف مخدج، فلم يرع الحي إلا وهو على أمة من إمائهم يخبث بها - الحديث». قال البخاري: لم يرد إلا هذا، =

(١) قوله: «إنه أتى بمخدج» الخداج: النقصان، وأخذت الناقصة: إذا جاءت بولدها ناقص الخلق، وإن كانت أيامه تامة فهي مخدج، والولد مخدج، كذا في الصحاح. (ع).

المضروب كل واحد من المائة، إمّا أطرافها قائمة، وإمّا أعراضها مبسوطة مع وجود صورة الضرب، وكان السبب في يمينه أنها أبطأت عليه ذاهبة في حاجة فخرج صدره، وقيل: باعت ذؤابتها برغيفين وكانتا متعلق أيوب إذا قام. وقيل: قال لها الشيطان: اسجدي لي سجدة فأردّ عليكُم مالكم وأولادكم، فهمت بذلك فأدركتها العصمة، فذكرت ذلك له، فحلف. وقيل: أوهما الشيطان أن أيوب إذا شرب الخمر برئ، فعرضت له بذلك. وقيل: سألتُه أن يقرب للشيطان بعناق، ﴿وَجَدْنَاهُ صَابِرًا﴾ علمناه صابراً. فإن قلت: كيف وجده صابراً وقد شكّا إليه ما به واسترحمه؟ قلت: الشكوى إلى الله عزّ وعلا لا تسمى جزعاً، ولقد قال يعقوب عليه السلام: ﴿إِنَّمَا أَشْكُوا بَنِي وَحُرِّزَ إِلَى اللَّهِ﴾ [يوسف: ٨٦]، وكذلك شكوى العليل إلى الطبيب، وذلك أن أصبر الناس على البلاء لا يخلو من تمني العافية وطلبها، فإذا صحّ أن يسمى صابراً مع تمني العافية وطلب الشفاء، فليسم صابراً، مع اللّجّء إلى الله تعالى، والدعاء بكشف ما به، ومع التعاليج ومشاورة الأطباء، على أن أيوب عليه السلام كان يطلب الشفاء خيفة على قومه من الفتنة؛ حيث كان الشيطان يوسوس إليهم كما كان يوسوس إليه أنه لو كان نبياً لما ابتلي بمثل ما ابتلي به، وإرادة القوة على الطاعة، فقد بلغ أمره إلى أن لم يبق منه إلا القلب واللسان. ويروى أنه قال في مناجاته: إلهي قد علمت أنه لم يخالف لساني قلبي، ولم يتبع قلبي بصري، ولم يهيني ما ملكت يميني^(١)، ولم أكل إلا ومعني يتيم، ولم أبت شعبان ولا كاسياً ومعني جائع أو عريان؛ فكشف الله عنه.

﴿وَأَذْكُرْ عَبْدَنَا إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ أُولَى الْأَيْدِي وَالْأَبْصَرِ﴾ (٤٥) إِنَّا أَخْلَصْنَاهُمْ بِخَالِصَةٍ
ذِكْرَى الدَّارِ (٤٦) وَإِنَّهُمْ عِنْدَنَا لَمِنَ الْمُصْطَفَيْنَ الْأَخْيَارِ (٤٧) ﴿

﴿إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ﴾ عطف بيان لعبادنا. ومن قرأ: «عبدنا» جعل إبراهيم وحده عطف بيان له، ثم عطف ذريته على عبدنا، وهي إسحاق ويعقوب، كقراءة ابن عباس: «واله أيبك إبراهيم وإسماعيل وإسحاق». ولما كانت أكثر الأعمال تباشر بالأيدي غلبت، فقليل: في كل عمل هذا مما عملت أيديهم، وإن كان عملاً لا يتأتى فيه المباشرة بالأيدي، أو كان العمال جذماً لا أيدي لهم، وعلى ١٣٩/٢ ذلك ورد قوله عزّ وعلا: ﴿أُولَى الْأَيْدِي

= واختلف في إسناده. فقليل هكذا. وقيل عن أبي الزناد عن أبي أمامة مرسلاً، ورواه أبو داود من وجه آخر عن أبي أمامة أنه أخبره بعض أصحاب النبي - ﷺ. انتهى.

(١) قوله: «ولم يهيني ما ملكت يميني» أي: لم ينشطني ولم يهيجني، من هبت الريح: أي حاجت، وهب البعير: أي نشط، كما في الصحاح. (ع).

وَالْأَبْصَرِ ﴿٤٨﴾ يريد: أولي الأعمال والفكر، كأن الذين لا يعملون أعمال الآخرة، ولا يجاهدون في الله، ولا يفكرون أفكار ذوي الديانات، ولا يستبصرون - في حكم الزماني الذين لا يقدرّون على أعمال جوارحهم والمسلوب العقول الذين لا استبصار بهم. وفيه تعريض بكل من لم يكن من عمال الله، ولا من المستبصرين في دين الله، وتوبيخ على تركهم المجاهدة والتأمل مع كونهم متمكنين منها. وقرئ: «أولي الأيادي» على جمع الجمع. وفي قراءة ابن مسعود: «أولي الأيد» على طرح الياء والاكتفاء بالكسرة. وتفسيره بالأيد - من التأيد - قلق غير متمكن. ﴿أَخْلَصْنَاهُمْ﴾ جعلناهم لنا مخلصين ﴿بِخَالِصَةٍ﴾ بخالصة لا شوب فيها، ثم فسرها «بذكرى الدار» شهادة بذكرى الدار بالخلوص والصفاء وانتفاء الكدورة عنها. وقرئ: على الإضافة. والمعنى: بما خلص من ذكرى الدار، على أنهم لا يشوبون ذكرى الدار بهم آخر، إنما همهم ذكرى الدار لا غير. ومعنى ﴿ذَكَرَى الدَّارِ﴾: ذكراهم الآخرة دائباً، ونسيانهم إليها ذكر الدنيا. أو تذكيرهم الآخرة وترغيبهم فيها، وترهيدهم في الدنيا، كما هو شأن الأنبياء وديدنهم. وقيل: ذكرى الدار. الثناء الجميل في الدنيا ولسان الصدق الذي ليس لغيرهم. فإن قلت: ما معنى ﴿أَخْلَصْنَاهُمْ بِخَالِصَةٍ﴾؟ قلت: معناه: أخلصناهم بسبب هذه الخصلة، وبأنهم من أهلها. أو أخلصناهم بتوفيقهم لها، واللفظ بهم في اختيارها. وتعضد الأول قراءة من قرأ: «بخالصتهم». ﴿أَلْمُصْطَفَيْنَ﴾ أي المختارين من أبناء جنسهم. و ﴿الْأَخْيَارِ﴾ جمع خَيْرٍ، أو خير على التخفيف؛ كأموات في جمع ميت أو ميت.

﴿وَأَذْكُرْ إِسْمَاعِيلَ وَالْيَسَعَ وَذَا الْكِفْلِ وَكُلٌّ مِنَ الْأَخْيَارِ ﴿٤٨﴾﴾

﴿وَالْيَسَعَ﴾ كأن حرف التعريف دخل على يسع. وقرئ: «والليسع»، كأن حرف التعريف دخل على ليسع، فيعمل من اللسع. والتنوين في ﴿وَكُلٌّ﴾ عوض من المضاف إليه، ومعناه: وكلهم من الأخيار.

﴿هَذَا ذِكْرٌ وَإِنَّ لِلْمُتَّقِينَ لَحُسْنَ مَآبٍ ﴿٤٩﴾ جَنَّتٍ عَدْنٍ مِّنْهُ هُمْ فِيهَا لَا يُخْلَوْنَ ﴿٥٠﴾ مُتَّكِئِينَ فِيهَا يَدْعُونَ فِيهَا بِفَنَاحٍ كَثِيرٍ وَشَرَابٍ ﴿٥١﴾ وَعِنْدَهُمْ قَصِيرَاتُ الْكَأْسِ ﴿٥٢﴾﴾

﴿هَذَا ذِكْرٌ﴾ أي: هذا نوع من الذكر وهو القرآن. لما أجرى ذكر الأنبياء وأتبعه، وهو باب من أبواب التنزيل، ونوع من أنواعه، وأراد أن يذكر على عقبه باباً آخر، وهو ذكر الجنة وأهلها^(١). قال: ﴿هَذَا ذِكْرٌ﴾ ثم قال: ﴿وَإِنَّ لِلْمُتَّقِينَ﴾ كما يقول الجاحظ في كتبه:

(١) قال محمود: «إنما قال: هذا ذكر ليذكر عقبه ذكراً آخر، وهو ذكر الجنة وأهلها، كما يقول الجاحظ في كتبه: فهذا باب، ثم يشرع في باب آخر.» قال أحمد: وكما ما يقول الفقيه - إذا ذكر أدلة =

فهذا باب، ثم يشرع في باب آخر، ويقول الكاتب إذا فرغ من فصل من كتابه وأراد الشروع في آخر: هذا وقد كان كيت وكيت، والدليل عليه: أنه لما أتم ذكر أهل الجنة وأراد أن يعقبه بذكر أهل النار. قال: ﴿هَذَا وَإِنَّ لِلطَّاغِينَ﴾ وقيل: معناه هذا شرف وذكر جميل يذكرون به أبداً. وعن ابن عباس رضي الله عنهما: هذا ذكر من مضى من الأنبياء. ﴿جَنَّاتٍ عَدْنٍ﴾ معرفة لقوله: ﴿جَنَّاتٍ عَدْنٍ الَّتِي وَعَدَ الرَّحْمَنُ﴾ [مريم: ٦١] وانتصابها على أنها عطف بيان لحسن مآب. و ﴿مُفْتَحَةً﴾ حال، والعامل فيها ما في (اللمتقين) من معنى الفعل. وفي ﴿مُفْتَحَةً﴾ ضمير الجنات، والأبواب بدل من الضمير، تقديره: مفتحة هي الأبواب، كقولهم: ضرب زيد اليد والرجل، وهو من بدل الاشتمال. وقرئ: «جنات عدن مفتحة» بالرفع، على أن جنات عدن مبتدأ، ومفتحة خبره. أو كلاهما خبر مبتدأ محذوف، أي هو «جنات عدن» هي مفتحة لهم؛ كأن اللدات سمين أتراباً؛ لأن التراب مسهن في وقت واحد، وإنما جعلن على سن واحدة؛ لأن التحاب بين الأقران أثبت. وقيل: هن أتراب لأزواجهن، أسنانهن كأسنانهم.

﴿هَذَا مَا تُوعَدُونَ لِيَوْمِ الْحِسَابِ﴾ (٥٢) إِنَّ هَذَا لَرِزْقُنَا مَا لَكُمْ مِنْ نَفَادٍ ﴿٥٤﴾

قرئ: «يوعدون» بالتاء والياء ﴿لِيَوْمِ الْحِسَابِ﴾ لأجل يوم الحساب، كما تقول: هذا ما تدخرونه ليوم الحساب، أي: ليوم تجزى كل نفس ما عملت.

﴿هَذَا وَإِنَّ لِلطَّاغِينَ لَشَرَّ مَآبٍ﴾ (٥٥) جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَهَا فَنَسَّ الْمَهَادُ ﴿٥٦﴾ هَذَا فَلْيَذُوقُوهُ حَمِيمٌ وَعَسَاقُ ﴿٥٧﴾ وَآخِرُ مِنْ شَكْلِهِ أَزْوَاجُ ﴿٥٨﴾ هَذَا فَوَجَّ مُفْتَحُهُمْ مَعَكُمْ لَا مَرْجَأَ بِهِمْ إِنَّهُمْ صَالُوا النَّارِ ﴿٥٩﴾ قَالُوا بَلْ أَنْتُمْ لَمَرْجَأُكُمْ أَنْتُمْ قَدْ مَتَمُّوهُ لَنَا فَنَسَّ الْفَرَارُ ﴿٦٠﴾ قَالُوا رَبَّنَا مَنْ قَدَّمَ لَنَا هَذَا فَزِدْهُ عَذَابًا ضَعُفًا فِي النَّارِ ﴿٦١﴾

﴿هَذَا﴾ أي الأمر هذا، أو هذا كما ذكر. ﴿فَنَسَّ الْمَهَادُ﴾ كقوله: ﴿لَكُمْ مِنْ جَهَنَّمَ مِهَادٌ وَمِنْ فَوْقِهِمْ غَوَاشٍ﴾ [الأعراف: ٤١] شبه ما تحتهم من النار بالمهاد الذي يفرشه النائم، أي: هذا حميم فليذوقوه. أو العذاب هذا فليذوقوه، ثم ابتدأ فقال: هو ﴿حَمِيمٌ وَعَسَاقُ﴾ أو: هذا فليذوقوه بمنزلة ﴿وَإِنِّي فَأَرْهَبُونَ﴾ [البقرة: ٤٠] أي: ليذوقوا هذا فليذوقوه، والغساق - بالتخفيف والتشديد -: ما يغسق من صديد أهل النار، يقال: غسقت العين، إذا سال دمعها. وقيل: الحميم يحرق بحرّه، والغساق يحرق ببرده. وقيل: لو قطرت منه

= المسألة عند تمام الدليل الأول -: هذا دليل ثان كذا وكذا إلى آخر ما في نفسه، ويدل عليه أنه عند انقضاء ذكر أهل الجنة قال: (هذا وإن للطاغين لشر مآب) فذكر أهل النار.

قطرة في المشرق لتنت أهل المغرب، ولو قطرت منه قطرة في المغرب لتنت أهل المشرق. وعن الحسن رضي الله عنه. الغساق: عذاب لا يعلمه إلا الله تعالى، إن الناس أخفوا لله طاعة فأخفى لهم ثواباً في قوله: ﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّا أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ﴾ [السجدة: ١٧] وأخفوا معصية فأخفى لهم عقوبة. ﴿وَأَخْرُ﴾ ١٣٩/٢ ب ومذوقات آخر من شكل هذا المذوق من مثله في الشدة والفظاعة. ﴿أَزْوَاجٌ﴾ أجناس. وقرئ: «وآخر» أي: وعذاب آخر. أو مذوق آخر. وأزواج: صفة لآخر؛ لأنه يجوز أن يكون ضرورياً، أو صفة للثلاثة وهي: حميم، وغساق، وآخر من شكله. وقرئ: «من شكله» بالكسر^(١) وهي لغة. وأما الغنج^(٢) فبالكسر لا غير. ﴿هَذَا فَوْجٌ مُّقْتَحِمٌ مَّعَكُمْ﴾ هذا جمع كثيف قد اقتحم معكم النار، أي: دخل النار في صحبتكم وقرانكم، والافتحام: ركوب الشدة والدخول فيها. والقحمة: الشدة. وهذه حكاية كلام الطاغين بعضهم مع بعض، أي: يقولون هذا. والمراد بالفوج: أتباعهم الذين اقتحموا معهم الضلالة، فيقتحمون معهم العذاب. ﴿لَا مَرْحَبًا بِهِمْ﴾ دعاء منهم على أتباعهم. تقول لمن تدعو له: مرحباً، أي: أتيت رحباً من البلاد لا ضيقاً: أو رحبت ببلادك رحباً، ثم تدخل عليه «لا» في دعاء السوء. و ﴿بِهِمْ﴾ بيان للمدعو عليهم. ﴿إِنَّهُمْ صَالُوا النَّارِ﴾ تعليل لاستيجابهم للدعاء عليهم. ونحوه قوله تعالى: ﴿كُلَّمَا دَخَلَتْ أُمَّةٌ لَّامَتْ أَخْيَاَهَا﴾ [الأعراف: ٣٨] وقيل: هذا فوج مقتحم معكم: كلام الخزنة لرؤساء الكفرة في أتباعهم. و ﴿لَا مَرْحَبًا بِهِمْ﴾ إِنَّهُمْ صَالُوا النَّارِ ﴿كلام الرؤساء. وقيل: هذا كله كلام الخزنة ﴿وَقَالُوا﴾ أي الأتباع ﴿بَلْ أَنْتُمْ لَا مَرْحَبًا بِكُمْ﴾ يريدون: الدعاء الذي دعوتهم به علينا أنتم أحق به، وعللوا ذلك بقولهم: ﴿أَنْتُمْ قَدْ مَتُّوهُ لَنَا﴾ والضمير للعذاب أو لصليهم. فإن قلت: ما معنى تقديمهم العذاب لهم؟ قلت: المقدم هو عمل السوء. قال الله تعالى: ﴿وَذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ ذَلِكَ بِمَا قَدَّمْتُمْ أَيْدِيَكُمْ﴾ [الأنفال: ٥٠ - ٥١] ولكن الرؤساء لما كانوا السبب فيه بإغوائهم وكان العذاب جزاءهم عليه، قيل: أنتم قدمتموه لنا، فجعل الرؤساء هم المقدمين، وجعل الجزاء هو المقدم، فجمع بين مجازين؛ لأن العاملين هم المقدمون في الحقيقة لا رؤسائهم، والعمل هو المقدم لا جزاؤه. فإن قلت: فالذي جعل قوله: ﴿لَا مَرْحَبًا بِهِمْ﴾ من كلام الخزنة ما يصنع بقوله: ﴿بَلْ أَنْتُمْ لَا مَرْحَبًا بِكُمْ﴾ والمخاطبون - أعني رؤساءهم - لم يتكلموا بما يكون هذا جواباً لهم؟ قلت: كأنه قيل: هذا الذي دعا به علينا الخزنة أنتم يا رؤساء أحق به منا لإغوائكم إيانا وتسبيكم فيما نحن فيه من العذاب،

(١) قوله: وقرئ «من شكله» بالكسر، وهي لغة أي في الشكل بمعنى المثل. (ع).

(٢) قوله: «وَأما الغنج فبالكسر لا غير» في الصحاح: الغنج والغنج: الشكل، وقد غنجت الجارية وتغنجت، فهي غنجة. وفيه: الشكل - بالفتح - المثل، وبالكسر: الدل، يقال: امرأة ذات شكل. (ع).

وهذا صحيح، كما لو زين قوم لقوم بعض المساوي فارتكبه فليل للمزينين: أخزى الله هؤلاء ما أسوأ فعلهم؟ فقال المزين لهم للمزينين: بل أنتم أولى بالخزي منا، فلولا أنتم لم نرتكب ذلك، ﴿وَقَالُوا﴾ هم الأتباع أيضاً ﴿فَزِدْهُ عَذَاباً ضِعْفًا﴾ أي: مضاعفاً، ومعناه: ذا ضعف: ونحوه قوله تعالى: ﴿رَبَّنَا هَؤُلَاءِ أَصْلَوْا فَاجْعَلْ لَهُمْ عَذَاباً ضِعْفًا﴾ [الأعراف: ٣٨] وهو أن يزيد على عذابه مثله فيصير ضعفين، كقوله عز وجل ﴿رَبَّنَا إِنَّهُمْ جُفُوا بِكَ فَعَاضَ بِكَ الْعُصَابَ﴾ (١) [الأحزاب: ٦٨] وجاء في التفسير ﴿عَذَاباً ضِعْفًا﴾ حيات وأفاعي (٢).

﴿وَقَالُوا مَا لَنَا لَا نَرَىٰ رِجَالًا كَمَا نَعُدُّهُمْ مِنَ الْأَشْرَارِ﴾ (١٢) ﴿أَتُخَذَتْنَاهُمْ سِخْرِيًّا أَمْ رَآتْ عَنْهُمْ﴾
﴿الْأَبْصَارَ﴾ (١٣)

﴿وَقَالُوا﴾ الضمير للطاغين. ﴿رِجَالًا﴾ يعنون فقراء المسلمين الذين لا يؤبه لهم. ﴿مِنَ الْأَشْرَارِ﴾ من الأراذل الذين لا خير فيهم ولا جدوى، ولأنهم كانوا على خلاف دينهم، فكانوا عندهم أشراراً، ﴿أَتُخَذَتْنَاهُمْ سِخْرِيًّا﴾ قرئ بلفظ الإخبار على أنه صفة لـ «رجالاً»، مثل قوله: ﴿كَمَا نَعُدُّهُمْ مِنَ الْأَشْرَارِ﴾ وبهمزة الاستفهام على أنه إنكار على أنفسهم وتأنيب لها (٣) في الاستسخرار منهم. وقوله: ﴿أَمْ رَآتْ عَنْهُمْ الْأَبْصَارَ﴾ له وجهان من الاتصال، أحدهما: أن يتصل بقوله: ﴿مَا لَنَا﴾ أي: مالنا لا نراهم في النار؟ كأنهم ليسوا فيها بل أزاغت عنهم أبصارنا فلا نراهم وهم فيها: قسموا أمرهم بين أن يكونوا من أهل الجنة، وبين أن يكونوا من أهل النار. إلا أنه خفي عليهم مكانهم. والوجه الثاني: أن يتصل بـ «اتخذناهم» سخرياً، إما أن تكون أم متصلة على معنى: أي الفعلين فعلنا بهم الاستسخرار منهم، أم الازدراء بهم والتحقير، وأن أبصارنا كانت تعلق عنهم وتقتحمهم، على معنى إنكار الأمرين جميعاً على أنفسهم، وعن الحسن: كل ذلك قد فعلوا، اتخذوهم سخرياً وزاغت عنهم أبصارهم محقرة لهم. وإما أن تكون منقطعة بعد مضي «أخذناهم سخرياً» على الخبر أو الاستفهام، كقولك: إنها إبل أم شاء، وأزيد عندك أم عندك عمرو، ولك أن تقدّر همزة الاستفهام محذوفة فيمن قرأ بغير همزته؛ لأن «أم» تدلّ عليها، فلا تفترق القراءة: إثبات همزة الاستفهام وحذفها. وقيل: الضمير في ﴿وَقَالُوا﴾ لصناديد قریش، كأبي جهل

(١) قوله تعالى: (قالوا ربنا من قدم لنا هذا فزده عذاباً ضعفاً)، وقال في موضع آخر: (أنهم ضعفين من العذاب والعنهم لعناً كبيراً) والقصة واحدة. قال أحمد: وفيه دليل على أن الضعفين اثنان من شيء واحد، خلافاً لمن قال غير ذلك؛ لأنه في موضع قال: (فزده عذاباً ضعفاً) والمراد: مثل عذابه، فيكونا عذابين، وقال في موضعين (ضعفين) والمراد: ذا عذابين.

(٢) قوله: «وجاء في التفسير... إلخ» عبارة الخازن: قال ابن عباس: حيات وأفاعي. (ع).

(٣) قوله: «وتأنيب لها» أي: تعنيف ولوم. أفاده الصحاح. (ع).

والوليد وأضرابهما، والرجال: عمار وصهيب وبلال وأشباههم. وقرئ: «سخرياً» بالضم والكسر.

﴿إِنَّ ذَلِكَ لَحَقٌّ تَخَاصُمُ أَهْلِ النَّارِ﴾ (١٤)

﴿إِنَّ ذَلِكَ﴾ أي الذي حكينا عنهم ﴿لَحَقٌّ﴾ لا بد أن يتكلموا به، ثم بين ما هو فقال: هو ﴿تَخَاصُمُ أَهْلِ النَّارِ﴾. وقرئ: بالنصب على أنه صفة لذلك، لأن أسماء الإشارة توصف بأسماء الأجناس^(١) ١٤٠/٢ أ. فإن قلت: لم سمي ذلك تخاصماً؟ قلت: شبه تفاولهم وما يجري بينهم من السؤال والجواب بما يجري بين المتخاصمين من نحو ذلك^(٢)؛ ولأن قول الرؤساء: لا مرحباً بهم، وقول أتباعهم: بل أنتم لا مرحباً بكم، من باب الخصومة، فسمي التفاول كله تخاصماً لأجل اشتماله على ذلك.

﴿قُلْ إِنَّمَا أَنَا مُنْذِرٌ وَمَا مِنَّ إِلَهٍ إِلَّا اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ﴾ (١٥) رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا الْعَزِيزُ الْغَفَّارُ﴾ (١٦)

﴿قُلْ﴾ يا محمد لمشركي مكة: ما أنا إلا رسول ﴿مُنْذِرٌ﴾ أنذركم عذاب الله للمشركين، وأقول لكم: إن دين الحق توحيد الله وأن يعتقد أن لا إله إلا الله ﴿الْوَاحِدُ﴾ بلا ند ولا شريك ﴿الْقَهَّارُ﴾ لكل شيء، وأن الملك والربوبية له في العالم كله وهو ﴿الْعَزِيزُ﴾ الذي لا يغلب إذا عاقب العصاة، وهو مع ذلك ﴿الْغَفَّارُ﴾ لذنوب من التجأ إليه. أو قل لهم: ما أنا إلا منذر لكم ما أعلم، وأنا أنذركم عقوبة من هذه صفته، فإن مثله حقيق بأن يخاف عقابه، كما هو حقيق بأن يرجى ثوابه.

(١) قال السمين الحلبي: وهذا فيه نظر؛ لأنهم نصوا على أن أسماء الإشارة لا توصف إلا بما فيه أل نحو «مررت» بهذا الرجل، ولا يجوز «مررت» بهذا غلام الرجل، فهذا أبعد، ولأن الصحيح أن الواقع بعد اسم الإشارة المقارن لال إن كان مشتقاً كان صفة وإلا كان بدلاً و«تخاصم» ليس مشتقاً. انتهى. الدر المصون.

(٢) قال محمود: «إن قلت لم سمي ذلك تخاصماً؟ قلت: شبه تفاولهم وما يجري بينهم من السؤال والجواب بما يجري بين المتخاصمين من نحو ذلك؛ ولأن قول الرؤساء: لا مرحباً بهم، وقول أتباعهم: بل أنتم لا مرحباً بكم، من باب الخصومة» قال أحمد: هذا يحقق أن ما تقدم من قوله: (لا مرحباً بهم إنهم صالو النار) من قول المتكبرين الكفار، وقوله تعالى: (بل أنتم لا مرحباً بكم) من قول الأتباع، فالخصومة على هذا التأويل حصلت من الجهتين، فيتحقق التخاصم، خلافاً لمن قال: إن الأول من كلام خزنة جهنم، والثاني: من كلام الأتباع؛ فإنه على هذا التقدير إنما تكون الخصومة من أحد الفريقين، فالتفسير الأول أمكن وأثبت.

﴿قُلْ هُوَ نَبَأٌ عَظِيمٌ ﴿٦٧﴾ أَنْتُمْ عَنْهُ مُعْرِضُونَ ﴿٦٨﴾ مَا كَانَ لِي مِنْ عِلْمٍ بِالْمَلَأِ الْأَعْلَى إِذْ يَخْتَصِمُونَ ﴿٦٩﴾﴾
 ﴿إِنْ يُوحَىٰ إِلَيَّ إِلَّا أَنْمَأَ أَنَا نَذِيرٌ مُبِينٌ ﴿٧٠﴾﴾

﴿قُلْ هُوَ نَبَأٌ عَظِيمٌ ﴿٦٧﴾﴾ أي: هذا الذي أنبأتكم به - من كوني رسولا منذرا، وأن الله واحد لا شريك له - نبأ عظيم لا يعرض عن مثله إلا غافل شديد الغفلة. ثم احتج لصحة نبوته بأن ما ينبيء به عن الملائكة الأعلى واختصاصهم أمر ما كان له به من علم قط، ثم علمه ولم يسلك الطريق الذي يسلكه الناس في علم ما لم يعلموا، وهو الأخذ من أهل العلم وقراءة الكتب، فعلم أن ذلك لم يحصل إلا بالوحي من الله. ﴿إِنْ يُوحَىٰ إِلَيَّ إِلَّا أَنْمَأَ أَنَا نَذِيرٌ﴾ أي: لأنما أنا نذير. ومعناه: ما يوحى إلي إلا للإنذار، فحذف اللام وانتصب بإفشاء الفعل إليه. ويجوز أن يرتفع على معنى: ما يوحى إلي إلا هذا، وهو أن أنذر وأبلغ ولا أفرط في ذلك، أي ما أومر إلا بهذا الأمر وحده، وليس إلي غير ذلك. وقرئ: «إنما» بالكسر على الحكاية، أي: إلا هذا القول، وهو أن أقول لكم: إنما أنا نذير مبين ولا أدعي شيئا آخر^(١). وقيل: النبأ العظيم: قصص آدم عليه السلام والإنباء به من غير سماع من أحد، وعن ابن عباس: القرآن. وعن الحسن: يوم القيامة. فإن قلت: بم يتعلق ﴿إِذْ يَخْتَصِمُونَ﴾؟ قلت: بمحذوف؛ لأن المعنى: ما كان لي من علم بكلام الملائكة الأعلى وقت اختصاصهم، و ﴿إِذْ قَالَ﴾ بدل من ﴿إِذْ يَخْتَصِمُونَ﴾. فإن قلت: ما المراد بالملائكة الأعلى؟ قلت: أصحاب القصة الملائكة وآدم وإبليس؛ لأنهم كانوا في السماء وكان التقاول بينهم، فإن قلت: ما كان التقاول بينهم إنما كان بين الله تعالى وبينهم؛ لأن الله سبحانه وتعالى هو الذي قال لهم وقالوا له، فأنت بين أمرين: إما أن تقول الملائكة الأعلى هؤلاء، وكان التقاول بينهم ولم يكن التقاول بينهم، وإما أن تقول: التقاول كان بين الله وبينهم، فقد جعلته من الملائكة الأعلى. قلت: كانت مقابلة الله سبحانه بواسطة ملك، فكان المقاول في الحقيقة هو الملك المتوسط، فصح أن التقاول كان بين الملائكة وآدم وإبليس، وهم الملائكة الأعلى والمراد بالاختصاص: التقاول على ما سبق.

﴿إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَكَةِ إِنِّي خَلَقْتُ بَشَرًا مِنْ طِينٍ ﴿٧١﴾ فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي فَقَعُوا لَهُ

(١) قال السمين الحلبي: قال الشيخ: وفي تخريجه تعارض؛ لأنه قال: إلا هذا القول، فظاهره الجملة التي هي: «إنما أنا نذير مبين» ثم قال: وهو أن أقول لكم: إنني نذير، فالمقام مقام الفاعل هو أن أقول لكم وإنني وما بعده في موضع نصب، وعلى قوله: إلا هذا القول يكون في موضع رفع؛ فتعاضدا. قلت: ولا تعارض البتة؛ لأنه تفسير مغنى في التقدير الثاني، وفي الأول تفسير أغراب، فلا تعارض. انتهى. الدر المصون.

سَجِدِينَ ﴿٧٧﴾ فَسَجَدَ الْمَلَائِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ ﴿٧٨﴾ إِلَّا إِبْلِيسَ اسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ

الْكَافِرِينَ ﴿٧٩﴾

فإن قلت: كيف صح أن يقول لهم: ﴿إِنِّي خَلَقْتُ بَشَرًا﴾ وما عرفوا ما البشر ولا عهدوا به قبل؟ قلت: وجهه أن يكون قد قال لهم: إني خالق خلقاً من صفته كيت وكيت، ولكنه حين حكاه اقتصر على الاسم، ﴿فَإِذَا سَوَّيْتُهُ﴾ فإذا أتممت خلقه وعدلته. ﴿وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي﴾ وأحييته وجعلته حساساً متنفساً ﴿فَفَعُوا﴾ فخروا، كل: للإحاطة. وأجمعون: للاجتماع، فأفاداً معاً أنهم سجدوا عن آخرهم ما بقي منهم ملك إلا سجد، وأنهم سجدوا جميعاً في وقت واحد غير متفرقين في أوقات. فإن قلت: كيف ساغ السجود لغير الله؟ قلت: الذي لا يسوغ هو السجود لغير الله على وجه العبادة، فأما على وجه التكرمة والتبجيل فلا يأباه العقل، إلا أن يعلم الله فيه مفسدة فينهى عنه، فإن قلت: كيف استثنى إبليس من الملائكة وهو من الجن؟ قلت: قد أمر بالسجود معهم فغلبوا عليه في قوله: ﴿فَسَجَدَ الْمَلَائِكَةُ﴾ ثم استثنى كما يستثنى الواحد منهم استثناء متصلاً، ﴿وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ﴾ أريد: وجود كفره ذلك الوقت وإن لم يكن قبله كافراً؛ لأن (كان) مطلق في جنس الأوقات الماضية، فهو صالح لأيهما شئت، ويجوز أن يراد: وكان من الكافرين في الأزمنة الماضية في علم الله.

﴿قَالَ يَبْنَائِيلُ مَا مَنَعَكَ أَنْ تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِإِدَّتِي اسْتَكْبَرْتَ أَمْ كُنْتَ مِنَ الْعَالِينَ﴾ ﴿٧٥﴾ قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ خَلَقْنِي مِنْ نَارٍ وَخَلَقْنَاهُ مِنْ طِينٍ ﴿٧٦﴾

فإن قلت: ما وجه قوله: ﴿خَلَقْتُ بِإِدَّتِي﴾: قلت: قد سبق لنا أن ذا اليمين يباشر أكثر أعماله بيديه، فغلب العمل باليدين على سائر الأعمال التي تباشر بغيرهما، حتى قيل في عمل ١٤٠/٢ ب القلب: هو مما عملت يداك، وحتى قيل لمن لا يدين له: يداك أوكتا^(١) وفوك نفخ. وحتى لم يبق فرق بين قولك: هذا مما عملته، وهذا مما عملته يداك. ومنه قوله تعالى: ﴿مِمَّا عَمِلْتَ آيِدَيْنَا أَنْعَمًا﴾ [يس: ٧١]، و: ﴿لِمَا خَلَقْتُ بِإِدَّتِي﴾. فإن قلت: فما معنى قوله: ﴿مَا مَنَعَكَ أَنْ تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِإِدَّتِي﴾ [ص: ٧٥]؟ قلت: الوجه الذي استنكر له إبليس السجود لآدم، واستنكف منه أنه سجد لمخلوق، فذهب بنفسه، وتكبر أن يكون سجوده لغير الخالق، وانضم إلى ذلك أن آدم مخلوق من طين وهو مخلوق من نار. ورأى للنار فضلاً على الطين فاستعظم أن يسجد لمخلوق مع فضله عليه في المنصب، وزلّ عنه أن الله سبحانه حين أمر به أعزّ عباده عليه^(٢) وأقربهم منه زلفى وهم الملائكة، وهم أحقّ

(١) قوله: «يداك أوكتا» في الصحاح: أوكى على ما في سقائه: إذا شده بالكواء. (ع).

(٢) قوله: «حين أمر به أعزّ عباده» مبني على مذهب المعتزلة: أن الملك أفضل من البشر. وعند أهل =

بأن يذهبوا بأنفسهم عن التواضع للبشر الضئيل، ويستنكفوا من السجود له من غيرهم، ثم لم يفعلوا وتبعوا أمر الله وجعلوه قدام أعينهم، ولم يلتفتوا إلى التفاوت بين الساجد والمسجود له؛ تعظيماً لأمر ربهم وإجلالاً لخطابه - كان هو مع انحطاطه عن مراتبهم حري بأن يقتدي بهم ويقتفي أثرهم، ويعلم أنهم في السجود لمن هو دونهم بأمر الله أوغل في عبادته منهم في السجود له؛ لما فيه من طرح الكبرياء وخفض الجناح، فقليل له: ما منعك أن تسجد لما خلقت بيدي؟ أي: ما منعك من السجود لشيء هو كما تقول مخلوق خلقته بيدي - لا شك في كونه مخلوقاً - امتثالاً لأمرى وإعظاماً لخطابي كما فعلت الملائكة؟ فذكر له ما تركه من السجود مع ذكر العلة التي تشبث بها في تركه، وقيل له: لم تركته مع وجود هذه العلة، وقد أمرك الله به؟ يعني: كان عليك أن تعتبر أمر الله ولا تعتبر هذه العلة، ومثاله: أن يأمر الملك وزيره أن يزور بعض سقاط الحشم فيمتنع اعتباراً لسقوطه، فيقول له: ما منعك أن تتواضع لمن لا يخفى عليّ سقوطه^(١)، يريد: هلا اعتبرت أمرى

= السنة: البشر أفضل من الملك. (ع).

(١) قال محمود: «لما كان ذو اليمين يباشر أكثر أعماله بيديه: غلب العمل باليدين على سائر الأعمال التي تباشر بغير اليدين، حتى قيل في عمل القلب: هذا مما عملت يداك. قال: ومعناه أن الوجه الذي استنكر له إبليس السجود لأدم واستنكف بسببه: أنه سجد لمخلوق، مع أنه دون الساجد؛ لأن آدم من طين، وإبليس من نار، فرأى للنار فضلاً على الطين، وزل عنه أن الله سبحانه حين أمر أعز عبادته عليه وأقربهم منه وهم الملائكة أن يسجدوا لهذا البشر - لم يمتنعوا ولم يذهبوا بأنفسهم إلى التكبر، مع انحطاطه عن مراتبهم، فقليل له: ما منعك أن تسجد لهذا الذي هو مخلوق بيدي كما وقع لك، مع أنه لا شك أن في ذلك امتثالاً لأمرى وإعظاماً لخطابي كما فعلت الملائكة؟ فذكر له العلة التي منعت من السجود، وقيل له: ما حملك على اعتبار هذه العلة دون اعتبار أمرى؟ ومثاله: أن يأمر الملك وزيره أن يزور بعض سقاط الحشم، فيمتنع اعتباراً لسقوطه. فيقول له: ما منعك أن تتواضع لمن لا يخفى عليّ سقوطه؟ يريد: هلا اعتبرت أمرى وخطابي وتركت اعتبار سقوطه، انتهى المقصود من الآية بعد تطويل وإطناب وإكثار وإسهاب» قال أحمد: إنما أطال القول هنا ليفر من معتقدين لأهل السنة تشتمل عليهما هذه الآية: أحدهما: أن اليمين من صفات الذات أثبتهما السمع، هذا مذهب أبي الحسن والقاضي، بعد إبطالهما حمل اليمين على القدرة؛ فإن قدرة الله تعالى واحدة، واليدان مذكورتان بصيغة التثنية، وأبطلا حملهما على النعمة بأن نعم الله لا تحصى، فكيف تحصر بالتثنية. وغيرهما من أهل السنة كإمام الحرمين وغيره يجوز حملهما على القدرة والنعمة، ويجب عما ذكره بأن المراد نعمة الدنيا والآخرة، وهذا ما يحق تفضيله على إبليس؛ إذ لم يخلق لإبليس لنعمة الآخرة، وعلى أن المراد القدرة، فالتثنية تعظيم، ومثل ذلك يوجد في اللغة كثيراً. المعتقد الثاني: أن النبي أفضل من الملك، والزمخشري شديد العصبية في هذه المسألة والإنكار على من قال بذلك من أهل السنة، لا جرم أنه أجرم في بسط كلامه على آدم عليه السلام، فمثل قصته في انحطاط مرتبته على زعمه عن مرتبة الملائكة بقول الملك لوزيره: زر بعض سقاط الحشم، فجعل سقاط حشم الملك مثلاً لأدم الذي هو عنصر الأنبياء عليهم السلام، وأقام لإبليس عذره وصوب اعتقاده، أنه أفضل من آدم؛ لكونه من نار وآدم من طين، وإنما غلظه من جهة =

وخطابي وتركت اعتبار سقوطه، وفيه: أني خلقتة بيدي، فأنا أعلم بحاله، ومع ذلك أمرت الملائكة بأن يسجدوا له لداعي حكمة دعائي إليه: من إنعام عليه بالتكريمة السنية وإبتلاء للملائكة، فمن أنت حتى يصرفك عن السجود له، ما لم يصرفني عن الأمر بالسجود له؟ وقيل: معنى ﴿لَمَّا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ﴾ لما خلقت بغير واسطة. وقرئ: «بيدي» كما قرئ: «بمصرخي». وقرئ: «بيدي»، على التوحيد. ﴿مِنَ الْعَالِينَ﴾ ممن علوت وفقت، فأجاب بأنه من العالين حيث ﴿قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ﴾ وقيل: «أستكبرت» الآن، أم لم تزل منذ كنت من المستكبرين. ومعنى الهمزة: التقرير. وقرئ: «استكبرت» بحذف حرف الاستفهام؛ لأن أم تدلّ عليه. أو بمعنى الإخبار، هذا على سبيل الأولى، أي: لو كان مخلوقاً من نار لما سجدت له؛ لأنه مخلوق مثلي، فكيف أسجد لمن هو دوني لأنه من طين والنار تغلب الطين وتأكله؟ وقد جرت الجملة الثانية من الأولى وهي ﴿خَلَقْتَنِي مِن نَّارٍ﴾ مجرى المعطوف عطف البيان من المعطوف عليه في البيان والإيضاح.

﴿قَالَ فَاحْجُجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ﴾ (٧٧) وَإِنَّ عَلَيْكَ لَعْنَتِي إِلَى يَوْمِ الدِّينِ (٧٨) ﴿

﴿مِنْهَا﴾ من الجنة. وقيل: من السموات. وقيل: من الخلقة التي أنت فيها؛ لأنه كان يفتخر بخلقته، فغير الله خلقتة، فاسودّ بعد ما كان أبيض، وقبح بعد ما كان حسناً، وأظلم بعد ما كان نورانياً. والرجيم: المرجوم. ومعناه: المطرود، كما قيل له: المدحور والملعون؛ لأن من طرد رمي بالحجارة على أثره. والرجم: الرمي بالحجارة. أو لأن الشياطين يرمون بالشهب. فإن قلت: قوله: ﴿لَعْنَتِي إِلَى يَوْمِ الدِّينِ﴾ كأن لعنة إبليس غايتها يوم الدين ثم تنقطع؟ قلت: كيف تنقطع وقد قال الله تعالى: ﴿فَأَذِّنْ مُؤَذِّنٌ بَيْنَهُمْ أَن لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ﴾ [الأعراف: ٤٤] ولكن المعنى: أن عليه اللعنة في الدنيا، فإذا كان يوم الدين اقترن له باللعنة ما ينسى عنده اللعنة، فكأنها انقطعت.

= أخرى. وهو أنه لم يقس نفسه على الملائكة إذ سجدوا له، على علمهم أنه بالنسبة إليهم محطوط الرتبة ساقط المنزلة، وجعل قوله تعالى: (لما خلقت بيدي) إنما ذكر تقريراً للعلة التي منعت إبليس من السجود، وهو كونه دونه، وهذا - نسأل الله العصمة - المراد منه ضد ما فهم الزمخشري، وإنما ذكر ذلك تعظيماً لمعصية إبليس؛ إذ امتنع من تعظيم من عظمه الله إذ خلقه بيده، وذلك تعظيم لآدم لا تحقير منه، ويدل عليه الحديث الوارد في الشفاعة، إذ يقول له الناس عندما يقصدونه فيها: أنت آدم أبو البشر خلقك الله بيده وأسجد لك ملائكته وأسكنك جنته. فإنما يذكرون ذلك في سياق تعديد كراماته وخصائصه، لا فيما يحط منه، معاذ الله وإياه نسأل أن يعصمنا من مهاوي الهوى ومهالكه، وأن يرشدنا إلى سبيل الحق ومسالكه، إنه ولي التوفيق، وبالإجابة حقيق.

﴿قَالَ رَبِّ فَأَنْظِرْنِي إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ﴾ (٧٩) قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ الْمُنْظَرِينَ ﴿٨٠﴾ إِلَى يَوْمِ الْوَقْتِ الْمَعْلُومِ ﴿٨١﴾

فإن قلت: ما الوقت المعلوم الذي أضيف إليه اليوم؟ قلت: الوقت الذي تقع فيه النفخة الأولى. ويومه: اليوم الذي وقت النفخة جزء من أجزائه. ومعنى المعلوم: أنه معلوم عند الله معين، لا يستقدم ولا يستأخر.

﴿قَالَ فِعْرَيْكَ لِأَعْيُنِهِمْ أَجْمَعِينَ﴾ (٨٢) إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ ﴿٨٣﴾ ﴿فِعْرَيْكَ﴾ إقسام بعزة الله تعالى وهي سلطانه وقهره.

﴿قَالَ فَالْحَقُّ وَالْحَقَّ أَقُولُ﴾ (٨٤) لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنْكَ وَمِمَّنْ تَبِعَكَ مِنْهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٨٥﴾
 قرئ: «فالحق والحق» منصوبين على أن الأول مقسم به كالله في [من الرجز]:
 إِنَّ عَلَيْكَ اللَّهُ أَنْ تُبَايَعَا^(١)

وجوابه ﴿لَأَمْلَأَنَّ﴾ والحق أقول: اعتراض بين المقسم به والمقسم عليه، ومعناه: ولا أقول إلا الحق. والمراد بالحق: إما اسمه عز وعلا الذي في قوله: ﴿أَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ الْمُبِينُ﴾ [النور: ٢٥] أو الحق الذي هو نقيض الباطل: عظمه الله بإقسامه به. ومرفوعين على أن الأول مبتدأ محذوف الخبر، كقوله: (لعمرك) أي: فالحق قسمي لأملأن. والحق أقول، أي: أقوله كقوله كله لم أصنع، ومجرورين: على أن الأول ١٤١/٢ مقسم به قد أضمر حرف قسمه، كقولك: الله لأفعلن. والحق أقول، أي: ولا أقول إلا الحق على حكاية لفظ المقسم به. ومعناه: التوكيد والتشديد. وهذا الوجه جائز في المنصوب والمرفوع أيضاً. وهو وجه دقيق حسن. وقرئ: برفع الأول وجزؤه مع نصب الثاني، وتخريجه على ما ذكرنا، ﴿مِنْكَ﴾ من جنسك وهم الشياطين ﴿وَمِمَّنْ تَبِعَكَ مِنْهُمْ﴾ من ذرية آدم، فإن قلت: ﴿أَجْمَعِينَ﴾ تأكيد لماذا؟ قلت: لا يخلو أن يؤكد به الضمير في «منهم»، أو الكاف في «منك» مع «من تبعك». ومعناه: لأملأن جهنم من المتبوعين والتابعين أجمعين لا أترك منهم أحداً، أو لأملأنها من الشياطين ومن تبعهم من جميع الناس، لا تفاوت في ذلك بين ناس وناس بعد وجود الأتباع منهم من أولاد الأنبياء وغيرهم.

(١) وبعده: «تؤخذ كرها أو تجيء طائعا»

الرجز بلا نسبة في الخزانة (٢٠٣/٥ - ٢٠٤)، وشرح أبيات سيبويه (٤٠٢/١) الكتاب (١٥٦/١) وشرح التصريح (١٦١/١)، وشرح الأشموني (٤٤٠/٢) والمقاصد النحوية (١٩٩/٤) والمقتضب (٦٣/٢).

﴿قُلْ مَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُتَكَلِّفِينَ﴾ (٨٦) إِنَّ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ ﴿٨٧﴾ وَلَنَعْلَمَنَّ نَبَأَهُ
بَعْدَ حِينٍ ﴿٨٨﴾

﴿عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ﴾ الضمير للقرآن أو للوحي. ﴿وَمَا أَنَا مِنَ الْمُتَكَلِّفِينَ﴾ من الذين يتصنعون ويتحلون بما ليسوا من أهله، وما عرفتموني قط متصنعاً ولا مدّعياً ما ليس عندي، حتى أنتحل النبوة وأتقول القرآن، ﴿إِنَّ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ﴾ من الله ﴿لِلْعَالَمِينَ﴾ للثقلين. أوحى إليّ فأنا أبلغه، وعن رسول الله ﷺ: «للمتكلف ثلاث علامات: ينازع من فوقه، ويتعاطى ما لا ينال، ويقول ما لا يعلم» (١٣٣٢) ﴿وَلَنَعْلَمَنَّ نَبَأَهُ﴾ أي: ما يأتيكم عند الموت، أو يوم القيامة، أو عند ظهور الإسلام وفشوّه، من صحة خبره، وأنه الحق والصدق. وفيه تهديد. عن رسول الله ﷺ: «من قرأ سورة ص كان له بوزن كل جبل سخره الله لداود عشر حسنات، وعصمه أن يصّر على ذنب صغير أو كبير» (١٣٣٣).

١٣٣٢ - أخرجه البيهقي في الشعب (٢٧٠/٤)، باب: في حفظ اللسان فصل في فضل السكوت عما لا يعنيه، رقم (٥٠٦٤).

من طريق أرطاة بن المنذر مقطوعاً، وعزاه الزيلعي في تخريج أحاديث الكشاف (١٩٤/٣) للثعلبي في تفسيره من طريق أرطاة بن المنذر عن ضمرة بن حبيب عن سلمة بن نفيل، وقال الحافظ ابن حجر: أخرجه الثعلبي من طريق محمد بن عون حدثنا محمد بن المصلي حدثنا حيوة بن شريح عن أرطاة بن المنذر عن ضمرة بن حبيب عن سلمة بن نفيل مرفوعاً به، ورواه البيهقي في الشعب في الثالث والثلاثين من رواية بقية عن أرطاة قوله ورواه أبو نعيم عن وهب بن منه قوله. انتهى.

١٣٣٣ - عزاه الزيلعي في تخريج أحاديث الكشاف (١٩٥/٣) للثعلبي في تفسيره، ولابن مردويه في تفسيره في آل عمران، والحديث تقدم تخريجه بتوسع برقم (٣٤٦) وقال الحافظ: أخرجه الثعلبي وابن مردويه والواحد من حديث أبي رضي الله عنه. انتهى.

سورة الزمر

مكية، إلا قوله: ﴿قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا...﴾ الآية،
وتسمى سور الغرف، وهي خمس وسبعون آية. وقيل: ثنتان وسبعون آية
[نزلت بعد سورة سبأ]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿تَنْزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ ①﴾ إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ فَاعْبُدِ اللَّهَ
مُخْلِصًا لَهُ الدِّينَ ② أَلَا لِلَّهِ الدِّينُ الْخَالِصُ وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ مَا نَعْبُدُهُمْ
إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَىٰ إِنَّ اللَّهَ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ فِي مَا هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ
هُوَ كَذِيبٌ كَفَّارٌ ③ لَوْ أَرَادَ اللَّهُ أَنْ يَتَّخِذَ وَلَدًا لَاصْطَفَىٰ مِمَّا يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ
سُبْحَنَهُ هُوَ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ ④﴾

﴿تَنْزِيلُ الْكِتَابِ﴾ قرئ بالرفع على أنه مبتدأ أخبر عنه بالظرف، أو خبر مبتدإ محذوف
والجار صلة التنزيل، كما تقول: نزل من عند الله، أو غير صلة، كقولك: هذا الكتاب من
فلان إلى فلان، فهو على هذا خبر بعد خبر. أو خبر مبتدإ محذوف، تقديره: هذا تنزيل
الكتاب، هذا من الله، أو حال من التنزيل عمل فيها معنى الإشارة، وبالنصب على إضمار
فعل، نحو: اقرأ، والزم. فإن قلت: ما المراد بالكتاب؟ قلت: الظاهر على الوجه الأول
أنه القرآن، وعلى الثاني: أنه السورة. ﴿مُخْلِصًا لَهُ الدِّينَ﴾ محضاً له الدين من الشرك
والرياء بالتوحيد وتصفية السر. وقرئ: «الدين» بالرفع. وحق من رفعه أن يقرأ مخلصاً -
بفتح اللام - كقوله تعالى: ﴿وَأَخْلَصُوا دِينَهُمْ لِلَّهِ﴾ [النساء: ١٤٦] حتى يطابق قوله: ﴿أَلَا لِلَّهِ
الدِّينُ الْخَالِصُ﴾ والخالص والمخلص: واحد، إلا أن يصف الدين بصفة صاحبه على
الإسناد المجازي. كقولهم: شعر شاعر، وأما من جعل ﴿مُخْلِصًا﴾ حالاً من العابد، و﴿لَهُ
الدِّينَ﴾ مبتدأ وخبراً، فقد جاء بإعراب رجع به الكلام إلى قولك: لله الدين ﴿أَلَا لِلَّهِ الدِّينُ
الْخَالِصُ﴾ أي: هو الذي وجب اختصاصه بأن تخلص له الطاعة من كل شائبة كدر؛
لاطلاعاً على الغيوب والأسرار، ولأنه الحقيق بذلك؛ لخلوص نعمته عن استجرار المنفعة

بها. وعن قتادة: الدين الخالص شهادة أن لا إله إلا الله. وعن الحسن: الإسلام. ﴿وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا﴾ يحتمل المتخذين وهم الكفرة، والمتخذين وهم الملائكة وعيسى واللات والعزى، عن ابن عباس رضي الله عنهما، فالضمير في ﴿اتَّخَذُوا﴾ على الأول راجع إلى الذين، وعلى الثاني إلى المشركين، ولم يجر ذكرهم لكونه مفهوماً، والراجع إلى الذين محذوف، والمعنى: والذين اتخذهم المشركون أولياء، ﴿وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا﴾ في موضع الرفع على الابتداء. فإن قلت: فالخبر ما هو؟ قلت: هو على الأول إما ﴿إِنَّ اللَّهَ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ﴾ أو ما أضمر من القول قبل قوله: ﴿مَا نَعْبُدُهُمْ﴾. وعلى الثاني: أن الله يحكم بينهم. فإن قلت: فإذا كان ﴿إِنَّ اللَّهَ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ﴾ الخبر، فما موضع القول المضمّر؟ قلت: يجوز أن يكون في موضع الحال، أي: قائلين ذلك. ويجوز أن يكون بدلاً من الصلة فلا يكون له محل، كما أن المبدل منه كذلك. وقرأ ابن مسعود بإظهار القول. «قالوا ما نعبدكم» وفي قراءة أبي: «ما نعبدكم ١٤١/٢ اب إلا لتقربونا» على الخطاب، حكاية لما خاطبوا به آلهتهم. وقرئ: «نعبدكم» بضم النون إبتاعاً للعين كما تتبعها الهمزة في الأمر، والتنوين في ﴿وَعَذَابٌ﴾ ﴿أَكْرَفُ﴾ [ص: ٤١ - ٤٢] والضمير في ﴿بَيْنَهُمْ﴾ لهم ولأوليائهم. والمعنى: إن الله يحكم بينهم بأنه يدخل الملائكة وعيسى الجنة، ويدخلهم النار مع الحجارة التي نحتوها وعبدوها من دون الله يعذبهم بها؛ حيث يجعلهم وإياها حصب جهنم. واختلافهم: أن الذين يعبدون موحدون وهم مشركون، وأولئك يعادونهم ويلعنونهم، وهم يرجون شفاعتهم وتقريبهم إلى الله زلفى. وقيل: كان المسلمون إذا قالوا لهم: من خلق السموات والأرض؟ أفروا وقالوا: الله، فإذا قالوا لهم: فما لكم تعبدون الأصنام؟ قالوا: ما نعبدكم إلا ليقربونا إلى الله زلفى؛ فالضمير في ﴿بَيْنَهُمْ﴾ عائد إليهم وإلى المسلمين. والمعنى: إن الله يحكم يوم القيامة بين المتنازعين من الفريقين، والمراد بمنع الهداية: منع اللطف تسجيلاً عليهم بأن لا لطف لهم، وأنهم في علم الله من الهالكين^(١). وقرئ: «كذاب وكذوب»، وكذبهم: قولهم في بعض من اتخذوا من دون الله أولياء: بنات الله؛ ولذلك عقبه محتجاً عليهم بقوله: ﴿لَوْ أَرَادَ اللَّهُ أَنْ يَخْذَ لَدَا لَأَصْطَفَىٰ مِمَّا يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ﴾ يعني: لو أراد اتخاذ الولد لامتنع ولم يصح؛ لكونه محالاً ولم يتأت إلا أن يصطفى من خلقه بعضه ويختصهم ويقربهم، كما يختص الرجل ولده ويقربه. وقد فعل

(١) قال محمود: «المراد بمنع الهداية منع اللطف تسجيلاً عليهم بأن لا يلفظ بهم، وأنه في علمه من الهالكين» قال أحمد: مذهب أهل السنة حمل هذه الآية وأمثالها على الظاهر، فإن معتقدهم أن معنى هداية الله تعالى للمؤمن خلق الهدى فيه، ومعنى إضلاله للكافر إزاحته عن الهدى وخلق الكفر له، ومع ذلك فيجوز عند أهل السنة أن يخلق الله تعالى للكافر لطفاً يؤمن عنده طائعا، خلافاً للقدرة. وغرضنا التنبيه على مذهب أهل الحق لا غيره.

ذلك بالملائكة فافتتنتم به وعرکم اختصاصه إياهم، فرعتم أنهم أولاده، جهلاً منكم به وبحقيقته المخالفة لحقائق الأجسام والأعراض، كأنه قال: لو أراد اتخاذ الولد لم يزد على ما فعل من اصطفاء ما يشاء من خلقه وهم الملائكة، إلا أنكم لجهلكم به حسبتم اصطفاءهم اتخاذهم أولاداً، ثم تماديتم في جهلكم وسفهكم فجعلتموهم بنات، فكنتم كذابين كفارين متبالغين في الافتراء^(١) على الله وملائكته، غالبين^(٢) في الكفر، ثم قال: ﴿سُبْحَنَهُ﴾ فنه ذاته عن أن يكون له أحد ما نسبوا إليه من الأولاد والأولياء. ودل على ذلك بما ينافيه، وهو أنه واحد، فلا يجوز أن يكون له صاحبة؛ لأنه لو كانت له صاحبة لكانت من جنسه ولا جنس له؛ وإذا لم يتأت أن يكون له صاحبة لم يتأت أن يكون له ولد، وهو معنى قوله: ﴿أَنَّى يَكُونُ لَهُ وَلَدٌ وَلَمْ تَكُنْ لَهُ صَاحِبَةً﴾ [الأنعام: ١٠١]. وقهار: غلب لكل شيء، ومن الأشياء آلهتهم، فهو يغلبهم، فكيف يكونون له أولياء وشركاء؟.

﴿خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ يُكَوِّرُ اللَّيْلَ عَلَى النَّهَارِ وَيُكَوِّرُ النَّهَارَ عَلَى اللَّيْلِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُّسَمًّى أَلَا هُوَ الْعَزِيزُ الْغَفَّورُ﴾

ثم دل بخلق السموات والأرض، وتكوين كل واحد من الملوك على الآخر، وتسخير النيرين، وجريهما لأجل مسمى، وبث الناس على كثرة عددهم من نفس واحدة، وخلق الأنعام على أنه واحد لا يشارك، قهار لا يغالب. والتكوين: اللف واللي، يقال: كار العمامة على رأسه وكورها. وفيه أوجه منها: أن الليل والنهار خلقة يذهب هذا ويغشى مكانه هذا، وإذا غشى مكانه فكانما ألبسه ولف عليه كما يلف اللباس على اللابس. ومنه قول ذي الرمة في وصف السراب [من البسيط]:

تَلْوِي الثَّنَائِيَا بِأَحْقَنِهَا حَوَاشِيَهُ لِي الْمَلَأَ بِأَبْوَابِ التَّفَارِيحِ^(٣)

(١) قوله: «متبالغين في الافتراء» لعله: متبالغين. (ع).

(٢) قوله: «غالبين في الكفر» لعله: غالين. (ع).

(٣) وراكذ الشمس أجاج نصبت له
إذا تنازع جالاً مجهل قذف
تَلْوِي الثَّنَائِيَا بِأَحْقَنِهَا حَوَاشِيَهُ
كانه والرهاة الممرت يركضه
حواجب القوم بالمهرية العوج
أطراف مطرد بالحز منسوج
لي الملاء بأبواب التفاريح
أعراف أزهر تحت الريح منتوج

لذي الرمة يصف السراب، وراكذ الشمس: ما يتساقط منها على الأرض. والأجاج: صفة مبالغة، أي: كثير الأجاج، يقال: أجت النار أجيجاً: اشتعلت، والحر: اشتد. وأج الظليم أجاجاً: أسرع وله حفيف. وأج الأمر: اختلط. والأج: طير أبيض سريع الطيران يشبه النعام. ويرى السراب عند شدة الحر أبيض كأنه يسير، فيجوز أنه من الأولين. ويجوز أنه منسوب للأخير؛ لأنه يشبهه، واللام للتوقيف، والقواضب: السيوف القواطع. والمهرية: الخيل المنسوبة لمهر بن حيدان أبي قبيلة من =

ومنها أن كل واحد منهما يغيب الآخر إذا طرأ عليه، فشبّه في تغييبه إياه بشيء ظاهر لف عليه ما غيبه عن مطامح الأبصار. ومنها: أن هذا يكر على هذا كروراً متتابعاً. فشبّه ذلك بتتابع أكوار العمامة بعضها على إثر بعض. ﴿أَلَا هُوَ الْعَزِيزُ﴾ الغالب القادر على عقاب المصريين، ﴿أَفَقَدْ﴾ لذنوب التائبين^(١). أو الغالب الذي يقدر على أن يعاجلهم بالعقوبة وهو يحلم عنهم ويؤخرهم إلى أجل مسمى، فسمى الحلم عنهم: مغفرة.

﴿خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنْهَا رِجَالًا وَأُنْثَىٰ لَكُمْ مِنْ أَنْتَهُنَّ ثَمِينَةٌ رُوحٌ يَخْلُقَكُمْ فِي بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ حَقًّا مِنْ بَعْدِ خَلْقِ بَشَرِكُمْ ثُمَّ لَمْ يَكُنْ لَكُمْ إِلَهٌ إِلَّا اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ مَا تَصِفُونَ﴾ (١)

فإن قلت: ما وجه قوله: ﴿ثُمَّ جَعَلَ مِنْهَا رِجَالًا وَأُنْثَىٰ﴾، وما يعطيه من معنى التراخي؟ قلت: هما آيتان^(٢) من جملة الآيات التي عدّدها دالاً على وحدانيته وقدرته: تشعيب هذا الخلق

= اليمن، خيلها أنجب الخيل. والعوج: جمع عوجاء نوع جيد منها أيضاً. والحالان: ارتفاع الأرض وانخفاضها. والمجهل: الموضع الذي يجهله المسافر. والقذف - كسب -: الذي يقذف ما فيه فلا أحد فيه. والمطرود: السراب المستوي، شبه بالخز المنسوج في الاستواء والبياض. والثنايا: العقبات. والحقو: الخضر والإزار، وشده عليه استعارة لجانب العقبة، وحواشي السراب: جوانبه، والملاء بالضم والمد: اسم جمع ملاء وهي الجلباب. والتفراج: الباب الصغير والثوب من الديباج. والرهاة - جمع رهو -: المكان المرتفع، ويطلق على المنخفض أيضاً. وقيل: اسم موضع. والموت: القفر. والركض: ضرب الدابة بالرجل والضرب مطلقاً، وهو هنا مجاز على طريق التصريحية. والأعراف: جمع عرف. وعرف الديك والفرس: أعلى شعر العنق، وأعرف البحر والسيول: إذا تراكم موجه وارتفع كالأعراف، والأزهر: السحاب الأبيض والماء الأبيض، وهو الأنسب بكونه تحت الريح؛ لأن ظاهر الأول يخالف قوله تعالى: ﴿أَقَلَّتْ سَكَابًا﴾ والمنتوج: الذي تنتجه الريح وتسوقه حتى يقطر، يقول: ورب راكد من الشمس، يعني السراب الشديد الحر أو السير، نصبت مستقبلاً لوقته سيوف قومي مع الخيل الجياد إذا تجاذب المنخفض والمرتفع من الأرض القفرة أطراف الآل وهو السراب، وشبه إحاطة جوانبه وتراكمه في جوانب العقبة بلي الجلباب في أبواب التفاريح، وتلوى: يحتمل أنه جواب ذا وأنه صفة لمطرود وجوابها، دل عليه ما قبلها وأسند اللي للثنايا؛ لأنها سبب الالتواء، ولي الملاء: مفعول مطلق، وأعراف: خبر كأنه، والرهاة: جملة حالية، وفاعل يركض إما ضمير الآل أو ضمير الرهاة؛ لأنهما كأنهما يتضاربان. وروي: تطرده، وفاعله ضمير الرهاة جزماً؛ لأن الآل هو المطرود، وبيت الكشاف: يلوي الثنايا بأحقيها. والحقو: جمعه أحق، وأصل وزنه: أفعل.

ينظر: ديوانه ٩٩٠، ولسان العرب: (حقاً)، وكتاب العين: ٢٥٤/٣، وجمهرة اللغة ص ٥٦٢، وتهذيب اللغة، ١٢٤/٥، وخزانة الأدب: ١١٠/٤، وتاج العروس (حقاً).

(١) قال محمود: «أي لذنوب التائبين» قال أحمد: الحق أنه تعالى غفار للتائبين ولمن يشاء من المصريين على ما دون الشرك وقنوطهم من رحمة الله تعالى. ولقد قيد الزمخشري الآية بما ترى.

(٢) قال محمود: «فإن قلت: ما وجه العطف بشم في قوله: (ثم جعل)؟ وأجاب بأنهما آيتان... إلخ» =

الفائت للحصر من نفس آدم، وخلق حواء من قصيريه، إلا أن إحداهما جعلها الله عادة مستمرة، والأخرى لم تجربها العادة، ولم تخلق أنثى غير حواء من قصيرى رجل، فكانت أدخل في كونها آية، وأجلب لعجب السامع، فعطفها بثم على الآية الأولى؛ للدلالة على مباينتها لها فضلاً ومزية، وتراخيا عنها فيما يرجع إلى زيادة كونها آية، فهو من التراخي في الحال والمنزلة، لا من التراخي في الوجود. وقيل: ثم متعلق بمعنى واحدة، كأنه قيل: خلقكم من نفس وحدث، ثم شفعها ١٤٢/٢ الله بزواج. وقيل: أخرج ذرية آدم من ظهره كالذر، ثم خلق بعد ذلك حواء. ﴿وَأَنْزَلَ لَكُمْ﴾ وقضى لكم وقسم؛ لأن قضاياه وقسمه موصوفة بالنزول^(١) من السماء، حيث كتب في اللوح: كل كائن يكون. وقيل: لا تعيش الأنعام إلا بالنبات. والنبات لا يقوم إلا بالماء. وقد أنزل الماء، فكأنه أنزلها. وقيل: خلقها في الجنة، ثم أنزلها. ﴿ثُمَّ أَنْزَلَ﴾ ذكرأ وأنثى من الإبل والبقر والضأن والمعز. والزواج: اسم لواحد معه آخر، فإذا انفرد فهو فرد ووتر. قال الله تعالى: ﴿فَجَعَلَ بَيْنَهُ الْوَحْشَ الْأَذْرَ وَالْأَنْثَى﴾ [القيامة: ٣٩]. ﴿خَلَقْنَا مِنْ بَعْدِ خَلْقِ﴾ حيواناً سوياً، من بعد عظام مكسوة لحماً، من بعد عظام عارية، من بعد مضغ، من بعد علق، من بعد نطف. والظلمات الثلاث: البطن والرحم والمشيمة. وقيل: الصلب والرحم والبطن. ﴿ذَلِكُمْ﴾ الذي هذه أفعاله هو ﴿اللَّهُ رَبُّكُمْ﴾... فَأَنْ تَصْرُفُونَ﴾ فكيف يعدل بكم عن عبادته إلى عبادة غيره؟.

﴿إِنْ تَكْفُرُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَنَىٰ عَنْكُمْ وَلَا يَرْضَىٰ لِعِبَادِهِ الْكُفْرَ وَإِنْ تَشْكُرُوا يَرْضَهُ لَكُمْ وَلَا نَزِرُ وَازِرَةٌ وَزَرَ أَخْرَىٰ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ مَرْجِعُكُمْ فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾ (٧)

﴿فَإِنَّ اللَّهَ غَنَىٰ عَنْكُمْ﴾ عن إيمانكم وإنيكم المحتاجون إليه؛ لاستضراركم بالكفر واستنفاعكم بالإيمان. ﴿وَلَا يَرْضَىٰ لِعِبَادِهِ الْكُفْرَ﴾ رحمة لهم؛ لأنه يوقعهم في الهلكة. ﴿وَإِنْ تَشْكُرُوا يَرْضَهُ لَكُمْ﴾ أي: يرضى الشكر لكم؛ لأنه سبب فوزكم وفلاحكم؛ فإذا ما كره كفركم ولا رضي شكركم إلا لكم ولصلاحكم^(٢)، لا لأن منفعة ترجع إليه؛ لأنه الغني الذي لا

قال أحمد: إنما منعه من حمل ثم على التراخي في الوجود أنها وقعت بين خلق الذرية من آدم، وخلق حواء منه، وهو متقدم على الذرية فضلاً عن كونه متراخياً عن خلق الذرية، فلم يستقم حملها على تراخي الوجود لما جعلها في الوجه الآخر متعلقة بمعنى واحدة، على تقدير: خلقكم من نفس واحدة ثم جعل منها زوجها، يعني: شفعها بزوحها، فكانت ههنا على بابها لتراخي الوجود، والله سبحانه وتعالى أعلم.

(١) قال محمود: «إنما جعلها منزلة؛ لأن قضاياه تعالى وقسمه موصوفة بالنزول... إلخ» قال أحمد: ومن هذا النمط بعينه قول الراجز: أسمة الآبال في سحابة.

(٢) حمل الزمخشري الرضا على الإرادة، والعباد على العموم... إلخ» قال أحمد: إن المصر على هذا =

يجوز عليه الحاجة. ولقد تمحل بعض الغواة ليثبت الله تعالى^(١) ما نفاه عن ذاته من الرضا لعباده الكفر فقال: هذا من العام الذي أريد به الخاص، وما أراد إلا عباده الذين عناهم في قوله: ﴿إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ﴾ [الإسراء: ٦٥] يريد: المعصومين، كقوله تعالى: ﴿عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا عِبَادُ اللَّهِ﴾ [الإنسان: ٦]، تعالى الله عما يقول الظالمون، وقرئ: «يرضه» بضم الهاء بوصل وبغير وصل، وبسكونها. ﴿حَوْلَهُ﴾ أعطاه. قال أبو النجم [من الرجز]:
أَعْطَى فَلَمْ يَبْخُلْ وَلَمْ يَبْخُلِ كَوْمَ الذَّرَى مِنْ خَوْلِ الْمُخَوَّلِ^(٢)

= المعتقد على قلبه رين، أو في ميزان عقله غين، أليس يدعي أو يدعى له أنه الخريت في مغائر العبارات، وبديع الزمان في صناعة البديع، فكيف نبا عن جادة الإجابة فهماً، وأعار منادي الحذافة أدناً صمًا، اللهم إلا أن يكون الهوى إذا تمكن أرى الباطل حقًا، وغطى سني مكشوف العبارة فسحقاً سحقاً، أليس مقتضى العربية فضلاً عن القوانين العقلية أن المشروط مرتب على الشرط، لا يتصور وجود المشروط قبل الشرط عقلاً، ولا مضيه واستقبال الشرط لغة وعقلاً، واستقر باتفاق الفريقين أهل السنة وشيع البدعة: أن إرادة الله تعالى لشكر عباده مثلاً مقدمة على وجود الشكر منهم، فحينئذ كيف ساغ حمل الرضا على الإرادة، وقد جعل في الآية مشروطاً وجزاء، وجعل وقوع الشكر شرطاً ومجزئاً، واللازم من ذلك عقلاً: تقدم المراد وهو الشكر، على الإرادة وهي الرضا، ولغة: تقدم المشروط على الشرط. والزمخشري أخص من قال: إن المشروط متى كان ماضياً محضاً لزمته الفاء وقد، كقولك: إن تكرمني فقد أكرمتك قبل، وقد عريت الآية عن الحرفين المذكورين، على أنه لا بد من تأويل يصحح الشرطية مع ذلك، فإذا ثبت بطلان حمل الرضا على الإرادة عقلاً ونقلاً، تعين التماس المحمل الصحيح له، وهو المجازاة على الشكر بما عهد أن يجازى به المرضى عنه من الثواب والكرامة، فيكون معنى الآية - والله أعلم -: وإن تشكروا يجازكم على شكركم جزاء المرضى عنه، ولا شك أن المجازاة مستقبلية بالنسبة إلى الشكر، فجرى الشرط والجزاء على مقتضاهما لغة، وانتظم ذلك بمقتضى الأدلة العقلية على بطلان تقدم المراد على الإرادة عقلاً، ومثل هذا يقدر في قوله: (ولا يرضى لعباده الكفر) أي: لا يجازي غير الكافر مجازاة المغضوب عليه من النكال والعقوبة.

(١) قوله: «ليثبت الله تعالى... إلخ» إنما يتم لو كان الرضاء بمعنى الإرادة، وهو مذهب المعتزلة. وعند أهل السنة: هو غيرها، فكفر الكافر مراد غير مرضى، وعند المعتزلة: غير مراد ولا مرضى. (ع).

(٢) الحمد لله الوهوب المجزل أعطى فلم يبخل ولم يبخل
كوم الذرى من خول المخول

الوهوب: الوهاب. والمجزل: المكثر العطاء، وبينه بقوله: أعطى السائلين فلم يبخل عليهم، ولم يبخل: مشدد مبني للمجهول، أي: لم يتهم بالبخل. وقيل: هو توكيد. ويروى بناؤه للفاعل، أي لم يجعل من أعطاهم بخلاء، بل جعلهم كرماء. وكوم الذرى: نصب بأعطى، أي: نوقاً عظيماً السنام. والكوم: جمع كوماء. والذرى: جمع ذروة. والمخول بالتشديد المعطي، وهو الله عز وجل.

ينظر لسان العرب: (بقل)، (خول)، وتهذيب اللغة: ٥٦٤/٧، ومجمل اللغة: ٢٨١/١، وأساس البلاغة: (خول)، وتاج العروس: (خول)، والطرائف الأدبية ص ٥٧.

وفي حقيقته وجهان، أحدهما: جعله خائل مال، من قولهم: هو خائل مال، وخال مال: إذا كان متعهداً له حسن القيام به، ومنه ما روي عن رسول الله ﷺ: أنه كان يتخول أصحابه بالموعظة (١٣٣٤). والثاني: جعله يخول من خال يخول إذا اختال وافتخر، وفي معناه قول العرب [من البسيط]:

..... إِنَّ الْعَنِيَّ طَوِيلُ الذِّلِّ مَيَّاسُ

وَلَا مَسَ الْإِسْلَامُ ضُرًّا دَعَا رَبُّهُمُ إِلَيْهِ مُخْلِصِينَ لَهُمْ مِنْهُمُ اقْتَرَفُوا صَغِيرَةً وَأَتَتْهُمْ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٌ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ



﴿يَسُو مَا كَانَ يَدْعُو إِلَيْهِ﴾ أي نسي الضر الذي كان يدعو الله إلى كشفه. وقيل: نسي ربه الذي كان يتضرع إليه ويبتهل إليه، و﴿﴾ بمعنى من، كقوله تعالى: ﴿يَا حَبِيبُ﴾ [الليل: ٣] وقرئ: ﴿نَسِ﴾ بفتح الباء وضمها، بمعنى أن نتيجة جعله الله أنداداً ضلاله عن سبيل الله أو إضلاله والنتيجة: قد تكون غرضاً في الفعل، وقد تكون غير غرض. وقوله: ﴿تَمَعَ بِكَرٍّ﴾ من باب الخذلان والتخلية، كأنه قيل له: إذ قد أبيت قبول ما أمرت به من الإيمان والطاعة، فمن حَقَّك ألا تؤمر به بعد ذلك، وتؤمر بتركه؛ مبالغة في خذلانه وتخليته وشأنه؛ لأنه لا مبالغة في الخذلان؛ لأنه أشدَّ من أن يبعث على عكس ما أمر به، ونظيره في المعنى قوله: ﴿سَمِعَ قَبِيلُ شُعْرَاءٍ مَا وَنَعَهُمْ جَهَنَّمَ﴾ [آل عمران: ١٩٧].

﴿مَنْ هُوَ فَإِنَّكَ أَتَيْتَ سُلَيْمًا ۖ وَقَالِمَا يُخْبِرُ الْآخِرَةَ وَرَجَعَا رَحْمَةً مِنْ رَبِّهِ ۚ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ

يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ إِنَّمَا يَسْأَلُ أَفْئِدَتَهُمْ أَلَّا يَكْتُوبَ

قرئ: «أمن هو قانت» بالتخفيف على إدخال همزة الاستفهام على من، وبالتشديد

١٣٣٤ - أخرجه البخاري (٢١٨/١)، كتاب العلم، باب: «ما كان النبي ﷺ يتخولهم...» رقم

(٦٨)، (١/٢٢٠، ٢٢١)، كتاب العلم، باب: من جعل لأهل العلم أياماً معلومة، رقم (٧٠).

(١٢/ ٥٣٠ - ٥٣١)، كتاب الدعوات، باب: الموعظة ساعة بعد ساعة، رقم (٦٤١١).

ومسلم (١٧٩/٩)، كتاب صفات المنافقين وأحكامهم، باب: الاقتصاد في الموعظة، رقم (٨٢) -

(٢٨٢١). والترمذي (١٤٢/٥)، كتاب الأدب، باب: ما جاء في الفصاحة والبيان، رقم (٢٨٥٥).

وأحمد (١/٣٧٧ - ٣٧٨، ٤٢٥، ٤٤٠، ٤٤٣، ٤٦٢) رقم (٤٥٢٤) وابن حبان (١٠/٣٨٢ -

(٣٨٣)، كتاب السير، باب: الخلافة والإمارة كلهم من طريق أبي وائل عن ابن مسعود، قال أبو

عيسى: هذا حديث حسن صحيح،

على إدخال ﴿أَمْرٌ﴾ عليه. و﴿مَنْ﴾ مبتدأ خبره محذوف، تقديره: أَمِنْ هو قانت كغيره، وإنما حذف لدلالة الكلام عليه، وهو جري ذكر الكافر قبله. وقوله بعده: ﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْمَلُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْمَلُونَ﴾ وقيل: معناه أَمِنْ هو قانت أفضل أَمِنْ هو كافر. أو أهذا أفضل أَمِنْ هو قانت على الاستفهام المتصل. والقانت: القائم بما يجب عليه من الطاعة. ومنه قوله عليه الصلاة والسلام: «أفضل الصلاة طول القنوت» (١٣٣٥)، وهو القيام فيها. ومنه القنوت في الوتر؛ لأنه دعاء المصلي قائماً ﴿سَبِّحْ﴾ حال. وقرئ: «ساجد وقائم» على أنه خبر بعد خبر، والواو للجمع بين الصفتين. وقرئ: «ويحذر عذاب الآخرة». وأراد بالذين يعلمون: العاملين من علماء الديانة، كأنه جعل من لا يعمل غير عالم. ١٤٢/٢ ب وفيه ازدراء عظيم بالذين يقتنون العلوم، ثم لا يقتنون، ويفتنون، ثم يفتنون بالدينا، فهم عند الله جهلة، حيث جعل القانتين هم العلماء، ويجوز أن يرد على سبيل التشبيه، أي: كما لا يستوي العالمون والجاهلون، كذلك لا يستوي القانتون والعاصون. وقيل: ونزلت في عمار بن ياسر رضي الله عنه وأبي حذيفة بن المغيرة المخزومي. وعن الحسن أنه سئل عن رجل يتمادى في المعاصي ويرجو^(١)، فقال: هذا تمنّ وإنما الرجاء قوله، وتلا هذه الآية.

١٣٣٥ - أخرجه مسلم ٥٣٠/١ في صلاة المسافرين، باب أفضل الصلاة طول القنوت (١٦٤ - ١٦٥/٧٥٦)، والترمذي ٢٢٩/٢ في أبواب الصلاة، باب ما جاء في طول القيام في الصلاة (٣٨٧)، وابن ماجه ٤٥٦/١ في إقامة الصلاة، باب ما جاء في طول القيام في الصلوات (١٤٢١)، وأحمد ٣٠٢/٣، والحميدي برقم (١٢٧٦)، والطيالسي ٢٤/١ برقم (٢٩)، وأبو يعلى (٢١٣١).... عن جابر قال: قال رسول الله ﷺ، أفضل الصلاة طول القنوت.

وفي رواية سئل رسول الله ﷺ: أي الصلاة أفضل؟ قال: طول القنوت، وقال النووي في شرح مسلم ٤٠٦/٢: المراد بالقنوت هنا القيام باتفاق العلماء فيما علمت وقال أبو بكر بن العربي في عارضة الأحوزي ١٧٨/٢ - ١٧٩: تتبعت موارد القنوت فوجدتها عشرة: الطاعة، والعبادة، ودوام الطاعة: والصلاة، والقيام، وطول القيام والدعاء، والخشوع، والسكوت، وترك الالتفات، وكلها محتملة. أولها: السكوت والخشوع والقيام. وأحدها في هذا الحديث القيام. وهو في النافلة بالليل أفضل، والسجود والركوع بالنهار أفضل.

وقال الحافظ ابن حجر: أخرجه مسلم من طريق أبي الزبير عن جابر، ورواه الطحاوي من هذا الوجه بلفظ «طول القيام» وكذا هو في حديث عبد الله بن جعفر بلفظ «سئل أي الصلاة أفضل؟ قال: طول القيام. انتهى».

(١) قال محمود: «سئل الحسن عن يتمادى على المعاصي ويرجو... إلخ» قال أحمد: كلام الحسن رضي الله عنه صحيح غير منزل على كلام الزمخشري بقرينة حاله، فإن الحسن أراد أن يتمادى على المعصية مصراً عليها غير تائب إذا غلب رجاءه خوفه كان متمنياً، لأن الالتئيم بهذا أن يغلب خوفه رجاءه، ولم يرد الحسن إقناط هذا من رحمة الله تعالى وحاشاه، وأما قرينه حال الزمخشري فإنها تنم على ما أضمره من إيراد هذه المقالة؛ فإن معتقده أن مثل هذا العاصي وإن كان موحدًا =

وقرئ: «إنما يذكّر» بالإدغام.

﴿قُلْ يَاعِبَادِ الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةً وَأَرْضُ اللَّهِ وَاسِعَةٌ إِنَّمَا يُوَفَّى الصَّادِقُونَ أَجْرَهُمْ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾

﴿فِي هَذِهِ الدُّنْيَا﴾ متعلق بأحسنوا لا بحسنة، معناه: الذين أحسنوا في هذه الدنيا فلهم حسنة في الآخرة. وهي دخول الجنة، أي: حسنة غير مكتنته بالوصف. وقد علقه السدي بحسنة، ففسر الحسنة بالصحة والعافية. فإن قلت: إذا علق الظرف بأحسنوا فأعرا به ظاهر، فما معنى تعليقه بحسنة؟ ولا يصح أن يقع صفة لها لتقدمه. قلت: هو صفة لها إذا تأخر، فإذا تقدم كان بياناً لمكانها فلم يخل التقدم بالتعلق، وإن لم يكن التعلق وصفاً، ومعنى: ﴿وَأَرْضُ اللَّهِ وَاسِعَةٌ﴾ أن لا عذر للمفرطين في الإحسان البتة؛ حتى إن اعتلوا بأوطانهم وبلادهم، وأنهم لا يتمكنون فيها من التوفر على الإحسان، وصرف الهمم إليه قيل لهم: فإن أرض الله واسعة وبلاده كثيرة، فلا تجتمعوا مع العجز، وتحولوا إلى بلاد آخر، واقتدوا بالأنبياء والصالحين في مهاجرتهم إلى غير بلادهم؛ ليزدادوا إحساناً إلى إحسانهم وطاعة إلى طاعتهم. وقيل: هو للذين كانوا في بلد المشركين فأمروا بالمهاجرة عنه، كقوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ اللَّهِ وَاسِعَةً فَهَاجِرُوا فِيهَا﴾ [النساء: ٩٧]. وقيل: هي أرض الجنة. و﴿الصَّادِقُونَ﴾ الذين صبروا على مفارقة أوطانهم وعشائرتهم، وعلى غيرها. من تجزّع الغصص واحتمال البلايا في طاعة الله وازدياد الخير ﴿بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ لا يحاسبون عليه. وقيل: بغير مكيال وغير ميزان يغرف لهم غرفاً، وهو تمثيل للتكثير. وعن ابن عباس رضي الله عنهما: لا يُهْتَدَى إليه حساب الحساب ولا يُعرف. وعن النبي ﷺ: «ينصب الله الموازين يوم القيامة فيؤتى بأهل الصلاة فيوفون أجورهم بالموازين، ويؤتى بأهل الصدقة فيوفون أجورهم بالموازين. ويؤتى بأهل الحج فيوفون أجورهم بالموازين، ويؤتى بأهل البلاء، فلا ينصب لهم ميزان ولا ينشر لهم ديوان، ويصب عليهم الأجر صباً، قال الله تعالى: ﴿إِنَّمَا يُوَفَّى الصَّادِقُونَ أَجْرَهُمْ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ حتى يتمنى أهل العافية في الدنيا أن أجسادهم تقرض بالمقاريض مما يذهب به أهل البلاء من الفضل» (١٣٣٦).

١٣٣٦ - أخرجه الطبراني في الكبير (١٨٢/١٢ - ١٨٣)، رقم (١٢٨٢٩) وأبو نعيم في الحلية (٩١/٣) في ترجمة (جابر بن زيد) كلاهما من طريق قتادة عن جابر بن زيد.
وعزه الزيلعي في تخريج أحاديث الكشاف (٢٠٠/٣ - ٢٠١) للثعلبي في تفسيره، ولأبي القاسم =

= يجب خلوده في نار جهنم، ولا معنى لرجائه، ولتنميته صحة هذا المعتقد أورد مقالة الحسن، كالتميز إلى تميم هذه النزعة، وعما قليل يقرع سمعه ما في أنباء هذه السورة.

﴿قُلْ إِنِّي أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ اللَّهَ مُخْلِصًا لَهُ الدِّينَ﴾ (١١) ﴿وَأُمِرْتُ لِأَنْ أَكُونَ أَوَّلَ الْمُسْلِمِينَ﴾ (١٢) ﴿قُلْ إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ (١٣) ﴿قُلِ اللَّهُ أَعْبُدْ مُخْلِصًا لِمِ دِينِي﴾ (١٤) ﴿فَاعْبُدُوا مَا شِئْتُمْ مِنْ دُونِهِ قُلْ إِنَّ الْخَاسِرِينَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ وَأَهْلِيَهُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ أَلَا ذَلِكَ هُوَ الْخَسِرَانُ﴾ (١٥) ﴿الْمُؤْمِنُ﴾

﴿قُلْ إِنِّي أُمِرْتُ﴾ بإخلاص الدين ﴿وَأُمِرْتُ﴾ بذلك ﴿لِأَنْ أَكُونَ أَوَّلَ الْمُسْلِمِينَ﴾ أي مقدمهم وسابقتهم في الدنيا والآخرة، والمعنى: أن الإخلاص له السبق في الدين، فمن أخلص كان سابقاً. فإن قلت: كيف عطف ﴿أُمِرْتُ﴾ على ﴿أُمِرْتُ﴾ وهما واحد^(١)؟ قلت: ليسا بواحد لاختلاف جهتيهما، وذلك أن الأمر بالإخلاص وتكليفه شيء، والأمر به ليحرز القائم به قصب السبق في الدين شيء، وإذا اختلف وجها الشيء وصفته ينزل بذلك منزلة شيئين مختلفين، ولك أن تجعل اللام مزيدة مثلها في أردت لأن أفعّل، ولا تزد إلا مع أن خاصة دون الاسم الصريح، كأنها زيدت عوضاً من ترك الأصل إلى ما يقوم مقامه، كما عوض السين في اسطاع عوضاً من ترك الأصل الذي هو أطوع، والدليل على هذا الوجه مجيئه بغير لام في قوله: ﴿وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾ [يونس: ٧٢]، ﴿وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [يونس: ١٠٤]، ﴿أُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَسْلَمَ﴾ [الأنعام: ١٤] وفي معناه أوجه: أن أكون أول من أسلم في زمني ومن قومي؛ لأنه أول من خالف دين آبائه وخلع الأصنام وحطمها، وأن أكون أول الذين دعوتهم إلى الإسلام إسلاماً، وأن أكون أول من دعا نفسه إلى ما دعا إليه غيره؛ لأكون مقتدى بي في قولي وفعلي جميعاً، ولا تكون

= الأصبهاني في كتاب الترغيب والترهيب لابن مردويه في تفسيره، وقال أبو نعيم: هذا حديث غريب من حديث جابر، وقناة تفرد به عنه مجاعة وقال الحافظ ابن حجر في الكشف: أخرجه الثعلبي وابن مردويه، من حديث أنس رضي الله عنه، وإسناده ضعيف جداً، وأورده أبو نعيم في الحلية في ترجمة جابر بن زيد عن الطبراني، وهو في معجمه بإسناده إلى قناة عن جابر بن زيد عن ابن عباس رضي الله عنهما مختصراً. انتهى.

(١) قال محمود: «فإن قلت: كيف عطف أمرت على أمرت وهما واحد؟ وأجاب بأنه ليس بتكرير... إلخ» قال أحمد: ولقد أحسن في تقوية هذا المعنى في هذه الآية بقوله: (فاعبدوا ما شئتم من دونه) فإن مقابلته بعدم الحصر توجب كونه للحصر، والله أعلم. وما أحسن ما بين وجوه المبالغة في وصف الله تعالى؛ لفظاعة خسرانهم، فقال: استأنف الجملة وصدرها بحرف التنبيه، ووسط الفصل بين المبتدأ والخبر، وعرف الخسران ونعته بالمبين، وبين في تسمية الشيطان طاغوتاً وجوهاً ثلاثة من المبالغة، أحدها: تسميته بالمصدر كأنه نفس الطغيان. الثاني: بناؤه على فعلوت، وهي صيغة مبالغة كالرحموت، وهي الرحمة الواسعة والملكوت وشبهه. الثالث: تقديم لامة على عينه؛ ليفد اختصاص الشيطان بهذه التسمية.

صفتي صفة الملوك الذين يأمرون بما لا يفعلون، وأن أفعل ما أستحق به الأوليّة من أعمال السابقين دلالة على السبب بالمسبب، يعني: أن الله أمرني أن أخلص له الدين من الشرك والرياء وكلّ شوب، بدليلي العقل والوحي. فإن عصيت ربي بمخالفة الدليلين، استوجبت عذابه فلا أعصيه ولا أتابع أمركم، وذلك حين دعوه إلى دين آبائه. فإن قلت: ما معنى التكرير في قوله: ﴿قُلْ إِنِّي مُرُّتُ أَنْ تَدْعُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ﴾ (١٦) وقوله: ﴿قُلْ اللَّهُ تَعَالَى فُجِّعَ مَا لَمْ دِينِي﴾ (١٧)؟ قلت: ليس بتكرير؛ لأنّ ١٤٣/٢ الأول إخبار بأنه مأمور من جهة الله بإحداث العبادة والإخلاص. والثاني: إخبار بأنه يختص الله وحده دون غيره بعبادته مخلصاً له دينه، ولدلالته على ذلك قدّم المعبود على فعل العبادة وأخره في الأول، فالكلام أولاً واقع في الفعل نفسه وإيجاده، وثانياً فيمن يفعل الفعل لأجله؛ ولذلك رتب عليه قوله: ﴿فَاعْبُدُوا مَا شِئْتُمْ مِنْ دُونِهِ﴾ والمراد بهذا الأمر الوارد على وجه التخير: المبالغة في الخذلان والتخلية، على ما حققت فيه القول مرتين. قل إنّ الكاملين في الخسران الجامعين لوجوهه وأسبابه هم ﴿الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ﴾ لوقوعها في هلكة لا هلكة بعدها، (و) خسروا ﴿وَالْأَخْيَارَ﴾ لأنهم إن كانوا من أهل النار فقد خسروهم كما خسروا أنفسهم، وإن كانوا من أهل الجنة فقد ذهبوا عنهم ذهاباً لا رجوع بعده إليهم. وقيل: وخسروهم لأنهم لم يدخلوا مدخل المؤمنين الذين لهم أهل في الجنة، يعني: وخسروا أهلهم الذين كانوا يكونون لهم لو آمنوا، ولقد وصف خسرانهم بغاية الفظاعة في قوله: ﴿أَلَا ذَلِكَ هُوَ الْخَسِرَانُ الْمُئِينَ﴾ حيث استأنف الجملة وصدرها بحرف التنبيه، ووسط الفصل بين المبتدأ والخبر، وعرف الخسران ونعته بالمبين.

﴿لَهُمْ مِنْ فَوْقِهِمْ ظُلَلٌ مِنَ النَّارِ وَفِيهِمْ ظُلَلٌ ذَلِكَ يُخَوِّفُ اللَّهَ بِهِ عِبَادُهُ يَعْبَادُونَ فَأَتَقُونَ﴾ (١٦)

﴿وَمِنْ تَحْتِهِمْ﴾ أطباق من النار هي ﴿ظُلَلٌ﴾ لآخرين. ﴿ذَلِكَ﴾ العذاب هو الذي يتوعد الله ﴿بِهِ عِبَادُهُ﴾ ويخوفهم؛ ليجتنبوا ما يوقعهم فيه، ﴿يَعْبَادُونَ﴾ فلا تتعرضوا لما يوجب سخطي، وهذه عظة من الله تعالى ونصيحة بالغة. وقرئ: «يا عبادي».

﴿وَالَّذِينَ جَعَلُوا أَنْفُسَهُمْ كَالْأَمْوَالِ وَأَنَابُوا إِلَى اللَّهِ لَهُمُ الْبُشْرَىٰ فَبَشِّرْ عِبَادَ﴾ (١٧) ﴿الَّذِينَ يَسْمَعُونَ

الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ هَدَاهُمُ اللَّهُ وَأُولَٰئِكَ هُمْ أُولُوا الْأَلْبَابِ﴾ (١٨)

﴿الطَّاعُونَ﴾ فعلت من الطغيان كالملكوت والرحموت، إلا أن فيها قلباً بتقديم اللام على العين، أطلقت على الشيطان أو الشياطين؛ لكونها مصدراً وفيها مبالغات، وهي

(١) قوله: «وخسروهم» لعله «خسروهم» بدون واو. (ع).

التسمية بالمصدر، كأن عين الشيطان طغيان، وأن البناء بناء مبالغه، فإنّ الرحموت: الرحمة الواسعة، والملكوت: الملك المبسوط، والقلب هو للاختصاص؛ إذ لا تطلق على غير الشيطان، والمراد بها ههنا الجمع. وقرئ: «الطواغيت» ﴿أَنْ يَّعْبُدُوهَا﴾ بدل من الطاغوت بدل الاشتمال، ﴿لَهُمْ أَنْشُرَى﴾ هي البشارة بالثواب، كقوله تعالى: ﴿لَهُمُ الْفُتْرَى وَآلْحَيَوةُ الدُّنْيَا وَآلْآخِرَةِ﴾ [يونس: ٦٤] الله عزّ وجلّ يبشرهم بذلك في وحيه على السنة رسله، وتتلقاهم الملائكة عند حضور الموت مبشرين، وحين يحشرون، قال الله تعالى: ﴿يَوْمَ تَرَى الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ سَعَىٰ لَهُمْ يَوْمَ تَكُونُ الْيَوْمِ جَنَّتْ﴾ [الحديد: ١٢] وأراد بعباده ﴿الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ لَهُمْ﴾ الذين اجتنبوا وأنابوا لا غيرهم، وإنما أراد بهم أن يكونوا مع الاجتناب والإنابة على هذه الصفة، فوضع الظاهر موضع الضمير، وأراد أن يكونوا نقاداً في الدين يميزون بين الحسن والأحسن والفاضل والأفضل، فإذا اعترضهم أمران: واجب وندب، اختاروا الواجب، وكذلك المباح والندب، حرّاصاً على ما هو أقرب عند الله وأكثر ثواباً، ويدخل تحته المذاهب واختيار أثبتها على السبك وأقواها عند السبر، وأبينها دليلاً أو أمانة، وأن لا تكون في مذهبك، كما قال القائل [من البسيط]:

..... وَلَا تَكُنْ مِثْلَ عَيْرٍ قَيْدَ فَانْقَادًا^(١)

يريد المقلد، وقيل: يستمعون القرآن وغيره فيتبعون القرآن. وقيل: يستمعون أوامر الله فيتبعون أحسنها، نحو: القصاص والعفو، والانتصار والإغضاء، والإبداء والإخفاء؛ لقوله تعالى: ﴿وَأَنْ تَعَفَّوْا أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ﴾ [البقرة: ٢٣٧]، ﴿وَلَنْ تَخْفَوْهَا وَتَوْتِرُهَا لَتَقْتَرَأَ فِيهِمْ خَيْرَ لِّكُمْ﴾ [البقرة: ٢٧١] وعن ابن عباس رضي الله عنهما: هو الرجل يجلس مع القوم فيسمع الحديث فيه محاسن ومساو، فيحدّث بأحسن ما سمع ويكف عما سواه. ومن الوقفة من يقف على قوله: ﴿فَنَشِيرُ يَدَيْ﴾ ويبتدىء: ﴿الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ﴾ يرفعه على الابتداء، وخبره ﴿أُولَئِكَ﴾.

(١) قال محمود: «يدخل تحت هذا المذهب واختيار أثبتها على السبك وأقواها عند السبر... إلخ» قال أحمد: لقد كنت أطمع لعله رجع عما ضمن هذا الكتاب من المذاهب الرديئة والمعتقدات الفاسدة، حتى حققت من كلامه هذا أن ذلك التصميم كان متمكناً من فؤاده الصميم، فلا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم.

(٢) شمر وكن في أمور الدين مجتهداً ولا تكن مثل عير قيد فانقادا
للمخشري: تسمير الثياب عن الساعد: كناية عن ترك الكسل، ثم قال: واجتهد في أحكام الدين ولا تقلد غيرك، فتكون مثل حمار قاده الشخص فانقاد وطاوعه أينما يوجهه. ويحتمل أن المعنى: اجتهد في العمل ولا تطع الشيطان.

﴿أَفَمَنْ حَقَّ عَلَيْهِ كَلِمَةُ الْعَذَابِ أَفَأَنْتَ تُنْقِذُ مَنْ فِي النَّارِ﴾ (١٩)

أصل الكلام: أَمَنَ حق عليه كلمة العذاب فأنت تنقذه، جملة شرطية دخل عليها همزة الإنكار، والفاء فاء الجزاء، ثم دخلت الفاء التي في أولها للعطف على محذوف يدل عليه الخطاب، تقديره: أأنت مالك أمرهم، فمن حق عليه العذاب فأنت تنقذه، والهمزة الثانية هي الأولى، كزرت لتوكيد معنى الإنكار والاستبعاد، ووضع ﴿مَنْ فِي النَّارِ﴾ موضع الضمير، فالآية على هذا جملة واحدة. ووجه آخر: وهو أن تكون الآية جملتين: أَمَنَ حق عليه العذاب فأنت تخلصه؟ ﴿أَفَأَنْتَ تُنْقِذُ مَنْ فِي النَّارِ﴾ (١٩)؟ ١٤٣/٢ ب وإنما جاز حذف: فأنت تخلصه؛ لأن ﴿أَفَأَنْتَ تُنْقِذُ﴾ يدل عليه، نزل استحقاقهم العذاب وهم في الدنيا منزلة دخولهم النار، حتى نزل اجتهاد رسول الله ﷺ وكذبه نفسه في دعائهم إلى الإيمان في منزلة إنقاذهم من النار. وقوله: ﴿أَفَأَنْتَ تُنْقِذُ﴾ يفيد أن الله تعالى هو الذي يقدر على الإنقاذ من النار وحده، لا يقدر على ذلك أحد غيره، فكما لا تقدر أنت أن تنقذ الداخل في النار من النار، لا تقدر أن تخلصه مما هو فيه من استحقاق العذاب بتحصيل الإيمان فيه.

﴿نَكِنِ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ لَهُمْ غُرَفٌ مِّنْ فَوْقِهَا غُرَفٌ مَّبْنِيَّةٌ تَجْرَى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَعَدَ اللَّهُ لَا يَخْلِفُ اللَّهُ الْمِيعَادَ﴾ (٢٠)

﴿غُرَفٌ مِّنْ فَوْقِهَا غُرَفٌ﴾ علا بعضها فوق بعض. فإن قلت: ما معنى قوله: ﴿مَّبْنِيَّةٌ﴾؟ قلت: معناه - والله أعلم -: أنها بنيت بناء المنازل التي على الأرض وسويت تسويتها، ﴿تَجْرَى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ﴾ كما تجري تحت المنازل، من غير تفاوت بين العلو والسفل، ﴿وَعَدَ اللَّهُ﴾ مصدر مؤكد؛ لأن قوله لهم غرف في معنى: وعدهم الله ذلك.

﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَلَكَهُ يَنْبِيعٌ فِي الْأَرْضِ ثُمَّ يُخْرِجُ بِهِ زَرْعًا مُّخْتَلِفًا أَلْوَنُهُ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَاهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَجْعَلُهُ حُطَلًا إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرًا لِأُولِي الْأَلْبَابِ﴾ (٢١)

﴿أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً﴾ هو المطر. وقيل: كل ماء في الأرض فهو من السماء ينزل منها إلى الصخرة، ثم يقسمه الله، ﴿فَسَلَكَهُ﴾ فأدخله ونظمه ﴿يَنْبِيعٌ فِي الْأَرْضِ﴾ عيوناً ومسالك ومجاري كالعروق في الأجساد. ﴿مُخْتَلِفًا أَلْوَنُهُ﴾ هيئاته من خضرة وحمرة وصفرة وبياض وغير ذلك، وأصنافه من برّ وشعير وسمسم وغيرها، ﴿يَهِيجُ﴾ يتم جفافه، عن الأصمعي؛ لأنه إذا تم جفافه حان له أن يثور عن منابته ويذهب ﴿حُطَلًا﴾ فتاتاً ودريناً. (١) ﴿إِنَّ فِي﴾

(١) قوله: «فتاتاً ودريناً» في الصحاح «الدرين»: خطام المرعى إذا قدم، وهو ما يلي من الحشيش. (ع).

ذَلِكَ لِذِكْرِي ﴿ لتذكيراً وتنبهاً، على أنه لا بد من صانع حكيم، وأن ذلك كائن عن تقدير وتدبير، لا عن تعطيل وإهمال. ويجوز أن يكون مثلاً للدنيا، كقوله تعالى: ﴿إنما مثل الحياة الدنيا﴾ [يونس: ٢٤]، ﴿وَأَضْرَبَ لَهُمْ مَثَلًا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا﴾ [الكهف: ٤٥]. وقرئ: «مصفاً».

﴿أَمَّنْ شَرَحَ اللَّهُ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ فَهُوَ عَلَى نُورٍ مِنْ رَبِّهِ فَوَيْلٌ لِلْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ مِّنْ ذِكْرِ اللَّهِ أُولَٰئِكَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾ ﴿٢١﴾

﴿أَمَّنْ﴾ عرف الله أنه من أهل اللطف فلفظ به حتى انشرح صدره للإسلام ورغب فيه وقبله كمن لا لطف له فهو حرج الصدر قاسي القلب، ونور الله: هو لطفه، وقرأ رسول الله ﷺ هذه الآية فقليل: يا رسول الله، كيف انشرح الصدر؟ قال: «إذا دخل النور القلب انشرح وانفسح»، فقليل: يا رسول الله، فما علامة ذلك؟ قال: «الإجابة إلى دار الخلود، والتجافي عن دار الغرور، والتأهب للموت قبل نزول الموت» (١٣٣٧) وهو نظير قوله: ﴿أَمَّنْ هُوَ قَنِيتٌ﴾ [الزمر: ٩] في حذف الخبر. ﴿مِّنْ ذِكْرِ اللَّهِ﴾ من أجل ذكره، أي: إذا ذكر الله عندهم أو آياته اشمأزوا وازدادت قلوبهم قساوة، كقوله تعالى: ﴿فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَىٰ رِجْسِهِمْ﴾ [التوبة: ١٢٥]. وقرئ: «عن ذكر الله» فإن قلت: ما الفرق بين من وعن في هذا؟ قلت: إذا قلت: قسا قلبه من ذكر الله، فالمعنى ما ذكرت، من أن القسوة من أجل الذكر وبسببه، وإذا قلت: عن ذكر الله، فالمعنى: غلظ عن قبول الذكر وجفا عنه. ونظيره: سقاه من العيمة، أي من أجل عطشه، وسقاه عن العيمة: إذا أرواه حتى أبعدته عن العطش.

١٣٣٧ - أخرجه ابن ماجه (١٤٢٣/٢). كتاب الزهد، باب: ذكر الموت والاستعداد له، حديث (٤٢٥٩). والحاكم (٥٤٠/٤)، كتاب: الفتن والملاحم، باب: ذكر خمس بلاء أعاد النبي ﷺ منها المسلمين.

والطبراني في الصغير (٨٧/٢).

والبيهقي في الشعب (٣٥١/٧)، باب: في الزهد وقصر الأمل حديث (١٠٥٥٠). كلهم من حديث ابن عمر.

وذكره الترمذي الحكيم في نوادر الأصول (٥٢٥/١)، في الأصل السادس والثمانون.

وعزه الزيلعي في تخريج أحاديث الكشاف (٢٠٢/٣) لابن مردويه في تفسيره من طريق أبي فروة يزيد بن محمد بن سنان الراوي عن أبيه عن جده، وقال الحافظ: أخرجه الثعلبي والحاكم والبيهقي في الشعب من حديث ابن مسعود، وفيه أبو فروة الراوي فيه كلام، ورواه الترمذي الحكيم في النوادر في الأصل السادس والثمانين، وفي إسناده إبراهيم النخعي وهو ضعيف. انتهى.

﴿اللَّهُ نَزَلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُتَشَابِهًا مَثَابًا تَسْمُرُ بِهِ جُلُودَ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلَدُّ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِنَّ يَكْفُرُ اللَّهُ ذَلِكَ هُمَا إِلَهُ يَهْدِي بِرُوحٍ مَنِ يَشَاءُ وَمَنْ يُضَيِّقِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ﴾

عن ابن مسعود رضي الله عنه: أَنَّ أصحاب رسول الله ﷺ ملوا ملة، فقالوا له: حدثنا فنزلت، وإيقاع اسم الله مبتداً وبناء ﴿بِنَاءٍ﴾ عليه فيه: تفخيم لأحسن الحديث، ورفع منه، واستشهاد على حسنه، وتأكيد لاستناده إلى الله وأنه من عنده، وأن مثله لا يجوز أن يصدر إلا عنه، وتنبية على أنه وحي معجز مبين لسائر الأحاديث. و ﴿بِنَاءٍ﴾ بدل من أحسن الحديث، ويحتمل أن يكون حالاً منه، و ﴿تَسْمُرُ﴾ مطلق في مشابهة بعضه بعضاً، فكان متناولاً لتشابه معانيه في الصحة والإحكام، والبناء على الحق والصدق ومنفعة الخلق، وتناسب ألفاظه وتناسفها في التخيير والإصابة، وتجاوب نظمه وتأليفه في الإعجاز والتبكيك، ويجوز أن يكون ﴿تَسْمُرُ﴾ بياناً لكونه متشابهاً؛ لأن القصص المكررة لا تكون إلا متشابهة. والمثاني: جمع مثني بمعنى مردّد ومكرّر، ولما ثنى من قصصه وأنبائه، وأحكامه، وأوامره ونواهيه، ووعدته ووعيده، ومواعظه. وقيل: لأنه يثنى في التلاوة، فلا يمل كما جاء في وصفه لا يتفه ولا يتشان ولا يخلق على كثرة الرد (١٣٣٨). ويجوز أن يكون جمع مثني مفعول، من التثنية بمعنى التكرير، والإعادة كما كان قوله تعالى: ﴿الْقُرْآنَ كَذِبًا﴾ [الملك: ٤] بمعنى كُرّة بعد كُرّة، وكذلك: لبيك وسعديك، وحنانك. فإن قلت: كيف وصف الواحد بالجمع؟ قلت: إنما صحّ ذلك لأنّ الكتاب جملة ذات تفاصيل، وتفصيل الشيء هي جملته لا غير، إلا تراك تقول: القرآن أسباع وأخماس، وسور وآيات ١٤٤/٢، وكذلك تقول: أقاصيص وأحكام ومواعظ مكررات، ونظيره قولك: الإنسان عظام وعروق وأعصاب، ألا أنك تركت الموصوف إلى الصفة، وأصله: كتاباً متشابهاً فصلاً مثاني، ويجوز أن يكون كقولك: برمة أعشار، وثوب أخلاق. ويجوز أن لا يكون مثاني صفة، ويكون منتصباً على التمييز من ﴿مُتَشَابِهًا﴾، كما تقول: رأيت رجلاً حسناً شمائل، والمعنى: متشابهة مثانيه. فإن قلت: ما فائدة التثنية والتكرير؟ قلت: النفوس أنفر شيء من حديث الوعظ والنصيحة، فما لم يكرر عليها عوداً على بدء لم

١٣٣٨ - تقدم في آل عمران.

(١) قوله: «لا يتفه ولا يتشان» في الصحاح «التافه»: الحقيير اليسير، وفيه تشانت القرية: أخلقت، وتشان الجلد: يبس وتشنج. (ع).

يرسخ فيها ولم يعمل عمله، ومن ثم كانت عادة رسول الله ﷺ أن يكرر عليهم ما كان يعظ به وينصح ثلاث مرات وسبعاً؛ (١٣٣٩) ليركزه في قلوبهم، ويغرسه في صدورهم. اقشعر الجلد: إذا تقبّض تقبضاً شديداً، وتركيبه من حروف القشع وهو الأديم اليابس، مضموماً إليها حرف رابع وهو الراء؛ ليكون رباعياً ودالاً على معنى زائد. يقال: اقشعر جلده من الخوف وقفّ شعره^(١)، وهو مثل في شدة الخوف، فيجوز أن يريد به الله سبحانه التمثيل؛ تصويراً لإفراط خشيتهم، وأن يريد التحقيق. والمعنى: أنهم إذا سمعوا بالقرآن وبآيات وعيده أصابتهم خشية تقشعر منها جلودهم، ثم إذا ذكروا الله ورحمته وجوده بالمغفرة لانت جلودهم وقلوبهم وزال عنها ما كان بها من الخشية والقشعريرة. فإن قلت: ما وجه تعدية «لأن» بإلى؟ قلت: ضمن معنى فعل متعدّ بإلى، كأنه قيل: سكنت، أو اطمأنت إلى ذكر الله، لينة غير منقبضة، راجية غير خاشية. فإن قلت: لم اقتصر على ذكر الله من غير ذكر الرحمة؟ قلت: لأن أصل أمره الرحمة والرأفة، ورحمته هي سابقة غضبه، فلاصاله رحمته إذا ذكر لم يخطر بالبال قبل كل شيء من صفاته إلا كونه رءوفاً رحيماً. فإن قلت: لم ذكرت الجلود وحدها أولاً، ثم قرنت بها القلوب؟ ثانياً؟ قلت: إذا ذكرت الخشية التي محلها القلوب، فقد ذكرت القلوب، فكأنه قيل: تقشعر جلودهم من آيات الوعيد، وتخشى قلوبهم في أول وهلة، فإذا ذكروا الله ومبنى أمره على الرأفة والرحمة، استبدلوا بالخشية رجاء في قلوبهم، وبالقشعريرة ليناً في جلودهم. ﴿ذَلِكَ﴾ إشارة إلى الكتاب، وهو ﴿هُدًى اللَّهُ يَهْدِي بِهِ﴾ يوفق به من يشاء، يعني: عباده المتقين؛ حتى يخشوا تلك الخشية ويرجوا ذلك الرجاء، كما قال: ﴿ذُنُوبَهُمْ﴾ [البقرة: ٢٧]. ﴿وَمَنْ يُضِلِلِ اللَّهُ﴾ ومن يخذله من الفساق^(٢) والفجرة ﴿فَرَّطَ مِنْهُمْ﴾، أو ذلك الكائن من الخشية والرجاء هدى الله، أي: أثر هده وهو لطفه، فسماه هدى؛ لأنه حاصل بالهدى، ﴿يَهْدِي بِهِ﴾ بهذا الأثر ﴿مَنْ يَسْكُتْ﴾ من عباده، يعني: من صحب أولئك ورآهم خاشعين راجين، فكان ذلك مرغباً لهم في الاقتداء بسيرتهم وسلوك طريقتهم. ﴿وَمَنْ يَهْدِ اللَّهُ﴾ ومن لم تؤثر فيه ألطافه؛ لقسوة

١٣٣٩ - قال الزيلعي في تخريج أحاديث الكشاف (٢٠٣/٣): غريب والحديث بمعناه عند البخاري (١/ ٢٥٤)، كتاب العلم، باب: من أعاد الحديث ثلاثاً ليفهم عنه، رقم (٩٥) من طريق ثمانية عن أنس، وقال الحافظ: لم أجده، وفي البخاري عن أنس رضي الله عنه «كان إذا تكلم بكلمة أعادها ثلاثاً - الحديث» وزاد أحمد «وكان يستأذن ثلاثاً». انتهى.

(١) قوله: «وقف شعره» أي: قام من الفزع، كذا في الصحاح. (ع).

(٢) قوله: «ومن يخذله من الفساق» تأويل الضلال بذلك مبني على مذهب المعتزلة أن الله لا يخلق الشر. وعند أهل السنة: أنه يخلقه كالخير، فالإضلال: خلق الضلال في القلب. (ع).

قلبه، وإصراره على فجوره، ﴿فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ﴾ من مؤثر فيه بشيء قط.

﴿أَفَمَنْ يَبْقَىٰ بِوَجْهِهِ سُوءُ الْعَذَابِ يَوْمَ الْقِيَمَةِ وَقِيلَ لِلظَّالِمِينَ ذُوقُوا مَا كُنتُمْ تَكْسِبُونَ﴾ (٢٤)
كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَأَنْتَهُمُ الْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٢٥﴾ فَأَذَاكُمُ اللَّهُ الْخُرَىٰ فِي
الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلِلْعَذَابِ الْآخِرَةِ أَكْبَرُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ ﴿٢٦﴾

يقال: اتقاه بدرقته استقبله بها فوقى بها نفسه إياه واتقاه بيده. وتقديره: ﴿أَفَمَنْ يَبْقَىٰ بِوَجْهِهِ سُوءُ الْعَذَابِ﴾^(١) كمن أمن العذاب، فحذف الخبر كما حذف في نظائره، و﴿سُوءُ الْعَذَابِ﴾: شدته، ومعناه: أن الإنسان إذا لقي مخوفاً من المخاوف استقبله بيده، وطلب أن يقي بها وجهه؛ لأنه أعز أعضائه عليه، والذي يلقى في النار يلقى مغلوله يداه إلى عنقه، فلا يتهياً له أن يتقي النار إلا بوجهه الذي كان يتقي المخاوف بغيره، وقاية له ومحاماة عليه. وقيل: المراد بالوجه الجملة، وقيل: نزلت في أبي جهل. وقال لهم خزنة النار: ﴿ذُوقُوا﴾ وبال ﴿مَا كُنتُمْ تَكْسِبُونَ﴾... مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ من الجهة التي لا يحتسبون، ولا يخطر ببالهم أن الشر يأتيهم منها، بينما هم آمنون رافهون إذ فوجئوا من مأمْنهم. والخزي: الذل والصغار، كالمسخ والخسف والقتل والجلاء، وما أشبه ذلك من نكال الله.

﴿وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِي هَذَا الْقُرْآنِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾ (٢٧) ﴿قُرْآنًا عَرَبِيًّا غَيْرَ ذِي عِوَجٍ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾ (٢٨)

﴿قُرْآنًا عَرَبِيًّا﴾ حال مؤكدة، كقولك: جاءني زيد رجلاً صالحاً وإنساناً عاقلاً، ويجوز أن ينتصب على المدح، ﴿غَيْرَ ذِي عِوَجٍ﴾ مستقيماً بريئاً من التناقض والاختلاف. فإن قلت: فهلا قيل: مستقيماً: أو غير معوج؟ قلت: فيه فائدتان، إحداهما: نفي أن يكون فيه عوج قط، كما قال: ﴿وَلَمْ يَجْعَلْ لَّهُ عِوَجًا﴾ [الكهف: ١]، والثانية: أن لفظ العوج مختص ١٤٤/٢ بـ بالمعاني دون الأعيان، وقيل: المراد بالعوج: الشك واللبس. وأنشد [من البسيط]:

وَقَدْ أَتَاكَ يَقِينٌ غَيْرُ ذِي عِوَجٍ مِنْ إِلَهِ وَقَوْلٍ غَيْرُ مَكْذُوبٍ^(٢)

(١) قال محمود: «معناه كمن هو آمن، فحذف الخبر أسوة أمثاله... إلخ» قال أحمد: الملقى في النار والعياذ بالله، لم يقصد الاتقاء بوجهه، ولكنه لم يجد ما يتقي به النار غير وجهه، ولو وجد لفعل، فلما لقيها بوجهه كانت حاله حال المتقي بوجهه، عبر عن ذلك بالاتقاء من باب المجاز التمثيلي، والله أعلم.

(٢) الخطاب لرسول الله ﷺ، والمراد باليقين والقول: القرآن. أو اليقين: الأسرار، والقول: القرآن. أو اليقين: القرآن، والقول: ما عده من الأوامر والنواهي، و«من الإله» متعلق بأتاك. والمعنى: أن ذاك =

﴿ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا رَجُلًا فِيهِ شُرَكَاءُ مُتَشَاكِسُونَ وَرَجُلًا سَلَمًا لِرَجُلٍ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ (٢٩)

واضرب لقومك مثلاً، وقل لهم: ما تقولون في رجل من المماليك قد اشترك فيه شركاء بينهم اختلاف وتنازع، كل واحد منهم يدعي أنه عبده، فهم يتجاذبون ويتعاورونه في مهن شتى ومشادة، وإذا عنت له حاجة تدافعوه، فهو متحير في أمره سادر^(١)، قد تشعبت الهموم قلبه وتوزعت أفكاره، لا يدري أيهم يرضي بخدمته؟ وعلى أيهم يعتمد في حاجاته؟ وفي آخر: قد سلم لمالك واحد وخلص له، فهو معتنق لما يلزمه من خدمته، معتمد عليه فيما يصلحه، فهمه واحد وقلبه مجتمع، أي هذين العبدین أحسن حالاً وأجمل شأنًا؟ والمراد: تمثيل حال من يثبت آلهة شتى، وما يلزمه على قضية مذهبه من أن يدعي كل واحد منهم عبوديته، ويتشاكسوا في ذلك ويتغالبا، كما قال تعالى: ﴿ولعلا بعضهم على بعض﴾ [المؤمنون: ٩١] ويبقى هو متحيراً ضائعاً لا يدري أيهم يعبد؟ وعلى ربوبية أيهم يعتمد؟ ومنمن يطلب رزقه؟ ومنمن يلتمس رفقه؟ فهمه شعاع، وقلبه أوزاع^(٢)، وحال من لم يثبت إلا إلهاً واحداً، فهو قائم بما كلفه، عارف بما أرضاه وما أسخطه، متفضل عليه في عاجله، مؤمل للثواب من آجله. و ﴿فِيهِ﴾ صلة شركاء، كما تقول: اشتركوا فيه. والتشاكس والتشاخس: الاختلاف، تقول: تشاكست أحواله، وتشاخست أسنانه، ﴿سَلَمًا لِرَجُلٍ﴾ خالصاً. وقرئ: «سَلَمًا» بفتح الفاء والعين، وفتح الفاء وكسرهما مع سكون العين، وهي مصادر سلم. والمعنى: ذا سلامة لرجل، أي: ذا خلوص له من الشركة، من قولهم: سلمت له الضيعة. وقرئ بالرفع على الابتداء، أي: وهناك رجل سالم لرجل، وإنما جعله رجلاً؛ ليكون أفطن لما شقي به أو سعد، فإن المرأة والصبي قد يغفلان عن ذلك، ﴿هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا﴾؟ هل يستويان: صفة على التمييز، والمعنى: هل يستوي صفتاهما وحالاهما، وإنما اقتصر في التمييز على الواحد لبيان الجنس. وقرئ: «مثليين» كقوله تعالى: ﴿وَأَكْثَرَ أَمْوَالًا وَأَوْلَدًا﴾ [التوبة: ٦٩] مع قوله: ﴿أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً﴾ ويجوز فيمن قرأ: «مثليين»، أن يكون الضمير في ﴿يَسْتَوِيَانِ﴾ للمثليين؛ لأن التقدير: مثل رجل ومثل رجل. والمعنى: هل يستويان فيما يرجع إلى الوصفية، كما تقول: كفى بهما رجلين ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ﴾ الواحد الذي لا شريك له دون كل معبود سواه، أي: يجب أن يكون الحمد متوجهاً إليه

= من الشك واللبس، ومن الكذب؛ فالعوج: استعارة تصريحية.

(١) قوله: «في أمره سادر» في الصحاح «السادر»: المتحير. (ع).

(٢) قوله: «فهمه شعاع... إلخ» بالفتح، أي: متفرق. وقولهم: بها أوزاع من الناس، أي: جماعات، كذا في الصحاح. (ع).

وحده والعبادة، فقد ثبت أنه لا إله إلا هو، ﴿لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ﴾ فيشركون به غيره.

﴿إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِلَيْهِمْ مَرْجِعُكُمْ﴾ ثم إنكم يومئذ منكم ﴿يَوْمَ لَا يُغْنِي عَنْكُمْ كِبَرُكُمْ شَيْئاً وَهُمْ كَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ﴾ ﴿٣١﴾ ﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ كَذَبَ إِلَى اللَّهِ يَعِدُّهُ إِذَا حَدَّثَ كَذِباً فِي سَهْوٍ مُسْوًى﴾
﴿لَا تُخْفِرُ الْكَفُورِينَ﴾ ﴿٣٢﴾

كانوا يتربصون برسول الله ﷺ موته، فأخبر أن الموت يعمهم، فلا معنى للتربص، وشماتة الباقي بالفاني. وعن قتادة: نعى إلى نبيه نفسه، ونعى إليكم أنفسكم^(١). وقرئ: «مات وماتون»، والفرق بين الميت والمات: أن الميت صفة لازمة كالسيد. وأما المات فصفة حادثة، تقول: زيد مات غداً، كما تقول: سائد غداً، أي سيموت وسيسود. وإذا قلت: زيد ميت، فكما تقول: حي في نقيضه، فيما يرجع إلى اللزوم والثبوت. والمعنى في قوله: ﴿إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِلَيْهِمْ مَرْجِعُكُمْ﴾ إنك وإياهم، وإن كنتم أحياء فأنتم في عداد الموتى؛ لأن ما هو كائن فكأن قد كان، ﴿لَهُمْ﴾ ثم إنك وإياهم، فغلب ضمير المخاطب على ضمير الغيب ﴿عَنْهُمْ﴾ فتحتج أنت عليهم بأنك بلغت فكذبوا، فاجتهدت في الدعوة فلجوا في العناد، ويعتذرون بما لا طائل تحته، تقول الأتباع: أطعنا ساداتنا وكبراءنا، وتقول السادات: أغوتنا الشياطين وأباؤنا الأقدمون؛ وقد حمل على اختصاص الجميع، وأن الكفار يخاصم بعضهم بعضاً؛ حتى يقال لهم: ﴿لَا تَخْصِمُكُمْ﴾ [ق: ٢٨] والمؤمنون الكافرين يكتونهم بالحجج، وأهل القبلة يكون بينهم الخصام. قال عبد الله بن عمر: لقد عشنا برهة من دهرنا وديننا ونحن نرى أن هذه الآية أنزلت فينا وفي أهل الكتاب؟ قلنا: كيف نختصم ونبيننا واحد وديننا واحد وكتابنا واحد؟ حتى رأيت بعضنا يضرب وجوه بعض بالسيف، فعرفت أنها أنزلت فينا (١٣٤٠). وقال أبو سعيد الخدري:

١٣٤٠ - أخرجه الحاكم (٥٧٢/٤ - ٥٧٣)، كتاب: الأهوال، باب: لا يدخل أهل الجنة الجنة حتى... من طريق القاسم بن عوف البكري عن ابن عمر. وقال الحافظ: أخرجه الحاكم من رواية القاسم ابن عوف عن ابن عمر رضي الله عنهما. انتهى.

(١) قوله: «ونعى إليكم أنفسكم» لعله: إليهم أنفسهم. (ع).

(٢) قال محمود: «قرئ: إنك ميت ومات... إلخ» قال أحمد: فاستعمال ميت مجاز؛ إذ الخطاب مع الأحياء، واستعمال مات حقيقة؛ إذ لا يعطي اسم الفاعل وجود الفعل حال الخطاب. ونظيره قوله تعالى: (الله يتوفى الأنفس حين موتها) يعني: توفي الموت (والتي لم تمت في منامها) أي يتوفاها حين المنام، تشبيهاً للنوم بالموت، كقوله: (وهو الذي يتوفاكم بالليل) فيمسك الأنفس التي قضى عليها الموت الحقيقي، أي: لا يردها في وقتها حية (ويرسل الأخرى) أي: النائمة إلى الأجل الذي سماه، أي قدره لموتها الحقيقي. هذا أوضح ما قيل في تفسير الآية، والله أعلم.

كنا نقول: ربنا واحد ونبينا واحد وديننا واحد، فما هذه الخصومة؟ فلما كان يوم صقين وشد بعضنا على بعض بالسيف، قلنا: نعم هو هذا (١٣٤١). وعن إبراهيم النخعي قالت الصحابة: ما خصومتنا ونحن إخوان؟ فلما قتل عثمان رضي الله عنه قالوا: هذه خصومتنا (١٣٤٢). وعن أبي العالية: نزلت في أهل القبلة. والوجه الذي يدل عليه كلام الله هو ما قدمت أولاً. ألا ترى إلى قوله تعالى: ﴿مَنْ أَسْمَرَ يَنْتَ كَذَبٌ ١٤٥/٢ أَلَيْسَ اللَّهُ بِقَدِيرٍ﴾ وقوله تعالى: ﴿وَالَّذِي جَاءَ بِالصِّدْقِ وَصَدَّقَ بِهِ﴾ [الزمر: ٢٣] وما هو إلا بيان وتفسير للذين يكون بينهم الخصومة. ﴿كَذَبَ عَلَى اللَّهِ﴾ افترى عليه بإضافة الولد والشريك إليه. ﴿وَكَذَبَ بِالصِّدْقِ﴾ بالأمر الذي هو الصدق بعينه، وهو ما جاء به محمد ﷺ، ﴿إِذْ جَاءَهُ﴾ فاجأه بالكذب؛ لما سمع به من غير وقفة؛ لإعمال روية واهتمام بتمييز بين حق وباطل، كما يفعل أهل النصفة فيما يسمعون. ﴿مَنْ أَسْمَرَ يَنْتَ كَذَبٌ﴾ أي: لهؤلاء الذين كذبوا على الله وكذبوا بالصدق، واللام في ﴿لِلْكَافِرِينَ﴾ إشارة إليهم.

﴿وَالَّذِي جَاءَ بِالصِّدْقِ وَصَدَّقَ بِهِ يُؤْتِيكَ مِنْهُ الْأَمْثَلُ ٢٣﴾ هُمْ مَا يَشَاءُونَ عِنْدَ رَبِّهِمْ ذَلِكَ جَزَاءُ الْمُحْسِنِينَ ﴿٢٤﴾ يُكْفِرُ اللَّهُ عَنْهُمْ تَسْوَةً أَلَّذِي عَمِلُوا وَجَزَاهُمْ أَجْرُهُمْ بِأَحْسَنِ الَّذِي كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٢٥﴾

﴿وَالَّذِي جَاءَ بِالصِّدْقِ وَصَدَّقَ بِهِ﴾ هو رسول الله ﷺ: جاء بالصدق وآمن به، وأراد به إياه ومن تبعه، كما أراد بموسى إياه وقومه في قوله: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ لَعَنَهُمُ يَهُودُونَ﴾ [المؤمنون: ٤٩] فلذلك قال: ﴿أُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ﴾ إلا أن هذا في الصفة وذلك في الاسم. ويجوز أن يريد: والفوج أو الفريق الذي جاء بالصدق وصدق به، وهم الرسول الذي جاء بالصدق، وصحابته الذي صدقوا به^(١). وفي قراءة ابن مسعود: «والذين

١٣٤١ - عزاه الزيلعي في تخريج أحاديث الكشاف (٢٠٤/٣) للثعلبي من طريق أبي هاشم عن الخدري. وقال الحافظ ابن حجر: ذكره الثعلبي قال: وروى خلف بن خليفة عن أبي هاشم عن الخدري. انتهى.

١٣٤٢ - أخرجه عبد الرزاق في تفسيره (١٧٢/٢).

والطبري في تفسيره (٤/١١)، رقم (٣٠١٤٠)، كلاهما من طريق ابن عون عن إبراهيم النخعي، وعزاه الزيلعي في تخريج أحاديث الكشاف (٢٠٤/٣) للثعلبي في تفسيره من نفس الطريق السابق. وقال الحافظ بن حجر: أخرجه عبد الرزاق، والطبري، والثعلبي، من رواية عبد الله بن عون عن إبراهيم بهذا. انتهى.

(١) قال السمين الحلبي: قال الشيخ: وفيه توزيع للصلة، والفوج هو الموصول، فهو كقولك: جاء =

جاءوا بالصدق وصدقوا به» وقرئ: «وصدق به» بالتخفيف، أي: صدق به الناس ولم يكذبهم به، يعني: أداه إليهم كما نزل عليه من غير تحريف. وقيل: صار صادقاً به، أي: بسببه؛ لأن القرآن معجزة، والمعجزة تصديق من الحكيم الذي لا يفعل القبيح لمن يجريها على يده، ولا يجوز أن يصدق إلا الصادق، فيصير لذلك صادقاً بالمعجزة، وقرئ: «وصدق به»، فإن قلت: ما معنى إضافة الأسوأ والأحسن إلى الذي عملوا؟ وما معنى التفضيل فيهما؟ قلت: أما الإضافة فما هي من إضافة أفعال إلى الجملة التي يفضل عليها، ولكن من إضافة الشيء إلى ما هو بعضه من غير تفضيل، كقولك: الأشج أعدل بني مروان. وأما التفضيل فإيدان بأن السيء الذي يفرط منهم من الصغائر والزلات المكفرة، هو عندهم الأسوأ لاستعظامهم المعصية، والحسن الذي يعملونه هو عند الله الأحسن؛ لحسن إخلاصهم فيه؛ فلذلك ذكر سيئهم بالأسوأ وحسنهم بالأحسن. وقرئ: «أسوأ» الذي عملوا جمع سوء.

﴿أَلَيْسَ اللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُ وَيُخَوِّفُونَكَ بِالَّذِينَ مِنْ دُونِهِ وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ ۖ وَمَنْ يَهْدِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ مُضِلٍّ أَلَيْسَ اللَّهُ بِعَزِيزٍ ذِي انْتِقَامٍ ۖ﴾ (٣٦)

﴿أَلَيْسَ اللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُ﴾ أدخلت همزة الإنكار على كلمة النفي، فأفيد معنى إثبات الكفاية وتقريرها. وقرئ: «بكاف عبده» وهو رسول الله ﷺ، و «بكاف عباده» وهم الأنبياء؛ وذلك: أن قریشاً قالت لرسول الله ﷺ: إنا نخاف أن تخلك آلہتنا، وإنا نخشى عليك معرفتها^(١) لعبيك إياها. ويروى: أنه بعث خالداً إلى العزى ليكسرهما، فقال له سادنها: أحذركما يا خالد، إن لها لشدة لا يقوم لها شيء، فعمد خالد إليها فهشم أنفها. فقال الله عز وجل: أليس الله بكاف نبه أن يعصمه من كل سوء ويدفع عنه كل بلاء في مواطن الخوف. وفي هذا تهكم بهم؛ لأنهم خوفوه ما لا يقدر على نفع ولا ضرر. أو أليس الله بكاف أنبياءه، ولقد قالت أمهم نحو ذلك، فكفاهم الله، وذلك قول قوم هود: ﴿إِنْ نَقُولُ إِلَّا اعْرَثْنَاكَ بِغُصْنٍ الْهَيْئَةِ سِوَى﴾ [هود: ٥٤] ويجوز أن يريد: العبد والعباد على الإطلاق؛ لأنه كافهم في الشدائد وكافل مصالحهم. وقرئ: «بكافي عباده» على الإضافة. و«يكافي عباده». ويكافي: يحتمل أن يكون غير مهموز مفاعلة من الكفاية، كقولك: يجازي في يجزى، وهو أبلغ من كفى؛ لبنائه على لفظ المبالغة والمباراة: أن يكون مهموزاً من المكافأة وهي المجازاة؛ لما تقدم من قوله: ﴿وَجَزَّيْنَهُمْ أَجْرَهُمْ﴾، ﴿بِالَّذِينَ مِنْ

= الفريق الذي شرف وشرف، والأظهر عدم التوزيع، بل المعطوف على الصلة صلة لمن له الصلة الأولى. انتهى. الدر المصون.

(١) قوله: «معرفتها» أي: إثمتها. أفاده الصحاح. (ع).

دُونِيهِ ﴿٢٨﴾ أراد: الأوثان التي اتخذوها آلهة من دونه. ﴿يَعَزِّزُ﴾ بغالب منيع. ﴿ذِي أَنْفَامٍ﴾ ينتقم من أعدائه، وفيه وعيد لقريش، ووعد للمؤمنين بأنه ينتقم لهم منهم وينصرهم عليهم.

﴿وَلَيْنَ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ قُلْ أَفَرَأَيْتُمْ مَا تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ أَرَادَنِيَ اللَّهُ بِضُرٍّ هَلْ هُنَّ كَاشِفَاتُ ضُرِّيهِ أَوْ أَرَادَنِي بِرَحْمَةٍ هَلْ هِيَ مُمْسِكَةٌ رَحْمَتَهُ قُلْ حَسْبِيَ اللَّهُ عَلَيْهِ يَتَوَكَّلُ الْمُتَوَكِّلُونَ﴾ ﴿٢٩﴾

قري: «كاشفاتُ ضُرِّه» و«ممسكاتُ رحمتِه» بالتنوين على الأصل، وبالإضافة للتخفيف. فإن قلت: لم فرض المسألة في نفسه دونهم؟ قلت: لأنهم خوفوه معزة الأوثان وتخيلها، فأمر بأن يقرّهم أولاً بأن خالق العالم هو الله وحده. ثم يقول لهم بعد التقرير: فإذا أَرَادَنِي خالق العالم الذي أقرّتم به بضراً من مرض أو فقر أو غير ذلك من النوازل، أو برحمة من صحة أو غنى أو نحوهما، هل هؤلاء اللاتي خوفتموني إياهن كاشفات عني ضره أو ممسكات رحمته؟ حتى إذا ألقمهم الحجر وقطعهم حتى لا يحيروا ١٤٥/٢ بـ بينت شفة قال: ﴿حَسْبِيَ اللَّهُ﴾ كافياً لمعزة أوثانكم ﴿عَلَيْهِ يَتَوَكَّلُ الْمُتَوَكِّلُونَ﴾ وفيه تهكم. ويروي أن النبي ﷺ سألهم فسكتوا، فنزل ﴿قُلْ حَسْبِيَ اللَّهُ﴾ فإن قلت: لم قيل: كاشفات وممسكات، على التأنيث بعد قوله تعالى: ﴿وَيَعِزُّنَا بِاللَّيْلِ﴾؟ قلت: أنهن وكن إناثاً وهن اللات والعزى ومناة، قال الله تعالى: ﴿أَفَرَأَيْتُمُ اللَّاتَ وَالْعُزَّىٰ﴾ ﴿١١﴾ وَمَنَاةَ الثَّالِثَةَ الْأُخْرَىٰ ﴿١٢﴾ أَلَكُمُ الذَّكَرُ وَلَهُ الْأُنثَىٰ ﴿١٣﴾ [النجم: ١٩ - ٢١] ليضعفها ويعجزها زيادة تضعيف وتعجيز عما طالبهم به من كشف الضر وإمساك الرحمة؛ لأن الأنوثة من باب اللين والرخاوة، كما أن الذكورة من باب الشدة والصلابة، كأنه قال: الأناث اللاتي هن اللات والعزى ومناة أضعف مما تدعون لهن وأعجز. وفيه تهكم أيضاً.

﴿قُلْ يَلْقَؤُمْ أَعْمَلُوا عَلَىٰ مَكَانِكُمْ إِنِّي عَمِلْتُ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾ ﴿٣٩﴾ مَن يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَيَحِلُّ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُّقِيمٌ ﴿٤٠﴾

﴿عَلَىٰ مَكَانِكُمْ﴾ على حالكم التي أنتم عليها وجهتكم من العداوة التي تمكنتم منها، والمكانة بمعنى المكان، فاستعيرت عن العين للمعنى كما يستعار هنا، وحيث - للزمان، وهما للمكان. فإن قلت: حق الكلام: فأني عامل على مكانتي، فلم حذف؟ قلت: للاختصار، ولما فيه من زيادة الوعيد، والإيذان بأن حاله لا تقف، وترداد كل يوم قوة وشدة؛ لأن الله ناصره ومعينه ومظهره على الدين كله. ألا ترى إلى قوله: ﴿فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾ مَن يَأْتِيهِ ﴿٤١﴾ كيف توعدهم بكونه منصوراً عليهم غالباً عليهم في الدنيا والآخرة؛ لأنهم إذا

أتاهم الخزي والعذاب فذاك عزه وغلبته، من حيث إن الغلبة تتم له بعز عزيز من أوليائه، وبذل ذليل من أعدائه. ﴿يُخْزِيهِ﴾ مثل مقيم في وقوعه صفة للعذاب، أي: عذاب مخزٍ له، وهو يوم بدر، وعذاب دائم وهو عذاب النار. وقرئ: «مكاناتكم».

﴿إِنَّا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ بُرْهَانًا وَالْحَقَّ قَمِينَ هَذِهِ صَفَاتُ الَّذِينَ هُمْ فِيكُمْ ذَوَاتُ
عَلَيْهَا وَمَا أُنْزِلَ عَلَيْهِمْ مِنْ بَرَكَاتٍ﴾

﴿لِلنَّاسِ﴾ لأجلهم ولأجل حاجتهم إليه؛ ليسشروا وينذروا، فتقوى دواعيهم إلى اختيار الطاعة على المعصية. ولا حاجة إلى ذلك فأنا الغني، فمن اختار الهدى فقد نفع نفسه، ومن اختار الضلالة فقد ضرّها. وما وكلت عليهم لتجبرهم على الهدى؛ فإن التكليف مبني على الاختيار دون الإيجاب.

﴿اللَّهُ يَتَوَفَّى الْأَنفُسَ مِنْ مَوْتِهَا وَتِلْكَ لَمْ تَمُتْ فِي مَنَامِهَا يَتَّبِعُهَا أَتَى فَنَفْسُ
الْمَوْتِ إِلَى الْأُخْرَىٰ أَوْ إِلَىٰ مَسْئَةٍ فِي ذَلِكَ لَا يَسْتَرْجِعُ يَتَذَكَّرُونَ﴾

﴿الْأَنفُسُ﴾ الجمل كما هي، وتوفيها: إمامتها، وهو أن تُسَلَّبَ ما هي به حية حساسة درآكة من: صحة أجزائها وسلامتها؛ لأنها عند سلب الصحة كأن ذاتها قد سلبت ﴿وَالَّذِي لَمْ تَمُتْ فِي مَنَامِهَا﴾ يريد ويتوفى الأنفس التي لم تمت في منامها، أي: يتوفاها حين تنام، تشبيهاً للنائمين بالموتى. ومنه قوله تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي يَتَوَفَّاكُم بِاللَّيْلِ﴾ [الأنعام: ٦] حيث لا يميزون ولا يتصرفون، كما أن الموتى كذلك، ﴿فَيَمُوتُ﴾ الأنفس ﴿الَّتِي قَضَىٰ عَلَيْهَا أَمْرُ﴾ الحقيقي، أي: لا يردها في وقتها حية، ﴿وَيُرْسِلُ الْأُخْرَىٰ﴾ النائمة إلى أجل مسمى إلى وقت ضربه لموتها. وقيل: يتوفى الأنفس يستوفيها ويقضيها، وهي الأنفس التي تكون معها الحياة والحركة، ويتوفى الأنفس التي لم تمت في منامها، وهي أنفس التمييز. قالوا: فالتى تتوفى في النوم هي نفس التمييز لا نفس الحياة؛ لأن نفس الحياة إذا زالت زال معها النفس، والنائم يتنفس. ورووا عن ابن عباس رضي الله عنهما: في ابن آدم نفس وروح بينهما مثل شعاع الشمس، فالنفس التي بها العقل والتمييز، والروح التي بها النفس والتحريك، فإذا نام العبد قبض الله نفسه ولم يقبض روحه. (١٣٤٣) والصحيح ما ذكرت أولاً؛ لأن الله عزّ وعلا علق التوفي والموت والمنام جميعاً بالأنفس، وما عنوا بنفس الحياة والحركة ونفس العقل والتمييز غير متصف بالموت والنوم، وإنما الجملة هي التي تموت وهي التي تنام. ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ﴾ إن في توفي الأنفس مائة ونائمة وإمساكها وإرسالها

١٣٤٣ - قال الزيلعي في تخريج الكشاف (٢٠٥/٣): غريب جداً. قال ابن حجر: لم أجده.

إلى أجل لآيات على قدرة الله وعلمه، لقوم يجيلون فيه أفكارهم ويعتبرون. وقرئ: «فُضِي» عليها الموت» على البناء للمفعول.

﴿أَوْ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ شُفَعَاءَ قُلْ أُولَئِكَ يَمْلِكُونَ شَيْئًا وَلَا يَعْقِلُونَ﴾ (٤٣)

قُلْ لِلَّهِ الشَّفَعَةُ جَمِيعًا لَمْ يَمْلِكْ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضُ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٤٤﴾

﴿أَوْ اتَّخَذُوا﴾ بل اتخذ قریش، والهمزة للإنكار ﴿مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾ من دون إذنه ﴿شُفَعَاءَ﴾ حين قالوا: ﴿هَؤُلَاءِ شُفَعَاؤُنَا عِنْدَ اللَّهِ﴾ [يونس: ١٨] ولا يشفع عنده أحد إلا بإذنه. ألا ترى إلى قوله تعالى: ﴿قُلْ لِلَّهِ الشَّفَعَةُ جَمِيعًا﴾ أي: هو مالكها، فلا يستطيع أحد شفاعته إلا بشرطين: أن يكون المشفوع له مرتضى، وأن يكون الشفيع مأذوناً له. وههنا الشرطان مفقودان جميعاً. ﴿أُولَئِكَ كَانُوا﴾ معناه: أيشفعون ولو كانوا ﴿لَا يَمْلِكُونَ شَيْئًا وَلَا يَعْقِلُونَ﴾ أي: ولو كانوا على هذه الصفة لا يملكون شيئاً قط؛ حتى يملكوا الشفاعة ولا عقل لهم، ﴿لَمْ يَمْلِكْ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضُ﴾ تقرير لقوله تعالى: ﴿لِلَّهِ الشَّفَعَةُ جَمِيعًا﴾ لأنه إذا كان له الملك كله والشفاعة من الملك، كان مالكا لها. ١٤٦/٢ فإن قلت: بم يتصل قوله: ﴿ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾؟ قلت: بما يليه، معناه: له ملك السموات والأرض اليوم ثم إليه ترجعون يوم القيامة، فلا يكون الملك في ذلك اليوم إلا له، فله ملك الدنيا والآخرة.

﴿وَإِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَحْدَهُ اشْمَأَزَّتْ قُلُوبُ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ وَإِذَا ذُكِرَ الَّذِينَ مِنْ

دُونِهِ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ﴾ (٤٥)

مدار المعنى على قوله: «وحده» أي: إذا أفرد الله بالذكر ولم يذكر معه آلهتهم «اشمأزوا» أي: نفروا وانقبضوا، ﴿وَإِذَا ذُكِرَ الَّذِينَ مِنْ دُونِهِ﴾ وهم آلهتهم ذكر الله معهم أو لم يذكر استبشروا؛ لافتتانهم بها ونسيانهم حق الله إلى هواهم فيها. وقيل: إذا قيل لا إله إلا الله وحده لا شريك له نفروا؛ لأن فيه نفياً لآلهتهم. وقيل: أراد استبشارهم بما سبق إليه لسان رسول الله ﷺ من ذكر آلهتهم حين قرأ (والنجم) عند باب الكعبة، فسجدوا معه لفرحهم، ولقد تقابل الاستبشار والاشمئزاز؛ إذ كل واحد منهما غاية في بابه؛ لأن الاستبشار أن يمتلئ قلبه سروراً حتى تنبسط له بشرة وجهه ويتهلل. والاشمئزاز: أن يمتلئ غمًا وغيظاً حتى يظهر الانقباض في أديم وجهه. فإن قلت: ما العامل في ﴿وَإِذَا ذُكِرَ﴾؟ قلت: العامل في إذا المفاجأة، تقديره وقت ذكر الذين من دونه، فاجأوا وقت الاستبشار.

﴿قُلِ اللَّهُمَّ فَاطِرَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ عَلَيَّ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ أَنْتَ تَحْكُمُ بَيْنَ عِبَادِكَ فِي مَا

كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾ (٤٦)

بَعْلٌ^(١) رسول الله ﷺ بهم، وبشدة شكيمتهم في الكفر والعناد، فقليل له: ادع الله بأسمائه العظمى، وقل: أنت وحدك تقدر على الحكم بيني وبينهم، ولا حيلة لغيرك فيهم. وفيه وصف لحالهم وإعذار لرسول الله ﷺ وتسلية له ووعد لهم. وعن الربيع بن خثيم^(٢) وكان قليل الكلام. أنه أخبر بقتل الحسين - رضي الله عنه، وسخط على قاتله - وقالوا: الآن يتكلم، فما زاد على أن قال: آه أو قد فعلوا؟ وقرأ هذه الآية. وروي أنه قال على أثره: قتل من كان رسول الله ﷺ يجلسه في حجره ويضع فاه على فيه.

﴿وَلَوْ أَنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُ مَعَهُ لَافْتَدَوْا بِهِ مِنْ سُوءِ الْعَذَابِ يَوْمَ الْقِيَمَةِ وَبَدَأَ لَهُمْ مِنْ اللَّهِ مَا لَمْ يَكُونُوا يَحْتَسِبُونَ ﴿٤٧﴾ وَبَدَأَ لَهُمْ سَيِّئَاتٍ مَا كَسَبُوا وَحَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٤٨﴾﴾

﴿وَبَدَأَ لَهُمْ مِنَ اللَّهِ﴾ وعيد لهم لا كنه لفظاعته وشدته، وهو نظير قوله تعالى في الوعد: ﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَا أُخْفِيَ لَهُمْ﴾ [السجدة: ١٧] والمعنى: وظهر لهم من سخط الله وعذابه ما لم يكن قط في حسابهم ولم يحدثوا به نفوسهم. وقيل: عملوا أعمالاً حسبوها حسنات، فإذا هي سيئات. وعن سفیان الثوري أنه قرأها فقال: ويل لأهل الرياء، ويل لأهل الرياء. وجزع محمد بن المنكدر عند موته فقيل له، فقال: أخشى آية من كتاب الله، وتلاها، فأنأ أخشى أن يبدو لي من الله ما لم أحتسبه. ﴿وَبَدَأَ لَهُمْ سَيِّئَاتٍ مَا كَسَبُوا﴾ أي سيئات أعمالهم التي كسبوها، أو سيئات كسبهم، حين تعرض صحائفهم، وكانت خافية عليهم، كقوله تعالى: ﴿أَخْصَنُ اللَّهُ وَسُوهُ﴾ [المجادلة: ٦] وأراد بالسيئات: أنواع العذاب التي يجازون بها على ما كسبوها، فسمها سيئات، كما قال: ﴿وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِثْلُهَا﴾ [الشورى: ٤٠] ﴿وَحَاقَ بِهِمْ﴾ ونزل بهم وأحاط جزاء هزئهم.

﴿فَإِذَا مَسَّ الْإِنْسَانَ ضُرٌّ دَعَانَا ثُمَّ إِذَا خَوَّلْنَاهُ نِعْمَةً مِنَّا قَالَ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَىٰ عِلْمٍ بَلْ هِيَ فِتْنَةٌ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٤٩﴾﴾

التخويل: مختص بالفضل. ويقال: خولني، إذا أعطاك على غير جزاء. ﴿عَلَىٰ عِلْمٍ﴾ أي على علم مني أني سأعطاه؛ لما في من فضل واستحقاق. أو على علم من الله بي وباستحقاقي:^(٣) أو على علم مني بوجوه الكسب، كما قال قارون: ﴿عَلَىٰ عِلْمٍ عِنْدِي﴾

(١) قوله: «بعل رسول الله» في الصحاح: «بعل الرجل» بالكسر، أي: دهش. (ع).

(٢) قوله: «وعن الربيع بن خثيم» في النسفي: خثيم. (ع).

(٣) قال محمود: «معناه على علم من الله بي وباستحقاقي... إلخ» قال أحمد: كذلك يقول: على =

[الفصل: ٧٨]. فإن قلت: لم ذكر الضمير في ﴿أُوتِيْتَهُ﴾ وهو للنعمة؟ قلت: ذهاباً به إلى المعنى؛ لأن قوله: ﴿نِعْمَةً مِّنَّا﴾ شيئاً ما النعم وقسماً منها. ويحتمل أن تكون (ما) في إنما موصولة لا كافة، فيرجع إليها الضمير. على معنى: إن الذي أوتيته على علم ﴿بَلْ هِيَ فِتْنَةٌ﴾ إنكار لقوله كأنه قال: ما خولناك من النعمة لما تقول، بل هي فتنة، أي: ابتلاء وامتحان لك، أتشكر أم تكفر؟ فإن قلت: كيف ذكر الضمير ثم أنه؟ قلت: حملاً على المعنى أولاً، وعلى اللفظ آخرًا؛ ولأن الخبر لما كان مؤنثاً أعني ﴿فِتْنَةٌ﴾: ساغ تأنيث المبتدأ لأجله؛ لأنه في معناه، كقولهم: ما جاءت حاجتك. وقرئ: «بل هو فتنة» على وفق ﴿إِنَّمَا أُوتِيْتَهُ﴾. فإن قلت: ما السبب في عطف هذه الآية بالفاء وعطف مثلها في أول السورة بالواو؟ قلت: السبب في ذلك أن هذه وقعت مسببة عن قوله: ﴿وَإِذَا ذَكَرَ اللَّهُ وَحْدَهُ اشْمَأَزَّتْ﴾^(١) [الزمر: ٤٥] على معنى أنهم يشمئزون عن ذكر الله ويستبشرون بذكر الآلهة، فإذا مسَّ أحدهم ضرٌّ دعا من اشمأز من ذكره، دون من استبشر بذكره، وما بينهما من الآي اعتراض. فإن قلت: حق الاعتراض أن يؤكد المعترض بينه وبينه^(٢). قلت: ما في الاعتراض من دعاء رسول الله ﷺ ربه بأمر منه وقوله: «أنت تحكم ١٤٦/٢ ب بينهم» ثم ما عقبه من الوعيد العظيم: تأكيد لإنكار اشمئزازهم واستبشارهم ورجوعهم إلى الله في الشدائد دون آلهتهم، كأنه قيل: يا رب لا يحكم بيني وبين هؤلاء الذين يجترئون عليك مثل هذه الجراءة، ويرتكبون مثل هذا المنكر إلا أنت. وقوله: ﴿وَلَوْ أَنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا﴾ [الزمر: ٤٧] متناول لهم ولكل ظالم إن جعل مطلقاً، أو إياهم خاصة إن عنيتهم به، كأنه قيل: ولو أن هؤلاء الظالمين ما في الأرض جميعاً ومثله معه لافتدوا به. حين أحكم عليهم بسوء العذاب، وهذه الأسرار والنكت لا يبرزها إلا علم النظم، وإلا بقيت محتجبة في أكمائها. وأما الآية الأولى فلم تقع مسببة وما هي إلا جملة ناسبت جملة قبلها فعطف عليها بالواو، كقولك: قام زيد وقعد عمرو. فإن قلت: من أي وجه وقعت مسببة؟

= قدري تمنى على الله أن يشبه في الآخرة: أن الفرق بين حمد الدنيا وحمد الآخرة أن حمد الدنيا واجب على العبد؛ لأنه على نعمة متفضل بها، وحمد الآخرة ليس بواجب عليه؛ لأنه على نعمة واجبة على الله عز وجل، ولقد صدق الله إذ يقول، وهي فتنة إنما سلم منها أهل السنة؛ إذ يعتقدون أن الثواب بفضل الله وبرحمته لا باستحقاق، ويتبعون في ذلك قول سيد البشر ﷺ: لا يدخل أحد الجنة بعمله. قيل: ولا أنت يا رسول الله؟ قال: ولا أنا، إلا أن يتغمدني الله برحمته، فما أحق من منى نفسه وركب رأسه، وطمع أنه يستحق على الله الجنة.

(١) قال محمود: «فإن قلت: لم عطف هذه الآية على التي قبلها بالفاء؟ والآية التي قبلها في أول السورة بالواو؟ وأجاب بأن هذه الآية مسببة عن قوله: (وإذا ذكر الله... إلخ) قال أحمد: كلام جليل فافهمه، فضلاً عن شبه قليل.

(٢) قوله: «المعترض بينه وبينه» لعل قوله: «وبينه» مزيد من بعض الناسخين. (ع).

والاشتمزاز عن ذكر الله ليس بمقتضى لالتجائهم إليه، بل هو مقتضى لصدوفهم^(١) عنه. قلت: في هذا التسيب لطف، وبيانه أنك تقول: زيد مؤمن بالله، فإذا مسّه ضرّ التجأ إليه، فهذا تسيب ظاهر لا لبس فيه، ثم تقول: زيد كافر بالله، فإذا مسّه ضرّ التجأ إليه، فتجيء بالفاء مجيئك به ثمة، كأنّ الكافر حين التجأ إلى الله التجاء المؤمن إليه، مقيم كفره مقام الإيمان، ومجره مجراه في جعله سبباً في الالتجاء، فأنت تحكي ما عكس فيه الكافر. ألا ترى أنك تقصد بهذا الكلام الإنكار والتعجب من فعله.؟

﴿قَدْ قَالُوا الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَمَا أَغْنَىٰ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿٥٠﴾ فَأَصَابَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا كَسَبُوا وَالَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْ هَٰؤُلَاءِ سَيُصِيبُهُمْ سَيِّئَاتُ مَا كَسَبُوا وَمِمَّا هُمْ بِمُعْجِزِينَ ﴿٥١﴾ أَوَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَايَتَذَكَّرُونَ يُؤْمِنُونَ ﴿٥٢﴾﴾

الضمير في ﴿قَالُوا﴾ راجع إلى قوله: ﴿إِنَّمَا أُوتِيتُمْ عَلَىٰ عِلْمٍ﴾ لأنها كلمة أو جملة من القول. وقرئ: «قد قاله» على معنى القول والكلام، وذلك والذين من قبلهم: هم قارون وقومه، حيث قال: ﴿إِنَّمَا أُوتِيتُمْ عَلَىٰ عِلْمٍ عِنْدِي﴾ [القصص: ٧٨]، وقومه راضون بها، فكأنهم قالوها. ويجوز أن يكون في الأمم الخالية آخرون قائلون مثلها: ﴿فَمَا أَغْنَىٰ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ من متاع الدنيا ويجمعون منه. ﴿مِنْ هَٰؤُلَاءِ﴾ من مشركي قومك ﴿سَيُصِيبُهُمْ﴾ مثل ما أصاب أولئك، فقتل صناديدهم بيد، وحبس عنهم الرزق، فقحطوا سبع سنين، ثم بسط لهم فمطروا سبع سنين، فقليل لهم: ﴿أَوَلَمْ يَعْلَمُوا﴾ أنه لا قابض ولا باسط إلا الله عز وجل.

﴿قُلْ يٰٓعِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِنْ رَّحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ﴿٥٢﴾﴾

﴿أَسْرَفُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ﴾ جنوا عليها بالإسراف في المعاصي والغلو فيها ﴿لَا تَقْنَطُوا﴾ قرئ: بفتح النون وكسرهما وضمها. ﴿إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا﴾ يعني بشرط التوبة^(٢)، وقد تكرر ذكر هذا الشرط في القرآن، فكان ذكره فيما ذكر فيه ذكراً له فيما لم يذكر فيه؛ لأنّ القرآن في حكم كلام واحد، ولا يجوز فيه التناقض. وفي قراءة ابن عباس وابن مسعود:

(١) قوله: «لصدوفهم عنه» أي: إعراضهم. أفاده الصحاح. (ع).

(٢) قوله: «يعني بشرط التوبة» عند التوبة، فالعموم شامل للشرك، وعند عدمها فلا غفران للكبائر عند المعتزلة، ويجوز بالشفاعة وبمجرد الفضل عند أهل السنة (إن الله لا يغفر أن يشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء) كما تقرر في علم التوحيد، فارجع إليه. (ع).

«يغفر الذنوب جميعاً لمن يشاء». والمراد بمن يشاء: من تاب؛ لأن مشيئة الله تابعة لحكمته وعدله، لا لمملكه وجبروته. وقيل: في قراءة النبي ﷺ وفاطمة رضي الله عنها: «يغفر الذنوب جميعاً ولا يبالي» ونظير نفي المبالاة نفي الخوف في قوله تعالى: ﴿وَلَا يَخَافُ عُقْبَاهَا﴾ [الشمس: ١٥] وقيل: قال أهل مكة: يزعم محمد أن من عبد الأوثان وقتل النفس التي حرم الله لم يغفر له، فكيف ولم نهاجر، وقد عبدنا الأوثان، وقتلنا النفس التي حرم الله؟ فنزلت. وروي أنه أسلم عياش بن أبي ربيعة والوليد بن الوليد ونفر معهما، ثم فتنوا وعذبوا، فافتتنوا، فكننا نقول: لا يقبل الله لهم صرفاً ولا عدلاً أبداً، فنزلت. فكتب بها عمر رضي الله عنه إليهم، فأسلموا وهاجروا، وقيل: نزلت في وحشي قاتل حمزة رضي الله عنه. وعن رسول الله ﷺ: «ما أحب أن لي الدنيا وما فيها بهذه الآية» فقال رجل: يا رسول الله، ومن أشرك؟ فسكت ساعة ثم قال: «ألا ومن أشرك» (١٣٤٤) ثلاث مرّات.

﴿وَأَنِيبُوا إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَأَسْلُمُوا لَهُ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَكُمُ اللَّهُ لَا تُصْرِتُوا ٥٤﴾ وَأَنِيبُوا أَحْسَنَ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَكُمُ الْعَذَابُ بَغْتَةً وَأَنْتُمْ لَا تَشْعُرُونَ ٥٥﴾ أَن تَقُولَ نَفْسٌ بِحَسْرَتِي عَلَىٰ مَا فَرَّطْتُ فِي جَنْبِ اللَّهِ وَإِن كُنتَ لَمِنَ السَّخِرِينَ ٥٦﴾ أَوْ تَقُولَ لَوْ أَنَّ اللَّهَ هَدَانِي لَكُنْتُ مِنَ الْمُتَّقِينَ ٥٧﴾ أَوْ تَقُولَ حِينَ تَرَى الْعَذَابَ لَوْ أَنَّ لِي كَرَّةٌ فَأَكُونَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ ٥٨﴾ بَلَىٰ قَدْ جَاءَ تَكَءَايَاتِي فُكَّدْتَبْتِ بِهَا وَأَسْتَكَبَرْتَ وَكُنْتَ مِنَ الْكَافِرِينَ ٥٩﴾

﴿وَأَنِيبُوا إِلَىٰ رَبِّكُمْ﴾ وتوبوا إليه. ﴿وَأَسْلُمُوا لَهُ﴾ وأخلصوا له العمل، وإنما ذكر الإنابة على أثر المغفرة لثلا يطمع طامع في حصولها بغير توبة، وللدلالة على أنها شرط فيها. لازم لا تحصل بدونه ﴿وَأَنِيبُوا أَحْسَنَ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ﴾ مثل قوله: ﴿الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ﴾ [الزمر: ١٨]. ﴿وَأَنْتُمْ لَا تَشْعُرُونَ﴾ أي يفجؤكم وأنتم غافلون، كأنكم لا تخشون شيئاً لفرط غفلتكم وسهوكم. ﴿أَن تَقُولَ نَفْسٌ﴾ كراهة أن تقول. فإن قلت: لم نكرت؟ قلت: لأن المراد بها بعض الأنفس، وهي نفس الكافر. ويجوز أن يراد: نفس متميزة من الأنفس؛ إما بلجاج في الكفر شديد، أو بعذاب عظيم. ويجوز أن يراد التكثر،

١٣٤٤ - أخرجه الطبري في تفسيره (١٦/١١)، حديث (٣٠١٨٧).

والبيهقي في الشعب (٤٢٣/٥)، باب: في معالجة كل ذنب بالتوبة حديث (٧١٣٧)، كلاهما من طريق أبو عبد الرحمن الحُبَلِيُّ عن ثوبان، وعزه الزيلعي في تخريج أحاديث الكشاف (٢٠٥/٣) لابن مردويه من تفسيره، وللثعلبي في تفسيره، وقال الحافظ ابن حجر: أخرجه الطبري والطبراني في الأوسط والبيهقي في الشعب في السابع والأربعين من حديث ثوبان، وفيه ابن لهيعة عن أبي قبيل وهما ضعيفان. انتهى.

كما قال الأعشى ١٤٧/٢ [من الطويل]:

وَرَبَّ بَقِيعٍ لَوْ هَتَفْتُ بِحَوْهٍ أَتَانِي كَرِيمٌ يَنْفُضُ الرَّأْسَ مُغْضَبًا^(١)

وهو يريد: أفواجاً من الكرام ينصرونه، لا كريماً واحداً. ونظيره: رب بلد قطعت، ورب بطل قارعت. وقد اختلس الطعنة ولا يقصد إلا التكسير. وقرئ: «يا حسرتي» على الأصل. ويا حسرتاي، على الجمع بين العوض والمعوّض منه. والجنب: الجانب، يقال: أنا في جنب فلان وجانبه وناحيته، وفلان لين الجنب والجانب، ثم قالوا: فرط في جنبه وفي جانبه، يريدون في حقه. قال سابق البربري [من الطويل]:

أَمَّا تَتَّقِينَ اللَّهَ فِي جَنْبٍ وَامِقٍ لَهُ كَبِدٌ حَرَّى عَلَيْكَ تَقْطَعُ^(٢)

وهذا من باب الكناية؛ لأنك إذا أثبت الأمر في مكان الرجل وحيزه، فقد أثبتته فيه. ألا ترى إلى قوله [من الكامل]:

إِنَّ السَّمَاخَةَ وَالْمُرُوءَةَ وَالنَّدَى فِي قُبَّةٍ ضُرِبَتْ عَلَى ابْنِ الْحَشْرِجِ^(٣)

(١) دعا قومه حولي فجاءوا لنصره وناديت قوماً بالمسناة غيبا
ورب بقيع لو هتفت بحوه أتاني كريم ينفض الرأس مغضبا

للأعشى، وقيل: لأبي عمرو بن العلاء، يصف قومه بالجنب حتى كأنهم أموات مقبورون، صارت الأحجار مسناة فوقهم. وسنت الشيء سهلته، أي: منعمة ملمسة، أو بالية مفتتة. ويجوز أن أصله مسننة، فقلبت النون الثانية ألفاً. وسنتت الحجر حددته وملسته. وفي وصف القبور بذلك مبالغة في وصف قومه بالجنب، بل هم دون تلك الأموات، قرب بقيع: أي موضع فيه أروم الشجر من ضروب شتى، والمراد مقبرة، لا بقيع الغرقد بالغين وهو مقبرة المدينة بعينها، لو هتفت بحوه، أي: ناديت شجاعهم لجاءني كريم ينفض رأسه من تراب القبر. أو من الغضب لما نالني من المكروه، وليس المراد كريماً واحداً، بل كرماء كثيرة بمعونة المقام. والحو - بالمهمله -: الشجاع، وبالمعجمة: العسل، وبالجيم: ما غلظ وارتفع من الأرض.

ينظر: ديوانه ٨، والبحر المحيط ٤٣٥/٧، ومقاييس اللغة ٢٨٢/١، الدر المصون ١٩/٦.

(٢) أما تتقين الله في جنب وامق له كبد حرى عليك تقطع
غريب مشوق مولع بادكاركم وكل غريب الدار بالشوق مولع

لجميل بن معمر، يستعطف صاحبه بثينة ويتوجع إليها مما نابه فيها، أي: أما تخافين الله في جنب وامق، أي: في حقه الواجب عليك، فالجنب: كناية عن ذلك. والوامق: الشديد المحبة، يعني نفسه. وحرى: أي ذات حر واحتراق. وتقطع: أصله تقطع، والادكار: أصله الاذتكار، قلبت تاؤه دالاً مهملة، وأدغمت الدال المعجمة فيها، وخاطبها خطاب جمع المذكر تعظيماً. وفي البيت رد المعجز على الصدر، وهو من بديع الكلام.

ينظر تاج العروس: (جنب) (جيم) البحر، ٤٣٥/٧، ديوان جميل (٢٧٣)، الدر المصون (٢٠/٦).
(٣) لزيادة الأعجم، يمدح عبد الله بن الحشرج أمير نيسابور، وهو من باب الكناية التي قصد بها النسبة، يعني أنه مختص بهذه الصفات لا توجد في غيره، ولا خيمة هناك ولا ضرب أصلاً.

ومنه قول الناس: لمكانك فعلت كذا، يريدون: لأجلك. وفي الحديث: «من الشرك الخفي أن يصلي الرجل لمكان الرجل» (١٣٤٥) وكذلك: فعلت هذا من جهتك. فمن حيث لم يبق فرق فيما يرجع إلى أداء الغرض بين ذكر المكان وتركه، قيل: ﴿فَرَطْتُ فِي جَنْبِ اللَّهِ﴾ على معنى: فرطت في ذات الله. فإن قلت: فمرجع كلامك إلى أن ذكر الجنب كلا ذكر سوى ما يعطى من حسن الكناية وبلاغتها، فكأنه قيل: فرطت في الله. فما معنى فرطت في الله؟ قلت: لا بد من تقدير مضاف محذوف، سواء ذكر الجنب أو لم يذكر. والمعنى: فرطت في طاعة الله وعبادة الله، وما أشبه ذلك. وفي حرف عبد الله وحفصة: في ذكر الله. «وما» في «ما فرطت» مصدرية مثلها في ﴿بِمَا رَحَّبْتُ﴾ [التوبة: ٢٥]، [التوبة: ١١٨]، ﴿وَإِنْ كُنْتُ لِمَنْ أَسْتَخِيرُ﴾ قال قتادة: لم يكفه أن ضيع طاعة الله حتى سخر من أهلها، ومحل ﴿وَإِنْ كُنْتُ﴾ النصب على الحال، كأنه قال: فرطت وأنا ساخر، أي: فرطت في حال سخريتي. وروي: أنه كان في بني إسرائيل عالم ترك علمه وفسق. وأتاه إبليس، قال له: تمتع من الدنيا ثم تب، فأطاعه، وكان له مال فأنفقه في الفجور، فأتاه ملك الموت في ألد ما كان فقال: يا حسرتا على ما فرطت في جنب الله، ذهب عمري في طاعة الشيطان، وأسخطت ربي فندم حين لم ينفعه الندم، فأنزل الله خبره في القرآن ﴿لَوْ أَنَّ اللَّهَ هَدَانِي﴾ لا يخلو: إما أن يريد الهداية^(١) بالإلجاء أو بالإلطف أو بالوحي، فالإلجاء خارج عن الحكمة، ولم يكن من أهل الإلطف فيلطف به. وأما الوحي فقد كان، ولكنه عرض ولن يتبعه حتى يهتدي، وإنما يقول هذا تحيراً في أمره وتعللاً بما لا يجدي عليه، كما حكى عنهم التعلل بإغواء الرؤساء والشياطين ونحو ذلك، ونحوه ﴿لَوْ هَدَانَا

١٣٤٥ - أخرجه الحاكم (٣٢٩/٤)، كتاب الرقاق، باب: من تشعبت به الهموم لم يبال في أي أودية الدنيا هلك.

والبيهقي في الشعب (٣٣٤/٥)، باب: في إخلاص العمل لله وترك الرياء رقم (٦٨٣٢) - وعزاه الزيلعي في تخريج أحاديث الكشاف (٢٠٦/٣) لإسحاق بن راهويه والبخاري في مسانيدهم. وقال الحافظ ابن حجر: أخرجه أحمد، وإسحاق، والبخاري، والحاكم، والبيهقي، من رواية ربيع بن عبد الرحمن بن أبي سعيد عن أبيه عن جده قال: «خرج علينا رسول الله ﷺ يوماً ونحن نتذاكر الدجال، فقال: غير الدجال أخوف عليكم: الشرك الخفي: أن يعمل الرجل لمكان الرجل» لفظ الحاكم. انتهى.

(١) قوله: «لا يخلو إما أن يريد به الهداية» محل لتطبيق الآية على مذهب المعتزلة، ولكن خلق الهداية لا يصلح إلى حد الإلجاء؛ لأنه لا يسلب الاختيار عند أهل السنة، كخلق التقوى والطاعة وغيرها من الأفعال الاختيارية؛ لما أثبتوه للعبد من الكسب فيها وإن كان فاعلها في الحقيقة هو الله تعالى، كما تقرر في علم التوحيد. (ع).

اللَّهُ هَدَيْنَكُمْ ﴿[إبراهيم: ٢١] وقوله: ﴿بَلَىٰ قَدْ جَاءَ تِلْكَ إِلَيْنَا﴾ رد من الله عليه، معناه: بلى قد هديت بالوحي فكذبت به واستكبرت عن قبوله، وآثرت الكفر على الإيمان، والضلالة على الهدى. وقرئ: بكسر التاء^(١) على مخاطبة النفس. فإن قلت: فهلا قرن الجواب بما هو جواب له، وهو قوله: ﴿لَوْ أَنَّهُ هَدَانِي﴾ ولم يفصل بينهما بآية؟ قلت: لأنه لا يخلو: إما أن يقدم على أخرى القرائن الثلاث فيفرق بينهما. وإما أن تؤخر القرينة الوسطى، فلم يحسن الأول لما فيه من تبتير النظم بالجمع بين القرائن. وأما الثاني: فلما فيه من نقص الترتيب وهو التحسر على التفريط في الطاعة، ثم التعلل بفقد الهداية، ثم تمنى الرجعة فكان الصواب ما جاء عليه، وهو أنه حكى أقوال النفس على ترتيبها ونظمها، ثم أجاب من بينها عما اقتضى الجواب. فإن قلت: كيف صح أن تقع بلى جواباً لغير منفي؟ قلت: ﴿لَوْ أَنَّهُ هَدَانِي﴾ فيه معنى: ما هديت.

﴿وَيَوْمَ الْقِيَمَةِ تَرَى الَّذِينَ كَذَبُوا عَلَى اللَّهِ وُحُوهُم مَّسْوُودَةٌ أَلَيْسَ فِي سَهْمِهِمْ شَرٌّ

لِمَن كَذَبُوا﴾

﴿كَذَبُوا عَلَى اللَّهِ﴾ أي وصفوه بما لا يجوز عليه تعالى، وهو متعال^(٢) عنه، فأضافوا إليه

(١) قوله: «وقرئ بكسر التاء» لعل من كسرهما كسر الكاف أيضاً. (ع).

(٢) قال محمود: «يعني الذين وصفوه تعالى بما لا يجوز عليه وهو متعال عنه... إلخ» قال أحمد: قد عدا طور التفسير لمرض في قلبه لا دواء له إلا التوفيق الذي حرمه، ولا يعافيه منه إلا الذي قدر عليه هذا الضلال وحثمه، وسنقيم عليه حد الرد؛ لأنه قد أبدى صفحته، ولولا شرط الكتاب لأضربنا عنه صفحاً ولو ينأي عن الالتفات إليه كشحاً، وبالله التوفيق فنقول: أما تعريضه بأن أهل السنة يعتقدون أن القبائح من فعل الله تعالى، فيرجمه باعتقادهم المشار إليه قوله تعالى بعد آيات من هذه السورة (الله خالق كل شيء وهو على كل شيء وكيل) أما الزمخشري وإخوانه القدريّة، فيغيرون وجه هذه الآية ويقولون: ليس خالق كل شيء؛ لأن القبائح أشياء وليست مخلوقة له، فاعتقدوا أنهم نزهوا، وإنما أشركوا. وأما تعريضه لهم في أنهم يجوزون أن يخلق خلقاً لا لغرض؛ فذلك لأن أفعاله تعالى لا تعلل؛ لأنه الفاعل لما يشاء. وعند القدريّة ليس فاعلاً لما يشاء؛ لأن الفعل إما منوط على حكمة ومصلحة، فيجب عليه أن يفعله عندهم؛ وإما عار عنها فيجب عليه أن يفعله، فأين أثر المشيئة إذ؟ وأما اعتقاده أن في تكليف ما لا يطاق تظليماً لله تعالى، فاعتقاد باطل؛ لأن ذلك إنما ثبت لازماً لاعتقادهم أن الله تعالى خالق أفعال عبده، فالتكليف بها تكليف بما ليس مخلوقاً لهم، والقاعدة الأولى حق، ولازم الحق حق، ولا معنى للظلم إلا التصرف في ملك الغير بغير إذنه، والعباد ملك الله تعالى، فكيف يتصور حقيقة الظلم منه، تعالى الله عما يقول الظالمون علواً كبيراً. وأما تعريضه بأنهم يجوزون أن يؤلم لا لعوض، فيقال له: ما قولك أيها الظنين في إيلام البهائم والأطفال، ولا أعواض لها، وليس مرتباً على استحقاق سابق خلافاً للقدريّة؛ إذ يقولون: لا بد في الألم من استحقاق سابق أو عوض. وأما اعتقاده أن تجويز رؤية الله تعالى يستلزم اعتقاد الجسميّة، فإنه اغترار في اعتقاده بأدلة العقل المجوزة لذلك، مع البراءة من اعتقاد الجسميّة، ولم يشعر أنه =

الولد والشريك، وقالوا: هؤلاء شفعاؤنا، وقالوا: ﴿لَوْ شَاءَ الرَّحْمَنُ مَا عَبَدْتَهُمْ﴾ [الزخرف: ٢٠]، وقالوا: ﴿وَاللَّهُ مُرَبُّنَا﴾ [الأعراف: ٢٨] ولا يبعد عنهم قوم يسفهونه بفعل القبائح^(١)، وتجويز أن يخلق خلقاً لا لغرض، ويؤلم لا لغرض، ويظلمونه بتكليف ما لا يطاق، ويجسمونه بكونه مرئياً معانياً مدركاً بالحاسة، ويثبتون له يداً وقدماً وجنباً متسترين بالبلكفة، ويجعلون له أنداداً بإثباتهم معه قدماء. ﴿وَجُوهُهُمْ مُسْوَدَّةٌ﴾ جملة في موضع الحال، إن كان «تري» من رؤية البصر، ومفعول ثانٍ إن كان من رؤية القلب ١٤٧/٢ ب.

﴿وَيُنَجِّي اللَّهُ الَّذِينَ اتَّقَوْا بِمَفَازِهِمْ لَا يَمَسُّهُمُ السُّوءُ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ (٦٦)

قري: «يُنَجِّي» و«يُنَجِّي» بِمَفَازِهِمْ بفلانهم، يقال: فاز بكذا إذا أفلح به وظفر بمراده منه. وتفسير المفازة قوله: ﴿يَمَسُّهُمُ السُّوءُ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ كأنه قيل: ما مفازتهم؟ فقيل: لا يمسهم السوء، أي ينجيهم بنفي السوء والحزن عنهم. أو بسبب منجاتهم، من قوله تعالى: ﴿فَلَا تَحْسَبَنَّهُمْ بِمَفَازٍ مِنَ الْعَذَابِ﴾ [آل عمران: ١٨٨] أي بمنجاة

= يقابل بهداية قول نبي الهدى عليه الصلاة والسلام: «إنكم سترون ربكم كالقمر ليلة البدر لا تضامون في رؤيته» فهذا النص الذي ينبو عن التأويل ولا يردع المتمسك به شيء من التهويل. وأما قوله: إنهم يسترون بالبلكفة، فيعني به قولهم: «بلا كيف» أجل، إنها لستر لا تهتك يد الباطل البتراء، ولا تبعد عن الهدى عين الضلال العوراء. وأما تعريضه بأنهم يجعلون لله أنداداً بإثباتهم معه قدماء، فنفي لإثباتهم صفات الكمال، كلا والله، إنما جعل الله أنداداً القدريّة؛ إذ جعلوا أنفسهم يخلقون ما يريدون ويشتبهون على خلاف مراد ربهم. حتى قالوا: إن ما شاءه كان وما شاء الله لا يكون. وأما أهل السنة فلم يزدوا على أن اعتقدوا أن الله تعالى علماً وقدره وإرادة وسمعاً وبصراً وكلاماً وحياة، حسبما دل عليه العقل وورد به الشرع، وأي مخلص للقدري إذا سمع قوله تعالى: (وسع ربنا كل شيء علماً) إلا اعتقاد أن الله تعالى علماً. أو جحد آيات الله وإطفاء نوره، (ويأبى الله إلا أن يتم نوره ولو كره الكافرون). وأما قوله: إنهم يثبتون لله تعالى يداً وقدماً ووجهاً، فذلك فرية ما فيها مرية، ولم يقل بذلك أحد من أهل السنة. وإنما أثبت القاضي أبو بكر صفات سمعية وردت في القرآن: اليدان والعينان والوجه، ولم يتجاوز في إثباتها ما وردت عليه في كتاب الله العزيز، على أن غيره من أهل السنة حمل اليمين على القدرة والنعمة، والوجه على الذات؛ وقد مر ذلك في مواضع من الكتاب، فقد اتصف في هذه المباحثة بحال من بحث بظلفه على حشفه، وتعريضه معتقده الفاسد لهتك ستره وكشفه، وإنما حملني على إغلاظ مخاطبته الغضب لله تعالى ولرسوله ﷺ وأهل سنته، فإنه قد أساء عليهم الأدب، ونسبهم بكذبه إلى الكذب، والله الموفق.

(١) قوله: «قوم يسفهونه بفعل القبائح» يريد بهم أهل السنة، حيث ذهبوا إلى أنه تعالى هو الخالق لأفعال العباد ولو معاص، وأن فعله لا لغرض بل لحكمة، وإبلام الأطفال لا يستوجب عليه عوضاً، وتظليمه نسبته إلى الظلم بتجويز تكليف المحال كما في علم الأصول، وجوزوا عليه الرؤية وهي غير مختصة بالأجسام عندهم، وجوز السلف أن يكون له يد ونحوها، لكن لا كالأيدي. وأراد بالقدماء صفات المعاني: كالقدرة والإرادة، حيث قال أهل السنة: إنها موجودة بوجودات زائدة على وجود الذات، وتحقيق ذلك في التوحيد والأصول، فانظره. والبلكفة: قولهم: «بلا كيف». (ع).

منه؛ لأن النجاة من أعظم الفلاح، وسبب منجاتهم العمل الصالح؛ ولهذا فسر ابن عباس رضي الله عنهما المفازة بالأعمال الحسنة، ويجوز: بسبب فلاحهم؛ لأن العمل الصالح سبب الفلاح وهو دخول الجنة. ويجوز أن يسمى العمل الصالح في نفسه: مفازة؛ لأنه سببها. وقرئ: «بمفازاتهم» على أن لكل متق مفازة. فإن قلت: ﴿لَا يَمَسُّهُمْ﴾ ما محله من الإعراب على التفسيرين؟ قلت: أما على التفسير الأول فلا محل له؛ لأنه كلام مستأنف. وأما على الثاني فمحله النصب على الحال.

﴿اللَّهُ خَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ﴾ ﴿٢٧﴾ لَمْ مَقَالِيدُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ
وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِعَاثَةِ اللَّهِ أُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ ﴿٢٨﴾

﴿لَمْ مَقَالِيدُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ أي هو مالك أمرها وحافظها، وهو من باب الكناية؛ لأن حافظ الخزان ومدير أمرها هو الذي الذي يملك مقاليدها، ومنه قولهم: فلان ألقيت إليه مقاليد الملك وهي مفاتيح، ولا واحد لها من لفظها. وقيل: مقلد. ويقال: إقليد وأقاليد، والكلمة أصلها فارسية. فإن قلت: ما للكتاب العربي المبين وللفارسية؟ قلت: التعريب أحالها عربية، كما أخرج الاستعمال المهمل من كونه مهملاً. فإن قلت: بم اتصل قوله: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا﴾؟ قلت: بقوله: ﴿وَيَسْخَى اللَّهُ الَّذِينَ أَنْفَقُوا﴾ أي ينجي الله المتقين بمفازتهم، والذين كفروا هم الخاسرون. واعترض بينهما بأنه خالق الأشياء كلها. وهو مهيمن عليها فلا يخفى عليه شيء من أعمال المكلفين فيها وما يستحقون عليها من الجزاء، وقد جعل متصلاً بما يليه على أن كل شيء في السموات والأرض فالله خالقه وفتاح بابه، والذين كفروا وجحدوا أن يكون الأمر كذلك أولئك هم الخاسرون، وقيل: سأل عثمان رضي الله عنه رسول الله ﷺ عن تفسير قوله تعالى: ﴿لَمْ مَقَالِيدُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾، فقال: «يا عثمان، ما سألي عنها أحد قبلك، تفسيرها: لا إله إلا الله والله أكبر، وسبحان الله وبحمده، وأستغفر الله، ولا حول ولا قوة إلا بالله، هو الأول والآخر والظاهر والباطن، بيده الخير، يحيي ويميت، وهو على كل شيء قدير» (١٣٤٦) وتأويله على هذا: أن الله

١٣٤٦ - أخرجه أبو يعلى في مسنده، وما في تخريج الزيلعي (٢٠٧/٣)، والعقيلي في الضعفاء (١١٧/١) - (١١٨)، رقم (١٤٠) وأعله بأغلب بن تميم الكندي وقال: لا يتابع عليه.

وعزه الزيلعي في تخريج أحاديث الكشاف (٢٠٧/٣) لابن أبي حاتم وللثعلبي، ولابن مردويه في تفاسيرهم، وكذا للبيهقي في كتاب الأسماء والصفات، ولابن الجوزي في كتابه الموضوعات، وقال الحافظ ابن حجر: أخرجه أبو يعلى وابن أبي حاتم، والعقيلي، والبيهقي في الأسماء والطبراني في الدعاء كلهم من رواية أغلب بن تميم حدثنا مخلد أبو الهذيل عن عبد الرحيم، وعبد الرحمن بن عدي عن عبد الله بن عمر به، وذكره ابن الجوزي في الموضوعات من هذا الوجه. وله وجه آخر عند ابن مردويه. من طريق كلب بن وائل عن عمر، ورواه ابن مردويه عن الطبراني بإسناد آخر إلى =

هذه الكلمات يوحد بها ويمجد، وهي مفاتيح خير السموات والأرض، من تكلم بها من المتقين أصابه، والذين كفروا بآيات الله وكلمات توحيده وتمجيده، أولئك هم الخاسرون.

﴿قُلْ أَغْفِرِ اللَّهُ تَأْمُرُوْنَ أَعْبُدْ فِيهَا الْجَاهِلُونَ﴾ (١٤)

﴿أَغْفِرِ اللَّهُ﴾ منصوب بأعبد. و﴿تَأْمُرُوْنَ﴾ اعتراض. ومعناه: أغفر الله أعبد بأمركم، وذلك حين قال له المشركون: استلم بعض آلهتنا ونؤمن بإلهك. أو ينصب بما يدل عليه جملة قوله: ﴿تَأْمُرُوْنَ أَعْبُدْ﴾ لأنه في معنى تعبدونني وتقولون لي: اعبد، والأصل: تأمروني أن أعبد، فحذف «أن» ورفع الفعل، كما في قوله: [الطويل]
أَلَا أَيُّهَذَا الزَّاجِرِي أَخْضَرُ الْوَعَى^(١)

ألا تراك تقول: أغفر الله تقولون لي: أعبد، وأغفر الله تقولون لي: أعبد، فذلك أغفر الله تأمروني أن أعبد. وأغفر الله تأمروني أن أعبد، والدليل على صحة هذا الوجه: قراءة من قرأ (أعبد) بالنصب. وقرئ: «تأمروني» على الأصل. و«تأمروني»، على إدغام النون أو حذفها.

﴿وَلَقَدْ أَوْحَىٰ إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكَتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ (١٥)

بَلِ اللَّهِ فَاَعْبُدْ وَكُنْ مِنَ الشَّاكِرِينَ ﴿١٦﴾

قرئ: «ليحبطن عملك» وليحبطن: على البناء للمفعول. ولنحبطن، بالنون والياء، أي: ليحبطن الله أو الشرك. فإن قلت: الموحى إليهم جماعة، فكيف قال: ﴿لَئِنْ أَشْرَكَتَ﴾ على التوحيد؟ قلت: معناه أوحى إليك لئن أشركت ليحبطن عملك، وإلى الذين من قبلك مثله، أو أوحى إليك وإلى كل واحد منهم: لئن أشركت كما تقول: كسانا حلة، أي: كل واحد منا. فإن قلت: ما الفرق بين اللامين؟ قلت: الأولى موطئة للقسم المحذوف، والثانية لام الجواب، وهذا الجواب ساذ مسدّ الجوابين، أعني: جوابي القسم والشرط، فإن قلت: كيف صحّ هذا الكلام مع علم الله أنّ رسله لا يشركون ولا تحبط أعمالهم؟ قلت: هو على سبيل الفرض، والمحالات يصحّ فرضها لأغراض، فكيف بما ليس بمحال؟ ألا ترى إلى قوله: ﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَأَمَنَّ مِنَ فِي الْأَرْضِ كُلَّهُمْ جَمِيعًا﴾ [يونس: ٩٩] يعني على سبيل الإلجاء، ولن يكون ذلك لامتناع الداعي إليه ووجود الصارف عنه. فإن

= ابن عباس: «إن عثمان - فذكره» وفيه سلام بن وهب الجندي عن أبيه ولا أعرفهما. انتهى

قلت: ما معنى قوله: ﴿وَلَتَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾؟ قلت: يحتمل ولتكونن من الخاسرين بسبب حبوط العمل. ويحتمل: ولتكونن في الآخرة من جملة الخاسرين الذين خسروا أنفسهم إن مت على الردة. ويجوز أن يكون غضب الله على الرسول أشد، فلا يمهل بعد الردة، ألا ترى ١٤٨/٢ إلى قوله تعالى: ﴿إِن لَّآلِمَتِكَ صَعَفٌ حَمْدٌ وَصَعَفٌ أَمَانٌ﴾ [الإسراء: ٧٥]، ﴿بَلِ اللَّهَ فَاعْبُدْ﴾ رد لما أمره به من استلام بعض آلهتهم، كأنه قال: لا تعبد ما أمرك بعبادته، بل إن كنت عاقلاً فاعبد الله، فحذف الشرط وجعل تقديم المفعول عوضاً منه. ^(١) ﴿وَكُنْ مِنَ الشَّاكِرِينَ﴾ على ما أنعم به عليك، من أن جعلك سيد ولد آدم. وجوز الفراء نصبه بفعل مضمر هذا معطوف عليه، تقديره: بل الله أعبد فاعبد.

﴿وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ وَالْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَمَةِ وَالسَّمَوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ
بِيمِينَةٍ سُبْحَنَ تَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ (٢٧)

لما كان العظيم من الأشياء إذا عرفه الإنسان حق معرفته وقدره في نفسه حق تقديره وعظمه حق تعظيمه قيل: ﴿وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ﴾ وقرئ بالتشديد على معنى: وما عظموه كنه تعظيمه، ثم نبههم على عظمته وجلالة شأنه على طريقة التخيل فقال: ﴿وَالْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَمَةِ وَالسَّمَوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيمِينَةٍ﴾ والغرض من هذا الكلام إذا أخذته كما هو بجملة ومجموعه تصوير عظمته والتوقيف على كنه جلاله لا غير، من غير ذهاب بالقبضة ولا باليمين ^(٢) إلى جهة حقيقة أو جهة مجاز، وكذلك حكم ما يروى: أن

(١) قال محمود: «أصل الكلام: إن كنت عابداً فاعبد الله، فحذف الشرط وجعل تقديم المفعول عوضاً منه. اهـ كلامه، قال أحمد: مقتضى كلام سيبويه في أمثال هذه الآية: أن الأصل فيه فاعبد الله. ثم حذفوا الفعل الأول اختصاراً، فلما وقعت الفاء أولاً استنكروا الابتداء بها، ومن شأنها التوسط بين المعطوف والمعطوف عليه، فقدموا المفعول وصارت متوسطة لفظاً ودالة على أن ثم محذوفاً اقتضى وجودها، ولتعطف عليه ما بعدها وينضاف إلى هذه الغاية في التقديم فائدة الحصر، كما تقدم من إشعار التقديم بالاختصاص.

(٢) قال محمود: «الغرض من هذا الكلام تصوير عظمته تعالى والتوقيف على كنه جلاله من غير ذهاب بالقبضة ولا باليمين إلى جهة حقيقة أو جهة مجاز، وكذلك حكم ما يروى عن رسول الله ﷺ: أن حبراً جاء إليه فقال: يا أبا القاسم، إن الله يمسك السموات يوم القيامة على أصبع والأرضين على أصبع والجبال على أصبع والشجر على أصبع وسائر الخلق على أصبع، ثم يهزهن فيقول: أنا الملك، فضحك رسول الله ﷺ وتعجب مما قال الحبر، ثم قرأ هذه الآية تصديقاً له، فإنا ضحك أفصح العرب لأنه لم يفهم منه إلا ما فهمه علماء البيان من غير تصوير إمسك ولا هز ولا شيء من ذلك، ولكن فهمه وقع أول شيء وآخره على الزبدة والخلاصة التي هي الدلالة على القدرة الباهرة التي لا يوصل السامع إلى الوقوف عليها إلا إجراء العبارة على مثل هذه الطريقة من التخيل، ثم قال: وأكثر كلام الأنبياء والكتب السماوية وعليتها تخيل قد زلت فيه الأقدام قديماً. اهـ كلامه» قال =

جبريل^(١) جاء إلى رسول الله ﷺ، فقال: يا أبا القاسم، إن الله يمسك السموات يوم القيامة على أصبع والأرضين على أصبع والجبال على أصبع والشجر على أصبع والثرى على أصبع وسائر الخلق على أصبع، ثم يهزهن فيقول: أنا الملك، فضحك رسول الله ﷺ تعجباً مما قال، ثم قرأ تصديقاً له: ﴿وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ﴾... الآية (١٣٤٧)، وإنما ضحك: أفصح العرب ﷺ وتعجب؛ لأنه لم يفهم منه إلا ما يفهمه علماء البيان من غير تصوّر إمساك ولا أصبع ولا هز ولا شيء من ذلك، ولكن فهمه وقع أوّل شيء وآخره على الزبدة والخلصة التي هي الدلالة على القدرة الباهرة، وأن الأفعال العظام التي تتحير فيها الأفهام والأذهان ولا تكتنفها الأوهام هينة عليه هواناً لا يوصل السامع إلى الوقوف عليه، إلا إجراء العبارة في مثل هذه الطريقة من التخيل، ولا ترى باباً في علم البيان أدق ولا أرق ولا أطف من هذا الباب، ولا أنفع وأعون على تعاطي تأويل المشتبهات من كلام الله تعالى في القرآن وسائر الكتب السماوية وكلام الأنبياء، فإن أكثره وعليته^(٢) تخيلات قد زلت فيها الأقدام قديماً، وما أوتي الزالون^(٣) إلا من قلة عنايتهم بالبحث والتنقيب، حتى

١٣٤٧ - أخرجه البخاري (٣٤٨/١٥)، كتاب التوحيد، باب: قول الله تعالى: ﴿لَمَّا خَلَّيْتُ يَدَيَّ﴾، رقم (٧٤١٤)، (٤٤٤/١٥)، كتاب: التوحيد، باب: «كلام الرب عز وجل يوم القيامة»، رقم (٧٥١٣) (٥١٤/٩)، كتاب التفسير، باب: قوله: «وما قدرُوا الله حق قدره» رقم (٤٨١١).
ومسلم (١٤٢/٩ - ١٤٣)، كتاب صفة القيامة والجنة والنار، ١٩ - (٢٧٨٦).
والترمذي (٣٧١/٥)، كتاب تفسير القرآن، باب: ومن سورة الزمر، رقم (٣٢٣٨ - ٣٢٣٩).
والنسائي في الكبرى (٤٠٠/٤)، كتاب النعوت، رقم (١/٧٦٨٧).
وأحمد (٤٥٧/١).
والطبري في تفسيره (٢٥/١١)، رقم (٣٠٢١٧)، (٣٠٢١٩) والبغوي في تفسيره (٨٧/٤)، رقم (٦٧).
وابن حبان (٣١٩/١٦ - ٣٢٠)، كتاب: إخباره ﷺ عن مناقب الصحابة، باب: إخباره ﷺ عن البعث وأحوال الناس. كلهم من طريق ابن مسعود.
قال أبو عيسى: هذا حديث حسن صحيح.

- = أحمد: إنما عنى بما أجراه ههنا من لفظ التخيل التمثيل، وإنما العبارة موهمة منكورة في هذا المقام، لا تليق به بوجه من الوجوه، والله أعلم.
- (١) قوله: «أن جبريل جاء إلى رسول الله» قيل: الصواب أنه خبر من أخبار اليهود لا جبريل. ويدل عليه ما في البخاري ومسلم والترمذي، كذا بهامش. ويؤيده أن «يا أبا القاسم» عادة اليهود في نداءه ﷺ. (ع) متفق عليه من حديث ابن مسعود. (تنبيه) وقع عنده أن جبريل وهو تصحيف. والذي في الصحيح «جاء خبر من اليهود» وفي رواية «أن يهودياً» وفي رواية «أن رجلاً من أهل الكتاب».
- (٢) قوله: «وعليته» أي معظمه. (ع).
- (٣) قوله: «وما أتى الزالون» أي أجيوا (ع).

يعلموا أن في عداد العلوم الدقيقة علماً لو قدَّروه حق قدره لما خفي عليهم أنَّ العلوم كلها مفتقرة إليه وعيال عليه؛ إذ لا يحل عقدها الموربة ولا يفك قيودها المكربة إلا هو، وكَم آية من آيات التنزيل وحديث من أحاديث الرسول، وقد ضيم وسيم الخسف بالتأويلات الغثة^(١)، والوجوه الرثة، لأنَّ من تأول ليس من هذا العلم في غير ولا نفير، ولا يعرف قبلاً منه من دبير^(٢). والمراد بالأرض: الأرضون السبع، يشهد لذلك شاهدان، قوله: ﴿جَمِيعًا﴾ وقوله: ﴿وَالسَّمَوَاتُ﴾ ولأنَّ الموضوع موضع تفخيم وتعظيم، فهو مقتض للمبالغة، ومع القصد إلى الجمع وتأكيده بالجميع أتبع الجميع مؤكدة قبل مجيء الخبر؛ ليعلم أول الأمر أن الخبر الذي يرد لا يقع عن أرض واحدة، ولكن عن الأراضي كلهن. والقبضة: المرة من القبض ﴿فَقَبَضْتُ قَبْضَةً مِّنْ أَثَرِ الرَّسُولِ﴾ [طه: ٩٦] والقبضة - بالضم -: المقدار المقبوض بالكف، ويقال أيضاً: أعطني قبضة من كذا: تريد معنى القبضة تسمية بالمصدر، كما روي: أنه نهى عن خطفة السبع^(٣) (١٣٤٨). وكلا المعنيين محتمل. والمعنى: والأرضون جميعاً قبضته، أي: ذوات قبضته يقبضهن قبضة واحدة، يعني أنَّ الأرضين مع عظمهن وبسطهن لا يبلغن إلا قبضة واحدة من قبضاته، كأنه يقبضها قبضة بكف واحدة، كما تقول: الجزور أكلة لقمان، والقلة جرعة، أي: ذات أكلته وذات جرعة؛ تريد: أنهما لا يفيان إلا بأكلة فذة من أكلاته، وجرعة فردة من جرعاته. وإذا أريد معنى القبضة فظاها؛ لأنَّ المعنى: أنَّ الأرضين بجملتها مقدار ما يقبضه بكف واحدة. فإن

١٣٤٨ - جاء من حديث أبي الدرداء، وأبي ثعلبة الخشني، وابن عباس، فأما حديث أبي الدرداء: أخرجه أحمد (١٩٥/٥)، (٤٤٥/٦)، وأما حديث أبي ثعلبة الخشني، أخرجه الدارمي (٨٥/٢)، كتاب الأضاحي، باب: ما لا يؤكل من السباع. وأما حديث ابن عباس: فأخرجه أحمد (٢٤٤/١)، (٢٨٩)، (٣٠٢)، والدارمي (٨٥/٢)، كتاب الأضاحي، باب: ما لا يأكل من السباع، وأبو يعلى (٣٧٣/٤) رقم (١٦٤)، (٢٤٩١). وقال الحافظ ابن حجر: لم أجده هكذا، وروى أحمد وإسحاق، وأبو يعلى من رواية سهل عن عبد الله بن يزيد عن شيخ لقيه سعيد بن المسيب، أنه سمع أبا الدرداء، يقول: «نهى رسول الله ﷺ عن أكل كل خطفة ونهبة والمجمعة وكل ذي ناب من السباع»، ورواه أبو يعلى من رواية الإفريقي، ورواه الدارمي والطبراني والنسائي في الكنى من رواية أبي أوس عن الزهري عن أبي إدريس عن أبي ثعلبة، بلفظ: «نهى عن الخطفة والمجمعة والنهبة. وكل ذي ناب من السباع». انتهى.

- (١) قوله: «بالتأويلات الغثة» في الصحاح «الغث» نبت يختبز حبه ويؤكل في الجوع، وتكون خبزته غليظة شبيهة بخبز الملة. (ع).
- (٢) قوله: «قبلاً منه من دبير» في الصحاح «القبيل»: ما تقبل به المرأة من غزلها حين تفتله. وفيه «الدبير»: ما تدبر به المرأة من غزلها حين تفتله. ومنه قيل: فلان ما يعرف قبلاً من دبير. (ع).
- (٣) قوله: «نهى عن خطفة السبع» أي: والمراد مخطوفه. (ع).

قلت: ما وجه قراءة من قرأ «قبضته» بالنصب؟ قلت: جعلها ظرفاً مشبهاً للمؤقت بالمبهم: ﴿مَطْوِيَّتٌ﴾ من الطي الذي هو ضد النشر، كما قال تعالى: ﴿يَوْمَ تَطْوِي السَّمَاءَ كَطَيِّ السِّجِلِّ لِلْكُتُبِ﴾ [الأنبياء: ١٠٤] وعادة طاي السجل أن يطويه بيمينه، وقيل: قبضته: ملكه بلا مدافع ولا منازع، وبيمينه: بقدرته. وقيل: مطويات بيمينه مفنيات بقسمه؛ لأنه أقسم أن يفنيها، ومن اشتهم رائحة من علمنا هذا فليعرض عليه هذا التأويل؛ ليتلهم بالتعجب منه ومن قائله، ثم يبكي حمية لكلام الله المعجز بفصاحته، وما مني^(١) به من أمثاله؛ وأثقل منه على الروح، وأصدع للكبد تدوين العلماء قوله، واستحسانهم له، وحكايته على فروع المنابر، واستجلاب الاهتزاز به من السامعين. وقرئ: «مطويات» على نظم السموات في حكم الأرض، ودخلوها تحت القبضة، ونصب مطويات على الحال. ﴿سُبْحَنَهُ وَعَظَمَهُ﴾ ما أبعد من هذه قدرته وعظمته، وما أعلاه/ ١٤٨/٢ ب عما يضاف إليه من الشركاء.

﴿وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَصُوعِقَ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ إِلَّا مَنْ شَاءَ اللَّهُ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَىٰ﴾
فَإِذَا هُمْ يَنْظُرُونَ ﴿١٨﴾

فإن قلت: ﴿أُخْرَىٰ﴾ ما محلها من الإعراب؟ قلت: يحتمل الرفع والنصب: أما الرفع فعلى قوله: ﴿فَإِذَا نُفِخَ فِي الصُّورِ نَفْخَةً وَاحِدَةً﴾^(٢) [الحاقة: ١٣] وأما النصب فعلى قراءة من قرأ: ﴿نَفْخَةً وَاحِدَةً﴾ [الحاقة: ١٣] والمعنى: ونفخ في الصور نفخة واحدة، ثم نفخ فيه أخرى؛ وإنما حذفت لدلالة أخرى عليها، ولكونها معلومة بذكرها في غير مكان. وقرئ: «قياماً ينظرون»: يقلبون أبصارهم في الجهات نظر المبهوت إذا فاجأه خطب. وقيل: ينظرون ماذا يفعل بهم. ويجوز أن يكون القيام بمعنى الوقوف والجمود في مكان لتحيرهم.

﴿وَأَشْرَقَتِ الْأَرْضُ بِنُورِ رَبِّهَا وَوُضِعَ الْكِتَابُ وَجَاءَ بِالنَّبِيِّينَ وَالشُّهَدَاءُ وَقُضِيَ بَيْنَهُم بِالْحَقِّ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ ﴿١٩﴾ وَوُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَا يَفْعَلُونَ ﴿٢٠﴾

قد استعار الله عز وجل النور للحق والقرآن والبرهان في مواضع من التنزيل، وهذا من ذاك. والمعنى: ﴿وَأَشْرَقَتِ الْأَرْضُ﴾ بما يقيمه فيها من الحق والعدل، ويبسطه من القسط في

(١) قوله: «وما مني به» أي ابتلى. (ع).

(٢) قوله: «أما الرفع فعلى قوله: ﴿فَإِذَا نُفِخَ فِي الصُّورِ نَفْخَةً وَاحِدَةً﴾ أي في الحاقة. وقوله: «من قرأ» أي: هناك. وقوله: «حذفت» أي هنا. (ع).

الحساب ووزن الحسنات والسيئات، وينادي عليه بأنه مستعار إضافته إلى اسمه؛ لأنه هو الحق العدل. وإضافة اسمه إلى الأرض؛ لأنه يزينها حيث ينشر فيها عدله، وينصب فيها موازين قسطه، ويحكم بالحق بين أهلها، ولا ترى أزين للباق من العدل، ولا أعمر لها منه. وفي هذه الإضافة أن ربها وخالقها هو الذي يعدل فيها، وإنما يجور فيها غير ربها، ثم ما عطف على إشراق الأرض من وضع الكتاب والمجيء بالنبیین والشهداء والقضاء بالحق وهو النور المذكور. وترى الناس يقولون للملك العادل: أشرقت الآفاق بعدلك، وأضاءت الدنيا بقسطك، كما تقول: أظلمت البلاد بجور فلان. وقال رسول الله ﷺ: «الظلم ظلمات يوم القيامة» (١٣٤٩) وكما فتح الآية بإثبات العدل، ختمها بنفي الظلم. وقرئ: «وأشرقت» على البناء للمفعول، من شرقت بالضوء تشرق: إذا امتلأت به واغتصت. وأشرقها الله، كما تقول: ملأ الأرض عدلاً وطبقها عدلاً. ﴿وَالْكِتَابِ﴾ صحائف الأعمال، ولكنه أكتفى باسم الجنس، وقيل: اللوح المحفوظ. ﴿وَالشَّهَادَةِ﴾ الذين يشهدون للأمم وعليهم من الحفظة والأخبار. وقيل: المستشهدون في سبيل الله.

﴿وَسِيقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَىٰ جَهَنَّمَ زُمَرًا ۖ حَتَّىٰ إِذَا جَاءُوهَا فَفُتِحَتْ أَبْوَابُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَتْلُونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِ رَبِّكُمْ وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا قَالُوا بَلَىٰ وَلَٰكِن حَقَّتْ كَلِمَةُ الْعَذَابِ عَلَى الْكَافِرِينَ ﴿٧١﴾ قِيلَ ادْخُلُوا أَبْوَابَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا فَبِئْسَ مَوَٰئِذُ الْمُتَكَبِّرِينَ ﴿٧٢﴾﴾

الزمر: الأفواج المتفرقة بعضها في أثر بعض، وقد تزمروا^(١)، قال [من الرجز]:

١٣٤٩ - أخرجه البخاري (١٢٠/٥ - ١٢١) كتاب المظالم: باب الظلم ظلمات يوم القيامة حديث (٢٤٤٧) وفي «الأدب المفرد» رقم (٤٨١) ومسلم (١٩٩٦/٤) كتاب البر والصلة باب تحريم الظلم حديث (٢٥٧٩/٥٧) وأحمد (١٣٧/٢، ١٤٦) والبيهقي (٩٣/٦) كتاب الغضب: باب تحريم الغضب والبغوي في «شرح السنة» (٣٦٤/٧) - بتحقيقنا كلهم من طريق عبد الله بن دينار عن ابن عمر مرفوعاً وللحديث شاهد من حديث جابر بلفظ: اتقوا الظلم فإن الظلم ظلمات يوم القيامة. أخرجه مسلم (١٩٩٦/٤) كتاب البر والصلة: باب تحريم الظلم حديث (٢٥٧٩/٥٦) والبخاري في «الأدب المفرد» رقم (٤٧٩) وأحمد (٣٢٣/٣) من طريق عبيد الله بن مقسم عن جابر به. وله شاهد أيضاً من حديث عبد الله بن عمرو أخرجه أحمد (١٥٩/٢) عنه مرفوعاً بلفظ: الظلم ظلمات يوم القيامة وإياكم والفحش... وقال الحافظ ابن حجر: متفق عليه من حديث ابن عمر، ولمسلم عن جابر، والنسائي، وأبي داود من حديث عبد الله بن عمرو بن العاص. انتهى.

(١) قوله: «وقد تزمروا» وفي نسخة أخرى: تزامروا. وفي الصحاح: احزأت الإبل في السير: ارتفعت. (ع).

حَتَّىٰ أَحْزَأَلْتُ زُمْرًا بَعْدَ زُمْرٍ^(١)

وقيل في زمر الذين اتقوا: هي الطبقات المختلفة: الشهداء، والزهاد، والعلماء، والقراء وغيرهم. وقرئ: «نذر منكم» فإن قلت: لم أضيف إليهم اليوم؟ قلت: أرادوا لقاء وقتكم هذا، وهو وقت دخولهم النار لا يوم القيامة. وقد جاء استعمال اليوم والأيام مستفيضاً في أوقات الشدة ﴿قَالُوا بَلَىٰ﴾ أتونا وتلوا علينا، ولكن وجبت علينا كلمة الله لأملأن جهنم، لسوء أعمالنا، كما قالوا: غلبت علينا شقوتنا وكنا قوماً ضالين. فذكروا عملهم الموجب لكلمة العذاب وهو الكفر والضلال. واللام في المتكبرين للجنس؛ لأن ﴿مَثْوَى الْمُتَكَبِّرِينَ﴾ فاعل بنس، وبش فاعلها: اسم معرف بلام الجنس. أو مضاف إلى مثله، والمخصوص بالذم محذوف، تقديره: فبش مَثْوَى المتكبرين جهنم.

﴿وَسِيقَ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ إِلَى الْجَنَّةِ زُمَرًا حَتَّىٰ إِذَا جَاءُوهَا وَفُتِحَتْ أَبْوَابُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا سَلِّمُوا عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ فَادْخُلُوهَا خَالِدِينَ﴾ (٧٦) ﴿وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي صَدَقَنَا وَعْدَهُ وَأَوْرَثَنَا الْأَرْضَ نَتَبَوَّأُ مِنَ الْجَنَّةِ حَيْثُ نَشَاءُ فَنِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ﴾ (٧٧)

﴿حَتَّى﴾ هي التي تحكى بعدها الجمل، والجملة المحكية بعدها هي الشرطية، إلا أن جزاءها محذوف، وإنما حذف لأنه في صفة ثواب أهل الجنة، فدل بحذفه على أنه شيء لا يحيط به الوصف، وحق موقعه ما بعد خالدين. وقيل: حتى إذا جاءوها، وفتحت أبوابها، أي: مع فتح أبوابها. وقيل: أبواب جهنم لا تفتح إلا عند دخول أهلها فيها. وأما أبواب الجنة فمتقدم فتحها، بدليل قوله: ﴿جَنَّتٍ عَدْنٍ مُّفْتَحَةً لِّمَنَ الْأَكْبَرُ﴾ (٥٠) [ص: ٥٠] فلذلك جيء بالواو، كأنه قيل: حتى إذا جاءوها وقد فتحت أبوابها. فإن قلت: كيف عبر عن الذهاب بالفريقين جميعاً بلفظ السوق؟ قلت: المراد بسوق أهل النار: طردهم إليها بالهوان والعنف، كما يفعل بالأسارى والخارجين على السلطان إذا سيقوا إلى حبس أو قتل. والمراد بسوق أهل الجنة: سوق مراكبهم؛ لأنه لا يذهب بهم إلا راكبين، وحشها إسراعاً بهم إلى دار الكرامة والرضوان، كما يفعل بمن يشرف ويكرم من الوافدين على بعض الملوك، فستان ما بين السوقين. ﴿طِبْتُمْ﴾ من دنس المعاصي. وطهرتم من خبث الخطايا، ﴿فَادْخُلُوهَا﴾ جعل دخول الجنة مسبباً عن الطيب والطهارة، فما هي إلا دار

(١) إن العفاة بالسيوب قد غمر حتى احزألت زمر بعد زمر

«السيوب» في الأصل: السيول، استعيرت للعطايا الكثيرة على طريق التصريحية. والغمر: ترشيح، أي: طلاب الرزق قد عمهم الممدوح بالعطايا. واحزألت: ارتفعت سائرة من عنده «زمر»: أي أفواج بعد أفواج ويروى: زمرأ، على الحال، أي: احزألت العفاة حال كونها أفواجاً متتابعة. وعلى الأول ففيه إظهار في موضع الإضمار، دلالة على التكثير.

الطيبين ومثوى الطاهرين؛ لأنها دار طهرها الله من كل دنس، وطيبها من كل قذر، فلا ٢/ ١٤٩ أ يدخلها إلاّ مناسب لها موصوف بصفتها، فما أبعد أحوالنا من تلك المناسبة، وما أضعف سعينا في اكتساب تلك الصفة، إلاّ أن يهب لنا الوهاب الكريم توبة نصوحاً، تنقي أنفسنا من درن الذنوب، وتميط وضر هذه القلوب. ﴿خَلِّدِينَ﴾ مقدرين الخلود ﴿وَالْآخَرِينَ﴾ عبارة عن المكان الذي أقاموا فيه كما يشاءون، تشبيهاً بحال الوارث وتصرفه فيما يرثه واتساعه فيه، وذهابه في إنفاقه طولاً وعرضاً. فإن قلت: ما معنى قوله: ﴿حَيْثُ نَشَاءُ﴾؟ وهل يتبوأ أحدهم مكان غيره؟ قلت: يكون لكل واحد منهم جنة لا توصف سعة وزيادة على الحاجة، فيتبوأ من جنته حيث يشاء ولا يحتاج إلى جنة غيره.

﴿وَرَى الْمَلَائِكَةَ حَافِينَ مِنْ حَوْلِ الْعَرْشِ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَقُضِيَ بَيْنَهُم بِالْحَقِّ وَقِيلَ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ (٧٥)

﴿حَافِينَ﴾ محدقين من حوله ﴿يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ﴾ يقولون: سبحان الله والحمد لله، متلذذين لا متعبدين. فإن قلت: إلام يرجع الضمير في قوله: ﴿بَيْنَهُمْ﴾؟ قلت: يجوز أن يرجع إلى العباد كلهم، وأن إدخال بعضهم النار وبعضهم الجنة لا يكون إلاّ قضاء بينهم بالحق والعدل، وأن يرجع إلى الملائكة، على أن ثوابهم - وإن كانوا معصومين جميعاً - لا يكون على سنن واحد، ولكن يفاضل بين مراتبهم على حسب تفاضلهم في أعمالهم، فهو القضاء بينهم بالحق. فإن قلت: قوله: ﴿وَقِيلَ الْحَمْدُ لِلَّهِ﴾ من القائل ذلك؟ قلت: المقضي بينهم إما جميع العباد وإما الملائكة، كأنه قيل: وقضى بينهم بالحق، وقالوا: الحمد لله على قضائه بيننا بالحق، وإنزال كل منا منزلته التي هي حقه. عن رسول الله ﷺ: «من قرأ سورة الزمر لم يقطع الله رجاء يوم القيامة وأعطاه الله ثواب الخائفين الذي خافوا»

عن عائشة رضي الله عنها: أن رسول الله ﷺ كان يقرأ كل ليلة بني إسرائيل والزمر (١٣٥٠).

١٣٥٠ - أخرجه الترمذي (٤٧٥/٥)، كتاب الدعوات، باب: ما جاء فيمن يقرأ القرآن عند المنام، رقم (٣٤٥)، والنسائي في الكبرى (٤٤٤/٦)، كتاب: التفسير، باب: سورة الزمر رقم (١١٤٤٤/١)، والحاكم (٤٣٤/٢)، كتاب: التفسير، باب: تفسير سورة الزمر، والبيهقي في الشعب (٤٨٢/٢) - (٤٨٣)، الباب التاسع عشر، باب: ذكر سورة بني إسرائيل والزمر، رقم (٢٤٧٠)، كلهم من طريق عائشة، وعزاه الزيلعي في تخريج أحاديث الكشاف (٢١١/٣) لإسحاق بن راهويه في مسنده. وقال الحافظ ابن حجر: أخرجه النسائي من رواية حماد بن زيد عن أبي أمامة عن عائشة في أثناء حديث، وأخرجه أحمد وإسحاق، وأبو يعلى والترمذي والحاكم والبيهقي في الشعب في التاسع عشر من هذا الوجه. انتهى.

سورة المؤمن

مكية. [قال الحسن: إلا قوله ﴿وسبح بحمد ربك﴾
لأن الصلوات نزلت بالمدينة، وقد قيل في الحواميم
كلها: إنها مكيات: عن ابن عباس وابن الحنفية]
وهي خمس وثمانون آية، وقيل: ثنتان وثمانون [نزلت بعد الزمر]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿حَمْدٌ ۝١ تَنزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ ۝٢ غَافِرِ الذَّنْبِ وَقَابِلِ التَّوْبِ شَدِيدِ
الْعِقَابِ ذِي الطَّلَوِّ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ إِلَهُ الْمَصِيرِ ۝٣﴾

قرئ بإمالة ألف «حا» وتفخيمها، وبتسكين الميم وفتحها. ووجه الفتح التحريك
لالتقاء الساكنين، وإثارة أخف الحركات، نحو أين وكيف، أو النصب بإضمار اقرأ، ومنع
الصرف، للتأنيث والتعريف أو للتعريف، وأنها على زنة أعجمي نحو قابيل وهابيل.
﴿التَّوْبِ﴾ والشوب والأوب: أخوات في معنى الرجوع، و﴿الطول﴾: الفضل والزياد.
يقال: لفلان على فلان طول، والإفضال. يقال: طال عليه وتطول، إذا تفضل. فإن قلت:
كيف اختلفت هذه الصفات تعريفاً وتنكيراً، والموصوف معرفة يقتضي أن تكون مثله
معارف؟ قلت: أما ﴿غَافِرِ الذَّنْبِ وَقَابِلِ التَّوْبِ﴾ فمعرفتان؛ لأنه لم يرد بهما حدوث الفعلين،
وأنه يغفر الذنب ويقبل التوب الآن أو غداً؛ حتى يكونا في تقدير الانفصال، فتكون
إضافتهما غير حقيقية، وإنما أريد ثبوت ذلك ودوامه، فكان حكمهما حكم إله الخلق ورب
العرش. وأما شديد العقاب فأمره مشكل؛ لأنه في تقدير: شديد عقابه لا ينفك من هذا
التقدير، وقد جعله الزجاج بدلاً. وفي كونه بدلاً وحده بين الصفات نبوءاً ظاهراً، والوجه أن
يقال: لما صودف بين هؤلاء المعارف هذه النكرة الواحدة، فقد أذنت بأن كلها أبدال غير
أوصاف، ومثال ذلك قصيدة جاءت تفاعيلها كلها على مستعلن، فهي محكوم عليها بأنها
من بحر الرجز، فإن وقع فيها جزء واحد على متفاعلين كانت من الكامل،^(١) ولقائل أن

(١) قال محمود: «فإن قلت: لما اختلفت هذه الصفات تعريفاً وتنكيراً والموصوف معرفة يقتضي أن
تكون مثله معارف؟ وأجاب بأن غافر الذنب وقابل التوب معرفتان؛ لأنهما صفتان لازمتان، وليستا
لحدوث الفعل حتى تكونا حالاً أو استقبالاً، بل إضافتهما حقيقة. وأما شديد العقاب فلا شك في =

يقول: هي صفات، وإنما حذف الألف واللام من ﴿شَدِيدِ الْعَقَابِ﴾ ليزاوج ما قبله وما بعده لفظاً، فقد غيروا كثيراً من كلامهم عن قوانينه لأجل الازدواج، حتى قالوا: ما يعرف سحادليه من عنادليه، فثنوا ما هو وتر لأجل ما هو شفع؛ على أَنَّ الخليل قال - في قولهم: ما يحسن بالرجل مثلك أن يفعل ذلك، وما يحسن بالرجل خير منك أن يفعل -: أنه على نية الألف واللام، كما كان الجماء الغفير على نية طرح الألف واللام، ومما سهل ذلك الأمن من اللبس وهالة الموصوف. ويجوز أن يقال ١٤٩/٢ ب: قد تعدد تنكيره، وإبهامه للدلالة على فرط الشدة وعلى ما لا شيء أدهى منه وأمر لزيادة الإنذار. ويجوز أن يقال: هذه النكتة هي الداعية إلى اختيار البدل على الوصف إذا سلكت طريقة الإبدال^(١). فإن قلت: ما بال الواو في قوله: ﴿وَقَائِلِ التَّوْبِ﴾؟ قلت: فيها نكتة جليلة، وهي إفادة الجمع للمذنب التائب بين رحمتين: بين أن يقبل توبته فيكتبها له طاعة من الطاعات. وأن يجعلها محاة للذنوب، كأن لم يذنب، كأنه قال: جامع المغفرة والقبول. وروي أَنَّ عمر رضي الله عنه افتقد رجلاً ذا بأس شديد من أهل الشام، فقيل له: تتابع في هذا الشراب، فقال عمر لكاتبه: اكتب، من عمر إلى فلان: سلام عليك، وأنا أحمد إليك الله الذي لا إله إلا هو: بسم الله الرحمن الرحيم: ﴿حَمَّ﴾ إلى قوله: ﴿إِلَيْهِ الْمَصِيرُ﴾. وختم الكتاب، وقال لرسوله: لا تدفعه إليه حتى تجده صحيحاً، ثم أمر من عنده بالدعاء له بالتوبة. فلما أتته الصحيفة جعل يقرؤها ويقول: قد وعدني الله أن يغفر لي، وحذرنى عقابه، فلم يبرح يرددها حتى بكى ثم نزع فأحسن النزوع وحسنت توبته، فلما بلغ عمر أمره قال: هكذا فاصنعوا، إذا رأيتم أخاكم قد زلّ زلة فسددوه ووقفوه، وادعوا له الله أن يتوب عليه، ولا تكونوا أعواناً للشياطين عليه (١٣٥١).

١٣٥١ - أخرجه أبو نعيم في الحلية (٩٧/٤ - ٩٨)، في ترجمة يزيد بن الأصم.

== أن إضافته غير حقيقية، يريد: لأنه من الصفات المشبهة، ولا تكون إضافتها محضة أبداً. عاد كلامه قال: وجعله الزجاج بدلاً وحده، وانفراد البدل من بين الصفات فيه نبو ظاهر. والوجه أن يقال: إن جميعها أبدال غير أوصاف؛ لوقوع هذه النكرة التي لا يصح أن تكون صفة، كما لو جاءت قصيدة تفاعيلها كلها على مستعلن، قضى عليها بأنها من بحر الرجز، فإن وقع فيها جزء واحد على متفاعلين: كانت من الكامل، قال أحمد: وهذا لأن دخول مستعلن في الكامل يمكن؛ لأن متفاعلين يصير بالإضمار إلى مستعلن، وليس وقوع متفاعلين في الرجز ممكناً؛ إذ لا يصير إليه مستعلن البتة، فما يفضي إلى الجمع بينهما فإنه يتعين، وهذا كما يقضي الفقهاء بالخاص على العام؛ لأنه الطريق في الجمع بين الدليلين.

(١) قال السمين الحلبي: قال الشيخ: وفيه نزعة اعتزالية، ومذهب أهل السنة جواز الغفران للعاصي وإن لم يتب، إلا الشرك، قلت: وما أبعد عن نزعة الاعتزال، ثم أقول: التلازم لازم من جهة أنه تعالى متى قبل التوبة فقد غفر الذنب وهو كافٍ في التلازم. انتهى. الدر المصون.

﴿مَا يُجَادِلُ فِي آيَاتِ اللَّهِ إِلَّا الَّذِينَ كَفَرُوا فَلَا يَغْزُرُكَ تَقْلُبُهُمْ فِي الْبَلَدِ﴾ ﴿٤١﴾

سجل على المجادلين في آيات الله بالكفر، والمراد: الجدل بالباطل، من الطعن فيها، والقصد إلى إدحاض الحق وإطفاء نور الله، وقد دلّ على ذلك في قوله: ﴿وَجَادِلُوا بِالْبَطْلِ لِيُدْحِضُوا بِهِ الْحَقَّ﴾ فأما الجدل فيها لإيضاح ملتبسها وحلّ مشكلها ومقادحة أهل العلم في استنباط معانيها ورد أهل الزيغ بها وعنها، فأعظم جهاد في سبيل الله، وقوله ﷺ: «إِنَّ جَدَالَ فِي الْقُرْآنِ كُفْرٌ» (١٣٥٢) وإيراده منكراً، وإن لم يقل: إِنَّ الجدل تمييز منه بين جدال وجدال. فإن قلت: من أين تسبب لقوله: ﴿فَلَا يَغْزُرُكَ﴾ ما قبله؟ قلت: من حيث إنهم لما كانوا مشهوداً عليهم من قبل الله بالكفر، والكافر لا أحد أشقى منه عند الله، وجب على من تحقق ذلك أن لا ترجح أحوالهم في عينه، ولا يغره إقبالهم في دنياهم وتقلبهم في البلاد بالتجارات، النافقة والمكاسب المربحة، وكانت قريش كذلك يتقلبون في بلاد الشام واليمن، ولهم الأموال يتجرون فيها ويتربحون، فإن مصير ذلك وعاقبته إلى الزوال، ووراءه شقاوة الأبد. ثم ضرب لتكذيبهم وعداوتهم للرسول وجدالهم

= وذكره ابن هشام في تفسيره (٣/٣٧٧ - ٣٧٨)، رقم (١٦٠٧) وعزاه للزيلعي في تخريج أحاديث الكشاف (٣/٢١٥ - ٢١٦) لعبد بن حميد في تفسيره، وكذا للشعبي وابن أبي حاتم في تفاسيرهم. وقال الحافظ ابن حجر: أخرجه أبو نعيم في ترجمة يزيد الأصم من رواية كثير بن هشام عن جعفر ابن برقان عن يزيد الأصم، «أن رجلاً كان ذا بأس - فذكره بتمامه، ورواه عبد بن حميد في تفسيره عن كثير بن هشام باختصار. وكذا ابن أبي حاتم والشعبي. انتهى.

١٣٥٢ - جاء من حديث أبي هريرة، ومن حديث عبد الله بن عمرو بن العاص. فأما حديث أبي هريرة. فأخرجه أبو داود (٤/١٩٩)، كتاب السنة، باب: النهي عن الجدل في القرآن، رقم (٤٦٠٣). وأحمد (٢/٢٥٨، ٢٨٦، ٤٢٤، ٤٧٥، ٥٠٣، ٥٢٨). وأبو نعيم في الحلية (٨/٢١٢ - ٢١٣)، والخطيب في تاريخ بغداد (١١/١٣٦)، (٤/٨١)، والحاكم (٢/٢٢٣)، كتاب: التفسير، باب: الجدل في القرآن كفر، وابن حبان (٤/٣٢٤ - ٣٢٥)، كتاب: الصلاة، باب: الوعيد على ترك الصلاة، رقم (١٤٦٤). والطبراني في الصغير (١/١٧٨)، باب: من اسمه شباب، وأبو يعلى في مسنده (١٠/٣٠٣)، رقم (٥٧) - (٥٨٩٧).

والبيهقي في الشعب (٢/٤١٦)، الباب التاسع عشر، باب: في تعظيم القرآن، فصل: في ترك المماراة في القرآن، رقم (٢٢٥٦).

وعزاه الزيلعي في تخريج أحاديث الكشاف (٣/٢١٧) لإسحاق بن راهويه في مسنده، والحديث صحيحه الحاكم ووافقه الذهبي. وأما حديث عبد الله بن عمرو، فأخرجه البيهقي في الشعب (٢/٤١٦ - ٤١٧)، الباب: التاسع عشر، باب: في تعظيم القرآن، فصل: في ترك المماراة في القرآن، رقم (٢٢٥٧)، وقال الحافظ ابن حجر: أخرجه الطيالسي، ومن طريقه البيهقي في الشعب في التاسع عشر من حديث عبد الله بن عمر - رضي الله عنهما - بلفظ: «لا تجادلوا في القرآن، فإن جدالاً فيه كفر»، وفي الباب عن أبي هريرة بلفظ: «مراء في القرآن كفر في الصحيح والسنن». انتهى.

بالباطل وما آذخ لهم من سوء العاقبة مثلاً: ما كان من نحو ذلك من الأمم، وما أخذهم به من عقابه وأحلّه بساحتهم من انتقامه. وقرئ: «فلا يغرك».

﴿كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَالْأَحْزَابُ مِنْ بَعْدِهِمْ وَهَمَّتْ كُلُّ أُمَّةٍ بِرَسُولِهِمْ لِيَأْخُذُوهُ وَجَدَلُوا بِالْبَاطِلِ لِيُدْحِضُوا بِهِ الْحَقَّ فَأَخَذْتَهُمْ فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ ۖ﴾

﴿وَالْأَحْزَابُ﴾ الذين تحزبوا على الرسل وناصبوهم وهم عاد وثمود وفرعون وغيرهم، ﴿وَهَمَّتْ كُلُّ أُمَّةٍ﴾ من هذه الأمم التي هي قوم نوح والأحزاب ﴿بِرَسُولِهِمْ﴾ وقرئ: «برسولها» ﴿لِيَأْخُذُوهُ﴾ ليتمكّنوا منه ومن الإيقاع به وإصابته بما أرادوا من تعذيب أو قتل. ويقال للأسير: أخيد؛ ﴿فَأَخَذْتَهُمْ﴾ يعني: أنهم قصدوا أخذه فجعلت جزاءهم على إرادة أخذه أن أخذتهم، ﴿فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ﴾ فإنكم تمرّون على بلادهم ومساكنهم فتعاينون أثر ذلك، وهذا تقرير فيه معنى التعجيب.

﴿وَكَذَلِكَ حَقَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّهُمْ أَصْحَابُ النَّارِ ۖ﴾

﴿أَنَّهُمْ أَصْحَابُ النَّارِ﴾ في محل الرفع بدل من ﴿كَلِمَتُ رَبِّكَ﴾ أي: مثل ذلك الوجوب وجب على الكفرة كونهم من أصحاب النار. ومعناه: كما وجب هلاكهم في الدنيا بالعذاب المستأصل، كذلك وجب إهلاكهم بعذاب النار في الآخرة، أو في محل النصب بحذف لام التعليل وإيصال الفعل. والذين كفروا: قريش، ومعناه، كما وجب إهلاك أولئك الأمم، كذلك وجب إهلاك هؤلاء؛ لأن علة واحدة تجمعهم أنهم من أصحاب النار. وقرئ: «كلمات».

﴿الَّذِينَ يَحْمِلُونَ الْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيُؤْمِنُونَ بِهِ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَحْمَةً وَعِلْماً فَاغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُوا وَاتَّبَعُوا سَبِيلَكَ وَقِهِمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ ۖ رَبَّنَا وَأَدْخِلْهُمْ جَنَّاتٍ عَدْنٍ الَّتِي وَعَدْتَهُمْ وَمَنْ صَلَحَ مِنْ آبَائِهِمْ وَأَزْوَاجِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ۝﴾ وَقِهِمُ السَّيِّئَاتِ وَمَنْ يَنْفَسْ نَفْسَ يَوْمٍ يُؤْمِرُ فَقَدْ رَحِمْتُمْ وَذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ۖ﴾

روي: أن حملة العرش أرجلهم في الأرض السفلى وورءوسهم قد خرقت العرش، وهم خشوع لا يرفعون طرفهم. وعن النبي ﷺ: «لا تتفكروا في عظم ربكم ولكن تفكروا فيما خلق الله من الملائكة، فإن خلقاً من الملائكة يقال له: إسرافيل، زاوية من زوايا العرش على كاهله، وقدماه في الأرض السفلى، وقد مرق رأسه من سبع سموات، وإنه

ليتضاءل من عظمة الله حتى يصير كأنه الوصع^(١) (١٣٥٣). وفي الحديث: «إن الله تعالى أمر جميع الملائكة أن يغدوا ويروحوا بالسلام على حملة العرش تفضيلاً لهم على سائر الملائكة» (١٣٥٤). وقيل: خلق الله العرش من جوهرة خضراء، وبين القائمتين من قوائمه خفقان الطير المسرع ثمانين ألف عام. وقيل: حول العرش سبعون ألف صنف من الملائكة، يطوفون به مهللين مكبرين، ومن ورائهم سبعون ألف صف قيام قد وضعوا أيديهم على عواتقهم ١٥٠/٢ رافعين أصواتهم بالتلهيل والتكبير، ومن ورائهم مائة ألف صف قد وضعوا الأيمان على الشمائل، ما منهم أحد إلا وهو يسبح بما لا يسبح به الآخر. وقرأ ابن عباس: «العرش» بضم العين. فإن قلت: ما فائدة قوله: ﴿وَيُؤْمِنُونَ بِهِ﴾ ولا يخفى على أحد أن حملة العرش ومن حوله من الملائكة الذين يسبحون بحمد ربهم مؤمنون؟^(٢) قلت: فائدته إظهار شرف الإيمان وفضله، والترغيب فيه، كما وصف الأنبياء في غير موضع من كتابه بالصلاح لذلك، وكما عقب أعمال الخير بقوله تعالى: ﴿ثُمَّ كَانَ

١٣٥٣ - أخرجه أبو الشيخ الأصبهاني في العظمة (٢/٦٩٧ - ٦٩٨) رقم (٢٨٨) - (٢٧)، (٩٤٩/٣ - ٩٥٠)، ذكر حملة العرش وعظم خلقهم، رقم (٤٧٧) - (٢)، من طريق ابن عباس. قال الزيلعي في تخريج أحاديث الكشاف (٣/٢١٨): غريب، وفي تفسير الثعلبي: وروي عن شهر بن حوشب عن ابن عباس، عن النبي ﷺ، قال: «لا تفكروا في عظم ربكم...» إلى آخره، وقال الحافظ ابن حجر: أخرجه الثعلبي، وروى شهر بن حوشب: أن ابن عباس رفعه بهذا تعليقاً، وهو في كتاب العظمة لأبي الشيخ. انتهى.

١٣٥٤ - قال ابن حجر: لم أجده، وسكت عنه الزيلعي.

- (١) قوله: «كأنه الوصع» طائر أصغر من العصفور. (ع).
- (٢) قال محمود: «إن قلت: ما فائدة قوله: (ويؤمنون به) ولا يخفى على أحد أن حملة العرش ومن حوله من الملائكة مؤمنون بالله تعالى؟... إلخ» قال أحمد: كلام حسن إلا استدلاله بقوله: (ويؤمنون به) على أنهم ليسوا مشاهدين. فهذا لا يدل؛ لأن الإيمان هو التصديق غير مشروط فيه غيبة المصدق به. بدليل صحة إطلاق الإيمان بالآيات مع أنها مشاهدة، كانشقاق القمر وقلب العصا حية. وإنما نقب الزمخشري بهذا التكلف عما في قلبه من مرض، لكنه طاح بعيداً عن الغرض، فقرر أن حملة العرش غير مشاهدين، بدليل قوله تعالى: (ويؤمنون) لأن معنى الإيمان عنده التصديق بالغائب، ثم يأخذ من كونهم غير مشاهدين: أن الباري عز وجل لو صحت رؤيته لرأوه، فحيث لم يروه لزم أن تكون رؤيته تعالى مما لا يصححه العقل، وقد أبطلنا ما ادعاه من أن الإيمان مستلزم عدم الرؤية، ولو سلمناه فلا نسلم أنه يلزم من كون حملة العرش غير مشاهدين له تعالى أن تكون رؤيته غير صحيحة، وقوله: ولو كانت صحيحة لرأوه: شرطية عقيمة الإنتاج؛ لأن الرؤية عبارة عن إدراك، يخلق الله تعالى هذا الإدراك لحملة العرش، إلا أن يذهب بالزمخشري الوهم إلى أن مصححي الرؤية يعتقدون الجسمية والاستقرار على العرش، فيلزمهم رؤية حملة العرش له تعالى الله عن ذلك، وحاشى أهل السنة ومصححي الرؤية من ذلك.

مِنْ الَّذِينَ ءَامَنُوا» [البلد: ١٧] فبان بذلك فضل الإيمان. وفائدة أخرى: وهي التنبيه على أن الأمر لو كان كما تقول المجسمة^(١) لكان حملة العرش ومن حوله مشاهدين معانين، ولما وصفوا بالإيمان؛ لأنه إنما يوصف بالإيمان الغائب، فلما وصفوا به على سبيل الثناء عليهم عَلِمَ أَنَّ إيمانهم وإيمان من في الأرض وكل من غاب عن ذلك المقام - سواء: في أَنَّ إيمان الجميع بطريق النظر والاستدلال لا غير، وأنه لا طريق إلى معرفته إلا هذا، وأنه منزّه عن صفات الأجرام. وقد روعي التناسب في قوله: ﴿وَيُؤْمِنُونَ بِهِ﴾، ﴿وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا﴾ كأنه قيل: ويؤمنون ويستغفرون لمن في مثل حالهم وصفتهم. وفيه تنبيه على أَنَّ الاشتراك في الإيمان يجب أن يكون أدعى شيء إلى النصيحة، وأبعثه على إحماض الشفقة وإن تفاوتت الأجناس وتباعدت الأماكن. فإنه لا تجانس بين ملك وإنسان، ولا بين سماوي وأرضي قط، ثم لما جاء جامع الإيمان جاء معه التجانس الكلي والتناسب الحقيقي، حتى استغفر من حول العرش لمن فوق الأرض. قال الله تعالى: ﴿وَيَسْتَغْفِرُونَ لِمَنْ فِي الْأَرْضِ﴾ [الشورى: ٥]. أي: يقولون: ﴿رَبَّنَا﴾ وهذا المضمّر يحتمل أن يكون بياناً ليستغفرون مرفوع المحل مثله، وأن يكون حالاً. فإن قلت: تعالى الله عن المكان، فكيف صح أن يقال: وسع كل شيء؟ قلت: الرحمة والعلم هما اللذان وسعا كل شيء في المعنى. والأصل: وسع كل شيء رحمتك وعلمك، ولكن أزيل الكلام عن أصله بأن أسند الفعل إلى صاحب الرحمة والعلم، وأخرجنا منصوبين على التمييز للإغراق في وصفه بالرحمة والعلم، كأن ذاته رحمة وعلم واسعان كل شيء. فإن قلت: قد ذكر الرحمة والعلم فوجب أن يكون ما بعد الفاء مشتقاً على حديثهما جميعاً، وما ذكر إلا الغفران وحده؟ قلت: معناه فاغفر للذين علمت منهم التوبة واتباع سبيلك^(٢). وسبيل الله: سبيل

(١) قوله: «كما تقول المجسمة» يريد أهل السنة؛ لأنهم لما جوزوا رؤيته تعالى معاينة لزمهم القول بأنه تعالى جسم، ولكن الرؤية لا تستلزم الجسمية، خلافاً للمعتزلة، كما بين في علم التوحيد. (ع).

(٢) قال محمود: «فإن قلت: قد ذكر أولاً الرحمة والعلم، ثم ذكر ما توجبه الرحمة وهو الغفران، فأين موجب العلم؟ وأجاب بأن معناه فاغفر للذين علمت منهم التوبة واتباع سبيلك. إلخ» قال أحمد: كلامه ههنا محشو بأنواع الاعتزال: منها اعتقاد وجوب مراعاة المصلحة ودواعي الحكم على الله تعالى. ومنها اعتقاد أن اجتناب الكبائر يكفر الصغائر وجوباً وإن لم يكن توبة. ومنها اعتقاد امتناع غفران الله تعالى للكبائر التي لم يتب عنها. ومنها اعتقاد وجوب قبول التوبة على الله تعالى. ومنها جحد الشفاعة، واعتقاد أهل السنة أن الله تعالى لا يجب عليه مراعاة المصلحة، وأنه يجوز أن يعذب على الصغائر وإن اجتنبت الكبائر، وأنه يجوز أن يغفر الكبائر ما عدا الشرك وإن لم يتب منها، وأن قبول التوبة بفضل ورحمة لا بالوجوب عليه، وأنها تنال أهل الكبائر المصيرين من الموحدين، فهذه جواهر خمسة نسأل الله تعالى أن يقلد عقائل عقائدنا بها إلى الخاتمة، وأن لا يحرمننا لطفه ومراحمه، آمين. وجميع ما يحتاج إلى تزييفه مما ذكره على قواعد الاعتزال في هذا =

الحق التي نهجها^(١) لعباده ودعا إليها ﴿إِنَّكَ أَنْتَ الْغَزِيرُ الْحَكِيمُ﴾ أي: الملك الذي لا يغلب، وأنت مع ملكك وعزتك لا تفعل شيئاً إلا بداعي الحكمة، وموجب حكمتك أن تفي بوعدك، ﴿وَفِيهِمْ أَسِنَّاتٌ﴾ أي: العقوبات، أو جزاء السيئات. فحذف المضاف على أن السيئات، هي الصغائر أو الكبائر المتوب عنها. والوقاية منها: التكفير أو قبول التوبة. فإن قلت: ما الفائدة في استغفارهم لهم وهم تائبون صالحون موعودون المغفرة والله لا يخلف الميعاد؟ قلت: هذا بمنزلة الشفاعة، وفائدته زيادة الكرامة والثواب. وقرئ: «جنة عدن» و«صلح» بضم اللام، والفتح أفصح. يقال: صلح فهو صالح، وصلح فهو صليح، و«ذريتهم».

﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يُنَادُونَ لِمَقْتُ اللَّهِ أَكْبَرُ مِنْ مَقْتِكُمْ أَنْفُسَكُمْ إِذْ تُدْعَوْنَ إِلَى الْإِيمَانِ فَتَكْفُرُونَ﴾ (١٥) قَالُوا رَبَّنَا آمَنَّا أَثْنَيْنِ وَأَكْبَرَيْنِ فَأَعْرَفْنَا بِدُؤُوبِنَا فَهَلْ إِلَى خُرُوجٍ مِنْ سَبِيلٍ (١٦) ذَلِكَ بِأَنَّهُ إِذَا دُعِيَ اللَّهُ وَحْدَهُ كَفَرْتُمْ وَإِنْ يُشْرَكَ بِهِ تَوَلَّيْتُمْ فَالْحُكْمُ لِلَّهِ الْعَلِيِّ الْكَبِيرِ (١٧)

أي: ينادون يوم القيامة، فيقال لهم: ﴿لَمَقْتُ اللَّهِ أَكْبَرُ﴾ والتقدير: لمقت الله أنفسكم أكبر من مقتكم أنفسكم، فاستغنى بذكرها مرة. و ﴿إِذْ تُدْعَوْنَ﴾ منصوب بالمقت الأول^(٢). والمعنى: أنه يقال لهم يوم القيامة: كان الله يمقت أنفسكم الأمانة بالسوء

= الموضوع قد تقدم، غير أنه جدد هنا قوله: إن فائدة الاستغفار كفائدة الشفاعة، وذلك مزيد الكرامة لا غير، يريد: أن المغفرة للتائب واجبة على الله فلا تسأل، وهذا الذي قاله مما يجعل لنفسه فيه الفضيحة، زادت على بطلانه هذه الآية بالالسن الفصيحة، كيف يجعل المسئول مزيدة الكرامة لا غير. ونص الآية: ﴿فَاعْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُوا وَاتَّبَعُوا سَبِيلَكَ وَقِهِمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ﴾، فهي ناطقة بأنهم يسألون من الله تعالى المغفرة للتائب ووقاية عذاب الجحيم، وهو الذي أنكر الزمخشري كونه مسئولاً.

(١) قوله: «التي نهجها» أي: أبانها وأوضحها. أفاده الصحاح. (ع).

(٢) قال السمين الحلبي: ورد عليه الشيخ بأنه يلزم منه الفصل بين المصدر ومعموله بأجنبي وهو الخير. وقال: هذا من ظواهر علم النحو التي لا تكاد تخفى على المبتدئ فضلاً عن مَنْ يَدْعِي من العجم أنه شيخ العرب والعجم. قلت: ومثل هذا لا يخفى على أبي القاسم وإنما أراد أنه دال على ناصبه. وعلى تقدير ذلك فهو مذهب كوفي قال به، أو لأن الظرف يتسع فيه ما لا يتسع في غيره، وأني غموض في هذا حتى يتخى عليه هذا الإنحاء؟ والله القائل [من الكامل]:

حَسَدُوا الْفَتَى إِذْ لَمْ يَنَالُوا سَعْيَهُ فَالْقَوْمُ أَغْدَاءُ لَهُ وَخُصُومُ
كَضَرَائِرِ الْحَسَنَاءِ قُلْنَ لِيُوجِهِهَا كَذِباً وَزوراً: إِنَّهُ لَدِيمٌ

وهذا الرد قد سبقه إليه أبو البقاء فقال: ولا يجوز أن يعمل فيه «مَقْتُ الله» لأنه مصدر أخير عنه وهو قوله: «أَكْبَرُ» فمن ثم أخذ الشيخ. ولا يجوز أن ينتصب بالمقت الثاني؛ لأنهم لم يَمَقْتُوا أَنْفُسَهُمْ وَتَوَلَّيْتُمْ دُعَائِهِمْ إلى الإيمان وإنما مَقَّتْهَا يوم القيامة. والظاهر أن مَقْتُ الله واقع في الدنيا. وجوز =

والكفر، حين كان الأنبياء يدعونكم إلى الإيمان، فتأبون قبوله وتختارون عليه الكفر أشد مما تمقتونهن اليوم وأنتم في النار إذا أوفعتكم فيها باتباعكم هواهن. وعن الحسن: لما رأوا أعمالهم الخبيثة مقتوا أنفسهم، فنودوا لمقت الله. وقيل: معناه لمقت الله إياكم الآن أكبر من مقت بعضكم لبعض، كقوله تعالى: ﴿يَكْفُرُ بَعْضُكُم بِبَعْضٍ وَيَلْعَنُ بَعْضُكُم بَعْضًا﴾ [العنكبوت: ٢٥]. و﴿إِذْ تَدْعُونَ﴾: تعليل، والمقت: أشد البغض، فوضع في موضع أبلغ الإنكار وأشدّه. ﴿أَتَيْنَيْنِ﴾ إِمَاتَيْنِ وإحياءتين، أو موتتين وحياتين، وأراد بالإِمَاتَيْنِ: خلقهم أمواتاً أولاً، وإِمَاتَتَهُمْ عند انقضاء آجالهم، وبالإِحياءتين الإِحياء الأولى وإِحياء البعث. وناهيك تفسيراً لذلك قوله تعالى: ﴿وَكُنْتُمْ أَمْوَاتًا فَأَحْيَاكُم ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُم﴾ [البقرة: ٢٨] وكذا عن ابن عباس رضي الله عنهما. فإن قلت: كيف صح أن يسمي خلقهم أمواتاً: إماتة؟ قلت: كما صح ١٥٠/٢ ب أن تقول: سبحان من صغر جسم البعوضة وكبر جسم الفيل! وقولك للحفار: ضيق فم الركبة ووسع أسفلها، وليس ثم نقل من كبر إلى صغر ولا من صغر إلى كبر، ولا من ضيق إلى سعة، ولا من سعة إلى ضيق، وإنما أردت الإنشاء على تلك الصفات، والسبب في صحته أن الصغر والكبر جائزان معاً على المصنوع الواحد، من غير ترجيح لأحدهما، وكذلك الضيق والسعة. فإذا اختار الصانع أحد الجائزين وهو متمكن منهما^(١) على السواء فقد صرف المصنوع عن الجائز الآخر، فجعل صرفه عنه كقوله منه، ومن جعل الإِمَاتَيْنِ التي بعد حياة الدنيا والتي بعد

= الْحَسَنُ أَنَّ يَكُونُ فِي الْآخِرَةِ، وَضَعَفَهُ الشَّيْخُ بِأَنَّهُ يَبْقَى «إِذْ تَدْعُونَ» مُفْلَتًا مِنَ الْكَلَامِ لِكَوْنِهِ لَيْسَ لَهُ عَامِلٌ مُقَدِّمٌ وَلَا مَا يُفَسِّرُ عَامِلًا، فَإِذَا كَانَ الْمَقْتُ فِي الدُّنْيَا امْتَنَّ أَنْ يُضَمَّرَ لَهُ عَامِلٌ تَقْدِيرُهُ: مُقْتَكُمُ. قُلْتُ: وَهَذَا التَّجْرِي عَلَى مِثْلِ الْحَسَنِ يُهَوُّونَ عَلَيْكَ تَجَرُّبُهُ عَلَى الزَّمْخَشَرِيِّ وَنَحْوِهِ. انْتَهَى الدَّرَجَةُ الْمَصُونُ.

(١) قال محمود: «إحدى الإِمَاتَيْنِ خلقهم أمواتاً أولاً، والأخرى إِمَاتَتَهُمْ عند انقضاء آجالهم، ثم قال: فإن قلت: كيف سمي خلقهم أمواتاً إماتة؟ وأجاب بأنه كما يقال: سبحان من صغر جسم البعوضة وكبر جسم الفيل، وكما يقال للحفار: ضيق فم الركبة ووسع أسفلها، وليس ثم نقل من صغر إلى كبر ولا عكسه، ولا من ضيق إلى سعة ولا عكسه. وإنما أردت الإنشاء على تلك الصفات. والسبب في صحته أن الكبير والصغير جائزان معاً على المصنوع الواحد، وكذلك الضيق والسعة، فإذا اختار الصانع أحد الجائزين وهو متمكن من الآخر، جعل صرفاً عن الآخر وهو متمكن منه». قال أحمد: ما أسد كلامه ههنا؛ حيث صادق التمسك بأذيال نظر مالك رحمه الله في مسألة: ما إذا باعه إحدى وزنتين معينتين على اللزوم لإحداهما والخيرة في عينها، فإنه منع من ذلك؛ لأن المشتري لما كان متمكناً من تعيين كل واحدة منهما على سواء، فإذا عين واحدة منهما بالاختيار نزل عدوله عن الأخرى، وقد كان متمكناً منها منزلة اختيارها أولاً، ثم الانتقال عنها إلى هذه، فإذا آل إلى بيع إحداهما بالأخرى غير معلومتي التماثل، وهو الذي لخصه أصحابنا في قولهم: إن من خير بين شيئين فاختر أحدهما: عُدُّ مَتَقْلًا. وقد سبقَت هذه القاعدة لغير هذا الغرض فيما تقدم.

حياة القبر لزمه إثبات ثلاث إحياءات، وهو خلاف ما في القرآن، إلا أن يتمحل فيجعل إحداها غير معتد بها، أو يزعم أن الله تعالى يحييهم في القبور، وتستمر بهم تلك الحياة فلا يموتون بعدها، ويعدّهم في المستنئين من الصعقة في قوله تعالى ﴿إِلَّا مَنْ شَاءَ اللَّهُ﴾ [النمل: ٧٨]. فإن قلت: كيف تسبب هذا لقوله تعالى: ﴿فَاعْتَرَفْنَا بِذُنُوبِنَا﴾؟ قلت: قد أنكروا البعث فكفروا، وتبع ذلك من الذنوب ما لا يحصى؛ لأن من لم يخش العاقبة تخرق^(١) في المعاصي، فلما رأوا الإمامة والإحياء قد تكرّرا عليهم، علموا بأن الله قادر على الإعادة قدرته على الإنشاء، فاعترفوا بذنوبهم التي اقترفوها من إنكار البعث وما تبعه من معاصيهم. ﴿فَهَلْ إِلَى خُرُوجٍ﴾ أي: إلى نوع من الخروج سريع أو بطيء ﴿مِنْ سَبِيلٍ﴾ قط، أم اليأس واقع دون ذلك، فلا خروج ولا سبيل إليه. وهذا كلام من غلب عليه اليأس والقنوط، وإنما يقولون ذلك تعللاً وتحيراً؛ ولهذا جاء الجواب على حسب ذلك، وهو قوله: ﴿ذَلِكُمْ﴾ أي؛ ذلكم الذي أنتم فيه، وأن لا سبيل لكم إلى خروج قط بسبب كفركم بتوحيد الله وإيمانكم بالإشراك^(٢) به، ﴿فَالْحُكْمُ لِلَّهِ﴾ حيث حكم عليكم بالعذاب السرمد؛ وقوله: ﴿أَلَعَلِّيَ الْكَبِيرُ﴾ دلالة على الكبرياء والعظمة، وعلى أن عقاب مثله لا يكون إلا كذلك، وهو الذي يطابق كبريائه ويناسب جبروته. وقيل: كأن الحرورية^(٣) أخذوا قولهم: لا حكم إلا لله، من هذا.

﴿هُوَ الَّذِي يُرِيكُمْ آيَاتِهِ وَيُنَزِّلُ لَكُمْ مِنَ السَّمَاءِ رِزْقًا وَمَا يَتَذَكَّرُ إِلَّا مَنْ يُنِيبُ﴾ (١٣)
 فَادْعُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ (١٤) رَفِيعَ الدَّرَجَاتِ ذُو الْعَرْشِ يُلْقِي
 الرُّوحَ مِنْ أَمْرِهِ عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ لِيُنْزِلَ يَوْمَ التَّلَافِ (١٥) يَوْمَ هُمْ بَارِزُونَ لَا يَخْفَى عَلَى اللَّهِ مِنْهُمْ شَيْءٌ لِمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ (١٦)

(١) قوله: «تخرق في المعاصي» في الصحاح: يقال: هو يتخرق في السخاء، إذا توسع فيه. (ع).

(٢) قال محمود: «أي إلى نوع من الخروج سريع أو بطيء (من سبيل) قط، أم اليأس واقع دون ذلك، فلا خروج ولا سبيل إليه، وهذا كلام من غلب عليه اليأس والقنوط، وإنما يقولون ذلك تعللاً وتحيراً؛ ولهذا جاء الجواب على حسب ذلك، وهو قوله (ذلكم) بأنه إذا دعى الله وحده كفرتم» معناه: أن اعتياض السبيل إلى خروجكم من النار سببه كفركم بتوحيد الله تعالى، وإيمانكم بالإشراك، قال أحمد: وعلى هذا النمط بنى الشعراء مثل قولهم [من مجزوء الرمل]:

هل إلى نجد وصول وعلى الخيف نزول

وإنما قصدهم أن هذا أمر غالب فيه اليأس على الطمع.

(٣) قوله: «الحرورية» في الصحاح: أنها طائفة من الخوارج تنسب إلى «حرور» اسم قرية، وكأنه يريد أهل السنة؛ فإنهم الذين اشتهر عنهم هذا القول، خلافاً للمعتزلة في قولهم: إن الفعل قد يدرك الحكم قبل ورود الشرع، كما بين في الأصول. (ع).

﴿يُرِيكُمْ آيَاتِهِ﴾ من الريح والسحاب والرعد والبرق والصواعق ونحوها. والرزق: المطر؛ لأنه سببه. ﴿وَمَا يَتَذَكَّرُ مِنْ نَيْبٍ﴾ وما يتعظ وما يعتبر بآيات الله إلا من يتوب من الشرك ويرجع إلى الله، فإن المعاند لا سبيل إلى تذكره واتعاظه، ثم قال للمنيبين: ﴿فَادْعُوا اللَّهَ﴾ أي: اعبدوه ﴿مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ﴾ من الشرك، وإن غاظ ذلك أعداءكم ممن ليس على دينكم. ﴿رَفِيعُ الدَّرَجَاتِ ذُو الْعَرْشِ يُلْقِي الرُّوحَ﴾ ثلاثة أخبار؛ لقوله: «هو» مترتبة على قوله: ﴿الَّذِي يُرِيكُمْ﴾ أو أخبار مبتدأ محذوف، وهي مختلفة تعريفاً وتنكيراً^(١). وقرئ: «رفيع الدرجات» بالنصب على المدح. ورفيع الدرجات، كقوله تعالى: ﴿ذِي الْمَنَاجِزِ﴾ [المعارج: ٣] وهي مصاعد الملائكة إلى أن تبلغ العرش، وهي دليل على عزته وملكوته. وعن ابن جبير: سماء فوق سماء. والعرش فوقهن. ويجوز أن يكون عبارة عن رفعة شأنه وعلو سلطانه، كما أن ذا العرش عبارة عن ملكه. وقيل: هي درجات ثوابه التي ينزلها أوليائه في الجنة ﴿الرُّوحَ مِنْ أَمْرِ﴾ الذي هو سبب الحياة من أمره، يريد: الوحي الذي هو أمر بالخير وبعث عليه، فاستعار له الروح، كما قال تعالى: ﴿أَوْ مَنْ كَانَ مِنَّا فَأَحْيَيْنَاهُ﴾ [الأنعام: ١٢٢] ﴿لِنُذِرَ﴾ الله أو الملقى عليه: وهو الرسول أو الروح. وقرئ: «لتنذر» أي: لتنذر الروح لأنها تؤنث، أو على خطاب الرسول. وقرئ: «لينذر يوم التلاق» على البناء للمفعول. ﴿يَوْمَ التَّلَاقِ﴾ يوم القيامة؛ لأن الخلاق تلتقي فيه. وقيل: يلتقي فيه أهل السماء وأهل الأرض. وقيل: المعبود والعابد. ﴿يَوْمَ هُمْ بَارِزُونَ﴾ ظاهرون لا يستترهم شيء من جبل أو أكمة أو بناء؛ لأن الأرض بارزة قاع صفصف، ولا عليهم ثياب، إنما هم عراة مكشوفون، كما جاء في الحديث: «يحشرون عراة حفاة غرلاً» (١٣٥٥) ﴿لَا يَخْفَى عَلَى اللَّهِ مِنْهُمْ شَيْءٌ﴾. أي: من أعمالهم وأحوالهم. وعن ابن مسعود رضي الله عنه: لا يخفى عليه منهم شيء. فإن قلت: قوله: ﴿لَا يَخْفَى عَلَى اللَّهِ مِنْهُمْ شَيْءٌ﴾ بيان وتقرير لبروزهم، والله تعالى لا يخفى عليه منهم شيء برزوا أو لم يبرزوا، فما معناه؟ قلت: معناه أنهم كانوا يتوهمون - في الدنيا إذا استتروا بالحيطان والحجب - أن الله لا يراهم ويخفى عليه أعمالهم، فهم اليوم صاثرون من البروز والانكشاف إلى حال لا يتوهمون فيها مثل ما كانوا

١٣٥٥ - أخرجه البخاري (١٨٧/١٣ - ١٨٨)، كتاب الرقاق، باب: الحشر حديث (٦٥٢٧). ومسلم (٩/ ٢١٠)، كتاب: الجنة وصفة نعيمها وأهلها، باب: فناء الدنيا، وبيان الحشر. حديث (٥٦) - (٢٨٥٩)، كلاهما من طريق عائشة.

وقال الحافظ ابن حجر: متفق عليه من حديث عائشة - رضي الله عنها.

(١) قال السمين الحلبي: أما الأول: ففيه طول الفصل وتعدد الأخبار وليست في معنى خبر واحد. انتهى. الدر المصون.

يتوهمونه. قال الله تعالى: ﴿وَلَكِنْ ظَنَنْتُمْ أَنَّ اللَّهَ ۙ/٢ ١٥١ لَا يَعْلَمُ كَثِيرًا مِّمَّا تَعْمَلُونَ﴾ [فصلت: ٢٢]. وقال تعالى: ﴿يَسْتَخْفُونَ مِنَ النَّاسِ وَلَا يَسْتَخْفُونَ مِنَ اللَّهِ﴾ [النساء: ١٠٨] وذلك لعلمهم أن الناس يبصرونهم؛ وظنهم أن الله لا يبصرهم، وهو معنى قوله: ﴿وَبَرَزُوا لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ﴾ [إبراهيم: ٤٨]، ﴿لَمِنَ الْمُلْكِ أَلْيَوْمَ لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ﴾ حكاية لما يسأل عنه في ذلك اليوم ولما يجاب به. ومعناه: أنه ينادي مناد فيقول: لمن الملك اليوم؟ فيجيبه أهل المحشر: ﴿لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ﴾. وقيل: يجمع الله الخلائق يوم القيامة في صعيد واحد بأرض بيضاء كأنها سبيكة فضة لم يُغصَّ الله فيها قط «فأول ما يتكلم به أن ينادي مناد: (لمن الملك اليوم؟ الله الواحد القهار. اليوم تجزى كل نفس...) الآية. فهذا يقتضي أن يكون المنادي هو المجيب.

﴿الْيَوْمَ تُجْزَى كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ لَا ظُلْمَ الْيَوْمَ إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ﴾ (١٧)

لما قرّر أن الملك لله وحده في ذلك اليوم عدّد نتائج ذلك، وهي أن كل نفس تجزى ما كسبت، وأن الظلم مأمون؛ لأن الله ليس بظلام للعبيد، وأن الحساب لا يبطئ؛ لأن الله لا يشغله حساب على حساب، فيحاسب الخلق كله في وقت واحد وهو أسرع الحاسبين. وعن ابن عباس رضي الله عنهما: إذا أخذ في حسابهم لم يَقُلْ^(١) «أهل الجنة إلا في النار ولا أهل النار إلا فيها».

﴿وَأَنذَرَهُمْ يَوْمَ الْأَرْزَةِ إِذْ الْقُلُوبُ لَدَى الْحَنَاجِرِ كَظْمِينَ مَّا لِلظَّالِمِينَ مِنْ حِمِيمٍ وَلَا شَفِيعٍ

يُطَاعُ﴾ (١٨)

الأرزة: القيامة، سميت بذلك لأزوفها، أي: لقربها. ويجوز أن يريد بـ«يوم الأرزة»: وقت الخُطّة الأرزة، وهي مشارفتهم دخول النار، فعند ذلك ترتفع قلوبهم عن مقارّها فتلتصق بحناجرهم، فلا هي تخرج فيموتوا، ولا ترجع إلى مواضعها فيتنفسوا ويتروّحوا، ولكنها معترضة كالشجا، كما قال تعالى: ﴿فَلَمَّا رَأَوْهُ زُلْفَةً سَيِّتَتْ وُجُوهُ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ [الملك: ٢٧]. فإن قلت: ﴿كَظْمِينَ﴾ بما انتصب؟ قلت: هو حال عن أصحاب القلوب على المعنى؛ لأن المعنى: إذ قلوبهم لدى حناجرهم كاظمين عليها. ويجوز أن يكون حالاً عن القلوب، وأن القلوب كاظمة على غمّ وكرب فيها مع بلوغها الحناجر، وإنما جمع الكاظم جمع السلامة؛ لأنه وصفها بالكظم الذي هو من أفعال العقلاء، كما قال تعالى: ﴿رَأَيْتُهُمْ لِي سَجِدِينَ﴾ [يوسف: ٤] وقال: ﴿فَطَلَّتْ أَعْنَاقُهُمْ لِمَا خَضَعِينَ﴾ [الشعراء: ٤] وتعضده قراءة من قرأ: «كاظمون» ويجوز أن يكون حالاً عن قوله: وأنذرهم، أي: وأنذرهم

(١) قوله: «لم يقل أهل الجنة إلا فيها» من قال يقليل قبلولة. (ع).

مقدّرين أو مشارفين الكظم، كقوله تعالى: ﴿فَادْخُلُوهَا خَالِدِينَ﴾ [الزمر: ٧٣] الحميم: المحب المشفق. والمطاع: مجاز في المشفع؛ لأن حقيقة الطاعة نحو حقيقة الأمر في أنها لا تكون إلا لمن فوقك. فإن قلت: ما معنى قوله تعالى: ﴿وَلَا شَفِيعَ يُطَاعُ﴾؟ قلت: يحتمل أن يتناول النفي الشفاعة والطاعة معاً، وأن يتناول الطاعة دون الشفاعة^(١)، كما تقول: ما عندي كتاب بيع، فهو محتمل نفي البيع وحده، وأن عندك كتاباً إلا أنك لا تبعه، ونفيهما جميعاً، وأن لا كتاب عندك، ولا كونه مبيعاً. ونحوه [من السريع]:
 وَلَا تَرَى الضَّبَّ بِهَا يَنْجَحِرُ^(٢)

يريد: نفي الضب وانجحاره. فإن قلت: فعلى أي الاحتمالين يجب حمله؟ قلت: على نفي الأمرين جميعاً، من قبل أن الشفعاء هم أولياء الله، وأولياء الله لا يحبون ولا يرضون إلا من أحبه الله ورضيه، وأن الله لا يحب الظالمين، فلا يحبونهم، وإذا لم يحبهم لم ينصروهم ولم يشفعوا لهم. قال الله تعالى: ﴿وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنْصَارٍ﴾ [البقرة: ٢٧٠] وقال: ﴿يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ارْتَضَى﴾ [الأنبياء: ٢٨] ولأن الشفاعة لا تكون إلا في زيادة التفضل^(٣)، وأهل التفضل وزيادته إنما هم أهل الثواب، بدليل قوله تعالى: ﴿وَيَزِيدُهُمْ مِنْ فَضْلِهِ﴾ [النساء: ١٧٤] وعن الحسن رضي الله عنه: والله ما يكون لهم شفيع البتة، فإن قلت: الغرض حاصل بذكر الشفيع ونفيه، فما الفائدة في ذكر هذه الصفة ونفيها؟ قلت: في ذكرها فائدة جلية، وهي أنها ضمت إليه؛ ليقام انتفاء الموصوف مقام الشاهد على انتفاء الصفة؛ لأن الصفة لا تتأتى بدون موصوفها، فيكون ذلك إزالة لتوهم وجود الموصوف، بيانه: أنك إذا عوتبت على القعود عن الغزو فقلت: ما لي فرس أركبه، ولا معي سلاح أحارب به، فقد جعلت عدم الفرس وفقد السلاح علة مانعة من الركوب والمحاربة، كأنك تقول: كيف يتأتى مني الركوب والمحاربة ولا فرس لي ولا سلاح معي؟ فكذلك قوله: ﴿وَلَا شَفِيعَ يُطَاعُ﴾ معناه: كيف يتأتى التشفيع

(١) قال محمود: «يحتمل أن يكون المنفي الشفيع الذي هو الموصوف وصفته وهي الطاعة، ويحتمل أن يكون المنفي الصفة وهي الطاعة والشفيع ثابت» قال أحمد: إنما جاء الاحتمال من حيث دخول النفي على مجموع الموصوف والصفة، ونفي المجموع كما يكون بنفي كل واحد من جزئيه، وكذلك يكون بنفي أحدهما، على أن المراد هنا - كما قال - نفي الأمرين جميعاً. قال: وفائدة ذكر الموصوف أنه كالدليل على نفي الصفة؛ لأنه إذا انتفى الموصوف انتفت الصفة قطعاً، قلت: فكأنه نفى الصفة مرتين من وجهين مختلفين.

(٢) تقدم.

(٣) قوله: «لا تكون إلا في زيادة التفضل» هذا عند المعتزلة. أما عند أهل السنة: فتكون في الخروج من النار أيضاً، كما تقرر في التوحيد. وحديث الشفاعة مشهور، نعم الكفار لا خروج لهم من النار. (ع).

ولا شفيع، فكان ذكر الشفيع والاستشهاد على عدم تأنيه بعدم الشفيع وضعاً لانتفاء الشفيع موضع الأمر المعروف^(١) غير المنكر الذي لا ينبغي أن يتوهم خلافه.

﴿يَعْلَمُ خَائِنَةَ الْأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِي الصُّدُورُ﴾

الخائنة: صفة للنظرة. أو مصدر بمعنى الخيانة، كالعافية بمعنى المعافاة، والمراد: استراق النظر إلى ما لا يحل، كما يفعل أهل الريب ١٥١/٢ ب، ولا يحسن أن يراد الخائنة من الأعين؛ لأن قوله: ﴿وَمَا تُخْفِي الصُّدُورُ﴾ لا يساعد عليه^(٢). فإن قلت: بم اتصل قوله: ﴿يَعْلَمُ خَائِنَةَ الْأَعْيُنِ﴾؟ قلت: هو خبر من أخبار هو في قوله: ﴿هو الذي يريكم﴾ مثل ﴿يَلْقَى الرُّوحَ﴾ ولكن ﴿يَلْقَى الرُّوحَ﴾ قد علل بقوله: ﴿لِنُذِرَ يَوْمَ التَّلَاقِ﴾ ثم استطرد ذكر أحوال يوم التلاق إلى قوله: ﴿وَلَا شَفِيعَ يُطَاعُ﴾ فبعد لذلك عن أخواته.

﴿وَاللَّهُ يَقْضِي بِالْحَقِّ وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ لَا يَقْضُونَ شَيْئًا إِنَّ اللَّهَ هُوَ السَّمِيعُ

الْبَصِيرُ﴾

﴿وَاللَّهُ يَقْضِي بِالْحَقِّ﴾ يعني: والذي هذه صفاته وأحواله لا يقضي إلا بالحق والعدل؛ لاستغنائه عن الظلم. والتهكم لا يقضون بشيء. وهذا تهكم بهم؛ لأن ما لا يوصف بالقدرة لا يقال فيه: يقضي، أو لا يقضي. ﴿إِنَّ اللَّهَ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ تقرير لقوله: ﴿يَعْلَمُ خَائِنَةَ الْأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِي الصُّدُورُ﴾ ووعيد لهم بأنه يسمع ما يقولون ويبصر ما يعملون، وأنه يعاقبهم عليه وتعريض بما يدعون من دون الله، وأنها لا تسمع ولا تبصر، وقرئ: «يدعون» بالتاء والياء.

﴿أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ كَانُوا مِنْ قَبْلِهِمْ كَانُوا هُمْ أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَآثَارًا فِي الْأَرْضِ فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ وَمَا كَانَ لَهُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ وَاكِ﴾ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانَتْ تَأْتِيهِمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَكَفَرُوا فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ إِنَّهُ قَوِيٌّ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾

(هم) في ﴿كَانُوا هُمْ أَشَدَّ مِنْهُمْ﴾ فصل. فإن قلت: من حق الفصل أن لا يقع إلا بين معرفتين فما باله واقعاً بين معرفة وغير معرفة؟ وهو أشد منهم. قلت: قد ضارح المعرفة

(١) قوله: «موضع الأمر المعروف» أي الذي يعرفه السامع ويسلمه، كما هو شأن الشاهد على الدعوى، وإذا كان انتفاء الشفيع معروفاً فلا ينتفي أن يتوهم وجوده، وبهذا يتبين قوله فيما سبق، فيكون ذلك إزالة لتوهم وجوده الموصوف. (ع).

(٢) قال محمود: «الخائنة إما صفة للنظرة وإما مصدر كالعافية» قال: «ولا يحسن أن يراد الخائنة من الأعين» لأنه لا يساعد عليه قوله تعالى: (وما تخفي الصدور) قال أحمد: إنما لم يساعد عليه؛ لأن خائنة الأعين على هذا التقدير معناه: الأعين الخائنة، وإنما يقابل الأعين الصدور، لا ما تخفيه الصدور، بخلاف التأويل الأول، فإن المراد به نظرات الأعين، فيطابق خفيات الصدور.

في أنه لا تدخله الألف واللام فأجري مجراها. وقرئ: «منكم» وهي في مصاحف أهل الشام. ﴿وَأَنَارًا﴾ يريد حصونهم وقصورهم وعددهم، وما يوصف بالشدة من آثارهم. أو: أرادوا أكثر آثاراً، كقوله [من مجزء الكامل]:

مَتَقَلَّدَا سَيْفًا وَرُمَحًا^(١)

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَى بِآيَاتِنَا وَسُلْطَانٍ مُّبِينٍ^(٢٣) إِلَى فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَفِرْعَوْنَ فَقَالُوا سَحَرٌ كَذَابٌ^(٢٤) فَلَمَّا جَاءَهُمْ بِالْحَقِّ مِنْ عِنْدِنَا قَالُوا اقْتُلُوا أَبْنَاءَ الَّذِينَ ءَامَنُوا مَعَهُ وَاسْتَحْيُوا نِسَاءَهُمْ وَمَا كَيْدُ الْكَافِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَالٍ^(٢٥)﴾

﴿وَسُلْطَانٍ مُّبِينٍ﴾ وحجة ظاهرة وهي المعجزات، فقالوا: هو ساحر كذاب، فسموا السلطان المبين سحراً وكذباً ﴿فَلَمَّا جَاءَهُمْ بِالْحَقِّ﴾ بالنبوة، فإن قلت: أما كان قتل الأبناء واستحياء النساء من قبل خيفة أو يولد المولود الذي أنذرته الكهنة بظهوره وزوال ملكه على يده؟ قلت: قد كان ذلك القتل حينئذ، وهذا قتل آخر. وعن ابن عباس رضي الله عنهما في قوله: ﴿قَالُوا اقْتُلُوا﴾ أعيدوا عليهم القتل كالذي كان أولاً، يريد: أن هذا قتل غير القتل الأول: ﴿فِي ضَلَالٍ﴾ في ضياع وذهاب، باطلاً لم يجد عليهم، يعني: أنهم باشرُوا قتلهم أولاً فما أغنى عنهم، ونفذ قضاء الله بإظهار من خافوه، فما يغني عنهم هذا القتل الثاني، وكان فرعون قد كف عن قتل الولدان، فلما بعث موسى وأحس بأنه قد وقع: أعاده عليهم غيظاً وحنقاً، وظناً منه أنه يصدهم بذلك عن مظاهرة موسى، وما علم أن كيده ضائع في الكرتين جميعاً.

﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ ذَرُونِي أَقْتُلْ مُوسَى وَلْيَدْعُ رَبَّهُ^(٢٦) إِنِّي أَخَافُ أَنْ يُبَدِّلَ دِينَكُمْ أَوْ أَنْ يُظْهِرَ فِي الْأَرْضِ الْفَسَادَ^(٢٧)﴾

(١) ورأيت زوجك في الوغى متقلداً سيفاً ورمحاً
الوغى: الحرب. ورمحاً: نصب بمحذوف يناسبه، أي: متقلداً سيفاً وحاملاً رمحاً. وروي بدل الشطر الأول:

يَا لَيْتَ زَوْجَكَ قَدْ غَدَا
أي: ذهب إلى الحرب غدوة لابساً سلاحه.

البيت لعبد الله بن الزبيري. انظر الخصائص (٤٣١/٢)، أمالي ابن الشجري (٣٢١/٢)، الإنصاف (٦١٢/٢)، شرح المفصل لابن يعش (٥٠/٢)، الكامل (٣٣٤/١)، مجاز القرآن (٦٨/٢)، تأويل المشكل (٢١٤)، شرح القصائد العشر (٢٤٧)، المقتضب ٥٠/٢، الطبري (٥٧٧/١١)، والبحر المحيط ٧٧/١، والدر المصون ١٠٧/١.

﴿ذُرِّيَّتٍ أَقْتُلْ مُوسَى﴾ كانوا إذا هم بقتله كفوه بقولهم: ليس بالذي تخافه، وهو أقل من ذلك وأضعف، وما هو إلا بعض السحرة، ومثله لا يقاوم إلا ساحراً مثله، ويقولون: إذا قتلته أدخلت الشبهة على الناس، واعتقدوا أنك قد عجزت عن معارضته بالحجة، والظاهر أن فرعون لعنه الله كان قد استيقن أنه نبي، وأن ما جاء به آيات وما هو بسحر، ولكن الرجل كان فيه خب وجريزة، وكان قتالاً سفاكاً للدماء في أهون شيء، فكيف لا يقتل من أحسن منه بأنه هو الذي يثل عرشه ويهدم ملكه، ولكنه كان يخاف إن هم بقتله أن يعاجل بالهلاك. وقوله: ﴿وَلِيدَعُ رَبَّهُ﴾ شاهد صدق على فرط خوفه منه ومن دعوته ربه، وكان قوله: ﴿ذُرِّيَّتٍ أَقْتُلْ مُوسَى﴾ تمويهاً^(١) على قومه، وإيهاماً أنهم هم الذين يكفونه، وما كان يكفه إلا ما في نفسه من هول الفزع. ﴿أَنْ يَبْدَلَ دِينَكُمْ﴾ أن يغير ما أنتم عليه، وكانوا يعبدونه ويعبدون الأصنام، بدليل قوله: ﴿وَيَذَرُكَ وَالْهَتَكُ﴾ [الأعراف: ١٢٧] والفساد في الأرض: التفاتن والتهاجر الذي يذهب معه الأمن وتتعطل المزارع والمكاسب والمعاش، ويهلك الناس قتلاً وضياًعاً، كأنه قال: إني أخاف أن يفسد عليكم دينكم بدعوتكم إلى دينه. أو يفسد عليكم دنياكم بما يظهر من الفتن بسببه. وفي مصاحف أهل الحجاز: «وأن يظهر» بالواو، ومعناه. إني أخاف فساد دينكم ودنياكم معاً. وقرئ: «يُظْهِرُ» من «أظهر»^(٢)، و«الفساد» منصوب، أي: يظهر موسى الفساد. وقرئ: «يُظْهِرُ» بتشديد الظاء والهاء، من تظهر بمعنى تظاهر، أي: تتابع وتعاون.

﴿وَقَالَ مُوسَى إِنِّي عُذْتُ بِرَبِّي وَرَبِّكُمْ مِنْ كُلِّ مُتَكَبِّرٍ لَا يُؤْمِنُ بَيَوْمِ الْحِسَابِ﴾

لما سمع موسى عليه السلام بما أجراه فرعون من حديث قتله قال ١٥٢/٢ لقومه: ﴿إِنِّي عُذْتُ﴾ بالله الذي هو ربي وربكم، وقوله: ﴿وَرَبِّكُمْ﴾ فيه بعث لهم على أن يقتلوا به، فيعوذوا بالله عياده، ويعتصموا بالتوكل عليه اعتصامه، وقال: ﴿مِنْ كُلِّ مُتَكَبِّرٍ﴾ لتشمل

(١) قال محمود: «كانوا إذا هم بقتله كفوه عنه بقولهم: ليس هذا ممن يخاف، وإنما هو ساخر لا يقاومه إلا مثله، وقتله بوقع الشبهة عند الناس أنك إنما قتلته خوفاً، وكان فرعون لعنه الله في ظاهر أمره - والله أعلم - عالماً أنه نبي خائفاً من قتله مع رغبته في ذلك لولا الجزع، وأراد أن يكتم خوفه من قتله بأن يقول لهم: ذروني أقتله؛ ليكفوه عنه فينسب الانكفاف عن قتله إليهم، لا إلى جزعه وخوفه. ويدل على خوفه منه لكونه نبياً قوله: (وليدع ربه) وهذا من تمويهاته المعروفة، قال أحمد: هو من جنس قوله: (إن هؤلاء لشردمة قليلون وإنهم لنا لغائظون وإنا لجميع حاذرون) فقد تقدم أن مراده بذلك أن يظهر لقومه قلة احتفاله بهم، ويوهمهم أن قتله لهم ليس خوفاً منهم، ولكن غيظاً عليهم، وكان من عادته الحذر والتحصن وحماية الذريعة في المحافظة على حوزة المملكة، لا أن ذلك خوف وهلع، ولقد كذب، إنما كان فواده مملوءاً رعباً.

(٢) قوله: «وقرئ: يظهر من أظهر» يفيد أن القراءة المشهورة: يظهر من ظهر، والفساد مرفوع. (ع).

استعاذته فرعون وغيره من الجبابة، وليكون على طريقة التعريض؛ فيكون أبلغ، وأراد بالتكبر: الاستكبار عن الإذعان للحق، وهو أقبح استكبار وأدله على دناءة صاحبه ومهانة نفسه، وعلى فرط ظلمه وعسفه، وقال: ﴿لَا يُؤْمِنُ بَيُّورَ الْحِسَابِ﴾ لأنه إذا اجتمع في الرجل التجبر والتكذيب بالجزاء وقلة المبالاة بالعاقبة، فقد استكمل أسباب القسوة والجرأة على الله وعباده، ولم يترك عظمة إلا ارتكبتها. و«عدت» ولذت أخوان. وقرئ: «عت»، بالإدغام.

﴿وَقَالَ رَجُلٌ مُؤْمِنٌ مِّنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَكْتُمُ إِيمَانَهُ أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَنْ يَقُولَ رَبِّيَ اللَّهُ وَقَدْ جَاءَكُمْ بِالْبَيِّنَاتِ مِنْ رَبِّكُمْ وَإِنْ يَكُ كَذِبًا فَعَلَيْهِ كَذِبُهُ وَإِنْ يَكُ صَادِقًا يُصِيبْكُمْ بَعْضُ الَّذِي يَعِدُكُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ كَذَّابٌ﴾ (٢٨)

﴿رَجُلٌ مُؤْمِنٌ﴾ وقرئ: «رجل» بسكون الجيم، كما يقال: عضد في عضد، وكان قبطيا ابن عم لفرعون، آمن بموسى سرا وقيل: كان إسرائيليا و﴿مِّنْ آلِ فِرْعَوْنَ﴾ صفة لرجل. أو صلة ليكنتم، أي: يكتُم إيمانه من آل فرعون، واسمه سمعان أو حبيب، وقيل: خربيل أو حزبييل، والظاهر أنه كان من آل فرعون فإن المؤمنين من بني إسرائيل لم يقتلوا ولم يعزوا. والدليل عليه قول فرعون: ﴿إِنَّمَا الَّذِينَ ءَامَنُوا مَعَ﴾ [غافر: ٢٥]. وقول المؤمن: ﴿فَمَنْ يَصُرُّنَا مِنْ بَاسِ اللَّهِ إِنْ جَاءَنَا﴾ [غافر: ٢٩] دليل ظاهر على أنه يتنصّح لقومه. ﴿أَنْ يَقُولَ﴾ لأن يقول، وهذا إنكار منه عظيم وتبكيك شديد، كأنه قال: أترتكبون الفعل الشنعاء التي هي قتل نفس محرمة، وما لكم علة قط في ارتكابها إلا كلمة الحق التي نطق بها وهي قوله: ﴿رَبِّيَ اللَّهُ﴾ مع أنه لم يحضر لتصحيح قوله بيته واحدة، ولكن بينات عدة من عند من نسب إليه الربوبية، وهو ربكم لا ربه وحده، وهو استدراج لهم إلى الاعتراف به، وليلين بذلك جماعهم ويكسر من سورتهم^(١)، ولك أن تقدر مضافاً محذوفاً، أي: وقت

(١) قال محمود: «الظاهر أن الرجل من آل فرعون، وقيل: إنه من بني إسرائيل. ومن آل فرعون: متعلق بيكنتم، تقديره: يكتُم إيمانه من آل فرعون، وهو بعيد؛ لأن بني إسرائيل كان إيمانهم ظاهراً فاشياً، ولقد استدرجهم هذا المؤمن في الإيمان باستشهاده على صدق موسى بإحضاره عليه السلام من عند من تنسب إليه الربوبية ببيانات عدة لا بيته واحدة، وأتى بها معرفة، معناه: البيئات العظيمة التي شهدتموها وعرفتموها على ذلك؛ ليلين بذلك جماعهم ويكسر من سورتهم... إلخ، قال أحمد: لقد أحسن الفهم والتفطن لأسرار هذا القول، ويناسب تقديم الكاذب على الصادق هنا قوله تعالى: (وشهد شاهد من أهلها إن كان قيمه قد من قبل فصدمت وهو من الكاذبين وإن كان قيمه قد من دبر فكذبت وهو من الصادقين) فقدم الشاهد أمانة صدقها على أمانة صدق يوسف، وإن كان الصادق وهو يوسف دونها؛ لرفع التهمة وإبعاد الظن؛ وإدلالاً بأن الحق معه، ولا يضره التأخير لهذه الفائدة. وقريب من هذا التصرف لإبعاد التهمة ما في قصة يوسف مع أخيه؛ إذ بدأ =

أن يقول. والمعنى: أنقتلونه ساعة سمعتم منه هذا القول من غير روية ولا فكر في أمره؟^(١). وقوله: ﴿يَالْبَيِّنَاتِ﴾ يريد: بالبينات العظيمة التي عهدتموها وشهدتموها، ثم أخذهم بالاحتجاج على طريقة التقسيم فقال: لا يخلو من أن يكون كاذباً أو صادقاً، ﴿وَإِنْ يَكُ كَذِبًا فَعَلَيْهِ كَذِبُهُ﴾ أي: يعود عليه كذبه ولا يتخطاه ضرره، ﴿وَإِنْ يَكُ صَادِقًا يُصِيبْكُمْ بَعْضٌ﴾ ما يعدكم إن تعرّضتم له. فإن قلت: لم قال: بعض ﴿الَّذِي يَعِدُكُمْ﴾ وهو نبي صادق، لا بد لما يعدهم أن يصيبهم كله لا بعضه؟ قلت: لأنه احتاج في مقابلة خصوم موسى ومناكره إلى أن يلاوصهم^(٢) ويداريهم، ويسلك معهم طريق الإنصاف في القول، ويأتيهم من وجهة المناصحة، فجاء بما علم أنه أقرب إلى تسليمهم لقوله، وأدخل في تصديقهم له وقبولهم منه، فقال: ﴿وَإِنْ يَكُ صَادِقًا يُصِيبْكُمْ بَعْضٌ الَّذِي يَعِدُكُمْ﴾ وهو كلام المنصف^(٣) في مقاله غير المشتط فيه؛ ليسمعوا منه ولا يردّوا عليه، وذلك أنه حين فرضه صادقاً فقد أثبت أنه صادق في جميع ما يعد، ولكنه أردفه ﴿يُصِيبْكُمْ بَعْضٌ الَّذِي يَعِدُكُمْ﴾ ليهضمه بعض حقه في ظاهر الكلام، فيريهم أنه ليس بكلام من أعطاه حقه وافيّاً، فضلاً أن يتعصب له، أو يرمى بالحصا من ورائه، وتقديم الكاذب على الصادق أيضاً من هذا القبيل، وكذلك قوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ كَذَّابٌ﴾. فإن قلت: فعن أبي عبيدة أنه فسر البعض بالكل، وأنشد بيت لبید [من الكامل]:

تَرَاكَ أَمَكِنَةً إِذَا لَمْ أَرْضَهَا أَوْ يَرْتَبِطُ بَغَضِ النَّفُوسِ حِمَامَهَا^(٤)

= بأوعيتهم قبل وعاء أخيه، حتى قيل: إنه لما انتهى إليه قال: اللهم ما سرق هذا ولا هو بوجه سارق، فاطمأنت أنفسهم وانزاحت التهمة عن يوسف أن يكون قصد ذلك، فقالوا: والله لنفتشته، فاستخرجها من وعائه.

(١) قال السمين الحلبي: رده الشيخ: بأن تقدير هذا الوقت لا يجوز إلا مع الوقت المُصَرَّح به تقول: جئتكَ صباح الديك أي: وقت صباحه، ولو قلت: أجيتك أن صاح الديك، أو أن يصيح، لم يصح، نص عليه النحويون. انتهى. الدر المصون.

(٢) قوله: «إلى أن يلاوصهم ويداريهم» في الصحاح: فلان يلاوص الشجر، أي: ينظر كيف يأتيها لقلعها. (ع).

(٣) وطريقة هذا اللون توحى بمقصود المتكلم وإن خالفت ظاهر العبارة، وقد أشار الزمخشري ومعه أبو السعود ونحوهم أن هذه الطريقة أدخل في النفس وإن كان معانداً وأجلب له وإن اشتط في إعراضه، ولهذا تكون غالباً في مقامات الحوار والجدل، وقد اتخذها النبيون والمرسلون في طريقة محاوراة الخصوم والمعادنين، وهذا ما تراه في قوله تعالى: ﴿وَأَنَا أَوْ يَاكُم لَعْلَى هُدًى أَوْ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ﴾ [سبأ: ٢٤].

وقد علق ابن المنير على هذا اللون بأنه «تفسير مهذب وافتنان مستعذب». «يراجع البلاغة القرآنية لأبي موسى ٣٨٢ وما بعدها.

(٤) تقدم.

قلت: إن صحت الرواية عنه، فقد حق فيه قول المازني في مسألة العلقي: كان أجفى من أن يفقه ما أقول له. ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ﴾ يحتمل أنه إن كان مسرفاً كذاباً خذله الله وأهلكه ولم يستقم له أمر، فيتخلصون منه، وأنه لو كان مسرفاً كذاباً لما هداه الله للنبوّة، ولما عضده بالبينات. وقيل: ما تولى أبو بكر من رسول الله ﷺ كان أشدّ من ذلك، طاف ﷺ بالبيت، فلقوه حين فرغ، فأخذوا بمجامع رداءه فقالوا له: أنت الذي تنهانا عما كان يعبد آبائنا، فقال: أنا ذاك، فقام أبو بكر الصديق رضي الله عنه فالتزمه من ورائه وقال: أنقتلون رجلاً أن يقول ربي الله، وقد جاءكم بالبينات من ربكم، رافعاً صوته بذلك، وعيناه تسفحان، حتى أرسلوه (١٣٥٦). وعن جعفر الصادق: أنّ مؤمن آل فرعون قال ذلك سرّاً، وأبو بكر قاله ظاهراً.

﴿يَقَوْمُ لَكُمْ الْمَلِكُ الْيَوْمَ ظَاهِرِينَ فِي الْأَرْضِ فَمَنْ يَضُرُّنَا مِنْ بَاسِ اللَّهِ إِنْ جَاءَنَا قَالَ
فِرْعَوْنُ مَا أُرِيكُمْ إِلَّا مَا أَرَى وَمَا أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ الرَّشَادِ﴾ (٢٩)

﴿ظَاهِرِينَ فِي الْأَرْضِ﴾ في أرض مصر عالين فيها على بني إسرائيل، يعني: أنّ لكم ملك مصر، وقد علوتم الناس، وقهرتموهم، فلا تفسدوا أمركم على أنفسكم، ولا تتعرضوا لبأس الله وعذابه، فإنه لا قبل لكم به إن جاءكم، ولا يمنعكم منه أحد. وقال: ﴿يَضُرُّنَا﴾ و﴿جاءنا﴾ لأنه منهم في القرابة، وليعلمهم بأنّ الذي ينصحهم ١٥٢/٢ ب به هو مساهم لهم فيه. ﴿مَا أُرِيكُمْ إِلَّا مَا أَرَى﴾ أي: ما أشير عليكم برأيي إلا بما أرى من قتله، يعني: لا أستصوب إلا قتله، وهذا الذي تقولونه غير صواب. ﴿وَمَا أَهْدِيكُمْ﴾ بهذا الرأي ﴿إِلَّا سَبِيلَ الرَّشَادِ﴾ يريد: سبيل الصواب والصلاح. أو ما أعلمكم إلا ما أعلم من الصواب، ولا أذكر منه شيئاً، ولا أسرّ عنكم خلاف ما أظهر، يعني: أنّ لسانه وقلبه متواطئان على ما يقول، وقد كذب؛ فقد كان مستشعراً للخوف الشديد من جهة موسى،

١٣٥٦ - أخرجه البخاري (٣٧١/٧)، كتاب: فضائل أصحاب النبي ﷺ، باب: قول النبي ﷺ: «لو كنت متخذاً خليلاً...» رقم (٣٦٧٨)، (٥٥٥/٧)، كتاب: مناقب الأنصار، باب: ما لقي النبي ﷺ - وأصحابه من المشركين بمكة، رقم (٣٨٥٦)، (٥١٨/٩)، كتاب: التفسير، باب: سورة المؤمن، رقم (٤٨١٥)، وأحمد (٢٠٤/٢)، (٢١٨)، والبيهقي في الدلائل (٢٧٤/٢ - ٢٧٦)، باب: ذكر ما لقي الرسول وأصحابه...، وابن حبان (٥٢٥/١٤ - ٥٢٧)، كتاب: التاريخ، باب: كتب النبي ﷺ، رقم (٦٥٦٧)، وذكره الهيثمي في المجمع (١٨/٦ - ١٩)، وقال: في الصحيح طرف منه ورواه أحمد، وقد صرح ابن إسحق بالسماع، وبقي رجاله رجال الصحيح. قال الحافظ ابن حجر: أخرجه النسائي من طريق هشام عن عروة عن أبيه عن عمرو بن العاص، وابن حبان من طريق يحيى بن عروة عن عروة عن عبد الله بن عمرو بن العاص أمّ منه. قلت: علقه البخاري نحوهما. انتهى.

ولكنه كان يتجلد، ولولا استشهاده لم يستشر أحداً ولم يقف الأمر على الإشارة. وقرئ: «الرشاد» فعال من رشد بالكسر، كعلام. أو من رشد بالفتح كعباد، وقيل: هو من أرشد كجبار من أجبر، وليس بذلك؛ لأنّ فعلاً من أفعل لم يجر إلا في عدّة أحرف، نحو: ذراك وساراً وقصار وحبّار، ولا يصحّ القياس على القليل. ويجوز أن يكون نسبة إلى الرشد، كعواج وبتات^(١)، غير منظور فيه إلى فعل.

﴿وَقَالَ الَّذِي ءَامَنَ يَقَوْمِ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ مِّثْلَ يَوْمِ الْأَحْزَابِ ﴿٢٥﴾ مِثْلَ دَابِ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَالَّذِينَ مِن بَعْدِهِمْ وَمَا اللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِلْعِبَادِ ﴿٢٦﴾﴾

﴿مِثْلَ يَوْمِ الْأَحْزَابِ﴾ مثل أيامهم؛ لأنه لما أضافه إلى الأحزاب وفسرهم بقوم نوح وعاد وثمود، ولم يلبس أنّ كلّ حزب منهم كان له يوم دمار، اقتصر على الواحد من الجمع؛ لأنّ المضاف إليه أغنى عن ذلك كقوله [من الوافر]:

كُلُوا فِي بَغْضِ بَطْنِكُمْ تَعِفُّوا^(٢)

وقال الزجاج: مثل يوم حزب حزب، ودأب هؤلاء: دأبهم في عملهم من الكفر والتكذيب وسائر المعاصي، وكون ذلك دأباً دائماً منهم لا يفترون عنه، ولا بدّ من حذف مضاف، يريد: مثل جزاء دأبهم. فإن قلت: بم انتصب ﴿مِثْلَ﴾ الثاني؟ قلت: بأنّه عطف بيان لمثل الأول؛ لأنّ آخر ما تناولته الإضافة قوم نوح، ولو قلت: أهلك الله الأحزاب: قوم نوح وعاد وثمود، لم يكن إلاّ عطف بيان لإضافة قوم إلى أعلام، فسرى ذلك الحكم إلى أول ما تناولته الإضافة ﴿وَمَا اللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِلْعِبَادِ﴾ يعني: أن تدميرهم كان عدلاً وقسطاً؛ لأنهم استوجبوه بأعمالهم، وهو أبلغ من قوله تعالى: ﴿وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ﴾ [فصلت: ٤٦] حيث جعل المنفي إرادة الظلم؛ لأنّ من كان عن إرادة الظلم بعيداً، كان عن الظلم

(١) قوله: «كعواج وبتات» أي: صاحب العاج، والعاج: عظم الفيل. والبتات: الذي يبيع البتوت، أو يعملها. والبت: الطيلسان من الخز، كذا في الصحاح. (ع).

(٢) كلوا في بعض بطنكم تعفوا فإن زمانكم زمن خميص أي كلوا في بعض بطونكم. وأفرد البطن لأمن اللبس، أي: لا تملئوها، فإن أطعمتوني عفتكم عن الطعام، وعف يعف - بكسر عين المضارع، من باب ضرب يضرب، ثم قال: فإن زمانكم، أي أمرتكم بذلك؛ لأن زمانكم مجذب. والخميص: الضامر البطن، فشبه الزمان المجذب بالرجل الجائع على طريق الكناية، ووصفه بالخميص تخييل لذلك.

ينظر: أسرار العربية ص ٢٢٣، وتخليص الشواهد ص ١٥٧، وخزانة الأدب ٥٣٧/٧، ٥٥٩، ٥٦٠، ٥٦٣، والدرر ١٥٢/١، وشرح أبيات سيبويه ٣٧٤/١، وشرح المفصل لابن يعيش ٨/٥، ٢١/٦، والكتاب ٢١٠/١، والمحاسب ٨٧/٢، والمقتضب ١٧٢/٢، وجمع الهوامع ٥٠/١.

أبعد. وحيث نكر الظلم، كأنه نفى أن يريد ظلماً ما لعباده^(١). ويجوز أن يكون معناه كمعنى قوله تعالى: ﴿وَلَا يَرْضَىٰ لِعِبَادِهِ الْكُفْرَ﴾ [الزمر: ٧] أي: لا يريد لهم أن يظلموا؛ يعني أنه دمرهم لأنهم كانوا ظالمين^(٢).

﴿وَيَقُولُ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ يَوْمَ النَّادِ﴾ (٣٧) ﴿يَوْمَ تُؤْلَوْنَ مَذْرِبِينَ مَا لَكُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ عَاصِرٍ وَمَنْ يُضِلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ﴾ (٣٨)

«التنادي» ما حكى الله تعالى في سورة الأعراف من قوله: ﴿وَنَادَىٰ أَصْحَابُ النَّارِ أَصْحَابَ الْجَنَّةِ أَتُوعَدُونَ﴾ [الأعراف: ٤٤] ﴿وَنَادَىٰ أَصْحَابُ النَّارِ أَصْحَابَ الْجَنَّةِ﴾ [الأعراف: ٥٠] ويجوز أن يكون تصايحهم بالويل والثبور. وقرئ بالتشديد، وهو أن يند بعضهم من بعض؛ كقوله تعالى: ﴿يَوْمَ يَرَىٰ الْمَرْءُ مِنْ أَخِي﴾ (٣٩) ﴿عَبَسَ﴾ [عبس: ٣٤] وعن الضحاك: إذا سمعوا زفير النار ندوا هرباً، فلا يأتون قطراً من الأقطار إلا وجدوا ملائكة صفوفاً، فبينما هم يموج بعضهم في بعض؛ إذ سمعوا منادياً: أقبلوا إلى الحساب. ﴿تُؤْلَوْنَ مَذْرِبِينَ﴾ عن قتادة: منصرفين عن موقف الحساب إلى النار. وعن مجاهد: فازين عن النار غير معجزين.

﴿وَلَقَدْ جَاءَكُمْ يُوسُفُ مِنْ قَبْلُ بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا زِلْتُمْ فِي شَكٍّ مِمَّا جَاءَكُمْ بِهِ حَتَّىٰ إِذَا هَلَكَ قُلْتُمْ لَن يَبْعَثَ اللَّهُ مِنْ بَعْدِهِ رَسُولًا كَذَلِكَ يُضِلُّ اللَّهُ مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ مُرْتَابٌ﴾ (٣٤) ﴿الَّذِينَ يُحَدِّثُونَ فِي آيَاتِ اللَّهِ بَغْيَ سُلْطَانٍ أَتَتْهُمْ كُفْرٌ مَقْتًا عِنْدَ اللَّهِ وَعِنْدَ الَّذِينَ ءَامَنُوا كَذَلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ قَلْبٍ مُتَكَبِّرٍ جَبَّارٍ﴾ (٣٥)

هو يوسف بن يعقوب عليهما السلام. وقيل: هو يوسف بن إبراهيم^(٣) بن يوسف بن يعقوب: أقام فيهم نبياً عشرين سنة. وقيل: إن فرعون موسى هو فرعون يوسف، عمر إلى زمنه، وقيل: هو فرعون آخر. وبخهم بأن يوسف أتاكم بالمعجزات فشككتكم فيها ولم تزالوا

(١) قوله: «كأنه نفى أن يريد ظلماً ما لعباده» هذا على مذهب المعتزلة من أنه تعالى لا يفعل الشر ولا يريده، وأن الإرادة بمعنى الرضا. وعند أهل السنة أنه تعالى يخلق الشر ويريده كالخير ولا يرضى الشر، فالرضا غير الإرادة عندهم، كما تقرر في التوحيد. (ع).

(٢) قال محمود: «يجوز أن يكون معناه معنى: (وما ربك بظلام للعبيد). وهذا أبلغ؛ لأنه إذا لم يرد الظلم كان عن فعله الظلم أبعد، وحيث نكر الظلم أيضاً، كأنه نفى أن يريد ظلماً ما لعباده. قال: ويجوز أن يكون معناه كمعنى قوله: (ولا يرضى لعباده الكفر) فيكون المعنى: أن الله لا يريد لعباده أن يظلموا؛ لأنه ذمهم على كونهم ظالمين» قال أحمد: هذا من الطراز الأول، وقد تقدم مذهب أهل السنة فيما يتعلق بإرادة الله تعالى خلافاً لهذا وأشياعه.

(٣) قوله: «وقيل: هو يوسف بن إبراهيم» عبارة النسفي: (ع).

شاكين كافرين. ﴿حَقَّ إِذَا هَلَكَ﴾ قبض ﴿قُلْتُمْ لَنْ يَبْعَثَ اللَّهُ مِنْ بَعْدِهِ رَسُولًا﴾ حكماً من عند أنفسكم من غير برهان وتقدمة عزم منكم على تكذيب الرسل، فإذا جاءكم رسول جحدتم وكذبتهم بناء على حكمكم الباطل الذي أسستموه، وليس قولهم: ﴿لَنْ يَبْعَثَ اللَّهُ مِنْ بَعْدِهِ رَسُولًا﴾ بتصديق لرسالة يوسف، وكيف وقد شكوا فيها وكفروا بها، وإنما هو تكذيب لرسالة من بعده مضموم إلى تكذيب رسالته. وقرئ: «ألن يبعث الله» على إدخال همزة الاستفهام على حرف النفي، كأن بعضهم يقرّر بعضاً بنفي البعث. ثم قال: ﴿كَذَلِكَ يُضِلُّ اللَّهُ﴾ أي مثل هذا الخذلان المبين^(١) يخذل الله كل مسرف في عصيانه مرتاب في دينه. ﴿الَّذِينَ يُجَادِلُونَ﴾ بدل من ﴿مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ﴾، فإن قلت: كيف جاز إبداله منه وهو جمع وذاك موحد؟ قلت: لأنه لا يريد مسرفاً واحداً، فكأنه قال: كل مسرف. فإن قلت: فما فاعل ﴿كَبُرَ﴾؟ قلت: ضمير ﴿مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ﴾. فإن قلت: أما قلت: هو جمع، ولهذا أبدلت منه الذين يجادلون؟ قلت: بلى هو جمع في المعنى. وأما ١٥٣/٢ أ اللفظ فموحد، فحمل البدل على معناه، والضمير الراجع إليه على لفظه، وليس ببدع^(٢) أن يحمل على اللفظ تارة وعلى المعنى أخرى، وله نظائر، ويجوز أن يرفع ﴿الذين يجادلون﴾ على الابتداء، ولا بد في هذا الوجه من حذف مضاف يرجع إليه الضمير في كبر، تقديره: جدال الذين يجادلون كبر مقتاً، ويحتمل أن يكون ﴿الَّذِينَ يُجَادِلُونَ﴾ مبتدأ؛ و﴿يَغَيِّرُ سُلْطَانٌ أَتْنَهُمْ﴾ خبراً^(٣)،

(١) قوله: «أي مثل هذا الخذلان المبين» المعتزلة يؤولون الإضلال بالخذلان والترك، بناء على مذهبهم: أن الله لا يخلق الشر. وأهل السنة يفسرونه يخلق الضلال في القلب، بناء على أنه تعالى يخلق الشر كالخير كما بين في التوحيد.(ع).

(٢) قال محمود: «الذين يجادلون» بدل من (من هو مسرف)؛ لأن المراد (كل مسرف). وجاز إبداله على معنى (من)، لا على لفظها. قال: فإن قلت: ما فاعل كبر؟ وأجاب بأنه ضمير (من هو مسرف)، فحمل البدل على المعنى، والضمير على اللفظ، وليس ببدع» اه كلامه. قال أحمد: فيما ذكره معاملة لفظ (من) بعد معاملة معناها، وهذا مما قدمت أن أهل العربية استغربونه، والأولى أن يجتنب في إعراب القرآن، فإن فيه إبهاماً بعد إيضاح، والمعهود في قراءة البلاغة عكسه، والصواب أن يجعل الضمير في قوله (كبر) راجعاً إلى مصدر الفعل المتقدم، وهو قوله: (يجادلون) تقديره: كبر جدالهم مقتاً، ويجعل (الذين) مبتدأ، على تأويل حذف المضاف، تقديره: جدال الذين يجادلون في آيات الله، والضمير في قوله (كبر مقتاً) عائد إلى الجدال المحذوف، والجملة مبتدأ وخبر. ومثله في حذف المصدر المضاف وبناء الكلام عليه قوله تعالى: (أجعلتم سقاية الحاج وعمارة المسجد الحرام كمن آمن بالله) على أحد تأويله، ومثله كثير. وفيه سوى ذلك من الوجوه السالمة عما يتطرق إلى الوجه المتقدم، فالوجه العدول عنه.

(٣) قال السمين الحلبي: ورده الشيخ بأن فيه تفكيك الكلام بعضه من بعض؛ لأن الظاهر تعلّق بغير سُلْطَانٍ يُجَادِلُونَ، ولا يُعْقَلُ جَعْلُهُ خَبَرًا لِلَّذِينَ؛ لأنه جارٌّ ومجرور، فيصير التقدير: الَّذِينَ يُجَادِلُونَ كَاتِبُونَ أَوْ مُسْتَقِرُّونَ بغير سُلْطَانٍ، أي في غير سُلْطَانٍ، لأنّ الباء إذ ذاك ظرفية خبر عن الجُثْبِ. انتهى. الدر المصون.

وفاعل كبر قوله: ﴿وَكَذَلِكَ﴾ أي كبر مقتاً مثل ذلك الجدل، و﴿يَطْبَعُ اللَّهُ﴾ كلام مستأنف، ومن قال: كبر مقتاً عند الله جدالهم، فقد حذف الفاعل، والفاعل لا يصح حذفه^(١). وفي ﴿كَبُرَ مَقْتًا﴾: ضرب من التعجب والاستعظام لجدالهم، والشهادة على خروجه من حد إشكاله من الكبائر. وقرئ: «سلطان» بضم اللام. وقرئ: «قلب» بالتونين، ووصف القلب بالتكبر والتعجب؛ لأنه مركزهما ومنبعهما، كما تقول: رأت العين، وسمعت الأذن. ونحوه قوله عز وجل: ﴿فَإِنَّهُ ءَاتِيٌمٌ قَلْبُهُ﴾ [البقرة: ٢٨٣] وإن كان الآثم هو الجملة. ويجوز أن يكون على حذف المضاف، أي: على كل ذي قلب متكبر، تجعل الصفة لصاحب القلب.

﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَهْمُنُ ابْنُ لِي صَرَحًا لَعَلِّي أَتْلُجُ الْأَسْبَابَ﴾ (٣٦) ﴿أَسْبَبَ السَّمَوَاتِ فَأَطَّلِعَ إِلَى إِلَهِ مُوسَى وَإِنِّي لَأَظُنُّهُ كَذِبًا وَكَذَلِكَ زَيْنٌ لِفِرْعَوْنَ سُوءَ عَمَلِهِ وَصَدَّ عَنِ السَّبِيلِ وَمَا كَيْدُ فِرْعَوْنَ إِلَّا فِي تَبَابٍ﴾ (٣٧)

قيل: الصرح: البناء الظاهر الذي لا يخفى على الناظر وإن بعد، اشتقوه من صرح الشيء إذا ظهر، و﴿أَسْبَبَ السَّمَوَاتِ﴾ طرقها وأبوابها وما يؤدي إليها، وكل ما أداك إلى شيء فهو سبب إليه، كالرشاء ونحوه، فإن قلت: ما فائدة هذا التكرير، ولو قيل: لعل أبلغ أسباب السموات لأجزأ؟ قلت: إذا أبهم الشيء ثم أوضح كان تفخيماً لشأنه، فلما أراد تفخيم ما أمل بلوغه من أسباب السموات أبهمها ثم أوضحها؛ ولأنه لما كان بلوغها أمراً عجبياً أراد أن يورده على نفس متشوفة إليه؛ ليعطيه السامع حقه من التعجب، فأبهمه ليشوف إليه نفس هامان، ثم أوضحه. وقرئ: «فأطلع» بالنصب^(٢) على جواب الترجي، تشبيهاً للترجي بالتمني. ومثل ذلك التزيين وذلك الصدّ ﴿زَيْنٌ لِفِرْعَوْنَ سُوءَ عَمَلِهِ وَصَدَّ عَنِ السَّبِيلِ﴾ والمزين: إما الشيطان بوسوسته، كقوله تعالى: ﴿وَزَيْنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ﴾ [النمل: ٣٤] أو الله تعالى على وجه التسبب؛ لأنه مكن^(٣) الشيطان وأمهله. ومثله: ﴿رَبَّنَا كُنْ أَعْمَالَهُمْ فَهُمْ يَعْمَهُونَ﴾ [النمل: ٤]. وقرئ: «وزين له سوء عمله»^(٤) على البناء للفاعل والفعل لله عز وجل، دلّ عليه قوله: ﴿إِلَّا إِلَهُ مُوسَى﴾ وصدّ،

(١) قال السمين الحلبي: القائل بذلك هو الحوفي لكنه لا يريد بذلك تفسير الإعراب إنما يريد به تفسير المعنى، وهو معنى ما قدّمته من أن الفاعل ضمير يعود على جدالهم المفهوم من فعله، فصرّح الحوفي بالأصل وهو الاسم الظاهر ومراده ضمير يعود عليه. انتهى. الدرر المصون.

(٢) وقرئ: «فأطلع» بالنصب؛ يفيد أن القراءة المشهورة بالرفع على العطف. (ع).

(٣) قوله: «على وجه التسبب لأنه مكن» أول بهذا؛ لأنه تعالى لا يخلق الشر عند المعتزلة. أما عند أهل السنة فيخلقونه كالخير فلا حاجة إلى هذا التأويل، وتبقى الآية على ظاهرها. (ع).

(٤) قوله: «وقرئ وزين له سوء عمله» أي بدل قوله تعالى: (وكذلك زين لفرعون سوء عمله). (ع).

بفتح الصاد وضمها وكسرها، على نقل حركة العين إلى الفاء، كما قيل: قيل. والتباب: الخسران والهلاك. وصدّ: مصدر معطوف على سوء عمله وصدّوا هو وقومه.

﴿وَقَالَ الَّذِي آمَرَ يَتَقَوَّمُوا أَتَتَّبِعُونَ أَمْرَكُمْ سَبِيلَ الرِّشَادِ ﴿٣٨﴾ يَتَقَوَّمُوا إِنَّمَا هَذِهِ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا مَتَّعٌ وَإِنَّ الْآخِرَةَ هِيَ دَارُ الْقَرَارِ ﴿٣٩﴾﴾

قال: ﴿أَمْرَكُمْ سَبِيلَ الرِّشَادِ﴾ فأجمل لهم، ثم فسر فافتتح بدم الدنيا وتصغير شأنها؛ لأن الإخلاق إليها هو أصل الشرّ كله، ومنه يتشعب جميع ما يؤدي إلى سخط الله ويجلب الشقاوة في العاقبة. وثنى بتعظيم الآخرة والاطلاع على حقيقتها، وأنها هي الوطن والمستقر. وذكر الأعمال سيئها وحسنها وعاقبة كل منهما؛ ليشبط عما يتلف وينشط لما يزلف، ثم وازن بين الدعوتين: دعوته إلى دين الله الذي ثمرته النجاة، ودعوتهم إلى اتخاذ الأنداد الذي عاقبته النار، وحذر وأنذر، واجتهد في ذلك واحتشد، لا جرم أن الله استثناء من آل فرعون، وجعله حجة عليهم وعبرة للمعتبرين، وهو قوله تعالى: ﴿فَوَقَدَهُ اللَّهُ سَيِّئَاتٍ مَا مَكُرُوا وَكَافَ بِآلِ فِرْعَوْنَ سُوءُ الْعَذَابِ ﴿٤٥﴾﴾ وفي هذا أيضاً دليل بين على أن الرجل كان من آل فرعون. والرشاد نقيض الغي. وفيه تعريض شبيه بالتصريح أن ما عليه فرعون وقومه هو سبيل الغي.

﴿مَنْ عَمِلَ سَيِّئَةً فَلَا يُجْزَى إِلَّا مِثْلَهَا وَمَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أَنفٍ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَٰئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ يُرْزَقُونَ فِيهَا بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٤٦﴾﴾

﴿فَلَا يُجْزَى إِلَّا مِثْلَهَا﴾ لأن الزيادة على مقدار جزاء السيئة قبيحة؛ لأنها ظلم. وأما الزيادة على مقدار جزاء الحسنة فحسنة؛ لأنها فضل. قرئ: «يَدْخُلُونَ» و«يُذْخَلُونَ». ﴿بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ واقع في مقابلة إلا مثلها، يعني: أن جزاء السيئة له حساب وتقدير؛ لئلا يزيد على الاستحقاق، فأما جزاء العمل الصالح فبغير تقدير وحساب، بل ما شئت من الزيادة على الحق والكثرة والسعة.

﴿وَيَتَقَوَّمُوا مَا لِي أَدْعُوكُمْ إِلَى النَّجْوَى وَتَدْعُونَنِي إِلَى النَّارِ ﴿٤١﴾ تَدْعُونَنِي لِأَكْفُرَ بِاللَّهِ وَأُشْرِكَ بِهِ مَا لَيْسَ لِي بِهِ عِلْمٌ وَأَنَا أَدْعُوكُمْ إِلَى الْعَزِيزِ الْفَقِيرِ ﴿٤٢﴾﴾

فإن قلت: لم كرر نداء قومه؟ ولم جاء بالواو في النداء الثالث دون الثاني؟ قلت: أما تكرير النداء ففيه زيادة تنبيه لهم وإيقاظ عن سنة الغفلة. وفيه: أنهم قومه وعشيرته وهم فيما يوبقهم، وهو يعلم وجه خلاصهم، ونصيحتهم عليه واجبة، فهو يتحزن لهم ويتلطف

بهم، ويستدعي بذلك ١٥٣/٢ أن لا يهتموه، فإن سرورهم سروره، وغمهم غمه، وينزلوا على تنصيحهم لهم، كما كرر إبراهيم عليه السلام في نصيحة أبيه: ﴿يَكَايُنِي﴾. وأما المجيء بالواو العاطفة، فلأن الثاني داخل على كلام هو بيان للمجمل وتفسير له، فأعطى الداخل عليه حكمه في امتناع دخول الواو، وأما الثالث: فداخل على كلام ليس بتلك المثابة. يقال: دعاه إلى كذا ودعاه له، كما تقول: هذه إلى الطريق وهذه له ﴿مَا لَيْسَ لِي بِهِ عِلْمٌ﴾ أي: بربوبيته، والمراد بنفي العلم: نفي المعلوم، كأنه قال: وأشرك به ما ليس بإله، وما ليس بإله كيف يصح أن يعلم إلها؟^(١).

﴿لَا جُورَ أَنَّمَا تَدْعُونَنِي إِلَيْهِ لَيْسَ لَكَ دَعْوَةٌ فِي الدُّنْيَا وَلَا فِي الْآخِرَةِ وَأَنْ مَرَدَّنَا إِلَى اللَّهِ وَأَنَّ الْمُسْرِفِينَ هُمْ أَصْحَابُ النَّارِ﴾ ﴿٢٤﴾ فَسَتَذْكُرُونَ مَا أَقُولُ لَكُمْ وَأَفُوضُ أَمْرِي إِلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ﴾ ﴿٢٥﴾

﴿لَا جُورَ﴾ سياقه على مذهب البصريين: أن يجعل (لا) ردًا لما دعاه إليه قومه. وجرم: فعل بمعنى حق، وأن مع ما في حيزه فاعله، أي: حق ووجب بطلان دعوته. أو بمعنى: كسب، من قوله تعالى: ﴿وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَاؤُ قَوْمٍ أَنْ صَدُّوكُمْ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ أَنْ تَعْتَدُوا﴾ [المائدة: ٢] أي: كسب ذلك الدعاء إليه بطلان دعوته، على معنى أنه ما حصل من ذلك إلا ظهور بطلان دعوته. ويجوز أن يقال: أن لا جرم، نظير: لا بد، فعل من ا لجرم، وهو القطع، كما أن بدأ فعل من التبديد وهو التفريق، فكما أن معنى: لا بد أنك تفعل كذا، بمعنى: لا بد لك من فعله، فكذلك لا جرم أن لهم النار، أي: لا قطع لذلك، بمعنى أنهم أبدًا يستحقون النار لا انقطاع لاستحقاقهم ولا قطع؛ لبطلان دعوة الأصنام، أي: لا تزال باطلة لا ينقطع ذلك فينقلب حقًا. وروي عن العرب: لا جرم أنه يفعل بضم الجيم وسكون الراء، بزنة بد، وفعل وفعل: أخوان. كرشد ورشد، وعدم وعدم. ﴿لَيْسَ لَكَ دَعْوَةٌ﴾ معناه: أن ما تدعونني إليه ليس له دعوة إلى نفسه قط، أي: من حق المعبود بالحق أن يدعو العباد إلى طاعته، ثم يدعو العباد إليها إظهاراً لدعوة ربهم وما تدعون إليه وإلى عبادته، لا يدعو هو إلى ذلك ولا يدعي الربوبية، ولو كان حيواناً ناطقاً لضج من دعائكم. وقوله: ﴿فِي الدُّنْيَا وَلَا فِي الْآخِرَةِ﴾ يعني أنه في الدنيا جماد لا يستطيع شيئاً من دعاء وغيره، وفي الآخرة: إذا أنشأه الله حيواناً، تبرأ من الدعاء إليه ومن عبدته.

(١) قال محمود: «المراد بنفي العلم نفي المعلوم، كأنه قال: وأشرك به ما ليس بإله، وما ليس بإله كيف يصح أن يعلم إلها؟» قال أحمد: وهذا من قبيل «على لا حب لا يهتدي بمناره» أي: لا منار له فيهتدي به، وكلام الزمخشري هنا أشد من كلامه على قوله تعالى حكاية عن فرعون: (ما علمت لكم من إله غيري).

وقيل: معناه ليس له استجابة دعوة تنفع في الدنيا ولا في الآخرة. أو دعوة مستجابة، جعلت الدعوة التي لا استجابة لها ولا منفعة فيها كلا دعوة. أو سميت الاستجابة باسم الدعوة، كما سمي الفعل المجازي عليه باسم الجزاء في قولهم: كما تدين تدان. قال الله تعالى: ﴿لَهُ دَعْوَةُ الْحَقِّ وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ لَا يَسْتَجِيبُونَ لَهُمْ بِشَيْءٍ﴾ [الرعد: ١٤]. ﴿الْمُسْرِفِينَ﴾ عن قتادة: المشركين. وعن مجاهد: السفاكين للدماء بغير حلها. وقيل: الذين غلب شرهم خيرهم هم المسرفون. وقرئ: «فستذكرون». أي: فسيذكر بعضكم بعضاً. ﴿وَأَفْوِضْ أَمْرِي إِلَى اللَّهِ﴾ لأنهم توعدوه.

﴿فَوَقَدَهُ اللَّهُ سَيِّئَاتٍ مَا مَكَرُوا وَحَاقَ بِإِثَالِ فِرْعَوْنَ سُوءُ الْعَذَابِ ﴿٤٥﴾ النَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ أَدْخِلُوا آلَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ الْعَذَابِ ﴿٤٦﴾﴾

﴿فَوَقَدَهُ اللَّهُ سَيِّئَاتٍ مَا مَكَرُوا﴾ شذائد مكرهم وما هموا به من إلحاق أنواع العذاب بمن خالفهم. وقيل: نجا مع موسى، ﴿وَحَاقَ بِإِثَالِ فِرْعَوْنَ﴾ ما هموا به من تعذيب المسلمين، ورجع عليهم كيدهم. ﴿النَّارُ﴾ بدل من سوء العذاب. أو خبر مبتدأ محذوف، كأن قائلًا قال: ما سوء العذاب؟ ف قيل: هو النار. أو مبتدأ خبره ﴿يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا﴾ وفي هذا الوجه تعظيم للنار وتهويل من عذابها، وعرضهم عليها: إحراقهم بها. يقال: عرض الإمام الأسارى على السيف إذا قتلهم به، وقرئ: «النار» بالنصب، وهي تعضد الوجه الأخير. وتقديره: يدخلون النار يعرضون عليها، ويجوز أن ينتصب على الاختصاص. ﴿غُدُوًّا وَعَشِيًّا﴾ في هذين الوقتين يعذبون بالنار، وفيما بين ذلك الله أعلم بحالهم، فأما أن يعذبوا بجنس آخر من العذاب، أو بنفس عنهم. ويجوز أن يكون ﴿غُدُوًّا وَعَشِيًّا﴾: عبارة عن الدوام، هذا ما دامت الدنيا، فإذا قامت الساعة قيل لهم: اذخلوا^(١) يا ﴿آلَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ﴾ عذاب جهنم. وقرئ: ﴿أَدْخِلُوا آلَ فِرْعَوْنَ﴾ أي: يقال لخزنة جهنم: أَدْخِلُوهُمْ. فإن قلت: قوله: ﴿وَحَاقَ بِإِثَالِ فِرْعَوْنَ سُوءُ الْعَذَابِ﴾ معناه: أنه رجع عليهم ما هموا به من المكر بالمسلمين، كقول العرب: من حفر لأخيه جباً وقع فيه منكباً، فإذا فسر سوء العذاب بنار جهنم: لم يكن مكرهم راجعاً عليهم؛ لأنهم لا يعذبون بجهنم. قلت: يجوز أن يهيم الإنسان بأن يغرق قوماً فيحرق بالنار، ويسمى ذلك حيقاً؛ لأنه همّ بسوء، فأصابه ما يقع عليه اسم السوء. ولا يشترط في الحيق أن يكون الحائق ذلك السوء بعينه، ويجوز أن يهيم فرعون - لما سمع إنذار المسلمين بالنار، وقول المؤمن: ﴿وَأَنْتَ الْمُسْرِفِينَ هُمْ أَصْحَابُ النَّارِ﴾ [غافر: ٤٣] - فيفعل نحو ما فعل نمرود ويعذبهم بالنار، فحاق به مثل ما أضمره وهمّ بفعله. ويستدل ١٥٤/٢ بهذه الآية على إثبات عذاب القبر.

(١) وهي قراءة من القراءات.

﴿وَإِذْ يَتَحَاجُّونَ فِي النَّارِ فَيَقُولُ الضُّعَفَاءُ لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا فَهَلْ أَنْتُمْ مُغْنُونَ عَنْناَصِيبًا مِّنَ النَّارِ﴾ (٤٧)

واذكر وقت يتحاجون ﴿تَبَعًا﴾ تبعاً، كخدم في جمع خادم. أو ذوي تبع، أي: أتباع، أو وصفاً بالمصدر.

﴿قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا كُلٌّ فِيهَا إِنَّكَ اللَّهُ قَدْ حَكَمَ بَيْنَ الْعِبَادِ﴾ (٤٨)

وقرى: «كلأ» على التأكيد لاسم إن، وهو معرفة، والتنوين عوض من المضاف إليه، يريد: إنا كلنا، أو كلنا فيها^(١). فإن قلت: هل يجوز أن يكون «كلأ» حالاً قد عمل (فيها) فيها؟ قلت: لا لأن الظرف لا يعمل في الحال متقدمة كما يعمل في الظرف متقدماً تقول: كل يوم لك ثوب، ولا تقول: قائماً في الدار زيد. ﴿قَدْ حَكَمَ بَيْنَ الْعِبَادِ﴾ قضى بينهم وفصل بأن أدخل أهل الجنة الجنة وأهل النار النار.

﴿وَقَالَ الَّذِينَ فِي النَّارِ لِخَزَنَةِ جَهَنَّمَ ادْعُوا رَبَّكُمْ يُخَفِّفْ عَنَّا يَوْمًا مِّنَ الْعَذَابِ﴾ (٤٩) ﴿قَالُوا أَوَلَمْ نَكُ تَأْتِيكُمْ رُسُلُكُمْ بِالْبَيِّنَاتِ قَالُوا بَلَى قَالُوا فَادْعُوا وَمَا دُعَاتُ الْكَافِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَالٍ﴾ (٥٠)

﴿لِخَزَنَةِ جَهَنَّمَ﴾ للقوم بتعذيب أهلها. فإن قلت: هلا قيل: الذين في النار لخزنتها؟ قلت: لأن في ذكر جهنم تهويلاً وتفظيلاً، ويحتمل أن جهنم هي أبعد النار قعراً، من قولهم: بئر جهنم بعيدة القعر^(٢)، وقولهم في النابغة: جهنم، تسمية بها، لزعمهم أنه يلقي الشعر على لسان المنتسب إليه، فهو بعيد الغور في علمه بالشعر^(٣)، كما قال أبو نواس في خلف الأحمر [من الرجز]:

فَلَيَنْدَمَ مِنَ الْعِيَالِيمِ الْخُسُفُ^(٤)

(١) قال السمين الحلبي: قلت: وليس هذا مذهباً للزمخشري وحده بل هو منقول عن الكوفيين أيضاً. انتهى. الدر المصون.

(٢) قوله: «بئر جهنم بعيدة القعر... إلخ» في الصحاح: بكسر الجيم والهاء. (ع).

(٣) قال محمود: «فإن قلت: فهلا قيل: لخزنتها، وأجاب أن في ذكر جهنم تهويلاً وتفظيلاً، ويحتمل أن جهنم هي أبعد النار قعراً من قولهم: بئر جهنم، أي: بعيدة القعر، وكان النابغة يسمي الجهنم لبعد غوره في الشعر» قال أحمد: الأول أظهر، والتخمين فيه من وجهين، أحدهما: وضع الظاهر موضع المضمّر، وهو الذي أشار إليه، والثاني: ذكره وهو شيء واحد بظاهر غير الأول أفضع منه؛ لأن جهنم أفضع من النار؛ إذ النار مطلقة وجهنم أشدها.

(٤) أودى جميع العلم مذ أودى خلف من لا يعد العلم إلا ما عرف

رواية لا يجتنى من الصحف قليدّم من العيالييم الخسف

وفيهما أعتى الكفار وأطغاهم، فلعل الملائكة الموكلين بعذاب أولئك أجوب دعوة لزيادة قربهم من الله تعالى؛ فلماذا تعمدهم أهل النار بطلب الدعوة منهم. ﴿أَوَلَمْ تَكُنْ تَأْتِيكُمْ﴾ إلزام للحجة وتوبيخ، وأنهم خلفوا وراءهم أوقات الدعاء والتضرع، وعطلوا الأسباب التي يستجيب الله لها الدعوات. ﴿قَالُوا فَادْعُوا﴾ أنتم، فإننا لا نجترئ على ذلك ولا نشفع إلا بشرطين: كون المشفوع له غير ظالم، والإذن في الشفاعة مع مراعاة وقتها، وذلك قبل الحكم الفاصل بين الفريقين، وليس قولهم ﴿فَادْعُوا﴾ لرجاء المنفعة، ولكن للدلالة على الخيبة؛ فإن الملك المقرب إذا لم يسمع دعاؤه، فكيف يسمع دعاء الكافر.

﴿إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ ءَامَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهَادُ ٥١﴾ يَوْمَ لَا يَنْفَعُ الظَّالِمِينَ مَعَذِرَتُهُمْ وَلَهُمُ اللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوءُ الدَّارِ ٥٢﴾

﴿فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهَادُ﴾ أي: في الدنيا والآخرة، يعني: أنه يغلبهم في الدارين جميعاً بالحجة والظفر على مخالفيتهم، وإن غلبوا في الدنيا في بعض الأحيان امتحاناً من الله، فالعاقبة لهم، ويتيح الله من يقتص^(١) من أعدائهم ولو بعد حين. والأشهاد: جمع شاهد، كصاحب وأصحاب، يريد: الحفظة من الملائكة والأنبياء والمؤمنين من أمة محمد ﷺ، ﴿لَتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ﴾ [البقرة: ١٤٣]. واليوم الثاني بدل من الأول، يحتمل أنهم يعتذرون بمعذرة ولكنها لا تنفع لأنها باطلة، وأنهم لو جاءوا بمعذرة لم تكن مقبولة^(٢) لقوله تعالى: ﴿وَلَا يُوَدِّنُ لَهُمْ فَيَعْتَذِرُونَ ٣٦﴾ [المرسلات: ٣٦]،

= لأبي نواس يرثى خلف الأحمر بن أحمد. وأودى هلك ومن لا يعد العلم صفة خلف، أي: لا يعتبر من العلم إلا بما عرفه حق اليقين وتلقاه بالتلقين. أو عرفه بالاستنباط من قواعد السابقين، فهو رواية، أي كثير الرواية لا يأخذ من الكتب، شبهها بالروضة المثمرة على طريق المكنية، والاجتناء تخييل. والقليل: البئر الغزيرة الماء. والعيلم: الحفرة الكثيرة الماء. والخسف: البعيدة الغور العميقة، شبهه بذلك تشبيهاً بليغاً؛ لكثرة علمه ومعرفته للمعاني البعيدة الخفية. ينظر: ديوانه ١٤١/٢، وتاج العروس: (خسف)، (علم)، ولسان العرب: (علم)، ومقاييس اللغة: ١٨١/٢.

(١) قوله: «من يقتص» أي: يقدر. (ع).

(٢) قال محمود: «يحتمل أنهم يعتذرون بمعذرة لكنها لا تنفعهم؛ لأنها باطلة. ويحتمل أنهم لا يعتذرون، ولو جاءوا بمعذرة لم تكن مقبولة» قال أحمد: «هما الاحتمالان في قوله تعالى: (ولا شفيع يطاع) ولكن بين الموضوعين فرقاً يصير أحدهما معه عكس الآخر؛ وذلك أنه هنا على تقدير أن يكون المراد أنهم لا معذرة لهم البتة، يكون قد نفى صفة المعذرة وهي المنفعة التي لها تراد المعذرة، قطعاً لرجائهم كي لا يعتذروا البتة، كأنه قيل: إذا لم يحصل ثمرة المعذرة فكيف يقع ما لا ثمرة له، وفي الآية المتقدمة جعل نفي الموصوف بتا لنفي الصفة؛ ولهذا أولى النفي في هذه الآية الفعل، وفي المتقدمة أولى النفي الذات المنسوب إليها الفعل.

﴿وَلَهُمُ اللَّعْنَةُ﴾ البعد من رحمة الله . ﴿وَلَهُمْ سُوءُ الدَّارِ﴾ أي : سوء دار الآخرة ، وهو عذابها . وقرئ : «تقوم» ، و «لا تنفع» ، بالتاء والياء .

﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى الْهُدَى وَأَوْرَثْنَا بَنِي إِسْرَءِيلَ الْكِتَابَ ﴿٥٣﴾ هُدًى وَذِكْرَى لِلْأُولَى
الْأَلْبَابِ ﴿٥٤﴾﴾

يريد بالهدى : جميع ما آتاه في باب الدين من المعجزات والتوراة والشرائع .
﴿وَأَوْرَثْنَا﴾ وتركنا على بني إسرائيل من بعده ﴿الْكِتَابِ﴾ أي : التوراة ﴿هُدًى وَذِكْرَى﴾
إرشاداً وتذكرة ، وانتصابهما على المفعول له أو على الحال . وأولوا الألباب : المؤمنون به
العاملون بما فيه .

﴿فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَاسْتَغْفِرْ لِذَنْبِكَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ بِالْعِشِيِّ
وَالْإِكْبَرِ ﴿٥٥﴾﴾

﴿فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ﴾ يعني أن نصرة الرسل في ضمان الله ، وضمان الله لا
يخلف ، واستشهد بموسى وما آتاه من أسباب الهدى والنصرة على فرعون وجنوده ، وإبقاء
آثار هداة في بني إسرائيل ، والله ناصر كما نصرهم ، ومظهرك على الدين كله ، ومبلغ
ملك أمتك مشارق الأرض ومغاربها ، فاصبر على ما يجزئك قومك من الغصص ؛ فإن
العاقبة لك ، وما سبق به وعدي من نصرتك وإعلاء كلمتك حق ، وأقبل على التقوى
واستدرك الفرطات بالاستغفار ، ودم على عبادة ربك والثناء عليه ﴿يَا عِشِّي وَيَبْكِرِ﴾
وقيل : هما صلاتا العصر والفجر .

﴿إِنَّ الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي ءَايَاتِ اللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَانٍ أَتَتْهُمْ إِنْ فِي صُدُورِهِمْ إِلَّا كِبْرٌ
مَّا هُمْ بِسَلْفِيَةٍ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ ﴿٥٦﴾﴾

﴿إِنْ فِي صُدُورِهِمْ إِلَّا كِبْرٌ﴾ إلا تكبر وتعظم ، وهو إرادة التقدّم والرياسة ، وأن لا
يكون أحد فوقهم ؛ ولذلك عادوك ودفعوا آياتك خيفة أن تتقدّمهم ويكونوا تحت يدك
وأمرك ونهيك ؛ لأن النبوة تحتها كل ملك ورياسة . أو إرادة أن تكون لهم النبوة دونك
حسداً وبغياً . ويدلّ عليه قوله تعالى : ﴿لَوْ كَانَ خِزْءًا مَّا سَبَقُونَا إِلَيْهِ﴾ [الأحقاف : ١١] أو إرادة
دفع الآيات بالجدال : ﴿مَّا هُمْ بِسَلْفِيَةٍ﴾ أي : ببالغي موجب الكبر ومقتضيه ، وهو متعلق
إرادتهم من الرياسة أو النبوة أو دفع الآيات . وقيل : المجادلون هم ١٥٤/٢ ب اليهود ،
وكانوا يقولون : يخرج صاحبنا المسيح ابن داود ، يريدون الدجال ، ويبلغ سلطانه البر

والبحر، وتسير معه الأنهار، وهو آية من آيات الله فيرجع إلينا الملك، فسمى الله تمنيههم ذلك كبيراً، ونفى أن يبلغوا متمناها. ﴿فَأَسْتَعِذُّ بِاللَّهِ﴾ فالتجىء إليه من كيد من يحسدك ويبغي عليك ﴿إِنَّهُ هُوَ السَّكِينُ﴾ لما تقول ويقولون ﴿الْبَصِيرُ﴾ بما تعمل ويعملون، فهو ناصرك عليهم وعاصمك من شرهم.

﴿لَخَلْقُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ (٥٧)

فإن قلت: كيف اتصل قوله: ﴿لَخَلْقُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ بما قبله؟ قلت: إن مجادلتهم في آيات الله كانت مشتملة على إنكار البعث، وهو أصل المجادلة ومدارها، فحججوا بخلق السموات والأرض لأنهم كانوا مقرين بأن الله خالقها وبأنها خلق عظيم لا يقادر قدره، وخلق الناس بالقياس إليه شيء قليل مهين، فمن قدر على خلقها مع عظمها كان على خلق الإنسان مع مهانتة أقدر، وهو أبلغ من الاستشهاد بخلق مثله^(١)، ﴿لَا يَعْلَمُونَ﴾ لأنهم لا ينظرون ولا يتأملون لغلبة الغفلة عليهم واتباعهم أهواءهم.

﴿وَمَا يَسْتَوِي الْأَعْمَى وَالْبَصِيرُ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَلَا الْمُسِيءُ قَلِيلًا مَّا تَتَذَكَّرُونَ﴾ (٥٨)

ضرب الأعمى والبصير مثلاً للمحسن والمسيء. وقرئ: «يتذكرون» بالياء والتاء، والتاء أعم.

(١) قال محمود: «فإن قلت: كيف اتصل قوله (لخلق السموات والأرض) بما قبله؟ وأجاب بأن مجادلتهم في آيات الله كانت مشتملة على إنكار البعث، وهو أصل المجادلة ومدارها، فحججوا بخلق السموات والأرض لأنهم كانوا مقرين بأن الله خالقها، وبأنها خلق عظيم، فخلق الناس بالقياس إليه شيء قليل مهين، فمن قدر على خلقها مع عظمها كان على الإنسان الضعيف أقدر، وهو أبلغ من الاستشهاد بخلق مثله، قال أحمد: الأولوية في هذا الاستشهاد ثابتة بدرجتين، أحدهما ما ذكره من أن القادر على العظيم هو على الحقير أقدر. الثانية: أن مجادلتهم كانت في البعث وهو الإعادة ولا شك أن الابتداء أعظم وأبهر من الإعادة، فإذا كان ابتداء خلق العظيم يعني السموات والأرض داخلاً تحت القدرة فابتداء خلق الحقير: يعني الناس أدخل تحتها، وإعادته أدخل من ابتدائه، فهو أولى بأن يكون مقدوراً عليه مما اعترفوا به من خلق السموات والأرض بدرجتين، وإلى هذا الترتيب وقعت الإشارة بقوله تعالى في: (ألم غلبت الروم): (ومن آياته أن تقوم السماء والأرض بأمره ثم إذا دعاكم دعوة من الأرض إذا أنتم تخرجون) فقرر أن قيام السماء والأرض هو بأمره، أي: خلقها من آياته، فكيف بما هو أخط من قيامها بدرجتين وهو إعادة البشر أهون عليه من الابتداء ليتحقق الدرجتان المذكورتان، فقال تعالى: (وهو الذي يبدأ الخلق ثم يعيده وهو أهون عليه)؛ وإذا تأملت الذي ذكرته منسوباً لما ذكره الزمخشري، علمت أن ما ذكره هو لباب المراد، فجدد عهداً به إن لم تعلم ذلك.

﴿إِنَّ السَّاعَةَ لَآتِيَةٌ لَا رَيْبَ فِيهَا وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ (٥٩)

﴿لَا رَيْبَ فِيهَا﴾ لا بد من مجيئها ولا محالة، وليس بمرتأب فيها؛ لأنه لا بد من جزاء. ﴿لَا يُؤْمِنُونَ﴾ لا يصدقون بها.

﴿وَقَالَ رَبُّكُمْ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ

دَاخِرِينَ﴾ (٦٠)

﴿ادْعُونِي﴾ اعبدونني، والدعاء بمعنى العبادة كثير في القرآن، ويدل عليه قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي﴾ والاستجابة: الإجابة؛ وفي تفسير مجاهد: اعبدونني أثبكم. وعن الحسن - وقد سئل عنها -: اعملوا وأبشروا؛ فإنه حق على الله أن يستجيب للذين آمنوا وعملوا الصالحات ويزيدهم من فضله. وعن الثوري أنه قيل له: ادع الله، فقال: إن ترك الذنوب هو الدعاء. وفي الحديث: «إذا شغل عبدي طاعتي عن الدعاء، أعطيته أفضل ما أعطي السائلين» (١٣٥٧) وروى النعمان بن بشير رضي الله عنه، عن

١٣٥٧ - قال الزيلعي في تخريج أحاديث الكشاف (٣/ ٢٢٠): غريب وقد ورد الحديث بلفظ «من شغله ذكرني عن مسألتي أعطيته أفضل ما أعطي السائلين». وإليك تخريجه.

أخرجه الترمذي (١٨٤/٥) كتاب فضائل القرآن: باب (٢٥) حديث (٢٩٢٦)، والدارمي (٤٤١/٢) كتاب فضائل القرآن: باب فضل كلام الله على سائر الكلام، وابن نصر في «قيام الليل» (ص ٧١)، والعقيلي في «الضعفاء» (٤٩/٤) وأبو نعيم في «الحلية» (١٠٦/٥) والبيهقي في «الآسماء والصفات» (ص ٢٣٨) كلهم من طريق محمد بن الحسن بن أبي يزيد الهمداني عن عمرو بن قيس عن عطية عن أبي سعيد الخدري به مرفوعاً وقال الترمذي: حديث حسن غريب. والحديث أعله العقيلي في «الضعفاء بمحمد بن الحسن وقال لا يتابع عليه».

وقال ابن أبي حاتم في «العلل» (٨٢/٢) رقم (١٧٣٨): سألت أبي عن حديث رواه محمد بن الحسن بن أبي يزيد الهمداني عن عمرو بن قيس عن عطية العوفي عن أبي سعيد الخدري عن النبي ﷺ قال الله عز وجل: من شغله القرآن عن دعائي ومسألتي أعطيته أفضل ثواب السائلين قال أبي هذا حديث منكر ومحمد بن الحسن ليس بالقوي أ. هـ فأعل العقيلي وأبو حاتم هذا الحديث بمحمد بن الحسن قلت: قال البيهقي: تابعه الحكم بن بشير ومحمد بن مروان عن عمرو بن قيس لتنحصر علة الحديث في ضعف وتدليس عطية العوفي.

وللحديث شاهد من حديث عمر بن الخطاب أخرجه البخاري في «خلق أفعال العباد» (ص ٩٣) والبيهقي في «شعب الإيمان» (٤١٣/١) رقم (٥٧٢) كلاهما من طريق صفوان بن أبي الصهباء عن بكير بن عتيق عن سالم بن عبد الله بن عمر عن أبيه عن جده مرفوعاً به ومن طريق صفوان أورده ابن الجوزي في «الموضوعات» (١٦٦/٣) وقال: قال ابن حبان: هذا موضوع ما رواه إلا صفوان بهذا الإسناد فأما صفوان فيروي عن الإثبات. وقال الحافظ ابن حجر: أخرجه عبد الرزاق عن سفيان عن منصور عن مالك بن الحرث قال: «يقول الله: إذا اشتغل عبدي بشئائه عن مسألتي أعطيته =

رسول الله ﷺ: «الدعاء هو العبادة» (١٣٥٨) وقرأ هذه الآية. ويجوز أن يريد الدعاء والاستجابة على ظاهرهما، ويريد بعبادتي: دعائي؛ لأن الدعاء باب من العبادة ومن أفضل أبوابها، يصدق قول ابن عباس رضي الله عنهما: أفضل العبادة الدعاء (١٣٥٩). وعن كعب: أعطى الله هذه الأمة ثلاث خلال لم يعطهن إلا نبياً مرسلاً: كان يقول لكل نبي أنت شاهدي على خلقي، وقال لهذه الأمة: ﴿لَتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ﴾ [البقرة: ١٤٣]؛ وكان يقول: ما عليك من حرج، وقال لنا: ﴿مَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُمْ مِنْ حَرَجٍ﴾ [المائدة: ٦] وكان يقول: ادعني أستجب لك؛ وقال لنا: ﴿ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾. وعن ابن عباس: وحدوني أغفر لكم، وهذا تفسير للدعاء بالعبادة، ثم للعبادة بالتوحيد. ﴿دَاخِرِينَ﴾ صاغرين.

﴿اللَّهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَلِلنَّهَارِ مُبْصِرًا إِنَّ اللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ﴾ (٦١)

﴿مُبْصِرًا﴾ من الإسناد المجازي؛ لأن الإبصار في الحقيقة لأهل النهار. فإن قلت: لم قرن الليل بالمفعول له، والنهار بالحال؟ وهلا كانا حالين أو مفعولاً لهما فإراعي حق المقابلة؟ قلت: هما متقابلان من حيث المعنى؛ لأن كل واحد منهما يؤدي مؤدى الآخر؛ لأنه لو قيل: لتبصروا فيه، فانت الفصاحة التي في الإسناد المجازي، ولو قيل: ساكناً - والليل يجوز أن يوصف بالسكون على الحقيقة، ألا ترى إلى قولهم: ليل ساج، وساكن لا ريح فيه - لم تتميز الحقيقة من المجاز. فإن قلت: فهلا قيل: لمفضل، أو لمتفضل؟ قلت: لأن الغرض تنكير الفضل، وأن يجعل فضلاً لا يوازيه فضل، وذلك إنما يستوي بالإضافة. فإن قلت: فلو قيل: ولكن أكثرهم، فلا يتكرر ذكر الناس؟ قلت: في هذا التكرير تخصيص لكفران النعمة بهم، وأنهم هم الذين يكفرون فضل الله ولا يشكرونه، كقوله: ﴿إِنَّ الْإِنْسَانَ لَكَفُورٌ﴾ [الحج: ٦٦، الزخرف: ١٥] ﴿إِنَّ الْإِنْسَانَ لِرَبِّهِ لَكَنُودٌ﴾ [العاديات: ٦]، ﴿إِنَّ الْإِنْسَانَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ﴾ [إبراهيم: ٣٤].

﴿ذَٰلِكُمْ اللَّهُ رَبُّكُمْ خَلِقُ كُلِّ شَيْءٍ لَّا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَآَنَ يُؤَفَّكَوْنَ﴾ (٦٢) كَذَٰلِكَ يُؤَفَّكَوْنَ

= أفضل ما أعطي السائلين وهذا مرسل، وفي الترمذي عن أبي سعيد «من شغله قراءة القرآن عن مسألتي أعطيته أفضل ما أعطي السائلين». انتهى.

١٣٥٨ - تقدم في مريم، وقال الحافظ: أخرجه أصحاب السنن، وتقدم في مريم. انتهى.
١٣٥٩ - أخرجه الحاكم (٤٩١/١)، كتاب: الدعاء، باب: فضل العبادة هو الدعاء، من طريق مجاهد عن ابن عباس قال: أفضل العبادة الدعاء، وقرأ: ﴿وقال ربكم ادعوني أستجب لكم﴾ الآية. انتهى.
وقال الحافظ بن حجر: أخرجه الحاكم في الدعاء من وجهين عنه. انتهى.

الَّذِينَ كَانُوا بِآيَاتِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ ﴿١٣﴾

﴿ذَلِكَكُمْ﴾ المعلوم المتميز بالأفعال الخاصة التي لا يشاركه فيها أحد هو ﴿رَبُّكُمْ خَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ إِلَّا إِلَهًا إِلَّا هُوَ﴾ أخبار مترادفة، أي: هو الجامع لهذه الأوصاف من الإلهية والربوبية وخلق كل شيء وإنشائه لا يمتنع عليه شيء، والوحدانية: لا ثاني له. ﴿ثُمَّ ذَكَرَ أَنَّ كُلَّ مَنْ جَحَدَ بآيَاتِ اللَّهِ وَلَمْ يَتَأَمَّلْهَا وَلَمْ يَكُنْ فِيهِ هِمَّةٌ طَلَبَ الْحَقَّ وَخَشِيَ الْعَاقِبَةَ أَفْكَ كَمَا أَفْكُوا. وقرئ: «خالق كل شيء» نصباً على الاختصاص. وتؤفكون: بالناء والياء.

﴿اللَّهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ الْأَرْضَ قَرَارًا وَالسَّمَاءَ بِنَاءً وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُورَكُمْ وَرَزَقَكُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ ذَلِكَكُمْ اللَّهُ رَبُّكُمْ فَتَبَارَكُ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴿١٤﴾ هُوَ الْحَيُّ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَكَادَعُوهُ مَخْلَصِينَ لَهُ الَّذِينَ أَحْمَدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٥﴾﴾

هذه أيضاً دلالة أخرى على تميزه بأفعال خاصة، وهي أنه جعل الأرض مستقرًا ﴿وَالسَّمَاءَ بِنَاءً﴾ [البقرة: ٢٢] أي: قبة. ومنه: أبنية العرب ١٥٥/٢ لمضاريهم؛ لأن السماء في منظر العين كقبة مضروبة على وجه الأرض، ﴿فَأَحْسَنَ صُورَكُمْ﴾ [التغابن: ٣] وقرئ: بكسر الصاد، والمعنى واحد. قيل: لم يخلق حيواناً أحسن صورة من الإنسان. وقيل: لم يخلقهم منكوسين كالبهائم، كقوله تعالى: ﴿فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ﴾ [التين: ٤] ﴿فَكَادَعُوهُ﴾ فاعبدوه ﴿مَخْلَصِينَ لَهُ الَّذِينَ﴾ أي: الطاعة من الشرك والرياء، قائلين: ﴿أَحْمَدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [الفتح: ٢] وعن ابن عباس رضي الله عنهما: من قال: لا إله إلا الله، فليقل على أثرها: الحمد لله رب العالمين (١٣٦٠).

﴿قُلْ إِنِّي نُهَيْتُ أَنْ أَعْبُدَ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَمَّا جَاءَنِي الْبَيِّنَاتُ مِنْ رَبِّي وَأُمِرْتُ أَنْ أُسْلِمَ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٦﴾﴾

فإن قلت: أما نهى رسول الله ﷺ عن عبادة الأوثان بأدلة العقل حتى جاءته البيّنات من ربه؟ قلت: بلى، ولكن البيّنات لما كانت مقوية لأدلة العقل ومؤكدّة لها ومضمنة ذكرها

١٣٦٠ - أخرجه الحاكم (٤٣٨/٢)، كتاب: التفسير، باب: «من قال لا إله إلا الله فليقل على أثرها الحمد لله»، والطبري في تفسيره (٧٥/١١)، رقم (٣٠٣٩١)، كلاهما من طريق مجاهد عن ابن عباس، وعزاه الزيلعي في تخريج أحاديث الكشاف (٢٢١/٣) للبيهقي في الأسماء والصفات وللثعلبي في تفسيره وكذا لابن مردويه جميعهم من نفس الطريق السابق. قال الحاكم: هذا حديث صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه، وقال الحافظ: أخرجه الطبري، والحاكم أيضاً، والبيهقي في الأسماء والصفات، وابن مردويه من رواية الأعمش عن مجاهد عنه. انتهى.

نحو قوله تعالى: ﴿أَتَعْبُدُونَ مَا تَنْحِتُونَ وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ﴾ [الصافات: ٩٥ - ٩٦] وأشباه ذلك من التنبيه على أدلة العقل - كان ذكر البينات ذكراً لأدلة العقل والسمع جميعاً، وإنما ذكر ما يدل على الأمرين جميعاً؛ لأن ذكر تناصر الأدلة أدلة العقل وأدلة السمع أقوى في إبطال مذهبهم وإن كانت أدلة العقل وحدها كافية^(١).

﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ رُءُوبٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ يُخْرِجُكُمْ طِفْلاً ثُمَّ لِتَبْلُغُوا أَشَدَّكُمْ ثُمَّ لِيَكونُوا شُيُوخاً وَمِنْكُمْ مَنْ يُوَفِّي مِنْ قَبْلُ وَلِيَبْلُغُوا أَجَلاً مُّسَمًّى وَلَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾

﴿لِتَبْلُغُوا أَشَدَّكُمْ﴾ متعلق بفعل محذوف تقديره: ثم يبيقيكم لتبلغوا. وكذلك لتكونوا. وأما ﴿وَلِيَبْلُغُوا أَجَلاً مُّسَمًّى﴾ فمعناه: ونفعل ذلك لتبلغوا أجلاً مسمى، وهو وقت الموت. وقيل: يوم القيامة. وقرئ: «شيوخاً» بكسر الشين. وشيخاً، على التوحيد، كقوله: ﴿طِفْلاً﴾ [الحج: ٥] والمعنى: كل واحد منكم. أو اقتصر على الواحد؛ لأن الغرض بيان الجنس. ﴿مِنْ قَبْلُ﴾ من قبل الشيخوخة أو من قبل هذه الأحوال إذا خرج سقطةً ﴿وَلَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ ما في ذلك من العبر والحجج.

﴿هُوَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ فَإِذَا قَضَىٰ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾

﴿إِذَا قَضَىٰ أَمْرًا فَإِنَّمَا﴾ يكونه من غير كلفة ولا معاناة. جعل هذا نتيجة من قدرته على الإحياء والإماتة، وسائر ما ذكر من أفعاله الدالة على أن مقدوراً لا يمتنع عليه، كأنه قال: فلذلك من الاقتدار إذا قضى أمراً كان أهون شيء وأسرع.

(١) قال محمود: «فإن قلت: النبي عليه الصلاة والسلام قد اتضحت له أدلة العقل على التوحيد قبل مجيء الوحي، فعلام تحمل الآية؟ وأجاب بأن الأمر كذلك ولكن البينات مقوية لأدلة العقل ومؤكدة لها ومتضمنة ذكرها، نحو قوله: (أتعبدون ما تنحتون والله خلقكم وما تعملون) وأشياء ذلك من التنبيه على أدلة العقل والسمع جميعاً، وإنما ذكر ما يدل على الأمرين جميعاً؛ لأن ذكر الأمرين أقوى في إبطال مذهبهم، وإن كانت أدلة العقل وحدها كافية، قال أحمد: اللائق بقواعد السنة أن يقال: أما معرفة الله تعالى ومعرفة وحدانيته واستحالة كون الأصنام آلهة، فمستفاد من أدلة العقول، وقد ترد الأدلة العقلية في مضامين السمعيات. وأما وجوب عبادة الله تعالى وتحريم عبادة الأصنام، فحكم شرعي لا يستفاد إلا من السمع؛ فعلى هذا يترك الجواب عن هذا السؤال. وقوله تعالى: (إني نهيته أن أعبد الذين تدعون من دون الله) إنما أريد به - والله أعلم - تحريم عبادة غير الله، فهذا لا يستفاد إلا من نهي الله تعالى عن ذلك، لا من العقل، لكن قاعدة الزمخشري تقتضي أن تحريم عبادة غير الله تعالى تتلقى من العقل قبل ورود الشرع؛ إذ العقل عنده حاكم بمقتضى التحسين والتقييح، ولهذا أورد الإشكال عليه، واحتاج إلى الجواب عنه، ثم قوله في الجواب: إن أدلة الشرع مقوية لأدلة العقل ضعيف، مع اعتقاده أن العقل يدل على الحكم قطعاً، وما دل قطعاً، كيف يحتمل الزيادة والتأكيد، والقطعيات لا تفاوت في ثبوتها؟

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ آمَنُوا بِآيَاتِنَا وَلَكِنْ كَانُوا فِي غَيْبٍ مُّزْمُونٍ﴾ (٦٩) ﴿الَّذِينَ كَذَبُوا بِالْكِتَابِ وَبِمَا أَرْسَلْنَا بِهِ رُسُلَنَا فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ﴾ (٧٠) ﴿إِذِ الْأَغْلَالُ فِي أَعْنَاقِهِمْ وَالسَّلَاسِلُ يُسْحَبُونَ﴾ (٧١) ﴿فِي الْحَمِيمِ نُزَّاتٌ فِي النَّارِ يَسْجُرُونَ﴾ (٧٢) ﴿ثُمَّ قِيلَ لَهُمْ أَنْتُمْ كُنْتُمْ تُشْرِكُونَ﴾ (٧٣) ﴿مِنْ دُونِ اللَّهِ قَالُوا ضَلُّوا عَنَّا بَلْ لَمْ نَكُنْ نَدْعُوا مِنْ قَبْلُ شَيْئًا كَذَلِكَ يَضِلُّ اللَّهُ الْكَافِرِينَ﴾ (٧٤) ﴿ذَلِكَ بِمَا كُنْتُمْ تَفْرَحُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَبِمَا كُنْتُمْ تَمْرَحُونَ﴾ (٧٥) ﴿أَدْخَلُوا أَبْوَابَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا فَبَلَّسَ مَوَى الْمُتَكَبِّرِينَ﴾ (٧٦) ﴿

﴿بِالْكِتَابِ﴾ بالقرآن ﴿وَبِمَا أَرْسَلْنَا بِهِ رُسُلَنَا﴾ من الكتب. فإن قلت: وهل قوله: ﴿فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ﴾ إِذِ الْأَغْلَالُ فِي أَعْنَاقِهِمْ إلى مثل قولك: سوف أصوم أمس؟ قلت: المعنى على إذا: إلا أن الأمور المستقبلية لما كانت في أخبار الله تعالى متيقنة مقطوعاً بها: عبر عنها بلفظ ما كان ووجد، والمعنى على الاستقبال. وعن ابن عباس: والسلاسل يسحبون بالنصب وفتح الياء، على عطف الجملة الفعلية على الإسمية. وعنه: والسلاسل يسحبون بجر السلاسل. ووجهه أنه لو قيل: إذ أعناقهم في الأغلال مكان قوله: ﴿إِذِ الْأَغْلَالُ فِي أَعْنَاقِهِمْ﴾ لكان صحيحاً مستقيماً، فلما كانتا عبارتين معتقتين: حمل قوله: ﴿وَالسَّلَاسِلُ﴾ على العبارة الأخرى. ونظيره [من الطويل]:

مَسَائِلُهُمْ لَيْسُوا مُصْلِحِينَ عَشِيرَةً وَلَا نَاعِبٍ إِلَّا بِبَنِينَ غُرَابِهَا^(١)

كانه قيل: بمصلحين. وقرئ: «وبالسلاسل يسحبون» ﴿فِي النَّارِ يَسْجُرُونَ﴾ من سجر التنور إذا ملأه بالوقود. ومنه: السجير^(٢)، كأنه سجر بالحب، أي: ملئ ومعناه: أنهم في النار فهي محيطة بهم، وهم مسجرون بالنار مملوؤة بها أجوافهم. ومنه قوله تعالى: ﴿فَارُ اللَّهُ الْمُؤَفَّدَةُ﴾ (٦) ﴿الَّتِي تَطْلُبُ عَلَى الْأَفْئِدَةِ﴾ (٧) ﴿الْهَمزة: ٦، ٧﴾ اللهم أجربنا من نارك فإننا عائدون بجوارك. ﴿ضَلُّوا عَنَّا﴾ غابوا عن عيوننا، فلا نراهم ولا ننتفع بهم. فإن قلت: أما ذكرت في تفسير قوله تعالى: ﴿إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ﴾ [الأنبياء: ٩٨]: أنهم مقرونون بالهتهم، فكيف يكونون معهم وقد ضلوا عنهم؟ قلت: يجوز أن يضلوا عنهم إذا وبخوا وقيل لهم: أين ما كنتم تشركون من دون الله فيغيثوكم ويشفعوا لكم، وأن يكونوا معهم في سائر الأوقات^(٣)، وأن يكونوا معهم في جميع أوقاتهم؛ إلا

(١) تقدم.

(٢) قوله: «ومنه السجير» في الصحاح: «سجير الرجل»: صفيه وخليله، والجمع السجراء. (ع).

(٣) قوله: «في سائر الأوقات» أي باقي الأوقات بعد وقت التوبيخ. (ع).

أنهم لما لم ينفعوهم فكانهم ضالون عنهم. ﴿لَوْ نَكُنْ نَدْعُوا مِنْ قَبْلُ شَيْئًا﴾ أي: تبين لنا أنهم لم يكونوا شيئاً، وما كنا نعبد بعبادتهم شيئاً كما تقول: حسبت أن فلاناً شيء فإذا هو ليس بشيء إذا خبرته فلم تر عنده خيراً. ﴿كَذَلِكَ يُضِلُّ اللَّهُ الْكَافِرِينَ﴾ مثل ضلال آلهتهم عنهم يضلهم عن آلهتهم..، حتى لو طلبوا الآلهة أو طلبتهم الآلهة لم يتصادفوا. ﴿فَالِكُفْرُ الْإِضْلَالُ بِسَبَبِ مَا كَانَ لَكُمْ مِنَ الْفَرْحِ وَالْمَرْحِ. ﴿يَغْيِرُ لَحْيَ﴾ وهو الشرك وعبادة الأوثان. ﴿أَدْخُلُوا أَبْوَابَ جَهَنَّمَ﴾ السبعة المقسومة لكم. قال الله تعالى: ﴿لَمَّا سَبَعُ أَبْوَابٍ لِكُلِّ بَابٍ مِنْهُمْ ١١٥٥/٢ جُزْءٌ مَقْسُومٌ﴾ [الحجر: ٤٤]. ﴿خَالِدِينَ﴾ مقدرين الخلود ﴿فَبُئْسَ مَثْوًى لِّلْمُتَكَبِّرِينَ﴾ عن الحق المستخفين به مثواكم أو جهنم. فإن قلت: أليس قياس النظم أن يقال: فبئس مدخل المتكبرين، كما تقول: زر بيت الله فنعم المزار، وصل في المسجد الحرام فنعم المصلى؟ قلت: الدخول المؤقت بالخلود في معنى الشواء.

﴿فَأَصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ فَكَيْمَا تُرِيدُكَ بَعْضُ الَّذِي نَعِدُهُمْ أَوْ تَتَوَقَّعُكَ فَإِلَيْنَا يَرْجِعُونَ﴾ (٧٧)

﴿فَكَيْمَا تُرِيدُكَ﴾ أصله: فإن نرك. و (ما) مزيدة لتأكيد معنى الشرط؛ ولذلك ألحقت النون بالفعل^(١) ألا تراك لا تقول: إن تكرمني أكرمك، ولكن: إما تكرمني أكرمك. فإن قلت: لا يخلو إما أن تعطف ﴿أَوْ تَتَوَقَّعُكَ﴾ على ﴿تُرِيدُكَ﴾ وتشركهما في جزاء واحد وهو قوله تعالى: ﴿فَالَيْنَا يَرْجِعُونَ﴾ فقولك: فإما نرينك بعض الذي نعدهم فإلينا يرجعون: غير صحيح، وإن جعلت ﴿فَالَيْنَا يَرْجِعُونَ﴾ مختصاً بالمعطوف الذي هو تنويفك، بقي المعطوف عليه بغير جزاء. قلت: ﴿فَالَيْنَا يَرْجِعُونَ﴾ متعلق بتنويفك، وجزاء ﴿تُرِيدُكَ﴾ محذوف، تقديره: فإما نرينك بعض الذي نعدهم من العذاب وهو القتل والأسر يوم بدر فذاك. أو أن تنويفك قبل يوم بدر فإلينا يرجعون يوم القيامة فننتقم^(٢) منهم أشد الانتقام ونحوه قوله

(١) قال محمود: «المصحح للحاق النون المؤكدة دخول ما المؤكدة للشرط، ولولا (ما) لم يجز دخولها، قال أحمد: وإنما كان كذلك؛ لأن النون المؤكدة حقها أن تدخل في غير الواجب، والشرط من قبيل الواجب، إلا أنه إذا أكد قوي إبهامه فقرته قوة الإبهام من غير الواجب، فيساغ دخول النون فيه.

(٢) قال محمود: «إما أن يشرك مع الأول في الشرط ويكون قوله: (فإلينا يرجعون) جزاء مشركاً بينهما فلا يستقيم المعنى، على: فإما نرينك بعض الذي نعدهم.. فإلينا يرجعون، وإن جعل الجزاء مختصاً بالثاني بقي الأول بغير جزاء، وأجاب بأنه مختص بالثاني، وجزاء الأول محذوف، تقديره: فإما نرينك بعض الذي نعدهم، وهو ما حل بهم يوم بدر، فذاك. أو تنويفك، فإلينا يرجعون، فننتقم منهم، قال أحمد: وإنما حذف جواب الأول دون الثاني؛ لأن الأول إن وقع فذاك غاية الأمل =

تعالى: ﴿فَإِمَّا نَذْهَبَنَّ بِكَ فَإِنَّا مِنْهُمْ مُنْتَقِمُونَ﴾ (٤١) أَوْ نُرِيَنَّكَ الَّذِي وَعَدْنَاهُمْ فَإِنَّا عَلَيْهِمْ مُقْتَدِرُونَ ﴿٤٢﴾ [الزخرف: ٤١ - ٤٢].

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِّن قَبْلِكَ مِنْهُمْ مَّن قَصَصْنَا عَلَيْكَ وَمِنْهُمْ مَّن لَّمْ نَقْصُصْ عَلَيْكَ وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَن يَأْتِيَ بِآيَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ فَإِذَا جَاءَ أَمْرُ اللَّهِ فُضِيَ بِالْحَقِّ وَخَسِرَ هُنَالِكَ الْمُبْطِلُونَ﴾ (٧٨)

﴿وَمِنْهُمْ مَّن لَّمْ نَقْصُصْ عَلَيْكَ﴾ قيل: بعث الله ثمانية آلاف نبي: أربعة آلاف من بني إسرائيل، وأربعة آلاف من سائر الناس. وعن علي رضي الله عنه: أن الله تعالى بعث نبياً أسود (١٣٦١)، فهو ممن لم يقصص عليه. وهذا في اقتراحهم الآيات على رسول الله ﷺ عناداً، يعني: إننا قد أرسلنا كثيراً من الرسل وما كان لواحد منهم ﴿أَن يَأْتِيَ بِآيَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ﴾ فمن لي بأن آتي بآية مما تقترحونه إلا أن يشاء الله ويأذن في الإتيان بها. ﴿فَإِذَا جَاءَ أَمْرُ اللَّهِ﴾ وعيد ورد عقيب اقتراح الآيات. وأمر الله: القيامة ﴿الْمُبْطِلُونَ﴾ هم المعاندون الذين اقترحوا الآيات وقد أتتهم الآيات فأنكروها وسموها سحراً.

﴿اللَّهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَنْعَامَ لِتَرْكَبُوا مِنْهَا وَمِنهَا تَأْكُلُونَ﴾ (٧٩) وَلَكُمْ فِيهَا مَنَافِعُ وَلِتَبْلُغُوا عَلَيْهَا حَاجَةً فِي صُدُورِكُمْ وَعَلَيْهَا وَعَلَى الْفُلْكِ تُحْمَلُونَ ﴿٨٠﴾ وَيُرِيكُمْ آيَاتِهِ فَأَيَّ آيَاتِ اللَّهِ تُنْكِرُونَ ﴿٨١﴾

١٣٦١ - أخرجه الطبري في تفسيره (٨٠/١١)، رقم (٣٠٤٠٩)، من طريق عبد الله بن يحيى عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه.

وعزه الزيلعي في تخريج أحاديث الكشاف (٢٢٢/٣) لابن مردويه من حديث آدم بن أبي إياس، وللثعلبي في تفسيره من طريق أبي الطفيل عن علي، في تفسير سورة البروج. وقال الحافظ ابن حجر: أخرجه الطبري، والطبراني في الأوسط، وابن مردويه من رواية جابر الجعفي عن عبد الله بن يحيى عن علي رضي الله عنه في قوله: (ومنهم من لم نقصص عليك) قال: أرسل الله عبداً حبشياً، فهو الذي لم نقصص عليك، وروى الثعلبي من وجه آخر عن جابر عن أبي الطفيل عن علي «كان أصحاب الأخدود نبيهم حبشي. بعث نبي من الحبشة إلى قومه. ثم قرأ: (ولقد أرسلنا رسلاً من قبلك - الآية). انتهى».

= في إنكائهم، فالثابت على تقدير وقوعه معلوم، وهو حصول المراد على التمام. وأما إن لم يقع ووقع الثاني وهو توفيه قبل حلول المجازاة بهم، فهذا هو الذي يحتاج إلى ذكره للتسليّة وتطمين النفس، على أنه وإن تأخر جزاؤهم عن الدنيا فهو حتم في الآخرة ولا بد منه. قال: ومثله قوله تعالى: (فإما نذهبن بك فإنا منهم منتقمون، أو نرينك الذي وعدناهم فإنا عليهم مقتدرون): كأنه يستشهد على أن جزاء الأول محذوف بذكر هذه الآية.

الأنعام: الإبل خاصة. فإن قلت: لم قال: ﴿لِتَرْكَبُوا مِنْهَا﴾ ولتبلغوا عليها، ولم يقل: لتأكلوا منها، ولتصلوا إلى منافع؟ أو هلا قال: منها تركبون ومنها تأكلون وتبلغون^(١) عليها حاجة في صدوركم؟ قلت: في الركوب: الركوب في الحج والغزو، وفي بلوغ الحاجة: الهجرة من بلد إلى بلد لإقامة دين أو طلب علم، وهذه أغراض دينية إما واجبة أو مندوب إليها مما يتعلق^(٢) به إرادة الحكيم. وأما الأكل وإصابة المنافع: فمن جنس المباح الذي لا يتعلق به إرادته، ومعنى قوله: ﴿وَعَلَيْهَا وَعَلَى الْفُلْكِ تُحْمَلُونَ﴾ وعلى الأنعام وحدها لا تحملون، ولكن عليها وعلى الفلك في البر والبحر. فإن قلت: هلا قيل: وفي الفلك، كما قال: ﴿ثَلَاثَ أَمْجَلٍ فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجَيْنِ آتَيْنٍ﴾؟ [هود: ٤٠] قلت: معنى الإيعاء^(٣) ومعنى الاستعلاء: كلاهما مستقيم؛ لأن الفلك وعاء لمن يكون فيها حمولة له يستعليها، فلما صبح المعنيان صحت العبارتان. وأيضاً فليطابق قوله: (وعليها) ويزاوجه ﴿فَأَنَّى ءَاتَىٰ اللَّهُ﴾ جاءت على اللغة المستفيضة. وقولك: فآية آيات الله قليل؛ لأن التفرقة بين المذكر والمؤنث في الأسماء غير الصفات نحو حمار وحماره غريب. وهي في (أي) أغرب لإبهامه.

﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ كَانُوا أَكْثَرَ مِنْهُمْ وَأَشَدَّ قُوَّةً وَءِثَارًا فِي الْأَرْضِ فَمَا أَغْنَىٰ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ (٨٧) فَلَمَّا جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ

(١) قال محمود: «فإن قلت: هلا قيل: لتركبوا منها ولتأكلوا منها ولتبلغوا، ومنها تركبون ومنها تأكلون، وعليها تبلغون؟ وأجاب بأن في الركوب الركوب في الحج والغزو والمباح، وفي بلوغ الحاجة الهجرة من بلد إلى بلد لإقامة دين أو علم، وهذه أغراض دينية: إما واجبة أو مندوبة مما يتعلق به إرادة الحكيم، وأما الأكل وإصابة المنافع فمن جنس المباح الذي لا يتعلق به الإرادة» قال أحمد: جواب متداع للسقوط مؤسس على قاعدة واهية، وهي أن الأمر راجع إلى الإرادة، فالواجب والمندوب مرادان؛ لأنهما مندرجان في الأمر، والمباح غير مراد؛ لأنه غير مأمور به، وهذا من هنيات المعتزلة في إنكار كلام النفس، فلا نطيل فيه النفس. وقاعدة أهل الحق: أنه لا ربط بين الأمر والإرادة، فقد يأمر بخلاف ما يريد، ويريد خلاف ما يأمر به، فالجواب الصحيح إذاً أن المقصود المهم من الأنعام والمنفعة المشهورة فيها إنما هي الركوب وبلوغ الحوائج عليها بواسطة الأسفار والانتقال في ابتغاء الأوطار؛ فلذلك ذكرهما هنا مقرونين باللام الدالة على التعليل والغرض. وأما الأكل وبقية المنافع كالأصواف والأوبار والألبان وما يجري مجراها فهي وإن كانت حاصلة منها فغير خاصة بها خصوص الركوب والحمل وتوابع ذلك، بل الأكل بالغنم خصوصاً الضأن أشهر؛ فلذلك اختيرت الضحايا منها على الغنم، فلذلك جردت هذه المنافع بالإخبار عن وجودها فيها غير مقرونة بما يدل على أنها المقصود.

(٢) قوله: «المباح الذي لا يتعلق به» مبني على مذهب المعتزلة: أن الإرادة بمعنى الأمر فلا تتعلق إلا بالمطلوب. وعند أهل السنة: هي صفة تخصص الممكن ببعض ما يجوز عليه، فتتعلق بجميع الممكنات، كما تقرر في علم التوحيد. (ع).

(٣) قوله: «معنى الإيعاء»، في الصحاح: أوعيت الزاد والمتاع: إذا جعلته في الوعاء. (ع).

بِالْبَيِّنَاتِ فَرِحُوا بِمَا عِنْدَهُمْ مِنَ الْعِلْمِ وَحَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ ﴿٨٧﴾

﴿وَأَنكَارًا﴾ قصورهم ومصانعهم. وقيل: مشيهم بأرجلهم لعظم أجرامهم. ﴿فَمَا أَغْنَىٰ عَنْهُمْ﴾ ما نافية أو مضمنة معنى الاستفهام، محلها النصب، والثانية: موصولة أو مصدرية ومحلها الرفع، يعني أي شيء أغنى عنهم مكسوبهم أو كسبهم. ﴿فَرِحُوا بِمَا عِنْدَهُمْ مِنَ الْعِلْمِ﴾ فيه وجوه: منها أنه أراد العلم الوارد على طريق التهكم في قوله تعالى: ﴿بَلْ أَذْرَكَ عِلْمَهُمْ فِي الْآخِرَةِ﴾ [النمل: ٦٦]: وعلمهم في الآخرة أنهم كانوا يقولون: لا نبعث ولا نعذب، ﴿وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً وَلَئِنْ رُجِعْتُ إِلَىٰ رَبِّي إِنَّ لِي عِنْدَهُ لَلْخُسْفَىٰ﴾ [فصلت: ٥٠]، ﴿وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً وَلَئِنْ رُودْتُ إِلَىٰ رَبِّي لَأَجِدَنَّ خَيْرًا مِّنْهَا مُنْقَلَبًا﴾ [الكهف: ٣٦] وكانوا يفرحون بذلك ويدفعون به البينات وعلم الأنبياء، كما قال عز وجل: ﴿كُلَّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ﴾ [الروم: ٣٢] ومنها: أن يريد علم الفلاسفة والدهريين من بني يونان، وكانوا إذ سمعوا بوحي الله: دفعوه وصغروا علم الأنبياء إلى علمهم. وعن سقراط: أنه سمع بموسى صلوات الله عليه وسلامه، وقيل له: لو هاجرت إليه فقال: نحن قوم مهذبون فلا حاجة بنا إلى من يهذبنا. ومنها: أن يوضع قوله: ﴿فَرِحُوا بِمَا عِنْدَهُمْ مِنَ الْعِلْمِ﴾ [غافر: ٨٣] ولا علم عندهم البتة، موضع قوله: لم يفرحوا بما جاءهم من العلم، مبالغة في ٢/ ١٥٦ نفي فرحهم بالوحي الموجب لأقصى الفرح والمسرة، مع تهكم بفرط جهلهم وخلوهم من العلماء^(١). ومنها أن يراد: فرحوا بما عند الرسل من العلم فرح ضحك منه واستهزاء به، كأنه قال: استهزاءوا بالبينات وبما جاءوا به من علم الوحي فرحين مرحين. ويدل عليه قوله تعالى: ﴿وَحَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ﴾ ومنها: أن يجعل الفرح للرسل. ومعناه: أن الرسل لما رأوا جهلهم المتماذي واستهزاءهم بالحق وعلموا سوء عاقبتهم وما يلحقهم من العقوبة على جهلهم واستهزائهم: فرحوا بما أوتوا من العلم وشكروا الله عليه. وحاق بالكافرين جزاء جهلهم واستهزائهم. ويجوز أن يريد بما فرحوا به من العلم: علمهم بأمور الدنيا ومعرفتهم بتدبيرها، كما قال تعالى: ﴿يَعْلَمُونَ ظَاهِرًا مِّنَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ الْآخِرَةِ هُمْ غَافِلُونَ﴾ [الروم: ٧]، ﴿ذَٰلِكَ مَبْلَغُهُمِ مِنَ الْعِلْمِ﴾ [النجم: ٣٠] فلما جاءهم الرسل بعلوم الديانات - وهي أبعد شيء من علمهم لبعثها على رفض الدنيا والظلف^(٢) عن الملاذ والشهوات - لم يلتفتوا إليها وصغروها واستهزاءوا بها، واعتقدوا أنه لا علم أنفع وأجلب

(١) قال السمين الحلبي: قال الشيخ: ولا يُعْبَرُ بالجملة الظاهرة كونها مثبتة عن الجملة المنفية إلا في قليل من الكلام نحو: شرُّ امرئٍ ذا نابٍ على خلاف فيه.

ولما آل أمره إلى الإثبات المحصور جاز، وأما في الآية فينبغي أن لا يحمل على القليل؛ لأن في ذلك تخليطاً لمعاني الجمل المتباينة. انتهى. الدر المصون.

(٢) قوله: «والظلف» في الصحاح: ظلفت نفسي عن كذا - بالكسر - تظلف ظلفاً، أي: كفت. (ع).

للفوائد من علمهم، ففرحوا به.

﴿فَلَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا قَالُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَحَدُّهُ وَسَكَفَرْنَا بِمَا كُنَّا بِهِ مُشْرِكِينَ﴾ (٨٤) ﴿فَلَمْ يَكْ يَنْفَعُهُمْ إِيْمَتُهُمْ لَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا سُنَّتَ اللّٰهُ اَلَّتِي قَدْ خَلَتْ فِيْ سِيبَادِهِ وَخَسِرَ هُنَالِكَ الْكَافِرُوْنَ﴾ (٨٥)

البأس: شدة العذاب. ومنه قوله تعالى: ﴿يُعَذِّبُ بَيْتِيسَ﴾ [الأعراف: ١٦٥]. فإن قلت: أي فرق بين قوله تعالى: ﴿فَلَمْ يَكْ يَنْفَعُهُمْ إِيْمَتُهُمْ﴾ وبينه لو قيل: فلم ينفعهم إيمانهم؟^(١) قلت: هو من كان في نحو قوله: ﴿مَا كَانَ لِلّٰهِ اَنْ يَتَّخِذَ مِنْ وَلَدٍ﴾ [مريم: ٣٥] والمعنى: فلم يصح ولم يستقم أن ينفعهم إيمانهم. فإن قلت: كيف ترادفت هذه الفاءات؟ قلت: أما قوله تعالى: ﴿فَمَا أَغْنَى عَنْهُمْ﴾ [غافر: ٨٢] فهو نتيجة قوله: ﴿كَانُوا أَكْثَرَ مِنْهُمْ﴾ [غافر: ٨٢] وأما قوله: ﴿فَلَمَّا جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ﴾ [غافر: ٨٣] فجار مجرى البيان والتفسير لقوله تعالى: ﴿فَمَا أَغْنَى عَنْهُمْ﴾ [غافر: ٨٢] كقولك: رزق زيد المال فمنع المعروف فلم يحسن إلى الفقراء. وقوله: ﴿فَلَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا﴾ تابع لقوله: ﴿فَلَمَّا جَاءَتْهُمْ﴾ [غافر: ٨٣] كأنه قال: فكفروا فلما رأوا بأسنا آمنوا، وكذلك: ﴿فَلَمْ يَكْ يَنْفَعُهُمْ إِيْمَتُهُمْ﴾ تابع لإيمانهم لما رأوا بأس الله. ﴿سُنَّتَ اللّٰهِ﴾ بمنزلة ﴿وَعَدَ اللّٰهُ﴾ [النساء: ٩٥] وما أشبهه من المصادر المؤكدة. و﴿هُنَالِكَ﴾ مكان مستعار للزمان، أي: وخسروا وقت رؤية البأس، وكذلك قوله: ﴿وَخَسِرَ هُنَالِكَ الْمُبْطِلُونَ﴾ [غافر: ٧٨] بعد قوله: ﴿حَآءَ أَمْرُ اللّٰهِ قُضِيَ بِالْحَقِّ وَخَسِرَ هُنَالِكَ﴾ [غافر: ٧٨] أي: وخسروا وقت مجيء أمر الله، أو وقت القضاء بالحق.

عن رسول الله ﷺ: «من قرأ سورة المؤمن لم يبق روح نبي ولا صديق ولا شهيد ولا مؤمن إلا صلى عليه واستغفر له» (١٣٦٢).

١٣٦٢ - تقدم برقم (٣٤٦).

وقال الحافظ ابن حجر في تخريج الكشف: أخرجه الثعلبي وابن مردويه والواحدي من حديث أبي ابن كعب رضي الله عنه. انتهى.

(١) قال محمود: «فإن قلت: أي فرق بين قوله: فلم يك ينفعهم إيمانهم. وبينه لو قيل: فلم ينفعهم؟ وأجاب بأن معنى (كان) هنا معناها في قوله: (ما كان لله أن يتخذ من ولد) بمعنى: فلم يستقم ولم يصح أن ينفعهم إيمانهم، قال أحمد: كان الذي ثبت التصرف فيها بإجراء نونها مجرى حروف العلة حتى حذفت للجازم هي (كان) الكثير استعمالها، المكرر دورانها في الكلام. وأما (كان) هذه فليست كثيرة التصرف حتى يتسع فيها بالحذف، بل هي مثل: صان، وحان، في القلة، فالأولى بقاؤها على بابها المعروف، وفائدة دخولها في هذه الآية وأمثالها: المبالغة في نفي الفعل الداخلة عليه بتعدد جهتي نفيه عموماً باعتبار الكون، وخصوصاً باعتباره في هذه الآية مثلاً، فكأنه نفي مرتين، والله أعلم.

سورة فصلت، وتسمى السجدة

مكية، وآياتها ٥٤، وقيل: ٥٣ آية [نزلت بعد غافر]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿حَمْدٌ ۝١ تَنْزِيلٌ مِّنَ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ۝٢ كِتَابٌ فُصِّلَتْ ءَايَاتُهُ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ۝٣ بَشِيرًا وَنَذِيرًا فَأَعْرَضَ أَكْثَرُهُمْ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ ۝٤﴾

إن جعلت ﴿حَمْدٌ ۝١﴾ اسماً للسورة كانت في موضع المبتدأ. و﴿تَنْزِيلٌ﴾ خبره. وإن جعلتها تعديداً للحروف كان ﴿تَنْزِيلٌ﴾ خبراً لمبتدأ محذوف و﴿كِتَابٌ﴾ بدل من تنزيل. أو خبر بعد خبر. أو خبر مبتدأ محذوف، وجوز الزجاج أن يكون ﴿تَنْزِيلٌ﴾ مبتدأ، و﴿كِتَابٌ﴾ خبره. ووجهه أن تنزيلاً تخصص بالصفة فساغ وقوعه مبتدأ. ﴿فُصِّلَتْ ءَايَاتُهُ﴾ ميزت وجعلت تفاصيل في معان مختلفة: من أحكام وأمثال ومواعظ، ووعد ووعيد، وغير ذلك، وقرئ: «فصلت»، أي: فرقت بين الحق والباطل. أو فصل بعضها من بعض باختلاف معانيها، من قولك: فصل من البلد. ﴿قُرْءَانًا عَرَبِيًّا﴾ نصب على الاختصاص والمدح، أي: أريد بهذا الكتاب المفصل قرآناً من صفته كيت وكيت. وقيل: هو نصب على الحال، أي: فصلت آياته في حال كونه قرآناً عربياً ﴿لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ أي: لقوم عرب يعلمون ما نزل عليهم من الآيات المفصلة المبينة بلسانهم العربي المبين، لا يلتبس عليهم شيء منه. فإن قلت: بم يتعلق قوله: ﴿لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾؟ قلت: يجوز أن يتعلق بتنزيل أو بفصلت، أي: تنزيل من الله لأجلهم. أو فصلت آياته لهم. والأجود أن يكون صفة مثل ما قبله وما بعده، أي قرآناً عربياً كائناً لقوم عرب؛ لثلا يفرق بين الصلات والصفات. وقرئ: «بشير ونذير» صفة للكتاب. أو خبر مبتدأ محذوف. ﴿فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ﴾ لا يقبلون ولا يطيعون، ومن قولك: تشفعت إلى فلان فلم يسمع قولي، ولقد سمعه، ولكنه لما لم يقبله ولم يعمل بمقتضاه فكأنه لم يسمعه.

﴿وَقَالُوا قُلُوبُنَا فِيْ أَكِنَّةٍ مِّمَّا نَدْعُونَ إِلَيْهِ فِيْ ءَاذَانِنَا وَقَدْ مِّنْ بَيْنِنَا وَبَيْنِكَ حِجَابٌ فَأَعْمَلْ
إِنَّا عَمِلُونَ ۝٥﴾

والأكنة: جمع كنان. وهو الغطاء، و«الوقر» بالفتح: الثقل. وقرئ: بالكسر. وهذه تمثيلات لنُبُو قلوبهم عن تقبل الحق واعتقاده، كأنها في غلف ١٥٦/٢ ب وأعطية تمنع من نفوذه فيها، كقوله تعالى: ﴿وَقَالُوا قُلُوبُنَا غُلْفٌ﴾ [البقرة: ٨٨] ومج أسماعهم له كأن بها صمماً عنه، ولتباعد المذهبيين والدينين كأن بينهم وما هم عليه، وبين رسول الله ﷺ وما هو عليه: حجاباً ساتراً وحاجزاً منيعاً من جبل أو نحوه، فلا تلاقي ولا ترائي ﴿فَاعْمَلْ﴾ على دينك ﴿إِنَّا عَمِلُونَ﴾ على ديننا، أو فاعمل في إبطال أمرنا، إنا عاملون في إبطال أمرك. وقرئ: «إنا عاملون» فإن قلت: هل لزيادة (من) في قوله: ﴿وَمِنْ بَيْنَنَا وَبَيْنَكَ حِجَابٌ﴾ فائدة؟ قلت: نعم؛ لأنه لو قيل: وبيننا وبينك حجاب: لكان المعنى: أن حجاباً حاصلًا وسط الجهتين، وأما بزيادة (من) فالمعنى: أن حجاباً ابتدأ منا وابتدأ منك، فالمسافة المتوسطة لجهتنا وجهتك مستوعبة بالحجاب لا فراغ^(١) فيها. فإن قلت: هلا قيل: على قلوبنا أكنة، كما قيل: وفي آذاننا قر؛ ليكون الكلام على نمط واحد؟ قلت: هو على

(١) قال محمود: «فإن قلت: ما فائدة (من) في قوله (ومن بيننا وبينك حجاب)؟ وأجاب بأن فائدتها الدلالة على أن من جهتهم ابتدأ الحجاب، ومن جهته أيضاً ابتدأ حجاب، فيلزم أن المسافة المتوسطة بينهما مملوءة بالحجاب لا فراغ فيها، ولو لا ذكر (من) فيها لكان المعنى: على أن في المسافة بينهما حجاباً فقط» قال أحمد: ولا ينفك المعنى بدخول (من) عما كان عليه قبل، ولو كان لأمر كما ذكر لكانت من مقدرة مع بين الثانية؛ لأنه جعلها مفيدة للابتداء في الثانية كما هي مفيدة للابتداء في الأولى، فيكون التقدير إذاً: (ومن بيننا وبينك حجاب)، وهذا يخل بمعنى (بين) إخلالاً بيننا، فإنها تأبى تكرار العامل معها، حتى لو قال القائل: جلست بين زيد، وجلست بين عمرو: لم يكن مستقيماً؛ لأن تكرار العامل يصيرها داخلية على مفرد فقط، ويقطعه عن قرينه المتقدم. ومن شأنها الدخول على متعدد؛ لأن في ضمن معناها التوسط. وزاد الزمخشري على هذا فجعل (بين) الثانية غير الأولى؛ لأنه جعل الأولى بجهتهم والثانية بجهته، وليس الأمر كما ظنه، بل (بين) الأولى هي الثانية بعينها، وهي عبارة عن الجهة المتوسطة بين المضافين، وتكرارها إنما كان لأن المعطوف مضمّر محفوظ، فوجب تكرار حافظه وهو بين، والدليل على هذا: أنه لا تفاوت باتفاق بين أن تقول: جلست بين زيد وعمرو؛ وبين أن تقول: جلست بين زيد وبين عمرو. وإنما كان ذكرها مع الظاهر جوازاً ومع المضمّر وجوباً لما بيناه؛ فإذا وضع ذلك فالظاهر - والله أعلم - أن موقع من هاهنا كموقعها في قوله تعالى: (وجعلنا من بين أيديهم سداً ومن خلفهم سداً) وذلك للإشعار بأن الجهة المتوسطة مثلاً بينهم وبين النبي عليه الصلاة والسلام مبدأ الحجاب لا غير، ووجود من قريب من عدمها، ألا ترى إلى آخر هذه الآية كيف لم يستعمل فيها من، وهي قوله تعالى (وإذا قرأت القرآن جعلنا بينك وبين الذين لا يؤمنون بالآخرة حجاباً مستوراً). وجعلنا على قلوبهم أكنة أن يفقهوه وفي آذانهم وقرا) وكلام الزمخشري هذا إذا امتحنته بالتحقيق الذي ذكرناه: تبين ضعفه، والله الموفق، وفي هذه الآية وأختها من المبالغة والبلاغة ما لا يليق أن ينتظم إلا في دور الكتاب العزيز، فإنها اشتملت على ذكر حجب ثلاثة متوالية: كل واحد منها كاف في فته، فأولها الحجاب الحائل الخارج، يليه حجاب الصمم. وأصاها الحجاب الذي أكن القلب والعياذ بالله، فلم تدع هذه الآية حجاباً مرتخياً إلا أسبلته، ولم تبق لهؤلاء الأشقياء مطمعاً ولا صريحاً إلا أسبلته، فنسأل الله كفايته.

نمط واحد؛ لأنه لا فرق في المعنى بين قولك: قلوبنا في أكنة. وعلى قلوبنا أكنة. والدليل عليه قوله تعالى: ﴿إِنَّا جَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً﴾ ولو قيل: إنا جعلنا قلوبهم في أكنة لم يختلف المعنى، وترى المطابع منهم لا يراعون الطباق والملاحظة^(١) إلا في المعاني.

﴿قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰ إِلَىَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمُ اللَّهُ وَاحِدٌ فَاسْتَقِيمُوا إِلَيْهِ وَاسْتَغْفِرُوهُ ۚ وَوَيْلٌ لِّلْمُشْرِكِينَ ﴿٦﴾ الَّذِينَ لَا يُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ ﴿٧﴾﴾

فإن قلت: من أين كان قوله: ﴿إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰ إِلَىَّ﴾ جواباً لقولهم: ﴿قُلُوبُنَا فِي أَكِنَّةٍ﴾^(٢)؟ قلت: من حيث إنه قال لهم: إني لست بملك، وإنما أنا بشر مثلكم، وقد أوحى إليّ دونكم فصحت - بالوحي إليّ وأنا بشر - نبوتي، وإذا صحت نبوتي وجب عليكم اتباعي، وفيما يوحى إليّ: أن إلهكم إله واحد ﴿فَاسْتَقِيمُوا إِلَيْهِ﴾ فاستووا إليه بالتوحيد وإخلاص العبادة غير ذاهبين يميناً ولا شمالاً، ولا ملتفتين إلى ما يسؤل لكم الشيطان من اتخاذ الأولياء والشفعاء، وتوبوا إليه مما سبق لكم من الشرك ﴿وَاسْتَغْفِرُوهُ﴾. وقرئ: «قال إنما أنا بشر». فإن قلت: لم خص من بين أوصاف المشركين منع الزكاة مقروناً بالكفر بالآخرة؟ قلت: لأن أحب شيء إلى الإنسان ماله وهو شقيق روحه، فإذا بذله في سبيل الله فذلك أقوى دليل على ثباته واستقامته وصدق نيته ونصوح طوبته. ألا ترى إلى قوله عز وجل: ﴿وَمَثَلُ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمُ اتِّغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ وَتَثْبِيئًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ﴾ [البقرة: ٢٦٥] أي: يثبتون أنفسهم ويدلون على ثباتها بإنفاق الأموال، وما خدع المؤلف قلوبهم إلا بلمظة^(٣) من الدنيا فقرت عصبيتهم ولانت شكيمتهم، وأهل الردة بعد رسول الله ﷺ ما تظاهروا إلا بمنع الزكاة، فنصبت لهم الحرب، وجوهدوا^(٤). وفيه بعث للمؤمنين على أداء

(١) قوله: «والملاحظة» لعله: والملاحاة. (ع).

(٢) قال محمود: «فإن قلت: كيف كان هذا جواباً لما تقدمه» قال أحمد: وأجاب بما نلخصه فنقول: لما أبوا القبول منه عليه الصلاة والسلام كل الإباء، بدأهم بإقامة الحجة على وجوب القبول منه، فإنه بشر مثلهم لا قدرة له على إظهار المعجزات التي ظهرت. وإنما القادر على إظهارها هو الله تعالى تصديقاً له عليه الصلاة والسلام، ثم بين لهم بعد قيام الحجة عليهم أهم ما بعث به وهو التوحيد، واندرج تحت الاستقامة جميع تفاصيل الشرع وتمم ذلك بإنذارهم على ترك القبول بالويل الطويل.

(٣) قوله: «إلا بلمظة من الدنيا» في الصحاح: «لمظ» إذا تتبع بلسانه بقية الطعام في فمه، اهـ. فللمظة: بمعنى ملموظ، كمضغة بمعنى ممضوغ. (ع).

(٤) قال محمود: «فإن قلت: لم خص الزكاة؟ وأجاب بأن أحب الأشياء إلى الإنسان ماله، وهو شقيق روحه، فبذله مصداق لاستقامته ونصوح طوبته، وما خدع المؤلف قلوبهم إلا بلمظة من الدنيا، وأهل

الزكاة، وتخويف شديد من منعها؛ حيث جعل المنع من أوصاف المشركين، وقرن بالكفر بالآخرة. وقيل: كانت قريش يطعمون الحاج، ويحرمون من آمن منهم برسول الله ﷺ. وقيل: لا يفعلون ما يكونون به أركياء، وهو الإيمان.

﴿إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ﴾ (٨)

الممنون: المقطوع. وقيل: لا يمن عليهم لأنه إنما يمن التفضل. فأما الأجر فحق أداؤه. وقيل: نزلت في المرضى والزمنى والهرمى: إذا عجزوا عن الطاعة كتب لهم الأجر، كأصح ما كانوا يعملون.

﴿قُلْ أَنبِئُكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِالَّذِي خَلَقَ الْأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُ ءَآدَادًا ذَلِكَ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾ (٩) ﴿وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ مِنْ فَوْقِهَا وَبَرَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَاءً لِلنَّاسِ لَيْلٌ أَوْ نَهَارٌ إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ فَقَدْ لَهَا مِنَ الْأَرْضِ نَبْتًا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَنبِئَا طَائِعِينَ﴾ (١٠) ﴿فَفَضَّلْنَهُمْ سَبْعَ سَمَوَاتٍ فِي يَوْمَيْنِ وَأَوْحَىٰ فِي كُلِّ سَمَاءٍ أَمْرَهَا وَزَيَّنَّا أَسْمَاءَ الَّذِينَ يَمْصُوبُونَ إِلَيْكَ لِتَفْذَرِ الْأَعْزِيزِ الْعَلِيمِ﴾ (١١)

﴿أَنبِئُكُمْ﴾ بهمزة (١): الثانية بين بين. و «ءانئكم» بألف بين همزتين ﴿ذَلِكَ﴾ الذي قدر على خلق الأرض في مدة يومين. وهو ﴿رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾. ﴿رَوَاسِيَ﴾ جبالاً ثوابت. فإن قلت: ما معنى قوله: ﴿مِنْ فَوْقِهَا﴾؟ وهل اقتصر على قوله: ﴿وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ﴾ كقوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ شَاخِصَاتٍ﴾ [المرسلات: ٢٧]، ﴿وَجَعَلْنَا فِي الْأَرْضِ رَوَاسِيَ﴾ [الأنبياء: ٣١]، ﴿لَهَا رَوَاسِيَ وَجَعَلْنَا فِيهَا كَالْمَسَامِيرِ: لمنعت من الميدان أيضاً، وإنما اختار إرساءها فوق الأرض؛ لتكون المنافع في الجبال معرضة لطالبيها، حاضرة محصلها؛ وليبصر أن الأرض والجبال أثقال على أثقال، كلها مفتقرة إلى ممسك لا بد لها منه، وهو ممسكها عزّ وعلا بقدرته. ﴿وَبَرَكَ فِيهَا﴾ وأكثر خيرها وأنماه. ﴿وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا﴾ أرزاق أهلها ومعاشهم وما يصلحهم. وفي قراءة ابن مسعود. وقسم فيها أقواتها ﴿فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَاءً﴾ فذلّة (٢) لمدة خلق الله الأرض وما فيها، كأنه قال: كل ذلك في أربعة أيام كاملة مستوية بلا زيادة ولا

= الردة ما تظاهروا إلا بمنع الزكاة فنصبت لهم الحرب وجوهدها. قال أحمد: كلام حسن بعد تبديل قوله: وما خدع المؤلف؛ فإن استعماله الخداع غير لائق؛ لأنهم إنما تألفهم عليه الصلاة والسلام على الإيمان من قبيل الملاطفة ودفع السيئة بالحسنة.

(١) قوله: «أنئكم بهمزة» لعله: قرئ بهمزة... إلخ. (ع).

(٢) أي كلام منقطع. روح المعاني (١٠١/٢٤).

نقصان. قيل: خلق الله الأرض في يوم الأحد ويوم الاثنين، وما فيها يوم الثلاثاء ويوم الأربعاء. وقال الزجاج: في أربعة أيام في تنمة أربعة أيام، يريد بالتنمة اليومين. وقرئ: «سواء» بالحركات الثلاث: الجر على الوصف والنصب على: استوت سواء، أي: استواء. والرفع على: هي سواء. فإن قلت: بم تعلق قوله: ﴿لِلسَّائِلِينَ﴾؟ قلت: بمحذوف، كأنه قيل: هذا الحصر لأجل من سأل: في كم خلقت الأرض وما فيها؟ أو يقدر: أي: قدر فيها الأقوات لأجل الطالبين لها المحتاجين إليها من المقتاتين. وهذا الوجه الأخير لا يستقيم إلا على تفسير الزجاج. ١٥٧/٢^(١) فإن قلت: هلا قيل في يومين؟ وأي فائدة في هذه الفذلكة؟ قلت: إذا قال في أربعة أيام وقد ذكر أن الأرض خلقت في يومين، علم أن ما فيها خلق في يومين، فبقيت المخايرة بين أن تقول: في يومين وأن تقول: في أربعة أيام سواء، فكانت في أربعة أيام سواء فائدة ليست في يومين، وهي الدلالة على أنها كانت أياماً كاملة بغير زيادة ولا نقصان. ولو قال: في يومين - وقد يطلق اليومان على أكثرهما - لكان يجوز أن يريد باليومين الأولين والآخرين أكثرهما: ﴿ثُمَّ أَسَوَّى إِلَى السَّمَاءِ﴾ من قولك: استوى إلى مكان كذا، إذا توجه إليه توجهاً لا يلوي على شيء، وهو من الاستواء الذي هو ضد الاعوجاج، ونحو قولهم: استقام إليه وامتد إليه. ومنه قوله تعالى: ﴿فَأَسْتَقِيمُوا إِلَيْهِ﴾ [فصلت: ٦] والمعنى: ثم دعاه داعي الحكمة إلى خلق السماء بعد خلق الأرض وما فيها من غير صارف يصرفه عن ذلك. قيل: كان عرشه قبل

(١) قال محمود: «إن قوله (في أربعة أيام) فذلكة بمدة خلق الله الأرض وما فيها، كأنه قال: وقدر فيها أقواتها في يومين آخرين، فذلك أربعة أيام سواء. وقال: ومعنى سواء: كاملة مستوية بلا زيادة ولا نقصان. ونقل عن الزجاج أن معنى الآية في تنمة أربعة أيام، يريد بالتنمة: اليومين، ثم قال: فإن قلت: بمتعلق قوله: (للسائلين)؟ وأجاب بأنه متعلق بمحذوف، كأنه قيل: هذا الحصر لأجل من سأل: في كم خلقت الأرض وما فيها؟ أو يقدر، أي: قدر فيها الأقوات لأجل السائلين المحتاجين إليها من المقتاتين، ثم قال: وهذا الوجه الأخير لا يستقيم إلا على تفسير الزجاج» قال أحمد: لم يبين امتناعه على التفسير الأول ونحن نبينه فنقول: مقتضى التفسير الأول أن قوله: (في أربعة أيام فذلكة)، ومن شأنها الوقوع في طرف الكلام بعد تمامه، فلو جعل قوله: (للسائلين) متعلقاً بمقدر: لزم وقوع الفذلكة في حشو الكلام، ولا كذلك على تفسير الزجاج؛ فإن الأربعة على قوله من تنمة الأول، وهي متعلقة بمقدر على تأويل حذف التنمة تعلق الظرف بالمظروف؛ ليلام ذلك إتمام الكلام ببيان المقصود من خلق الأقوات بعد بيان من خلقها. وتفسير الزجاج - والله أعلم - أرجح؛ فإنه يشتمل على ذكر مدة خلق الأقوات بالتأويل القريب الذي قدره، ومتضمن لما يقوم مقام الفذلكة؛ إذ ذكر جملة العدد الذي هو ظرف لخلقها وخلق أقواتها، وعلى تفسير الزمخشري تكون الفذلكة مذكورة من غير تقدم تصريح بجملة تفاصيلها، فإنه لم يذكر منها سوى يومين خاصة، ومن شأن الفذلكة أن يتقدم النص على جميع أعدادها مفصلة، ثم تأتي هي على الجملة كقوله: (فصيام ثلاثة أيام في الحج وسبعة إذا رجعتم تلك عشرة كاملة).

خلق السموات والأرض على الماء، فأخرج من الماء دخاناً، فارتفع فوق الماء وعلا عليه، فأبیس الماء فجعله أرضاً واحدة، ثم فتقها فجعلها أرضين، ثم خلق السماء من الدخان المرتفع. ومعنى أمر السماء والأرض بالإتيان وامتثالهما: أنه أراد تكوينهما فلم يمتنعا عليه، ووجدتا كما أرادهما، وكانتا في ذلك كالمأمور المطيع إذا ورد عليه فعل الأمر المطاع^(١)، وهو من المجاز الذي يسمى التمثيل. ويجوز أن يكون تخيلاً وبنى الأمر فيه على أن الله تعالى كلم السماء والأرض وقال لهما: اثبتا شئتما ذلك أو أبيتما، فقالتا: أتينا على الطوع لا على الكره. والغرض تصوير^(٢) أثر قدرته في المقدورات لا غير؛ من غير أن يحقق شيئاً من الخطاب والجواب. ونحوه قول القائل: قال الجدار للوتد: لم تشقني؟ قال الود: اسأل من يدقني، فلم يتركني ورائي^(٣) الحجر الذي ورائي. فإن قلت: لم ذكر الأرض مع السماء وانتظمهما في الأمر بالإتيان، والأرض مخلوقة قبل السماء بيومين؟ قلت: قد خلق جرم الأرض أولاً غير مدحوة، ثم دحاها بعد خلق السماء، كما قال تعالى: ﴿وَالْأَرْضَ بَعْدَ ذَلِكَ دَحَاهَا﴾ [النازعات: ٣٠] فالمعنى: اثبتا على ما ينبغي أن تأتيا عليه من الشكل والوصف: اثبتي يا أرض مدحوة قراراً ومهاداً لأهلك، واثبتي يا سماء مقببة سقفاً لهم. ومعنى الإتيان: الحصول والوقوع، كما تقول: أتى عمله مرضياً، وجاء مقبولاً. ويجوز أن يكون المعنى: لتأت كل واحدة منكما صاحبتهما الإتيان الذي أريده وتقتضيه الحكمة والتدبير: من كون الأرض قراراً للسماء، وكون السماء سقفاً للأرض. وتنصره قراءة من قرأ: «آتيا» وآتينا: من المؤاتاة وهي الموافقة: أي: لتوات كل واحدة أختها ولتوافقها. قالتا: وافقنا وساعدنا. ويحتمل وافقا أمري ومشيتي ولا تمتنعا. فإن قلت: ما معنى طوعاً أو كرهاً؟ قلت: هو مثل للزوم وتأثير قدرته فيهما، وأن امتناعهما من تأثير قدرته محال؛ كما يقول الجبار لمن تحت يده: لتفعلن هذا شئت أو أبيت، ولتفعلنه طوعاً أو كرهاً. وانتصابهما على الحال، بمعنى: طائعتين أو مكرهتين. فإن قلت: هلا قيل: طائعتين على اللفظ؟ أو طائعات على المعنى؟ لأنها سموات وأرضون. قلت: لما

(١) قوله: «فعل الأمر المطاع» لعله: أمر الأمر. (ع).

(٢) قوله: «تصوير أثر قدرته» لعله: تأثير. (ع).

(٣) قال محمود: «إما أن يكون هذا من مجاز التمثيل كأن عدم امتناعهما على قدرته امتثال المأمور المطيع إذا ورد عليه الأمر المطاع، فهذا وجه. وأما أن يكون تخيلاً فيبنى الأمر فيه على أن الله تعالى كلم السموات والأرض فأجابته، والغرض منه تصوير أثر القدرة في المقدور من غير أن يحقق شيئاً من الخطاب والجواب، ومثله قول القائل: قال الحائط للود: لم تشقني؟ فالود: اسأل من يدقني لم يتركني ورائي الحجر الذي ورائي» قال أحمد: قد تقدم إنكاري عليه إطلاق التخيل على كلام الله تعالى، فإن معنى هذا الإطلاق لو كان صحيحاً والمراد منه التصوير لوجب اجتناب التعبير عنه بهذه العبارة؛ لما فيها من إيها وسوء أدب، والله أعلم.

جعلن مخاطبات ومجيبات، ووصفن بالطوع والكره قيل: طائعين، في موضع: طائعات. نحو قوله: (ساجدين)^(١). ﴿فَقَضَّاهُنَّ﴾ يجوز أن يرجع الضمير فيه إلى السماء على المعنى كما قال: ﴿طَائِعِينَ﴾ ونحوه: ﴿أَعْبَارُ نَحْلٍ حَاوِيَةٍ﴾ [الحاقة: ٧] ويجوز أن يكون ضميراً مبهماً مفسراً بسبع سموات، والفرق بين النصيبين أن أحدهما على الحال، والثاني: على التمييز، قيل: خلق الله السموات وما فيها في يومين: في يوم الخميس والجمعة، وفرغ في آخر ساعة من يوم الجمعة، فخلق فيها آدم وهي الساعة التي تقوم فيها القيامة. وفي هذا دليل على ما ذكرت، من أنه لو قيل: في يومين في موضع أربعة أيام سواء، لم يعلم أنهما يومان كاملان أو ناقصان^(٢). فإن قلت: فلو قيل: خلق الأرض في يومين كاملين وقدر فيها أقواتها في يومين

(١) قال محمود: فإن قلت لم ذكر الأرض مع السماء وانتظمها في الأمر بالإتيان معها والأرض مخلوقة قبل السماء بيومين؟ وأجاب بأنه قد خلق جرم الأرض أولاً غير مدحوة، ثم دحاها بعد خلق السماء كما قال: (والأرض بعد ذلك دحاها) فالمعنى: اتبنا على ما ينبغي من الشكل: اثني يا أرض مدحوة وقرارا ومهاداً، واثني يا سماء سقفاً مقببة. ثم قال: فإن قلت ما معنى طوعاً أو كرهاً، وأجاب بأنه تمثيل للزوم تأثير القدرة فيهما، كما يقول الجبار لمن تحت يده: افعل هذا شئت أو أبيت. ثم قال: فإن قلت: هلا قيل طائعتين، على اللفظ. وطائعات، على المعنى: لأنها سموات وأرضون. وأجاب بأنه لما جعلن مخاطبات ومجيبات وموصوفات بالطوع والكره. قيل: طائعين في موضع طائعات، نحو قوله: ساجدين قال أحمد: لم يحقق الجواب عن السؤال الآخر، وذلك أن في ضمن الآية سؤالين: أحدهما لم ذكرها وهي مؤنثة، وهذا هو السؤال الذي أورده. الثاني أتى بها على جمع العقلاء وهي لا تعقل، وهذا لم يذكره، فالجواب الذي ذكره مختص بالسؤال الذي لم يذكره، ولهذا نظره بقوله: (ساجدين) فإن تلك الآية ليس فيها سوى السؤال عن كونها جمعت جمع العقلاء. فأما السؤال الآخر فلا؛ لأن الكلام راجع إلى الكواكب وهي مذكرة، والشمس وإن كانت مؤنثة إلا أنه غلب في الكلام المذكر على المؤنث على المنهاج المعروف؛ فأما هذه الآية فتزيد على تلك بهذا السؤال الآخر: وهو أن جميع ما تقدم ذكره من السموات والأرض مؤنث، فيقال أولاً: لم ذكرها؟ وثانياً: لم أتى جمعها المذكر على جمع نعت جمع العقلاء، ليتحقق نسبة السؤال والجواب؟ والطوع اللاتي تختص بالعقلاء لا بها، ولم يوجد في جمع المؤنث عدول إلى جمع المذكر لوجود الصيغة المرشدة إلى العقل فيه، فتمت الفائدة بذلك على تأويل السموات والأرض بالأملك مثلاً وما في معناه من المذكر، ثم يغلب المذكر على المؤنث، ولا يعدم مثل هذا التأويل في الأرضين أيضاً.

(٢) قال محمود: «قيل: إن الله تعالى خلق السموات وما فيها في يوم الخميس ويوم الجمعة، وفرغ آخر ساعة من يوم الجمعة، وخلق آدم في تنمة اليوم، وفيه تقوم القيامة، ثم استدل بذلك على ما ذكره من أنه لو قال: في يومين، في موضع أربعة أيام سواء، لم يعلم أنهما يومان كاملان أو ناقصان»، قال أحمد: كأنه يستدل بإهمال اليومين عن التأكيد، حيث لم يكن خلق السموات بما فيها في جملة اليومين، على أنه إنما فذلك أيام خلق الأرض بما فيها؛ لأنه لو فصلها لم يكن فيها دليل على استيعاب الخلق لكل يومين منها، بل كان يجوز أن يكون الخلق في أحد اليومين وبعض الآخر، كما كان في هذه الآية على النقل الذي ذكر، وهذا لا يتم له منه غرض، فإن للقاتل أن يقول: إنما كان خلق السموات بما فيها في يومين كاملين؛ لأن آدم لم يكن في السموات حينئذ، وبخلقه كمل اليومان على مقتضى ما نقله، فتأمل.

كاملين . أو قيل : بعد ذكر اليومين : تلك أربعة سواء ؟ قلت : الذي أورده سبحانه أخصر وأفصح وأحسن طباقاً لما عليه التنزيل من مغاصاة القرائح ومصاك الركب^(١)؛ لتمييز الفاضل من الناقص، والمتقدم من الناكص، وترتفع الدرجات، ويتضاعف الثواب، ﴿أَمْرَهَا﴾ ما أمر به فيها ودبره من خلق الملائكة والنيرات وغير ذلك . أو شأنها وما يصلحها . ﴿وَحِفْظًا﴾ وحفظناها حفظاً، يعني من المسترقة بالثواب . ويجوز أن يكون مفعولاً له على المعنى، كأنه قال : وخلقنا المصاييح زينة وحفظاً .

﴿فَإِنْ أَعْرَضُوا فَقُلْ أَنْذَرْتُكُمْ صَعِقَةً مِثْلَ صَعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ ﴿١٣﴾ إِذْ جَاءَتْهُمْ الرُّسُلُ مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ قَالُوا لَوْ شَاءَ رَبُّنَا لَأَنْزَلَ مَلَائِكَةً فَإِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ كَافِرُونَ ﴿١٤﴾﴾

﴿فَإِنْ أَعْرَضُوا﴾ ١٥٧/٢ ب بعد ما تتلو عليهم من هذه الحجج على وحدانيته وقدرته، فحذرهم أن تصيهم صاعقة، أي : عذاب شديد الوقع كأنه صاعقة . وقرئ : «صعقة» (مثل) صعقة عاد و ثمود : وهي المرة من الصعق أو الصعق . يقال : صعقته الصاعقة صعقاً فصعق صعقاً، وهو من باب : فعلته ففعل . ﴿مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ﴾ أي : أتوهم من كل جانب، واجتهدوا بهم وأعملوا فيهم كل حيلة، فلم يروا منهم إلا العتو والإعراض، كما حكى الله تعالى عن الشيطان : ﴿لَا يَنْتَهُرُ مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ﴾ [الأعراف : ١٧] يعني لآتينهم من كل جهة، ولأعملن فيهم كل حيلة، وتقول : استدرت بفلان من كل جانب، فلم يكن لي فيه حيلة . وعن الحسن أنذروهم من وقائع الله فيمن قبلهم من الأمم وعذاب الآخرة؛ لأنهم إذا حذروهم ذلك فقد جاءوهم بالوعظ من جهة الزمن الماضي وما جرى فيه على الكفار، ومن جهة المستقبل وما سيجري عليهم . وقيل : معناه إذ جاءتهم الرسل من قبلهم ومن بعدهم . فإن قلت : الرسل الذين من قبلهم ومن بعدهم كيف يوصفون بأنهم جاءوهم، وكيف يخاطبونهم بقولهم : ﴿إِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ كَافِرُونَ﴾؟ قلت : قد جاءهم هود وصالح داعيين إلى الإيمان بهما وبجميع الرسل ممن جاء من بين أيديهم، أي : من قبلهم ومن يجيء من خلفهم، أي : من بعدهم؛ فكان الرسل جميعاً قد جاءوهم . وقولهم : ﴿إِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ كَافِرُونَ﴾ خطاب منهم لهود وصالح ولسائر الأنبياء الذين دعوا إلى الإيمان بهم . «أن» في ﴿أَلَّا تَعْبُدُوا﴾ بمعنى أي، أو مخففة من الثقلية، أصله : بأنه لا تعبدوا، أي : بأن الشأن والحديث قولنا لكم : لا تعبدوا، ومفعول شاء محذوف

(١) قوله : «من مغاصاة القرائح ومصاك الركب» أي أمكنة الغوص على اللؤلؤ، وأمكنة اصطكاك الركب . (ع)

أي: ﴿لَوْ شَاءَ رَبُّنَا﴾ إرسال الرسل^(١) ﴿لَأَنْزَلْنَا مَلَائِكَةً فَإِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ كَافِرُونَ﴾ معناه: فإذا أنتم بشر ولستم بملائكة، فإننا لا نؤمن بكم وبما جئتم به، وقولهم: ﴿أُرْسِلْتُمْ بِهِ﴾ ليس بإقرار بالإرسال، وإنما هو على كلام الرسل، وفيه تهكم، كما قال فرعون: ﴿إِنَّ رَسُولَكُمْ الَّذِي أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَكَاذِبٌ﴾ [الشعراء: ٢٧]. روي: أَنَّ أبا جهل قال في ملاٍ من قريش: قد التبس علينا أمر محمد، فلو التمسنا لنا رجلاً عالماً بالشعر والكهانة والسحر فكلّمه ثم أتانا ببيان عن أمره، فقال عتبة بن ربيعة: والله لقد سمعت الشعر والكهانة والسحر وعلمت من ذلك علماً، وما يخفى عليّ، فاتاه فقال: أنت يا محمد خير أم هاشم؟ أنت خير أم عبد المطلب؟ أنت خير أم عبد الله؟ فيم تشتم آلهتنا وتضلّلنا، فإن كنت تريد الرياسة عقدنا لك اللواء فكنت رئيسنا، وإن تك بك الباء زوجناك عشر نسوة تختار من أي بنات قريش شئت، وإن كان بك المال جمعنا لك من أموالنا ما تستغني به، ورسول الله ﷺ ساكت؛ فلما فرغ قال: بسم الله الرحمن الرحيم ﴿حَدَّثَ﴾ إلى قوله: ﴿صَوِّعَةً مِّثْلَ صَوِّعَةِ عِيسَى وَثُمُودَ﴾ [فصلت: ١٣] فأمسك عتبة على فيه وناشده بالرحم، ورجع إلى أهله ولم يخرج إلى قريش فلما احتبس عنهم قالوا: ما نرى عتبة إلّا قد صبأ، فانطلقوا إليه وقالوا: يا عتبة ما حبسك عنا إلّا أنك قد صبأت، فغضب وأقسم لا يكلم محمداً أبداً، ثم قال: والله لقد كلمته، فأجابني بشيء والله ما هو بشعر ولا كهانة ولا سحر، ولما بلغ صاعقة عاد وثمود: أمسكت بفيه وناشدته بالرحم أن يكف، وقد علمتم أن محمداً إذا قال شيئاً لم يكذب، فخفت أن ينزل بكم العذاب (١٣٦٣).

١٣٦٣ - أخرجه البيهقي في الدلائل (٢/ ٢٠٤ - ٢٠٥)، باب: «اعتراف مشركي قريش بما في كتاب الله =

(١) قال السمين الحلبي: قال الشيخ: تَتَّبَعْتُ الْقُرْآنَ وكلام العرب فلم أجِدْ مفعول شاء الواقع بعد «لَوْ» إلّا مِنْ جِنْسِ جَوَابِهَا نحو: ﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَمَعَهُمْ عَلَى الْهُدَى﴾ أي لو شاء جَمَعَهُمْ عَلَى الْهَدَى لَجَمَعَهُمْ عَلَيْهِ، ﴿لَوْ نَشَاءُ لَجْعَلْنَاهُ حِطَامًا﴾ ﴿لَوْ نَشَاءُ لَجْعَلْنَاهُ أَجْنَابًا﴾ ﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَأَمَنَّ﴾ ﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُ﴾ ﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا عِبدْنَا مِنْ دُونِهِ﴾ وقال [من الطويل]:

فَلَوْ شَاءَ رَبِّي كُنْتُ قَيْسَ بْنَ خَالِدٍ وَلَوْ شَاءَ رَبِّي كُنْتُ عُمَرَ بْنَ مَرْثِدٍ
وقال [من الزجر]:

وَالَّذِي لَوْ شَاءَ لَكُنْتُ صَخْرًا أَوْ جَبَلًا أَتَمَّ مُشْمَخِرًا

قال: فَعَلَى مَا تَقَدَّمَ لَا يَكُونُ الْمَحذُوفُ مَا قَدَّرَهُ الزَّمَخْشَرِيُّ، وإِنَّمَا التَّقْدِيرُ: لو شاءَ رَبُّنَا إِثْرَالُ مَلَائِكَةٍ بِالرَّسَالَةِ مِنْهُ إِلَى الْإِنْسَانِ لِأَنَّهُمْ بِهَا إِلَهُهُمْ؛ وَهَذَا أَبْلَغُ فِي الْإِقْتِنَاعِ مِنْ إِزْسَالِ الْبَشَرِ؛ إِذْ عَلَّقُوا ذَلِكَ بِإِثْرَالِ الْمَلَائِكَةِ، وَهُوَ لَمْ يَشَأْ ذَلِكَ فَكَيْفَ يَشَاءُ ذَلِكَ فِي الْبَشَرِ؟ قُلْتُ: وَتَقْدِيرُ أَبِي الْقَاسِمِ أَوْفَعُ مَعْنَى وَأَخْلَصُ مِنْ إِيقَاعِ الظَّاهِرِ مَوْقِعِ الْمُضْمَرِ؛ إِذْ يَصِيرُ التَّقْدِيرُ: لو شاءَ إِثْرَالُ مَلَائِكَةٍ لِأَنَّهُ مَلَائِكَةٌ. انتهى. الدر المصون.

﴿فَأَمَّا عَادٌ فَاسْتَكْبَرُوا فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَقَالُوا مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يَجْحَدُونَ ﴿٥٥﴾ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِي أَيَّامٍ نَحْسَاتٍ لِنَدْبِقَهُمْ عَذَابَ الْخِزْيِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَخْزَىٰ وَهُمْ لَا يُنصَرُونَ ﴿٥٦﴾﴾

﴿فَأَسْتَكْبَرُوا فِي الْأَرْضِ﴾ أي: تعظموا فيها على أهلها بما لا يستحقون به التعظم وهو القوة وعظم الأجرام. أو استعلوا في الأرض واستولوا على أهلها بغير استحقاق للولاية. ﴿مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً﴾ كانوا ذوي أجسام طوال وخلق عظيم، وبلغ من قوتهم أن الرجل كان ينزع الصخرة من الجبل فيقتلعها بيده. فإن قلت: القوة هي الشدة والصلابة في البنية، وهي نقيضة الضعف. وأما القدرة فما لأجله يصحّ الفعل من الفاعل من تميز بذات أو بصحة بنية^(١) وهي نقيضة العجز، والله سبحانه وتعالى لا يوصف بالقوة إلا على معنى القدرة، فكيف صحّ قوله: ﴿هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً﴾؟ وإنما يصحّ إذا أريد بالقوة في الموضعين شيء واحد؟ قلت: القدرة في الإنسان هي صحة البنية والاعتدال والقوة والشدة والصلابة في البنية، وحقيقتها: زيادة القدرة^(٢)، فكما صحّ أن يقال: الله أقدر منهم، جاز أن يقال:

= تعالى من الإعجاز...»، وابن أبي شيبه (٣٣٠/٧ - ٣٣١)، كتاب المغازي، باب: «في أذى قريش للنبي ﷺ...» رقم (٣٦٥٦٠)، وأبو يعلى (٣٤٩/٣ - ٣٥١)، رقم (٥١) - (١٨١٨)، وابن هشام في السيرة (٣٦٨/١ - ٣٧١)، في ذكر ما كان من أمر عتبة بن ربيعة، رقم (٢٨٣)، والحاكم (٢٥٣/٢)، كتاب التفسير، باب: ما أحسن محسن من مسلم ولا كافر إلا أثابه الله، والبخاري في تفسيره (١١٠/٤)، كلهم من طريق جابر بن عبد الله، وذكره ابن حجر في المطالب العالية (٤/١٩٩، ٢٠٠)، باب: اعتراف القدماء بأعلام النبوة، رقم (٨٢٨٥)، والهيتمي في المجمع (٦/٢٢ - ٢٣)، وعزاه الزيلعي في تخريج أحاديث الكشاف (٣/٢٢٩) للثعلبي ولابن مردويه في تفسيرهما، قال الحاكم: صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه، وأقره الذهبي، وقال الهيتمي: رواه أبو يعلى، وفيه الأجلح الكندي، وثقه ابن معين، وغيره، وضعفه النسائي، وغيره، وبقيّة رجاله ثقات. قال الحافظ: أخرجه ابن إسحاق في السيرة: حدثني يزيد بن زياد عن محمد بن كعب بهذا نحوه مرسلًا، ووصله ابن أبي شيبه، وعنه أبو يعلى وعبد بن حميد وأبو نعيم والبيهقي كلاهما في الدلائل، كلهم من رواية الأجلح الكندي عن الزبال بن حرملة عن جابر مطولاً. انتهى.

(١) قوله: «من تمييز بذات أو لصحة بنية» هذا كقوله الآتي: إنه يقدر لذاته، تمحل لتطبيق الآية على مذهب المعتزلة على أنه تعالى قادر بذاته؛ لكن مذهب أهل السنة أنه تعالى قادر بقدرة قائمة بذاته، وكذا بقية الصفات كما في التوحيد. (ع).

(٢) قال محمود: «القوة: الشدة في البنية ونقيضها الضعف، والقدرة ما لأجله يصحّ الفعل من الفاعل، وهي نقيضة العجز، فإن وصف الله تعالى بالقوة فذاك بمعنى القدرة وليست القوة على حقيقتها، فكيف صحّ قوله: (هو أشد منهم قوة)؟ ولا بد أن يراد بالقوة في الموضعين شيء واحد؟ وأجاب عنه بأن القدرة في الإنسان صحة البنية والاعتدال والشدة، والقوة زيادة في القدرة، فكما صحّ أن

أقوى منهم، على معنى: أنه يقدر لذاته على ما لا يقدرون عليه بازدياد قدرهم. ﴿يَجْحَدُونَ﴾ كانوا يعرفون أنها حق، ولكنهم جحدوها كما يجحد المودع الوديعه، وهو معطوف^(١) على فاستكبروا، أي: كانوا كفرة فسقة. ١٥٨/٢ أ الصرصر: العاصفة التي تصرصر، أي: تصوت في هبوبها. وقيل: الباردة التي تحرق بشدة بردها، تكرير لبناء الصر وهو البرد الذي يصر، أي: يجمع ويقبض. ﴿نَحْسَاتٍ﴾ قرئ بكسر الحاء وسكونها. ونحس نحساً: نقيض سعد سعداً، وهو نحس. وأما نحس، فأما مخفف نحس، أو صفة على فعل، كالضخم وشبهه. أو وصف بمصدر. وقرئ: «التذيقهم» على أن الإذاقة للريح أو للأيام النحسات. وأضاف العذاب إلى الخزي وهو الذل والاستكانة على أنه وصف للعذاب، كأنه قال: عذاب خزي، كما تقول: فعل السوء، تريد: الفعل السيء، والدليل عليه قوله تعالى: ﴿وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَخْزَى﴾ وهو من الإسناد المجازي، ووصف العذاب بالخزي: أبلغ من وصفهم به. ألا ترى إلى البون بين قوليك: هو شاعر، وله شعر شاعر.

﴿وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَاهُمْ فَاسْتَحَبُّوا الْعَمَى عَلَى الْهُدَى فَأَخَذَتْهُمْ صَاعِقَةُ الْعَذَابِ الْهُونِ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ (١٧) وَنَجَّيْنَا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَكَانُوا يَنْقُوتُونَ ﴿١٨﴾

وقرئ: «ثمود» بالرفع والنصب منوناً وغير منون، والرفع أفصح لوقوعه بعد حرف الابتداء. وقرئ بضم الثاء. ﴿فَهَدَيْنَاهُمْ﴾ فدللناهم على طريقي الضلالة والرشد، كقوله تعالى: ﴿وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ﴾ [البلد: ١٠]. ﴿فَاسْتَحَبُّوا الْعَمَى عَلَى الْهُدَى﴾ فاختاروا الدخول في الضلالة على الدخول في الرشd. فإن قلت: أليس معنى هَدَيْتُهُ: حصلت فيه الهدى، والدليل عليه قولك: هديته فاهتدى، بمعنى: تحصيل البغية وحصولها، كما تقول: ردعته فارتدع، فكيف ساغ استعماله في الدلالة المجردة؟ قلت: للدلالة على أنه مكنهم وأزاح

= يقال: أقدر منهم، صح أن يقال: أقوى منهم، على معنى أنه يقدر لذاته على ما لا يقدرون عليه بازدياد قدرتهم قال أحمد: فسر القدرة على خلاف ما هي في اعتقاد المتكلمين، فإن سلم له من حيث اللغة فقد نكص عنه إلى حمل القدرة في الآية على مقتضاها في فن الكلام، وجعل التفضيل من حيث إن الله تعالى قادر لذاته. أي: بلا قدرة، والمخلوق قادر بقدرة على القاعدة الفاسدة للقدرة، ونظير هذا التفسير في الفساد تفسير قول القائل: زيد أعلم من عمرو، بإثبات صفة العلم للمفضول، وسلبها بالكلية عن الأفضل. وهل هذا إلا عنة وعمى في اتباع الهوى وعمه؟ فالحق أن التفضيل إنما جاء من جهة أن القدرة الثابتة للعبد قدرة مقارنة لفعله، معلومة قبله وبعده، مفقودة غير مؤثرة في العقل الراجح في محلها، فضلاً عن تجاوزها إلى غيره، وقدرة الله جلّت قدرته مؤثرة في المقدورات، موجودة أزلاً وأبداً، عامة التعلق بجميع الكائنات من الممكنات، فهذا هو النور الذي لا يلوح إلا من إثبات عقائد السنة لمن سبقت له من الله المنة.

(١) قوله: «وهو معطوف على فاستكبروا» أي: قوله تعالى (وكانوا... إلخ). (ع).

عللهم ولم يُبق لهم عذراً ولا علة، فكانه حصل البغية فيهم بتحصيل ما يوجبها ويقتضيها. ﴿صَلِّعَةُ الْعَذَابِ﴾ داهية العذاب وقارعة العذاب. و﴿الْمُؤْنِ﴾ الهوان، وصف به العذاب مبالغة، أو أبدله منه، ولو لم يكن في القرآن حجة على القدرية الذين هم مجوس هذه الأمة^(١) بشهادة نبيها ﷺ. وكفى به شاهداً - إلا هذه الآية، لكفى بها حجة^(٢).

﴿وَيَوْمَ يُحْشَرُ أَعْدَاءُ اللَّهِ إِلَى النَّارِ فَهُمْ يُوزَعُونَ﴾ (١٩) حَتَّى إِذَا مَا جَاءُوهَا شَهِدَ عَلَيْهِمْ سَمْعُهُمْ وَأَبْصَرُهُمْ وَحُلُوْدُهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٢٠﴾ وَقَالُوا لِمَ جُؤِدُوا لِمَ شَهِدْتُمْ عَلَيْنَا قَالُوا أَنْطَقَنَا اللَّهُ الَّذِي أَنْطَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ خَلَقَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَلَئِيْهِ تَرْجَعُونَ ﴿٢١﴾

قريء: «يحشر» على البناء للمفعول. ونحشر بالنون وضم الشين وكسرهما، ويحشر:

(١) قوله: «حجة على القدرية الذين هم مجوس هذه الأمة» يريد أهل السنة، سماهم المعتزلة بذلك لقولهم: جميع الحوادث - خيراً كانت أو شراً من أفعال العباد الاختيارية أو غيرها - فهي بقضاء الله تعالى وقدره، خلافاً للمعتزلة؛ حيث ذهبوا إلى أن جميع الأفعال الاختيارية ليست بقضائه تعالى وقدره، ولا تأثير له فيها أصلاً. وهذا أحق بالتقيص الذي يفيد الحديث. وفسروا الإضلال والهوى في قوله تعالى: (يضل من يشاء ويهدي من يشاء) يخلق الضلال وخلق الاهتداء، خلافاً للمعتزلة: حيث فسروا الإضلال بالخذلان وترك العبد وشأنه، والهدى بالبيان، ونقل النسفي عن أبي منصور الماتريدي: أن الهدى المضاف للخالق يكون تارة بمعنى البيان، كما في هذه الآية وتارة بمعنى خلق الاهتداء كما في قوله تعالى: (يضل من يشاء ويهدي من يشاء) والمضاف للمخلوق بمعنى البيان فقط، ويحتمل أن يكون هدى ثمود بمعنى خلق الاهتداء فيهم. وأنهم آمنوا قبل عقر الناقة، ثم كفروا وعقروها اهـ (ع).

(٢) قال محمود: «فدللناهم على طريقي الضلالة والرشد، ثم قال: فإن قلت: أليس معنى هديته حصلت له الهدى والدليل عليه قولك: هديته فاهتدي، فكيف ساغ استعماله في الدلالة المجردة؟ وأجاب بأنه مكنهم وأزاح عللهم، ولم يبق لهم عذر ولا علة، فكانه حصل البغية فيهم بحصول موجبها، ثم قال: ولو لم يكن في القرآن حجة على القدرية الذين هم مجوس هذه الأمة بشهادة نبيها عليه الصلاة والسلام - وكفى به شهيداً - إلا هذه الآية، لكفى بها حجة، قال أحمد: قد أنطقه الله الذي أنطق كل شيء، فإن القدرية مجوس هذه الأمة بشهادة النبي ﷺ، وقد شهد صحبه الأكرمون أن الطائفة الذين قفا الزمخشري أثرهم القدرية المتمجسة، الذين أديانهم بأدناس الفساد متنجسة فهم أول منخرط في هذا السلك، ومنهبط في مهواة هذا الهلك، ولترجع إلى أصل الكلام فنقول: الهدى من الله تعالى عند أهل السنة حقيقة: هو خلق الهدى في قلوب المؤمنين، والإضلال: خلق الضلال في قلوب الكافرين، ثم ورد الهدى على غير ذلك من الوجوه مجازاً واتساعاً، نحو هذه الآية، فإن المراد فيها بالهدى الدلالة على طريقه كما فسر الزمخشري. وقد اتفق الفريقان: أهل السنة وأهل البدعة على أن استعمال الهدى ههنا مجاز، ثم إن أهل السنة يحملونه على المجاز في جميع موارد في الشرع، فأَي الفريقين أحق بالأمن إن كنتم تعلمون؟ وأي دليل في هذه الآية على أهل السنة لأهل البدعة، حتى يرميهم بما ينعكس إلى نحره، ويذيقه وبال أمره؟

على البناء للفاعل، أي: يحشر الله عز وجل ﴿أَعْدَاءَ اللَّهِ﴾ الكفار من الأولين والآخرين ﴿يُوزَعُونَ﴾ أي: يحبس أولهم على آخرهم، أي: يستوقف سوابقهم حتى يلحق بهم تواليهم، وهي عبارة عن كثرة أهل النار، نسأل الله أن يجيرنا منها بسعة رحمته؛ فإن قلت: (ما) في قوله: ﴿حَقٌّ إِذَا مَا جَاءُوهَا﴾ ما هي؟ قلت: مزيدة للتأكيد، ومعنى التأكيد فيها: أن وقت مجيئهم النار لا محالة أن يكون وقت الشهادة عليهم، ولا وجه لأن يخلو منها. ومثله قوله تعالى: ﴿أَثَرٌ إِذَا مَا وَفَّعَ آمَنُتُمْ بِهِ﴾ [يونس: ٥١] أي: لا بد لوقت وقوعه من أن يكون وقت إيمانهم به شهادة الجلود بالملامسة للحرام، وما أشبه ذلك مما يفضي إليها من المحرمات. فإن قلت: كيف تشهد عليهم أعضاؤهم وكيف تنطق؟ قلت: الله عز وجل ينطقها كما أنطق الشجرة^(١) بأن يخلق فيها كلاماً. وقيل: المراد بالجلود: الجوارح. وقيل: هي كناية عن الفروج، أراد بكل شيء: كل شيء، من الحيوان، كما أراد به في قوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [البقرة: ٢٨٤] كل شيء من المقدورات، والمعنى: أن نطقنا ليس بعجب من قدرة الله الذي قدر على إنطاق كل حيوان، وعلى خلقكم وإنشائكم أول مرة، وعلى إعادتكم ورجعكم إلى جزائه - وإنما قالوا لهم: ﴿شَهِدْتُمْ عَلَيْنَا﴾ لما تعاضمهم من شهادتها وكبر عليهم من الافتضاح على السنة جوارحهم.

﴿وَمَا كُنْتُمْ تَسْتَعْتِرُونَ أَنْ يَشْهَدَ عَلَيْكُمْ سَمْعُكُمْ وَلَا أَبْصَرُكُمْ وَلَا جُلُودُكُمْ وَلَكِنْ ظَنَنْتُمْ أَنَّ اللَّهَ لَا يَعْلَمُ كَثِيرًا مِمَّا تَعْمَلُونَ﴾ (٢٣) وَذَلِكَ ظَنُّكُمْ الَّذِي ظَنَنْتُمْ رَبَّكُمْ أَرَدَنَكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ مِّنْ

الْحَسَنَةِ (٢٣)

والمعنى: أنكم كنتم تستترون بالحيطان والحجب عند ارتكاب الفواحش، وما كان استتاركم ذلك خيفة أن تشهد عليكم جوارحكم؛ لأنكم كنتم غير عالمين بشهادتها عليكم، بل كنتم جاحدين بالبعث والجزاء أصلاً، ولكنكم إنما استترتم لظنكم ﴿أَنَّ اللَّهَ لَا يَعْلَمُ كَثِيرًا مِّمَّا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ وهو الخفيات من أعمالكم، وذلك^(٢) الظن هو الذي أهلككم. وفي هذا تنبيه على أن من حق المؤمن أن لا يذهب عنه، ولا يزل عن ذهنه أن عليه من الله عينا كالثة ورقياً مهيماً؛ حتى يكون في أوقات خلواته من ربه أهيب وأحسن احتشاماً وأوفر تحفظاً وتصوناً منه مع الملاء، ولا يتبسط في سره مراقبة^(٣) من التشبه بهؤلاء الظانين.

(١) قوله: «كما أنطق الشجرة» على زعم المعتزلة أن تكليمه مع موسى عليه السلام وهو خلقه الكلام في الشجرة التي كانت عند الطور. وعند أهل السنة: هو بأن كشف له عن كلامه القديم وأسمعه إياه كما بين في محله. (ع).

(٢) قوله: «وذلك الظن هو الذي أهلككم» لعله. وذلكم. (ع).

(٣) قوله: «في سره مراقبة من التشبه» أي مخافة، كما أفاده الصحاح. (ع).

وقرى: «ولكن زعمتم» ﴿وَذَلِكُمْ﴾ رفع بالابتداء، و ﴿ظَنُّكُمْ﴾ و ﴿أَزْدَنْكُمْ﴾ خبران، ويجوز أن يكون ﴿ظَنُّكُمْ﴾ بدلاً من ﴿وَذَلِكُمْ﴾ و ﴿أَزْدَنْكُمْ﴾ الخبر.

﴿فَإِنْ يَصْبرُوا فَالْنَّارُ مَشْؤَى لَهُمْ وَإِنْ يَسْتَغْتَبُوا فَمَا هُمْ مِنَ الْمُعْتَبِينَ ﴿٢٤﴾﴾ وَقَيَّضْنَا لَهُمْ قُرَنَاءَ فَزَيَّنُوا لَهُمْ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَحَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ فِي أُمِّرٍ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِمْ مِنَ الْغَنِّ وَالْإِنْسِ إِنَّهُمْ كَانُوا خَسِرِينَ ﴿٢٥﴾﴾

﴿فَإِنْ يَصْبرُوا﴾ لم ينفعهم الصبر، ولم ينفكوا به من الشقاء في النار، ﴿وَإِنْ يَسْتَغْتَبُوا﴾ وإن يسألوا العتبي وهي الرجوع لهم إلى ما يحبون جزعاً مما هم فيه: لم يعتبوا ٢/ ١٥٨ ب: لم يعطوا العتبي ولم يجابوا إليها، ونحوه قوله عز وعلا: ﴿أَجَزَعْنَا أَمْ صَبَرْنَا مَا لَنَا مِنْ مَّحِيصٍ﴾ [إبراهيم: ٢١] وقرئ: «وإن يستعتبوا» فما هم من المعتبين» أي: إن سألوا أن يرضوا ربهم فما هم فاعلون، أي: لا سبيل لهم إلى ذلك. ﴿وَقَيَّضْنَا لَهُمْ﴾ وقد رنا لهم، يعني لمشركي مكة: يقال: هذان ثوبان قيطان: إذا كانا متكافئين. والمقايضة: المعاوضة. ﴿قُرَنَاءَ﴾ أخذاناً^(١) من الشياطين جمع قرين، كقوله تعالى: ﴿وَمَنْ يَعْشَ عَنْ ذِكْرِ الرَّحْمَنِ نُقَيِّضْ لَهُ شَيْطَانًا فَهُوَ لَهُ قَرِينٌ ﴿٣٦﴾﴾ [الزخرف: ٣٦] فإن قلت: كيف جاز أن يقيض لهم القرناء من الشياطين وهو ينهاهم عن اتباع خطواتهم؟ قلت: معناه أنه خذلهم^(٢) ومنعهم التوفيق؛ لتصميمهم على الكفر، فلم يبق لهم قرناء سوى الشياطين^(٣). والدليل عليه ﴿وَمَنْ يَعْشَ﴾ نقيض. ﴿أَيَّدِيَهُمْ وَمَا خَلْفَهُمْ﴾ ما تقدم من أعمالهم وما هم عازمون عليها. أو ما بين

(١) قوله: «قرناء أخذاناً» أي أصدقاء. أفاده الصحاح. (ع).

(٢) قوله: «قلت: معناه أنه خذلهم» هذا على مذهب المعتزلة أنه تعالى لا يقدر الشر. أما على مذهب أهل السنة أنه تعالى يقدره كالخير، فلا داعي إلى هذا التكلف. قال تعالى: (ألم تر أننا أرسلنا الشياطين على الكافرين) إلخ. (ع).

(٣) قال محمود: «كيف جاز أن يقيض لهم قرناء من الشياطين وهو ينهاهم عن اتباع خطواتهم؟ وأجاب بأن معناه أنه خذلهم ومنعهم التوفيق لتصميمهم على الكفر، فلم يبق لهم قرناء سوى الشياطين. والدليل عليه قوله تعالى: (ومن يعش عن ذكر الرحمن... الآية) قال أحمد: جواب هذا السؤال على مذهب أهل السنة: أن الأمر على ظاهره، فإن قاعدة عقيدتهم أن الله تعالى قد ينهي عما يريد وقوعه، ويأمر بما لا يريد حصوله، وبذلك نطق هذه الآية وأخواتها، وإنما تأولها الزمخشري لاتباعها هواه الفاسد في اعتقاده أن الله تعالى لا ينهي عما يريد. وإن وقع النهي عنه فعلى خلاف الإرادة - تعالى الله عن ذلك وبه نستعين من جعل القرآن تبعاً للهوى، وحينئذ فنقول: لو لم يكن في القرآن حجة على القدرة الذين هم مجوس هذه الأمة بشهادة نبيها عليه الصلاة والسلام سوى هذه الآية، لكفى بها؛ فهذا موضع هذه المقالة التي أنطقه الله بها الذي أنطق كل شيء في الآية التي قبل هذه.

أيديهم من أمر الدنيا واتباع الشهوات، وما خلفهم: من أمر العاقبة، وأن لا بعث ولا حساب. ﴿وَحَقُّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ﴾ يعني كلمة العذاب ﴿فِي أَمْرِ﴾ جملة أمم. ومثل في هذه ما في قوله [من المنسرح]:

إِنَّ تَكْ عَنْ أَحْسَنِ الصَّنِيعَةِ مَا فُوكَا فِ فِي آخِرِينَ قَدْ أَفْكُوا

يريد: فأنت في جملة آخرين، وأنت في عداد آخرين لست في ذلك بأوحد. فإن قلت: ﴿فِي أَمْرِ﴾ ما محله؟ قلت: محله النصب على الحال من الضمير في ﴿عليهم﴾ أي: حق عليهم القول كائنين في جملة أمم. ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا خَسِرِينَ﴾ تعليل لاستحقاقهم العذاب. والضمير لهم وللأمم.

﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَسْمَعُوا لِهَذَا الْقُرْآنِ وَالْغَوْا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَعْلَمُونَ﴾ ﴿فَلَنُذِيقَنَ الَّذِينَ كَفَرُوا عَذَابًا شَدِيدًا وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَشْوَأَ الَّذِي كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ ﴿ذَلِكَ جَزَاءُ أَعْدَاءِ اللَّهِ النَّارُ هِيَ فِيهَا دَارُ الْخُلْدِ جَزَاءُ يَمَّا كَانُوا بِآيَاتِنَا يَمْحَدُونَ﴾

قرئ: «والغوا فيه» بفتح الغين وضمها. ويقال: لغى يلغي، ولغا يلغو: واللغو الساقط من الكلام الذي لا طائل تحته. قال: من اللغا ورث التكلم. والمعنى: لا تسمعوا له إذا قرئ، وتشاغلو عند قراءته برفع الأصوات بالخرافات والبهذيان والزمل^(١)، وما أشبه ذلك، حتى تخلطوا على القارئ وتشوشوا عليه وتغلبوه على قراءته. كانت قریش يوصي بذلك بعضهم بعضاً. ﴿فَلَنُذِيقَنَ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ يجوز أن يريد بالذين كفروا: هؤلاء اللاغين والآمرين لهم باللغو خاصة، وأن يذكر الذين كفروا عامة لينطوا تحت ذكرهم. وقد ذكرنا إضافة أسوأ بما أغنى عن إعادته. وعن ابن عباس ﴿عَذَابًا شَدِيدًا﴾ يوم بدر. و﴿أَشْوَأَ الَّذِي كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ في الآخرة. ﴿ذَلِكَ﴾ إشارة إلى الأسوأ، ويجب أن يكون التقدير: أسوأ جزاء الذين كانوا يعملون، حتى تستقيم هذه الإشارة. و﴿النَّارُ﴾ عطف بيان للجزاء. أو خبر مبتدأ محذوف. فإن قلت: ما معنى قوله تعالى: ﴿لَهُمْ فِيهَا دَارُ الْخُلْدِ﴾؟ قلت: معناه أن النار

(١) لعروة بن أذينة، يقول: إن تك مأفوكاً - أي: مصروفاً ومنقلباً عن أحسن العطاء - فلا عجب، فأنت في جملة ناس آخرين قد أفكوا وصرفوا عن الإحسان. ومنه: المؤتفكات، وهي المدن المنقلبة على قوم لوط، وتقول العرب: إذا كثرت المؤتفكات زكت الأرض، يعنون: الرياح المختلفة المهاب. ينظر: ديوانه ص ٣٤٣، ولسان العرب: (أفك) (وفيه «عمرو بن أذينة» وهذا تصحيف)، وأساس البلاغة (أنك)، وتاج العروس (أنك)، ومقاييس اللغة: ١/١١٨، ومجمل اللغة: ١/١٩٨، والمخصص: ٣/٤٥، ١٢/١٠٢.

(٢) قوله: «والزمل» الذي في الصحاح «الأزمل» الصوت: والأزملة - بالضم -: المصوت من الوعول وغيرها. (ع).

في نفسها دار الخلد، كقوله تعالى: ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ﴾ [الأحزاب: ٢١] والمعنى: أن رسول الله ﷺ أسوة حسنة، وتقول: لك في هذه الدار دار السرور. وأنت تعنى الدار بعينها ﴿جَزَاءً بِمَا كَانُوا بِآيَاتِنَا يَجْحَدُونَ﴾ أي: جزاء بما كانوا يلغون فيها، فذكر الجحود الذي هو سبب اللغو.

﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا رَبَّنَا أَرِنَا الَّذِينَ أَضَلَّانَا مِنَ الْجِنَّ وَالْإِنْسِ نَجْعَلُهُمَا تَحْتَ أَفْدَانِنَا لِيَكُونَا مِنَ الْأَسْفَلِينَ﴾ (٢٩)

﴿الَّذِينَ أَضَلَّانَا﴾ أي: الشياطين اللذين أضلانا ﴿مِنَ الْجِنَّ وَالْإِنْسِ﴾ لأن الشيطان على ضربين: جني وإنسي. قال الله تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَاطِئِينَ الْإِنْسِ وَالْجِنَّ﴾ [الأنعام: ١١٢] وقال تعالى: ﴿الَّذِي يُوسِّسُ فِي صُدُورِ النَّاسِ ۖ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ﴾ (٦) [الناس: ٥-٦] وقيل: هما إبليس وقايل؛ لأنهما سنا الكفر والقتل بغير حق (١٣٦٤). وقرئ: «أرنا» بسكون الراء لثقل الكسرة، كما قالوا في فخذ: فخذ. وقيل: معناه أعطنا اللذين أضلانا. وحكوا عن الخليل: أنك إذا قلت: أرني ثوبك بالكسر، فالمعنى: بصرنيه. وإذا قلته بالسكون، فهو استعطاء، معناه: أعطني ثوبك، ونظيره: اشتها الإتياء في معنى الإعطاء. وأصله: الإحضار.

﴿إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَمُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ﴾ (٣٥) ﴿نَحْنُ أَوْلَىٰ بِكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهَىٰ أَنْفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدْعُونَ﴾ (٣٦) ﴿تُرَاوْنَ عَفْوَراً رَّحِيمٌ﴾ (٣٧)

﴿ثُمَّ﴾ لتراخي الاستقامة عن الإقرار في المرتبة. وفضلها عليه؛ لأن الاستقامة لها الشأن كله. ونحوه قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا﴾ [الحجرات: ١٥] والمعنى: ثم ثبتوا على الإقرار ومقتضياته. وعن أبي بكر الصديق رضي الله عنه: استقاموا فعلاً كما استقاموا قولاً. وعنه: أنه تلاها ثم قال: ما تقولون فيها؟ قالوا: لم يذنبوا. قال: حملتم الأمر على أشده. قالوا: فما تقول؟ قال: لم يرجعوا إلى عبادة الأوثان. وعن عمر رضي الله عنه: استقاموا على الطريقة لم يروغوا ووغان الثعالب. وعن

١٣٦٤ - أخرجه الطبري في تفسيره (١١/١٠٥)، رقم (٣٠٥١١)، وعبد الرزاق في تفسيره (٢/١٨٦)، والحاكم (٢/١١٠)، كتاب التفسير، باب: إن أول ما يتكلم يوم القيامة من آدمي فخذه وكفه، جميعهم عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه، وعزاه السيوطي في الدر المنثور (٥/٦٨١) للفرابي وسعيد بن منصور وعبد بن حميد وابن مردويه وابن عساكر عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه.

عثمان رضي الله عنه: أخلصوا العمل. وعن علي رضي الله عنه: أدوا الفرائض. وقال سفيان بن عبد الله الثقفي رضي الله عنه: قلت: يا رسول الله، أخبرني بأمر أعتصم به. قال: «قل ربّي الله، ثم استقم» قال: فقلت: ما أخوف ١٥٩/٢ ما تخاف عليّ؟ فأخذ رسول الله ﷺ بلسان نفسه فقال: «هذا» (١٣٦٥) ﴿تَتَزَلَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ﴾ عند الموت بالبشرى. وقيل: البشرى في ثلاثة مواطن: عند الموت، وفي القبر، وإذا قاموا من قبورهم؛ ﴿أَلَّا تَخَافُوا﴾ «أن» بمعنى أي. أو مخففة من الثقيلة. وأصله: بأنه لا تخافوا، والهاء ضمير الشأن. وفي قراءة ابن مسعود رضي الله عنه: لا تخافوا، أي: يقولون: لا تخافوا، والخوف: غمّ يلحق لتوقع المكروه، والحزن: غمّ يلحق لوقوعه؛ من فوات نافع أو حصول ضارّ. والمعنى: أنّ الله كتب لكم الأمن من كل غمّ، فلن تذوقوه أبداً. وقيل: لا تخافوا ما تقدمون عليه، ولا تحزنوا على ما خلفتم. كما أنّ الشياطين قرناء العصاة وإخوانهم، فكذلك الملائكة أولياء المتقين وأحباؤهم في الدارين. ﴿تَدْعُونُ﴾ تتمنون: والنزل: رزق النزيل وهو الضيف، وانتصابه على الحال.

﴿وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِّمَّنْ دَعَا إِلَى اللَّهِ وَعَمِلَ صَالِحًا وَقَالَ إِنِّي مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾ (٣٣)

﴿وَمَنْ دَعَا إِلَى اللَّهِ﴾ عن ابن عباس رضي الله عنهما: هو رسول الله ﷺ دعا إلى الإسلام. ﴿وَعَمِلَ صَالِحًا﴾ فيما بينه وبين ربه، وجعل الإسلام نحلة له. وعنه: أنهم أصحاب رسول الله ﷺ. وعن عائشة رضي الله عنها: ما كنا نشك أنّ هذه الآية نزلت في

١٣٦٥ - أخرجه مسلم (٢٢٢/١) الأبي كتاب الإيمان: باب: «جامع أوصاف الإسلام» رقم (٣٨/٦٢)، والترمذي (٦٠٧/٤) كتاب الزهد: باب «ما جاء في حفظ اللسان» رقم (٢٤١٠)، وابن ماجه (٢/١٣١٤) كتاب الفتن: باب «كف اللسان في الفتنة» رقم (٣٩٧٢)، والدارمي (٢/٢٩٨)، كتاب الرقاق: باب «في حفظ اللسان»، وابن حبان (٢٣٧/٨) الموارد، رقم (٢٥٤٣)، ووهب الحاكم وأخرجه (٣١٣/٤)، وأخرجه الطبراني (٧٨/٧)، رقم (٦٣٩٦)، وأبو نعيم في «الحلية» (٦٥/١)، والخطيب في «تاريخ بغداد»، (٢٣٤/٩)، رقم (٤٨٧٧).

وأخرجه ابن حبان (٢٢١/٣)، (٢٢٢) كتاب الرقائق: باب «الأدعية» ذكر ما يجب على المرء من سؤال الباري تعالى الثبات والاستقامة على ما يقربه إليه بفضل الله علينا بذلك» رقم (٩٤٢)، بلفظ «قل آمنت بالله... الحديث»، وأحمد (٤١٣/٣).

قال الترمذي: هذا حديث حسن صحيح، وقد روي من غير وجه عن سفيان بن عبد الله الثقفي. قال الحاكم: هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه، قلت: «وهو وهم من الحاكم فقد أخرجه مسلم كما بينا في أول التخريج».

والحديث ذكره الهيثمي في «الموارد» لزيادة وقعت عنده وهي: قلت يا رسول الله ما أخوف ما يخاف عليّ؟ قال: هذا وأشار إلى لسانه. وقال الحافظ: أخرجه الترمذي والنسائي وابن ماجه وأحمد وابن حبان بتمامه، وأصله في مسلم. انتهى.

المؤذنين (١٣٦٦)، وهي عامة في كل من جمع بين هذه الثلاث: أن يكون موحداً معتقداً لدين الإسلام، عاملاً بالخير داعياً إليه؛ وما هم إلا طبقة العالمين العاملين من أهل العدل والتوحيد، الدعاة إلى دين الله^(١). وقوله: ﴿وَقَالَ إِنِّي مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾ ليس الغرض أنه تكلم بهذا الكلام، ولكن جعل دين الإسلام مذهبه ومعتقده، كما تقول: هذا قول أبي حنيفة، تريد مذهبه.

﴿وَلَا تَسْتَوِ الْحَسَنَةُ وَلَا السَّيِّئَةُ أَدْفَعَ بِأَلَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ﴾ (٢٤) وَمَا يُلْقُهَا إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا وَمَا يُلْقُهَا إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ (٢٥)

يعني: أن الحسنة والسيئة متفاوتتان في أنفسهما فعُذَّ بالحسنة التي هي أحسن من أختها - إذا اعترضتك حسنتان - فادفع بها السيئة التي ترد عليك من بعض أعدائك. ومثال ذلك: رجل أساء إليك إساءة، فالحسنة: أن تغفو عنه، والتي هي أحسن: أن تحسن إليه مكان إساءته إليك، مثل أن يذمك فتمدحه ويقتل ولدك فتفتدي ولده من يد عدوه، فإنك إذا فعلت ذلك انقلب عدوك المشاقق مثل الولي الحميم مصافاة لك. ثم قال: وما يلقي هذه الخليفة أو السجية التي هي مقابلة الإساءة بالإحسان إلا أهل الصبر، وإلا رجل خير وفق لحظ عظيم من الخير. فإن قلت: فهلا قيل: فادفع بالتي هي أحسن؟ قلت: هو على تقدير قائل قال: فكيف أصنع؟ فقل: ادفع بالتي هي أحسن. وقيل: (لا) مزيدة. والمعنى: ولا تستوي الحسنة والسيئة. فإن قلت: فكان القياس على هذا التفسير أن يقال: ادفع بالتي هي حسنة، قلت: أجل، ولكن وضع التي هي أحسن موضع الحسنة؛ ليكون أبلغ في الدفع بالحسنة؛ لأن من دفع بالحسنى هان عليه الدفع بما هو دونها. وعن ابن عباس رضي الله عنهما: ﴿بِأَلَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ الصبر عند الغضب، والحلم عند الجهل، والعفو عند الإساءة (١٣٦٧)، وفسر الحظ بالثواب. وعن الحسن رحمه الله: والله ما عظم حظ دون الجنة، وقيل: نزلت في أبي سفيان بن حرب وكان عدواً مؤذياً لرسول الله ﷺ، فصار ولياً مصافياً.

١٣٦٦ - أخرجه ابن أبي شيبة (٢٠٤/١)، كتاب الآذان والإقامة، باب: في فضل المؤذن وثوابه، وعزاه الزيلعي في تخريج أحاديث الكشاف (٦٨٤/٥) لابن المنذر ولابن مردويه.
١٣٦٧ - أخرجه الطبري في تفسيره (١١١/١١)، رقم (٣٠٥٤٤) من طريق علي عن ابن عباس، وعزاه السيوطي في الدر المنثور (٦٨٥/٥) لابن المنذر ولابن أبي حاتم في تفسيرهما.

(١) قوله: «العاملين من أهل العدل والتوحيد الدعاة» إن أراد بهم المعتزلة سموا أنفسهم بذلك، فلا وجه للتخصيص. (ع).

﴿وَأَمَّا يَنْزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْغٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ (٢٦)

النزغ والنسغ بمعنى، وهو شبه النخس. والشيطان ينزغ الإنسان كأنه ينخسه بيعته على ما لا ينبغي. وجعل النزغ نازغاً، كما قيل: جد جدّه. أو أريد: وإما ينزغتك نازغ وصفاً للشيطان بالمصدر. أو لتسويله. والمعنى: وإن صرفك الشيطان عما وصيت به من الدفع بالتي هي أحسن ﴿فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ﴾ من شره، وامض على شأنك ولا تطعه.

﴿وَمِنْ آيَاتِهِ اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ لَا تَسْجُدُوا لِلشَّمْسِ وَلَا لِلْقَمَرِ وَاسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَهُنَّ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ﴾ (٢٧) فَإِنْ أَنتَكَبُوا فَلِلَّذِينَ

عِنْدَ رَبِّكَ يُسَيِّحُونَ لَكُمْ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ ﴿٢٨﴾

الضمير في ﴿خَلَقَهُنَّ﴾ لليل والنهار والشمس والقمر؛ لأنّ حكم جماعة ما لا يعقل حكم الأنثى أو الإناث. يقال: الأقلام بريتها وبريتها: أو لما قال ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ﴾ كن في معنى الآيات، ف قيل: خلقهنّ. فإن قلت: أين موضع السجدة؟ قلت: عند الشافعي رحمه الله تعالى: ﴿تَعْبُدُونَ﴾ وهي رواية مسروق عن عبد الله لذكر لفظ السجدة قبلها. وعند أبي حنيفة رحمه الله: يسأمون؛ لأنها تمام المعنى، وهي عن ابن عباس وابن عمر وسعيد بن المسيب: لعل ناساً منهم كانوا يسجدون للشمس والقمر كالصابئين في عبادتهم الكواكب، ويزعمون أنهم يقصدون بالسجود لهما السجود لله، فنهوا عن هذه الوساطة، وأمروا أن يقصدوا بسجودهم وجه الله تعالى خالصاً ١٥٩/٢ ب، إن كانوا إياه يعبدون وكانوا موحدين غير مشركين. ﴿فَإِنْ أَنتَكَبُوا﴾ ولم يمتثلوا ما أمروا به وأبوا إلا الوساطة فدعهم وشأنهم فإن الله عز سلطانه لا يعدم عابداً ولا ساجداً بالإخلاص، وله العباد المقربون الذين ينزهونه بالليل والنهار عن الأنداد، وقوله: ﴿عِنْدَ رَبِّكَ﴾ عبارة عن الزلفى والمكانة والكرامة. وقرئ: «لا يسأمون» بكسر الياء.

﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ تَرَى الْأَرْضَ خَاشِعَةً إِذَا أَنْزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ إِنَّ الَّذِي أَحْيَاهَا لَمُجِي الْمَوْفِقِ إِنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ (٢٩)

الخشوع: التذلل والتصاغر، فاستعير لحال الأرض إذا كانت قحطة لا نبات فيها، كما وصفها بالهمود في قوله تعالى: ﴿وَتَرَى الْأَرْضَ هَامِئَةً﴾ [الحج: ٥] وهو خلاف وصفها بالاهتزاز والربو وهو الانتفاخ؛ إذا أخصبت وتزخرت بالنبات كأنها بمنزلة المختال في زيه، وهي قبل ذلك كالذليل الكاسف البال في الأطمار الرثة^(١). وقرئ «وربات» أي

(١) قوله: «في الأطمار الرثة» في الصحاح «الطمر» الثوب الخرق، والجمع: الأطمار. (ع).

ارتفعت؛ لأن النبت إذا هم أن يظهر ارتفعت له الأرض.

﴿إِنَّ الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي آيَاتِنَا لَا يَخْفَوْنَ عَلَيْنَا أَفَنُفْلِحُ فِي النَّارِ خَيْرٌ أَمْ مَن يَأْتِي ءَامِنًا يَوْمَ الْقِيَمَةِ أَعْمَلُوا مَا شِئْتُمْ إِنَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ (٤٠)

يقال: ألحد الحافر ولحد، إذا مال عن الاستقامة، فحفر في شق، فاستعير للانحراف في تأويل آيات القرآن عن جهة الصحة والاستقامة، وقرئ «يلحدون ويلحدون» على اللغتين. وقوله: ﴿لَا يَخْفَوْنَ عَلَيْنَا﴾ وعيد لهم على التحريف.

﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِالذِّكْرِ لَمَّا جَاءَهُمْ وَإِنَّهُمْ لَكُنْتُ عَزِيزٌ﴾ (٤١) ﴿لَا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ تَنْزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ﴾ (٤٢)

فإن قلت: بم اتصل قوله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِالذِّكْرِ﴾؟ قلت: هو بدل من قوله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي آيَاتِنَا﴾ [فصلت: ٤٠] والذكر: القرآن؛ لأنهم لكفروهم به طعنوا فيه وحرّفوا تأويله. ﴿وَإِنَّهُمْ لَكُنْتُ عَزِيزٌ﴾ أي منيع محمي بحماية الله تعالى، ﴿لَا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ﴾ مثل كأن الباطل لا يتطرق إليه ولا يجد إليه سبيلاً من جهة من الجهات حتى يصل إليه ويتعلق به. فإن قلت: أما طعن فيه الطاعنون، وتأوله المبطلون؟ قلت: بلى، ولكن الله قد تقدّم في حمايته عن تعلق الباطل به بأن قبض قوماً عارضوهم بإبطال تأويلهم وإفساد أفاويلهم، فلم يخلوا طعن طاعن إلا محقّقاً، ولا قول مبطل إلا مضمحلاً. ونحوه قوله تعالى: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾ (الحجر: ٩).

﴿مَا يُقَالُ لَكَ إِلَّا مَا قَدْ قِيلَ لِلرُّسُلِ مِن قَبْلِكَ إِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ وَذُو عِقَابٍ أَلِيمٍ﴾ (٤٣)

﴿مَا يُقَالُ لَكَ﴾ أي: ما يقول لك كفار قومك إلا مثل ما قال للرسل كفار قومهم من الكلمات المؤذية والمطاعن في الكتب المنزلة. ﴿إِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ﴾ ورحمة لأنبيائه ﴿وَذُو عِقَابٍ﴾ لأعدائهم. ويجوز أن يكون: ما يقول لك الله إلا مثل ما قال للرسل من قبلك، والمقول: هو قوله تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ وَذُو عِقَابٍ أَلِيمٍ﴾ فمن حقه أن يرجوه أهل طاعته ويخافه أهل معصيته، والغرض: تخويف العصاة.

﴿وَلَوْ جَعَلْنَاهُ قُرْءَانًا عَجَبًا لَقَالُوا لَوْلَا فُصِّلَتْ آيَاتُهُ ءَأَعْجَبُ وَعَرِيفٌ قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا هُدًى وَبَيِّنَاتٌ وَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ فِي ءَاذَانِهِمْ وَقُرْ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى أُولَٰئِكَ يُنَادَوْنَ مِنْ مَّكَانٍ بَعِيدٍ﴾ (٤٤)

كانوا لتعنتهم يقولون: هلا نزل القرآن بلغة العجم، فقل: لو كان كما يقترحون لم يتركوا الاعتراض والتعنت. وقالوا: ﴿لَوْلَا فُصِّلَتْ آيَاتُهُ﴾ أي بينت ولخصت بلسان نفقهه.

﴿أَعْجَبِيَّ وَعَرَبِيَّ﴾ الهمزة همزة الإنكار، يعني: لأنكروا وقالوا: أقرآن أعجمي ورسول عربي، أو مرسل إليه عربي، وقرئ «أعجمي» والأعجمي: الذي لا يفصح ولا يفهم كلامه من أي جنس كان، والعجمي: منسوب إلى أمة العجم. وفي قراءة الحسن (أعجمي) بغير همزة الاستفهام على الإخبار بأن القرآن أعجمي، والمرسل أو المرسل إليه عربي. والمعنى: أن آيات الله على أي طريقة جاءتهم وجدوا فيها متعنتاً؛ لأن القوم غير طالبين للحق وإنما يتبعون أهواءهم. ويجوز في قراءة الحسن: هلا فصلت آياته تفصيلاً، فجعل بعضها بياناً للعجم، وبعضها بياناً للعرب. فإن قلت: كيف يصح أن يراد بالعربي المرسل إليهم وهم أمة العرب؟ قلت: هو على ما يجب أن يقع في إنكار المنكر لو رأى كتاباً أعجمياً كتب إلى قوم من العرب يقول: كتاب أعجمي ومكتوب إليه عربي؛ وذلك لأن مبنى الإنكار على تنافر حالتي الكتاب والمكتوب إليه، لا على أن المكتوب إليه واحد أو جماعة، فوجب أن يجرد لما سبق إليه من الغرض، ولا يوصل به ما يخل غرضاً آخر. ألا تراك تقول - وقد رأيت لباساً طويلاً على امرأة قصيرة -: اللباس طويل واللباس قصير. ولو قلت: واللبسة قصيرة، جئت بما هو لكنة وفضول قول؛ لأن الكلام لم يقع في ذكورة اللباس وأنوثته، إنما وقع في غرض وراءهما. ﴿هُوَ﴾ أي القرآن ﴿هُدًى وَشَفَاءٌ﴾ إرشاد إلى الحق وشفاء ﴿لِمَا فِي الصُّدُورِ﴾ من الظن والشك. فإن قلت: ﴿وَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ فِي آذَانِهِمْ وَقُرْ﴾ منقطع ١٦٠/٢ عن ذكر القرآن، فما وجه اتصاله به؟ قلت: لا يخلو إما أن يكون ﴿الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ في موضع الجر معطوفاً على قوله تعالى: ﴿لِلَّذِينَ آمَنُوا﴾ على معنى قولك: هو للذين آمنوا هدى وشفاء، وهو للذين لا يؤمنون في آذانهم وقر؛ إلا أن فيه عطفاً على عاملين وإن كان الأخفش يجيزه. وإما أن يكون مرفوعاً على تقدير: والذين لا يؤمنون هو في آذانهم وقر^(١) على حذف المبتدأ. أو في آذانهم منه وقر وهو عليهم عمى. وقرئ: «وهو عليهم عم» «وعمى» كقوله تعالى: ﴿فَعَمِيَتْ عَلَيْهِمُ﴾ [هود: ٢٨] ﴿يَتَادُونَ مِنْ مَّكَانٍ بَعِيدٍ﴾ يعني: أنهم لا يقبلونه ولا يرفعونه أسماعهم، فمثلهم في ذلك مثل من يصيح به من مسافة شاطئة لا يسمع من مثلها الصوت فلا يسمع النداء.

﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ فَاخْتَلَفَ فِيهِ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ وَإِنَّهُمْ لَفِي شَكٍّ مِنْهُ مُرِيبٍ﴾

(١) أجاز الزمخشري في الواو في هذه الآية وجهين، أحدهما: أن تكون الواو لعطف الذين على الذين، وقر على هدى وشفاء، ويكون من العطف على عاملين. قال: وإما أن يكون (والذين) مرفوعاً على تقدير: والذين لا يؤمنون في آذانهم وقر، على حذف المبتدأ. أو في آذانهم منه وقر. اهـ. قال أحمد: أي بتقدير الرابط يستغنى عن تقدير المبتدأ.

﴿فَاتَّخِيفَ فِيهِ﴾ فقال بعضهم: هو حق، وقال بعضهم: هو باطل. والكلمة السابقة: هي العدة بالقيامة، وأن الخصومات تفصل في ذلك اليوم، ولولا ذلك لقضى بينهم في الدنيا. قال الله تعالى: ﴿يَذَرُ السَّاعَةَ مَوْعِدُهُمْ﴾ [القمر: ٤٦] ولكن يؤخرهم إلى أجل مسمى.

﴿مَنْ تَمَلَّ صِدْحًا فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ نَسَا فَعَلَيْهَا﴾ ﴿يُكَفِّرُ بَطْلًا لِّلْعَبِيدِ﴾ (٤٦)

﴿فَلِنَفْسِهِ﴾ فنفسه نفع. ﴿فَعَلَيْهَا﴾ فنفسه ضرر. ﴿وَمَا رَبُّكَ بِظَلَمٍ﴾ فيعذب غير المسيء.

﴿إِلَيْهِ يَرْدُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَمَا تَخْرُجُ مِنَ ثَمَرَاتٍ مِنْ أَكْمَامِهَا وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنْثَى وَلَا تَضَعُ إِلَّا يَعْلَمُهُ وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ أَئِنَّ شُرَكَاءِيَ قَالُوا ءَاذَنَّاكَ مَا سَأَلَ مِنْ شَهِيدٍ﴾ (٤٧) وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَدْعُونَ مِنْ قَبْلُ وَظَنَّوْا مَا هُمْ بِشَيْءٍ مِّنْ يَّحْيِيهِمْ (٤٨)

﴿إِلَيْهِ يَرْدُ عِلْمُ السَّاعَةِ﴾ أي إذا سئل عنها قيل: الله يعلم. أو لا يعلمها إلا الله. وقرئ: «من ثمرات من أكمامهن»^(١). والكم - بكسر الكاف - وعاء الثمرة، كجف الطلعة، أي: وما يحدث شيء من خروج ثمرة ولا حمل حامل ولا وضع واضح إلا وهو عالم به. يعلم عدد أيام الحمل وساعاته وأحواله: من الخداج^(٢) والتمام، والذكورة والأنوثة، والحسن والقبح وغير ذلك. ﴿أَئِنَّ شُرَكَاءِيَ﴾ أضافهم إليه تعالى على زعمهم، وبيانه في قوله تعالى: ﴿أَئِنَّ شُرَكَاءِيَ الَّذِينَ كُنْتُمْ تَزْعُمُونَ﴾ [القصص: ٦٢] وفيه تهكم وتقريع. ﴿ءَاذَنَّاكَ﴾ أعلمناك ﴿مَا مِنَّا مِنْ شَهِيدٍ﴾ أي ما منا أحد اليوم - وقد أبصرنا وسمعنا - يشهد بأنهم شركاؤك، أي: ما منا إلا من هو موحد لك، أو ما منا من أحد يشاهدهم؛ لأنهم ضلوا عنهم وضلت عنهم آلهتهم، لا يبصرونها في ساعة التوبيخ، وقيل: هو كلام الشركاء، أي: ما منا من شهيد يشهد بما أضافوا إلينا من الشركة. ومعنى ضلالهم عنهم على هذا التفسير: أنهم لا ينفعونهم، فكأنهم ضلوا عنهم ﴿وَضَلُّوا﴾ وأيقنوا. والمحيص: المهرب. فإن قلت: ﴿ءَاذَنَّاكَ﴾ إخبار بإيدان كان منهم، فإذا قد آذنوا فلم سئلوا؟ قلت: يجوز أن يعاد عليهم (أين شركائي؟) إعادة للتوبيخ، وإعادته في القرآن على سبيل الحكاية: دليل على إعادة المحكي. ويجوز أن يكون المعنى: أنك علمت من قلوبنا وعقائدنا الآن أنا لا

(١) قوله: «وقرئ من ثمرات من أكمامهن» يفيد أن القراءة المشهورة: من ثمرة من أكمامها. والذي في النسفي: من ثمرات من أكمامها. ومن ثمرة من أكمامها. وأما: من ثمرات من أكمامهن. فهي المزیلة هنا، فحرر. (ع).

(٢) قوله: «من الخداج» أي: النقصان، كما في الصحاح. (ع).

نشهد تلك الشهادة الباطلة؛ لأنه إذا علمه من نفوسهم فكأنهم أعلموه. ويجوز أن يكون إنشاء للإيدان ولا يكون إخباراً بإيدان قد كان، كما تقول: أعلم الملك أنه كان من الأمر كيت وكيت.

﴿لَا يَسْتَمُ الْإِنْسَانُ مِنْ دُعَاءِ الْخَيْرِ وَإِنْ مَسَّهُ الشَّرُّ فَيَتَوْسَّ قَنُوطٌ﴾ (٤٩) وَلَئِنْ أَذَقْتَهُ رَحْمَةً مِنَّا مِنْ بَعْدِ ضَرْأَةٍ مَسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ هَذَا لِي وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً وَلَئِنْ رُجِعْتُ إِلَىٰ رَبِّي إِنَّ لِي عِندَهُ لَلْحُسْنَىٰ فَلَنُنِيقَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِمَا عَمِلُوا وَلَنُذِيقَنَّهُمْ مِنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ ﴿٥٠﴾

﴿مِنْ دُعَاءِ الْخَيْرِ﴾ من طلب السعة في المال والنعمة. وقرأ ابن مسعود: من دعاء بالخير. ﴿وَإِنْ مَسَّهُ الشَّرُّ﴾ أي الضيقة والفقر ﴿فَيَتَوْسَّ قَنُوطٌ﴾ بولغ فيه من طريقتين: من طريق بناء فعول، ومن طريق التكرير والقنوط أن يظهر عليه أثر اليأس فيتضائل وينكسر، أي: يقطع الرجاء من فضل الله وروحه، وهذه صفة الكافر بدليل قوله تعالى: ﴿إِنَّهُمْ لَا يَأْتِيَنَّ مِنْ رَوْحِ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْكَافِرُونَ﴾ [يوسف: ٨٧] وإذا فرجنا عنه بصحة بعد مرض أو سعة بعد ضيق قال: ﴿هَذَا لِي﴾ أي هذا حق وصل إلي؛ لأنني استوجبت به بما عندي من خير وفضل وأعمال بر. أو هذا لي لا يزول عني، ونحوه قوله تعالى: ﴿فَإِذَا جَاءَتْهُمْ الْحَسَنَةُ قَالُوا لَنَا هَذِهِ﴾ [الأعراف: ١٣١] ونحوه قوله تعالى: ﴿وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً﴾ ﴿إِنْ نَظُنُّ إِلَّا ظَنًّا وَمَا نَحْنُ بِمُتَّقِينَ﴾ [البجائية: ٣٢] يريد: وما أظنها تكون، فإن كانت على طريق التوهم ﴿إِنَّ لِي﴾ عند الله الحالة الحسنى من الكرامة والنعمة، قائساً أمر الآخرة على أمر الدنيا. وعن بعضهم: للكافر أمتيتان، يقول في الدنيا: ﴿وَلَئِنْ رُجِعْتُ إِلَىٰ رَبِّي إِنَّ لِي عِندَهُ لَلْحُسْنَىٰ﴾. ويقول في الآخرة: ﴿يَلَيِّنَنِي كُتُّ رَبِّكَ﴾. وقيل: نزلت في الوليد بن المغيرة. فلنخبرهم بحقيقة ما عملوا من الأعمال الموجبة للعذاب. ولنبصرهم عكس ما اعتقدوا فيها أنهم يستوجبون عليها كرامة وقربة عند الله ﴿وَقَدِمْنَا إِلَىٰ مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاءً مَّنْثُورًا﴾ [الفرقان: ٢٣] وذلك أنهم كانوا ينفقون أموالهم رثاء الناس وطلباً للافتخار والاستكبار لا غير، وكانوا يحسبون أن ما هم عليه سبب الغنى والصحة، وأنهم محققون بذلك. ١٦٠/٢/ب

﴿وَإِذَا أَنْعَمْنَا عَلَى الْإِنْسَانِ أَعْرَضَ وَنَسَا بِجَانِبِهِ وَإِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ فَذُو دُعَاءٍ عَرِيضٍ﴾ (٥١)

هذا أيضاً ضرب آخر من طغيان الإنسان إذا أصابه الله بنعمة أبطرت النعمة، وكأنه لم يلق بؤساً قط فنسي المنعم وأعرض عن شكره ﴿وَنَسَا بِجَانِبِهِ﴾ أي ذهب بنفسه وتكبر

وتعظم. وإن مسه الضرّ والفقر: أقبل على دوام الدعاء وأخذ في الابتغال والتضرع. وقد استعير العرض لكثرة الدعاء ودوامه وهو من صفة الأجرام ويستعار له الطول أيضاً كما استعير الغلظ بشدة العذاب. وقرئ: «ونأى بجانبه» بإمالة الألف وكسر النون للاتباع. وناء على القلب، كما قالوا: راء في رأى. فإن قلت: حقق لي معنى قوله تعالى: ﴿وَنَأَى بِجَانِبِهِ﴾ قلت: فيه وجهان: أن يوضع جانبه موضع نفسه كما ذكرنا في قوله تعالى: ﴿وَعَلَىٰ مَا قَرَّلْتُ فِي حَبِيبِ اللَّهِ﴾ [الزمر: ٥٦] أن مكان الشيء وجهته ينزل منزلة الشيء نفسه، ومنه قوله [من الوافر]:

..... وَنَفَيْتُ عَنْهُ مَقَامَ الذَّيْبِ.....^(١)

يريد: ونفيت عنه الذئب. ومنه: ﴿وَلَمَّا خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ﴾ [الرحمن: ٤٦] ومنه قول الكتاب: حضرت فلان ومجلسه، وكتبت إلى جهته وإلى جانبه العزيز، يريدون نفسه وذاته، فكانه قال: ونأى بنفسه، كقولهم في المتكبر ذهب بنفسه، وذهبت به الخيلاء كل مذهب، وعصفت به الخيلاء؛ وأن يراد بجانبه: عطفه، ويكون عبارة عن الانحراف والازورار؛ كما قالوا: ثنى عطفه، وتولى بركنه.

﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كَانَ مِنَ عِنْدِ اللَّهِ ثُمَّ كَفَرْتُمْ بِهِ مِنْ أَضَلِّ مِمَّنْ هُوَ فِي شِقَاقِ

بَعِيدٍ ﴿٥٢﴾﴾

(١) وماء قد وردت لأجل أروى عليه الطير كالورق اللجين
ذعرت به القطا ونفيت عنه مقام الذئب كالرجل اللعين.

للشماخ: وأروى، اسم محبوبته. واللجين - بفتح اللام وكسر الجيم -: ما يتساقط من الورق من اللجن وهو الدق؛ لأنه يضربه الهوى أو الراعي، فيسقط من الشجر. وذعرت - بفتحتين، أي: أخفت فيه القطا، وخصها لأنها أسبق الطير إلى الماء. ومقام الذئب: إقامته أو محلها، وعبر به كناية عن ذاته، وخصه لأن غالب وروده الماء ليلاً. والرجل اللعين: هو الصورة التي تنصب وسط الزرع على شكل الرجل تطرد عنه الهوام، يقول: ورب ماء قد وردته لأجل محبوبتي، عسى أن تجيء عنده فأراها. ويروى: لوصل أروى، فلعله كان موعداً بينهما. وشبه الطير حول الماء بورق الشجر المتساقط في الكدرة والكثرة والانتشار، وهذا يدل على أنه لا يكثر وروده، فيصلح موعداً للوصل. وذعرت - إلى آخره: كناية عن وروده ليلاً، وكالرجل اللعين: حال من ضمير الشاعر، فيفيد أنه سبق القطا والذئب وقعد هناك، أو حال من الذئب، أي: على هيئة مفزعة. وفيه دليل على شجاعة الشاعر وجراته.

ينظر ديوانه ص ٣٢١، وجمهرة اللغة ص ٩٤٩، وخزانة الأدب. ٣٤٧/٤، ٣٤٨، وشرح المفصل لابن يعيش: ١٣/٣، ولسان العرب (لعن)، والمعاني الكبير: ١٩٤/١، والممصنف ١٠٩/١، ومجالس ثعلب: ٥٤٣/٢، والمحتسب ٣٢٧/١.

﴿أَرَأَيْتُمْ﴾ أخبروني ﴿إِنْ كَانَ﴾ القرآن ﴿مِنْ عِنْدِ اللَّهِ﴾ يعني أن ما أنتم عليه من إنكار القرآن وتكذيبه ليس بأمر صادر عن حجة قاطعة حصلتم منها على اليقين وثلج الصدر، وإنما هو قبل النظر واتباع الدليل أمر متحمل، يجوز أن يكون من عند الله وأن لا يكون من عنده، وأنتم لم تنظروا ولم تفحصوا، فما أنكرتم أن يكون حقاً وقد كفرتم به. فأخبروني من أضلّ منكم وأنتم أبعدتم الشوط في مشاقته ومناصبته ولعله حق فأهلكتم أنفسكم؟ وقوله تعالى: ﴿مَنْ هُوَ فِي شِقَاقِ بَعِيٍّ﴾ موضوع موضع منكم، بياناً لحالهم وصفتهم.

﴿سَتُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْأَفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴿٥٣﴾﴾ أَلَا إِنَّهُمْ فِي مَرِيتٍ مِنْ لِقَاءِ رَبِّهِمْ أَلَا إِنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ مُخْبِرٌ ﴿٥٤﴾﴾

﴿سَتُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْأَفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ﴾ يعني ما يسر الله عز وجل لرسوله ﷺ وللخلفاء من بعده ونصار دينه في آفاق الدنيا وبلاد المشرق والمغرب عموماً وفي باحة العرب^(١) خصوصاً: من الفتوح التي لم يتيسر أمثالها لأحد من خلفاء الأرض قبلهم، ومن الإظهار على الجبابة والأكاسرة، وتغليب قليلهم على كثيرهم، وتسليط ضعافهم على أقويائهم، وإجرائه على أيديهم أموراً خارجة من المعبود خارقة للعادات؛ ونشر دعوة الإسلام في أقطار المعمورة، وبسط دولته في أفاصيحها، والاستقراء يطلعك - في التواريخ والكتب المدونة في مشاهد أهله وأيامهم - على عجائب لا ترى وقعة من وقائعهم إلا علما من أعلام الله وآية من آياته، يقوى معها اليقين، ويزداد بها الإيمان، ويتبين أن دين الإسلام هو دين الحق الذي لا يحيد عنه إلا مكابر حسه مغالط نفسه؛ وما الثبات والاستقامة إلا صفة الحق والصدق، كما أن الاضطراب والتزلزل صفة الفرية والزور؛ وأن للباطل ريحاً تخفق ثم تسكن، ودولة تظهر ثم تضمحل. ﴿بِرَبِّكَ﴾ في موضع الرفع على أنه فاعل كفى. و﴿أَنْتُمْ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾ بدل منه، تقديره. أو لم يكفهم أن ربك على كل شيء شهيد. ومعناه: أن هذا الموعود من إظهار آيات الله في الآفاق وفي أنفسهم سيرونها ويشاهدونها، فيتبينون عند ذلك أن القرآن تنزيل عالم الغيب الذي هو على كل شيء شهيد، أي: مطلع مهيمن يستوي عنده غيبه وشهادته، فيكفيهم ذلك دليلاً على أنه حق وأنه من عنده، ولو لم يكن كذلك لما قوى هذه القوة ولما نصر حاملوه هذه النصرة. وقرئ: «في مرية» بالضم

(١) قوله: «وفي باحة العرب» أي: ساحتهم. أفاده الصحاح. (ع).

وهي الشك. ﴿تُحِيطُ﴾ عالم بجمل الأشياء وتفصيلها وظواهرها وبواطنها، فلا تخفى عليه خافية منهم، وهو مجازيهم على كفرهم ومريتهم في لقاء ربهم.

عن رسول الله ﷺ: «من قرأ سورة السجدة أعطاه الله بكل حرف عشر حسنات» (١٣٦٨).

سورة الشورى

مكية [إلا الآيات ٢٣ و ٢٤ و ٢٥ و ٢٧ فمدنية]

وآياتها ٥٣ [نزلت بعد سورة فصلت]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿حَمْدٌ ۝١ عَسَى ۝٢﴾ كَذَلِكَ يُوحَىٰ إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكَ اللَّهُ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿٣﴾ لَمْ يَأْتِ
السَّمَوَاتِ / ٢ / ١٦٦ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَهُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ ﴿٤﴾ تَكَادُ السَّمَوَاتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْ
فَوْقِهِنَّ وَالْمَلَائِكَةُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِمَنْ فِي الْأَرْضِ إِلَّا إِنْ اللَّهُ هُوَ الْغَفُورُ
الرَّحِيمُ ﴿٥﴾

قرأ ابن عباس وابن مسعود رضي الله عنهما «حم سق». ﴿كَذَلِكَ يُوحَىٰ إِلَيْكَ﴾ أي مثل
ذلك الوحي. أو مثل ذلك الكتاب يوحى إليك وإلى الرسل ﴿مِنْ قَبْلِكَ اللَّهُ﴾ يعني أن ما
تضمنته هذه السورة من المعاني قد أوحى الله إليك مثله في غيرها من السور، وأوحاه من
قبلك إلى رسله، على معنى: أن الله تعالى كرر هذه المعاني في القرآن في جميع الكتب
السمائية؛ لما فيها من التنبيه البليغ واللفظ العظيم لعباده من الأولين والآخرين، ولم
يقُل: أوحى إليك؛ ولكن على لفظ المضارع؛ ليدل على أن إحياء مثله عادته. وقرئ:
«يوحى إليك» على البناء للمفعول. فإن قلت: فما رافع اسم الله على هذه القراءة؟ قلت:
ما دل عليه يوحى، كأن قائلًا قال: من الموحى؟ فقل: الله، كقراءة السلمي: ﴿وَكَذَلِكَ
رَبَّنَا يُكْفِّرُ عَنْ الْمُشْرِكِينَ قَتَلَ أَوْلَادِهِمْ شُرَكَاءَهُمْ﴾ [الأنعام: ١٣٧] على البناء
للمفعول ورفع شركائهم، على معنى: زينه لهم شركاءهم. فإن قلت: فما رافعه فيمن قرأ
نوحى بالنون؟ قلت: يرتفع بالابتداء. والعزیز وما بعده: أخبار، أو العزيز الحكيم:
صفتان؛ والظرف خبر. قرئ: «تكاد» بالياء والياء. وينفطرن، ويتفطرن. وروى يونس عن
أبي عمرو قراءة غريبة «تتفطرن» بتاءين مع النون، ونظيرها حرف نادر، روي في نوادر ابن
الأعرابي: الإبل تشمن^(١). ومعناه: يكدن ينفطرن من علو شأن الله وعظمته، يدل عليه

(١) قال السمين الحلبي: قال الشيخ: والظاهر أن هذا وهم منه؛ لأن ابن خالويه قال في شاذ القرآن ما =

مجيئه بعد العلي العظيم . وقيل : من دعائهم له ولداً ، كقوله تعالى : ﴿ تَكَادُ السَّمَوَاتُ
يَنْفَطِرْنَ مِنْهُ ﴾ [مريم : ٩٠] . فإن قلت : لم قال : ﴿ مِنْ فَوْقِهِنَّ ﴾ ؟ قلت : لأن أعظم الآيات
وأدلها على الجلال والعظمة : فوق السموات ، وهي : العرش ، والكرسي ، وصفوف
الملائكة المرتجة بالتسبيح والتقديس حول العرش ، وما لا يعلم كنهه إلا الله تعالى من آثار
ملكوته العظمى ؛ فلذلك قال : ﴿ يَنْفَطِرْنَ مِنْ فَوْقِهِنَّ ﴾ أي يبتدىء الانفطار من جهتهن
الفوقانية . أو : لأن كلمة الكفر جاءت من الذين تحت السموات ، فكان القياس أن يقال :
ينفطرون من تحتهن من الجهة التي جاءت منها الكلمة ، ولكنه بولغ في ذلك ، فجعلت مؤثرة
في جهة الفوق ، كأنه قيل : يكدن ينفطرون من الجهة التي فوقهن دون الجهة التي تحتهن ،
ونظيره في المبالغة قوله عز وعلا : ﴿ يُصَبُّ مِنْ فَوْقِ رُؤُسِهِمُ الْحَمِيمُ يُصْهَرُ بِهِ مَا فِي بُطُونِهِمْ ﴾
[الحج : ١٩ - ٢٠] فجعل الحميم مؤثراً في أجزائهم الباطنة . وقيل : من فوقهن : من فوق
الأرضين . فإن قلت : كيف صح أن يستغفروا لمن في الأرض وفيهم الكفار أعداء الله ؟ وقد
قال الله تعالى : ﴿ أُولَئِكَ عَلَيْهِمْ لَعْنَةُ اللَّهِ وَالْمَلَائِكَةِ ﴾ [البقرة : ١٦١] فكيف يكونون لاعنين
مستغفرين لهم ؟ قلت : قوله : ﴿ لِمَنْ فِي الْأَرْضِ ﴾ يدل على جنس أهل الأرض ، وهذه
الجنسية قائمة في كلهم وفي بعضهم ؛ فيجوز أن يراد به هذا وهذا . وقد دل الدليل على أن
الملائكة لا يستغفرون إلا لأولياء الله وهم المؤمنون ، فما أراد الله إلا إياهم . ألا ترى إلى
قوله تعالى في سورة المؤمن : ﴿ وَاسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ آمَنُوا ﴾ [غافر : ٧] وحكايته عنهم ﴿ فَأَعْفِرْ

= نَصُهُ : تَنْفَطِرُونَ بِالنَّاءِ والنون يونس عن أبي عمرو . وقال ابن خالويه : وهذا حرف نادر ؛ لأن العرب
لا تجمع بين علامتي تانيث لا يقال : النساء تَقْمَنَ ولكن يَقْمَنَ ﴿ وَالْوَلَدَاتُ يُرْضِعْنَ ﴾ ولا يقال :
تُرْضِعْنَ ، وقد كان أبو عمرو الزاهد روى في نوادر ابن الأعرابي الإبل تَنْشَمَنَ فأنكرناه ، فقد قوّاه
الآنَ هَذَا .

قال الشيخ : فإن كانت نسخ الزمخشري مُتَّفِقَةً على قوله بتاءين مع النون فهو وهم ، وإن كان في
بعضها بتاء مع النون كان موافقاً لقول ابن خالويه وكان بتاءين تحريفاً من النسخ ، وكذلك كتبهم
تَنْفَطِرُونَ وَتَشْمَمُونَ بتاءين . انتهى . قُلْتُ : كيف يستقيم أن يكون كُتِبَ تَنْشَمَنَ بتاءين وَهَمًا ؛ وذلك
لأن ابن خالويه أوردته في معرض الندرة والإنكار حتى تقوى عنده بهذه القراءة ؛ وإنما يكون نادراً
منكراً بتائين فإنه حينئذ يكون مضارعاً مسنداً لضمير الإبل فكان من حقه أن يكون حرف مضارعة
ياء منقوطة من أسفل ، نحو النساء يقمن فكان ينبغي أن يقال : الإبل تَنْشَمَنَ بالياء من تحت ثم
بالتاء من فوق ، فما جاء بتائين كلاهما من فوق ظهر ندوره وإنكاره ، ولو كان على ما قال الشيخ :
إن كتبهم بتائين وَهَمًا بل كان ينبغي كُتِبَ بتاء واحدة . لما كان فيه شذوذاً ولا إنكار لأنه نظير : النسوة
تَدَخَّرْنَ فإنه ماضٍ مسند لضمير الإناث ، وكذا لو كُتِبَ بياء من تحت وتاء من فوق لم يكن فيه
شذوذ ولا إنكار ، وإنما يجيء الشذوذ والإنكار إذا كان بتاءين منقوطين من فوق ؛ إنه سواء قرئ :
﴿ تَنْفَطِرْنَ ﴾ بتائين أو بتاء ونون ؛ فإنه نادر لما ذكر ابن خالويه ، وهذه القراءة لم يُقَرَأْ بها في نظيرها في
سورة مريم . انتهى . الدر المصون .

لِلَّذِينَ تَابُوا وَاتَّبَعُوا سَبِيلَكَ ﴿٧﴾ [غافر: ٧] كيف وصفوا المستغفر لهم بما يستوجب به الاستغفار فما تركوا للذين لم يتوبوا من المصدقين طمعاً في استغفارهم، فكيف لل كفره. ويحتمل أن يقصدوا بالاستغفار: طلب الحلم والغفران في قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يُمِيطُ السُّمُوتَ وَالْأَرْضَ أَنْ تَزُولًا﴾ [فاطر: ٤١] إلى أن قال: ﴿إِنَّكُمْ كَانُمْ حَلِيمًا غَفُورًا﴾ [الإسراء: ٤٤] وقوله تعالى: ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ لِلنَّاسِ عَلَى ظُلْمِهِمْ﴾ [الرعد: ٦] والمراد: الحلم عنهم وأن لا يعالجهم بالانتقام فيكون عاماً. فإن قلت: قد فسرت قوله تعالى: ﴿كَأَذَّ السَّمَاءُ يَتَنَطَّرَت﴾ بتفسيرين. فما وجه طباق ما بعده لهما؟ قلت: أما على أحدهما فكأنه قيل: تكاد السموات ينظرون هيبة من جلاله واحتشاماً من كبريائه، والملائكة الذين هم ملء السبع الطباق وحافون حول العرش صفوفاً بعد صفوف يداومون - خضوعاً لعظمته - على عبادته وتسبيحه وتحميده، ويستغفرون لمن في الأرض خوفاً عليهم من سطوته. وأما على الثاني: فكأنه قيل: يكذن ينظرون من إقدام أهل الشرك على تلك الكلمة الشنعاء، والملائكة يوحدون الله وينزهونه عما لا يجوز عليه من الصفات التي يضيفها إليه الجاهلون به، حامدين له على ما أولاهم من ألطافه التي علم أنهم عندها يستعصمون، مختارين غير ملجئين، ويستغفرون لمؤمني أهل الأرض الذين تبرءوا من تلك الكلمة ومن أهلها. أو يطلبون إلى ربهم أن يحلم عن أهل الأرض ولا يعاجلهم بالعقاب مع وجود ذلك فيهم؛ لما عرفوا في ذلك من المصالح، وحرصاً على نجاة الخلق، وطمعاً في توبة الكفار والفساق منهم.

﴿وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ اللَّهُ حَفِيفٌ عَلَيْهِمْ وَمَا أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِوَكِيلٍ﴾ ﴿٦﴾

﴿وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ﴾ جعلوا له شركاء وأنداداً ﴿اللَّهُ حَفِيفٌ عَلَيْهِمْ﴾ رقيب على أحوالهم وأعمالهم لا يفوته منها شيء وهو محاسبهم عليها ومعاقبهم ولا رقيب عليهم إلا هو وحده ﴿وَمَا أَنْتَ﴾ يا محمد/٢/١٦١ بـ بموكل بهم ولا مفوض إليك أمرهم، ولا قسره على الإيمان. إنما أنت منذر فحسب.

﴿وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لِنُنْذِرَ أُمَّ الْقُرَى وَمَنْ حَوْلَهَا وَنُنْذِرَ يَوْمَ الْجَمْعِ لَا رَبَّ فِيهِ

فَرِيقٌ فِي الْجَنَّةِ وَفَرِيقٌ فِي السَّعِيرِ﴾ ﴿٧﴾

ومثل ذلك ﴿أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ﴾ وذلك إشارة إلى معنى الآية قبلها: من أن الله تعالى هو الرقيب عليهم، وما أنت برقيب عليهم، ولكن نذير لهم؛ لأن هذا المعنى كرره الله في كتابه في مواضع جمّة، والكاف مفعول به لأوحينا. و﴿قُرْآنًا عَرَبِيًّا﴾ حال من المفعول به، أي أوحينا إليك وهو قرآن عربي بين، لا لبس فيه عليك؛ لتفهم ما يقال لك، ولا تتجاوز حد الإنذار. ويجوز أن يكون ذلك إشارة إلى مصدر ﴿أَوْحَيْنَا﴾، أي: ومثل ذلك الإيحاء البين المفهم أوحينا إليك قرآنًا عربياً بلسانك ﴿لِنُنْذِرَ﴾ يقال: أنذرت كذا وأنذرت بكذا. وقد

عدى الأول، أعني: لتنذر أم القرى، إلى المفعول الأول والثاني وهو قوله وتنذر يوم الجمع إلى المفعول الثاني. ﴿أَمَّ الْقُرَى﴾ أهل أم القرى كقوله تعالى: ﴿وَسَّيْلَ الْقَرِيَّةِ﴾ [يوسف: ٨٢]. ﴿وَيَوْمَ حَمَآ﴾ من العرب. وقرئ «لينذر» بالياء والفعل للمقرآن ﴿يَوْمَ الْجَمْعِ﴾ يوم القيامة، لأن الخلائق تجمع فيه. قال الله تعالى: ﴿يَوْمَ يَجْمَعُكُمُ يَوْمَ الْجَمْعِ﴾ [التغابن: ٩] وقيل: يجمع بين الأرواح والأجساد. وقيل: يجمع بين كل عامل وعمله. ولا ريب فيه اعتراض لا محل له. قرئ «فريق» وفريق؛ بالرفع والنصب، فالرفع على: منهم فريق، ومنهم فريق. والضمير للمجموعين؛ لأن المعنى: يوم جمع الخلائق. والنصب على الحال منهم، أي: متفرقين، كقوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ نُفِثُ شَقَاقَهُنَّ يُفَرِّقُونَ﴾ [الروم: ١٤]. فإن قلت: كيف يكونون مجموعين متفرقين في حالة واحدة؟ قلت: هم مجموعون في ذلك اليوم مع افتراقهم في داري البؤس والنعيم، كما يجتمع الناس يوم الجمعة متفرقين في مسجدين. وإن أريد بالجمع: جمعهم في الموقف، فالتفرق على معنى مشارفتهم للتفرق.

﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَهُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَكِنْ يَفْعَلُ مَا يُنَاصِي﴾

﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَهُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَكِنْ يَفْعَلُ مَا يُنَاصِي﴾

﴿لَجَعَلَهُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً﴾ أي مؤمنين كلهم على القسر والإكراه، كقوله تعالى: ﴿وَلَوْ شَاءَ لَأَمْنًا كُلِّ نَفْسٍ هُدًى﴾ [السجدة: ١٣] وقوله تعالى: ﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَأَمَنَّ مِنَ فِي الْأَرْضِ كُلَّهُمْ جَمِيعًا﴾ [يونس: ٩٩] والدليل على أن المعنى هو الإلجاء إلى الإيمان. قوله: ﴿أَفَأَنْتَ تُكْرِهُ النَّاسَ حَتَّى يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ﴾ [يونس: ٩٩] وقوله تعالى: ﴿أَفَأَنْتَ تُكْرِهُ بِإِذْخَالِ هِمزة الإنكار على المكروه دون فعله. دليل على أن الله وحده هو القادر على هذا الإكراه دون غيره. والمعنى: ولو شاء ربك مشيئة قدرة لقسرهم جميعاً على الإيمان^(١)، ولكنه شاء مشيئة حكمة، فكلفهم وبنى أمرهم على ما يختارون؛ ليدخل المؤمنين في رحمته وهم المرادون بمن يشاء. ألا ترى إلى وضعهم في مقابلة الظالمين ويترك الظالمين بغير ولي ولا نصير في عذابه.

﴿أَمِ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ فَإِنَّهُ هُوَ الْوَلِيُّ وَهُوَ يُخَيِّ الْمَوْتَى وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾

- (١) قوله: «لا محل له» لعله. لا محل له من الإعراب. (ع).
- (٢) قوله: «لقسرهم جميعاً على الإيمان» هذا عند المعتزلة: أما عند أهل السنة، فالإرادة تستلزم وجود المراد، لكن لا تستلزم القسر والجبر للعباد؛ لأنها لا تنافي الاختيار، لما لهم في أعمالهم من الكسب. وإن كانت مخلوقة له تعالى. وأما التي لا تستلزم المراد وهي التي سماها مشيئة الحكمة، فهي التي بمعنى الأمر عند المعتزلة، ولا يشتها أهل السنة، كما تقرر في التوحيد؛ فمعنى الآية: ولو شاء ربك إيمان الكل لأمن الكل، ولكن شاء إيمان البعض، فأمن من شاء إيمانه.

معنى الهمزة في ﴿إِنْ﴾ الإنكار، ﴿فَاللَّهُ هُوَ الْوَلِيُّ﴾ هو الذي يجب أن يُتَوَلَّى وحده ويُعْتَقَد أنه المولى والسيد، فالفاء في قوله: ﴿فَاللَّهُ هُوَ الْوَلِيُّ﴾ جواب شرط مقدر، كأنه قيل بعد إنكار كل ولي سواه: إن أرادوا ولياً بحق، فالله هو الولي بالحق، لا ولي سواه. ﴿وَهُوَ يُحْيِي﴾ أي: ومن شأن هذا الولي أنه يحيى ﴿الْمَوْتَ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾، فهو الحقيق بأن يتخذ ولياً دون من لا يقدر على شيء.

﴿وَمَا اخْتَلَفْتُمْ فِيهِ مِنْ شَيْءٍ فَحُكْمُهُ إِلَى اللَّهِ ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبِّي عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ﴾

﴿وَمَا اخْتَلَفْتُمْ فِيهِ مِنْ شَيْءٍ﴾ حكاية قول رسول الله ﷺ للمؤمنين. أي: ما خالفكم فيه الكفار من أهل الكتاب والمشركين، فاختلقتم أنتم وهم فيه من أمر من أمور الدين، فحكم ذلك المختلف فيه مفوض إلى الله تعالى، وهو إثابة المحققين فيه من المؤمنين ومعاقبة المبطلين، ﴿ذَلِكُمُ﴾ الحاكم بينكم هو ﴿اللَّهُ رَبِّي عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ﴾ في رد كيد أعداء الدين، ﴿وَإِلَيْهِ﴾ أرجع في كفاية شرهم. وقيل: وما اختلفتم فيه وتنازعتم من شيء من الخصومات فتحاكموا فيه إلى رسول الله ﷺ، ولا تؤثروا على حكومته حكومة غيره، كقوله تعالى: ﴿إِنْ لَنْ نَرْزِعَنَّهُ فِي شَيْءٍ نَرُدُّهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ﴾ [النساء: ٥٩] وقيل: وما اختلفتم فيه من تأويل آية واشتبه عليكم فارجعوا في بيانه إلى المحكم من كتاب الله والظاهر من سنة رسول الله ﷺ وقيل: وما وقع بينكم الخلاف فيه من العلوم التي لا تتصل بتكليفكم ولا طريق لكم إلى علمه، فقولوا: الله أعلم، كمعرفة الروح. قال الله تعالى: ﴿وَسْئَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي﴾ [الإسراء: ٨٥]: فإن قلت: هل يجوز حمله على اختلاف المجتهدين في أحكام الشريعة؟ قلت: لا؛ لأن الاجتهاد لا يجوز بحضرة رسول الله ﷺ.

﴿فَاطِرُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ جَعَلَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا وَمِنَ الْأَنْعَامِ أَزْوَاجًا يَذَرُوكُمْ فِيهِ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾

﴿فَاطِرُ السَّمَوَاتِ﴾ قرئ بالرفع والجذر، فالرفع على أنه أحد أخبار ذلكم. أو خبر مبتدأ محذوف، والجذر على: فحكمه إلى الله فاطر السموات، و﴿ذَلِكُمُ﴾ إلى ﴿أُنِيبُ﴾ اعتراض بين الصفة والموصوف ﴿جَعَلَ لَكُمْ﴾ خلق/١٦٢/٢ لكم ﴿مِنْ أَنْفُسِكُمْ﴾ من جنسكم من الناس ﴿أَزْوَاجًا وَمِنَ الْأَنْعَامِ أَزْوَاجًا﴾ أي: خلق من الأنعام أزواجاً. ومعناه: وخلق للأنعام أيضاً من أنفسها أزواجاً ﴿يَذَرُوكُمْ﴾ يكثركم، يقال: ذرأ الله الخلق: بشهم وكثرهم. والذر، والذرو، والذرة: أخوات. ﴿فِيهِ﴾ في هذا التدبير، وهو أن جعل للناس والأنعام أزواجاً، حتى كان بين ذكورهم وإناثهم التوالد والتناسل. والضمير في ﴿يَذَرُوكُمْ﴾ يرجع إلى المخاطبين والأنعام، مغلباً فيه المخاطبون العقلاء على الغيب مما لا يعقل، وهي من

الأحكام ذات العلتين^(١)، فإن قلت: ما معنى يذروكم في هذا التدبير؟ وهلا قيل: يذروكم به؟ قلت: جعل هذا التدبير كالمنبع والمعدن للث والتكثير؛ ألا تراك تقول: للحيوان في خلق الأزواج تكثير، كما قال تعالى: ﴿وَلَكُمْ فِي الْفَصَاصِ حَيَوةٌ﴾ [البقرة: ١٧٩] قالوا: مثلك لا يبخل، فنفوا البخل عن مثله، وهم يريدون نفيه عن ذاته، قصدوا المبالغة في ذلك فسلكوا به طريق الكناية؛ لأنهم إذا نفوه عمن يسد مسدّه وعمن هو على أخص أوصافه، فقد نفوه عنه. ونظيره قولك للعربي: العرب لا تخفر الذم، كان أبلغ^(٢) من قولك: أنت لا تخفر. ومنه قولهم: قد أيفعت لداته وبلغت أترابه، يريدون: إيفاعه وبلوغه. وفي حديث رقيقة بنت صيفي في سقيا عبد المطلب: «ألا وفيهم الطيب الطاهر^(٣) لذاته»

(١) قال محمود: «إن الضمير المتصل بيزرو عائد على الأنفس وعلى الأنعام مغلباً فيه المخاطبون العقلاء على الغيب مما لا يعقل، وهي من الأحكام ذات العلتين» قال أحمد: الصحيح أنهما حكمان متباينان غير متداخلين، أحدهما: مجيئه على نعت ضمير العقلاء أعم من كونه مخاطباً أو غائباً. والثاني: مجيئه بعد ذلك على نعت الخطاب، فالأول لتغليب العقل. والثاني لتغليب الخطاب.

(٢) قوله: «لا تخفر الذم كان أبلغ» في الصحاح: أخفرت، إذا نقضت عهده وغدرت به، وفيه: «أيفع الغلام» أي: ارتفع. وهو يافع، ولا نقول: موقع. وقوله: «كان أبلغ» لعل تقديره: فإن قلت له ذلك كان أبلغ. (ع)

(٣) قال محمود: «تقول العرب: مثلك لا يبخل، فينفون البخل عن مثله، والمراد نفسه. ونظيره قولك للعربي: العرب لا تخفر الذم. ومنه قولهم: قد أيفعت لداته وبلغت أترابه. وفي حديث رقيقة بنت صيفي في سقيا عبد المطلب: ألا وفيهم الطيب الطاهر لذاته، تريد طهارته وطيبه، فإذا علم أنه من باب الكناية: لم يكن فرق بين قولك: ليس كالله شيء وبين قوله: ليس كمثله شيء، إلا ما تعطيه الكناية من فائدتها. ونحوه قوله تعالى: (بل يدها مبسوطتان) فإن معناه بل هو جواد من غير تصور يد ولا بسط؛ لأنها وقعت عبارة عن الجود لا يقصدون بها شيئاً آخر، حتى أنهم يستعملونها فيمن لا بد له؛ فكذاك استعمل هذا فيمن له مثل، وفيمن لا مثل له، ثم قال: ولك أن تزعم أن كلمة التشبيه كررت للتأكيد كما كررت في قول من قال: «وصاليات ككما يؤنفين».

ومن قال: «فأصبحت مثل كعصف مأكول» انتهى كلامه. قال أحمد: هذا الوجه الثاني مردود على ما فيه من الإخلال بالمعنى، وذلك أن الذي يليق هنا تأكيد نفي المماثلة، والكاف على هذا الوجه إنما تؤكد المماثلة وفرق بين تأكيد المماثلة المنفية، وبين تأكيد نفي المماثلة، فإن نفي المماثلة المهمة عن التأكيد أبلغ وأكد في المعنى من نفي المماثلة المقرنة بالتأكيد؛ إذ يلزم من نفي المماثلة غير المؤكدة نفي كل مماثلة. ولا يلزم من نفي مماثلة محققة متأكدة بالغة نفي مماثلة دونها في التحقيق والتأكيد. وحيث وردت الكاف مؤكدة للمماثلة وردت في الإثبات فأكدته، فليس النظر في الآية بهذين النظريتين مستقيماً والله أعلم. ومما يرشد إلى صحة ما ذكرته أن للقاتل أن يقول: ليس زيد شبيهاً بعمرو؛ لكن مشبهاً له، ولو عكس هذا لم يكن صحيحاً، وما ذاك إلا أنه يلزم من نفي أدنى المشابهة نفي أعلاها، ولا يلزم من نفي أعلاها نفي أدناها، فمتى أكد التشبيه قصر عن المبالغة. والوجه الأول الذي ذكره هو الوجه في الآية عنده، وأتى بمطية الضعف في هذا الوجه الثاني بقوله: ولك أن تزعم، فافهم.

(١٣٦٩) والقصد إلى طهارته وطيبه، فإذا علم أنه من باب الكناية لم يقع فرق بين قوله: ليس كالله شيء، وبين قوله: ﴿لَيْسَ الشَّيْءُ شَيْئاً﴾ إلا ما تعطيه الكناية من فائدتها، وكأنهما عبارتان معتقتان على معنى واحد: وهو نفي المماثلة عن ذاته، ونحوه قوله عز وجل: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾ [المائدة: ٦٤] فإن معناه: بل هو جواد من غير تصوّر يد ولا بسط لها؛ لأنها وقعت عبارة عن الجود لا يقصدون شيئاً آخر، حتى إنهم استعملوها فيمن لا يد له، فكذلك استعمل هذا فيمن له مثل ومن لا مثل له، ولك أن تزعم أنّ كلمة التشبيه كرّرت للتأكيد، كما كرّرها من قال [من الرجز]:

وَصَالِيَاتٍ كَمَا يُؤْتَفَنِينَ

١٣٦٩ - أخرجه الطبراني في معجمه الكبير (٢٥٩/٢٤)، حديث برقم (٦٦١)، وابن سعد في الطبقات الكبرى (٧٢/١)، قال الحافظ: رواه ابن عبد الرحمن بن موهب حليف بني زهرة عن أبيه: حدثني مخزومة بن نوفل بحديث سقيا عبد المطلب لكن ليس فيه الطيب الطاهر لذاته، ورواه الطبراني، وأبو نعيم في الدلائل من حديث عروة بن مصرف عن مخزومة بن نوفل عن أمه رقيقة بنت أبي صيفي بن هاشم، وكانت لدة عبد المطلب قال: تابعت على قریش سنون الحديث بطوله «ورويانه في جزء أبي السكين (تنبيه) وقع رقيقة بنت صيفي والصواب بنت أبي صيفي. انتهى».

لم يبق من أي بها يحلين
وغير ود جازل أو ودين
غير رماد وعظام كثفين
وصاليات ككما يؤتفين

لخطام المجاشعي. والآي: واحدة آية، أي: علامة. ويحلين: مضارع مبني للمجهول، من حلّيته تحلية: إذا وصفت حلّيته وصفته. يقول: لم يبق من آثار هذه الديار علامات فيها تذكر صفتها غير رماد وعظام متكاثفين متراكمين. والكثف - بالتحريك -: كسبب: المجتمع، فلعله سكنه للوزن. وروي: غير رماد وخطام كثفين. والخطام: الزمام. ويروى بالمهملة، وهو ما تحطم وتكسر من الحطب اليابس. والكثف - كحمل: وعاء الرعي فكثفين على حذف العاطف. وقيل بدل مما قبله، والأوجه روايته، وخطام كثفين بالإضافة؛ لأجل موافقة القوافي أي: ورباط وعامين، وكرر أداة الاستثناء للتوكيد. والود: أصله وتد، فقلبت التاء دالاً وأدغمت في الأخرى عند تميم شذوذاً. والجادل: المنتصب والغليظ، أي: لم يبق غير وتد منتصب بها أو وتدين لا غير، حيث لم يشك إلا في ذلك. والصاليات صفة للأنافي. وقيل: صفة للنساء الموقدات للنار: وقيل: صفة للخليل الصاليات للحرب كالأنافي الصاليات للنار، لكنهما لا يناسبان وصف الدار بالخلو. والأنفية: حجر الكانون، وزنها: أفعولة في الأصل، وجمعها أنافي. وأنفيت للقدر: وضعت الأنافي لها. ونفيتها تنفية: وضعتها على الأنافي. وقوله: يؤتفين مضارع مبني للمجهول، جاء على الأصل مهموزاً، كيؤكّر من بالهمزة، وهذا يدل على أن الصاليات صفة للأحجار الملازمات للنار المحترقات بها؛ فلعله شبه النساء بالأنافي لدمايتهن وسوادهن، بكثرة الدخان وملازمتهن النار. وعليه فالمعنى: ونساء صاليات كالأحجار تنفي وتوضع للقدر؛ فما موصولة واقعة على الأحجار لا مصدرية ولا كافة؛ وكرر كاف التشبيه للتوكيد، لكن الثانية اسم بمعنى مثل؛ لأن حرف الجر لا يدخل على مثله. ويمكن أنه كرر الحرف من غير إعادة المجرور شذوذاً. ويروى بعد قوله: وصاليات... الخ.

ومن قال [من الرجز]:

فَأُضْبَحَتْ مِثْلَ كَعَصْفٍ مَأْكُولٍ^(١)

= لا يشتكين عملاً ما أنقين ما دام مخ في سلامى أو عين

وهو يناسب القول بأنها صفة للنساء أو الخيل على التشبيه السابق. والإنقاء: كثرة النقي بالكسر وهو المخ. يقال: أنقت الإبل إذا سمت وكثر مخها، أي: لا يشتكين عملاً مدة إنقائهن وسمنهن، وفسر ذلك بقوله: ما دام مخ... الخ والسلاميات: عظام الأصابع وهي والعين آخر ما يبقى فيه المخ. ويروى أيضاً هكذا:

أهل عرفت الدار بالغريين وصاليات ككما يؤشفين؟

والغريان: بناءان طويلان، يقال: هما قبرا مالك وعقيل: نديمي جذيمة الأبرش؛ سمياً بذلك لأن النعمان كان يغريهما بمن يريد قتله إذا خرج يوم بؤسه. والأشبه أن ذلك من تخطيط الراوي، وأن الصاليات: الأحجار. وقوله: «لا يشتكين... الخ» ليس من هذا الرجز، فلا ينبغي روايته معه، وهو الذي من صفة الخيل، أو أصل النساء لا الصاليات، ويجوز أن الرجز هكذا:

أهل عرفت الدار بالغريين لم يسبق من أي بها يلين

وأن قوله: «لا يشتكين... الخ» من موضع آخر من ذلك الرجز في صفة الخيل، كما رواه صاحب الكافي شاهداً على الإكفاء في القافية هكذا:

بنات وطاء على خد الليل لا يشتكين عملاً ما أنقين

لاختلاف حرفي الروي، والوطاء - بالضم والتشديد -: من الوطاء على الأرض. وخذ الليل: طريقه الذي لا يسلك إلا فيه. وقال بعضهم: إن هذا في صفة الخيل، وأنه من مشطور المنسرح الموقوف. وعلى أنه في صفة أجل، أي: فلك المطايا بنات نوق أو فحول، وطاء: جمع واطيء أو واطئة، على خد الليل: كناية عن قوتهن في السير، حتى كأنهن يغلبن الليل، فيصرعنه ويطنان على خده، فهن لا يبالين به.

ينظر البيت في لسان العرب (رنب)، (ثفا)، وتهذيب اللغة ١٥/١٤٩، وتاج العروس (ثفا)، (غرا)، وبلا نسبة في جمهرة اللغة ص ١٠٣٦، وكتاب العين ٨/٢٤٥، ومقاييس اللغة ١/٥٨، والمختص ٨/٧٦، ١٤/٤٩، ٦٤، ١٦/١٠٨، وديوان الأدب ٢/٣٣٥، ولسان العرب (أنف).

بالأمس كانت في رخاء مأمول فأصبحت مثل كعصف مأكول

(١)

يروى لرؤية بدله:

ولعب طير بهم أبابيل فصيروا مثل كعصف مأكول

يقول: بالأمس، أي: في الزمن الماضي القريب، كانت تلك الديار مثلاً في رخاء، أي: خصب وسعة من الثروة والغنى، مأمول ذلك، أي: متمنى للناس، وكرر كلمة التشبيه للتوكيد، والعصف: ما على الحب وعلى ساق الزرع من التين والورق اليابس، مأكول: أي أصابه الأكال، وهو الدود. وأكلته الدواب ثم راتته. وأبابيل، بمعنى جماعات متفرقة، صفة طير، وهو اسم جمع لا واحد له من لفظه. وقيل: واحده أبول كعجول. وقيل: إبال كمفتاح. وقيل إبيل كمسكين. وقول رؤية «صيروا» بالتشديد والبناء للمجهول، ولعل هذا رجز غير ذلك.

لرؤية في ملحق ديوانه ص ١٨١، وخزانة الأدب ١٠/١٦٨، ١٧٥، ١٨٤، ١٨٩، وشرح التصريح ١/٢٥٢، وشرح شواهد المغني ١/٥٣، والمقاصد النحوية ٢/٤٠٢، ولحميد الأرقط في الدرر ٢/٢٥٠، والكتاب ١/٤٠٨، وبلا نسبة في أوضح المسالك ٢/٥٢، والجنى الداني ص ٩٠، وخزانة =

﴿لَهُمْ مَقَالِيدُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ وَيَقْدِرُ إِنَّهُمْ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ (١٧)

وقرئ: «ويقدر» ﴿إِنَّهُمْ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ فإذا علم أن الغنى خير للعبد أغناه، وإلا أفقره.

﴿شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ كَبُرَ عَلَى الْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ اللَّهُ

يَجْتَنِي إِلَيْهِ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَنْ يُنِيبُ﴾ (١٣)

﴿شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ﴾ دين نوح ومحمد ومن بينهما من الأنبياء، ثم فسر المشروع الذي اشترك هؤلاء الأعلام من رسله فيه بقوله: ﴿أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ﴾ والمراد: إقامة دين الإسلام الذي هو توحيد الله وطاعته، والإيمان برسله وكتبه، ويوم الجزاء، وسائر ما يكون الرجل بإقامته مسلماً، ولم ترد الشرائع التي هي مصالح الأمم على حسب أحوالها، فإنها مختلفة متفاوتة. قال الله تعالى: ﴿لِكُلِّ جَعَلْنَا بَيْنَكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا﴾ [المائدة: ٤٨] ومحل ﴿أَنْ أَقِيمُوا﴾ إما نصب بدل من مفعول شرع والمعطوفين عليه، وإما رفع على الاستئناف، كأنه قيل: وما ذلك المشروع؟ فقيل: هو إقامة الدين، ونحوه قوله تعالى: ﴿إِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً﴾ [الأنبياء: ٩٢]. ﴿كَبُرَ عَلَى الْمُشْرِكِينَ﴾ عظم عليهم وشق عليهم ﴿مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ﴾ من إقامة دين الله والتوحيد. ﴿يَجْتَنِي إِلَيْهِ﴾ يجتلب إليه ويجمع - والضمير للدين بالتوفيق والتسديد - ﴿مَنْ يَشَاءُ﴾ من ينفع فيهم توفيقه ويجرى عليهم لطفاً.

﴿وَمَا تَفَرَّقُوا إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ بَعِيًّا بَيْنَهُمْ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ إِلَى أَجَلٍ

مُسَمًّى لَفُضِّي بَيْنَهُمْ وَإِنَّ الَّذِينَ أُورِثُوا الْكُتُبَ مِنْ بَعْدِهِمْ لَفِي شَكٍّ مِنْهُ مِرْيًا﴾ (١٤)

﴿وَمَا تَفَرَّقُوا﴾ يعني أهل الكتاب بعد أنبيائهم ﴿إِلَّا مِنْ بَعْدِ﴾ أن علموا أن الفرقة ضلال وفساد، وأمر متوعد عليه على السنة الأنبياء. ﴿وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ﴾ وهي عدة التأخير إلى يوم القيامة ﴿لَفُضِّي بَيْنَهُمْ﴾ حين افترقوا لعظم ما افترقوا. ﴿وَإِنَّ الَّذِينَ أُورِثُوا الْكُتُبَ مِنْ بَعْدِهِمْ﴾ [الشورى: ١٤] وهم أهل الكتاب الذين كانوا في عهد رسول الله ﷺ ﴿لَفِي شَكٍّ﴾ من كتابهم لا يؤمنون به حق الإيمان. وقيل: كان الناس أمة واحدة مؤمنين بعد أن أهلك الله أهل الأرض أجمعين بالطوفان، فلما مات الآباء اختلف الأبناء فيما بينهم، وذلك حين بعث الله إليهم النبيين مبشرين ومنذرين وجاءهم العلم. وإنما اختلفوا للبغي بينهم. وقيل: وما تفرق أهل الكتاب إلا من بعد ما جاءهم العلم بمبعث

= الأدب ٧٣/٧، ووصف المباني ص ٢٠١، وسر صناعة الإعراب ص ٢٩٦، وشرح الأشموني ١/ ١٥٨، ولسان العرب (عصف)، ومغني اللبيب ١/ ١٨٠، والمقتضب ٤/ ١٤١، ٣٥٠، وجمع الهوامع ١/ ١٥٠، وتاج العروس (عصف).

رسول الله ﷺ، كقوله تعالى: ﴿وما تفرق الذين أوتوا الكتاب إلا من بعد ما جاءتهم البينة﴾ [البينة: ٤] وإن الذين «أورثوا» الكتاب من بعدهم هم المشركون الذين أورثوا القرآن من بعد ما أورث أهل الكتاب التوراة والإنجيل. وقرئ «ورثوا» وورثوا.

﴿فَلِذَلِكَ فَادْعُ وَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ وَقُلْ ءَامَنْتُ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنْ كِتَابٍ وَأُمِرْتُ لِأَعْدِلَ بَيْنَكُمُ اللَّهُ رَبُّنَا وَرَبُّكُمُ لَنَا أَعْمَلُنَا وَلَكُمْ أَعْمَلُكُمْ لَا حُجَّةَ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ اللَّهُ يَجْمَعُ بَيْنَنَا وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ ﴿١٥﴾﴾

﴿فَلِذَلِكَ﴾ فلاجل ذلك التفرق ولما حدث بسببه من تشعب الكفر شعباً ﴿فَادْعُ﴾ إلى الاتفاق والاتلاف على الملة الحنيفية/ ١٦٢/٢ ب القديمة، ﴿وَاسْتَقِمْ﴾ عليها وعلى الدعوة إليها كما أمرك الله، ﴿وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ﴾ المختلفة الباطلة بما أنزل الله من كتاب، أي كتاب صح أن الله أنزله، يعني الإيمان بجميع الكتب المنزلة؛ لأن المتفرقين آمنوا ببعض وكفروا ببعض، كقوله تعالى: ﴿وَيَقُولُونَ نُوْمُنُ بِبَعْضِ وَنَكْفُرُ بِبَعْضٍ﴾ [النساء: ١٥٠] إلى قوله: ﴿أُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ حَقًّا﴾ [النساء: ١٥١] ﴿لِأَعْدِلَ بَيْنَكُمُ﴾ في الحكم إذا تخاصمتم فتحاكمتم إلي. ﴿لَا حُجَّةَ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ﴾ أي لا خصومة. لأن الحق قد ظهر وصرتم محجوبين به فلا حاجة إلى المحاجة. ومعناه: لا إيراد حجة بيننا؛ لأن المتحاجين يورد هذا حجته وهذا حجته. ﴿اللَّهُ يَجْمَعُ بَيْنَنَا﴾ يوم القيامة فيفصل بيننا ويتقم لنا منكم؛ وهذه محاجة ومتاركة بعد ظهور الحق وقيام الحجة والإلزام. فإن قلت: كيف حوجزوا وقد فعل بهم بعد ذلك ما فعل من القتل وتخريب البيوت وقطع النخيل والإجلاء؟ قلت: المراد محاجرتهم في مواقف المقاتلة لا المقاتلة.

﴿وَالَّذِينَ يُحَاجُّوْنَ فِي اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مَا اسْتَجِيبَ لَهُمْ جَحِشُهُمْ دَاخِضَةً عِنْدَ رَبِّهِمْ وَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ ﴿١٦﴾﴾

﴿يُحَاجُّوْنَ فِي اللَّهِ﴾ يخاصمون في دينه ﴿مِنْ بَعْدِ﴾ ما استجاب له الناس ودخلوا في الإسلام؛ ليردوهم إلى دين الجاهلية، كقوله تعالى: ﴿وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يَرُدُّوكُمْ مِنْ بَعْدِ إِيمَانِكُمْ كُفَّارًا﴾ [البقرة: ١٠٩] كان اليهود والنصارى يقولون للمؤمنين: كتابنا قبل كتابكم، ونبينا قبل نبيكم، ونحن خير منكم^(١) وأولى بالحق. وقيل: من بعد ما استجاب الله لرسوله ونصره يوم بدر وأظهر دين الإسلام. ﴿دَاخِضَةً﴾ باطلة زالة.

﴿اللَّهُ الَّذِي أَنْزَلَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ وَالْمِيزَانَ وَمَا يُدْرِيكُ لَعَلَّ السَّاعَةَ قَرِيبٌ ﴿١٧﴾ يَسْتَعْجِلُ بِهَا﴾

(١) قوله: «نحن خير منكم» لعله: «فنحن» كعبارة النسفي.

الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِهَا وَالَّذِينَ آمَنُوا مُشْفِقُونَ مِنْهَا وَيَعْلَمُونَ أَنَّهَا الْحَقُّ أَلَا إِنَّ الَّذِينَ
يَعَارُوكَ فِي السَّاعَةِ لَفِي ضَلَالٍ بَعِيدٍ ﴿١٨﴾

﴿أَنْزَلَ الْكِتَابَ﴾ أي جنس الكتاب، ﴿وَالْمِيزَانَ﴾ والعدل والتسوية. ومعنى إنزال العدل: أنه أنزله في كتبه المنزلة. وقيل: الذي يوزن به. ﴿بِالْحَقِّ﴾: ملتبساً بالحق، مقترناً به، بعيداً من الباطل، أو بالغرض الصحيح كما اقتضته الحكمة. أو بالواجب من التحليل والتحريم وغير ذلك، ﴿السَّاعَةِ﴾ في تأويل البعث؛ فلذلك قيل: ﴿قَرِيبٌ﴾ أو لعل مجيء الساعة قريب. فإن قلت: كيف يوفق ذكر اقتراب الساعة مع إنزال الكتاب والميزان؟ قلت: لأن الساعة يوم الحساب ووضع الموازين للقسط، فكأنه قيل: أمركم الله بالعدل والتسوية والعمل بالشرائع قبل أن يفاجئكم اليوم الذي يحاسبكم فيه ويزن أعمالكم، ويوفي لمن أوفى ويطفف لمن طفف. الممارسة: الملاحة^(١)؛ لأن كل واحد منهما يمرى ما عند صاحبه ﴿لَفِي ضَلَالٍ بَعِيدٍ﴾ من الحق: لأن قيام الساعة غير مستبعد من قدرة الله، ولدلالة الكتاب المعجز على أنها آتية لا ريب فيها، ولشهادة العقول على أنه لا بد من دار الجزاء.

﴿اللَّهُ لَطِيفٌ بِعِبَادِهِ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ الْقَوِيُّ الْعَزِيزُ﴾ ﴿١٩﴾

﴿لَطِيفٌ بِعِبَادِهِ﴾ بَرِّ بليغ البر بهم، قد توصل برّه إلى جميعهم، وتوصل من كل واحد منهم إلى حيث لا يبلغه، وهم أحد من كلياته وجزئياته. فإن قلت: فما معنى قوله: ﴿يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ﴾ بعد توصل برّه إلى جميعهم؟ قلت: كلهم مبرورون لا يخلو أحد من برّه، إلا أنّ البرّ أصناف، وله أوصاف. والقسمة بين العباد تتفاوت على حسب تفاوت قضايا الحكمة والتدبير، فيطير لبعض العباد صنف من البر لم يطر مثله لآخر، ويصيب هذا حظ له وصف ليس ذلك الوصف لحظ صاحبه، فمن قسم له منهم ما لا يقسم للآخر فقد رزقه، وهو الذي أراد بقوله تعالى: ﴿يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ﴾ [البقرة: ٢١٢] كما يرزق أحد الأخوين ولداً دون الآخر، على أنه أصابه بنعمة أخرى لم يرزقها صاحب الولد. ﴿وَهُوَ الْقَوِيُّ﴾ الباهر القدرة، الغالب على كل شيء، ﴿الْعَزِيزُ﴾ المنيع الذي لا يغلب.

﴿مَنْ كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الْآخِرَةِ نَزِدْ لَهُ فِي حَرْثِهِ وَمَنْ كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الدُّنْيَا نُؤْتِهِ مِنْهَا

وَمَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ نَصِيبٍ﴾ ﴿٢٠﴾

سمى ما يعمله العامل مما ينبغي به الفائدة والزكاء حرثاً على المجاز. وفرق بين عملي العاملين: بأن من عمل للآخرة وفق في عمله وضوعفت حسناته، ومن كان عمله للدنيا

(١) قوله: «الملاحة» بالجيم: التمادي في الخصومة، ويمري: أي يستخرج، كذا في الصحاح. (ع)

أعطى شيئاً منها لا ما يريد ويبتغيه . وهو رزقه الذي قسم له وفرغ منه وما له نصيب قط في الآخرة ، ولم يذكر في معنى عامل الآخرة وله في الدنيا نصيب ، على أن رزقه المقسوم له واصل إليه لا محالة ؛ للاستهانة بذلك إلى جنب ما هو بصدده من زكاء عمله وفوزه في المآب .

﴿أَمْ لَهُمْ شُرَكَاءُ شَرَعُوا لَهُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَنْ يُبَذَّلَ بِهِمُ الْأَمْوَالُ وَلَوْلَا كَلِمَةُ الْفَصْلِ

لَشَفَّعُوا فِيهِمْ وَإِنْ تَسْأَلُهُمْ عَلَيْهِمْ لَآتِيكَ أَلْسِنَةٌ ذُرِّيَّةٌ ۚ﴾

معنى الهمزة في ﴿٢١﴾ التقرير والتقرير . وشركاؤهم : شياطينهم الذين زينوا لهم الشرك وإنكار البعث والعمل للدنيا ؛ لأنهم لا يعلمون غيرها وهو الدين الذي شرعت لهم الشياطين ، وتعالى الله عن الإذن فيه والأمر به ، وقيل : شركاؤهم أوثانهم ، وإنما أضيف إليهم لأنهم متخذوها شركاء لله / ٢ / ١٦٣ أ ، فتارة تضاف إليهم لهذه الملازمة . وتارة إلى الله ؛ ولما كانت سبباً لضلالتهم وافتتانهم : جعلت شارعة لدين الكفر ، كما قال إبراهيم صلوات الله عليه : ﴿رَبِّهِمْ أَتَمَنَّوْنَ بِكَفَرٍ ۖ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَلِئِنْ لَمْ يَنْتَهِ عَنِ الْكُفْرِ أَتَمَنَّوْا بِأَن يَكُونَ لَكُمُ الْيَوْمَ الْقِيَامَةُ ۚ﴾ أي القضاء السابق بتأجيل الجزاء ، أو : ولولا العدة بأن الفصل يكون يوم القيامة ﴿لَشَفَّعُوا فِيهِمْ﴾ أي : بين الكافرين والمؤمنين ، أو بين المشركين وشركائهم . وقرأ مسلم بن جندب «وأن الظالمين» بالفتح عطفاً له على كلمة الفصل ، يعني : ولولا كلمة الفصل وتقدير تعذيب الظالمين في الآخرة لقضي بينهم في الدنيا .

﴿تَرَى الظَّالِمِينَ لَمْ يَخْشَوْا رَبَّهُمْ وَابْتَغَوْا إِلَىٰ ذِي الْعَرْشِ الْكَبِيرِ

فِي رُوضَاتٍ الْحَبَّتِ لَهُمْ مَا يَشَاءُونَ ۚ وَعِندَ رَبِّهِمْ هُوَ الْفَصْلُ ۚ كَبِيرٌ ۚ﴾ ذلك الذي

يُبَشِّرُ اللَّهُ عِبَادَهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ ۚ لَا تَسْتَكْبِرُ عَلَيْهِمْ فُجْرًا إِلَّا أَعَدَّ اللَّهُ

لِلْقَارِئِينَ وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا ۚ وَمِنْ أَمْرِ اللَّهِ عَفْوَ ۚ سَكُونٌ ۚ﴾

﴿تَرَى الظَّالِمِينَ﴾ في الآخرة ﴿لَمْ يَخْشَوْا رَبَّهُمْ﴾ خائفين خوفاً شديداً أرق قلوبهم ﴿وَابْتَغَوْا﴾ من السيئات ، ﴿وَهُوَ وَقَعُ بِهِمْ﴾ يريد : ووباله واقع بهم وواصل إليهم لا بد لهم منه ، أشفقوا أو لم يشفقوا . كأن روضة جنة المؤمن أطيب بقعة فيها وأنزهها . ﴿عِندَ رَبِّهِ﴾ منصوب بالظرف لا بـ ﴿يَشَاءُونَ﴾ . قرئ : «يبشر» من بشره . ويبشر من أبشره . ويبشر ، من بشره . والأصل : ذلك الثواب الذي يبشر الله به عباده ، فحذف الجار ، كقوله تعالى : ﴿وَأَخْبَارَ مُوسَىٰ قَوْمَهُ﴾ [الأعراف : ١٥٥] ثم حذف الراجع إلى الموصول ، كقوله تعالى : ﴿أَلَّذِي بَعَثَ اللَّهُ رَسُولًا﴾ [الفرقان : ٤١] أو ذلك التبشير الذي يبشره الله عباده ^(١) . روي أنه

(١) قال السمين الحلبي : قال الشيخ : وليس بظاهر إذ لم يتقدم في هذه السورة لفظ البشري ، ولا ما يدل عليه من بشر أو شبهه ، انتهى . الدر المصون .

اجتمع المشركون في مجمع لهم فقال بعضهم لبعض: أترون محمداً يسأل على ما يتعاطاه أجراً؟ فنزلت الآية: ﴿إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَىٰ﴾ يجوز أن يكون استثناءً متصلاً، أي: لا أسألكم أجراً إلا هذا، وهو أن تودوا أهل قرابتي؛ ولم يكن هذا أجراً في الحقيقة؛ لأن قرابته قرابتهم، فكانت صلتهم لازمة لهم في المروءة. ويجوز أن يكون منقطعاً، أي: لا أسألكم أجراً قط، ولكنني أسألكم أن تودوا قرابتي الذين هم قرابتكم ولا تؤذوهم. فإن قلت: هلا قيل: إلا مودة القربى: أو إلا المودة للقربى. وما معنى قوله: ﴿إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَىٰ﴾ [الشورى: ٢٣]؟ قلت: جعلوا مكاناً للمودة ومقرراً لها، كقولك: لي في آل فلان مودة، ولي فيهم هوى وحب شديد، تريد: أحبهم وهم مكان حبي ومحلّه، وليست (في) بصلة للمودة، كاللام إذا قلت: إلا المودة للقربى. إنما هي متعلقة بمحذوف تعلق الظرف به في قولك: المال في الكيس. وتقديره: إلا المودة ثابتة في القربى وممكنة^(١) فيها. والقربى: مصدر كالزلفى والبشرى، بمعنى: قرابة. والمراد في أهل القربى. وروي أنها لما نزلت قيل: يا رسول الله، من قرابتك هؤلاء الذين وجبت علينا مودتهم؟ قال: «عليّ وفاطمة وابناهما» (١٣٧٠) ويدل عليه ما روي عن علي رضي الله عنه: شكوت إلى رسول الله ﷺ حسد الناس لي. فقال: «أما ترضى أن تكون رابع أربعة: أول من يدخل الجنة أنا وأنت والحسن والحسين، وأزواجنا عن أيماننا وشمائنا، وذريتنا خلف أزواجنا» (١٣٧١) وعن

١٣٧٠ - أخرجه الطبراني في معجمه (٤٤٤/١١)، حديث (١٢٢٥٩)، وذكره السيوطي في الدر المنثور (٧٠١/٥)، وعزاه إلى ابن المنذر، وابن حاتم، وابن مردويه والطبراني، وذكره الزيلعي في تخريج الكشاف (٢٣٤/٣)، وزاد نسبه إلى كتاب مناقب الشافعي للحاكم. وقال الحافظ ابن حجر: أخرجه الطبراني، وابن أبي حاتم، والحاكم في مناقب الشافعي من رواية حسين الأشقر عن قيس بن الربيع عن الأعمش عن سعيد بن جبيرة عن ابن عباس، وحسين ضعيف ساقط، وقد عارضه مما هو أولى منه؛ ففي البخاري من رواية طاوس عن ابن عباس أنه سئل عن هذه الآية؛ فقال سعيد بن جبيرة: قربي آل محمد ﷺ؛ فقال ابن عباس: عجلت. إن النبي ﷺ لم يكن بطن من قريش إلا كان له فيهم قرابة - الحديث، قلت: وأخرج سعيد بن منصور من طريق الشعبي قال: «أكثرنا علينا في هذه الآية. فكتبنا إلى ابن عباس فكتب - فذكر نحوه» وابن طاوس أتم منه. انتهى.

١٣٧١ - أخرجه الطبراني في معجمه الكبير (٣١٩/١)، حديث برقم (٩٥٠)، وذكره القرطبي (١٦/١٦)، وذكره الزيلعي في تخريج الكشاف (٢٣٥/٣)، وزاد نسبه إلى الثعلبي.

(١) قال محمود: «إن قلت هلا قيل: إلا مودة القربى. أو: إلا المودة للقربى. وأجاب بأنهم جعلوا مكاناً للمودة ومقرراً لها، كقولك: لي في آل فلان هوى وحب شديد، وليس (في) صلة للمودة، كاللام إذا قلت: إلا المودة للقربى؛ وإنما هي متعلقة بمحذوف تقديره: إلا المودة ثابتة في القربى وممكنة فيها، قال أحمد: وهذا المعنى هو الذي قصد بقوله في الآية التي تقدمت؛ إن قوله: (يذروكم فيه)، إنما جاء عوضاً من قوله: يذروكم به، فافهمه.

النبي ﷺ: «حرمت الجنة على من ظلم أهل بيتي وآذاني في عترتي، ومن اصطنع صنيعه إلى أحد من ولد عبد المطلب ولم يجازه عليها فأنا أجازه عليها غداً إذا لقيني يوم القيامة» (١٣٧٢) وروى: أن الأنصار قالوا: فعلنا وفعلنا، كأنهم افتخروا، فقال عباس أو ابن عباس رضي الله عنهما: لنا الفضل عليكم، فبلغ ذلك رسول الله ﷺ، فأتاهم في مجالسهم فقال: «يا معشر الأنصار، ألم تكونوا أذلة فأعزكم الله بي؟» قالوا: بلى يا رسول الله. قال: «ألم تكونوا ضللاً فهداكم الله بي؟» قالوا: بلى يا رسول الله. قال: «أفلا تجيبونني؟» قالوا: ما نقول يا رسول الله؟ قال: «ألا تقولون: ألم يخرجك قومك فآويناك؟ أو لم يكذبوك فصدقناك؟ أو لم يخذلوك فنصرناك؟» قال: فما زال يقول حتى جثوا على الركب وقالوا: أموالنا وما في أيدينا لله ولرسوله. فنزلت الآية (١٣٧٣). وقال رسول الله ﷺ: «من مات على حب آل محمد مات شهيداً» (١٣٧٤)، ألا ومن مات على

 وقال الحافظ ابن حجر: أخرجه الكديمي عن ابن عائشة بسنده عن علي رضي الله عنه ورواه الطبراني من حديث أبي رافع أن النبي ﷺ قال لعلي: إن أول أربعة يدخلون الجنة - فذكره وسنده واحد. انتهى.

١٣٧٢ - ذكره القرطبي في تفسيره (١٦/١٦)، وذكره العجلوني في كشف الخفاء (٢/٢٢٥ - ٢٣٣ - ٢٥٩) حديث (٢٣٦) (٢٤٠٧) (٢٤٠٤)، وقال: أخرجه الطبراني في الأوسط عن عثمان بن عفان، قال رسول الله ﷺ: «من صنع إلى أحد من ولد عبد المطلب يداً فلم يكافئه بها في الدنيا فهي مكافأته غداً إذا لقيني».

وللثعلبي في تفسيره بسند به بعض الكذابين على رفعه «من اصطنع صنيعه إلى أحد من ولد عبد المطلب ولم يجازه عليها فأنا أجازه عليها إذا لقيني يوم القيامة».

ورواه الجعابي في تاريخ الطالبين بلفظ: «من اصطنع معروفاً إلى أحد من أهل بيتي يداً كافأته عنها يوم القيامة، وقد بينه السخاوي في استجلاء وارتقاء الغرف».

قال الحافظ: أخرجه الثعلبي من حديث علي رضي الله عنه وفيه عبد الله بن أحمد بن عامر الطائفي عن أبيه وهو كذاب. انتهى.

١٣٧٣ - أخرجه ابن جرير الطبري في تفسيره (١١/١٤٤)، حديث برقم (٣٠٦٧٨)، أخرجه الطبراني في المعجم الأوسط (٤/٥١٥)، حديث (٣٨٧٦)، وذكره القرطبي في تفسيره (١٦/١٧)، وذكره السيوطي في الدر المنثور (٥/٧٠١)، وزاد نسبته إلى ابن أبي حاتم وابن مردويه، وذكره الزيلعي في تخريج الكشاف (٣/٢٣٧)، وزاد نسبته إلى الثعلبي.

قال الطبراني: لم يرو هذا الحديث عن يزيد بن أبي زياد إلا عبد السلام بن حرب، تفرد به عبد المؤمن بن علي.

وقال الحافظ ابن حجر: أخرجه الطبري، وابن أبي حاتم، وابن مردويه، والطبراني في الأوسط كلهم من حديث ابن عباس، وفيه يزيد بن زياد وهو ضعيف. انتهى.

١٣٧٤ - قال الحافظ: أخرجه الثعلبي أخبرنا عبد الله بن محمد بن علي البلخي ثنا يعقوب بن يوسف بن إسحاق ثنا محمد بن أسلم ثنا يعلى بن عبيد عن إسماعيل بن قيس عن جرير - بطوله وأثار الوضع عليه لائحة ومحمد وما فوقه أثبات والآفة فيه ما بين الثعلبي ومحمد. انتهى.

حب آل محمد مات مغفوراً له، ألا ومن مات على حب آل محمد مات تائباً، ألا ومن مات على حب آل محمد مات مؤمناً مستكمل الإيمان، ألا ومن مات على حب آل محمد بشره ملك الموت بالجنة، ثم منكر ونكير، ألا ومن مات على حب آل محمد يزف إلى الجنة كما تزف العروس إلى بيت زوجها، ألا ومن مات على حب آل محمد فتح له في قبره بابان إلى الجنة، ألا ومن مات على حب آل محمد جعل الله قبره مزار ملائكة الرحمة، ألا ومن مات على حب آل محمد مات على السنة والجماعة، ألا ومن مات على بغض آل محمد جاء يوم القيامة مكتوب بين عينيه: آيس من رحمة الله، ألا ومن مات على بغض آل محمد مات كافراً، ألا ومن مات على بغض آل محمد/٢/١٦٣ ب لم يشم رائحة الجنة» وقيل: لم يكن بطن من بطون قريش إلا وبين رسول الله ﷺ وبينهم قربي، فلما كذبوه وأبوا أن يبايعوه نزلت. والمعنى: إلا أن تودوني في القربي، أي: في حق القربي أو من أجلها، كما تقول: الحب في الله والبغض في الله، بمعنى: في حقه ومن أجله، يعني: أنكم قومي وأحق من أجنبي وأطاعني، فإذا قد أبيتم ذلك فاحفظوا حق القربي ولا تؤذوني ولا تهيجوا علي. وقيل: أتت الأنصار رسول الله ﷺ بمال جمعه وقالوا يا رسول الله: قد هدانا الله بك وأنت ابن أختنا وتعروك نواب وحقوق ومالك سعة، فاستعن بهذا على ما ينوبك، فنزلت، وردة (١٣٧٥). وقيل ﴿...﴾: التقرب إلى الله تعالى، أي: إلا أن تحبوا الله ورسوله في تقربكم إليه بالطاعة والعمل الصالح. وقرئ: «إلا مودة في القربي» ﴿...﴾ عن السدي أنها المودة في آل رسول الله ﷺ، نزلت في أبي بكر الصديق رضي الله عنه ومودته فيهم. والظاهر: العموم في أي حسنة كانت؛ إلا أنها لما ذكرت عقيب ذكر المودة في القربي: دل ذلك على أنها تناولت المودة تناولاً أولياً، كأن سائر الحسنات لها تواب. وقرئ «يزد» أي: يزد الله. وزيادة حسناتها من جهة الله مضاعفتها، كقوله تعالى: ﴿...﴾ [البقرة: ٢٤٥] وقرئ: «حسنى» وهي مصدر كالبشرى، الشكور في صفة الله:

١٣٧٥ - أخرجه الطبراني في معجمه الأوسط (٣٥٤/٦) حديث برقم (٥٧٥٤)، وذكره السيوطي في الدر المنثور (٧٠١/٥) وزاد نسبه إلى ابن مردويه، وذكره الزيلعي في تخريج الكشاف (٢٣٩/٣)، وزاد نسبه إلى ابن مردويه والثعلبي والواحدي في أسباب النزول. قال الطبراني: لم يرو هذا الحديث عن عثمان أبي اليقظان إلا نصير بن زياد، تفرد به حسين الأشقر. قال الزيلعي: غريب، وقال الحافظ ابن حجر: ذكره الثعلبي والواحدي في الأسباب عن ابن عباس بغير سند. ويشبه أن يكون عن الكلبي عن أبي صالح عنه. وروى الطبراني من طريق عثمان أبي اليقظان عن سعيد بن جبير عن ابن عباس. وأخرجه ابن مردويه عنه. انتهى.

(١) قوله: «مكتوب بين عينيه» لعله: مكتوباً.

مجاز للاعتداد بالطاعة، وتوفيه ثوابها، والتفضل على المثاب

﴿أَمْ يَقُولُونَ أَفَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا فَإِنْ يَشَأْ اللَّهُ يَخْتِمْ عَلَى قَلْبِكَ وَيَمْحُ اللَّهُ الْبَاطِلَ وَيُحِقُّ الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ إِنَّهُمْ عَلَيْهَا يَصُدُّونَ﴾ (٢٤)

﴿آم﴾ منقطعة. ومعنى الهمزة فيه التوبيخ^(١)، كأنه قيل: أيتماكون أن ينسبوا مثله إلى الافتراء، ثم إلى الافتراء على الله الذي هو أعظم الفرى وأفحشها. ﴿فَإِنْ يَشَأْ اللَّهُ يَخْتِمْ عَلَى قَلْبِكَ﴾ فإن يشأ الله يجعلك من المختوم على قلوبهم، حتى تفترى عليه الكذب فإنه لا يجترئ على افتراء الكذب على الله إلا من كان في مثل حالهم، وهذا الأسلوب مؤداه استبعاد الافتراء من مثله، وأنه في البعد مثل الشرك بالله والدخول في جملة المختوم على قلوبهم. ومثال هذا: أن يخون بعض الأمناء فيقول: لعل الله خذلني، لعل الله أعمى قلبي، وهو لا يريد إثبات الخذلان وعمى القلب. وإنما يريد استبعاد أن يخون مثله، والتنبية على أنه ركب من تخوينه أمر عظيم، ثم قال: ومن عادة الله أن يمحو الباطل ويثبت الحق. ﴿بِكَلِمَاتِهِ﴾ بوحيه أو بقضائه كقوله تعالى: ﴿وَيَذِيعُ الْإِنْسَانُ يَأْسَرًا﴾^(٢) [الأنبياء: ١٨] يعني: لو كان مفترياً كما تزعمون لكشف الله افتراءه ومحقه وقذف بالحق على باطله فدمغه. ويجوز أن يكون عدة لرسول الله ﷺ بأنه يمحو الباطل الذي هم عليه من البهت والتكذيب، ويثبت الحق الذي أنت عليه بالقرآن بقضائه الذي لا مرد له من نصرتك عليهم، إن الله عليم بما في صدرك وصدورهم، فيجري الأمر على حسب ذلك. وعن قتادة ﴿يَخْتِمْ عَلَى قَلْبِكَ﴾: ينسك القرآن ويقطع عنك الوحي، يعني: لو افترى على الله الكذب لفعل به ذلك، وقيل ﴿يَخْتِمْ عَلَى قَلْبِكَ﴾: يربط عليه بالصبر، حتى لا يشق عليك أذاهم. فإن قلت: إن كان قوله: ﴿وَيَمْحُ اللَّهُ الْبَاطِلَ﴾ كلاماً مبتدأً غير معطوف على يختم، فما بال الواو ساقطة في الخطأ؟ قلت: كما سقطت في قوله تعالى: ﴿وَيَذِيعُ الْإِنْسَانُ يَأْسَرًا﴾ [الإسراء: ١١] وقوله تعالى: ﴿سَنَعُ الزَّيْنَةَ﴾ [العلق: ١٨] على أنها مثبتة في بعض المصاحف.

﴿وَهُوَ الَّذِي يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ وَيَعْفُو عَنِ السَّيِّئَاتِ وَيَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ﴾ (٢٥)

يقال: قبلت منه الشيء، وقبلته عنه. فمعنى قبلته منه: أخذته منه وجعلته مبدأً قبولي ومنشأه. ومعنى: قبلته عنه: عزلته عنه وأبنته عنه. والتوبة: أن يرجع عن القبيح والإخلال بالواجب بالندم عليهما والعزم على أن لا يعاود؛ لأن المرجوع عنه قبيح وإخلال

(١) قوله: «ومعنى الهمزة فيه للتوبيخ» لعله: فيها.

(٢) قوله: «من البهت» أي: إتهام الإنسان بما ليس فيه.

بالواجب. وإن كان فيه لعبد حق لم يكن بد من التقصي على طريقه، وروى جابر أن أعرابياً دخل مسجد رسول الله ﷺ وقال: اللهم إني أستغفرك وأتوب إليك، وكبر، فلما فرغ من صلاته قال له علي رضي الله عنه: يا هذا، إن سرعة اللسان بالاستغفار توبة الكذابين، وتوبتك تحتاج إلى التوبة. فقال: يا أمير المؤمنين، وما التوبة؟ قال: اسم يقع على ستة معان: على الماضي من الذنوب الندامة، ولتضييع الفرائض الإعادة، ورد المظالم، وإذابة النفس في الطاعة كما ربيتها في المعصية، وإذابة النفس مرارة الطاعة كما أدقتها حلاوة المعصية، والبكاء بدل كل ضحك ضحكته. ﴿وَيَقْتُلُوا عَنِ الْيَمِينِ﴾ عن الكبائر إذا تيب عنها، وعن الصغائر إذا اجتنبت الكبائر. ﴿وَيَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ﴾. قرئ بالتاء والياء، أي: يعلمه فيثيب على حسناته، ويعاقب على سيئاته.

﴿وَيَسْتَجِيبُ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَيَزِيدُهُم مِّن فَضْلِهِ ۗ وَالْكَافِرُونَ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ﴾ (٢٦)

﴿وَيَسْتَجِيبُ الَّذِينَ ءَامَنُوا﴾ ١١٦٤/٢ أي يستجيب لهم، فحذف اللام كما حذف في قوله تعالى: ﴿وَإِذَا كَانُوا عَلَىٰ آلَافٍ﴾ [المطففين: ٣] أي يثيبهم على طاعتهم ويزيدهم على الثواب تفضلاً، أو إذا دعوه استجاب دعاءهم وأعطاهم ما طلبوا وزادهم على مطلوبهم. وقيل: الاستجابة: فعلهم، أي يستجيبون له بالطاعة إذا دعاهم إليها. ﴿وَيَزِيدُهُم﴾ هو ﴿مِّن فَضْلِهِ﴾ على ثوابهم. وعن سعيد بن جبير: هذا من فعلهم: يجيبونه إذا دعاهم. وعن إبراهيم بن أدهم أنه قيل له: ما بالنا ندعو فلا نجاب؟ قال: لأنه دعاكم فلم تجيبوه، ثم قرأ: ﴿وَاللَّهُ يَدْعُو إِلَىٰ دَارِ السَّلَامِ﴾ [يونس: ٢٥]، ﴿وَيَسْتَجِيبُ الَّذِينَ ءَامَنُوا﴾.

﴿وَلَوْ بَسَطَ اللَّهُ الرِّزْقَ لِعِبَادِهِ لَبَغَوْا فِي الْأَرْضِ وَلَٰكِن يُّنَزِّلُ بِقَدَرٍ مَّا يَشَاءُ ۚ إِنَّهُ يُعَادِدُ بِهِ حَيْرٍ﴾

بَصِيرٌ ﴿٢٧﴾

﴿لَبَغَوْا﴾ من البغي وهو الظلم، أي: لبغى هذا على ذاك، وذاك على هذا؛ لأن الغنى مبطرة مأشرة^(١)، وكفى بحال قارون عبرة. ومنه قوله عليه الصلاة والسلام:

«أخوف ما أخاف على أمتي زهرة الدنيا وكثرتها» (١٣٧٦) ولبعض العرب [من الطويل]:

١٣٧٦ - أخرجه ابن جرير الطبري (١٤٩/١١). حديث (٣٠٦٩٨)، عن قتادة، وذكره السيوطي في الدر المنثور (٧٠٤/٥)، وذكره الزيلعي في تخريج الكشاف (٢٣٩/٣)، وزاد نسبته إلى الثعلبي، وله شاهد من حديث أبي سعيد الخدري، أخرجه البخاري في صحيحه (٨٧/٤): كتاب الزكاة، باب الصدقة على اليتامى، حديث (١٤٦٥)، ومسلم في صحيحه (١٥٢/٤) كتاب الزكاة: باب تخوف =

(١) قوله: «مبطرة مأشرة» في الصحاح: الأشر: البطر. (ع).

وَقَدْ جَعَلَ الْوَسْمِيُّ يَنْبُتُ بَيْنَنَا وَبَيْنَ بَنِي رُومَانَ نُبْعاً وَشَوْحَطاً^(١)

يعني: أنهم أحيوا فحدثوا أنفسهم بالبغي والتفان. أو من البغي وهو البذخ والكبر، أي: لتكبروا في الأرض، وفعلوا ما يتبع الكبر من العلو فيها والفساد. وقيل: نزلت في قوم من أهل الصفة تمنوا سعة الرزق والغنى. قال خباب بن الأرت: فينا نزلت، وذلك أنا نظرنا إلى أموال بني قريظة والنضير وبني قينقاع فتمنيناهما (١٣٧٧) ﴿يَقْدَرُ﴾ بتقدير. يقال قدره قدرأ وقدرأ. ﴿حَيْرٌ بَيْرٌ﴾ يعرف ما تنول إليه أحوالهم، فيقدر لهم ما هو أصلح لهم وأقرب إلى جمع شملهم، فيفقر ويغني، ويمنع ويعطي، ويقبض ويبسط كما توجهه الحكمة الربانية. ولو أغناهم جميعاً لبغوا، ولو أفقرهم لهلكوا. فإن قلت: قد نرى الناس يبغي بعضهم على بعض، ومنهم مبسوط لهم، ومنهم مقبوض عنهم؛ فإن كان المبسوط لهم ييغون، فلم بسط لهم، وإن كان المقبوض عنهم ييغون فقد يكون البغي بدون البسط، فلم شرطه؟ قلت: لا شبهة في أن البغي مع الفقر أقل ومع البسط أكثر وأغلب، وكلاهما سبب ظاهر للإقدام على البغي والإحجام عنه، فلو عم البسط لغلب البغي حتى ينقلب الأمر إلى عكس ما عليه^(٢) الآن.

= ما يخرج من زهرة الدنيا، حديث (١٠٥٢)، والنسائي (٩٠/٥) كتاب الزكاة، باب الصدقة على اليتيم حديث (٢٥٨١). وابن ماجه (١٣٣٢/٢) كتاب الفتن: باب فتنة المال حديث برقم (٣٩٩٥)، وأحمد في مسنده (٩١/٣)، وابن حبان في صحيحه (٢٠/٨) كتاب الزكاة: باب جمع المال من حله وما يتعلق بذلك (٣٢٢٥)، وأبو يعلى الموصلي في مسنده (٤٣٦/٢)، حديث برقم (١٢٤٢)، وعبد الرزاق في مصنفه (٩٦/١١)، كتاب الجامع: باب في أصحاب الأموال، حديث (٢٠٠٢٨)، والحميدي في مسنده (٣٢٥/٢)، حديث (٧٤٠)، وقال الحافظ: أخرجه الطبري من رواية سعيد عن قتادة قال: ذكر لنا أن رسول الله - ﷺ - بهذا - وزاد: «وكان يقال: خير الرزق ما لا يطغيك ولا يلهيك» وفي الصحيحين من حديث أبي سعيد الخدري، بلفظ: «إن أخوف ما أخاف عليكم ما يفتح عليكم من زهرة الدنيا». انتهى.

١٣٧٧ - أخرجه ابن جرير الطبري في تفسيره (١٩/٢٥)، وذكره البغوي في تفسيره (١٢٧/٤)، والقرطبي في الجامع لأحكام القرآن (١٩/١٦)، والواحدي في الوسيط (٥٤/٤).

(١) يروي: وقد جعل الوسمي أول مطر السنة؛ لأنه يسم الأرض بالنبات. والنبع: شجر تتخذ منه القسي. والشوخط مثله، أي: قد يشرع المطر في إنبات الأشجار بيننا وبينهم. والمعنى: أنهم يطلبون الإقامة حتى تعظم الأشجار بينهم؛ لأنهم أغنياء لا يكتفون الارتحال كغيرهم. أو المعنى: أنهم كانوا إذا جاء الربيع وبلغت تلك الأشجار يتخذون منها الرماح والقسي، ويتحاربون. فالكلام كناية عن انتشاب الحرب بين القبيلتين، وهذا هو الذي يعطيه السياق، وذكر البيهقي، وتخصيص ذلك الشجر.

ينظر: لسان العرب (شخط)، تاج العروس (شخط).

(٢) قوله: «عكس ما عليه الآن» لعله: ما هو عليه.

﴿وَهُوَ الَّذِي يُنَزِّلُ الْغَيْثَ مِنْ بَعْدِ مَا قَنَطُوا وَيَنْشُرُ رَحْمَتَهُ وَهُوَ الْوَلِيُّ الْحَمِيدُ﴾ (٢٨)

قري: «قنطوا» بفتح النون وكسرهما ﴿وَيَنْشُرُ رَحْمَتَهُ﴾ أي: بركات الغيث ومنافعه وما يحصل به من الخصب. وعن عمر رضي الله عنه أنه قيل له: اشتد القحط وقنط الناس (١٣٧٨) فقال: مطروا إذا. أراد هذه الآية. ويجوز أن يريد رحمته في كل شيء، كأنه قال: ينزل الرحمة التي هي الغيث، وينشر غيرها من رحمته الواسعة. ﴿الْوَلِيُّ﴾ الذي يتولى عباده بإحسانه. ﴿الْحَمِيدُ﴾ المحمود على ذلك يحمداه أهل طاعته.

﴿وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ السَّمَكَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا مِنْ دَابَّةٍ وَهُوَ عَلَى جَمْعِهِمْ إِذَا يَشَاءُ

قَدِيرٌ﴾ (٢٩)

﴿وَمَا بَيْنَ﴾ يجوز أن يكون مرفوعاً ومجروراً يحمل على المضاف إليه أو المضاف. فإن قلت: لم جاز ﴿فِيهِمَا مِنْ دَابَّةٍ﴾ والدواب في الأرض وحدها؟ قلت: يجوز أن ينسب الشيء إلى جميع المذكور وإن كان ملتبساً ببعضه، كما يقال: بنو تميم فيهم شاعر مجيد أو شجاع بطل، وإنما هو في فخذ^(١) من أفخاذهم أو فصيلة من فصائلهم، وبنو فلان فعلوا كذا، وإنما فعله نوبس منهم. ومنه قوله تعالى: ﴿يَخْرُجُ مِنْهُمَا اللَّؤْلُؤُ وَالْمَرْجَانُ﴾ (الرحمن: ٢٢) وإنما يخرج من الملح^(٢)، ويجوز أن يكون للملائكة عليهم السلام مشي مع الطيران. فيوصفوا بالدبيب كما يوصف به الأناسي. ولا يبعد أن يخلق في السموات حيواناً

١٣٧٨ - أخرجه ابن جرير الطبري في جامع البيان (٣٠٧٠٠) وأخرجه عبد الرزاق في تفسيره (١٩١/٢)، وذكره القرطبي في الجامع لأحكام القرآن الكريم (٢٠/١٦)، وذكره السيوطي في الدر المنثور (٥/٧٠٥)، وزاد نسبه إلى عبد بن حميد وابن المنذر، وذكره الزيلعي في تخرج الكشف (٢٤٠/٣)، وزاد نسبه إلى الثعلبي، قال الحافظ ابن حجر: أخرجه الثعلبي من طريق قتادة قال: وذكر لنا فذكره بتمامه ورواه باختصار عبد الرزاق عن معمر عن قتادة قال: ذكر لنا أن رجلاً أتى عمر بن الخطاب فقال يا أمير المؤمنين قحط المطر وقنط الناس، فقال مطروا إذا.

(١) قوله: «فخذ» العشائر أقلها الفخذ، وفوقه البطن، ثم العمارة، ثم الفصيلة، ثم القبيلة، ثم الشعب. فهو أكثرها. أفاده الصحاح. (ع)

(٢) قال محمود: «فإن قلت: لم جاز فيهما من دابة والدواب في الأرض وحدها؟ وأجاب بأنه يجوز أن ينسب الشيء إلى جميع المذكور وإن كان لبعضه، كقوله تعالى: (يخرج منهما اللؤلؤ والمرجان) وإنما يخرج من الملح... الخ» قال أحمد: إطلاق الدواب على الأناسي بعيد من عرف اللغة، فكيف في إطلاقه على الملائكة، والصواب - والله أعلم - : هو الوجه الأول، وقد جاء مفسراً في غير ما آية، كقوله: (إن في خلق السموات والأرض واختلاف الليل والنهار) ثم قال: (وما أنزل الله من السماء من ماء فأحيا به الأرض بعد موتها وبث فيها من كل دابة) فخص هذا الأمر بالأرض، والله أعلم.

يمشي فيها مشي الأناسي على الأرض، سبحانه الذي خلق ما نعلم وما لا نعلم من أصناف الخلق. ﴿إِذَا﴾ يدخل على المضارع كما يدخل على الماضي قال الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ يَنْقُذُ﴾ [الليل: ١] ومنه ﴿إِذَا بَشَأَ﴾ وقال الشاعر [من الخفيف]:

وَإِذَا مَا أَشَاءَ أَبْعَثُ مِنْهَا آخِرَ اللَّيْلِ نَاشِطاً مَدْعُوراً^(١)
﴿وَمَا أَصْبَحْتُمْ مِنْ مُهَيَّجَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْمَانُكُمْ﴾ [سورة النحل: ٣٠] ﴿وَمَا تَشَاءُ أَحْمَدُ﴾
في الأثرين ﴿وَمَا لَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ دَلِيلٍ﴾ [سورة النحل: ٣١]

في مصاحف أهل العراق ﴿بِمَا كَسَبَتْ﴾ بإثبات الفاء على تضمين «ما» معنى الشرط. وفي مصاحف أهل المدينة ﴿بِمَا كَسَبَتْ﴾ بغير فاء، على أَنَّ (ما) مبتدأة، وبما كسبت خبرها من غير تضمين معنى الشرط. والآية مخصوصة بالمجرمين^(٢) ولا يمتنع أن يستوفي الله بعض عقاب المجرم ويعفو عن بعض. فأما من لا جرم له كالأنبياء والأطفال والمجانين، فهؤلاء إذا أصابهم شيء من ألم أو غيره فللعوض الموفى والمصلحة. وعن النبي ﷺ ١٦٤/٢ ب: «ما من اختلاج عرق ولا خدش عود ولا نكبة حجر إلا بذنب، ولما يعفو الله عنه أكثر» (١٣٧٩) وعن بعضهم: من لم يعلم أن ما وصل إليه من الفتن

١٣٧٩ - الحديث مروي عن الحسن البصري - وقتادة والبراء. أما حديث الحسن: أخرجه البيهقي في =

(١) إذا: ظرف للمستقبل، فإذا دخل عليه الماضي كان مستقبلاً؛ أو المضارع كان نصاً في الاستقبال، وجرّد من الناقّة أمراً آخر لشدة سيرها؛ فلذلك قال: منها. وأصل المعنى: أبعتها في آخر الليل كالناشط، وهو الثور الوحشي يخرج من أرض إلى أخرى، والمذعور: الخائف وهو كناية عن سريع السير جداً.

ينظر: ديوانه ص ٢٩، شرح أبيات سيويو ١١٨/٢ وشرح المفصل لابن يعيش: ١٣٤/٨، والكتاب ٦٢/٣، والمقتضب ٥٧/٢.

(٢) قال محمود: «الآية مخصوصة بالمجرمين... الخ» قال أحمد: هذه الآية تتكسر عندها القدريّة ولا يمكنهم ترويح حيلة في صرفها عن مقتضى نصّها، فإنهم حملوا قوله تعالى: (ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء) على التائب، وهو غير ممكن لهم ههنا؛ فإنه قد أثبت التبعض في العفو، ومحال عندهم أن يكون العفو هنا مقروناً بالتوبة، فإنه يلزم تبعض التوبة أيضاً. وهي عندهم لا تبعض. وكذلك نقل الإمام عن أبي هاشم وهو رأس الاعتزال والذي تولى كبره منهم. فلا محمل لها إلا الحق الذي لا مرية فيه، وهو مرد العفو إلى مشيئة الله تعالى غير موقوف على التوبة. وقول الزمخشري: إن الآلام التي تصيب الأطفال والمجانين لها أعواض، وإنما يريد به وجوب العوض على الله تعالى على سياق معتقده، وقد أخطأ في الأصل والفرع؛ لأن المعتزلة وإن أخطأت في إيجاب العوض، فلم تقل بإيجابه في الأطفال والمجانين. ألا ترى أن القاضي أبا بكر الزهمي قبح إيلام البهائم والأطفال والمجانين فقال: لا أعواض لها، وليس مترتباً على استحقاق سابق فيحسن، فإنما يتم إلزامه بموافقته له على أن لا أعواض لها.

والمصائب باكتسابه. وأن ما عفا عنه مولاه أكثر: كان قليل النظر في إحسان ربه إليه. وعن آخر: العبد ملازم للجنايات في كل أوان، وجناياته في طاعاته أكثر من جنائياته في معاصيه؛ لأن جنایة المعصية من وجه وجناية الطاعة من وجوه، والله يطهر عبده من جنائياته بأنواع من المصائب؛ ليخفف عنه أثقاله في القيامة، ولولا عفوہ ورحمته لهلك في أول خطوة، وعن علي رضي الله عنه وقد رفعه: «من عفي عنه في الدنيا عفي عنه في الآخرة ومن عوقب في الدنيا لم تشن عليه العقوبة في الآخرة» (١٣٨٠) وعنه رضي الله

= شعب الإيمان (١٥٣/٧): باب في الصبر على المصائب: فصل في ذكر ما في الأوجاع والأمراض والمصيبات من الكفارات، حديث (٩٨١٦)، وهناه في الذهد (٣٤٩/١): باب ما جاء في العقوبة في الدنيا حديث (٤٣١). وعبد الرزاق في التفسير (١٩٢/٢)، وذكره السيوطي في الدر المنثور (٧٠٦/٥).

وزاد نسبه إلى سعيد بن منصور، وعبد بن حميد وابن المنذر، وابن أبي حاتم كلهم عن الحسن البصري رسلاً.
أما حديث قتادة:

فقد أخرجه الطبري في تفسيره (١٥٠/١١) حديث (٣٠٧٠٥)، والبيهقي في شعب الإيمان (٧/١٥٢): باب في الصبر على المصائب: فصل في ما في الأوجاع والأمراض والمصيبات من الكفارات، حديث (٩٨١٥).

وذكره السيوطي في الدر المنثور (٧٠٦/٢)، وزاد نسبه إلى عبد بن حميد وابن المنذر.
وأما حديث البراء:

أورده السيوطي في الجامع الصغير (٤٩٢/٥ - فيض) حديث (٨٠٨١). وعزه لابن عساكر. ورمز لضعفه.

وذكره في الدر المنثور (٧٠٦/٥)، وعزه إلى ابن مردويه، وأورده السيوطي أيضاً في الجامع الصغير (٤١٤/٥)، بلفظ: «ما اختلج عرق ولا عين إلا بذنب.. وما يدفع الله أكثر». ورمز لصحته وعزه إلى الطبراني في الأوسط والضياء، قال الحافظ ابن حجر: أخرجه عبد الرزاق، وابن أبي حاتم من طريق إسماعيل بن سليم عن الحسن والطبري والبيهقي في أواخر الشعب. عن قتادة كلاهما مرسل. ووصله عبد الرزاق من رواية الصلت بن بهرام عن أبي وائل عن البراء رضي الله عنه. انتهى.

١٣٨٠ - أخرجه الترمذي (١٦/٥): بكتاب الإيمان: باب ما جاء لا يزني الزاني وهو مؤمن، حديث (٢٦٢٦)، وابن ماجه (٨٦٨/٢): كتاب الحدود: باب الحد كفارة، حديث (٢٦٠٤)، وأحمد (١/٩٩). وأبو يعلى (٣٥١/١)، حديث (٤٥٣)، والدارقطني في سننه (٢١٥/٣): كتاب الحدود (٣/٤٠٣)، و(٤٥٣/١)، حديث (٦٠٨). وعبد بن حميد (ص ٥٨): حديث (٨٧). والحاكم في المستدرک (٤٤٥/٢): كتاب التفسير. والبيهقي في شعب الإيمان (٤٢٣/٥)، حديث (٧١٣٥).

وذكره الزيلعي في تخريج الكشاف: (٢٤١/٣)، وزاد نسبه إلى ابن مردويه، والبخاري وإسحاق بن راهويه. قال الحاكم: هذا حديث صحيح على شرط الشيخان ولم يخرجاه. قال الحافظ ابن حجر: أخرجه ابن ماجه من رواية أبي جحيفة عن علي رفعه. بلفظ: من أصاب ذنباً في الدنيا فعوقب به، فالله أعدل من أن يثني على عبد عقوبته. ومن أذن ذنباً فستر الله عليه وعفا عنه - فالله أكرم من أن يعود في شيء عفا عنه»، ورواه أحمد والبخاري والدارقطني والبيهقي في الشعب في السابع =

عنه: هذه أرجى آية للمؤمنين في القرآن. ﴿مُعْجِزِينَ﴾ بفائتين ما قضي عليكم من المصائب. ﴿مِنْ وَلِيِّ﴾ من متول بالرحمة.

﴿وَمِنْ آيَاتِهِ الْجَوَارِ فِي الْبَحْرِ كَالْأَعْلَامِ﴾ (٣٦) إِنْ يَشَأْ يُسْكِنِ الرِّيحَ فَيَظْلَلْنَ رَوَاكِدَ عَلَى ظَهْرِهِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ﴿٣٧﴾ أَوْ يُوقِعَهُنَّ يَمًا كَسْبًا وَيَعْفُ عَنْ كَثِيرٍ ﴿٣٨﴾

﴿الْجَوَارِ﴾ السفن. وقرئ «الجوار» ﴿كَالْأَعْلَامِ﴾ كالجبال. قالت الخنساء [من البسيط]:

..... كَأَنَّهُ عَـلِمٌ فِي رَأْسِهِ نَارٌ^(١)

وقرئ «الرياح فيظللن» بفتح اللام وكسرهما؛ من ظل يظل ويظل، نحو: ضل يضل ويضل^(٢) ﴿رَوَاكِدَ﴾ ثوابت لا تجري. ﴿عَلَى ظَهْرِهِ﴾ على ظهر البحر^(٣). ﴿لِّكُلِّ صَبَّارٍ﴾ على

= والأربعين. وقال إسحاق في مسنده: أخبرنا عيسى بن يونس عن إسماعيل بن عبد الملك بن أبي الصفراء عن يونس بن حبان عن علي نحوه وفيه انقطاع. انتهى.

(١) وَإِنْ صَخْرًا لِّمَوْلَانَا وَسَيِّدِنَا وَإِنْ صَخْرًا إِذَا يَشْتَو لِنَحَارِ
أَغْرَ أَبْلَجَ تَأْتِمُ الْهَدَاةَ بِهِ كَأَنَّهُ عَـلِمٌ فِي رَأْسِهِ نَارِ

للخنساء ترثي أخاها. ويشتو: أي يدخل في الشتاء، وهو حكاية حال ماضية. ونحار: كثير نحر الإبل للضيفان كناية عن كثرة كرمه. والأغر: الأبيض. والأبلج: الطلق الوجه المعروف. والهداة: جمع هاد: من يتقدم غيره ليدله، والعلم: الجبل: وفي رأسه نار: صفة علم جاءت لترسيخ التشبيه وتقديره، والمبالغة في توضيح المشبه وتشهيره، وعادة دليل الركب: الاهتداء إلى الطريق بالجبال الشامخة، فإذا كان فوقها نار: علم أن أهلها كرام. ويروى:

وإن صخرًا لتأتم الهداة به

ينظر: ديوانها ص ٣٨٦، جمهرة اللغة ص ٩٤٨، وتاج العروس: (صخر)، ومقاييس اللغة ٤/٣٠٩. (٢) قال السمين الحلبي: قال الشيخ: وليس كما ذكر؛ لأنَّ يَضُلُّ بفتح العين من ضَلَلْتُ بكسرهما في الماضي، ويَضُلُّ بالكسر من ضَلَلْتُ بالفتح، وكلاهما مقيس، يعني: أن كلاً منهما له أضلُّ يرجع إليه بخلاف ظَلُّ فإنَّ ماضيه مكسور العين فقط والنون اسمها و«رَوَاكِدَ» خبرها، ويجوز أن يكون ظَلُّ هنا بمعنى صار؛ لأنَّ المعنى ليس على وَقْتِ الظُّلُولِ هو النهار فقط، وهو نظير و«إِنَّ بَاتَتْ يَدُهُ» من هذه الْحَبِيَّةِ والرُّكُودُ: الثَّبُوت والاستقرار قال [من الطويل]:

وَقَدْ رَكَدَتْ وَسَطَ السَّمَاءِ نُجُومُهَا رُكُودًا بِوَادِي الرُّنَزْبِ الْمُتَفَرِّقِ

وقال الشيخ: ولا يتعين أن يكون التقدير أو يعصفها فيغرق؛ لأنَّ إهلاك السفن لا يتعين أن يكون بِعَصْفِ الرِّيح بل قد يهلكها بِقُلْعِ لَوْحٍ أو حَسْفٍ. قُلْتُ: والزمخشري لم يذكر أنَّ ذلك متعين، وإنما ذكر سبباً مناسباً؛ لأنَّ قوله: «يُسْكِنِ الرِّيحَ» يقابله يُعَصِّفُهَا فهو في غاية الحُسْنِ والطَّبَاقِ. انتهى. الدر المصون.

(٣) قال محمود: «معناه ثوابت لا تجري على ظهر البحر» قال أحمد: وهم يقولون: إنَّ الرِّيحَ لم ترد في القرآن إلا عذاباً، بخلاف الرياح. وهذه الآية تخرم الإطلاق، فإنَّ الرِّيحَ المذكورة هنا نعمة =

بلاء الله ﴿شَكَرٌ﴾ لنعمائه، وهما صفتا المؤمن المخلص، فجعلهما كناية عنه، وهو الذي وكل همته بالنظر في آيات الله، فهو يستملي منها العبر. ﴿يُوقِنُ﴾ يهلكهن. والمعنى: أنه إن يشأ يبتلي المسافرين في البحر بإحدى بلتين: إما أن يسكن الريح فيركد الجواري على متن البحر ويمنعهن من الجري، وإما أن يرسل الريح عاصفة فيهلكهن إغراقاً بسبب ما كسبوا من الذنوب. ﴿وَأَعْتَنَ عَنْ كَثِيرٍ﴾ منها، فإن قلت: علام عطف يوقهن؟ قلت: على يسكن؛ لأن المعنى: إن يشأ يسكن الريح فيركدن. أو يعصفها فيغرقن بعصفها. فإن قلت: فما معنى إدخال العفو في حكم الإيباق حيث جزم جزمه؟ قلت: معناه: أو إن يشأ يهلك ناساً وينج ناساً على طريق العفو عنهم. فإن قلت: فمن قرأ «ويعفو»؟ قلت: قد استأنف الكلام.

﴿وَيَعْلَمُ الَّذِينَ يُحْدِثُونَ فِي الصَّلَاةِ مَا هُمْ مِنْ نَجْوٍ﴾ (٢٥)

فإن قلت: فما وجوه القراءات الثلاث في ﴿وَيَعْلَمُ﴾؟ قلت: أما الجزم فعلى ظاهر العطف، وأما الرفع فعلى الاستئناف، وأما النصب فللعطف على تعليل محذوف تقديره: ليتتق منهم ويعلم الذين يجادلون، ونحوه في العطف على التعليل المحذوف غير عزيز في القرآن، منه قوله تعالى: ﴿وَلِنَجْعَلَنَّ آيَةً لِلنَّاسِ﴾ [مريم: ٢١] وقوله تعالى: ﴿وَلَنَخْلُقَنَّ اللَّهُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ الْآخِيَةَ وَالْحَيَّ وَالْمُحْيَى كُلَّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ﴾ [الجن: ٢٢]، وأما قول الزجاج: النصب على إضمار أن؛ لأن قبلها جزاء، تقول: ما تصنع أصنع مثله وأكرمك وإن شئت وأكرمك، على تأويل: وأنا أكرمك. وإن شئت وأكرمك جزماً - ففيه نظر لما أورده سيبويه في كتابه. قال: واعلم أن النصب بالفاء والواو في قوله: إن تأتني آتك وأعطيك: ضعيف، وهو نحو من قوله [من الوافر]:

.....
وَأَلْحَقَ بِالْحَبَّازِ فَأَسْتَرِيحَا^(١)

فهذا يجوز، وليس بحدّ الكلام فيه ولا وجهه، إلا أنه في الجزاء صار أقوى قليلاً؛ لأنه ليس بواجب أنه يفعل، إلا أن يكون من الأول فعل، فلما ضارع الذي لا يوجبه كالاستفهام ونحوه: أجازوا فيه هذا على ضعفه، اهـ. ولا يجوز أن تحمل القراءة المستفيضة على وجه ضعيف ليس بحدّ الكلام ولا وجهه، ولو كانت من هذا الباب لما

= ورحمة؛ إذ بواسطتها يسير الله السفن في البحر حتى لو سكنت لركدت السفن، ولا ينكر أن الغالب من ورودها مفردة ما ذكروه. وأما اطراده فلا. وما ورد في الحديث: «اللهم اجعلها رياحاً ولا تجعلها رياحاً.» فلاجل الغالب في الإطلاق، والله أعلم.

أخلى سببويه منها كتابه، وقد ذكر نظائرها من الآيات المشككة. فإن قلت: فكيف يصح المعنى على جزم ﴿وَيَعْلَمَ﴾؟ قلت: كأنه قال: أو إن يشأ يجمع بين ثلاثة أمور: هلاك قوم ونجاة قوم وتحذير آخرين. ﴿تَنَجِّصُ﴾ من محيد عن عقابه.

﴿فَمَا أُوتِيتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَنُفِعَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَمَا عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَى لِلَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾ (٣٦)

﴿ما﴾ الأولى ضمنت معنى الشرط، فجاءت الفاء في جوابها بخلاف الثانية. عن علي رضي الله عنه: اجتمع لأبي بكر رضي الله عنه مال فتصدق به كله في سبيل الله والخير، فلامه المسلمون وخطأه الكافرون، فنزلت.

﴿وَالَّذِينَ يَحْنَبُونَ كَبِيرَ الْإِثْمِ وَالْفَوَاحِشَ وَإِذَا مَا عَصَبُوا هُمْ يَعْفِرُونَ﴾ (٣٧)

﴿وَالَّذِينَ يَحْنَبُونَ﴾ عطف على الذين آمنوا، وكذلك ما بعده. ومعنى ﴿كَبِيرَ الْإِثْمِ﴾ الكبائر من هذا الجنس. وقرئ «كبير الإثم» عن ابن عباس رضي الله تعالى عنه: كبير الإثم هو الشرك. ﴿هُمْ يَعْفِرُونَ﴾ أي هم الأخصاء بالغفران في حال الغضب، لا يغول الغضب أحلامهم كما يغول حلوم الناس، والمجيء بهم وإيقاعه مبتدأ، وإسناد ﴿يَعْفِرُونَ﴾ إليه لهذه الفائدة، ومثله: ﴿هُمْ يَنْصَرُونَ﴾ [الشورى: ٣٩].

﴿وَالَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِرَبِّهِمْ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَمْرُهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ﴾ (٣٨)

﴿وَالَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِرَبِّهِمْ﴾ نزلت في الأنصار: دعاهم الله عز وجل للإيمان به وطاعته، فاستجابوا له بأن آمنوا به وأطاعوه ﴿وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ﴾ وأتموا الصلوات الخمس. ١٦٥/٢ وكانوا قبل الإسلام وقبل مقدم رسول الله ﷺ المدينة: إذا كان بهم أمر اجتمعوا وتشاوروا، فأثنى الله عليهم، أي: لا ينفردون برأي حتى يجتمعوا عليه. وعن الحسن: «ما تشاور قوم إلا هدوا لأرشد أمرهم» (١٣٨١) والشورى: مصدر كالفتيا، بمعنى التشاور. ومعنى قوله: ﴿وَأَمْرُهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ﴾ أي ذو شورى، وكذلك قولهم: ترك رسول الله ﷺ وعمر بن الخطاب رضي الله عنه الخلافة شورى.

﴿وَالَّذِينَ إِذَا أَصَابَهُمُ الْبَغْيُ هُمْ يَنْصَرُونَ﴾ (٣٩)

١٣٨١ - أخرجه البخاري في الأدب المفرد (٨١/٢). باب المشورة وابن أبي شيبه في مصنفه (٢٩٨/٥): كتاب الأدب باب في المشورة من أمر بها، حديث (٢٦٢٧٥)، وذكره المصنف مرفوعاً في سورة آل عمران وقال الحافظ ابن حجر: أخرجه ابن أبي شيبه والبخاري في الأدب وعبد الله بن أحمد في زيادات الزهد وقد ذكره المصنف مرفوعاً في آل عمران. انتهى.

هو أن يقتصروا في الانتصار على ما جعله الله لهم ولا يعتدوا. وعن النخعي أنه كان إذا قرأها قال: كانوا يكرهون أن يذلو أنفسهم فيجترى عليهم الفساق. فإن قلت: أهم محمودون على الانتصار؟ قلت: نعم؛ لأن من أخذ حقه غير متعد حد الله وما أمر به فلم يسرف في القتل إن كان ولي دم أورد على سفيه، محاماة على عرضه وردعا له، فهو مطيع. وكل مطيع محمود.

﴿وَجَزَّوْا سَيِّئَهُ سَيِّئَةً مِّثْلَهَا فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ﴾

كلتا الفعلتين: الأولى وجزاؤها سيئة؛ لأنها تسوء من تنزل به. قال الله تعالى: ﴿وإن نَصَبَهُمْ سَيِّئَةً يَقُولُوا هَٰذَا مِن عِنْدِكَ﴾ [النساء: ٧٨]: يريد ما يسوءهم من المصائب والبلايا. والمعنى: أنه يجب إذا قوبلت الإساءة أن تقابل بمثلها من غير زيادة، فإذا قال: أخزأك الله قال: أخزأك الله، ﴿فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ﴾ بينه وبين خصمه بالعفو والإغضاء. كما قال تعالى: ﴿فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ﴾ [فصلت: ٣٤]، ﴿فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ﴾ عدة مبهمة لا يقاس أمرها في العظم. وقوله: ﴿إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ﴾ دلالة على أن الانتصار لا يكاد يؤمن فيه تجاوز السيئة^(١) والاعتداء خصوصاً في حال الحرد^(٢) والتهاب الحمية، فربما كان المجازي من الظالمين وهو لا يشعر. وعن النبي ﷺ: «إذا كان يوم القيامة نادى مناد: من كان له على الله أجر فليقم. قال: فيقوم خلق، فيقال لهم: ما أجركم على الله؟ فيقولون: نحن الذين عفونا عمن ظلمنا، فيقال لهم: ادخلوا الجنة بإذن الله» (١٣٨٢).

١٣٨٢ - الحديث مروي عن أنس، وعبد الله بن عمرو، وأبي هريرة وابن عباس، ومحمد بن المنكدر، والحسن. وأما حديث أنس فقد أخرجه: البيهقي في شعب الإيمان (٣١٥/٦) باب في حسن الخلق: فصل في ترك الغضب، حديث (٨٣١٣) وأبو نعيم في الحلية (١٨٧/٦)، والطبراني في معارج الأخلاق (ص ٣٣١)، والعقيلي في الضعفاء الكبير (٤٤٧/٣)، حديث (١٤٩٨)، وذكره المنذري في الترغيب والترهيب (٢٧٥/٣): كتاب الحدود وغيرها: باب الترغيب في العفو عن القاتل والجاني والظالم... حديث (٣٦٣٢)، وذكره السيوطي في الدر المنثور (٧٠٩/٥)، وزاد نسبه إلى ابن أبي حاتم وابن مردويه، قال أبو نعيم: غريب من حديث الحسن، تفرد به الفضل عن غالب.

(١) قال محمود: «فيه دلالة على أن الانتصار لا يكاد يؤمن فيه... الخ» قال أحمد: معنى حسن يجاب به عن قول القائل: لم ذكر هذا عقب العفو مع أن الانتصار ليس بظلم؛ فيشفي غليل السائل ويحصل منه على كل طائل. ومن هذا النمط والله الموفق: قوله تعالى: (وإذا أذقتنا الإنسان منا رحمة فرح بها وإن تصبهم سيئة بما قدمت أيديهم فإن الإنسان كفور).

(٢) قوله: «الحرد» في الصحاح: «الحرد» بالتحريك: الغضب. (ع)

﴿وَلَمَنْ أَنْتَصَرَ بَعْدَ ظُلْمِهِ فَأُولَئِكَ مَا عَلَيْهِمْ مِنْ سَبِيلٍ﴾ (٤١) إِنَّمَا السَّبِيلُ عَلَى الَّذِينَ يَظْلِمُونَ النَّاسَ
وَيَبْعُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ أُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ (٤٢)

﴿بَعْدَ ظُلْمِهِ﴾ من إضافة المصدر إلى المفعول، وتفسره قراءة من قرأ «بعد ما ظلم»
﴿فَأُولَئِكَ﴾ إشارة إلى معنى (من) دون لفظه. ﴿مَا عَلَيْهِمْ مِنْ سَبِيلٍ﴾ للمعاقب ولا للعائب
والعائب. ﴿إِنَّمَا السَّبِيلُ عَلَى الَّذِينَ يَظْلِمُونَ النَّاسَ﴾ يبتدئونهم بالظلم. ﴿وَيَبْعُونَ فِي الْأَرْضِ﴾ يتكبرون
فيها ويعلون ويفسدون.

﴿وَلَمَنْ صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذَلِكَ لَمِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ﴾ (٤٣)

= وفي إسناده الفضل بن يسار قال عنه العقيلي: لا يتابع من وجه يثبت. هذا ويروى بغير هذا الإسناد
من وجه أصح من هذا.

أما حديث عبد الله بن عمرو:

أخرجه البيهقي في شعب الإيمان (٢٦٣/٦) باب في حسن الخلق: فصل في التجاوز والعفو وترك
المكافأة، حديث (٨٠٨٦)، وذكره ابن حجر في المطالب العالية (٣٩٤/٤): كتاب الفتن: باب
شفاعة المؤمنين، حديث (٤٦٦٣)، وعزاه لأبي يعلى، وقال: ضعيف.
وقال البيهقي: هذا متن غريب، وفي إسناده ضعف.

- حديث أبي هريرة:

أخرجه البيهقي في شعب الإيمان (٣٢٠/٦) باب في حسن الخلق: فصل في ترك الغضب حديث
(٨٣٣٠).

والعقيلي في الضعفاء الكبير (٢٦٥/٣): حديث (١٢٧٢).

وذكره السيوطي في الدر المنثور (٧٠٩/٥)، وزاد نسبه إلى ابن مردويه. وفيه عمرو بن حمزة
القيسي. قال العقيلي: لا يتابع على حديثه.

- حديث ابن عباس:

ذكره السيوطي في الدر المنثور (٧٠٩/٥) وعزاه إلى ابن مردويه.

والزيلعي في تخريج الكشاف (٢٤٣/٣)، وزاد نسبه إلى الثعلبي.

- حديث الحسن:

ذكره السيوطي في الدر المنثور (٧٠٩/٥)، وعزاه إلى ابن مردويه.

- حديث محمد بن المنكدر:

ذكره السيوطي في الدر المنثور (٧٠٩/٥)، وعزاه إلى ابن المنذر وسعيد بن منصور.

وقال الحافظ ابن حجر: أخرجه العقيلي والطبراني في مكارم الأخلاق وأبو نعيم في الحلية،
والبيهقي في الشعب في السابع والخمسين كلهم من طريق الفضل بن يسار عن غالب العطار عن
الحسن بن أنس رفعه. قال: «إذا وقف العبد للحساب ينادي مناد: من كان أجره على الله فليدخل
الجنة... الحديث»، وله طريق أخرى عند الثعلبي من رواية زهير بن عباد عن ابن عيينة عن عمرو
عن ابن عباس. وأخرى عن البيهقي من رواية الثوري عن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده أتم منه
- قال البيهقي: المتن غريب - والإسناد ضعيف. انتهى.

﴿وَلَمَنْ صَبَرَ﴾ على الظلم والأذى ﴿وَعَفَرَ﴾ ولم ينتصر وفوض أمره إلى الله ﴿إِنَّ ذَلِكَ﴾ منه ﴿لَيْنٌ عَزِيمٌ الْأَثُورُ﴾ وحذف الراجع لأنه مفهوم، كما حذف من قولهم: السمن منوان بدرهم. ويحكى أن رجلاً سب رجلاً في مجلس الحسن رحمه الله، فكان المسبوب يكظم، ويعرق فيمسح العرق، ثم قام فتلا هذه الآية، فقال الحسن: عقلها والله وفهمها إذ ضيعها الجاهلون. وقالوا: العفو مندوب إليه، ثم الأمر قد ينعكس في بعض الأحوال، فيرجع ترك العفو مندوباً إليه، وذلك إذا احتيج إلى كف زيادة البغي، وقطع مادة الأذى. وعن النبي ﷺ ما يدل عليه وهو: أن زينب أسمعت عائشة بحضرته، وكان ينهاها فلا تنتهي، فقال لعائشة: «دونك فانتصري» (١٣٨٣).

﴿وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ وَبٍ مِنْ بَعْدِهِ وَتَرَى الظَّالِمِينَ لَمَّا رَأَوْا الْعَذَابَ يَقُولُونَ هَلْ إِلَىٰ مَرَّةٍ مِّن سَبِيلٍ﴾ (٤٤)

﴿وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ﴾ ومن يخذله الله^(١) ﴿فَمَا لَهُ مِنْ وَبٍ مِنْ بَعْدِهِ﴾ فليس له من ناصر يتولاه من بعد خذلانه.

١٣٨٣ - أخرجه البخاري في الأدب المفرد (ص ١٦٤): الجزء الرابع باب من انتصر من بعد ظلمه. حديث (٥٥٨).

وأبو داود (٢٧٥/٢): كتاب الأدب: باب الانتصار حديث (٤٨٩٨). والنسائي في السنن الكبرى (٢٨١/٥) كتاب عشرة النساء: باب حب الرجل نساءه أكثر من بعض، حديث (٨٨٩٢)، (٨٨٩٣)، (٨٨٩٤)، وفي التفسير (٢٦٩/٢)، حديث (٤٩٦)، وابن ماجه (١/٦٣٧): كتاب النكاح: باب حسن المعاشرة (١٩٨١). وأحمد في مسنده (٩٣/٦). وابن جرير الطبري (١٥٦/١١)، حديث (٣٠٧٢٩).

وذكره الهيثمي في «المجمع» (٣٢٤/٤) لكنه جعل مكان زينب بنت جحش أم سلمة - وقال: رواه أبو داود غير أنه جعل مكان أم سلمة زينب بنت جحش، وذكره ابن كثير في تفسيره (١١٩/٤). وذكره السيوطي في الدر المنثور (٧٠٨/٥)، وزاد نسبه إلى ابن مردويه. وذكره الزيلعي في تخريج الكشاف (٢٤٤/٣)، وزاد نسبه إلى ابن عدي في الكامل، وابن أبي شيبه في مسنده. قال الهيثمي: رواه أحمد، وفيه علي بن زيد وفيه ضعف.

قال الحافظ ابن حجر: أخرجه النسائي من رواية خالد بن مسلمة عن عروة عن عائشة قالت: ما علمت حتى دخلت على زينب بغير إذن وهي بمعنى. فذكر نحوه. ولم يذكر فيه النهي. ولفظه: ودخل علي رسول الله ﷺ - وعندنا زينب بنت جحش - إلى أن قال: فأقبلت زينب هجم لعائشة فنهاها رسول الله ﷺ - فأبت أن تنتهي. قال: لعائشة سببها فغلبتها. انتهى.

(١) قوله: «ومن يخذل الله فما له من ولي» تأويل على مذهب المعتزلة: أنه تعالى لا يخلق الشر. وعند أهل السنة: يخلقه كالخير، فالإضلال خلق الضلال. ومن بعده: أي من بعد إضلاله. (ع)

﴿وَرَبُّهُمْ يُعَرِّضُونَ عَلَيْهَا خَشِيعِينَ مِنَ الدَّلِيلِ يَنْظُرُونَ مِنْ طَرْفٍ خَفِيٍّ وَقَالَ الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ الْخَشِيعِينَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ وَأَهْلِيَهُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ أَلَا إِنَّ الظَّالِمِينَ فِي عَذَابٍ مُقِيمٍ ﴿٤٥﴾ وَمَا كَانَتْ لَهُمْ مِنْ أَوْلِيَاءَ يَنْصُرُونَهُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ سَبِيلٍ ﴿٤٦﴾﴾

﴿خَشِيعِينَ﴾ متضائلين متقاصرين مما يلحقهم ﴿مِنَ الدَّلِيلِ﴾ وقد يعلق ﴿مِنَ الدَّلِيلِ يَنْظُرُونَ﴾، ويوقف على ﴿خَشِيعِينَ﴾ ﴿يَنْظُرُونَ مِنْ طَرْفٍ خَفِيٍّ﴾ أي يستدئ نظرهم من تحريك لأجفانهم ضعيف خفي بمسارقة، كما ترى المصبور ينظر إلى السيف. ^(١) وهكذا نظر الناظر إلى المكاره: لا يقدر أن يفتح أجفانه عليها ويملاً عينيه منها، كما يفعل في نظره إلى المحاب. وقيل: يحشرون عمياً فلا ينظرون إلا بقلوبهم. وذلك نظر من طرف خفي. وفيه تعسف. ﴿يَوْمَ﴾ إما أن يتعلق بخسروا، ويكون قول المؤمنين واقعاً في الدنيا، وإما أن يتعلق بقال، أي: يقولون يوم القيامة إذا رأوهم على تلك الصفة.

﴿أَسْتَجِيبُوا لِرَبِّكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ يَوْمٌ لَا مَرَدَّ لَهُ مِنْ اللَّهِ مَا لَكُمْ مِنْ مَلَجٍ يَوْمَئِذٍ وَمَا لَكُمْ مِنْ نَكِيرٍ ﴿٤٧﴾﴾

﴿مِنْ اللَّهِ﴾ «من» صلة «لا مرد»، أي: لا يرده الله بعدما حكم به. أو من صلة يأتي، أي: من قبل أن يأتي من الله يوم لا يقدر أحد على رده. والنكير: الإنكار، أي: ما لكم من مخلص من العذاب ولا تقدرُونَ ١٦٥/٢ ب أن تنكروا شيئاً مما اقترفتُموه ودون في صحائف أعمالكم.

﴿فَإِنْ أَعْرَضُوا فَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِظْتُ أَنْ عَلَىكَ إِلَّا الْبَلَاءُ وَإِنَّا إِذَا أَذَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنَّا رَحْمَةً فَجَرَحَ بِهَا وَإِنْ نُصِيبَهُمْ سَيِّئَةً يَمَا فَدَمَتْ أَيْدِيهِمْ فَإِنَّ الْإِنْسَانَ كَفُورٌ ﴿٤٨﴾﴾

أراد بالإنسان الجمع لا الواحد؛ لقوله: ﴿وَإِنْ نُصِيبَهُمْ سَيِّئَةً﴾ ولم يرد إلا المجرمين؛ لأن إصابة السيئة بما قدمت أيديهم إنما تستقيم فيهم. والرحمة: النعمة من الصحة والغنى والأمن. والسيئة: البلاء من المرض والفقر والمخاوف. والكفور: البليغ الكفران، ولم يقل: فإنه كفور؛ ليسجل على أن هذا الجنس موسوم بكفران النعم ^(٢)، كما قال: ﴿إِنِ

(١) قوله: «كما ترى المصبور ينظر إلى السيف» أي: المجبوس للقتل. أفاده الصحاح. (ع)

(٢) قال محمود: «لم يقل: فإنه كفور؛ ليسجل على هذا الجنس أنه موسوم بكفران النعم... الخ» قال أحمد: وقد أغفل هذه النكتة بعينها في الآية التي قبل هذه، وهي قوله تعالى: (وقال الذين آمنوا إن =

الْإِنْسَانَ لظَلُومًا كَفَّارًا﴾ [إبراهيم: ٣٤]، ﴿إِنَّ الْإِنْسَانَ لِرَبِّهِ لَكَنُودٌ﴾ [العاديات: ٦] والمعنى أنه يذكر البلاء وينسى النعم ويغمطها^(١).

﴿لِلَّهِ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ يَهَبُ لِمَنْ يَشَاءُ إِنِثَاءً وَيَهَبُ لِمَنْ يَشَاءُ الذَّكَورَ﴾ [٤٩] ﴿أَوْ يُزَوِّجُهُمْ ذُكْرَانًا وَإِنِثَاءً وَيَجْعَلُ مَنْ يَشَاءُ عَقِيمًا إِنَّهُ عَلِيمٌ قَدِيرٌ﴾ [٥٠]

لما ذكر إذافة الإنسان الرحمة وإصابته بضدها: أتبع ذلك أن له الملك وأنه يقسم النعمة والبلاء كيف أراد، ويهب لعباده من الأولاد ما تقتضيه مشيئته، فيخص بعضاً بالإناث وبعضاً بالذكر، وبعضاً بالصفين جميعاً، ويعقم آخرين فلا يهب لهم ولدًا قط. فإن قلت: لم قدم الإناث أولاً على الذكور مع تقدمهم عليهن، ثم رجع فقدمهم، ولم عرف الذكور بعد ما نكر الإناث؟ قلت: لأنه ذكر البلاء في آخر الآية الأولى وكفران الإنسان بنسيان الرحمة السابقة عنده، ثم عقبه بذكر ملكه ومشيئته وذكر قسمة الأولاد، فقدم الإناث، لأن سياق الكلام أنه فاعل ما يشاؤه لا ما يشاؤه الإنسان، فكان ذكر الإناث اللاتي من جملة ما لا يشاؤه الإنسان أهم، والأهم واجب التقديم، وليلي الجنس الذي كانت العرب تعذّه بلاء ذكر البلاء، وآخر الذكور فلما أخرهم لذلك تدارك تأخيرهم - وهم أحقاء بالتقديم - بتعريفهم؛ لأن التعريف تنويه وتشهير، كأنه قال: ويهب لمن يشاء الفرسان الأعلام المذكورين الذين لا يخفون عليكم، ثم أعطى بعد ذلك كلا الجنسين حقه من التقديم والتأخير، وعزف أن تقديمهن لم يكن لتقدمهن، ولكن لمقتض آخر فقال: ﴿ذُكْرَانًا وَإِنِثَاءً﴾ كما قال: ﴿إِنَّا خَلَقْنَاكَ مِنْ ذَكْرٍ وَأُنْثَى﴾ [الحجرات: ١٣]، ﴿جَعَلْنَا مِنْهُ أَزْوَاجًا الذَّكَرَ وَالْأُنْثَى﴾ [٢٩] [القيامة: ٣٩] وقيل: نزلت في الأنبياء صلوات الله عليهم وسلامه، حيث وهب لشعيب ولوط إناثاً، ولإبراهيم ذكوراً، ولمحمد ذكوراً وإناثاً، وجعل يحيى وعيسى عقيمين. ﴿إِنَّهُ عَلِيمٌ﴾ بمصالح العباد، ﴿قَدِيرٌ﴾ على تكوين ما يصلحهم.

﴿وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَنْ يُكَلِّمَهُ اللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِنْ وَرَآئِ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا فَيُوحِيَ بِإِذْنِهِ مَا يَشَاءُ إِنَّهُ عَلَىٰ حَكِيمٍ﴾ [٣١]

﴿وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ﴾ وما صح لأحد من البشر ﴿أَنْ يُكَلِّمَهُ اللَّهُ إِلَّا﴾ على ثلاثة أوجه: إما

= الخاسرين الذين خسروا أنفسهم وأهلهم يوم القيامة، ألا إن الظالمين في عذاب مقيم فوضع الظالمين موضع الضمير الذي كان من حقه أن يعود على اسم إن، فيقال: ألا إنهم في عذاب مقيم، فأتى هذا الظاهر تسجيلاً عليهم بلسان ظلمهم.

(١) قوله: «وينسى النعم ويغمطها» يطرأ ويحقرها. أفاده الصحاح. (ع)

على طريق الوحي وهو الإلهام والقذف في القلب أو المنام، كما أوحى إلى أم موسى وإلى إبراهيم عليه السلام في ذبح ولده. وعن مجاهد: أوحى الله الزبور إلى داود عليه السلام في صدره. قال عبيدة بن الأبرص [من الطويل]:

وَأَوْحَى إِلَيَّ اللَّهُ أَنْ قَدْ تَأْمُرُوا بِإِبْلِإِ أَبِي أَوْفَى فَقُنْتُ عَلَى رِجْلِ^(١)
أي: ألهمني وقذف في قلبي. وإما على أن يسمعه كلامه الذي يخلقه في بعض الأجرام، من غير أن يبصر السامع من يكلمه؛ لأنه في ذاته غير مرئي^(٢). وقوله: ﴿وَرَأَى حِجَابٍ﴾ مثل أي، كما يكلم الملك المحتجب بعض خواصه وهو من وراء الحجاب، فيسمع صوته ولا يرى شخصه، وذلك كما كلم موسى ويكلم الملائكة. وإما على أن يرسل إليه رسولاً من الملائكة فيوحي الملك إليه كما كلم الأنبياء غير موسى. وقيل: وحيًا كما أوحى إلى الرسل بواسطة الملائكة. ﴿أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا﴾ أي نبيًا كما كلم أمم الأنبياء على ألسنتهم. و﴿وَحْيًا﴾، و﴿أَنْ يُرْسِلَ﴾: مصدران واقعان موقع الحال؛ لأن ﴿أَنْ يُرْسِلَ﴾، في معنى إرسالاً. ومن وراء حجاب: ظرف واقع موقع الحال أيضاً، كقوله تعالى: ﴿وَعَلَى جُنُوبِهِمْ﴾ [آل عمران: ١٩١] والتقدير: وما صح أن يكلم أحداً إلا موحياً، أو مسمعاً من وراء حجاب، أو مرسلأ. ويجوز أن يكون ﴿وَحْيًا﴾، موضوعاً موضع: كلاماً؛ لأن الوحي كلام خفي في سرعة، كما تقول: لا أكلمه إلا جهراً وإلا خفائاً؛ لأن الجهر والخفات ضربان من الكلام، وكذلك إرسالاً: جعل الكلام على لسان الرسول بغير واسطة، تقول: قلت لفلان كذا، وإنما قاله وكيلك أو رسولك. وقوله: ﴿أَوْ مِنْ وَرَائِي حِجَابٍ﴾ معناه: أو إسماعاً من وراء حجاب؛ ومن جعل ﴿وَحْيًا﴾ في معنى: أن يوحى، وعطف ﴿يُرْسِلَ﴾ عليه، على معنى ﴿وَمَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَنْ يَكُلِمَهُ اللَّهُ إِلَّا وَحْيًا﴾ أي: إلا بأن يوحى. أو بأن يرسل، فعليه أن يقدر قوله: ﴿أَوْ مِنْ وَرَائِي حِجَابٍ﴾ تقديرأ يطابقهما عليه، نحو: أو أن يسمع^(٣) من وراء حجاب. وقرئ ﴿أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا فَيُوحِي﴾ بالرفع، على: أو هو يرسل. أو بمعنى مرسلأ عطفاً على ﴿وَحْيًا﴾ في معنى موحياً. وروي أن اليهود ١٦٦/٢ قالت للنبي ﷺ:

(١) أي ألهمني الله وألقى في قلبي: أنهم تأمروا. وأن مخففة من الثقيلة، واسمها: ضمير القوم أو الحال والشان. واختار أبو حيان أنها لا اسم لها إذا خففت؛ لأنها مهملة. وإن ضمن «أوحى» معنى: قال: فإن تفسيرية، أي، قد تأمروا بوزن تفاعلوا، أي: تشاوروا في الأمر، أو أجمعوا أمرهم. ومنه (يأترون بك ليقتلوك) بإبل أبي أوفى ليغتصبوها، فقتت في طلبهم لأردها على رجل واحدة، أي: بسرعة، فلا أضع رجلي معاً في الأرض.

(٢) قوله: «لأنه في ذاته غير مرئي» أي: لا تجوز رؤيته. وهذا عند المعتزلة. أما عند أهل السنة فتجوز كما تقرر في محله. (ع)

(٣) قوله: «أو أن يسمع من وراء حجاب» لعله: أو بأن. (ع)

३२२

عليه؛ فما معنى قوله: ﴿وَلَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ والأنبياء لا يجوز عليهم إذا عقلوا وتمكنوا من النظر والاستدلال أن يخطئهم الإيمان بالله وتوحيده، ويجب أن يكونوا معصومين من ارتكاب الكبائر ومن الصغائر التي فيها تنفير قبل المبعث وبعده، فكيف لا يعصمون من الكفر؟ قلت: الإيمان اسم يتناول أشياء: بعضها الطريق إليه العقل، وبعضها الطريق إليه السمع، فعنى به ما الطريق إليه السمع دون العقل؛ وذلك ما كان له فيه علم حتى كسبه بالوحي. ألا ترى أنه قد فسر الإيمان في قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضَيِّعَ إِيمَانَكُمْ﴾ [البقرة: ١٤٣] بالصلاة؛ لأنها بعض ما يتناوله الإيمان. ﴿مَنْ شَاءَ مِنْ عِبَادِنَا﴾ من له لطف ومن لا لطف له، فلا هداية تجدي عليه. ﴿صِرَاطَ اللَّهِ﴾ بدل. وقرئ «لِتَهْدَى» أي: يهديك الله. وقرئ «لتدعو».

عن رسول الله ﷺ: «من قرأ ﴿حَمْدَ﴾ ﴿عَسَى﴾ ﴿قُلْ﴾ كان ممن تصلي عليه الملائكة ويستغفرون له ويسترحمون له» (١٣٨٦).

= وفي (٣١١/١٥) كتاب التوحيد: باب قوله تعالى: «عالم الغيب فلا يظهر على غيبه أحدا» حديث (٧٣٨٠). ومسلم في صحيحه (٩/٢): كتاب الإيمان: باب قول الله عز وجل: ولقد رآه، حديث (٢٨٩) (١٧٧) وأحمد في مسنده (٤٩/٦). من طريق إسماعيل بن خالد عن عامر الشعبي، به. وأخرجه البخاري في صحيحه (٤٥٩/٦): كتاب بدء الخلق: باب: إذا قال أحدكم: آمين، والملائكة في السماء... حديث (٣٢٣٥). ومسلم في صحيحه (٩/٢): كتاب الإيمان، باب معنى قوله تعالى: ولقد رآه، حديث (٢٩٠) (١٧٧).

من طريق أبي أسامة حدثنا زكريا بن أبي زائدة عن ابن الأشوع، عن الشعبي، به. وأخرجه مسلم في صحيحه (٨/٢): كتاب الإيمان: باب ولقد رآه، حديث (١٧٧). والترمذي في سننه (٢٦٢/٥): كتاب تفسير القرآن: باب ومن سورة الأنعام، حديث (٣٠٦٨) والطبري في تفسيره (٥١٢/١١ - ٥١٣). حديث برقم (٣٢٤٧٥). (٣٢٤٧٦). (٣٢٤٧٧). (٣٢٤٧٨)، (٣٢٤٧٩).

وابن حبان في صحيحه (٢٥٧/١): كتاب الإسراء: باب ذكر تعداد عائشة قول ابن عباس الذي ذكرناه من أعظم الفرية، حديث (٦٠)، وأبو يعلى الموصلي في مسنده (٣٠٣/٨)، حديث برقم (٤٩٠٠).

كلهم من طريق داود بن أبي هند عن عامر الشعبي عن مسروق عن عائشة به. وقال الحافظ: متفق عليه وقد تقدم طرف منه في الأنعام. انتهى.

١٣٨٦ - تقدم برقم (٣٤٦)، وهو حديث فضائل القرآن سورة سورة الموضوع على رسول الله ﷺ. وقال الحافظ ابن حجر: أخرجه الثعلبي وابن مردويه بإسنادهما إلى أبي بن كعب. انتهى.

سورة الزخرف

مكية، وقال مقاتل: إلا قوله: ﴿وَأَسْأَلُ مَنْ أَرْسَلَنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رُسُلِنَا﴾
وهي تسع وثمانون آية [نزلت بعد الشورى]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿حَمْدٌ ۝ (١) وَالْكِتَابِ الْمُبِينِ ۝ (٢) إِنَّا جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ۝ (٣) وَإِنَّهُ فِي أُمِّ الْكِتَابِ لَدَبْنَاهُ لَعَلَّيْ حَكِيمٌ ۝ (٤)﴾

أقسم بالكتاب المبين وهو القرآن^(١) وجعل قوله: ﴿إِنَّا جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا﴾ جواباً للقسم^(٢) وهو من الأيمان الحسنة البديعة؛ لتناسب القسم والمقسم عليه، وكونهما من واحد. ونظيره قول أبي تمام [من الخفيف]:

وَتَنَائِيَاكَ إِنَّهَا إِغْرِیضُ^(٣)

﴿الْمُبِينِ﴾ البين للذين أنزل عليهم؛ لأنه بلغتهم وأساليبهم. وقيل: الواضح

(١) نلاحظ القسم بالكتاب المبين وهو القرآن والمقسم عليه ما بعده ليدل على أنه لا بد من وجود علاقة قوية بين المقسم به والمقسم عليه، وكلما وضحت هذه العلاقة كلما كان القسم بليغاً، وهذا ما رأيناه في هذه الآيات، وقد وضع المفسر العلامة هذا في مواضع كثيرة، وانظر هذا المعنى واضحاً عنده في قوله تعالى:

﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَأْتِنَا السَّاعَةُ قُلْ وَرَبِّي لَتَأْتِيَ بِلَدِّكُمْ عَالَمُ الْغَيْبِ لَا يَعْزُبُ عَنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ﴾ [سبأ: ٣].

«يراجع البلاغة القرآنية لأبي موسى ٣٨١».

(٢) قال محمود: «أقسم بالكتاب المبين وجعل قوله: (إنا جعلناه قرآنًا عربيًا) جواباً للقسم... الخ» قال أحمد: تنبيه حسن جداً. ووجه التناسب فيه أنه أقسم بالقرآن، وإنما يقسم بعظيم، ثم جعل المقسم عليه تعظيم القرآن بأنه قرآن عربي مرجو به أن يعقل به العالمون، أي: يتعقلوا آيات الله تعالى فكان جواب القسم مصححاً للقسم، وكذلك أقسم أبو تمام بالثنايا، وإنما يقسم الشعراء بمثل هذا الإشعار بأنه في غاية الحسن، ثم جعل المقسم عليه كونها في نهاية الحسن، لا أنها هي إغريض، وهو من أحسن تشبيهات الثنايا، فجعل المقسم عليه مصححاً للقسم والله أعلم.

(٣) وتَنَائِيَاكَ إِنَّهَا إِغْرِیضُ ولآل نوار أرض وميض =

للمتدبرين. وقيل: (المبين) الذي أبان طرق الهدى من طرق الضلالة، وأبان ما تحتاج إليه الأمة في أبواب الديانة. ﴿جَعَلْتَهُ﴾ بمعنى صيرناه معدّي إلى مفعولين. أو بمعنى خلقناه معدّي إلى واحد، كقوله تعالى: ﴿وَجَعَلَ الظُّلُمَاتِ وَالنُّورَ﴾ [الأنعام: ١]. و﴿قُرْآنًا عَرَبِيًّا﴾ حال. و«لعل»: مستعار لمعنى الإرادة^(١)؛ لتلاحظ^(٢) معناها ومعنى الترجي^(٣)، أي خلقناه عربياً غير عجمي: إرادة أن تعقله العرب، ولئلا يقولوا لولا فصلت آياته، وقرئ: «أم الكتاب» بالكسر وهو اللوح، كقوله تعالى: ﴿بَلْ هُوَ قُرْآنٌ مَّجِيدٌ﴾ [٢١] في لَوْحٍ مَحْفُوظٍ ﴿٢٢﴾ [البروج: ٢١-٢٢] سمي بأم الكتاب؛ لأنه الأصل الذي أثبتت فيه الكتب، منه تنقل وتستنسَخ. عَلِيٌّ رفيع الشأن في الكتب؛ لكونه معجزاً من بينها، ﴿حَكِيمٌ﴾ ذو حكمة بالغة، أي: منزلته عندنا منزلة كتاب هما صفاته، وهو مثبت في أم الكتاب هكذا.

﴿أَنْضَرِبْ عَنْكُمْ الذِّكْرَ صَفْحًا أَنْ كُنْتُمْ قَوْمًا مُسْرِفِينَ﴾ ﴿٥﴾

﴿أَنْضَرِبْ عَنْكُمْ الذِّكْرَ صَفْحًا﴾ بمعنى: أفننحي عنكم الذكر ونذوده عنكم على سبيل المجاز، من قولهم: ضرب الغرائب عن الحوض. ومنه قول الحجاج: ولأضربنكم ضرب غرائب الإبل. وقال طرفة [من المنسرح]:

إِضْرِبْ عَنْكَ الْهُمُومَ طَارِقَهَا ضَرْبَكَ بِالسَّيْفِ قُوْنَسَ الْفَرَسِ^(٤)

= وأفاح منور في بطاح هزه في الصباح روض أريض

لأبي تمام. والإغريض: البرد. والطلع والنوار: كرمان نور الشجر، واحده نواره. والوميض: شديد البريق والمعان. والأفاح: نور أبيض طيب الرائحة. والأريض: طيب الأرض، فيكون نظراً بهيجاً: أقسم بثناياها أي: مقدم أسنانها، إنها: أي ثناياها إغريض. فالقسم وجوابه متعلقان بشيء واحد، وشبههما بالبرد ونوار الأرض الشبيه باللالئ. فأضافتها إليه للتشبيه. ووميض: نعت مقطوع للنوار. أو تابع للإغريض؛ لكن الأول أجزل، وشبهه بالأفاح الذي نور في البطاح؛ لأنه أنضر وأزهى. وهزه في الصباح من صفة الأفاح «وخص الصباح ليكون على الزهر بقية من الندى، فيكون في غاية النضرة والزهو. وفيه إيماء لتشبيه قوام محبوبته بأغصان الروض في التمايل وظهور الزهور في أعلى كل منهما، ولك أن تجعل «وميض» صفة للالئ، وإن كانت جمعاً؛ لأن فاعل بمعنى فاعل قد يعامل معاملته فاعل بمعنى مفعول، فيطلق على الواحد والمتعدد مذكراً ومؤنثاً. ويروى بدل الشرط الثاني: ولآل توم ورق وميض. والتوم: واحدة تومة «وهي حبة تعمل من الفضة كالدرة، ولا إشكال في إعرابه».

(١) قال محمود: «ولعل مستعار لمعنى الإرادة» (فسره بالإرادة) قال أحمد: قد بينا فساد ذلك غير ما مرة.

(٢) قوله: «لتلاحظ معناها» لعله: ليلاحظ. (ع)

(٣) قوله: «ومعنى الترجي» لعله: أو معنى. (ع)

(٤) تقدم.

والفاء للعطف على محذوف، تقديره: أنهم لكم فنضرب عنكم الذكر؛ إنكاراً لأن يكون الأمر على خلاف ما قدّم على إنزاله الكتاب. وخلقه قرآناً عربياً؛ ليعقلوه ويعملوا بمواجهه. وصفحاً على وجهين. إما مصدر من صفح عنه إذا عرض، منتصب على أنه مفعول له، على معنى: أفنزل عنكم إنزال القرآن وإلزام الحجة به إعرافاً عنكم. وإما بمعنى الجانب من قولهم: نظر إليه بصفح وجهه وصفح وجهه، على معنى: أفنحيه عنكم جانباً، فينتصب على الظرف كما تقول: ضعه جانباً، وامش جانباً. وتعضده قراءة من قرأ «صفحاً» بالضم. وفي ١٦٦/٢ ب هذه القراءة وجه آخر: وهو أن يكون تخفيف صفح جمع صفوح، وينتصب على الحال، أي: صافحين معرضين؛ ﴿أَنْ كُنْتُمْ﴾ أي: لأن كنتم. وقرئ: «إن كنتم» و﴿إِذْ كُنْتُمْ﴾. فإن قلت: كيف استقام معنى إن الشرطية، وقد كانوا مسرفين على البت؟ قلت: هو من الشرط الذي ذكرت أنه يصدر عن المدل^(١) بصحة الأمر، المتحقق لثبوته، كما يقول الأجير: إن كنت عملت لك فوفني حقي، وهو عالم بذلك، ولكنه يخيل في كلامه أن تفريطك في الخروج عن الحق: فعل من له شك في الاستحقاق، مع وضوحه استجهالاً له.

﴿وَكَمْ أَرْسَلْنَا مِنْ نَبِيِّ فِي الْأَوَّلِينَ ۖ وَمَا يَأْتِيهِمْ مِنْ نَبِيٍّ إِلَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ ۝٧﴾

فَأَهْلَكْنَا أَشَدَّ مِنْهُمْ بَطْشًا وَمَضَىٰ مَثَلُ الْأَوَّلِينَ ۝٨﴾

﴿وَمَا يَأْتِيهِمْ﴾ حكاية حال ماضية مستمرة، أي: كانوا على ذلك. وهذه تسليية لرسول الله ﷺ عن استهزاء قومه. الضمير في ﴿أَشَدَّ مِنْهُمْ﴾ للقوم المسرفين؛ لأنه صرف الخطاب عنهم إلى رسول الله ﷺ يخبره عنهم، ﴿وَمَضَىٰ مَثَلُ الْأَوَّلِينَ﴾ أي سلف في القرآن في غير موضع منه ذكر قصتهم وحالهم العجيبة التي حقها أن تسير مسير المثل، وهذا وعد لرسول الله ﷺ، ووعد لهم.

﴿وَلَيْن سَأَلْنَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ خَلَقَهُنَّ الْعَزِيزُ الْعَلِيمُ ۝٩﴾ الَّذِي جَعَلَ

لَكُمْ الْأَرْضَ مَهْدًا وَجَعَلَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ۝١٠﴾ وَالَّذِي نَزَّلَ مِنَ

السَّمَاءِ مَاءً يَقْدِرُ فَنُشْرَتَ بِهِ بَلْدَةً مَيِّتًا كَذَلِكَ تُخْرَجُونَ ۝١١﴾

فإن قلت: قوله: ﴿لَيَقُولُنَّ خَلَقَهُنَّ الْعَزِيزُ الْعَلِيمُ﴾ وما سرد من الأوصاف عقيب إن كان من قولهم^(٢)، فما تصنع بقوله: ﴿فَنُشْرَتَ بِهِ بَلْدَةً مَيِّتًا كَذَلِكَ تُخْرَجُونَ﴾؟ وإن كان من قول

(١) قوله: «عن المدل» أي: الموافق. أفاده الصحاح. (ع)

(٢) قال محمود: «فإن قلت: قوله: (ليقولن خلقهن العزيز العليم) وما سرد من الأوصاف عقبه إن كان من قولهم... الخ» قال أحمد: الذي يظهر أن الكلام مجزأ، فبعضه من قولهم، وبعضه من قول =

الله، فما وجهه؟ قلت: هو من قول الله لا من قولهم. ومعنى قوله: ﴿لَيَقُولَنَّ خَلَقَنَّهُ الْعَزِيزُ الْعَلِيمُ﴾ الذي من صفته كيت وكيت؛ لينسب خلقها إلى الذي هذه أوصافه وليسندنه إليه. ﴿يَقْدَرُ﴾ بمقدار يسلم معه البلاد والعباد، ولم يكن طوفاناً.

﴿وَالَّذِي خَلَقَ الْأَزْوَاجَ كُلَّهَا وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ الْفُلْكِ وَالْأَنْعَامِ مَا تَرْكَبُونَ ﴿١٢﴾ لِّيَسْتَوُوا عَلَىٰ ظُهُورِهِ ثُمَّ تَذْكُرُوا نِعْمَةَ رَبِّكُمْ إِذَا اسْتَوَيْتُمْ عَلَيْهِ وَتَقُولُوا سُبْحَنَ الَّذِي سَخَّرَ لَنَا هَذَا وَمَا كُنَّا لَهُ مُقْرِنِينَ ﴿١٣﴾ وَإِنَّا إِلَىٰ رَبِّنَا لَمُنْقَلِبُونَ ﴿١٤﴾﴾

و﴿الْأَزْوَاجَ﴾ الأصناف ﴿مَا تَرْكَبُونَ﴾ أي تركبونه. فإن قلت: يقال: ركبوا الأنعام وركبوا في الفلك^(١). وقد ذكر الجنسین فكيف قال ما تركبونه؟ قلت: غلب المتعدي بغير

= الله تعالى، فالذي هو من قولهم: (خلقهن)، وما بعده من قول الله عز وجل، وأصل الكلام أنهم قالوا: خلقهن الله؛ ويدل عليه قوله في الآية الأخرى: (ولئن سألتهم من خلق السموات والأرض ليقولن الله) لما قالوا: خلقهن الله وصف الله تعالى ذاته بهذه الصفات، ولما سبق الكلام كله سياقه وأخذه، حذف الموصوف من كلامه، وأقيمت الصفات المذكورة في كلام الله تعالى مقامه كأنه كلام واحد. ونظير هذا أن تقول للرجل: من أكرمك من القوم؟ فيقول أكرمني زيد، فتقول أنت واصفاً للمذكور: الكريم الجواد الذي من صفته كذا وكذا، ثم لما وقع الانتقال من كلامهم إلى كلام الله عز وجل، جرى كلامه عز وجل على ما عرف من الاقتنان في البلاغة، فجاء أوله على لفظ الغيبة وأخره على الانتقال منها، إلى التكلم في قوله: (فأنشرنا) كل ذلك اقتنان في أفنان البلاغة. ومن هذا النمط قوله تعالى حكاية عن موسى: (قال علمها عند ربي في كتاب لا يضل ربي ولا ينسى الذي جعل لكم الأرض بهذا وسلك لكم فيها سبلاً وأنزل من السماء ماء فأخرجنا به أزواجاً من نبات شتى) فجاء أول الكلام حكاية عن موسى، إلى قوله: (ولا ينسى) ثم وقع الانتقال من كلام موسى إلى كلام الله تعالى، فوصف ذاته أوصافاً متصلة بكلام موسى؛ حتى كأنه كلام واحد. وابتدأ في ذكر صفاته على لفظ الغيبة إلى قوله: (فأخرجنا به أزواجاً من نبات شتى) فانظر إلى تحقيق التطبيق بين الآيتين ترى العجب، والله الموفق.

(١) قال محمود: «يقال: ركبت الدابة وركبت في الفلك... الخ» قال أحمد: لم يحجر العبارة في هذا الموضع، فإن قوله: «غلب المتعدي بغير واسطة على المتعدي بنفسه» يوهم أن بين الفعلين تبايناً وليس كذلك. فإن المتعدي إلى الأنعام هو عين الفعل المتعدي إلى السفن، غاية ما، ثم أن العرب خصته باعتبار بعض مفاعيله بالواسطة. وباعتبار بعضها بالمتعدي بنفسه، والاختلاف بالمتعدي والقصور أو باختلاف آلات التعدي وباختلاف أعداد المفاعيل - لا يوجب الاختلاف في المعنى، فمن ثم يعدون الفعل الواحد مرة بنفسه ومرة بواسطة، مثل: سكرت وأخواته، ويعدون الأفعال المترادفة بآلات مختلفة، مثل دعوت ووصلت، فإنك تقول: صلى النبي على آل أبي أوفى، ولو قلت: دعا على آل أبي أوفى: لأفهم عكس المقصود، ولكن دعا لآل أبي أوفى، ويعدون بعضها إلى مفعولين، ومرادفه إلى مفعول واحد، كعلم وعرف، فلا يترتب على الاختلاف بالمتعدي. والقصور: الاختلاف في المعنى، فالذي يحجر من هذا: أن «ركب» باعتبار القبيلين معناه واحد، وإن خص =

واسطة؛ لقوته على المتعدي بواسطة، فقيل: تركبونه. ﴿عَلَى ظُهُورِهِ﴾ على ظهور ما تركبون وهو الفلك والأنعام. ومعنى ذكر نعمة الله عليهم: أن يذكروها في قلوبهم معترفين بها مستعظمين لها، ثم يحمدا عليها بألسنتهم، وهو ما يروى عن النبي ﷺ: أنه كان إذا وضع رجله في الركاب قال: «بسم الله»، فإذا استوى على الدابة قال: «الحمد لله على كل حال، سبحان الذي سخر لنا هذا... إلى قوله. لمنقلبون» وكبر ثلاثاً وهلل ثلاثاً (١٣٨٧). وقالوا: إذا ركب في السفينة قال: ﴿بِسْمِ اللَّهِ يَجْرِبُهَا وَمُرْسَهَا إِنَّ رَبِّي لَغَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ (١٣٨٨) [هود: ٤١] وعن الحسن بن علي رضي الله عنهما أنه رأى رجلاً يركب دابة فقال: سبحان

١٣٨٧ - أخرجه أبو داود (٣٤/٣) كتاب الجهاد باب ما يقول الرجل إذا ركب، حديث (٢٦٠٢)، والترمذي (٥٠١/٥) كتاب الدعوات باب ما جاء ما يقول إذا ركب دابة، حديث (٣٤٤٦)، والنسائي (٢٤٧/٥ - ٢٤٨) كتاب السير: باب التسمية عند ركوب الدابة والتحميد، والدعاء إذا استوى على ظهرها حديث (٨٧٩٩)، وأحمد (٩٧/١، ١١٥)، والطالسي (١٢٢/١ - منحة) رقم (٥٧٤)، وابن حبان (٢٣٨٠، ٢٣٨١ - موارد) وعبد بن حميد رقم (٨٨)، والحاكم (٩٩/٢) والبيهقي في «السنن الكبرى» (٢٥٢/٥)، وفي «الأسماء والصفات» ص (٤٧١) كلهم من طريق أبي إسحاق عن علي بن ربيعة عن علي به. وقال الترمذي: حسن صحيح.

وقال الحاكم: صحيح على شرط مسلم ولم يخرجه ووافقه الذهبي. وقال الحافظ: أخرجه أبو داود، والترمذي، والنسائي، وابن حبان، والحاكم من حديث علي، وأسند الثعلبي باللفظ المذكور هنا، ولمسلم من طريق علي الأزري عن ابن عمر: «أن رسول الله ﷺ - كان إذا استوى على بعبيره خارجاً إلى سفر كبير ثلاثاً ثم قال: «سبحان الذي سخر لنا هذا الآية». انتهى.

١٣٨٨ - قال الزيلعي: غريب.

قال ابن حجر لم أجده من فعله - ﷺ - لكنه مروي من قوله ﷺ. أخرجه الطبراني في معجمه الكبير (١٢/١٢٤). حديث (١٢٦٦١) من حديث ابن عباس، وأورده الحافظ نور الدين الهيثمي في مجمع الزوائد (١٣٥/١٠): كتاب الأذكار: باب ما يقول إذا ركب البحر، وذكره السيوطي في الدر المنثور (٦٠٢/٣)، وزاد نسبته إلى ابن أبي حاتم وابن مردويه، قال الحافظ الهيثمي: رواه الطبراني في الأوسط والكبير وفيه نهشل بن سعيد وهو متروك. أخرجه أبو يعلى الموصلي (١٥٢/١٢)، حديث برقم (٦٧٨١)، وذكره ابن حجر في المطالب العالية (٢٣٧/٣): كتاب الأذكار والدعوات: باب ما يقول من ركب =

= أحدهما باقتران الواسطة والآخر بسقوطها، فالصواب أحد الأمرين: إما تقدير المتعلقين على ما هما عليه لو انفردا، فيكون التقدير ما تركبونه وتركبون فيه، والأقرب تعليله باعتبار التعدي بنفسه، ويكون هذا من تغليب أحد اعتباري الفعل على الآخر، وهو أسهل من التغليب في قوله تعالى: (فأجمعوا أمركم وشركاءكم) على أحد التأويلين فيه: فإن التباين ثم ثابت بين الفعلين من حيث المعنى، أعني: أجمع على الأمر وجمع الشركاء، ولكن لما تقارنا: غلب أحدهما على الآخر، ثم جعل المقلب هو المتعدي بنفسه، والله أعلم.

الذي سخر لنا هذا. فقال: أبهذا أمرتم؟ فقال: ويم أمرنا؟ قال: أن تذكروا نعمة ربكم (١٣٨٩)، كان قد أغفل التحميد فنبهه عليه. وهذا من حسن مراعاتهم لآداب الله ومحافظتهم على دقيقتها وجليلها. جعلنا الله من المقتدين بهم والسائرين بسيرتهم، فما أحسن بالعاقل النظر في لطائف الصناعات، فكيف بالنظر في لطائف الديانات؟ ﴿مُقَرَّرِينَ﴾ مطيقين. يقال: أقرن الشيء، إذا أطاقه. قال ابن هرمة [من الطويل]:

وَأَقْرَنْتُ مَا حَمَلْتَنِي وَلَقَلَّمَا يُطَاقُ أَخْتِمَالُ الصَّدِّ يَا دَعْدُ وَالْهَجْرُ^(١)

وحقيقة «أقرنه»: وجده قرينته وما يقرن به؛ لأنَّ الصعب لا يكون قرينة للضعيف. ألا ترى إلى قولهم في الضعيف: لا يقرن به الصعبة. وقرئ «مقرنين» والمعنى واحد. فإن قلت: كيف اتصل بذلك قوله: ﴿وَإِنَّا إِلَى رَبِّنَا لَمُنْقَلِبُونَ﴾؟ قلت: كم من راكب دابة عثرت به أو شمس أو تقحمت^(٢) أو طاح من ظهرها فهلك، وكم من راكبين في سفينة

= السفينة حديث (٣٣٦٥) وعزاه لأبي يعلى، وأورده الهيثمي في المجمع (١٣٥/١٠)، وذكره السيوطي في الدر المنثور (٦٠٢/٣)، وزاد نسبه إلى الطبراني وابن السني وابن عدي وأبي الشيخ وابن مردويه.

وذكره الزيلعي في تخريج الكشاف (٢٥٠/٣) وزاد نسبه إلى الطبراني في الدعاء. قال الهيثمي: رواه أبو يعلى عن شيخه جبارة بن مفلس وهو ضعيف، وقال الحافظ ابن حجر في الكشاف: لم أجده من فعله عليه السلام، وفي الطبراني من حديث الضحاك عن ابن عباس رفعه: «أمان لأمتي من الغرق إذا ركبوا في الفلك أن يقولوا: بسم الله، وما قدروا الله حق قدره - الآية بسم الله مجربها ومرساها» ورواه في الدعاء من حديث الحسن بن علي رضي الله عنهما. انتهى.

١٣٨٩ - أخرجه ابن أبي شعبة في مصنفه (٩١/٦): كتاب الدعاء باب في الرجل يركب الدابة والبعير ما يدعو به حديث (٢٩٧٢٤)، وأخرجه ابن جرير الطبري في تفسيره (١٧٠/١١) حديث (٣٠٧٧٧)، وذكره السيوطي في الدر المنثور (٩١/٦) وزاد عزوه إلى ابن المنذر وعبد بن حميد، وذكره الزيلعي في تخريج الكشاف (٢٥١/٣)، وزاد عزوه إلى الطبراني في كتاب الدعاء، وقال الحافظ: أخرجه الطبري والطبراني في الدعاء من طريق مجلس عن حسين بن علي فذكره... انتهى.

(١) لابن هرمة «وأقرنت الشيء»: إذا وجدته قرينًا لك لا يزيد عنك ثم استعمل في الإطاقة توسعًا. ولقلما: اللام للقسمة. وقل: فعل. وما: كافة، ركبت معه فصار المراد منه النفي ولا فاعل له، وشبه المعقول من الصد والهجر بالمحسوس على طريق الكناية، والحمل تخييل، يقول: أطلقت ما حملتني إياه من صدك عني وهجرك لي، والحال أنه لا يطاق احتمالهما. وفي الاعتراض بنداها: نوع استعطاف.

ينظر: البحر ٧/٨، والدرر المصون ٩٣/٦.

(٢) قوله: «أو شمس أو تقحمت» في الصحاح: شمس الفرس شمسًا وشماسًا: منع ظهره. وفيه «القحمة» بالضم: المهلكة. وقحم الطريق: مصاعبه. اهـ، فتقحم الدابة براكبها: خوضها به في قحمته. (ع)

انكسرت بهم فغرقوا؛ فلما كان الركوب مباشرة أمر مخطر، واتصالاً بسبب من أسباب التلف: كان من حق الراكب وقد اتصل بسبب من أسباب التلف أن لا ينسى عند اتصاله به يومه، وأنه هالك لا محالة فمنقلب إلى الله غير منفلت من قضائه، ولا يدع ذكر ذلك بقلبه ولسانه حتى يكون مستعداً للقاء الله بإصلاحه من نفسه، والحذر من أن يكون ركوبه ذلك من أسباب موته في علم الله وهو غافل عنه، ويستعيز بالله من مقام من يقول لقرنائه: تعالوا ننزه على الخيل أو في بعض الزوارق؛ فيركبون حاملين مع أنفسهم أواني الخمر والمعازف، فلا يزالون يسقون حتى تميل طلائهم^(١) وهم على ظهور الدواب، أو في بطون السفن/٢/١٦٧ وهي تجري بهم، لا يذكرون إلا الشيطان، ولا يمثلون إلا أوامره. وقد بلغني أن بعض السلاطين ركب وهو يشرب من بلد إلى بلد بينهما مسيرة شهر، فلم يصح إلا بعدما اطمأنت به الدار، فلم يشعر بمسيره ولا أحس به، فكم بين فعل أولئك الراكبين وبين ما أمر الله به في هذه الآية. وقيل: يذكرون عند الركوب ركوب الجنائز.

﴿وَجَعَلُوا لَهُ مِنْ عِبَادِهِ جُزْءًا إِنَّ الْإِنْسَانَ لَكَفُورٌ مُبِينٌ﴾ (١٥) أَمِ اتَّخَذَ مِمَّا يَخْلُقُ بَنَاتٍ وَأَصْفَنَكُمْ بِالْبَنِينَ (١٦) وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُمْ بِمَا ضَرَبَ لِلرَّحْمَنِ مَثَلًا ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ (١٧) أَوْ مِنْ يُنْسَوْنَ فِي الْحَيَاةِ وَهُوَ فِي الْخِصَامِ غَيْرُ مُبِينٍ﴾ (١٨)

﴿وَجَعَلُوا لَهُ مِنْ عِبَادِهِ جُزْءًا﴾ متصل بقوله: ﴿وَلَيْنَ سَأَلْتَهُمْ﴾ [الزخرف: ٩] أي: ولئن سألتهم عن خالق السموات والأرض ليعترفن به، وقد جعلوا له مع ذلك الاعتراف من عباده جزءاً فوصفوه بصفات المخلوقين. ومعنى ﴿مِنْ عِبَادِهِ جُزْءًا﴾ أن قالوا: الملائكة بنات الله، فجعلوهم جزءاً له وبعضاً منه، كما يكون الولد بضعة من والده وجزءاً له. ومن بدع التفاسير: تفسير الجزء بالإناث، وادعاء أن الجزء في لغة العرب: اسم للإناث، وما هو إلا كذب على العرب، ووضع مستحدث منحول، ولم يقنعهم ذلك حتى اشتقوا منه: أجزاء المرأة، ثم صنعوا بيتاً وبيتاً [من البسيط]:

إِنْ أَجْزَأَتْ حُرَّةٌ يَوْمًا فَلَا عَجَبُ.....^(٢)

(١) قوله: «حتى تميل طلائهم» في الصحاح «الطلی» الأعناق. قال الأصمعي: واحدها طلية. وقال أبو عمرو والفراء: واحدها طلاة. (ع)

(٢) إن أجزاء حرة يوماً فلا عجب قد تجزئ الحرة المذكر أحياناً
قيل: «الجزؤ» اسم للأنثى، واشتقوا منه: أجزاء المرأة، إذا ولدت جزءاً: أي أنثى. وأنكره الزمخشري وقال: إنه اصطناع لا لغة. والمعنى: إن ولدت امرأة حرة أنثى في بعض الأحيان فلا =

[ومن البسيط]:

زُوجَتْهَا مِنْ بَنَاتِ الْأَوْسِ مُجَزَّةً (١)

وقرى: «جزؤوا» بضمين. ﴿لَكُفُورٌ﴾ لوجود للنعمة ظاهر جوده؛ لأن نسبة الولد إليه كفر، والكفر أصل الكفران كله. ﴿أَمْ اتَّخَذَ﴾ بل اتخذ، والهمزة للإنكار: تجهيلاً لهم وتعجباً من شأنهم؛ حيث لم يرضوا بأن جعلوا لله من عباده جزءاً، حتى جعلوا ذلك الجزء شر الجزأين: وهو الإناث دون الذكور، على أنهم أنفر خلق الله عن الإناث وأمقتهم لهن، ولقد بلغ بهم المقت إلى أن وأدوهن، كأنه قيل: هبوا أن إضافة اتخاذ الولد إليه جائزة فرضاً وتمثيلاً، أما تستحيون من الشطط في القسمة؟ ومن ادعائكم (٢) أنه آثركم على نفسه بخير

= عجب؛ فإن الحرة التي تلد الذكور كثيراً قد تلد أنثى في بعض الأوقات. وقيل: حرة الأولى اسم امرأة، والثانية صفة.

ينظر: لسان العرب: (جزأ)، وتهذيب اللغة ١١/١٤٥، وتاج العروس (جزأ).

(١) زوجتها من بنات الأوس مجزئة للعوسج اللدن في أبياتها زجل قيل: «المجزئة» التي تلد البنات. والجزؤ: البنت. وأنكره الزمخشري وقال: إنه مصنوع لا لغة. والعوسج: ضرب من الشوك. والمراد به: عود المغزل المتخذ منه. واللدن: اللين. والزجل: صوت دوران المغزل. ونحوه: وزوجتها، مبني للمجهول. وروي: «نكحتها من بنات الأوس» هو أبو قبيلة سميت باسمه، تلد تلك المرأة البنات، وجعل العوسج لدناً؛ لأنه أكثر دوراً ورنيناً في دورانه.

ينظر: تاج العروس (جزأ)، ولسان العرب (جزأ)، وتهذيب اللغة: ١١/١٤٦.

(٢) قال محمود: «كأنه قيل: هبوا أن إضافة الولد إليه جائزة فرضاً وتمثيلاً أما تستحيون من الشطط في القسمة؟ ومن ادعاء أنه آثركم على نفسه... الخ» قال أحمد: نحن معاصر أهل السنة نقول: إن كل شيء بمشيئة الله تعالى، حتى الضلالة والهدى: اتباعاً للدليل العقل، وتصديقاً لنص النقل في أمثال قوله تعالى: (يضل من يشاء ويهدي من يشاء) وآية الزخرف هذه لا تزيد هذا المعتقد الصحيح إلا تمهيداً، ولا تفيد إلا تصويهاً وتسديداً، فنقول: إذا قال الكافر: لو شاء الله ما كفرت، فهذه كلمة حق أراد بها باطلاً. أما كونها كلمة حق فلما مهدناه. وأما كونه أراد بها باطلاً، فمراد الكافر بذلك أن يكون له الحجة على الله، توهماً أنه يلزم من مشيئة الله تعالى لضلالة من ضل أن لا يعاقبه على ذلك؛ لأنه إنما فعل مقتضى مشيئته كما توهم القدريّة إخوان الوثنية ذلك، فأشركوا بربهم، واعتقدوا أن الضلالة وقعت بمشيئة الخلق على خلاف مشيئة الخالق، فالذين أشركوا بالملائكة أرفع منهم درجة؛ لأن هؤلاء أشركوا أنفسهم الدنية في ملك ربهم المتوحد بالربانية جل وعلا، فإذا وضع ما قلناه فإنما رد الله عليهم مقالته هذه، لأنهم توهّموا أنها حجة على الله، فدحض الله حجته، وأكذب أمّنتهم، وبين أن مقالته صادرة عن ظن كاذب وتخرف محض، فقال: (ما لهم بذلك من علم إن هم إلا يخرصون)، (وإن هم إلا يظنون) وقد أفصحت أخت هذه الآية مع هذه الآية عن هذا التقدير، وذلك قوله تعالى في سورة الأنعام: (وقال الذين أشركوا لو شاء الله ما أشركنا ولا آباؤنا ولا حرمنا من شيء كذلك كذب الذين من قبلهم حتى ذاقوا بأسنا قل هل عندكم من علم فتخرجوه لنا إن تتبعون إلا الظن وإن أنتم إلا تخرصون) فبين تعالى أن الحامل لهؤلاء على التكذيب بالرسول والإشراك بالله: اغترارهم بأن لهم الحجة على الله بقولهم: (لو شاء الله ما أشركنا) فشبّه =

الجزأين وأعلاهما وترك له شرهما وأدناهما؟ وتنكير ﴿بَنَاتٍ﴾ وتعريف ﴿أَلْبَنِينَ﴾ وتقديمهن في الذكر عليهم لما ذكرت في قوله تعالى: ﴿يَهَبْ لِمَنْ يَشَاءُ إِنثًا وَيَهَبْ لِمَنْ يَشَاءُ الذَّكَوْرَ﴾ [الشورى: ٤٩] ﴿يِمَّا ضَرَبَ لِلرَّحْمَنِ مَثَلًا﴾ بالجنس الذي جعله له مثلاً، أي: شبهاً لأنه إذا جعل الملائكة جزءاً لله وبعضاً منه فقد جعله من جنسه ومماثلاً له؛ لأن الولد لا يكون إلا من جنس الوالد، يعني: أنهم نسبوا إليه هذا الجنس. ومن حالهم أن أحدهم إذا قيل له: قد ولدت لك بنت اغتم واربد وجهه^(١) غيظاً وتأسفاً وهو مملوء من الكرب. وعن بعض العرب: أن امرأته وضعت أنثى، فهجر البيت الذي فيه المرأة، فقالت [من الرجز]:

مَا لِأَبِي حَمْزَةٍ لَا يَأْتِينَا؟ يَظَلُّ فِي الْبَيْتِ الَّذِي يَلِينَا
غَضَبَانُ أَنْ لَا تَلِدَ الْبَنِينَ لَيْسَ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا مَا شِينَا
وَإِنَّمَا نَأْخُذُ مَا أُعْطِينَا^(٢)

= تعالى حالهم في الاعتماد على هذا الخيال بحال أوائلهم، ثم بين أنه معتقد نشأ عن ظن خلب وخیال مكذب، فقال: (إن تبعون إلا الظن وإن أنتم إلا تخرصون) ثم لما أبطل أن يكون لهم في مقاتلهم حجة على الله: أثبت تعالى الحجة له عليهم بقوله: (فلله الحجة البالغة) ثم أوضح أن الرد عليهم ليس إلا في احتجاجهم على الله بذلك، لا لأن المقالة في نفسها كذب، فقال: (فلو شاء لهداكم أجمعين) وهو معنى قولهم: (لو شاء الله ما أشركنا) من حيث إن (لو) مقتضاها امتناع الهداية لامتناع المشيئة، فدلّت الآية الأخيرة على أن الله تعالى لم يشأ هدايتهم، بل شاء ضلالتهم. ولو شاء هدايتهم لما ضلوا؛ فهذا هو الدين القويم والصراط المستقيم، والنور اللائح والمنهج الواضح. والذي يدحض به حجة هؤلاء مع اعتقاد أن الله تعالى شاء وقوع الضلالة منهم: هو أنه تعالى جعل للعبد تأثراً وتيسراً للهداية وغيرها من الأفعال الكسبية. حتى صارت الأفعال الصادرة منه مناط التكليف؛ لأنها اختيارية يفرق بالضرورة بينها وبين العوارض القسرية؛ فهذه الآية أقامت الحجة، ووضحت لمن اصطفاها الله للمعتقدات الصحيحة المحجة؛ ولما كانت تفرقة دقيقة لم تنتظم في سلك الأنهام الكثيفة؛ فلا جرم أن أفهامهم تبددت، وأفكارهم تبدلت؛ فغلّت طائفة القدرة واعتقدت أن العبد فعال لما يريد على خلاف مشيئة ربه، وجارت الجبرية فاعتقدت أن لا قدرة للعبد البتة ولا اختيار، وأن جميع الأفعال صادرة منه على سبيل الاضطرار. أما أهل الحق فمنحهم الله من هدايته قسطاً، وأرشدتهم إلى الطريق الوسطى؛ فانتهجوا سبل السلام، وساروا ورائد التوفيق لهم إمام، مستضيئين بأنوار العقول المرشدة إلى أن جميع الكائنات بقدره الله تعالى ومشيئته، ولم يغب عن أفهامهم أن يكون بعض الأفعال للعبد مقدورة؛ لما وجدوه من التفرقة بين الاختيارية والقسرية بالضرورة، لكنها قدرة تقارن بلا تأثير، وتميز بين الضروري والاختياري في التصوير، فهذا هو التحقيق، والله ولي التوفيق.

(١) قوله: «واربد وجهه غيظاً» تغير إلى الغبرة من الغضب. أفاده الصحاح. (ع)

(٢) ما لأبي حمزة لا يأتينا؟ يظل في البيت الذي يلينا

غضبان أن لا نلد البنينا ليس لنا من أمرنا ما شينا

وإنما نأخذ ما أعطينا حكمة ربي ذي الجلال فينا

لامرأة ولدت أنثى فهجر زوجها بيتها، والاستفهام إنكاري. ويظل: استئناف، أي يصير دائماً في =

والظلول بمعنى الصيرورة، كما يستعمل أكثر الأفعال الناقصة بمعناها. وقرئ: «مسودّ ومسوادة» على أن في ﴿ظَلَّ﴾ ضمير المبشر، و﴿وَجْهَهُ مُسَوَّدًا﴾ جملة واقعة موقع الخبر، ثم قال: أو يجعل للرحمن من الولد من هذه الصفة المذمومة صفته. وهو أنه ﴿يُنْشَأُ فِي الْحِلْيَةِ﴾ أي: يتربى في الزينة والنعمة، وهو إذا احتاج إلى مجاثاة الخصوم^(١) ومجاراة الرجال، كان غير مبين، ليس عنده بيان، ولا يأتي ببرهان يحتاج به من يخاصمه^(٢) وذلك لضعف عقول النساء ونقصانهنّ عن فطرة الرجال، يقال: فلما تكلمت امرأة فأرادت أن تتكلم بحجتها إلا تكلمت بالحجة عليها. وفيه: أنه جعل النشء في الزينة والنعومة من المعاييب والمذام، وأنه من صفة ربات الحجال، فعلى الرجل أن يجتنب ذلك ويأنف منه، ويربأ بنفسه عنه، ويعيش كما قال عمر رضي الله عنه: اخشوشنوا واخشوشبوا وتمعددوا (١٣٩٠). وإن أراد أن يزين نفسه زينها من باطن بلباس التقوى. وقرئ: «ينشأ»، وينشأ، وينشأ. ونظير المناشأة بمعنى الإنشاء: المغالاة بمعنى الإغلاء.

﴿وَجَعَلُوا الْمَلَائِكَةَ الَّذِينَ هُمْ عِبْدُ الرَّحْمَنِ إِنِئَاءً أَشْهَدُوا خَلَقَهُمْ سَتَكُنَّ شُهَدَائِهِمْ
وَيُسْأَلُونَ﴾

قد جمعوا في كفرة ثلاث كفرات؛ وذلك أنهم نسبوا إلى الله الولد، ونسبوا إليه أخس النوعين؛ وجعلوه من الملائكة الذين هم أكرم عباد الله على الله^(٣)، فاستخفوا بهم

١٣٩٠ - أخرجه ابن حبان في صحيحه (٢٦٨/١٢): كتاب اللباس وآدابه: باب ذكر الإباحة للمرء أن يكون مطلق الإزار في الأحوال، حديث (٥٤٥٤) وذكره الزيلعي في تخريج الكشاف، وزاد نسبه إلى أبو عبد القاسم في غريب الحديث: (٢٥١/٣ - كشاف) قال الحافظ ابن حجر في تخريج الكشاف: أخرجه أبو عبيد في الغريب: حدثنا أبو بكر بن عياش عن عاصم بن أبي العدس الأسدي عن عمر رضي الله عنه أنه قال: ذكر هذا وزاد، واجعلوا الرأس رأسين - الحديث موقوفاً، ورواه ابن حبان من طريق أبي عثمان. قال: أنا كتاب عمر فذكر قصة فيها هذا. انتهى.

= البيت الذي يقرب منا، ولا يأوي إلى بيتنا، وغضبان: أي هو غضبان، فهو على تقدير الاستفهام. ويحتمل أنه إخبار، أي: هو غضبان من عدم ولادتنا البنين، ثم ترضته واستعطفته بقولها: ليس لنا من أمرنا ما نشاء، فخفف همزة شئنا للقفية، ولا نأخذ إلا ما أعطانا الله إياه؛ لأن الأمر كله لله، تلك حكمته فينا معاشر الخلق.

- (١) قوله: «إلى مجاثاة الخصوم» مفاعلة من «جثا يجثو» إذا برك على ركبته. أفاده الصحاح. (ع)
- (٢) قوله: «يحتاج به من يخاصمه» لعله: على من يخاصمه، أو لعله: يحج به من يخاصمه، أي: يغلبه في الحجاج. (ع)
- (٣) قوله: «هم أكرم عباد الله على الله» هذا عند المعتزلة. أما أهل السنة فبعض البشر أكرم عندهم من الملك. (ع)

واحترقوهم. وقرئ: «عباد الرحمن» وعبيد الرحمن، وعبد الرحمن، وهو مثل لزلفاهم واختصاصهم. وإنثاء، وأنثا: جمع الجمع. ومعنى جعلوا: سموا وقالوا: إنهم إنثا. وقرئ: «أشهدوا» وأشهدوا، بهمزتين مفتوحة ومضمومة. وأشهدوا بألف بينهما، وهذا تهكم بهم/ ١٦٧/٢ ب، بمعنى أنهم يقولون ذلك من غير أن يستند قولهم إلى علم، فإن الله لم يضطرهم إلى علم ذلك، ولا تطرّقا إليه باستدلال، ولا أحاطوا به عن خبر يوجب العلم، فلم يبق إلا أن يشاهدوا خلقهم، فأخبروا عن هذه المشاهدة. ﴿سَكَتَ شَهَدَتُهُمْ﴾ التي شهدوا بها على الملائكة من أنوثتهم، ﴿وَيُسْأَلُونَ﴾ وهذا وعيد. وقرئ: «سيكتب» وسكتب: بالياء والنون. وشهادتهم، وشهاداتهم. ويساءلون على: يفاعلون.

﴿وَقَالُوا لَوْ شَاءَ الرَّحْمَنُ مَا عَبَدْنَاهُمْ مَّا لَهُمْ بِذَلِكَ مِنْ عِلْمٍ إِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ﴾ (٢٠)

﴿وَقَالُوا لَوْ شَاءَ الرَّحْمَنُ مَا عَبَدْنَاهُمْ﴾ هما كفرتان أيضًا مضمومتان إلى الكفرات الثلاث، وهما: عبادتهم الملائكة من دون الله، وزعمهم أن عبادتهم بمشيئة الله، كما يقول إخوانهم المجبرة^(١)، فإن قلت: ما أنكرت على من يقول: قالوا ذلك على وجه الاستهزاء، ولو قالوه جادين لكانوا مؤمنين؟ قلت: لا دليل على أنهم قالوه مستهزين، وادعاء ما لا دليل عليه باطل، على أن الله تعالى قد حكى عنهم ذلك على سبيل الذم والشهادة بالكفر: أنهم جعلوا له من عباده جزءا، وأنه اتخذ بنات وأصفاهم بالبنين، وأنهم جعلوا الملائكة المكرمين إنثاء. وأنهم عبدوهم وقالوا: لو شاء الرحمن ما عبدناهم، فلو كانوا ناطقين بها على طريق الهزء: لكان النطق بالمحكيات^(٢) - قبل هذا المحكى الذي هو إيمان عنده لو جدوا في النطق به - مدحا لهم، من قبل أنها كلمات كفر نطقوا بها على طريق الهزء؛ فبقي أن يكونوا جادين، وتشترك كلها في أنها كلمات كفر، فإن قالوا: نجعل هذا الأخير وحده مقولا على وجه الهزء دون ما قبله، فما بهم إلا تعويج كتاب الله الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه؛ لتسوية مذهبهم الباطل. ولو كانت هذه كلمة حق نطقوا بها هزءا

(١) قوله: «المجبرة» يريد أهل السنة، حيث قالوا: إنه تعالى يريد الشر كالخير؛ لأنه لا يقع في ملكه إلا ما يريد، لكن هذا لا يستلزم الجبر ولا ينافي اختيار العبد؛ لما له في أفعاله من الكسب وإن كانت مخلوقة له تعالى في الحقيقة، بل الجبر إنما يكون لو كان العباد لا دخل له في أفعاله أصلا، كالريشة في الهواء، كما قالت المجبرة الحقيقية. وإنما ذم الله تلك المقالة من الكفار؛ لأنهم قالوها استهزاء وعنادا، لا إقرارا واعتقادا، والدليل على ذلك إجماع سلف الأمة على أنه ما شاء الله كان وما لم يشأ لم يكن. (ع).

(٢) قوله: «لكان النطق بالمحكيات... الخ» ممنوع، وكذا ما بعده، والمعتزلة قالوا: لا يريد الشر بناء على أن الإرادة هي الأمر، وهو ممنوع، وعفا الله عن صاحب الكتاب في بذاء لسانه على أهل السنة، وجعلهم إخوان الكفار. (ع)

لم يكن لقوله تعالى: ﴿مَا لَهُمْ بِذَلِكَ مِنْ عِلْمٍ إِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ﴾ معنى، لأن من قال: لا إله إلا الله على طريق الهزاء: كان الواجب أن ينكر عليه استهزاؤه ولا يكذب؛ لأنه لا يجوز تكذيب الناطق بالحق جاداً كان أو هازئاً. فإن قلت: ما قولك فيمن يفسر ما لهم - بقولهم^(١): إن الملائكة بنات الله - من علم إن هم إلا يخرصون في ذلك القول لا في تعليق عبادتهم بمشيئة الله؟ قلت: تمحل مبطل وتحريف مكابر. ونحوه قوله تعالى: ﴿سَيَقُولُ الَّذِينَ أَشْرَكُوا لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكْنَا وَلَا آبَاؤُنَا وَلَا حَرَمًا مِنْ شَيْءٍ كَذَلِكَ كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ﴾ [الأنعام: ١٤٨].

﴿أَمْ أَلْيَسَ لَهُمْ كِتَابًا مِنْ قَبْلِهِ فَهُمْ بِهِ مُسْتَمْسِكُونَ﴾ (١١) بَلْ قَالُوا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَى أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَى آثَرِهِمْ مُهُتَدُونَ ﴿١٢﴾

الضمير في ﴿مِنْ قَبْلِهِ﴾ للقرآن أو الرسول. والمعنى: أنهم ألصقوا عبادة غير الله بمشيئة الله: قولاً قالوه غير مستند إلى علم، ثم قال: أم آتيناكم كتاباً قبل هذا الكتاب نسبنا فيه الكفر والقبائح إلينا، فحصل لهم علم بذلك من جهة الوحي، فاستمسكوا بذلك الكتاب واحتجوا به. بل لا حجة لهم يستمسكون بها إلا قولهم: ﴿إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَى أُمَّةٍ﴾ على دين. وقرئ: «على إمة» بالكسر، وكلتاها من الأم وهو القصد، فالأمة: الطريقة التي تؤم، أي: تقصد، كالرحلة للمرحول إليه. والأمة: الحالة التي يكون عليها الأم وهو القاصد. وقيل: على نعمة وحالة حسنة. ﴿عَلَى آثَرِهِمْ مُهُتَدُونَ﴾ خبر «إن». أو الظرف صلة لمهتدون.

﴿وكَذَلِكَ مَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ فِي قَرِيَةٍ مِنْ نَذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَى أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَى آثَرِهِمْ مُقْتَدُونَ﴾ (٢٣)

﴿مُتْرَفُوهَا﴾ الذين أترفهم النعمة، أي أبطرتهم فلا يحبون إلا الشهوات والملاهي، ويعافون مشاق الدين وتكاليفه.

﴿فَلَوْلَوْ جِئْتُكُمْ بِأَهْدَىٰ مِمَّا وَجَدْتُمْ عَلَيْهِ آبَاءَكُمْ قَالُوا إِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ كَافِرُونَ﴾ (٢٤) فَأَنقَضْنَا مِنْهُمْ فَاظُنُّوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكْذِبِينَ ﴿٢٥﴾

قرئ: «قل» وقال: وجئتكم، وجئناكم، يعني، أتبعون آباءكم ولو جئتكم بدين أهدى

(١) قوله: «ما قولك فيمن يفسر ما لهم بقولهم؟» لعله: «يفسر ما لهم بذلك بقوله ما لهم بقولهم... الخ». (ع)

من دين آبائكم؟ قالوا: إنا ثابتون على دين آبائنا لا ننفك عنه، وإن جئتنا بما هو أهدى وأهدى.

﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ إِنَّنِي بَرَاءٌ مِمَّا تَعْبُدُونَ ﴿٢٦﴾ إِلَّا الَّذِي فَطَرَنِي فَإِنَّهُ سَيَهْدِينِ ﴿٢٧﴾ وَجَعَلَهَا كَلِمَةً بَاقِيَةً فِي عَقْبِهِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٢٨﴾﴾

قري: «براء» بفتح الباء وضمها. وبريء، فبريء وبراء، نحو كريم وكرام^(١)؛ وبراء: مصدر كظماء؛ ولذلك استوى فيه الواحد والاثنان والجماعة، والمذكر والمؤنث. يقال: نحن البراء منك، والخلاء منك. ﴿الَّذِي فَطَرَنِي﴾ فيه غير وجه: أن يكون منصوباً على أنه استثناء منقطع، كأنه قال: لكن الذي فطرني فإنه سيهدين، وأن يكون مجروراً بدلاً من المجرور بمن؛ كأنه قال: إني براء مما تعبدون إلا من الذي فطرني^(٢). فإن قلت: كيف تجعله بدلاً وليس من جنس ما يعبدون من وجهين؛ أحدهما: أن ذات الله مخالفة لجميع الذوات، فكانت مخالفة لذوات ما يعبدون. والثاني، أن الله تعالى غير معبود بينهم والأوثان معبودة؟ قلت: قالوا: كانوا يعبدون الله مع أوثانهم، وأن تكون ﴿إِلَّا﴾ صفة بمعنى غير، على أن ﴿مَا﴾ في ما تعبدون موصوفة^(٣). تقديره: إني براء من آلهة تعبدونها غير الذي فطرني، فهو نظير قوله تعالى: ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا﴾ [الأنبياء: ٢٢]. فإن قلت: ما معنى قوله: ﴿سَيَهْدِينِ﴾ على التسويف؟ قلت: قال مرة: ﴿فهو يهدين﴾ [الشعراء: ١٧٨/٢/١٦٨] ومرة ﴿فَإِنَّهُ سَيَهْدِينِ﴾ فاجمع بينهما وقدّر، كأنه قال. فهو يهدين وسيهدين، فيدلان على استمرار الهداية في الحال والاستقبال. ﴿وَجَعَلَهَا﴾ وجعل إبراهيم صلوات الله عليه كلمة التوحيد التي تكلم بها وهي قوله: ﴿إِنِّي بَرَاءٌ مِمَّا تَعْبُدُونَ إِلَّا الَّذِي فَطَرَنِي﴾ ﴿كَلِمَةً بَاقِيَةً فِي عَقْبِهِ﴾ في ذريته، فلا يزال فيهم من يوحد الله ويدعو إلى توحيده، لعل من أشرك منهم يرجع بدعاء من وحد منهم. ونحوه ﴿وَوَصَّي بِهَا إِبْرَاهِيمَ بَنِيهِ﴾

(١) قوله: «نحو كريم وكرام» في الصحاح: الكرام - بالضم - مثل الكريم. (ع)

(٢) قال السمين الحلبي: ورده الشيخ بأنه لا يجوز إلا في نفي أو شبهة قال: وَعَزَّهُ كَوْنُ بَرَاءٍ فِي مَعْنَى النَّفْيِ وَلَا يَنْفَعُهُ ذَلِكَ لِأَنَّهُ مُوجِبٌ: قَدْ تَأَوَّلَ النُّحَاةُ ذَلِكَ فِي مَوَاضِعَ مِنَ الْقُرْآنِ كَقَوْلِهِ: ﴿يَأْتِي اللَّهُ إِلَّا أَنْ يَتِمَّ نُورُهُ﴾ ﴿وَلَا تَأْتِي لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى الْفَاسِقِينَ﴾ والاستثناء المُفْرَغُ لا يكون في إيجاب، ولكن لَمَّا كَانَ يَأْتِي بِمَعْنَى لَا تَفْعَلْ وَإِنهَا لَكَبِيرَةٌ بِمَعْنَى لَا تَسْهَلْ وَلَا تَخَفْ سَاعَ ذَلِكَ، فهذا مثله. انتهى. الدر المصون.

(٣) قال السمين الحلبي: قال الشيخ: وَإِنَّمَا أَخْرَجَهَا فِي هَذَا الْوَجْهِ عَنْ كَوْنِهَا مُوَصُولَةً؛ لِأَنَّهُ يَرَى أَنَّ «إِلَّا» بِمَعْنَى غَيْرٍ لَا يُوَصَّفُ بِهَا إِلَّا النُّكْرَةُ، وَفِيهَا خِلَافٌ لَعَلَى هَذَا يَجُوزُ أَنْ تَكُونَ «مَا» مُوَصُولَةً وَإِلَّا بِمَعْنَى غَيْرِ صِفَةٍ لَهَا. انتهى. الدر المصون.

[البقرة: ١٣٢] وقيل: وجعلها الله. وقرئ: «كلمة» على التخفيف وفي عقبه كذلك، وفي عاقبه، أي: فيمن عقبه، أي: خلفه.

﴿بَلْ مَتَّعْتُ هَؤُلَاءَ وَآبَاءَهُمْ حَتَّىٰ جَاءَهُمُ الْحَقُّ وَرَسُولٌ مُّبِينٌ﴾ (٢٩)

﴿بَلْ مَتَّعْتُ هَؤُلَاءَ﴾ يعني: أهل مكة، وهم من عقب إبراهيم بالمد في العمر والنعمة، فاعتروا بالمهلة، وشغلوا بالتنعم واتباع الشهوات وطاعة الشيطان عن كلمة التوحيد؛ ﴿حَتَّىٰ جَاءَهُمُ الْحَقُّ﴾ وهو القرآن ﴿وَرَسُولٌ مُّبِينٌ﴾ الرسالة واضحا بما معه من الآيات البينة، فكذبوا به وسموه ساحرًا وما جاء به سحرًا ولم يوجد منهم ما رجاه إبراهيم. وقرئ «بل متعنا» فإن قلت: فما وجه قراءة من قرأ «متعنت» بفتح التاء؟ قلت: كأن الله تعالى اعترض على ذاته في قوله: ﴿وَجَعَلَهَا كَلِمَةً بَاقِيَةً فِي عَقْبِهِ. لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ [الزخرف: ٢٨] فقال: بل متعتهم بما متعتهم به من طول العمر والسعة في الرزق، حتى شغلهم ذلك عن كلمة التوحيد. وأراد بذلك الإطناب في تعييرهم؛ لأنه إذا متعتهم بزيادة النعم وجب عليهم أن يجعلوا ذلك سببًا في زيادة الشكر والثبات على التوحيد والإيمان، لا أن يشركوا به ويجعلوا له أندادًا، فمثاله أن يشكو الرجل إساءة من أحسن إليه، ثم يقبل على نفسه فيقول: أنت السبب في ذلك بمعرفتك وإحسانك، وغرضه بهذا الكلام توبيخ المسيء لا تقييح فعله.

﴿وَلَمَّا جَاءَهُمُ الْحَقُّ قَالُوا هَذَا سِحْرٌ وَإِنَّا بِهِ كَافِرُونَ﴾ (٣٠) وَقَالُوا لَوْلَا نَزَلَ هَذَا الْقُرْآنُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ﴾ (٣١)

فإن قلت: قد جعل مجيء الحق والرسول غاية التمتع، ثم أردفه^(١) قوله: ﴿وَلَمَّا جَاءَهُمُ الْحَقُّ قَالُوا هَذَا سِحْرٌ﴾ فما طريقة هذا النظم ومؤداه؟ قلت: المراد بالتمتع ما هو سبب له، وهو اشتغالهم بالاستمتاع عن التوحيد ومقتضياته، فقال: بل اشتغلوا عن التوحيد حتى جاءهم الحق ورسول مبين، فخيّل بهذه الغاية أنهم تنبهوا عندها عن غفلتهم لاقتضائها

(١) قال محمود: «فإن قلت: قد جعل مجيء الحق والرسول غاية التمتع، ثم أردفه... الخ» قال أحمد: كلام نفيس لا مزيد عليه، إلا أن قوله: «خيّل بهذه الغاية أنهم تنبهوا عندها» إطلاق ينبغي اجتنابه، والله أعلم، وما أحسن مجيء الغاية على هذا النحو مجيء الإضراب في بعض التارات، فكما جاءت الغاية هنا - وليس المراد بها أن الفعل المذكور قبلها منقطع عندها على ما هو المفهوم منها، بل المراد استمراره وزيادته، فكان تلك الحالة النافعة انتهت بوجود ما هو أكمل منها - كذلك الإضراب في مثل قوله تعالى: (بل إدارك علمهم في الآخرة بل هم في شك منها بل هم عمون) وهذه الإضرابات ليست على معنى أن الثاني منها رد للأول، بل ثانيها أكد من أولها، وجاء الإضراب مع التوافق والزيادة للإشعار بأن الثاني لما زاد على الأول صار باعتبار زيادته ونقصان الأول كأنهما شيان متفايان يضرب عن أولهما ويثبت آخرهما، ومثله كثير، وبالله التوفيق.

التنبه، ثم ابتدأ قصتهم عند مجيء الحق فقال: ولما جاءهم الحق جاءوا بما هو شر من غفلتهم التي كانوا عليها: وهو أن ضموا إلى شركهم معاندة الحق، ومكابرة الرسول، ومعاداته، والاستخفاف بكتاب الله وشرائعه، والإصرار على أفعال الكفرة والاحتكام على حكمة الله في تخيير محمد من أهل زمانه بقولهم: ﴿تَوَلَّاهُ هَذَا الْقُرْآنُ عَلَى رَجُلٍ مِّنَ الْقُرَيْتِ عَظِيمٍ﴾ وهي الغاية في تشويه صورة أمرهم، قرئ: «على رجل» بسكون الجيم من القريتين: من إحدى القريتين، كقوله تعالى: ﴿يَخْرُجُ مِنْهُمَا اللَّؤْلُؤُ وَالْمَرْجَاتُ﴾ [الرحمن: ٢٢] أي من أحدهما. والقريتان: مكة والطائف. وقيل: من رجلي القريتين، وهما: الوليد بن المغيرة المخزومي وحبيب بن عمرو بن عمير الثقفي، عن ابن عباس. وعن مجاهد: عتبة بن ربيعة وكنانة بن عبد اليل. وعن قتادة: الوليد بن المغيرة وعروة بن مسعود الثقفي، وكان الوليد يقول: لو كان حقاً ما يقول محمد لنزل هذا القرآن عليّ أو على أبي مسعود الثقفي، وأبو مسعود: كنية عروة بن مسعود ما زالوا ينكرون أن يبعث الله بشراً رسولاً، فلما علموا بتكرير الله الحجج أن الرسل لم يكونوا إلا رجالاً من أهل القرى، جاءوا بالإنكار من وجه آخر، وهو تحكمهم أن يكون أحد هذين، وقولهم: هذا القرآن ذكر له على وجه الاستهانة به، وأرادوا بعظم الرجل: رياسته وتقدمه في الدنيا، وعزب عن عقولهم أن العظيم من كان عند الله عظيماً.

﴿أَمْرٌ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ نَحْنُ قَسَمًا بَيْنَهُمْ مَعِيشَتُهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِّيَتَّخِذَ بَعْضُهُم بَعْضًا سُلْحَارًا وَرَحْمَتُ رَبِّكَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ﴾ (٣٢)

﴿أَمْرٌ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ﴾ هذه الهمزة للإنكار المستقل بالتجهيل والتعجيب من اعتراضهم وتحكمهم، وأن يكونوا هم المدبرين لأمر النبوة والتخير لها من يصلح لها ويقوم بها، والمتولين لقسمة رحمة الله التي لا يتولاها إلا هو بباهر قدرته وبالغ حكمته، ثم ضرب لهم مثلاً فأعلم أنهم عاجزون عن تدبير خويصة أمرهم وما يصلحهم في دنياهم، وأن الله عز وعلا هو الذي قسم بينهم معيشتهم وقدرها ودبر أحوالهم تدبير العالم بها، فلم يسو بينهم، ولكن فاوت بينهم في أسباب العيش، وغاير بين منازلهم فجعل منهم أقوياء وضعفاء وأغنياء ومحاويج وموالي وخدماء؛ ليصرف بعضهم بعضاً في حوائجهم ويستخدموهم في مهنهم ويتسخروهم في أشغالهم، حتى يتعاشوا ويتراقدوا ويصلوا إلى منافعهم ويحصلوا على مرافقهم؛ ولو وكلهم إلى أنفسهم وولاهم تدبير أمرهم لضاعوا وهلكوا. وإذا كانوا في تدبير أمر المعيشة الدنية في الحياة الدنيا على هذه الصفة، فما ظنك بهم في تدبير أمور الدين الذي هو رحمة الله/٢/١٦٨ ب الكبرى ورافته العظمى؟ وهو الطريق إلى حيازة حظوظ الآخرة، والسلم إلى حلول دار السلام؟ ثم قال: ﴿وَرَحْمَتُ

رَبِّكَ ﴿ يريد: وهذه الرحمة وهي دين الله وما يتبعه من الفوز في المآب: خير مما يجمع هؤلاء من حطام الدنيا. فإن قلت: معيشتهم ما يعيشون به من المنافع ^(١)، ومنهم من يعيش بالحلال، ومنهم من يعيش بالحرام؛ فأذن قد قسم الله تعالى الحرام كما قسم الحلال. قلت: الله تعالى قسم لكل عبد معيسته وهي مطاعمه ومشاربه وما يصلحه من المنافع وأذن له في تناولها، ولكن شرط عليه وكلفه أن يسلك في تناولها الطريق التي شرعها؛ فإذا سلكها فقد تناول قسمته من المعيشة حلالاً، وسماها رزق الله؛ وإذا لم يسلكها تناولها حراماً، وليس له أن يسميها رزق الله ^(٢)؛ فالله تعالى قاسم المعاش والمنافع، ولكن العباد هم الذين يكسبونها صفة الحرمة بسوء تناولهم، وهو عدولهم فيه عما شرعه الله إلى ما لم يشرعه.

﴿وَلَوْلَا أَن يَكُونَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً لَّجَعَلْنَا لِمَن يَكْفُرُ بِالرَّحْمَنِ لِبُيُوتِهِمْ سُقْفًا مِّن فِصْفَةٍ وَمَعَارِجَ عَلَيْهَا يَظْهَرُونَ﴾ ^(٣٢) وَلِبُيُوتِهِمْ أَبْوَابًا وَسُرَرًا عَلَيْهَا يَتَكَبَّرُونَ ^(٣٤) وَزُخْرَفًا وَإِنْ كُلُّ ذَٰلِكَ لَمَّا مَتَّعَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةُ عِنْدَ رَبِّكَ لِلْمُتَّقِينَ ^(٣٥) ﴿

﴿لِبُيُوتِهِمْ﴾ بدل اشتغال من قوله: ﴿لِمَن يَكْفُرُ﴾ ويجوز أن يكونا بمنزلة اللامين في قولك: وهبت له ثوباً قميصه ^(٣). وقرئ: «سُقْفًا» بفتح السين وسكون القاف. وبضمها وسكون القاف وبضمها: جمع سقف، كرهن ورهن ورهن. وعن الفراء: جمع سقيفة وسُقْفًا بفتحيتين، كأنه لغة في سقف وسقوفًا، ومعارج ومعاريج. والمعارج: جمع معرج، أو اسم جمع لمعراج: وهي المصاعد إلى العلالي. ﴿عَلَيْهَا يَظْهَرُونَ﴾ أي على المعارج، يظهرون السطوح يعلونها، فما استطاعوا أن يظهروه. وسُرَرًا، بفتح الراء لاستثقال الضميتين مع حرفي التضعيف. ﴿لَمَّا مَتَّعَ الْحَيَاةَ﴾ اللام هي الفارقة بين إن المحففة والنافية. وقرئ بكسر اللام، أي: للذي هو متاع الحياة، كقوله تعالى: ﴿مَثَلًا مَّا بَعُوضَةٌ﴾ [البقرة: ٢٦] ولما بالتشديد بمعنى إلا، وإن نافية. وقرئ: «إلا» وقرئ: وما كل ذلك إلا. لما قال:

(١) قال محمود: «فإن قلت: معيشتهم ما يعيشون به من المنافع... الخ» قال أحمد: قد تقدم أن الرزق عند أهل السنة يطلق على ما يقوم الله به حال العبد حلالاً كان أو حراماً، وهذه الآية معضدة، والزمخشري بني على أصله، وقد تقدم.

(٢) قوله: «وليس له أن يسميها رزق الله» هذا على مذهب المعتزلة. وأما عند أهل السنة فالرزق ما يتفجع به ولو حراماً. والمصنف يريد: أن الله لا ييسر الحرام؛ لأنه لا يفعل القبيح عند المعتزلة. ومذهب أهل السنة أن فاعل الكائنات كلها هو الله تعالى. (ع)

(٣) قال السمين الحلبي: قال الشيخ: ولا أدري ما أراد بقوله، قلت: أراد بذلك أن اللامين للعلة، أي: كانت الهبة لأجلك لأجل قميصك، فلقميصك بدل اشتغال بإعادة العامل بعينه، وقد نقل أن قوله: «وهبنا له إسحاق» أنها للعلة. انتهى. الدر المصون.

﴿خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ﴾ [الزخرف: ٣٢] فقلل أمر الدنيا وصغرها: أردفه بما يقرّر قلة الدنيا عنده من قوله: ﴿وَلَوْلَا أَنْ يَكُونَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً﴾ أي: ولولا كراهة أن يجتمعوا على الكفر ويطبقوا عليه، لجعلنا لحقارة زهرة الحياة الدنيا^(١) عندنا للكفار سقوفًا ومساعد وأبوابًا وسررًا كلها من فضة وزخرف، وجعلنا لهم زخرفًا، أي: زينة من كل شيء. والزخرف: الزينة والذهب. ويجوز أن يكون الأصل: سقفًا من فضة وزخرف، يعني: بعضها من فضة وبعضها من ذهب، فنصب عطفًا على محل ﴿مِنْ فَضَّةٍ﴾ وفي معناه قول رسول الله ﷺ: «لو وزنت الدنيا عند الله جناح بعوضة ما سقى الكافر منها شربة ماء» (١٣٩١) فإن قلت: فحين لم يوسع على الكافرين للفتنة التي كان يؤدى إليها التوسعة

١٣٩١ - أخرجه الترمذي (٥٦٠/٤) كتاب الزهد باب ما جاء في هوان الدنيا على الله عز وجل حديث (٢٣٢٠)، والطبراني في «الكبير» (٥٩٢١)، وأبو نعيم في «حلية الأولياء» (٢٥٣/٣) وابن عدي في «الكامل» (١٩٥٦/٥)، والعقيلي في «الضعفاء» (٤٦/٣)، والخطيب في «تاريخه» (٩٢/٤) والقضاعي في «مسند الشهاب» (١٤٣٩) من طريق عبد الحميد بن سليمان عن أبي حازم عن سهل ابن سعد الساعدي به.

وقال الترمذي: حسن صحيح غريب من هذا الوجه، وقد توبع عبد الحميد، تابعه أبو يحيى زكريا ابن منظور.

أخرجه ابن ماجه (١٣٧٦/٢ - ١٣٧٧) كتاب الزهد: باب مثل الدنيا حديث (٤١١٠)، والحاكم (٣٠٦/٤)، وابن أبي عاصم في الزهد (١٢٨) من طريق زكريا بن منظور عن أبي حازم به وقال الحاكم: صحيح الإسناد.

وتعقبه الذهبي فقال: زكريا بن منظور ضعفوه. وفي «الزوائد» في إسناده زكريا بن منظور وهو ضعيف.

وللحديث شواهد من حديث ابن عمر أخرجه القضاعي في «مسند الشهاب» (١٤٤٠) ومن حديث ابن عباس.

أخرجه أبو نعيم في الحلية (٣٠٤/٣).

وقال الحافظ ابن حجر في تخريج الكشاف: فيه عبد الحميد بن سليمان وتابعه زكريا بن منظور، وقال الترمذي: وفي الباب عن أبي هريرة. وحديثه عند البزار من حديث صالح مولى التوأمة عنه، =

(١) قال محمود: «معناه: لولا كراهية أن يجتمعوا على الكفر لجعلنا للكفرة سقوفًا من فضة، أي: لوسعنا عليهم الدنيا لحقارتها عندنا» قال أحمد: «لولا» هنا أخت «لولا» في قوله: (ولولا أن تصيبهم مصيبة بما قدمت أيديهم... الآية) فلك أن تصحح الكلام بتقدير كراهة ذلك بأن لا تقدر محذوفًا كما قدمته، فيكون وجه الكلام ههنا أن إجماعهم على الكفر مانع من بسط الدنيا. وهذا هو معنى لولا المطرد أن ما بعدها أبدًا مانع من جوابها، ولكن قد يكون المانع موجبًا تحقيقًا فيمتنع الجواب بلا إشكال، كقوله تعالى: (ولولا فضل الله عليكم ورحمته لكنتم من الخاسرين) وهو الأكثر. وقد يكون وجوده تقديرًا معه على ذلك الآية، أي: لو وجد بسط الدنيا للكافر مقدّرًا لوجد مانعه عندنا وهو الاجتماع على الكفر مقدّرًا معه، وكل ما أدى وجوده إلى وجود مانعه لا يوجد.

عليهم من إطباق الناس على الكفر لحبهم الدنيا وتهالكهم عليها، فهلا وسع على المسلمين ليطبق الناس على الإسلام؟ قلت: التوسعة عليهم مفسدة أيضًا لما تؤدي إليه من الدخول في الإسلام لأجل الدنيا، والدخول في الدين لأجل الدنيا من دين المنافقين^(١)، فكانت الحكمة فيما دبر، حيث جعل في الفريقين أغنياء وفقراء، وغلب الفقر على الغنى.

﴿وَمَنْ يَعِشْ عَنْ ذِكْرِ الرَّحْمَنِ نُفَيْضَ لَهُ شَيْطَانًا فَهُوَ لَهُ قَرِينٌ ﴿٣٦﴾ وَإِنَّهُمْ لَيَصُدُّونَهُمْ عَنِ السَّبِيلِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ مُهُتَدُونَ ﴿٣٧﴾ حَتَّىٰ إِذَا جَاءَنَا قَالَ يَلَيْتَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ بَعْدَ الْمَشْرِقَيْنِ فَيَنْسُ الْفَرِيقَ ﴿٣٨﴾ وَلَنْ يَنْفَعَكُمْ الْيَوْمَ إِذْ ظَلَمْتُمْ أَنْتُمْ فِي الْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ ﴿٣٩﴾﴾

قري: «ومن يعش» بضم الشين وفتحها. والفرق بينهما أنه إذا حصلت الآفة في بصره قيل: عشى. وإذا نظر نظر العشي ولا آفة به قيل عشا. ونظيره: عرج، لمن به الآفة^(٢). وعرج، لمن مشى مشية العرجان من غير عرج. قال الحطيئة [من الطويل]:

ولفظه: «ما أعطي كافراً منها شيئاً» ورواه البيهقي في انشعب في الحادي والسبعين من رواية أبي معشر عن المقبري عنه وفي الباب عن ابن عباس، أخرجه أبو نعيم في الحلية، وفيه الحسن بن عمارة وهو ضعيف جداً، وأخرجه القضاعي في مسند الشهاب من رواية مالك عن نافع عن ابن عمر، بلفظ المصنف قال ابن طاهر: فيه علي بن محمد بن أحمد بن أبي عوف عن أبي مصعب عنه، لا أصل له من حديث مالك. انتهى.

(١) قال محمود: «فحين لم يوسع على الكافرين للفتنة التي كان يؤدي إليها التوسعة من الإطباق على الكفر، فهلا وسع على المسلمين ليطبق الناس على الإيمان؟ وأجاب بأن التوسعة عليهم مفسدة أيضًا لما تؤدي إليه من الدخول في الإسلام لأجل الدنيا، وذلك من دين المنافقين» قال أحمد: سؤال وجواب مبنيان على قاعدتين فاسدتين، إحداهما: تعليل أفعال الله تعالى، والأخرى: أن الله تعالى أراد الإسلام من الخلق أجمعين. أما الأولى فقد أخرس الله السائل عنها بقوله: (لا يسأل عما يفعل وهم يسألون) وأما الثانية فقد كفى الله المؤمنين الجواب عنه فيه بقوله: (ولو شاء ربك لآمن من في الأرض كلهم جميعاً).

(٢) قال محمود: «يقال: عشي بصره بكسر الشين إذا أصابته الآفة...» قال أحمد: في هذه الآية نكتتان بديعتان، إحداهما: الدلالة على أن النكرة الواقعة في سياق الشرط تفيد العموم، وهي مسألة اضطرب فيها الأصوليون، وإمام الحرمين من القائلين بإفادتها العموم، حتى استدرك على الأئمة إطلاقهم القول بأن النكرة في سياق الإثبات تخص، وقال: إن الشرط يعم، والنكرة في سياقه تعم. وقد رد عليه الفقيه أبو الحسن علي الأنباري شارح كتابه ردًا عنيًا. وفي هذه الآية للإمام ومن قال بقوله كفاية؛ وذلك أن الشيطان ذكر فيها منكراً في سياق شرط، ونحن نعلم أنه إنما أراد عموم الشياطين لا واحداً لوجهين، أحدهما: أنه قد ثبت أن لكل أحد شيطاناً، فكيف بالعاشي عن ذكر الله. والآخر: يؤخذ من الآية، وهو أنه أعاد عليه الضمير مجموعاً في قوله: (وانهم) فإنه عائد إلى =

مَتَى تَأْتِيهِ تَعَشُّوْهُ إِلَى ضَوْءِ نَارِهِ (١)

أي: تنتظر إليها نظر العشي لما يضعف بصرك من عظم الوقود واتساع الضوء. وهو بَيِّن في قول حاتم [من الكامل]:

أَعَشُّوْهُ إِذَا مَا جَارَتِي بَرَزَتْ حَتَّى يُوَارِي جَارَتِي الْخِذْرُ (٢)

= الشيطان قولاً واحداً «ولولا إفادته عموم الشمول لما جاز عود ضمير الجمع عليه بلا إشكال، فهذه نكتة تجد عند إسماعيل لمخالفتي هذا الرأي سكتة. النكتة الثانية: أن في هذه الآية رداً على من زعم أن العود على معنى (من) يمنع من العود على لفظها بعد ذلك. واحتج المانع لذلك بأنه إجمال بعد تفسير، وهو خلاف المعهود من الفصاحة. وقد نقض الكندي هذا بقوله تعالى: (ومن يؤمن بالله ويعمل صالحاً يدخله جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها أبداً قد أحسن الله له رزقاً) ونقض غيره بقوله: (ومن الناس من يشتري لهو الحديث ليضل عن سبيل الله بغير علم ويتخذها هزواً أولئك لهم عذاب مهين وإذا تتلى عليه... الآية) وكان جدي رحمه الله قد استخرج من هذه الآية بعض ذلك؛ لأنه أعاد على اللفظ في قوله: (يعش) و(له) مرتين، ثم على المعنى في قوله: (ليصدونهم) ثم على اللفظ بقوله: (حتى إذا جاءنا) وقد قدمت أن الذي منع ذلك قد يكون اقتصر بمنعه على مجيء ذلك في جملة واحدة، وأما إذا تعددت الجمل واستقلت كل بنفسها فقد لا يمنع ذلك حتى رددت على الزمخشري في قوله تعالى: (لا يملكون الشفاعة إلا من اتخذ عند الرحمن عهداً) فإن الجملة واحدة، فانظره في موضعه.

(١)

كسوب ومتلاف إذا ما سألته تهلل واهتز اهتزاز المهند
وذاك امرؤ إن يعطك اليوم نائلاً بكفيه لم يمنحك من نائل الغد
مَتَى تَأْتِيهِ تَعَشُّوْهُ إِلَى ضَوْءِ نَارِهِ تجدد خير نار عندها خير موقد

للحطينة، يقول: هو كثير الكسب وكثير الإتلاف، وبينهما طباق التضاد: إذا سألته أجابك بسرعة وطلاقة وجه وهو المراد بقوله: تهلل واهتز كاهتزاز السيف المطبق من حديد الهند، إذا أعطاك اليوم عطاء بكفيه معاً كناية عن كثرة العطاء، وسألته في غد أعطاك أيضاً. وعشي يعشى كرضي ويرضى: إذا كان يبصره آفة. وعشا يعشو: إذا تعاشى بغير آفة. والمعنى: متى تأتته على هيئة الأعشى - مجاز عن إظهار الفاقة - تجده أكرم الناس، عبر عنه بذلك على طريق الكناية.

ينظر: البيت في ديوانه ص ٥١، وإصلاح المنطق ص ١٩٨، والأعاني ١٦٨/٢، وخزانة الأدب ٧٤/٣، ١٥٦/٧، ٩٢/٩ - ٩٤، وشرح أبيات سيبويه ٦٥/٢، والكتاب ٨٦/٣، ولسان العرب (عشا)، ومجالس ثعلب ص ٤٦٧، والمقاصد النحوية ٤٣٩/٤، وبلا نسية في جمهرة اللغة ص ٨٧١، وخزانة الأدب ٢١٠/٥، وشرح الأشموني ٥٧٩/٣، وشرح ابن عقيل ص ٥٨١، وشرح عمدة الحفاظ ص ٣٦٣، وشرح المفصل لابن يعيش ٦٦/٢، ١٤٨/٤، ٤٥/٧، ٥٣، وما ينصرف وما لا ينصرف ص ٨٨، والمقتضب ٦٥/٢.

(٢)

ناري ونار الجار واحدة وإليه قبلي تنزل القدر
ما ضرني جار أجاوره ألا يكون لبابه ستر
أعشو إذا ما جارتني برزت حتى يوارى جارتني الخدر

لحاتم الطائي: وعشي يعشى كرضي يرضى: صار لا يبصر ليلاً. وعشا يعشو كدعا يدعو: إذا نظر كنظر الأعشى.

وقرى: «يعشو» على أنّ من موصولة غير مضمنة معنى الشرط. وحق هذا القارئ أن يرفع نقيض^(١). ومعنى القراءة بالفتح: ومن يعم ﴿عَنِ الرَّحْمَنِ﴾ وهو القرآن، كقوله تعالى: ﴿صُمُّ بَكْمٌ عُمٌ﴾ [البقرة: ١٨] وأما القراءة بالضم فمعناها: ومن يتعام عن ذكره، أي: يعرف أنه الحق وهو يتجاهل ويتغابي، كقوله تعالى: ﴿يَجْعَلُوا بِهَا وَأَسْقَيْنَهُمْ أَنْفُسَهُمْ﴾ [النمل: ١٤] ﴿فَقِيضَ لَهُ شَيْطَانًا﴾ نخذله^(٢) ونخل بينه وبين الشياطين، كقوله تعالى:

= يقول: إن ناري هي نار جاري، وتنزل قدري إليه ليأكل منها قبلي، أو ناري ونار جاري واحدة في الزمن والقرة ومع ذلك تنزل قدره إليه قبلي ليأكلها سريعاً خوف اطلاع أحد عليه. لكن يبعد هذا أن المقام ليس لدم الجار بل للمدح. ثم هذا كناية عن شدة كرمه على غيره، ثم وصف نفسه بالعفة بقوله: ما ضرني جار من جيراني بمسبة ولا غيرها من أن لا يكون لبابه حجاب يستر أهله، فإني أتغافل وأغض بصري إذا خرجت جارتني، حتى يسترها بيتها. وأتى بالظاهر موضع المضمر ليفيد أنه ينبغي مراعاة حق الجوار. والاحتمال الأول أقعد؛ لأن معناه أنه يبره ويعف عن محارمه. وأما الثاني ففيه ذم جاره. وهو لا يلائم ما بعده.

ينظر: ديوانه (٢٤٥)، أمالي المرتضى (٤٧٤/٢)، البحر المحيط (٤/٨)، الدر المصون (٩٨/٦).
(١) قال السمين الحلبي: قال الشيخ: ولا يتعين موصوليتها بل يُخْرَجُ على وجهين؛ إما تقديرُ حَذَفِ حركة العلة وقد حكاها الأخفش لغة وتقدم منه في سورة يوسف شواهد، وإما على أنه جَزَمَ يَمَنُ الموصولة تشبيهاً لها بِمَنِ الشرطية قال: وإذا كانوا قد جزموا بالذي وليس بِشَرْطٍ فأولى بما استعمل شَرْطاً وغير شرط وأنشد [من الطويل]:

وَلَا تَخْفِرَنَّ بِشَرٍّ تُرِيدُ أَخَا بِهَا فَلِإِنَّكَ فِيهَا أَنْتَ مِنْ دُونِهِ تَفْعُ
كذاك الذي يَبْغِي على الناس ظالماً تُصْنِئُهُ عَلَى رَغَمِ عَوَاقِبِ مَا صَنَعُ

قال: وهو مذهب الكوفيين، وله وجه من القياس وهو أنّ الذي أَشْبَهَتْ اسم الشرط في دخول الفاء في خبرها فَتَشْبِهُ اسم الشرط في الجزم أيضاً إِلَّا أَنَّ دخول الفاء مُنْقَاسٌ بشرطه. وهذا لا ينفاس ويقال: عَشَا يَعْشُو وَعَشِي يَعْشَى فبعضهم جعلهما بمعنى وبعضهم فَرَّقَ بَانَ عَشِي يَعْشَى إِذَا جَعَلْتَ الْآفَةَ مِنْ بصره وأصله الواو وإنما قلبت ياء لانكسار ما قبلها كَرَضِي يَرْضَى وَعَشَا يَعْشُو أي تفاعل. ذلك وَنَظَرَ نَظَرَ الْعَشِي وَلَا آفَةَ ببصره كما قالوا: عَرَجَ لِمَنْ بِهِ آفَةُ الْعَرَجِ وَعَرَجَ لِمَنْ تَعَارَجَ وَمَشَى مِشْيَةَ آلِ عَرْجَانَ قال [من الكامل]:

أَعَشُو إِذَا مَا جَارَتِي بَرَزَتْ حَتَّى يُوَارِي جَارَتِي الْخِذْرُ
أي أَنْظَرَ نَظَرَ الْعَشِي. وقال آخر [من الطويل]:

مَتَى تَأْتَهُ تَعْشُو إِلَى صَوْرِ نَارِهِ تَجِدُ خَيْرَ نَارٍ عِنْدَهَا خَيْرُ مُوقِدٍ

أي تَنْظُرُ نَظَرَ الْعَشِي لضعف بصره من كثرة الوقود، بعضهم بَانَ عَشُوَتْ إِلَى النارِ إِذَا اسْتَدَلَّتْ عَلَيْهَا بنظرٍ ضعيف. وقال الفراء: عَشَا يَعْشِي يَغْرِضُ وَعَشِي عَمِي. إِلَّا أَنَّ ابْنَ قَتِيْبَةَ قال: لم تَرَ أَحَدًا حَكَى عَشُوَتْ عن الشيء أَعْرَضْتُ عنه وإنما يقال: تَعَاَشَيْتُ عَنْ كَذَا إِذَا تَعَاَفَلْتُ عَنْهُ وَتَعَامَيْتُ. وقرأ العامة «يُقَيِّضُ» بنون العظمة وعلي بن أبي طالب والأعمش ويعقوب والسلمي وأبو عمرو وعاصم في روايةٍ عنهما «يُقَيِّضُ» بالياء من تحت أي يُقَيِّضُ الرَّحْمَنُ وَالشَّيْطَانُ نَضَبَ فِي الْقِرَاءَتَيْنِ. وابن عباس «يُقَيِّضُ» مبنياً للمفعول «شَيْطَانًا» بالرفع قائم مقام الفاعل. انتهى الدر المصون.

(٢) قوله: «نقيض له شيطاناً: نخذله» تأويله بذلك مبني على أنه تعالى لا يفعل القبيح، وهو مذهب =

﴿وَيَقِضْنَا لَهُمْ قُرْآنًا﴾ [فصلت: ٢٥]، ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّا أَرْسَلْنَا الشَّيَاطِينَ عَلَى الْكَافِرِينَ﴾ [مريم: ٨٣] وقرئ: «يقيض» أي: يقيض له الرحمن ويقيض له الشيطان. فإن قلت: لم جمع ضمير من وضمير الشيطان في قوله: ﴿وَيَقِضْنَا لَهُمْ قُرْآنًا﴾؟ قلت: لأن (من) مبهم في ١٦٩/٢ أو جنس العاشي، وقد قيض له شيطان مبهم في جنسه، فلما جاز أن يتنابا لإيهامهما غير واحد: جاز أن يرجع الضمير إليهما مجموعا. ﴿حَتَّىٰ إِذَا جَاءَنَا﴾ العاشي. وقرئ: «جاءنا» على أن الفعل له ولشيطانه. ﴿قَالَ﴾ لشيطانه ﴿يَكَلِّتُ بَيْنِي وَبَيْنَكَ بَعْدَ الْمَشْرِقَيْنِ﴾ يريد المشرق والمغرب، فغلب كما قيل: العمران والقمران. فإن قلت: فما بعد المشرقين؟ قلت: تباعدهما، والأصل: بعد المشرق من المغرب، والمغرب من المشرق. فلما غلب وجمع المفترقين بالتثنية: أضاف البعد إليهما. ﴿أَنْتُمْ﴾ في محل الرفع على الفاعلية، يعني: ولن ينفعكم كونكم مشتركين في العذاب كما ينفع الواقعين في الأمر الصعب اشتراكهم فيه، لتعاونهم في تحمل أعبائه وتقسيمهم لشدة وعنايه؛ وذلك أن كل واحد منكم به من العذاب ما لا تبلغه طاقته، ولك أن تجعل الفعل للتمني في قوله: (يا ليت بيني وبينك) على معنى: ولن ينفعكم اليوم ما أنتم فيه من تمني مباحدة القرين. وقوله: ﴿أَنْتُمْ فِي الْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ﴾ تعليل، أي: لن ينفعكم تمنيتكم؛ لأن حقكم أن تشتركوا أنتم وقرناؤكم في العذاب كما كنتم مشتركون في سببه وهو الكفر. وتقويه قراءة من قرأ «إنكم» بالكسر وقيل: إذا رأى الممنو بشدة^(١) من مني بمثلها: روجه ذلك ونفس بعض كربه، وهو التأسى الذي ذكرته الخنساء [من الوافر]:

أَعَزِّي النَّفْسَ عَنْهُ بِالتَّأْسَى^(٢)

.....

= المعتزلة. وعند أهل السنة أنه فاعل الكائنات كلها، فالآيات على ظاهرها. (ع)

(١) قوله: «إذا رأى الممنو بشدة» أي المبتلى. ومنى: أي ابتلى، أفاده الصحاح. (ع)

(٢) يذكرني طلوع الشمس صخرًا وأذكره بكل غروب شمس

ولولا كثرة الباكين حولي على إخوانهم لقتلت نفسي

وما يبكون مثل أخي ولكن أعزي النفس عنه بالتأسي

للخنساء ترثي أخاها. وإسناد التذكير للطلوع: مجاز عقلي؛ لأنه سبب في تذكيرها إياه، وكذلك الغروب حيث كان ذهابه عند الأول وإيابه عند الثاني عادة. أو لأنه يذهب في الأول للغارات، ويجلس في الثاني مع الضيفان. أو لأن طلوعها يشبه طلوعه، وغروبها: يشبه موته. وفيه نوع من البديع يسمى التنكيت: وهو الإتيان بلفظ يسد غيره مسده، لولا نكتة فيه ترجع اختصاصه بالذكر: لكان اختصاصه خطأ، كما في اختصاص الوقتين هنا. أفاده السيوطي في شرح عقود الجمان. وفيه أيضًا نوع آخر يسمى الإدماج: وهو أن يضمن كلام سيق لمعنى معنى آخر، كما ضمن الكلام المسوق هنا معنى الرثاء معنى المدح بالشجاعة والكرم. أو بحسن الطلعة. والباء في «بكل» سببية. ويحتمل أن الإسناد للأول من باب الإسناد للزمان، فتكون الباء في الثاني بمعنى «في» أو «مع» وذكر الشمس ثانيًا في آخر المصراع الثاني من باب رد العجز على الصدر. وأعزي النفس: أسليها =

فهؤلاء لا يؤسيهم اشتراكهم ولا يروّحهم؛ لعظم ما هم فيه. فإن قلت: ما معنى قوله تعالى: ﴿إِذْ ظَلَمْتُمْ؟﴾ قلت: معناه: إذ صح ظلمكم وتبين ولم يبق لكم ولا لأحد شبهة في أنكم كنتم ظالمين، وذلك يوم القيامة. وإذا: بدل من الياء. ونظيره [من الطويل]:
 إِذَا مَا أَنْتَسَبْنَا لَمْ تَلِدْنِي لَثِيْمَةً^(١)
 أي: تبين أنني ولد كريمة.

﴿أَفَأَنْتَ تُسْمِعُ الصُّمَّ أَوْ تَهْدِي الْأَعْمَى وَمَنْ كَانَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾

كان رسول الله ﷺ يجد ويجتهد ويكذّ روحه في دعاء قومه، وهم لا يزيدون على دعائه إلا تصميماً على الكفر وتمادياً في الغي، فأنكر عليه بقوله: ﴿أَفَأَنْتَ تُسْمِعُ الصُّمَّ﴾ إنكار تعجيب من أن يكون هو الذي يقدر على هدايتهم، وأراد أنه لا يقدر على ذلك منهم إلا هو وحده على سبيل الإلجاء والقسر، كقوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يُسْمِعُ مَنْ يَشَاءُ وَمَا أَنْتَ بِمُسْمِعٍ مَنْ فِي الْقُبُورِ﴾ [فاطر: ٢٢].

﴿فَإِمَّا نَذْهَبَنَّ بِكَ فَإِنَّا مِنْهُمْ مُنْقِضُونَ﴾ (٤١) أَوْ نُرِيَنَّكَ الْآلَةَ وَعَدَّتْهُمْ فَإِنَّا عَلَيْهِمْ مُّقْتَدِرُونَ (٤٢)
 فَاسْتَمْسِكْ بِالَّذِي أُوحِيَ إِلَيْكَ إِنَّكَ عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ (٤٣)

(ما) في قوله: ﴿فَإِمَّا نَذْهَبَنَّ بِكَ﴾ بمنزلة لام القسم: في أنها إذا دخلت دخلت معها النون المؤكدة، والمعنى: فإن قبضناك قبل أن ننصرك عليهم ونشفي صدور المؤمنين منهم ﴿فَإِنَّا مِنْهُمْ مُنْقِضُونَ﴾ أشد الانتقام في الآخرة، كقوله تعالى: ﴿أَوْ تَوَفِّيْنَاكَ فَإِنَّا يَرْجِعُونَ﴾ [غافر: ٧٧] وإن أردنا أن ننجز في حياتك ما وعدناهم من العذاب النازل بهم وهو يوم بدر، فهم تحت ملكتنا وقدرتنا لا يفوتونا، وصفهم بشدة الشكيمة في الكفر والضلال ثم أتبعه شدة الوعيد بعذاب الدنيا والآخرة. وقرئ: «نرينك» بالنون الخفيفة. وقرئ: «بالذي أوحى إليك» على البناء للفاعل، وهو الله عز وجل، والمعنى: وسواء عجلنا لك الظفر والغلبة أو أخرنا إلى اليوم الآخر. فكن مستمسكاً بما أوحينا إليك وبالعمل به فإنه الصراط المستقيم الذي لا يحيد عنه إلا ضالاً شقي، وزد كل يوم صلابة في المحاماة على دين الله، ولا يخرجك الضجر بأمرهم إلى شيء من اللين والرخاوة في أمرك، ولكن كما يفعل الثابت^(٢)

= وأصبرها عنه بالتأسي، أي: الاقتداء بغيري من أهل المصائب وفي اقتدائها بالباكين من الرجال: إشعار بتجلدها وعظم شأنها مثلهم. وروي «على أمواتهم» بدل: «على إخوانهم»، و«أسلي» بدل «أعزي».

ينظر: ديوانها (٨٥)، البحر المحيط (١٧/٨)، المخصص (٢٢/١٦).

(١) تَقَدَّمَ.

(٢) قوله: «ولكن كما يفعل الثابت» لعله: وكن. أو لعله: ولكن كن. (ع)

الذي لا ينشطه تعجيل ظفر، ولا يثبطه تأخير.

﴿وَإِنَّكُمْ لَذَكَّرٌ لَّكُمْ وَلِقَوْمِكُمْ وَسَوْفَ تُسْأَلُونَ﴾ ٤٤ ﴿وَسَلِّ مَنْ أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رُسُلِنَا أَجَعَلْنَا مِنْ دُونِ الرَّحْمَنِ إِلَهًا يُعْبَدُونَ﴾ ٤٥

﴿وَإِنَّ﴾ وإن الذي أوحى إليك ﴿لَذَكَّرٌ﴾ لشرف ﴿لَكُمْ وَلِقَوْمِكُمْ وَ﴾ لـ ﴿وَسَوْفَ تُسْأَلُونَ﴾ عنه يوم القيامة، وعن قيامكم بحقه، وعن تعظيمكم له، وشكركم على أن رزقتموه وخصصتم به من بين العالمين، ليس المراد بسؤال الرسل حقيقة السؤال لإحالاته، ولكنه مجاز عن النظر في أديانهم والفحص عن مللهم، هل جاءت عبادة الأوثان قط في ملة من ملل الأنبياء؟ وكفاه نظراً وفحصاً^(١): نظره في كتاب الله المعجز المصدق لما بين يديه، وإخبار الله فيه بأنهم يعبدون من دون الله ما لم ينزل به سلطاناً. وهذه الآية في نفسها كافية لا حاجة إلى غيرها، والسؤال الواقع مجازاً عن النظر، حيث لا يصح السؤال على الحقيقة: كثير منه مساءلة الشعراء الديار والرسوم والأطلال. وقول من قال: سل الأرض: من شق أنهارك وغرس أشجارك وجنى ثمارك؟ فإنها إن لم تجبك حواراً^(٢) أجابتك اعتباراً. وقيل: إن النبي ﷺ جمع له الأنبياء ليلة الإسراء في بيت المقدس فأتهم. وقيل له/ ١٦٩/٢ ب: سلمهم، فلم يشكك ولم يسأل. وقيل: معناه سل أمم من أرسلنا وهم أهل الكتابين: التوراة والإنجيل. وعن الفراء: إنما هم يخبرونه عن كتب الرسل، فإذا سألهم فكأنه سأل الأنبياء.

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَى بِآيَاتِنَا إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ فَقَالَ إِنِّي رَسُولُ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ ٤٦ ﴿فَلَمَّا جَاءَهُمْ بِآيَاتِنَا إِذَا هُمْ مِنْهَا يَضْحَكُونَ﴾ ٤٧

ما أجابوه به عند قوله: ﴿إِنِّي رَسُولُ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ محذوف، دل عليه قوله: ﴿فَلَمَّا جَاءَهُمْ بِآيَاتِنَا﴾ وهو مطالبتهم إياه بإحضار البينة على دعواه وإبراز الآية ﴿إِذَا هُمْ مِنْهَا يَضْحَكُونَ﴾ أي يسخرون منها ويهزون بها ويسمونها سحراً. وإذا للمفاجأة. فإن قلت: كيف جاز أن يجاب لما بإذا المفاجأة؟ قلت: لأن فعل المفاجأة معها مقدّر، وهو عامل النصب^(٣) في

(١) قال محمود: «سؤال مجاز عن الفحص في شرائعهم والنظر في مللهم... الخ» قال أحمد: ويشهد

لإرادة سؤال الأمم. (فاسأل الذين يقرءون الكتاب من قبلك) والله أعلم.

(٢) قوله: «تجبك حواراً» أي مخاطبة بالنطق. في الصحاح: استحاره، أي: استنطقه. (ع)

(٣) قال محمود: «جازت فيه إجابة لما بإذا التي للمفاجأة؛ لأن فعل المفاجأة مقدر معها، وهو العامل

فيها النصب... الخ» قال أحمد: الظاهر في تسويف هذا الإطلاق - والله أعلم - أن كل واحدة من هذه الآي إذا أفردتها بالفكر استغرقت عظمتها الفكر وبهرته، حتى يجزم أنها النهاية، وأن كل آية دونها. فإذا نقل الفكرة إلى أختها استوعبت أيضاً فكره بعظمتها، وذهل عن الأولى فجزم بأن هذه =

محلها، كأنه قيل: فلما جاءهم بآياتنا فاجتروا وقت ضحكهم.

﴿وَمَا نُرِيهِمْ مِنْ آيَةٍ إِلَّا هِيَ أَكْبَرُ مِنْ أُخْتِهَا وَأَخَذْنَاهُمْ بِالْعَذَابِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ (٤٨)

فإن قلت: إذا جاءتهم آية واحدة من جملة التسع فما أختها التي فضلت عليها في الكبير من بقية الآيات؟ قلت: أختها التي هي آية مثلها. وهذه صفة كل واحدة منها فكان المعنى على أنها أكبر من بقية الآيات على سبيل التفصيل والاستقراء واحدة بعد واحدة، كما تقول: هو أفضل رجل رأيته. تريد: تفضيله على أمة الرجال الذين رأيتهم إذا قروتهم رجلاً رجلاً^(١)، فإن قلت: هو كلام متناقض؛ لأن معناه: ما من آية من التسع إلا هي أكبر من كل واحدة منها، فتكون واحدة منها فاضلة ومفضولة في حالة واحدة. قلت: الغرض من هذا الكلام أنهم موصوفات بالكبر، لا يكدن يتفاوتن فيه، وكذلك العادة في الأشياء التي تتلاقى في الفضل وتتفاوت منازلها فيه التفاوت اليسير التي تختلف آراء الناس في تفضيلها، فيفضل بعضهم هذا وبعضهم ذاك، فعلى ذلك بنى الناس كلامهم فقالوا: رأيت رجلاً بعضهم أفضل من بعض، وربما اختلفت آراء الرجل الواحد فيها، فتارة يفضل هذا وتارة يفضل ذاك. ومنه بيت الحماسة [من البسيط]:

مَنْ تَلَقَّ مِنْهُمْ ثَقُلَ: لَا قَيْتُ سَيِّدُهُمْ مِثْلُ النُّجُومِ الَّتِي يَسْرِي بِهَا السَّارِي^(٢)

= النهاية، وأن كل آية دونها. والحاصل أنه لا يقدر الفكر على أن يجمع بين آيتين منهما؛ ليتحقق عنده الفاضلة من المفضولة، بل مهما أفردته بالكفر جزم بأنه النهاية. وعلى هذا التقدير يجري جميع ما يرد من أمثاله، والله أعلم.

(١) قوله: «إذا قروتهم رجلاً رجلاً» أي تتبعتهم. (ع)

(٢) هينون لينون أيسار ذوو كرم سواس مكرمة أبناء أيسار

إن يسألوا الخير يعطوه وإن جهدوا فالجهد يخرج منهم طيب أخبار

وإن توددتهم لانوا وإن شهموا كشفت أذمار شر غير أشرار

لا ينطقون عن الفحشا وإن نطقوا ولا يمارون من ماري بأكثار

من تلق منهم ثقل: لا قيت سيدهم مثل النجوم التي يسري بها الساري

لعبيد بن الأبرص. وقيل للعرنديس. وهينون لينون: جمع هين ولين: تخفيف هين ولين بالتشديد، على فيعل. وأيسار: جمع يسر، كقطب وأقطاب، وهو في الأصل ضد العسر، سمي به الرجل مبالغة، أو جمع يسرة كقصبة، وهي في الأصل: الخط في باطن الكف، أطلقت على الرجل إشعاراً بالكرم. وسواس: جمع سانس، بمعنى مالك متصرف بالمصلحة، وبمعنى الولي المصلح. وجهده الطعام: إذا اشتاق إليه واشتراه. وجهد الرجل فهو مجهود: أصابه القحوط والمشقة. وقوله: «فالجهد يخرج منهم» جواب الشرط. ويحتمل أنه استئناف مفرغ على ما قبله. وإن جهدوا: جوابه دل عليه ما قبله. والشهامة: الخشونة، وشهمت الفرس حركته ليسرع. وأذمار شر: أي شجعان حرب: جمع ذمر ككبد، من ذمر الرجل: عبس وغضب. وذمر الأسد زار بصوته، أي: إن حملتهم على الحرب أظهرت منهم شجعان حرب غير أشرار. وضمن النطق معنى الإخبار، فعده =

وقد فاضلت الأنمارية بين الكلمة من بينها، ثم قالت: لما أبصرت مراتبهم متدانية قليلة التفاوت. ثكلتهم^(١) إن كنت أعلم أيهم أفضل، وهم كالحلقة المفترغة لا يدرى أين طرفاها. ﴿لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ إرادة أن يرجعوا عن الكفر إلى الإيمان^(٢). فإن قلت: لو أراد رجوعهم لكان، قلت: إرادته فعل غيره ليس إلا أن يأمره به^(٣) ويطلب منه إيجاده، فإن كان ذلك على سبيل القسر وجد، وإلا دار بين أن يوجد وبين أن لا يوجد على حسب اختيار المكلف، وإنما لم يكن الرجوع لأن الإرادة لم تكن قسراً ولم يختاروه. والمراد بالعذاب: السنون، والطوفان، والجراد، وغير ذلك.

﴿وَقَالُوا يَتَّيْنُهُ السَّاحِرُ أَدْعُ لَنَا رَبَّكَ يَمَا عَهْدَ عِنْدَكَ إِنَّا لَمُهْتَدُونَ﴾ ﴿٤٩﴾ ﴿فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمْ الْعَذَابَ إِذَا هُمْ يَنْكُتُونَ﴾ ﴿٥٠﴾

وقرى: «يا أيه الساحر» بضم الهاء، وقد سبق وجهه. فإن قلت: كيف سموه بالساحر مع قولهم: ﴿إِنَّا لَمُهْتَدُونَ﴾؟ قلت: قولهم: ﴿إِنَّا لَمُهْتَدُونَ﴾: وعد منوي إخلافه، وعهد معزوم على نكته، معلق بشرط أن يدعو لهم وينكشف عنهم العذاب. ألا ترى إلى قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمْ الْعَذَابَ إِذَا هُمْ يَنْكُتُونَ﴾ ﴿٥٠﴾ فما كانت تسميتهم إياه بالساحر بمنافية لقولهم: (إننا لمهتدون) وقيل: كانوا يقولون للعالم الماهر ساحر لاستعظامهم علم السحر:

= بعن. ويجوز أنها بمعنى الباء. والممارسة: الجدال. ويكثر: متعلق بـ «مارى»، أو بـ «يمارون». من تلقه منهم تقل فيه: لاقيت أشرفهم لتساويهم في الشرف، فهم مثل النجوم في التساوي في الشرف والاهتداء والاستضاءة بكل. فكما أن النجم يهتدي به المسافر، كذلك هم يهتدي بهم المختبئ الطالب للمعروف أو المتحير في أمر معضل. ويروى بدل «وإن جهدوا... الخ». وإن خبروا. في الجهد أدرك منهم طيب أخبار. أي: إن اختبروا علم كرمهم وحسن سيرتهم.

(١) قوله: «ثكلتهم» الشكل: فقدان المرأة ولدها.

(٢) قال محمود: «معناه إرادة أن يرجعوا عن الكفر إلى الإيمان... الخ» قال أحمد: تقدم في غير موضع أن «لعل» حيشما وردت في سياق كلام الله تعالى فالمراد صرف الرجاء إلى المخلوقين، أي: ليكونوا بحيث يرجى منهم ذلك، هذا هو الحق. وعليه تأول سيبويه ما ورد. وأما الزمخشري فيحمل «لعل» على الإرادة؛ لأنه لا يتحاشى مع اعتقاد أن الله يريد شيئاً ويريد العبد خلافه، فيقع مراد العبد ولا يقع مراد الرب - تعالى الله عما يقول الظالمون علواً كبيراً - فما أشتعها زلة وأبشعها خلة. ولقد أساء الأدب في هذا الموضع؛ حتى إنه لولا تعين الرد عليه لما جرى القلم بنقل ما هدى به وما اهتدى. وقد جرى على سنن أوائله في جعل حقيقة الأمر هو الإرادة، وأضاف إلى ذلك اعتقاد أن العبد يوجد فعله ويخلقه، وأن مراد العبد يقع، ومراد الرب لا يقع؛ فهذه ظلمات ثلاث بعضها فوق بعض؛ نعوذ بالله من هذه الغواية: (ربنا لا تزغ قلوبنا بعد إذ هديتنا).

(٣) قوله: «ليس إلا أن يأمره به» هذا مذهب المعتزلة. أما مذهب أهل السنة: فإرادته غير الأمر، سواء كانت لفعل نفسه أو لفعل غيره، ولا يلزم تأويل الآية بالإرادة؛ لجواز أن يكون معناها: ليكون حالهم عند الأخذ بالعذاب حال من يرجى رجوعهم. (ع)

﴿يَمَّا عَهْدَ عِنْدَكَ﴾ بعنده عندك: من أن دعوتك مستجابة. أو بعنده عندك وهو النبوة. أو بما عهد عندك فوفيت به وهو الإيمان والطاعة. أو بما عهد عندك من كشف العذاب عنم اهتدى.

﴿وَنَادَىٰ فِرْعَوْنُ فِي قَوْمِهِ قَالَ يَنْقُورِ آلَيْسَ لِي مُلْكُ مِصْرَ وَهَذِهِ الْأَنْهَارُ تَجْرِي مِن تَحْتِي ۚ أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴾ (٥١) أَمْ أَنَا خَيْرٌ مِّنْ هَٰذَا الَّذِي هُوَ مَهِينٌ وَلَا يَكَادُ يُبِينُ ﴿٥٢﴾ فَلَوْلَا أُلْقِيَ عَلَيْهِ ۖ أَسُورَةٌ مِّنْ ذَهَبٍ أَوْ جَاءَ مَعَهُ الْمَلٰٓئِكَةُ مُقْتَرِنِينَ ﴿٥٣﴾

﴿وَنَادَىٰ فِرْعَوْنُ فِي قَوْمِهِ﴾ جعلهم محلاً لندائه وموقعاً له. والمعنى: أنه أمر بالنداء في مجامعهم وأماكنهم من نادى فيها بذلك، فأسند النداء إليه، كقولك: قطع الأمير اللص، إذا أمر بقطعه. ويجوز أن يكون عنده عظماء القبط، فيرفع صوته بذلك فيما بينهم، ثم ينشر عنه في جموع القبط، فكأنه نودي به بينهم فقال: ﴿آلَيْسَ لِي مُلْكُ مِصْرَ وَهَذِهِ الْأَنْهَارُ﴾ يعني أنهار النيل ومعظمهما أربعة: نهر الملك، ونهر طولون، ونهر دمياط، ونهر تينس: قيل: كانت تجري تحت قصره. وقيل: تحت سريره لارتفاعه. وقيل: بين يدي في جناني وبساتيني. ويجوز أن تكون الواو عاطفة للأنهار على ملك مصر. وتجري: نصب على الحال منها، وأن تكون الواو للحال، واسم الإشارة مبتدأ، والأنهار صفة لاسم الإشارة، وتجري خبر للمبتدأ، وليت شعري كيف ارتقت إلى دعوة الربوبية همة من تعظم بملك مصر، وعجب الناس من مدى عظمتهم، وأمر فنودي بها في أسواق مصر وأزقتها؛ لثلا تخفى تلك الأبهة^(١) والجلالة على صغير ولا كبير وحتى يتربع في صدور الدهماء مقدار عزته وملكوته. وعن الرشيد: أنه لما قرأها قال: لأولينها أحسن عبيدي، فولأها الخصيب، وكان على وضوئه. وعن عبد الله بن طاهر أنه وليها، فخرج إليها فلما شارفها وقع عليها بصره قال: أهى القرية التي افتخر بها فرعون حتى قال: آليس لي ملك مصر، والله لهي أقل عندي من أن أدخلها، فثنى عنانه. ﴿أَمْ أَنَا خَيْرٌ﴾ ١٧٠/٢ أم هذه متصلة؛ لأن المعنى: أفلا تبصرون أم تبصرون، إلا أنه وضع قوله: ﴿أَنَا خَيْرٌ﴾ موضع: تبصرون؛ لأنهم إذا قالوا له: أنت خير، فهم عنده بصراء، وهذا من إنزال السبب منزلة المسبب^(٢). ويجوز

(١) قوله: «تلك الأبهة» كسكرة، كذا بهامش الصحاح. وفي الصحاح: «دهماء الناس»: جماعتهم. (ع)

(٢) قال السمين الحلبي: قال الشيخ: وهذا متكلف جداً؛ إذ المعادل إنما يكون مقابلاً للسابق، فَإِنْ كَانَ المعادل جملة فعلية كان السابق جملة فعلية أو جملة اسمية يُتَقَدَّرُ منها فعلية كقوله: ﴿أَدْعُوهُمْ أَمْ أَنْتُمْ صَامِتُونَ﴾ لأن معناه أَمْ صَمْتُمْ. وهنا لا يتقدر منها جملة فعلية؛ لأن «أَمْ أَنَا خَيْرٌ» ليس مقابلاً لقوله: ﴿أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴾ وإن كان السابق اسماً كان المعادل اسماً أو جملة فعلية يتقدر منها اسم، نحو قوله [من الرجز]:

أَمْخُذَجُ الْيَدَيْنِ أَمْ أَتَمَّتْ؟

أن تكون منقطعة على: بل أنا خير، والهمزة للتقرير، وذلك أنه قدم تعديد أسباب الفضل والتقدم عليهم من ملك مصر وجري الأنهار تحته، ونادى بذلك وملأ به مسامعهم، ثم قال: أنا خير كأنه يقول: أثبت عندكم واستقر أني أنا خير وهذه حالي ﴿مِنْ هَذَا الَّذِي هُوَ مَهِينٌ﴾ أي ضعيف حقير. وقرئ: «أما أنا خير» ﴿وَلَا يَكَاذُ بَيْنَ﴾ الكلام لما به من الرتبة^(١) يريد: أنه ليس معه من العدد وآلات الملك والسياسة ما يعتضد به، وهو في نفسه محل بما ينعت به الرجال من اللسن والفصاحة، وكانت الأنبياء كلهم أبناء^(٢) بلغاء. وأراد بإلقاء الأسورة عليه: إلقاء مقاليد الملك إليه، لأنهم كانوا إذا أرادوا تسويد الرجل سوره بسوار وطوقه بطوق من ذهب. ﴿مُقْتَرِنِينَ﴾ إما مقترنين به من قولك: قرنته فاقترن^(٣) به، وإما من: اقترنوا، بمعنى تقارنوا: لما وصف نفسه بالملك والعزة ووازن بينه وبين موسى صلوات الله عليه، فوصفه بالضعف وقلة الأعضاء اعترض فقال: هلا إن كان صادقاً ملكه ربه وسوده وسوره، وجعل الملائكة أعضاده وأنصاره. وقرئ: «أساور» جمع «أسورة» و«أساوير» جمع أسوار وهو السوار، و«أساورة» على تعويض التاء من ياء أساوير. وقرئ: «ألقي عليه أسورة» وأساور، على البناء للفاعل، وهو الله عز وجل.

﴿فَاسْتَحَفَّ قَوْمَهُ فَأَطَاعُوهُ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ﴾

﴿فَاسْتَحَفَّ قَوْمَهُ﴾ فاستفزههم. وحقيقته: حملهم على أن يخفوا له ولما أراد منهم، وكذلك: استفز، من قولهم للخفيف: فز.

﴿فَلَمَّا ءَاسَفُونَا انْتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَاهُمْ أَجْمَعِينَ﴾

﴿لِلْآخِرِينَ﴾

﴿ءَاسَفُونَا﴾ منقول من أسف أسفاً إذا اشتد غضبه. ومنه الحديث في موت الفجأة: «رحمة للمؤمن وأخذة أسف للكافر» (١٣٩٢). ومعناه: أنهم أفرطوا في المعاصي وعدوا

١٣٩٢ - تقدم في سورة طه، وقال الحافظ: تقدم في سورة طه. انتهى.

فَأَتَتْكَ مُعَادِلُ لِلْأَسْمِ فَالتقدير أم مِتْمًا؟ قُلْتُ: وهذا الذي رده على الزمخشري رُدُّ على سبويه؛ لأنه السابق به. وكذا قوله أيضًا: أنه لا يحذف المعادل بعد أم إلا وبعدها «لا» فيه نَظَرٌ من حيث تجويز سبويه حذف المعادل دون «لا» فهو رُدُّ على سبويه أيضًا. انتهى. الدر المصون.

(١) قوله: «لما به من الرتبة» بالضم: العبة في الكلام، كذا في الصحاح. (ع)

(٢) قوله: «وكانت الأنبياء كلهم أبناء» في الصحاح: بان الشيء بيانًا: اتضح، فهو بين، والجمع أبناء، مثل هين وأهيناء. (ع)

(٣) قوله: «قرنته فاقترن به» لعله قرنته به فاقترن. (ع)

طورهم، فاستوجبوا أن نعجل لهم عذابنا وانتقامنا، وأن لا نحلم عنهم. وقرئ: «سلفاً» جمع سالف، كخادم وخدم. وسلفاً - بضمين - جمع سليف، أي: فريق قد سلف. وسلفاً: جمع سلفة، أي: ثلة قد سلفت. ومعناه: فجعلناهم قدوة للآخرين من الكفار، يقتدون بهم في استحقاق مثل عقابهم ونزوله بهم؛ لإتيانهم بمثل أفعالهم، وحديثاً عجيب الشأن سائراً مسير المثل، يحدثون به ويقال لهم: مثلكم مثل قوم فرعون.

﴿وَلَمَّا ضَرَبَ ابْنُ مَرْيَمَ مَثَلًا إِذَا قَوْمُكَ مِنْهُ يَصِدُّونَ ﴿٥٧﴾ وَقَالُوا ءَأَلِهَتُنَا خَيْرٌ أَمْ هُوَ مَا ضَرَبُوهُ لَكَ إِلَّا جَدَلًا بَلْ هُمْ قَوْمٌ خَصِمُونَ ﴿٥٨﴾ إِنْ هُوَ إِلَّا عَبْدٌ أَنْعَمْنَا عَلَيْهِ وَجَعَلْنَاهُ مَثَلًا لِبَنِي إِسْرَءِيلَ ﴿٥٩﴾﴾

لما قرأ رسول الله ﷺ على قريش ﴿إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ﴾ [الأنبياء: ٩٨] امتعضوا^(١) من ذلك امتعاضاً شديداً، فقال عبد الله بن الزبير: يا محمد، أخاصة لنا ولآلهتنا أم لجميع الأمم؟ فقال عليه السلام: هو لكم ولآلهتكم ولجميع الأمم، فقال: خصمتك ورب الكعبة، أأست تزعم أن عيسى ابن مريم نبي وتشي عليه خيراً وعلى أمه، وقد علمت أن النصارى يعبدونها. وعزير يعبد. والملائكة يعبدون، فإن كان هؤلاء في النار فقد رضينا أن نكون نحن وآلهتنا معهم، وفرحوا وضحكوا، وسكت النبي ﷺ، فأنزل الله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُمْ مِنَّا الْحُسْنَىٰ﴾ [الأنبياء: ١٠١] ونزلت هذه الآية (١٣٩٣). والمعنى: ولما ضرب عبد الله بن الزبير عيسى ابن مريم مثلاً، وجادل رسول الله ﷺ بعبادة النصارى إياه ﴿إِذَا قَوْمُكَ﴾ قريش من هذا المثل ﴿يَصِدُّونَ﴾ ترتفع لهم جلبة وضجيج^(٢) فرحاً وجزلاً وضحكاً بما سمعوا منه من إسكات رسول الله ﷺ بجده، كما يرتفع لفظ القوم ولجبههم إذا تعيوا بحجة ثم فتحت عليهم. وأما من قرأ «يصدون» بالضم - فمن الصدود، أي: من أجل هذا المثل يصدون عن الحق ويعرضون عنه. وقيل: من الصديد وهو الجلبة، وأنهما لغتان نحو: يعكف ويعكف ونظائر لهما. ﴿وَقَالُوا ءَأَلِهَتُنَا خَيْرٌ أَمْ هُوَ﴾ يعنون أن آلهتنا عندك ليست بخير من عيسى، إذا كان عيسى من حصب النار كان أمر آلهتنا هيئاً. ﴿مَا ضَرَبُوهُ﴾ أي ما ضربوا هذا المثل ﴿لَكَ إِلَّا جَدَلًا﴾ إلا لأجل الجدل والغلبة في القول، لا لطلب الميز بين الحق

١٣٩٣ - تقدم في سورة الأنبياء. وقال الحافظ ابن حجر، تقدم في أواخر الأنبياء. انتهى.

(١) قوله: «امتعضوا من ذلك» غضبوا منه وشق عليهم، كذا في الصحاح. (ع)

(٢) قوله: «ترتفع لهم جلبة وضجيج» أي صياح وكذا اللجب. أفاده الصحاح. (ع)

والباطل، ﴿بَلْ هُمْ قَوْمٌ خَبِيثُونَ﴾ لَدَّ شِدَادِ الْخُصُومَةِ دَابَهُمُ اللَّجَاجِ، كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿قَوْمًا لَّدَّا﴾ [مريم: ٩٧] وذلك أَنَّ قَوْلَهُ تَعَالَى: ﴿إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾ [الأنبياء: ٩٨] مَا أَرِيدَ بِهِ إِلَّا الْأَصْنَامَ، وَكَذَلِكَ قَوْلُهُ عَلَيْهِ السَّلَامُ: «هُوَ لَكُمْ وَلِلْهَيْتِكُمْ وَلِجَمِيعِ الْأُمَمِ» إِنَّمَا قَصَدَ بِهِ الْأَصْنَامَ، وَمَحَالُ أَنْ يَقْصِدَ بِهِ الْأَنْبِيَاءَ وَالْمَلَائِكَةَ، إِلَّا أَنَّ ابْنَ الزُّبَيْرِ بَخِشَهُ وَخَدَاعَهُ وَخُبْنِ دُخْلَتِهِ^(١) لَمَّا رَأَى كَلَامَ اللَّهِ وَرَسُولَهُ مُحْتَمَلًا لَفْظُهُ وَجْهَ الْعُمُومِ، مَعَ عِلْمِهِ بِأَنَّ الْمُرَادَ بِهِ أَصْنَامَهُمْ لَا غَيْرَ، وَجَدَ لِلْحِيلَةِ مَسَاعًا، فَصَرَفَ مَعْنَاهُ إِلَى الشُّمُولِ وَالْإِحَاطَةِ بِكُلِّ مَعْبُودٍ غَيْرِ اللَّهِ، عَلَى طَرِيقَةِ الْمَحْكِ وَالْجِدَالِ^(٢) وَحَبِ الْمَغَالِبَةِ/٢/ ١٧٠ بَ وَالْمَكَابِرَةِ، وَتَوَقَّعَ فِي ذَلِكَ فَتَوْقَرَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ حَتَّى أَجَابَ عَنْهُ رَبُّهُ: ﴿إِنَّ الَّذِينَ سَقَتْ لَهُمْ مِنَّا الْحُسْنَىٰ﴾ [الأنبياء: ١٠١] فَذَلَّ بِهِ عَلَى أَنَّ الْآيَةَ خَاصَّةٌ فِي الْأَصْنَامِ، عَلَى أَنَّ ظَاهِرَ قَوْلِهِ: (وَمَا تَعْبُدُونَ) لِغَيْرِ الْعُقُلَاءِ. وَقِيلَ: لَمَّا سَمِعُوا قَوْلَهُ تَعَالَى: ﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِنْدَ اللَّهِ كَمَثَلِ إِبْرَاهِيمَ﴾ [آل عمران: ٥٩] قَالُوا: نَحْنُ أَهْدَىٰ مِنَ النَّصَارَىٰ؛ لِأَنَّهُمْ عَبَدُوا آدَمِيًّا وَنَحْنُ نَعْبُدُ الْمَلَائِكَةَ، فَتَنَزَّلَتْ. وَقَوْلُهُ: ﴿ءَالِهَتُنَا خَيْرٌ أَوْ هُوَ﴾ عَلَى هَذَا الْقَوْلِ: تَفْضِيلُ لَالِهَتِهِمْ عَلَى عِيسَى؛ لِأَنَّ الْمُرَادَ بِهِمُ الْمَلَائِكَةُ وَمَا ضَرَبُوهُ لَكَ إِلَّا جِدْلًا. مَعْنَاهُ: وَمَا قَالُوا هَذَا الْقَوْلَ، يَعْنِي: ءَالِهَتُنَا خَيْرٌ أَمْ هُوَ. إِلَّا لِلْجِدَالِ، وَقُرِئَ: «ءَالِهَتُنَا خَيْرٌ» بِإِثْبَاتِ هَمْزَةِ الْاسْتِفْهَامِ وَبِاسْقَاطِهَا؛ لِلدَّلَالَةِ أَمْ الْعَدِيلَةِ عَلَيْهَا. وَفِي حَرْفِ ابْنِ مَسْعُودٍ: خَيْرٌ أَمْ هَذَا. وَيَجُوزُ أَنْ يَكُونَ ﴿جِدْلًا﴾ حَالًا، أَيْ: جَدْلِينَ. وَقِيلَ: لَمَّا نَزَلَتْ ﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِنْدَ اللَّهِ﴾ [آل عمران: ٥٩] قَالُوا: مَا يَرِيدُ مُحَمَّدٌ بِهَذَا إِلَّا أَنْ نَعْبُدَهُ وَأَنَّهُ يَسْتَأْهِلُ أَنْ يَعْبُدَ وَإِنْ كَانَ بَشَرًا، كَمَا عَبَدَتِ النَّصَارَى الْمَسِيحَ وَهُوَ بَشَرٌ. وَمَعْنَى ﴿يَعْبُدُونَ﴾ يَضْجُونَ وَيَضْجُرُونَ. وَالضَّمِيرُ فِي ﴿أَوْ هُوَ﴾ لِمُحَمَّدٍ ﷺ، وَغَرَضُهُمُ بِالْمَوَازَنَةِ بَيْنَهُ وَبَيْنَ آلِهَتِهِمْ: السَّخَرِيَّةُ بِهِ وَالِاسْتِهْزَاءُ. وَيَجُوزُ أَنْ يَقُولُوا- لَمَّا أَنْكَرَ عَلَيْهِمْ قَوْلُهُمْ: الْمَلَائِكَةُ بَنَاتُ اللَّهِ وَعَبَدُوهُمْ- مَا قُلْنَا بَدْعًا مِنَ الْقَوْلِ، وَلَا فَعَلْنَا نَكْرًا مِنَ الْفِعْلِ؛ فَإِنَّ النَّصَارَى جَعَلُوا الْمَسِيحَ ابْنَ اللَّهِ وَعَبَدُوهُ، وَنَحْنُ أَشْفَ^(٣) مِنْهُمْ قَوْلًا وَفِعْلًا، فَإِنَّا نَسْبِنَا إِلَيْهِ الْمَلَائِكَةَ وَهُمْ نَسَبُوا إِلَيْهِ الْإِنْسَانِي، فَقِيلَ لَهُمْ: مَذْهَبُ النَّصَارَى شُرْكٌ بِاللَّهِ، وَمَذْهَبُكُمْ شُرْكٌ مِثْلُهُ، وَمَا تَنْصَلِكُمْ مِمَّا أَنْتُمْ عَلَيْهِ بِمَا أَوْرَدْتُمُوهُ إِلَّا قِيَاسٌ بَاطِلٌ بِبَاطِلٍ، وَمَا عِيسَى ﴿إِلَّا عَبْدٌ﴾ كَسَائِرِ الْعِبِيدِ ﴿أَنْعَمْنَا عَلَيْهِ﴾ حَيْثُ جَعَلْنَاهُ آيَةً: بِأَنْ خَلَقْنَاهُ مِنْ غَيْرِ سَبَبٍ، كَمَا خَلَقْنَا آدَمَ وَشَرَفْنَاهُ بِالنَّبُوءَةِ وَصِيرْنَاهُ عَبْرَةً عَجَبِيَّةً كَالْمِثْلِ السَّائِرِ لِبَنِي إِسْرَائِيلَ.

﴿وَلَوْ نَشَاءُ لَجَعَلْنَا مِنْكُمْ مَلَائِكَةً فِي الْأَرْضِ يَخْلُقُونَ﴾ ﴿١٦﴾

(١) قوله: «وخبت دخلته» بالضم: باطن أمره. أفاده الصحاح. (ع)

(٢) قوله: «على طريقة المحك» أي: اللجاج، كما في الصحاح. (ع)

(٣) قوله: «ونحن أشف منهم» أي: أرق. أفاده الصحاح. (ع)

﴿وَلَوْ نَشَاءُ﴾ لقدرتنا على عجائب الأمور وبدائع الفطر ﴿جَعَلْنَا مِنْكُمْ﴾ لولدنا منكم يا رجال ﴿مَلَائِكَةً﴾ يخلفونكم في الأرض كما يلخفكم أولادكم، كما ولدنا عيسى من أنثى من غير فعل؛ لتعرفوا تميزنا بالقدرة الباهرة، ولتعلموا أن الملائكة أجسام لا تتولد إلا من أجسام، وذات القديم متعالية عن ذلك.

﴿وَإِنَّهُ لَعِلْمٌ لِّلسَّاعَةِ فَلَا تَمُوتُ بِهَا وَاتَّبِعُونِ هَٰذَا صِرَاطٌ مُّسْتَقِيمٌ﴾

﴿وَإِنَّكُمْ﴾ وإن عيسى عليه السلام ﴿لَعِلْمٌ لِّلسَّاعَةِ﴾ أي شرط من أشراتها تعلم به، فسمي الشرط علمًا لحصول العلم به. وقرأ ابن عباس: لعلم، وهو العلامة. وقرئ: «للعلم» وقرأ أبي: لذكر، على تسمية ما يذكر به ذكرًا، كما سمي ما يعلم به علمًا. وفي الحديث: أن عيسى عليه الصلاة والسلام ينزل على ثنية بالأرض المقدسة: يقال لها: أفيق وعليه ممصرتان، وشعر رأسه دهين، وبيده حربة، وبها يقتل الدجال، فيأتي بيت المقدس والناس في صلاة الصبح والإمام يؤم بهم، فيتأخر الإمام فيقدمه عيسى ويصلي خلفه على شريعة محمد عليه الصلاة والسلام، ثم يقتل الخنازير ويكسر الصليب، ويخرب البيع والكنائس، ويقتل النصارى إلا من آمن به (١٣٩٤). وعن الحسن: أن الضمير للقرآن، وأن

١٣٩٤ - قال الزيلعي: غريب بهذا اللفظ، وهو في تفسير الثعلبي هكذا من غير سند وهو مفرق في الأحاديث،

أ - قوله ثنية أفيق أخرجه أحمد (٢١٧/٤)، وأخرجه الحاكم في المستدرک (٤٧٨/٤): كتاب الفتن والملاحم، وابن أبي شيبة في مصنفه (٤٩١/٧): كتاب الفتن باب ما ذكر في فتنة الدجال، حديث (٣٧٤٧٨)، في كثر العمال (٣٨٨٢٩) وذكره المتقي الهندي. وذكره السيوطي في الدر المنثور (٢/٢٤٣) وزاد نسبه إلى الطبراني. قوله: «وعليه ممصرتان».

أخرجه أبو داود في سننه (١١٧/٤): كتاب الملاحم باب خروج الدجال، (٤٣٢٤)، وأحمد بن حنبل في مسنده (٤٠٦/٢)، والحاكم في المستدرک (٥٩٥/٢) كتاب التاريخ، وابن حبان في صحيحه (٢٣٣/١٥): كتاب التاريخ باب إخباره ﷺ عما يكون في أمته من الفتن، والحوادث، حديث (٦٨٢١).

من حديث أبي هريرة:

قال الحاكم: هذا حديث صحيح ولم يخرجاه ووافقه الذهبي.

وقوله: «والناس في صلاة الصبح».

أخرجه ابن ماجه (١٣٥٩/٢): كتاب الفتن باب فتنة الدجال وخروج عيسى بن مريم ويأجوج ومأجوج حديث (٤٠٧٧).

قوله «فيقتل الخنزير ويكسر الصليب».

أخرجه البخاري في صحيحه (٤١٥/٥): كتاب المظالم: باب كسر الصليب وقتل الخنزير، حديث (٢٤٧٦)، أخرجه مسلم في صحيحه (٤٦٦/١): كتاب الإيمان: باب نزول عيسى بن مريم حاكمًا =

القرآن به تعلم الساعة؛ لأن فيه الإعلان بها، ﴿فَلَا تَمَنَّكَ بِهَا﴾ من المرية وهي الشك، ﴿وَاتَّبِعُونِ﴾ واتبعوا هداي وشرعي. أو رسولي. وقيل: هذا أمر لرسول الله أن يقوله: ﴿هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ﴾ أي هذا الذي أدعوكم إليه. أو هذا القرآن إن جعل الضمير في ﴿وَاتَّبِعُونِ﴾ للقرآن.

﴿وَلَا يَصُدَّنَّكُمْ الشَّيْطَانُ إِنَّكُمْ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ﴾ (١٦)

﴿عَدُوٌّ مُبِينٌ﴾ قد بانّت عداوته لكم^(١): إذ أخرج أباكم من الجنة ونزع عنه لباس النور. ﴿وَلَمَّا جَاءَ عِيسَى بِالْبَيِّنَاتِ قَالَ قَدْ جِئْتُكُمْ بِالْحِكْمَةِ وَلِأُبَيِّنَ لَكُمْ بَعْضَ الَّذِي تَخْتَلَفُونَ فِيهِ﴾ فَقُولُوا لِلَّهِ وَأَطِيعُوا (١٧) إِنَّ اللَّهَ هُوَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَأَعْبُدُوهُ هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ (١٨) فَاخْتَلَفَ الْأَحْزَابُ مِنْ بَيْنِهِمْ قَوْلٌ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْ عَذَابِ يَوْمِ أَلِيمٍ (١٩)

﴿بِالْبَيِّنَاتِ﴾ بالمعجزات. أو بآيات الإنجيل والشرائع البينات الواضحات. ﴿بِالْحِكْمَةِ﴾ يعني: الإنجيل والشرائع. فإن قلت: هلا بين لهم كل الذي يختلفون فيه ولكن بعضه؟ قلت: كانوا يختلفون في الديانات وما يتعلق بالتكليف وفيما سوى ذلك مما لم يتعبدوا بمعرفته والسؤال عنه، وإنما بعث ليبين لهم ما اختلفوا فيه مما يعنيهم من أمر دينهم. ﴿الْأَحْزَابُ﴾ الفرق المتحزبة بعد عيسى عليه السلام. وقيل: اليهود والنصارى. ﴿قَوْلٌ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا﴾ وعيد للأحزاب. فإن قلت: ﴿مِنْ بَيْنِهِمْ﴾ إلى من يرجع الضمير فيه؟ قلت: إلى الذين خاطبهم عيسى في قوله: ﴿قَدْ جِئْتُكُمْ بِالْحِكْمَةِ﴾ وهم قومه المبعوث إليهم.

﴿هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا السَّاعَةَ أَنْ تَأْتِيَهُمْ بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ (٢٠) الْأَخِلَاءُ يَوْمَئِذٍ

= حديث (١٥٥)، وأبو داود في سننه (١١٧/٤): كتاب الملاحم: باب خروج الدجال، حديث (٤٣٢٤)، والترمذي في سننه (٥٠٦/٤): كتاب الفتن باب ما جاء في نزول عيسى بن مريم عليه السلام، حديث برقم (٢٢٣٣)، وابن ماجه (١٣٦٣/٢): كتاب الفتن: باب فتنة الدجال وخروج عيسى بن مريم... حديث (٤٠٧٨)، وأحمد بن حنبل في مسنده (٢/٢٤٠)، والحميدي في مسنده (٤٦٨/٢)، حديث (١٠٩٧) من حديث أبي هريرة، وقال الحافظ: أخرجه الثعلبي بغير سند، وهو موجود في أحاديث متفرقة. فقلوه: «ثنية أفيق» عند الحاكم من حديث عثمان بن أبي العاص. وقوله: «وعليه ممصرتان» عند أحمد والحاكم من حديث أبي هريرة. وقوله: «والناس في صلاة الصبح» عند ابن ماجه من حديث أبي أسامة، وقوله: «فيقتل الخنزير ويكسر الصليب» في الصحيح من حديث أبي هريرة. انتهى.

(١) قوله: «قد بانّت عداوته لكم» في الصحاح «بان الشيء» بيّنا: اتضح فهو بين، كذلك أبان فهو مبين. (ع)

بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا الْمُتَّقِينَ ﴿٦٧﴾ يَعْبَادُ لَا خَوْفٌ عَلَيْكُمْ الْيَوْمَ وَلَا أَنْتُمْ
تَحْزَنُونَ ﴿٦٨﴾ الَّذِينَ آمَنُوا بِآيَاتِنَا وَكَانُوا مُسْلِمِينَ ﴿٦٩﴾ ادْخُلُوا الْجَنَّةَ أَنْتُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ
تُحِبُّونَ ﴿٧٠﴾ يُطَافُ عَلَيْهِمْ بِصِحَافٍ مِنْ ذَهَبٍ وَأَكْوَابٍ وَفِيهَا مَا تَشْتَهِيهِ الْأَنْفُسُ وَتَلَذُّ
الْأَعْيُنُ وَأَنْتُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿٧١﴾ وَتِلْكَ الْجَنَّةُ الَّتِي أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٧٢﴾
لَكُمْ فِيهَا فَلَكَهٌ كَثِيرَةٌ مِنْهَا تَأْكُلُونَ ﴿٧٣﴾

﴿أَنْ تَأْتِيَهُمْ﴾ بدل من الساعة. والمعنى: هل ينظرون إلا إتيان الساعة. فإن قلت: أما
أدى قوله: ﴿بَقَّةٌ﴾ مؤدى قوله: ﴿وَهُمْ لَا يَسْعُرُونَ﴾ فيستغني عنه؟ قلت: لا؛ لأن معنى
قوله تعالى: ﴿وَهُمْ لَا يَسْعُرُونَ﴾: وهم غافلون لاشتغالهم بأمور دنياهم، كقوله تعالى:
﴿تَأْخُذُهُمْ وَهُمْ يَخِصِّمُونَ﴾ [١٧١/٢] يس: ٤٩ ويجوز أن تأتيهم بغتة وهم فطنون. ﴿يَوْمَئِذٍ﴾
منصوب بعدو، أي: تنقطع في ذلك اليوم كل صلة بين المتخالفين في غير ذات الله،
وتنقلب عداوة ومقابلة، إلا صلة المتصادقين في الله، فإنها الصلة الباقية المزدادة قوة إذا رأوا
ثواب التحاب في الله تعالى والتباغض في الله. وقيل: ﴿إِلَّا الْمُتَّقِينَ﴾ إلا المجتنبين أخلاء
السوء. وقيل: نزلت في أبي بن خلف، وعقبة بن أبي معيط. ﴿يَعْبَادُ﴾ حكاية لما ينادى
به المتقون المتحابون في الله يومئذ، و﴿الَّذِينَ آمَنُوا﴾ منصوب المحل صفة لعبادي؛ لأنه
منادى مضاف، أي: الذين صدقوا ﴿بِآيَاتِنَا وَكَانُوا مُسْلِمِينَ﴾ مخلصين وجوههم لنا،
جاعلين أنفسهم سالمة لطاعتنا. وقيل: إذا بعث الله الناس فرع كل أحد، فينادي مناد،
يا عبادي فيرجوها الناس كلهم، ثم يتبعها الذين آمنوا فيياس الناس منها غير المسلمين.
وقرى: ﴿يا عباد﴾ ﴿تُحِبُّونَ﴾ تسرون سرورا يظهر حباره - أي: أثره - على وجوهكم،
كقوله تعالى: ﴿تَعْرِفُ فِي وُجُوهِهِمْ نَضْرَةَ النَّعِيمِ﴾ [المطففين: ٢٤] وقال الزجاج: تكرمون
إكراما يبالغ فيه. والحبرة: المبالغة فيما وصف بجميل. والكوب: الكوز لا عروة له.
﴿وَفِيهَا﴾ الضمير للجنة. وقرئ: «تشتهي» وتشتهي. وهذا حصر لأنواع النعم؛ لأنها إما
مشتهاة في القلوب، وإما مستلذة في العيون. ﴿وَتِلْكَ﴾ إشارة إلى الجنة المذكورة. وهي
مبتدأ، و﴿الْجَنَّةُ﴾ خبر. و﴿الَّتِي أُورِثْتُمُوهَا﴾ صفة الجنة. أو الجنة صفة للمبتدأ الذي هو
اسم الإشارة. والتي أورثتموها: خبر المبتدأ. أو التي أورثتموها: صفة، و﴿بِمَا كُنْتُمْ
تَعْمَلُونَ﴾ الخبر، والباء تتعلق بمحذوف كما في الظروف التي تقع أخبار. وفي الوجه
الأول تتعلق بأورثتموها. وشبهت في بقائها على أهلها بالميراث الباقي على الورثة.
وقرى: «ورثتموها» ﴿مِنْهَا تَأْكُلُونَ﴾ من للتبعض، أي: لا تأكلون إلا بعضها، وأعقابها باقية
في شجرها، فهي مزينة بالشمار أبدا موقرة بها، لا ترى شجرة عريانة من ثمرها كما في الدنيا.

وعن النبي ﷺ: «لا ينزع رجل في الجنة من ثمرها»^(١) إلا نبت مكانها مثلاًها» (١٣٩٥).

﴿إِنَّ الْمُجْرِمِينَ فِي عَذَابٍ جَهَنَّمَ خَالِدُونَ﴾ (٧٤) لَا يُفَرِّغُهُمْ فِيهِ مُبْسَوْنَ ﴿٧٥﴾ وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا هُمْ الظَّالِمِينَ ﴿٧٦﴾ وَنَادَا يَمْلِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ قَالَ إِنَّكُمْ مَرْكُوتٌ ﴿٧٧﴾ لَقَدْ جِئْتَكُمْ بِالْحَقِّ وَلَكِنَّ أَكْثَرَكُمْ لِلْحَقِّ كَرِهُونَ ﴿٧٨﴾

﴿لَا يُفَرِّغُهُمْ﴾ لا يخفف ولا ينقص، من قولهم: فترت عنه الحمى إذا سكنت عنه قليلاً ونقص حرّها. والمبلس: اليائس الساكت سكوت يأس من فرج. وعن الضحاك: يجعل المجرم في تابوت من نار ثم يردم عليه فيبقى فيه خالداً: لا يرى ولا يرى. ﴿هُمْ﴾ فصل عند البصريين، عماد عند الكوفيين. وقرئ: «وهم فيها» أي: في النار^(٢) وقرأ علي وابن مسعود رضي الله عنهما: «يا مال» بحذف الكاف للترخيم، كقول القائل [من المنسرح]:

وَالْحَقُّ يَا مَالٍ غَيْرُ مَا تَصِفُ^(٣)

وقيل لابن عباس: إن ابن مسعود قرأ «ونادوا يا مال» فقال: ما أشغل أهل النار عن الترخيم (١٣٩٦). وعن بعضهم: حسن الترخيم أنهم يقطعون بعض الاسم لضعفهم وعظم

١٣٩٥ - تقدم في سورة البقرة:

قال الحافظ: أخرجه البزار عن ثوبان، وقد تقدم في البقرة. انتهى.

١٣٩٦ - قال الزيلعي: غريب - تخريج الكشاف (٢٥٦/٣)، هذا وقد روى البخاري في صحيحه (٦/٤٥٨): كتاب بدء الخلق: باب إذا قال أحدكم أمين...، حديث (٣٢٣٠) ومسلم (٤٢٠/٣): كتاب الجمعة: باب تحفيف الصلاة والخطبة، حديث (٨٧١) عن يعلى عن أبيه: «سمعت رسول ﷺ - يقرأ على المنبر: «ونادوا يا مال» قال سفيان في قراءة عبد الله: «ونادوا يا مال» واللفظ للبخاري.

(١) قوله: «من ثمرها إلا نبت مكانها» في الخازن: ورد في الحديث «أنه لا ينزع أحد في الجنة من ثمرها ثمرة إلا نبت مكانها مثلاًها». (ع)

(٢) قوله: «وقرئ: (وهم فيها) أي في النار» لعل تأخير الكلام على هذه القراءة عن الكلام على الضمير السابق من تصرف الناسخ؛ لأنه مخالف لترتيب التلاوة. (ع)

(٣) يحيي رفات العظام بالية والحق يا مال غير ما تصف أي: يحيي الله المتفتت من العظام حال كونها بالية، يقال: رفته رفثاً، إذا فته. والرفات: اسم منه كالفتات، قال: والحق غير ما تذكره يا مالك، فرخمه بحذف الكاف، كأنه كان أخبره بموت أحد ثم ظهرت حياته.

وهو لعمر بن امرئ القيس في لسان العرب ٤٦/٥ (فجر)، والتنبيه والإيضاح ١٨١/٢، وتاج العروس ٣٠٠/١٣ (فجر)، وبلا نسبة في ديوان الأدب ٢١٣/١.

ما هم فيه. وقرأ أبو السرار الغنوي «يا مال» بالرفع كما يقال: يا حار^(١) ﴿لِيَقْضَ عَلَيْنَا رَبُّكَ﴾ من قضى عليه إذا أماته ﴿فَوَكَّرَهُ مُوَيْ قَفَضَى عَلَيْنَا﴾ [القصص: ١٥] والمعنى: سل ربك أن يقضي علينا. فإن قلت: كيف قال: ﴿وَنَادَا يَمَلِكُ﴾ بعد ما وصفهم بالإبلاس؟ قلت: تلك أزيمة متطاولة وأحقاب ممتدة، فتختلف بهم الأحوال فيسكتون أوقاتا لغلبة اليأس عليهم، وعلمهم أنه لا فرج لهم، ويغوثون^(٢) أوقاتا لشدة ما بهم. ﴿مَكَثُوا﴾ لا بشون. وفيه استهزاء. والمراد: خالدون. عن ابن عباس رضي الله عنهما: إنما يجيبهم بعد ألف سنة (١٣٩٧). وعن النبي ﷺ «يلقى على أهل النار الجوع حتى يعدل ما هم فيه من العذاب، فيقولون: ادعوا مالكم، فيدعون يا مالك ليقض علينا ربك» (١٣٩٨). ﴿لَقَدْ جِئْتَكُمْ بِالْحَقِّ﴾ كلام الله عز وجل: بدليل قراءة من قرأ: «لقد جئكم» ويجب أن يكون في قال ضمير الله عز وجل. لما سألوا مالكا أن يسأل الله تعالى القضاء عليهم: أجابهم الله بذلك.

= وقال الحافظ ابن حجر في الكشف: لم أجده بإسناد.

وفي البخاري عن يعلى بن أمية «أنه سمع النبي ﷺ يقرأها كذلك. انتهى.

١٣٩٧ - أخرجه الحاكم في المستدرک (٤٤٨/٢): كتاب التفسير، والطبري في جامع البيان (٢١٣/١١): حديث برقم (٣٠٩٩١)، وسفيان الثوري في تفسيره (ص ٢٧٣): حديث (٨٨٦)، وعبد الرزاق في تفسيره (٢٠٢/٢)، وذكره الواحدي في الوسيط (٨٢/٤)، وابن كثير في تفسيره (١٣٥/٤)، والسيوطي في الدر المنثور (٧٣٥/٥)، وزاد نسبه إلى الفريابي وعبد بن حميد وابن أبي الدنيا في وصفة النار وابن المنذر والبيهقي في البعث والنشور قال الحاكم: هذا حديث صحيح الإسناد، ولم يخرجاه، ووافقه الذهبي.

وقال الحافظ: أخرجه الحاكم من رواية سفيان عن عطاء بن السائب عن سعيد بن جبير عن ابن عباس في قوله: (ونادوا يا مالك) قال: مكث عنهم ألف سنة ثم يقول: «إنكم ماكثون» وروى الترمذي من رواية قطبة بن عبد العزيز عن الأعمش عن سمرة بن عطية عن شهر بن حوشب عن أم الدرداء عن أبي الدرداء قال: قال رسول الله ﷺ: «يلقى على أهل النار الجوع، فيعدل ما هم فيه من العذاب فيستغيثون، فيغاثون بطعام من ضريع لا يسمن ولا يغني من جوع - الحديث: وفيه: قال الأعمش: بين أن ينزل عليهم وإجابة مالك ألف عام» وقال الترمذي: قطبة ثقة. وبعض أهل الحديث كان يرفع هذا. وهذا أخرجه الطبراني والبيهقي في الشعب ورواه الطبري من رواية شريك عن الأعمش موقوف ولم يفصل الكلام الأخير. ثم رواه من طريق قطبة مرفوعاً؛ ولم يفعل أيضاً. انتهى.

١٣٩٨ - أخرجه الترمذي في سننه (٧٠٧/٤): كتاب صفه جهنم، باب ما جاء في صفه طعام أهل النار حديث (٢٥٨٦)، وأبو بكر بن شيبه في مصنفه (٤٩/٧) كتاب ذكر النار: باب ما ذكر فيما أعد لأهل النار وشدته حديث (٣٤١٢٩)، والطبري في جامع البيان (٢٤٨/٩) حديث (٢٥٦٨٦). قال الترمذي: إنما تعرف هذا الحديث عن الأعمش عن شمر بن عطية عن شهر بن حوشب عن أم الدرداء عن أبي الدرداء قوله وليس بمرفوع. وقال الحافظ: هو في الحديث الذي قبله. انتهى.

(١) قوله: «كما يقال: يا حار» في نداء حارث. (ع)

(٢) قوله: «ويغوثون» في الصحاح: «غوث الرجل»: قال: واغوثاه. (ع)

﴿كَذِبُونَ﴾ لا تقبلونه وتنفرون منه وتشتمون منه؛ لأن مع الباطل الدعة، ومع الحق التعب.

﴿أَمْ أَمْرًا مِّمَّا قَدْ أُمِرُوا﴾ (٧٩) ﴿أَمْ يَحْسَبُونَ أَنَّا لَا نَسْمَعُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَاهُمْ﴾ بَلَىٰ وَرُسُلْنَا لَدَيْهِمْ يَكْتُبُونَ ﴿٨٠﴾

﴿أَمْ﴾ أبرم مشركو مكة ﴿أَمْرًا﴾ من كيدهم ومكرهم برسول الله ﷺ: ﴿فَإِنَّا مُبْرِمُونَ﴾ كيدنا كما أبرموا كيدهم؛ كقوله تعالى: ﴿أَمْ يُرِيدُونَ كَيْدًا فَالَّذِينَ كَفَرُوا هُمُ الْمَكِيدُونَ﴾ (٤٢) [الطور: ٤٢]؟ وكانوا يتنادون فيتناجون في أمر رسول الله ﷺ. فإن قلت: ما المراد بالسر والنجوى؟ قلت: السر ما حدث به الرجل نفسه أو غيره في مكان خال. والنجوى: ما تكلموا به فيما بينهم. ﴿بَلَىٰ﴾ نسمعهما ونطلع عليهما ﴿وَرُسُلْنَا﴾ يريد/ ١٧١/٢ باب الحفظة عندهم ﴿يَكْتُبُونَ﴾ ذلك. وعن يحيى بن معاذ الرازي: من ستر من الناس ذنوبه وأبداها للذي لا يخفى عليه شيء في السموات فقد جعله أهون الناظرين إليه، وهو من علامات النفاق.

﴿قُلْ إِنْ كَانَ لِلرَّحْمَنِ وَلَدٌ فَأَنَا أَوَّلُ الْعَالَمِينَ﴾ (٨١) ﴿سُبْحَنَ رَبِّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبِّ الْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾ (٨٢)

﴿قُلْ إِنْ كَانَ لِلرَّحْمَنِ وَلَدٌ﴾ وصح ذلك وثبت ببرهان صحيح تورودونه وحجة واضحة تدلون بها ﴿فَأَنَا أَوَّلُ﴾ من يعظم ذلك الولد وأسبقكم إلى طاعته والانقياد له^(١) كما يعظم الرجل ولد الملك لتعظيم أبيه، وهذا كلام وارد على سبيل الفرض والتمثيل لغرض، وهو المبالغة في نفي الولد والإطئاب فيه، وأن لا يترك الناطق به شبهة إلا مضمحلة مع الترجمة عن نفسه بثبات القدم في باب التوحيد، وذلك أنه علق العبادة بكيونة الولد وهي محال في نفسها، فكان المعلق بها محالاً مثلها، فهو في صورة إثبات الكيونة والعبادة، وفي معنى

(١) قال محمود: «معناه إن صح وثبت برهان قاطع، فانا أول من يعظم ذلك الولد وأسبقكم إلى طاعته والانقياد له... الخ» قال أحمد: لقد اجتراً عظيماً واقتحم مهلكة في تمثيله ذلك بقول من سماه عدلياً: إن كان الله خالقاً للكفر في انقلوب ومعذباً عليه فانا أول القائلين: إنه شيطان وليس بإله، فليقيم عليه ذلك بقول القائل: قد ثبت قطعاً عقلاً وشرعاً أنه تعالى خالق لذلك في القلوب كما خلق الإيمان، وفاء بمقتضى دليل العقل الدال على أن لا خالق إلا الله، وتصديقاً بمضمون قوله تعالى: (هل من خالق غير الله) وقوله: (الله خالق كل شيء) وإذا ثبتت هذه المقدمة عقلاً ونقلًا: لزمه فرك أذنه وغل عنقه؛ إذ يلحد في الله إلحاداً لم يسبقه إليه أحد من عباده الكفرة، ولا تجرأ عليه مارد من مردة الفجرة. ومن خالف في كفر القدريّة فقد وافق على كفر من تجرأ فقال هذه المقالة واقتحم هذه الضلالة بلا محالة؛ فإنه قد صرح بكلمة الكفر على أتبع وجوها وأشنع أنحائها: والله المستول أن يعصمنا وهو حسبنا ونعم الوكيل.

نفيهما على أبلغ الوجوه وأقواها. ونظيره أن يقول العدلي للمجير^(١)، إن كان الله تعالى خالقاً للكفر في القلوب ومعذباً عليه عذاباً سرمداً، فأنا أول من يقول: هو شيطان وليس بآله؛ فمعنى هذا الكلام وما وضع له أسلوبه ونظمه نفي أن يكون الله تعالى خالقاً للكفر، وتنزيهه عن ذلك وتقديسه، ولكن على طريق المبالغة فيه من الوجه الذي ذكرنا، مع الدلالة على سماجة المذهب وضلالة الذهاب إليه، والشهادة القاطعة بإحالته والإفصاح عن نفسه بالبراءة منه، وغاية النفار والاشمئزاز من ارتكابه. ونحو هذه الطريقة قول سعيد بن جبير رحمه الله للحجاج حين قال له -: أما والله^(٢) لأبدلك بالدنيا نارا تلظى -: لو عرفت أن ذلك إليك ما عبدت إلهاً غيرك. وقد تحمل الناس بما أخرجوه به من هذا الأسلوب الشريف المليء بالنكت والفوائد المستقل بإثبات التوحيد على أبلغ وجوهه، فقل: إن كان للرحمن ولد في زعمكم، فأنا أول العابدين الموحدين لله، المكذبين قولكم بإضافة الولد إليه. وقيل: إن كان للرحمن ولد في زعمكم فأنا أول الآنفين من أن يكون له ولد من عبد يعبد: إذا اشتد أنفه فهو عبد وعابد. وقرأ بعضهم: «العبدین» وقيل: هي إن النافية، أي: ما كان للرحمن ولد، فأنا أول من قال بذلك وعبد ووجد. وروي: أن النضر بن عبد الدار بن قصي قال: إن الملائكة بنات الله فنزلت، فقال النضر: ألا ترون أنه قد صدقني. فقال له الوليد بن المغيرة: ما صدقك ولكن قال: ما كان للرحمن ولد فأنا أول الموحدين من أهل مكة: أن لا ولد له. وقرئ: «ولد» بضم الواو. ثم نزه ذاته موصوفة ببربوبة السموات والأرض والعرش عن اتخاذ الولد؛ ليدل على أنه من صفة الأجسام. ولو كان جسماً لم يقدر على خلق هذا العالم وتدبير أمره.

﴿فَذَرَهُمْ يَخُوضُوا وَيَلْعَبُوا حَتَّى يُلَاقُوا يَوْمَهُمُ الَّذِي يُوْعَدُونَ﴾ (٨٧)

﴿فَذَرَهُمْ يَخُوضُوا﴾ في باطلهم ﴿وَيَلْعَبُوا﴾ في دنياهم ﴿حَتَّى يُلَاقُوا يَوْمَهُمُ﴾ وهذا دليل على أن ما يقولونه من باب الجهل والخوض واللعب، وإعلام لرسول الله ﷺ أنهم من المطبوع على قلوبهم الذين لا يرجعون البتة، وإن ركب في دعوتهم كل صعب وذلول، وخذلان لهم وتخيلية بينهم وبين الشيطان، كقوله تبارك وتعالى: ﴿اعْمَلُوا مَا شِئْتُمْ﴾ [فصلت: ٤٠] وإيعاد بالشقاء في العاقبة.

﴿وَهُوَ الَّذِي فِي السَّمَاءِ إِلَهٌُ وَفِي الْأَرْضِ إِلَهٌُ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْعَلِيمُ﴾ (٨٤) وَتَبَارَكَ الَّذِي لَمْ يُلْكَ

(١) قوله: «ونظيره أن يقول العدلي للمجير» يريد: أحد المعتزلة لأحد أهل السنة، وفي هذا التنظير من سوء الأدب في حق تعالى ما لا يخفى. (ع)

(٢) قوله: «قال له: أما والله» في الصحاح: «أما» مخفف تحقيق للكلام الذي يتلوه، اهـ. ولعل حذف الألف لغة، فليحذر. (ع)

السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَعِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٨٥﴾

ضمن اسمه تعالى معنى وصف؛ فلذلك علق به الظرف في قوله: ﴿فِي السَّمَاءِ﴾ ﴿وَفِي الْأَرْضِ﴾^(١) كما تقول: هو حاتم في طي، حاتم في تغلب، على تضمين معنى الجواد الذي شهر به، كأنك قلت: هو جواد في طي جواد في تغلب. وقرئ: «وهو الذي في السماء الله وفي الأرض الله» ومثله قوله تعالى: ﴿وَهُوَ اللَّهُ فِي السَّمَوَاتِ وَفِي الْأَرْضِ﴾ [الأنعام: ٣] كأنه ضمن معنى المعبود أو المالك أو نحو ذلك والراجع إلى الموصول محذوف لطول الكلام، كقولهم: ما أنا بالذي قائل لك شيئاً، وزاده طولاً أن المعطوف داخل في حيّز الصلة. ويحتمل أن يكون ﴿فِي السَّمَاءِ﴾ صلة الذي وإله خبر مبتدأ محذوف، على أن الجملة بيان للصلة. وأن كونه في السماء على سبيل الإلهية والربوبية، لا على معنى الاستقرار. وفيه نفى الآلهة التي كانت تعبد في الأرض. ﴿تُرْجَعُونَ﴾ قرئ بضم التاء وفتحها. و«يرجعون» بياء مضمومة. وقرئ: «تحشرون» بالتاء.

﴿وَلَا يَمْلِكُ الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ الشَّفْعَةَ إِلَّا مَنْ شَهِدَ بِالْحَقِّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ (٨٦) وَلَكِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ فَأَنَّى يُؤْفَكُونَ ﴿٨٧﴾

ولا يملك آلهتهم الذين يدعون من دون الله الشفاعة، كما زعموا أنهم شفاعاؤهم عند الله، ولكن من ﴿شَهِدَ بِالْحَقِّ﴾ وهو توحيد الله، وهو يعلم ما يشهد به عن بصيرة وإيقان وإخلاص: هو الذي يملك الشفاعة، وهو استثناء منقطع. ويجوز أن يكون متصلاً؛ لأن في جملة الذين يدعون من دون/ ٢/ ١٧٢ الله: الملائكة، وقرئ: «تدعون» بالتاء وتدعون بالتاء وتشديد الدال.

﴿وَقِيلَ لَهُ يَرْبِ إِنَّ هَؤُلَاءِ قَوْمٌ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ (٨٨) فَأَصْفَحَ عَنْهُمْ وَقُلْ سَلَامٌ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴿٨٩﴾

﴿وَقِيلَ لَهُ﴾ قرئ بالحركات الثلاث، وذكر في النصب عن الأخفش أنه حملة على: أم يحسبون أنا لا نسمع سرهم ونجواهم وقيله، وعنه: وقال قيله. وعطفه الزجاج على محل الساعة، كما تقول: عجبت من ضرب زيد وعمراً، وحمل الجرّ على لفظ الساعة، والرفع

(١) قال محمود: «ضمن اسمه عز وجل معنى وصف، فعلق به الظرف. وهو قوله: (في السماء)... الخ» قال أحمد: ومما سهل حذف الراجع مضافاً إلى الطول الذي ذكره: وقوع الموصول خبراً عن مضمّر لو ظهر الراجع لكان كال تكرار المستكره؛ إذ كان أصل الكلام: وهو الذي هو في السماء إله. ولا يتكرّر أن الكلام مع المحذوف الراجع أخف وأسهل، وأن الراجع إنما حذف على قلة حذف مثله لأمر متأكد؛ فإنه لم يرد في الكتاب العزيز إلا في قوله: (تماماً على الذي أحسن) ومع أي في موضعين على رأي.

على الابتداء، والخبر ما بعده وجوز عطفه على علم الساعة على تقدير حذف المضاف .
معناه: وعنده علم الساعة وعلم قبيله . والذي قالوه ليس بقوي في المعنى مع وقوع الفصل
بين المعطوف والمعطوف عليه بما لا يحسن اعتراضاً، ومع تنافر النظم . وأقوى من ذلك
وأوجه: أن يكون الجرّ والنصب على إضمار حرف القسم وحذفه، والرفع على قولهم:
أيمن الله، وأمانة الله، ويمين الله، ولعمرك: ويكون قوله: ﴿إِنَّ هَؤُلَاءِ قَوْمٌ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ جواب
القسم، كأنه قيل: وأقسم بقيله يا رب . أو وقيله يا رب قسمني إن هؤلاء قوم لا يؤمنون
﴿فَأَصْفَحْ عَنْهُمْ﴾ فأعرض عن دعوتهم يائساً عن إيمانهم، وودعهم وتاركهم، ﴿وَقُلْ﴾ لهم
﴿سَلَامٌ﴾ أي تسلم منكم ومتاركة . ﴿فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ﴾ وعيد من الله لهم وتسلياً لرسوله ﷺ .
والضمير في ﴿وَقِيلَ﴾ لرسول الله ﷺ، وإقسام الله بقيله رفع منه وتعظيم لدعائه والتجائه
إليه .

عن النبي ﷺ: «من قرأ سورة الزخرف كان ممن يقال له يوم القيامة يا عبادي لا
خوف عليكم اليوم ولا أنتم تحزنون، ادخلوا الجنة بغير حساب» (١٣٩٩).

١٣٩٩ - تقدم برقم (٣٤٦) . وقال الحافظ: أخرجه الثعلبي وابن مردويه، والواحي من حديث أبي بن
كعب رضي الله عنه . انتهى .

سورة الحديد

مكية، إلا قوله: ﴿إنا كاشفو العذاب قليلاً...﴾ الآية

وهي سبع وخمسون آية، وقيل تسع وخمسون [نزلت بعد الزخرف]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿حَمْدٌ ۝١﴾ وَالْكِتَابِ الْمُبِينِ ﴿٢﴾ إِنَّا نَزَّلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ مُبَرَّكٍ ۝٣ إِنَّا كُنَّا مُنذِرِينَ ﴿٤﴾ فِيهَا يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ ﴿٥﴾ أَمْرًا مِّنْ عِندِنَا إِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ ﴿٦﴾ رَحْمَةً مِّنْ رَبِّكَ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴿٧﴾ رَبِّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِن كُنْتُمْ مُوقِنِينَ ﴿٨﴾ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ يُحْيِي وَيُمِيتُ رَبُّكُمْ وَرَبُّ الْآلَافِ ۝٩﴾

الواو في قوله ﴿وَالْكِتَابِ﴾ واو القسم، إن جعلت حم تعديداً للحروف أو اسماً للسورة، مرفوعاً على خبر الابتداء المحذوف، وواو العطف إن كانت حم مقسماً بها. وقوله: ﴿إِنَّا نَزَّلْنَاهُ﴾ جواب القسم، والكتاب المبين القرآن. والليلة المباركة: ليلة القدر. وقيل: ليلة النصف من شعبان، ولها أربعة أسماء: الليلة المباركة، وليلة البراءة، وليلة الصك، وليلة الرحمة، وقيل: بينها وبين ليلة القدر أربعون ليلة. وقيل في تسميتها: ليلة البراءة والصك: أن البندار إذا استوفى الخراج من أهله كتب لهم البراءة، كذلك الله عز وجل يكتب لعباده المؤمنين البراءة في هذه الليلة. وقيل: هي مختصة بخمس خصال: تفريق كل أمر حكيم وفضيلة العبادة فيها، قال رسول الله ﷺ: «من صلى في هذه الليلة مائة ركعة أرسل الله إليه مائة ملك: ثلاثون يبشرونه بالجنة، وثلاثون يؤمنونه من عذاب النار، وثلاثون يدفعون عنه آفات الدنيا. وعشرة يدفعون عنه مكاييد الشيطان» (١٤٠٠). ونزول الرحمة قال عليه الصلاة والسلام: «إن الله يرحم أمتي^(١) في هذه الليلة بعدد شعر

١٤٠٠ - ذكره الزيلعي في تخريج الكشاف (٢٦١/٣) حديث (١١٧٠)، وعزاه إلى أبي الفتح سليم بن أيوب الرازي في كتاب الترغيب عن جعفر بن محمد عن أبيه عن النبي ﷺ وإلى أبي الفضل محمد =

(١) قوله: «يرحم أمتي في هذه الليلة» لعله: من أمتي. (ع)

أغنام بني كلب» (١٤٠١) وحصول المغفرة: قال عليه الصلاة والسلام: «إن الله تعالى يغفر لجميع المسلمين في تلك الليلة إلا لكاهن أو ساحر أو مشاحن أو مدمن خمر أو عاق للوالدين، أو مصرّ على الزنا» (١٤٠٢) وما أعطي فيها رسول الله ﷺ من تمام الشفاعة؛

=

ابن ناصر السلامي في كتاب فضائل شعبان عن جعفر بن محمد عن أبيه مرفوعاً.
وعن جعفر بن محمد عن أبيه عن علي بن أبي طالب ولم يرفعه، وإلى الحافظ أبي محمد عبد العزيز بن الأخضر في كتابه فضائل شعبان عن بضعة وثلاثين رجل من أصحاب النبي.
وذكره الديلمي في فردوس الأخبار عن علي بن أبي طالب (٥٣/٤) حديث (٥٦٥٧).
بلفظ «من صلى مائة ركعة في ليلة النصف من شعبان يقرأ في كل ركعة بفاتحة الكتاب مرة وعشر مرات: «قل هو الله أحد» - قضيت له كل حاجة طلبها في تلك الليلة».
وأخرجه السيوطي في اللآلئ المصنوعة (٦٠/٢): كتاب الصلاة، صدره عن علي بن أبي طالب وعجزه عن ابن عمر وعن أبي يحيى عن أربعة وثلاثين من الصحابة.
قال الحافظ ابن حجر: ذكره صاحب الفردوس من حديث ابن عمر هكذا، وأخرجه أبو الفتح سليم ابن أيوب في الترغيب له من رواية جعفر بن محمد عن أبيه عن علي موقوفاً، وأخرجه ابن الأخضر من رواية جعفر المدائني عن أبي يحيى العتابي حدثني بضعة وثلاثون من أصحاب النبي ﷺ أنه قال - فذكره. انتهى.

١٤٠١ - أخرجه الترمذي (١٠٧/٣) كتاب الصوم: باب ما جاء في ليلة النصف من شعبان حديث (٧٣٩)، والنسائي (٩١/٤) كتاب الجنائز: باب الأمر بالاستغفار للمؤمنين، حديث (٢٠٣٧)، وابن ماجه في سننه (٤٤٤/١): كتاب إقامة الصلاة والسنة فيها: باب ما جاء في ليلة النصف من شعبان حديث (١٣٨٩)، وأحمد في المسند (٢٣٨/٦)، وعبد بن حميد في مسنده (١٥٠٩)، وابن الجوزي في العلل المتناهية (٥٥٦/٢): كتاب الصوم: حديث في فضيلة ليلة النصف من شعبان حديث (٩١٥).

وذكره السيوطي في الدر المنثور (٢٦/٦) وزاد نسبه إلى البيهقي وابن أبي شيبة، وذكره الزيلعي في تخريج الكشاف (٢٦٢/٣)، وزاد نسبه إلى إسحاق بن راهويه وابن دحية في العلم المشهور قال الترمذي: لا يعرف هذا الحديث.

وقال: يحيى لم يسمع من عروة والحجاج لم يسمع من يحيى.
وقال الحافظ ابن حجر في تخريج الكشاف: أخرجه الترمذي، وابن ماجه من حديث عائشة مرفوعاً: «إن الله ينزل ليلة النصف من شعبان إلى سماء الدنيا. فيغفر لأكثر من عدد شعر غنم كلب. قال الترمذي: لا نعرفه إلا من حديث الحجاج؟ وسمعت محمدًا يضعفه. وقال: ابن يحيى لم يسمع من عروة، والحجاج لم يسمع من يحيى، وفي الباب عن أنس في الدعوات للبيهقي. وفي روايته مجاهيل. ومن وجه آخر عن عائشة في الأفراد للدارقطني. وفيه عطاء بن عجلان. وهو متروك. انتهى.

١٤٠٢ - قال الزيلعي: غريب بهذا اللفظ انظر تخريج الكشاف (٢٦٤/٣).

قال الحافظ ابن حجر: لم أجده هكذا. وله شواهد.

عند البيهقي في شعب الإيمان (٣٨٤/٣): باب في الصيام: ما جاء في ليلة النصف من شعبان، حديث برقم (٣٨٣٣)، وابن ماجه (٤٤٥/١): كتاب إقامة الصلاة والسنة فيها: باب ما جاء في ليلة النصف من شعبان حديث (١٣٩٠). وأحمد في المسند (٢٣٩/٦) وابن حبان (٤٨١/١٢) كتاب =

وذلك أنه سأل ليلة الثالث عشر من شعبان في أمته. فأعطى الثلث منها، ثم سأل ليلة الرابع عشر فأعطى الثلثين، ثم سأل ليلة الخامس عشر فأعطى الجميع، إلا من شرد عن الله شراد البعير (١٤٠٣). ومن عادة الله في هذه الليلة: أن يزيد فيها ماء زمزم زيادة ظاهرة. والقول الأكثر أن المراد بالليلة المباركة: ليلة القدر؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ﴾ [القدر: ١] ولمطابقة قوله: ﴿فِيهَا يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ﴾ [القدر: ٤] لقوله: ﴿نَزَّلَ الْمَلَكُ وَالرُّوحُ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِمْ مِنْ كُلِّ أَمْرٍ﴾ [البقرة: ١٨٥] وليلة القدر في أكثر الأفاويل في شهر رمضان. فإن قلت: ما معنى إنزال القرآن في هذه الليلة؟ قلت: قالوا أنزل جملة واحدة من السماء السابعة إلى السماء الدنيا، وأمر السفارة الكرام بانتساخه في ليلة القدر، وكان جبريل عليه السلام ينزله على رسول الله ﷺ نجومًا نجومًا. فإن قلت: ﴿إِنَّا كُنَّا مُنْذِرِينَ فِيهَا يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ﴾ [١٧٢/٢] ب ما موقع هاتين الجملتين؟ قلت: هما جملتان مستأنفتان ملفوفتان^(١). فسر بهما جواب القسم الذي هو قوله تعالى: ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ مُبَرَكَةٍ﴾ [الدخان: ٣] كأنه قيل: أنزلنا؛ لأن من شأننا الإنذار والتحذير من العقاب، وكان إنزالنا إياه في هذه الليلة خصوصًا؛ لأن إنزال القرآن من الأمور الحكيمة، وهذه الليلة مفروق كل أمر حكيم. والمباركة: الكثيرة الخير لما يتبع^(٢) الله فيها من الأمور التي يتعلق بها منافع العباد في دينهم ودنياهم، ولو لم يوجد فيها إلا إنزال القرآن وحده لكفى به بركة، ومعنى ﴿يُفْرَقُ﴾ يفصل ويكتب كل أمر حكيم من أرزاق العباد وآجالهم، وجميع أمورهم منها إلى

 = الحظر والإباحة: باب ما جاء في التباض والتحاسد والتدابير، حديث (٥٦٦٥) والبخاري (٤٣٥/٢): كتاب الأدب: باب ما جاء في الشجاعة، حديث (٢٠٤٥)، وأبو نعيم في الحلية (١٩١/٥). والطبراني في الكبير (١٠٨/٢٠) حديث (٢١٥).

وذكرها الزيلعي في تخريج الكشاف (٢٦٤/٣) وعزاها إلى البيهقي في الدعوات، وابن عدي والعقيلي، وقال الحافظ في تخريج الكشاف: لم أجده هكذا. وفي ابن حبان من حديث معاذ بن جبل وقال: «يطلع إلى خلقه ليلة النصف من شعبان فيغفر لجميع خلقه إلا لمشرك أو مشاحن» وفي ابن ماجه من حديث أبي موسى كذلك، والبخاري من حديث أبي بكر وفي إسناده ضعف، والبخاري أيضًا من حديث عوف بن مالك، وفيه ابن لهيعة. ومن حديث أبي هريرة وفيه من لا يعرف. ورواه البيهقي في الشعب من حديث أبي سعيد عن عائشة، وفيها: «لا ينظر الله فيها إلى مشرك ولا إلى مشاحن، ولا إلى قاطع رحم، ولا إلى عاق، ولا إلى مدمن خمر» وفي رواية أنس عن عائشة التي ذكرناها في التي قبلها: «والمدمن، والعاق، والمصر على الزنا، وزادوا: «ولا مصور ولا قاتل». انتهى.

١٤٠٣ - قال الزيلعي في تخريج الكشاف: غريب (٢٦٦/٣) حديث (١١٧٣).

(١) قوله: «ملفوفتان» لعله من اللف والنشر المقرر في البيان، وبيانه ما بعده. (ع)

(٢) قوله: «لما يتبع الله فيها» أي: يقدر. (ع)

الأخرى القابلة. وقيل: يبدأ في استنساخ ذلك من اللوح المحفوظ في ليلة البراءة، ويقع الفراغ في ليلة القدر، فتدفع نسخة الأرزاق إلى ميكائيل، ونسخة الحروب إلى جبريل، وكذلك الزلازل والصواعق والخسف، ونسخة الأعمال إلى إسماعيل صاحب سماء الدنيا وهو ملك عظيم، ونسخة المصائب إلى ملك الموت. وعن بعضهم: يعطى كل عامل بركات أعماله، فيلقى على ألسنة الخلق مدحه، وعلى قلوبهم هيئته. وقرئ: «يفرق» بالتشديد و﴿يَفْرُقُ﴾ كل على بنائه للفاعل ونصب كل، والفارق: الله عز وجل، وقرأ زيد بن علي رضي الله عنه «نفرق» بالنون، كل أمر حكيم: كل شأن ذي حكمة، أي: مفعول على ما تقتضيه الحكمة، وهو من الإسناد المجازي؛ لأن الحكيم صفة صاحب الأمر على الحقيقة، ووصف الأمر به مجاز ﴿أَمْرًا مِّنْ عِنْدِنَا﴾ نصب على الاختصاص. جعل كل أمر جزلاً فخماً بأن وصفه بالحكيم، ثم زاده جزالة وكسبه فخامة بأن قال: أعني بهذا الأمر أمراً حاصلًا من عندنا، كائناً من لدنا، كما اقتضاه علمنا وتدبيرنا. ويجوز أن يراد به الأمر الذي هو ضد النهي، ثم إما أن يوضع موضع فرقان الذي هو مصدر يفرق؛ لأن معنى الأمر والفرقان واحد، من حيث إنه إذا حكم بالشيء وكتبه فقد أمر به وأوجبه. أو يكون حالاً من أحد الضميرين في أنزلناه: إما من ضمير الفاعل، أي: أنزلناه أمرين أمراً. أو من ضمير المفعول أي أنزلناه في حال كونه أمراً من عندنا بما يجب أن يفعل، فإن قلت: ﴿إِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ﴾ بم يتعلق؟ قلت: يجوز أن يكون بدلاً من قوله: ﴿إِنَّا كُنَّا مُنْذِرِينَ﴾ و﴿رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ﴾ مفعولاً له، على معنى: إنا أنزلنا القرآن؛ لأن من شأننا إرسال الرسل بالكتب إلى عبادنا لأجل الرحمة عليهم، وأن يكون تعليلاً ليفرق. أو لقوله: ﴿أَمْرًا مِّنْ عِنْدِنَا﴾ ورحمة: مفعولاً به، وقد وصف الرحمة بالإرسال كما وصفها به في قوله تعالى: ﴿وَمَا يُمْسِكُ فَلَا مُرْسِلَ لَّهُمْ مِنْ بَعْدِهِ﴾ [فاطر: ٢] أي يفصل في هذه الليلة كل أمر. أو تصدر الأوامر من عندنا؛ لأن من عادتنا أن نرسل رحمتنا. وفصل كل أمر من قسمة الأرزاق وغيرها من باب الرحمة؛ وكذلك الأوامر الصادرة من جهته عز وعلا؛ لأن الغرض في تكليف العباد تعريضهم للمنافع. والأصل: إنا كنا مرسلين رحمة منا، فوضع الظاهر موضع الضمير إيذاناً بأن الربوبية تقتضي الرحمة على المربوبين، وفي قراءة زيد بن علي: «أمر من عندنا» على: هو أمر وهي تنصر انتصابه على الاختصاص. وقرأ الحسن: «رحمة من ربك»، على: تلك رحمة، وهي تنصر انتصابها بأنها مفعول له. ﴿إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ وما بعده تحقيق لربوبيته، وأنها لا تحقق إلا لمن هذه أوصافه. وقرئ: «رب السموات... ربكم ورب آبائكم» بالجر بدلاً من ربك. فإن قلت: ما معنى الشرط الذي هو قوله: ﴿إِنْ كُنْتُمْ مُّؤْمِنِينَ﴾؟ قلت: كانوا يقولون بأن للسموات والأرض رباً وخالقاً، ف قيل لهم: إن إرسال الرسل وإنزال الكتب رحمة من الرب، ثم قيل: إن هذا

الرب هو السميع العليم الذي أنتم مقرون به ومعترفون بأنه رب السموات والأرض وما بينهما إن كان إقراركم عن علم وإيقان، كما تقول: إِنَّ هَذَا إِنْعَامٌ زَيْدٌ الَّذِي تَسَامِعُ النَّاسَ بِكُرمِهِ واشتهر إسخاؤه، إن بلغك حديثه وحدثت بقصته.

﴿بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ يَلْعَبُونَ﴾ (٩) فَأَرْقَبْ يَوْمَ تَأْتِي السَّمَاءُ بِدُخَانٍ مُبِينٍ ﴿١٠﴾ يَغْشَى النَّاسَ هَذَا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١١﴾ رَبَّنَا أَكْرِفْ عَنَّا الْعَذَابَ إِنَّا مُؤْمِنُونَ ﴿١٢﴾

ثم رد أن يكونوا موقنين بقوله: ﴿بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ يَلْعَبُونَ﴾ (٩) وأن إقرارهم غير صادر عن علم وتيقن، ولا عن جد وحقيقة: بل قول مخلوط بهزه ولعب. ﴿يَوْمَ تَأْتِي السَّمَاءُ﴾ مفعول به، مرتقب. يقال: رقبته وارتقبته. نحو: نظرتُه وانتظرتُه. واختلف في الدخان؛ فعن علي بن أبي طالب رضي الله عنه، وبه أخذ الحسن: أنه دخان يأتي من السماء قبل يوم القيامة يدخل في أسماع الكفرة؛ حتى يكون رأس الواحد منهم كالرأس الحنيد^(١)، ويعتري المؤمن منه كهيئة الزكام، وتكون الأرض كلها كببت أوقد فيه ليس فيه خصاص^(٢)، وعن رسول الله ﷺ ١٧٣/٢ «أَوَّلُ الْآيَاتِ: الدخان، والدجال، ونزول عيسى ابن مريم، ونار تخرج من قعر عدن أبين^(٣) تسوق الناس إلى المحشر» قال حذيفة: يا رسول الله، وما الدخان؟ فتلا رسول الله ﷺ الآية، وقال: «يملاً ما بين المشرق والمغرب يمكث أربعين يوماً وليلة، أما المؤمن فيصيبه كهيئة الزكمة، وأما الكافر فهو كالسكران يخرج من منخرية وأذنيه ودبره» (١٤٠٤) وعن ابن مسعود رضي الله عنه: خمس قد مضت: الروم، والدخان، والقمر، والبطشة، واللزام (١٤٠٥). ويروى أنه قيل لابن

١٤٠٤ - أخرجه ابن جرير الطبري في جامع البيان (٢٢٧/١١) حديث (٣١٠٦١)، والبغوي في معالم التنزيل (١٥٠/٤)، وذكره السيوطي في الدر المنثور (٧٤٥/٥)، والزيلعي في تخريج الكشاف (٣/٢٦٦). عزاه إلى الثعلبي.

هذا، وقد ضعفه الطبري فقال: وحديثي محمد بن خلف العسقلاني أنه سأل رواداً عن هذا الحديث هل سمعه من سفيان؟ فقال: لا قال: فقلت: أقرأته عليه؟ قال: لا، قال: فقلت له: أقرئ عليه وأنت حاضر؟ فقال: لا، قلت: فمن أين جئت به؟ قال: جاءني قوم فعرضوه علي، وقالوا لي: اسمعه منا، فقرؤوه ثم ذهبوا فحدثوا ثوابه عني.

قال ابن حجر هذا أولى وفي مسنده رواد بن الجراح وهو متروك، وقد اعترف بأنه لم يسمع هذا الحديث. انتهى.

١٤٠٥ - أخرجه البخاري (٥٤٤/٩): كتاب التفسير باب: ﴿يَوْمَ نَبْطِشُ الْبَطْشَةَ الْكُبْرَى إِنَّا مُنتَقِمُونَ﴾ =

(١) قوله: «كالرأس الحنيد» أي المشوي، كما في الصحاح. (ع)

(٢) قوله: «ليس فيه خصاص» أي: فرج. أفاده الصحاح. (ع)

(٣) قوله: «أبين» في الصحاح: «أبين»: اسم رجل نسب إليه عدن. (ع)

مسعود: إن قاصًا عند أبواب كندة يقول: إنه دخان يأتي يوم القيامة فيأخذ بأنفاس الخلق، فقال: من علم علمًا فليقل به، ومن لم يعلم فليقل: الله أعلم، فإن من علم الرجل أن يقول لشيء لا يعلمه: الله أعلم، ثم قال: ألا وسأحدثكم أن قريشًا لما استعصت على رسول الله ﷺ دعا عليهم فقال: «اللهم اشدد وطأتك على مضر، واجعلها عليهم سنين كسني يوسف» (١٤٠٦) فأصابهم الجهد حتى أكلوا الجيف والعلهز^(١)، وكان الرجل يرى بين السماء والأرض الدخان، وكان يحدث الرجل^(٢) فيسمع كلامه ولا يراه من الدخان، فمشى إليه أبو سفيان ونفر معه وناشدوه الله والرحم ووعدوه إن دعا لهم وكشف عنهم أن يؤمنوا، فلما كشف عنهم رجعوا إلى شركهم. ﴿يَذْكُرُ مُبِينٌ﴾ ظاهر حاله لا يشك أحد في أنه دخان ﴿يَغْشَى النَّاسَ﴾ يشملهم ويلبسهم، وهو في محل الجر صفة لدخان. و﴿هَذَا عَذَابٌ﴾ إلى قوله: ﴿مُؤْمِنُونَ﴾ منصوب المحل بفعل مضمر، وهو: يقولون، ويقولون: منصوب على الحال، أي: قائلين ذلك. ﴿إِنَّا مُؤْمِنُونَ﴾ موعدة بالإيمان إن كشف عنهم العذاب.

﴿إِنِّي لَهُمُ الذِّكْرَى وَقَدْ جَاءَهُمْ رَسُولٌ مُبِينٌ﴾ (١٣) ثُمَّ تَوَلَّوْا مُعَادٍ نَجْمُونَ ﴿١٤﴾ إِنَّا كَاشِفُو الْعَذَابِ قَلِيلًا إِنَّكُمْ عَائِدُونَ ﴿١٥﴾ يَوْمَ نَنْفُخُ الْبُصْبُةَ الْكُبْرَى إِنَّا مُنْقِمُونَ ﴿١٦﴾

﴿إِنِّي لَهُمُ الذِّكْرَى﴾ كيف يذكرون ويتعظون ويفنون بما وعدوه من الإيمان عند كشف العذاب ﴿وَقَدْ جَاءَهُمْ﴾ ما هو أعظم وأدخل في وجوب الذاكرة من كشف الدخان، وهو ما ظهر على رسول الله ﷺ من الآيات البينات من الكتاب المعجز وغيره من المعجزات،

= حديث (٤٨٢٥) وأيضًا في (٥٤١/٩)، حديث (٤٨٢٠)، ومسلم في صحيحه (١٥٦/٩): كتاب صفات المنافقين وأحكامهم؛ باب الدخول، حديث (٢٧٩٨). والنسائي في الكبرى (٤٢٢/٦): كتاب التفسير: باب قوله تعالى: «فَسَوْفَ يَكُونُ لِزَامًا». حديث (١١٣٧٤)، وابن جرير الطبري في تفسيره (٢٢٦/١١): حديث (٣١٠٤٦).

١٤٠٦ - تقدم تخريجه، وقال الحافظ ابن حجر: متفق عليه دون قوله: «حتى أكلوا الجيف والعلهز» وقد رواه النسائي، والحاكم، والطبراني من حديث ابن عباس قال: «جاء أبو سفيان إلى النبي - ﷺ - فقال: أنشدك الله والرحم، لقد أكلنا العلهز يعني الوبر، والدم فأنزل الله: (ولقد أخذناهم بالعذاب - الآية). انتهى.

- (١) قوله: «حتى أكلوا الجيف والعلهز» في الصحاح «العلهز» - بالكسر -: طعام كانوا يتخذونه من الدم ووبر البعير في زمن المجاعة. (ع)
(٢) قوله: «وكان يحدث الرجل فيسمع» لعله: يحدث الرجل الرجل، ويمكن أن يجعل الفاعل ضميرًا يعود على الرجل السابق. (ع)

فلکم یذکروا وتولوا عنه، وبهتوه^(١) بأن عداسًا غلامًا أعجميًا لبعض ثقیف هو الذی علمه، ونسبوه إلى الجنون، ثم قال: ﴿كَاشِفُوا الْعَذَابَ قَلِيلًا إِنَّكُمْ عَائِدُونَ﴾ (١٥) أي ريشما نكشف عنکم العذاب تعودون إلى شرکم لا تلبثون غب الكشف على ما أنتم علیه من التضرع والابتهاال. فإن قلت: کیف يستقیم على قول من جعل الدخان قبل يوم القيامة قوله: ﴿كَاشِفُوا الْعَذَابَ قَلِيلًا﴾ قلت: إذا أتت السماء بالدخان تضور^(٢) المعذبون به من الکفار والمنافقین. وغوثوا وقالوا: ﴿وَبَكَتْ أَعْيُنُ عَذَابِكِ إِنَّ الْمُؤْمِنِينَ﴾ (١٧) منیون، فیکشفه الله عنهم بعد أربعین يومًا، فريشما یکشفه عنهم یرتدون لا یتمهلون، ثم قال: ﴿يَوْمَ نَبْطِشُ الْبَطْشَةَ الْكُبْرَى﴾ یرید يوم القيامة، کقوله تعالى: ﴿وَلَا جَاءَ الْبَاطِلَ الْكَبْرَى﴾ (٢٥) [النازعات: ٣٤]. ﴿إِنَّا مُنْقِضُونَ﴾ أي ننتقم منهم في ذلك اليوم. فإن قلت: بم انتصب يوم نبطش؟ قلت: بما دل علیه ﴿إِنَّا مُنْقِضُونَ﴾ وهو ننتقم. ولا یصح أن ینتصب بمنتقمون؛ لأن «إن» تحجب عن ذلك. وقرئ: «نبطش» بضم الطاء. وقرأ الحسن «نبطش» بضم النون، كأنه یحمل الملائكة على أن یبطشوا بهم البطشة الكبرى. أو یجعل البطشة الكبرى باطشة بهم. وقيل: ﴿الْبَطْشَةُ الْكُبْرَى﴾: يوم بدر.

﴿وَلَقَدْ فَتَنَّا قَبْلَهُمْ قَوْمَ فِرْعَوْنَ وَجَاءَهُمْ رَسُولٌ كَرِيمٌ﴾ (١٧) أَنْ أَدْوَا إِلَى عِبَادَةِ اللَّهِ إِيَّيْكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٨﴾ وَأَنْ لَا تَعْلُوا عَلَى اللَّهِ إِيَّيْكُمْ سُلْطَانٌ مُبِينٌ ﴿١٩﴾ وَإِنِّي عُدْتُ بِرَبِّي وَرَبِّكُمْ أَنْ تَرْجُمُونِ ﴿٢٠﴾ وَإِنْ تَرْتُمُونَا لِي فَأَعَزِّلُونِ ﴿٢١﴾

وقرئ: «ولقد فتنا» بالتشديد للتأكيد. أو لوقوعه على القوم. ومعنى الفتنة: أنه أمهلهم ووسع عليهم في الرزق؛ فكان ذلك سببًا في ارتكابهم المعاصي واقترافهم الآثام. أو ابتلاهم بإرسال موسى إليهم ليؤمنوا، فاختاروا الكفر على الإيمان، أو سلبهم ملكهم وأغرقهم. ﴿كَرِيمٌ﴾ على الله وعلى عباده المؤمنين. أو كريم في نفسه؛ لأن الله لم يبعث نبيا إلا من سراة قومه وكرامهم. ﴿أَنْ أَدْوَا إِلَى﴾ هي أن المفسرة؛ لأن مجيء الرسول من بعث إليهم متضمن لمعنى القول لأنه لا يجيئهم إلا مبشرا ونذيرا وداعيا إلى الله. أو المخففة من الثقيلة، ومعناه: وجاءهم بأن الشأن والحديث أدوا إلي، و﴿عِبَادَ اللَّهِ﴾ مفعول به وهم بنو إسرائيل، يقول: أدوهم إلي وأرسلوهم معي، كقوله تعالى: ﴿فَأَرْسِلْ مَعَنَا بَنِي إِسْرَءِيلَ وَلَا تَغْلِبْهُمْ قَدْرًا﴾ [طه: ٤٧] ويجوز أن يكون نداء لهم على: أدوا إلي يا عباد الله ما هو واجب لي عليكم من الإيمان لي وقبول دعوتي واتباع سبيلي، وعلل ذلك بأنه ﴿رَسُولٌ

(١) قوله: «وتولوا عنه وبهتوه» رموه بما ليس فيه كما في الصحاح أيضًا. (ع)

(٢) قوله: «تضور المعذبون به» التضور: الصياح والتلوي عند الألم والتغويث قولها: واغوثاه، أفاده الصحاح. (ع)

أَمِينٌ ﴿غَيْرَ ظَنِينٍ قَدْ ائْتَمَنَهُ اللَّهُ عَلَى وَحْيِهِ وَرِسَالَتِهِ﴾ ﴿وَأَنْ لَا تَقُولُوا﴾ أَنْ هَذِهِ مِثْلُ الْأُولَى فِي وَجْهِهَا، أَيْ: لَا تَسْتَكْبِرُوا ﴿عَلَى اللَّهِ﴾ بِالْاِسْتِهَانَةِ بِرَسُولِهِ وَوَحْيِهِ. أَوْ لَا تَسْتَكْبِرُوا عَلَى نَبِيِّ اللَّهِ. ﴿بِطُلُوتِ مَبِينٍ﴾ بِحُجَّةٍ وَاضِحَةٍ. ﴿أَنْ تَرْجُمُونَ﴾ أَنْ تَقْتُلُونَ. وَقُرئ: «عَت» بِالْإِدْغَامِ. وَمَعْنَاهُ أَنَّهُ عَائِذٌ بِرَبِّهِ مَتَكَلٍّ عَلَى أَنَّهُ يَعَصِمُهُ مِنْهُمْ وَمَنْ كِيدَهُمْ، فَهُوَ غَيْرُ مَبَالٍ بِمَا كَانُوا يَتَوَعَّدُونَهُ بِهِ مِنَ الرَّجْمِ/ ٢/ ١٧٣ بَ وَالْقَتْلِ ﴿فَاعَزِّزُوا﴾ يَرِيدُ: إِنْ لَمْ تُؤْمِنُوا لِي فَلَا مَوَالَاةَ بَيْنِي وَبَيْنَ مَنْ لَا يُؤْمِنُ، فَتَنَحَّوْا عَنِّي وَاقْطَعُوا أَسْبَابَ الْوَصْلَةِ عَنِّي، أَيْ: فَخَلُونِي كِفَافًا لَا لِي وَلَا عَلَيَّ، وَلَا تَتَعَرَّضُوا لِي بِشْرِكُمْ وَأَذَاكُم؛ فَلَيْسَ جِزَاءٌ مِنْ دَعَاكُمْ إِلَى مَا فِيهِ فَلَا حَكْمَ ذَلِكَ.

﴿فَدَعَا رَبَّهُ أَنْ هَؤُلَاءَ قَوْمٌ مُجْرِمُونَ﴾ ﴿فَأَسْرَ بَعَادَى إِبِلًا إِنَّكُمْ مُتَّبَعُونَ﴾ ﴿وَأَتَرَكُ الْبَحْرَ رَهْوًا إِنَّهُمْ جُنْدٌ مُدْشُونَ﴾ ﴿٢٤﴾

﴿أَنْ هَؤُلَاءَ﴾ بِأَنْ هَؤُلَاءَ، أَيْ: دَعَا رَبَّهُ بِذَلِكَ. قِيلَ: كَانَ دَعَاؤُهُ: اللَّهُمَّ عَجِّلْ لَهُمْ مَا يَسْتَحِقُّونَهُ بِإِجْرَامِهِمْ: وَقِيلَ هُوَ قَوْلُهُ: ﴿رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ [يونس: ٨٥] وَإِنَّمَا ذَكَرَ اللَّهُ تَعَالَى السَّبَبَ الَّذِي اسْتَوْجِبُوا بِهِ الْهَلَاكَ، وَهُوَ كَوْنُهُمْ مُجْرِمِينَ. وَقُرئ: «إِنْ هَؤُلَاءَ» بِالْكَسْرِ عَلَى إِضْمَارِ الْقَوْلِ، أَيْ: فَدَعَا رَبَّهُ فَقَالَ: إِنْ هَؤُلَاءَ ﴿فَأَسْرَ﴾ قُرئ: بِقَطْعِ الْهَمْزَةِ مِنْ أُسْرَى، وَوَصْلِهَا مِنْ سَرَى. وَفِيهِ وَجْهَانِ: إِضْمَارُ الْقَوْلِ بَعْدَ الْفَاءِ، فَقَالَ: أُسْرَ بَعْبَادِي. وَأَنْ يَكُونَ جَوَابَ شَرْطٍ مَحْذُوفٍ، كَأَنَّهُ قِيلَ: قَالَ إِنْ كَانَ الْأَمْرُ كَمَا تَقُولُ فَأَسْرَ ﴿بِعِبَادِي﴾ يَعْنِي: فَأَسْرَ بَنِي إِسْرَائِيلَ، فَقَدْ دَبَّرَ اللَّهُ أَنْ تَتَقَدَّمُوا وَيَتَّبِعَكُمْ فِرْعَوْنُ وَجُنُودُهُ، فَيَنْجِي الْمُتَقَدِّمِينَ وَيَغْرُقُ التَّابِعِينَ. الرَّهْوُ فِيهِ وَجْهَانِ، أَحَدُهُمَا: أَنَّهُ السَّاكِنُ. قَالَ الْأَعَشَى [مَنْ الْبَسِيطُ]:

يَمْشِينَ رَهْوًا فَلَا الْأَعْجَازُ خَاذِلَةٌ وَلَا الصُّدُورُ عَلَى الْأَعْجَازِ تَشْكِلُ^(١)

| | | |
|-----|--|---|
| (١) | يَمْشِينَ رَهْوًا فَلَا الْأَعْجَازُ خَاذِلَةٌ | وَلَا الصُّدُورُ عَلَى الْأَعْجَازِ تَتَكَلَّلُ |
| | فَهُنَّ مُعْتَرِضَاتُ وَالْحَصَى رَمَضُ | وَالرَّيْحُ سَاكِنَةٌ وَالظِّلُّ مُعْتَدِلُ |
| | يَتَّبِعُنَ سَامِيَةَ الْعَيْنِينَ تَحْسِبُهَا | مَجْنُونَةٌ أَوْ تَرَى مَا لَا تَرَى الْإِبِلُ |
| | تَهْدِي لَنَا كَلِمًا كَانَتْ عِلَاوَتَنَا | رِيحُ الْخَزَامِيِّ جَرَى فِيهَا النَّدَى الْخَضَلُ |

لِلْقَطَافِيِّ، يَصِفُ إِبِلًا يَمْشِينَ مَشْيًا رَهْوًا عَلَى هَيْئَةٍ وَسَكِينَةٍ، فَلَا أَعْجَازَهَا خَاذِلَةٌ أَيْ تَارِكَةٌ لَصُدُورِهَا مُتَكَلَّةٌ عَلَيْهَا بِحَيْثُ تَضَعُفُ مِنْ وِرَائِهَا، وَلَا صُدُورَهَا تَتَكَلَّلُ عَلَى أَعْجَازِهَا بِأَنْ تَضَعُفُ مِنْ قَدَامِهَا، فَاطْلُقِ الْخَذْلَانَ وَالْإِتْكَالَ وَأَرَادَ لَازِمَهُمَا، وَهُوَ الضَّعْفُ: مَجَازٌ مُرْسَلٌ. وَأَصْلُ تَتَكَلَّلُ تَوَتَكَلَّلُ، فَقَلْبَتْ الْوَاوُ تَاءً وَأَدْغَمَتْ فِيمَا بَعْدَهَا، فَهُنَّ سَائِرَاتٌ فِي عَرْضِ الْفُلُوتِ. وَالْحَالُ أَنَّ الْحَصَى حَارٌّ مِنْ شِدَّةِ وَقَعِ الشَّمْسِ عَلَيْهِ. وَرَمَضُ الْحَصَى وَالرَّمْلُ رَمَضًا كَتَعَبًا: اشْتَدَّ حَرُّهُ مِنَ الشَّمْسِ، فَاطْلُقِ الْمَصْدَرَ عَلَى اسْمِ الْفَاعِلِ مَبَالِغَةً. وَيَجُوزُ أَنَّهُ رَمَضُ كَحْذَرِ وَالرَّيْحُ سَاكِنَةٌ، فَلَا نَسِيمَ يَأْتِي بِالْبُرُودَةِ. أَوْ فَلَا غَبَارَ يَضُرُّ بِالسَّفَرِ وَالظِّلُّ مُعْتَدِلٌ: كَنَاءَةٌ عَنْ اشْتِدَادِ الْحَرِّ؛ لِأَنَّهُ لَا يَعْتَدِلُ إِلَّا بِتَوْسُطِ الشَّمْسِ فِي =

أي مشياً ساكناً على هيئة. أراد موسى لما جاوز البحر أن يضربه بعصاه فينطبق، كما ضربه فانطلق، فأمر بأن يتركه ساكناً على هيئته، قاراً على حاله: من انتصاب الماء، وكون الطريق يبساً لا يضربه بعصاه ولا يغير منه شيئاً ليدخله القبط، فإذا حصلوا فيه أطبقه الله عليهم. والثاني: أن الرهو الفجوة الواسعة. وعن بعض العرب: أنه رأى جملاً فالجأ فقال: سبحان الله، رهو بين سنامين، أي: أتركه مفتوحاً على حاله منفرجاً. ﴿وَأَنبَتَ لَهُمْ شَجَرًا مِّنْ زَيْتُونٍ﴾ وقرئ بالفتح، بمعنى: لأنهم.

﴿كَمْ تَرَكَوْا مِن جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ ﴿٢٥﴾ وَزُرُوعٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ ﴿٢٦﴾ وَنَعْمَ كَانُوا فِيهَا فَاكِهِينَ ﴿٢٧﴾﴾

والمقام الكريم: ما كان لهم من المجالس والمنازل الحسنة. وقيل: المناير. والنعمة - بالفتح - من التنعم، وبالكسر - من الإنعام. وقرئ: «فاكهين» وفكهين.

﴿كَذَٰلِكَ وَأَوْرَثْنَاهَا قَوْمَ الْعَاكِرِينَ ﴿٢٨﴾ فَمَا بَكَتْ عَلَيْهِمُ السَّمَاءُ وَالْأَرْضُ وَمَا كَانُوا مُنْظَرِينَ ﴿٢٩﴾﴾

﴿كَذَٰلِكَ﴾ الكاف منصوبة على معنى: مثل ذلك الإخراج أخرجناهم منها ﴿وَأَوْرَثْنَاهَا﴾ أو في موضع الرفع على الأمر كذلك. ﴿قَوْمَ الْعَاكِرِينَ﴾ ليسوا منهم في شيء من قرابة ولا دين ولا ولاء، وهم بنو إسرائيل: كانوا متسخرين مستعبدين في أيديهم، فأهلكهم الله على أيديهم، وأورثهم ملكهم وديارهم. إذا مات رجل خطير قالت العرب في تعظيم مهلكه: بكت عليه السماء والأرض، وبكته الرياح، وأظلمت له الشمس. وفي حديث رسول الله ﷺ: «ما من مؤمن مات في غربة غابت فيها بواكيه إلا بكت عليه السماء والأرض» (١٤٠٧). وقال جرير [من البسيط]:

١٤٠٧ - أخرجه ابن جرير الطبري في تفسيره جامع البيان (٢٣٨/١١)، حديث (٣١١٢٩)، والبيهقي في شعب الإيمان (١٧٢/٧): باب في الصبر على المصائب: فضل في ذكر ما في الأوجاع والأمراض =

= كبد السماء يتبعن تلك المطايا ناقة حديدة البصر رافعة طرفها لتبصر أمامها، تظنها يا من تراها معجونة. أو رائية شيئاً لا تراه بقية الإبل. أو شيئاً لا تراه الإبل عادة؛ فلذلك استغربتها، تهدي لنا تلك الناقة أو الإبل بمشيها كلما وجد ارتفاعاً في الطريق ريح الخزامى. والعلاوة - بالضم - ضد السفالة. وأما بالكسر فهي ما يعلق على البعير بعد حمله. والخزامى: نبت طيب الرائحة. والخضل: الرطب والمبتل والناعم. وضمير فيها عائد على الخزامى. أو على الريح، لكن هذا يفيد أن السفر كان صباحاً.

ينظر: ديوانه ص (٢٦)، ولسان العرب (رها)، وتاج العروس (رها)، وتهذيب اللغة (٤٠٤/٦)، وأساس البلاغة (رهو).

(١) قوله: «أنه رأى جملاً فالجأ» في الصحاح «الفالج»: الضخم ذو السنامين. (ع)

تَبْكِي عَلَيْكَ نُجُومُ اللَّيْلِ وَالْقَمَرَا^(١)

.....

وقالت الخارجية [من الطويل]:

أَيَا شَجَرَ الْخَابُورِ مَالِكَ مُورِقًا؟ كَأَنَّكَ لَمْ تَجْزَعْ عَلَى ابْنِ طَرِيفِ^(٢)

= والمصيبات من الكفارات، حديث (٩٨٨٨)، وذكره السيوطي في الدر المنثور (٧٤٨/٥) وزاد نسبه إلى ابن أبي الدنيا، والزيلعي في تخريج الكشاف (٢٦٨/٣) وزاد نسبه إلى الثعلبي، قال الحافظ ابن حجر: أخرجه البيهقي في الشعب في السبعين منه، والطبري، والثعلبي من حديث شريح بن عبيد الحضري عن النبي - ﷺ قال: «إن الإسلام بدأ غريباً، وسيعود غريباً إلا غربة على مؤمن. ما مات مؤمن في غربة غائب عنه فيها بواكيه - الحديث». انتهى.

(١) نعي النعاة أمير المؤمنين لنا
حملت أمراً عظيماً فاصطبرت له
يا خير من حج بيت الله واعتمرا
وقمت فيه بأمر الله يا عمرا
تبكي عليك نجوم الليل والقمر
الشمس طالعة ليست بكاسفة

لجبرير، يرثي عمر بن عبد العزيز. والنعي: النداء بالموت. وقوله: «يا خير» حكاية قول النعاة، أي: قائلين يا خير، ويحتمل أنه من كلام الشاعر، ففيه التفات. والأمر العظيم: الخلافة ومشاقها: شبهها بالمحسوس على طريق المكنية. والتحميل: تخيل. وأمر الله: شرعه. أو اكتفى به عن ذكر النهي لدلالته عليه. وعمرا: منادى مندوب، وألف الندية منعت ضمة وجلبت فتحة. واستعمال «يا» في الندية مع أن الأصل فيها «وا» لعدم اللبس في النداء بعد ذكر النعي. ويقال: كسفت الشمس كسوفاً، وكسفها الله كسفاً، وبكى على زيد وبكاء، وبكاه فبكاء، أي غلبه في البكاء، كفخره ففخره إذا غلبه في الفخر، فكسف، وبكى: متعديان ولازمان، وطالعة: خبر الشمس. وليست بكاسفة: خبر ثان. وتبكي عليك: حال أو خبر ثالث. ونجوم الليل: مفعول كاسفة، أي: لم تكسف الشمس نجوم الليل لانطماسها وقلة ضوئها من كثرة بكائها، فلا تقدر على منع الكواكب من الظهور. ويحتمل أن نجوم الليل مفعول تبكي. أي: تغلب نجوم الليل في البكاء عليك. وقيل: روايته هكذا وهم، والرواية: الشمس كاسفة ليست بطالعة: أي لا تطلع أبداً من حينئذ، فالأوجه أن نجوم الليل مفعول تبكي. وقيل: ظرف له، أي: مدة نجوم... الخ. وقيل «نجوم» مرفوع على الفاعلية، والقمر: مفعول معه، ثم إن المراد بهذا حزن جميع المخلوقات عليه، لا سيما الناس العقلاء. ينظر: ديوانه ص ٧٣٦، والأشباه والنظائر ٣٠٧/٥، وأمالى المرتضى ٥٢/١، وشرح شواهد الشافية ص ٢٦، والعقد الفريد ٩٦/١، ولسان العرب ٢٩٩/٩ (كسف)، ٨٣/١٤ (بكى)، وبلا نسبة في لسان العرب ١١٣/٦ (شمس).

(٢) أيا شجر الخابور مالك مورقاً
فتى لا يحب الزاد إلا من التقى
كأنك لم تجزع على ابن طريف
ولا المال إلا من قنا وسيوف
حليف الندى ما عاش يرضى به الندى
فإن مات لم يرض الندى بحليف
فقدناه فقدان الربيع وليتنا
فديناه من ساداتنا بألوف

لليلي بنت طريف ترثي أخاها الوليد. وأيا: حرف نداء. والخابور: موضع كثير الشجر، نزلت شجره منزلة العاقل، فنادته واستفهمته عن سبب إخراجه الورق، من باب تجاهل العارف ساقط =

وذلك على سبيل التمثيل والتخييل مبالغة في وجوب الجزع والبكاء عليه، وكذلك ما يروى عن ابن عباس رضي الله عنهما: من بكاء مصلى المؤمن، وأثارة في الأرض، ومصاعد عمله، ومهابط رزقه في السماء تمثيل، ونفي ذلك عنهم في قوله تعالى: ﴿فَمَا بَكَتْ عَلَيْهِمُ السَّمَاءُ وَالْأَرْضُ﴾ فيه تهكم بهم وبحالهم المنافية لحال من يعظم فقدته: فيقال فيه: بكت عليه السماء والأرض. وعن الحسن: فما بكى عليهم الملائكة والمؤمنون، بل كانوا بهلاكهم مسرورين، يعني: فما بكى عليهم أهل السماء وأهل الأرض، ﴿وَمَا كَانُوا مُنْظَرِينَ﴾ لما جاء وقت هلاكهم لم ينظروا إلى وقت آخر، ولم يمهلوا إلى الآخرة، بل عجل لهم في الدنيا.

﴿وَلَقَدْ جِئْنَا بِبَنِي إِسْرَءِيلَ مِنَ الْعَذَابِ الْمُهِينِ ﴿٣٠﴾ مِنْ فِرْعَوْنَ إِنَّهُمْ كَانُوا عَلِيًّا مِّنَ الْمُسْرِفِينَ ﴿٣١﴾﴾

﴿مِنْ فِرْعَوْنَ﴾ بدل من العذاب المهين، كأنه في نفسه كان عذاباً مهيناً؛ لإفراطه في تعذيبهم وإهانتهم. ويجوز أن يكون المعنى: من العذاب المهين واقعاً من جهة فرعون. وقرئ: «من عذاب المهين» ووجهه أن يكون تقدير قوله: ﴿مِنْ فِرْعَوْنَ﴾: من عذاب فرعون، حتى يكون المهين هو فرعون. وفي قراءة ابن عباس: من فرعون، لما وصف عذاب فرعون بالشدة والفظاعة قال: من فرعون، على معنى: هل تعرفونه من هو في عتوه

= المعلوم مساق المجهول، واستفهمت عنه لفرط ما بها من الجزع تبقت أن كل الأشياء جزعت عليه حتى الشجر، فخاطبته بقولها: كأنك لم تجزع على أخي، وذكرته بكنيته تعظيماً لقدره وتنويعاً بذكره. ومورقاً: حال من كاف الخطاب، ثم قالت: هو فتى لا يحب أن يتزود إلا من التقى، ولا يحب المال إلا من الغنائم بالحرب، فقولها: «إلا من قنا وسيوف»: كناية عن ذلك. والقنا: الرماح، واحده: قناة. حليف الندى: أي ملازم له تلازم المتحالفين على الاجتماع، فهو استعارة مصرحة، ثم قالت: يرضى به أي بصحبته الندى: مدة حياته وإن طال. وهذا ترشيح للاستعارة. وقولها: فإن مات «إن» فيه بمعنى إذ، فهي لمجرد الربط لا للشك، كما ذهب إليه الكوفيون في نحو قوله تعالى: ﴿وَأَتَوْا اللَّهَ إِذْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ وهذا على أنه كان قد مات كما هو ظاهر قولها فقدناه. ويحتمل أنه كان في مرض الموت، أي: شارفنا فقدته مجازاً، كأنه قد حصل. وشبهته بالربيع في ضمن تشبيه فقدانه فقدان الربيع يجامع عموم نفع كل: مدحته بالتقوى والشجاعة والكرم وعموم النفع والسيادة، وتنكير ألوف للتكثير. ويروى: دهمائنا، بدل ساداتنا. والدهماء: السواد العظيم. وظاهر التمني يدل أيضاً على أنه كان قد مات، إلا أن يكون المعنى: ليتنا فديناه مما أصابه فأمرضه. وتكرير «حليف» من باب رد العجز على الصدر.

لليلي بنت طريف في الأغاني ١٢/٨٥، ٨٦، والحماسة الشجرية ١/٣٢٨، والدرر ٢/١٦٣، وشرح شواهد المغني ص ١٤٨، ولليلي أو لمحمد بن بجرة في سمط اللآلي ص ٩١٣، وللخارجية في الأشباه والنظائر ٥/٣١٠، وبلا نسبة في لسان العرب ٤/٢٢٩ (خبر)، ومغني اللبيب ١/٤٧، وهمع الهوامع ١/١٣٣.

وشيطنته، ثم عرف حاله في ذلك بقوله: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا عَلِيًّا مِنَ الْمُسْرِفِينَ﴾ أي كبيراً رفيع الطبقة، ومن بينهم فائقاً لهم، بليغاً في إسرافه. أو علياً متكبراً، كقوله تعالى: ﴿إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي الْأَرْضِ﴾ [القصص: ٤]. و﴿مَنْ الْمُسْرِفِينَ﴾ خبر ثان، كأنه قيل: إنه كان متكبراً مسرفاً.

﴿وَلَقَدْ اخْتَرْنَاهُمْ عَلَىٰ عِلْمٍ عَلَىٰ الْعَالَمِينَ﴾ (٣٢) ﴿وَأَيِّنُّهُمْ مِنَ الْآيَاتِ مَا فِيهِ بَلَاءٌ مُّبِينٌ﴾ (٣٣) الضمير في ﴿اخْتَرْنَاهُمْ﴾ لبني إسرائيل. و﴿عَلَىٰ عِلْمٍ﴾ في موضع الحال، أي: عالمين بمكان الخيرة، وبأنهم أحقأ بأن يختاروا. ويجوز أن يكون المعنى: مع علم منا بأنهم يزيغون ويفرط ١٧٤/٢ منهم الفرطات في بعض الأحوال ﴿عَلَىٰ الْعَالَمِينَ﴾ على عالمي زمانهم. وقيل: على الناس جميعاً لكثرة الأنبياء منهم. ﴿مِنَ الْآيَاتِ﴾ من نحو فلق البحر وتظليل الغمام وإنزال المن والسلوى، وغير ذلك من الآيات العظام التي لم يظهر الله في غيرهم مثلها ﴿بَلَاءٌ مُّبِينٌ﴾ نعمة ظاهرة؛ لأن الله تعالى يبلو بالنعمة كما يبلو بالمصيبة. أو اختبار ظاهر للنظر كيف تعملون، كقوله تعالى: ﴿وَفِي ذَلِكُمْ بَلَاءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ﴾ [البقرة: ٤٩].

﴿إِنْ هَؤُلَاءِ لَيَقُولُنَّ﴾ (٣٤) ﴿إِنْ هِيَ إِلَّا مَوْتَتُنَا الْأُولَىٰ وَمَا نَحْنُ بِمُنشَرِينَ﴾ (٣٥) فَأَتُوا بِآيَاتِنَا إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾ (٣٦)

﴿هَؤُلَاءِ﴾ إشارة إلى كفار قريش، فإن قلت: كان الكلام واقعاً في الحياة الثانية^(١) لا في الموت^(٢)، فهلا قيل: إن هي إلا حياتنا الأولى وما نحن بمنشرين؟ كما قيل: ﴿إِنْ هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ﴾ [الأنعام: ٢٩]؟ وما معنى قوله: ﴿إِنْ هِيَ إِلَّا مَوْتَتُنَا الْأُولَىٰ﴾؟ وما معنى ذكر الأولى؟ كأنهم وعدوا مorte أخرى حتى نفوها وجحدوها وأثبتوا

(١) قوله: «واقعاً في الحياة الثانية» أي التي ينكرونها. (ع)

(٢) قال محمود: فإن قلت: «كان الكلام معهم واقعاً في الحياة الثانية لا في الموت... الخ» قال أحمد: وأظهر من ذلك أنهم لما وعدوا بعد الحياة الدنيا حاتين أخريين: الأولى منهما الموت، والأخرى حياة البعث: أثبتوا الحالة الأولى وهي الموت، ونفوا ما بعدها، وسموها أولى مع أنهم اعتقدوا أن لا شيء بعدها؛ لأنهم نزلوا جحدهم على الإثبات فجعلوها أولى على ما ذكرت لهم، وهذا أولى من حمل الموتة الأولى على السابقة على الحياة الدنيا لوجهين، أحدهما: أن الاختصار عليها لا يعتدونه؛ لأنهم يثبتون الموت الذي يعقب حياة الدنيا، وحمل الحصر المباشر للموت في كلامهم على صفة لم تذكر لا على نفس الموت المشاهد لهم: فيه عدول عن الظاهر بلا حاجة، الثاني: أن الموت السابق على الحياة الدنيا لا يعبر عنه بالموتة، فإن الموتة فعلة فيها إشعار بالتجدد والطريان. والموت السابق على الحياة الدنيا أمر مستصحب لم تتقدمه حياة طراً عليها هذا، مع أن في بقية السورة قوله تعالى: ﴿لَا يَذُوقُونَ فِيهَا الْمَوْتَ إِلَّا الْمَوْتَةَ الْأُولَىٰ﴾ وإنما عنى بالموتة الأولى هنا: الموت المتعقب للحياة الدنيا فقط، ففيه إرشاد لما ذكرته، والله أعلم.

الأولى؟ قلت: معناه - والله الموفق للصواب -: أنه قيل لهم: إنكم تموتون مorte تتبعها حياة، كما تقدمتكم مorte قد تعقبها حياة، وذلك قوله عز وجل: ﴿وَكُنْتُمْ أَمْوَاتًا فَأَحْيَاكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ﴾ [البقرة: ٢٨] فقالوا: ﴿إِنْ هِيَ إِلَّا مَوْتُنَا الْأُولَى﴾ يريدون: ما المorte التي من شأنها أن يتعقبها حياة إلا المorte الأولى دون المorte الثانية، وما هذه الصفة التي تصفون بها المorte من تعقب الحياة لها إلا للمorte الأولى خاصة، فلا فرق إذاً بين هذا وبين قوله: ﴿إِنْ هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا﴾ في المعنى. يقال: أنشر الله الموتى ونشرهم: إذا بعثهم. ﴿فَأَتُوا بِآبَائِنَا﴾ هذا خطاب للذين كانوا يعدونهم النشور: من رسول الله ﷺ والمؤمنين، أي: إن صدقتم فيما تقولون فعجلوا لنا إحياء من مات من آبائنا بسؤالكم ربكم ذلك حتى يكون دليلاً على أن ما تعدونه من قيام الساعة وبعث الموتى حق، وقيل: كانوا يطلبون إليهم أن يدعوا الله وينشر لهم قصي بن كلاب ليشاوروه؛ فإنه كان كبيرهم ومشاورهم في النوازل ومعظم الشئون.

﴿أَهُمْ خَيْرٌ أَمْ قَوْمٌ تُبْعَ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ أَهْلَكْتَهُمْ إِنَّهُمْ كَانُوا يُجْرِمِينَ﴾ (٢٧)

هو تبع الحميري: كان مؤمناً وقومه كافرين؛ ولذلك ذم الله قومه ولم يذمه، وهو الذي سار بالجيوش وحير الحيرة وبنى سمرقند. وقيل: هدمها وكان إذا كتب قال: بسم الله الذي ملك برأ وبحراً. وعن النبي ﷺ: «لا تسبوا تبعاً فإنه كان قد أسلم» (١٤٠٨)

١٤٠٨ - هذا الحديث مروي عن سهل بن سعد وابن عباس أما حديث سهل بن سعد.

أخرجه أحمد بن حنبل في المسند (٣٤٠/٥)، والطبراني في الكبير (٢٠٣/٦)، حديث (٦٠١٣) والبلغوى في معالم التنزيل (١٥٤/٤)، وأورده الهيثمي في مجمع الزوائد (٧٩/٨): كتاب الأدب: باب النهي عن سبب الأموات، والسيوطي في الدر المنثور (٣١/٦). وزاد نسبته إلى أبي حاتم وابن مردويه.

قال الهيثمي: رواه الطبراني في الكبير والأوسط وفيه عمرو بن جابر وهو كذاب.

أما حديث ابن عباس.

أخرجه الطبراني في معجمه الكبير (٢٩٦/١١). حديث (١١٧٩٠). والخطيب البغدادي في تاريخ بغداد (٢٠٥/٣) وأورده الهيثمي في مجمع الزوائد (٧٩/٨)، كتاب الأدب: باب النهي عن سبب الأموات، والسيوطي في الدر المنثور (٣١/٦). وزاد نسبته إلى ابن مردويه. قال الهيثمي رواه الطبراني في الأوسط، وفيه أحمد بن أبي برة المكي ولم أعرفه، وبقي رجاله ثقات.

قال الحافظ ابن حجر: أخرجه أحمد، والطبراني، والطبري، وابن أبي حاتم من حديث سهل بن سعد، وفيه ابن لهيعة عن عمرو بن جابر. وهما ضعيفان. وروى حبيب عن مالك عن أبي حازم عن سهل مثله قال الدارقطني: تفرد به حبيب وهو متروك. وله شاهد من حديث ابن عباس أخرجه الطبراني في معجمه وابن مردويه قال محمد بن زكريا. عن أبي حذيفة عن سفيان. انتهى.

وعنه عليه الصلاة والسلام: «ما أدري أكان تبع نبياً أو غير نبى» (١٤٠٩) وعن ابن عباس رضي الله عنهما: كان نبياً. وقيل: نظر إلى قبرين بناحية حمير قال: هذا قبر رضوى وقبر حبى بنتي تبع لا تشركان بالله شيئاً. وقيل: هو الذي كسا البيت. وقيل لملوك اليمن: التبابعة؛ لأنهم يتبعون، كما قيل: الأقيال، لأنهم يتقبلون^(١)، وسمي الظل «تبعاً» لأنه يتبع الشمس. فإن قلت: ما معنى قوله تعالى: ﴿أَلَمْ يَخْرُجْ﴾ ولا خير في الفريقين؟ قلت: معناه أهم خير في القوة والمنعة، كقوله تعالى: ﴿أَكْفَأُكُمْ مِنَ الْأَوَّلِينَ﴾ [القمر: ٤٣] بعد ذكر آل فرعون. وفي تفسير ابن عباس رضي الله عنهما: أهم أشد أم قوم تبع.

﴿وَمَا خَلَقْنَا السَّمَكَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لِعَيْبٍ﴾ (٣٨) مَا خَلَقْنَاهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ وَلَكِنْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٩﴾ إِنَّ يَوْمَ الْفَصْلِ مِيقَاتُهُمْ أَتَمَّعْتِ ﴿٤٠﴾ يَوْمَ لَا يُغْنِي مَوْلًى عَنْ مَوْلَى شَيْئاً وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ﴿٤١﴾ إِلَّا مَنْ رَحِمَ اللَّهُ إِنَّهُ هُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴿٤٢﴾

﴿وَمَا بَيْنَهُمَا﴾ وما بين الجنسين. وقرأ عبيد بن عمير: وما بينهن. وقرأ «مِيقَاتُهُمْ» بالنصب على أنه اسم إن، ويوم الفصل؛ خبرها، أي: إن ميعاد حسابهم وجزائهم في يوم الفصل. ﴿لَا يُغْنِي مَوْلًى﴾ أي مولى كان من قرابة أو غيرها ﴿عَنْ مَوْلَى﴾ عن أي مولى كان ﴿شَيْئاً﴾ من إغناء. أي: قليلاً منه ﴿وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ﴾ الضمير للموالي؛ لأنهم في المعنى كثير؛ لتناول اللفظ على الإبهام والشياع كل مولى. ﴿إِلَّا مَنْ رَحِمَ اللَّهُ﴾ في محل الرفع على البذل من الواو في ﴿يُنصَرُونَ﴾ أي: لا يمنع من العذاب إلا من رحمه الله. ويجوز أن

١٤٠٩ - ذكره الزيلعي في تخريج الكشاف (٢٧٠/٣) وعزاه إلى الثعلبي.

وللحديث لفظ آخر: «ما أدري أتبع العين هو أم لا». أخرجه البخاري في تاريخه الكبير (١/١٥٣). وأبو داود في سننه (٢١٨/٤): كتاب السنة: باب التخيير بين الأنبياء عليهم الصلاة والسلام، حديث (٤٦٧٤)، والحاكم النيسابوري (١٤/٢ - ٤٥٠). كتاب البيوع والتفسير. وابن عبد البر في جامع بيان العلم وفضله (٨٢٨/٢): باب ما يلزم العالم إذا سئل عما لا يدره من وجوه العلم، حديث رقم (١٥٥٢). ذكره السيوطي في الدر المنثور (٢٤٠/٤)، وزاد نسبه إلى ابن أبي حاتم، وابن المنذر، وابن مردويه.

قال الحافظ ابن حجر: أخرجه الثعلبي من طريق عبد الرزاق عن معمر عن ابن أبي ذئب عن المقبري عن أبي هريرة بهذا. والمعروف بهذا الإسناد: «ما أدري العين هو أم لا. وما أدري أعزير نبى أم لا» أخرجه أبو داود، وكذا الحاكم لكن قال: ذو القرنين بدل «عزير» قال الدارقطني: تفرد به عبد الرزاق وغيره أرسله. انتهى.

(١) قوله: «لأنهم يتقبلون» في الصحاح: تقبل: شرب نصف النهار، وتقبل فلان أباه: تبعه. (ع)

ينتصب على الاستثناء. ﴿إِنَّهُ هُوَ الْعَزِيزُ﴾ لا ينصر منه من عصاه ﴿الزَّجِيدُ﴾ لمن أطاعه.
﴿إِنَّ شَجَرَتَ الزَّقُّومِ﴾ ﴿طَعَامُ الْأَثِيمِ﴾ ﴿كَأَنَّهُمْ لَيَقْلَى فِي الْبُطُونِ﴾ ﴿كَعَلَى
الْحَمِيمِ﴾ ﴿خَذُوهُ فَأَعْيَتُوهُ إِلَى سَوَاءِ الْجَحِيمِ﴾ ﴿ثُمَّ صُبُّوا فَوْقَ رَأْسِهِ مِنْ عَذَابِ
الْحَمِيمِ﴾ ﴿ذُقْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْكَرِيمُ﴾ ﴿إِنَّ هَذَا مَا كُنْتُمْ بِهِ تَمْتَرُونَ﴾

قرئ: «إن شجرت الزقوم» بكسر الشين، وفيها ثلاث لغات: شجرة، بفتح الشين وكسرهما وشيرة، بالياء. وروي أنه لما نزل ﴿أَذَلِكَ خَيْرٌ نُزُلًا أَمْ شَجَرَةُ الزَّقُّومِ﴾ [الصفات: ٦٢] قال ابن الزبيري: إن أهل اليمن يدعون أكل الزبد والتمر: التزقيم، فدعا أبو جهل بتمر وزبد فقال: تزقموا فإن هذا هو الذي يخوفكم به محمد، فنزل ﴿إِنَّ شَجَرَتَ الزَّقُّومِ﴾ ﴿طَعَامُ الْأَثِيمِ﴾ وهو الفاجر الكثير الآثام. وعن أبي الدرداء أنه كان يقرئ رجلاً فكان يقول طعام البثيم، فقال: قل طعام الفاجر^(١) يا هذا. وبهذا يستدل على أن إبدال كلمة مكان كلمة جائز إذا كانت مؤدية معناها. ومنه أجاز أبو حنيفة القراءة بالفارسية على شريطة، وهي: أن يؤدي القارئ المعاني على كمالها من غير أن يخرم منها شيئاً. قالوا: وهذه الشريطة تشهد أنها إجازة كلا إجازة؛ لأن في كلام العرب خصوصاً في القرآن الذي هو معجز بفصاحته ١٧٤/ب وغرابة نظمه وأساليبه من لطائف المعاني والأغراض ما لا يستقل بأدائه لسان من فارسية وغيرها، وما كان أبو حنيفة رحمه الله يحسن الفارسية، فلم يكن ذلك منه عن تحقق وتبصر، وروي علي بن الجعد عن أبي يوسف عن أبي حنيفة مثل قول صاحبيه في إنكار القراءة بالفارسية ﴿كَأَنَّهُمْ لَيَقْلَى﴾ قرئ: بضم الميم وفتحها، وهو دردي^(٢) الزيت. ويدل عليه قوله تعالى: ﴿يَوْمَ تَكُونُ الْأَشْمَاءُ كَأَنَّهُمْ لَيَقْلَى﴾ [المعارج: ٨] مع قوله: ﴿فَكَانَتْ وَرْدَةً كَالدِّهَانِ﴾ [الرحمن: ٣٧] وقيل: هو ذائب الفضة والنحاس، والكاف رفع خبر بعد خبر، وكذلك ﴿يَقْلَى﴾ وقرئ: بالتاء للشجرة، وبالياء للطعام. و﴿الْحَمِيمِ﴾ الماء الحار الذي انتهى غليانه: يقال للزبانية ﴿خَذُوهُ فَأَعْيَتُوهُ﴾ فقودوه بعنف وغلظة، وهو أن يؤخذ بتلييب^(٣) الرجل فيجر إلى حبس أو قتل. ومنه «العتل» وهو الغليظ الجافي. وقرئ: بكسر التاء وضمها ﴿إِلَى

(١) قال محمود: «نقل أن أبا الدرداء أقرأها رجلاً فلم يقم النطق بالأثيم وجعل يقول طعام البثيم... الخ» قال أحمد: لا دليل فيه لذلك. وقول أبي الدرداء محمول على إيضاح المعنى ليكون وضوح المعنى عند المتعلم عوناً على أن يأتي بالقراءة كما أنزلت. على هذا حمله القاضي أبو بكر في كتاب الانتصار، وهو الوجه، والله أعلم.

(٢) قوله: «وهو دردي الزيت» لعله: ردى الزيت كعبارة النسفي. (ع)

(٣) قوله: «وهو أن يؤخذ بتلييب الرجل» الذي في الصحاح: لببت الرجل تلييباً، إذا جمعت ثيابه عند صدره ونحره في الخصومة، ثم جررتاه ويجوز أنه أراد بتلييب الرجل: ثيابه من عند صدره ونحره. (ع)

سَوَاءَ الْجَحِيمِ ﴿١﴾ إِلَى وَسْطِهَا وَمَعْظَمُهَا. فَإِنْ قُلْتَ: هَلَا قِيلَ: صَبُوا فَوْقَ رَأْسِهِ مِنَ الْحَمِيمِ، كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿يُصَبُّ مِنْ فَوْقِ رُءُوسِهِمُ الْحَمِيمُ﴾ [الحج: ١٩] لِأَنَّ الْحَمِيمَ هُوَ الْمَصْبُوبُ لَا عَذَابُهُ؟ قُلْتَ: إِذَا صَبَّ عَلَيْهِ الْحَمِيمُ فَقَدْ صَبَّ عَلَيْهِ عَذَابُهُ وَشَدَّتْهُ، إِلَّا أَنَّ صَبَّ الْعَذَابِ طَرِيقَةٌ الِاسْتِعَارَةُ، كَقَوْلِهِ [مَنْ الْبَسِيطُ]:

..... صُبَّتْ عَلَيْهِ صُرُوفُ الدَّهْرِ مِنْ صَبَبٍ ^(١)

وكقوله تعالى: ﴿أَفَرَأَيْتُمْ عَيْنَنَا مَكَبَرًا﴾ [البقرة: ٢٥٠] فذكر العذاب معلقًا به الصب، مستعارًا له، ليكون أهول وأهيب يقال: ﴿دُقْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْكَرِيمُ﴾ ﴿٢٩﴾ على سبيل الهزؤ والتهكم بمن كان يتعزز ويتكرم على قومه. وروي أَنَّ أَبَا جَهْلٍ قَالَ لِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ: مَا بَيْنَ جَبَلِيهَا أَعَزَّ وَلَا أَكْرَمَ مِنِّي، فَوَاللَّهِ مَا تَسْتَطِيعُ أَنْتَ وَلَا رَبِّكَ أَنْ تَفْعَلَا بِي شَيْئًا. وقرئ: «إِنَّكَ» بمعنى: لَأَنْتَ. وعن الحسن بن علي رضي الله عنهما أَنَّهُ قَرَأَ بِهِ عَلَى الْمُنْبِرِ ﴿إِنَّ هَذَا﴾ العذاب. أو إِنَّ هَذَا الْأَمْرَ هُوَ ﴿مَا كُنْتُمْ بِتَمَرُّونَ﴾ أي تشكون. أو تتمارون. وتتلجون.

﴿إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي مَقَامٍ أَمِينٍ﴾ ﴿٥١﴾ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُوبٍ ﴿٥٢﴾ يَلْبَسُونَ مِنْ سُندُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ مُتَقَنِينَ ﴿٥٣﴾ كَذَلِكَ وَرَوَّجْتُهُمْ بِخُورٍ عِينٍ ﴿٥٤﴾ يَدْعُونَ فِيهَا بِكُلِّ فَاكِهَةٍ ءَامِنِينَ ﴿٥٥﴾ لَا يَذُوقُونَ فِيهَا الْمَوْتَ إِلَّا الْمَوْتَةَ الْأُولَىٰ وَوَقَّعَتْهُمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ ﴿٥٦﴾ فَضَلًا مِّن رَّبِّكَ ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴿٥٧﴾

قرئ: «في مقام» بالفتح: وهو موضع القيام، والمراد المكان، وهو من الخاص الذي وقع مستعملًا في معنى العموم. وبالضم: وهو موضع الإقامة. و﴿الأمين﴾ من قولك: أمن الرجل أمانة فهو أمين. وهو ضد الخائن، فوصف به المكان استعارة؛ لِأَنَّ الْمَكَانَ الْمَخِيفَ كَأَنَّمَا يَخُونُ صَاحِبَهُ بِمَا يَلْقَى فِيهِ مِنَ الْمَكَارِهِ. قيل: السندس: ما رق من الديباج. والإسْتَبْرَقُ: ما غلظ منه وهو تعريب استبر. فَإِنْ قُلْتَ: كَيْفَ سَاغَ أَنْ يَقَعَ فِي الْقُرْآنِ الْعَرَبِي الْمُبِين لَفْظَ أَعْجَمِي؟ قُلْتَ: إِذَا عَرَبٌ خَرَجَ مِنْ أَنْ يَكُونَ عَجَمِيًّا؛ لِأَنَّ مَعْنَى التَّعْرِيبِ أَنْ يَجْعَلَ عَرَبِيًّا بِالتَّصْرِيفِ فِيهِ، وَتَغْيِيرِهِ عَنْ مَنَاجِهِ، وَإِجْرَائِهِ عَلَى أَوْجِهِ الْإِعْرَابِ ﴿كَذَلِكَ﴾

(١) كم امرئ كان في خفض وفي دعة صب عليه صرور الدهر من صبب

الصبب: مكان الصباب الماء وانحداره. يقول: كثير من الناس كان في لين عيش وفي راحة، توالى عليه حوادث الدهر كأنها سيل منحدر من صبب، فاستعار الصب لنزول الحوادث بالشخص على طريق التصريح، والصب ترشيح أو شبه الحوادث بالسيل على سبيل المكنية. والصبب: تخيل. والصب: ترشيح. والصرور: جمع صرف، كحروف جمع حرف: مكاره الزمن ومصائبه.

الكاف مرفوع على الأمر كذلك. أو منصوب على: مثل ذلك أثبتناهم ﴿وَرَوَّجْتَهُمْ﴾ وقرأ عكرمة «بحور عين» على الإضافة، والمعنى: بالبحور من العين؛ لأن العين إما أن تكون حورًا أو غير حور، فهؤلاء من الحور العين لا من شهلهن مثلاً. وفي قراءة عبد الله: «بعيس عين» والعيساء: البيضاء تعلوها حمرة وقرأ عبيد بن عمير «لا يذاقون فيها الموت» وقرأ عبد الله «لا يذوقون فيها طعم الموت»، فإن قلت: كيف استثنيت الموتة الأولى - المذوقة قبل دخول الجنة - من الموت المنفي ذوقه فيها؟ قلت: أريد أن يقال: لا يذوقون فيها الموت البتة، فوضع قوله: ﴿لَا تَمُوتُهُ الْأُولَى﴾ موضع ذلك؛ لأن الموتة الماضية محال ذوقها في المستقبل، فهو من باب التعليق بالمحال، كأنه قيل: إن كانت الموتة الأولى يستقيم ذوقها في المستقبل فإنهم يذوقونها^(٢). وقرئ: «ووقاهم» بالتشديد ﴿فَضَّلَ بِنِ رَّبِّكَ﴾ عطاء من ربك وثوابًا، يعني: كل ما أعطى المتقين من نعيم الجنة والنجاة من النار. وقرئ: «فضل» أي: ذلك فضل.

﴿فَإِنَّمَا يَنْزِلُ إِلَيْكَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾ ٥٨ ﴿فَارْتَقِبْ إِنَّهُمْ مُّرْتَقِبُونَ﴾ ٥٩

﴿فَإِنَّمَا يَنْزِلُ إِلَيْكَ﴾ فذللك للسورة. ومعناها: ذكرهم بالكتاب المبين (فإنما يسرناه) أي: سهلناه، حيث أنزلناه عربياً بلسانك بلغتك إرادة أن يفهمه قومك فيتذكروا ﴿فَارْتَقِبْ﴾ فانتظر ما يحل بهم ﴿إِنَّهُمْ مُّرْتَقِبُونَ﴾ ما يحل بك متربصون بك الدوائر.

عن رسول الله ﷺ: «من قرأ سورة حم الدخان في ليلة أصبح يستغفر له سبعون ألف ملك» (١٤١٠) وعنه عليه السلام: «من قرأ سورة حم التي يذكر فيها الدخان في ليلة

١٤١٠ - أخرجه الترمذي (١٦٣/٥) كتاب فضائل القرآن: باب ما جاء في فضل «حم» الدخان حديث (٢٨٨٨)، وابن عدي في «الكامل» (٦٥/٥)، والبيهقي في «شعب الإيمان» (٤٨٤/٢) رقم (٢٤٧٥) من طريق عمر بن أبي خنعم عن يحيى بن أبي كثير عن أبي سلمة عن أبي هريرة مرفوعاً =

(١) قوله: «من الحور العين» لعله: من حور العين. (ع)

(٢) قال محمود: «إنما استثنيت الموتة الأولى المذوقة قبل دخول الجنة من الموت المنفي ذوقه فيها... الخ» قال أحمد: هذا الذي ذكره مبني على أن الموتة بدل، على طريقة بني تميم المجوز فيها البدل من غير الجنس. وأما على طريقة الحجازيين، فانتصبت الموتة استثناء منقطعاً. وسر اللغة التيممية: بناء النفي المراد على وجه لا يبقى للسامع مطمئناً في الإثبات، فيقولون: ما فيها أحد إلا حمار، على معنى: إن كان الحمار من الأحدين ففيها أحد، فيعلقون الثبوت على أمر محال حتماً بالنفي. وعليه حمل الرمخسري (قل لا يعلم من في السموات والأرض الغيب إلا الله) أي إن كان الله ممن في السموات والأرض، ففي السموات والأرض من يعلم الغيب، فإذا نفر السامع من ثبوت الأول تعدت الفقرة إلى ثبوت الثاني، فجزمت بالنفي، والله أعلم.

= وقال الترمذي: هذا حديث حسن غريب لا نعرفه إلا من هذا الوجه، وعمر بن أبي خثعم يضعف، قال محمد: وهو منكر الحديث.

قال الحافظ: أخرجه الترمذي أيضًا وابن عدى والبيهقي في الشعب من رواية عمر بن خثعم عن يحيى بن أبي عن أبي سلمة عن أبي هريرة، وقال: غريب، وعمر يضعف. قال محمد: إنه منكر الحديث. قلت: وهو الذي قبله. انتهى.

١٤١١ - أخرجه الترمذي (١٦٣/٥) كتاب فضائل القرآن: باب ما جاء في فضل حم الدخان حديث (٢٨٨٩)، والدارمي (٣٥٧/٢) كتاب فضائل القرآن: باب في فضل (يس)، والطيالسي (٢٣/٢) - منحة رقم (١٩٧٠)، وأبو يعلى (٦٢٢٤)، وابن السني في «عمل اليوم والليلة» (٦٧٤)، والطبراني (١٤٩/١) كلهم من طريق الحسن عن أبي هريرة.

وقال الترمذي: هذا حديث لا نعرفه إلا من هذا الوجه، وهشام أبو المقدم يضعف ولم يسمع الحسن من أبي هريرة هكذا قال أيوب ويونس بن عبيد، وعلي بن زيد.

قال الحافظ ابن حجر: أخرجه الترمذي، وأبو يعلى، وابن السني في اليوم والليلة، والبيهقي في الشعب، وقال: تفرد به أبو المقدم وهو ضعيف. وعن الحسن عن أبي هريرة وقال الترمذي: أبو المقدم ضعيف والحسن لم يسمع من أبي هريرة. انتهى.

سورة الجاثية

مكية [إلا آية ١٤ فمدينة]

وآياتها ٣٧ وقيل ٣٦ آية [نزلت بعد الدخان]

١٧٥/٢ / بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿حَمْدٌ﴾ تَنْزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ ﴿٢﴾ إِنَّ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ لَآيَاتٍ لِّمُؤْمِنِينَ ﴿٣﴾ وَفِي خَلْقِكُمْ وَمَا يَبُثُّ مِنْ دَابَّةٍ ءَايَاتٌ لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴿٤﴾ وَاتَّخِذِ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ وَمَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ رِزْقٍ فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَتَصْرِيفِ الرِّيحِ ءَايَاتٌ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٥﴾ تِلْكَ ءَايَاتُ اللَّهِ تَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِالْحَقِّ فَيَأْتِي حَدِيثٌ بَعْدَ اللَّهِ وَءَايَاتُهُ يُؤْمِنُونَ ﴿٦﴾

﴿حَمْدٌ﴾ إن جعلتها اسماً مبتدأ مخبراً عنه بـ ﴿تَنْزِيلُ الْكِتَابِ﴾ لم يكن بدمن حذف مضاف، تقديره: تنزيل حم تنزيل الكتاب. و﴿مِنَ اللَّهِ﴾ صلة للتنزيل، وإن جعلتها تعديداً للحروف كان (تنزيل الكتاب) مبتدأ، والظرف خبراً ﴿إِنَّ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ يجوز أن يكون على ظاهره، وأن يكون المعنى؛ إن في خلق السموات لقوله: ﴿وَفِي خَلْقِكُمْ﴾ فإن قلت: علام عطف ﴿وَمَا يَبُثُّ﴾ أعلى الخلق المضاف؟ أم على الضمير المضاف إليه؟ قلت: بل على المضاف، لأن المضاف إليه ضمير متصل مجرور يقبح العطف عليه، استقبحوا أن يقال: مررت بك وزيد، وهذا أبوك وعمرو، وكذلك إن أكدوه كرهوا أن يقولوا: مررت بك أنت وزيد. قرئ «آيات لقوم يوقنون» بالنصب والرفع، على قولك: إن زيدا في الدار وعمراً في السوق. أو عمرو في السوق. وأما قوله: ﴿ءَايَاتُ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾^(١) فمن العطف على عاملين، سواء نصبت أو رفعت، فالعاملان إذا نصبت هما: إن، وفي، أقيمت الواو مقامهما، فعملت^(٢) الجر في ﴿وَاتَّخِذِ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ﴾، والنصب في ﴿لَآيَاتٍ﴾. وإذا رفعت فالعاملان: الابتداء وفي عملت الرفع في ﴿لَآيَاتٍ﴾، والجر في ﴿وَاتَّخِذِ﴾ وقرأ ابن مسعود «وفي اختلاف الليل والنهار» فإن قلت: العطف على عاملين على مذهب الأخفش

(١) قوله: «وأما قوله: آيات لقوم» أي مع قوله (واختلاف). (ع)

(٢) قوله: «فعملت» أي: الواو. (ع)

سديد لا مقال فيه . وقد أباه سيويوه ، فما وجه تخريج الآية عنده؟ قلت : فيه وجهان عنده . أحدهما : أن يكون على إضمار في . والذي حسنه تقدّم ذكره في الآيتين قبلها . ويعضده قراءة ابن مسعود . والثاني : أن ينتصب آيات على الاختصاص بعد انقضاء المجرور معطوفاً على ما قبله أو على التكرير ، ورفعها بإضمار هي : وقرئ : «واختلاف الليل والنهار» بالرفع . وقرئ : «آية» وكذلك وما يبيث من دابة آية . وقرئ «وتصريف الرياح» والمعنى : إن المنصفين من العباد إذا نظروا في السموات والأرض النظر الصحيح ، علموا أنها مصنوعة ، وأنه لا بدّ لها من صانع ، فأمنوا بالله وأقروا ، فإذا نظروا في خلق أنفسهم وتنقلها من حال إلى حال وهيئة إلى هيئة ، وفي خلق ما على ظهر الأرض من صنوف الحيوان : ازدادوا إيماناً ، وأيقنوا وانتفى عنهم اللبس ؛ فإذا نظروا في سائر الحوادث التي تتجدّد في كل وقت كاختلاف الليل والنهار ونزول الأمطار وحياة الأرض بها بعد موتها . ﴿ وَتَصْرِيفَ الرِّيحِ ﴾ جنوباً وشمالاً وقبلاً ودبوراً : عقلوا واستحكم علمهم وخلص يقينهم ، وسمي المطر رزقاً ؛ لأنه سبب الرزق ﴿ تِلْكَ ﴾ إشارة إلى الآيات المتقدّمة ، أي : تلك الآيات آيات الله . و﴿ تَتْلُوهَا ﴾ في محل الحال ، أي : متلوة ﴿ عَلَيْكَ بِالْحَقِّ ﴾ والعامل ما دل عليه تلك من معنى الإشارة . ونحوه : ﴿ وَهَذَا بَعْلِي شَيْخًا ﴾ ^(١) [هود : ٧٢] وقرئ «يتلوها» بالياء ﴿ بَعْدَ اللَّهِ وَآيَاتِهِ ﴾ أي بعد آيات الله كقولهم : أعجبني زيد وكرمه ، يريدون : أعجبني كرم زيد . ويجوز أن يراد : بعد حديث الله ، وهو كتابه وقرآنه ، كقوله تعالى ؛ ﴿ اللَّهُ زَلَّ أَحْسَنَ الْخَبَرِ ﴾ [الزمر : ٢٣] . وقرئ ﴿ يُؤْمِنُونَ ﴾ بالياء والياء .

﴿ وَيَلِكُلْ أَفَاكِ أَنْيَمِ ﴾ ﴿ ٧ ﴾ يَسْمَعُ ءَايَاتِ اللَّهِ تُنَلِّي عَلَيْهِ ثُمَّ يَصِرُّ مُسْتَكْبِرًا كَانَ لَمْ يَسْمَعْهَا فَبَرَّهٖ بِعَدَابِ أَلِيمِ ﴿ ٨ ﴾ وَإِذَا عَلِمَ مِنْ ءَايَاتِنَا شَيْئًا اتَّخَذَهَا هُزُوًا أُولَٰئِكَ هُمُ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴿ ٩ ﴾ مِنْ وَرَائِهِمْ جَهَنَّمُ وَلَا

(١) قال السمين الحلبي : قال الشيخ : وليس نحوه لأن في «وَهَذَا بَعْلِي» حرف تنبيه ف قيل العامل في الحال ما دل عليه حرف التنبيه أي تَنَبَّهَ وَأَمَّا «تِلْكَ» فليس فيها حرف تنبيه «فإذا كان حرف التنبيه» عاملاً بما فيه من معنى التنبيه لأن الحرف قد يعمل في الحال فالمعنى تنبه لزيد في حال شيخه أو في حال قيامه وقيل العامل في مثل هذا التركيب فَعَلٌ محذوف يدل عليه المعنى أي انظر إليه في حال شيخه فلا يكون اسم الإشارة عاملاً ولا حرف التنبيه إن كَانَ هناك فُلْتُ : بل الآية نحو ﴿ وَهَذَا بَعْلِي شَيْخًا ﴾ من حَيثُ نسبة العمل لاسم الإشارة غاية ما ثُمَّ أَنَّ في الآية الأخرى ما يصلح أن يكون عاملاً وهذا لا يقدح في التنظير إذا قصدت جهةً مشتركة وأما إضمار الفعل فهو مشترك في الموضوعين عند مَنْ يَرَى ذلك . قال ابن عطية : وفي «تَتْلُوهَا» حذف مضاف أي تَتْلُو شَأْنَهَا وَشَرَحَ الْعِزَّةَ فيها ويحتمل أن يريد بآيات الله القرآن الْمُتَرَلَّل في هذا المعنى فلا يكون فيها حذف مضاف . وقرأ بعضهم «تَتْلُوهَا» بياء الغيبة عائداً على الباري تعالى و«بِالْحَقِّ» حالٌ من الفاعل أي مُلْتَبِسِينَ بِالْحَقِّ أَوْ من المفعول أي مُلْتَبَسَةً بِالْحَقِّ ، ويجوز أن تكون للسببية وتعلق بنفس «تَتْلُوهَا» . انتهى . الدر المصون .

يُعْنِي عَنْهُمْ مَا كَسَبُوا شَيْئًا وَلَا مَا اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ أَوْلِيَاءَ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١٠﴾

الأفك: الكذاب، والأنيم: المتبالغ في اقتراف الآثام ﴿يُصِرُّ﴾ يقبل على كفره ويقيم عليه. وأصله من إصرار الحمار على العانة^(١) وهو أن ينحى عليها صائرًا أذنيه ﴿مُسْتَكْبِرًا﴾ عن الإيمان بالآيات والإذعان لما ينطق به من الحق، مزدريًا لها معجبًا بما عنده. قيل: نزلت في النضر بن الحارث وما كان يشتري من أحاديث الأعاجم، ويشغل الناس بها عن استماع القرآن. والآية عامة في كل ما كان مضارًا لدين الله. فإن قلت: ما معنى ثم في قوله: ﴿ثُمَّ يُصِرُّ مُسْتَكْبِرًا﴾؟ قلت: كمعناه في قول القائل [من الطويل]:

..... يَرَى غَمَرَاتِ الْمَوْتِ ثُمَّ يَزُورُهَا^(٢)

وذلك أن غمرات الموت حقيقة، بأن ينجو رائيها بنفسه ويطلب الفرار عنها. وأما زيارتها والإقدام على مزاولتها. فأمر مستبعد، فمعنى ثم: الإيذان بأن فعل المقدم عليها بعدما رآها وعانيتها؛ شيء يستبعد في العادات والطباع، وكذلك آيات الله الواضحة الناطقة بالحق، من تليت عليه وسمعتها: كان مستبعدًا في العقول إصراره على الضلالة عندها واستكباره عن الإيمان بها ﴿كَأَنَّ﴾ مخففة، والأصل كأنه لم يسمعها / ٢ / ١٧٥ ب: والضمير ضمير الشأن، كما في قوله [من الطويل]:

..... كَأَنَّ ظُبْيَةً^(٣) تَعْطُو إِلَى وَارِقِ السَّلَمِ^(٤)

(١) قوله: «من إصرار الحمار على العانة» جماعة حمر الوحش كما في الصحاح. وفيه أيضًا: ضر الفرس أذنيه: ضمها إلى رأسه، فإذا لم يوقعوا قالوا: أصر الفرس، بالالف. (ع)
(٢) تقدم.

(٣) فيومًا توافينا بوجه مقسم كأن ظبية تعطو إلى وارق السلم
ويومًا تريد مالنا مع مالها فإن لم ننلها لم تمننا ولم تنم
لباعث بن صريم الشكري يذكر حال امرأته. ويومًا: ظرف مقدم. ويوم: أي: ورب يوم تقابلنا فيه ولا حاجة لتقدير الرابط على نصب اليوم. وقسم قسامًا وقسامة، كجمل جمالًا. وظرف ظرافة. والمقسم: المحسن. وكأن: مخففة من الثقيلة، واسمها ضمير المرأة، أو ضمير الشأن. وظبية: بالرفع على الأول خبر. وعلى الثاني: مبتدأ، وهو مع خبره خبر كأن. وتعطو: صفة على الأول، وهو الخبر على الثاني. ويروى: ظبية، بالنصب؛ فهو الاسم وإن كان عملها مخففة قليلًا. ويروى: مجرورًا بالكاف، وأن: زائدة بين الجار والمجورور: وتعطو: تأخذ وتتناول، ماثلة إلى وارق السلم. ومن النوادر: أورق فهو وارق. وأينع فهو يانع. والقياس: مورك، أي: كثير الورق. ويروى: ناضر، بدل: وارق. والسلم: شجر العضاء، هذا شأنها في يوم. وفي يوم آخر تؤذينا فتريد مالنا منضمًا إلى مالها، فإن نعطها لم تتركنا ننام من كثرة كلامها وإيذائها، ولم تنم هي أيضًا. واليوم هنا: مطلق الزمن.

ومحل الجملة النصب على الحال. أي: يصر مثل غير السامع ﴿وَإِذَا﴾ بلغه شيء من آياتنا وعلم أنه منها ﴿أَتَّخَذَهَا﴾ أي اتخذ الآيات ﴿هَزُؤًا﴾ ولم يقل: اتخذها، للإشعار بأنه إذا أحس بشيء من الكلام أنه من جملة الآيات التي أنزلها الله تعالى على محمد ﷺ: خاض في الاستهزاء بجميع الآيات. ولم يقتصر على الاستهزاء بما بلغه، ويحتمل: وإذا علم من آياتنا شيئاً يمكن أن يتشبث به المعاند ويجد له محملاً يتسلى به على الطعن والغمزة: افترضه واتخذ آيات الله هزواً، وذلك نحو افتراض ابن الزبير قوله عز وجل: ﴿إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ﴾ [الأنبياء: ٩٨] ومغالطته رسول الله ﷺ، وقوله: خضتمك. ويجوز أن يرجع الضمير إلى شيء؛ لأنه في معنى الآية كقول أبي العتاهية [من البسيط]:

نَفْسِي بِشَيْءٍ مِنَ الدُّنْيَا مُعَلِّقَةٌ اللَّهُ وَالْقَائِمُ الْمَهْدِيُّ يَكْفِيهَا ^(١)
حيث أراد عتبة. وقرئ: «علم أولئك» إشارة إلى كل أفك أثيم، لشموله الأفاكين.
والوراء اسم للجهة التي يواربها الشخص من خلف أو قدام. قال [من الطويل]:
أَلَيْسَ وَرَائِي أَنْ تَرَاخَتْ مَنِئِيَّتِي؟ أَدِبٌ مَعَ الْوِلْدَانِ أَزْحَفُ كَالنُّسْرِ ^(٢)

= البيت في خزنة الأدب. ٤١١/١٠، أوضح المسالك ٣٧٧/١، وجواهر الأدب ص ١٩٧، والجنى الداني ص ٢٢٢، ٥٢٢، ورصف المباني ص ١١٧، ٢١١، وسر صناعة الإعراب ٦٨٣/٢، وسمط اللآلي ص ٨٢٩، وشرح الأشموني ١٤٧/١، ٣٣١، وشرح قطر الندى ص ١٥٧، والكتاب ١٦٥/٣، والمحتسب ٣٠٨/١، ومغني اللبيب ٣٣/١، والمقرب ١١١/١، ٢٠٤، والمنصف ١٢٨/٣، وجمع الهوامع ١٤٣/١، والدر المصون ٣٩٠/٢.

(١) نفسي بشيء من الدنيا معلقة الله والقائم المهدي يكفيها
إنني لأياس منها ثم يطمعني فيها احتقارك للدنيا وما فيها
لأبي العتاهية. وكنى بالشيء عن جارية من حظايا المهدي اسمها عتبة، ولذلك أعاد عليه الضمير مؤثراً. وقوله: «من الدنيا» معناه: أنه لا يريد من الدنيا غيره. والقائم: أي بأمر الشرع. ويكفيها، أي: يكفيني تلك الحاجة. أو يكفي نفسي ما تريد، والله: بقطع الهمزة؛ لأن أول المصراع محل ابتداء في الجملة، إنني لأياس أي أقطع طمعي منها، ثم أطمع فيها ثانياً بسبب احتقارك للدنيا وما فيها. وهو مدح بنهاية الكرم. وروي أنه كتب ذلك في ثوب، وأدرجه في برنية وأهداها للمهدي، فهم بدفعها إليه فقالت: أتدفعني إلى رجل متكسب بالتعشق، فأمر بملء البرنية مالا ودفعها إليه، فقال للخزان: إنما أمر لي بدنانير، فقال له: نعطيك دراهم ونراجعه. واختلوا في ذلك سنة، فقالت: لو كان عاشقاً لما فرق بينهما.

ينظر: ديوانه (٣٤٧)، والبحر المحيط (٤٤/٨)، والدر المصون (١٢٦/٦).

(٢) لعبيد، والهمزة للتقرير. وورائي هنا بمعنى: أمامي، وهو في الأصل: الجهة التي يواربها الشخص، لكن يكثر في الجهة التي خلفه، وتوسع فيه حتى استعمل في كل غيب. ونه: المستقبل. وتراخت: تباعدت وتأخرت. وأدب: أمشى بهينة وتؤدة. وأن المصدرة مقدرة قبله؛ لأنه اسم =

ومنه قوله عز وجل: ﴿يَنْ وَرَأَيْهِمْ﴾ أي من قدامهم ﴿مَا كَسَبُوا﴾ من الأموال في رحلهم ومتاجرهم ﴿وَلَا مَا أَخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾ من الأوثان.

﴿هَذَا هُدًى وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ لَهُمْ عَذَابٌ مِّن رَّجَزٍ أَلِيمٌ﴾ (١١)

﴿هَذَا﴾ إشارة إلى القرآن، يدل عليه قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ﴾ لأن آيات ربهم هي القرآن، أي هذا القرآن كامل في الهداية، كما تقول: زيد رجل، تريد كامل في الرجولية. وأما رجل. والرجز: أشد العذاب. وقرئ بجر «اليم» ورفع.

﴿اللَّهُ الَّذِي سَخَّرَ لَكُمُ الْبَحْرَ لِيَجْزِيَ الْفُلُوكَ فِيهِ بِأَمْرِهِ وَلِيُنَبِّئُوا مِن فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ (١٢)

﴿وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مِّنْهُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ (١٣)

﴿وَلِيُنَبِّئُوا مِن فَضْلِهِ﴾ بالتجارة أو بالغوص على اللؤلؤ والمرجان واستخراج اللحم الطري وغير ذلك من منافع البحر. فإن قلت: ما معنى ﴿مِّنْهُ﴾ في قوله: ﴿جَمِيعًا مِّنْهُ﴾ وما موقعها من الإعراب، قلت: هي واقعة موقع الحال، والمعنى: أنه سخر هذه الأشياء كائنة منه وحاصلة من عنده، يعني: أنه مكوّنها وموجدتها بقدرته وحكمته، ثم مسخرها لخلقها. ويجوز أن يكون خبر مبتدأ محذوف، تقديره: هي جميعاً منه، وأن يكون ﴿وَسَخَّرَ لَكُم﴾ تأكيداً لقوله تعالى: ﴿سَخَّرَ لَكُم﴾ ثم ابتدئ قوله: ﴿مَّا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مِّنْهُ﴾ وأن يكون ﴿وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾ مبتدأ، و﴿مِّنْهُ﴾ خبره. وقرأ ابن عباس رضي الله عنهما: «منة» وقرأ سلمة بن محارب: منه، على أن يكون منه فاعل سخر على الإسناد المجازي. أو على أنه خبر مبتدأ محذوف، أي: ذلك. أو هو منه.

﴿قُلْ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا يَغْفِرُوا لِلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ أَيَّامَ اللَّهِ لِيَجْزِيَ قَوْمًا بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ (١٤)

﴿عَمِلَ صَالِحًا فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ أَسَاءَ فَعَلَيْهَا ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ﴾ (١٥)

حذف المقول لأن الجواب دال عليه. والمعنى: قل لهم اغفروا يغفروا ﴿لَا يَرْجُونَ أَيَّامَ﴾ لا يتوقعون وقائع الله بأعدائه، من قولهم لوقائع العرب: أيام العرب. وقيل: لا يأملون الأوقات التي وقتها الله لثواب المؤمنين ووعدهم الفوز فيها. قيل: نزلت قبل آية القتال، ثم نسخ حكمها. وقيل: نزلها في عمر رضي الله عنه - وقد شتمه رجل من غفار

= ليس، وإن كان لفظه مرفوعاً. وأزحف: يحتمل أنه بدل، وأنه حال. وكالنسر: حال. أو معناه: كزحف النسر في الأرض، مع كونه أبيض وفيه نوع احتراس؛ لأنه يتوهم من قوله: «مع الولدان» نقص عقله، فدل على أن المراد الضعف كالولدان. والشيب كالنسر؛ لأنه أبيض، مع كونه رئيس الطيور وكلها تخشاه.

فهم أن يبطش به . وعن سعيد بن المسيب : كنا بين يدي عمر بن الخطاب رضي الله عنه فقرأ قارئ هذه الآية ، فقال عمر : ليجزي عمر بما صنع ﴿لِيَجْزِيَ﴾ تعليل الأمر بالمغفرة ، أي : إنما أمروا بأن يغفروا لما أَرَادَ الله من توفيتهم جزاء مغفرتهم يوم القيامة . فإن قلت : قوله : ﴿قَوْمًا﴾ ما وجه تكيده وإنما أراد الذين آمنوا وهم معارف ؟ قلت : هو مدح لهم وثناء عليهم ، كأنه قيل : ليجزي أيما قوم وقومًا^(١) مخصصين ، لصبرهم وإغضائهم على أذى أعدائهم من الكفار ، وعلى ما كانوا يجرعونهم من الغصص ﴿يَمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ من الثواب العظيم بكظم الغيظ واحتمال المكروه ومعنى قول عمر : ليجزي عمر بما صنع : ليجزي بصبره واحتماله . وقوله لرسول الله ﷺ عند نزول الآية : والذي بعثك بالحق لا ترى الغضب في وجهي . وقرأ «ليجزي قوما» أي : الله عز وجل . وليجزي قوم . وليجزي قوما ، على معنى : وليجزي الجزاء قوما .

﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا بَنِي إِسْرَءِيلَ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ وَزَوَّجْنَاهُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ﴾ (١٦) ﴿وَأَتَيْنَاهُم بِبَنَاتٍ مِّنَ الْأَمْثَرِ فَمَا اخْتَلَفُوا إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِي بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾ (١٧)

﴿الْكِتَابَ﴾ التوراة ﴿وَالْحُكْمَ﴾ الحكمة والفقه . أو فصل الخصومات بين الناس ؛ لأن الملك كان فيهم ١١٧٦/٢ والنبوّة ﴿مِنَ الطَّيِّبَاتِ﴾ مما أحل الله لهم وأطاب من الأرزاق ﴿وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ﴾ حيث لم نؤت غيرهم مثل ما آتيناهم ﴿بَبَنَاتٍ﴾ آيات ومعجزات ﴿مِنَ الْأَمْثَرِ﴾ من أمر الدين ، فما وقع بينهم الخلاف في الدين ﴿إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمْ﴾ ما هو موجب لزوال الخلاف وهو العلم . وإنما اختلفوا لبغي حدث بينهم ، أو لعداوة وحسد .

﴿ثُمَّ جَعَلْنَاكَ عَلَىٰ شَرِيعَةٍ مِّنَ الْأَمْرِ فَاتَّبِعْهَا وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ (١٨) ﴿إِنَّهُمْ لَن يَغْنُؤُوا عَنْكَ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا وَإِنَّ الظَّالِمِينَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ وَاللَّهُ وَلِيُّ الْمُتَّقِينَ﴾ (١٩)

﴿عَلَىٰ شَرِيعَةٍ﴾ على طريقة ومنهاج ﴿مِنَ الْأَمْرِ﴾ من أمر الدين ، فاتبع شريعتك الثابتة بالدلائل والحجج ، ولا تتبع ما لا حجة عليه من أهواء الجهال ، ودينهم المبني على هوى وبدعة ، وهم رؤساء قريش حين قالوا : ارجع إلى دين أبائك . ولا توالهم ، إنما يوالي الظالمين من هو ظالم مثلهم ، وأما المتقون ، فوليهم الله وهم موالوه . وما أبين الفصل بين الولايتين .

﴿هَذَا بَصِيرَةٌ لِّلنَّاسِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾ (٢٠)

(١) قوله : «أيما قوم وقومًا مخصصين» لعله : أو قوما . (ع)

﴿ هَذَ الْقَرَّانَ ﴾ بَصَّيْرُ لِلنَّاسِ جعل ما فيه من معالم الدين والشرائع بمنزلة البصائر في القلوب. كما جعل روحاً وحياة وهو هدى من الضلالة، ورحمة من العذاب لمن آمن وأيقن. وقرئ «هذه بصائر» أي: هذه الآيات.

﴿ أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ اجْتَرَحُوا السَّيِّئَاتِ أَنْ نَجْعَلَهُمْ كَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَوَاءً نَحْنُهُمْ وَمَا هُمْ بِمَعْمُومِينَ ﴾

﴿ أَمْ ﴾ منقطعة. ومعنى الهمزة فيها إنكار الحسبان. والاجتراح: الاكتساب. ومنه الجوارح وفلان جارحة أهله، أي: كاسبهم ﴿ أَنْ نَجْعَلَهُمْ ﴾ أي نصيرهم. وهو من جعل المتعدي إلى مفعولين فأولهما الضمير، والثاني: الكاف، والجملة التي هي ﴿ سَوَاءً نَحْنُهُمْ وَمَا هُمْ ﴾ بدل من الكاف؛ لأنَّ الجملة تقع مفعولاً ثانياً، فكانت في حكم المفرد. ألا تراك لو قلت: أن نجعلهم سواء محياهم ومماتهم، كان سديداً، كما تقول: ظننت زيذا أبوه منطلق^(١). ومن قرأ «سواء» بالنصب: أجرى سواء مجرى مستويّاً، وارتفع محياهم ومماتهم على الفاعلية، وكان مفرداً غير جملة. ومن قرأ: «ومماتهم» بالنصب، جعل محياهم ومماتهم: ظرفين، كمقدم الحاج وخفوق النجم. أي سواء: سواء في محياهم وفي مماتهم. والمعنى: إنكار أن يستوي المسيئون والمحسنون محيا، وأن يستوا مماتاً؛ لافتراق أحوالهم أحياء. حيث عاش هؤلاء على القيام بالطاعات، وأولئك على ركوب المعاصي. ومماتاً، حيث مات هؤلاء على البشري بالرحمة والوصول إلى ثواب الله ورضوانه، وأولئك على اليأس من رحمة الله والوصول إلى هول ما أعدَّ لهم. وقيل: معناه إنكار أن يستوا في الممات كما استوا في الحياة، لأنَّ المسيئين والمحسنين مستو محياهم في الرزق والصحة، وإنما يفترون في الممات، وقيل: سواء محياهم ومماتهم: كلام مستأنف على معنى: أن محيا المسيئين ومماتهم سواء، وكذلك محيا المحسنين ومماتهم: كل يموت على حسب ما عاش عليه. وعن تميم الداري رضي الله عنه أنه كان يصلي ذات ليلة عند المقام، فبلغ هذه الآية، فجعل يبكي ويردد إلى الصباح: ساء ما

(١) قال السمين الحلبي: قال الشيخ: وهذا أعني إبدال الجملة من المفرد أجازة ابن جني وابن مالك ومنعه ابن الجليل ثم ذكر عنه كلاماً كثيراً في تقرير ذلك ثم قال: والذي يظهر أنه لا يجوز. يعني ما جَوَّزَ الزمخشري قال: لأنهما بمعنى التَّصْيِيرِ ولا يجوز صَيَّرْتُ زيذا أبوه قائمٌ لأنَّ التصيير انتقالٌ من ذاتٍ إلى ذاتٍ أو من وَصَفٍ في الذات إلى وَصَفٍ فيها وتلك الجملة الواقعة بعد مفعول صَيَّرْتُ المقدَّرة مفعولاً ثانياً لأنَّ النحاة نَصُّوا على جَوَّازِ وقوع الجملة صفةً وحالاً نحو: مررتُ برجل أبوه قائمٌ، وجاء زيد أبوه قائمٌ فالذي حكموا عليه بالوصفية والحالية يجوز أن يقع في حَيِّزِ التصيير إذ لا فَرْقَ بين صفةٍ وصفةٍ من هذه الحثية. انتهى الدر المصون.

يحكمون. وعن الفضيل: أنه بلغها فجعل يردها ويبكي ويقول: يا فضيل، ليت شعري من أي الفريقين أنت.

﴿وَخَلَقَ اللَّهُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ وَلِتُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ (٢٢)

﴿وَلِتُجْزَى﴾ معطوف على بالحق، لأن فيه معنى التعليل. أو على معلن محذوف تقديره: خلق الله السموات والأرض، ليدل به على قدرته ولتجزى كل نفس.

﴿أَفَرَأَيْتَ مَنِ اخْتَذَ إِلَهُهُ هَوْنَهُ وَأَصْلَهُ اللَّهَ عَلَىٰ عِلْرٍ وَخَمَّ عَلَىٰ سَمْعِهِ وَقَلْبِهِ وَجَعَلَ عَلَىٰ بَصَرِهِ غِشْوَةً فَمَنْ يَهْدِيهِ مِنْ بَعْدِ اللَّهِ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ (٢٣)

أي: هو مطواع لهوى النفس يتبع ما تدعوه إليه، فكأنه يعبد كما يعبد الرجل إلهه. وقرئ: «آلهة هواه»، لأنه كان يستحسن الحجر فيعبده، فإذا رأى ما هو أحسن رفضه إليه، فكأنه اتخذ هواه آلهة شتى يعبد كل وقت واحدا منها ﴿وَأَصْلَهُ اللَّهُ عَلَىٰ عِلْرٍ﴾ وتركه عن الهداية^(١) واللفظ وخذله على علم، عالما بأن ذلك لا يجدي عليه، وأنه ممن لا لطف له. أو مع علمه بوجوه الهداية وإحاطته بأنواع الألفاظ المحصلة والمقربة^(٢) ﴿فَمَنْ يَهْدِيهِ مِنْ بَعْدِ﴾ إضلال ﴿اللَّهُ﴾ وقرئ «غشاوة» بالحركات الثلاث. وغشوة، بالكسر والفتح. وقرئ: «تذكرون».

﴿وَقَالُوا مَا هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَا إِلَّا الدَّهْرُ وَمَا لَهُمْ بِذَلِكَ مِنْ عِلْمٍ إِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ﴾ (٢٤)

﴿نَمُوتُ وَنَحْيَا﴾ نموت نحن ويحيا أولادنا. أو يموت بعض ويحيا بعض. أو نكون مواتا نطقا في الأصلاب، ونحيا بعد ذلك. أو يصيبنا الأمان/٢/١٧٦ب: الموت والحياة، يريدون: الحياة في الدنيا والموت بعدها، وليس وراء ذلك حياة. وقرئ: «نحيا» بضم النون. وقرئ: «إلا دهر يمر» ما يقولون ذلك عن علم، ولكن عن ظن وتخمين: كانوا يزعمون أن مرور الأيام والليالي هو المؤثر في هلاك الأنفس، وينكرون ملك الموت وقبضه الأرواح بأمر الله، وكانوا يضيفون كل حادثة تحدث إلى الدهر والزمان، وترى

(١) قوله: «وتركه عن الهداية» تأويل الآية بذلك لتوافق مذهب المعتزلة: أنه لا يريد الشر ولا يفعله. وعند أهل السنة: لا يقع في ملكه إلا ما يريد، والله خالق كل شيء، فالإضلال: خلقه الضلال في القلب. (ع)

(٢) قوله: «المحصلة والمقربة» يعني: للهداية. (ع)

أشعارهم ناطقة بشكوى الزمان. ومنه قوله عليه الصلاة والسلام: «لا تسبوا الدهر، فإن الله هو الدهر» (١٤١٢) أي: فإن الله هو الآتي بالحوادث لا الدهر.

﴿وَإِذَا نُنَاقِلُ عَلَيْهِمْ ءِثْمَنَا بَيِّنَتٍ مَا كَانَ حُجَّتَهُمْ إِلَّا أَنْ قَالُوا اتَّبَعْنَا بِآبَائِنَا إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿٢٥﴾ قُلْ اللَّهُ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يَجْمَعُكُمْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَمَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٢٦﴾﴾

وقرئ «حجتهم» بالنصب والرفع، على تقديم خبر كان وتأخيرها. فإن قلت: لم سمّي قولهم حجة وليس بحجة؟ قلت: لأنهم أدلوا به كما يدلي المحتج بحجته وساقوه مساقها، فسميت حجة على سبيل التهكم. أو لأنه في حسابناهم وتقديرهم حجة. أو لأنه في أسلوب قوله [من الوافر]:

تَحِيَّةٌ بَيْنَهُمْ ضَرْبٌ وَجِيعٌ^(١)

كأنه قيل: ما كان حجتهم إلا ما ليس بحجة. والمراد: نفي أن تكون لهم حجة البتة. فإن قلت: كيف وقع قوله: ﴿قُلْ اللَّهُ يُحْيِيكُمْ﴾ جواباً لقولهم: ﴿اتَّبَعْنَا بِآبَائِنَا إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾؟ قلت: لما أنكروا البعث وكذبوا الرسل، وحسبوا أن ما قالوه قول مبكت. ألزموا ما هم مقرّون به: من أن الله عز وجل هو الذي يحييهم ثم يميتهم، وضم إلى إلزام ذلك إلزام ما هو واجب الإقرار به إن أنصفوا وأصغوا إلى داعي الحق، وهو جمعهم إلى يوم القيامة، ومن كان قادراً على ذلك كان قادراً على الإتيان بآبائهم، وكان أهون شيء عليه.

﴿وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يُنْفِخُ الْمُبْطِلُونَ ﴿٢٧﴾ وَرَأَى كُلُّ أُمَّةٍ جَائِئَةً كُلُّ أُمَّةٍ تُدْعَى إِلَى كِتَابِهَا الْيَوْمَ تُحْزَنُونَ مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٢٨﴾ هَذَا كِتَابُنَا يَنْطِقُ عَلَيْكُمْ بِالْحَقِّ إِنَّا كُنَّا نَسْتَنسِخُ مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٢٩﴾ فَأَمَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَيَدْخُلُهُمْ رَبُّهُمْ فِي رَحْمَتِهِ

١٤١٢ - أخرجه البخاري في صحيحه (٥٤٥/٩): كتاب التفسير: باب وما يهلكنا إلا الدهر، حديث (٤٨٢٦) وفي (٤٣٢/١٥) كتاب التوحيد: باب قول الله تعالى: ﴿يُرِيدُونَ أَنْ يُبَدِّلُوا كَلَامَ اللَّهِ﴾، حديث (٧٤٩١)، ومسلم (٥/٨): كتاب الألفاظ من الأدب وغيرها. باب النهي عن سب الدهر، حديث برقم (٢٢٤٦). وأحمد في مسنده (٢٣٨/٢)، وأبو داود (٣٦٩/٤): كتاب الأدب: باب في الرجل سب الدهر (٥٢٧٤) الحميدي في مسنده (٤٦٨/٢) حديث (١٠٩٦). كلهم من طريق ابن شهاب الزهري عن سعيد بن المسيب عن أبي هريرة. وأخرجه مسلم (٥/٨): كتاب الألفاظ من الأدب وغيرها. باب النهي عن سب الدهر، حديث (٢٢٤٦) (٥) وأبو يعلى الموصلي في مسنده (٤٥٢/٢٠) حديث برقم (٦٠٦٦). والخطيب في تاريخ بغداد (٣٣٤/٧). من طريق هشام بن حسان عن محمد بن سيرين عن أبي هريرة. قال الحافظ: متفق عليه من حديث أبي هريرة، واللفظ لمسلم. انتهى.

ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْمُبِينُ ﴿٣٠﴾ وَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا أَفَلَمْ تَكُنْ مَا بَيْنِي تَتْلَىٰ عَلَيْهِمْ فَاستَكْبَرْتُمْ وَكُنتُمْ قَوْمًا

تُجْرِمِينَ ﴿٣١﴾

عامل النصب في ﴿وَيَوْمَ نَقُومُ﴾ يخسر، و﴿يَوْمَ يَذَّكَّرُ﴾ بدل من (يوم تقوم) ﴿جَائِئَةً﴾ باركة مستوفزة على الركب. وقرئ: «جاذية». والجذو: أشد استيفازًا من الجثو؛ لأن الجاذي هو الذي يجلس على أطراف أصابعه. وعن ابن عباس رضي الله عنهما: جائية مجتمعة. وعن قتادة جماعات من الجثوة، وهي الجماعة، وجمعها: جثي. وفي الحديث: «من جثي جهنم»^(١) (١٤١٣) وقرئ: ﴿كُلُّ أُمَّةٍ﴾ على الابتداء، وكل أمة: على الإبدال من كل أمة ﴿إِلَّا كِتَابَهَا﴾ إلى صحائف أعمالها، فاكتفى باسم الجنس، كقوله تعالى: ﴿وَوُضِعَ الْكِتَابُ فَتَرَى الْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ﴾ [الكهف: ٤٩]. ﴿الْيَوْمَ تُجْرَوْنَ﴾ محمول على القول. فإن قلت: كيف أضيف الكتاب إليهم وإلى الله عز وجل؟ قلت: الإضافة تكون للملابسة، وقد لا بسهم ولا بسه، أما ملابسته إياهم، فلأن أعمالهم مثبتة فيه. وأما ملابسته إياه؛ فلا أنه مالكة، والأمر ملائكته أن يكتبوا فيه أعمال عبادهم ﴿يَتْلُو عَلَيْكُمْ﴾ يشهد عليكم بما عملتم ﴿يَالْحَقُّ﴾ من غير زيادة ولا نقصان ﴿إِنَّا كُنَّا نَسْنِسُخُ﴾ الملائكة ﴿مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ أي نستكتبهم أعمالكم ﴿فِي رَحْمَةٍ﴾ في جنته. وجواب أما محذوف تقديره: وأما الذين كفروا

١٤١٣ - أخرجه الترمذي في سننه (١٤٨/٥) كتاب الأمثال: باب ما جاء في مثل الصلاة والصيام والصدقة. حديث (٢٨٦٣) والنسائي في الكبرى (٢٧٢/٥)، كتاب الوعيد لمن دعا بدعوى الجاهلية: حديث (٨٨٦٦).

وأحمد في المسند (١٣٠/٤). والطبراني في معجمه الكبير (٣٢٦/٣) حديث (٣٤٣٠)، وأبو داود الطيالسي (٥٣/٢): كتاب خصال الخير من البر والحكم والمواعظ والأمثال: باب ما جاء في خمس خصال مجتمعة (٢١٤٨) وابن خزيمة (٦٤/٢): كتاب الصلاة، باب النهي عن الالتفات في الصلاة، حديث (٩٣). وأبو يعلى الموصلي في مسنده (١٤٠/٣) حديث (١٥٧١) وابن حبان في صحيحه (١٢٤/١٤): كتاب التاريخ باب بدء الخلق حديث (٦٢٣٣). والحاكم في المستدرک (١/١١٨) كتاب العلم.

قال الحافظ ابن حجر في هذا طرف من حديث الحرث بن الحرث الأشعري، قال: قال رسول الله ﷺ: «من دعا بدعوى الجاهلية فإنه من جثي جهنم... الحديث» أخرجه الترمذي، والنسائي، وابن حبان، والحاكم، وأحمد، وأبو يعلى، (تنبيه) احتج به المصنف على أن جثي جمع جثوة: وهي الجماعة. وفي البخاري من حديث ابن عمر رضي الله عنهما رفعه «إن الناس يصيرون يوم القيام جثا، كل أمة تتبع نبيها». انتهى.

(١) قوله: «من جثي جهنم» في الصحاح «الجثوة» مثلثة: الحجارة المجموعة. وجثي الحرم، بالضم وبالكسر: ما اجتمع فيه من حجارة الجمار. (ع)

فيقال لهم ﴿أَفَلَمْ تَكُنْ ءَاتِي تَتْلَىٰ عَلَيْهِمْ﴾ والمعنى ألم يأتكم رسلي فلم تكن آياتي تتلى عليكم، فحذف المعطوف عليه.

﴿وَإِذَا قِيلَ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَالسَّاعَةُ لَا رَيْبَ فِيهَا قُلْتُمْ مَا نَدْرِي مَا السَّاعَةُ إِنْ نَظُنُّ إِلَّا ظَنًّا وَمَا نَحْنُ بِمُستَقِينَ﴾ (٢٢) وَبَدَأْهُمْ سِيقَاتٍ مَا عَمِلُوا وَحَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٢٣﴾

وقرئ: «والساعة» بالنصب عطفًا على الوعد، وبالرفع عطفًا على محل إن واسمها ﴿مَا السَّاعَةُ﴾ أي شيء الساعة؟ فإن قلت: ما معنى ﴿إِنْ نَظُنُّ إِلَّا ظَنًّا﴾؟ قلت: أصله نظن ظنًا. ومعناه: إثبات الظن فحسب، فأدخل حرفا النفي والاستثناء، ليفاد إثبات الظن مع نفي ما سواه وزيد نفي ما سوى الظن توكيدًا بقوله: ﴿وَمَا نَحْنُ بِمُستَقِينَ﴾ سِيقَاتٍ مَا عَمِلُوا أي قبائح أعمالهم. أو عقوبات أعمالهم السيئات، كقوله تعالى: ﴿وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِثْلُهَا﴾ [الشورى: ٤٥].

﴿وَقِيلَ الْيَوْمَ نَنسِفُكُمْ كَمَا نَسِفْنَا لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَذَا وَمَأْوَهُمُ النَّارُ وَمَا لَكُمْ مِنْ نَاصِرِينَ﴾ (٢٤) ذَلِكُمْ بِأَنَّهُمْ أَخَذُوا ءَايَاتِ اللَّهِ هُزُولًا وَغَرَّكُمْ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا فَالْيَوْمَ لَا يُخْرِجُونَ مِنْهَا وَلَا هُمْ يُسْعَوُونَ ﴿٢٥﴾

﴿نَنسِفُكُمْ﴾ نترككم في العذاب كما تركتم عدة ﴿لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَذَا﴾ وهي الطاعة، أو نجعلكم بمنزلة الشيء المنسي غير المبالى به، كما لم تبالوا أنتم بقاء يومكم ولم تخطرورة ببال، كالشيء الذي يطرح نسيًا منسيًا. فإن قلت: فما معنى إضافة اللقاء إلى اليوم؟ قلت: كمعنى إضافة المكر في قوله تعالى: ﴿بَلْ مَكْرٌ أَلِيلٌ وَالنَّهَارُ﴾ [سبأ: ٣٣] أي نسيتم لقاء الله في يومكم هذا ولقاء جزائه ١٧٧/٢ أ. وقرئ «لا يخرجون» بفتح الياء ﴿وَلَا هُمْ يُسْعَوُونَ﴾ ولا يطلب منهم أن يعتبوا ربهم أي يرضوه.

﴿فَلِلَّهِ الْحَمْدُ رَبِّ السَّمَوَاتِ وَرَبِّ الْأَرْضِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ (٢٦) وَلَهُ الْكِبَرِيَاءُ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿٢٧﴾

﴿فَلِلَّهِ الْحَمْدُ﴾ فاحمدوا الله الذي هو ربكم ورب كل شيء من السموات والأرض والعالمين، فإن مثل هذه الربوبية العامة يوجب الحمد والثناء على كل مريبوب. وكبروه فقد ظهرت آثار كبريائه وعظمته ﴿فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ وحق مثله أن يكبر ويعظم.

عن رسول الله ﷺ: «من قرأ حم الجاثية ستر الله عورته وسكن روعته يوم الحساب» (١٤١٤).

١٤١٤ - تقدم برقم (٣٤٦). وقال الحافظ ابن حجر: أخرجه الثعلبي، وابن مردويه، والواحدي بأسانيدهم إلى أبي بن كعب. انتهى.

سورة الأحقاف

مكية [إلا الآيات ١٠ و ١٥ و ٣٥ فمدنية]

وآياتها ٣٤ وقيل ٣٥ آية [نزلت بعد الجاثية]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿حَمْدٌ ﴿١﴾ تَنْزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ ﴿٢﴾ مَا خَلَقْنَا السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ وَأَجَلٍ مُّسَمًّى وَالَّذِينَ كَفَرُوا عَمَّا أُنذِرُوا مُّعْرِضُونَ ﴿٣﴾﴾

﴿إِلَّا بِالْحَقِّ﴾ إلا خلقًا ملتبسًا بالحكمة والغرض الصحيح وبتقدير ﴿وَأَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ ينتهي إليه وهو يوم القيامة ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا عَمَّا أُنذِرُوا﴾ من هول ذلك اليوم الذي لا بد لكل خلق من انتهائه إليه ﴿مُّعْرِضُونَ﴾ لا يؤمنون به ولا يهتمون بالاستعداد له . ويجوز أن تكون ما مصدرية، أي: عن إنذارهم ذلك اليوم.

﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ مَا تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَرُونِي مَاذَا خَلَقُوا مِنَ الْأَرْضِ أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِي السَّمَوَاتِ أَتُنثَوِي بِكِتَابٍ مِنْ قَبْلِ هَذَا أَوْ أَثَرَةٍ مِنْ عِلْمٍ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿٤﴾﴾

﴿بِكِتَابٍ مِنْ قَبْلِ هَذَا﴾ أي من قبل هذا الكتاب وهو القرآن، يعني: أن هذا الكتاب ناطق بالتوحيد وإبطال الشرك. وما من كتاب أنزل من قبله من كتب الله إلا وهو ناطق بمثل ذلك، فأتوا بكتاب واحد منزل من قبله شاهد بصحة ما أنتم عليه من عبادة غير الله ﴿أَوْ أَثَرَةٍ مِنْ عِلْمٍ﴾ أو بقية من علم بقيت عليكم من علوم الأولين، من قولهم: سمت الناقة على أثاره من شحم، أي: على بقية شحم كانت بها من شحم ذاهب. وقرئ: «أثرة»، أي: من شيء أوثرت به وخصصتم من علم لا إحاطة به لغيركم. وقرئ: «أثرة» بالحركات الثلاث في الهمزة مع سكون الثاء، فالإثرة بالكسر بمعنى الأثرة. وأما الأثرة فالمرّة من مصدر: أثر الحديث إذا رواه. وأما الأثرة بالضم فاسم ما يؤثر، كالخطبة: اسم ما يخطب به.

﴿وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّن يَدْعُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ مَنْ لَا يَسْتَجِيبُ لَهُمْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَمَةِ وَهُمْ عَنْ دُعَائِهِمْ

غَافِلُونَ ﴿٥﴾﴾

﴿وَمَنْ أَضَلُّ﴾ معنى الاستفهام فيه إنكار أن يكون في الضلال كلهم أبلغ ضلالاً من عبدة الأصنام^(١)، حيث يتركون دعاء السميع المجيب القادر على تحصيل كل بغية ومرام، ويدعون من دونه جماداً لا يستجيب لهم ولا قدرة به على استجابة أحد منهم ما دامت الدنيا وإلى أن تقوم القيامة، وإذا قامت القيامة وحشر الناس: كانوا لهم أعداء، وكانوا عليهم ضداً، فليسوا في الدارين إلا على نكد ومضرة، لا تتولاهم في الدنيا بالاستجابة؛ وفي الآخرة تعاديهم وتجحد عبادتهم. وإنما قيل: ﴿مَنْ﴾ (هم) لأنه أسند إليهم ما يسند إلى أولي العلم من الاستجابة والغفلة، ولأنهم كانوا يصفونهم بالتمييز جهلاً وغباوة. ويجوز أن يريد: كل معبود من دون الله من الجن والإنس والأوثان، فغلب غير الأوثان عليها. قرئ: «ما لا يستجيب» وقرئ: «يدعو غير الله من لا يستجيب»، ووصفهم بترك الاستجابة والغفلة طريقه طريق التهكم بها وبعبدتها. ونحوه قوله تعالى: ﴿إِنْ تَدْعُوهُمْ لَا يَسْتَعْمُوا دُعَاءَكُمْ وَلَوْ سَمِعُوا مَا اسْتَجَابُوا لَكُمْ وَيَوْمَ الْقِيَمَةِ يَكْفُرُونَ بَشِرْكُمْ﴾ [فاطر: ١٤].

﴿وَإِذَا حُشِرَ النَّاسُ كَانُوا لَهُمْ أَعْدَاءُ وَكَانُوا بِعِبَادَتِهِمْ كَافِرِينَ﴾ (٦) وَإِذَا نُتِلَىٰ عَلَيْهِمَ ءَايَتُنَا يَنْتَنِي قَالِ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ هَذَا سِحْرٌ مُبِينٌ ﴿٧﴾

﴿يَنْتَنِي﴾ جمع بينة: وهي الحجة والشاهد. أو واضحات مبينات. واللام في ﴿لِلْحَقِّ﴾ مثلها في قوله: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ ءَامَنُوا لَوْ كَانَ خَيْرًا﴾ [الأحقاف: ١١] أي لأجل الحق ولأجل الذين آمنوا^(٢). والمراد بالحق: الآيات، وبالذين كفروا: المتلو عليهم، فوضع

(١) قال محمود: «استفهام معناه إنكار أن يكون في الضلال كلهم أبلغ ضلالاً من عبدة الأصنام... الخ» قال أحمد: وفي قوله إلى يوم القيامة: نكتة حسنة، وذلك أنه جعل يوم القيامة غاية لعدم الاستجابة، ومن شأن الغاية انتهاء المغيا عندها. لكن عدم الاستجابة مستمر بعد هذه الغاية؛ لأنهم في القيامة أيضاً لا يستجيبون لهم، فالوجه والله أعلم: أنها من الغايات المشعرة بأن ما بعدها وإن وافق ما قبلها إلا أنه أزيد منه زيادة بينة تلحقه بالثاني، حتى كأن الحالتين وإن كانتا نوعاً واحداً لتفاوت ما بينهما كالشيء وضده، وذلك أن الحالة الأولى التي جعلت غايتها القيامة لا تزيد على عدم الاستجابة، والحالة الثانية التي في القيامة زادت على عدم الاستجابة بالعداوة بالكفر بعبادتهم إياهم، فهو من وادي ما تقدم آنفاً في سورة الزخرف في قوله: ﴿بل تمتع هؤلاء وأبائهم حتى جاءهم الحق ورسول مبين ولما جاءهم الحق قالوا هذا سحر وإنا به كافرون﴾.

(٢) قال محمود: «اللام في قوله تعالى للحق نحو اللام في قوله: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ ءَامَنُوا لَوْ كَانَ خَيْرًا مَا سَبَقُونَا إِلَيْهِ﴾ أي لأجل الحق ولأجل الذين آمنوا... الخ» قال أحمد: هذا الإضراب في بابه مثل الغاية التي قدمتها آنفاً في بابها؛ فإنه انتقل إلى موافق، لكنه أزيد من الأول، فنزل بزيدته عليه مع ما تقدمه مما ينقص عنه منزلة المتنافيين، كالنفي والإثبات اللذين يضرب عن أحدهما للآخر، وذلك أن نسبتهم للآيات إلى أنها مفتريات أشد وأبعد من نسبتها إلى أنها سحر، فأضرب عن ذلك الأول إلى ذكر ما هو أغرب منه.

الظاهران موضع الضميرين؛ للتسجيل عليهم بالكفر، وللمتلؤ بالحق ﴿لَمَّا جَاءَهُمْ﴾ أي: بادھوه بالجهود ساعة أتاهم، وأول ما سمعوه من غير إجابة فكر ولا إعادة نظر. ومن عنادهم وظلمهم: أنهم سموه سحرًا مبيّنًا ظاهرًا أمره في البطلان لا شبهة فيه.

﴿أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَيْنَاهُ قُلْ إِنْ افْتَرَيْتُمْ فَلَا تَمْلِكُونَ لِي مِنَ اللَّهِ شَيْئًا هُوَ أَعْلَمُ بِمَا تُفِيضُونَ فِيهِ كَفَىٰ بِهِ شَهِيدًا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَهُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾ (٨)

﴿أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَيْنَاهُ﴾ إضراب عن ذكر تسميتهم الآيات سحرًا إلى ذكر قولهم: إن محمدًا افتراه. ومعنى الهمزة في أم: الإنكار والتعجيب، كأنه قيل: دع هذا واسمع قولهم المستنكر المقضي منه العجب، ١٧٧/٢ ب وذلك أن محمدًا كان لا يقدر عليه حتى يقوله ويفتره على الله، ولو قدر عليه دون أمة العرب لكانت قدرته عليه معجزة لخرقها العادة، وإذا كانت معجزة كانت تصديقًا من الله له، والحكيم لا يصدّق الكاذب فلا يكون مفتريًا. والضمير للحق؛ والمراد به الآيات ﴿قُلْ إِنْ افْتَرَيْتُمْ﴾ على سبيل الفرض عاجلي الله تعالى لا محالة بعقوبة الافتراء عليه. فلا تقدرون على كفه عن معاجلتني ولا تطيقون دفع شيء من عقابه عني، فكيف أفتريه وأتعرّض لعقابه. يقال: فلان لا يملك إذا غضب، ولا يملك عنانه إذا صمم، ومثله: ﴿فَمَنْ يَمْلِكُ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا إِنْ أَرَادَ أَنْ يُهْلِكَ الْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ﴾ [المائدة: ١٧]، ﴿وَمَنْ يُرِيدِ اللَّهُ فِتْنَتَهُ فَلَنْ تَمْلِكَ لَهُ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا﴾ [المائدة: ٤١] ومنه قوله عليه الصلاة والسلام: «لا أملك لكم من الله شيئًا» (١٤١٥)، ثم قال: ﴿هُوَ أَعْلَمُ بِمَا تُفِيضُونَ فِيهِ﴾ أي تندفعون فيه من القدح في وحي الله تعالى، والطعن في آياته، وتسميته سحرًا تارة وفرية أخرى ﴿كَفَىٰ بِهِ شَهِيدًا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ﴾ يشهد لي بالصدق والبلاغ، ويشهد عليكم بالكذب والجهود. ومعنى ذكر العلم والشهادة وعيد بجزاء إفاضةهم ﴿وَهُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾ موعدة بالغفران والرحمة إن رجعوا عن الكفر وتابوا وآمنوا، وإشعار بحلم

١٤١٥ - أخرجه البخاري في صحيحه (٢٤٢/٧): كتاب المناقب: باب من انتسب إلى آبائه في الإسلام والجاهلية حديث (٣٥٢٧). ومسلم في صحيحه (٨٢/٢): كتاب الإيمان: باب في قوله تعالى: «وأنذر عشيرتكَ الأقربين» حديث (٣٤٨) (٢٠٤). والنسائي في سننه (٢٤٩/٦) كتاب الوصايا: باب إذا أوصى لعشيرته الأقربين، حديث برقم (٣٦٤٤). والترمذي في سننه (٣٣٨/٥): كتاب تفسير القرآن، حديث (٣١٨٥). وأحمد في مسنده (٣٣٣/٢). والدارمي في سننه (٣٠٥/٢) كتاب الرقائق: باب وأنذر عشيرتكَ الأقربين وفي الباب عن عائشة وقد تقدم تخريجه بتوسع. قال الحافظ ابن حجر: متفق عليه من حديث أبي هريرة رضي الله عنه، ولما نزلت: (وأنذر عشيرتكَ الأقربين) دعا النبي - ﷺ - قريشًا فاجتمعوا، فعم وخص. فقال: يا بني كعب بن لؤي، يا بني مرة بن كعب، يا بني عبد شمس يا بني عبد مناف، يا بني هاشم، يا بني عبد المطلب: إني لا أملك لكم من الله شيئًا - الحديث. انتهى.

الله عنهم مع عظم ما ارتكبوا. فإن قلت: فما معنى إسناد الفعل إليهم^(١) في قوله تعالى: ﴿فَلَا تَتْلُوا لِي﴾ قلت: كان فيما أتاهم به النصيحة لهم والإشفاق عليهم من سوء العاقبة وإرادة الخير بهم، فكأنه قال لهم: إن افتريته وأنا أريد بذلك التنصح لكم وصدكم عن عبادة الآلهة إلى عبادة الله، فما تغنون عني أيها المنصوحون إن أخذني الله بعقوبة الافتراء عليه.

﴿قُلْ مَا كُنْتُ بِدْعًا مِّنَ الرُّسُلِ وَمَا أَدْرَىٰ مَا يَفْعَلُ بِي وَلَا يَكُمُ إِنِ اتَّبَعْتُ إِلَّا مَا يُوحَىٰ إِلَيَّ وَمَا أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾

البدع، بمعنى: البديع، كالخف بمعنى الخفيف. وقرئ «بدعا» بفتح الدال، أي: ذا بدع ويجوز أن يكون صفة على فعل، كقولهم: دين قيم، ولحم زيم^(٢). كانوا يقترحون عليه الآيات ويسألونه عما لم يوح به إليه من الغيوب. ف قيل له: ﴿قُلْ مَا كُنْتُ بِدْعًا مِّنَ الرُّسُلِ﴾ فأتاكم بكل ما تقترحونه، وأخبركم بكل ما تسألون عنه من المغيبات؛ فإن الرسل لم يكونوا يأتون إلا بما أتاهم الله من آياته، ولا يخبرون إلا بما أوحى إليهم. ولقد أجاب موسى صلوات الله عليه عن قول فرعون: ﴿فَمَا بَالُ الْقُرُونِ الْأُولَىٰ﴾؟ بقوله: ﴿عَلِمَهَا عِنْدَ رَبِّي﴾ [طه: ٥٢] ﴿وَمَا أَدْرَىٰ﴾ لأنه لا علم لي بالغيب - ما يفعل الله بي وبكم فيما يستقبل من الزمان من أفعاله، ويقدر لي ولكم من قضاياه ﴿إِنِ اتَّبَعْتُ إِلَّا مَا يُوحَىٰ إِلَيَّ﴾ وعن الحسن: وما أدري ما يصير إليه أمري وأمركم في الدنيا، ومن الغالب منا والمغلوب. وعن الكلبي:

(١) قال محمود: «فإن قلت: ما معنى إسناد الفعل إليهم... الخ» قال أحمد: فيه نظر من قبيل أن الكلام جرى فرضاً وتقديراً. ومتى فرض الافتراء لا يتصور على تقديره نصح، فإن النصح عبارة عن الدعاء إلى ما فيه نفع، ولا ينفع المكلف في عمل ظاهر أو باطن إلا أن يكون مأموراً به من الله تعالى، ولا سبيل إلى الاطلاع على ذلك إلا من الوحي الحق لا غير، فإذا لا يتصور نصح مع الافتراء، وإنما يتم هذا الذي قرره على قاعدة المعتزلة القائلة بأن العقل طريق يوصل إلى معرفة حكم الله تعالى؛ لأنه إذا أمر بطاعة من الطاعات كالنوحيد مثلاً وقال: إن الله حتم عليكم وجوب التوحيد، وأنا رسول الله إليكم. ولم يكن متعوقاً: فإنه محق في الأمر بالتوحيد؛ لأن العقل دل على وجوبه عندهم، وإن كان مفترياً في دعوى كونه رسولاً من الله عز وجل. وهذه قاعدة قد أفسدتها الأدلة القاطعة، فيحتمل في إجراء الآية على مذهب أهل السنة: أن يكون إسناد الفعل لهم على معنى التنبيه بالشئ على مقابلة بطريق المفهوم، فالمعنى إذا إن كنت مفترياً فالعقوبة واقعة بي لا تدفعونها عني، فمفهومه: وإن كنت محققاً وأنتم مفترون فالعقوبة واقعة بكم لا أقدر على دفعها عنكم. ويشهد لهذا المعنى قوله تعالى: ﴿قُلْ إِنْ افْتَرَيْتَ فَعَلَىٰ إِجْرَامِي وَأَنَا بَرِيءٌ مِّمَّا تَجْرَمُونَ﴾ وأمثاله كثيرة والله أعلم.

(٢) قوله: «ولحم زيم» في الصحاح «اللحم الزيم» المتفرق ليس بمجتمع في مكان فيبدن. وفيه أيضاً: بدن الرجل يبدن، إذا ضخم وسمن. (ع)

قال له أصحابه - وقد ضجروا من أذى المشركين -: حتى متى نكون على هذا؟ فقال: ﴿وَمَا أَدرِي مَا يُفْعَلُ بِي وَلَا يَكُمُ﴾ أترك بمكة أم أومر بالخروج إلى أرض قد رفعت لي ورأيته - يعني في منامه - ذات نخيل وشجر؟ وعن ابن عباس: ما يفعل بي ولا بكم في الآخرة، وقال: هي منسوخة بقوله: ﴿لِيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ﴾ [الفتح: ٢] ويجوز أن يكون نفياً للدراية المفصلة^(١). وقرئ: «ما يفعل» بفتح الياء، أي: يفعل الله عز وجل. فإن قلت: إن (يفعل) مثبت غير منفي، فكان وجه الكلام: ما يفعل بي وبكم. قلت: أجل، ولكن النفي في ﴿وَمَا أَدرِي﴾ لما كان مشتملاً عليه لتناوله «ما» وما في حيزه صح ذلك وحسن. ألا ترى إلى قوله: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَلَمْ يَبْغِ بِخَلْقِهِنَّ بِقَدِيرٍ﴾ [الأحقاف: ٣٣] كيف دخلت الباء في حيز أن وذلك لتناول النفي إياها مع ما في حيزها. و(ما) في (ما يفعل) يجوز أن تكون موصولة منصوبة، وأن تكون استفهامية مرفوعة. وقرئ: «يوحى» أي الله عز وجل.

﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كَانَ مِنَ عِنْدِ اللَّهِ وَكَفَرْتُمْ بِهِ وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنْ بَنِي إِسْرَءِيلَ عَلَىٰ مِثْلِهِ فَأَمَّا نَ وَاسْتَكَبَرْتُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾

جواب الشرط محذوف تقديره: إن كان القرآن من عند الله وكفرتم به أستم ظالمين^(٢). ويدل على هذا المحذوف قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ والشاهد من بني إسرائيل: عبد الله بن سلام، لما قدم رسول الله ﷺ المدينة نظر إلى وجهه، فعلم أنه ليس بوجه كذاب. وتأمله فتحقق أنه هو النبي المنتظر وقال له: إني سائلك عن ثلاث لا يعلمهن إلا نبي: ما أول أشرار الساعة؟ وما أول طعام يأكله أهل

(١) قال محمود: «أجود ما ذكر فيه حمله على الدراية المفصلة، يريد بذلك أن تفصيل ما يصير إليه من خير ويصيرون إليه من شر... الخ» قال أحمد: «بني على أن المجرور معطوف على مثله، وأنهما جميعاً في صلة موصول واحد، ولو قيل: إن المجرور الثاني من صلة موصول محذوف معطوف على مثله، حتى يكون التقدير: وما أدري ما يفعل بي ولا ما يفعل بكم: لكانت (لا) واقعة بمكانة غير مفتقرة إلى تأويل، وحذف الموصول المعطوف وتفاصيله كثيرة. ومنه [من الوافر]:

فمن يهجو رسول الله منكم ويمدحه وينصره سواء

يريد حسان رضي الله عنه: فمن يهجو رسول الله ﷺ ومن يمدحه سواء.

(٢) قال السمين الحلبي: ورد عليه الشيخ، بأنه لو كان كذلك لوجب الفاء؛ لأن الجملة الاستفهامية حتى وقعت جواباً للشرط لزم الفاء، ثم إن كانت أداة الاستفهام همزة تقدمت على الفاء نحو: إن تزرنا أفما نكرمك؟ وإن كانت غيرها تقدمت الفاء عليها نحو: إن تزرنا فهل ترى إلا خيراً؟ قلت: والزمخشري ذكر أمراً تقديرية فسر به المعنى لا الإعراب، وقال ابن عطية: وأرأيتم يحتمل أن تكون منبهة فهي لفظ موضوع للسؤال لا يقتضي مفعولاً، ويحتمل أن تكون الجملة كان وما عملت فيه سادة مسد مفعولها. انتهى. الدر المصون.

الجنة؟ وما بال الولد ينزع إلى أبيه أو إلى أمه؟ فقال عليه الصلاة والسلام: «أما أول أشرار الساعة فنار تحشرهم من المشرق إلى المغرب. وأما أول طعام يأكله أهل الجنة فزيادة كبد حوت، وأما الولد فإذا سبق ماء الرجل نزعته، وإن سبق ماء المرأة نزعته». فقال: أشهد أنك رسول الله حقًا، ثم قال: يا رسول الله، / ٢ / ١٧٨ إن اليهود قوم بهت وإن علموا بإسلامي قبل أن تسألهم عني بهتوني^(١) عندك. فجاءت اليهود فقال لهم النبي ﷺ: أي رجل عبد الله فيكم؟ فقالوا: خيرنا وابن خيرنا، وسيدنا وابن سيدنا، وأعلمنا وابن أعلمنا. قال: رأيتم إن أسلم عبد الله؟ قالوا: أعاده الله من ذلك، فخرج إليهم عبد الله فقال: أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمدًا رسول الله، فقالوا: شرنا وابن شرنا وانتقصوه. قال: هذا ما كنت أخاف يا رسول الله وأحذر. قال سعد بن أبي وقاص: ما سمعت رسول الله ﷺ يقول لأحد يمشي على وجه الأرض إنه من أهل الجنة إلا لعبد الله بن سلام، وفيه نزل: ﴿وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنْ بَنِي إِسْرَءِيلَ عَلَىٰ مِثْلِهِ﴾ (١٤١٦) الضمير للقرآن، أي: على مثله في المعنى، وهو ما في التوراة من المعاني المطابقة لمعاني القرآن من التوحيد والوعد والوعيد وغير ذلك. ويدل عليه قوله تعالى: ﴿وَإِنَّهُمْ لَفِي زُبُرِ الْأَوَّلِينَ﴾ (الشعراء: ١٩٦)، ﴿إِنَّ هَذَا لَفِي الصُّحُفِ الْأُولَى﴾ (الأعلى: ١٨)، ﴿كَذَلِكَ يُوحَىٰ إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكَ﴾ (الشورى: ٣] ويجوز أن يكون المعنى: إن كان من عند الله وكفرتم به وشهد شاهد على نحو ذلك، يعني كونه من عند الله. فإن قلت: أخبرني عن نظم هذا الكلام لأقف على معناه من جهة^(٢) النظم.

١٤١٦ - أخرجه البخاري في صحيحه (٤/٧): كتاب أحاديث الأنبياء: باب خلق آدم وذريته حديث (٣٣٢٩)، وفي (٦٩١/٧) كتاب مناقب الأنصار: باب منه حديث (٣٩٣٨)، وفي (١٦/٩) كتاب التفسير: باب قوله تعالى: ﴿مَنْ كَانَ عَدُوًّا لِجَبْرِيلَ﴾ حديث (٤٤٨٠)، والنسائي في سننه الكبرى (٣٣٨/٦٥): كتاب عشرة النساء: باب كيف تؤنث المرأة وكيف يذكر الرجل. حديث (٩/٧٤). والبيهقي في الدلائل (٥٢٨/٢) والبخاري في معالم التنزيل (١٦٥/٤). من طريق عن حميد الطويل به.

وأخرج ابن حبان في صحيحه (١١٧/١٦): كتاب إخباره عن مناقب الصحابة: باب ذكر عبد الله بن سلام رضي الله عنه وأبو يعلى في مسنده (٤٥٨/٧٦): (٣٨٥٦) كلاهما عن يزيد بن هارون عن حميد به.

وأخرج طرفه الخاص بإسلام عبد الله بن سلام. البخاري في صحيحه (٦٦٢/٧): كتاب مناقب الأنصار باب هجرة النبي ﷺ - وأصحابه إلى المدينة حديث (٣٩١١)، وأحمد (٢١١/٣)، والبيهقي في الدلائل (٥٢٦/٢): من طريق عبد الوارث عن عبد العزيز بن صهيب عن أنس. قال الحافظ ابن حجر: أخرجه البخاري من رواية حميد عن أنس، وأتم منه. انتهى.

- (١) قوله: «بهتوني» أي: رموني بما ليس في. (ع)
 (٢) قال محمود: «إن قلت: أخبرني عن نظم هذا الكلام لأقف عليه من جهة النظم... الخ» قال =

قلت: الواو الأولى عاطفة لكفرتم على فعل الشرط، كما عطفته (ثم) في قوله تعالى: ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كَانَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ ثُمَّ كَفَرْتُمْ بِهِ﴾ [فصلت: ٥٢] وكذلك الواو الآخرة عاطفة لاستكبرتم على شهد شاهد، وأما الواو في ﴿وَشَهِدَ شَاهِدٌ﴾ فقد عطفت جملة قوله. ﴿وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِنْ بَنِي إِسْرَءِيلَ عَلَى مِثْلِهِ فَقَامَ وَاسْتَكْبَرْتُمْ﴾ على جملة قوله: ﴿كَانَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَكَفَرْتُمْ بِهِ﴾ ونظيره قولك: إن أحسنت إليك وأسأت، وأقبلت عليك وأعرضت عني، لم تنفق في أنك أخذت ضميمتين فعطفتهما على مثليهما، والمعنى: قل أخبروني إن اجتمع كون القرآن من عند الله مع كفركم به، واجتمع شهادة أعلم بني إسرائيل على نزول مثله وإيمانه به، مع استكباركم عنه وعن الإيمان به، أستم أضل الناس وأظلمهم؟ وقد جعل الإيمان في قوله: ﴿فَقَامَ﴾ مسبباً عن الشهادة على مثله؛ لأنه لما علم أن مثله أنزل على موسى صلوات الله عليه، وأنه من جنس الوحي وليس من كلام البشر، وأنصف من نفسه فشهد عليه واعترف كان الإيمان نتيجة ذلك.

﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا لَوْ كَانَ خَيْرًا مَّا سَبَقُونَا إِلَيْهِ وَإِذْ لَمْ يَهْتَدُوا بِهِ فَسَيَقُولُونَ هَذَا إِفْكٌ قَدِيمٌ ۝ (١١) وَمِنْ قَبْلِهِ كَتَبَ مُوسَىٰ إِمَامًا وَرَحْمَةً وَهَذَا كِتَابٌ مُصَدِّقٌ لِّسَانًا عَرَبِيًّا لِّنَذِرَ الَّذِينَ ظَلَمُوا وَبُشْرَىٰ لِلْمُحْسِنِينَ ۝ (١٢) إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَفْتَمُوا فَلَا خَوْفَ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ۝ (١٣) أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ خَالِدِينَ فِيهَا جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ۝ (١٤)﴾

﴿لِلَّذِينَ آمَنُوا﴾ لأجلهم وهو كلام كفار مكة، قالوا: عاقبة من يتبع محمدًا السقاط، يعنون الفقراء مثل عمار وصهيب وابن مسعود، فلو كان ما جاء به خيرًا ما سبقنا إليه هؤلاء. وقيل: لما أسلمت جهينة ومزينة وأسلم وغفار: قالت بنو عار وغطفان وأسد وأشجع: لو كان خيرًا ما سبقنا إليه رعاء البهم. وقيل: إن أمة لعمر أسلمت، فكان عمر يضربها حتى يفتري ثم يقول لولا أنني فترت لزدتك ضربًا، كان كفار قريش يقولون: لو كان ما يدعو إليه محمد حقًا ما سبقتنا إليه فلانة. وقيل: كان اليهود يقولونه عند إسلام عبد الله بن سلام وأصحابه. فإن قلت: لا بد من عامل في الظرف^(١) في قوله: ﴿وَإِذْ لَمْ

= أحمد: إنما لم يوجه المعطوف إلى جهة واحدة؛ لأن التفصيل قد يكون عطف مجموع مفردات على مجموع مفردات كل منهما والآية من هذا النمط، ومثلها قوله تعالى: ﴿وَمَا يَسْتَوِي الْأَعْمَىٰ وَالْبَصِيرُ وَلَا الظُّلُمَاتُ وَلَا النُّورُ﴾ وقوله: ﴿إِنَّ الْمُسْلِمِينَ وَالْمُسْلِمَاتِ وَالْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ﴾ الآية، وقد تقدم تقرير ذلك في الآيتين فجدد به عهدًا.

(١) قال محمود: «لا بد من عامل الظرف وغير مستقيم أن يعمل فيه... الخ» قال أحمد: إن لم يكن مانع من عمل فسيقولون في الظرف ألا تنافي دلالاتي المضي والاستقبال، فهذا غير مانع، فإن الاستقبال ههنا إنما خرج مخرج الإشعار بدوام ما وقع ومضى؛ لأن القوم قد حرموا الهداية وقالوا: =

يَهْتَدُوا بِهِ. ومن متعلق لقوله: ﴿فَسَيَقُولُونَ﴾ وغير مستقيم أن يكون ﴿فَسَيَقُولُونَ﴾ هو العامل في الظرف، لتدافع دلالاتي الماضي والاستقبال، فما وجه هذا الكلام؟ قلت: العامل في إذ محذوف، لدلالة الكلام عليه، كما حذف من قوله: ﴿فَلَمَّا ذَهَبُوا بِهِ﴾ [يوسف: ١٥] وقولهم: حينئذ الآن، وتقديره: وإذا لم يهتدوا به ظهر عنادهم، فسيقولون هذا إفك قديم، فهذا المضمهر صَحَّ به الكلام، حيث انتصب به الظرف وكان قوله: ﴿فَسَيَقُولُونَ﴾ مسبباً عنه كما صَحَّ بإضمار أن قوله: ﴿حَتَّى يَقُولَ الرَّسُولُ﴾ [البقرة: ٢١٤] لمصادفة (حتى) مجرورها، والمضارع ناصبه. وقولهم: ﴿إِنَّكَ قَدِيرٌ﴾ كقولهم: أساطير الأولين ﴿كَتَبَ مُوسَى﴾ مبتدأ ومن قبله ظرف واقع خبراً مقدماً عليه، وهو ناصب ﴿إِمَامًا﴾ على الحال، كقولك: في الدار زيد قائماً. وقرئ: ومن قبله كتاب موسى، على: وآتينا الذين قبله التوراة. ومعنى ﴿إِمَامًا﴾: قدوة يؤتم به في دين الله وشرائعه، كما يؤتم بالإمام ﴿وَرَحْمَةً﴾ لمن آمن به وعمل بما فيه ﴿وَهَذَا﴾ القرآن ﴿كَتَبَ مُصَدِّقٌ﴾ لكتاب موسى. أو لما بين يديه وتقدمه من جميع الكتب. وقرئ «مصدق لما بين يديه» ﴿لِسَانًا عَرَبِيًّا﴾ حال من ضمير الكتاب في مصدق، والعامل فيه (مصدق) ويجوز أن ينتصب حالاً عن كتاب^(١) لتخصصه بالصفة، ويعمل فيه معنى الإشارة. وجوز أن يكون مفعولاً لمصدق، أي: يصدق ذا لسان عربي وهو الرسول. وقرئ: «لينذر» بالياء والياء، ولينذر: من نذر ينذر إذا حذر ﴿وَشُرَى﴾ في محل نصب/٢/١٧٨ ب معطوف على محل لينذر، لأنه مفعول له.

﴿وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ إِحْسَانًا حَمَلَتْهُ أُمُّهُ كُرْهًا وَوَضَعَتْهُ كُرْهًا وَحَمَلُهُ وَفِصْلُهُ ثَلَاثُونَ شَهْرًا حَتَّىٰ إِذَا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَبَلَغَ أَرْبَعِينَ سَنَةً قَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِي أَن أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَالِدَيَّ وَأَن أَعْمَلَ صَالِحًا تَرْضَاهُ وَأَصْلِحْ لِي فِي ذُرِّيَّتِي إِنِّي بُنْتُ إِلَيْكَ وَإِنِّي مِنَ الْمُسْلِمِينَ ﴿١٥﴾﴾

= هذا إفك قديم، وأساطير الأولين وغير ذلك؛ فمعنى الآية إذا: وقالوا إذ لم يهتدوا به هذا إفك قديم وداموا على ذلك وأصروا عليه، فعبّر عن وقوعه ثم دوامه بصيغة الاستقبال، كما قال إبراهيم: (إلا الذي فطرني فإنه سيهدين) وقد كانت الهداية واقعة وماضية ولكن أخبر عن وقوعها، ثم دوامها فعبّر بصيغة الاستقبال، وهذا طريق الجمع بين قوله: (سيهدين) وقوله في الأخرى (فهو يهدين) ولولا دخول الفاء على الفعل لكان هذا الذي ذكرته هو الوجه، ولكن الفاء المسببة دلت بدخولها على محذوف هو السبب، وقطعت الفعل عن الظرف المتقدم؛ فوجب تقدير المحذوف عاملاً فيه لينتظم بتقديره عاملاً أمران: مصادفة الظرف للعامل والفعل المعلل لعلته، فتعين ما ذكره الزمخشري لأجل الفاء لا لتنافي الداليتين. والله أعلم.

(١) أجاز محمود في نصبه أن يكون حالاً عن كتاب لتخصصه بالصفة... الخ. قال أحمد: وجهان حسان أعزهما بثالث: وهو النصب على الاختصاص، وهذه الوجوه في قوله تعالى: ﴿فيها يفرق كل أمر حكيم أمراً من عندنا﴾، والله أعلم.

أُولَئِكَ الَّذِينَ نَقَبَلُ عَنْهُمْ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا وَنَتَجَاوَزُ عَنْ سَيِّئَاتِهِمْ فِي أَحْسَنِ الْجَنَّةِ وَعَدَ الصِّدْقِ الَّذِي كَانُوا يُوعَدُونَ ﴿١١﴾

قرئ: «حسنًا» بضم الحاء وسكون السين. وبضمهما، وبفتحهما. وإحسانًا، وكرهاً، بالفتح والضم، وهما لغتان في معنى المشقة، كال فقر والفقر. وانتصابه على الحال: أي: ذات كره. أو على أنه صفة للمصدر، أي: حملاً ذا كره ﴿وَحَلَمٌ وَفَصْلَةٌ﴾ ومدة حملة وفصاله ﴿ثَلَاثُونَ شَهْرًا﴾ وهذا دليل على أن أقل الحمل ستة أشهر؛ لأن مدة الرضاع إذا كانت حولين لقوله عز وجل: ﴿حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ لِمَنْ أَرَادَ أَنْ يُنِمَّ الرِّضَاعَةَ﴾ [البقرة: ٢٣٣] بقيت للحمل ستة أشهر. وقرئ: «وفصله» والفصل والفصال: كالظم والفظام. بناء ومعنى. فإن قلت: المراد بيان مدة الرضاع لا الفظام، فكيف عبر عنه بالفصال؟ قلت: لما كان الرضاع يليه الفصال ويلابسه لأنه ينتهي به ويتم: سمي فصلاً، كما سمي المدة بالأمد من قال [من الخفيف]:

كُلُّ حَيٍّ مُسْتَكْمِلٌ مُدَّةَ الْعُمُرِ وَمُودٍ إِذَا أُنْتَهَى أَمَدُهُ^(١)

وفيه فائدة وهي الدلالة على الرضاع التام المنتهي بالفصال ووقته. وقرئ: «حتى إذا استوى وبلغ أشده» وبلغ الأشد: أن يكتهل ويستوفي السن التي تستحكم فيها قوته وعقله وتمييزه، وذلك إذا أناف على الثلاثين وناطح الأربعين. وعن قتادة: ثلاث وثلاثون سنة، ووجهه أن يكون ذلك أول الأشد، وغايته الأربعين. وقيل: لم يبعث نبي قط إلا بعد أربعين سنة. والمراد بالنعمة التي استوزع الشكر عليها: نعمة التوحيد والإسلام، وجمع بين شكري النعمة عليه وعلى والديه؛ لأن النعمة عليهما نعمة عليه. وقيل في العمل المرضي: هو الصلوات الخمس. فإن قلت: ما معنى (في) في قوله: ﴿وَأَصْلَحَ لِي فِي ذُرِّيَّتِي﴾؟ قلت: معناه: أن يجعل ذريته موقعاً للصالح^(٢) ومظنة له كأنه قال: هب لي الصلاح في ذريتي وأوقعه فيهم ونحوه [من الطويل]:

يَخْرُجُ فِي عَرَاقِبِهَا نَضْلِي^(٣)

﴿مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾ من المخلصين. وقرئ: «يتقبل» ويتجاوز، بفتح الياء، والضمير فيهما

(١) تقدم.

(٢) قال محمود: «فإن قلت: ما معنى في ههنا، وأجاب بأن المراد جعل ذريته... الخ» قال أحمد: ومثله قوله تعالى: ﴿إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَى﴾ عدولاً عن قوله: إلا مودة القربى. أو المودة للقربى، والله أعلم.

أعلم.

(٣) تقدم.

لله عز وجل . وقرئنا بالنون . فإن قلت : ما معنى قوله : ﴿ فِي أَصْحَابِ الْجَنَّةِ ﴾ ؟ قلت : هو نحو قولك : أكرمني الأمير في ناس من أصحابه ، تريد : أكرمني في جملة من أكرم منهم ، ونظمني في عدادهم ، ومحلّه النصب على الحال ، على معنى : كائنين في أصحاب الجنة ومعدودين فيهم ﴿ وَعَدَ الصِّدِّيقُ ﴾ مصدر مؤكد ؛ لأن قوله : يتقبل ، ويتجاوز : وعد من الله لهم بالتقبل والتجاوز . وقيل : نزلت في أبي بكر رضي الله عنه وفي أبيه أبي قحافة وأمه أم الخير وفي أولاده ، واستجابة دعائه فيهم . وقيل : لم يكن أحد من الصحابة من المهاجرين منهم والأنصار أسلم هو والوالداه وبنوه وبناته غير أبي بكر رضي الله عنه .

﴿ وَالَّذِي قَالَ لَوْلَايَ أَفِ لَكُمْ أَتَعْدِنِي أَنْ أَخْرَجَ وَقَدْ خَلَّتِ الْقُرُونُ مِنْ قَبْلِي وَهَذَا يَسْتَفِihan الله وَتِلْكَ ءَامِنٌ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ فَيَقُولُ مَا هَذَا إِلَّا أَسْطِيرُ الْأَوَّلِينَ ﴾ ﴿٧﴾ أُولَئِكَ الَّذِينَ حَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ فِي أَمْرِ قَدْ خَلَّتْ مِنْ قَبْلِهِمْ مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ إِنَّهُمْ كَانُوا خَسِرِينَ ﴾ ﴿٨﴾

﴿ وَالَّذِي قَالَ لَوْلَايَ ﴾ مبتدأ خبره : أولئك الذين حق عليهم القول . والمراد بالذي قال : الجنس القائل ذلك القول ، ولذلك وقع الخبر مجموعاً . وعن الحسن : هو في الكافر العاق لوالديه المكذب بالبعث . وعن قتادة : هو نعت عبد سوء عاق لوالديه فاجر لربه . وقيل : نزلت في عبد الرحمن بن أبي بكر^(١) قبل إسلامه وقد دعاه أبوه أبو بكر وأمه أم رومان إلى الإسلام ، فأفف بهما وقال : ابعثوا لي جدعان بن عمرو وعثمان بن عمرو ، وهما من أجداده حتى أسألهما عما يقول محمد ، ويشهد لبطلانه أن المراد بالذي قال : جنس القائلين ذلك ، وأن قوله الذين حق عليهم القول : هم أصحاب النار ، وعبد الرحمن كان من أفاضل

(١) قال محمود : « زعم بعضهم أن المعنى بالآية عبد الرحمن بن أبي بكر . . . الخ » . قال أحمد : ونحن نختار أن المراد الجنس لا عبد الرحمن بن أبي بكر ، ولكننا لا نختار الرد على قائل ذلك بهذا الوجه ، فإن له أن يقول : أراد عبد الرحمن وأمه ، ومثل ذلك قول الله تعالى حكاية عن العزيز يخاطب زليخا : (إنه من كيدكن إن كيدكن عظيم) فخاطبها وخاطب أمتها ، والمقصودة هي ، وقد عاد إلى خطابها خصوصاً بقوله : (واستغفري لذنبك إنك كنت من الخاطئين) ولكن وجه الرد على من زعم أن المراد عبد الرحمن : ما ذكره الزمخشري ثانياً فقال : (إن الذين حق عليهم القول) هم المخلدون في النار في علم الله تعالى ، وعبد الرحمن كان من أفاضل المسلمين وسرواتهم . ونقل أن معاوية كتب إلى مروان بأن يبيع الناس ليزيد فقال عبد الرحمن : لقد جئتم بها هرقلية أتباعون لأبنائكم ، فقال مروان : أيها الناس إن هذا هو الذي قال الله فيه : ﴿ وَالَّذِي قَالَ لَوْلَايَ ﴾ . . . الآية فسمعت عائشة فغضبت وقالت : والله ما هو به ، ولو شئت أن أسميه لسميته ، ولكن الله لعن أباك وأنت في صلبه فأنت فضض من لعنة الله قال أحمد : وفي هذه الآية رد على من زعم أن المفرد الجنسي لا يعمم ؛ لأنه لا يعامل معاملة الجمع لا في الصفة ولا في الخبر ، فلا يجوز أن تقول : الدينار الصفر خير من الدرهم البيض ، وهذا مردود بأن خبر الذي الواقع جنساً جاء على نعت خبر المجموع كما رأيت ، والله أعلم .

المسلمين وسرواتهم. وعن عائشة رضي الله عنها إنكار نزولها فيه، وحين كتب معاوية إلى مروان بأن يبايع الناس ليزيد قال عبد الرحمن: لقد جئتم بها هرقلية، أتبايعون لأبنائكم؟ فقال مروان: يا أيها الناس، هو الذي قال الله فيه: ﴿وَالَّذِي قَالَ لِوَالِدَيْهِ أُفٍّ لَّكُمَا﴾ فسمعت عائشة فغضبت وقالت: والله ما هو به، ولو شئت أن أسميه لسميته ولكن الله لعن أباك وأنت في صلبه، فأنت فضض من لعنة الله^(١) (١٤١٧). وقرئ: «أف» بالكسر والفتح بغير

١٤١٧ - أخرجه النسائي في تفسيره: (٢٩٠/٢): سورة الأحقاف والحاكم في مستدركه (٤٨١/٤)، وصححه على شرط الشيخين، وتعبه الذهبي فقال: فيه انقطاع؛ فإن محمداً لم يسمع من عائشة. أ.هـ.

وعزه الزيلعي في تخريج الكشاف (٢٨٢/٢) إلى ابن أبي خيثمة في أول تاريخه، وإلى ابن مردويه في تفسيره، وذكره السيوطي في «الدر المنثور»: (١١/٦)، وزاد نسبه إلى عبد بن حميد وابن المنذر.

كلهم من طريق محمد بن زياد عن عائشة به.

وللقصة طريق آخر:

أخرجه البزار في مسنده (٢٤٧/٢) رقم (١٦٢٤ - كشف) من طريق إسماعيل بن أبي خالد، عن عبد الله البهي مولى الزبير، قال: كنت في المسجد، ومروان يخطب، فقال عبد الرحمن بن أبي بكر: «والله ما استخلف أحداً من أهله، فقال مروان أنت الذي نزلت فيك: ﴿وَالَّذِي قَالَ لَوَالِدَيْهِ أُفٍّ لَّكُمَا﴾ فقال عبد الرحمن: كذبت، ولكن رسول الله - ﷺ - «لعن أباك» وذكره الهيثمي في مجمع الزوائد (٢٤٤/٥). وقال: رواه البزار وإسناده حسن.

وللحديث شاهد أيضاً عند البخاري:

فقد أخرجه البخاري (٥٤٧/٩): كتاب التفسير باب سورة الأحقاف، حديث (٤٨٢٧) من طريق يوسف بن ماهك قال: كان مروان على الحجاز استعمله معاوية فخطب، فجعل يذكر يزيد بن معاوية؛ لكي يبايع له، بعد أبيه فقال له عبد الرحمن بن أبي بكر شيئاً: فقال: خذوه، فدخل بيت عائشة فلم يقدروا عليه، فقال مروان: إن هذا الذي أنزل الله فيه: ﴿وَالَّذِي قَالَ لَوَالِدَيْهِ أُفٍّ لَّكُمَا﴾ أتعداني؟ فقالت عائشة من وراء الحجاب: ما أنزل الله فينا شيئاً إلا أن الله أنزل عذري.

قال ابن كثير في تفسير هذه الآية (١٥٨/٤ - ١٥٩): «وهذا عام في كل من قال هذا، ومن زعم أنها نزلت في عبد الرحمن بن أبي بكر - رضي الله عنهما - فقله ضعيف، لأن عبد الرحمن بن أبي بكر - رضي الله عنهما - أسلم بعد ذلك وحسن إسلامه، وكان من خيار أهل زمانه. أ.هـ.

وقال الحافظ ابن حجر في تخريج الكشاف:

أخرجه النسائي واللفظ له، وابن أبي خيثمة، والحاكم، وابن مردويه من رواية محمد بن زياد، وقال: لمّا بايع معاوية لابنه قال مروان: سنة أبي بكر وعمر. فقال عبد الرحمن بن أبي بكر، سنة هرقل وقيصر. قال مروان: هذا الذي أنزل، فذكر الآية. فبلغ ذلك عائشة فقالت: «كذب والله» ما هو به فذكره. ولكن رسول الله - ﷺ - لعن أبا مروان، ومروان في صلبه... إلخ. ولفظ ابن أبي =

(١) قوله: «فأنت فضض من لعنة الله» في الصحاح كل شيء تفرق فهو فضض. وفي الحديث: أنت فضض من لعنة الله، يعني: ما انفص من نطفة الرجل وتردد في صلبه. (ع)

تنوين، وبالحركات الثلاث مع التنوين، وهو صوت إذا صوت به الإنسان علم أنه متضجر، كما إذا قال: حس، علم منه أنه متوجع، واللام للبيان، معناه: هذا التأفيف لكما خاصة، ولأجلكما دون غيركما. وقرئ «أتعداني» بنونين. وأتعداني: بأحدهما/٢/١٧٩أ. وأتعداني: بالإدغام. وقد قرأ بعضهم: أتعداني بفتح النون، كأنه استثقل اجتماع النونين والكسرتين والياء، ففتح الأولى تحرياً للتخفيف، كما تحراه من أدغم ومن أطرح أحدهما ﴿أَنْ أُخْرَجَ﴾ أن أبعث وأخرج من الأرض. وقرئ: «أخرج» ﴿وَقَدْ خَلَّتِ الْقُرُونُ مِنْ قَبْلِي﴾ يعني: ولم يبعث منهم أحد ﴿يَسْتَفِيئَانِ اللَّهَ﴾ يقولان: الغياث بالله منك ومن قولك، وهو استعظام لقوله: ﴿وَيْلَكَ﴾ دعاء عليه بالثبور: والمراد به الحث والتحريض على الإيمان لا حقيقة الهلاك ﴿فِي أَمْرٍ﴾ نحو قوله: ﴿فِي أَحْصَى الْجَنَّةِ﴾ [الأحقاف: ١٦] وقرئ: «أن» بالفتح، على معنى: آمن بأن وعد الله حق.

﴿وَلِكُلِّ دَرَجَةٍ مِمَّا عَمِلُوا وَلِيُوفيَهُمْ أَعْمَالَهُمْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ (١٩)

﴿وَلِكُلِّ﴾ من الجنسين المذكورين ﴿دَرَجَةٍ مِمَّا عَمِلُوا﴾ أي منازل ومراتب من جزاء ما عملوا من الخير والشر، أو من أجل ما عملوا منهما^(١). فإن قلت: كيف قيل: درجات، وقد جاء: الجنة درجات والنار دركات؟ قلت: يجوز أن يقال ذلك على وجه التغليب، لاشتمال كل على الفريقين ﴿وَلِيُوفيَهُمْ﴾ وقرئ: بالنون تعليل معلله محذوف لدلالة الكلام عليه، كأنه قيل: وليوفيهم أعمالهم ولا يظلمهم حقوقهم، قدر جزاءهم على مقادير أعمالهم، فجعل الثواب درجات والعقاب دركات.

﴿وَيَوْمَ يُعْرَضُ الَّذِينَ كَفَرُوا عَلَى النَّارِ أَدْهَبْتُمْ طِبَنِيَكُمْ فِي حَيَاتِكُمُ الدُّنْيَا وَاسْتَمْتَعْتُمْ بِهَا فَالْيَوْمَ يُجْزَوْنَ عَذَابَ الْهُونِ بِمَا كُنْتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَإِذَا كُنْتُمْ أَنْفُسُكُمْ تَفْسُقُونَ﴾ (٢٠)

ناصب الظرف هو القول المضمّر قبل ﴿أَدْهَبْتُمْ﴾ وعرضهم على النار: تعذيبهم بها، من قولهم: عرض بنو فلان على السيف^(٢) إذا قتلوا به ومنه قوله تعالى: ﴿النَّارُ يُعْرَضُونَ

= خيشمة: إن معاوية كتب إلى مروان بن الحكم أن يبيع الناس ليزيد بن معاوية فقال عبد الرحمن: لقد جئتم بها هرقية... إلخ لفظ المصنف. قلت: أصله في البخاري من رواية يوسف بن ماهك عن عائشة دون ما في آخره. انتهى.

(١) قوله: «ومن أجل ما عملوا منهما» لعله: أو من أجل. (ع)

(٢) قال محمود: «عرضهم على النار إما من قولهم عرض بنو فلان على السيف... إلخ» قال أحمد: وإن كان قولهم: عرضت الناقة على الحوض مقلوباً، فليس قوله: يعرض الذين كفروا على النار مقلوباً؛ لأن الملقى ثم إلى اعتقاد القلب أن الحوض جماد لا إدراك له، والناقة هي المدركة، =

عَلَيْهَا﴾ [غافر: ٤٦] ويجوز أن يراد: عرض النار عليهم من قولهم: عرضت الناقة على الحوض، يريدون: عرض الحوض عليها فقلبوا. ويدل عليه تفسير ابن عباس رضي الله عنه: يجاء بهم إليها فيكشف لهم عنها ﴿أَذْهَبَتْ طَبِيبُكُمْ﴾ أي: ما كتب لكم حظ من الطيبات إلا ما قد أصبتموه في دنياكم، وقد ذهبت به وأخذتموه، فلم يبق لكم بعد استيفاء حظكم شيء منها. وعن عمر رضي الله عنه: لو شئت لدعوت بصلائق وصناب^(١) وكرار وكرار وكرار وأسمنة، ولكني رأيت الله تعالى نعى على قوم طيباتهم فقال: أذهبت طيباتكم في حياتكم الدنيا (١٤١٨). وعنه: لو شئت لكنت أطيبكم طعاماً وأحسنكم لباساً، ولكني أستبقي طيباتي (١٤١٩)، وعن رسول الله ﷺ: أنه دخل على أهل الصفة وهم يرقعون ثيابهم بالأدم ما يجدون لها رقاعاً، فقال: «أنتم اليوم خير أم يوم يغدو أحدكم في حلة ويروح في أخرى، ويغدو عليه بجفنة ويراح عليه بأخرى، ويستر بيته كما تستر الكعبة. قالوا:

١٤١٨ - أخرجه ابن المبارك في كتاب الزهد من طريق جرير بن حازم عن الحسن عن عمر به موقوفاً عليه، ومن طريق ابن المبارك رواه إبراهيم الحربي في «غريب الحديث»؛ كما في تخرج الكشاف للزليعي (٢٨٣/٣)، وعزاه الزليعي أيضاً إلى أبو عبيد القاسم بن سلام في كتابه «غريب الحديث»، وإلى ابن سعد في الطبقات في ترجمة عمر.

وقال الحافظ ابن حجر: أخرجه ابن المبارك في الزهد أخبرنا جرير بن حازم، أنه سمع الحسن يقول: «قدم على أمير المؤمنين عمر وفد أهل البصرة مع أبي موسى الأشعري، قال: لو كنا ندخل وأنه كل يوم خبز بيت. فذكر الحديث. وفيه: «أما والله ما أجهل من كراكر وأسمنة وصلا وصناب، وقال جرير: الصلا هو الشواء والصناب الخردل، والصلائق الخبز الرقاق. ولكن سمعت الله غير أقواماً بأمر فعلوه. فقال: (أذهبت طيباتكم) الآية. وأخرجه أبو عبيدة في الغريب. وابن سعد وأحمد في الزهد. وأبو نعيم في الحلية كلهم من طريق جرير به. انتهى.

١٤١٩ - أخرجه الطبري في تفسيره (٢٨٨/١١ - ٢٨٩) رقم (٣١٢٨٠)، ومن طريق الطبري رواه الثعلبي، كما في تخرج الكشاف للزليعي (٢٨٣/٣)، من طريق يزيد بن هارون عن سعيد بن أبي عروبة عن قتادة قال: ذكر لنا عن عمر بن الخطاب أنه كان يقول: لو شئت لكنت أطيبكم طعاماً... إلى آخر.

وأخرجه أبو نعيم في الحلية في ترجمة عمر (٤٩/١) من حديث عفان عبد جرير بن حازم عن الحسن عن عمر، قال: والله لو شئت... إلى آخره. وذكره السيوطي في الدر المنثور (١٢/٦).. وقال الحافظ ابن حجر: أخرجه الطبري من رواية، سعيد عن قتادة قال: ذكر لنا عمر قال: فذكره. انتهى.

= فهي التي يعرض عليها الحوض حقيقة. وأما النار فقد وردت النصوص بأنها حينئذ مدركة إدراك الحيوانات بل إدراك أولي العلم؛ فالأمر في الآية على ظاهره، كقولك: عرضت الأسرى على الأمير، والله أعلم.

(١) قوله: «بصلائق وصناب» في الصحاح: الصلائق: الخبز الرقاق. والصناب: صباغ يتخذ من الخردل والزبيب. والكركرة: رحي زور البعير: والزور: أعلى الصدر اهـ، أخذنا من مواضع. (ع)

نحن يومئذ خير. قال: بل أنتم اليوم خير» (١٤٢٠) وقرئ: «أذهبتم» بهمزة الاستفهام. و«أذهبتم» باللف بين همزتين: «الهون» و«الهوان»: وقرئ «عذاب الهوان»، وقرئ: «يفسقون» بضم السين وكسرها.

﴿وَأَذْكُرُ آعَادَ إِذْ أُنذَرَ قَوْمَهُ بِالْأَحْقَافِ وَقَدْ خَلَّتِ النُّذُرُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ (٢١)

الأحفاف: جمع حقف وهو رمل مستطيل مرتفع فيه انحناء، من احقوق الشيء إذا اعوج، وكانت عاد أصحاب عمد يسكنون بين رمال مشرفين على البحر بأرض يقال لها الشحر من بلاد اليمن. وقيل: بين عمان ومهرة. و﴿النُّذُرُ﴾ جمع نذير بمعنى المنذر أو الإنذار ﴿مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ﴾ من قبله ﴿وَمِنْ خَلْفِهِ﴾ ومن بعده. وقرئ: «من بين يديه ومن بعده» والمعنى: أن هوداً عليه السلام قد أنذرهم فقال لهم: لا تعبدوا إلا الله إني أخاف عليكم العذاب؛ وأعلمهم أن الرسل الذين بعثوا قبله والذين سيبعثون بعده كلهم منذرون نحو إنذاره وعن ابن عباس رضي الله عنه: يعني الرسل الذين بعثوا قبله والذين بعثوا في زمانه. ومعنى ﴿وَمِنْ خَلْفِهِ﴾ على هذا التفسير ومن بعد إنذاره، هذا إذا علقته، وقد خلت النذر

١٤٢٠ - أخرجه الطبري في تفسيره: (٢٨٨/١١ - ٢٨٩) رقم (٣١٢٨٠)، من طريق بشر بن معاذ عن يزيد بن هارون عن سعيد بن أبي عروبة عن قتادة قال: ذكر لنا أن رسول الله - ﷺ - دخل يوماً على أصحاب الصفة وهم يرقعون ثيابهم بالأدم ما يجدون لها رقاعاً... إلى آخره سواء. ومن طريق الطبري رواه الثعلبي، وهذا مرسل، كما في تخريج الكشاف للزيلعي (ح-٢٨٤/٣)، وعزاه الزيلعي أيضاً إلى أبي نعيم في الحلية في ترجمة أصحاب الصفة من طريق هناد بن السري عن يونس بن بكير عن سنان بن سنبس الحنفي عن الحسن قال: بنيت صفة لضعفاء المسلمين، فجعل المسلمون يوغلون إليها ما استطاعوا من خير، فكان - عليه الصلاة والسلام - يأتيهم، فيقول: «السلام عليكم يا أهل الصفة»... إلى آخره.

وللحديث شاهد من حديث علي:

أخرجه الترمذي (٦٤٧/٤): كتاب صفة القيامة، حديث (٢٤٧٦) من طريق يزيد بن زياد عن محمد بن كعب القرظي قال: حدثني من سمع علي بن أبي طالب يقول: إنا لجلوس مع رسول الله - ﷺ - في المسجد... إلى آخره.

وقال الترمذي: هذا حديث حسن. أ.هـ. وقال الحافظ ابن حجر: أخرجه الطبري من رواية سعد عن قتادة قال: ذكر لنا، فذكره. ومن طريقه الشعبي. ورواه أبو نعيم في الحلية في ترجمة أهل الصفة من طريق الحسن قال: «حسب أضعاف المسلمين»، فذكر نحوه مطولاً وفي الترمذي من طريق محمد بن كعب القرظي: حدثني من سمع علي بن أبي طالب - رضي الله عنه - قال: بينا نحن جلوس في المسجد إذ طلع علينا مصعب بن عمير ما عليه إلا بردة له مرقوعة بفرو. فلما رآه رسول الله - ﷺ - بكى للذي كان فيه من النعمة. ثم قال: كيف بكم... الحديث نحوه». انتهى.

بقوله: أنذر قومه، ولك أن تجعل قوله تعالى: ﴿وَقَدْ خَلَّتْ أُنْذُرُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ﴾ اعتراضاً بين أنذر قومه وبين ﴿أَلَا تَعْبُدُونَ﴾ ويكون المعنى: واذكر إنذار هود قومه عاقبة الشرك والعذاب العظيم؛ وقد أنذر من تقدمه من الرسل ومن تأخر عنه مثل ذلك، فاذكرهم.

﴿قَالُوا أَجِئْنَا لِنُفَكَّ عَنْ عَاهِتِنَا فَأَيْنَا بِمَا تَعِدُنَا إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾ (٢٢)

الإفك: الصرف. يقال أفكه عن رأيه ﴿عَنْ عَاهِتِنَا﴾ عن عبادتها ﴿بِمَا تَعِدُنَا﴾ من معاملة العذاب على الشرك ﴿إِنْ كُنْتَ﴾ صادقاً في وعدك.

﴿قَالَ إِنَّمَا أَلِغْتُكُمْ مَا أُرْسِلْتُ بِهِ وَلَكِنِّي أَرَاكُمْ قَوْمًا يَجْهَلُونَ﴾ (٢٣)

فإن قلت: من أين طابق قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا أَلِغْتُكُمْ مَا أُرْسِلْتُ بِهِ﴾ جواباً لقولهم: ﴿قَالُوا بِمَا تَعِدُنَا﴾؟ قلت: من حيث إن قولهم هذا استعجال/٢/١٧٩ ب منهم بالعذاب. ألا ترى إلى قوله تعالى: ﴿بَلْ هُوَ مَا اسْتَعْجَلْتُمْ بِهِ﴾ فقال لهم: لا علم عندي بالوقت الذي يكون فيه تعذيبكم حكمة وصواباً، إنما علم ذلك عند الله، فكيف أدعوه بأن يأتيكم بعذابه في وقت عاجل تقترحونه أنتم؟ ومعنى: ﴿وَأُيْلَغْتُكُمْ مَا أُرْسِلْتُ بِهِ﴾ وقرئ بالتخفيف: أن الذي هو شأني وشرطي: أن أبلغكم ما أرسلت به من الإنذار والتخويف والصرف عما يعرضكم لسخط الله بجهدى، ولكنكم جاهلون لا تعلمون أن الرسل لم يبعثوا إلا منذرين لا مقترحين، ولا سائلين غير ما أذن لهم فيه.

﴿فَلَمَّا رَأَوْهُ عَارِضًا مُسْتَقْبِلَ أَوْدِيَّتِهِمْ قَالُوا هَذَا عَارِضٌ مُنْظَرٌ بَلْ هُوَ مَا اسْتَعْجَلْتُمْ بِهِ رِيحٌ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ (٢٤) تُدْمِرُ كُلَّ شَيْءٍ بِأَمْرِ رَبِّهَا فَأَصْبَحُوا لَا يُرَى إِلَّا مَسَكِنُهُمْ كَذَلِكَ نَجْزِي الْقَوْمَ

الْمُجْرِمِينَ (٢٥)

﴿فَلَمَّا رَأَوْهُ﴾ في الضمير وجهان: أن يرجع إلى ما تعدنا، وأن يكون مبهماً قد وضع أمره بقوله: ﴿عَارِضًا﴾ إما تمييزاً وإما حالاً. وهذا الوجه أعرب وأفصح. والعارض: السحاب الذي يعرض في أفق السماء. ومثله: الحبى والعنان، من حبا وعن: إذا عرض. وإضافة مستقبل وممطر مجازية غير معرفة؛ بدليل وقوعهما وهما مضافان إلى معرفتين وصفاً للنكرة ﴿بَلْ هُوَ﴾ القول قبله مضمّر، والقائل: هود عليه السلام، والدليل عليه قراءة من قرأ: «قال هود، بل هو» وقرئ: «قل بل ما استعجلتم به هي ريح»، أي قال الله تعالى: قل ﴿تُدْمِرُ كُلَّ شَيْءٍ﴾ تهلك من نفوس عاد وأموالهم الجرم الكثير، فعبر عن الكثرة بالكلية. وقرئ: «يدمر كل شيء» من دمر دماراً إذا هلك «لا ترى» الخطاب للرائي من

كان. وقرئ: «لا يرى»، على البناء للمفعول بالياء والتاء، وتأويل القراءة بالتاء وهي عن الحسن رضي الله عنه: لا ترى بقايا ولا أشياء منهم إلا مساكنهم. ومنه بيت ذي الرمة [من الطويل]:

وَمَا بَقِيَتْ إِلَّا الضُّلُوعُ الْجَرَاشِعُ^(١)

وليست بالقوية. وقرئ: «لا ترى إلا مساكنهم»، و«لا يرى إلا مساكنهم». وروي أن الرياح كانت تحمل الفسطاط والظعينة فترفعها في الجوّ حتى ترى كأنها جرادة. وقيل: أول من أبصر العذاب امرأة منهم قالت: رأيت ريحاً فيها كشهب النار. وروي: أول ما عرفوا به أنه عذاب: أنهم رأوا ما كان في الصحراء من رجالهم ومواشيهم تطير به الرياح بين السماء والأرض، فدخلوا بيوتهم وغلقوا أبوابهم؛ فقلعت الرياح الأبواب وصرعتهم، وأمال الله عليهم الأحقاف فكانوا تحتها سبع ليال وثمانية أيام لهم أنين، ثم كشفت الرياح عنه، فاحتلمتهم فطرحتهم في البحر. وروي أن هوداً لما أحس بالريح خط على نفسه وعلى المؤمنين خطاً إلى جنب عين تتبع. وعن ابن عباس رضي الله عنهما: اعتزل هود ومن معه في حظيرة ما يصيبهم من الرياح إلا ما يلين على الجلود وتلذه الأنفس. وإنها لتمر من عاد بالظعن بين السماء وتدمغهم بالحجارة وعن النبي ﷺ أنه كان إذا رأى الرياح فزع وقال: «اللهم إني أسألك خيرها وخير ما أرسلت به، وأعوذ بك من شرها وشر ما أرسلت به وإذا رأى مخيلة: قام وقعد، وجاء وذهب، وتغير لونه، فيقال له: يا رسول الله ما تخاف؟ فيقول: إني أخاف أن يكون مثل قوم عاد حيث قالوا: هذا عارض ممطرنا» (١٤٢١). فإن قلت: ما فائدة إضافة الرب إلى الرياح؟ قلت: الدلالة على أن الرياح وتصريف أعنتها مما

١٤٢١ - أخرجه البخاري (٤٤٣/٧٦): كتاب بدء الخلق: باب ما جاء في قوله تعالى: (وهو الذي يرسل الرياح بشرايين يدي رحمته) حديث (٣٢٠٦) أخرجه مسلم في صحيحه (٦١٦/٢): كتاب صلاة الاستسقاء: باب التعوذ عند رؤية الرياح، والغيم، والفرح بالمطر، حديث (١٤)، (٨٩٩/١٥)، والترمذي (٣٨٢/٥) كتاب تفسير القرآن: باب ومن سورة الأحقاف حديث (٣٢٥٧)، وابن ماجه (١٢٨٠/٢): كتاب الدعاء: باب ما يدعو به الرجل إذا رأى السحاب والمطر، حديث (٣٨٩١). وأحمد في مسنده (٢٤٠/٦ - ٢٤١)، وأبو يعلى في مسنده: (١٦٥/٨) رقم (٤٧١٣/٣٥٧)؛ كلهم من طرق عن عطاء بن رباح عن عائشة به. وله طريق آخر:

أخرجه البخاري (٥٤٩/٩ - ٥٥٠): كتاب التفسير: باب قوله تعالى: ﴿فلما رآه عارضاً مستقبل أوديتهم قالوا هذا عارض مُمطرنا﴾ حديث (٤٨٢٩)، وأبو داود (٣٢٦/٤): كتاب الأدب باب ما يقول إذا هاجت الرياح، حديث (٥٠٩٨)، وأحمد (٦٦/٦)، كلهم من طرق عن عبد الله بن وهب =

يشهد لعظم قدرته، لأنها من أعاجيب خلقه وأكابر جنوده. وذكر الأمر وكونها مأمورة من جهته عز وجل: يعضد ذلك ويقويه.

﴿وَلَقَدْ مَكَنَّهُمْ فِيْمَا إِن مَكَّنَّكُمْ فِيهِ وَجَعَلْنَا لَهُمْ سَمْعًا وَأَنْصَرًا وَأَفْئِدَةً فَمَا أَغْنَى عَنْهُمْ سَمْعُهُمْ وَلَا أَبْصَرُهُمْ وَلَا أَفْئِدَتُهُمْ مِنْ شَيْءٍ إِذْ كَانُوا يَجْحَدُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَحَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ﴾ (٢١)

﴿إِنْ﴾ نافية، أي: فيما ما مكناكم فيه، إلا أَنْ ﴿إِنْ﴾ أحسن في اللفظ؛ لما في مجامعة (ما) مثلها من التكرير المستبشع. ومثله مجتنب، ألا ترى أن الأصل في «مهما»: (ماما) فلبشاعة التكرير، قلبوا الألف هاء. ولقد أغث^(١) أبو الطيب في قوله [من الطويل]: لَعَمْرُكَ مَا بَانَ مِنْكَ لِضَارِبٍ^(٢)

وما ضره لو اقتدى بعدوبة لفظ التنزيل فقال: لعمرك ما إن بان منك لضارب^(٣). وقد

= عن عمرو بن الحارث عن أبي النضر عن سليمان بن يسار عن عائشة به بنحوه.
وله طريق آخر أيضًا:

أخرجه أحمد في مسنده (١٦٧/٦) من طريق معمر عن ابن طاووس عن أبيه عن عائشة به بنحوه. وذكره السيوطي في «الدر المنثور»: (١٤/٦)، وزاد نسبه إلى عبد بن حميد. وقال الحافظ ابن حجر: أخرجه مسلم، والترمذي، والنسائي، وابن ماجه، والبخاري، وأبو يعلى، والبخاري في الأدب المفرد؛ كلهم من رواية عطاء عن عائشة، ولفظ مسلم قريب من لفظ الكتاب. انتهى.

(١) قوله. «ولقد أغث أبو الطيب» في الصحاح «أغث»: أي ردؤ وفسد، تقول: أغث الرجل في منطقته. (ع)

(٢) لعمرك ماما بان منك لضارب بأقتل مما بان منك لعائب لأبي الطيب. يقول: وحياتك ليس الذي ظهر منك للضارب يعني السنان، أقتل: أي أسرع قتلاً من الذي ظهر منك للعائب، يعني: اللسان، بل هما سواء في الحدة. ويجوز أنه استعار القتل للضرب تصريحاً.

ينظر: ديوانه ص (٢٨٥)، والدر المصون (١٤٢/٦).

(٣) قال أحمد: بيت المتنبي ليس كما أنشده، وإنما هو كما يروى:

لعمرك إن ما بان منك لضارب بأقتل مما بان منك لعائب ولا يستقيم إلا كذلك لأن قبله:

هو ابن رسول الله وابن صفيه وشبههما شبهت بعد التجارب

من قصيدة يمدح بها طاهر بن الحسين العلوي، ولو أتى أبو الطيب عوض «ما» بـ «إن» لجاء البيت:

يرى أن إن ما بان منك لضارب

وهذا التكرار أثقل من تكرار «ما» بلا مراء. وإنما فنده الزمخشري وألزمه استعمال «إن» عوض =

جعلت إن صلة، مثلها فيما أنشدته الأخفش: [الوافر]

يُرْجَى الْمَرْءُ مَا إِنْ لَا يَرَاهُ وَتَعْرِضُ دُونَ أَدْنَاهُ الْخُطُوبُ

وتؤول بيانا مكناهم في مثل ما مكناكم فيه، والوجه هو الأول، ولقد جاء عليه غير آية في القرآن ﴿هُمْ أَتَسْمَعُونَ﴾ [مريم: ٧٤] ﴿كَانُوا أَكْثَرَ مِنْهُمْ وَأَشَدَّ قُوَّةً وَءِثَارًا﴾ [غافر: ٨٢] وهو أبلغ في التوبيخ، وأدخل في الحث على الاعتبار ﴿وَمِنْ شَيْءٍ﴾ أي من شيء من الإغناء، وهو القليل منه. فإن قلت: ١٨٠/٢ أ بم انتصب ﴿إِذْ كَانُوا يَحْكُدُونَ﴾؟ قلت: بقوله تعالى: ﴿فَمَا أَغْنَىٰ﴾. فإن قلت: لم جرى مجرى التعليل؟ قلت: لاستواء مؤدى التعليل والظرف في قولك: ضربته لإساءته وضربته إذ أساء؛ لأنك إذا ضربته في وقت إساءته؛ فإنما ضربته فيه لوجود إساءته فيه؛ إلا أن «إذ»، وحيث، غلبتا دون سائر الظروف في ذلك.

= «ما»؛ لاعتقاده أن البيت كما أنشدته:

لعمرك ماما بان منك لضارب بأقتل مما بان منك لعائب

ولو عوض «إن» عوض «ما» كما أصلحه الزمخشري: لزم دخول الباء في خبر «ما» وإنما تدخل الباء في خبر «ما» الحجازية العاملة، و«إن» لا تعمل عمل «ما» على الصحيح، فلا يستقيم دخول الباء في خبرها، فما عدل المتنبي عن ذلك إلا لتعذره عليه من كل وجه. على أنني لا أبريء المتنبي من التعجرف، فإنه كان مغرأ به، مغرأ بالغريب من النظم. ونقل الزمخشري في الآية وجهاً آخر: وهو جعلها صلة مثلها في قوله [من الوافر]:

يرجى المرء ما إن لا يراه وتعرض دون أدناه الخطوب

قال: «ويكون معناه علي هذا مكناهم في مثل ما مكناكم... الخ» قلت: واختص بهذه الطائفة قوله تعالى: ﴿وَقَالُوا مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً﴾ وقوله: ﴿مَكَانَهُمْ فِي الْأَرْضِ مَا لَهُمْ فِيهَا مِنْ شَيْءٍ﴾.

(١) فلان أمسك فلان العيش حلو إلي كأنه عسل مشوب

يرجي المرء ما إن لا يراه وتعرض دون أدناه الخطوب

وما يدري الحريص علام يلقي شرارشره أيخطئ أم يصيب؟

لجابر بن رلان الطائي. وقيل: لإياس بن الأرت. والشرارشر: جمع شرشر، وهي أطراف الشيء المشرشرة، أي: المفارقة المنشورة، وتطلق على الجسد وعلى الثقل ويكنى بها عن النفس كما هنا. وقيل: هي حبال الصيد. يقول: إن أبخل فالعيش حلو عنده كحلالة العسل الممزوج بالماء لتزول حرارته وضمن «حلو» معنى محبوب، فعاده بلالي. ثم قال: ولكن لا خير في الإمساك؛ فإن المرء يرتجي الأمر الغائب عنه. وتحول أهوال الموت أو شدائد الدهر بينه وبين أدنى شيء منه. وإن: زائدة بعد ما الموصولة حملاً على ما النافية، وما يدري الذي وجه نفسه بكليتها للدنيا عواقب أمره، أربح أم خسر، وعلى أنها حبال الصيد ففي الكلام استعارة تمثيلية حيث شبه حال من أخذ في أسباب الأمر جاهلاً عاقبته: بحال من نصب الحبال للصيد، فقد وقد.

ينظر: حاشية الدسوقي على المغني (١/٢٤)، والخزانة (٣/٥٦٧)، والدر المصون (٦/١٤٢).

﴿وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا مَا حَوْلَكُمْ مِنَ الْقُرَىٰ وَصَرَّفْنَا الْآيَاتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ (٢٧)

﴿مَا حَوْلَكُمْ﴾ يا أهل مكة ﴿مِنَ الْقُرَىٰ﴾ من نحو حجر ثمود وقرية سدوم وغيرهما. والمراد: أهل القرى. ولذلك قال: ﴿لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾.

﴿فَلَوْلَا نَصْرُهُمُ الَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ قُرْبَانًا آلِهَةً بَلْ صَلَّوْا عَنْهُمْ وَذَلِكَ إِفْكُهُمْ وَمَا كَانُوا يَفْقَهُونَ﴾ (٢٨)

القربان: ما تقرب به إلى الله تعالى، أي: اتخذوهم شفعاء متقرباً بهم إلى الله، حيث قالوا: هؤلاء شفعاؤنا عند الله. وأحد مفعولي اتخذ الراجع إلى الذين^(١) المحذوف^(٢)، والثاني: آلهة. وقرباناً: حال ولا يصح أن يكون قرباناً مفعولاً ثانياً وآلهة بدلاً منه لفساد المعنى. وقرئ: «قرباناً» بضم الراء. والمعنى: فهلا منعهم من الهلاك آلهتهم ﴿بَلْ صَلَّوْا عَنْهُمْ﴾ أي غابوا عن نصرتهم ﴿وَذَلِكَ﴾ إشارة إلى امتناع نصرة آلهتهم لهم وضلالهم عنهم، أي: وذلك أثر إفكهم الذي هو اتخاذهم إياها آلهة، وثمرة شركهم وافتراءهم على الله الكذب من كونه ذا شركاء. وقرئ «إفكهم»، والأفك والإفك: كالحذر والحذر. وقرئ: «وذلك إفكهم» أي: وذلك الاتخاذ الذي هذا أثره وثمرته صرفهم عن الحق. وقرئ: «أفكهم» على التشديد للمبالغة. «وَأَفْكُهُمْ»، جعلهم آفكين. «وَأَفْكُهُمْ»، أي: قولهم الأفك ذو الإفك، كما تقول قول كاذب، وذلك إفك مما كانوا يفترون، أي: بعض ما كانوا يفترون من الإفك.

﴿وَإِذْ صَرَّفْنَا إِلَيْكَ نَفَرًا مِّنَ الْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ الْقُرْآنَ فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوا أَنصِتُوا فَلَمَّا قُضِيَ وَلَوْا إِلَىٰ قَوْمِهِمْ مُنْذِرِينَ﴾ (٢٩) قَالُوا يَنْقُومَنَا إِنَّا سَمِعْنَا كِتَابًا أُنزِلَ مِن بَعْدِ مُوسَىٰ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ وَإِلَىٰ طَرِيقٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٣٠﴾ يَنْقُومَنَا أَجِيبُوا دَاعِيَ اللَّهِ وَآمِنُوا بِهِ يَغْفِرَ لَكُمْ مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُجِرْكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٣١﴾ وَمَنْ لَا يُحِبِّ دَاعِيَ اللَّهِ فَلَيْسَ بِمُعْجِزٍ فِي

(١) قال محمود: «أحد مفعولي اتخذ الراجع إلى الموصول محذوف... الخ» قال أحمد: لم يتبين وجه فساد المعنى على هذا الإعراب. ونحن نبينه فنقول: لو كان قرباناً مفعولاً ثانياً ومعناه متقرباً بهم: لصار المعنى إلى أنهم وبخوا على ترك اتخاذ الله متقرباً به؛ لأن السيد إذا وبخ عبده وقال: اتخذت فلاناً سيذاً دوني، فإنما معناه اللوم على نسبة السيادة إلى غيره، وليس هذا المقصد؛ فإن الله تعالى يتقرب إليه ولا يتقرب به لغيره؛ فإنما وقع التوبيخ على نسبة الإلهية إلى غير الله تعالى، فكان حق الكلام أن يكون آلهة هو المفعول الثاني لا غير.

(٢) قوله: «اتخذ الراجع إلى الذين المحذوف» هو الذي أبرزه في قوله: أي اتخذوهم. (ع)

﴿الْأَرْضِ وَلَيْسَ لَهُ مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءٌ أُولَئِكَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ﴾ (٣٦)

﴿صَرَفْنَا إِلَيْكَ نَفَرًا﴾ أَمَلْنَاهُمْ إِلَيْكَ وَأَقْبَلْنَا بِهِمْ نَحْوَك. وقرئ: «صرفنا» بالتشديد؛ لأنهم جماعة. والنفر: دون العشرة. ويجمع أنفازًا. وفي حديث أبي ذر رضي الله عنه: لو كان ههنا أحد من أنفارنا (١٤٢٢) ﴿فَلَمَّا حَضَرُوهُ﴾ الضمير للقرآن. أي: فلما كان بمسمع منهم. أو لرسول الله ﷺ. وتعضده قراءة من قرأ «فلما قضى» أي أتم قراءته وفرغ منها ﴿قَالُوا﴾ قال بعضهم لبعض ﴿أَنصُتُوا﴾ اسكتوا مستمعين. يقال: أنصت لكذا واستصت له. روي: أن الجن كانت تسترق السمع، فلما حرست السماء ورجموا بالشهب قالوا: ما هذا إلا لنبيأ حدث، فنهض سبعة نفر أو تسعة من أشراف جن نصيين أو نينوى: منهم زوبعة، فضربوا حتى بلغوا تهامة، ثم اندفعوا إلى وادي نخلة، فوافقوا^(١) رسول الله ﷺ وهو قائم في جوف الليل يصلي أو في صلاة الفجر، فاستمعوا لقراءته، وذلك عند منصرفه من الطائف حين خرج إليهم يستنصرهم فلم يجيبوه إلى طلبته وأغروا به سفهاء ثقيف (١٤٢٣). وعن

١٤٢٢ - أخرجه مسلم (٨/٢٦٥ - ٢٦٦ - ٢٦٧ - النووي) كتاب فضائل الصحابة: باب من فضائل أبي ذر رضي الله عنه - حديث (١٣٢/٢٤٧٣) وأخرجه أحمد، وابن راهويه والبخاري في مسانيدهم؛ كما في تخريج الكشاف للزيلعي (٣/٢٨٧).

وقال الحافظ ابن حجر: هذا طرف من قصة إسلام أبي ذر - رضي الله عنه - من رواية عبد الله بن الصامت عن أبي ذر ذكره مطولاً. وفيه: فبينما أنا في ليلة قمراء ختمانية، وقد ضرب الله على أهل مكة، فما يطوف غير امرأتين، فأتيتا على ذكر القصة. وفيه ثم انطلقا يولولان. ويقولان، لو كان ههنا أحد من أنفارنا» أخرجه مسلم مطولاً. انتهى.

١٤٢٣ - قال الزيلعي في تخريج الكشاف (٣/٢٨٧): غريب بهذا اللفظ، أ. هـ. والحديث أخرجه البخاري (٩/٦٧٢ - ٦٧٣): كتاب التفسير: باب سورة: ﴿قُلْ أَوْحَى إِلَيَّ﴾، حديث (٤٩٢١)، ومسلم (٢/٤٠٣ - النووي) كتاب الصلاة: باب الجهد بالقراءة في الصبح والقراءة على الجن، حديث (١٤٩/٤٤٩)، والترمذي (٥/٤٢٦): كتاب تفسير القرآن: باب ومن سورة الجن، حديث (٣٣٢٣)، والحاكم في المستدرک (٢/٥٠٣)؛ كلهم من طريق سعيد بن جبیر عن ابن عباس قال: «ما قرأ رسول الله ﷺ - على الجن وما رآهم... الحديث».

وقال الحاكم: هذا حديث صحيح على شرط الشيخين، ولم يخرجاه بهذه السياقة إنما أخرجه مسلم وحده حديث داود بن أبي هند عن الشعبي عن علقمة عن عبد الله - رضي الله عنه - بطوله بغير هذه الألفاظ. أ. هـ.

وله شاهد من حديث ابن مسعود: أخرجه الحاكم (٢/٤٥٦) وقال: صحيح الإسناد ولم يخرجاه. من طريق سفيان عن عاصم عن زر عن عبد الله قال: هبطوا على النبي - ﷺ -... فذكره وقال الحافظ ابن حجر: متفق عليه بمعناه من رواية سعيد بن جبیر عن ابن عباس دون أوله، ودون =

(١) قوله: «وافقوا رسول الله ﷺ لعله: فوافوا. (ع)

سعيد بن جبير رضي الله عنه: ما قرأ رسول الله ﷺ على الجن ولا رآهم، وإنما كان يتلو في صلاته فمروا به فوقوا مستمعين وهو لا يشعر، فأنبأه الله باستماعهم (١٤٢٤). وقيل: بل أمر الله رسوله أن ينذر الجن ويقرأ عليهم فصرف إليه نفرًا منهم جمعهم له فقال: إني أمرت أن أقرأ على الجن الليلة فمن يتبعني: قالها ثلاثًا، فأطرقوا إلا عبد الله بن مسعود رضي الله عنه، قال: لم يحضره ليلة الجن أحد غيري، فانطلقنا حتى إذا كنا بأعلى مكة في شعب الحجون فخط لي خطا وقال: لا تخرج منه حتى أعود إليك، ثم افتتح القرآن وسمعت لغطا شديدًا حتى خفت على رسول الله ﷺ، وغشيته أسودة كثيرة حالت بيني وبينه حتى ما أسمع صوته ثم انقطعوا كقطع السحاب فقال لي رسول الله ﷺ: هل رأيت شيئًا؟ قلت: نعم رجالاً سوداً مستثفري ثياب بيض^(١)، فقال: أولئك جن نصيبين (١٤٢٥)، وكانوا اثني عشر ألفًا، والسورة التي قرأها عليهم: ﴿أَقْرَأْ بِأَسْمِ رَبِّكَ﴾ [العلق: ١].

= قوله: «وكانوا تسعة نفر أحدهم زوبعة»، ودون قوله «في جوف الليل يصلي»، ودون قوله: «من نينوى» ودون قوله: «عند منصرفه إلى آخره»، وأما زوبعة فأخرجه الحاكم من رواية زر عن ابن مسعود قال: «هبطوا - يعني الجن - على النبي - ﷺ - وهو يقرأ القرآن ببطن نخلة. فلما سمعوه قالوا: أنصتوا. وكانوا تسعة أحدهم زوبعة. فأنزل الله ﴿وَإِذْ صَرَفْنَا إِلَيْكَ نَفَرًا مِّنَ الْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ الْقُرْآنَ﴾ - الآية) وقوله: «نينوى» أخرجه الطبري من رواية قتادة في هذه الآية قال: ذكر لنا أنهم صرفوا إليه من نينوى الحديث». انتهى.

١٤٢٤ - تقدّم - ينظر السابق. وقال الحافظ ابن حجر: متفق عليه من رواية سعيد بن جبير، وهو من الذي قبله.

١٤٢٥ - قال الزيلعي في تخريج الكشاف (٢٨٩/٣): غريب بهذا اللفظ. أ.هـ. والحديث أخرجه الطبري في تفسيره (٢٩٨/١١) رقم (٣١٣١٥) عن يزيد عن سعيد عن قتادة؛ أنه قال في قوله تعالى: ﴿وَإِذْ صَرَفْنَا إِلَيْكَ نَفَرًا مِّنَ الْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ الْقُرْآنَ﴾ قال: «ذكر لنا أنهم صُرفوا إليه من نينوى...» فذكره وأخرجه ابن أبي حاتم في تفسيره عن عكرمة كما في تخريج الكشاف (٣/٢٩٠ - ٢٩١)، وأخرجه الحاكم في المستدرک: (٥٠٣/٢ - ٥٠٤) في تفسير سورة الجن من حديث الزهري عن أبي عثمان بن شيبه الخزاعي عن عبد الله بن مسعود قال: إن رسول الله - ﷺ - قال لأصحابه وهو بمكة: «من أحب منكم أن يحضر الليلة أمر الجن فليفعل؟» فلم يحضر منهم أحد غيري... فذكره.

وأخرجه الطبري في تفسيره (٢٩٨/١١) رقم (٣١٣١٧) من حديث معمر عن يحيى بن أبي كثير عن عبد الله بن عمرو بن غيلان الثقفي؛ أنه قال لابن مسعود به. قال الحافظ ابن حجر: لم أجده بتمامه في سياق واحد، بل وجدته مفرقًا. فروى الطبري من رواية قتادة ذكر لنا النبي - ﷺ - قال: «إني أمرت أن أقرأ على الجن. فأيكمن يتبعني فاطرقوا ثلاثًا إلا ابن =

(١) قوله: «مستثفري ثياب بيض» في القاموس «الاستثفار»: أن يدخل إزاره بين فخذه ملوئًا وإدخال الكلب ذنبه بين فخذه حتى يلزقه بطنه اهـ. (ع)

فإن قلت: كيف قالوا: ﴿مِنْ بَعْدِ مُوسَى﴾؟ قلت: عن عطاء رضي الله عنه: أنهم كانوا على اليهودية. وعن ابن عباس رضي الله عنهما: إن الجن لم تكن سمعت بأمر عيسى عليه السلام، فلذلك قالت ﴿مِنْ بَعْدِ مُوسَى﴾. فإن قلت: لم بعض في قوله: ﴿مِنْ دُونِكُمْ﴾؟ قلت: لأن من الذنوب ما لا يغفر بالإيمان كذنوب المظالم ونحوها. ونحوه قوله عز وجل: ﴿أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاتَّقُوهُ وَأَطِيعُوا ٱلرَّسُولَ ۚ يَغْفِرْ لَكُمْ مِن ذُنُوبِكُمْ﴾ [نوح: ٣ - ٤]. فإن قلت: هل للجن ثواب كما للإنس؟ قلت: اختلف فيه فقيل: لا ثواب لهم إلا النجاة من النار، لقوله تعالى: ﴿وَيُجْزَىٰ مَن عَذَابَ ٱلْآلِئِ﴾ وإليه كان يذهب أبو حنيفة رحمه الله. والصحيح أنهم في حكم بني آدم، لأنهم مكلفون مثلهم ﴿فَلَيْسَ بِمُعْجِزٍ فِي ٱلْأَرْضِ﴾ أي: لا ينجي منه مهرب، ولا يسبق قضاءه سابق. ونحوه قوله تعالى: ﴿وَأَنَّا طُنَّآ أَن كَن تُعْجِزَ ٱللَّهُ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَكِن تَعْجِزُهُ ٱلْمَرَا ۖ﴾ ١٢/٢/١٨٠ ب [الجن: ١٢].

﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَن ٱللَّهَ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلسَّمٰوٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ ئَخٌ يَخْلَفُهَا ئَقْدِرُ عَلَىٰ أَن يُّخَيِّ ٱلْمَوْتِ بَلَىٰ إِنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ۝﴾

﴿يَقْدِرُ﴾ محله الرفع؛ لأنه خبر أن، يدل عليه قراءة عبد الله: قادر؛ وإنما دخلت الباء لاشتغال النفي في أول الآية على أن وما في حيزها. وقال الزجاج: لو قلت: ما ظننت أن زيداً بقائم: جاز، كأنه قيل: أليس الله بقادر. ألا ترى إلى وقوع بلى مقررّة للقدرة على كل شيء من البعث وغيره، لا لرؤيتهم. وقرئ: «يقدر»، ويقال: عييت بالأمر، إذا لم تعرف وجهه. ومنه: ﴿أَفَعَبْنَا بِٱلْخَلْقِ ٱلْأَوَّلِ﴾ [ق: ١٥].

= مسعود، فاتبعه حتى دخل شعباً يقال له شعب الحجون قال: وخط على ابن مسعود خطأ. فذكر أي: قوله: حتى خفت عليه - وزاد فيه: فقلت: ما هذا اللغط؟ فقال: اختصموا إلي في جبل قضيت بينهم بالحق»، وروى الحاكم والطبراني والدارقطني من طريق أبي عثمان بن شبة الخزاعي، وكان رجلاً من أهل الشام أنه سمع عبد الله بن مسعود يقول: «إن رسول الله - ﷺ - قال لأصحابه وهو بمكة: من أحب منكم أن يحضر الليلة أمر الجن فليفعل. فلم يحضر منهم أحد غيري. قال: فانطلقت حتى إذا كنا بأعلى مكة خط لي برجله خطأ، ثم أمرني أن أجلس فيه، ثم انطلق حتى قام. فافتتح القرآن. . . الحديث» ونم يذكر قوله: «رجلاً سوداً. . . إلى آخر». وروى الطبري من رواية عمرو بن غيلان الثقفي، أنه سأل ابن مسعود فذكر القصة. وفيها فقال: «أريت شيئاً؟ قلت: نعم. قد رأيت رجلاً سوداً مستشعري ثياب بيض. فقال: أولئك جن نصيبين سألوني المتاع - فذكر الحديث»، وليس فيه عددهم ولا اسم السورة. وروى ابن أبي حاتم من رواية عكرمة في هذه الآية قال: «كانوا من جن نصيبين جاؤوا من جزيرة الموصل. وكانوا اثني عشر ألفاً. فهذه الأحاديث من مجموعها ما ذكر إلا اسم السورة. انتهى.

﴿وَيَوْمَ يُعْرَضُ الَّذِينَ كَفَرُوا عَلَى النَّارِ أَلَيْسَ هَذَا بِالْحَقِّ قَالُوا بَلَىٰ وَرَبِّنَا قَالَ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ﴾ (٣٤)

﴿أَلَيْسَ هَذَا بِالْحَقِّ﴾ محكي بعد قول مضمر، وهذا المضمر هو ناصب الظرف. وهذا إشارة إلى العذاب، بدليل قوله تعالى: ﴿فَذُوقُوا الْعَذَابَ﴾ والمعنى: التهكم بهم، والتوبيخ لهم على استهزائهم بوعد الله ووعيده، وقولهم: ﴿وَمَا نَحْنُ بِمُعَذِّبِينَ﴾ (٣٤٨) [الشعراء: ١٣٨].
﴿فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُولُو الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ وَلَا تَسْتَعْجِلْ لَهُمْ كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَ مَا يُوعَدُونَ لَمَّا يَلْبِثُوا إِلَّا سَاعَةً مِّن نَّهَارٍ بَلَّغَ فَهَلْ يُهْلِكُ إِلَّا الْقَوْمَ الْفَاسِقُونَ﴾ (٣٥)

﴿أُولُو الْعَزْمِ﴾ أولوا الجد والثبات والصبر. و﴿من﴾ يجوز أن تكون للتبويض، ويراد بأولي العزم: بعض الأنبياء. قيل: هم نوح، صبر على أذى قومه: كانوا يضربونه حتى يغشى عليه، وإبراهيم على النار وذبح ولده، وإسحق على الذبح^(١)، ويعقوب على فقد ولده وذهاب بصره، ويوسف على الجب والسجن، وأيوب على الضر، وموسى قال له قومه: إنا لمدركون، قال: كلا إن معي ربي سيهدين، وداود بكى على خطيئته أربعين سنة، وعيسى لم يضع لينة على لينة وقال: إنها معبرة فاعبروها ولا تعمروها. وقال الله تعالى في آدم: ﴿وَلَمْ يَجِدْ لَهُ عَزْمًا﴾ [طه: ١١٥] وفي يونس: ﴿وَلَا تَكُن كَصَاحِبِ الْمُونِ﴾ [القلم: ٤٨] ويجوز أن تكون للبيان، فيكون أولو العزم صفة للرسول كلهم ﴿وَلَا تَسْتَعْجِلْ﴾ لكفار قريش بالعذاب، أي: لا تدع لهم بتعجيله؛ فإنه نازل بهم لا محالة، وإن تأخر، وأنهم مستقصرون حينئذ مدة لبثهم في الدنيا حتى يحسبوها ﴿سَاعَةً مِّن نَّهَارٍ بَلَّغَ﴾ أي هذا الذي وعظمت به كفاية في الموعظة. أو هذا تبليغ من الرسول عليه السلام ﴿فَهَلْ يُهْلِكُ﴾ إلا الخارجون عن الانعاز به، والعمل بموجبه. ويدل على معنى التبليغ قراءة من قرأ: بلغ فهل يهلك، وقرئ «بلاغاً»، أي بلغوا بلاغاً، وقرئ: «يهلك»، بفتح الياء وكسر اللام وفتحها، من هلك وهلك. ونهلك بالنون ﴿إِلَّا الْقَوْمَ الْفَاسِقُونَ﴾.

وعن رسول الله ﷺ: «من قرأ سورة الأحقاف كتب له عشر -عشرات بعدد كل رملة في الدنيا» (١٤٢٦).

١٤٢٦ - تقدم برقم (٣٤٦).

وهو حديث فضائل القرآن سورة سورة، الموضوع على رسول الله ﷺ - وقال ابن حجر: أخرجه الثعلبي، وابن مردويه، والواحدي بأسانيدهم إلى أبي بن كعب - رضي الله عنه - انتهى.

(١) والحق أن الذبيح هو إسماعيل عليه السلام، وهو الذي يدل عليه ظواهر القرآن الكريم، والآثار عن الصحابة والتابعين ومنها ما له حكمة الرفع بتقرير النبي ﷺ.

سورة محمد ﷺ

مدنية عند مجاهد . وقال الضحاك وسعيد بن جبير : مكية .
وهي سورة القتال وهي تسع وثلاثون آية .
وقيل ثمان وثلاثون [نزلت بعد الحديد]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ أَضَلَّ أَعْمَالَهُمْ ۖ﴾ (١) ﴿وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَءَامَنُوا بِمَا نُزِّلَ عَلَىٰ مُحَمَّدٍ وَهُوَ الْحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ كَفَّرَ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَأَصْلَحَ بَالَهُمْ ۖ﴾ (٢)

﴿وَصَدُّوا﴾ وأعرضوا وامتنعوا عن الدخول في الإسلام : أو صدّوا غيرهم عنه . قال ابن عباس رضي الله عنه : هم المطعمون يوم بدر . وعن مقاتل : كانوا اثني عشر رجلاً من أهل الشرك يصدّون الناس عن الإسلام ويأمرونهم بالكفر . وقيل : هم أهل الكتاب الذين كفروا وصدّوا من أراد منهم ومن غيرهم أن يدخل في الإسلام . وقيل : هو عام في كل من كفر وصدّ ﴿أَضَلَّ أَعْمَالَهُمْ﴾ أبطلها وأحبطها . وحقيقته : جعلها ضالة ضائعة ليس لها من يتقبلها ويثيب عليها ، كالضالة من الإبل^(١) التي هي بمضيعة لا رب لها يحفظها ويعتني بأمرها . أو جعلها ضالة في كفرهم ومعاصيهم ومغلوبة بها ، كما يضل الماء في اللبن . وأعمالهم : ما عملوه في كفرهم بما كانوا يسمونه مكارم : من صلة الأرحام وفك الأسارى وقرى الأضياف وحفظ الجوار . وقيل : أبطل ما عملوه من الكيد لرسول الله ﷺ والصدّ عن سبيل الله : بأن نصره عليهم وأظهر دينه على الدين كله .

(١) قال محمود : «معناه جعلها كالضالة من الإبل . . . الخ» قال أحمد : هذا المعنى الثاني حسن متمكن مليء بمقابلة قوله : ﴿وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ ثم قال : ﴿كَفَّرَ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَأَصْلَحَ بَالَهُمْ﴾ وتحرير المقابلة بينهما أن الكفار ضلت أعمالهم الصالحة في جملة أعمالهم السيئة من الكفر والمعاصي ، حتى صار صالحهم مستهلكاً في غمار سيئهم ، ومقابلته في المؤمنين ستر الله لأعمالهم السيئة في كنف أعمالهم الصالحة من الإيمان والطاعة ، حتى صار سيئهم مكفراً ممحوقاً في جنب صالح أعمالهم ، وإلى هذا التمثيل الحسن في عدم تقبل صالح الكفار والتجاوز عن سيئ أعمال المؤمنين وقعت الإشارة بقوله تعالى : ﴿كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ لِلنَّاسِ أَمْثَالَهُمْ﴾ والله أعلم .

﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا﴾ قال مقاتل: هم ناس من قريش. وقيل: من الأنصار. وقيل: هم مؤمنو أهل الكتاب. وقيل: هو عام. وقوله: ﴿وَمَا نَزَلَ عَلَى مُحَمَّدٍ﴾ اختصاص للإيمان بالمنزل على رسول الله ﷺ من بين ما يجب به الإيمان تعظيمًا لشأنه وتعليمًا، لأنه لا يصح الإيمان ولا يتم إلا به. وأكد ذلك بالجملة الاعتراضية التي هي قوله: ﴿وَهُوَ الْحَقُّ مِنْ رَبِّهِ﴾ وقيل: معناها إن دين محمد هو الحق، إذ لا يرد عليه النسخ، وهو ناسخ لغيره. وقرئ: «نزل وأنزل»، على البناء للمفعول. ونزل على البناء للفاعل، ونزل بالتخفيف/٢/١٨١ ﴿كَفَرْنَا عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ﴾ ستر بإيمانهم وعملهم الصالح ما كان منهم من الكفر والمعاصي لرجوعهم عنها وتوبتهم ﴿وَأَصْلَحَ بَالَهُمْ﴾ أي حالهم وشأنهم بالتوفيق في أمور الدين، وبالتسلط على الدنيا بما أعطاهم من النصرة والتأييد.

﴿ذَلِكَ بِأَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا اتَّبَعُوا الْبَاطِلَ وَأَنَّ الَّذِينَ آمَنُوا اتَّبَعُوا الْحَقَّ مِنْ رَبِّهِمْ كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ لِلنَّاسِ



﴿ذَلِكَ﴾ مبتدأ وما بعده خبره، أي: ذلك الأمر وهو إضلال أعمال أحد الفريقين وتكفير سيئات الثاني: كائن بسبب اتباع هؤلاء الباطل وهؤلاء الحق. ويجوز أن يكون ذلك خبر مبتدأ محذوف، أي: الأمر كما ذكر بهذا السبب، فيكون محل الجار والمجرور منصوبًا على هذا^(١)، ومرفوعًا على الأول و﴿الْبَاطِلَ﴾ ما لا يتنفع به. وعن مجاهد: الباطل الشيطان، وهذا الكلام يسميه علماء البيان التفسير ﴿كَذَلِكَ﴾ مثل ذلك الضرب ﴿يَضْرِبُ اللَّهُ لِلنَّاسِ أَمْثَالَهُمْ﴾ والضمير راجع إلى الناس، أو إلى المذكورين من الفريقين، على معنى: أنه يضرب أمثالهم لأجل الناس ليعتبروا بهم. فإن قلت: أين ضرب الأمثال؟ قلت: في أن جعل اتباع الباطل مثلاً لعمل الكفار، واتباع الحق مثلاً لعمل المؤمنين. أو في أن جعل الإضلال مثلاً لخيبة الكفار، وتكفير السيئات مثلاً لفوز المؤمنين.

﴿فَإِذَا لَقِيتُمْ الَّذِينَ كَفَرُوا فَضَرْبَ الرِّقَابِ حَتَّىٰ إِذَا أَتَخْتَمُوهُمْ فَشُدُّوا الْوَتَاقَ فَإِمَّا مَنًّا بَعْدُ وَإِمَّا فِدَاءً حَتَّىٰ تَضَعَ الْحَرْبُ أَوْزَارَهَا ذَٰلِكَ وَلَوْ يَشَاءُ اللَّهُ لَانْتَصَرَ مِنْهُمْ وَلَكِنْ لَبِئْسَ بِبَعْضِكُمْ بَعْضٌ وَالَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَلَنْ يُضِلَّ أَعْمَالَهُمْ ﴿١﴾ سَيِّئَاتِهِمْ وَيُصْلِحَ بَالَهُمْ ﴿٢﴾ وَيُدْخِلُهُمُ الْجَنَّةَ عَرَّفَهَا لَهُمْ ﴿٣﴾﴾

﴿لَقِيتُمْ﴾ من اللقاء وهو الحرب ﴿فَضَرْبَ الرِّقَابِ﴾ أصله: فاضربوا الرقاب ضربًا، فحذف

(١) قال السمين الحلبي: قال الشيخ: ولا حاجة إليه، قوله: «كذلك يضرب» خرجه الزمخشري على مثل ذلك الضرب «يضرب الله للناس أمثالهم» والضمير راجع إلى الفريقين أو إلى الناس على معنى أنه يضرب أمثالهم لأجل الناس؛ ليعتبروا. انتهى الدر المصون.

الفعل وقدّم المصدر فأنيب منابه مضافاً إلى المفعول. وفيه اختصار مع إعطاء معنى التوكيد؛ لأنك تذكر المصدر وتدل على الفعل بالنصب التي فيه. وضرب الرقاب عبارة عن القتل، لأنّ الواجب أن تضرب الرقاب خاصة دون غيرها من الأعضاء، وذلك أنهم كانوا يقولون: ضرب الأمير رقبة فلان، وضرب عنقه وعلاوته، وضرب ما فيه عيناه^(١) إذا قتله، وذلك أن قتل الإنسان أكثر ما يكون بضرب رقبتة، فوقع عبارة عن القتل، وإن ضرب بغير رقبتة من المقاتل كما ذكرنا في قوله: ﴿فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ﴾ [الشورى: ٣٠] على أن في هذه العبارة من الغلظة والشدة ما ليس في لفظ القتل، لما فيه^(٢) من تصوير القتل بأشنع صورة وهو حز العنق وإطارة العضو الذي هو رأس البدن وعلوه وأوجه أعضائه. ولقد زاد في هذه الغلظة في قوله تعالى: ﴿وَأَصْرَارًا فَوْقَ الْأَعْنَاقِ وَأَصْبْرًا مِّمَّنْ حُكِّلَ لَكَ﴾ [الأنفال: ١٢]. ﴿أَتَسْتَبِمُّهُمْ﴾ أكثرتم قتلهم وأغلظتموه، من الشيء الشخين: وهو الغليظ. أو أثقلتهم بالقتل والجراح حتى أذهبتهم عنهم النهوض ﴿فَتَكُونُ الْوَبْقَاءُ﴾ فأسروهم. والوثاق بالفتح والكسر: - اسم ما يوثق به ﴿وَالْأَنْفَالُ﴾ منصوبان بفعليهما مضميرين، أي: فإما تمنون منا، وإما تفدون فداء. والمعنى: التخيير بعد الأسر بين أن يمنوا عليهم فيطلقوهم، وبين أن يفادوهم. فإن قلت: كيف حكم أسارى المشركين؟ قلت: أما عند أبي حنيفة وأصحابه فأحد أمرين: إما قتلهم وإما استرقاقهم: أيهما رأى الإمام، ويقولون في المنّ والفداء المذكورين في الآية: نزل ذلك في يوم بدر ثم نسخ. وعن مجاهد: ليس اليوم منّ ولا فداء، وإنما هو الإسلام أو ضرب العنق. ويجوز أن يراد بالمنّ: أن يمنّ عليهم بترك القتل ويسترقوا. أو يمنّ عليهم فيخلوا لقبولهم الجزية، وكونهم من أهل الذمة. وبالفداء أن يفادى بأسارهم أسارى المسلمين، فقد رواه الطحاوي مذهباً عن أبي حنيفة، والمشهور أنه لا يرى فداءهم لا بمال ولا بغيره، خيفة أن يعودوا حرباً للمسلمين، وأما الشافعي فيقول: للإمام أن يختار أحد أربعة على حسب ما اقتضاه نظره للمسلمين، وهو: القتل، والاسترقاق^(٣)، والفداء بأسارى المسلمين، والمن. ويحتج بأن رسول الله ﷺ منّ على أبي عروة الحنبي (١٤٢٧)، وعلى ثمامة بن أثال الحنفي (١٤٢٨)، وفادى رجلاً برجلين من

١٤٢٧ - أخرجه ابن هشام في سيرته (٣٣٦/٢) رقم (٨٢٥)، وعزاه الزيلعي في تخريج الكشاف (٣/٢٩٥) - (٢٩٦) إلى الدارقطني في كتابه «المؤتلف والمختلف»، والبيهقي في «المعرفة» وابن سعد في طبقاته، والواقدي في مغازيه.

١ قوله: «وضرب ما فيه عيناه» لعله كناية عن رأسه أو عن وجهه. (ع)

٢ قوله: «لما فيه من تصوير القتل» لعله لما فيها. (ع)

٣ قوله: «وهو القتل والاسترقاق» لعله: وهي... (ع)

المشركين (١٤٢٩). وهذا كله منسوخ عند أصحاب الرأي. وقرئ: «فدى» بالقصر مع فتح الفاء. أوزار الحرب: آلاتها وأثقالها التي لا تقوم إلا بها كالسلاح والكرع. قال الأعشى [من المتقارب]:

وَأَعْدَدْتُ لِلْحَرْبِ أَوْزَارَهَا رِمَاحًا طَوَالًا وَخَيْلًا ذُكُورًا

وسميت أوزارها لأنه لما لم يكن لها بد من جرّها فكانها تحملها وتستقل بها، فإذا انقضت فكانها وضعتها. وقيل: أوزارها آثامها، يعني: حتى يترك أهل الحرب. وهم المشركون شركهم ومعاصيهم بأن يسلموا. فإن قلت: (حتى) بم تعلقت؟ قلت: لا تخلو إما أن تتعلق بالضرب والشدة، أو بالمن والفداء؛ فالمعنى على كلا المتعلقين عند الشافعي

= قال الحافظ ابن حجر العسقلاني:

هو مذكور في المغازي لابن إسحاق وغيره: «أنّه أسر يوم بدر، فمَنْ عليه رسول الله - ﷺ - بغير فداء، ثم أسره يوم أحد، فقتله صبراً» ورواه الواقدي عن ابن أخي الزهري عن عمه عن سعيد بن المسيب. انتهى.

١٤٢٨ - أخرجه البخاري (٤١٩/٨): كتاب المغازي، باب وفد بني حنيفة وحديث ثمامة بن أثال، حديث (٤٣٧٢)، ومسلم (٣٣٠/٦ - ٣٣١ - النووي) كتاب الجهاد والسير: باب ربط الأسير وحبسه وجواز المن عليه، حديث (١٧٦٥/٥٩)، وأبو داود (٥٧/٣): كتاب الديار: باب في الأسير يوثق حديث (٢٦٧٩)، والنسائي (١١٠/١) كتاب الطهارة: باب تقديم غسل الكافر إذا أراد أن يسلم، و(٤٦/٢): كتاب المساجد: باب ربط الأسير بسارية المسجد. كلهم من حديث سعيد بن أبي سعيد عن أبي هريرة به. وقال الحافظ ابن حجر: «قوله على ثمامة بن أثال الحنفي»، هو في حديث أبي هريرة عند الشيخين مطولاً. انتهى.

١٤٢٩ - أخرجه الترمذي (١٣٥/٤): كتاب السير: باب ما جاء في قتل الأسارى والفداء، حديث (١٥٦٧)، وعزاه الزيلعي في تخريج الكشاف (٢٩٦/٣) لابن حبان في صحيحه، وقال الترمذي: هذا حديث حسن صحيح. أ.هـ.

قال الحافظ ابن حجر:

قوله: «وفادى رجلاً برجلين من المشركين»: هذا طرف من حديث أخرجه مسلم، والترمذي، وغيرهما من حديث عمران، ولكن فيه أن أصحاب رسول الله - ﷺ - أسروا رجلاً من بني عقيل، وكانت ثقيف أسرت رجلين من أصحاب رسول الله - ﷺ - ففداه النبي - ﷺ - بالرجلين اللذين أسرتهما ثقيف» وروى البيهقي في المعرفة عن الشافعي من هذا الوجه مثل لفظ الكتاب. ثم قال: أظنه من الكاتب، والصحيح الأول. انتهى.

(١) للأعشى، واستعار الأوزار لآلات الحرب على طريق التصريحية، ويحتمل أنه شبه الحرب بمطايا ذات أوزار، أي: أحمال ثقّال على طريق المكنية، وإثبات الأوزار تخيّل، ورماحاً: بدل. ينظر: ديوانه ص ١٤٩، ولسان العرب (وزر)، والتنبيه والإيضاح ٢/٢٢٢، وتهذيب اللغة ١٣/٢٤٤، ومجمل اللغة ٤/٥٢٣، وكتاب العين ٧/٣٨١، وأساس البلاغة (وزر)، وتاج العروس (وزر)، وبلا نسبة في المخصص ٦/٧٦.

رضي الله عنه: أنهم لا يزالون على ذلك أبداً إلى أن لا يكون حرب مع المشركين. وذلك إذا لم يبق لهم شوكة. وقيل: إذا نزل عيسى ابن مريم عليه السلام. وعند أبي حنيفة رحمه الله: إذا علق بالضرب والشدة؛ فالمعنى: أنهم يقتلون ويؤسرون حتى تضع جنس الحرب الأوزار، وذلك ١٨١/٢ ب حين لا تبقى شوكة للمشركين. وإذا علق بالمن والفداء، فالمعنى: أنه يمن عليهم ويفادون حتى تضع حرب بدر أوزارها إلا أن يتأول المن والفداء بما ذكرنا من التأويل ﴿ذَلِكَ﴾ أي الأمر ذلك، أو افعلوا ذلك ﴿لَا تَنْصَرُ مِنْهُمْ﴾ لا نتقم منهم ببعض أسباب الهلك: من خسف، أو رجفة، أو حاصب، أو غرق. أو موت جارف، ﴿وَتَكُنْ﴾ أمركم بالقتال ليلو المؤمنين بالكافرين: أن يجاهدوا ويصبروا حتى يستوجبوا الثواب العظيم، والكافرين بالمؤمنين بأن يعاجلهم على أيديهم ببعض ما وجب لهم من العذاب. وقرئ: «قتلوا» بالتخفيف والتشديد: وقتلوا. وقتلوا. وقرئ: «فلن يضل أعمالهم»، وتضل أعمالهم: على البناء للمفعول. ويضل أعمالهم من ضل. وعن قتادة: أنها نزلت في يوم أحد ﴿عَرَفَهَا مَكَّةُ﴾ أعلمها لهم وبينها بما يعلم به كل أحد منزلته ودرجته من الجنة. قال مجاهد: يهتدي أهل الجنة إلى مساكنهم منها لا يخطئون، كأنهم كانوا سكانها منذ خلقوا لا يستدلون عليها. وعن مقاتل: إن الملك الذي وكل بحفظ عمله في الدنيا يمشي بين يديه فيعرفه كل شيء أعطاه الله، أو طيبها لهم، من العرف: وهو طيب الرائحة. وفي كلام بعضهم: عزف كنوح القماري وعرف كفوح القماري^(١). أو حدها لهم؛ فجنة كل أحد محدودة مفرزة عن غيرها، من: عرف الدار وأرفها. والعرف والأرف، الحدود.

﴿يَتَأَيَّأُ الَّذِينَ ءَامَنُوا إِنْ نَصُرُوا اللَّهَ يَنْصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ﴾

﴿إِنْ نَصُرُوا﴾ دين ﴿الله﴾ ورسوله ﴿يَنْصُرْكُمْ﴾ على عدوكم ويفتح لكم ﴿وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ﴾ في مواطن الحرب أو على محجة الإسلام.

﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا فَتَعَسَا لَهُمْ ءَاصِلٌ أَعْمَلَهُمْ﴾ ﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَرِهُوا مَا أُنْزِلَ اللَّهُ فَاحْبَطَ أَعْمَلَهُمْ﴾

﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا﴾ يحتمل الرفع على الابتداء والنصب بما يفسره ﴿فَتَعَسَا لَهُمْ﴾ كأنه قال: أتعس الذين كفروا. فإن قلت: علام عطف قوله: ﴿وَأَصْلٌ أَعْمَلَهُمْ﴾؟ قلت: على الفعل الذي نصب تعسا؛ لأن المعنى فقال: تعسا لهم، أو ففضى تعسا لهم. وتعسا له: نقيض

(١) قوله: «عزف كنوح القماري» العزف: الغناء. والقمارى: جمع قمري، اسم طير. والعود القماري: منسوب إلى موضع ببلاد الهند. أفاده الصحاح. (ع)

«لَعَالَهُ» قال الأعشى [من البسيط]:

فَالْتَعَسُ أَوْلَى لَهَا مِنْ أَنْ أَقُولَ: لَعَا^(١)

يريد: فالعثور والانحطاط أقرب لها من الانتعاش والثبوت. وعن ابن عباس رضي الله عنهما: يريد في الدنيا القتل، وفي الآخرة التردى في النار ﴿كَرِهُوا﴾ القرآن وما أنزل الله فيه من التكاليف والأحكام، لأنهم قد ألفوا الإهمال وإطلاق العنان في الشهوات والملاذ فشق عليهم ذلك وتعاضمهم.

﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ دَمَّرَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَلِلْكَافِرِينَ

أَمْثَلُهَا ﴿١١﴾﴾

دمره: أهلكه، ودمر عليه: أهلك عليه ما يختص به. والمعنى: دمر الله عليهم ما اختص بهم من أنفسهم وأموالهم وأولادهم وكل ما كان لهم ﴿وَالْكَافِرِينَ أَمْثَلُهَا﴾ الضمير للعاقبة المذكورة أو للهلكة؛ لأن التدمير يدل عليها. أو للسنّة، لقوله عزّ وعلا ﴿سُنَّةَ اللَّهِ فِي الَّذِينَ خَلَوْا﴾ [الأحزاب: ٣٨، ٦٢].

﴿ذَلِكَ يَأْنِ لِلَّهِ مَوْتَى الَّذِينَ ءَامَنُوا وَأَنَّ الْكَافِرِينَ لَا مَوْتَ لَهُمْ ﴿١١﴾﴾

﴿مَوْتَى الَّذِينَ ءَامَنُوا﴾ وليهم وناصرهم. وفي قراءة ابن مسعود «ولي الذين آمنوا» ويروى:

| | | |
|-----|----------------------------|---------------------------------|
| (١) | وبلدة يرهب الجواب دلجتها | حتى تراه عليها يبتغي الشима |
| | كلفت مجهولها نفسي وشابيعني | همي عليها إذا ما آلهما لمعا |
| | بذات لوث عفرنة إذا عثرت | فالتعس أولى لها من أن يقال: لعا |

للأعشى، أي: ورب مفازة يخاف الجواب: أي كثير السير، من جبت الأرض: قطعتها بالسير. والدلجة من دلج وأدلج، وزن افتعل. وأدلج وزن أكرم: إذا سار ليلاً. والدلجة: ساعة من الليل، أي: يخاف المعتاد على السير من سيرها ليلاً، حتى يطلب الجماعات المساعدين له على سيرها، كلفت نفسي سير المجهول منها، وعاونني عزمي على سيرها وقت لمعان آلهما وهو السراب الذي يرى عند شدة الحر، كأنه ماء، مع أن سير الهاجرة أشد من سير الليل، ثم قال: مع ناقة صاحبة قوة. ويطلق اللوث على الضعف أيضاً، فهو من الأضداد. عفرنة: غليظة. ويقال للعاثر: لعا لك: دعاء له بالانتعاش. وتعسا له: دعاء عليه بالسقوط، يريد أنها لا تعثر، ولو عثرت فالدعاء عليها أحق بها من الدعاء لها.

ينظر: ديوانه ص ١٥٣، ولسان العرب (لوث)، (تعس)، (لعا)، والتنبيه والإيضاح ١٨٧/١، وتهذيب اللغة ٧٩/٢، ١٩٢/٣، وجمهرة اللغة ص ٩٥٢، وكتاب العين ٢٣٩/٨، وأساس البلاغة (لعو)، وتاج العروس (لوث)، (تعس)، (لعا)، وسر صناعة الإعراب ٦٩٢/٢، وكتاب العين ٢/١٢٣، وبلا نسبة في مقاييس اللغة ٦٥/٤، ٢٥٣/٥.

أن رسول الله ﷺ كان في الشعب يوم أحد وقد فشيت فيهم الجراحات، وفيه نزلت، فنادى المشركون: اعل هبل: فنادى المسلمون: الله أعلى وأجل، فنادى المشركون: يوم بيوم والحرب سجال، إن لنا عزى ولا عزى لكم؛ فقال رسول الله ﷺ: «قولوا الله مولانا ولا مولى لكم، إن القتلى مختلفة أما قتلانا فأحياء يرزقون وأما قتلكم ففي النار يعذبون» (١٤٣٠). فإن قلت: قوله تعالى: ﴿وَرُدُّوْا إِلَى اللَّهِ مَوْلَهُمْ الْحَقَّ﴾ [يونس: ٣٠] مناقض لهذه الآية. قلت: لا تناقض بينهما، لأن الله مولى عباده جميعاً على معنى أنه ربهم ومالك أمرهم؛ وأما على معنى الناصر فهو مولى المؤمنين خاصة.

﴿إِنَّ اللَّهَ يُدْخِلُ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَالَّذِينَ كَفَرُوا يَتَمَنَّوْنَ وَيَأْكُلُونَ كَمَا تَأْكُلُ الْأَنْعَامُ وَالنَّارُ مَثْوًى لَهُمْ﴾ (١٢)

﴿يَتَمَنَّوْنَ﴾ ينتفعون بمتاع الحياة الدنيا أياماً قلائل ﴿وَيَأْكُلُونَ﴾ غافلين غير مفكرين في العاقبة ﴿كَمَا تَأْكُلُ الْأَنْعَامُ﴾ في مسارحها ومعالفها، غافلة عما هي بصدده من النحر والذبح ﴿مَثْوًى لَهُمْ﴾ منزل ومقام.

﴿وَكَايْنٍ مِّنْ قَرِيْبَةٍ هِيَ أَشَدُّ قُوَّةً مِّنْ قَرِيْبِكَ الَّتِي أَخْرَجْتَ أَهْلَكْنَهُمْ فَلَا نَاَصِرَ لَهُمْ﴾ (١٣)

وقرى: «وكائن» بوزن كاعن^(١). وأراد بالقرية أهلها، ولذلك قال: ﴿أَهْلَكْنَهُمْ﴾ كأنه قال: وكم من قوم هم أشد قوة من قومك الذين أخرجوك أهلكتهم. ومعنى أخرجوك:

١٤٣٠ - أخرجه الطبري في تفسيره: (٣٠٩/١١) رقم (٣١٣٥٨) من طريق بشر عن يزيد عن سعيد عن قتادة قال: ذكر لنا أن هذه الآية نزلت يوم أحد، ورسول الله - ﷺ - في الشعب، وقد فشيت فيهم الجراحات... إلى آخره سواء وكذلك ذكره الثعلبي في تفسيره عن قتادة من غير سند كما في تخريج الكشاف للزيلعي (ح/٢٩٧).

وللحديث شاهد من حديث البراء بن عازب: أخرجه البخاري (٩٢/٨): كتاب المغازي: باب غزوة أحد، حديث (٤٠٤٣) من طريق عبيد الله بن موسى عن إسرائيل عن أبي إسحاق عن البراء - رضي الله عنه - قال: لقينا المشركين يومئذ وأجلس النبي - ﷺ - جيشاً من الرماة وأمر عليهم عبد الله... إلى آخره فذكره. وقال الحافظ ابن حجر:

أخرجه الطبري من رواية سعيد عن قتادة قال: «ذكر لنا أن هذه الآية. يعني: ﴿إِنَّ اللَّهَ مَوْلَى الَّذِينَ ءَامَنُوا﴾ نزلت يوم أحد، ورسول الله - ﷺ - في الشعب وقد فشيت فيهم الجراحات. إلخ، سواء. وله شاهد في البخاري من حديث البراء بن عازب. انتهى.

(١) قوله: «وكاين بوزن كاعن» في الصحاح «كاين»: معناها معنى كم في الخبر والاستفهام، وفيها لفتان: كابن. مثال كعين وكائن: مثال كاعن اهـ. (ع)

كانوا سبب خروجك. فإن قلت: كيف قال: ﴿فَلَا نَاصِرَ لَهُمْ﴾؟ وإنما هو أمر قد مضى. قلت: مجراه مجرى الحال المحكية، كأنه قال: أهلكتناهم فهم لا ينصرون.

﴿أَفَن كَانَ عَلَى بَيْنَةٍ مِّن رَّبِّهِ كَمَن زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ﴾ (١٤)

من زين له: هم أهل مكة الذين زين لهم الشيطان شركهم وعداوتهم لله ورسوله، ومن كان على بينة من ربه أي على حجة من عنده وبرهان: وهو القرآن/٢/ ١٨٢ المعجز وسائر المعجزات هو رسول الله ﷺ. وقرئ: «أمن كان على بينة من ربه». وقال تعالى: ﴿سُوءَ عَمَلِهِ وَاتَّبَعُوا﴾ للحمل على لفظ «من» ومعناه.

﴿مَثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وُعدَ الْمُتَّقُونَ فِيهَا أَنْهَارٌ مِّن مَّاءٍ غَيْرِ آسِنٍ وَأَنْهَارٌ مِّن لَّبَنٍ لَّمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُ وَأَنْهَارٌ مِّنْ خَمْرٍ لَّذَّةٍ لِلشَّارِبِينَ وَأَنْهَارٌ مِّنْ عَسَلٍ مُصَفًّى وَلَهُمْ فِيهَا مِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ وَمَغْفِرَةٌ مِّن رَّبِّهِمْ كَمَن هُوَ خَالِدٌ فِي النَّارِ وَسُقُوا مَاءً حَمِيمًا فَقَطَّعَ أَمْعَاءَهُمْ﴾ (١٥)

فإن قلت: ما معنى قوله تعالى: ﴿مَثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وُعدَ الْمُتَّقُونَ فِيهَا أَنْهَارٌ﴾. ﴿كَمَن هُوَ خَالِدٌ﴾؟ قلت: هو كلام في صورة الإثبات ومعنى النفي والإنكار^(١)، لانطوائه تحت حكم كلام مصدّر بحرف الإنكار، ودخوله في حيزه، وانخراطه في سلكه، وهو قوله تعالى: ﴿أَفَن كَانَ عَلَى بَيْنَةٍ مِّن رَّبِّهِ كَمَن زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ﴾ فكأنه قيل: أمثل الجنة كمن هو خالد في النار، أي كمثل جزاء من هو خالد في النار. فإن قلت: فلم عرَى في حرف الإنكار؟ وما فائدة التعرية؟ قلت: تعريته من حرف الإنكار فيها زيادة تصوير لمكابرة من يسوي بين المتمسك بالبينة والتابع لهواه، وأنه بمنزلة من يثبت التسوية بين الجنة التي تجري فيها تلك الأنهار، وبين النار التي يسقى أهلها الحميم. ونظيره قول القائل [من المنسرح]:

(١) قال محمود: «هو كلام في صورة الإثبات ومعناه النفي... الخ» قال أحمد: كم ذكر الناس في تأويل هذه الآية، فلم أر أظلى ولا أحلى من هذه النكت التي ذكرها، لا يعوزها إلا للتنبيه على أن في الكلام محذوفاً لا بد من تقديره لأنه لا معادلة بين الجنة وبين الخالدين في النار إلا على تقدير مثل ساكن فيه يقوم وزن الكلام ويتعادل كفتاه. ومن هذا النمط قوله تعالى: ﴿أَجَعَلْتُمْ سِقَايَةَ الْحَاجِّ وَعِمَارَةَ الْمَسْجِدِ الْمَكْرَمِ كَمَنِ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَجَاهَدَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ فإنه لا بد من تقدير محذوف مع الأول أو الثاني؛ ليتعادل القسمان. وبهذا الذي قدرته في الآية ينطبق آخر الكلام على أوله، فيكون المقصود تنظير بعد التسوية بين المتمسك بالسنة والراكب للهوى يبعد التسوية بين المنعم في الجنة والمعذب في النار على الصفات المتقابلة المذكورة في الجهتين. وهو من وادي تنظير الشيء بنفسه، باعتبار حالتين إحداهما أوضح في البيان من الأخرى؛ فإن المتمسك بالسنة هو المنعم في الجنة الموصوفة. والمتبع للهوى: هو المعذب في النار المنعوتة، ولكن أنكر التسوية بينهما باعتبار الأعمال أولاً، وأوضح ذلك بإنكار التسوية بينهما باعتبار الأعمال أولاً، وأوضح ذلك بإنكار التسوية بينهما باعتبار الجزاء ثانياً.

أَفَرَحَ أَنْ أُرْزَأَ الْكَرَامَ وَأَنْ أُورَثَ دُودًا شَصَائِصًا نَبِلًا^(١)

هو كلام منكر للفرح برزية الكرام ووراثه الذود، مع تعريه عن حرف الإنكار لانطوائه تحت حكم قول من قال: أتفرح بموت أخيك وبوراثه إبله، والذي طرح لأجله حرف الإنكار إرادة أن يصوّر قبح ما أُرْزَأَ به^(٢) فكأنه قال له: نعم مثلي يفرح بمرزأة الكرام وبأن يستبدل منهم ذودًا يقل طائله^(٣) وهو من التسليم الذي تحته كل إنكار، ومثل الجنة: صفة الجنة العجيبة الشأن، وهو مبتدأ، وخبره: كمن هو خالد. وقوله: فيها أنهار، داخل في حكم الصلة كالتركيب لها. ألا ترى إلى صحة قولك: التي فيها أنهار. ويجوز أن يكون خبر مبتدأ محذوف هي فيها^(٤) أنهار، وكأن قائلًا قال: وما مثلها؟ فقل: فيها أنهار، وأن يكون في موضع الحال، أي: مستقرة فيها أنهار، وفي قراءة علي رضي الله عنه «أمثال الجنة» أي: ما صفاتها كصفات النار. وقرئ: «أسن» يقال: أسن الماء وأجن: إذا تغير طعمه وريحه. وأنشد ليزيد بن معاوية [من البسيط]:

لَقَدْ سَقَتْنِي رُضَابًا غَيْرَ ذِي أَسْنٍ كَالْمِسْكِ فُتَّ عَلَى مَاءِ الْعَنَاقِيدِ^(٥)

﴿مِنْ لَبَنٍ لَمْ يَغَيَّرْ طَعْمُهُ﴾ كما تتغير ألبان الدنيا، فلا يعود قارصًا ولا حاذرًا^(٦). ولا ما يكره من الطعوم ﴿لَذَّةٌ﴾ تأنيث لذ، وهو اللذيذ، أو وصف بمصدر. وقرئ بالحركات الثلاث، فالجر على صفة الخمر، والرفع على صفة الأنهار، والنصب على العلة، أي: لأجل لذة الشاربين. والمعنى: ما هو إلا التلذذ الخالص، ليس معه ذهاب عقل ولا خمار ولا صداع، ولا آفة من آفات الخمر ﴿مُصَفًّى﴾ لم يخرج من بطون النحل فيخالطه الشمع وغيره ﴿مَاءً حَمِيمًا﴾ قيل إذا دنا منهم شوى وجوههم، وانمازت فروة رءوسهم، فإذا شربوه قطع أمعاءهم.

(١) تقدم.

(٢) قوله: «ما أُرْزَأَ» أي اتهم. أفاده الصحاح. (ع)

(٣) قوله: «يقل طائله» لأن الشصائص قليلات اللبن. والنبل: الكبار من الإبل، والصغار منها أيضًا، فهو من الأضداد. أفاده الصحاح. (ع)

(٤) قوله: «هي فيها» لعله: أي هي فيها. (ع)

(٥) ليزيد بن معاوية. وترضب الرجل ريق المرأة: إذا ترشفه. وأسن أسنا كتعب تعبًا: تغير طعمه أو ريحه أو لونه؛ لطول مدته. يقول: سقتني ريقها الذي لم يتغير. وماء العناقيد: كناية عن الخمر، واستعاره لريقها على التصريحة، وناولتني المسك حال كونه تفتت على ريقها الشبيه بالخمر، أي: كأنه كذلك لطيبه. ويروى: كالمسك وهي الظاهرة، والتشبيه من قبيل تشبيه المفرد بالمركب؛ لأنه لا يريد تشبيه الرضاب بالمسك فقط.

(٦) قوله: «ولا حاذرًا ولا ما يكره» لعله محذوف، وأصله: حازر بالزاي، وفي الصحاح: الحاذر: اللبن الحامض.

﴿وَمِنْهُمْ مَّن يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ حَتَّىٰ إِذَا خَرَجُوا مِنْ عِندِكَ قَالُوا لِلَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مَاذَا قَالَ أَنفَا أُولَٰئِكَ
الَّذِينَ طَبَعَ اللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ﴾ (٦٦)

هم المنافقون: كانوا يحضرون مجلس رسول الله ﷺ فيسمعون كلامه ولا يعونه ولا يلقون له بالاً تهاوناً منهم، فإذا خرجوا قالوا لأولي العلم من الصحابة، ماذا قال الساعة؟ على جهة الاستهزاء. وقيل: كان يخطب فإذا عاب المنافقين خرجوا فقالوا ذلك للعلماء. وقيل: قالوه لعبد الله بن مسعود. وعن ابن عباس: أنا منهم، وقد سميت فيمن سئل ﴿أَنفَا﴾ وقرئ: «أنفاً» على فعل، نصب على الظرف^(١) قال الزجاج: هو من استأنفت الشيء: إذا ابتدأته. والمعنى: ماذا قال في أول وقت يقرب منا.

﴿وَالَّذِينَ اهْتَدَوْا زَادَهُمْ هُدًى وَكَثَّفَ لَهُمْ ثَوَابَهُمْ﴾ (٦٧)

﴿زَادَهُمُ﴾ الله ﴿هُدًى﴾ بالتوفيق ﴿وَكثَّفَ لَهُمْ ثَوَابَهُمْ﴾ أعانهم عليها. أو أتاهاهم جزاء تقواهم. وعن السدي: بين لهم ما يتقون. وقرئ: «وأعطاهم» وقيل: الضمير في زادهم، لقول الرسول أو لاستهزاء المنافقين.

﴿فَهَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا السَّاعَةَ أَنْ تَأْتِيَهُمْ بَغْتَةً فَقَدْ جَاءَ أَشْرَاطُهَا فَأَنَّىٰ لَهُمْ إِذَا جَاءَهُمْ ذِكْرُهُمْ﴾ (٦٨)

﴿أَنْ تَأْتِيَهُمْ﴾ بدل اشتغال من الساعة، نحو: ﴿أَنْ تَطُوهُمْ﴾ من قوله: ﴿رَجُلًا مُّؤْمِنًا وَسَيِّئًا مُّؤْمِنًا﴾ [الفتح: ٢٥]، وقرئ: «أن تأتهم» بالوقف على الساعة واستئناف الشرط، وهي في مصاحف أهل مكة كذلك: فإن قلت: فما جزاء الشرط؟ قلت: قوله ﴿فَأَنَّىٰ لَهُمْ﴾ ومعناه: إن تأتهم الساعة فكيف لهم ذكرهم، أي تذكروهم واتعاضهم إذا جاءتهم الساعة، يعني لا تنفعهم الذكرى حينئذ، كقوله تعالى: ﴿يَوْمَئِذٍ يَنْذِكُرُ الْإِنْسَانَ وَآلِيَهُ الْأَلَدُ﴾ [الفجر: ٢٣]. فإن قلت: بم يتصل قوله: ﴿فَقَدْ جَاءَ أَشْرَاطُهَا﴾ / ١٨٢/٢ ب على القراءتين؟ قلت: بإتيان الساعة اتصال العلة بالمعلول، كقولك: إن أكرمني زيد فأنا حقيق بالإكرام أكرمه. والأشراط: العلامات. قال أبو الأسود [من الطويل]:

فَإِنْ كُنْتَ قَدْ أَزْمَعْتَ بِالصَّرْمِ بَيْنَنَا فَقَدْ جَعَلْتَ أَشْرَاطَ أَوَّلِهِ تَبْدُو^(٢)

وقيل: مبعث محمد خاتم الأنبياء ﷺ وعليهم منها، وانشقاق القمر، والدخان. وعن

(١) قوله: «وقرئ أنفاً على فعل نصب على الظرف» لعله: بالضم. (ع)

(٢) لأبي الأسود. يقول: إن كنت جزمت بقطع المودة بيننا فلا تكتمي؛ لأن علامات ابتدائه شرعت في الظهور.

ينظر: البحر (٧٠/٨)، والدر المصون (١٥٢/٦).

الكلبي: كثرة المال والتجارة، وشهادة الزور، وقطع الأرحام، وقلة الكرام، وكثرة اللثام. وقرئ: «بغثة» بوزن جربة^(١)، وهي غريبة لم ترد في المصادر أختها، وهي مروية عن أبي عمرو، وما أخوفني أن تكون غلطة من الراوي على أبي عمرو، وأن يكون الصواب: بغثة، بفتح الغين من غير تشديد، كقراءة الحسن فيما تقدم.

﴿فَاعْلَمْ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَاسْتَغْفِرْ لِذَنْبِكَ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مُتَقَلَّبَكُمْ وَمَثْوَاكُمْ﴾

لما ذكر حال المؤمنين وحال الكافرين قال: إذا علمت أن الأمر كما ذكر من سعادة هؤلاء وشقاوة هؤلاء، فاثبت على ما أنت عليه من العلم بوحدانية الله، وعلى التواضع وهضم النفس: باستغفار ذنبك وذنوب من على دينك. والله يعلم أحوالكم ومتصرفاتكم ومتقلبكُم في معاشكم ومتاجرکم، ويعلم حيث تستقرون في منازلکم أو متقلبكُم في حياتكم ومثواکم في القبور. أو متقلبكُم في أعمالکم ومثواکم من الجنة والنار. ومثله حقيق بأن يخشى ويتقى، وأن يستغفر ويسترحم. وعن سفيان بن عيينة: أنه سئل عن فضل العلم فقال: ألم تسمع قوله حين بدأ به فقال: ﴿فَاعْلَمْ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَاسْتَغْفِرْ لِذَنْبِكَ﴾ فأمر بالعمل بعد العلم وقال: ﴿اعْلَمُوا أَنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَقَدْ﴾ [الحديد: ٢٠] إلى قوله: ﴿تَأْتُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ﴾ [الحديد: ٢١] وقال: ﴿وَاعْلَمُوا أَنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلَادُكُمْ فِتْنَةٌ﴾ ثم قال بعد: ﴿فَاخْذُوا هُمْ﴾ [التغابن: ١٤] وقال: ﴿وَاعْلَمُوا أَنَّمَا غَنِمْتُمْ مِّن شَيْءٍ فَإِنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُ﴾ [الأنفال: ٤١] ثم أمر بالعمل بعد.

﴿وَيَقُولُ الَّذِينَ ءَامَنُوا لَوْلَا نُزِّلَتْ سُورَةٌ فَإِذَا أُنزِلَتْ سُورَةٌ مُحْكَمَةٌ وَذَكَرَ فِيهَا الْقِتَالُ رَأَيْتَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَّرَضٌ يَنْظُرُونَ إِلَيْكَ نَظَرَ الْمَغِشِيِّ عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ فَأُولَٰئِكَ لَهُمُ ۖ طَآءَةُ وَقَوْلٌ مَّعْرُوفٌ فَإِذَا عَزَمَ الْأَمْرُ فَلَوْ صَدَقُوا اللَّهَ لَكَانَ حَيْرًا لَهُمْ﴾

كانوا يدعون الحرص على الجهاد ويتمنونه بالسنهم ويقولون: ﴿لَوْلَا نُزِّلَتْ سُورَةٌ﴾ في معنى الجهاد ﴿فَإِذَا أُنزِلَتْ﴾ وأمروا فيها بما تمنوا وحرصوا عليه كاعوا^(٢) وشق عليهم، وسقطوا في أيديهم، كقوله تعالى: ﴿فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقِتَالُ إِذَا فِرْقٌ مِّنْهُمْ يَخْشَوْنَ النَّاسَ﴾ [النساء: ٧٥]

(١) قوله: «بغثة بوزن جربة وهي غريبة» في القاموس «الجربة» محركة مشددة: جماعة الحمراء. وفي الصحاح «الجربة» بالفتح: بغثة، وتشديد الباء: العانة من الحمير. وفيه أيضًا «العانة» القطيع من حمر الوحش. (ع)

(٢) قوله: «كاعوا» في الصحاح: كاع الكلب يكوع، أي: مشى على كوعه في الرمل من شدة الحر. (ع)

[٧٧]. ﴿مُحْكَمَةٌ﴾ مبينة غير متشابهة لا تحتل وجهًا إلا وجوب القتال. وعن قتادة: كل سورة فيها ذكر القتال فهي محكمة، وهي أشد القرآن على المنافقين. وقيل لها «محكمة» لأن النسخ لا يرد عليها من قبل أن القتال قد نسخ ما كان من الصفح والمهادنة، وهو غير منسوخ إلى يوم القيامة. وقيل: هي المحدثه؛ لأنها حين يحدث نزولها لا يتناولها النسخ، ثم تنسخ بعد ذلك أو تبقى غير منسوخة. وفي قراءة عبد الله «سورة محدثة» وقرئ: «فإذا نزلت سورة وذكّر فيها القتال» على البناء للفاعل ونصب القتال ﴿الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَّرَضٌ﴾ هم الذين كانوا على حرف غير ثابتي الأقدام ﴿نَظَرَ الْمَغْشَىٰ عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ﴾ أي تشخص أبصارهم جبًا وهلعًا وغيظًا، كما ينظر من أصابته الغشية عند الموت ﴿فَأُولَٰئِكَ لَهُمْ وَعِيدٌ﴾ بمعنى: فويل لهم. وهو أفعل: من الولي وهو القرب. ومعناه الدعاء عليهم بأن يليهم المكروه ﴿طَاعَةٌ وَقَوْلٌ مَّعْرُوفٌ﴾ كلام مستأنف، أي: طاعة وقول معروف خير لهم. وقيل: هي حكاية قولهم، أي قالوا طاعةً وقول معروف، بمعنى: أمرنا طاعةً وقول معروف. وتشهد له قراءة أبي: يقولون طاعةً وقول معروف ﴿فَإِذَا عَزَمَ الْأَمْرُ﴾ أي جد. والعزم والجد لأصحاب الأمر. وإنما يسندان إلى الأمر إسنادًا مجازيًا. ومنه قوله تعالى: ﴿إِنَّ ذَلِكَ لَمِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ﴾ [الشورى: ٤٣]. ﴿فَلَوْ صَدَقُوا اللَّهَ﴾ فيما زعموا من الحرص على الجهاد. أو: فلو صدقوا في إيمانهم وواطأت قلوبهم فيه ألسنتهم.

﴿فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِنْ تَوَلَّيْتُمْ أَنْ تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَتُقَطِّعُوا أَرْحَامَكُمْ﴾ ﴿٢٢﴾ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللَّهُ فَأَصَمَّهُمْ وَأَعَمَّى أَبْصَارَهُمْ ﴿٢٣﴾

عسيت وعسيتم: لغة أهل الحجاز. وأما بنو تميم فيقولون: عسى أن تفعل، وعسى أن تفعلوا، ولا يلحقون الضمائر، وقرأ نافع بكسر السين وهو غريب، وقد نقل الكلام من الغيبة إلى الخطاب على طريقة الالتفات؛ ليكون أبلغ في التوكيد. فإن قلت: ما معنى: ﴿فَهَلْ عَسَيْتُمْ... أَنْ تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ﴾؟ قلت: معناه: هل يتوقع منكم الإفساد؟ فإن قلت: فكيف يصح هذا في كلام الله عزّ وعلا وهو عالم بما كان وبما يكون؟ قلت: معناه إنكم - لما عهد منكم - أحقاء بأن يقول لكم كل من ذاقكم وعرف تمريضكم ورخاوة عقدكم في الإيمان: يا هؤلاء، ما ترون؟ هل يتوقع منكم إن توليتم أمور الناس وتأمرتم عليهم لما تبين منكم من الشواهد ولاح من المخايل ﴿أَنْ تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَتُقَطِّعُوا أَرْحَامَكُمْ﴾ تناحرا على الملك وتهالكا على الدنيا؟ وقيل: إن أعرضتم وتوليتم عن دين رسول الله ﷺ وستته أن ترجعوا إلى ما كنتم عليه في الجاهلية/ ١٨٣/٢ من الإفساد في الأرض: بالتغاور والتناهب، وقطع الأرحام: بمقاتلة بعض الأقارب بعضًا وواد البنات؟ وقرئ: «وليتم»^(١).

(١) قوله: «وقرئ وليتم» لعله بالبناء للمجهول، وكذا توليتم في قراءة علي. (ع)

وفي قراءة علي بن أبي طالب رضي الله عنه: «تَوَلَّيْتُمْ» أي: إن تولاكم ولاية غشمة خرجتم معهم ومشيتم تحت لوائهم وأفسدتم بإفسادهم؟ وقرئ: «وَتَقَطَّعُوا» و«تَقَطَّعُوا» من التقطيع والتقطع ﴿أُولَئِكَ﴾ إشارة إلى المذكورين ﴿لَعَنَهُمُ اللَّهُ﴾ لإفسادهم وقطعهم الأرحام، فمنعهم اللطافة وخذلهم، حتى صموا عن استماع الموعظة، وعموا عن إبطار طريق الهدى. ويجوز أن يريد بالذين آمنوا: المؤمنين الخالص الثابتين، وأنهم يتشوقون إلى الوحي إذا أبطأ عليهم، فإذا أنزلت سورة في معنى الجهاد: رأيت المنافقين فيما بينهم يضجرون منها.

﴿أَفَلَا يَتَذَكَّرُونَ الْفُرَاتِ ثُمَّ عَلَى قُلُوبِ أَفْقَالِهَا ۖ﴾

﴿أَفَلَا يَتَذَكَّرُونَ الْفُرَاتِ﴾ ويتصفحونه وما فيه من المواعظ والزواجر ووعيد العصاة، حتى لا يجسروا على المعاصي، ثم قال: ﴿ثُمَّ عَلَى قُلُوبِ أَفْقَالِهَا﴾ وأم بمعنى بل وهمزة التقرير، للتسجيل عليهم بأن قلوبهم مقفلة لا يتوصل إليها ذكر. وعن قتادة: إذا والله يجدوا في القرآن زاجراً عن معصية الله لو تدبروه، ولكنهم أخذوا بالمتشابه فهلكوا. فإن قلت: لم نكرت القلوب وأضيفت الأفقال إليها؟ قلت: أما التنكير ففيه وجهان: أن يراد على قلوب قاسية مبهم أمرها في ذلك. أو يراد على بعض القلوب: وهي قلوب المنافقين. وأما إضافة الأفقال؛ فلأنه يريد الأفقال المختصة بها، وهي أفقال الكفر التي استغلت فلا تفتح. وقرئ: «إفقالها» على المصدر.

﴿إِنَّ الَّذِينَ ارْتَدُّوا عَلَىٰ أَعْقَابِهِمْ مِن بَعْدَ مَا بَيَّنَّ لَهُمُ الْهُدَىٰ أَسْفَلُ سَوَالٍ لَّهُمْ وَأُمَلَىٰ لَهُمْ ۖ﴾ (٢٥) ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا إِنَّا كُرِهُوا مَا نَزَّلَ اللَّهُ سَطِيعُكُمْ فِي بَعْضِ الْأُمْرِ ۚ وَلَئِنَّ بَعْدَ إِسْرَارِهِمْ (٢٦) فَكَيْفَ إِذَا تَوَفَّيْنَاهُمُ الْمَلَائِكَةُ يَصْرِيحُونَ وَجُوهَهُمْ وَأَدْبَارَهُمْ (٢٧) ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ اتَّبَعُوا مَا أَصْحَبَ اللَّهُ وَكَرِهُوا رِضْوَانَهُ فَاحْبَطَ أَعْمَالَهُمْ (٢٨)﴾

﴿السَّيِّئُونَ سَوَالٍ لَّهُمْ﴾ جملة من مبتدأ وخبر وقعت خبراً لأن، كقولك: إن زيداً عمرو مَرَبَه. سَوَالٍ لهم: سهل لهم ركوب العظائم، من السؤل وهو الاسترخاء، وقد اشتقه من السؤل من لا علم له بالتصريف والاشتقاق جميعاً^(١) ﴿وَأُمَلَىٰ لَهُمْ﴾ ومد لهم في الآمال

(١) قال محمود: هو مشتق من السؤل وهو الاسترخاء، أي: سهل لهم ركوب العظائم. قال: وقد اشتقه من السؤل من لا علم له بالتصريف والاشتقاق جميعاً، قلت: لأن السؤل مهموز، وسؤل معتل.

قال السمين الحلبي: وفيما قاله الزمخشري نظر؛ لأن السؤال له مادتان: سأل بالهمزة، وسأل بالألف المتقلبة عن واو، وعليه قراءة «سأل سائل». انتهى. الدر المصون.

والأمامي. وقرئ: «وأملئ لهم» يعني: إنَّ الشيطان يغويهم وأنا أنظرهم، كقوله تعالى: ﴿أَنَّمَا نُطَمِّلُ لَهُمْ﴾ [آل عمران: ١٧٨] وقرئ: «وأملئ لهم» على البناء للمفعول، أي: أمهلوا ومدّ لهم في عمرهم. وقرئ: «سؤل لهم»^(١)، ومعناه: كيد الشيطان زين لهم على تقدير حذف المضاف. فإن قلت: من هؤلاء؟ قلت: اليهود كفروا بمحمد ﷺ من بعد ما تبين لهم الهدى، وهو نعتة في التوراة. وقيل: هم المنافقون. الذين قالوا: هم اليهود، والذين كرهوا ما نزل الله: المنافقون. وقيل عكسه، وأنه قول المنافقين لقريظة والنضير: لئن أخرجتم لنخرجن معكم. وقيل: ﴿بَعْضُ الْأَمْرِ﴾: التكذيب برسول الله ﷺ، أو بلا إله إلا الله، أو ترك القتال معه. وقيل: هو قول أحد الفريقين للمشركين: سنطيعكم في التظاهر على عداوة رسول الله ﷺ والقعود عن الجهاد معه. ومعنى: ﴿فِي بَعْضِ الْأَمْرِ﴾ في بعض ما تأمرون به. أو في بعض الأمر الذي يهكممكم ﴿وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِسْرَارَهُمْ﴾ وقرئ: «إسراهم» المصدر، قالوا ذلك سرا فيما بينهم، فأفشاء الله عليهم. فكيف يعملون وما حيلتهم حينئذ؟ وقرئ: «توفاهم» ويحتمل أن يكون ماضيا، ومضارعا قد حذفت إحدى تاءيه، كقوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ تَوَفَّيْنَاهُمْ لَمْ تَكُنْ لَهُمْ﴾ [النساء: ٩٧]. وعن ابن عباس رضي الله عنهما: لا يتوفى أحد على معصية الله إلا يضرب من الملائكة في وجهه ودبره (١٤٣١) ﴿ذَلِكَ﴾ إشارة إلى التوفي الموصوف ﴿مَا أَسْخَطَ اللَّهُ﴾ من كتمان نعت رسول الله ﷺ. و﴿رِضْوَانُهُ﴾: الإيمان برسول الله.

﴿أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ أَنْ لَنْ يُخْرِجَ اللَّهُ أَصْغَنَهُمْ﴾ (٢٩) وَلَوْ نَشَاءُ لَأَرَيْنَاكَهُمْ فَتَعْرِفَنَّهُمْ بِإِسْمِهِمْ وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِي لَحْنِ الْقَوْلِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ أَعْمَالَكُمْ﴾ (٣٠)

﴿أَصْغَنَهُمْ﴾ أحقادهم وإخراجها: إبرازها لرسول الله ﷺ وللمؤمنين. وإظهارهم على نفاقهم وعداوتهم لهم، وكانت صدورهم تغلي حقا عليهم ﴿لَأَرَيْنَاكَهُمْ﴾ لعرفناكم ودلناكم عليهم. حتى تعرفهم بأعيانهم لا يخفون عليك ﴿بِإِسْمِهِمْ﴾ بعلامتهم: وهو أن يسمهم الله تعالى بعلامة يعلمون بها. وعن أنس رضي الله عنه: ما خفي على رسول الله ﷺ بعد هذه الآية شيء من المنافقين: كان يعرفهم بسيماهم، ولقد كنا في بعض الغزوات وفيها تسعة من المنافقين يشكوهم الناس، فناموا ذات ليلة وأصبحوا وعلى جبهة كل واحد منهم مكتوب: هذا منافق (١٤٣٢). فإن قلت: أي فرق بين اللامين في ﴿فَلَعَرَفَنَّهُمْ﴾

١٤٣١ - ذكره القرطبي في «تفسيره» بدون سند (١٦/١٦٥).

١٤٣٢ - قال الزيلعي في تخريج الكشاف (٣/٢٩٨)؛ غريب، وهو في الثعلبي هكذا. أ.هـ. وقال الحافظ =

(١) قوله: «وقرئ سؤل لهم» لعله بالبناء للمجهول. (ع)

﴿وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ﴾؟ قلت: الأولى هي الداخلة في جواب (لو) كالتي في ﴿لَا تَرْتَكِبُهَا﴾ كررت في المعطوف، وأما اللام في ﴿وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ﴾ ١٨٣/٢ ب فواقعة مع النون في جواب قسم محذوف ﴿فِي لَحْنٍ الْقَوْلِ﴾ في نحوه وأسلوبه. وعن ابن عباس: هو قولهم: ما لنا إن أطعنا من الثواب؟ ولا يقولون: ما علينا إن عصينا من العقاب. وقيل: اللحن: أن تلحن بكلامك، أي: تميله إلى نحو من الأنحاء ليفطن له صاحبك كالتعريض والتورية. قال [من الكامل]:

وَلَقَدْ لَحَنْتُ لَكُمْ لِكَيْمَا تَفْقَهُوا وَاللَّحْنُ يَغْرِفُهُ ذُو الْأَلْبَابِ^(١)
وقيل للمخطيء: لاحن؛ لأنه يعدل بالكلام عن الصواب.

﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّى نَعْلَمَ الْمُجْتَهِدِينَ مِنْكُمْ وَالصَّادِقِينَ وَنَبْلُوَ أَخْبَارَكُمْ﴾ (٢١)

﴿أَخْبَارَكُمْ﴾ ما يحكى عنكم وما يخبر به عن أعمالكم، ليعلم حسننها من قبيحها؛ لأن الخبر على حسب المخبر عنه: إن حسناً فحسن، وإن قبيحاً فقبيح، وقرأ يعقوب: ونبلو، بسكون الواو على معنى: ونحن نبلو أخباركم. وقرئ: «وليلونكم ويعلم» ويبلو بالياء. وعن الفضيل: أنه كان إذا قرأها بكى وقال: اللهم لا تبلنا، فإنك إن بلوتنا فضحتنا وهتكت أستارنا وعذبتنا.

﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَشَاقُّوا الرَّسُولَ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْهُدَىٰ لَنْ يَصُرُوا اللَّهَ شَيْئًا وَسَيُحِطُّ أَعْمَلُهُمْ﴾ (٣٢)

﴿وَسَيُحِطُّ أَعْمَلُهُمْ﴾ التي عملوها في دينهم يرجون بها الثواب؛ لأنها مع كفرهم برسول الله ﷺ باطلة، وهم قريظة والنضير. أو سيحبط أعمالهم التي عملوها، والمكاييد التي نصبوها في مشاقة الرسول، أي: سيبطلها فلا يصلون منها إلى أغراضهم، بل يستنصرون بها ولا يثمر لهم إلا القتل والجلاء عن أوطانهم. وقيل: هم رؤساء قريش، والمطعمون يوم بدر.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَلَا تُبْطِلُوا أَعْمَالَكُمْ﴾ (٣٣)

== ابن حجر: ذكره الثعلبي بغير سند، ولم أجده. انتهى.

(١) اللحن: العدول بالكلام عن الظاهر، كالتعريض والتورية، والمخطيء لاحن؛ لعدوله عن الصواب أي: لكي تفهموا دون غيركم، فإن اللحن يعرفه أرباب الألباب دون غيرهم. والألباب: العقول اهـ.

﴿وَلَا تُبْطِلُوا أَعْمَالَكُمْ﴾ أي لا تحبطوا الطاعات بالكبائر^(١)، كقوله تعالى: ﴿لَا تَرْفَعُوا صَوْتَكُمْ قَوْفَ صَوْتِ النَّبِيِّ﴾ [الحجرات: ٢] إلى أن قال: ﴿أَنْ تَحْبَطَ أَعْمَالُكُمْ﴾ [الحجرات: ٢٠] وعن أبي العالية: كان أصحاب رسول الله ﷺ يرون أنه لا يضر مع الإيمان ذنب، كما لا ينفع مع الشرك عمل (١٤٣٣)، حتى نزلت ﴿وَلَا تُبْطِلُوا أَعْمَالَكُمْ﴾ فكانوا يخافون الكبائر

١٤٣٣ - عزاه الزيلعي في تخريج الكشاف (٢٩٨/٣) لمحمد بن نصر المروزي الفقيه الشافعي في كتاب الصلاة، من طريق أبي قدامة عن وكيع عن أبي جعفر الرازي عن الربيع بن أنس عن أبي العالية قال: كان أصحاب رسول الله ﷺ - يرون أنه لا يضر مع لا إله إلا الله ذنب كما لا ينفع مع الشرك عمل، فنزلت: ﴿أطيعوا الله وأطيعوا الرسول ولا تبطلوا أعمالكم﴾. انتهى.

وذكره السيوطي في «الدر المنثور»: (٥٤/٦) وزاد نسبه إلى عبد بن حميد وابن أبي حاتم عن أبي العالية فذكره. وله شاهد من حديث عبد الله بن عمرو: أخرجه أبو نعيم في «الحلية»: (١٠٨/٧)، وإسحاق بن راهويه في مسنده، وأبو يعلى الموصلي في مسنده كما في تخريج الكشاف للزيلعي (٢٩٨/٣). كلهم من طريق يحيى بن يمان عن سفيان عن إبراهيم عن محمد بن المنكدر عن أبيه عن مسروق قال: سمعت عبد الله بن عمرو يقول: قال رسول الله ﷺ -: «لا يضر مع الإسلام ذنب كما لا ينفع مع الشرك عمل». انتهى.

وأعله عبد الحق الأشيلي في أحكامه في كتاب الإيمان بيحيى بن اليمان وقال: إنه لا يحتج بحديثه كما في تخريج الكشاف للزيلعي (حـ ٢٩٩/٣).

وله شاهد آخر من حديث عمر بن الخطاب:

أخرجه الخطيب البغدادي في «تاريخ بغداد»: (١٣٤/٧)، والعقيلي في كتابه، وابن عدي في الكامل كما في تخريج الكشاف (٢٩٩/٣) كلهم من طريق حجاج بن نصير عن منذر بن زياد الطائي عن زيد بن أسلم عن أبيه عن عمر بن الخطاب قال: سمعت رسول الله ﷺ - يقول: «لا ينفع مع الشرك شيء كما لا يضر مع الإيمان شيء» أ.هـ.

وذكره الكنانى في «تنزيه الشريعة المرفوعة» (١٥٣/١) من حديث عمر بن الخطاب وقال: ولا =

(١) قال محمود: «معناه: لا تحبطوا الطاعات بالكبائر... الخ» قال أحمد: قاعدة أهل السنة مؤسسة على أن الكبائر ما دون الشرك لا تحبط حسنة مكتوبة؛ لأن الله ﴿لَا يَغْلِبُ يُثْقَلُ دَرَرٌ وَإِنْ تَكَ حَسَنَةً يُضَاعِفْهَا وَيُؤْتِ مِنْ لَدُنْهُ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ نعم يقولون: إن الحسنات يذهبن السيئات كما وعد به الكريم جل وعلا. وقاعدة المعتزلة موضوعة على أن كبيرة واحدة تحبط ما تقدمها من الحسنات ولو كانت مثل زبد البحر؛ لأنهم يقطعون بخلود الفاسق في النار، وسلب سمة الإيمان عنه، ومتى خلد في النار لم تنفع طاعاته ولا إيمانه؛ فعلى هذا بنى الزمخشري كلامه وجلب الآثار التي في بعضها موافقة في الظاهر لمعتقده، ولا كلام عليها جملة من غير تفصيل؛ لأن القاعدة المتقدمة ثابتة قطعاً بأدلة اقتضت ذلك يحاشى كل معتبر في الحل والعقد عن مخالفتها، فمهما ورد من ظاهر يخالفها وجب رده إليها بوجه من التأويل، فإن كان نصاً لا يقبل التأويل فالطريق في ذلك تحسين الظن بالمنقول عنه، والتوريك بالغلط على النقلة، على أن الأثر المذكور عن ابن عمر هو أولى بأن يدل ظاهره لأهل السنة فتأمل، وأما محمل الآية عند أهل الحق فعلى أن النهي عن الإخلال بشرط من شروط العمل وبركن يقتضي بطلانه من أصله، لا أنه يطل بعد اجتماعه شرائط الصحة والقبول.

على أعمالهم. وعن حذيفة: فخافوا أن تحبط الكبائر أعمالهم. وعن ابن عمر: كنا نرى أنه ليس شيء من حسناتنا إلا مقبولا، حتى نزل ﴿وَلَا تَبْطُلُوا أَعْمَالَكُمْ﴾ فقلنا: ما هذا الذي يبطل أعمالنا؟ فقلنا: الكبائر الموجبات^(١) والفواحش، حتى نزل ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَهُ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ﴾ [النساء: ١١٦] فكففنا عن القول في ذلك (١٤٣٤)، فكان

== يصح، فيه المنذر بن زياد وجاء من حديث أنس بن مالك من طريق أحمد بن عبد الله الهروي، وهو من عمله. (تعقب) بأن له طريقا آخر عن مسروق قال: سمعت عبد الله بن عمرو يقول، فذكره بلفظ: لا يضر مع الإسلام ذنب، كما لا ينفع مع الشرك عمل، وفي لفظ عند الطبراني: من قال لا إله إلا الله لم يضره معها خطيئة كما لو أشرك بالله لم تنفعه معها حسنة، رواه أبو نعيم في الحلية والطبراني وقالوا: هكذا قال يحيى بن يمان عن مسروق سمعت عبد الله بن عمرو وخالفه غيره فقال: نزل رجل على مسروق فقال: سمعت عبد الله بن عمرو فذكره (قلت): أخرجه من طريق الرجل المبهم أحمد والطبراني في الكبير، وقال الهيثمي في المجمع: رجاله رجال الصحيح ما خلا التابعي؛ فإنه لم يسم، وقال الحافظ ابن حجر في لسان الميزان: يعقوب بن سفيان، عن حجاج بن نصير، عن المنذر بن زياد، عن زيد بن أسلم، عن ابن عمر بحديث: لا يضر مع الإيمان شيء قال ابن القطان: لا يعرف حاله، وقال شيخنا في الذيل: علة الخبر إما حجاج وإما المنذر. انتهى. وفي اللسان أيضا في ترجمة منذر بن زياد: أعل عبد الحق في الأحكام هذا الحديث بحجاج بن نصير فعاب عليه ابن القطان ذلك، فأصاب، فإن علته من منذر هذا، وحجاج لا يحتمل مثل هذا الموضوع المكشوف. انتهى. وكل هذا غفلة عن حديث عبد الله بن عمرو فإنه شاهد جيد والله أعلم.

وذكره ابن الجوزي في الموضوعات كما في تخريج الكشاف للزيلعي (٢/٢٩٩)، وقال: قال عمرو ابن علي الغلاس: كان المنذر بن زياد كذابا، وقال الدارقطني: متروك وله مناكير قال ابن الجوزي: وقد رواه أحمد بن عبد الله الهروي عن عبد الله بن معدان الأزدي، عن أنس بن مالك عن النبي - ﷺ - أنه قال: «إني لأرجو ألا يمنع مع التوحيد ذنب كما لا يمنع مع الشرك عمل» وقال: هذا أيضا باطل، وهو من عمل الهروي. أ.هـ.

وقال الحافظ ابن حجر: أخرجه محمد بن نصر المروزي في كتاب قدر الصلاة له. قال: حدثنا أبو قدامة حدثنا وكيع حدثنا أبو جعفر الرازي عن الربيع بن أنس بهذا وزاد: فنزلت: (ولا تبطلوا أعمالكم) وفي الكتاب حديث مرفوع، أخرجه إسحاق وأبو يعلى وأبو نعيم في الحلية من حديث ابن مسعود، قال أبو نعيم: تفرد به يحيى بن يمان عن سفيان أ.هـ. ويحيى ضعيف. وفيه عن عمر أيضا أخرجه العقيلي. وابن عدي من رواية حجاج بن نصير عن منذر بن زياد وهما ضعيفان. انتهى.

١٤٣٤- أخرجه محمد بن نصر المروزي في كتاب الصلاة كما في تخريج الكشاف (٣/٣٠٠) من طريق عبد الله بن المبارك: أخبرني بكير بن معروف عن مقاتل بن حيان عن نافع عن ابن عمر قال: كنا معشر أصحاب رسول الله - ﷺ - نرى أنه ليس شيء من الحسنات إلا مقبولا حتى نزلت: ﴿أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرُّسُولَ وَلَا تَبْطُلُوا أَعْمَالَكُمْ﴾ فقلنا: ما هذا الذي يبطل أعمالنا؟... إلى آخره. =

(١) قوله: «فقلنا: الكبائر الموجبات» عبارة الخازن: الكبائر والفواحش. (ع)

تخاف على من أصاب الكبائر ونرجو لمن لم يصبها. وعن قتادة رحمه الله: رحم الله عبداً لم يحبط عمله الصالح بعمله السيئ. وقيل: لا تبطلوها بمعصيتهما. وعن ابن عباس رضي الله عنهما: لا تبطلوها بالرياء والسمعة، وعنه: بالشك والنفاق، وقيل: بالعجب؛ فإن العجب يأكل الحسنات كما تأكل النار الحطب. وقيل: ولا تبطلوا صدقاتكم بالمن والأذى.

﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ ثُمَّ مَأْتُوا بِخَبْرٍ كُفَّارٍ فَلَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ﴾ (٣٤)

﴿ثُمَّ مَأْتُوا وَهُمْ كُفَّارٌ﴾ قيل: هم أصحاب القلب، والظاهر العموم.

﴿فَلَا تَهْتَفُوا وَلَا تَنَاصَبُوا وَلَا تَأْتُوا بِنَا غَصْبًا وَلَا يَتَخَفَى الْغَيْبُ﴾ (٣٥)

﴿فَلَا تَهْتَفُوا﴾ ولا تضعفوا ولا تذلو للعدو ﴿وَلَا تَنَاصَبُوا﴾ لا ﴿تَسْعُوا إِلَى السَّلَامِ﴾ وقرئ: «السلم» وهم المسالمة ﴿وَأَنْتُمْ الْأَغْنَى﴾ أي الأغلبون الأقهرون ﴿وَاللَّهُ مَنَّكُمْ﴾ أي ناصركم. وعن قتادة: لا تكونوا أول الطائفتين ضرعت إلى صاحبتهما بالموادعة. وقرئ: لا تدعوا، من ادعى القوم وتداعوا: إذا دعوا. نحو قولك: ارتموا الصيد وتراموه. وتدعوا: مجزوم لدخوله في حكم النهي. أو منصوب لإضمار إن. ونحو قوله تعالى: ﴿وَأَنْتُمْ الْأَغْنَى﴾: قوله تعالى: ﴿إِنَّكُمْ أَنْتُمْ الْأَغْنَى﴾ [طه: ٦٨]. ﴿وَلَا تَهْتَفُوا﴾ من وترت الرجل إذا قتلت له قتيلاً من ولد أو أخ أو حميم، أو حربته، وحقيقته: أفردته من قريبه أو ماله، من الوتر وهو الفرد؛ فشبّه إضاعة عمل العامل وتعطيل ثوابه بوتر الوتر، وهو من فصيح الكلام. ومنه قوله عليه الصلاة والسلام: «من فاتته صلاة العصر، فكأنما وتر أهله وماله» (١٤٣٥) أي أفرد عنهما قتلاً ونهباً.

﴿إِنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهُمْ وَإِنْ تَوَلَّوْا يَنْفَعُوا﴾ (٣٦) ﴿أَجُورَكُمْ وَلَا يَسْتَلِكُمْ أَمْوَالَكُمْ﴾ (٣٦)

يَسْتَلِكُمُوهَا فَيُخْفِكُمْ بِهَا وَيُخْرِجُ صَعْنَكُمْ (٣٧) هَآتُوهَ هَآتُوهَ تَدْعُونَ لِلنَّفَقَةِ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَمِنْكُمْ مَنْ يَخْلُ وَمَنْ يَخْلُ عَنْ نَفْسِهِ وَاللَّهُ الْغَنِيُّ وَأَنْتُمُ الْفُقَرَاءُ وَإِنْ تَتَوَلَّوْا يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوا أَمْثَلَكُمْ (٣٨)

= وذكره السيوطي في «الدر المنثور»: (٥٥/٦) وزاد نسبه إلى ابن جرير وابن مردويه عن ابن عمران وقال الحافظ ابن حجر: أخرجه ابن مردويه من طريق عبد الله بن المبارك عند بكير بن معروف، عن مقاتل بن حيان، عن نافع، عن ابن عمر بهذا، وأخرجه محمد بن نصر أيضاً من هذا الوجه. انتهى.
١٤٣٥ - قال الحافظ ابن حجر في «تخريج الكشاف»: متفق عليه من حديث ابن عمر.

﴿لَا يَكُنْ لَكُمْ إِيْمَانُ﴾ ثواب إيمانكم وتقواكم ﴿يَسْتَكْبِرُوا﴾ أي ولا يسألكم جميعها، إنما يقتصر منكم على ربع العشر، ثم قال: ﴿إِنْ يَسْتَكْبِرُوا فَخَارِكُمْ﴾ أي يجهدكم ويطلبه كله، والإحفاء: المبالغة وبلوغ الغاية في كل شيء، يقال: أحفاه في المسألة إذا لم يترك شيئاً من الإلحاح. وأحفى شارب: إذا استأصله ﴿تَبَيَّنُوا﴾ أي تضطغنون على رسول الله ﷺ، وتضيق صدوركم لذلك، وأظهرتم كراهتكم ومقتكم لدين يذهب بأموالكم، والضمير في ﴿يُخْرِجُ﴾ الله عز وجل، أي يضغنكم بطلب أموالكم. أو للبلخ؛ لأنه سبب الاضطغان، وقرئ «نخرج» بالنون. ويخرج، بالياء والتاء مع فتحهما ورفع أضغانكم ﴿يَكُونُ﴾ موصول بمعنى الذين صلته ﴿تُدْعُونَ﴾ أي أنتم الذين تدعون. أو أنتم يا مخاطبون هؤلاء ١٨٤/٢ الموصوفون، ثم استأنف وصفهم، كأنهم قالوا: وما وصفنا؟ فقل: تدعون ﴿يَسْتَعِزُّوْا فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ قيل: هي النفقة في الغزو. وقيل: الزكاة، كأنه قيل: الدليل على أنه لو أحفاكم لبخلتم وكرهتم العطاء واضطغنتم أنكم تدعون إلى أداء ربع العشر، فمنكم ناس يبخلون به، ثم قال: ﴿وَمَنْ يَبْخَلْ﴾ بالصدقة وأداء الفريضة. فلا يتعداه ضرر بخله، وإنما ﴿يَبْخَلْ عَنْ نَفْسِهِ﴾ يقال بخلت عليه وعنه، وكذلك ضننت عليه وعنه. ثم أخبر أنه لا يأمر بذلك ولا يدعو إليه لحاجته إليه، فهو الغني الذي تستحيل عليه الحاجات، ولكن لحاجتكم وفقركم إلى الثواب ﴿وَأَنْ تَتَوَلَّوْا﴾ معطوف على: وإن تؤمنوا وتتقوا ﴿يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ﴾ يخلق قوماً سواكم على خلاف صفتكم راغبين في الإيمان والتقوى، غير متولين عنهما، كقوله تعالى: ﴿وَيَأْتِ بِغُلَامٍ جَدِيدٍ﴾ [إبراهيم: ١٩] وقيل: هم الملائكة. وقيل: الأنصار. وعن ابن عباس: كندة والنخع. وعن الحسن: العجم. وعن عكرمة: فارس والروم. وسئل رسول الله ﷺ عن القوم وكان سلمان إلى جنبه، فضرب على فخذه وقال: «هذا وقومه، والذي نفسي بيده، لو كان الإيمان منوطاً بالثريا لتناوله رجال من فارس» (١٤٣٦).

١٤٣٦ - أخرجه الترمذي (٣٨٤/٥): كتاب تفسير القرآن: باب ومن سورة محمد ﷺ، حديث (٣٢٦١)، وابن حبان في صحيحه (٦٢/١٦ - ٦٣) رقم (٧١٢٣)، والطبري في تفسيره (٣٣٠/١١) رقم (٣١٤٤٢ - ٣١٤٤٣ - ٣١٤٤٤)، والحاكم في المستدرک (٤٥٨/٢)، والبيهقي في «دلائل النبوة» (٣٣٣/٦ - ٣٣٤).

كلهم من طرق مختلفة عن عبد العلاء بن عبد الرحمن عن أبيه عن أبي هريرة به.
قال الحاكم: هذا حديث صحيح على شرط مسلم، ولم يخرجاه. أ.هـ. وذكره السيوطي في «الدر المنثور»: (٥٥/٦)، وزاد نسبته إلى عبد الرزاق، وعبد بن حميد، وابن أبي حاتم، والطبراني في =

(١) قوله: «أي تضطغنون على رسول الله ﷺ، في الصبح: «الضغن» الحقد. وتضاغن القوم واضطغنون: انطووا على الأحقاد. (ع)

وعن رسول الله ﷺ: «من قرأ سورة محمد ﷺ كان حقًا على الله أن يسقيه من أنهار الجنة» (١٤٣٧).

الأوسط عن أبي هريرة به .

وله طريق آخر:

أخرجه الترمذي (٣٨٤/٥): كتاب تفسير القرآن: باب ومن سورة محمد - ﷺ -، حديث (٣٢٦٠) من طريق عبد الرزاق عن شيخ من أهل المدينة عن العلاء به . وقال: هذا حديث غريب في إسناده مقال . أ.هـ. وأخرج طرفه الأخير:

مسلم (٣٤١/٨ - ٣٤٢ - النووي): كتاب فضائل الصحابة: باب فضل فارس، حديث (٢٣١/٥٤٦) من طريق ثور عن أبي الغيث عن أبي هريرة به .

وأحمد في مسنده (٣٠٩/٢) من طريق معمر عن جعفر الجزري عن يزيد بن الأصم عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ -: «لو كان الدين عند الثريا لذهب رجل من فارس أو أبناء فارس حتى يتناوله» . أ.هـ. وقال ابن حجر: «أخرجه الترمذي وابن حبان، والحاكم والطبري وابن أبي حاتم وغيرهم من طريق العلاء بن عبد الرحمن عن أبيه عن أبي هريرة وله طرق عنه وعن غيره . انتهى .

١٤٣٧ - تقدم برقم (٣٤٦) وقال ابن حجر: أخرجه الثعلبي، وابن مردويه، والواحدي بأسانيدهم إلى أبي ابن كعب . انتهى .

سورة الفتح

مدنية [نزلت في الطريق عند الانصراف من الحديبية]
وآياتها تسع وعشرون [نزلت بعد الجمعة]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ



هو فتح مكة، وقد نزلت مرجع رسول الله ﷺ عن مكة عام الحديبية عدة له بالفتح، وجيء به على لفظ الماضي على عادة رب العزة سبحانه في أخباره؛ لأنها في تحققها وتيقنها بمنزلة الكائنة الموجودة، وفي ذلك من الفخامة والدلالة على علو شأن المخبر ما لا يخفى^(١). فإن قلت: كيف جعل فتح مكة علة للمغفرة؟ قلت: لم يجعل علة للمغفرة، ولكن لاجتماع ما عدّد من الأمور الأربعة: وهي المغفرة وإتمام النعمة وهداية الصراط المستقيم والنصر العزيز، كأنه قيل: يسرنا لك فتح مكة، ونصرتك على عدوك، لنجمع لك بين عز الدارين وأغراض العاجل والآجل. ويجوز أن يكون فتح مكة - من حيث إنه جهاد للعدوّ - سبباً للغفران والثواب والفتح والظفر بالبلد عنوة أو صلحاً بحرب أو بغير حرب، لأنه منغلق ما لم يظفر به، فإذا ظفر به وحصل في اليد فقد فتح. وقيل: هو فتح الحديبية، ولم يكن فيه قتال شديد، ولكن ترام بين القوم بسهام وحجارة. وعن ابن عباس رضي الله عنه: رموا المشركين حتى أدخلوهم ديارهم. وعن الكلبي: ظهوروا عليهم حتى سألوا الصلح. فإن قلت: كيف يكون فتحاً وقد أحصروا فنحروا وحلقوا بالحديبية؟ قلت: كان ذلك قبل الهدنة، فلما طلبوها وتمت كان فتحاً مبيّناً. وعن موسى بن عقبة: أقبل رسول الله ﷺ من الحديبية راجعاً، فقال رجل من أصحابه: ما هذا بفتح، لقد صدّونا

(١) قوله: «علو شأن المخبر» لعله: المجبر به. وبعبارة النسفي: المخبر عنه. (ع)

(٢) قال محمود: «جاء الإخبار بالفتح على لفظ الماضي وإن لم يقع بعد؛ لأن المراد فتح مكة، والآية نزلت حين رجع عليه الصلاة والسلام من الحديبية قبل عام الفتح، وذلك على عادة رب العزة في إخباره؛ لأنها كانت محققة نزلت منزلة الكائنة الموجودة، وفي ذلك من الفخامة والدلالة على علو شأن المخبر ما لا يخفى» قال أحمد: ومن الفخامة الالتفات من التكلم إلى الغيبة.

عن البيت وصد هدينا، فبلغ النبي ﷺ فقال: «بش الكلام هذا، بل هو أعظم الفتوح، وقد رضي المشركون أن يدفعوكم عن بلادهم بالراح»^(١)، ويسألوكم القضية، ويرغبوا إليكم في الأمان، وقد رأوا منكم ما كرهوا» (١٤٣٨)، وعن الشعبي: نزلت بالحديبية وأصاب رسول الله ﷺ في تلك الغزوة ما لم يصب في غزوة، أصاب: أن بويع بيعة الرضوان، وغفر له ما تقدم من ذنبه وما تأخر، وظهرت الروم على فارس؛ وبلغ الهدى محله، وأطعموا نخل خيبر، وكان في فتح الحديبية آية عظيمة. وذلك أنه نزع ماؤها حتى لم يبق فيها قطرة، فتمضمض رسول الله ﷺ ثم مجه فيها، فدرت بالماء حتى شرب جميع من كان معه. وقيل: فجاش الماء حتى امتلأت ولم ينفد ماؤها بعد (١٤٣٩) وقيل: هو فتح خيبر،

١٤٣٨ - أخرجه البيهقي في «دلائل النبوة»: (١٦٠/٤ - ١٦١) من طريق أبي عبد الله الحافظ عن إسماعيل ابن محمد بن الفضل، عن جده، عن إبراهيم بن المنذر، عن محمد بن فليح، عن موسى بن عقبة، عن ابن شهاب، عن أبي عبد الله بن الحافظ، عن أبي جعفر البغدادي، عن محمد بن عمرو بن خالد، عن أبيه، عن ابن لهيعة، قال: حدثنا أبو الأسود عن عروة قالوا: وأقبل رسول الله ﷺ من الحديبية راجعاً، فقال رجال... إلى آخره فذكره قال الحافظ ابن حجر: هكذا هو في مغازي موسى بن عقبة عن الزهري، وأخرجه البيهقي في الدلائل من طريقه، ومن طريق أبي الأسود عن عروة - أيضاً - نحوه مطولاً. انتهى.

١٤٣٩ - أخرجه البخاري (٢٧٩/٧): كتاب المناقب: باب علامات النبوة في الإسلام، حديث (٣٥٧٧)، و(٢٠٨/٨ - ٢٠٩): كتاب المغازي باب غزوة الحديبية، حديث (٤١٥٠ - ٤١٥١) من طريق أبي إسحاق عن البراء بن عازب به.

وقال الحافظ ابن حجر:

متفق عليه من حديث البراء مطولاً باللفظ الأول، ولمسلم من حديث سلمة بن الأكوع؛ قال: قدمنا المدينة ونحن أربع عشرة مائة وعليها خمسون شاة لا ترويهما، فقعد رسول الله ﷺ - على جنب الركبة فإما دعا وإما بصق، قال: فجاشت، فسقينا واستقينا. وعند البخاري في الحديث الطويل عن المسور بن مخرمة ومروان: فعدل عنهم حتى نزل بأقصى الحديبية على ثمد قليل الماء، فلم يلبث الناس أن سرحوه، وشكوا إلى رسول الله ﷺ - العطش فانتزع سهماً من كنانته ثم أمرهم أن يجعلوه فيه، فوالله ما زال يجيش لهم بالريء ولا مخالفة في هذا لحديث البراء.، لما رواه الواقدي من طريق عطاء بن أبي مروان، عن أبيه حدثني أربعة عشر رجلاً من أسلم صحابة أن ناجية بن الأعجم. قال: «دعاني رسول الله ﷺ - حين شكى إليه من قلة الماء فدفع إلي سهماً من كنانته وأمر بدلو من مائه، فمضمض فاه منه ثم مجه في الدلو، وقال لي: أنزل الماء فصبه في البئر وفتحت الماء بالسهم. ففعلت. فوالذي بعثه بالحق. ما كدت أخرج حتى كاد يغمرني». وروي أيضاً من حديث قتادة. قال: لما دعا رسول الله ﷺ - الرجل. تنزل بالسهم وتوضأ، ومج فاه منه، ثم رده في البئر: جاشت بالرواء. انتهى.

(١) قوله: «عن بلادهم بالراح» في الصحاح «الراح»: الخمر، والراح: جمع راحة وهي الكف. والراح: الارتياح، اهـ والظاهر هنا الثالث. (ع)

وقيل: فتح الروم. وقيل: فتح الله له بالإسلام والنبوة والدعوة بالحجة والسيف، ولا فتح أبين منه وأعظم، وهو رأس الفتوح كلها، إذ لا فتح من فتوح الإسلام إلا وهو تحته ومتشعب منه. وقيل: معناه قضينا لك قضاء بيتنا على أهل مكة أن تدخلها أنت/ ١٨٤/٢ ب وأصحابك من قابل؛ لتطوفوا بالبيت: من الفتاحة وهي الحكومة، وكذا عن قتادة ﴿مَا تَقْدَمُ مِنْ ذُنُوبِكَ وَمَا تَأَخَّرُ﴾ يريد: جميع ما فرط منك. وعن مقاتل: ما تقدم في الجاهلية وما بعدها. وقيل: ما تقدم من حديث مارية وما تأخر من امرأة زيد ﴿نَصْرًا عَزِيزًا﴾ فيه عز ومنعة - أو وصف بصفة المنصور إسنادًا مجازيًا أو عزيزًا صاحبه.

﴿هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ السَّكِينَةَ فِي قُلُوبِ الْمُؤْمِنِينَ لِيَزْدَادُوا إِيمَانًا مَعَ إِيْمَانِهِمْ ۖ وَلِلَّهِ جُنُودُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ۖ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ۝﴾ لِيَدْخُلَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرَى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَيُكَفِّرُ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ ۖ وَكَانَ ذَلِكَ عِنْدَ اللَّهِ فَوْزًا عَظِيمًا ۝ وَيُعَذِّبُ الْمُنَافِقِينَ ۝ وَالْمُنَافِقَاتِ وَالْمُشْرِكِينَ وَالْمُشْرِكَاتِ الظَّالِمَاتِ بِاللَّهِ ظَلَمْنَ السَّوْءَ عَلَيْهِمْ دَائِرَةُ السَّوْءِ وَغَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَلَعَنَهُمْ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَهَنَّمَ وَسَاءَتْ مَصِيرًا ۝ وَلِلَّهِ جُنُودُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ۖ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ۝﴾

﴿السَّكِينَةَ﴾ السكون كالبهيته للبهتان، أي: أنزل الله في قلوبهم السكون، والطمأنينة بسبب الصلح والأمن، ليعرفوا فضل الله عليهم بتيسير الأمن بعد الخوف، والهدنة غب القتال، فيزدادوا يقينًا إلى يقينهم، وأنزل فيها السكون إلى ما جاء به محمد عليه السلام من الشرائع ﴿لِيَزْدَادُوا إِيمَانًا﴾ بالشرائع مقرونا إلى إيمانهم وهو التوحيد. عن ابن عباس رضي الله عنهما: إن أول ما أتاهم به النبي ﷺ التوحيد، فلما آمنوا بالله وحده أنزل الصلاة والزكاة، ثم الحج، ثم الجهاد، فازدادوا إيمانًا إلى إيمانهم. أو أنزل فيها الوقار والعظمة لله عز وجل ولرسوله، ليزدادوا باعتقاد ذلك إيمانًا إلى إيمانهم. وقيل: أنزل فيها الرحمة ليتراحموا فيزداد إيمانهم ﴿وَلِلَّهِ جُنُودُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ يسلط بعضها على بعض كما يقتضيه علمه وحكمته، ومن قضيته أن سكن قلوب المؤمنين بصلح الحديبية ووعدهم أن يفتح لهم، وإنما قضى ذلك ليعرف المؤمنون نعمة الله فيه ويشكروها فيستحقوا الثواب، فيثيبهم ويعذب الكافرين والمنافقين لما غاظهم من ذلك وكرهوه. وقع السوء: عبارة عن رداء الشيء وفساده؛ والصدق عن جودته وصلاحه، فقليل في المرضى الصالح من الأفعال: فعل صدق، وفي المسخوط الفاسد منها: فعل سوء. ومعنى ﴿ظَلَمَ السَّوْءَ﴾ ظنهم أن الله تعالى لا ينصر الرسول والمؤمنين، ولا يرجعهم إلى مكة ظافرين فاتحيها عنوة وقهرًا ﴿عَلَيْهِمْ دَائِرَةُ السَّوْءِ﴾ أي: ما يظنونونه ويتربصونه بالمؤمنين فهو حائق بهم ودائر عليهم -

والسوء: الهلاك والدمار. وقرئ: «دائرة السوء»^(١) بالفتح، أي: الدائرة التي يذمونها ويسخطونها، فهي عندهم دائرة سوء، وعند المؤمنين دائرة صدق. فإن قلت: هل من فرق بين السوء والسوء؟ قلت: هما كالكره والكراه والضغف والضغف، من سوء، إلا أنَّ المفتوح غلب في أن يضاف إليه ما يراد ذمه من كل شيء. وأما السوء بالضم فجار مجرى الشر الذي هو نقيض الخير. يقال: أراد به السوء وأراد به الخير؛ ولذلك أضيف الظن إلى المفتوح لكونه مذموماً؛ وكانت الدائرة محمودة فكان حقها أن لا تضاف إليه إلا على التأويل الذي ذكرنا وأما دائرة السوء بالضم، فلأن الذي أصابهم مكروه وشدة، فصح أن يقع عليه اسم السوء، كقوله عز وعلا: ﴿إِنْ أَرَادَ بِكُمْ سُوءًا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ رَحْمَةً﴾ [الأحزاب: ١٧].

﴿إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَهِيدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا﴾ ﴿٨﴾ لَتُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتُعَزِّرُوهُ وَتُوَقِّرُوهُ وَتُسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا﴾ ﴿٩﴾

﴿شَهِيدًا﴾ تشهد على أمتك، كقوله تعالى: ﴿وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا﴾ [البقرة: ١٤٣]. ﴿لَتُؤْمِنُوا﴾ الضمير للناس ﴿وَتُعَزِّرُوهُ﴾ ويقووه بالنصرة ﴿وَتُوَقِّرُوهُ﴾ ويعظموه ﴿وَتُسَبِّحُوهُ﴾ من التسبيح. أو من السبحة، والضمائر لله عز وجل والمراد بتعزيز الله: تعزيز دينه ورسوله ﷺ. ومن فرق الضمائر فقد أبعد. وقرئ: «لتؤمنوا» «وتعزروه»^(٢) «وتوقروه» «وتسبحوه» بالتاء. والخطاب لرسول الله ﷺ ولأئمة. وقرئ: «وتعزروه» بضم الزاي وكسرها. وتعزروه بضم التاء والتخفيف، وتعزروه بالزايين. وتوقروه من أوقره بمعنى وقره. وتسبحوا الله ﴿بُكْرَةً وَأَصِيلًا﴾ عن ابن عباس رضي الله عنهما: صلاة الفجر وصلاة الظهر والعصر.

﴿إِنَّ الَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ اللَّهَ يَدُ اللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ فَمَنْ نَكَثَ فَإِنَّمَا يَنْكُثُ عَلَىٰ نَفْسِهِ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِمَا عَاهَدَ عَلَيْهِ اللَّهُ فَمَسْئُوتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ ﴿١٠﴾

لما قال ﴿إِنَّمَا يُبَايِعُونَكَ﴾ أكده تأكيداً على طريق التخييل^(٣) فقال: ﴿يَدُ اللَّهِ فَوْقَ

(١) قوله: «وقرئ دائرة السوء بالفتح، يفيد أن القراءة المشهورة. دائرة السوء. بالضم. (ع)

(٢) قوله: «قرئ لتؤمنوا وتعزروه» يفيد أن قراءة الباء هي المشهورة، وقد تشير إلى تفريق الضمائر قراءة: وتسبحوا الله... الآية. (ع)

(٣) قال محمود: «لما قال: إنما يبایعون الله أكده تأكيداً على طريق التخييل... الخ» قال أحمد: كلام حسن بعد إسقاط لفظ التخييل وإبداله بالتمثيل، وقد تقدمت أمثاله.

أَيَّدِيهِمْ ﴿ يريد أن يد رسول الله التي تعلق أيدي المبايعين: هي يد الله، والله تعالى منزّه عن الجوارح وعن صفات الأجسام، وإنما المعنى: تقرير أن عقد الميثاق مع الرسول/ ٢/ ١٨٥ أ كعقده مع الله من غير تفاوت بينهما، كقوله تعالى: ﴿مَنْ يُطِيعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ﴾ [النساء: ٨٠] والمراد: بيعة الرضوان ﴿فَإِنَّمَا يَنْتَكِبُ عَلَى نَفْسِهِ﴾ فلا يعود ضرر نكته إلا عليه. قال جابر بن عبد الله رضي الله عنه: بايعنا رسول الله تحت الشجرة على الموت، وعلى أن لا نفر، فما نكث أحد منا البيعة إلا جد بن قيس وكان منافقاً، اختبأ تحت إبط بعيره ولم يسر مع القوم (١٤٤٠). وقرئ: «إنما يبايعون لله» أي: لأجل الله ولوجهه، وقرئ: «ينكث» بضم الكاف وكسرهما، وبما عاهد وعهد ﴿فَسَيُؤَيِّدُ﴾ بالنون والياء، يقال: وفيت بالعهد وأوفيت به، وهي لغة تهامة. ومنها قوله تعالى: ﴿أَوْفُوا بِالْعُقُودِ﴾ [المائدة: ١] ﴿وَالْعُقُودُ يَعْهَدُهَا﴾ [البقرة: ١٧٧].

﴿سَيَقُولُ لَكَ الْمُخَلْفُونَ مِنَ الْأَعْرَابِ شَغَلَتْنَا أَمْوَالُنَا وَأَهْلُونَا فَاسْتَغْفِرْ لَنَا يَقُولُونَ بِأَلْسِنَتِهِمْ: لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ قَلٌّ فَمَنْ يَمْلِكُ لَكُمْ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا إِنْ أَرَادَ بِكُمْ ضَرًّا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ نَفْعًا بَلْ كَانَ اللَّهُ بِمَا نَعْمَلُونَ خَبِيرًا﴾

هم الذين خلفوا عن الحديبية، وهم أعراب غفار ومزينة وجهينة وأشجع وأسلم والدليل. وذلك أنّ رسول الله ﷺ حين أراد المسير إلى مكة عام الحديبية معتمراً استنفر من حول المدينة من الأعراب وأهل البوادي ليخرجوا معه حذراً من قريش أن يعرضوا له بحرب أو يصدوه عن البيت، وأحرم هو ﷺ وساق معه الهدى، ليعلم أنه لا يريد حرباً، فتناقل كثير من الأعراب وقالوا: يذهب إلى قوم قد غزوه في عُقر^(١) داره بالمدينة وقتلوا

١٤٤٠ - أخرجه مسلم (٥/٧ النووي): كتاب الإمارة: باب استحباب مبايعة الإمام الجيش عند إرادة القتال. وبيان بيعة الرضوان تحت الشجرة، حديث (٦٧ - ٦٨ - ٦٩ - ٧٠ - ١٨٥٦) من طريق أبي الزبير عن جابر به.

وعزه الزيلعي في تخريج الكشاف (٣/٣٠٧) إلى أبي يعلى الموصلي والبخاري في مسندهما من حديث أبي سفيان عن جابر به بنحوه.

وقال الحافظ ابن حجر: لم أجده هكذا، بل في حديث جابر «أنه سئل كم كانوا يوم الحديبية؟ قال: كنا أربعة عشر مائة فبايعناه وعمر أخذ بيده تحت الشجرة. وهي سمرة. فبايعناه. وجد بن قيس اختبأ تحت بطن بعيره، أخرجه مسلم. ولأبي يعلى من هذا الوجه: «لم نبايعه على الموت، وإنما بايعناه على ألا نفر، بايعناه كلنا، إلا الجد بن قيس؛ فإنه اختبأ تحت بطن بعيره، فهذا ليس فيه أنه بايع ونكث، بل فيه أنه لم يبايع أصلاً. انتهى.

(١) قوله: «قد غزوه في عُقر داره» في المصباح: عُقر الدار أصلها، وهو محلة القوم. وأهل المدينة =

أصحابه، فيقاتلهم، وظنوا أنه يهلك فلا ينقلب إلى المدينة واعتلوا بالشغل بأهاليهم وأموالهم وأنه ليس لهم من يقوم بأشغالهم (١٤٤١). وقرئ: «شغلتنا» بالتشديد ﴿يَقُولُونَ بِأَلْسِنَتِهِمْ مَا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ﴾ تكذيب لهم في اعتذارهم. وأن الذي خلفهم ليس بما يقولون، وإنما هو الشك في الله والنفاق؛ وطلبهم للاستغفار أيضًا ليس بصادر عن حقيقة ﴿فَمَنْ يَمُنْ بِمَا عَلَىٰ لَكُمْ﴾ فمن يمنعكم من مشيئة الله وقضائه ﴿إِنْ أَرَادَ بِكُمْ﴾ ما يضركم من قتل أو هزيمة ﴿أَوْ أَرَادَ بِكُمْ نَفْعًا﴾ من ظفر وغنيمة^(١) وقرئ: «ضرًا»، بالفتح والضم. الأهلون: جمع أهل. ويقال: أهلات، على تقدير تاء التأنيث. كأرض وأرضات، وقد جاء أهلة. وأما أهال، فاسم جمع، كليلال.

﴿بَلْ ظَنَنْتُمْ أَنْ لَّنْ يَنْقَلِبَ الرَّسُولُ وَالْمُؤْمِنُونَ إِلَىٰ أَهْلِيهِمْ أَجْمَعِينَ وَرَبُّنَا ذَلِكَ فِي قُلُوبِكُمْ وَظَنَّتُمْ أَنْ لَكُمْ مَقَرٌّ وَمَنْ يَتَذَكَّرْ فَإِنَّهُ عَلَىٰ صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾

وقرئ: «إلى أهليهم» «وَرَبُّنَا»، على البناء للفاعل وهو الشيطان، أو الله عز وجل،

١٤٤١ - أخرجه البيهقي في «دلائل النبوة»: (١٦٤/٤) من طريق أبي عبد الله الحافظ، عن عبد الرحمن ابن الحسن القاضي، عن إبراهيم بن الحسين، عن آدم بن أبي إياس، عن ورقاء، عن ابن أبي يحيى، عن مجاهد قال: أرى رسول الله - ﷺ - وهو بالحديبية أنه يدخل مكة... الحديث. قال الحافظ ابن حجر: أخرجه البيهقي في الدلائل من رواية آدم عن ورقاء. عن ابن نجيع عن مجاهد نحوه. انتهى.

يقولون: عقر الدار، بالضم. (ع)

(١) قال محمود: «أي قتلاً وهزيمة أو أراد بكم نفعا أي ظفراً وغنيمة» قال أحمد: لا تخلو الآية من الفن المعروف عند علماء البيان باللف، وكان الأصل - والله أعلم - : فمن يملك لكم من الله شيئاً إن أراد بكم ضرراً، ومن يحرّمكم النفع إن أراد بكم نفعا؛ لأن مثل هذا النظم يستعمل في الضرر، وكذلك ورد في الكتاب العزيز مطرداً، كقوله: ﴿فَمَنْ يَمْلِكُ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا إِنْ أَرَادَ أَنْ يُهْلِكَ الْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ﴾. ﴿وَمَنْ يُؤِذِ اللَّهَ فَهُوَ كُفْرٌ فَلَنْ تَمْلِكَ لَهُ مِنْ اللَّهِ شَيْئًا﴾ ﴿فَلَا تَمْلِكُونَ لِي مِنَ اللَّهِ شَيْئًا هُوَ أَعْلَمُ بِمَا تُفْعِلُونَ فِيهِ﴾ ومنه قوله عليه الصلاة والسلام في بعض الحديث «إني لا أملك لكم شيئاً» يخاطب عشيرته وأمثاله كثيرة، وسر اختصاصه بدفع المضرة: أن الملك مضاف في هذه المواضع باللام ودفع المضرة نفع يضاف للمدفع عنه، وليس كذلك حرمان المنفعة؛ فإنه ضرر عائد عليه لا له، فإذا ظهر ذلك فإنما انتظمت الآية على هذا الوجه؛ لأن القسمين يشتركان في أن كل واحد منهما نفي لدفع المقدر من خير وشر، فلما تقاربا أدرجهما في عبارة واحدة، وخص عبارة دفع الضرر؛ لأنه هو المتوقع لهؤلاء؛ إذ الآية في سياق التهديد أو الوعيد الشديد، وهي نظير قوله: ﴿قل من ذا الذي يعصمكم من الله إن أراد بكم سوءاً أو أراد بكم رحمة﴾ فإن العصمة إنما تكون من السوء لا من الرحمة. فهاتان الآيتان يرمان في التقرير الذي ذكرته. والله أعلم.

وكلاهما جاء في القرآن ﴿وَرَبِّهِمْ أَشَدُّ عَذَابَهُمْ﴾ [النمل: ٢٤]، و﴿وَمَا لَهُمْ أَشَدُّ عَذَابَهُمْ﴾ [النمل: ٤] والبور: من بار، كالهلك: من هلك، بناء ومعنى؛ ولذلك وصف به الواحد والجمع والمذكر والمؤنث. ويجوز أن يكون جمع بائر كعائذ وعوذ. والمعنى: كنتم قوماً فاسدين في أنفسكم وقلوبكم ونياتكم لا خير فيكم. أو هالكين عند الله مستوجبين لسخطه وعقابه.

﴿وَمَنْ لَمْ يُؤْمِنْ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ فَإِنَّا أَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ سَعِيرًا﴾ (١٣)

﴿الْكَافِرِينَ﴾ مقام مقام لهم، للإيذان بأن من لم يجمع بين الإيمانين الإيمان بالله وبرسوله فهو كافر، ونكر ﴿مَنْ﴾ لأنها نار مخصوصة، كما نكر ﴿الْكَافِرِينَ﴾ [الليل: ١٤].

﴿يَوْمَ مَكَانُ الْعَذَابِ وَالْكَافِرِينَ سَعِيرًا﴾

﴿١٤﴾

﴿يَوْمَ مَكَانُ الْعَذَابِ وَالْكَافِرِينَ سَعِيرًا﴾ يدبره تدبير قادر حكيم، فيغفر ويعذب بمشيئته، ومشيئته تابعة لحكمته، وحكمته المغفرة للتائب وتعذيب المصر ﴿وَسَعِيرًا﴾ [النمل: ١٤]، رحمته سابقة لغضبه، حيث يكفر السيئات باجتئاب الكبائر، ويغفر الكبائر بالتوبة.

﴿يَوْمَ مَكَانُ الْعَذَابِ وَالْكَافِرِينَ سَعِيرًا﴾

﴿١٥﴾

﴿يَوْمَ مَكَانُ الْعَذَابِ وَالْكَافِرِينَ سَعِيرًا﴾ الذين تخلفوا عن الحديدية ﴿يَوْمَ مَكَانُ الْعَذَابِ وَالْكَافِرِينَ سَعِيرًا﴾ إلى غنائم خبير ﴿يَوْمَ مَكَانُ الْعَذَابِ وَالْكَافِرِينَ سَعِيرًا﴾ وقرئ: «كلم الله» أن يغيروا موعد الله لأهل الحديدية، وذلك أنه وعدهم أن يعوضهم من مغنم مكة مغنم خبير إذا قفلوا موادعين لا يصيبون منهم

قال محمود: «يغفر ويعذب بمشيئته... الخ» قال أحمد: قد تقدمت أمثالها، والقول بأن موجب الحكمة ما ذكر تحكم. هذا وأدلة الشرع القاطعة تأتي على ما يعتقده فلا تبقي ولا تذر، فكم من دليل على أن المغفرة لا تقف على التوبة، وكم يروم اتباع القرآن للرأي الفاسد فيقيد مطلقاً ويحجر واسعاً، والله الموفق.

قال محمود: «المراد بكلام الله وعده أهل الحديدية بغنائم خبير عوضاً عما يفوتهم من غنائم مكة... الخ» قال أحمد: فالإضراب الأول إذاً هو المعروف، والثاني هو المستغرب المستعذب الذي ليس فيه مباينة بين الأول والثاني، بل زيادة بينة ومبالغة متمكنة، وإنما كان المنسوب إليهم ثانياً أشد من المنسوب إليهم أولاً؛ لأن الأول نسبة إلى جهل في شيء مخصوص، وهو نسبتهم الحسد إلى المؤمنين، والثاني يعتبر بجهل على الإطلاق. وقلة فهم على الاسترسال.

شيئاً. وقيل: هو قوله تعالى: ﴿لَا يَفْهَمُونَ إِلَّا هَذَا﴾ [التوبة: ٨٣] «تحدوننا» أن نصيب معكم من الغنائم. قرئ: بضم السين وكسرهما ﴿لَا يَفْهَمُونَ﴾ لا يفهمون إلا فهمًا ﴿هَذَا﴾ وهو فطنتهم لأمر الدنيا دون أمور الدين، كقوله تعالى: ﴿يَعْلَمُونَ ظُهُورَ النَّاسِ مِنْ أَسْفَلٍ﴾ [الروم: ٧] فإن قلت: ما الفرق بين حرفي الإضراب؟ قلت: الأول إضراب معناه: رد أن يكون حكم الله أن لا يتبعوهم وإثبات الحسد. والثاني إضراب عن وصفهم بإضافة الحسد إلى المؤمنين، إلى وصفهم بما هو أطم منه، وهو الجهل وقلة الفقه.

﴿قُلْ لِلْمُخَلَّفِينَ مِنَ الْأَعْرَابِ مَسْئَلَةٌ مِنْ رَبِّكَ وَتَقِمْ الْيَوْمَ الْوَيْلَ لِلَّذِينَ يُنْفِقُونَ إِلَّا بِوَسْطِ الْحَرْبِ عَلَى نَفْسٍ أَوْ أَهْلِ تَحْتِ أَرْضٍ يَدْعُوا أَنْ يُؤْتِيَهُمُ اللَّهُ ثَوَابَ جَدِّكَ إِنَّهُمْ لَشَاعِرُونَ﴾ [التوبة: ١٠٤]

﴿قُلْ لِلْمُخَلَّفِينَ﴾ هم الذين تخلفوا عن الحديبية ﴿يَوْمَ الْوَيْلَ﴾ يعني بني حنيفة قوم مسيلمة، وأهل الردة الذين حاربهم أبو بكر الصديق رضي الله عنه؛ لأن مشركي العرب والمرتدين هم الذين لا يقبل منهم ١٨٥/٢ ب إلا الإسلام أو السيف عند أبي حنيفة ومن عداهم من مشركي العجم وأهل الكتاب. والمجوس تقبل منهم الجزية، وعن الشافعي لا تقبل الجزية إلا من أهل الكتاب والمجوس دون مشركي العجم والعرب. وهذا دليل على إمامة أبي بكر الصديق رضي الله عنه، فإنهم لم يدعوا إلى حرب في أيام رسول الله ﷺ، ولكن بعد وفاته. وكيف يدعوهم رسول الله ﷺ مع قوله تعالى: ﴿يُخْرِجُوا مِنْهَا﴾ [التوبة: ٨٣] وقيل: هم فارس والروم. ومعنى ﴿يُنْفِقُونَ﴾ ينقادون، لأن الروم نصارى، وفارس مجوس يقبل منهم إعطاء الجزية. فإن قلت: عن قتادة أنهم ثقيف وهوازن، وكان ذلك في أيام رسول الله ﷺ؟ قلت: إن صح ذلك فالمعنى: لن تخرجوا معي أبدًا ما دمت على ما أنتم عليه من مرض القلوب والاضطراب في الدين. أو على قول مجاهد: كان الموعد أنهم لا يتبعون رسول الله ﷺ إلا متطوعين لا نصيب لهم في المغنم ﴿يَوْمَ الْوَيْلَ﴾ يريد في غزوة الحديبية. أو يسلمون. معطوف على تقاتلونهم، أي: يكون أحد الأمرين: إما المقاتلة، أو الإسلام، لا ثالث لهما. وفي قراءة أبي: «أو يسلموا» بمعنى: إلى أن يسلموا.

﴿يَسْأَلُ الَّذِينَ فِي الْوَيْلِ مِنَ الْبُحْرَيْنِ مَنْ هُوَ الَّذِي يَدْعُوهُمْ أَنْ يَبْعُوا الْفُلَيْنِ فِي الْوَيْلِ مِنَ الْبُحْرَيْنِ﴾ [التوبة: ١٠٥]

نفى الحرج عن هؤلاء من ذوي العاهات في التخلف عن الغزو. وقرئ: «ندخله» «ونعذبه» بالنون.

﴿لَقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَنزَلَ السَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَبَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا﴾ (١٨) وَمَعَايِمَ كَثِيرَةً يَأْخُذُونَهَا وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا (١٩)

هي بيعة الرضوان، سميت بهذه الآية، وقصتها: أنَّ النبي ﷺ حين نزل الحديبية بعث جواس (١) بن أمية الخزاعي رسولاً إلى أهل مكة، فهموا به فمنعه الأحابيش، فلما رجع دعا بعمر رضي الله عنه لبيعته فقال: إني أخافهم على نفسي، لما عرف من عداوتي إياهم وما بمكة عدوي يمنعي، ولكني أدلك على رجل هو أعز بها مني وأحب إليهم: عثمان بن عفان فبيعته فخيرهم أنه لم يأت بحرب، وإنما جاء زائراً لهذا البيت معظماً لحرمة، فوقروه وقالوا: إن شئت أن تطوف بالبيت فافعل، فقال: ما كنت لأطوف قبل أن يطوف رسول الله ﷺ واحتبس عندهم فأرجف بأنهم قتلوه، فقال رسول الله ﷺ: لا نبرح حتى نناجز القوم، ودعا الناس إلى البيعة فبايعوه تحت الشجرة وكانت سمرة. قال جابر بن عبد الله: لو كنت أبصر لأريتكم مكانها. وقيل: كان رسول الله ﷺ جالساً في أصل الشجرة وعلى ظهره غصن من أغصانها. قال عبد الله بن المغفل: وكنت قائماً على رأسه ويدي غصن من الشجرة أذب عنه. فرفعت الغصن عن ظهره، فبايعوه على الموت دونه، وعلى أن لا يفروا، فقال لهم رسول الله ﷺ: «أنتم اليوم خير أهل الأرض» وكان عدد المبايعين ألفاً وخمسمائة وخمسة وعشرين، وقيل: ألفاً وأربعمائة، وقيل: ألفاً وثلاثمائة (١٤٤٢) ﴿تَعْلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ﴾ من الإخلاص وصدق الضمائر فيما بايعوا عليه ﴿فَأَنزَلَ

١٤٤٢ - أخرجه أحمد في مسنده (٣٢٣/٤ - ٣٢٧ - ٣٢٨ - ٣٣١) من طرق مختلفة عن المسور بن مخزومة ومروان بن الحكم، فذكراه.

وأخرج الطبري في تفسيره (٣٤٧/١١) رقم (٣١٥١٤) عن ابن حميد عن سلمة عن محمد بن إسحاق قال: حدثني بعض أهل العلم أن رسول الله ﷺ - دعا خراش بن أمية الخزاعي، فبيعه إلى مكة... فذكره وأخرج الطبري في تفسيره (٣٤٧/١١ - ٣٤٨) رقم (٣١٥١٥) عن عكرمة مولى ابن عباس: «أن رسول الله ﷺ - دعا عمر بن الخطاب لبيعته إلى مكة فيبلغ عنه أشرف قريش ما جاء له... فذكره وأخرج الطبري في تفسيره كذلك (٣٤٨/١١) رقم (٣١٥١٦) عن محمد بن إسحاق قال: فحدثني عبد الله بن أبي بكر أن رسول الله ﷺ - حين بلغه أن عثمان قد قتل، قال: لا نبرح حتى نناجز القوم ودعا الناس إلى البيعة... فذكره.

وقوله: فبايعوه تحت الشجرة وكانت سمرة:

أخرجه مسلم (٥/٧ - النووي): كتاب الإمارة باب استحباب مبايعة الإمام الجيش عند إرادة القتال. =

(١) «جواس» الذي في أبي السعود وفي الشهاب: خراش، بالخاء والراء والشين، اهـ ملخصاً من هامش، وكذا في النسفي والخازن. (ع)

السَّكِينَةَ ﴿ أَيْ: الطَّمَأْنِينَةُ وَالْأَمْنُ بِسَبَبِ الصَّلْحِ عَلَى قُلُوبِهِمْ ﴾ وَأَنبَهُمْ فَتَنَحَّاهُمْ قَرِيبًا ﴿ وقرئ: «وَأَنَاهُمْ» وهو فتح خبير غب انصرافهم من مكة. وعن الحسن: فتح هجر، وهو أجل فتح: اتسعوا بشمرها زمانًا ﴿ مَعَانِدَ كَثِيرَةٍ تَأْخُذُونَهَا ﴾ هي مغنم خبير، وكانت أرضًا ذات عقار^(١) وأموال، فقسمها - رسول الله صلى الله تعالى عليه وآله وسلم - عليهم، ثم أتاه

= وبيان بيعة الرضوان تحت الشجرة، حديث (٦٧/٧ - ٦٨ - ٦٩ - ١٨٥٦/٧٠) عن أبي الزبير عن جابر أنه سئل: كم كانوا يوم الحديبية؟ قال: كنا أربع عشرة مائة فبايعناه وعمر أخذ بيده تحت الشجرة وهي سمره.

وقول جابر لو كنت أبصر لأريتكم مكانها:

أخرجه البخاري (٢١١/٨): كتاب المغازي: باب غزوة الحديبية، حديث (٤١٥٤)، ومسلم (٦/٧ - النووي): كتاب الإمارة: باب استحباب مبايعة الإمام الجيش عند إرادة القتال، حديث (٧١/١٨٥٦). كلاهما من طريق عمرو عن جابر - رضي الله عنه به.

وحديث عبد الله بن المغفل:

أخرجه النسائي في «السنن الكبرى»: (٤٦٥/٦) كتاب التفسير: سورة الفتح: قوله تعالى: ﴿وهو الذي كف أيديهم عنكم وأيديكم عنهم﴾ حديث (٢/١١٥١٠).

وقوله عليه السلام: «أنتم اليوم خير أهل الأرض» تقدم قريبًا.

وأما عدد المبايعين: ففيه ثلاث روايات كما ذكر المصنف:

فالرواية الأولى:

أخرجها البخاري (٢١١/٨): كتاب المغازي: باب غزوة الحديبية، حديث (٤١٥٣)، ومسلم (٦ - النووي): كتاب الإمارة: باب استحباب مبايعة الإمام الجيش، حديث (٧٢/١٨٥٦) والرواية الثانية: أخرجها في الصحيحين عن عمرو بن مرة عن جابر قال: كنا يوم الحديبية . . . وقد تقدم قريبًا بتمامه.

والرواية الثالثة: أخرجها البخاري (٢١١/٨): كتاب المغازي: باب غزوة الحديبية، حديث (٤١٥٥)، ومسلم (٧/٧ - النووي): كتاب الإمارة: باب استحباب مبايعة الإمام الجيش، حديث (٧٥/١٨٥٧) عن عمرو عن عبد الله بن أبي أوفى به.

وقال الحافظ ابن حجر: أما الأولى فمتفق عليها من حديث سالم بن أبي الجعد عن جابر، دون قوله: «وخمسة وعشرين» وأما الثانية ففي رواية عمرو بن مرة عن جابر في الصحيحين، وفي رواية أبي الزبير عنه ومسلم وعندهما عن قتادة: قلت لسعيد بن المسيب: «كم كان عدد الذين شهدوا بيعة الرضوان؟ قال: خمس عشرة مائة قال: قلت: فإن جابرًا قال: كانوا أربع عشرة مائة قال: رحمه الله لقد وهم، هو والله حدثني أنهم كانوا خمس عشرة مائة» قال البيهقي في الدلائل: كأن جابرًا رجع عن رواية خمس عشرة. إلى ألف وأربعمائة؛ وكذلك قال البراء ومعاقل بن يسار، وسلمة بن الأكوع. انتهى. والرواية الثالثة في الصحيحين من رواية عمرو بن مرة عن عبد الله بن أبي أوفى، قال: «كان أصحاب الشجرة ألفًا وثلثمائة وكان من أسلم من المهاجرين. قلت: والرواية التي فيها ألفا وخمسمائة وخمسة وعشرين، أخرجها ابن مردويه في تفسيره من حديث ابن عباس موقوفًا، وفي عددهم أقوال غير هذه بسطتها في شرح البخاري. انتهى.

(١) قوله: «ذات عقار» في الصحاح «العقار» بالفتح: الأرض والضياع والنخل. (ع)

عثمان بالصلح فصالحهم وانصرف بعد أن نحر بالحديبية وحلق .

﴿وَعَدَكُمْ اللَّهُ مَغَانِمَ كَثِيرَةً تَأْخُذُونَهَا فَعَجَّلَ لَكُمْ هَذِهِ، وَكَفَّ أَيْدِيَ النَّاسِ عَنْكُمْ وَلِتَكُونَ آيَةً لِلْمُؤْمِنِينَ وَيَهْدِيَكُمْ صِرَاطًا مُسْتَقِيمًا﴾ (٢١)

﴿وَعَدَكُمْ اللَّهُ مَغَانِمَ كَثِيرَةً﴾ وهي ما يفيء على المؤمنين إلى يوم القيامة ﴿فَعَجَّلَ لَكُمْ هَذِهِ﴾ المغانم يعني مغانم خيبر ﴿وَكَفَّ أَيْدِيَ النَّاسِ عَنْكُمْ﴾ يعني أيدي أهل خيبر وحلفائهم من أسد وغطفان حين جاءوا لنصرتهم، فقدف الله في قلوبهم الرعب فنكصوا . وقيل : أيدي أهل مكة بالصلح ﴿وَلِتَكُونَ﴾ هذه الكفة ﴿آيَةً لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ وعبرة يعرفون بها أنهم من الله تعالى بمكان، وأنه ضامن نصرهم والفتح عليهم . وقيل : رأى رسول الله ﷺ فتح مكة في منامه، ورؤيا الأنبياء صلوات الله عليهم وحي، فتأخر ذلك إلى السنة القابلة، فجعل فتح خيبر علامة وعنوانا لفتح مكة ﴿وَيَهْدِيَكُمْ صِرَاطًا مُسْتَقِيمًا﴾ ويزيدكم بصيرة و يقينًا، وثقة بفضل الله .

﴿وَأُخْرَى لَمْ تَقْدِرُوا عَلَيْهَا قَدْ أَحَاطَ اللَّهُ بِهَا وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرًا﴾ (٢١)

﴿وَأُخْرَى﴾ معطوفة على هذه، أي : فعجل لكم هذه المغانم ومغانم أخرى ﴿لَمْ تَقْدِرُوا عَلَيْهَا﴾ وهي مغانم هوازن في غزوة حنين، وقال : لم تقدرُوا عليها لما كان فيها من الجولة ﴿قَدْ أَحَاطَ اللَّهُ بِهَا﴾ أي قدر عليها واستولى وأظهركم عليها وغنمكموها . ويجوز في ﴿وَأُخْرَى﴾ النصب بفعل مضمر، يفسره ﴿قَدْ أَحَاطَ اللَّهُ ٢/١٨٦ بِهَا﴾ تقديره : وقضى الله أخرى قد أحاط بها . وأما ﴿لَمْ تَقْدِرُوا عَلَيْهَا﴾ فصفة لأخرى، والرفع على الابتداء لكونها موصوفة بلم تقدرُوا، وقد أحاط بها : خبر المبتدأ، والجر بإضمار رُب . فإن قلت : قوله تعالى : ﴿وَلِتَكُونَ آيَةً لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الفتح : ٢٠] كيف موقعه؟ قلت : هو كلام معترض . ومعناه : ولتكون الكفة آية للمؤمنين فعل ذلك . ويجوز أن يكون المعنى : وعدكم المغانم، فعجل هذه الغنيمة وكف الأعداء لينفعكم بها، ولتكون آية للمؤمنين إذا وجدوا وعد الله بها صادقًا، لأن صدق الإخبار عن الغيوب معجزة وآية، ويزيدكم بذلك هداية وإيقانًا .

﴿وَلَوْ قَتَلَكُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوَلَّوْا الْأَدْبَارَ ثُمَّ لَا يَجِدُونَ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا﴾ (٢٢) سُنَّةَ اللَّهِ أَلَّتِي قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلُ وَلَنْ يَجْعَلَ اللَّهُ بُدِيلًا (٢٣)

﴿وَلَوْ قَتَلَكُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ من أهل مكة ولم يصلحوا . وقيل : من حلفاء أهل خيبر لغلبوا وانهزموا ﴿سُنَّةَ اللَّهِ﴾ في موضع المصدر المؤكد، أي : سن الله غلبة أنبيائه سنة، وهو قوله تعالى : ﴿لَا غَلِبَتْ أَنَا وَرُسُلِي﴾ [المجادلة : ٢١] .

﴿وَهُوَ الَّذِي كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنْكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ عَنْهُمْ بِطَّنِ مَكَّةَ مِنْ بَعْدِ أَنْ أَظْفَرَكُمْ عَلَيْهِمْ وَكَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا﴾ (٢٤)

﴿أَيْدِيَهُمْ﴾ أيدي أهل مكة، أي: قضى بينهم وبينكم المكافاة والمحاجزة بعد ما خولكم الظفر عليهم والغلبة، وذلك يوم الفتح. وبه استشهد أبو حنيفة رحمه الله، على أن مكة فتحت عنوة لا صلحاً. وقيل: كان ذلك في غزوة الحديبية لما روي أن عكرمة بن أبي جهل خرج في خمسمائة، فبعث رسول الله ﷺ من هزمه وأدخله حيطان مكة (١٤٤٣). وعن ابن عباس رضي الله عنه: أظهر الله المسلمين عليهم بالحجارة حتى أدخلوهم البيوت. وقرئ: «تعملون» بالتاء والياء.

﴿هُمْ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوكُمْ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَالْهَدْيِ مَعْكُوفًا أَنْ يَبْلُغَ حِلْمُكُمْ وَلَوْلَا رِجَالٌ مُؤْمِنُونَ وَنِسَاءٌ مُؤْمِنَاتٌ لَمْ تَعْلَمُوهُمْ أَنْ تَطَّوَّهُمْ فِتْصِيكُم مِّنْهُمْ مَّعَرَةٌ بِغَيْرِ عِلْمٍ لِّدُخْلِ اللَّهِ فِي رَحْمَتِهِ مَنْ يَشَاءُ لَوْ تَزَيَّلُوا لَعَذَابُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾ (٢٥)

وقرئ: «والهدي» «والهدي» بتخفيف الياء وتشديدها، وهو ما يهدي إلى الكعبة: بالنصب عطفًا على الضمير المنصوب في صدوكم. أي: صدوكم وصدوا الهدي وبالجر عطفًا على المسجد الحرام، بمعنى: وصدوكم عن نحر الهدي ﴿مَعْكُوفًا أَنْ يَبْلُغَ حِلْمُكُمْ﴾ محبوسًا عن أن يباع، وبالرفع على: وصد الهدي. ومحله: مكانه الذي يحل فيه نحره،

١٤٤٣ - أخرجه الطبري في تفسيره: (٣٥٦/١١) رقم (٣١٥٦٠) من طريق ابن حميد عن يعقوب القمي عن جعفر عن ابن أبيزى قال: لما خرج النبي ﷺ - بالهدي ... إلى آخره. وذكره السيوطي في «الدر المنثور»: (٧٥/٦) وزاد نسبه إلى ابن المنذر وابن أبي حاتم عن ابن أبيزى. قال الحافظ ابن حجر:

أخرجه الطبري عن شيخه محمد بن حميد عن يعقوب القمي عن جعفر هو ابن أبي المغيرة عن ابن أبيزى: قال «لما خرج النبي ﷺ - بالهدي وانتهى إلى ذي الحليفة: قال له نمر: يا نبي الله، تدخل على حرب قوم حرب لك بغير سلاح ولا كراع؟ قال: فبعث إلى المدينة فلم يدع فيها كراعًا ولا سلاحًا إلا حملة، فلما دنا من مكة منعه أن يدخل فسار حتى أتى منى فنزل بها. فأتاه عتبة بن عكرمة بن أبي جهل، قد خرج عليه في خمسمائة. فقال لخالد بن الوليد: يا خالد، هذا ابن عمك قد أتاك في الخيل. فقال خالد: أنا سيف الله ورسوله فيومئذ سمي سيف الله، يا رسول الله ارم بي أين شئت، فبعثه على خيل، فلقي عكرمة في الشعب، فهزمه. حتى أدخله حيطان مكة - الحديث» وأخرجه ابن أبي حاتم من هذا الوجه وفي صحته نظر؛ لأن خالد لم يكن أسلم في الحديبية وظاهر السياق أن هذه القصة كانت في الحديبية. فلو كانت في عمرة القضية لأمكن. مع أن المشهور أنهم فيها لم يمانعوه ولم يقاتلوه. انتهى.

أي يجب. وهذا دليل لأبي حنيفة على أن المحصر محل هديه الحرم. فإن قلت: فكيف حل رسول الله ﷺ ومن معه وإنما نحر هديهم بالحديبية؟ قلت: بعض الحديبية من الحرم (١٤٤٤). وروي أن مضارب رسول الله ﷺ كانت في الحل، ومضلاه في الحرم (١٤٤٥). فإن قلت: فإذا نحر في الحرم، فلم قيل: ﴿مَعْكُوفًا أَنْ يَبْلُغَ حِلَّهُ﴾؟ قلت: المراد المحل المعهود وهو منى ﴿لَنْ تَعْلَمُوهُمْ﴾ صفة للرجال والنساء جميعاً. ﴿وَأَنْ تَطَّوَّهُمْ﴾ بدل اشتغال منهم أو من الضمير المنصوب في تعلموهم. والمعرة: مفعلة، من عره بمعنى عراه إذا دهاه^(١) ما يكره ويشق عليه. و﴿يَغْيِرَ عِلْمَهُ﴾ متعلق بأن تطوهم، يعني: أن تطوهم غير عالمين بهم. والوطء والدوس: عبارة عن الإيقاع والإبادة. قال [من الكامل]:

وَوَطَّئْتَنَا وَطْأً عَلَى حَنْقٍ وَطْأً الْمُقَيَّدِ نَابِتِ الْهَرَمِ^(٢)

١٤٤٤ - أخرجه البخاري (٦٤٤/٥ - ٦٤٥): كتاب الصلح باب الصلح مع المشركين، حديث (٢٧٠١) من حديث نافع عن ابن عمر رضي الله عنهما: أن رسول الله - ﷺ - خرج معتمراً، فحال كفار قريش بينه وبين البيت... إلى آخره، أ.هـ. وقال الحافظ ابن حجر:

أخرجه البخاري من حديث ابن عمر قال: «خرج رسول الله - ﷺ - معتمراً فحال كفار قريش بينه وبين البيت، فنحر هديه وحلق رأسه بالحديبية» وفيه من رواية المسور ومروان: «أنه - ﷺ - قال لأصحابه: قوموا فانحروا ثم احلقوا» قال البخاري: والحديبية خارج الحرم. انتهى.

١٤٤٥ - أخرجه أحمد في مسنده (٣٢٣/٤) من حديث الفتح: عن يزيد بن هارون عن محمد بن إسحاق ابن يسار عن الزهري عن عروة بن الزبير عن المسور بن مخرمة ومروان بن الحكم قالوا: خرج رسول الله - ﷺ - عام الحديبية... فذكره بطوله وفيه: وكان رسول الله - ﷺ - يصلي وهو مضطرب في الحل. أ.هـ.

وقال الحافظ ابن حجر: أخرجه أحمد من رواية المسور ومروان، في أثناء الحديث الطويل، قال: «وكان رسول الله - ﷺ - يصلي في الحرم، وهو مضطرب في الحل».

(١) قوله: «بمعنى عراه إذا دهاه» عبارة الصحاح بلفظها: هو يعر قومه: أي يدخل عليهم مكروهاً يلطخهم به. والمعرة: الإثم. (ع)

(٢) ووطئتنا وطْأً على حنقٍ وطْأً المقيد نابت الهرم

وتركتنا لحمًا على وضم لو كنت تستبقي من اللحم
لحرث بن ولة الدهلي. والوطء: وضع القدم فوق الشيء بشدة. وهو كناية عن الإهلال. والحنق كسبب: الحقد والغيط. والهرم - بالسكون -: ضرب من الحمض ترعاه الإبل، ويعبر هارم: يرعى الهرم. يقول: أتيتنا مرتفعاً علينا بقوتك وشدة بطشك كوطء الجمل المقيد للهرم، النابت: أي الحديث النبات. ويروى: يابس الهرم فيهلكه لعظمه وقوته، مع رطوبة ذلك النبات وضعفه، أو مع يسه فيتفتت، فجعله مقيداً لتكون بطشته قوية؛ حيث يرفع رجله معاً ويضربها عند الوثوب. أو جعله مقيداً؛ لأن الذليل إذا قدر لا يعفو. والوظم: خوان الجزار الذي يقطع عليه اللحم. و«لو» شرطية. جوابها دل عليه قوله: «تركتنا» أي: على فرض أنك تركت هنا بقية تركتنا كهذا اللحم الذي =

وقال رسول الله ﷺ: «وإن آخر وطأة وطئها الله بوج» (١٤٤٦) والمعنى: أنه كان بمكة قوم من المسلمين مختلطون بالمشركين غير متميزين منهم ولا معروفين الأماكن: ف قيل: ولولا كراهة أن تهلكوا ناساً مؤمنين بين ظهرائي المشركين وأنتم غير عارفين بهم، فتصيبكم بإهلاكهم مكروه ومشقة: لما كف أيديكم عنهم، وحذف جواب «لولا» لدلالة الكلام عليه^(١). ويجوز أن يكون ﴿لَوْ تَزَيَّلُوا﴾ كالتكرير للولا رجال مؤمنون، لمرجعهما إلى معنى واحد، ويكون ﴿لَعَذَّبْنَا﴾ هو الجواب. فإن قلت: أي معرة تصيبهم إذا قتلوهم وهم لا يعلمون. قلت: يصيبهم وجوب الدية والكفارة، وسوء حالة المشركين أنهم فعلوا بأهل دينهم مثل ما فعلوا بنا من غير تمييز، والمأثم إذا جرى منهم بعض التقصير. فإن قلت: قوله تعالى: ﴿لِيَدْخُلَ اللَّهُ فِي رَحْمَتِهِ مَن يَشَاءُ﴾ تعليل لماذا؟ قلت: لما دلت عليه الآية وسيقت له: من كف الأيدي عن أهل مكة، والمنع من قتلهم؛ صوناً لمن بين أظهرهم من المؤمنين، كأنه قال: كان الكف ومنع التعذيب ليدخل الله في رحمته؛ أي: في توفيقه لزيادة الخير والطاعة مؤمنينهم. أو ليدخل في الإسلام من رغب فيه من مشركيهم ﴿لَوْ تَزَيَّلُوا﴾ لو تفرقوا وتميز بعضهم من بعض: من زاله يزيله. وقرئ: «لو تزيلاوا».

﴿إِذْ جَعَلَ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْحَمِيَّةَ الْحَمِيَّةَ فَأَنزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَى رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَأَلْزَمَهُمْ كَلِمَةَ التَّقْوَى وَكَانُوا أَحَقَّ بِهَا وَأَهْلَهَا وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا﴾

﴿إِذْ﴾ يجوز أن يعمل فيه ما قبله. أي: لعذبناهم أو صدوهم عن المسجد الحرام / ٢ / ١٨٦ ب في ذلك الوقت، وأن ينتصب بإضمار اذكر. والمراد بحمية الذين كفروا وسكينة

١٤٤٦ - تقدم في آخر سورة براءة.

= يهياً للأكل. وفي التعبير بلو: دلالة على أنه لم يستبق منهم.

البيت لزهير بن أبي سلمى في لسان العرب (هرم)، وتهذيب اللغة ٢٩٦/٦، وتاج العروس (هرم)، وليس في ديوانه، وللحارث بن وعل في أمالي القالي ٢٦٣/١، وشرح القصائد السبع الطوال ص ٥٤٩، وشرح ديوان الحماسة للرمزوقي في ص ٢٠٦. وراجع قافية «نابت الهرم».

(١) قال محمود: «يجوز أن يكون جواب لولا محذوفاً... الخ» قال أحمد: وإنما كان مرجعها ههنا واحداً وإن كانت لولا تدل على امتناع لوجود. و«لو» تدل على امتناع لامتناع، وبين هذين تناف ظاهراً؛ لأن لولا ههنا دخلت على وجود، ولو دخلت على قوله: (تزيلاوا) وهو راجع إلى عدم وجودهم وامتناع عدم الوجود وجود، فالأولى إلى أمر واحد من هذا الوجه. وكان جدي رحمه الله يختار هذا الوجه الثاني ويسميه نظرية، وأكثر ما تكون إذا تطاول الكلام وبعد عهد أوله واحتيج إلى رد الآخر على الأول، فمرة يطرى بلفظه، ومرة بلفظ آخر يؤدي موداه. وقد تقدمت لها أمثال، والله أعلم. وهو الموفق.

المؤمنين - والحمية الأنفة والسكينة والوقار - ما روي أَنَّ رسول الله ﷺ لما نزل بالحديبية بعثت قريش سهيل بن عمرو القرشي وحويطب بن عبد العزى ومكرز بن حفص بن الأخيف، على أن يعرضوا على النبي ﷺ أن يرجع من عامه ذلك على أن تخلي له قريش مكة من العام القابل ثلاثة أيام، ففعل ذلك، وكتبوا بينهم كتاباً، فقال عليه الصلاة والسلام لعلي رضي الله عنه: «اكتب بسم الله الرحمن الرحيم»، فقال سهيل وأصحابه: ما نعرف هذا، ولكن اكتب: باسمك اللهم، ثم قال: «اكتب هذا ما صالح عليه رسول الله ﷺ أهل مكة» فقالوا: لو كنا نعلم أنك رسول الله ما صدناك عن البيت ولا قاتلناك، ولكن اكتب: هذا ما صالح عليه محمد بن عبد الله أهل مكة، فقال عليه الصلاة والسلام: «اكتب ما يريدون، فأنا أشهد أنني رسول الله وأنا محمد بن عبد الله» (١٤٤٧) فهم المسلمون أن يأبوا ذلك ويشمئزوا منه، فأنزل الله على رسوله السكينة فتوقروا وحلموا. ﴿كَلِمَةً التَّقْوَى﴾ بسم الله الرحمن الرحيم ومحمد رسول الله: قد اختارها الله لنبيه وللذين معه أهل الخير ومستحقه ومن هم أولى بالهداية من غيرهم. وقيل: هي كلمة الشهادة. وعن الحسن رضي الله عنه: كلمة التقوى هي الوفاء بالعهد. ومعنى إضافتها إلى التقوى: أنها سبب التقوى وأساسها. وقيل: كلمة أهل التقوى. وفي مصحف الحرث بن سويد صاحب عبد الله: «وكانوا أهلها وأحق بها»، وهو الذي دفن مصحفه أيام الحجاج.

﴿لَقَدْ صَدَقَ اللَّهُ رَسُولَهُ الرُّؤْيَا بِالْحَقِّ لَتَدْخُلَنَّ الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ إِنْ شَاءَ اللَّهُ ءَامِنِينَ مُحَلِّقِينَ رُءُوسَكُمْ وَمُقَصِّرِينَ لَا تَخَافُونَ فَعَلِمَ مَا لَمْ تَعْلَمُوا فَجَعَلَ مِنْ دُونِ ذَلِكَ فَتْحًا قَرِيبًا﴾ (٢٧)

رأى رسول الله ﷺ قبل خروجه إلى الحديبية كأنه وأصحابه قد دخلوا مكة آمين وقد حلّقوا وقصّروا، فقَصَّ الرؤيا على أصحابه، ففرحوا واستبشروا وحسبوا أنهم داخلوها في

١٤٤٧ - أخرجه البيهقي في «دلائل النبوة» (٩٩/٤ - ١٠٨) عن عروة بن الزبير وأخرجه النسائي في «تفسيره» (٣١٢/٢ - ٣١٣) رقم (٥٣٠) من طريق ثابت البناني عن عبد الله بن المغفل بنحوه، ومن طريق ثابت أخرجه. أحمد (٨٦/٤ - ٨٧)، والحاكم (٤٦٠/٢ - ٤٦١)، والطبري في «تفسيره» (٥٨/٢٦ - ٥٩)، والبيهقي في سننه (٣١٩/٦)، وقال الحاكم: صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه. ووافقه الذهبي. وصحح إسناده الحافظ في «الفتح» (٣٥١/٥) وقال الحافظ ابن حجر في تخريج أحاديث الكشاف: أخرجه البيهقي في الدلائل من رواية عروة في قصة الحديبية. وفيه ثم بعثت قريش سهيل بن عمرو... إلخ مطولاً، والقصة في الصحيح من رواية البراء بن عازب، ومن رواية مروان والمصور. وفي النسائي مختصرة من رواية ثابت البناني عن عبد الله بن مغفل. انتهى.

عامهم، وقالوا: إن رؤيا رسول الله ﷺ حق، فلما تأخر ذلك قال عبد الله بن أبي عبد الله بن نفيل ورفاعة بن الحرث: والله ما حلقنا ولا قصرنا ولا رأينا المسجد الحرام، فنزلت (١٤٤٨). ومعنى: ﴿صَدَقَ اللَّهُ رَسُولُهُ الرُّؤْيَا﴾ صدقه في رؤياه ولم يكذبه - تعالى الله عن الكذب وعن كل قبيح علواً كبيراً - فحذف الجار وأوصل الفعل، كقوله تعالى: ﴿صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ﴾ [الأحزاب: ٢٣]. فإن قلت: بم تعلق ﴿يَا لِحَقِّ﴾؟ قلت: إما بصدق، أي: صدقه فيما رأى، وفي كونه وحصوله صدقاً ملتبساً بالحق: أي بالغرض الصحيح والحكمة البالغة، وذلك ما فيه من الابتلاء والتمييز بين المؤمن المخلص، وبين من في قلبه مرض، ويجوز أن يتعلق بالرؤيا حالاً منها أي: صدقه الرؤيا ملتبساً^(١) بالحق، على معنى أنها لم تكن من أضغاث الأحلام. ويجوز أن يكون ﴿يَا لِحَقِّ﴾ قسمًا: إما بالحق الذي هو نقيض الباطل. أو بالحق الذي هو من أسمائه. و﴿لَتَدْخُلَنَّ﴾ جوابه. وعلى الأول هو جواب قسم محذوف. فإن قلت: ما وجه دخول ﴿إِنْ شَاءَ اللَّهُ﴾ في أخبار الله عز وجل؟ قلت: فيه وجه: أن يعلق عدته بالمشيئة تعليمًا لعباده أن يقولوا في عداتهم مثل ذلك، متأذين بأدب الله، ومقتدين بسنته. وأن يريد: لتدخلن جميعاً إن شاء الله ولم يمت منكم أحداً، أو كان ذلك على لسان ملك، (فأدخل الملك إن شاء الله)^(٢). أو هي حكاية ما قال رسول الله ﷺ لأصحابه وقص عليهم. وقيل: هو متعلق بآمنين ﴿فَعَلِمَ مَا لَمْ يَلْمُؤُوا﴾ من الحكمة والصواب في تأخير فتح مكة إلى العام القابل ﴿فَعَمَلٌ مِنْ دُونِ ذَلِكَ﴾ أي من دون فتح مكة ﴿فَتَحًا قَرِيبًا﴾ وهو فتح خيبر، لتستروح إليه قلوب المؤمنين إلى أن يتيسر الفتح الموعود.

١٤٤٨ - أخرجه البيهقي في «دلائل النبوة» كما في «تخريج الكشاف» للزيلعي (٣/٣١٦) وأخرجه الطبري (١١/٣٦٧) عن مجاهد، وأخرجه الطبري في «تفسيره» (١١/٣٦٧) رقم (٣١٦٠٤) عن عبد الرحمن بن زيد بن أسلم به. وقال الحافظ ابن حجر:

لم أجد هكذا مفسراً، وروى الطبري من رواية عبد الرحمن بن زيد بن أسلم في قوله: (لقد صدق الله رسوله الرؤيا بالحق) - الآية فقال لهم النبي - ﷺ -: «إني قد رأيت أنكم ستدخلون المسجد الحرام محلقي رؤوسكم ومقصرين. فلما ترك الحديبية ولم يدخل ذلك العام طعن المنافقون في ذلك، فقالوا: أين رؤياه، فقال الله: (لقد صدق الله رسوله الرؤيا) - الآي: وروى الطبري من طريق ابن أبي نجيع عن مجاهد قال: «أرى رسول الله - ﷺ - وهو بالحديبية أنه يدخل في أهل مكة هو وأصحابه محلقين فلما نحر الهدي وهو بالحديبية قال أصحابه: أين رؤياك يا رسول الله؟ فنزلت، وبه قال وقوله: (فجعل من دون ذلك فتحاً قريباً) قال: النحر بالحديبية. فرجعوا ففتحوا خيبراً. وقال: ثم اعتمر بعد ذلك فكان تصديق رؤياه في السنة المقبلة». انتهى.

(١) قوله: «أي «صدقه الرؤيا» ملتبساً» لعله: ملتبساً. (ع)

(٢) هذا الكلام لا يصح، انظر التعليق عليه في ص ١١ من الجزء الأول.

﴿هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَىٰ وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ

شَهِيدًا﴾ (٢٨)

﴿بِالْهُدَىٰ وَدِينِ الْحَقِّ﴾ بدين الإسلام ﴿لِيُظْهِرَهُ﴾ ليعليه ﴿عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ﴾ على جنس الدين كله، يريد: الأديان المختلفة من أديان المشركين والجاحدين من أهل الكتاب: ولقد حقق ذلك سبحانه، فإنك لا ترى ديناً قط إلا وللإسلام دونه العز والغلبة. وقيل: هو عند نزول عيسى حين لا يبقى على وجه الأرض كافر. وقيل: هو إظهاره بالحجج والآيات. وفي هذه الآية تأكيد لما وعد من الفتح وتوطين لنفوس المؤمنين على أن الله تعالى سيفتح لهم من البلاد ويقض لهم من الغلبة على الأقاليم ما يستقلون إليه من فتح مكة ﴿وَكَفَىٰ بِاللَّهِ شَهِيدًا﴾ على أن ما وعده كائن. وعن الحسن رضي الله عنه: شهد على نفسه أنه سيظهر دينك^(١).

﴿مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ تَرَاهُمْ رُكْعًا سَجِدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِمْ مِنْ أَثَرِ السُّجُودِ ذَلِكَ مَثَلُهُمْ فِي التَّوْرَةِ وَمَثَلُهُمْ فِي الْإِنْجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْطَهُمْ فَازَرَؤُهُ فَاسْتَخْلَفَ فَاِستَوَىٰ عَلَىٰ سُوقِهِ يُعْجِبُ الزُّرَّاعَ لِيُغَيِّظَ بِهِمُ الْكُفَّارَ وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنْهُمْ مَغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا﴾ (٢٩)

﴿مُحَمَّدٌ﴾ إما خبر مبتدأ، أي: هو محمد لتقدم قوله ١٨٧/٢ تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ﴾ [الفتح: ٢٨] وإما مبتدأ، ورسول الله: عطف بيان. وعن ابن عامر أنه قرأ: رسول الله، بالنصب على المدح ﴿وَالَّذِينَ مَعَهُ﴾ أصحابه ﴿أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ﴾ جمع شديد ورحيم. ونحوه ﴿أَذَلَّةٌ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٌ عَلَى الْكَافِرِينَ﴾ [المائدة: ٥٤]، ﴿وَأَغْلَطَ عَلَيْهِمْ﴾ [التوبة: ٧٣]، ﴿بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ﴾ [التوبة: ١٢٨] وعن الحسن رضي الله عنه: بلغ من تشددهم على الكفار: أنهم كانوا يتحرزون من ثيابهم أن تلتق بثيابهم، ومن أبدانهم أن تمس أبدانهم؛ وبلغ من ترحمهم فيما بينهم أنه كان لا يرى مؤمن مؤمناً إلا صافحه وعانقه، والمصافحة لم تختلف فيها الفقهاء. وأما المعانقة فقد كرهها أبو حنيفة رحمه الله، وكذلك التقبيل. قال لا أحب أن يقبل الرجل من الرجل وجهه ولا يده ولا شيئاً من جسده. وقد رخص أبو يوسف في المعانقة. ومن حق المسلمين في كل زمان أن يراعوا هذا التشدد وهذا التعطف: فيتشددوا على من ليس على ملتهم ودينهم ويتحاموه، ويعاشروا إخوتهم في الإسلام متعطفين بالبر والصلة. وكف الأذى. والمعونة، والاحتمال،

(١) قوله: «إنه سيظهر دينك» لعله: دينه، كعبارة النسفي. (ع)

والأخلاق السجيحة^(١) ووجه من قرأ: «أشداء، ورحماء» بالنصب -: أن ينصبهما على المدح، أو على الحال بالمقدّر في ﴿مَعَهُ﴾، ويجعل ﴿تَرَبُّهُمْ﴾ الخبر ﴿سَيِّمَاهُمْ﴾ علامتهم. وقرئ: «سيماؤهم» وفيها ثلاث لغات: هاتان. والسيما، والمراد بها السمة التي تحدث في جبهة السجّاد من كثرة السجود، وقوله تعالى: ﴿مِنْ أَثَرِ السُّجُودِ﴾ يفسرها، أي: من التأثير الذي يؤثره السجود، وكان كل من العليين: عليّ بن الحسين زين العابدين، وعليّ بن عبد الله بن عباس أبي الأملّك، يقال له: ذو الشفّات؛ لأنّ كثرة سجودهما أحدثت في مواقعه منهما أشباه ثفّات^(٢) البعير. وقرئ: «من أثر السجود» و«من آثار السجود»، وكذا عن سعيد بن جبّير: هي السمة في الوجه. فإن قلت: فقد جاء عن النبي ﷺ: «لا تعلبوا»^(٣) صوركهم^(٤) (١٤٤٩)، وعن ابن عمر رضي الله عنه أنه رأى رجلاً قد أثر في وجهه السجود فقال: إن صورة وجهك أنفك، فلا تلعب وجهك، ولا تشن صورتك (١٤٥٠). قلت: ذلك إذا اعتمد بجبهته على الأرض لتحدث فيه تلك السمة. وذلك رياء ونفاق يستعاذ بالله منه، ونحن فيما حدث في جبهة السجّاد الذي لا يسجد إلا خالصاً لوجه الله تعالى. وعن بعض المتقدّمين: كنا نصلي فلا يرى بين أعيننا شيء، ونرى

١٤٤٩ - بيض له الزيلعي في «تخريجه» (٣/٣١٧)، وقال ابن حجر: لم أجده مرفوعاً وهو في الذي بعده موقوف. انتهى.

وقال الحافظ ابن حجر: لم أجده مرفوعاً وهو في الذي بعده. موقوف. انتهى.

١٤٥٠ - أخرجه عبد الرزاق (٢/١٧٣ - ١٧٤) رقم (٢٩٤١) من طريق الثوري عن الأعمش عن حبيب عن أبي الشعثاء عن ابن عمر أنه... فذكره.

وفي تخريج الزيلعي (٣/٣١٧): ورواه إبراهيم الحربي في كتابه غريب الحديث: ثنا أحمد بن جعفر ثنا أبو معاوية عن الأعمش عن حبيب عن عطاء عن ابن عمر أنه رأى رجلاً قد أثر السجود في وجهه فقال: لا تلعب صورتك. انتهى.

وقال الحافظ ابن حجر:

أخرجه عبد الرزاق عن الثوري، عن الأعمش، عن حبيب، عن أبي الشعثاء، عن ابن عمر: أنه رأى رجلاً ينتحز إذا سجد فقال: لا تقلب صورتك، يقول لا تؤثرها، قلت: ما تقلب صورتك؟ قال: لا تغير لا تشن، ورواه إبراهيم الحربي من رواية أبي معاوية، عن الأعمش، عن حبيب، عن عطاء، عن عمر: «أنه رأى رجلاً قد أثر السجود بوجهه فقال: لا تقلب صورتك. ثم قال: قلبت الشيء إذا أثرت به. انتهى.

(١) قوله: «والأخلاق السجيحة» أي السهلة. أفاده الصحاح. (ع)

(٢) قوله: «ثفّات البعير» في الصحاح: هي ما يقع على الأرض من أعضائه إذا استناخ. (ع)

(٣) قوله: «لا تعلبوا صوركهم» في الصحاح: علبته أعليه - بالضم -: إذا وسمته أو خدشته، أو أثرت فيه. (ع)

أحدنا الآن يصلي فيرى بين عينيه ركبة البعير، فما ندري أثقلت الرأس أم خشنت الأرض وإنما أراد بذلك من تعمد ذلك للنفاق. وقيل: هو صفرة الوجه من خشية الله. وعن الضحاك: ليس بالندب^(١) في الوجوه، ولكنه صفرة. وعن سعيد بن المسيب: ندى الطهور وتراب الأرض. وعن عطاء رحمه الله: استنارت وجوههم من طول ما صلوا بالليل، كقوله: «من كثرت صلاته بالليل حسن وجهه بالنهار» (١٤٥١) ﴿ذَلِكَ﴾ الوصف ﴿مَثَلُهُمْ﴾

١٤٥١ - أخرجه ابن ماجه (٤٢٢/١) كتاب الصلاة باب ما جاء في قيام الليل حديث (١٣٣٣) وابن عدي في «الكامل» (٥٢٦/٢) والعقيلي (١٧٦/١) والقضاعي في «مسند الشهاب» (٤٠٨، ٤٠٩)، والخطيب في «تاريخ بغداد» (٣٤١/١، ١٢٦/١٣) وابن حبان (٢٠٧/١) وابن الجوزي في «الموضوعات» (١٠٩/٢ - ١١١) كلهم من طريق ثابت بن موسى الضرير عن شريك عن الأعمش عن أبي سفيان عن جابر عن النبي - ﷺ - . وقال العقيلي: هذا حديث باطل ليس له أصل. وثابت ابن موسى الضرير.

قال ابن حبان: كان يخطئ كثيرًا لا يجوز الاحتجاج بخبره إذا انفرد، وهو الذي روى عن شريك وذكر القصة، ثم قال: وذكر هذا من ثابت جماعة من الضعفاء.

وقال ابن عدي: وبلغني عن محمد بن عبد الله بن نمير أنه ذكره [هذا] الحديث عن ثابت فقال: باطل وكان شريك مزاحًا وكان ثابت رجلًا صالحًا فشبه أن يكون ثابت دخل على شريك وهو يقول حدثنا الأعمش عن أبي سفيان عن جابر عن النبي - ﷺ - فالتفت فرأى ثابتًا فقال يمازحه: من كثرت صلاته بالليل حسن وجهه بالنهار، فظن ثابت أن هذا الكلام هو متن الإسناد الذي قرأه فحملة على ذلك، وإنما هو قول شريك أ.هـ. وذكره ابن الجوزي في الموضوعات ونقل كلام ابن عدي وأقره. وللحديث شاهد من حديث أنس.

أخرجه ابن الجوزي في «الموضوعات» (١١١/٢) من طريق حكامه بنت عثمان بن دينار قال: حدثني أبي عن أخيه مالك بن دينار عن أنس مرفوعًا وقال: هذا حديث لا يصح عن رسول الله - ﷺ - وهذا السند فيه عثمان بن دينار روت حكامه أحاديث بواطيل لا أصل لها أ.هـ.

وقال ابن أبي حاتم في العلل: قال أبي: هذا حديث موضوع.

وقال الحافظ ابن حجر: أخرجه ابن ماجه عن إسماعيل الطلحي، عن ثابت بن موسى، عن شريك، عن الأعمش، عن أبي سفيان، عن جابر مرفوعًا بهذا، واتفق أئمة الحديث وابن عدي، والدارقطني، والعقيلي، وابن حبان، والحاكم على أنه من قول شريك قاله لثابت لما دخل. وقال ابن عدي: سرقه جماعة من ثابت كعبد الله بن شبرمة الشريكي، وعبد الحميد بن بحر وغيرهما، وأورده صاحب مسند الشهاب من رواية عبد الرزاق عن الثوري، وابن جريج عن أبي الزبير عن جابر، وهو موضوع على هذا الإسناد. وكذا من رواية الحسين بن حفص عن الثوري عن الأعمش عن أبي سفيان عن جابر والأمر فيه كذلك. ومن طرق أخرى واهية. قال ابن طاهر: ظن القضاعي أن الحديث صحيح، لكثرة طرقه. وهو معذور لأنه لم يكن حافظًا. وله طرق أخرى من غير رواية جابر أخرجه ابن جميع في معجمه من حديث أنس وابن الجوزي من وجه آخر عنه وهو باطل أيضًا من الوجهين. انتهى.

(١) قوله: «ليس بالندب في الوجوه» في الصحاح «الندب»: أثر الجرح إذا لم يرتفع عن الجلد. (ع)

أي وصفهم العجيب الشأن في الكتابين جميعاً، ثم ابتدأ فقال: ﴿كَرَّرَ﴾ يريد: هم كزرع. وقيل: تم الكلام عند قوله: ﴿ذَلِكَ مَثَلُهُمْ فِي التَّوْرَةِ﴾ ثم ابتدئ: ﴿وَمَثَلُهُ فِي الْإِنْجِيلِ كَزَرْعٍ﴾ ويجوز أن يكون ذلك إشارة مبهمة أوضحت بقوله: ﴿كَرَّرَ أَخْرَجَ شَطَأَهُ﴾ كقوله تعالى: ﴿وَقَضَيْنَا إِلَيْهِ ذَلِكَ الْأَمْرَ أَنَّ دَابِرَ هَؤُلَاءِ مَقْطُوعٌ مُصْحِحِينَ﴾ [الحجر: ٦٦]. وقرئ: «الأنجيل» بفتح الهمزة ﴿شَطَأَهُ﴾ فراهه. يقال: أشطا الزرع إذا فزخه. وقرئ: «شطأه» بفتح الطاء. وشطأه، بتخفيف الهمزة: وشطأه بالمد. وشطه، بحذف الهمزة ونقل حركتها إلى ما قبلها. وشطوه، بقلبها واواً ﴿فَنَازَرَهُ﴾ من المؤازرة وهي المعاونة. وعن الأخفش: أنه أفعل. وقرئ: «فأزره» بالتخفيف والتشديد، أي: فشد أزره وقواه. ومن جعل (آزر) أفعل، فهو في معنى القراءتين ﴿فَاسْتَغْلَظَ﴾ فصار من الدقة إلى الغلظ ﴿فَاسْتَوَى عَلَى سُوْقِهِ﴾ فاستقام على قصبه جمع ساق. وقيل: مكتوب في الإنجيل سيخرج قوم ينبتون نبات الزرع، يأمرهم بالمعروف وينهون عن المنكر. وعن عكرمة: أخرج شطأه بأبي بكر، فأزره بعمر، فاستغلظ بعثمان، فاستوى على سوقه بعلي. وهذا مثل ضربه الله لبدء أمر الإسلام وترقيه في الزيادة إلى أن قوي واستحكم، لأن النبي ﷺ، قام وحده. ثم قواه الله بمن آمن معه كما يقوي الطاقة الأولى من الزرع ما يحتف بها مما يتولد منها حتى يعجب الزرع. فإن قلت: قوله: ﴿لِيَغِيظَ بِهِمُ الْكُفَّارُ﴾ تعليل لماذا؟ قلت: لما دل عليه تشبيههم بالزرع من نماثهم وترقيهم في الزيادة والقوة، ويجوز أن يعلل به ﴿وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا﴾ لأن الكفار إذا سمعوا بما أعد لهم في الآخرة مع ما يعزهم به في الدنيا غاظهم ذلك. ومعنى ﴿مِنْهُمْ﴾ البيان، كقوله تعالى: ﴿فَاجْتَنِبُوا الرِّجْسَ مِنَ الْأَوْثَانِ﴾ [الحج: ٣٠].

عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «من قرأ ١٨٧/٢ ب سورة الفتح فكأنما كان ممن شهد مع محمد فتح مكة» (١٤٥٢).

١٤٥٢ - تقدم برقم ٣٤٦، وقال الحافظ: أخرجه ابن مردويه، والواحدي بالإسناد إلى أبي بن كعب. انتهى.

سورة الحجرات

مدنية، وآياتها ١٨ [نزلت بعد المجادلة]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ ۖ وَانفَعُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾

قَدَمَهُ وأقدمه: منقولان بثقليل الحشو والهمزة، مِنْ قَدَمَةٍ إذا تقدمه^(١)، في قوله تعالى: ﴿يَقْدُمُ قَوْمُهُ﴾ [هود: ٩٨] ونظيرهما معنى ونقلًا: سلفه وأسلفه. وفي قوله تعالى: ﴿لَا تُقَدِّمُوا﴾ من غير ذكر مفعول: وجهان، أحدهما: أن يحذف ليتناول كل ما يقع في النفس مما يقدّم. والثاني: أن لا يقصد قصد^(٢) مفعول ولا حذفه، ويتوجه بالنهي إلى نفس التقدم، كأنه قيل: لا تقدموا على التلبس بهذا الفعل، ولا تجعلوه منكم بسبيل^(٣) كقوله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ﴾ [غافر: ٦٨] ويجوز أن يكون من قَدَمَ بمعنى تقدّم، كوجه وبين. ومنه مقدّمة الجيش خلاف ساقته، وهي الجماعة المتقدّمة منه. وتعضده قراءة من قرأ: «لا تقدموا» بحذف إحدى تاءي تتقدموا، إلا أن الأول أملاً بالحسن وأوجه، وأشدّ ملائمة لبلاغة القرآن، والعلماء له أقبل. وقرئ: «لا تقدموا» من القدوم، أي لا تقدموا إلى أمر من أمور الدين قبل قدومها، ولا تعجلوا عليهما. وحقيقة قولهم: جلست بين يدي فلان، أن يجلس بين الجهتين المسامتين ليمينه وشماله قريبًا منه، فسميت الجهتان يدين

(١) قوله: «إذا تقدمه في قوله تعالى» لعله كما في قوله تعالى. (ع)

(٢) قوله: «أن لا يقصد قصد... الخ» عبارة النسفي: أن لا يقصد مفعول. والتهجي متوجه إلى نفس التقدم. (ع)

(٣) ذكر الزمخشري من النكت: «أنه تعالى ابتدأ السورة بإيجاب أن يكون الأمر الذي ينتهي إلى الله ورسوله متقدمًا على الأمور كلها من غير تقييد ولا تخصيص» قال أحمد: يريد أنه لم يذكر المفعول الذي يتقاضاه تقدموا، بإطراح ذلك المفعول كقوله: (يحيي ويميت) وحلى الكلام بمجاز التمثيل في قوله: (بين يدي الله ورسوله) بفائدة ليست في الكلام العريان، وهو تصور الهجنة والشناعة فيما نهوا عنه من الإقدام على أمر دون الاحتذاء على أمثلة الكتاب والسنة، وجعل صورة ذلك المنهي عنه مثل أن يجلس العبد في الجهتين المسامتين ليمين سيده ويساره ويوليه دبره، ومعناه: أن لا تقدموا على أمر حتى يأذن الله ورسوله فيه فتكونوا مقتدين فيما تأتون وتذرون بكتاب الله وسنة نبيه.

لكونهما على سمت اليدين مع القرب منهما توسعاً، كما يسمى الشيء باسم غيره إذا جاوره وداناه في غير موضع، وقد جرت هذه العبارة ههنا على سنن ضرب من المجاز، وهو الذي يسميه أهل البيان تمثيلاً. ولجربها هكذا فائدة جليلة ليست في الكلام العريان: وهي تصوير الهجنة والشناعة فيما نهوا عنه من الإقدام على أمر من الأمور دون الاحتذاء على أمثلة الكتاب والسنة: والمعنى: أن لا تقطعوا أمراً إلا بعدما يحكمأن به ويأذنان فيه، فتكونوا إما عاملين بالوحي المنزل. وإما مقتدين برسول الله ﷺ. وعليه يدور تفسير ابن عباس رضي الله عنه. وعن مجاهد: لا تفتاتوا على الله شيئاً حتى يقصه^(١) على لسان رسوله. ويجوز أن يجري مجرى قولك: سرتني زيد وحسن حاله، وأعجبت بعمرو وكرمه. وفائدة هذا الأسلوب: الدلالة على قوة الاختصاص، ولما كان رسول الله ﷺ من الله بالمكان الذي لا يخفى: سلك له ذلك المسلك. وفي هذا تمهيد وتوطئة لما نقم منهم فيما يتلوه من رفع أصواتهم فوق صوته؛ لأن من أحظاه الله بهذه الأثرة واختصه هذا الاختصاص القوي: كان أدنى ما يجب له من التهيب والإجلال أن يخفض بين يديه الصوت، ويخافت لديه بالكلام. وقيل: بعث رسول الله ﷺ إلى تهامة سرية سبعة وعشرين رجلاً وعليهم المنذر بن عمرو الساعدي، فقتلهم بنو عامر وعليهم عامر بن الطفيل. إلا ثلاثة نفر نجوا فلقوا رجلين من بني سليم قرب المدينة، فاعتزيا لهم إلى بني عامر، لأنهم أعز من بني سليم، فقتلوهما وسلبوهما، ثم أتوا رسول الله ﷺ فقال: «بئسما صنعتم كانا من سليم، والسلب ما كسوتهما» فوداهما رسول الله ﷺ (١٤٥٣) ونزلت، أي: لا تعملوا شيئاً من ذات أنفسكم حتى تستأمروا رسول الله ﷺ. وعن مسروق: دخلت على عائشة في اليوم الذي يشك فيه، فقالت للجارية: اسقه عسلاً، فقلت: إني صائم، فقالت: قد نهى الله عن صوم هذا اليوم (١٤٥٤). وفيه نزلت. وعن الحسن: أن أناساً ذبحوا يوم الأضحى

١٤٥٣ - أخرجه البيهقي في الشعب (١٩٦/٢)، في الباب الخامس عشر باب: في تعظيم النبي - ﷺ وإجلاله وتوقيره، رقم (١٥١٧).

والبيهقي في دلائل النبوة (٣٣٨/٣ - ٣٤١)، باب: غزوة بئر معونة.

قال الحافظ في تخريج الكشاف: أخرجه البيهقي في الشعب في الخامس عشر من طريق مقاتل بن حيان، قال: «بلغنا أن رسول الله ﷺ - بعث سرية واستعمل عليهم المنذر بن عمرو - فذكر قصة بئر معونة مطولاً. وفيه هذا اللفظ. وروى الدلائل من طريق ابن إسحاق، ومن طريق موسى بن عقبة: هذه القصة على غير هذا السياق وأن المقتولين بني كلاب - وأن الثلاثة قتل منهم واحد وهو المحفوظ والمشهود في المغازي. انتهى.

١٤٥٤ - قال الزيلعي في تخريج أحاديث الكشاف (٣٢٤/٣ - ٣٢٥): غريب؛ وعزاه للدارقطني في =

(١) قوله: «حتى يقصه على لسان رسوله» لعله: يقضيه. (ع)

قبل الصلاة فنزلت، وأمرهم رسول الله ﷺ أن يعيدوا ذبحاً آخر (١٤٥٥). وهذا مذهب أبي حنيفة رحمه الله، إلا أن نزول الشمس. وعند الشافعي: يجوز الذبح إذا مضى من الوقت مقدار الصلاة. وعن الحسن أيضاً: لما استقر رسول الله ﷺ بالمدينة أتته الوفود من الآفاق فأكثروا عليه بالمسائل، فنهاه أن يبتدؤه بالمسألة حتى يكون هو المبتدئ (١٤٥٦) وعن قتادة: ذكر لنا أن ناساً كانوا يقولون: لو أنزل فيه كذا لكان كذا، فكره الله ذلك منهم وأنزلها. وقيل: هي عامة في كل قول وفعل؛ ويدخل فيه أنه إذا جرت مسألة في مجلس رسول الله ﷺ لم يسبقوه بالجواب، وأن لا يمشي بين يديه إلا لحاجة، وأن يستأني^(١) في الافتتاح بالطعام ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ﴾ فإنكم إن اتقيتموه عاقتكم التقوى عن التقدم المنهي عنها وعن جميع ما تقتضي مراقبة الله تجنبه، فإن التقى حذر لا يشافه أمراً^(٢) ١٨٨/٢ إلا عن ارتفاع الريب وانجلاء الشك في أن لا تبعة عليه فيه، وهذا كما تقول لمن يقارف بعض الرذائل: لا تفعل هذا وتحفظ مما يلصق بك العار. فتنهاه أولاً عن عين ما قارفه، ثم تعم وتشيع وتأمره بما لو امتثل فيه أمرك لم يرتكب تلك الفعلية وكل ما يضرب في طريقها ويتعلق بسببها ﴿إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ﴾ لما تقولون ﴿عَلَيْكُمْ﴾ بما تعملون، وحق مثله أن يتقى ويراقب.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ وَلَا تَجْهَرُوا لَهُ بِالْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ أَن تَحْبَطَ أَعْمَالُكُمْ وَأَنتُمْ لَا تَشْعُرُونَ﴾ (٢)

إعادة النداء عليهم: استدعاء منهم لتجديد الاستبصار عند كل خطاب وارد، وتطرية

المؤتلف والمختلف من طريق مالك بن حمزة عن مسروق، ذكره في باب: حمزة وحمرة. وللشعبي في تفسيره قال ابن حجر في تخريج الكشاف: هكذا ذكره الشعبي بغير سند، وذكره الدارقطني من رواية مالك بن حمزة بضم المهملة والراء. عن مسروق، قال «دخلت على عائشة رضي الله عنها في اليوم الذي يشك فيه أنه يوم عرفة»... الحديث. انتهى.

١٤٥٥ - أخرجه عبد الرزاق في تفسيره (٢/٢٣٠)، والطبري في تفسيره (١١/٣٧٨)، رقم (٣١٦٦١) كلاهما من طريق الحسن.

قال الحافظ في تخريج الكشاف: أخرجه عبد الرزاق: حدثنا معمر عن الحسن في قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ وَلَا تَجْهَرُوا لَهُ بِالْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ أَن تَحْبَطَ أَعْمَالُكُمْ وَأَنتُمْ لَا تَشْعُرُونَ﴾ قال: هم قوم ذبحوا قبل أن يصلي النبي - ﷺ - فأمرهم أن يعيدوا الذبح، وأخرجه الطبري من رواية سعيد عن قتادة، قال: «ذكر لنا أن ناساً كانوا يقولون: لو أنزل كذا. لو صنع كذا، لو قبل كذا». قال: وقال الحسن هم أناس، فذكره. انتهى.

١٤٥٦ - قال الزيلعي في تخريج أحاديث الكشاف (٣/٣٢٥): غريب. وقال ابن حجر: لم أجده.

- (١) قوله: «وأن يستأني في الافتتاح» أي: ينتظر. أفاده الصحاح. (ع)
(٢) قوله: «لا يشافه أمراً» أي: لا يتشاغل بأمر، وفي الصحاح: «الشفه»: الشغل، يقال: شفهني عن كذا، أي: شغلني. (ع)

الإنصات لكل حكم نازل، وتحريك منهم لثلاث يفتروا ويغفلوا عن تأملهم وما أخذوا به عند حضور مجلس رسول الله ﷺ من الأدب الذي المحافظة عليه تعود عليهم بعظيم الجدوى في دينهم. وذلك لأن في إعظام صاحب الشرع إعظام ما ورد به، ومستعظم الحق لا يدعه استعظامه أن يألو عملاً بما يحذوه^(١) عليه. وارتداداً عما يصده عنه، وانتهاء إلى كل خير، والمراد بقوله: ﴿لَا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ﴾ أنه إذا نطق ونطقتم فعليكم أن لا تبلغوا بأصواتكم وراء الحد الذي يبلغه بصوته، وأن تغضوا منها بحيث يكون كلامه عاليًا لكلامكم، وجهه باهرًا لجهركم؛ حتى تكون مزيته عليكم لائحة، وسابقته واضحة، وامتيازه عن جمهوركم كشية الأبلق^(٢) غير خاف، لا أن تغمروا صوته بغطكم وتبهروا منطق بسخبكم. وبقوله: ولا تجهروا له بالقول: إنكم إذا كلمتموه وهو صامت فإياكم والعدول عما نهيتم عنه من رفع الصوت، بل عليكم أن لا تبلغوا به الجهر الدائر بينكم، وأن تتعمدوا في مخاطبته القول اللين المقرب من الهمس الذي يضاد الجهر، كما تكون مخاطبة المهيب المعظم، عاملين بقوله عز اسمه: ﴿وَتَعَزَّزُوا وَنُوقِرُوا﴾ [الفتح: ٩] وقيل معنى: ﴿وَلَا تَجْهَرُوا لَهُ بِالْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ﴾ لا تقولوا له: يا محمد، يا أحمد، وخاطبوه بالنبوة. قال ابن عباس: لما نزلت هذه الآية قال أبو بكر رضي الله عنه: يا رسول الله، والله لا أكلمك إلا السراة أو أخا السراة حتى ألقى الله، (١٤٥٧) وعن عمر رضي الله عنه: أنه كان يكلم النبي ﷺ كأخي السراة لا يسمعه حتى يستفهمه (١٤٥٨)،

١٤٥٧ - قال الزيلعي في تخريج أحاديث الكشف: غريب والحديث أخرجه الواحدي في أسباب النزول (ص ٤٠٣)، رقم (٧٥٥)، وفي تفسيره (١٥١/٤).

وله شاهد من حديث أبي هريرة قال: لما نزلت: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَغْضُونَ﴾ - الآية قال أبو بكر... أخرجه الحاكم (٤٦٢/٢) وقال: صحيح على شرط مسلم، ولم يخرجاه. ووافقه الذهبي. وقال الحافظ ابن حجر: ذكره الواحدي عن عطاء عن ابن عباس، ولم يسق سنده إليه، وأخرجه البزار وابن مردويه من طريق طارق بن شهاب عن أبي بكر، قال لما نزل: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ﴾ قلت: يا رسول الله، آليت ألا أكلمك إلا كأخي السراة حتى ألقى الله؟ وأخرجه الحاكم والبيهقي في المدخل من حديث أبي هريرة. قال: لما نزلت ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَغْضُونَ﴾ - الآية قال أبو بكر: والذي أنزل عليك الكتاب يا رسول الله، لا أكلمك إلا كأخي السراة حتى ألقى الله عز وجل وقال: صحيح على شرط مسلم. انتهى.

١٤٥٨ - أخرجه البخاري (٥٦٥/٩ - ٥٦٦) كتاب التفسير باب (لا ترفعوا أصواتكم فوق صوت النبي) حديث (٤٨٤٥) من حديث ابن الزبير عن عمر.

(١) قوله: «بما يحذوه عليه» أي: يحضه. (ع)

(٢) قوله: «كشية الأبلق» في الصحاح «الشية»: لون يخالف معظم لون الفرس وغيره. وفيه أيضًا: اللفظ الصوت والجلبة. وفيه الصخب: الصياح والجلبة. (ع)

وكان أبو بكر إذا قدم على رسول الله ﷺ وفد: أرسل إليهم من يعلمهم كيف يسلمون ويأمرهم بالسكينة والوقار عند رسول الله ﷺ (١٤٥٩)، وليس الغرض برفع الصوت ولا الجهر: ما يقصد به الاستخفاف والاستهانة، لأن ذلك كفر، والمخاطبون مؤمنون، وإنما الغرض صوت هو في نفسه والمسموع من جرسه غير مناسب لما يهاب به العظماء ويوقر الكبراء، فيتكلف الغض منه، وردّه إلى حدّ يميل به إلى ما يستبين فيه المأمور به من التعزير والتوقير، ولم يتناول النهي أيضًا رفع الصوت الذي لا يتأذى به رسول الله ﷺ، وهو ما كان منهم في حرب أو مجادلة معاند أو إرهاب عدوّ أو ما أشبه ذلك، ففي الحديث، أنه قال عليه الصلاة والسلام للعباس بن عبد المطلب لما انهزم الناس يوم حنين: «اصرخ بالناس» (١٤٦٠) وكان العباس أجهر الناس صوتًا (١٤٦١). يروى: أن غارة أتهم يومًا فصاح العباس يا صباحاه، فأسقطت الحوامل لشدة صوته (١٤٦٢). وفيه يقول نابغة بني جعدة [من المنسرح]:

رَجَرَ أَبِي عُزْوَةَ السَّبَاعِ إِذَا أَشْفَقَ أَنْ يَخْتَلِطَنَّ بِالْعَنَمِ^(١)

زعمت الرواة أنه كان يزجر السباع عن الغنم فيفتق مراة السبع في جوفه (١٤٦٣)، وفي قراءة ابن مسعود «لا ترفعوا بأصواتكم» والباء مزيدة محذو بها حدو التشديد في قول الأعلام الهذلي [من مجزوء الكامل]:

رَفَعْتُ عَيْنِي بِالْحَجَا زِلْ إِلَى أَنْاسٍ بِالْمَنَاقِبِ^(٢)

وليس المعنى في هذه القراءة أنهم نهوا عن الرفع الشديد، تخيلاً أن يكون ما دون

= قال الحافظ ابن حجر: أخرجه البخاري من حديث ابن الزبير. قال: لما نزلت: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ﴾ - الآية كان عمر بعد ذلك إذا حدث النبي - ﷺ - حدثه كأخي السرار. لم يسمعه حتى يستفهمه. انتهى.

١٤٥٩ - قال الحافظ في «تخريج الكشاف» (٣/٣٢٧): غريب وقال الحافظ ابن حجر: لم أجده. ١٤٦٠ - بيض له الزيلعي (٣/٣٢٧) وقال الحافظ: لم أجده. وقد تقدم أن ذلك كان يوم حنين والعباس لم يشهد أحداً.

١٤٦١ - بيض له الزيلعي، وقال الحافظ: لم أجده.

١٤٦٢ - بيض له الزيلعي (٣/٣٢٧)، وقال الحافظ ابن حجر: لم أجده.

١٤٦٣ - بيض له الزيلعي في «الكشاف» (٣/٣٢٧ - ٣٢٨)، وقال الحافظ: لم أجده.

(١) تقدم.

(٢) للأعلام الهذلي، يقول: نظرت وأنا في الحجاز إلى من في المناقب. وهذان الموضعان بينهما مسافة بعيدة، وهذا من شدة الشوق إلى من في المناقب.

الشديد مسوغاً لهم، ولكن المعنى نهيه عما كانوا عليه من الجلبة، واستجفاؤهم فيما كانوا يفعلون. وعن ابن عباس: نزلت في ثابت بن قيس بن شماس، وكان في أذنه وقر، وكان جهوري الصوت، فكان إذا تكلم رفع صوته، وربما كان يكلم رسول الله ﷺ فيتأذى بصوته (١٤٦٤). وعن أنس أن هذه الآية لما نزلت: فقد ثابت، فافتقده رسول الله ﷺ فأخبر بشأنه، فدعاه، فسأله فقال: يا رسول الله، لقد أنزلت إليك هذه الآية، وإنني رجل جهير الصوت، فأخاف أن يكون عملي قد حبط، فقال له رسول الله ﷺ: «لست هناك، إنك تعيش بخير وتموت بخير، وإنك من أهل الجنة» (١٤٦٥). وأما ما يروى عن الحسن: أنها نزلت فيمن كان يرفع صوته من المنافقين فوق صوت رسول الله ﷺ، فمحملة والخطاب للمؤمنين: على أن ينهى المؤمنون ليندرج المنافقون تحت النهي، ليكون الأمر أغلظ عليهم وأشق. وقيل: كان/١٨٨/٢ ب المنافقون يرفعون أصواتهم ليظهروا قلة مبالاتهم، فيقتدي بهم ضعفة المسلمين. وكان التشبيه في محل النصب، أي: لا تجهروا له جهراً مثل جهر بعضكم لبعض. وفي هذا: أنهم لم ينهوا عن الجهر مطلقاً، حتى لا يسوغ لهم أن يكلموه إلا بالهمس والمخافتة، وإنما نهوا عن جهر مخصوص مقيد بصفة، أعني: الجهر المنعوت بمماثلة ما قد اعتادوه منهم فيما بينهم، وهو الخلو من مراعاة أبهة النبوة وجلالة مقدارها، وانحطاط سائر الرتب وإن جلت عن رتبها ﴿أَنْ تَحْبَطَ أَعْمَلُكُمْ﴾ منصوب الموضع، على أنه مفعول له، وفي متعلقه وجهان، أحدهما: أن يتعلق بمعنى النهي، فيكون المعنى: انتهوا عما نهيتهم عنه لحبوط أعمالكم، أي: لخشية حبوطها على تقدير حذف المضاف، كقوله تعالى: ﴿يَبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ أَنْ تَضِلُّوا﴾ [النساء: ١٧٦] والثاني: أن يتعلق بنفس الفعل، ويكون المعنى: أنهم نهوا عن الفعل الذي فعلوه لأجل الحبوط، لأنه لما كان بصدد الأداء إلى الحبوط: جعل كأنه فعل لأجله، وكأنه العلة والسبب في إيجاده على سبيل التمثيل، كقوله تعالى: ﴿لِيَكُونَ لَهُمْ عَذَابٌ﴾ [القصص: ٨] فإن قلت: لخص الفرق بين الوجهين. قلت: تلخيصه أن يقدر الفعل في الثاني مضموماً

١٤٦٤ - قال الحافظ ابن حجر: لم أجد.

١٤٦٥ - أخرجه البخاري (٥٦٦/٩) كتاب التفسير: باب «لا ترفعوا أصواتكم فوق صوت النبي» حديث (٤٨٤٦)، ومسلم (٣٧٩/١ - الأبي) كتاب الإيمان: باب مخافة المؤمن أن يحبط عمله حديث (١١٩/١٨٧)، وأحمد (١٣٧/٣)، وأبو يعلى (٧٦/٦) رقم (٣٣٣١)، والواحدي في «أسباب النزول (ص ٢٨٧) من حديث أنس بن مالك.

وقال الحافظ ابن حجر: متفق عليه من حديث أنس دون قوله «لست هناك، وزاد أحمد والطبراني فيه. فقال أنس: فكنا نراه يمشي بين أظهرنا ونحن نعلم أنه من أهل الجنة». انتهى.

إليه المفعول له، كأنهما شيء واحد^(١)، ثم يصب النهي عليهما جميعاً صَبًا. وفي الأول يقدر النهي موجهاً على الفعل على حياله، ثم يعلل له منهياً عنه. فإن قلت: بأي النهيين تعلق المفعول له؟ قلت: بالثاني عند البصريين، مقدراً إضماره عند الأول، كقوله تعالى: ﴿ثُمَّ أَتَوَيْتُ أَفْرَغَ عَلَيْهِ قَطْرًا﴾ [الكهف: ٩٦] وبالعكس عند الكوفيين، وأيهما كان فمرجع المعنى إلى أن الرفع والجهر كلاهما منصوص أداؤه إلى حبوط العمل: وقراءة ابن مسعود: «فتحبط أعمالكم» أظهر نصاً بذلك؛ لأن ما بعد الفاء لا يكون إلا مسبباً عما قبله، فيتنزل الحبوط من الجهر منزلة الحلول من الطغيان في قوله تعالى: ﴿فَيَحُلَّ عَلَيْكَ عَصِيٌّ﴾ [طه: ٨١] والحبوط من حبطت الإبل: إذا أكلت الخضر فتفخ بطونها، وربما هلكت. ومنه قوله عليه الصلاة والسلام: «وإن مما ينبت الربيع لما يقتل حَبَطًا أو يُلِمَّ» (١٤٦٦) ومن أخواته:

١٤٦٦ - أخرجه مسلم (٧٢٧/٢) كتاب الزكاة: باب تخوف ما يخرج من زهرة الدنيا حديث (١٠٥٢/١٢٣)، وأحمد (٩١/٣)، والنسائي (٩٠/٥) كتاب الزكاة باب الصدقة على اليتيم، وأبو يعلى (١٢٤٢)، وابن ماجه (٣٩٩٥) من حديث أبي سعيد الخدري. وقال الحافظ ابن حجر: أخرجه مسلم وغيره. انتهى.

(١) قال محمود: «إنه مفعول له ومتعلقه إما معنى النهي، كأنه قال: انتهوا كراهية حبوط أعمالكم على حذف مضاف، كقوله: ﴿يَبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ أَنْ تَضِلُّوا﴾ وأما نفس الفعل فهو المنهي عنه، على معنى تنزيل صيرورة الجهر المنهي عنه إلى الحبوط، منزلة جعل الحبوط علة في الجهر على التمثيل، من وادي (ليكون لهم عدواً وحزناً) قال: وتلخيص الفرق بينهما أنه على الثاني يقدر انضمام المفعول من أجله إلى الفعل الأول... الخ» قال أحمد: هو يحوم على شرعة وبينة إياك ورودها: وذلك أنه يعتقد أن ما دون الكفر ولو كبيرة واحدة تحبط العمل وتوجب الخلود في العذاب المقيم، وتخرج المؤمن من اسم الإيمان ورسمه، ومعاذ الله من هذا المعتقد، فعليك بعقيدة أهل السنة الممهدة في مواضع من هذا المجموع، فجدد العهد بها: وهي اعتقاد أن المؤمن لا يخلد في النار، وأن الجنة له بوعده الله حتم ولو كانت خطاياها ما دون الشرك أو ما يؤدي إليه كزبد البحر، وأنه لا تحبط حسنة سيئة طارئة كائنة ما كانت سوى الشرك. والزمخشري اغتنم الفرصة في ظاهر هذه الآية فنزلها على معتقده ووجه ظهورها فيما يدعيه: أن رفع الصوت بين يدي رسول الله ﷺ معصية لا تبلغ الشرك، وقد أخاف الله عباده من إحباطه الأعمال بها، ولو كان الإحباط مقطوعاً بنفيه: لم تستقم الإخافة به، وأنى له أن يبلغ من ذلك آماله، ونظم الكلام بأباه عند البصر بمعناه، فنقول: المراد في الآية النهي عن رفع الصوت على الإطلاق، ومعلوم أن حكم النهي: الحذر مما يتوقع في ذلك من إيذاء النبي عليه السلام، والقاعدة المختارة أن إيذائه عليه الصلاة والسلام يبلغ مبلغ الكفر المحبط للعمل باتفاق، فورد النهي عما هو مظنة لأذى النبي عليه الصلاة والسلام سواء وجد هذا المعنى أولاً، حماية للذريعة وحسماً للمادة، ثم لما كان هذا المنهي عنه وهو رفع للصوت منقسماً إلى ما يبلغ ذلك المبلغ أولاً، ولا دليل يميز أحد القسمين عن الآخر: لزم المكلف أن يكف عن ذلك مطلقاً، وخوف أن يقع فيهما هو محبط للعمل، وهو البالغ حد الإيذاء؛ إذ لا دليل ظاهر يميزه، وإن كان =

حبجت الإبل، إذا أكلت العرفج^(١) فأصابها ذلك. وأحبط عمله: مثل أحبطه. وحبط الجرح وحبر: إذا غفر، وهو نكسه وتراميه إلى الفساد: جعل العمل السيء في إضراره بالعمل الصالح كالداء والحرص^(٢) لمن يصاب به، أعاذنا الله من حبط الأعمال وخيبة الآمال. وقد دلت الآية على أمرين هائلين، أحدهما: أن فيما يرتكب من يؤمن من الآثام ما يحبط عمله. والثاني: أن في آثامه ما لا يدري أنه محبط، ولعله عند الله كذلك؛ فعلى المؤمن أن يكون في تقواه كالماشي في طريق شائك لا يزال يحترز ويتوقى ويتحفظ.

﴿إِنَّ الَّذِينَ يَعْصُونَ أَمْرَاتِهِمْ عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ امْتَحَنَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ لِلتَّقْوَىٰ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ عَظِيمَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ﴾

﴿امْتَحَنَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ لِلتَّقْوَىٰ﴾ من قولك: امتحن فلان لأمر كذا وجرب له، ودرب للنهوض به. فهو مضطلع به غير وان عنه. والمعنى أنهم صبر على التقوى، أقوياء على احتمال مشاقها. أو وضع الامتحان موضع المعرفة؛ لأن تحقق الشيء باختباره، كما يوضع الخبر موضعها، فكأنه قيل: عرف الله قلوبهم للتقوى، وتكون اللام متعلقة بمحذوف، واللام هي التي في قولك: أنت لهذا الأمر، أي كائن له ومختص به قال [من الرجز]:
أَنْتَ لَهَا أَحْمَدُ مِنْ بَيْنِ الْبَشَرِ^(٣)

= فلا يتفق تمييزه في كثير من الأحيان، وإلى التباس أحد القسمين بالآخر وقعت الإشارة بقوله: (أن تحبط أعمالكم وأنتم لا تشعرون) وإلا فلو كان الأمر على ما يعتقده الزمخشري لم يكن لقوله: (وأنتم لا تشعرون) موقع؛ إذ الأمر بين أن يكون رفع الصوت مؤذياً فيكون كفرًا محبطاً قطعاً، وبين أن يكون غير مؤذ فيكون كبيرة محبطة على رأيه قطعاً، فعلى كلا حاله الأحوط به محقق، إذن فلا موقع لإدغام الكلام بعدم الشعور، مع أن الإحباط ثابت مطلقاً، والله أعلم وهذا التقرير الذي ذكرته يدور على مقدمتين كلتاهاما صحيحة إحداهما: أن رفع الصوت من جنس ما يحصل به الإيذاء، وهذا أمر يشهد به النقل والمشاهدة الآن، حتى إن الشيخ ليتأذى برفع التلميذ صوته بين يديه، فكيف برتبة النبوة وما يستحقه من الإجلال والإعظام. المقدمة الأخرى: أن إيذاء النبي ﷺ كفر، وهذا أمر ثابت قد نص عليه أئمتنا وأفتوا بقتل من تعرض لذلك كفرًا، ولا تقبل توبته، فما أتاه أعظم عند الله وأكبر، والله الموفق.

(١) قوله: «إذا أكلت العرفج» في الصحاح: شجر ينبت في السهل، الواحدة: عرفجة. (ع)

(٢) قوله: «كالداء والحرص» أي الفساد. أفاده الصحاح.

(٣) رائعة: خالية من الحشو والتعقيد: وصوغها - بالتشديد -: للمبالغة؛ وأنت لها: أي أهل لها وكفء؛ وأحمد: منادى. ومن بين البشر: متعلق بمحذوف حال، أي: منتخباً من بينهم. ويجوز أن «أحمد» أفعل تفضيل، كذا قيل.

ينظر: لسان العرب (غبر)، وتاج العروس (غبر)، وتهذيب اللغة (١٢٣/٨)، وأساس البلاغة (غبر).

[ومن الطويل]:

أَعْدَاءُ مَنْ لِيَعْمَلَاتٍ عَلَى الْوَجَى (١)

وهي مع معمولها منصوبة على الحال. أو ضرب الله قلوبهم بأنواع المحن والتكاليف الصعبة لأجل التقوى، أي لتثبت وتظهر تقواها، ويعلم أنهم متقون؛ لأن حقيقة التقوى لا تعلم إلا عند المحن والشدائد والاضطراب عليها. وقيل أخلصها للتقوى. من قولهم: امتحن الذهب وفتنه، إذا أذابه فخلص إبريزه من خبثه ونقاها. وعن عمر رضي الله عنه: أذهب الشهوات عنها. والامتحان: افتعال، من محنه، وهو اختبار بليغ أو بلاء جهيد. قال أبو عمرو: كل شيء جهده فقد محنته. وأنشد [من الرجز]:

أَتَتْ رَذَايَا بِأَدْيَا كِلَالُهَا قَدْ مَحَنْتْ وَأَضْطَرَبَتْ أَطَالُهَا (٢)

قيل: أنزلت في الشيخين رضي الله عنهما، لما كان منهما من غض الصوت والبلوغ به أخا السرار. وهذه الآية بنظمها الذي رتب عليه من إيقاع الغاضين أصواتهم اسمًا لأن المؤكدة. وتصيير خبرها جملة من مبتدأ وخبر معرفتين معًا. والمبتدأ: اسم الإشارة، واستئناف الجملة المستودعة ما هو جزاؤهم على عملهم، وإيراد الجزاء نكرة: مبهمًا أمره ناظرة في الدلالة على غاية الاعتداد والارتضاء لما فعل الذين وقروا رسول الله ﷺ من خفض أصواتهم، وفي الإعلام بمبلغ عزة رسول الله ﷺ وقدر شرف منزلته/ ١٨٩/٢، وفيها تعريض بعظيم ما ارتكب الرافعون أصواتهم واستيجابهم ضد ما استوجب هؤلاء.

﴿إِنَّ الَّذِينَ يُنَادُونَكَ مِنْ وَرَاءِ الْحُجُرَاتِ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ۚ وَلَوْ أَنَّهُمْ صَبَرُوا حَتَّىٰ

- | | | |
|-----|-----------------------------|---------------------------|
| (١) | أعداء من لليعملات على الوجى | وأضياف بيت بيتوا للنزول |
| | أعداء ما للعيش بعدك لذة | ولا لخليل بهجة بخليل |
| | أعداء ما وجدي عليك بهين | ولا الصبر إن أعطيته بجميل |

لعتبة بن مالك العقيلي، يرثي عداء صاحبه. والهمزة للدعاء. وعداء - كفعل -: على صيغة المبالغة، أي: يا من كان معدًا لإغاثة المطايا الكثيرات العمل، والسفر مع الوجاء وهو الحفاء في أخفافها من كثرة السير، واليعملات: جمع يعملة، والبعر يعمل، ومن كان معدًا لأضياف بيته الذين يبيتون للنزول والاستراحة عنده. والعيش: الحياة، أو ما يعاش به. والبهجة: السرور. والوجد: الحزن. وإن أعطيته: اعتراض، دل على أنه لم يصبر. ونفى جمال الصبر مبالغة في عظم عداء عنده وحبه إياه، وكرر النداء لإظهار التفجع.

- (٢) الرذايا جمع رذية وهي الناقة المهزولة الضعيفة. ومحنته: بلوته. ويقال: محنت ناقتي أجهدتها في السير. ومحنت الجلد: مددته ووسعته. والآطال: جمع أطل وهو الخاصرة، كأسباب وسبب. يقول: أتت المطايا مهازيل ظاهرًا ملالها وتعبها من السير، قد أجهدت تلك النوق بالسير. أو قد تدلت واضطربت خواصرها من شدة الجوع ويروى: أوصالها، أي: أعضاؤها.

والوراء: الجهة التي يوارىها عنك الشخص بظله من خلف أو قدام^(١). ومن لا ابتداء الغاية، وأنّ المناداة نشأت من ذلك المكان. فإن قلت: فرق بين الكلامين بين ما ثبت فيه وما تسقط عنه. قلت: الفرق بينهما أنّ المنادي والمنادى في أحدهما يجوز أن يجمعهما الوراء، وفي الثاني: لا يجوز لأنّ الوراء تصوير بدخول من مبتدأ الغاية. ولا يجتمع على الجهة الواحدة أن تكون مبتدأ ومنتهى لفعل واحد، والذي يقول: ناداني فلان من وراء الدار. لا يريد وجه الدار ولا دبرها، ولكن أي قطر من أقطارها الظاهرة كان مطلقاً بغير تعيين واختصاص، والإنكار لم يتوجه عليهم من قبل أنّ النداء وقع منهم في أدبار الحجرات أو في وجوهها، وإنما أنكر عليهم أنهم نادوه من البر^(٢) والخارج مناداة الأجلاف بعضهم لبعض، من غير قصد إلى جهة دون جهة. والحجرة: الرقعة من الأرض المحجورة بحائط يحوط عليها، وحظيرة الإبل تسمى الحجرة، وهي فعلة بمعنى مفعولة، كالغرفة والقبضة، وجمعها: الحجرات - بضمتين، «والحجرات» بفتح الجيم، والحجرات بتسكينها. وقرئ بهنّ جميعاً، والمراد: حجرات نساء رسول الله ﷺ، وكانت لكل واحدة منهنّ حجرة. ومناداتهم من ورائها يحتمل أنهم قد تفرّقوا على الحجرات متطلبين له، فناداه بعض من وراء هذه، وبعض من وراء تلك، وأنهم قد أتوها حجرة حجرة فنادوه من ورائها، وأنهم نادوه من وراء الحجرة التي كان فيها، ولكنها جمعت إجلالاً لرسول الله ﷺ ولمكان حرمة. والفعل وإن كان مسنداً إلى جميعهم فإنه يجوز أن يتولاه بعضهم، وكان الباقيون راضين، فكأنهم تولوه جميعاً، فقد ذكر الأصم: أنّ الذي ناداه عيينة بن حصن والأقرع بن حابس. والإخبار عن أكثرهم بأنهم لا يعقلون: يحتمل أن يكون فيهم من قصد بالمحاشاة. ويحتمل أن يكون الحكم بقلة العقلاء فيهم قصداً إلى نفي أن يكون فيهم من

(١) قال محمود: «الوراء الجهة التي يوارىها عنك الشخص بظله من خلف أو قدام... الخ» قال أحمد: ولقد اغتر بعضهم في تبكيت بني تميم بما لا تساعده عليه الآية، فإنها نزلت في المتولين لمناداة النبي عليه الصلاة والسلام، أو في الحاضرين حينئذ الراضين بفعل المنادين له، وقد سئل عليه الصلاة والسلام عنهم فقال: هم حفاة بني تميم، وعلى الجملة (ولا تزر وازرة وزر أخرى) فكيف يسوغ إطلاق اللسان بالسوء في حق أمة عظيمة؛ لأن واحداً منهم أو اثنين ارتكب جهالة وجفاء. فقد ورد أن المنادي له عليه السلام: هو الأقرع، هذا مع توارد الأحاديث في فضائل تميم وتخليدها وجوه الكتب الصحاح.

(٢) قوله: «أنهم نادوه من البر والخارج» الظاهر أن تفسيره ما بعده. وفي الصحاح «في مادة بر» أن البرية هي الصحراء. وفي مادة ضمن: في تفسير قوله عليه الصلاة والسلام في بعض كتبه: «إن لنا الضاحية من البعل ولكم الضامنة من النخل» ما نصه: فالضاحية: هي الظاهرة التي في البر من النخل، والضامنة: ما تضمنها أمصارهم وقراهم. (ع)

يعقل، فإن القلة تقع موقع النفي في كلامهم. وروي: أن وفد بني تميم أتوا رسول الله ﷺ وقت الظهيرة وهو راقد، فجعلوا ينادونه: محمد اخرج إلينا، فاستيقظ فخرج (١٤٦٧) ونزلت: وسئل رسول الله ﷺ عنهم فقال: «هم جفأة بني تميم، لولا أنهم من أشد الناس قتالاً للأعور الدجال لدعوت الله عليهم أن يهلكهم» (١٤٦٨) فورود الآية على النمط الذي وردت عليه فيه ما لا يخفى على الناظر: من بينات إكبار محل رسول الله ﷺ وإجلاله: منها مجيئها على النظم المسجل على الصائحين به بالسفه والجهل، لما أقدموا عليه. ومنها لفظ الحجرات وإيقاعها كناية عن موضع خلوته. ومقيله مع بعض نسائه. ومنها: المرور على لفظها بالاختصار على القدر الذي تبين به ما استنكر عليهم. ومنها: التعريف باللام دون الإضافة. ومنها: أن شفع ذمهم باستجفائهم واستركاك عقولهم وقلة ضبطهم لمواضع التمييز في المخاطبات، تهوينا للخطب على رسول الله ﷺ، وتسلية له، وإمالة لما تداخله من إيحاش تعجرهم وسوء أدبهم، وهلم جرا، من أول السورة إلى آخر هذه الآية، فتأمل كيف ابتدئ بإيجاب أن تكون الأمور التي تنتمي إلى الله ورسوله متقدمة على الأمور كلها من غير حصر ولا تقييد، ثم أردف ذلك النهي عما هو من جنس التقديم من رفع الصوت والجهر. كأن الأول بساط للثاني ووطاء لذكر ما هو ثناء على الذين تحاموا ذلك فغضوا أصواتهم، دلالة على عظيم موقعه عند الله، ثم جيء على عقب ذلك بما هو أطم

١٤٦٧ - أخرجه الواحدي في: أسباب النزول (ص ٤٠٤) من طريق عمر بن الحكم عن جابر بن عبد الله به. وقال الحافظ ابن حجر في تخرير أحاديث الكشاف.

أخرجه ابن إسحق في السيرة قال: «قدم وفد العرب على رسول الله ﷺ - فذكر القصة قال: ولما قدم وفد بني تميم دخلوا المسجد. فنادوا رسول الله ﷺ - من وراء الحجرات: يا محمد، اخرج إلينا - فذكره إلى آخره» وأخرجه ابن مردويه من رواية ابن إسحاق عن الكلبي عن أبي صالح عن ابن عباس قال: «لما قدم وفد بني تميم وهم سبعون رجلاً - فذكره مطولاً، وأخرجه ابن منده في المعرفة. وأورده الثعلبي من طريق يعلى بن عبد الرحمن عن عبد الحميد بن جعفر عن شمر بن الحكم عن جابر قال: «جاءت بنو تميم فدخلوا المسجد فنادوا رسول الله ﷺ - من وراء الحجرات أن اخرج إلينا يا محمد، فأدى ذلك رسول الله ﷺ - من صياحهم. فذكره مطولاً. انتهى.

١٤٦٨ - أخرجه الثعلبي كما في «تخريج الكشاف» (٣/ ٣٣١) أنبأ أبو القاسم الحسين بن محمد بن فنجويه ثنا عبد الله بن يوسف ثنا أحمد بن عيسى بن السكن البلدي ثنا هاشم بن القاسم الحراني ثنا يعلى بن الأشدق ثنا سعيد بن عبد الله أن النبي ﷺ - سئل عن قول الله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ ينادونك من وراء الحجرات أكثرهم لا يعقلون﴾ من هم؟ قال: «هم جفأة بني تميم...» إلى آخره. وقال الحافظ ابن حجر: أخرجه الثعلبي من رواية هاشم بن القاسم الحراني عن يعلى بن الأشدق حدثنا سعيد بن عبد الله: أن النبي ﷺ - فذكره: ولمسلم من حديث أبي هريرة: «لا أزال أحب بني تميم لثلاث» - فذكر فيه: «وهم أشد أمتي على الدجال». انتهى.

وهجنته أتم: من الصباح برسول الله ﷺ في حال خلوته ببعض حرماته من وراء الجدر، كما يصاح بأهون الناس قدرًا، لينبه على فظاعة من أجروا إليه وجسروا عليه؛ لأن من رفع الله قدره على أن يجهر له بالقول حتى خاطبه جلة المهاجرين^(١) والأنصار بأخي السرار، كان صنيع هؤلاء من المنكر الذي بلغ من التفاحش مبلغًا؛ ومن هذا وأمثاله يقتطف ثمر الألباب وتقتبس محاسن الآداب، كما يحكى عن أبي عبيد - ومكانه من العلم والزهد وثقة الرواية ما لا يخفى - أنه قال: ما دقت بابًا على عالم قط حتى يخرج في وقت خروجه ﴿أَنَّهُمْ صَبَرُوا﴾ في موضع الرفع على الفاعلية؛ لأن المعنى: ولو ثبت صبرهم. والصبر: حبس النفس عن أن تنازع إلى هواها. قال الله تعالى: ﴿وَأَصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ﴾ [الكهف: ٢٨] وقولهم: صبر عن كذا، محذوف منه المفعول، وهو النفس، وهو حبس فيه شدة ومشقة على المحبوس، فلهذا قيل للحبس على اليمين أو القتل: صبر. وفي كلام بعضهم: الصبر مَرَّ لا يتجرعه إلا حر. فإن قلت: هل ١٨٩/٢ ب من فرق بين ﴿حَتَّى تَخْرُجَ﴾ وإلى أن تخرج؟ قلت: إن «حتى» مختصة بالغاية المضروبة. تقول: أكلت السمكة حتى رأسها، ولو قلت: حتى نصفها، أو صدرها: لم يجز، و«إلى» عامة في كل غاية، فقد أفادت «حتى» بوضعها: أن خروج رسول الله ﷺ إليهم غاية قد ضربت لصبرهم، فما كان لهم أن يقطعوا أمرًا دون الانتهاء إليه. فإن قلت: فأي فائدة في قوله: ﴿إِلَيْهِمْ﴾؟ قلت: فيه أنه لو خرج ولم يكن خروجه إليهم ولأجلهم، للزمهم أن يصبروا إلى أن يعلموا أن خروجه إليهم ﴿لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ﴾ في (كان) إما ضمير فاعل الفعل المضمر بعد لو، وإما ضمير مصدر ﴿صَبَرُوا﴾، كقولهم: من كذب كان شرًا له ﴿وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ بليغ الغفران والرحمة واسعهما، فلن يضيق غفرانه ورحمته عن هؤلاء إن تابوا وأنابوا.

﴿يَتَأْتِيَ الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَأٍ فَتَبَيَّنُوا أَنْ تُصِيبُوا قَوْمًا بِمِثْلِهِ فَنُصِيحُوا عَلَى مَا فَعَلْتُمْ نَذِيرًا﴾ [٦] وَأَعْلَمُوا أَنَّ فِيكُمْ رَسُولَ اللَّهِ لَوْ يُطِيعُكُمْ فِي كَثِيرٍ مِنَ الْأَمْرِ لَعَنِتُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ الْإِيمَانَ وَزَيَّنَهُ فِي قُلُوبِكُمْ وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ الْكُفْرَ وَالْفُسُوقَ وَالْعِصْيَانَ أُولَئِكَ هُمُ الرَّاشِدُونَ ﴿٧﴾ فَضَلَّ مِنَ اللَّهِ وَنِعْمَةً وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٨﴾

بعث رسول الله ﷺ الوليد بن عقبة أخا عثمان لأمه - وهو الذي ولاه عثمان الكوفة بعد سعد بن أبي وقاص، فصلى بالناس وهو سكران صلاة الفجر أربعًا، ثم قال: هل أزيدكم، فعزله عثمان عنهم (١٤٦٩) - مصدقًا إلى بني المصطلق، وكانت بينه وبينهم

١٤٦٩ - أخرجه مسلم (٣/ ١٣٣١ - ١٣٣٢) كتاب الحدود باب حد الخمر حديث (٣٨/ ١٧٠٧) عن =

(١) قوله: «حتى خاطبه جلة المهاجرين» معظم المهاجرين. (ع)

إحنة، فلما شارف ديارهم ركبوا مستقبلين له، فحسبهم مقاتليه، فرجع وقال لرسول الله ﷺ: قد ارتدوا ومنعوا الزكاة، فغضب رسول الله ﷺ وهم أن يغزوهم. فبلغ القوم فوردوا وقالوا: نعوذ بالله من غضبه وغضب رسوله، فاتهمهم فقال: «لتنتهن أو لأبعثن إليكم رجلاً هو عندي كنفي يقاتل مقاتلتكم ويسبي ذراريكم، ثم ضرب بيده على كتف علي رضي الله عنه (١٤٧٠). وقيل: بعث إليهم خالد بن الوليد فوجدهم منادين بالصلوات متهمجين، فسلموا إليه الصدقات (١٤٧١)، فرجع. وفي تنكير الفاسق والنبأ: شياع في الفساق والأنباء، كأنه قال: أي فاسق جاءكم بأي نبأ^(١). فتوقفوا فيه وتطلبوا بيان

= حصين بن المنذر قال: شهدت عثمان بن عفان أتى الوليد بن عقبة، وقد صلى الغداة بالكوفة ركعتين... الحديث.

قال الزيلعي في «تخريج الكشاف» (٣/٣٣٤): هكذا في مسلم: وقد صلى الغداة ركعتين ورواه البيهقي في «دلائل النبوة والنسائي في سننه الكبرى، وإسحاق بن راهويه في مسنده، وقالوا فيه، وقد صلى الغداة أربعاً. فليُنظر. وقال الحافظ ابن حجر:

أخرجه مسلم من طريق أبي سليمان حصين بن منذر قال: شهدت عثمان أخا الوليد بن عقبة وقد صلى الغداة بالكوفة أربعاً... الحديث بطوله وأخرجه ابن إسحاق والنسائي من هذا الوجه وقالوا فيه: وقد صلى الغداة أربعاً. انتهى.

١٤٧٠ - أخرجه الطبراني في «الكبير» (٢٣/٤٠١) رقم (٩٦٠)، وإسحاق بن راهويه كما في «تخريج الكشاف» (٣/٣٣٢) من طريق موسى بن عبيدة الربذي عن ثابت مولى أم سلمة عن أم سلمة به. وقال الهيثمي في «المجمع» (٧/١١٤): وفيه موسى بن عبيد الربذي وهو ضعيف. وله شاهد من حديث الحارث بن ضرار.

أخرجه أحمد (٤/٢٧٩)، والطبراني في «الكبير» (٣/٢٧٤)، والواحد في أسباب النزول (٧٦٠) من طريق محمد بن سابق ثنا عيسى بن دينار عن الحارث به وذكره الهيثمي في «المجمع» (٧/١١٢) وقال: رواه أحمد، والطبراني، ورجال أحمد ثقات.

وذكره السيوطي في «الدر المنثور» (٦/٨٧) وزاد نسبه إلى ابن أبي حاتم وابن منده وابن مردويه وقال الحافظ ابن حجر:

أخرجه إسحاق والطبراني من حديث أم سلمة. دون قوله: «فاتهمهم»، فقال: لتنتهن أو لأبعثن إليكم رجلاً هو عندي كنفي يقاتل مقاتلتكم إلخ» وعندهما بدل ذلك: «فما زالوا يعتذرون إليه حتى نزلت فيهم الآية» وفيه موسى بن عبيدة، وهو ضعيف، ونحوه رواه أحمد والطبراني أيضاً من حديث الحارث بن دينار الخزاعي، أخرجه ابن مردويه من طريق عبد الله بن عبد القدوس، عن الأعمش، عن موسى بن المسيب، عن سالم بن أبي الجعد، عن جابر قال: بعث رسول الله ﷺ - الوليد بن عقبة فذكر الحديث بنحوه وزاد فقال عليه الصلاة والسلام: لتنتهن أو لأبعثن إليكم رجلاً - فذكره. انتهى.

١٤٧١ - قال ابن حجر في «تخريج أحاديث الكشاف»: لم أره. انتهى.

(١) قال محمود: «نكر فاسقاً ونبأ لقصد الشيع، فكأنه قيل: أي فاسق جاء بأي نبأ» قال أحمد: تسامح بلفظ الشيع والمراد الشمول؛ لأن النكرة إذا وقعت في سياق الشرط تعم، كما إذا وقعت في سياق =

الأمر وانكشاف الحقيقة، ولا تعتمدوا قول الفاسق لأن من لا يتحامى جنس الفسوق لا يتحامى الكذب الذي هو نوع منه. والفسوق: الخروج من الشيء والانسلاخ منه. يقال: فسقت الرطبة عن قشرها. ومن مقلوبه: قفست البيضة، إذا كسرتها وأخرجت ما فيها. ومن مقلوبه أيضاً: قفست الشيء إذا أخرجته عن يد مالكة مغتصباً له عليه، ثم استعمل في الخروج عن القصد والانسلاخ من الحق. قال رؤبة [من الرجز]:

فَوَاسِقًا عَنْ قَضِيهَا جَوَائِرًا^(١)

وقرأ ابن مسعود: «فتثبتوا» والتثبت والتبين: متقاربان، وهما طلب الثبات والبيان والتعريف، ولما كان رسول الله - صلى الله تعالى عليه وآله وسلم - والذين معه بالمنزلة التي لا يجسر أحد أن يخبرهم بكذب، وما كان يقع مثل ما فرط من الوليد إلا في الندرة. قيل: إن جاءكم بحرف الشك وفيه أن على المؤمنين أن يكونوا على هذه الصفة، لثلا يطمع فاسق في مخاطبتهم بكلمة زور ﴿أَنْ تُصَيِّبُوا﴾ مفعول له، أي: كراهة إصابتكم ﴿فَوَمًا بِجَهَنَّمَ﴾ حال، كقوله تعالى: ﴿وَرَدَّ اللَّهُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِعَيْثِهِمْ﴾ [الأحزاب: ٢٥] يعني جاهلين بحقيقة الأمر وكنه القصة. والإصباح: بمعنى الصيرورة. والندم: ضرب من الغم، وهو: أن تغتم على ما وقع منك تتمنى أنه لم يقع، وهو غم يصحب الإنسان صحبة لها دوام ولزام، لأنه كلما تذكر المتنم عليه راجعه من الندام: وهو لزام الشرب ودوام صحبته. ومن مقلوباته: أدمن الأمر أدامه. ومدن بالمكان: أقام به. ومنه: المدينة وقد تراهم يجعلون الهم صاحباً ونجياً وسميراً وضجياً، وموصوفاً بأنه لا يفارق صاحبه. الجملة المصدرة بلولا تكون كلاماً مستأنفاً، لأدائه إلى تنافر النظم^(٢)، ولكن متصلاً بما قبله حالاً من أحد الضميرين في فيكم المستتر المرفوع، أو البارز المجرور. وكلاهما مذهب سديد. والمعنى: أن فيكم رسول الله على حالة يجب عليكم تغييرها. أو أنتم على

= النفي، والله أعلم.

(١) تقدم.

(٢) قال محمود: «الجملة المصدرة بلولا تكون مستأنفة؛ لأدائه إلى تنافر للنظم... الخ» قال أحمد: من جملة هنات المعتزلة: ثلبهم على عثمان رضي الله عنه ووقوفهم عن الحكم بتعنيف قتلته، فضم إلى هذا المعتقد غير معرج عليه: ما أورده الزمخشري في هذا الموضع من حكايات تولية عثمان لأخيه الوليد الفاعل تلك الفعل الشعاء عوضاً عن سعد بن أبي وقاص أحد الصحابة، وما عرض به من أن بعض الصحابة كان يصدر منهم هنات، فمنها مطالبتهم النبي ﷺ باتباع آرائهم التي من جملتها تصديق الوليد في الإيقاع بيني المصطلق، فإذا ضمنت هذه النبة التي ذكرها إرسالاً إلى ما علمت من معتقده: تبين لك من حاله - أعني الزمخشري - ما لا أطيق التصريح به؛ لأنه لم يصرح، وإنما سلكنا معه سبيل الإنصاف ومحجة الانتصاف: نص بنص، وتلويح بتلويح؛ فنسأل الله العظيم - بعد الصلاة على نبيه محمد خاتم النبيين - أن يرضى عن أصحابه أجمعين، وعنا بهم آمين.

حالة يجب عليكم تغييرها: وهي أنكم تحاولون منه أن يعمل في الحوادث على مقتضى ما يعن لكم من رأي، واستصواب فعل المطواع لغيره التابع له فيما يرتبه، المحتذى على أمثلته؛ ولو فعل ذلك ﴿لَتَنِمَّ﴾ أي لوقعتم في العنت والهلاك. يقال: فلان يتعنت فلاناً، أي: يطلب ما يؤديه إلى الهلاك. وقد أعنت العظم: إذا هيض^(١) بعد الجبر. وهذا يدل على أن بعض المؤمنين زينوا لرسول الله ﷺ الإيقاع ببني المصطلق وتصديق قول الوليد. وأن نظائر ذلك من الهنات كانت تفرط منهم، وأن بعضهم كانوا يتصنونون ويزعمهم جدّهم في التقوى عن الجسارة على ذلك، وهم الذين استثناهم بقوله تعالى: ﴿وَلَكِنَّ اللَّهَ حَبَبٌ لِيَكُمُ/٢/ ١٩٠﴾ أي إلى بعضكم، ولكنه أغنت عن ذكر البعض: صفتهم المفارقة لصفة غيرهم، وهذا من إيجازات القرآن ولمحاته اللطيفة، التي لا يفتن لها إلا الخواص. وعن بعض المفسرين: هم الذين امتحن الله قلوبهم للتقوى. وقوله: ﴿أُولَئِكَ هُمُ الرّٰشِدُونَ﴾ والخطاب لرسول الله ﷺ، أي: أولئك المستثنون هم الراشدون بصدق ما قلته. فإن قلت: ما فائدة تقديم خبر إن على اسمها؟ قلت: القصد إلى توبيخ بعض المؤمنين على ما استهجن الله منهم من استتباع رأي رسول الله ﷺ لآرائهم، فوجب تقديمه لانصباب الغرض إليه. فإن قلت: فلم قيل ﴿يُطِيعُكُمْ﴾ دون: أطاعكم؟ قلت: للدلالة على أنه كان في إرادتهم استمرار عمله على ما يستصوبونه. وأنه كلما عنّ لهم رأي في أمر كان معمولاً عليه، بدليل قوله: ﴿فِي كَثِيرٍ مِّنَ الْأَمْرِ﴾ كقولك: فلان يقري الضيف ويحمي الحريم، تريد: أنه مما اعتاده ووجد منه مستمراً. فإن قلت: كيف موقع ﴿وَلَكِنَّ﴾ وشريطتها مفقودة: من مخالفة ما بعدها لما قبلها نفياً وإثباتاً؟ قلت: هي مفقودة من حيث اللفظ، حاصلة من حيث المعنى؛ لأن الذين حجب إليهم الإيمان قد غايرت صفتهم صفة المتقدم ذكرهم، فوقع، لكن في حاق موقعها من الاستدراك. ومعنى تحبيب الله وتكريهه اللطف والإمداد بالتوفيق^(٢)، وسيله الكناية كما سبق، وكل ذي لب وراجع إلى بصيرة وذهن لا يغبي عليه

- (١) قوله: «إذا هيض بعد الجبر» في الصحاح: هاض العظم يهيضه هيضاً: كسره بعد الجبر. وفيه أيضاً: جبرت العظم جبراً، وجبر العظم بنفسه جبوراً، أي: انجبر. (ع)
- (٢) عاد كلامه. قال: «ومعنى تحبيب الله وتكريهه اللطف والإمداد بالتوفيق... الخ» قال أحمد: تلجلج والحق أبلج، وزاغ والسييل منهج، وقاس الخلق بالواحد الحق، وجعل أفعالهم لهم من إيمان وكفر وخير وشر، اغتراراً بحال اعتقد اطراده في الشاهد، وهو أن الإنسان لا يمدح بفعل غيره، وقاس الغائب على الشاهد تحكماً، وتغلغل باتباع هوى معجماً، فجره ذلك بل جراه على تأويل الآية وإبطال ما ذكرته من نسبة تحبيب الإيمان إلى الله تعالى على حقيقته. وجعله مجازاً؛ لأنه يعتقد أنها لو بقيت على ظاهرها لكان خلق الإيمان مضافاً إلى الله تعالى، والعبد إذا ممدوح بما ليس من فعله. وهذا عنده محال، فأتبع الآية رأيه الفاسد؛ فإذا عرضت عليه الأدلة العقلية على الوجدانية، والنقلية على أنه لا خالق إلا الله خالق كل شيء، وطولب بإبقاء الآية على ظاهرها المؤيد بالعقل =

أن الرجل لا يمدح بغير فعله؛ وحمل الآية على ظاهرها يؤدّي إلى أن يثني عليهم بفعل الله، وقد نفى الله هذا عن الذين أنزل فيهم ﴿وَيُحِبُّونَ أَنْ يُحْمَدُوا بِمَا لَمْ يَفْعَلُوا﴾ [آل عمران: ١٨٨] فإن قلت: فإن العرب تمدح بالجمال وحسن الوجوه، وذلك فعل الله، وهو مدح مقبول عند الناس غير مردود. قلت: الذي سوغ ذلك لهم أنهم رأوا حسن الرواء^(١) ووسامة المنظر في الغالب، يسفر عن مخبر مرضي وأخلاق محمودة، ومن ثم قالوا: أحسن ما في الدميم وجهه^(٢)، فلم يجعلوه من صفات المدح لذاته، ولكن لدلالته على غيره، على أن من محققة الثقات وعلماء المعاني من دفع صحة ذلك وخطأ المادح به، وقصر المدح على النعت بأقوال الخير: وهي الفصاحة والشجاعة والعدل والعفة، وما يتشعب منها ويرجع إليها، وجعل الوصف بالجمال والثروة وكثرة الحفدة والأعضاء وغير ذلك مما ليس للإنسان فيه عمل غلطاً ومخالفة عن المعقول. و﴿الْكُفْرُ﴾ تغطية نعم الله تعالى وغمطها بالجحود. و﴿الْفُسُوقُ﴾ الخروج عن قصد الإيمان ومحجته بركوب الكبائر. و﴿الْعَصِيَانُ﴾ ترك الانقياد والمضي لما أمر به الشارع. والعرق العاصي: العاند^(٣). واعتصت النواة: اشتدت. والرشد: الاستقامة على طريق الحق مع تصلب فيه من الرشادة وهي الصخرة. قال أبو الوازع: كل صخرة رشادة؛ وأنشد [من الوافر]:
وَعَيْرُ مُقْلَدٍ وَمُوشِمَاتٍ صَلِينَ الضُّوءِ مِنْ صُمِّ الرِّشَادِ^(٤)

والتقل، فإنه يتمسك في تأويلها بالجمال المذكورة في التحكم بقياس الغائب على الشاهد، مما له إدلاء إلى تعويج كتاب الله الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه؛ فالذي نعتده - ثبتنا الله على الحق - أن الله تعالى منج ومدح وأعطى وامتن؛ فلا موجود إلا الله وصفاته وأفعاله، غير أنه تعالى جعل أفعاله بعضها محلاً لبعض، فسمى المحل فاعلاً والحال فاعلاً؛ فهذا هو التوحيد الذي لا محيص عنه للمؤمن ولا محيد، ولا بد أن أطارحه القول فأقول: أخبرني عن ثناء الله على أنبيائه ورسله بما حاصله اصطفاؤه لهم لاختياره إياهم: هل بمكتسب أم بغير مكتسب، فلا يسعه أن يقول: إلا أنه أثنى عليهم بما لم يكتسبوه، بل بما وهبه إياهم فاتهبوه. وإن عرج على القسم الآخر وهو دعوى أنهم أثنى عليهم بمكتسب لهم من رسالة أو نبوة، فقد خرج عن أهل الملة، وانحرف عن أهل القبلة، وهذه النبتة كفاية إن شاء الله تعالى.

(١) قوله: «حسن الرواء» في الصحاح: الرواء - بالضم -: المنظر. (ع)

(٢) قوله: «ما في الدميم وجهه» في الصحاح: «الدميم»: القبيح. (ع)

(٣) قوله: «والعرق العاصي: العاند» في الصحاح: عند العرق: سال ولم يرقأ، فهو عرق عاند. (ع)

(٤) الظاهر أن الشاعر يصف الديار بأنها لم يبق فيها غير وتد الخباء المقلد بالجل، وغير الأثافي المغير لونها بالنار. والوشم والتوشيم: تغيير اللون، أي: التي احترقت بضوئها أي حرها. ومن صم الرشاد: بيان لها. والصم: جمع صماء، أي: صلبة. والرشاد الصخر: واحده رشادة. وقيل: يصف مطايا بأنها مطبوعة على العمل غير محتاجة للزمام، وأنها غيرها أثر السير قوية، بحيث يظهر الشرر من شدة وقع خفافها على الصخر الصلب.

﴿فَضْلًا﴾ مفعول له، أو مصدر من غير فعله^(١)، فإن قلت: من أين جاز وقوعه مفعولاً له، والرشد فعل القوم، والفضل فعل الله تعالى، والشرط أن يتحد الفاعل. قلت: لما وقع الرشد عبارة عن التحبيب والتزيين والتكريه، مسندة إلى اسمه تقدست أسماؤه: صار الرشد كأنه فعله، فجاز أن ينتصب عنه أو لا ينتصب عن الراشدون، ولكن عن الفعل المسند إلى اسم الله تعالى، والجملة التي هي ﴿أُولَئِكَ هُمُ الرَّاشِدُونَ﴾ اعتراض. أو عن فعل مقدر، كأنه قيل: جرى ذلك، أو كان ذلك فضلاً من الله. وأما كونه مصدرًا من غير فعله، فإن يوضع موضع (رشدًا)؛ لأنّ رشدهم فضل من الله لكونهم موفقين فيه، والفضل والنعمة بمعنى الإفضال والإنعام. ﴿وَاللَّهُ عَلِيمٌ﴾ بأحوال المؤمنين وما بينهم من التمايز والتفاضل ﴿حَكِيمٌ﴾ حين يفضل وينعم بالتوفيق على أفاضلهم.

﴿وَإِنْ طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلَحُوا بَيْنَهُمَا فَإِنْ بَغَتْ إِحْدَاهُمَا عَلَى الْأُخْرَىٰ فَفْتِنُوا أَلَا يَبْغِي حَتَّىٰ تَقِيَّ إِلَىٰ أَمْرِ اللَّهِ فَإِنْ فَاءَتْ فَأَصْلَحُوا بَيْنَهُمَا بِالْعَدْلِ وَأَقْسِطُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ﴾

عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: وقف رسول الله ﷺ على مجلس بعض الأنصار وهو على حمار فبال الحمار، فأمسك عبد الله بن أبيّ بأنفه وقال: خل سبيل حمارك فقد

(١) أعرب الزمخشري فضلاً في الآية مفعولاً لأجله، منصّباً عن قوله: الراشدون... الخ قال أحمد: أورد الإشكال بعد تقرير أن الرشد ليس من فعل الله تعالى، وإنما هو فعلهم حقيقة على ما هو معتقده، ونحن بنينا على ما بينا: أن الرشد من أفعال الله ومخلوقاته، فقد وجد شرط انتصاب المفعول له، وهو اتحاد فاعل الفعلين، على أن الإشكال وارد نصّاً على تقريرنا على غير الحد الذي أورده عليه الزمخشري، بل من جهة أن الله تعالى خاطب خلقه بلغتهم المعهودة عندهم. ومما يعهدونه أن الفاعل من نسب إليه الفعل؛ وسواء كان ذلك حقيقة أو مجازاً حتى يكون زيد فاعلاً وانقض الحائط وأشباهه كذلك. وقد نسب الرشد إليهم على طريقة أنهم الفاعلون وإن كانت النسبة مجازية باعتبار المعتقد، وإذا تقرر وروده على هذا الوجه ذلك في الجواب عنه طريقان: إما جواب الزمخشري، وإما أمكن منه وأبين: وهو أن الرشد هنا يستلزم كونه راشداً؛ إذ هو مطاوعه؛ لأن الله تعالى أرشدهم فرشدوا. وحينئذ يتحد الفاعل على طريقة الصناعة المطابقة للحقيقة وهو عكس قوله: (يريكم البرق خوفاً وطمعاً) فإن الإشكال بعينه وارد فيها؛ إذ الخوف والطمع فعلهم، أي: منسوب إليهم على طريقة أنهم الخائفون الطامعون، والفعل الأول لله تعالى؛ لأنه مريهم ذلك، والجواب عنه: أنهم مفعولون في معنى الفاعلين، بواسطة استلزام المطاوعة؛ لأنه إذا أراهم فقد رأوا. وقد سلف هذا الجواب مكانه، فصححت الكلام ههنا بتقدير المفعول فاعلاً وعكسه آية الحجرات؛ إذ تصحيح الكلام فيها بتقدير الفاعل مفعولاً، وهذا من دقائق العربية فتأمل، والله الموفق.

آذانا نتنه. فقال عبد الله بن رواحة: والله إن بول حماره لأطيب من مسكك (١٤٧٢) وروي: حماره أفضل منك، وبول حماره أطيب من مسكك (١٤٧٣)؛ ومضى رسول الله ﷺ وطال الخوض بينهما حتى استبا وتجالدا ١٩٠/٢ ب، وجاء قوماهما وهما الأوس والخزرج، فتجالدوا بالعصي، وقيل: بالأيدي والنعال والسعف، فرجع إليهم رسول الله ﷺ وأصلح بينهم، ونزلت. وعن مقاتل: قرأها عليهم فاصطلحوا. والبغي: الاستطالة والظلم وإباء الصلح. والفيء: الرجوع، وقد سمي به الظل والغنيمة؛ لأن الظل يرجع بعد نسخ الشمس، والغنيمة: ما يرجع من أموال الكفار إلى المسلمين، وعن أبي عمرو: «حتى تفي» بغير همز؛ ووجهه أن أبا عمرو خفف الأولى من الهمزتين الملتقيتين فلطفت على الراوي تلك الخلصة^(١) فظنه قد طرحها. فإن قلت: ما وجه قوله: ﴿أَقْتُلُوا﴾ والقياس اقتلتا^(٢)، كما قرأ ابن أبي عبيدة «اقتلا» كما قرأ عبيد بن عمير على تأويل الرهطين أو النفرين؟ قلت: هو مما حمل على المعنى دون اللفظ؛ لأن الطائفتين في معنى القوم والناس. وفي قراءة عبد الله: «حتى يفيثوا إلى أمر الله» فإن فاءوا فخذوا بينهم بالقسط. وحكم الفئة الباغية: وجوب قتالها ما قاتلت. وعن ابن عمر: ما وجدت في نفسي من شيء ما وجدته من أمر هذه الآية إن لم أقاتل هذه الفئة الباغية كما أمرني الله عز وجل.

١٤٧٢ - قال الحافظ الزيلعي في «تخريج الكشاف» (٣/٣٣٥): غريب من حديث ابن عباس. وأخرجه البخاري (٣٥١/٥) كتاب الصلح: باب ما جاء في الإصلاح بين الناس حديث (٢٦٩١)، ومسلم (١٤٢٤/٣) كتاب الجهاد: باب (٤٠) حديث (١٧٩٩/١١٧) من حديث أنس بنحو ما ذكر المصنف وقال ابن حجر في تخريج أحاديث الكشاف. لم أره عن ابن عباس، وهو في الصحيحين من حديث أنس. وفيه: «فبلغنا أنها أنزلت» وإن طائفتان من المؤمنين... الآية. دون بول الحمار. وقوله: «والله إن بول حماره لأطيب من مسكك، وليس فيه أيضًا» وأنه صلى الله عليه وسلم مضى. ثم نزلت الآية. انتهى.

١٤٧٣ - قال الحافظ ابن حجر: لم أره هكذا، وحديث أنس في الصحيحين «والله لحمار رسول الله - ﷺ - أطيب ريحًا منك.. انتهى.

- (١) قوله: «تلك الخلصة» في الصحاح: خلست الشيء واختلسته، إذا استلبته «والاسم الخلصة - بالضم». (ع)
- (٢) قال محمود: «لم قال: اقتتلوا عدولاً... الخ» قال أحمد: قد تقدم في مواضع إنكار النحاة الحمل على لفظ «من»، بعد الحمل على معناها، وفي هذه الآية حمل على المعنى بقوله: (اقتتلوا) ثم على اللفظ بقوله: (بينهما) فلا يعتقد أن المقول في «من» مطرد في هذا؛ لأن المانع لزوم الإجمال والإبهام بعد التفسير، وههنا لا يلزم ذلك؛ إذ لا إبهام في الطائفة، بل لفظها مفرد أبدًا، ومعناها جمع أبدًا، وكانت كذلك لاختلاف أحوالها من حيث المعنى مرة جمعًا ومرة مفردًا، فتأمل، والله الموفق.

قاله بعد أن اعتزل: فإذا كافت وقبضت عن الحرب أيديتها تركت، وإذا تولت عُملَ بما روي عن النبي ﷺ أنه قال: «يا ابن أم عبد، هل تدري كيف حكم الله فيمن بغى من هذه الأمة؟ قال: الله ورسوله أعلم، قال: لا يجهز على جريحها، ولا يقتل أسيرها، ولا يطلب هاربها ولا يقسم فيؤها» (١٤٧٤) ولا تخلوا الفتتان من المسلمين في اقتتالهما: إما أن يقتتلا على سبيل البغي منهما جميعاً، فالواجب في ذلك أن يمشي بينهما بما يصلح ذات البين ويشمر المكافاة والمودعة، فإن لم تتحاجزا ولم تصطلحا وأقامتا على البغي: صير إلى مقاتلتهما، وإما أن يلتحم بينهما القتال لشبهة دخلت عليهما. وكلتاها عند أنفسهما محقة، فالواجب إزالة الشبهة بالحجج النيرة والبراهين القاطعة، وإطلاعهما على مرشد الحق. فإن ركبتا متن اللجاج ولم تعملتا على شاكلة ما هديتا إليه ونصحتا به من اتباع الحق بعد وضوحه لهما، فقد لحقتا بالفتنتين الباغيتين. وإما أن تكون إحداها الباغية على الأخرى؛ فالواجب أن تقاتل فئة البغي إلى أن تكف وتتب، فإن فعلت أصلح بينها وبين المبغي عليها بالقسط والعدل، وفي ذلك تفاصيل: إن كانت الباغية من قلة العدد بحيث لا منعة لها: ضمنت بعد الفيئة ما جنت، وإن كانت كثيرة ذات منعة وشوكة، لم تضمن إلا عند محمد بن الحسن رحمه الله؛ فإنه كان يفتي بأن الضمان يلزمها إذا فاءت. وأما قبل التجمع والتجند أو حين تتفرق عند وضع الحرب أوزارها، فما جنته ضمنته عند الجميع، فمحمل الإصلاح بالعدل في قوله تعالى: ﴿فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا بِالْعَدْلِ﴾ على مذهب محمد واضح منطبق على لفظ التنزيل، وعلى قول غيره: وجهه أن يحمل على كون الفئة قليلة العدد، والذي ذكروا أن الغرض إماتة الضغائن وسل الأحقاد دون ضمان الجنايات: ليس بحسن الطباق للمأمور به من أعمال العدل ومراعاة القسط. فإن قلت: فلم قرن بالإصلاح الثاني العدل دون الأول؟ قلت: لأن المراد بالافتتال في أول الآية أن يقتتلا باغيتين معاً أو راكبتي شبهة، وأيتهما كانت، فالذي يجب على المسلمين أن يأخذوا به في شأنهما: إصلاح ذات

١٤٧٤ - أخرجه الحاكم (١٥٥/٢)، وابن عدى (٢٠٩٦/٦)، والبيهقي (١٨٢/٨) من طريق كوثر بن حكيم عن نافع عن ابن عمر، وسكت عنه الحاكم، وقال الذهبي: كوثر متروك. وقال البيهقي: تفرد به كوثر بن حكيم وهو ضعيف. والحديث أخرجه أيضاً البزار، والحاثر، والواحدى، كما في «تخريج الكشاف» (٣٣٦/٣) وقال البزار: لا نعلم رواه عن النبي ﷺ - إلا ابن عمر، ولا طريق له غير هذا الطريق أ. هـ وقال في التنقيح: هذا حديث غير ثابت وقال الحافظ ابن حجر: أخرجه الحاكم في المستدرک، والبزار، والحاثر، وابن عدى من رواية كوثر بن حكيم النافع، عن نافع، عن ابن عمر. وكوثر متروك، قال فيه أحمد: أحاديثه أباطيل. انتهى.

البين، وتسكين الدهماء^(١) بإراءة الحق والمواظب الشافية، ونفي الشبهة؛ إلا إذا أصرتا، فحينئذ تجب المقاتلة. وأما الضمان فلا يتجه، وليس كذلك إذا بغت إحداهما؛ فإنَّ الضمان متجه على الوجهين المذكورين. ﴿وَأَقِصُوا﴾ أمر باستعمال القسط على طريق العموم بعد ما أمر به في إصلاح ذات البين، والقول فيه مثله في الأمر باتقاء الله على عقب النهي عن التقديم بين يديه، والقسط - بالفتح -: الجور من القسط: وهو اعوجاج في الرجلين^(٢). وعود قاسط: يابس. وأقسطه الرياح. وأما القسط بمعنى العدل، فالفعل منه: أقسط، وهمزته للسلب، أي: أزال القسط وهو الجور.

﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلَحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾

هذا تقرير لما ألزمه من تولي الإصلاح بين من وقعت بينهم المشاقة من المؤمنين، وبيان أن الإيمان قد عقد بين أهله من السبب القريب والنسب اللاصق: ما إن لم يفضل الأخوة ولم يبرز عليها لم ينقص عنها ولم يتقاصر عن غايتها. ثم قد جرت عادة الناس على أنه إذا نشب مثل ذلك بين اثنين من إخوة الولاد، لزم السائر أن يتناهما في رفعه وإزاحته، وأن يركبوا الصعب والذلول مشيًا بالصلح وبثًا للسفراء^(٣) بينهما، إلى أن يصادف ما وهي من الوفاق من يرقعه، وما استثنى^(٤) من الوصال من يبله؛ فالأخوة في الدين أحق بذلك وبأشد منه. وعن النبي ﷺ: «المسلم أخو المسلم لا يظلمه، ولا يخذله/ ٢/ ١٩١، ولا يعيبه، ولا يتناول عليه في البنيان فيستر عنه الريح إلا بإذنه، ولا يؤذيه بقتار قدره»^(٥) ثم قال: «احفظوا، ولا يحفظ منكم إلا قليل» (١٤٧٥). فإن قلت: فلم خص الاثنان

١٤٧٥ - أخرجه الثعلبي في «تفسيره كما في» تخريج الكشاف» (٣/ ٣٣٦).

وصدر الحديث في الصحيحين وقد تقدم تخريجه وقال ابن حجر: أخرجه الثعلبي من رواية إسماعيل بن رافع عن سعيد عن أبي هريرة سواء وزاد فيه: «ولا يؤذيه بقتار قدره إلا أن يغرف له منها. ولا يشتري لبنيه الفاكهة، فيخرجون بها إلى صبيان جاره ثم لا يطعمونهم منها». قلت: وإسناده ضعيف وأول الحديث في الصحيحين من وجه آخر عن أبي هريرة: وسيأتي في آخر تفسير سورة الواقعة. انتهى.

- (١) قوله: «الدهماء» أي: الجماعة. (ع)
- (٢) قوله: «وهو اعوجاج في الرجلين» في الصحاح: القسط - بالتحريك -: انتصاب في رجلي الدابة، وذلك عيب؛ لأنه يستحب فيهما الانحناء والتوقير اهـ. (ع)
- (٣) قوله: «وبثًا السفراء بينهما.. الخ» جمع سفير: وهو الرسول والمصلح بين القوم. (ع)
- (٤) قوله: «استثنى» في الصحاح: تشنن الجلد يس، واستثن الرجل: هزل. (ع)
- (٥) قوله: «بقتار قدره» في الصحاح: «القتار»: ريح الشواء. (ع)

بالذكر دون الجمع؟ قلت: لأن أقل من يقع بينهم الشقاق اثنان؛ فإذا لزمَت المصالحة بين الأقل كانت بين الأكثر ألزم؛ لأن الفساد في شقاق الجمع أكثر منه في شقاق الاثنين، وقيل: المراد بالأخوين الأوس والخزرج، وقرئ: «بين إخوتكم وإخوانكم» والمعنى: ليس المؤمنون إلا إخوة، وأنهم خلص لذلك متمحضون، قد انزاحت عنهم شبهات الأجنبية، وأبى لطف حالهم في التمازج والاتحاد أن يقدموا على ما يتولد منه التقاطع، فبادروا قطع ما يقع من ذلك إن وقع واحسموه، ﴿وَأَقْرَأُوا اللَّهَ﴾ فإنكم إن فعلتم لم تحملكم التقوى إلا على التواصل والاتلاف، والمصارعة إلى إماطة ما يفرط منه، وكان عند فعلكم ذلك وصول رحمة الله إليكم، واشتمال رأفته عليكم حقيقة بأن تعقدوا به رجاءكم.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِّن قَوْمٍ عَسَىٰ أَن يَكُونُوا خَيْرًا مِّنْهُمْ وَلَا نِسَاءٌ مِّن نِّسَاءٍ عَسَىٰ أَن يَكُنَّ خَيْرًا مِّنْهُنَّ وَلَا تَلْمِزُوا أَنْفُسَكُمْ وَلَا تَنَابَزُوا بِاللِّغَالِ بَشَرٌ لَّا تَلْمِزُ الْمُؤْمِنِينَ وَلَا تَلْمِزُ الْمُؤْمِنَاتِ لَكُمُ الْعَذَابُ عَن ذَٰلِكَ إِنَّكُمْ كُنْتُمْ عَن ذَٰلِكَ قَلِيلًا مِّنَ النَّاسِ﴾

القوم: الرجال خاصة؛ لأنهم القوام بأمور النساء. قال الله تعالى: ﴿الرِّجَالُ قَوَّامُونَ عَلَى النِّسَاءِ﴾ [النساء: ٣٤] وقال عليه الصلاة والسلام: «النساء لحم على وضم»^(١) إلا ما ذب عنه «(١٤٧٦)» والذابون هم الرجال، وهو في الأصل جمع قائم، كصوم وزور: في جمع صائم وزائر. أو تسمية بالمصدر. عن بعض العرب: إذا أكلت طعاماً أحببت نوماً وأبغضت قوماً. أي قياماً، واختصاص القوم بالرجال: صريح في الآية وفي قول زهير [من الوافر]:

أَقَوْمُ آلِ حِصْنٍ أَمْ نِسَاء؟^(٢)

١٤٧٦ - قال الحافظ ابن حجر: لم أره عن علي، وأخرجه ابن المبارك في البر والصلة من قول عمر بن الخطاب وكذلك رواه أبو عبيد وإبراهيم الحربي في الغريب. انتهى.

(١) قوله: «على وضم» الوضم: ما يوضع تحت اللحم من خشب وغيره يوقى به من الأرض. أفاده الصحاح. (ع)

(٢) وما أدري وسوف إخال أدري أقوم آل حصن أم نساء؟
فلن تكن النساء مخبات فحق لكل عصبه اعتداء

لزهير يهجو حصن بن حذيفة الفزاري. والقوم: الرجال فقط، حتى قيل: إنه جمع قائم، كصوم وزور، في صائم وزائر. وقيل: إنه في الأصل مصدر، والهمزة لطلب التعيين، ولكن الكلام من مجاهر العارف. ونساء: عطف على قوم الواقع خبراً من آل حصن، أو خبراً لمبتدأ محذوف، والعطف من عطف الجمل. ويجوز أن الهمزة للتسوية كالواقعة بعد سواء، كأنه قال: ما أبالي منهم، سواء أكانوا رجالاً أو نساء، فيتعين أنه من عطف الجمل لأجل التسوية، ولكن المقام يؤيد =

وأما قولهم في قوم فرعون وقوم عاد: هم الذكور والإناث، فليس لفظ القوم بمتعاط للفرقيين، ولكن قصد ذكر الذكور وترك ذكر الإناث؛ لأنهن توابع لرجالهن، وتنكير القوم والنساء يحتمل معنيين: أن يراد: لا يسخر بعض المؤمنين والمؤمنات^(١) من بعض؛ وأن تقصد إفادة الشيع، وأن تصير كل جماعة منهم منهيّة عن السخرية، وإنما لم يقل: رجل من رجل، ولا امرأة من امرأة على التوحيد^(٢)؛ إعلامًا بإقدام غير واحد من رجالهم وغير واحدة من نسائهم على السخرية، واستفظاعًا للشأن الذي كانوا عليه، ولأنّ مشهد الساخر لا يكاد يخلو ممن يتلهى ويستضحك على قوله، ولا يأتي ما عليه من النهي^(٣) والإنكار، فيكون شريك الساخر وتلوه في تحمل الوزر، وكذلك كل من يطرق سمعه فيستطيعه ويضحك به، فيؤدي ذلك - وإن أوجده واحد - إلى تكثر السخرة وانقلاب الواحد جماعة وقومًا. وقول تعالى: ﴿عَسَى أَنْ يَكُونُوا خَيْرًا مِنْهُمْ﴾ كلام مستأنف قد ورد مورد جواب المستخبر^(٤) عن العلة الموجبة لما جاء النهي^(٥) عنه، وإلا فقد كان حقه أن يوصل بما قبله

= الأول، وفي البيت الاعتراض بين سوف ومدخلها بالفعل الملقى عند المفعول، والاعتراض أيضًا بين ما أدري وبين الاستفهام بجملته التسويف؛ لأن «أدري» طالب لمفعولين وجملته «أقوم» سادة مسددهما، وانظر كيف خطر بباله أن ينفي الدراية بحال الآل. ثم قبل أن يكمل ذلك خطر بباله الجزم بأنه سوف يدري، ثم قبل أن يكمل ذلك قال: إن حصول الدراية في المستقبل على سبيل التخيّل والظن، فحكى حال النفس عند ترددّها في شأنه، فله در العرب ما ألطفهم في حكاية الحال بأبلغ مقال. وروي لست بدل سوف. وفيه نظر؛ واسم تكن ضمير القوم، والنساء خبرها، ومخبات حال، أي: فإن كن محصنات فحق لهن أن يهدين إلى أزواجهن، وهدي المرأة إلى زوجها وأهداها إليه إهداء، بمعنى.

ينظر: ديوانه ص ٧٣، والاشتقاق ص ٤٦، وجمهرة اللغة ص ٩٧٨، والدرر ٢/٢٦١، ٤/٢٨، ٥/١٢٦، وشرح شواهد الإيضاح ص ٥٠٩، وشرح شواهد المغني ص ١٣٠، ٤١٢، والصاحبي في فقه اللغة ص ١٨٩، ومغني اللبيب ص ٤١، ١٣٩، ٣٩٣، ٣٩٨، وبلا نسبة في همع الهوامع ١٥٣/١، ٢٤٨، ٧٢/٢.

(١) قال محمود: «لم يقل: لا يسخر بعض المؤمنين والمؤمنات... الخ» قال أحمد: ولو عرف فقال: لا يسخر المؤمنون بعضهم من بعض: لكانت كل جماعة منهم منهيّة ضرورة شمول النهي، ولكن أورد الزمخشري هذا، وإنما أراد في التنكير فائدة: أن كل جماعة منهيّة على التفصيل في الجماعات والتعرض بالنهي لكل جماعة على الخصوص، ومع التعريف تحصيل النهي، لكن لا على التفصيل بل على الشمول، والنهي على التفصيل أبلغ وأوقع.

(٢) عاد كلامه. قال: «وإنما لم يقل: رجل من رجل ولا امرأة من امرأة للإشعار... الخ» قال أحمد: وهو في غاية الحسن لا مزيد عليه.

(٣) قوله: «ولا يأتي ما عليه من النهي» أي يتلهى ولا يفعل ما عليه من نهى الساخر والإنكار عليه. (ع)

(٤) قال محمود: «وقوله: «عسى أن يكونوا خيرًا منهم» جواب للمستخبر عن علة النهي... الخ» قال أحمد: وهو من الطراز الأول.

(٥) قوله: «لما جاء النهي عنه» لعل ما مصدرية، ولفظ عنه مزيد من ناسخ الأصل، أي: لمجيء النهي، =

بالفاء. والمعنى وجوب أن يعتقد كل أحد أن المسخور منه ربما كان عند الله خيرًا من الساجر؛ لأنَّ الناس لا يطلعون إلا على ظواهر الأحوال ولا علم لهم بالخفيات، وإنما الذي يزن^(١) عند الله خلوص الضمائر وتقوى القلوب، وعلمهم من ذلك بمعزل، فينبغي أن لا يجترى أحد على الاستهزاء بمن تقتحمه عينه إذا رآه رث الحال، أو ذا عاهة في بدنه، أو غير لبيب في محادثته، فلعله أخلص ضميرًا وأتقى قلبًا ممن هو على ضدِّ صفته، فيظلم نفسه بتحقير من وقره الله والاستهانة بمن عظمه الله، ولقد بلغ بالسلف إفراط توقيهم وتصونهم من ذلك أن قال عمرو بن شرحبيل: لو رأيت رجلًا يرضع عنزًا فضحكت منه: خشيت أن أصنع مثل الذي صنعه (١٤٧٧). وعن عبد الله بن مسعود: البلاء موكل بالقول، لو سخرت من كلب لخشيت أن أحول كلبًا (١٤٧٨). وفي قراءة عبد الله: «عسوا أن يكونوا» و«عسين أن يكن»، فعسى على هذه القراءة هي ذات الخبر كالتي في قوله تعالى: ﴿فَهَلْ عَسَيْتُمْ﴾ [محمد: ٢٢] وعلى الأولى هي التي لا خبر لها كقوله تعالى: ﴿وَعَسَى أَنْ تَكُونُوا شِيعًا﴾ [البقرة: ٢١٦]. واللمز: الطعن والضرب باللسان. وقرئ: «ولا تلمزوا» بالضم. والمعنى: وخصوا أيها المؤمنون أنفسكم بالانتهاة من عيبتها والطعن فيها، ولا عليكم أن تعيبوا غيركم ممن لا يدين بدينكم ولا يسير بسيرتكم، ففي الحديث عن رسول الله ﷺ: «اذكروا الفاجر بما فيه كي يحذره الناس» (١٤٧٩) وعن الحسن رضي الله

١٤٧٧ - قال الحافظ: لم أره عنه وفي ابن أبي شيبة عن أبي موسى من قوله نحوه. انتهى.
 ١٤٧٨ - أخرجه ابن أبي شيبة في الأدب المفرد من رواية إبراهيم عن ابن مسعود بهذا. انتهى.
 ١٤٧٩ - أخرجه الطبراني في «المعجم الكبير» (٤١٨/١٩) رقم (١٠١٠) والعقيلي في «الضعفاء» (٢٠٢/١) وابن عدي في «الكامل» (٥٩٥/٢) وابن حبان في «المجروحين» (٢٢٠/١) والبيهقي في سننه (٢١٥/١٠) وفي شعب الإيمان. . (٩٦٦٦) والخطيب في «تاريخ بغداد» (٣٨٢/١)، ١٨٨/٣، ٧/٢٦٢) وفي «الكفاية» ص (٤٢) والسهمي في «تاريخ جرجان» (٧٥) كلهم من طريق الجارود بن يزيد عن بهز بن حكيم عن أبيه عن جده مرفوعًا. قال البيهقي: وهذا يعد في أفراد الجارود وقد روى عن غيره وليس بشيء ثم روى عن الحاكم بسنده إلى العلاء بن بشر ثنا سفيان بن عيينة عن بهز بن حكيم عن أبيه عن جده أن النبي صلى الله عليه وسلم - قال «ليس لفاسق غيبة». انتهى ثم قال: قال أبو عبد الله الحاكم: هذا غير صحيح ولا معتمد قال البيهقي: وهذا إن صح فإنما أراد به فاجرًا معلنًا بفجوره أو هو ممن يشهد في أمور الناس ويتعلق به شيء من الديانات فيحتاج إلى بيان حاله لئلا يعتمد عليه انتهى كلامه.
 قال الحافظ ابن حجر في تخريج أحاديث الكشاف:
 أخرجه أبو يعلى والترمذي الحكيم في النوادر في الثامن والستين والعقيلي وابن عدي، وابن حبان =

= وإلا: أي: وإلا يكن مستأنفًا. (ع)

(١) قوله: «وإنما الذي يزن عند الله» لعله: يزين. (ع)

عنه في ذكر الحجاج: أخرج إلي بنانا قصيرة قلما عرقت فيها الأعنة في سبيل الله ثم جعل يطبطب شعيرات له ويقول: يا أبا سعيد يا أبا سعيد، وقال لما مات: اللهم أنت أمته فاقطع سنته، فإنه أانا أخيفش أعيمش^(١) يخطر في مشيته ويصعد المنبر حتى تفوته الصلاة، لا من الله يتقي ولا من الناس يستحي، فوقه الله وتحتة مائة ألف أو يزيدون، لا يقول له قائل: الصلاة أيها الرجل الصلاة أيها الرجل، هيهات دون ذلك السيف والوسط. وقيل: معناه لا يحب بعضكم بعضًا؛ لأن المؤمنين كنفس واحدة، فمتى عاب المؤمن المؤمن فكأنما عاب نفسه. وقيل: معناه لا تفعلوا ما تلمزون به؛ لأن من فعل ما استحق به اللمز فقد لزم نفسه حقيقة. ١٩١/٢ ب والتنازع بالألقاب: التداعي بها: تفاعل من نبزه، وبنو فلان يتنازعون ويتنازعون ويقال: النبز^(٢) والنزب: لقب السوء والتلقب المنهي عنه، وهو ما يتداخل المدعو به كراهة؛ لكونه تقصيرًا به وذمًا له وشيئًا، فأما ما يحبه مما يزينه وينوه به فلا بأس به. روي عن النبي ﷺ: «من حق المؤمن على أخيه أن يسميه بأحب أسمائه إليه» (١٤٨٠) ولهذا

كلهم من رواية الجارود بن يزيد عن بهز بن حكيم. عن أبيه عن جده مرفوعًا أترعون عن ذكر الفاجر؟ اذكره بما فيه، كي يحذره الناس، واتفقوا على أن الجارود غير ثقة، وقال الدارقطني: هو من وضع الجارود ثم سرق منه جماعة منهم عمرو بن الأزهر، وسليمان بن عيسى عن الثوري عن بهز وسليمان وعمرو كذابان وقد رواه العلاء بن بشر عن ابن عيينة عن بهز: قال الدارقطني: وابن عيينة لم يسمع من بهز وغير لفظه فقال: «ليس للفاقد غيبة»، انتهى وهذا أورده البيهقي في الشعب عن الحاكم بسنده إلى العلاء وقال: قال الحاكم: هذا غير صحيح ولا معتمد. وقال ابن طاهر: روي عن معمر عن بهز أيضًا أخرجه عبد الوهاب أخو عبد الرزاق. وعبد الوهاب كذاب وأخرجه الطبراني في الأوسط وقال لم يروه عن معمر غيره، قال: وله طريق أخرى عن عمر بن الخطاب ورواه يوسف بن أبان حدثنا الأبرد بن حاتم أخبرني منهال السراج عن عمر. انتهى.

١٤٨٠ - أخرجه البيهقي في «شعب الإيمان» (٤٣٠/٦) رقم (٨٧٧٢) عن الحاكم بسنده إلى موسى بن عبد الملك بن عمير عن شيبه بن عثمان الحجبي عن عثمان بن طلحة عن النبي - صلى الله عليه وسلم - قال: «ثلاث يصفين لك ود أخيك: تسلم عليه إذا لقيته، وتوسع له في المجلس، وتدعوه بأحب أسمائه إليه» انتهى

وعزاه الزيلعي في تخريج الكشاف (٣/٣٤٠) إلى الطبراني في معجمه، وأبي يعلى الموصلي في مسنده من حديث ذبال بن عبيد بن حنظلة عن جده حنظلة بن جذيم المالكي رضي الله عنه، قال: كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يعجبه أن يدعى الرجل بأحب أسمائه إليه وكذلك عزاه الزيلعي في تخريج الكشاف (٣/٣٤٠ - ٣٤١) إلى ابن عدي في الكامل عن الحكم بن

(١) قوله: «فإنه أانا أخيفش أعيمش» في الصحاح «الخفش»: صغر في العين، وضعف في البصر خلقه، والرجل أخفش. وفيه: العمش في العين: ضعف الرؤية مع سيلان الدمع. والرجل أعمش اهـ. وأخيفش وأعيمش تصغير: أخفش وأعمش. (ع)

(٢) قوله: «ويقال: النبز» في الصحاح «النبز» بالتحريك: اللقب؛ وبالتسكين: المصدر. (ع)

كانت التكنية من السنة والأدب الحسن. قال عمر رضي الله عنه: أشيعوا الكنى فإنها منبهة. ولقد لقب أبو بكر بالعتيق والصديق، وعمر بالفاروق، وحمزة بأسد الله، وخالد بسيف الله، وقل من المشاهير في الجاهلية والإسلام من ليس له لقب، ولم تزل هذه الألقاب الحسنة في الأمم كلها من العرب والعجم تجري في مخاطباتهم ومكاتباتهم من غير تكبر. روي عن الضحاك أن قومًا من بني تميم استهزءوا ببلال وخباب وعمار وصهيب وأبي ذرّ وسالم مولى حذيفة. فنزلت. وعن عائشة رضي الله عنها أنها كانت تسخر من زينب بنت خزيمة الهلالية وكانت قصيرة. وعن ابن عباس أن أم سلمة ربطت حقوبها بسبية^(١) وسدلت طرفها خلفها وكانت تجرّه، فقالت عائشة لحفصة: انظري ما تجرّ خلفها كأنه لسان كلب. وعن أنس: غيرت نساء رسول الله ﷺ أم سلمة بالقصر. وعن عكرمة عن ابن عباس أن صفية بنت حيي أتت رسول الله ﷺ فقالت: إن النساء يعيرنني ويقلن يا يهودية بنت يهوديين، فقال لها رسول الله ﷺ: «هلا قلت: إن أبي هارون وإن عمي موسى وإن زوجي محمد» (١٤٨١)، وروي: أنها نزلت في ثابت بن قيس وكان به وقر،

== عبد الله بن سعد الأيلي عن الزهري عن سعيد بن المسيب عن عائشة أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «مكروه أن يدعو أحدكم أخاه يا هناء يا هذا، ولكن ليدع أحدكم أخاه بأحب أسمائه إليه» انتهى.

قال الحافظ ابن حجر في تخريج أحاديث الكشاف: لم أجد هكذا. وروى البيهقي في الشعب في الحادي والستين عن عثمان بن طلحة الحجري رفعه قال: «ثلاث مصفين لك ود أخيك: تسلم عليه إذا لقيته، وتوسع له في المجلس، وتدعوه بأحب أسمائه إليه» وفيه موسى بن عبد الملك بن عمير وهو ضعيف، وروى أبو يعلى والطبراني من حديث ذياب بن عبيد بن حنظلة حدثني جدي حنظلة بن جذيم قال: «كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يعجبه أن يدعى الرجل بأحب الأسماء إليه». انتهى

١٤٨١ - أخرجه الترمذي (٧٠٩/٥) كتاب المناقب: باب فضل أزواج النبي صلى الله عليه وسلم، حديث (٣٨٩٤)، وأحمد (١٣٥/٣ - ١٣٦)، والنسائي في السنن الكبرى (٢٩١/٥ - ٢٩٢): كتاب عشرة النساء: باب الافتخار، حديث (٨٩١٩)، وابن حبان في صحيحه (١٩٣/١٦ - ١٩٤) رقم (٧٢١١)، وأبو يعلى في مسنده (١٥٨/٦) رقم (٣٤٣٧)، وعبدالرزاق (٤٣٠/١١) رقم (٢٠٩٢١).

كلهم من طريق عبدالرزاق عن معمر عن ثابت عن أنس به.

وقال الترمذي: هذا حديث حسن صحيح. غريب من هذا الوجه. أ. هـ. وله طريق آخر:

أخرجه الترمذي (٧٠٨/٥): كتاب المناقب باب فضل أزواج النبي صلى الله عليه وسلم، حديث (٣٨٩٢) وقال: وهذا حديث غريب لا نعرفه من حديث صفية إلا من حديث هاشم الكوفي وليس =

(١) قوله: «حقوبها بسبية» في الصحاح «السب»: شقة كنان: والسبية: مثله. (ع)

وكانوا يوسعون له في مجلس رسول الله ﷺ لسمع؛ فأتى يوماً وهو يقول: تفسحوا لي، حتى انتهى إلى رسول الله صلى الله تعالى عليه وآله وسلم، فقال لرجل: تنح، فلم يفعل، فقال: من هذا؟ فقال الرجل: أنا فلان، فقال: بل أنت ابن فلانة، يريد: أمّا كان يعير بها في الجاهلية، فخرج الرجل فنزلت، فقال ثابت: لا أفخر على أحد في الحسب بعدها أبداً (١٤٨٢) ﴿لَا تَسْمُ﴾ ههنا بمعنى الذكر، من قولهم: طار اسمه في الناس بالكرم أو باللؤم، كما يقال: طار ثناؤه وصيته. وحقيقته: ما سما من ذكره وارتفع بين الناس. ألا ترى إلى قولهم: أشاد بذكره؛ كأنه قيل: بشئ الذكر المرتفع للمؤمنين^(١) بسبب ارتكاب هذه الجرائر^(٢) أن يذكروا بالفسق. وفي قوله: ﴿بَعْدَ الْإِيمَانِ﴾ ثلاثة أوجه: أحدها استقباح الجمع بين الإيمان وبين الفسق الذي يأباه الإيمان ويحظره، كما تقول: بشئ الشأن بعد الكبرة الصبوة^(٣) والثاني: أنه كان في شتائمهم لمن أسلم من اليهود: يا يهودي يا فاسق،

= بإسناده بذلك القوي.

- قال الحافظ في تخريج الكشاف: ذكره الثعلبي عن عكرمة، عن ابن عباس بغير إسناد، وفي الترمذي من رواية هاشم بن سعيد الكوفي: حدثنا كنانة حدثنا صفية بنت حيي قالت: «دخلت على النبي صلى الله عليه وسلم، وقد بلغني عن عائشة وحفصة كلام. فذكرت ذلك له فقال: ألا قلت: وكيف تكونا خيرًا مني وزوجي محمدًا - صلى الله عليه وسلم - وأبي هارون وعمي موسى - عليهما الصلاة والسلام - وكان الذي بلغها أنهن قلن نحن أكرم على رسول الله - صلى الله عليه وسلم - منها وخير منها نحن وأزواجه وبنات عمه» وقال: غريب - وليس إسناده بذلك. وروى الترمذي وابن حبان وأحمد والطبراني من رواية معمر عن ثابت عن أنس قال: «بلغ صفية أن حفصة قالت: بنت يهودي فبكت» فذكر معناه. انتهى

١٤٨٢ - قال الزيلعي في تخريج أحاديث الكشاف (٣/٣٤٢): غريب، وذكره الواحدي في أسباب النزول (ص/٤٠٩)، رقم (٧٦٢) وكذلك البغوي في تفسيره (٤/٢١٤)؛ كلاهما من رواية ابن عباس. قال الحافظ في تخريج الكشاف: ذكره الثعلبي، ومن تبعه عن ابن عباس بغير سند.

(١) قال محمود: «الاسم ههنا الذكر، من قولهم: طار اسمه في الناس بالكرم. كأنه قال: بشئ الذكر المرتفع للمؤمنين... الخ» قال أحمد: أقرب الوجوه الثلاثة لملاءمة لقاعدة أهل السنة وأولائها: هو أولها، ولكن بعد صرف الذم إلى نفس الفسق، وهو مستقيم؛ لأن الاسم هو المسمى. ولكن الزمخشري لم يستطع ذلك: انحرفاً إلى قاعدة: يصرف الذم إلى ارتفاع ذكر الفسق من المؤمن، تحوُّلاً على أن الاسم التسمية، ولا شك أن صرف الذم إلى نفس الفسق أولى. وأما الوجه الثاني، فأدخله لئيم له حمل الاسم على التسمية صريحاً. وأما الثالث فليتم له أن الفاسق غير مؤمن، وكلا القاعدتين مخالف للسنّة فاحذرهما، وبالله التوفيق. ولقد كشف الله لي عن مقاصده، حتى ما تنقلب له كلمة متحيزة إلى فئة البدعة إلا إذا أدركها الحق فكلمها، والله الحمد.

(٢) قوله: «هذه الجرائر» جمع جريمة، وهي الجنائية. أفاده الصحاح. (ع)

(٣) قوله: «بعد الكبرة الصبوة» الكبرة - بالفتح -: اسم للكبر في السن. والصبوة: الميل إلى الجهل =

فنهوا عنه، وقيل لهم: بشس الذكر أن تذكروا الرجل بالفسق واليهودية بعد إيمانه، والجملة على هذا التفسير متعلقة بالنهي عن التنازع. والثالث: أن يجعل من فسق غير مؤمن، كما تقول للمتحول عن التجارة إلى الفلاحة: بنست الحرفة الفلاحة بعد التجارة.

﴿يَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اجْتَنِبُوا كَثِيرًا مِّنَ الظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ وَلَا تَحْسَسُوا وَلَا يَغْتَبَ بََعْضُكُم بَعْضًا أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَن يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ رَّحِيمٌ﴾ (١٢)

يقال: جنبه الشر إذا أبعده عنه، وحقيقته: جعله منه في جانب، فيعدى إلى مفعولين. قال الله عز وجل: ﴿وَأَجْنِبْنِي وَبَنِيَّ أَنْ نَعْبُدَ الْأَصْنَامَ﴾ [إبراهيم: ٣٥] ثم يقال في مطاوعه: اجتنب الشر فتنقص المطاوعة مفعولاً. والمأمور باجتنابه هو بعض الظن، وذلك البعض موصوف بالكثرة: ألا ترى إلى قوله: ﴿إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ﴾؟ فإن قلت: بيّن الفصل بين ﴿كَثِيرًا﴾، حيث جاء نكرة وبينه لو جاء معرفة. قلت: مجيئه نكرة يفيد معنى البعضية، وإن في الظنون ما يجب أن يجتنب من غير تبين لذلك ولا تعيين؛ لثلا يجترىء أحد على ظن إلا بعد نظر وتأمل، وتميز بين حقه وباطله بأماره بينه، مع استشعار للتقوى والحذر، ولو عرف لكان الأمر باجتناب الظن منوطاً بما يكثر منه دون ما يقل، ووجب أن يكون كل ظن متصف بالكثرة مجتنباً، وما اتصف منه بالقلّة مرخصاً في تظننه. والذي يميز الظنون التي يجب اجتنابها عما سواها: أن كل ما لم تعرف له أماره صحيحة وسبب ظاهر: كان حراماً واجب الاجتناب؛ وذلك إذا كان المظنون به ممن شوهد منه الستر والصلاح، وأونس من الأمانة في الظاهر، فظن الفساد والخيانة به محرّم، بخلاف من اشتهر بين الناس بتعاطي الريب والمجاهرة بالخبائث. عن النبي ﷺ: «إن الله تعالى حرّم من المسلم دمه وعرضه وأن يظنّ به ظنّ السوء» (١٤٨٣) وعن الحسن/٢/١٩٢: كنا في زمان: الظنّ بالناس

١٤٨٣ - الحديث ورد في الصحيحين من حديث أبي هريرة مرفوعاً:

أخرجه البخاري (١٠٦/١٢)، كتاب الأدب، باب: «يا أيها الذين آمنوا اجتنبوا كثيراً من الظن...» الآية، حديث (٦٠٦٦) ومسلم (٣٦١/٨)، كتاب: البر والصلة والآداب، باب: تحريم الظن والتجسس...، حديث (٢٨) - (٢٥٦٣). وزاد مسلم: «كل المسلم على المسلم حرام دمه وماله وعرضه، إن الله لا ينظر إلى صوركم وأموالكم ولكنه ينظر إلى قلوبكم وأعمالكم»، مختصر.

- والبيهقي في الشعب (٥٠٧/٧ - ٥٠٨)، باب: السابغ والسبعون من شعب الإيمان، باب: في أن يحب المسلم لأخيه ما يحب لنفسه، حديث (١١١٥١).

= والفتوة. أفاده الصحاح. (ع)

حرام، وأنت اليوم في زمان اعمل واسكت، وظنّ بالناس ما شئت. وعنه: لا حرمة لفاجر. وعنه: إن الفاسق إذا أظهر فسقه وهتك ستره هتكه الله، وإذا استتر لم يظهر الله عليه لعله أن يتوب. وقد روي: من ألقى جلباب الحياء فلا غيبة له (١٤٨٤). والإثم: الذنب الذي يستحق صاحبه العقاب. ومنه قيل لعقوبته: الأثم، فعال منه: كالنكال والعذاب والوبال، قال [من الطويل]:

لَقَدْ فَعَلْتُ هَذَا النُّوَى بِي فَعَلَّةً أَصَابَ النُّوَى قَبْلَ الْمَمَاتِ أَثَامُهَا^(١)

= ابن ماجه (١٢٩٧/٢)، كتاب الفتن، باب: حرمة دم المؤمن وماله، حديث (٣٩٣٢) من حديث ابن عمر قال: رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم يطوف بالكعبة ويقول: ما أطيبك وأطيب ريحك. ما أعظمك وأعظم حرمتك. والذي نفس محمد بيده! لحرمة المؤمن أعظم عند الله حرمة منك. ماله ودمه وأن نظن به إلا خيراً.

- قال الحافظ في تخريج الكشاف: أخرجه ابن ماجه. من حديث ابن عمر بإسناد فيه لين، ولفظه «رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم يطوف بالكعبة، وهو يقول: ما أطيبك وأطيب ريحك ما أعظمك وأعظم حرمتك، والذي نفس محمد بيده لحرمة دم المؤمن أعظم عند الله حرمة منك: ماله ودمه وأن نظن به إلا خيراً» وروى ابن أبي شيبة من طريق مجالد عن الشعبي عن ابن عباس أن النبي صلى الله عليه وسلم نظر إلى الكعبة فقال «ما أعظمك...» وروى البيهقي في الشعب من طريق مجاهد عن عباس نحوه. وفيه حفص بن عبد الرحمن.

١٤٨٤ - أخرجه البيهقي في الشعب (١٠٨/٧ - ١٠٩)، في الباب التاسع والستين، باب: في السترة على أصحاب القروف، حديث (٩٦٦٤).

- والقضاعي في مسند الشهاب (٣٥٦/١)، حديث (٢٩٦).

- والبيهقي (٢١٠/١٠)، كتاب الشهادات، باب: «الرجل من أهل...». والخطيب في التاريخ (٤٣٨/٨) و(١٧١/٤).

- وابن عدي في الكامل (٣٧٧/١). كلهم من طريق أبي سعد الساعدي عن أنس بن مالك رضي الله عنه.

وأبو سعد قال الدارقطني في سؤالات البرقاني (ص ٧٧): مجهول يترك حديثه.

- قال الحافظ في تخريج الكشاف: أخرجه البخاري في الشعب في التاسع والستين والقضاعي في مسند الشهاب من طريق رواد بن الجراح عن أبي سعد الساعدي عن أنس وإسناده ضعيف. وأخرجه ابن عدي من رواية الربيع بن بدر عن أبان عن أنس. وإسناده أضعف من الأول.

- قال ابن حبان في الضعفاء: أبو سعد شيخ يروي عن أنس بن مالك المناكير، التي لا يشاركه فيها أحد، لا يجوز الاحتجاج به بحال. انتهى

(١) النوى: نية المسافر من قرب أو بعد، فهي مؤنثة، وتستعمل اسم جمع نية، فيذكر: أي لقد فعلت في هذه النية فعلة مسيئة، في بمعنى في، ثم دعا عليها بقوله: أصاب النوى التي أذنتني أناها، أي: جزاء تلك الفعلة. أو جزء النوى التي تستحقه. وقد يسمى الذنب إثماً وأثاماً، من إطلاق المسبب على السبب، وقال قبل الممات، أي: قبل موته ليتشفى فيها، فكأنه شبهها بعدو، ثم دعا عليها. ينظر: أساس البلاغة (أثم).

والهمزة فيه عن الواو، كأنه يثم الأعمال: أي يكسرهما بإحباطه. وقرئ: «ولا تحسبوا» بالحاء، والمعنيان متقاربان. يقال: تجسس الأمر إذا تطلبه وبحث عنه: تفعل من الجس، كما أن التلمس بمعنى التطلب من التلمس؛ لما في التلمس من الطلب. وقد جاء بمعنى الطلب في قوله تعالى: ﴿وَأَنَّا لَمَسْنَا لَئِمَّةً﴾ [الجن: ٨] والتحسس: التعرف من الحس، ولتقاربهما قيل لمشاعر الإنسان: الحواس بالحاء والجيم، والمراد النهي عن تتبع عورات المسلمين ومعاييبهم والاستكشاف عما ستروه. وعن مجاهد. خذوا ما ظهر ودعوا ما ستره الله. وعن النبي ﷺ: أنه خطب فرفع صوته حتى أسمع العواتق في خدورهن. وقال: «يا معشر من آمن بلسانه ولم يخلص الإيمان إلى قلبه، لا تتبعوا عورات المسلمين: فإن من تتبع عورات المسلمين تتبع الله عورته حتى يفضحه ولو في جوف بيته» (١٤٨٥).

١٤٨٥ - ورد من حديث ابن عمر، ومن حديث أبي برزة، ومن حديث البراء بن عازب، ومن حديث ثوبان، ومن حديث ابن عباس، ومن حديث بريدة.

- أما حديث ابن عمر: فرواه الترمذي (٣٧٨/٤)، كتاب البر والصلة، باب: ما جاء في تعظيم المؤمن، حديث (٢٠٣٢).

- وابن حبان (٧٥/١٣)، كتاب الحظر والإباحة، باب: الغيبة، حديث (٥٧٦٣).

- وأما حديث أبي برزة: فأخرجه أبو داود (٢٧٠/٤)، كتاب الأدب: باب: في الغيبة، حديث (٤٨٨٠).

- وأحمد (٤٢٠/٤ - ٤٢١ و ٤٢٤).

- وابن أبي الدنيا في الصمت (١٩٧).

- والبيهقي (٢٤٧/١٠)، كتاب الشهادات، باب: «من عضه غيره...».

- وأبو يعلى في مسنده (٤١٩/١٣)، حديث (٤) - (٧٤٢٣).

- وأما حديث البراء بن عازب: فأخرجه أبو يعلى (٢٣٧/٣ - ٢٣٨) حديث (٢٢) - (١٦٧٥).

- وعزاه الزيلعي في تخريج الكشاف (٣٤٥/٣) لابن مردويه في تفسيره.

- وذكره الهيثمي في مجمع الزوائد (٩٦/٨) وقال: ورجاله ثقات.

- وأما حديث ثوبان: فأخرجه أحمد (٢٧٩/٥)، ولفظه «لا تؤذوا عباد الله ولا تعيروهم، ولا تطلبوا عوراتهم؛ فإنه من طلب عورة أخيه المسلم؛ طلب الله عورته حتى يفضحه في بيته». انتهى

- وأما حديث ابن عباس: فأخرجه الطبراني في الكبير (١٨٦/١١)، حديث (١١٤٤٤).

- وعزاه الزيلعي في تخريج أحاديث الكشاف (٣٤٦/٣) لابن عدي في الكامل، وأعله بقدامة.

- وأما حديث بريدة: فعزاه الزيلعي في تخريج أحاديث الكشاف (٣٤٦/٣) لابن مردويه في تفسيره.

قال الحافظ في تخريج أحاديث الكشاف:

أخرجه الطبراني والعقيلي. وابن عدي من رواية قدامة بن محمد الأشجعي عن إسماعيل بن شبيب

الطائفي عن ابن جريج عن عطاء عن ابن عباس بهذا؛ وفي الباب عن ابن عمر رواه الترمذي، وابن

حبان في صحيحه ولفظه «صعد النبي - صلى الله عليه وسلم - المنبر فنادى بصوت رفيع: قال يا

معشر من أسلم بلسانه ولم يفيض الإيمان إلى قلبه، لا تؤذوا المسلمين ولا تعيروهم، ولا تتبعوا

عوراتهم، فإنه من تتبع عورة أخيه المسلم تتبع الله عورته، ومن تتبع الله عورته يفضحه. ولو في =

وعن زيد بن وهب: قلنا لابن مسعود: هل لك في الوليد بن عقبة بن أبي معيط تقطر لحيته خمراً؟ فقال ابن مسعود: إنا قد نهينا عن التجسس، فإن ظهر لنا شيء أخذنا به (١٤٨٥ مكرر). غابه واعتابه: كغاله واعتاله. والغيبة من الاغتيال، كالغيلة من الاغتيال^(١): وهي ذكر السوء في الغيبة. سئل رسول الله ﷺ عن الغيبة فقال: «أن تذكر أخاك بما يكره. فإن كان فيه فقد اغتبهته، وإن لم يكن فيه فقد بهته» (١٤٨٦) وعن ابن

جوف رحله» وعن أبي بردة عند أبي داود وأحمد والطبراني وأبي يعلى وعن البراء بن عازب عند أبي يعلى، والبيهقي في الشعب في التاسع والستين من رواية مصعب بن سلام عن أبي إسحاق عن البراء. وعن ثوبان عند أحمد بلفظ: «لا تؤذوا عباد الله ولا تعيروهم ولا تطلبوا عوراتهم، فإنه من طلب عورة أخيه المسلم طلب الله عورته حتى يفرضه في بيته» وعن بريدة عند الطبراني وابن مردويه ولفظه «صلينا الظهر خلف النبي - صلى الله عليه وسلم - فلما انقفل أقبل علينا غضبان، فنادى بصوت أسمع العوائق في جوف الخدور» فذكر نحوه. انتهى

١٤٨٥ - أخرجه أبو داود في سننه (٢٧٢/٤): كتاب الأدب باب في النهي عن التجسس، حديث (٤٨٩٠). وعبدالرزاق في مصنفه (٢٣٢/١٠): كتاب اللقطة، باب: التجسس، حديث (١٨٩٤٥)، والبيهقي في سننه الكبرى (٣٣٤/٨): كتاب الأشربة والحد فيها، باب ما جاء في النهي عن التجسس وفي الشعب (٩٩/٦): باب في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر حديث (٧٦٠٤). وقال الحافظ ابن حجر في تخريج الكشاف:

أخرجه أبو داود وابن أبي شيبة وعبدالرزاق والطبراني والبيهقي في الشعب في الثاني والخمسين من طرق عن الأعمش عن زيد بن وهب قال أتى ابن مسعود قيل له: هذا فلان تقطر لحيته خمراً لفظ أبي داود والباقي نحوه ورواه الحاكم والبخاري من رواية أسباط عن الأعمش فقال فيه «إن رسول الله صلى الله عليه وسلم نهانا عن التجسس» قال البخاري تفرد به أسباط وقال ابن أبي حاتم عن أبي زرعة والترمذي عن البخاري: أخطأ فيه أسباط والصحيح من رواية أبي معاوية وغيره عن الأعمش أن الله نهانا.

١٤٨٦ - أخرجه مسلم (٣٨٦/٨ - ٣٨٧)، كتاب: البر والصلة والآداب، باب: تحريم الغيبة، حديث (٧٠) - (٢٥٨٩).

- الترمذي (٣٢٩/٤)، كتاب: البر والصلة، باب: ما جاء في الغيبة، حديث (١٩٣٤).

- وأبو داود (٢٦٩/٤)، كتاب: الأدب، باب: في الغيبة، حديث (٤٨٧٤).

- وأحمد (٢٣٠/٢، ٤٥٨).

- والبيهقي (٢٤٧/١٠)، كتاب: الشهادات، باب: من عضه غيره.

- والبخاري في شرح السنة (٥١٧/٦)، كتاب: البر والصلة، باب: تحريم الغيبة، حديث (٣٤٥٤).

- والبخاري في الأدب المفرد (٤٢٥) كلهم من رواية أبي هريرة.

- قال الترمذي: هذا حديث حسن صحيح. وفي الباب عن أبي هريرة وابن عمر وعبدالله بن عمرو.

وقال الحافظ في تخريج أحاديث الكشاف: متفق عليه من حديث أبي هريرة. انتهى

(١) قوله: «كالغيلة من الاغتيال» كذا في الصحاح. وفيه يقال: قتله غيلة، وهو أن يخدعه فيذهب به إلى موضع فيقتله فيه. (ع)

عباس رضي الله عنهما: الغيبة إدام كلاب الناس. ﴿أَيُّجُبُ أَحَدُكُمْ﴾ تمثيل وتصوير لما يناله المغتاب من عرض المغتاب على أفظع وجه وأفحشه. وفيه مبالغات شتى: منها الاستفهام الذي معناه التقرير. ومنها جعل ما هو في الغاية من الكراهة موصولاً بالمحبة. ومنها إسناد الفعل إلى أحدكم والإشعار بأن أحداً من الأحدين لا يحب ذلك. ومنها أن لم يقتصر على تمثيل الاغتياب بأكل لحم الإنسان، حتى جعل الإنسان آخاً. ومنها أن لم يقتصر على أكل لحم الأخ حتى جعل ميتاً. وعن قتادة: كما تكره إن وجدت جيفة مدودة أن تأكل منها، كذلك فأكره لحم أخيك وهو حي. وانتصب ﴿مَيْتًا﴾ على الحال من اللحم. ويجوز أن ينتصب عن الأخ. وقرئ: «ميتاً»، ولما قرّره عز وجل بأن أحداً منهم لا يحب أكل جيفة أخيه، عقب ذلك بقوله تعالى: ﴿فَكَرِهْتُمُوهُ﴾ معناه: فقد كرهتموه واستقرّ ذلك. وفيه معنى الشرط، أي: إن صحّ هذا فكرهتموه، وهي الفاء الفصيحة، أي: فتحققت - بوجوب الإقرار عليكم وبأنكم لا تقدرون على دفعه وإنكاره؛ لإبلاء البشرية عليكم أن تجحدوا - كراهتكم له وتقذركم منه، فليتحقق أيضاً أن تكرهوا ما هو نظيره من الغيبة والطعن في أعراض المسلمين. وقرئ: «فَكَرِهْتُمُوهُ» أي: جبلتم على كراهته. فإن قلت: هلا عدّى بإلى كما عدّى في قوله: ﴿وَكَرِهَ إِلَيْكُمْ الْكُفْرَ﴾ وأيهما القياس؟ قلت: القياس تعذيبه بنفسه؛ لأنه ذو مفعول واحد قبل تثقيل حشوه، تقول: كرهت الشيء، فإذا ثقل استدعى زيادة مفعول. وأما تعذيبه بإلى، فتأول وإجراء لكره مجرى بغض؛ لأنّ «بغض» منقول من بغض إليه الشيء فهو بغض إليه، كقولك: حب إليه الشيء فهو حبيب إليه. والمبالغة في الثواب للدلالة على كثرة من يتوب عليه من عباده، أو لأنه ما من ذنب يقتضيه المقتطف إلا كان معفواً عنه بالتوبة. أو لأنه بليغ في قبول التوبة، منزل صاحبها منزلة من لم يذنب قط، لسعة كرمه. والمعنى: واتقوا الله بترك ما أمرتم باجتنابه والندم على ما وجد منكم منه، فإنكم إن اتقيتم تقبل الله توبتكم وأنعم عليكم بثواب المتقين الثائبين. وعن ابن عباس: أن سلمان كان يخدم رجلين من الصحابة ويسوّي لهما طعامهما، فنام عن شأنه يوماً، فبعثاه إلى رسول الله ﷺ يبغني لهما إداماً، وكان أسامة على طعام رسول الله ﷺ فقال: ما عندي شيء، فأخبرهما سلمان بذلك، فعند ذلك قال: لو بعثناه إلى بئر سميحة لغار ماؤها، فلما راحا إلى رسول الله ﷺ قال لهما: مالي أرى خضرة اللحم في أفواهكما، فقالا: ما تناولنا لحماً فقال: إنكما قد اغتبتما (١٤٨٧) فنزلت.

١٤٨٧ - قال الزيلعي في تخريج أحاديث الكشف: (٣/ ٣٤٨ - ٣٤٩): غريب، وعزه لأبي القاسم الأصبهاني في كتاب الترغيب والترهيب، وللعلبي في تفسيره.
- قال الحافظ: هكذا ذكره الثعلبي وربيعة بغير سند ولا راو. وفي الترغيب لأبي القاسم الأصبهاني من طريق حماد بن سلمة عن ثابت عن عبد الرحمن بن أبي ليلة نحوه. انتهى

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَنُكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾ (١٣)

﴿مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى﴾ من آدم وحواء. وقيل: خلقنا كل واحد منكم من أب وأم، فما منكم أحد إلا وهو يدلي بمثل ما يدلي به/٢/ ١٩٢ ب الآخر سواء بسواء، فلا وجه للتفاخر والتفاضل في النسب. والشعب: الطبقة الأولى من الطبقات الست التي عليها العرب، وهي: الشعب، والقبيلة، والعمارة، والبطن، والفخذ، والفصيلة؛ فالشعب يجمع القبائل، والقبيلة تجمع العائلات، والعمارة تجمع البطون، والبطن تجمع الأفخاذ، والفخذ تجمع الفصائل: خزيمة شعب، وكنانة قبيلة، وقريش عمارة، وقصي بطن، وهاشم فخذ، والعباس فصيلة، وسميت الشعوب؛ لأن القبائل تشعبت منها. وقرئ: «لتعارفوا» ولتعارفوا بالإدغام. ولتعرفوا، أي لتعلموا كيف تتناسبون. ولتتعرفوا. والمعنى: أن الحكمة التي من أجلها رتبكم على شعوب وقبائل هي أن يعرف بعضكم نسب بعض. فلا يعتزى إلى غير آبائه، لا أن تتفاخروا بالآباء والأجداد، وتدعوا التفاوت والتفاضل في الأنساب. ثم بين الخصلة التي بها يفضل الإنسان غيره ويكتسب الشرف والكرم عند الله تعالى فقال: ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَنُكُمْ﴾ وقرئ: «أَنْ» بالفتح، كأنه قيل: لم لا يتفاخر بالأنساب؟ فقيل: لأن أكرمكم عند الله أتقاكم لا أنسبكم. وعن النبي ﷺ: أنه طاف يوم فتح مكة، فحمد الله وأثنى عليه ثم قال: «الحمد لله الذي أذهب عنكم عبية^(١) الجاهلية وتكبرها، يا أيها الناس، إنما الناس رجلان: مؤمن تقي كريم على الله، وفاجر شقي هين على الله» (١٤٨٨) ثم قرأ الآية. وعنه عليه الصلاة والسلام: «من سره أن يكون أكرم الناس فليتق»

١٤٨٨ - ورد من حديث ابن عمر ومن حديث أبي هريرة.

فأما حديث ابن عمر: فأخرجه الترمذي (٣٨٩/٥)، كتاب: تفسير القرآن، باب: ومن سورة الحجرات، حديث (٣٢٧٠).

- والبخاري (٥٠٦/٦)، كتاب: البر والصلة، باب: الافتخار بالنسب، حديث (٣٤٣٨).

- وأبو داود مختصراً (١٧٦/٢)، كتاب: المناسك، باب: الطواف الواجب، حديث (١٨٧٦).

- وأبو يعلى مختصراً (١٣٤/١٠)، حديث (٣٤٧) - (٥٧٦١).

- وعبد بن حميد في مسنده (ص/٢٥٣ - ٢٥٤)، حديث (٧٩٥).

- وذكره الحافظ في المطالب العالية (١/٣٣٤) برقم (١١٢٧) مختصراً. وكذلك الهيثمي في المجمع (٢٤٦/٣).

- قال الترمذي: هذا حديث غريب لا نعرفه من حديث عبدالله بن دينار إلا من هذا الوجه، وعبدالله بن جعفر يضعف، ضعفه يحيى بن معين وغيره، وهو والد علي بن المديني، وفي الباب =

(١) قوله: «عبية الجاهلية» في الصحاح: رجل فيه عبية، أي: كبر وتجبر. وعبية الجاهلية: نخوتها. (ع)

الله» (١٤٨٩). وعن ابن عباس: كرم الدنيا الغني، وكرم الآخرة التقوى. وعن يزيد بن شجرة: مرّ رسول الله ﷺ في سوق المدينة فرأى غلاماً أسود يقول: من اشتراني فعلى شرط لا يمنعي عن الصلوات الخمس خلف رسول الله صلى الله تعالى عليه وآله وسلم، فاشتراه رجل فكان رسول الله صلى الله تعالى عليه وآله وسلم يراه عند كل صلاة، ففقدته يوماً فسأل عنه صاحبه، فقال: محموم، فعاده ثم سأل عنه بعد ثلاثة أيام فقال: هو لما به، فجاءه وهو في ذمائه^(١). فتولى غسله ودفنه، فدخل على المهاجرين والأنصار أمر

= عن أبي هريرة، وابن عباس. انتهى.

قال الهيثمي: رواه أبو يعلى وفيه موسى بن عبيدة وهو ضعيف وقد وثق فيما رواه عن غير عبدالله بن دينار وهذا منها.

وأما حديث أبي هريرة: فأخرجه أبو داود (٣٣١/٤)، كتاب: الأدب، باب: في التفاخر بالأحساب، حديث (٥١١٦).

- وعزاه الزيلعي في تخريج الكشاف (٣٥٠/٣ - ٣٥١) لابن المبارك في كتاب البر والصلة، ولابن مردويه في تفسيره.

قال الحافظ في الكشاف: أخرجه الترمذي وابن حبان، وأبو يعلى، وابن أبي حاتم من رواية ابن دينار عن ابن عمر، وفي الباب عن أبي هريرة أخرجه أبو داود، والترمذي، وأحمد، والبخاري، وابن المبارك في البر والصلة من رواية سعيد بن أبي سعيد عن أبيه عنه نحوه، ومنهم من قال عن سعيد عن أبي هريرة: وعن عبدالملك بن قدامة الحاطبي، حدثني أبي أن النبي - صلى الله عليه وسلم - عام فتح مكة، صعد المنبر فحمد الله وأثنى عليه ثم قال: أما بعد يا أيها الناس، فذكر نحوه وأخرجه. انتهى

١٤٨٩ - أخرجه الحاكم (٢٧٠/٤)، كتاب: الأدب، باب: لا تتكلموا بالحكمة عند الجاهل.

- والعقيلي في الضعفاء (٣٣٩/٤ - ٣٤٠)، رقم (١٩٤٦)، وأعله بهشام بن زياد، وقال: ليس لهذا الحديث طريق يثبت. انتهى

- وابن حبان في المجروحين (٨٨/٣) مختصراً، وقال: هشام بن زياد أبو المقدام: كان ممن يروي الموضوعات عن الثقات والمقلوبات عن الأثبات حتى يسبق إلى قلب المستمع أنه كان المعتمد لها، لا يجوز الاحتجاج به. جميعهم من طريق محمد بن كعب القرظي عن ابن عباس.

- وعزاه الزيلعي في تخريج الكشاف (٣٥١/٣ - ٣٥٢) لاسحاق بن راهويه في مسنده، ولابن عدي وللبيهقي في الزهد.

قال الحافظ ابن حجر في الكشاف: أخرجه الحاكم والبيهقي وأبو يعلى وإسحاق وعبدالله والطبراني وأبو نعيم في الحلية كلهم من طريق هشام بن زياد أبي المقدام عن محمد بن كعب عن ابن عباس وأتم منه. قال البيهقي في الزهد: تكلموا في هشام بسبب هذا الحديث، وأنه كان يقول: حدثني عن محمد بن كعب ثم ادعى أنه سمعه من محمد، ثم أخرجه البيهقي من طريق عبد الجبار بن محمد العطاردي والد أحمد بن عبدالرحمن الطيبي بن القاسم بن عروة عن محمد بن كعب عن ابن عباس يرفع الحديث نحوه. انتهى

(١) قوله: «وهو في ذمائه» في الصحاح «الذماء»: ممدود بقية الروح في المذبوب. (ع)

﴿قَالَتِ الْأَعْرَابُ ءَأَمَّا قُلٌّ لِّمَ تُؤْمِنُوا وَلَكِنْ قُولُوا أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ الْإِيمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ وَإِنْ تُطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ لَا يَلِتْكُمْ مِنْ أَعْمَالِكُمْ شَيْئًا إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ (١٤)

الإيمان: هو التصديق مع الثقة وطمأنينة النفس. والإسلام: الدخول في السلم. والخروج من أن يكون حرباً للمؤمنين بإظهار الشهادتين. ألا ترى إلى قوله تعالى: ﴿وَلَمَّا يَدْخُلِ الْإِيمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ﴾ فاعلم أن ما يكون من الإقرار باللسان من غير مواطاة القلب فهو إسلام، وما واطأ فيه القلب اللسان فهو إيمان. فإن قلت: ما وجه قوله تعالى: ﴿قُلْ لِّمَ تُؤْمِنُوا وَلَكِنْ قُولُوا أَسْلَمْنَا﴾ والذي يقتضيه نظم الكلام أن يقال: قل لا تقولوا آمنا، ولكن قولوا أسلمنا. أو قل لم تؤمنوا ولكن أسلمتم؟ قلت: أفاد هذا النظم تكذيب دعواهم أولاً، ودفع ما انتحلوه^(١)، فقيل: قل لم تؤمنوا. وروعي هذا النوع من التكذيب أدب حسن حين لم يصرح بلفظه، فلم يقل: كذبتهم، ووضع ﴿لَمَ تُؤْمِنُوا﴾ الذي هو نفي ما ادعوا إثباته موضعه، ثم نبه على ما فعل من وضعه موضع كذبتهم في قوله في صفة المخلصين ﴿أُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ﴾ [الحجرات: ١٥] تعريضاً بأن هؤلاء هم الكاذبون، ورب تعريض لا يقاومه التصريح، واستغنى بالجملة التي هي لم: ﴿تُؤْمِنُوا﴾ عن أن يقال: لا تقولوا آمنا، لاستهجان أن يخاطبوا بلفظ مؤذاه النهي عن القول بالإيمان، ثم وصلت بها الجملة المصدرة بكلمة الاستدراك محمولة على المعنى، ولم يقل: ولكن أسلمتم، ليكون خارجاً مخرج الزعم والدعوى، كما كان قولهم: ﴿ءَأَمَّا قُلٌّ﴾ كذلك، ولو قيل: ولكن أسلمتم، لكان خروجه في معرض التسليم لهم والاعتداد بقولهم وهو غير معتد به. فإن قلت: قوله: ﴿وَلَمَّا يَدْخُلِ الْإِيمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ﴾ بعد قوله تعالى: ﴿قُلْ لَمَ تُؤْمِنُوا﴾ يشبه التكرير من غير استقلال بفائدة متجددة. قلت: ليس كذلك، فإن فائدة قوله: ﴿لَمَ تُؤْمِنُوا﴾ هو تكذيب

١٤٩٠ - ذكره الزيلعي في تخريج أحاديث الكشاف (٣/٣٥٣) وعزاه للثعلبي.
وقال الحافظ ابن حجر: هكذا ذكره الثعلبي والواحدى بغير سند. انتهى

(١) قال محمود: «وجه هذا النظم تكذيب دعواهم أولاً. . . الخ» قال أحمد: ونظير هذا النظم ومراعاة هذه اللطيفة قوله تعالى: ﴿إِذَا جَاءَكَ الْمُتَّقُونَ قَالُوا تَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ اللَّهِ﴾ ثم قال: ﴿وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ الْمُتَّقِينَ لَكَاذِبُونَ﴾ ولما كان مؤدى هذا تكذيب الله تعالى لهم في شهادتهم برسالة النبي ﷺ قدم على ذلك مقدمة تلخص المقصود وتخلصه من حوادث الوهم ونوابه، فقال بين الكلامين: ﴿وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُ﴾، ثم قال بعد ذلك: ﴿وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ الْمُتَّقِينَ لَكَاذِبُونَ﴾ فتلخص من ذلك أنهم كذبوا فيما ادعوه من شهادة قلوبهم الحق؛ لأن ذلك حقيقة الشهادة، لا أنهم كذبوا في أن رسول الله ﷺ رسول من الله وكان المخلص من ذلك قوله جل وعلا: ﴿وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُ﴾.

دعواهم، وقوله: ﴿وَلَمَّا يَدْخُلِ الْإِيمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ﴾ توقيت لما أمروا به أن يقولوه، كأنه قيل لهم ﴿وَلَكِنْ قُولُوا أَسْلَمْنَا﴾ حين لم تثبت مواطأة قلوبكم لألسنتكم؛ لأنه كلام واقع موقع الحال من الضمير في ﴿قُولُوا﴾ وما في (لما) من معنى التوقع: دال على أن هؤلاء قد آمنوا فيما بعد ﴿لَا يَلْتَكُرُ﴾ لا ينقصكم ولا يظلمكم. يقال: ألتة السلطان حقه أشد الألت، وهي لغة غطفان. ولغة أسد وأهل الحجاز: لاته ليتا. وحكى الأصمعي عن أم هشام السلولية أنها قالت: الحمد لله الذي لا يفات ولا يلات، ولا تصمه الأصوات^(١). وقرئ باللغتين «لا يلتكم» ولا يالتكم. ونحوه في المعنى ﴿فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا﴾ [الأنبياء: ٤٧]. ومعنى طاعة الله ورسوله/٢/١٩٣: أن يتوبوا عما كانوا عليه من النفاق ويعقدوا قلوبهم على الإيمان ويعملوا بمقتضياته، فإن فعلوا ذلك تقبل الله توبتهم، ووهب لهم مغفرته. وأنعم عليهم بجزيل ثوابه. وعن ابن عباس رضي الله عنهما أن نفرا من بني أسد قدموا المدينة في سنة جدبة، فأظهروا الشهادة، وأفسدوا طرق المدينة بالعدرات، وأغلوا أسعارها، وهم يغدون ويروحون على رسول الله ﷺ ويقولون: أتتكم العرب بأنفسها على ظهور رواحلها، وجئناك بالأنقال والذراري، يريدون الصدقة ويمنون عليه، فنزلت.

﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أُولَٰئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ﴾ (١٥)

ارتاب: مطاوع رابه إذا أوقعه في الشك مع التهمة. والمعنى: أنهم آمنوا ثم لم يقع في نفوسهم شك فيما آمنوا به، ولا اتهم لمن صدقوه واعترفوا بأن الحق منه. فإن قلت: ما معنى ثم ههنا وهي للتراخي وعدم الارتباب يجب أن يكون مقارنا للإيمان لأنه وصف فيه، لما بينت من إفادة الإيمان معنى الثقة والطمأنينة التي حقيقتها التيقن وانتفاء الريب؟ قلت: الجواب على طريقتين، أحدهما أن من وجد منه الإيمان ربما اعترضه الشيطان أو بعض المضلين بعد تلج الصدر فشككه وقذف في قلبه ما يثلم يقينه، أو نظر هو نظرا غير سديد يسقط به على الشك ثم يستمر على ذلك راكبا رأسه لا يطلب له مخرجا، فوصف المؤمنون حقا بالبعد عن هذه الموبقات. ونظيره قوله: ﴿ثُمَّ أَسْتَقَمُوا﴾ [فصلت: ٣٠] والثاني: أن الإيقان وزوال الريب لما كان ملاك الإيمان أفرد بالذكر بعد تقدم الإيمان، تنبيهًا على مكانه؛ وعطف على الإيمان بكلمة التراخي إشعارًا باستقراره في الأزمنة

(١) قوله: «ولا تصمه الأصوات» إن كان من الوصم فالمعنى: لا تصدعه الأصوات ولا تعييه، وإن كان من الصمم فالمعنى: لا تجد أصم. وفي الصحاح «الوصم»: الصدع والعيب. وفيه «أصمته»: وجدته أصم. (ع)

المتراخية المتطاوله غصًا جديدًا. ﴿وَجَهْدُوا﴾ يجوز أن يكون المجاهد منويًا وهو العدو المحارب أو الشيطان أو الهوى. وأن يكون جاهد مبالغة في جهد. ويجوز أن يراد بالمجاهدة بالنفس: الغزو، وأن يتناول العبادات بأجمعها، وبالمجاهدة بالمال: نحو ما صنع عثمان رضي الله عنه في جيش العسرة، وأن يتناول الزكوات وكل ما يتعلق بالمال من أعمال البر التي يتحامل فيها الرجل على ماله لوجه الله تعالى ﴿أُولَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ﴾ الذين صدقوا في قولهم آمنا، ولم يكذبوا كما كذب أعراب بني أسد، أو هم الذين إيمانهم إيمان صدق وإيمان حق وجد وثبات.

﴿قُلْ أَتَعْلَمُونَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ (١١)

يقال: ما علمت بقدمك، أي: ما شعرت به ولا أحطت به. ومنه قوله تعالى: ﴿أَتَعْلَمُونَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ وفيه تجهيل لهم.

﴿يَمُنُونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُوا قُلْ لَا تَمُنُوا عَلَيَّ إِلَّا سَلَمْتُ عَلَى اللَّهِ يَمُنْ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَيْكُمْ لِلْإِيمَانِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ (١٧) إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿١٨﴾

يقال: من عليه بيد أسداها إليه، كقولك: أنعم عليه وأفضل عليه. والمنة: النعمة التي لا يستثيب مسديها من يزلها إليه^(١)؛ واشتقاقها من المن الذي هو القطع، لأنه إنما يسديها إليه ليقطع بها حاجته لا غير، من غير أن يعمد لطلب مثوبة. ثم يقال: من عليه صنعه، إذا اعتده عليه منة وإنعامًا. وسياق هذه الآية فيه لطف ورشاقة، وذلك أن الكائن من الأعراب قد سماه الله إسلامًا، ونفى أن يكون كما زعموا إيمانًا؛ فلما منوا على رسول الله ﷺ ما كان منهم قال الله سبحانه وتعالى لرسوله عليه الصلاة والسلام: إِنَّ هَؤُلَاءِ يَعْتَدُونَ عَلَيْكَ بِمَا لَيْسَ جَدِيرًا بِالْإِعْتِدَادِ بِهِ مِنْ حَدِيثِهِمُ الَّذِي حَقَّ تَسْمِيَتُهُ أَنْ يَقَالَ لَهُ إِسْلَامٌ. فقل لهم: لا تعتدوا على إسلامكم، أي حديثكم المسمى إسلامًا عندي لا إيمانًا. ثم قال: بل الله يعتد عليكم أن أمركم بتوفيقه حيث هداكم للإيمان على ما زعمتم وادعيتم أنكم أرشدتم إليه ووفقتم له إن صح زعمكم وصدقت دعواكم، إلا أنكم تزعمون وتدعون ما الله عليهم بخلافه. وفي إضافة الإسلام إليهم وإيراد الإيمان غير مضاف: ما لا يخفى على المتأمل، وجواب الشرط محذوف لدلالة ما قبله عليه، تقديره: إن كنتم صادقين في ادعائكم

(١) قوله: «من يزلها إليه» في الصحاح: أزلت إليه نعمته، أي: أستديتها إليه. وفي الحديث «من أزلت إليه نعمة فليشكرها» وأزلت شيئًا من حقه، أي: أعطيت اهـ. (ع)

الإيمان، فله المنة عليكم. وقرئ: «إن هداكم» بكسر الهمزة. وفي قراءة ابن مسعود رضي الله عنه: إذ هداكم. وقرئ: «تعلمون» بالتاء والياء، وهذا بيان لكونهم غير صادقين في دعواهم، يعني أنه عز وجل يعلم كل مستتر في العالم ويبصر كل عمل تعملونه في سرهم وعلايتكم، لا يخفى عليه منه شيء، فكيف يخفى عليه ما في ضمائرهم ولا يظهر على صدقكم وكذبكم، وذلك أن حاله مع كل معلوم واحدة لا تختلف.

عن رسول الله ﷺ: «من قرأ سورة الحجرات أعطي من الأجر بعدد من أطاع الله ومن عصاه» (١٤٩١). / ٢ / ١٩٣ ب.

سورة ق

مكية [إلا آية ٣٨ فمدينية]
وآياتها ٤٥ نزلت بعد [المرسلات]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿ق وَالْقُرْآنِ الْمَجِيدِ ﴿١﴾ بَلْ عَجِبُوا أَنْ جَاءَهُمْ مُنْذِرٌ مِنْهُمْ فَقَالَ الْكَافِرُونَ هَذَا شَيْءٌ عَجِيبٌ ﴿٢﴾ أَوَلَمْ يَكُنْ لَهُمْ آيَاتُ أَنْذَارٍ فَكُفُّوا أَلْسِنَهُمْ عَنِ الْقُرْآنِ أَلَمْ يَكُنْ لَهُمْ آيَاتُ أَنْذَارٍ﴾

الكلام في ﴿ق وَالْقُرْآنِ الْمَجِيدِ ﴿١﴾ بَلْ عَجِبُوا﴾ نحوه في ﴿ص وَالْقُرْآنِ ذِي الذِّكْرِ ﴿١﴾ بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ [ص: ١ - ٢] سواء بسواء، لالتقائهما في أسلوب واحد. والمجيد: ذو المجد والشرف على غيره من الكتب، ومن أحاط علماً بمعانيه وعمل بما فيه: مجد عند الله وعند الناس، وهو بسبب من الله المجيد، فجاز اتصافه بصفته. قوله بل عجبوا: ﴿أَنْ جَاءَهُمْ مُنْذِرٌ مِنْهُمْ﴾ إنكار لتعجبهم مما ليس بعجب، وهو أن ينذرهم بالمخوف رجل منهم قد عرفوا وساطته فيهم وعدالته وأمانته، ومن كان على صفته لم يكن إلا ناصحاً لقومه مترفعاً^(١) عليهم، خائفاً أن ينالهم سوء ويحل بهم مكروه، وإذا علم أن مخوفاً أظلمهم، لزمه أن ينذرهم ويحذرهم، فكيف بما هو غاية المخاوف ونهاية المحاذير، وإنكار لتعجبهم مما أنذرهم به من البعث، مع علمهم بقدرة الله تعالى على خلق السموات والأرض وما بينهما، وعلى اختراع كل شيء وإبداعه، وإقرارهم بالنشأة الأولى، ومع شهادة العقل بأنه لا بد من الجزاء. ثم عول على أحد الإنكارين بقوله تعالى: ﴿فَقَالَ الْكَافِرُونَ هَذَا شَيْءٌ عَجِيبٌ أَوَلَمْ يَكُنْ لَهُمْ آيَاتُ أَنْذَارٍ﴾ دلالة على أن تعجبهم من البعث أدخل في الاستبعاد وأحق بالإنكار، ووضع الكافرون موضع الضمير للشهادة على أنهم في قولهم هذا مقدمون على الكفر العظيم. وهذا إشارة إلى الرجوع؛ وإذا منصوب بمضمر؛ معناه: أحيان نموت ونبلى نرجع؟ ﴿ذَلِكَ

(١) قوله: «مترفعاً عليهم» في الصحاح: فلان يرفنا، أي: يحوطنا. ورفرف الطائر: إذا حرك جناحيه حول الشيء يريد أن يقع عليه. ورف لونه بالفاء رفاً ورفيفاً: برق وتلألأ. وثوب رفيف وشجر رفيف: إذا تدانت أوراقه. وفيه أيضاً: تفرق الشيء بالقاف: تلألأ. (ع)

رَجَعَ بَعِيدٌ ﴿﴾ مستبعد مستنكر، كقولك: هذا قول بعيد. وقد أبعد فلان في قوله. ومعناه: بعيد من الوهم والعادة. ويجوز أن يكون الرجع بمعنى المرجوع. وهو الجواب، ويكون من كلام الله تعالى استبعاداً لإنكارهم ما أنذروا به من البعث، والوقف قبله على هذا التفسير حسن. وقرئ: «إذا متنا» على لفظ الخبر، ومعناه: إذا متنا بعد أن نرجع، والذال عليه ﴿ذَلِكَ رَجَعٌ بَعِيدٌ﴾. فإن قلت: فما ناصب الظرف إذا كان الرجع بمعنى المرجوع؟ قلت: ما دل عليه المنذر من المنذر به، وهو البعث.

﴿قَدْ عَلِمْنَا مَا تَنْقُصُ الْأَرْضُ مِنْهُمْ وَعِندَنَا كِتَابٌ حَفِيفٌ ﴿٤﴾﴾

﴿قَدْ عَلِمْنَا﴾ رد لاستبعادهم الرجع، لأن من لطف علمه حتى تغلغل إلى ما تنقص الأرض من أجساد الموتى وتأكله من لحومهم وعظامهم، كان قادراً على رجوعهم أحياء كما كانوا. عن النبي ﷺ: «كل ابن آدم يبلى إلا عجب الذنب» (١٤٩٢)، وعن السدي: ﴿مَا تَنْقُصُ الْأَرْضُ مِنْهُمْ﴾ ما يموت فيدفن في الأرض منهم ﴿كِتَابٌ حَفِيفٌ﴾ محفوظ من الشياطين ومن التغير، وهو اللوح المحفوظ. أو حافظ لما أودعه وكتب فيه.

﴿بَلْ كَذَّبُوا بِالْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ فَهُمْ فِي أَمْرٍ مَرِيعٍ ﴿٥﴾﴾

﴿بَلْ كَذَّبُوا﴾ إضراب أتبع الإضراب الأول، للدلالة على أنهم جاءوا بما هو أفظع من تعجبهم؛ وهو التكذيب بالحق^(١) الذي هو النبوة الثابتة بالمعجزات في أول وهلة من غير

١٤٩٢ - أخرجه البخاري (٥١٥/٩)، كتاب: التفسير، باب: ٤ الحديث (٤٨١٤)، ورواه في (٦٩٩/٩) في التفسير الحديث (٤٩٣٥) ومسلم (٣١٧/٩) كتاب الفتن وأشراف الساعة، باب ما بين النفختين الحديث (٢٩٥٥)، وأبو داود (٦٤٩/٢) كتاب السنة، باب في ذكر البعث والصور الحديث (٤٧٤٣)، والنسائي (١١١/٤ - ١١٢) كتاب الجنائز، باب أرواح المؤمنين وابن ماجه (١٤٢٥/٢) كتاب الزهد، باب ذكر القبر والبلى الحديث (٤٢٦٦). ومالك في الموطأ (٢٣٩/١) كتاب الجنائز، باب جامع الجنائز، وأحمد في المسند ٣٢٢/٢، ٤٢٨، ٤٩٩، وابن حبان في صحيحه (٤٠٧/٧)، (٤٠٨) رقم (٣١٣٨، ٣١٣٩)، وروى الحاكم في المستدرک (٦٠٩/٤) وابن حبان في صحيحه (٧/٤٠٩) رقم (٣١٤٠)، وأبو يعلى في مسنده (٥٢٣/٢) رقم (١٣٨٢)، وأحمد (٢٨/٣) كلهم من طريق أبي سعيد قال: قال النبي - صلى الله عليه وسلم -: «يأكل التراب كل شيء من الإنسان إلا عجب ذنبه»، قيل: وما هو يا رسول الله؟ قال: «مثل حبة خردل منه ينشأ».

وقد ذكره الهيثمي في المجمع (٣٣٦/١٠) وقال: رواه أحمد وإسناده حسن... ا. هـ.

وقال الحافظ ابن حجر في تخريج أحاديث الكشاف: متفق عليه من حديث أبي صالح عن أبي هريرة وأخرجه الحاكم من حديث أبي سعيد، وزاد «قالوا: ما هو يا رسول الله؟ قال: هو مثل حبة الخردل، منه ينتون». انتهى.

(١) قال السمين الحلبي: وقال الشيخ: وكان هذا الإضراب الثاني. بدلاً من الأول. قلت: وإطلاق هذا =

تفكر ولا تدبر ﴿فَهُمْ فِي أَمْرٍ مَّرِيجٍ﴾ مضطرب. يقال: مرج الخاتم في أصبعه وجرج؛ فيقولون تارة: شاعر، وتارة: ساحر، وتارة: كاهن، لا يثبتون على شيء واحد: وقرئ: «لما جاءهم» بكسر اللام وما المصدرية، واللام هي التي في قولهم لخمس خلون، أي: عند مجيئه إياهم، وقيل: ﴿الْحَقُّ﴾: القرآن. وقيل: الإخبار بالبعث.

﴿أَفَلَمْ يَنْظُرُوا إِلَى السَّمَاءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَاهَا وَزَيَّنَّاهَا وَمَا لَهَا مِنْ فُرُوجٍ﴾ ﴿٦﴾

﴿أَفَلَمْ يَنْظُرُوا﴾ حين كفروا بالبعث إلى آثار قدرة الله في خلق العالم ﴿بَنَيْنَاهَا﴾ رفعناها بغير عمد ﴿مِنْ فُرُوجٍ﴾ من فتوق: يعني أنها ملساء سليمة من العيوب لا فتق فيها ولا صدع ولا خلل، كقوله تعالى: ﴿هَلْ تَرَى مِنْ فُتُورٍ﴾ [الملك: ٣].

﴿وَالْأَرْضَ مَدَدْنَاهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَلْبَسْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ﴾ ﴿٧﴾ تَبَصَّرَةٌ وَذَكَرَى لِكُلِّ عَبْدٍ مُنِيبٍ ﴿٨﴾

﴿مَدَدْنَاهَا﴾ دحوناها ﴿رَوَاسِيَ﴾ جبلاً ثوابت لولا هي لتكفأت ﴿مِنْ كُلِّ زَوْجٍ﴾ من كل صنف ﴿بَهِيجٍ﴾ يبتهج به لحسنه ﴿تَبَصَّرَةٌ وَذَكَرَى﴾ لتبصر به وتذكر كل ﴿عَبْدٍ مُنِيبٍ﴾ راجع إلى ربه، مفكر في بدائع خلقه. وقرئ: «تبصرة وذكرى» بالرفع، أي: خلقها تبصرة.

﴿وَنَزَّلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً مُبَرَّكَاً فَأَنْبَتْنَا بِهِ جَنَّاتٍ وَحَبَّ الْحَصِيدِ﴾ ﴿٩﴾ وَالنَّخْلَ بَاسِقَاتٍ لَهَا طَلْعٌ نَضِيدٌ ﴿١٠﴾ رِزْقًا لِلْعِبَادِ وَأَحْيَيْنَا بِهِ بَلْدَةً مَيْتًا كَذَلِكَ الْخُرُوجُ ﴿١١﴾

﴿مَاءً مُبَرَّكَاً﴾ كثير المنافع ﴿وَحَبَّ الْحَصِيدِ﴾ وحب الزرع الذي من شأنه أن يحصد، وهو ما يقتات به من نحو الحنطة والشعير وغيرهما ﴿بَاسِقَاتٍ﴾ طوالاً في السماء: وفي قراءة رسول الله ﷺ: باصقات، بإبدال السين صاداً لأجل القاف ﴿نَضِيدٌ﴾ منضود بعضه فوق بعض: إما أن يراد كثرة الطلع وتراكمه؛ أو كثرة ما فيه من الثمر ﴿رِزْقًا﴾ على أنبتائها رزقاً، لأن الإنبات في معنى الرزق. أو على أنه مفعول له، أي: أنبتناها لنرزقهم ﴿كَذَلِكَ الْخُرُوجُ﴾ كما حييت هذه البلدة الميتة/ ١٩٤/٢، كذلك تخرجون أحياء بعد موتكم، والكاف في محل الرفع على الابتداء.

﴿كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَأَصْحَابُ الرَّسِّ وَشَمُودُ﴾ ﴿١٢﴾ وَعَادٌ وَفِرْعَوْنُ وَإِخْوَانُ لُوطٍ ﴿١٣﴾ وَأَصْحَابُ

= في كتاب الله لا يجوز البتة، وقيل: قبل هذه الآية جملة مضروب عنها. تقديرها: ما أجادوا النظر بأن كذبوا، وما قاله الزمخشري أحسن. انتهى. الدر المصون.

﴿الْأَيْكَةِ وَقَوْمٌ تُبِيعَ كُلُّ كَذَبَ الرُّسُلِ حَقٌّ وَعِيدٌ﴾ (١٤)

أراد بفرعون قومه كقوله تعالى: ﴿بَيْنَ فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِمْ﴾ [يونس: ٨٣] لَأَنَّ المعطوف عليه قوم نوح، والمعطوفات جماعات ﴿كُلُّ﴾ يجوز أن يراد به كل واحد منهم، وأن يراد جميعهم، إلا أنه وحد الضمير الراجع إليه على اللفظ دون المعنى ﴿حَقٌّ وَعِيدٌ﴾ فوجب وحلّ وعيدي، وهو كلمة العذاب. وفيه تسلية لرسول الله ﷺ، وتهديد لهم.

﴿أَفَعَيْنَا بِالْخَلْقِ الْأَوَّلِ بَلْ هُمْ فِي لَبْسٍ مِّنْ خَلْقٍ جَدِيدٍ﴾ (١٥)

عبي بالأمر: إذا لم يهتد لوجه عمله، والهمزة للإنكار. والمعنى: أنا لم نعجز كما علموا عن الخلق الأول، حتى نعجز عن الثاني، ثم قال: هم لا ينكرون^(١) قدرتنا على الخلق الأول، واعترافهم بذلك في طيه الاعتراف بالقدرة على الإعادة ﴿بَلْ هُمْ فِي لَبْسٍ﴾ أي في خلط وشبهة. قد لبس عليهم الشيطان وحيرهم. ومنه قول علي رضي الله عنه: يا حار^(٢)، إنه لملبوس عليك، اعرف الحق تعرف أهله. ولبس الشيطان عليهم: تسويله إليهم أن إحياء الموتى أمر خارج عن العادة، فتركوا لذلك القياس الصحيح: أن من قدر على الإنشاء كان على الإعادة أقدر. فإن قلت: لم نكر الخلق الجديد^(٣)، وهلا عرّف كما

(١) قوله: «ثم قال هم لا ينكرون» يعني كأنه قال ذلك بمعونة الإضراب. وقوله: «في طيه... إلخ» أي يلزمه ذلك وإن لم يقع منهم اللبس. (ع)

(٢) قوله: «يا حار إنه لملبوس» لعله ترخيم حارث. (ع)

(٣) وقع في النسخة ما أحكيه صورته: «فإن قلت لم نكر الخلق الجديد... إلخ» قال أحمد: هذا كلام كما تراه غير منتظم، والظاهر أنه لفساد في النسخة، والذي يتحرر في الآية - وهو مقتضى تفسير الزمخشري: أن فيها أسئلة ثلاثة: لم عرف الخلق الأول ونكر اللبس والخلق الجديد؟ فاعلم أن التعريف لا غرض منه إلا تفخيم ما قصد تعريفه وتعظيمه، ومنه تعريف الذكور في قوله: ﴿وَيَهْبِ لِمَنْ يَشَاءُ الذُّكُورَ﴾ ولهذا المقصد عرف الخلق الأول؛ لأن الغرض جعله دليلاً على إمكان الخلق الثاني بطريق الأولى أي إذا لم يعي تعالى بالخلق الأول على عظمته، فالخلق الآخر أولى أن لا يعبأ به؛ فهذا سر تعريف الخلق الأول. وأما التنكير فأمره منقسم: فمرة يقصد به تضخيم المنكر من حيث ما فيه من الإبهام، كأنه أفخم من أن يخاطبه معرفة؛ ومرة يقصد به التقليل من المنكر والوضع منه، وعلى الأول (سلام قولاً من رب رحيم) وقوله: (لهم مغفرة وأجر عظيم) (وإن المتقين في جنات ونعيم) وقوله: (بإيمان الحقنا بهم ذرياتهم) وهو أكثر من أن يحصى. والثاني: هو الأصل في التنكير، فلا يحتاج إلى تمثيله، فتنكير اللبس من التعظيم والتفخيم، كأنه قال: في لبس أي لبس: وتنكير الخلق الجديد للتقليل منه والتهوين لأمره بالنسبة إلى الخلق الأول، ويحتمل أن يكون للتفخيم، كأنه أمر أعظم من أن يرضى الإنسان بكونه ملتبساً عليه، مع أنه أول ما تبصر فيه صحته، ولعل إشارة الزمخشري إلى هذا والله أعلم، فهذا كما تراه كلام مناسب لاستطراف أسئلة وأجوبة، فإن يكن هو ما أراده الزمخشري فذاك، وإلا فالعق العسل ولا تسل.

عزف الخلق الأول؟ قلت: قصد في تنكيره إلى خلق جديد له شأن عظيم وحال شديد. حق من سمع به أن يهتّم به ويخاف، ويبحث عنه ولا يقعد على لبس في مثله.

﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ وَنَعَلَهُ مَا تَوَسَّسُ بِهِ نَفْسُهُ وَحَنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ﴾ (١٦)

الوسوسة: الصوت الخفي. ومنها: وسواس الحلي. ووسوسة النفس: ما يخطر ببال الإنسان ويهيجس في ضميره من حديث النفس. والباء مثلها في قولك: صوت بكذا وهمس به. ويجوز أن تكون للتعدية والضمير للإنسان، أي: ما تجعله موسوساً، وما مصدرية، لأنهم يقولون: حدّث نفسه بكذا، كما يقولون: حدّثه به نفسه. قال [من الرمل]:

وَأَكْذِبَ النَّفْسَ إِذَا حَدَّثَتْهَا (١)

﴿وَحَنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ﴾ مجاز، والمراد: قرب علمه منه، وأنه يتعلق بمعلومه منه ومن أحواله تعلقاً لا يخفى عليه شيء من خفياته، فكأنه ذاته قريبة منه، كما يقال: الله في كل مكان، وقد جلّ عن الأمكنة. وحبل الوريد: مثل في فرط القرب، كقولهم: هو مني مقعد القابلة ومعقد الإزار. وقال ذو الرمة [من الرجز]:

(١) واكذب النفس إذا حدثتها
إن صدق النفس يزري بالأمل
غير أن لا تكذبها في التقى
واخزها بالبر لله الأجل

للبيد بن ربيعة، وسئل بشار: أي بيت قالته العرب أشعر؟ فقال تفضيل بيت واحد على الشعر كله غير سعيد، ولكنه أحسن لبيد في قوله: واكذب النفس، يقال: كذبه وصدقه مخففاً ومشدداً، بمعنى. وما هنا من الأول للوزن، أي: لا تصدقها إذا حدثتك بأمر وحدّثها فيه؛ لأنها مشبّطة عن نيل الفضائل. طامحة إلى الرذائل، وهذا معنى «إن صدق النفس» أي: تصديقها، يزري بالأمل. يقال: زراه، إذا عابه. وأزرى به: إذا أوقع به العيب، غير أنه الحال والشأن لا تكذبها في تحديثها إياك بالتقى، والخوف من الله، فإن مخففة من الثقيلة، واسمها ضمير الشأن. ويجوز أنه ضمير المخاطب، ولا ناهية، وإجراء الكلام على الاستثناء يحتاج إلى تكلف في بيان المستثنى والمستثنى منه، ويمكن إجراؤه على الاستدراك؛ لكن نصب «غير» يحتاج إلى الحمل على الاستثناء، ويحتمل أن تكون «أن» مصدرية «ولا» نافية أو زائدة، لكن تأكيد الفعل بالنون بعد النهي كثير، وبعد النفي قليل، ومع الإثبات في هذا شاذ أو ضرورة، ولا بد من إجراء الكلام بهذا الوجه على الاستثناء معنى ولفظاً. وقد قال القسطلاني في شرح صحيح البخاري باحتمال النهي والزيادة. وبعضهم باحتمال النفي في قوله ﷺ لعائشة حين حاضت في الحج: «فاقضي ما يقضي الحاج غير أن لا تطوفي بالبيت» وخزاه يخزوه: قهره وغلبه، أي: واقهرها بالخير لله الأجل الأعظم، وكان في البر قهراً لها لمشقته عليها عادة.

ينظر: ديوانه ص ١٨٠، ولسان العرب (كذب)، (خزا)، وجمهرة اللغة ص ٥٩٦، وتاج العروس (كذب)، (خزا)، وجمهرة الأمثال ١/٥١، وخزانة الأدب ١١٢/٥، وفصل المقال ص ١٧٣، وكتاب الأمثال ص ١١٦، وكتاب الأمثال لمجهول ص ٢٢، والمستقصى ٢٨٩/١، ومجمع الأمثال ١٣٩/٢.

وَالْمَوْتُ أَذْنَى لِي مِنَ الْوَرِيدِ^(١)

والحبل: العرق، شبه بواحد الجبال، ألا ترى إلى قوله [من الرجز]:

كَأَنَّ وَرِيدَهُ رِشَاءٌ خُلِبَ^(٢)

والوريدان: عرقان مكتنفان لصفحتي العنق في مقدمهما متصلان بالوتين، يردان من الرأس إليه. وقيل: سمي وريداً لأن الروح ترد. فإن قلت: ما وجه إضافة الحبل إلى الوريد، والشيء لا يضاف إلى نفسه؟ قلت: فيه وجهان، أحدهما: أن تكون الإضافة للبيان، كقولهم: بغير سانية. والثاني: أن يراد حبل العاتق فيضاف إلى الوريد، كما يضاف إلى العاتق لاجتماعهما في عضو واحد، كما لو قيل: حبل العليا^(٣) مثلاً.

﴿إِذْ يَتَلَقَّى الْمُتَلَقِّيَانِ عَنِ الْيَمِينِ وَعَنِ الشِّمَالِ قَعِيدٌ ﴿٧﴾ مَا يَلْفِظُ مِنْ قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَيْنٌ ﴿٨﴾﴾

﴿٧﴾ منصوب بأقرب، وساغ ذلك لأن المعاني تعمل في الظرف متقدمة ومتأخرة، والمعنى: أنه لطيف يتوصل علمه إلى خطرات النفس وما لا شيء أخفى منه، وهو أقرب من الإنسان^(٤) من كل قريب حين يتلقى الحفيظان ما يتلفظ به، إيذاناً بأن استحفاظ الملكين أمر هو غني عنه؛ وكيف لا يستغني عنه وهو مطلع على أخفى الخفيات؟ وإنما

(١) هل أغدون في عيشة رغيد؟ والموت أدنى لي من الوريد

لذي الرمة. والاستفهام إنكاري، أي: لا أكون في عيشة واسعة والحال أن الموت أقرب إليّ من الوريد. وروي: أوفى. والمعنى واحد. والوريدان: عرقان في مقدم صفحتي العنق، سمياً بذلك لأنهما يردان من الرأس. أو لأن الروح تردهما. وقال: عيشة رغيد، كقول الله تعالى: ﴿إِنَّ رَحْمَتَ اللَّهِ قَرِيبٌ﴾ وإن كان قليلاً في فعل بمعنى فاعل.

(٢) غضنفر تلقاه عند الغضب كأن وريديه رشاء خلب

لرؤية. والغضنفر: الأسد. والوريدان: عرقان يردان من الرأس يكتنفان الحلقوم. وقيل: تردهما الروح. والرشاءان: حبلان للاستقاء. والخلب - بضم تين، وقد يسكن -: اللب والماء المخلوط بالطين. ويجوز أن يراد به هنا البثر الكدرة: شبه الشجاع بالأسد، وشبه وريديه عند الغضب بالرشاءين، وكان هنا عاملة، وهي مخففة، وهو قليل، والكثير إهمالها. بل الكثير إعمالها!! حسن.

ينظر: ملحق ديوانه ص ١٦٩، وشرح التصريح ٢٣٤/١، والمقاصد النحوية ٢٩٩/٢، وبلا نسبة في لسان العرب (خلب)، (أنن)، والإنصاف ١٩٨/١، وأوضح المسالك ٣٧٥/١، وتخليص الشواهد ص ٣٩٠، والجنى الداني ص ٥٧٥، وخزانة الأدب ٣٩١/١٠، ٣٩٣، ٣٩٥، ٣٩٦، ٣٩٧، ٤٠٠، ٤١٢، ورسف المباني ص ٢١١، وشرح أبيات سيبويه ٧٥/٢، وشرح المفصل ٨/٨٣، والكتاب ١٦٤/٣، ١٦٥، والمقرب ١١٠/١، وتاج العروس (خلب).

(٣) قوله: «لو قيل حبل العليا» هي عصب العنق، كما في الصحاح. (ع)

(٤) قوله: «وهو أقرب من الإنسان» يقال: قرب من الشيء كما يقال: قرب إليه. (ع)

ذلك لحكمة اقتضت ذلك: وهي ما في كتبة الملكين وحفظهما، وعرض صحائف العمل يوم يقوم الأشهاد. وعلم العبد بذلك مع علمه بإحاطة الله بعمله. من زيادة لطف له في الانتهاء عن السيئات والرغبة في الحسنات. وعن النبي ﷺ: «إِنَّ مقعد ملكيك على ثنيتيك، ولسانك قلمهما، وريقك مدادهما، وأنت تجري فيما لا يعينك لا تستحي من الله تعالى ولا منهما» (١٤٩٣) ويجوز أن يكون تلقي الملكين بياناً للقرب، يعني: ونحن قريبون منه مطلعون على أحواله مهيمنون عليه، إذ حفظتنا وكتبنا موكلون به، والتلقي: التلقن بالحفظ والكتبة. والقعيد: القاعد، كالجلوس بمعنى الجالس، وتقديره: عن اليمين قعيد وعن الشمال قعيد من المتلقين، فترك أحدهما لدلالة الثاني عليه، كقوله [من الطويل]:

... كُنْتُ مِنْهُ وَوَالِدِي بِرِيٍّ..... (١)

﴿رَقِيبٌ﴾ ملك يرقب عمله ﴿عَبْدٌ﴾ حاضر، واختلف فيما يكتب الملكان، فقيل: يكتبان كل شيء حتى أنيه في مرضه. وقيل: لا يكتبان إلا ما يؤجر عليه أو يؤزر به. ويدل عليه قوله عليه الصلاة والسلام: «كاتب الحسنات على يمين الرجل وكاتب السيئات على يسار الرجل، وكاتب الحسنات أمين على كاتب السيئات، فإذا عمل حسنة كتبها ملك اليمين عشرًا، ١٩٤/٢ ب وإذا عمل سيئة قال صاحب اليمين لصاحب الشمال: دعه سبع ساعات لعله يسبح أو يستغفر» (١٤٩٤) وقيل: إِنَّ الملائكة يجتنبون الإنسان عند غائطه

١٤٩٣ - عزاه الزيلعي في تخريج الكشاف للثعلبي في التفسير أخبرني الحسن بن محمد بن الحسين الدينوري ثنا أحمد بن جعفر بن سليمان الخثلي ثنا أحمد بن أيوب المرجاني ثنا جميل بن الحسن ثنا أروطة بن الأشعث العدوي عن جعفر بن محمد عن أبيه عن علي بن أبي طالب قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم - «مقعد ملكيك...» إلى آخره. وقال الحافظ: أخرجه الثعلبي من رواية جميل بن الحسن عن أروطة بن الأشعث العدوي عن جعفر بن محمد عن أبيه عن علي رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم - قال: «مقعد ملكيك» فذكره. انتهى.

١٤٩٤ - رواه البيهقي في شعب الإيمان (٣٩٠/٥) رقم (٧٠٤٩)، (٧٠٥٠)، (٧٠٥١). والطبراني في الكبير (٢١٧/٨ - ٢١٨) رقم (٧٧٦٥)، والبغوي في معالم التنزيل (٢٢٣/٤)، والواحدي في الوسيط (١٦٥/٤) من حديث أبي أمامة. وعزاه الزيلعي في تخريج الكشاف (٣٥٨/٣ - ٣٥٩) لابن راهويه في مسنده، وأبو نعيم في الحلية، وابن مردويه في تفسيره.

وروى الطبري في تفسيره (٣٥٠/٧) رقم (٢٠٢١١).

من حديث كنانة العدوي قال: دخل عثمان بن عفان على رسول الله - صلى الله عليه وسلم - فقال: يا رسول الله، أخبرني عن العبد كم معه من ملك؟ قال: ملك على يمينك على حسناتك، وهو أمين على الذي على الشمال، فإذا عملت حسنة كتبت عشرًا، وإذا عملت سيئة قال الذي على

وعند جماعه . وقرئ: «ما يلفظ» على البناء للمفعول .

﴿وَجَاءَتْ سَكْرَةُ الْمَوْتِ بِالْحَقِّ ذَلِكَ مَا كُنْتَ مِنْهُ تَحِيدُ﴾ (١٩) وَنُفِخَ فِي الصُّورِ ذَلِكَ يَوْمَ الْوَعِيدِ ﴿٢٥﴾
وَجَاءَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَعَهَا سَائِقٌ وَشَهِيدٌ ﴿٢٦﴾ لَقَدْ كُنْتَ فِي غَفْلَةٍ مِنْ هَذَا فَكَشَفْنَا عَنْكَ غِطَاءَكَ فَبَصَرُكَ
الْيَوْمَ حَدِيدٌ ﴿٢٢﴾

لما ذكر إنكارهم البعث واحتج عليهم بوصف قدرته وعلمه، أعلمهم أن ما أنكروه وجحدوه هم لاقوه عن قريب عند موتهم وعند قيام الساعة، ونبه على اقتراب ذلك بأن عبر عنه بلفظ الماضي . وهو قوله: ﴿وَجَاءَتْ سَكْرَةُ الْمَوْتِ بِالْحَقِّ﴾ ونفخ في الصور، وسكرة الموت: شدته الذاهبة بالعقل . والباء في بالحق للتعدية، يعني: وأحضرت سكرة الموت حقيقة الأمر الذي أنطق الله به كتبه وبعث به رسله . أو حقيقة الأمر وجليه الحال: من سعادة الميت وشقاوته . وقيل: الحق الذي خلق له الإنسان، من أن كل نفس ذائقة الموت . ويجوز أن تكون الباء مثلها في قوله: ﴿تَبَيَّنْتُ بِالْذُّهْنِ﴾ [المؤمنون: ٢٠] أي وجاءت ملتبسة بالحق، أي: بحقيقة الأمر . أو بالحكمة والغرض الصحيح، كقوله تعالى: ﴿خُلِقَ السَّمَكُوتُ وَالْأَرْضُ بِالْحَقِّ﴾ [الأنعام: ٧٣] وقرأ أبو بكر وابن مسعود رضي الله عنهما «سكرة الحق بالموت» على إضافة السكرة إلى الحق والدلالة على أنها السكرة التي كتبت على الإنسان وأوجبت له، وأنها حكمة . والباء للتعدية؛ لأنها سبب زهوق الروح لشدتها، أو لأن الموت يعقبها؛ فكانها جاءت به . ويجوز أن يكون المعنى: جاءت ومعها الموت . وقيل سكرة الحق سكرة الله، أضيفت إليه تفضيلاً لشأنها وتهويلاً . وقرئ: «سكرات الموت» ﴿ذَلِكَ﴾ إشارة إلى الموت، والخطاب للإنسان في قوله: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ﴾ [الحجر: ٢٦] على طريق الالتفات . أو إلى الحق والخطاب للفاجر ﴿تَحِيدُ﴾ تنفر وتهرب . وعن بعضهم: أنه سأل زيد بن أسلم عن ذلك فقال: الخطاب لرسول الله ﷺ؛ فحكاه لصالح بن كيسان فقال: والله ما سنّ عالية ولا لسان فصيح ولا معرفة بكلام العرب، هو

= الشمال للذي على اليمين: أكتب وذكر حديثاً طويلاً.

وقال الحافظ ابن حجر في تخريج أحاديث الكشاف: أخرجه الثعلبي والبغوي من طريق جعفر عن القاسم عن أبي أمامة . ومن هذا الوجه أخرجه الطبراني . وأخرجه البيهقي من هذا الوجه . ومن رواية بشر بن نمير عن القاسم نحوه . وأخرجه الطبراني من رواية ثور بن يزيد عن القاسم نحوه . وروى أبو نعيم في الحلية وابن مردويه من طريق إسماعيل بن عياش عن عاصم بن رجا عن عروة بن رديم، عن القاسم عن أبي أمامة وعند الطبري من طريق علي بن جرير عن حماد بن سلمة عن عبد الحميد بن جعفر عن كنانة . قال: دخل عثمان بن عفان على رسول الله - صلى الله عليه وسلم - فقال: يا رسول الله، كم مع العبد ملك؟ - الحديث . انتهى .

للكافر. ثم حكاها للحسين بن عبد الله بن عبيد الله بن عباس فقال: أخالفهما جميعاً: هو للبرّ والفاجر ﴿ذَلِكَ يَوْمُ الْوَعْدِ﴾ على تقدير حذف المضاف، أي: وقت ذلك يوم الوعد، والإشارة إلى مصدر نفخ ﴿سَاقٍ وَشَبِيدٍ﴾ ملكان: أحدهما يسوقه إلى المحشر، والآخر يشهد عليه بعمله. أو ملك واحد جامع بين الأمرين، كأنه قيل: معها ملك يسوقها ويشهد عليها؛ ومحل ﴿مَعَهَا سَاقٍ﴾ النصب على الحال من كلّ لتعرّفه بالإضافة إلى ما هو في حكم المعرفة. قرئ: «لقد كنت» عنك غطائك فبصرك، بالكسر على خطاب النفس، أي: يقال لها لقد كنت. جعلت الغفلة كأنها غطاء غطى به جسده كله أو غشاوة غطى بها عينيه فهو لا يبصر شيئاً؛ فإذا كان يوم القيامة تيقظ وزالت الغفلة عنه وغطاؤها فبصر ما لم يبصره من الحق. ورجع بصره الكليل عن الإبصار لغفلته: حديداً لتيقظه.

﴿وَقَالَ قَرِينُهُ هَذَا مَا لَدَيَّ عَيْنٌ﴾ (٢٣)

﴿وَقَالَ قَرِينُهُ﴾ هو الشيطان الذي قبض له في قوله: ﴿نَقِصَ لَهُ شَيْطَانًا فَهُوَ لَهُ قَرِينٌ﴾ [الزخرف: ٣٦] يشهد له قوله تعالى: ﴿قَالَ قَرِينُهُ رَبَّنَا مَا أَطْعَمْتُمْ﴾ [ق: ٢٧]. ﴿هَذَا مَا لَدَيَّ عَيْنٌ﴾ هذا شيء لديّ وفي ملكتي عتيد لجهنم. والمعنى: أن ملكاً يسوقه وآخر يشهد عليه، وشيطاناً مقروناً به، يقول: قد أعتدته لجهنم وهيئته لها بإغوائي وإضلالي. فإن قلت: كيف إعراب هذا الكلام؟ قلت: إن جعلت ﴿مَا﴾ موصوفة، فعتيد: صفة لها: وإن جعلتها موصولة، فهو بدل، أو خبر بعد خبر. أو خبر مبتدأ محذوف.

﴿أَلْقِيَا فِي جَهَنَّمَ كُلَّ كَفَّارٍ عَيْنٍ﴾ (٢٤) ﴿مَنَاجٍ لِلْخَيْرِ مُعْتَدٍ مُّرِيبٍ﴾ (٢٥) الَّذِي جَعَلَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ فَأَلْقِيَاهُ فِي الْعَذَابِ الشَّدِيدِ﴾ (٢٦)

﴿أَلْقِيَا﴾ خطاب من الله تعالى للملكين السابقين: السائق والشهيد: ويجوز أن يكون خطاباً للواحد على وجهين: أحدهما قول المبرد: إن تثنية الفاعل نزلت منزلة تثنية الفعل لاتحادهما، كأنه قيل: ألق ألق: للتأكيد. والثاني: أنّ العرب أكثر ما يرافق الرجل منهم اثنان، فكثر على ألسنتهم أن يقولوا: خليلي وصاحبي، وقفا وأسعدا، حتى خاطبوا الواحد خطاب الاثنين، عن الحجاج أنه كان يقول: يا حرسِي، اضربا عنقه. وقرأ الحسن «ألقين» بالنون الخفيفة. ويجوز أن تكون الألف في ﴿أَلْقِيَا﴾ بدلاً من النون: إجراء للوصل مجرى الوقف ﴿عَيْنٍ﴾ معاند بجانب للحق معاد لأهله ﴿مَنَاجٍ لِلْخَيْرِ﴾ كثير المنع للمال عن حقوقه، جعل ذلك عادة له لا يبذل منه شيئاً قط. أو مناجى لجنس الخير أن يصل إلى أهله يحول بينه وبينهم. قيل: نزلت في الوليد بن المغيرة، كان يمنع بني أخيه من الإسلام، وكان يقول: من دخل منكم فيه لم أنفعه بخير ما عشت ﴿مُعْتَدٍ﴾ ظالم متخط للحق ﴿مُرِيبٍ﴾

شاك في الله وفي دينه ﴿الَّذِي جَعَلَ﴾ مبتدأ مضمن معنى الشرط، ولذلك أجيب بالفاء. ويجوز أن ١٩٥/٢ يكون ﴿الَّذِي جَعَلَ﴾ منصوباً بدلاً من ﴿كُلَّ كَفَّارٍ﴾ ويكون ﴿فَالْقِيَاءُ﴾ تكريراً للتوكيد.

﴿قَالَ قَرِينُهُ رَبَّنَا مَا أَطْغَيْتُهُ وَلَكِنْ كَانَ فِي ضَلَالٍ بَعِيدٍ﴾ (٢٧)

فإن قلت: لم أخليت هذه الجملة عن الواو وأدخلت على الأولى؟ قلت: لأنها استؤنفت كما تستأنف الجمل الواقعة في حكاية التقاول كما رأيت في حكاية المقابلة بين موسى وفرعون. فإن قلت: فأين التقاول ههنا؟ قلت: لما قال قرينه: ﴿هَذَا مَا لَدَىٰ عَيْدٍ﴾ وتبعه قوله: ﴿قَالَ قَرِينُهُ رَبَّنَا مَا أَطْغَيْتُهُ﴾ وتلاه: ﴿لَا تَخْضِعُوا لَدَىٰ﴾ [ق: ٢٨]: علم أن ثم مقابلة من الكافر، لكنها طرحت لما يدل عليها، كأنه قال: رب هو أطغاني، فقال قرينه: ربنا ما أطغيته. وأما الجملة الأولى فواجب عطفها للدلالة على الجمع بين معناها ومعنى ما قبلها في الحصول، أعني مجيء كل نفس مع الملكين: وقول قرينه ما قال له: ﴿أَطْغَيْتُهُ﴾ ما جعلته طاغياً، وما أوقعته في الطغيان، ولكنه طغى واختار الضلالة على الهدى كقوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيْكُم مِّن سُلْطَانٍ إِلَّا أَن دَعَوْتُكُم فَاسْتَجَبْتُمْ لِي﴾ [إبراهيم: ٢٢].

﴿قَالَ لَا تَخْضِعُوا لَدَىٰ وَقَدْ قَدَّمْتُ إِلَيْكُم بِالْوَعِيدِ﴾ (٢٨) مَا يُبَدِّلُ الْقَوْلَ لَدَىٰ وَمَا أَنَا بِظَلَمٍ

لِّلْعَبِيدِ (٢٩)

﴿قَالَ لَا تَخْضِعُوا﴾ استئناف مثل قوله: ﴿قَالَ قَرِينُهُ﴾ [ق: ٢٧] كأن قائلًا قال: فماذا قال الله؟ فقيل: قال لا تخضعوا. والمعنى: لا تخضعوا في دار الجزاء وموقف الحساب، فلا فائدة في اختصاصكم ولا طائل تحته، وقد أوعدكم بعذابي على الطغيان في كتبي وعلى السنة رسلي، فما تركت لكم حجة علي، ثم قال: لا تطمعوا أن أبدل قولي ووعيدي فأعفيكم عما أوعدكم به ﴿وَمَا أَنَا بِظَلَمٍ لِّلْعَبِيدِ﴾ فأعذب من ليس بمستوجب للعذاب. والباء في ﴿بِالْوَعِيدِ﴾ مزيدة مثلها في ﴿وَلَا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ﴾ أو معدية، على أن «قدم» مطاوع بمعنى «تقدم» ويجوز أن يقع الفعل على جملة قوله: ﴿مَا يُبَدِّلُ الْقَوْلَ لَدَىٰ وَمَا أَنَا بِظَلَمٍ لِّلْعَبِيدِ﴾ (٢٩) ويكون ﴿بِالْوَعِيدِ﴾ حالاً، أي: قدمت إليكم هذا ملتبساً بالوعد مقترباً به. أو قدَّمته إليكم موعداً لكم به. فإن قلت: إن قوله: ﴿وَقَدْ قَدَّمْتُ إِلَيْكُم﴾ واقع موقع الحال من ﴿لَا تَخْضِعُوا﴾ والتقديم بالوعد في الدنيا والخصومة في الآخرة واجتماعها في زمان واحد واجب. قلت: معناه: ولا تخضعوا وقد صح عندكم أنني قدمت إليكم بالوعد، وصحة ذلك عندهم في الآخرة، فإن قلت: كيف قال: ﴿بِالْوَعِيدِ﴾ على لفظ المبالغة^(١)؟ قلت: فيه

(١) قال محمود: «إن قلت كيف جاء على لفظ المبالغة... إلخ» قال أحمد: وذكر فيه وجهان آخران، =

وجهان، أحدهما: أن يكون من قولك: هو ظالم لعبده، وظلام للعبيد. والثاني: أن يراد لو عذبت من لا يستحق العذاب لكنت ظلامًا مفرط الظلم. فنفي ذلك.

﴿يَوْمَ نَقُولُ لِجَهَنَّمَ هَلِ امْتَلَأَتْ وَنَقُولُ هَلْ مِنْ مَزِيدٍ﴾ (٣٠)

قري: «نقول» بالنون والياء. وعن سعيد بن جبير: يوم يقول الله لجهنم. وعن ابن مسعود والحسن: يقال. وانتصاب اليوم بظلام أو بمضمر. نحو: اذكر وأنذر. ويجوز أن ينتصب بنفخ، كأنه قيل: ونفخ في الصور يوم نقول لجهنم. وعلى هذا يشار بذلك إلى يوم نقول، ولا يقدّر حذف المضاف. وسؤال جهنم وجوابها من باب التخييل^(١) الذي

= أحدهما: أن فعلاً قد ورد بمعنى فاعل، فهذا منه. الثاني: أن المنسوب في المعتاد إلى الملوك من الظلم تحت ظلمهم: إن عظيمًا فعظيم، وإن قليلاً فقليل، فلما كان ملك الله تعالى على كل شيء ملكه قدس ذاته عما يتوهم مخذول والعياذ بالله أنه منسوب إليه من ظلم تحت شمول كل موجود؛ ولقد بدل القدرة فتوهموا أن الله تعالى لم يأمر إلا بما أراه وبما هو من خلق العبد، بناء على أنه لو كلف على خلاف ما أراد وبما ليس من خلق العبد لكان تكليفًا بما لا يطاق، واعتقدوا أن ذلك ظلم في الشاهد، فلو ثبت في الغائب لكان كما هو في الشاهد ظلمًا، والله تعالى مبرا من الظلم. ألا ترى هذا المعتقد كيف لزمهم عليه أن يكون الله تعالى ظلامًا لعبيده، تعالى الله عن ذلك؛ لأن الحق الذي قامت بصحته البراهين: هو عين ما اعتقدوه ظلمًا فنفوه، فلمثلهم وردت هذه الآية وأشباهها، لتبين للناس ما نزل إليهم، ولئلا يكون للناس على الله حجة بعد الرسل، والله الموفق للصواب.

(١) قال محمود: «سؤال جهنم وجوابها من باب التخييل الذي يقصد به تصوير المعنى... إلخ» قال أحمد: قد تقدم إنكاري عليه إطلاق التخييل في غير ما موضع، والنكير هنا أشد عليه؛ فإن إطلاق التخييل قد مضى له في مثل قوله: ﴿وَالْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَمَةِ﴾ وفي مثل قوله: ﴿بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ﴾ وإنما أراد به حمل الأيدي على نوع من المجاز، فمعنى كلامه صحيح؛ لأننا نعتقد فيهما المجاز، وندين الله بتقديسه عن المفهوم الحقيقي، فلا بأس عليه في معنى إطلاقه، غير أنا مخاطبون باجتنب الألفاظ الموهمة في حق جلال الله تعالى وإن كانت معانيها صحيحة، وأي إيهام أشد من إيهام لفظ التخييل. ألا ترى كيف استعمله الله فيما أخبر أنه سحر وباطل في قوله: ﴿يُحِيلُ إِلَيْهِ مِنْ سِحْرِهِمْ أَنَّهُ تَسْتَعِنَ﴾ فلا يشك في وجوب اجتنابه، ثم يعود بنا الكلام إلى إطلاقه هنا فنقول: هو منكر لفظاً ومعنى. أما اللفظ فقد تقدم، وأما المعنى فلأننا نعتقد أن سؤال جهنم وجوابها حقيقة، وأن الله تعالى يخلق فيها الإدراك بذلك بشرطه، وكيف نفرض وقد وردت الأخبار وتظاهرت على ذلك: منها هذا: ومنها: لجاج الجنة والنار. ومنها: اشتكاؤها إلى ربها فأذن لها في نفسين. وهذه وإن لم تكن نصوفاً فظواهر يجب حملها على حقائقها؛ لأننا متعبدون باعتقاد الظاهر ما لم يمنع مانع، ولا مانع هنا «فإن القدرة صالحة. والعقل يجوز، والظواهر قاضية بوقوع ما صوره العقل، وقد وقع مثل هذا قطعاً في الدنيا. كتسليم الشجر وتسبيح الحصا في كف النبي ﷺ وفي يد أصحابه، ولو فتح باب المجاز والعدول عن الظواهر في تفاصيل المقالة لا تسع الخرق وضل كثير من الخلق عن الحق، وليس هذا كالظواهر الواردة في الإلهيات مما لم يجوز العقل اعتقاد ظاهرها، فإن العدول فيها عن ظاهر الكلام بضرورة الانقياد إلى أدلة العقل المرشدة إلى المعتقد الحق، فاشدد =

يقصد به تصوير المعنى في القلب وتثبيته، وفيه معنيان، أحدهما: أنها تمتلئ مع اتساعها وتباعد أطرافها حتى لا يسعها شيء^(١) ولا يزداد على امتلائها، لقوله تعالى: ﴿لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ﴾ [السجدة: ١٣] والثاني: أنها من السعة بحيث يدخلها من يدخلها وفيها موضع للمزيد. ويجوز أن يكون ﴿هَلْ مِنْ مَزِيدٍ﴾ استكثاراً للداخلين فيها واستبداً للزيادة^(٢) عليهم لفرط كثرتهم. أو طلباً للزيادة غيظاً على العصاة. والمزيد: إما مصدر كالمحيد والمميد، وإما اسم مفعول كالبيع.

﴿وَأَزَلَفَتْ الْجَنَّةُ الْمُتَّقِينَ غَيْرَ بَعِيدٍ﴾ (٣١) هَذَا مَا تُوعَدُونَ لِكُلِّ أَوَّابٍ حَفِيفٍ (٣٢) مَنْ خَشِيَ الرَّحْمَنَ بِالْغَيْبِ وَجَاءَ بِقَلْبٍ مُنِيبٍ (٣٣) ادْخُلُوهَا بِسَلَامٍ ذَلِكَ يَوْمُ الْخُلُودِ (٣٤) لَهُمْ مَا يَشَاءُونَ فِيهَا وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ (٣٥)

﴿غَيْرَ بَعِيدٍ﴾ نصب على الظرف، أي: مكاناً غير بعيد. أو على الحال، وتذكيره لأنه على زنة المصدر، كالزئير والصليل؛ والمصادر يستوي في الوصف بها المذكر والمؤنث. أو على حذف الموصوف، أي: شيئاً غير بعيد، ومعناه التوكيد، كما تقول: هو قريب غير بعيد، وعزيز غير ذليل. وقرئ: ﴿تُوعَدُونَ﴾ بالتاء والياء، وهي جملة اعتراضية. و﴿لِكُلِّ أَوَّابٍ﴾ بدل من قوله للمتقين، بتكرير الجاز كقوله تعالى: ﴿لِلَّذِينَ اسْتَضِيعُوا لِمَنْ ءَامَنَ مِنْهُمْ﴾ [الأعراف: ٧٥]، وهذا إشارة إلى الثواب. أو إلى مصدر أزلفت. والأوَّاب: الرجاء إلى ذكر الله تعالى، والحفيظ: الحافظ لحدوده تعالى. و﴿مَنْ خَشِيَ﴾ بدل بعد بدل تابع لكل. ويجوز أن يكون بدلاً عن موصوف أوَّاب وحفيظ، ولا يجوز أن يكون في حكم أوَّاب وحفيظ؛ لأن من لا يوصف به ولا يوصف من بين الموصولات إلا بالذي وحده. ويجوز أن يكون مبتدأ خبره: يقال لهم ادخلوها بسلام، لأن ﴿مَنْ﴾ في معنى الجمع. ويجوز أن يكون منادى كقولهم: من لا يزال محسناً أحسن إليّ، وحذف حرف النداء للتقريب ﴿بِالْغَيْبِ﴾ حال من المفعول، أي: خشيته وهو غائب لم يعرفه، وكونه معاقباً إلا بطريق الاستدلال. أو صفة لمصدر خشي، أي خشيته خشية ملتبسة بالغيب، حيث خشي عقابه وهو غائب، أو خشية/٢/١٩٥ ب بسبب الغيب الذي أوعده به من عذابه، وقيل: في الخلوة حيث لا يراه أحد. فإن قلت: كيف قرن بالخشية اسمه الدال على سعة الرحمة؟^(٣)

= يدك بما فصل في هذا الفصل، مما أرشدتك به إلى منهج القرب والوصل، والله الموفق.

(١) قوله: «حتى لا يسعها شيء» كأن فيه قلباً. (ع)

(٢) قوله: «واستبداً للزيادة» لعله واستبداً. (ع)

(٣) قال محمود: «إن قلت: كيف قرن بالخشية باسمه الدال على سعة الرحمة... إلخ» قال أحمد: ومن =

قلت: للثناء البليغ على الخاشي وهو خشيته، مع علمه أنه الواسع الرحمة. كما أثنى عليه بأنه خاش، مع أن المخشي منه غائب، ونحوه: ﴿وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَا آتَوْا وَقُلُوبُهُمْ وَجَلَةٌ﴾ [المؤمنون: ٦٠] فوصفهم بالوجل مع كثرة الطاعات. وصف القلب بالإنابة وهي الرجوع إلى الله تعالى؛ لأن الاعتبار بما ثبت منها في القلب. يقال لهم: ﴿ادْخُلُوهَا بِسَلَامٍ﴾ أي سالمين من العذاب وزوال النعم. أو مسلمًا عليكم يسلم عليكم الله وملائكته ﴿ذَلِكَ يَوْمُ الْخُلُودِ﴾ أي يوم تقدير الخلود، كقوله تعالى: ﴿فَادْخُلُوهَا خَالِدِينَ﴾ [الزمر: ٧٣] أي مقدرين الخلود ﴿وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ﴾ هو ما لم يخطر ببالهم ولم تبلغه أمانيتهم، حتى يشاؤوه. وقيل: إن السحاب تمرّ بأهل الجنة فتمطرهم الحور، فتقول: نحن المزيد الذي قال الله عز وجل: ﴿وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ﴾.

﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ مِنْ قَرْنٍ هُمْ أَشَدُّ مِنْهُمْ بَطْشًا فَنَقَّبُوا فِي الْبِلَادِ هَلْ مِنْ مَحِيصٍ﴾ (٣٦)

«فنبؤوا» وقرئ بالتخفيف: فخرقوا في البلاد ودوخوا^(١). والتنقيب: التنقيب عن الأمر والبحث والطلب. قال الحارث بن حنظلة [من الخفيف]:

نَقَّبُوا فِي الْبِلَادِ مِنْ حَذَرِ الْمَوْتِ وَجَالُوا فِي الْأَرْضِ كُلِّ مَجَالٍ^(٢)

ودخلت الفاء للتسبيب عن قوله: ﴿هُمْ أَشَدُّ مِنْهُمْ بَطْشًا﴾ أي: شدة بطشهم أبطرتهم وأقدرتهم على التنقيب وقوتهم عليه. ويجوز أن يراد: فنقب أهل مكة في أسفارهم ومسائرهم في بلاد القرون، فهل رأوا لهم محيصًا حتى يؤملوا مثله لأنفسهم، والدليل على صحته قراءة من قرأ: «فنبؤوا» على الأمر، كقوله: ﴿فسبحوا في الأرض﴾ [التوبة: ٢] وقرئ بكسر القاف مخففة من النقب وهو أن يتنقب خف البعير. قال [من الرجز]:

مَا مَسَّهَا مِنْ نَقَبٍ وَلَا دَبَرٍ^(٣)

== هذا الوادي بالغ رسول الله ﷺ في الثناء على صهيب بقوله: «نعم العبد صهيب لو لم يخف الله لم يعصه».

- (١) قوله: «ودوخوا» الذي في الصحاح: أن دوخ البلاد بمعنى قهرها واستولى على أهلها. (ع)
- (٢) للحرث بن كلدة. والنقب: الطريق. ونقبوا، أي: ساروا في طرق البلاد ونقروا وفتشوا على مهرب وملجأ، لأجل حذرهم من الموت. وجالوا، أي: ذهبوا في الأرض. والجول: الناحية والجانب، أي: ساروا في نواحي الأرض وجوانبها، كل مجال، أي: كل طريق، أو كل جولان؛ لأن مفعل صالح للمكان والحدث.

(٣) أقسم بالله أبو حفص عمر ما مسها من نقب ولا دبر

اغفر له اللهم إن كان فجر

لأعرابي: شكا إلى عمر رضي الله عنه ضعف ناقته، فأعطاه شيئًا من الدقيق ولم يعطه مطية، فولى يقول ذلك: فأعطاه مراده. ومن زائدة في الفاعل، مفيدة للمبالغة في الاستغراق. والنقب - كالتعب =

والمعنى: فنقبت أخفاف إبلهم. أو: حفيت أقدامهم ونقبت، كما تنقب أخفاف الإبل لكثرة طوفهم في البلاد ﴿هَلْ مِنْ مَّحِيصٍ﴾ من الله، أو من الموت.

﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرَى لِمَنْ كَانَ لَهُ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ﴾ (٣٧)

﴿لَمَنْ كَانَ لَهُ قَلْبٌ﴾ أي قلب واع؛ لأن من لا يعي قلبه فكأنه لا قلب له. وإلقاء السمع: الإصغاء ﴿وَهُوَ شَهِيدٌ﴾ أي حاضر بفطنته؛ لأن من لا يحضر ذهنه فكأنه غائب، وقد ملح الإمام عبد القاهر في قوله لبعض من يأخذ عنه [من السريع]:
مَا شِئْتُ مِنْ زَهْرَةٍ وَالْفَتَى بِمُضْقِلَابٍ إِسْقَى الزُّرُوعَ^(١)

= :- ضرر خف البعير من الحفا، ويطلق على الجرب والحكة ورقة الجلد. والدبر كالتعب أيضًا: انجراح مؤخر الظهر من الحمل ونحوه، ووقوع ألف الوصل أول المصراع سائغ، لأنها محل ابتداء، كما نص عليه الخليل، والمراد بالفجور: الحنث.

لرؤية في شرح المفصل ٧١/٣، وليس في ديوانه، ولا يمكن أن يكون رؤية هو الذي قاله لعمر بن الخطاب، ذلك أنه توفي سنة ١٤٥هـ، ولم يعتبره أحد من التابعين فضلاً عن المخضرمين. وهو لعبد الله بن كيسة أو لأعرابي في خزانة الأدب ١٥٤/٥، ١٥٦، ولأعرابي في شرح التصريح ١/١٢١، والمقاصد النحوية ١١٥/٤، ولسان العرب (نقب)، (فجر)، وتاج العروس (نقب)، (فجر)، وتهذيب اللغة ٥٠/١١، وبلا نسبة في أوضح المسالك ١٢٨/١، وشرح الأشموني ٥٩/١، وشرح شذور الذهب ص ٥٦١، وشرح ابن عقيل ص ٤٨٩، ومعاهد التنصيص ٢٧٩/١، وأساس البلاغة (نقب)، وديوان الأدب ١١١/٢، وكتاب العين ٣٠٧/٨.

(١)

يجيء في فضلة وقت له مجيء من شاب الهوى بالنزوع
ثم يرى جبلة مشبوبة قد شددت أحماله بالنسوع
ما شئت من زهزة والفتى بمصقلا باذ لسقي الزروع

ملح ولمح به الإمام عبد القاهر في بعض من يأخذ عنه ولا يحضر ذهنه، وهو أبو عامر الجرجاني، أي: يجيء في بقية وقت له مع تعلق فكره بغير ما جاء له، كمجيء من خلط الهوى بالنزوع، أي الرجوع ويطلق النزوع على الشوق أيضًا، ثم يرى خلقة وطبيعة غليظة مشعلة بشهوات الشباب والجبلة - بكسرتين فتشديد، وبثلاث أوله وسكون ثانيه -: الخلقة والطبيعة؛ ولعلها مضافة لما بعدها إضافة الموصوف لصفته. ويقال: شب يشب ويشب شبابًا وشبيهاً: قمص ولعب. وشبت النار شبًا وشبونا: أوقدها. وشبته: أظهرته. وأشبته: هيجته. ويروى: ثم ترى جلسة مستوفز، أي: مستعجل متهيء للقيام. وهذه الرواية أوفق بالوزن والمعنى. والنسج: حزام عريض يوضع تحت صدر المطية، وستر الهودج، واسترخاء لحم الأسنان، وريح الشمال، والذهاب، وسرعة الإنبات. وجمعه: أنساع ونسوع ونسج. أي: والحال أنه قد شددت أحماله بالنسوع، كناية عن الرحيل. ويقول الفارسي عند استحسان الأمر: زهازه، فأخذ منه الزهزة، أي: ما شئت من الاستحسان عند التعلم موجود منه كثير، والخطاب لغير معين، والحال أن الفتى في مصقلا باد، وهي محلة بجرجان، ويروى بالذال المعجمة، أي: كائن هناك لسقي زروع. لما كان قلبه غير متعلق إلا بذلك المكان، كان جسمه كأنه هناك، ولقد ترقى في التشبيه حيث شبهه بمن خلط الهوى =

أو: وهو مؤمن شاهد على صحته وأنه وحى من الله، أو وهو بعض الشهداء في قوله تعالى: ﴿لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ﴾ [البقرة: ١٤٣] وعن قتادة وهو شاهد على صدقه من أهل الكتاب لوجود نعته عنده وقرأ السدي وجماعة: «ألقى السمع»، على البناء للمفعول. ومعناه: لمن ألقى غيره السمع وفتح له أذنه فحسب ولم يحضر ذهنه وهو حاضر الذهن متفطن. وقيل: ألقى سمعه أو السمع منه.

﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَمَا مَسَّنَا مِنْ لُغُوبٍ ۝٣٨﴾

اللغوب: الإعياء، وقرئ بالفتح بزنة القبول والولوع، قيل: نزلت في اليهود - لعنت - تكذيباً لقولهم: خلق الله السموات والأرض في ستة أيام، أولها الأحد، وآخرها الجمعة، واستراح يوم السبت، واستلقى على العرش، وقالوا: إن الذي وقع من التشبيه في هذه الأمة إنما وقع من اليهود، ومنهم أخذ.

﴿فَاصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ الْغُرُوبِ ۝٣٩ وَمِنَ اللَّيْلِ فَسَبِّحْهُ وَأَدْبَرَ الشُّجُورِ ۝٤٠ وَاسْمِعْ يَوْمَ يُنَادِي الْمُنَادِ مِنْ مَّكَانٍ قَرِيبٍ ۝٤١ يَوْمَ يَسْمَعُونَ الصَّيْحَةَ بِالْحَقِّ ذَٰلِكَ يَوْمُ الْخُرُوجِ ۝٤٢ إِنَّا نَحْنُ نُحْيِي وَنُمِيتُ وَإِلَيْنَا الْمَصِيرُ ۝٤٣﴾

﴿فَاصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ﴾ أي اليهود ويأتون به من الكفر والتشبيه. وقيل: فاصبر على ما يقول المشركون من إنكارهم البعث؛ فإن من قدر على خلق العالم قدر على بعثهم والانتقام منهم. وقيل: هي منسوخة بآية السيف. وقيل: الصبر مأمور به في كل حال ﴿بِحَمْدِ رَبِّكَ﴾ حامداً ربك، والتسبيح محمول على ظاهره أو على الصلاة، فالصلاة ﴿قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ﴾ الفجر ﴿وَقَبْلَ الْغُرُوبِ﴾ الظهر والعصر ﴿وَمِنَ اللَّيْلِ﴾ العشاءان. وقيل التهجد ﴿وَأَدْبَرَ الشُّجُورِ﴾ التسبيح في آثار الصلوات، والسجود والركوع يعبر بهما عن الصلاة. وقيل النوافل بعد المكتوبات. وعن علي رضي الله عنه: الركعتان بعد المغرب. وروي عن النبي ﷺ: «من صلى بعد المغرب قبل أن يتكلم كتبت صلاته في عشرين» (١٤٩٥) وعن

١٤٩٥ - روي مرسلًا ومسنداً.

أما المسند فمن حديث أنس وعائشة:

حديث أنس: قال الزيلعي (٣/٣٥٩):

رواه الدارقطني في كتابه غرائب مالك من حديث الحسن بن الليث بن حاجب: ثنى أحمد بن =

= بغيره تشبيهاً بليغاً. ثم بمن تهيأ للرحيل على سبيل التمثيل، ثم بمن سافر بالفعل ووصل مقصده واشتغل بما فيه تشبيهاً بليغاً، فله دره بليغاً.

ابن عباس رضي الله عنهما: الوتر بعد العشاء. والأدبار: جمع دبر. وقرئ: «وأدبار» من أدبرت الصلاة إذا انقضت وتمت. ومعناه: ووقت انقضاء السجود، كقولهم: آتيك خفوق النجم ﴿رَأْسَتِ﴾ يعني واستمع لما أخبرك به من حال يوم القيامة. وفي ذلك تهويل وتعظيم لشأن المخبر به والمحدث عنه، كما يروى عن النبي ﷺ أنه قال سبعة أيام لمعاد بن جبل: /٢/ ١٩٦ أ «يا معاذًا اسمع ما أقول لك»، ثم حدّثه بعد ذلك (١٤٩٦). فإن قلت: بم انتصب اليوم؟ قلت: بما دلّ عليه ﴿ذَلِكَ يَوْمُ الْخُرُوجِ﴾ أي: يوم ينادي المنادي يخرجون من القبور. ويوم يسمعون: بدل من ﴿يَوْمَ يَنادِ﴾ و﴿الْمَنادِ﴾ إسرافيل ينفخ في الصور وينادي: أيتها العظام البالية والأوصال المنقطعة واللحوم المتمزقة والشعور المتفرقة إنّ الله يأمركن أن تجتمعن لفصل القضاء. وقيل: إسرافيل ينفخ وجبريل ينادي بالحشر ﴿مِن مَّكَانٍ قَرِيبٍ﴾ من صحرة بيت المقدس، وهي أقرب الأرض من السماء باثني عشر ميلًا، وهي

= سليمان الأسدي قال: قرأت على مالك بن أنس عن ابن شهاب الزهري عن أنس بن مالك قال: سمعت رسول الله - صلى الله عليه وسلم - يقول: «من صلى المغرب ثم صلى بعدها ركعتين قبل أن يتكلم بشيء كتبنا في عليين فإن صلى أربعًا كان كالمعقب غزوة بعد غزوة فإن صلى اثنتي عشرة ركعة بني له في الجنة قصر من ياقوت فيه من الشجر ونور الثمر ما لا يحصىه إلا رب العالمين».

قال الدارقطني: هذا حديث موضوع على مالك ومن دونه في الإسناد ضعفاء^١ هـ.
وحديث عائشة: رواه ابن شاهين في الترغيب (١/ ١٣٠) رقم (٧٤) باب فضل صلاة المغرب والصلاة بعدها، من حديث عائشة قالت: قال رسول الله - صلى الله عليه وسلم -: «ما من صلاة أحب إلى الله عز وجل من صلاة المغرب بها يفتح العبد ليله ويختم بها نهاره - لم يحطها عن مسافر ولا مقيم، من صلاها وصلى بعدها ركعتين من غير أن يكلم جليسا - كتبت في عليين أو رفعت في عليين - شك محمد بن عون - فإن صلاها وصلى بعدها أربعًا، من غير أن يكلم جليسا - بنى الله عز وجل له قصرين مكللين بالدر والياقوت بينهما من الجنات ما لا يعلم علمه إلا هو وإن صلاها وصلى بعدها ستًا من غير أن يكلم جليسا غفر له ذنوب أربعين عامًا».

قال الحافظ ابن حجر في تخريج أحاديث الكشاف:
أخرجه ابن أبي شيبه وعبد الرزاق من رواية عبدالعزيز بن عمر: سمعت مكحولاً يقول: بلغني أن النبي - صلى الله عليه وسلم - قال: «من صلى ركعتين بعد المغرب قبل أن يتكلم كتبنا - أو قال: رفعتا - في عليين» هذا مرسل. وقد روي موصولاً عن أنس عن عائشة - رضي الله عنهما -
أما حديث أنس فرواه الدارقطني في غرائب مالك، من رواية أحمد بن سليمان الأسدي عنه عن الزهري عن أنس به وأثم منه. وقال: هذا موضوع على مالك. وأما حديث عائشة فرواه ابن شاهين في الترغيب - وفي إسناده جعفر بن جميع. انتهى.

وأما المرسل: فرواه عبدالرزاق في مصنفه (٣/ ٧٠) رقم (٤٨٣٣)، وعزاه الزيلعي (٣/ ٣٦٠) لابن أبي شيبه.
من طريق عبدالعزيز بن عمر بن عبدالعزيز قال: سمعت مكحولاً يقول: بلغني أن النبي - صلى الله عليه وسلم - قال: من صلى ركعتين بعد المغرب قبل أن يتكلم كتبنا، أو قال: «رفعتا في عليين».

١٤٩٦ - يبض له الزيلعي (٣/ ٣٦١) وقال الحافظ: لم أجده. انتهى.

وسط الأرض. وقيل: من تحت أقدامهم. وقيل: من منابت شعورهم يسمع من كل شعرة: أيتها العظام البالية، و﴿الضَّيِّعَةُ﴾ النفخة الثانية ﴿بِالْحَقِّ﴾ متعلق بالصيحة، والمراد به البعث والحشر للجزاء.

﴿يَوْمَ تَشَقُّوْا الْأَرْضَ عَنْهُمْ سِرَاعًا ذَلِكَ حَشْرٌ عَلَيْنَا يَسِيرٌ﴾ (٤٤)

وقرئ: «تشقق» وتشقق بإدغام التاء في الشين، وتشقق على البناء للمفعول، وتشقق ﴿سِرَاعًا﴾ حال من المجرور ﴿عَلَيْنَا يَسِيرٌ﴾ تقديم الظرف يدل على الاختصاص، يعني: لا يتيسر مثل ذلك الأمر العظيم إلا على القادر الذات الذي لا يشغله شأن عن شأن، كما قال تعالى: ﴿مَا خَلَقَكُمْ وَلَا يَعْثُبُكُمْ إِلَّا كَفَّيْسٌ وَاحِدٌ﴾ [لقمان: ٢٨].

﴿نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَ وَمَا أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِجَبَّارٍ فَذَكَرْ بِالْقُرْآنِ مَنْ يَخَافُ وَعِيدِ﴾ (٤٥)

﴿نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَ﴾ تهديد لهم وتسلية لرسول الله ﷺ ﴿بِجَبَّارٍ﴾ كقوله تعالى: ﴿يُضَيِّطُ﴾ [الغاشية: ٢٢] حتى تقسرهم على الإيمان، إنما أنت داع وباعث^(١). وقيل: أريد التحلم عنهم وترك الغلظة عليهم. ويجوز أن يكون من جبره على الأمر بمعنى أجبره عليه، أي: ما أنت بوال عليهم تجبرهم على الإيمان. وعلى بمنزلته في قولك: هو عليهم، إذا كان واليهم ومالك أمرهم ﴿مَنْ يَخَافُ وَعِيدِ﴾ كقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا أَنْتَ مُنْذِرُ مَنِ خَشَنَاهَا﴾ [النازعات: ٤٥] لأنه لا ينفع إلا فيه دون المصّر على الكفر.

عن رسول الله ﷺ «من قرأ سورة ق هون الله عليه تارات^(٢) الموت وسكراته» (١٤٩٧).

١٤٩٧ - تقدم برقم (٣٤٦) وقال الحافظ ابن حجر: أخرجه الثعلبي وابن مردويه والواحدي من حديث أبي بن كعب رضي الله عنه - انتهى.

- (١) قوله: «إنما أنت داع وباعث» أي: تبعث الناس على الإيمان. (ع)
(٢) قوله: «هون الله عليه تارات الموت» في الصحاح: فعل ذلك الأمر تارة بعد تارة، أي: مرة بعد مرة. (ع)

سورة الذاريات

مكية وآياتها ٦٠ [نزلت بعد الأحقاف]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿وَالذَّارِيَاتِ ذُرَّوًا﴾ ﴿١﴾ فَالْحَمَلَاتِ وِقْرًا ﴿٢﴾ فَالْجَارِيَاتِ يُسْرًا ﴿٣﴾ فَالْمَقْسَمَاتِ أَمْرًا ﴿٤﴾ إِنَّمَا نُوَدُّونَ ﴿٥﴾ لَصَادِقٌ ﴿٦﴾ وَإِنَّ الْدِّينَ لَوَاقِعٌ ﴿٧﴾

﴿وَالذَّارِيَاتِ﴾ الرياح لأنها تذر التراب وغيره. قال الله تعالى: ﴿نَذْرُوهُ الرِّيحُ﴾ [الكهف: ٤٤] وقرئ بإدغام التاء في الذال ﴿فَالْحَمَلَاتِ وِقْرًا﴾ ﴿٢﴾ السحاب، لأنها تحمل المطر. وقرئ: «وقرًا» بفتح الواو على تسمية المحمول بالمصدر. أو على إيقاعه موقع حملاً ﴿فَالْجَارِيَاتِ يُسْرًا﴾ ﴿٣﴾ الفلك. ومعنى (يسرًا): جرياً ذا يسر، أي ذا سهولة ﴿فَالْمَقْسَمَاتِ أَمْرًا﴾ ﴿٤﴾ الملائكة، لأنها تقسم الأمور من الأمطار والأرزاق وغيرها. أو تفعل التقسيم مأمورة بذلك. وعن مجاهد: تتولى تقسيم أمر العباد: جبريل للغلظة، وميكائيل للرحمة. وملك الموت لقبض الأرواح، وإسرافيل للنفخ. وعن علي رضي الله عنه أنه قال وهو على المنبر: سلوني قبل أن لا تسألوني، ولن تسألوا بعدي مثلي، فقام ابن الكواء فقال: ما الذاريات ذروا؟ قال: الرياح. قال: فالحاملات وقرًا؟ قال السحاب. قال: فالجاريات يسرًا؟ قال: الفلك. قال فالمقسمات أمراً؟ قال: الملائكة (١٤٩٨) وكذا عن ابن عباس

١٤٩٨ - رواه الحاكم في المستدرک (٤٦٦/٢ - ٤٦٧)، وقال: «صحيح الإسناد ولم يخرجاه» ا. هـ. ورواه عبد الرزاق في تفسيره (٢٤١/٢)، وابن جرير في تفسيره (٤٤٢/١١) رقم (٣٢٠١٦). وروى البزار في مسنده رقم (٢٢٥٩ - كشف) حدثنا إبراهيم بن هاني ثنا سعيد بن سلام العطار ثنا أبو بكر بن أبي سبرة عن يحيى بن سعيد عن سعيد بن المسيب قال: جاء صبيغ بن عسل التميمي إلى عمر بن الخطاب فقال: يا أمير المؤمنين، أخبرني عن «الذاريات ذروا» قال: هي الرياح، ولولا أنني سمعت رسول الله عليه وسلم - يقوله ما قلته قال: فأخبرني عن: «الحاملات وقرًا» قال: هي السحاب.. فذكر حديثاً طويلاً.

وعزه الزيلعي (٣٦٦/٣) لابن مردويه في تفسيره، من حديث عبد الله بن موسى: عن ابن أبي سبرة به سنداً ومتناً، وقال الحافظ ابن حجر في تخريج الكشاف:

أخرجه الحاكم والطبري وغيرهما من رواية أبي الطفيل قال: رأيت علي بن أبي طالب رضي الله =

(١٤٩٩). وعن الحسن (المقسمات) السحاب، يقسم الله بها أرزاق العباد، وقد حملت على الكواكب السبعة، ويجوز أن يراد: الرياح لا غير؛ لأنها تنشئ السحاب وتقله وتصرفه، وتجري في الجو جرياً سهلاً، وتقسم الأمطار بتصريف السحاب. فإن قلت: ما معنى الفاء على التفسيرين؟ قلت: أما على الأول فمعنى التعقيب فيها أنه تعالى أقسم بالرياح، فبالسحاب الذي تسوقه، فبالفلك التي تجريها بهبوبها، فبالملائكة التي تقسم الأرزاق بإذن الله من الأمطار وتجارات البحر ومنافعه. وأما على الثاني، فلأنها تبتدىء بالهبوب^(١)، فتذروا التراب والحصباء، فتتنقل السحاب، فتجري في الجو باسطة له فتقسم المطر ﴿إِنَّمَا نُعَدُّهُ﴾ جواب القسم، وما موصولة أو مصدرية، والموعود: البعث. ووعد صادق: كعيشة راضية. والدين: الجزاء. والواقع: الحاصل.

﴿وَالسَّمَاءَ ذَاتِ الْحُبُوبِ ﴿٧﴾ إِنَّكُمْ لَفِي قَوْلٍ مُّتَخَلِّفٍ ﴿٨﴾ يُؤَفِّكُ عَنْهُ مَنَافِكُ ﴿٩﴾﴾

﴿الْحُبُوبِ﴾ الطرائق، مثل حبك الرمل والماء: إذا ضربته الريح، وكذلك حبك الشعر: آثار تشبهه وتكسره. قال زهير [من البسيط]:
مُكَلَّلٌ بِأَصُولِ النَّجْمِ تَنْسِجُهُ رِيحٌ خَرِيقٌ لِضَاحِي مَائِهِ حُبُكُ^(٢) ١٩٦/٢ ب

عنه - على المنبر فذكره، وزاد فيه: قال: «فمن الذين بدلوا نعمة الله كفراً؟ قال: هم منافقو قریش»، وفي الباب عن عمر مرفوعاً أخرجه البزار، وفيه قصة منبع، وقال ابن أبي سيرة: لين الحديث، وسعيد بن سلام ليس من أصحاب الحديث أ. هـ. ولم ينفرد به سعيد فقد رواه ابن مردويه من طريق عبيد بن موسى عن أبي سيرة أيضاً. انتهى.
١٤٩٩ - رواه الطبري في التفسير (٤٤٢/١١) رقم (٣٢٠٣٣) حدثني محمد بن سعد قال: ثنى أبي قال: - ثنى عمي قال: ثنى أبي عن أبيه عن ابن عباس قوله «فالحاملات وقراً» قال: السحاب قوله: «فالمقسمات أمراً». قال: الملائكة» أ. هـ.

- (١) قوله: «فلأنها تبتدىء بالهبوب» لعله: فإنها. (ع)
(٢) حتى استغاثت بماء لا رشاء له من الأباطح في حافات البرك
مكلل بأصول النجم تنسجه ريح خريق لضاحي مائه حبك
كما استغاث بسيء فز غيظلة خاف العيون ولم ينظر به الحشك
لزهير: يصف قطاة فرت من صقر حتى استغاثت منه بماء قريب لا رشاء له، أي: لا حبل يستقي به منه لعدم احتياجه إليه من الأباطح، أي: في الأمكنة المتسعة المستوية؛ فإن أراد من الماء مكانه؛ فمن بيانية، في حافات أي جوانبه البرك جمع بركة، كرطب ورطبة نوع من طير الماء يكلل ذلك الماء بأصول النجم، أي: النبات الذي لا ساق له. وروي بعميم النجم، أي: طويله، تنسجه: أي تشنيه تشنيًا منتظمًا كالنسج، فهو استعارة مصرحة. والخريق - بالقاف - الباردة والشديدة السير. والضاحي: الظاهر. والحبك: الطريق في وجه الماء إذا ضربته الريح. جمع حباك أو حبيكة. =

والدرع محبوبكة؛ لأنّ حلقها مطرّق طرائق. ويقال: إنّ خلقه السماء كذلك. وعن الحسن: حبكها نجومها. والمعنى: أنها تزينها كما تزين الموشى طرائق الوشي. وقيل: حبكها صفاقتها وإحكامها، من قولهم: فرس محبوبك المعاقم^(١)؛ أي محكمها. وإذا أجاد الحائك الحياكة قالوا: ما أحسن حبكه، وهو جمع حبك، كمثال ومثل. أو حبيكة، كطريقة وطرق. وقرئ: «الحبك» بوزن القفل. والحبك، بوزن السلك. والحبك، بوزن الجبل. والحبك بوزن البرق. والحبك بوزن النعم. والحبك بوزن الإبل ﴿إِنَّا لَنُؤْتِي قَوْلَ تَخْلِيلٍ﴾^(٨) قولهم في الرسول: ساحر وشاعر ومجنون، وفي القرآن: شعر وسحر وأساطير الأولين. وعن الضحاك: قول الكفرة لا يكون مستويًا، إنما هو متناقض مختلف. وعن قتادة: منكم مصدّق ومكذب، ومقرّ ومنكر ﴿يُؤْفِكُ عَنْهُ﴾^(٢) الضمير للقرآن وللرسول، أي: يصرف عنه، من صرف الصرف الذي لا صرف أشد منه^(٣) وأعظم؛ كقوله: لا يهلك على الله إلا هالك. وقيل: يصرف عنه من صرف في سابق علم الله، أي: علم فيما لم يزل أنه مأفوك عن الحق لا يعوي. ويجوز أن يكون الضمير لما توعدون أو للدين: أقسم بالذاريات على أن وقوع أمر القيامة حق، ثم أقسم بالسماء على أنهم في قول مختلف في وقوعه، فمنهم شكّ، ومنهم جاحد. ثم قال: يؤفك عن الإقرار بأمر القيامة من هو المأفوك. ووجه آخر: وهو أن يرجع الضمير إلى قول مختلف وعن مثله في قوله [من السريع]: يَنْهَوْنَ عَنْ أَكْلِ وَعَنْ شُرْبِ^(٣)

= والسيء بالفتح وبالكسر: اللبن في طرف الثدي. والفز: ولد البقرة الوحشية. والغيطلة: الشجر الملتف؛ فإضافة الفز إليها لأنه فيها. وقيل: هي البقرة الوحشية. والعيون هنا: رقباء الصيد وجواسيسه. وحشكت الدرة باللبن حشكًا وحشوكًا: امتلأت به. وحرك الحشك هنا للضرورة، أي: لم ينتظر به امتلاء الدرة، ولعمري نعمت هذه الاستغاثة. وفيه دلالة على أنها كانت ظمآنة. ينظر: ديوانه ص ١٧٦، ولسان العرب (نسج)، (خرق)، (حبك)، (نجم)، وجمهرة اللغة ص ٢٨٣، وأساس البلاغة (حبك)، وتاج العروس (نسج)، (حبك)، (نجم)، وبلا نسبة في المختص ١٤٩/٩.

(١) قوله: «فرس محبوبك المعاقم» في الصحاح: المعاقم من الخيل: المفاصل، فالراسغ عند الحافر معقم، والركبة معقم، والعروقب معقم. اهـ. (ع)

(٢) قال محمود: «يصرف عنه من صرف الصرف الذي لا صرف أشد منه... إلخ» قال أحمد: إنما أفاد هذا النظم المعنى الذي ذكر من قبل أنك إذا قلت: يصرف عنه من صرف، علم السامع أن قولك يصرف عنه يغني عن قولك من صرف، لأنه بمجرد كالتكرار للأول، لولا ما يستشعر فيه من فائدة تأبى جعله تكرارًا، وتلك الفائدة أنك لما خصصت هذا بأنه هو الذي صرف، أفهم أن غيره لم يصرف، فكانت قلت: لا يثبت الصرف في الحقيقة إلا لهذا، وكل صرف دونه فكل صرف بالنسبة إليه، والله تعالى أعلم.

(٣) ينهون عن أكل وعن شرب مثل المها يرتعن في خصب =

أي: يتناهون في السمن بسبب الأكل والشرب. وحقيقته: يصدر تناهيهم في السمن عنهما، وكذلك يصدر إفكهم عن القول المختلف. وقرأ سعيد بن جبير: يؤفك عنه من أفك، على البناء للفاعل. أي: من أفك الناس عنه وهم قريش، وذلك أَنَّ الحي كانوا يبعثون الرجل ذا العقل والرأي ليسأل عن رسول الله ﷺ، فيقولون له: احذره، فيرجع فيخبرهم. وعن زيد بن علي: يَأفك عنه من أفك، أي: يصرف الناس عنه من هو مأفوك في نفسه. وعنه أيضًا: يَأفك عنه من أفك؛ أي: يصرف الناس عنه من هو أفاك كذاب. وقرئ: «يؤفن عنه من أفن» أي: يحرمه من حرم، من أفن الضرع إذا نهكه حلبًا.

﴿قِيلَ الْخَرَاصُونَ﴾ (١٠) الَّذِينَ هُمْ فِي غَمَرَةٍ سَاهُوتٌ ﴿١١﴾ يَسْتَلُونَ أَيَّانَ يَوْمُ الدِّينِ ﴿١٢﴾ يَوْمَ هُمْ عَلَى النَّارِ يُفْتَنُونَ ﴿١٣﴾ ذُوقُوا فِتْنَتَكُمْ هَذَا الَّذِي كُنتُمْ بِهِ تَسْتَعْجِلُونَ ﴿١٤﴾

﴿قِيلَ الْخَرَاصُونَ﴾ (١٠) دعاء عليهم، كقوله تعالى: ﴿قِيلَ الْآخِزْنَ مَا أَكْفَرُوا﴾ [عبس: ١٧] وأصله الدعاء بالقتل والهلاك، ثم جرى مجرى: لعن وقبح. والخراصون: الكذابون المقدرين ما لا يصح، وهم أصحاب القول المختلف، واللام إشارة إليهم، كأنه قيل: قتل هؤلاء الخراصون. وقرئ: «قتل الخراصين» أي: قتل الله ﷻ في غَمَرَةٍ في جهل يغمرهم ﴿سَاهُوتٌ﴾ غافلون عما أمروا به ﴿يَسْتَلُونَ﴾ فيقولون: «أيان يوم الدين» أي متى يوم الجزاء؟ وقرئ بكسر الهمزة وهي لغة. فإن قلت: كيف وقع أيان ظرفًا لليوم، وإنما تقع الأحيان ظروفًا للحدثان؟ قلت: معناه: أيان وقوع يوم الدين. فإن قلت: فيم انتصب اليوم الواقع في الجواب؟ قلت: بفعل مضمر دلّ عليه السؤال، أي: يقع يوم هم على النار يفتنون، ويجوز أن يكون مفتوحًا لإضافته إلى غير متمكن وهي الجملة. فإن قلت: فما محله مفتوحًا؟ قلت: يجوز أن يكون محله نصبًا بالمضمر الذي هو يقع؛ ورفعا على هو يوم هم على النار يفتنون. وقرأ ابن أبي عبيدة بالرفع ﴿يُفْتَنُونَ﴾ يحرقون ويعذبون. ومنه الفتين: وهي الحرّة؛ لأن حجاتها كأنها محرقة ﴿ذُوقُوا فِتْنَتَكُمْ﴾ في محل الحال، أي: مقولاً لهم هذا القول ﴿هَذَا﴾ مبتدأ، و﴿الَّذِي﴾ خبره، أي: هذا العذاب هو الذي ﴿كُنتُمْ بِهِ تَسْتَعْجِلُونَ﴾ ويجوز أن يكون هذا بدلاً من فتنكم؛ أي: ذوقوا هذا العذاب.

﴿إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ﴾ (١٥) أَخَذِينَ مَا آتَاهُمُ رَبُّهُمْ إِنَّهُمْ كَانُوا قَبْلَ ذَلِكَ مُحْسِنِينَ ﴿١٦﴾ كَانُوا

= يقال: نهى الجمل فهو ناه، إذا فرط في السمن. والمها: جمع مهاة وهي البقرة الوحشية. ويقال: أخضب المكان فهو مخضب، وأخضبه الله. وخضب خصبًا، كتب تعبًا، وعلم علمًا: إذا كثر كلاه ونباته. يصف أضيافًا بأنهم يصدر تناهيهم وسمنهم عن الأكل والشرب. وشبههم بالمها اللاتي يرتعن في الكلاء، فالخضب في الأصل: مصدر سمي به الكلاء.

قَلِيلًا مِّنَ اللَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ ﴿١٧﴾ وَلَا يَسْتَحَارُونَ ﴿١٨﴾ وَفِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ لِّلسَّائِلِ
وَالْمَحْرُورِ ﴿١٩﴾

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّهُمْ رَبُّهُمْ﴾ قابليْن لكل ما أعطاهم راضين به، يعني أنه ليس فيما آتاهم إلا ما هو متلقى بالقبول مرضي غير مسخوط، لأن جميعه حسن طيب. ومنه قوله تعالى: ﴿يَاخُذُ الصَّدَقَاتِ﴾ [التوبة: ١٠٤] أي يقبلها ويرضاها ﴿مُحْسِنِينَ﴾ قد أحسنوا أعمالهم، وتفسير إحسانهم ما بعده ﴿مَا﴾ مزيدة. والمعنى: كانوا يهجعون في طائفة قليلة من الليل إن جعلت قليلاً ظرفاً، ولك أن تجعله صفة للمصدر، أي: كانوا يهجعون هجوعاً قليلاً. ويجوز أن تكون ﴿مَا﴾ مصدرية أو موصولة؛ على: كانوا قليلاً من الليل هجوعهم، أو ما يهجعون فيه، وارتفاعه بـ «قليلاً» على الفاعلية^(١). وفيه مبالغات لفظ الهجوع، وهو الفرار من النوم^(٢). قال [من السريع]:

قَدْ حَصَّتِ الْبَيْضَةُ رَأْسِي فَمَا أَطْعَمُ نَوْمًا غَيْرَ تَهْجَاعٍ^(٣)

(١) ذكر الزمخشري فيه وجهين أن تكون ما زائدة وقليلاً ظرف منتصب بيهجعون، أي: كانوا يهجعون في طائفة قليلة من الليل. أو تكون (ما) مصدرية أو موصولة على: كانوا قليلاً من الليل هجوعهم. أو ما يهجعون فيه، وارتفاعه بقليلاً على الفاعلية قال أحمد: وجوه مستقيمة خلا جعل (ما) مصدرية، فإن قليلاً حينئذ واقع على الهجوع، لأنه فاعله. وقوله: (من الليل) بياناً للقليل ولا بياناً له، ولا يستقيم أن يكون «من» صلة المصدر لأنه تقدم عليه، ولا كذلك على أنها موصولة، فإن قليلاً حينئذ واقع على الليل، كأنه قال: قليلاً المقدار الذي كانوا يهجعون فيه من الليل، فلا مانع أن يكون (من الليل) بياناً للقليل على هذا الوجه، وهذا الذي ذكره إنما تبع فيه الزجاج. وقد رد الزمخشري أن تكون ما نفيًا وقليلاً منصوب بيهجعون على تقدير: كانوا ما يهجعون قليلاً من الليل، وأسند رده إلى امتناع تقدم ما في حيز النفي عليه. قلت: وفيه خلل من حيث المعنى، فإن طلب قيام جميع الليل غير مستثنى منه الهجوع وإن قل غير ثابت في الشرع ولا معهود. ثم قال: وصفهم بأنهم يحيون الليل متهمجين، فإذا سحرُوا شرعوا في الاستغفار. كأنهم أسلفوا في ليلهم الجرائم. قال: وقوله: (هم) معناه: هم الأحقاء بالاستغفار دون المصيرين. قال: وفي الآية مبالغات منها لفظ الهجوع وهو الخفيف الفرار من النوم. قال: وقوله: (قليلاً) وقوله: (من الليل) لأنه وقت السبات. قال: ومنها زيادة ما في بعض الوجوه. قلت: وفي عدها من المبالغة نظر؛ فإنها تؤكد الهجوع وتحققه، إلا أن يجعلها بمعنى القلة فيحتمل.

(٢) قوله: «هو الفرار من النوم» في الصحاح: الفرار بالكسر: النوم القليل اهـ. (ع)

(٣) قد حصت البيضة رأسي فما أطعم نوماً غير تهجاع

أسعى على جل بني مالك كل امرئ في شأنه ساع

لقيس بن الأسلت. وحصت: أهلكت أو حلقت، البيضة التي تلبس على الرأس في الحرب، أي حلقت شعر رأسي من دوام لبسها للحرب. وشبه النوم بالمطعموم لاستلذاذ مباديه على طريق المكنية، وأطعم: أي أتناول تخييل لذلك والتهجاع: التغافل قليلاً لطرد النوم؛ فالاستثناء منقطع. =

وقوله: ﴿فَلْيَلَا﴾ و﴿مَنْ أَلِيلٌ﴾ لأن الليل وقت السبات والراحة، وزيادة ﴿مَا﴾ المؤكد لذلك: وصفهم/٢/١٩٧ بأنهم يحيون الليل متهجدين، فإذا أسحروا أخذوا في الاستغفار، كأنهم أسلفوا في ليلهم الجرائم. وقوله: ﴿هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ﴾ فيه أنهم هم المستغفرون الأحقاء بالاستغفار دون المصترين، فكأنهم المختصون به لاستدامتهم له وإطناهم فيه. فإن قلت: هل يجوز أن تكون ما نافية كما قال بعضهم، وأن يكون المعنى: أنهم لا يهجعون من الليل قليلاً، ويحيونه كله؟ قلت: لا، لأن ما النافية لا يعمل ما بعدها فيما قبلها. تقول: زيداً لم أضرب، ولا تقول: زيداً ما ضربت: السائل: الذي يستجدي ﴿وَالْحَرُورِ﴾ الذي يحسب غنياً فيحرم الصدقة لتعففه. وعن النبي ﷺ: «ليس المسكين الذي ترده الأكلة والأكلتان واللقمة واللقتان والتمرّة والتمرتان» قالوا: فما هو؟ قال: «الذي لا يجد ولا يتصدق عليه» (١٥٠٠) وقيل: الذي لا ينمي له مال. وقيل: المحارف^(١) الذي لا يكاد يكسب.

﴿وَفِي الْأَرْضِ آيَاتٌ لِلْمُوقِنِينَ﴾ (٢٠) ﴿وَفِي أَنْفُسِكُمْ أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴾ (٢١)

﴿وَفِي الْأَرْضِ آيَاتٌ﴾ تدل على الصانع وقدرته وحكمته وتدبيره حيث هي مدحوة كالسباط لما فوقها كما قال: ﴿الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ مَهْدًا﴾ [طه: ٥٣] وفيها المسالك والفجاج للمتقلين فيها والماشين في مناكبها، وهي مجزأة: فمن سهل وجبل وبر وبحر. وقطع

١٥٠٠ - رواه البخاري (١٠٤/٤) كتاب الزكاة، باب: قول الله تعالى: «لا يسألون الناس إلحافاً» الحديث (١٤٧٩) ومسلم (١٣٩/٤) كتاب الزكاة، باب: المسكين الذي لا يجد غنى، الحديث (١٠٣٩). وأبو داود (٥١٣/١) كتاب الزكاة، باب: من يعطي من الصدقة وحد الغنى، الحديث (١٦٣١). والنسائي (٨٥/٥) كتاب الزكاة، باب: تفسير المسكين، وقال الحافظ ابن حجر: أخرجه مسلم من حديث أبي هريرة. انتهى.

= وجلهم: مهم أمورهم ومعظمها كالغارات يدفعها عنهم. وروي: على جبل بني مالك، وعليه فشبه العهد بالجبل للتوثق والتوصل بكل على طريق التصريحية، أي: أسعى في شأني متمسكاً بهمهم، وعلى الأول فقلوه: «كل امرئ في شأنه ساع» فيه دلالة على إلزام نفسه بشأنهم، وأنه شأنه.

ينظر: ديوانه ص ٧٨، ولسان العرب (حصى)، (هجع)، وتهذيب اللغة، وجمهرة اللغة ص ٩٨، ومجمل اللغة ١٤/٢، وديوان الأدب ١٢٦/٣، وتاج العروس (حصى)، ٣٨٤/٢٢ (هجع)، وشرح اختيارات المفضل ص ١٢٣٦، وبلا نسبة في كتاب العين ١٤/٣، ومقاييس اللغة ١٣/٢، والمختص ٧٠/١ وأساس البلاغة (هجع).

(١) قوله: «وقيل المحارف» في الصحاح: رجل محارف، بفتح الراء: أي محدود محروم، خلاف قولك: مبارك اهـ. (ع)

متجاورات: من صلبة ورخوة، وعذاة^(١) وسبخة؛ وهي كالطروقة تلتقح بألوان النبات وأنواع الأشجار بالثمار المختلفة الألوان والطعوم والروائح تسقى بماء واحد ﴿ونفسل بعضها على بعض في الأكل﴾ [الرعد: ٤] وكلها موافقة لحوائج ساكنيها ومنافعهم ومصالحهم في صحتهم واعتلالهم، وما فيها من العيون المتفجرة والمعادن المفتنة والدواب المنبثة في برّها وبحرها المختلفة الصور والأشكال والأفعال: من الوحشي والإنسي والهوام، وغير ذلك ﴿لِتَوَقَّيْنَ﴾ الموحدين الذين سلكوا الطريق السوي البرهاني الموصل إلى المعرفة، فهم نظارون بعيون باصرة وأفهام نافذة، كلما رأوا آية عرفوا وجه تأملها، فازدادوا إيماناً مع إيمانهم، وإيقاناً إلى إيقانهم ﴿وَقِيَ أَنفُسُكُمْ﴾ في حال ابتدائها وتنقلها من حال إلى حال وفي بواطنها وظواهرها من عجائب الفطر وبدائع الخلق: ما تحير فيه الأذهان، وحسبك بالقلوب وما ركز فيها من العقول وخصت به من أصناف المعاني، وبالألسن، والنطق، ومخارج الحروف، وما في تركيبها وترتيبها ولطائفها: من الآيات الساطعة والبيّنات القاطعة على حكمة المدبر، دع الأسماع والأبصار والأطراف وسائر الجوارح وتأتيها لما خلقت له، وما سوى في الأعضاء من المفاصل للانعطاف والتثني. فإنه إذا جسا^(٢) شيء منها جاء العجز، وإذا استرخى أناخ الذل، فتبارك الله أحسن الخالقين.

﴿وَفِي السَّمَاءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ﴾ ﴿٢٢﴾ ﴿فَرَبِّ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِنَّهُ لَحَقٌّ مِّثْلَ مَا أَنَّكُمْ تَنطِقُونَ﴾ ﴿٢٣﴾

﴿وَفِي السَّمَاءِ رِزْقُكُمْ﴾ هو المطر؛ لأنه سبب الأقوات. وعن سعيد بن جبير: هو الثلج وكل عين دائمة منه. وعن الحسن: أنه كان إذا رأى السحاب قال لأصحابه: فيه والله رزقكم، ولكنكم تحرّمونه لخطاياكم ﴿وَمَا تُوعَدُونَ﴾ الجنة: هي على ظهر السماء السابعة تحت العرش. أو أراد: أن ما ترزقونه في الدنيا وما توعدون به في العقبى كله مقدّر مكتوب في السماء. قرئ: «مثل ما» بالرفع صفة للحق، أي حق مثل نطقكم، وبالنصب على: إنه لحق حقاً مثل نطقكم. ويجوز أن يكون فتحاً لإضافته إلى غير متمكن. وما مزيدة بنص الخليل، وهذا كقول الناس: إن هذا لحق، كما أنك ترى وتسمع، ومثل ما إنك ههنا. وهذا الضمير إشارة إلى ما ذكر من أمر الآيات والرزق وأمر النبي ﷺ؛ أو إلى ما توعدون. وعن الأصمعي: أقبلت من جامع البصرة فطلع أعرابي على قعود له فقال: من الرجل؟ قلت: من بني أصمع. قال: من أين أقبلت؟ قلت: من موضع يتلى فيه كلام

(١) قوله: «وعذاة» في الصحاح «العذاة»: الأرض الطيبة التربة، والجمع عذوات. (ع)

(٢) قوله: «إذا جسا شيء منها» في الصحاح: جست اليد وغيرها جسواً وجساء: ييست اهد. (ع)

الرحمن. فقال: اتل علي، فتلوت ﴿وَالَّذِينَ﴾ فلما بلغت قوله تعالى: ﴿وَفِي السَّمَاءِ رِزْقُكُمْ﴾ قال: حسبك، فقام إلى ناقته فنحراها ووزعها على من أقبل وأدبر، وعمد إلى سيفه وقوسه فكسرهما وولى، فلما حججت مع الرشيد طفقت أطوف، فإذا أنا بمن يهتف بي بصوت دقيق، فالتفت فإذا أنا بالأعرابي قد نحل واصفر، فسلم علي واستقرأ السورة، فلما بلغت الآية صاح وقال: قد وجدنا ما وعدنا ربنا حقًا، ثم قال: وهل غير هذا؟ فقرأت: فورب السماء والأرض إنه لحق، فصاح وقال: يا سبحان الله، من ذا الذي أغضب الجليل حتى حلف، لم يصدقوه بقوله حتى ألجأوه إلى اليمين؛ قالها ثلاثًا وخرجت معها نفسه.

﴿هَلْ أُنَبِّئُكَ حَدِيثُ ضَيْفِ إِبْرَاهِيمَ الْمُكْرَمِينَ﴾ (٢٤) إِذْ دَخَلُوا عَلَيْهِ فَقَالُوا سَلَامًا قَالَ سَلَامٌ قَوْمٌ مُنْكَرُونَ (٢٥) فَرَأَى إِلَيْكَ أَهْلَهُ فَجَاءَ بِعَجَلٍ سَمِينٍ (٢٦) فَقَرَّبَهُ إِلَيْهِمْ قَالَ أَلَا تَأْكُلُونَ (٢٧) فَأَوْحَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً قَالُوا لَا تَخَفْ وَبَشِّرُوهُ بَعْلَكُمُ الْغَيْمِ (٢٨) فَأَقْبَلَتْ امْرَأَتُهُ فِي صَرَقٍ فَصَكَّتْ وَجْهَهَا وَقَالَتْ عَجُوزٌ عَقِيمٌ (٢٩) قَالُوا كَذَلِكَ قَالَ رَبُّكَ إِنَّهُ هُوَ الْحَكِيمُ الْعَلِيمُ (٣٠)

﴿هَلْ أُنَبِّئُكَ﴾ تفخيم للحديث وتنبيه على أنه ليس من علم رسول الله ﷺ، وإنما عرفه بالوحي. والضيف للواحد والجماعة كالزور والصوم؛ لأنه في الأصل مصدر ضافه /٢/ ١٩٧ب، وكانوا اثني عشر ملكًا. وقيل: تسعة عشرهم جبريل. وقيل ثلاثة: جبريل، وميكائيل، وملك معهما. وجعلهم ضيفًا؛ لأنهم كانوا في صورة الضيف: حيث أضافهم إبراهيم. أو لأنهم كانوا في حسبانه كذلك. وإكرامهم: أن إبراهيم خدمهم بنفسه، وأخدمهم امرأته، وعجل لهم القرى أو أنهم في أنفسهم مكرمون. قال الله تعالى: ﴿يَرْبِّي عِبَادُ مُكْرَمُونَ﴾ [الأنبياء: ٢٦]. ﴿إِذْ دَخَلُوا﴾ نصب بالمكرمين إذا فسر بإكرام إبراهيم لهم؛ وإلا فيما في ضيف من معنى الفعل. أو بإضمار اذكر ﴿سَلَامًا﴾ مصدر ساء مسد الفعل مستغنى به عنه. وأصله: نسلم عليكم سلامًا، وأما ﴿سَلَامٌ﴾ فمعدول به إلى الرفع على الابتداء. وخبره محذوف، معناه: عليكم سلام، للدلالة على ثبات السلام، كأنه قصد أن يحييهم بأحسن مما حيوه به، أخذا بأدب الله تعالى. وهذا أيضًا من إكرامه لهم. وقرئنا مرفوعين. وقرئ: «سلامًا» قال سلما. والسلام: السلام. وقرئ: سلاما قال سلم ﴿قَرَّبَهُ﴾ مُنْكَرُونَ أنكرهم للسلام الذي هو علم الإسلام. أو أراد: أنهم ليسوا من معارفه أو من جنس الناس الذين عهدهم، كما لو أبصر العرب قومًا من الخزر^(١) أو رأى لهم حالًا وشكلًا خلاف حال الناس وشكلهم، أو كان هذا سؤالاً لهم، كأنه قال: أنتم قوم

(١) قوله: «قومًا من الخزر» في الصحاح: الخزر: جيل من الناس. والأخزر: ضيق العين صغيرها، كما أفاده الصحاح. (ع)

منكرون، فعزفوني من أنتم ﴿فَرَّغَ إِلَيْكَ أَمَلِي﴾ فذهب إليهم في خفية من ضيوفه؛ ومن أدب المضيف أن يخفي أمره^(١)، وأن يبادره بالقرى من غير أن يشعر به الضيف، حذرًا من أن يكفه ويعذره. قال قتادة: كان عامة مال نبي الله إبراهيم: البقر ﴿فَجَاءَ بِعِجْلٍ سَمِينٍ﴾. والهمزة في ﴿أَلَا تَأْكُلُوتَ﴾ للإنكار: أنكر عليهم ترك الأكل. أو حثهم عليه ﴿فَأَزْجَسَ﴾ فأضمّر. وإنما خافهم لأنهم لم يتحرّموا بطعامه^(٢) فظن أنهم يريدون به سوءًا. وعن ابن عباس: وقع في نفسه أنهم ملائكة أرسلوا للعذاب. وعن عون بن شداد: مسح جبريل العجل بجناحه فقام يدرج حتى لحق بأمه ﴿يَقْلَمُ عَلِيمٌ﴾ أي يبلغ ويعلم. وعن الحسن: عليم: نبي، والمبشر به إسحاق، وهو أكثر الأقاويل وأصحها؛ لأن الصفة صفة سارة لا هاجر، وهي امرأة إبراهيم وهو بعلاها. وعن مجاهد: هو إسماعيل ﴿فِي صَرَفٍ﴾ في صيحة، من: صر الجندب، وصر القلم والباب، ومحلّه النصب على الحال، أي: فجاءت سارة. قال الحسن: أقبلت إلى بيتها وكانت في زاوية تنظر إليهم، لأنها وجدت حرارة الدم فلطمت وجهها من الحياء، وقيل: فأخذت في صرة، كما تقول: أقبل يشتمني. وقيل: صرتها قولها: أوه. وقيل: يا ويلتا. وعن عكرمة: رنتها^(٣) ﴿فَصَكَّتْ﴾ فلطمت ببسط يديها. وقيل: فضربت بأطراف أصابعها جبهتها فعل المتعجب ﴿عَجَزْتُ﴾ أنا عجوز، فكيف ألد ﴿كَذَلِكَ﴾ مثل ذلك الذي قلنا وأخبرنا به ﴿قَالَ رَبُّكَ﴾ أي إنما نخبرك عن الله، والله قادر على ما تستبعدين. وروي أنّ جبريل قال لها: انظري إلى سقف بيتك، فنظرت فإذا جذوعه مورقة مثمرة.

﴿قَالَ فَا حَظُّكُمْ أَيُّهَا الْمُرْسَلُونَ﴾ (٣١) قَالُوا إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَى قَوْمٍ مُّجْرِمِينَ ﴿٣٢﴾ لَنُرْسِلَ عَلَيْهِمْ جِجَارَةً مِّن طِينٍ ﴿٣٣﴾ مُّسَوَّمَةً عِنْدَ رَبِّكَ لِلْمُسْرِفِينَ ﴿٣٤﴾ فَأَخْرَجْنَا مَن كَانَ فِيهَا مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿٣٥﴾ فَآلَ وَجَدْنَا فِيهَا غَيْرَ بَيْتٍ مِّنَ الْمَسَاكِينِ ﴿٣٦﴾ وَتَرَكْنَا فِيهَا آيَةً لِلَّذِينَ يَخَافُونَ الْعَذَابَ الْأَلِيمَ ﴿٣٧﴾

لما علم أنهم ملائكة وأنهم لا ينزلون إلا بإذن الله رسلاً في بعض الأمور ﴿قَالَ فَا

(١) قال محمود: «فيه إشارة لاختفائه من ضيوفه، ومن أدب المضيف أن يخفي أمره... إلخ» قال أحمد: معنى حسن، وقد نقل أبو عبيد أنه لا يقال: راغ إلا إذا ذهب على خفية. ونقل أبو عبيد في قوله عليه السلام: «إذا كفى أحدكم خادمه حر طعامه فليقعده معه، وإلا فليروغ له لقمة» قال أبو عبيد: يقال روغ اللقمة وسغبلها وسغسغها ومرغها: إذا غمسها فرويت سمًا. قلت: وهو من هذا المعنى، لأنها تذهب مغموسة في السمن حتى تخفى ومن مقلوبه: غور الأرض والجرح وسائر مقلوباته قريبة من هذا المعنى، والله أعلم.

(٢) قوله: «لأنهم لم يتحرّموا بطعامه» في الصحاح «الحرمة»: ما لا يحل انتهاكه، وقد تحرم بصحبته أهد. وهو يفيد أن التحرم مراعاة الحرمة، من حيث لا يحل انتهاكها. (ع)

(٣) قوله: «رنتها» في الصحاح الرنة الصوت: يقال: رنت المرأة رنيتًا وأرنت أيضًا: صاحت. (ع)

خَطْبَكُ أَي: فما شأنكم وما طلبكم ﴿إِلَى قَوْمٍ نَجُومِينَ﴾ إلى قوم لوط ﴿حِجَارَةً مِنْ طِينٍ﴾ يريد: السجيل، وهو طين طبخ كما يطبخ الآجر، حتى صار في صلابة الحجارة ﴿مُسَوَّمَةً﴾ معلمة، من السومة، وهي العلامة على كل واحد منها اسم من يهلك به. وقيل: أعلمت بأنها من حجارة العذاب. وقيل: بعلامة تدل على أنها ليست من حجارة الدنيا. سماهم مسرفين، كما سماهم عاديين، لإسرافهم وعدوانهم في عملهم: حيث لم يقنعوا بما أبيح لهم. الضمير في ﴿فِيهَا﴾ للقرية، ولم يجر لها ذكر لكونها معلومة. وفيه دليل على أنَّ الإيمان والإسلام واحد، وأنهما صفتا مدح. قيل: هم لوط وابنتاه. وقيل: كان لوط وأهل بيته الذين نجوا ثلاثة عشر. وعن قتادة: لو كان فيها أكثر من ذلك لأنجاهم، ليعلموا أن الإيمان محفوظ لا ضيعة على أهله عند الله ﴿آيَةً﴾ علامة يعتبر بها الخائفون دون القاسية قلوبهم. قال ابن جريج: هي صخر منضود فيها. وقيل: ماء أسود متتن.

﴿وَفِي مُوسَى إِذْ أَرْسَلْنَاهُ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ بِسُلْطَانٍ مُّبِينٍ﴾ ﴿٣٨﴾ قَتَلَىٰ بِرُكْنِهِ وَقَالَ سَاحِرٌ أَوْ مُجْنُونٌ ﴿٣٩﴾

فَأَخَذْنَاهُ وَخُودَهُ فَنَبَذْنَاهُمْ فِي الْيَمِّ وَهُوَ مُلِيمٌ ﴿٤٠﴾

﴿وَفِي مُوسَى﴾ عطف على ﴿وَفِي الْأَرْضِ مَائِدَةٍ﴾ أو على قوله: ﴿وَوَكَّلْنَا فِيهَا آيَةً﴾ على معنى: وجعلنا في موسى آية/٢/١٩٨؛ كقوله [من الرجز]:

عَلَفْتُهَا تَبْنًا وَمَاءً بَارِدًا (١)

﴿قَتَلَىٰ بِرُكْنِهِ﴾ فازورًا، وأعرض، كقوله تعالى: ﴿وَنَأَىٰ بِجَانِبِهِ﴾ [فصلت: ٥١] وقيل: فتولى بما كان يتقوى به من جنوده وملكه. وقرئ: «بركنه»، بضم الكاف ﴿وَقَالَ سَاحِرٌ﴾ أي هو ساحر ﴿مُجْنُونٌ﴾ أت بما يلام عليه من كفره وعناده، والجملة مع الواو حال من الضمير في فأخذناه. فإن قلت: كيف وصف نبي الله يونس صلوات الله عليه بما وصف به فرعون في قوله تعالى: ﴿فَاللَقَمَهُ الْحَوْثُ وَهُوَ مُلِيمٌ﴾ ﴿١٤٢﴾ [الصافات: ١٤٢]؟ قلت: موجبات اللوم تختلف على حسب اختلافهما تختلف مقادير اللوم، فراكب الكبيرة ملوم على مقدارها، وكذلك مقترف الصغيرة. ألا ترى إلى قوله تعالى ﴿وَعَصَوْا رَسُولَهُ﴾ [هود: ٥٩]، ﴿وَعَصَىٰ عَادُ رَبَّهُ﴾ [طه: ١٢١] لأن الكبيرة والصغيرة يجمعهما اسم العصيان، كما يجمعهما اسم القبيح والسئنة.

﴿وَفِي عَادٍ إِذْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الرِّيحَ الْعَقِيمَ﴾ ﴿٤١﴾ مَا نَذَرُ مِنْ شَيْءٍ أَنْتَ عَلَيْهِ إِلَّا جَعَلْنَاهُ

كَالْزَمِيرِ ﴿٤٢﴾

﴿الْعَقِيمِ﴾ التي لا خير فيها من إنشاء مطر أو إلقاح شجر، وهي ريح الهلاك. واختلف

فيها: فعن علي رضي الله عنه: النكباء (١٥٠١). وعن ابن عباس: الدبور. وعن ابن المسيب: الجنوب. الرميم (١٥٠٢): كل ما رم أي بلي وتفتت من عظم أو نبات أو غير ذلك.

﴿وَفِي نُعُودٍ إِذْ قِيلَ لَهُمْ تَمَتَّعُوا حَتَّىٰ حِينٍ ﴿٤٣﴾ فَعْتَوْا عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ فَأَخَذَتْهُمُ الصَّعِقَةُ وَهُمْ يَنْظُرُونَ ﴿٤٤﴾ مَا أَسْتَطْعَمُوا مِنْ يَمَارٍ وَمَا كَانُوا مُنْصَرِّينَ ﴿٤٥﴾﴾

﴿حَتَّىٰ حِينٍ﴾ تفسيره قوله: ﴿تَمَتَّعُوا فِي دَارِكُمْ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ﴾ [هود: ٦٥] ﴿فَعْتَوْا عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ﴾ فاستكبروا عن امتثاله. وقرئ: «الصعقة» وهي المّرة، من مصدر صعقتهم الصاعقة: والصاعقة النازلة نفسها ﴿وَهُمْ يَنْظُرُونَ﴾ كانت نهارًا يعاينونها. وروي أن العمالقة كانوا معهم في الوادي ينظرون إليهم وما ضرتهم ﴿مَا أَسْتَطْعَمُوا مِنْ يَمَارٍ﴾ كقوله تعالى: ﴿فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جِثِيَيْنَ﴾ [العنكبوت: ٣٧] وقيل: هو من قولهم: ما يقوم به، إذا عجز من دفعه ﴿مُنْصَرِّينَ﴾ ممتنعين من العذاب.

﴿وَقَوْمٌ نُوحٍ مِنْ قَبْلُ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ ﴿٤٦﴾﴾

﴿وَقَوْمٌ﴾ قرئ: بالجر على معنى: وفي قوم نوح وتقويه قراءة عبد الله: وفي قوم نوح. وبالنصب على معنى: وأهلكنا قوم نوح؛ لأن ما قبله يدل عليه. أو واذكر قوم نوح.

﴿وَالسَّمَاءَ بَنَيْنَاهَا بِأَيْدٍ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ ﴿٤٧﴾ وَالْأَرْضَ فَرَشْنَاهَا فَنِعْمَ الْمَاهِدُونَ ﴿٤٨﴾﴾

﴿بِأَيْدٍ﴾ بقوة. والأيد والآد. القوة. وقد آد يثيد وهو أيد ﴿وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ﴾ لقادرون، من الوسع وهو الطاقة. والموسع: القوي على الإنفاق. وعن الحسن: لموسعون الرزق بالمطر. وقيل: جعلنا بينها وبين الأرض سعة ﴿فَنِعْمَ الْمَاهِدُونَ﴾ فنعم الماهدون نحن.

﴿وَمِنْ كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿٤٩﴾﴾

﴿وَمِنْ كُلِّ شَيْءٍ﴾ أي من كل شيء من الحيوان ﴿خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ﴾ ذكرًا وأنثى. وعن

١٥٠١ - عزاه السيوطي في الدر المنثور (١٣٩/٦) للفريابي، وابن المنذر.
١٥٠٢ - أخرجه ابن جرير الطبري في تفسيره (٤٦٩/١١) (٣٢٢٢٦)، وأبو الشيخ في العظمة (١٣٣٩/٤) (٨٤٦) كلاهما من طريق ابن أبي ذئب عن الحارث بن عبد الرحمن عن سعيد بن المسيب - رحمه الله تعالى - قال: «الريح العقيم الجنوب».
وعزاه السيوطي في الدر (١٣٩/٦) لابن المنذر، وأخرجه أيضًا الطبري (٤٦٩/١١) (٣٢٢٢٧) من قول الحارث بن عبد الرحمن.

الحسن: السماء والأرض، والليل والنهار، والشمس والقمر، والبر والبحر، والموت والحياة؛ فعّد أشياء وقال: كل اثنين منها زوج، والله تعالى فرد لا مثل له ﴿لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ أي فعلنا ذلك كله من بناء السماء وفرش الأرض وخلق الأزواج إرادة أن تتذكروا فتعرفوا الخالق وتعبدوه.

﴿فَقَرُّوا إِلَى اللَّهِ إِي لَكُمْ مِّنْهُ نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾ وَلَا تَجْعَلُوا مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ إِي لَكُمْ مِّنْهُ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٥١﴾

﴿فَقَرُّوا إِلَى اللَّهِ﴾ أي إلى طاعته وثوابه^(١) من معصيته وعقابه، ووجدوه ولا تشركوا به شيئاً، وكرر قوله: ﴿إِي لَكُمْ مِّنْهُ نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾ عند الأمر بالطاعة والنهي عن الشرك، ليعلم أن الإيمان لا ينفع إلا مع العمل، كما أن العمل لا ينفع إلا مع الإيمان، وأنه لا يفوز عند الله إلا الجامع بينهما. ألا ترى إلى قوله تعالى: ﴿لَا يَنْفَعُ نَفْسًا إِيْتِنَاهَا تَرْتَكُنْ ءَمَنَتْ مِن قَبْلُ أَوْ كَسَبَتْ فِي إِيمَانِهَا خَيْرًا﴾ [الأنعام: ١٥٨] والمعنى: قل يا محمد: فقرّوا إلى الله.

﴿كَذَلِكَ مَا آتَى الَّذِينَ مِن قَبْلِهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا قَالُوا سَاحِرٌ أَوْ مُجُنُّنٌ﴾ أَتَوَاصَوْا بِهِ بَلْ هُمْ قَوْمٌ طَآغُوتٌ ﴿٥٢﴾

﴿كَذَلِكَ﴾ الأمر، أي مثل ذلك، وذلك إشارة إلى تكذيبهم الرسول ﷺ وتسميته ساحراً ومجنوناً، ثم فسر ما أجمل بقوله ﴿مَا آتَى﴾ ولا يصح أن تكون الكاف منصوبة يأتي؛ لأن ما النافية لا يعمل ما بعدها فيما قبلها. ولو قيل: لم يأت، لكان صحيحاً، على معنى: مثل ذلك الإتيان لم يأت من قبلهم رسول إلا قالوا ﴿أَتَوَاصَوْا بِهِ﴾ الضمير للقول، يعنى: أتواصوا الأولون والآخرين بهذا القول حتى قالوه جميعاً متفقين عليه ﴿بَلْ هُمْ قَوْمٌ طَآغُوتٌ﴾ أي لم يتواصوا به لأنهم لم يتلاقوا في زمان واحد، بل جمعتهم العلة الواحدة وهي الطغيان، والطغيان هو الحامل عليه.

(١) قال محمود: «معنى فقرّوا إلى الله، أي: إلى طاعته من معصيته وإلى ثوابه... إلخ» قال أحمد: حمل الآية ما لم تحمله، لأنه لا يكاد يخلي سورة حتى يدس في تفسيرها بيده إلى معتقده، فدرس ههنا القطع بوعيد الفساق وبخلودهم كالكفار، ولا تحتل الآية لما ذكر؛ فإن العناية في قوله: (فقرّوا إلى الله) الفرار إلى عبادة الله فتوعد من لم يعبد الله، ثم نهى عابده أن يشرك بعبادة ربه غيره، وتوعده على ذلك. وفائدة تكرار النذارة للدلالة على أنه لا تنفع العبادة مع الإشراك، بل حكم المشرك حكم الجاحد المعطل، لا كما قال الزمخشري: المأمور؛ في الأول الطاعة الموظفة بعد الإيمان، فتوعد تاركها بالوعيد المعروف له وهو الخلود. وعلى هذا لا يكون تكراراً على اختلاف الوعدين، فهو أولى، فكيف يحمل الآية على خلاف ما هو أولى بها، ليتيم الاستدلال بها على معتقده الفاسد، نعوذ بالله من ذلك.

﴿قَوْلَ عَنْهُمْ فَمَا أَنْتَ بِمَلُومٍ﴾ ٥٥ ﴿وَذَكَرَ فَإِنَّ الذِّكْرَى نَفَعَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ ٥٥

﴿قَوْلَ عَنْهُمْ﴾ فأعرض عن الذين كرّرت عليهم الدعوة فلم يجيبوا، وعرفت عنهم العناد واللجاج، فلا لوم عليك في إعراضك بعد ما بلغت الرسالة وبذلت مجهودك في البلاغ والدعوة، ولا تدع التذكير والموعظة بأيام الله ﴿فَإِنَّ الذِّكْرَى نَفَعَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ أي تؤثر في الذين عرف الله منهم أنهم يدخلون في الإيمان. أو يزيد الداخلين فيه إيماناً. وروي أنه لما نزلت ﴿قَوْلَ عَنْهُمْ﴾ حزن رسول الله ﷺ واشتد ذلك على أصحابه، ورأوا أنّ الوحي قد انقطع وأنّ العذاب قد حضر، فأنزل الله. وذكر (١٥٠٣).

﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ ٥٦

أي: وما خلقت الجن والإنس إلا لأجل العبادة، ولم أرد من جميعهم إلا إياها^(١). فإن قلت: لو كان مريدًا^(٢) للعبادة منهم لكانوا كلهم عبادًا؟ قلت: إنما أراد منهم أن يعبدوه

١٥٠٣ - أخرجه ابن جرير الطبري في تفسيره (٤٧٥/١١) (٣٢٢٦١)، والبيهقي في شعب الإيمان (٢/ ٢٧٦ - ٢٧٧) (١٧٥٠) كلاهما من طريق إسماعيل بن عليّة قال: أخبرنا أيوب عن مجاهد قال: خرج عليّ معتجراً ببرد، مشتملاً بخميصة فقال: لما نزلت: «فتول عنهم فما أنت بملوم» أحزننا ذلك....

وأخرجه أيضًا إسحاق بن راهويه، وأحمد بن منيع، والهيثم بن كليب في أسانيدهم، وابن المنذر وابن أبي حاتم وابن مردويه والضياء في المختارة كما في الدر المنثور للسيوطي (١٤١/٦).

(١) قال محمود: «إلا لأجل العبادة، ولم أرد من جميعهم إلا إياها... إلخ» قال أحمد: من عاداته أنه إذا استشعر أن ظاهرًا موافق لمعتقد نزله على مذهبه بصورة إيراد معتقد أهل السنة سؤالاً، وإيراد معتقده جواباً؛ فكذلك صنع ههنا، فنقول: السؤال الذي أورده مما لا يجاب عنه بما ذكره؛ فإنه سؤال مقدماته قطعية عقلية، فيجب تنزيل الآية عليه، وهي أن ظاهر سياق الآية دليل لأهل السنة، فإنها إنما سبقت لبيان عظمتهم عز وجل، وأن شأنه مع عبده لا يقاس به شأن عبيد الخلق معهم، فإن عبيدهم مطلوبون بالخدمة والتكسب للسلادة، وبواسطة مكاسب عبيدهم قدر أزراقهم. والله تعالى لا يطلب من عباده رزقاً ولا إطعاماً، وإنما يطلب منهم عبادته لا غير، وزائد على كونه لا يطلب منهم رزقاً أنه هو الذي يرزقهم، فهذا المعنى الشريف هو الذي تحلى تحت راية هذه الآية، وله سبقت، وبه نطق، ولكن الهوى يعمي ويصم؛ فحاصله: وما خلقت الجن والإنس إلا لأدعوهم إلى عبادتي، وهذا ما لا يعدل عنه أهل السنة، فإنه وافق معتقدهم وبالله التوفيق.

(٢) قوله: «لو كان مريدًا للعبادة» قد يقال: لا يلزم من خلقهم للعبادة أن يريدوا من جميعهم. وقوله: «مع كونه مريدًا لها» هذا على مذهب المعتزلة من أن إرادة الله الفعل من العبد بمعنى الأمر. وأما مذهب أهل السنة فكل ما أراده الله كان، ولا يقع في ملكه إلا ما يريد. وتحقيقه في علم التوحيد.

(ع)

مختارين للعبادة لا مضطرين إليها، لأنه خلقهم ممكنين، فاختار بعضهم ترك العبادة مع كونه مريداً لها، ولو أرادها على القسر والإلجاء لوجدت من جميعهم.

﴿مَا أَرِيدُ مِنْهُمْ مِنْ رِزْقٍ وَمَا أَرِيدُ أَنْ يُطِيعُونِ﴾ ٥٧ إِنَّ اللَّهَ هُوَ / ٢ / ١٩٨ ب الرَّاٰقُ ذُو الْقُوَّةِ
الْمَتِينُ ﴿٥٨﴾

يريد: أن شأني مع عبادي ليس كشأن السادة مع عبيدهم، فإن مُلّاك العبيد إنما يملكونهم ليستعينوا بهم في تحصيل معاشهم وأرزاقهم، فإنا مجهز في تجارة ليفي ربحاً. أو مرتب في فلاحه ليغتّل أرضاً. أو مسلم في حرفة لينتفع بأجرته. أو محتطب. أو محتش. أو طابخ. أو خابز، وما أشبه ذلك من الأعمال والمهن التي هي تصرف في أسباب المعيشة وأبواب الرزق، فأنا مالك ملك العبيد وقال لهم: اشتغلوا بما يسعدكم في أنفسكم، ولا أريد أن أصرفكم في تحصيل رزقي ولا رزقكم، وأنا غني عنكم وعن مرافقكم، ومتفضل عليكم برزقكم وبما يصلحكم ويعيشكم من عندي، فما هو إلا أنا وحدي ﴿الْمَتِينُ﴾ الشديد قرئ بالرفع صفة لذو، وبالجر صفة للقوة على تأويل الاقتدار والمعنى في وصفه بالقوة والمتانة أنه القادر البليغ الاقتدار على كل شيء. وقرئ: «الرازق» وفي قراءة النبي ﷺ: إني أنا الرازق.

﴿فَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا ذُنُوبًا مِثْلَ ذُنُوبِ أَصْحَابِهِمْ فَلَا يَسْتَعِشُونَ﴾ ٥٩ قَوْلٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ يَوْمِهِمْ
الَّذِي يُوعَدُونَ ﴿٦٠﴾

الذنوب: الدلو العظيمة، وهذا تمثيل، أصله في السقاة يتقسمون الماء فيكون لهذا ذنوب ولهذا ذنوب. قال [من الرجز]:

لَنَا ذُنُوبٌ وَلَكُمْ ذُنُوبٌ فَإِنْ أَبِيئْتُمْ فَلَنَا الْقَلِيبُ^(١)

(١) إنا إذا شاربنا شريب له ذنوب ولنا ذنوب
فإن أبي كان له القليب

الشريب من يشرب معك. والذنوب: الدلو الممتلئة ماء، والنصيب من الماء. والذنابة: مسيل الماء. والقليب البشر لقلب تراه، يقول: إنا كرام نشاطر شربنا، فإن لم يرض بالمناوبة أعطناه الجميع. وروي بدل المصراعين الآخرين:

لنا ذنوب ولكم ذنوب فإن أبيئتم فلنا القليب

ولعل الصواب: فإن أبي أو فإن أبيئتم فلنا؛ لثلا ينكر البيت. والمعنى: نقول لمن يشرب معنا ذلك، ففيه دلالة على الشجاعة والغلبة. والشريب كالعشير: يطلق على الواحد والمتعدد.

ينظر: لسان العرب (ذنوب)، وتهذيب اللغة ١٤/٤٣٩، والمخصص ١٧/١٨، وكتاب العين ٨/١٩٠، وجمهرة اللغة ص ٣٠٦ وتاج العروس (ذنوب).

ولما قال عمرو بن شاس [من الطويل]:

وَفِي كُلِّ حَيٍّ قَدْ خَبَطْتَ بِنِعْمَةٍ فَحَقَّ لِشَاسٍ مِنْ نَدَاكَ ذَنْبٌ^(١)

قال الملك: نعم وأذنبه. والمعنى: فإن الذين ظلموا رسول الله ﷺ بالتكذيب من أهل مكة لهم نصيب من عذاب الله مثل نصيب أصحابهم ونظرائهم من القرون. وعن قتادة: سجلا من عذاب الله مثل سجل أصحابهم ﴿مِنْ يَوْمِهِمْ﴾ من يوم القيامة. وقيل: من يوم بدر.

عن رسول الله ﷺ: من قرأ سورة الذاريات أعطاه الله عشر حسنات بعدد كل ربح هبت وجرت في الدنيا (١٥٠٤).

١٥٠٤ - تقدم برقم (٣٤٦). وقال الحافظ: أخرجه الثعلبي وابن مردويه والواحدي من حديث أبي بن كعب - رضي الله عنه - انتهى.

(١) وأنت الذي آثاره في عدوه من البؤس والنعمة لهن ندوب
وفي كل حي قد خبطت بنعمة فحق لشأس من ندادك ذنوب

لشأس أخي علقمة بن عبيدة، يخاطب الحرث بن أبي شمر الغساني وكان أسيراً عنده. والندوب - في الأصل: آثار الجراح بعد برئها. ومن بيانية، أي: آثاره التي هي البؤس والنعمة. أو ابتدائية، أي: الناشئة منهما، لهن بقايا في عدوه. والبؤس: الشدة. والنعمة: الرخاء. والخابط: الذي يخطط مواضع الفقراء يتفقد أحوالهم من غير تخصيص، ثم قيل لكل طالب: خابط ومخبط. ويجوز أن يكون من قولهم: خبط الشجرة؛ ليسقط ورقها للإبل والغنم فاستعار في نفسه الورق للأموال، والخبط تخيل والمعنى أنه شجاع كريم، بأسه أوهن الأعداء ونعمته ظهرت عليهم بل على جميع الناس وشأس من وضع الظاهر موضع المضمحل لإظهار المسكنة والاستعطاف. وقيل: إن القائل عمرو بن شأس، فوضع الظاهر في موضعه. ولما سمع الحرث ذلك قال: نعم وأذنبته، وكسا شأساً ومن معه، وأركبهم وأطلقهم، ولما استعار الندى للعطاء رشح ذلك بالذنوب: وهو الدلو الممثلة.

ينظر: ديوانه ص ٤٨، وشرح أبيات سيبويه ٤٠٠/٢، وشرح المفصل ٤٨/٥، ١٥١/١٠، والكتاب ٤٧١/٤، ولسان العرب (جنب)، (شأس)، (خبط)، ومجالس ثعلب ص ٩٧ وبلا نسبة في سر صناعة الإعراب ص ٢١٩، وشرح المفصل ٤٨/١٠، والممتع في التصريف ص ٣٦١، والمنصف ٣٣٢/٢.

سورة الطور

مكية، وهي تسع وأربعون، وقيل: ثمان وأربعون آية
[نزلت بعد السجدة]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿وَالطُّورِ ١﴾ وَكَتَبَ مَسْطُورٍ ٢﴾ فِي رَقٍ مَّنْشُورٍ ٣﴾ وَالْبَيْتِ الْمَعْمُورِ ٤﴾ وَالسَّافِرِ
الْمَرْفُوعِ ٥﴾ وَالْبَحْرِ الْمَسْجُورِ ٦﴾ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ نَافِعٌ ٧﴾ مَا لَكُمْ مِنْ دَافِعٍ ٨﴾ يَوْمَ تَمُورُ
السَّمَاءُ مَوْرًا ٩﴾ وَتَسِيرُ الْجِبَالُ سَيْرًا ١٠﴾

﴿وَالطُّورِ ١﴾: الجبل الذي كلم الله عليه موسى وهو بمدين. والكتاب المسطور في
الرق المنشور، والرق: الصحيفة. وقيل: الجلد الذي يكتب فيه الكتاب الذي يكتب فيه
الأعمال. قال الله تعالى: ﴿وَنُخْرِجُ لَهُ يَوْمَ الْقِيَمَةِ كِتَابًا يَلْقَاهُ مَنشُورًا﴾ [الإسراء: ١٣] وقيل:
هو ما كتبه الله لموسى وهو يسمع صرير القلم. وقيل: اللوح المحفوظ. وقيل القرآن،
ونكر لأنه كتاب مخصوص من بين جنس الكتب، كقوله تعالى: ﴿وَنُقِيسَ وَمَا سَوَّاهَا﴾ ٧﴾
[الشمس: ٧]. ﴿وَالْبَيْتِ الْمَعْمُورِ ٣﴾ الضراح^(١) في السماء الرابعة. وعمرانه: كثرة غاشيته
من الملائكة. وقيل: الكعبة لكونها معمورة بالحجاج والعمار والمجاورين ﴿وَالسَّافِرِ
الْمَرْفُوعِ ٥﴾ السماء ﴿وَالْبَحْرِ الْمَسْجُورِ ٦﴾ المملوء. وقيل: الموقد، من قوله تعالى: ﴿وَإِذَا
أَلْبَحَارُ سُجِّرَتْ ٦﴾ [التكوير: ٦] وروي أن الله تعالى يجعل يوم القيامة البحار كلها نارا
تسجر بها نار جهنم. وعن علي رضي الله عنه أنه سأل يهوديًا: أين موضع النار في
كتابكم؟ قال: في البحر. قال علي: فما أراه إلا صادقًا، (١٥٠٥) لقوله تعالى ﴿وَالْبَحْرِ

١٥٠٥ - أخرجه ابن جرير الطبري في تفسيره (٤٨٢/١١) (٣٢٣٠٩) من طريق ابن علية عن داود عن
سعيد بن المسيب قال: قال علي - رضي الله عنه - لرجل من اليهود أين جهنم؟ فقال: البحر،
فقال: ما أراه إلا صادقًا. ...

(١) قوله: «والبيت المعمور الضراح في السماء» في الصحاح الضراح: بالضم: بيت في السماء، وهو
البيت المعمور. عن ابن عباس. (ع)

تَسْجُورٍ». ﴿لَوْعٌ﴾ لنازل. قال جبير بن مطعم: أتيت رسول الله ﷺ أكلمه في الأسارى فآلفيته في صلاة الفجر يقرأ سورة الطور، فلما بلغ ﴿إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ لَوَاقِعٌ﴾ ﴿٧﴾ أسلمت خوفاً من أن ينزل العذاب (١٥٠٦) ﴿تَمُورُ السَّمَاءِ﴾ تضطرب وتجيء وتذهب. وقيل: المور تحرك في تموج، وهو الشيء يتردد في عرض كالداعصة في الركبة^(١).

﴿فَوَيْلٌ لِلْمُكَذِّبِينَ﴾ ﴿١١﴾ الَّذِينَ هُمْ فِي خَوْضٍ يَنْعَبُونَ ﴿١٢﴾ يَوْمَ يَدْعُوتُ إِلَى نَارِ جَهَنَّمَ

= وأخرجه أبو الشيخ في العظمة (١٤٠٨/٤) (٩٢٧) من طريق محمد بن مسلم الطائفي عن إبراهيم ابن ميسرة عن سعيد بن المسيب عن علي - رضي الله عنه - عن يهودي . . قال: «البحر نار الله الكبرى . . .» ورواه البيهقي في البعث والنشور (ص ٢٦٤ رقم ٤٥٠) من طريقين عن داود بن أبي هند عن سعيد بن المسيب نحوه.

وعزه السيوطي في الدر المنثور (١٤٥/٦ - ١٤٦) لابن المنذر وابن أبي حاتم قلت: والقول بأن البحر هو جهنم روي من حديث مرفوع.

أخرجه أحمد (٢٢٣/٤)، والبخاري في التاريخ الكبير (٧١/١/١ و ٤١٤/٢/٤)، والحاكم (٤/٥٩٦)، والبيهقي (٣٣٤/٤)، وأبو نعيم في «أخبار أصبهان» (١/٢) من طريق أبي عاصم قال: ثنا عبدالله بن أمية قال: حدثني محمد بن حُيي قال: حدثني صفوان بن يعلى عن أبيه مرفوعاً «البحر هو جهنم . . .».

وسنده ضعيف لجهالة محمد بن حُيي.

وقال الحافظ ابن حجر:

أخرجه الطبري من رواية داود بن أبي هند عن سعيد بن المسيب قال: قال علي لرجل من اليهود: أين جهنم؟ قال: البحر. قال: ما أراه إلا صادقا: (والبحر المسجور)، (وإذا البحار سجرت). انتهى.

١٥٠٦ - قال الزيلعي في تخريج الكشاف (٣٧١/٣) - لم أجده كذلك، وكذلك قال الحافظ ابن حجر وأخرج البخاري في صحيحه (٤٩٤/٢) - كتاب الأذان (١٠) - باب الجهر في المغرب (٩٩) حديث رقم (٧٦٥)، ومسلم (٤١٧/٢) - كتاب الصلاة (٤) باب القراءة في الصبح (٣٥) حديث رقم (١٧٤) وأبو داود (٢١٤/١ - ٢١٥) كتاب الصلاة - باب قدر القراءة في المغرب - (٨١٠)، والنسائي (١٦٩/٢) - كتاب الصلاة - باب القراءة في المغرب بالطور - (٩٨٧) كلهم من حديث محمد بن جبير بن مطعم عن أبيه قال: «سمعت رسول الله - صلى الله عليه وسلم - يقرأ بالطور في صلاة المغرب - وزاد البخاري في رواية (٥٨٣/٩) (٤٨٥٤) . . . فلما بلغ هذه الآية: «أم خلقوا من غير شيء أم هم الخالقون . . .» كاد قلبي أن يطير . . . وزاد في أخرى (٢٨٠/٦) (٣٠٥٠) . . . وكان جاء في أساري بدر.

وقال الحافظ ابن حجر:

لم أجده هكذا. والذي جاء في الصحيح «أن ذلك في صلاة المغرب» وأنه قال لما سمع: (أم خلقوا من غير شيء أم هم الخالقون) - إلى آخره: كاد قلبي يطير». انتهى.

(١) قوله: «كالداعصة في الركبة» هي العظم المدور الذي يتحرك على رأس الركبة، كما في الصحاح. (ع)

دَعَا ﴿١٣﴾ هَذِهِ النَّارُ الَّتِي كُنْتُمْ بِهَا تُكَذِّبُونَ ﴿١٤﴾ أَفَسِحْرٌ هَذَا أَمْ أَنْتُمْ لَا تُبْصِرُونَ ﴿١٥﴾
أَصْلُوهَا فَاصْبِرُوا أَوْ لَا تَصْبِرُوا سَوَاءٌ عَلَيْكُمْ إِنَّمَا تُجْزَوْنَ مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٦﴾

غلب الخوض في الاندفاع في الباطل ١٩٩/٢ والكذب. ومنه قوله تعالى: ﴿وَكُنَّا نَحْوُ مَعَ الْخَاطِئِينَ﴾ [المدثر: ٤٥]، ﴿وَحَضَّمْتُ كَالَّذِي خَاصُوا﴾ [التوبة: ٦٩] الذَّع: الدفع العنيف، وذلك أن خزنة النار يغلقون أيديهم إلى أعناقهم، ويجمعون نواصيهم إلى أقدامهم، ويدفعونهم إلى النار دفعًا على وجوههم وزخا في أفقيتهم^(١). وقرأ زيد بن علي «يدعون» من الدعاء أي يقال لهم: هلموا إلى النار، وادخلوا النار ﴿دَعَا﴾ مدعوعين، يقال لهم: هذه النار ﴿أَفَسِحْرٌ هَذَا﴾ يعني كنتم تقولون للوحي هذا سحر، أفسح هذا؟ يريد: أهذا المصداق أيضًا سحر؟ ودخلت الفاء لهذا المعنى ﴿أَمْ أَنْتُمْ لَا تُبْصِرُونَ﴾ كما كنتم لا تبصرون في الدنيا، يعني: أم أنتم عمي عن المخبر عنه كما كنتم عميًا عن الخبر، وهذا تقرير وتهكم ﴿سَوَاءٌ﴾ خبر محذوف، أي: سواء عليكم الأمران: الصبر وعدمه، فإن قلت: لم علل استواء الصبر وعدمه بقوله: ﴿إِنَّمَا تُجْزَوْنَ مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾؟ قلت: لأن الصبر إنما يكون له مزية على الجزع، لنفعه في العاقبة بأن يجازى عليه الصابر جزاء الخير، فأما الصبر على العذاب الذي هو الجزاء ولا عاقبة له ولا منفعة، فلا مزية له على الجزع.

﴿إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَنَعِيمٍ﴾ ﴿١٧﴾ فَكِهِينَ بِمَا ءَاتَاهُمْ رَبُّهُمْ وَوَقْنَهُمْ رَبُّهُمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ ﴿١٨﴾ كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئًا بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٩﴾ مُتَّكِئِينَ عَلَى سُرُرٍ مَصْفُوفَةٍ وَزَوَّجْنَاهُمْ بِحُورٍ عِينٍ ﴿٢٠﴾

﴿فِي جَنَّاتٍ وَنَعِيمٍ﴾ في أية جنات وأي نعيم، بمعنى الكمال في هذه الصفة. أو في جنات ونعيم مخصوصة بالمتقين خلقت لهم خاصة. وقرئ: «فاكهين فكهين وفاكهون»: من نصبه حالاً جعل الظرف مستقراً، ومن رفعه خبراً جعل الظرف لغواً، أي: متلذذين ﴿بِمَا ءَاتَاهُمْ رَبُّهُمْ﴾. فإن قلت: علام عطف قوله ﴿وَوَقْنَهُمْ رَبُّهُمْ﴾؟ قلت: على قوله: ﴿فِي جَنَّاتٍ﴾ أو على ﴿ءَاتَاهُمْ رَبُّهُمْ﴾ على أن تجعل ما مصدرية؛ والمعنى: فاكهين بليتائهم ربهم ووقائتهم عذاب الجحيم. ويجوز أن تكون الواو للحال وقد بعدها مضمرة. يقال لهم: ﴿كُلُوا وَاشْرَبُوا﴾ أكلا وشراباً ﴿هَنِيئًا﴾ أو طعاماً وشراباً هنيئاً، وهو الذي لا تنغيص فيه. ويجوز أن يكون مثله في قوله [من الطويل]:

هَنِيئًا مَرِيئًا غَيْرَ ذَاءٍ مَخَامِرٍ لِعَزَّةٍ مِنْ أَغْرَاضِنَا مَا اسْتَحَلَّتِ^(٢)

(١) قوله: «وزخا في أفقيتهم» في الصحاح «زخه» أي: دفعه في وهدة اه. (ع)

(٢) يكلفها الخنزير شتمي وما بها هواني ولكن للمليك استذلت

أعني: صفة استعملت استعمال المصدر القائم مقام الفعل مرتفعاً به ما استحلّت كما يرتفع بالفعل، ، كانه قيل: هناء عزة المستحل من أعراضنا، وكذلك معنى ﴿هَيْئًا﴾ ههنا: هناءكم الأكل والشرب. أو هناءكم ما كنتم تعملون؛ أي: جزاء ما كنتم تعملون. والباء مزيدة كما في ﴿كَفَى بِاللَّهِ﴾ [الرعد: ٤٣] والباء متعلقة بكلوا واشربوا إذا جعلت الفاعل الأكل والشرب. وقرئ: بعيس^(١) عين.

﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَاتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُمْ بِإِيمَانٍ أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَمَا أَلَتْنَاهُمْ مِنْ عَمَلِهِمْ مِنْ شَيْءٍ كُلُّ امْرِئٍ بِمَا كَسَبَ رَهِينٌ ﴿١١﴾ وَأَمْذَنَّا لَهُمْ لِيُفْلَكِهِمْ وَلَحِمٍ مِمَّا يَنْشَرُونَ ﴿٢٢﴾ يَنْزَعُونَ فِيهَا كَأْسًا لَا لَغْوٌ فِيهَا وَلَا تَأْتِيمٌ ﴿٢٣﴾ وَيُطَوَّفُ عَلَيْهِمْ غُلَمَانٌ لَهُمْ كَأَنَّهُمْ لُؤْلُؤٌ مَكْنُونٌ ﴿٢٤﴾﴾

﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا﴾ معطوف على ﴿يُحْجَرُونَ عَيْنٌ﴾ أي: قرناهم بالحور وبالذين آمنوا، أي: بالرفقاء والجلساء منهم، كقوله تعالى: ﴿إِخْوَانًا عَلَى سُرُرٍ مُتَقَابِلِينَ﴾ [الحجر: ٤٧] فيتمتعون تارة بملاعبة الحور، وتارة بمؤانسة الإخوان المؤمنين ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا﴾ قال رسول الله ﷺ: «إن الله يرفع ذرية المؤمن في درجته وإن كانوا دونه لتقربهم عينه» (١٥٠٧) ثم تلا هذه

١٥٠٧ - ورد هذا الحديث مرفوعاً وموقوفاً.

أما المرفوع، فأخرجه أبو نعيم في الحلية (٣٠٢/٤)، والبغوي في تفسيره (٢٣٩/٤) وعزاه الزيلعي في تخريج الكشاف (٣٧٢/٣) للبخاري في مسنده وابن عدي في الكامل وابن مردويه، والشعلبي في تفسيريهما، كلهم من طريق قيس بن الربيع عن عمرو بن مرة عن سعيد بن جبيرة عن ابن عباس رفعه إلى النبي - صلى الله عليه وسلم -: «إن الله ليرفع ذرية المؤمن...».

هنيئًا مريئًا غير داء مخامر لعزة من أعراضنا ما استحلّت

لكثير بن صخر صاحب عزة، كان ينشد أشعاره في حلقة البصرة، فمرت به مع زوجها فقال لها: لتغضبه أو لأضربنك، فقالت: كذا وكذا بغم الشاعر، فقال ذلك. وقيل: خرجت تطلب سمًا فصادفها كثير فتحدثا، وسكب من إداوة معه في إنائها حتى بل ثوبها، وأنكر ذلك زوجها، فقضت عليه القصص، فأمرها بشتمه فقال ذلك. والمليك: مالك أمرها. وما بها هواني: أي ليست مريدة له. وهنيئًا مريئًا: صفتان مستعملتان استعمال المصدر النائب عن فعله، وما استحلّت: مرفوع محلا بأحدهما على التنازع، وغير نصب على الحال. ومن أعراضنا بيان لما بعده. والهنيء والمريء: الذي لا تنغيص فيه، المحمود للعاقبة، والمخامر: المخالط، وشبه عرضه بالشراب السائغ على طريق المكنية. وهنيئًا مريئًا: تخيل. ويجوز أن التجوز فيهما على طريق التصريحية. ينظر: ديوانه ص ١٠٠، وكتاب العين ٢٦٤/٤، ومقاييس اللغة ٢١٦/٢، والأغانى ٣٨/٩، وأمالي القالي ١٠٩/٢، وتزوين الأسواق ١٢٢/١، وتهذيب اللغة ٣٧٦/٧.

(١) قوله: «وقرئ بعيس» في الصحاح: العيس - بالكسر -: الإبل البيض يخالط بياضها شيء من الشقرة، واحدها: أعيس، والأنثى: عيساء، ويقال: هي كرائم الإبل أهد ولعلها هنا استعارة للنساء. (ع)

الآية. فيجمع الله لهم أنواع السرور بسعادتهم في أنفسهم، ومزاوجة الحور العين، وبمؤانسة الإخوان المؤمنين، وباجتماع أولادهم ونسلهم بهم. ثم قال: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا يَسْأَلُونَكَ عَنْ ذُرِّيَّتِهِمْ﴾ أي بسبب إيمان عظيم رفيع المحل، وهو إيمان الآباء ألحقنا بدرجاتهم ذريتهم وإن كانوا لا يستأهلونها، تفضلاً عليهم وعلى آبائهم، لتتم سرورهم ونكمل نعيمهم. فإن قلت: ما معنى تنكير الإيمان؟ قلت: معناه الدلالة على أنه إيمان خاص عظيم المنزلة. ويجوز أن يراد: إيمان الذرية الداني المحل، كأنه قال: بشيء من الإيمان لا يؤهلهم لدرجة الآباء ألحقناهم بهم. وقرئ: وأتبعتم ذريتهم، وأتبعتم ذريتهم. وذرياتهم: وقرئ: «ذرياتهم» بكسر الذال. ووجه آخر: وهو أن يكون ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا﴾ مبتدأ خبره ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا يَسْأَلُونَكَ عَنْ ذُرِّيَّتِهِمْ﴾ وما بينهما اعتراض ﴿وَمَا أَلَّكْنَهُمْ﴾ وما نقصناهم. يعني: وفرنا

 = وقيس بن الربيع الأسدي أبو محمد الكوفي ضعفه جماعة ووثقه آخرون، قلت: وهو إلى الضعف أقرب. . فقال يحيى بن معين، ليس حديثه بشيء، وقال مرة: ضعيف الحديث لا يُساوي شيئاً، وقال أبو زرعة: فيه لين، وقال النسائي: ليس بثقة، وقال في موضع آخر: متروك الحديث، وقال البخاري، قال علي: كان وكيع يضعفه راجع تهذيب الكمال (٢٤/٢٥، ٣٨) ت (٤٩٠٣) وقال الحافظ في التقریب (١٢٨/٢) صدوق تفسير لماكبر أدخل عليه ابنه ما ليس من حديثه فحدث به قلت: ومع ضعفه فقد خالف جبلين من جبال الحفظ، أوفقاً هذا الحديث على ابن عباس هما شعبة وسفيان الثوري:

* الموقف

أما رواية شعبة فأخرجها ابن جرير الطبري في تفسيره (١١/٤٨٧ - ٤٨٨) (٣٢٣٣٨)، (٣٢٣٤٢).

وأما رواية سفيان وهو الثوري:

فأخرجها ابن جرير أيضاً في تفسيره (١١/٤٨٨)، وعبد الرزاق في تفسيره (٢/٢٤٧) والحاكم في المستدرک (٢/١١٧) وعن البيهقي في كتابه الاعتقاد (ص ٨٩ و ٩٠) من طرق عن الثوري عن عمرو ابن مرة به.

وقال الهيثمي في المجمع (٧/١١٧) - في رواية المرفوع - رواه البزار وفيه قيس بن الربيع وثقه شعبة والثوري وفيه ضعف.

قلت: وللحديث شاهد آخر.

أخرجه الطبراني في الكبير (١٢/٤٤٠) (١٢٢٤٨) والصغير (١/٢٢٩) من طريق محمد بن عبد الرحمن بن غزوان ثنا شريك عن سالم الأفطس عن سعيد بن جبيرة عن ابن عباس أظنه عن النبي صلى الله عليه وسلم - قال: إذا دخل الرجل الجنة سأل عن أبويه... وقال الهيثمي في المجمع (٧/١١٧) وفيه محمد بن عبد الرحمن بن غزوان وهو ضعيف.

وقال الحافظ:

أخرجه البزار وابن عدي، وأبو نعيم في الحلية، وابن مردويه، والثعلبي من طريق قيس بن الربيع عن عمرو بن مرة عن سعيد بن جبيرة عن ابن عباس مرفوعاً. قال البزار تفرد قيس برفعه. ورواه الثوري موقوفاً ورواه الحاكم والبيهقي في الاعتقاد والطبري وابن أبي حاتم من طريق الثوري عن عمرو بن مرة به موقوفاً. انتهى.

عليهم جميع ما ذكرنا من الثواب والتفضل، وما نقصناهم من ثواب عملهم من شيء. وقيل معناه: وما نقصناهم من ثوابهم شيئاً نعطيه الأبناء حتى يلحقوا بهم، إنما ألحقناهم بهم على سبيل التفضل. قرئ: «ألتناهم» وهو من بابين: من ألت يألث، ومن آلات يليت، كأماات يميت. وألتناهم، من ألت يؤلت، كآمن يؤمن. ولتناهم، من لات يليت. وولتناهم، من ولت يلت. ومعناه: واحد ﴿كُلُّ أَمْرٍ بِأَكْثَرِ رَهْنٍ﴾ أي مرهون، كأن نفس العبد رهن عند الله بالعمل الصالح الذي هو مطالب به، كما يرهن الرجل عبده بدين عليه، فإن عمل صالحاً فكها وخلصها، وإلا أبقها ﴿وَأَمَدَدْتَهُمْ﴾ وزدناهم في وقت بعد وقت ﴿يَلْتَزِعُونَ﴾ يتعاطون ويتعاورون هم وجلساؤهم من أقبائهم وإخوانهم ﴿كَلَسًا﴾ خمراً ﴿لَا لَعَوْ فِيهَا﴾ في شربها ﴿وَلَا تَأْنِيَهُ﴾ أي لا يتكلمون في أثناء الشرب بسقط الحديث وما لا طائل تحته كفعل المتنادمين/٢/١٩٩ب في الدنيا على الشراب في سفههم وعربدتهم، ولا يفعلون ما يؤثم به فاعله، أي: ينسب إلى الإثم لو فعله في دار التكليف من الكذب والشتم والفواحش، وإنما يتكلمون بالحكم والكلام الحسن متلذذين بذلك، لأن عقولهم ثابتة غير زائلة، وهم حكماء علماء. وقرئ: «لا لغو فيها ولا تأثيم» ﴿عِلْمَانٌ لَّهُمْ﴾ أي مملوكون لهم مخصوصون بهم ﴿مَكُونُونَ﴾ في الصدق، لأنه رطباً أحسن وأصفى. أو مخزون لأنه لا يخزن إلا الثمين الغالي القيمة. وقيل لقتادة: هذا الخادم فكيف المخدم؟ فقال: قال رسول الله ﷺ: «والذي نفسي بيده إن فضل المخدم على الخادم كفضل القمر ليلة البدر على سائر الكواكب» (١٥٠٨). وعنه عليه الصلاة والسلام: «إن أدنى أهل الجنة منزلة من ينادي الخادم من خدامه فيجيبه ألف بياحه: لبيك لبيك» (١٥٠٩).

١٥٠٨ - أخرجه عبدالرزاق في تفسيره (٢/٢٤٨)، وابن جرير الطبري في تفسيره (١١/٤٩٢) (٣٢٣٧٠) كلاهما من طريق معمر عن قتادة في قوله: «كأنهم لؤلؤ مكنون» قال بلغني أنه قيل: يا رسول الله هذا الخادم مثل اللؤلؤ فكيف المخدم... فذكر الحديث وأخرجه الطبري أيضاً (٣٢٣٦٩) من طريق سعيد عن قتادة به.

وعزه الزيلعي في تخريج الكشاف (٣/٣٧٣) للثعلبي عن الحسن مرسلًا. وقال الحافظ:

أخرجه عبدالرزاق أخبرنا معمر عن قتادة به قال فذكره، وأخرجه الثعلبي من رواية الحسن مرسلًا. ١٥٠٩ - عزه الزيلعي في تخريج الكشاف (٣/٣٧٣) للثعلبي في تفسيره من طريق وكيع بن الجراح عن هشام بن عروة عن أبيه عن عائشة قالت: قال رسول الله - صلى الله عليه وسلم -: «إن أدنى أهل الجنة منزلة...» وذكره الديلمي في الفردوس (١/٢٦٧) (٨٣٠) بلفظ المصنف وأخرج الترمذي (٤/٦٩٥) - كتاب صفة الجنة (٣٩) - باب ما جاء ما أدنى أهل الجنة من الكرامة (٢٥٦٢) من طريق رشدين بن سعد حدثني عمرو بن الحارث عن دراج عن أبي الهيثم عن أبي سعيد الخدري قال: قال رسول الله - صلى الله عليه وسلم -: «أدنى أهل الجنة الذي له ثمانون ألف خادم واثنتان =

﴿وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ﴾ (٢٥) قَالُوا إِنَّا كُنَّا قَبْلَ فِي أَهْلِنَا مُشْفِقِينَ ﴿٢٦﴾ فَمَنْ أَلَّهِ عَلَيْنَا وَوَقَلْنَا عَذَابَ السَّمُورِ ﴿٢٧﴾ إِنَّا كُنَّا مِنْ قَبْلُ نَدْعُوهُ إِنَّهُ هُوَ الْبَرُّ الرَّحِيمُ ﴿٢٨﴾

﴿يَتَسَاءَلُونَ﴾ يتحادثون ويسأل بعضهم بعضاً عن أحواله وأعماله وما استوجب به نيل ما عند الله ﴿مُشْفِقِينَ﴾ أرقاء القلوب من خشية الله. وقرئ: «ووقانا» بالتشديد ﴿عَذَابَ﴾ عذاب النار ووجهها ولفحها. والسموم: الريح الحارة التي تدخل المسام فسميت بها نار جهنم لأنها بهذه الصفة ﴿مِنْ قَبْلُ﴾ من قبل لقاء الله تعالى والمصير إليه، يعنون في الدنيا ﴿نَدْعُوهُ﴾ نعبده ونسأله الوقاية ﴿إِنَّهُ هُوَ الْبَرُّ﴾ المحسن ﴿الرَّحِيمُ﴾ العظيم الرحمة الذي إذا عبد أثناب وإذا سئل أجاب. وقرئ: «أنه» بالفتح، بمعنى: لأنه.

﴿فَذَكِّرْ فَمَا أَنْتَ بِنِعْمَتِ رَبِّكَ بِكَاهِنٍ وَلَا مَجْنُونٍ﴾ (٢٩)

﴿فَذَكِّرْ﴾ فأنبئ على تذكير الناس وموعظتهم، ولا يشبطنك قولهم: كاهن أو مجنون، ولا تبال به فإنه قول باطل متناقض لأن الكاهن يحتاج في كهانته إلى فطنة ودقة نظر، والمجنون مغطى على عقله. وما أنت بحمد الله وإنعامه عليك بصدق النبوة ورجاحة العقل أحد هذين.

﴿أَمْ يَقُولُونَ شَاعِرٌ نَتَرَبَّصُ بِهِ رَبُّهُنَّ رَبِّ الْمُنُونِ﴾ (٣٠) قُلْ تَرَبَّصُوا فَإِنِّي مَعَكُمْ مِنَ الْمُتَرَبِّصِينَ ﴿٣١﴾ أَمْ تَأْمُرُهُمْ أَخْلَعُهُمْ بِهِذًا أَمْ هُمْ قَوْمٌ طَاعُونَ ﴿٣٢﴾ أَمْ يَقُولُونَ نَقُولُ بَلْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٣٣﴾ فَلْيَأْتُوا بِحَدِيثٍ مِثْلِهِ إِنْ كَانُوا صَادِقِينَ ﴿٣٤﴾ أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ الْخَالِقُونَ ﴿٣٥﴾ أَمْ خَلَقُوا السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بَلْ لَا يُوقِنُونَ ﴿٣٦﴾ أَمْ عِنْدَهُمْ خَزَائِنُ رَحْمَتِ رَبِّكَ أَمْ هُمُ الْمُضْطَرُونَ ﴿٣٧﴾ أَمْ هُمْ سَاهُونَ ﴿٣٨﴾ أَمْ لَمْ يَلْبَسْ وَلَكُمُ الْبُنُونَ ﴿٣٩﴾ أَمْ تَسْأَلُهُمْ أَجْرًا فَهُمْ مِنْ مَغْرَمٍ مُثْقَلُونَ ﴿٤٠﴾ أَمْ عِنْدَهُمُ الْغَيْبُ فَهُمْ يَكْتُمُونَ ﴿٤١﴾ أَمْ يُرِيدُونَ كَيْدًا فَالَّذِينَ كَفَرُوا هُمُ الْمَكِيدُونَ ﴿٤٢﴾ أَمْ هُمْ إِلَهُ غَيْرُ اللَّهِ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٤٣﴾

قرئ: «يتربص به ريب المنون»، على البناء للمفعول. وريب المنون. ما يقلق النفوس ويشخص بها من حوادث الدهر. قال [من الكامل]:

وسبعون زوجة... =

وقال الترمذي: حديث غريب لا نعرفه إلا من حديث رشدين.

قال الحافظ:

أخرجه الثعلبي من رواية عمر بن عبدالعزيز البصري عن يوسف بن أبي طيبة عن وكيع عن هشام عن أبيه عن عائشة نحوه.

أَمِنَ الْمَنُونُ وَرَيْبِهِ أَتَوَجَّعُ؟ (١)

وقيل: المنون الموت، وهو في الأصل فعول؛ من منه إذا قطعه؛ لأن الموت قطع؛ ولذلك سميت شعوب قالوا: ننتظر به نوائب الزمان فيهلك كما هلك من قبله من الشعراء: زهير والنابغة ﴿مَرَّ الْمَرْيَصِينَ﴾ أترىص هلاككم كما تترىصون هلاكي ﴿أَحْلَمْتُمْ﴾ عقولهم وألبابهم. ومنه قولهم: أحلام عاد. والمعنى: أتأمرهم أحلامهم بهذا التناقض في القول، وهو قولهم: كاهن وشاعر، مع قولهم مجنون. وكانت قريش يدعون أهل الأحلام والنهي ﴿أَمْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ﴾ مجاوزون الحد في العناد مع ظهور الحق لهم. فإن قلت: ما معنى كون الأحلام أمرة؟ قلت: هو مجاز لأدائها إلى ذلك، كقوله تعالى: ﴿أَصْلَوْنَاكَ تَأْمُرُكَ أَنْ تَتْرَكَ مَا يَعْْبُدُ آبَاؤُنَا﴾ [هود: ٨٧] وقرئ: «بل هم قوم طاغون» ﴿نَقُولُ﴾ اختلقه من تلقاء نفسه ﴿بَلْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ فلذكروهم وعنادهم يرمون بهذه المطاعن، مع علمهم ببطلان قولهم، وأنه ليس بمتقول لعجز العرب عنه، وما محمد إلا واحد من العرب. وقرئ «بحديث مثله» على الإضافة، والضمير لرسول الله ﷺ، ومعناه: أن مثل محمد في فصاحته ليس بمعوز في العرب، فإن قدر محمد على نظمه كان مثله قادراً عليه، فليأتوا بحديث ذلك المثل: ﴿أَمْ خُلِقُوا﴾ أم أحدثوا وقَدَرُوا التقدير الذي عليه فطرتهم ﴿مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ﴾ من غير مقدر ﴿أَمْ هُمُ﴾ الذي خلقوا أنفسهم حيث لا يعبدون الخالق ﴿بَلْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ أي إذا سئلوا من خلقكم وخلق السموات والأرض؟ قالوا: الله، وهم شاكون فيما يقولون، لا يوقنون. وقيل: أخلقوا من أجل لا شيء من جزاء ولا حساب؟ وقيل: أخلقوا من غير أب وأم؟ ﴿أَمْ عِنْدَهُمْ خَزَائِنُ﴾ الرزق حتى يرزقوا النبوة من شاؤوا. أو: أعندهم خزائن علمه حتى يختاروا لها من اختياره حكمة ومصلحة؟ ﴿أَمْ هُمُ الْمُضْطَرُونَ﴾ الأرباب الغالبون، حتى يدبروا أمر الربوبية ويبنوا الأمور على إرادتهم ومشيتهم؟ وقرئ «المضيطرون» بالصاد ﴿أَمْ لَهُمْ سُلُوكٌ﴾ منصوب إلى السماء يستمعون صاعدين فيه إلى كلام الملائكة وما يوحى إليهم من علم الغيب حتى يعلموا ما هو كائن من تقدم هلاكه على هلاكهم وظفرهم في العاقبة دونه كما

(١) أمن المنون وريبه أتوجع؟ والدهر ليس بمعتب من يجزع

لأبي ذؤيب مطلع مرثية بنيه، والاستفهام للإنكار. وريب المنون: ما يقلق النفوس ويدهشها من حوادث الدهر. والمنون: الموت، كالمنية؛ لأنه مقدر، فهو من مني إذا قدر. وقوله: «والدهر... إلخ» جملة حالية. ويقال: أعته، إذا قبل عتابه وأزال شكواه؛ فشبه الدهر بإنسان مسيء على طريق المكنية، وإسناد الإعتاب تخيل. والجزع: شدة الحزن.

ينظر: إنباه الرواة ٢٨٧/١، وخزانة الأدب ٤٢٠/١، وسمط اللآلي ص ٤٤٩، وشرح أشعار الهذليين ٤/١، وشرح شواهد الإيضاح ص ٥٠٥، وشرح شواهد المغني ٢٦٢/١، ولسان العرب ٤١٥/١٣، ٤١٦ (من)، والمقاصد النحوية ٤٩٣/٣.

يزعمون؟ ﴿سُلْطٰنِيْ مِّنْ﴾ بحجة واضحة تصدق استماع مستمعهم ٢/ ٢٠٠. المغرم: أن يلتزم الإنسان ما ليس عليه، أي: لزمهم مغرم ثقيل فدحهم^(١) فزهدهم ذلك في اتباعك؟ ﴿أَمْ عِنْدَهُمُ الْغَيْبُ﴾ أي اللوح المحفوظ ﴿فَعَمَّ يَكْتُمُونَ﴾ ما فيه حتى يقولوا لا نبعث، وإن بعثنا لم نعذب^(٢) ﴿أَمْ يُرِيدُونَ كَيْدًا﴾ وهو كيدهم في دار الندوة برسول الله ﷺ وبالمؤمنين ﴿فَالَّذِينَ كَفَرُوا﴾ إشارة إليهم أو أريد بهم كل من كفر بالله ﴿ثُمَّ أَلْمِزُوا﴾ هم الذين يعود عليهم وبال كيدهم ويحيق بهم مكرهم. وذلك أنهم قتلوا يوم بدر. أو المغلوبون في الكيد، من كايده فكدته.

﴿وَإِنْ يَرَوْا كِسْفًا مِّنَ السَّمَاءِ سَاقِطًا يَقُولُوا سَحَابٌ مَّرْكُومٌ﴾ ﴿٤٤﴾ فَذَرَهُمْ حَتَّىٰ يُلَاقُوا يَوْمَهُمُ الَّذِي فِيهِ يُصْعَقُونَ ﴿٤٥﴾ يَوْمَ لَا يُغْنِي عَنْهُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئًا وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ﴿٤٦﴾ وَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا عَذَابًا دُونَ ذَلِكَ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٤٧﴾

الكسف: القطعة، وهو جواب قولهم: ﴿أَوْ تَقَطَّ السَّمَاءُ كَمَا رَعِمَتْ عَلَيْنَا كِسْفًا﴾ [الإسراء: ٩٢] يريد: أنهم لشدة طغيانهم وعنادهم لو أسقطناه عليهم لقالوا: هذا سحاب مركوم بعضه فوق بعض يمطرنا، ولم يصدقوا أنه كسف ساقط للعذاب. وقرئ: «حتى يلقوا» ويلقوا ﴿يُصْعَقُونَ﴾ يموتون. وقرئ: «يصعقون». يقال. صعقه فصعق، وذلك عند النفخة الأولى نفخة الصعق ﴿وَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا﴾ وإن. لهؤلاء الظلمة ﴿عَذَابًا دُونَ ذَلِكَ﴾ دون يوم القيامة: وهو القتل ببدر، والقحط سبع سنين، وعذاب القبر. وفي مصحف عبد الله: دون ذلك تقريبًا.

﴿وَأَصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ حِينَ تَقُومُ﴾ ﴿٤٨﴾ وَمِنَ اللَّيْلِ فَسَبِّحْهُ وَإِدْبَرَ النُّجُومِ ﴿٤٩﴾

﴿لِحُكْمِ رَبِّكَ﴾ بأمهالهم وما يلحقك فيه من المشقة والكلفة ﴿فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا﴾ مثل، أي: بحيث نراك ونكلوك. وجمع العين لأن الضمير بلفظ ضمير الجماعة. ألا ترى إلى قوله تعالى: ﴿وَلَنُصَنِّعَ عَلَىٰ عَيْنِي﴾ [طه: ٣٩]. وقرئ: «بأعيننا»، بالإدغام ﴿حِينَ تَقُومُ﴾ من أي مكان قمت. وقيل: من منامك ﴿وَإِدْبَرَ النُّجُومِ﴾ وإذا أدبرت النجوم من آخر الليل. وقرئ: «وأدبار»، بالفتح بمعنى في أعقاب النجوم وآثارها إذا غربت، والمراد الأمر بقول: سبحان الله وبحمده في هذه الأوقات. وقيل التسييح: الصلاة إذا قام من نومه، ومن الليل: صلاة

(١) قوله: «فدحهم فزهدهم» أي: أثقلهم وبهظهم. أفاده الصحاح. (ع)

(٢) قوله: «وإن بعثنا لم نعذب» لعله: لا نعذب. (ع)

العشاءين، وأدبار النجوم: صلاة الفجر.

عن رسول الله ﷺ: «من قرأ سورة الطور كان حقاً على الله أن يؤمنه من عذابه وأن ينعمه في جنته» (١٥١٠).

١٥١٠ - تقدم - برقم (٣٤٦)

قال الحافظ:

أخرجه الثعلبي وابن مردويه والواحي بأسانيدهم إلى أبي بن كعب - رضي الله عنه - . انتهى .

سورة النجم

مكية [إلا آية ٣٢ فمدنية] وآياتها ٦٢ وقيل ٦١ آية
[نزلت بعد الإخلاص]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿وَالنَّجْمِ إِذَا هَوَىٰ ۝١ مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَىٰ ۝٢ وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ ۝٣ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ ۝٤ عَلَّمَهُ شَدِيدُ الْقُوَىٰ ۝٥ ذُو مِرَّةٍ فَاسْتَوَىٰ ۝٦ وَهُوَ بِالْأُفُقِ الْأَعْلَىٰ ۝٧ ثُمَّ دَنَا ۝٨ فَتَدَلَّىٰ ۝٩ فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَىٰ ۝١٠ فَأَوْحَىٰ إِلَىٰ عَبْدِهِ مَا أَوْحَىٰ ۝١١ مَا كَذَبَ الْفُؤَادُ مَا رَأَىٰ ۝١٢ أَفَتَسْتَدْرِكُنَّ عَلَىٰ مَا يَرَىٰ ۝١٣ وَلَقَدْ رَآهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ ۝١٤ عِنْدَ سِدْرَةِ الْمُنْتَهَىٰ ۝١٥ عِنْدَهَا جَنَّةُ الْمَأْوَىٰ ۝١٦ إِذْ يَغْشَى السِّدْرَةَ مَا يَغْشَىٰ ۝١٧ مَا زَاغَ الْبَصَرُ وَمَا طَغَىٰ ۝١٨ لَقَدْ رَأَىٰ مِنْ آيَاتِ رَبِّهِ الْكُبْرَىٰ ۝١٩﴾

(النجم): الثريا، وهو اسم غالب لها. قال [من مجزوء الرمل المخزوم]:

إِذَا طَلَعَ النُّجُومُ عِشَاءً ابْتَغَى الرَّاعِي كِسَاءً^(١)
أو جنس النجوم. قال [من الطوبل]:
فَبَاتَتْ تَعْدُ النُّجُومَ فِي مُسْتَحِيرَةٍ^(٢)

(١) هذا تقوله العرب عند الشتاء، وتقول عند الصيف: طلع النجم غدية. وابتغى الراعي شكية. والنجم: اسم غالب على الثريا؛ قيل: إنها تخفى في السنة أربعين يوماً يستترها ضوء الشمس، وتظهر عند دخول الشتاء عشاءً، وعند دخول الصيف صباحاً، والكساء: ثوب سابغ. والغدية: تصغير غدوة؛ وهي أول النهار. والشكية: تصغير شكوة، وهي قرية صغيرة جرداء؛ لأنه في الشتاء يطلب كساء بدنية لكثرة البرد، وفي الصيف يطلب قرية يشرب منها لكثرة الحر؛ والأول كناية عن دخول البرد، والثاني كناية عن دخول الحر. ينظر: البحر (٥٧/٨)، واللسان «بيع»، والدر المصون (٢٠٣/٦).

(٢) فقد علموا أنني وفيت لربها فراح على عنس بأخرى يقودها
قرئت الكلابي الذي يبتغي القرى وأمك إذ يحدى إلينا قعودها
فباتت تعد النجم في مستحيرة سريع بأيدي الأكلين جمودها
فلما سقيناه العكيس تملأت مذاخرها وارفض منها وريدها
ولما قضت من ذي الإناء لبانة أرادت إلينا حاجة لا نريدها =

يريد النجوم ﴿إِذَا هَوَىٰ﴾ إذا غرب أو انتثر يوم القيامة . أو النجم الذي يرحم به إذا هوى : إذا انقض . أو النجم من نجوم القرآن، وقد نزل منجمًا في عشرين سنة، إذا هوى : إذا نزل . أو النبات إذا هوى : إذا سقط على الأرض . وعن عروة بن الزبير: أَنَّ عتبة بن أبي لهب وكانت تحته بنت رسول الله ﷺ أراد الخروج إلى الشام، فقال: لَأَتَيْنَ مُحَمَّدًا فَلَأُؤْذِنُهُ؛ فأتاه فقال: يا محمد، هو كافر بالنجم إذا هوى، وبالذي دنا فتدلى، ثم تفل في وجه رسول الله ﷺ وردّ عليه ابنته وطلقها، فقال رسول الله ﷺ: اللهم سلط عليه كلبًا من كلابك، وكان أبو طالب حاضرًا، فوجم^(١) لها وقال: ما كان أغناك يا ابن أخي عن هذه الدعوة! فرجع عتبة إلى أبيه، فأخبره، ثم خرجوا إلى الشام فنزلوا منزلاً، فأشرف عليهم راهب من الدير فقال لهم: إن هذه أرض مسبعة، فقال أبو لهب لأصحابه: أغثونا يا معشر قريش هذه الليلة، فإني أخاف على ابني دعوة محمد، فجمعوا جمالهم وأناخوها حولهم؛ وأحدقوا بعتبة، فجاء الأسد يتشمم وجوههم، حتى ضرب عتبة فقتله (١٥١١). وقال حسان [من السريع]:

١٥١١ - أخرجه الحاكم من مستدركه (٥٣٩/٢)، والبيهقي في دلائل النبوة (٣٣٨/٢) كلاهما من طريق =

للراعي النميري من بني قطن بن ربيعة: نزل به أضياف من بني كلاب وقد غابت إبله، فنحر لهم ناقة من ركابهم، فلما أصبح أقبلت عليه إبله، فأعطى صاحب الناقة مثلها، وأعطاه ثنية زيادة عليها، فذمه خنزير بن أرقم من بني بدر بن ربيعة على ذبحها، فأجابه الراعي بقصيدة منها ذلك . والعنس: الناقة الصلبة . وأمك: عطف على الكلابي . ويحدي: مبني للمجهول، أي: يساق بالإناء له . والقعود - كصبور -: البكر من الإبل؛ لأنه لا يمكن الراكب من القعود على ظهره . وروي: إذ يحدي إليك، بدل إلينا . ولعله بعد الضيافة الآتية أو تحريف؛ فباتت أمك تعد النجم، أي: تحسب صور النجوم، أو تحسب فقايع المرق في الجفنة؛ فاستعار لها النجم على سبيل التصريحية . أو تحسب الثريا؛ لأن النجم اسم غالب عليها، وهي سبعة نجوم: ترى صورتها في ليالي الشتاء . وقيل: المراد بالعد هنا: الظن، أي باتت تظنها فيها . والمستحيرة: المتحيرة بامتلائها من المرق . ويروى: مستجرة لأنها تجر الناس للأكل منها والعكس: المرق الممزوج باللبن الحليب . وتملأت: امتلأت . ويروى: تمدحت، بالدال المهملة، أي: اتسعت من الشبع . ويروى بالمعجمة، أي: اصطكت واضطربت . والمذاخر: مواضع الذخائر . والمراد بها المعدة والأمعاء . ويروى: خواصرها، أي: جوانبها . وارفض: رشع وترشش وارتعد ونفر، ويروى: وازداد رشحا وريدها . أي: باتت تنظر النجوم في جفنة كثيرة المرق والدم، سريع جمود دسمها على أيدي الآكلين من برد الشتاء، حتى إذا امتلأت بطنها ونفرت عروق عنقها وقضت لبانة، أي: حاجة من صاحب الإناء وهو المرق واللبن: طلبت منا حاجة لا نريدها ولا نرضاها؛ لأنها فاحشة وكأنه ضمن أرادت معنى التضرع أو الميل أو النسبة فعداه بإلى، ويجوز أنها بمعنى من، كما أوضحناه في آخر حرف الباء . ينظر: ديوانه ص ٩٢، ولسان العرب (نجم)، وتاج العروس (نجم)، والمعاني الكبير ص ٣٧٥، والأزمنة والأمكنة ١/ ١٨٥، وبلا نسبة في لسان العرب (نجم)، وتهذيب اللغة ١١/ ١٢٧، والكامل ص ٧٩٥.

(١) قوله: «فوجم لها» أي اشتد حزنه . أفاده الصحاح . (ع)

مَنْ يَرْجِعُ الْعَامَ إِلَى أَهْلِهِ فَمَا أَكِيلُ السَّبْعِ بِالرَّاجِعِ^(١)

العباس بن الفضل الأزرق، قال: حدثنا الأسود بن شيبان قال حدثنا أبو نوفل بن أبي عقرب عن أبيه قال: كان لهب بن أبي لهب يسب النبي - صلى الله عليه وسلم - ويدعو عليه...».

وقال الحاكم: صحيح الإسناد ولم يخرجاه، ووافقه الذهبي.

قلت، وفي هذا التصحيح نظر؛ فإن عباس بن الفضل وهو أبو عثمان الأزرق.

قال البخاري في التاريخ الكبير (١٧/٥/٧)، ذهب حديثه.

وقال أبو حاتم في الجرح والتعديل (١١٦٧/٢١٣/٦) ذهب حديثه وترك أبو زرعة حديثه ولم يقرأه علينا...

وأورده الحاكم من رواية «العباس بن الفضل الأنصاري» فوهم كما قال الذهبي في الميزان (٢/٣٨٦) فالأنصاري غير الأزرق وكلاهما ضعيف.

وقال البيهقي في الدلائل: «عباس بن الفضل وليس بالقوي» لهب بن أبي لهب وأهل المغازي يقولون: عتبة بن أبي لهب وقال بعضهم: عتية. أ. هـ.

وأخرجه أبو نعيم في «دلائل النبوة» (٣٨٩) من طريق محمد بن إسحاق عن عثمان بن عروة بن الزبير عن أبيه عن حبار بن الأسود به وساق قصة طويلة وابن إسحاق لم يسمع من عثمان بن عروة، فإسناده منقطع،

وأخرجه الطبراني في الكبير (٤٣٥/٢٢) (١٠٦٠)، والبيهقي في «الدلائل» (٣٣٨/٢ - ٣٣٩) كلاهما من طريق أحمد بن المقدم ثنا زهير بن العلاء العيدي عن ابن أبي عروبة عن قتادة بن دعامة قال: تزوج أم كلثوم بنت رسول الله - صلى الله عليه وسلم - عتية بن أبي لهب... وقال الهيثمي في المجمع (٢١/٦ - ٢٢): رواه الطبراني هكذا مرسلًا، وفيه زهير بن العلاء وهو ضعيف.

وأخرجه عبدالرزاق في تفسيره (٢٥٠/٣) عن معمر بن قتادة به مختصرًا،

وأخرجه أيضًا عن معمر عن عبدالله بن طاووس عن أبيه قال: قال النبي - صلى الله عليه وسلم -: «أما يخاف أن يسلط الله عليه كلبه»...

وأخرجه ابن جرير الطبري في تفسيره (٥٠٣/١١) (٣٢٤١٨) عن قتادة مرسلًا وبالجملته فالحديث ورد من طرق مرسله أو مقطوعة اللهم إلا طريق أبي عقرب لكن فيه من قد ضعف... وقال الحافظ في الفتح (٣٩/٤): وهو حديث حسن، أخرجه الحاكم من طريق أبي نوفل بن أبي عقرب عن أبيه: وقال الحافظ:

أخرجه أبو نعيم في الدلائل من طريق ابن إسحاق عن عثمان بن عروة عن أبيه فذكر مثله. إلا أنه قال: «فضربه الأسد بذنبه ضربة واحدة، فمات مكانه» ورواه البيهقي في الدلائل والطبراني من طريق سعيد عن قتادة مطولا نحوه. لكن قال عنبسة: ورواه الحاكم والبيهقي في الدلائل أيضًا. من رواية أبي نوفل بن أبي عقرب عن أبيه. قال «كان لهب بن أبي لهب» فذكره مختصرًا. وقال البيهقي: هكذا قال عباس بن الفضل الأزرق. وليس بالقوي. وأهل المغازي يقولونه عتبة أو عتية. انتهى.

(١)

لا يرفع الرحمن مصروعكم
وكان فيه لكم عبرة

ولا يؤمن قوة الصارخ
للسيد المتبوع والتابع

=

﴿مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ﴾ يعني محمداً ﷺ: والخطاب لقريش، وهو جواب القسم، والضلال: نقيض الهدى، والغى نقيض الرشد، أي: هو مهتد راشد وليس كما تزعمون من نسبتكم إياه إلى الضلال والغى، وما أتاكم به من القرآن ليس بمنطق يصدر عن هواه ورأيه، وإنما هو وحي من عند الله يوحى إليه. ويحتج بهذه الآية ٢٠٠/٢ ب من لا يرى الاجتهاد للأنبياء، ويجب أن الله تعالى إذا سوغ لهم الاجتهاد، كان الاجتهاد وما يستند إليه كله وحياً لا نطقاً عن الهوى ﴿شَدِيدُ الْقُوَى﴾ ملك شديد قواه، والإضافة غير حقيقية، لأنها إضافة الصفة المشبهة إلى فاعلها، وهو جبريل عليه السلام، ومن قوته أنه اقتلع قرى قوم لوط من الماء الأسود، وحملها على جناحه، ورفعها إلى السماء ثم قلبها، وصاح صيحة بشمود فأصبحوا جاثمين، وكان هبوطه على الأنبياء وصعوده في أوحى من رجعة الطرف^(١)، ورأى إبليس يكلم عيسى عليه السلام على بعض عقاب الأرض المقدسة، فنفضه بجناحه نفحة فآلفاه في أقصى جبل بالهند ﴿ذُو مِرَّةٍ﴾ ذو حصافة في عقله^(٢) ورأيه ومثانه في دينه ﴿فَاسْتَوَى﴾ فاستقام على صورة نفسه الحقيقة دون الصورة التي كان يتمثل بها كلما هبط بالوحي؛ وكان ينزل في صورة دحية، وذلك: أن رسول الله ﷺ أحب أن يراه في صورته التي جبل عليها، فاستوى له في الأفق الأعلى وهو أفق الشمس فملاً الأفق.

= من يرجع العام إلى أهله
فما أكمل السبع بالراجع
من عاد فالليث له عائد
أعظم به من خبر شائع

لحسان بن ثابت. روي عن عروة بن الزبير أن عتبة بن أبي لهب كان تحت بنت رسول الله ﷺ، فذهب إليه وقال: إنه كافر بالنجم إذا هوى وبالذي دنا فتدلى ثم تفل في وجهه وطلق ابنته وخرج إلى الشام فقال ﷺ: اللهم سلط عليه كلباً من كلابك، فبينما هم يحرسونه ذات ليلة في سفر، إذ جاء أسد يتشمم وجوههم حتى ضرب عتبة فقتله، فقال حسان ذلك؛ والفعالان مجزومان بلا الدعائية. ويوهن بالتشديد؛ والمعنى للدعاء على القتل والدعاء للقتل. والمصروع: المطروح. والعبرة: الاعتبار أو ما يعتبر به. والتابع عطف على السيد. من يرجع في هذا العام إلى أهله فلن يوجب رجوع غيره؛ لأن من أكله السبع لا يرجع فلا يتمن أهله رجوعه، لاستحالة وسكون السبع لغة، ثم قال: من عاد لمثل فعل عتبة فالأسد عائد له، وأعظم به: صيغة تعجب، من خبر: تمييز مقترن بمن، شائع: ذائع منتشر.

(١) قوله: «في أوحى من رجعة الطرف» أي: أسرع من الوحي وهو السرعة، يمد ويقصر، كذا في الصحاح. وفيه أيضاً: نفحت الناقة: ضربت برجلها، ونفحه بالسيف، تناوله. (ع)

(٢) قوله: «ذو حصافة في عقله» أي: استحكام، أفاده الصحاح. (ع)

لم أجده هكذا. وفي الصحيحين من رواية مسروق عن عائشة «أنا أول من سأل رسول الله، فقال: إنما هو جبريل لم أره على صورته التي رأيتها عليها غير هاتين المراتين: رأيتها منهبطاً من السماء سادا عظم خلقه ما بين السماء والأرض» وللترمذي وابن حبان «ولكنه رأى جبريل، لم يره في صورته إلا مرتين: مرة عند سدره المنتهى. ومرة في أجياد، له ستمائة جناح، وقد سد الأفق».

وقيل: ما رآه أحد من الأنبياء في صورته الحقيقية غير محمد ﷺ مرتين: مرة في الأرض، ومرة في السماء (١٥١٢) ﴿ثُمَّ دَنَا﴾ من رسول الله ﷺ ﴿فَدَلَّ﴾ فتعلق عليه في الهواء. ومنه: تدلت الثمرة، ودلى رجله من السرير. والدوالي: الثمر المعلق. قال [من الطويل]:
تَدَلَّى عَلَيْهَا بَيْنَ سَبِّ وَخَيْطَةٍ^(١)

ويقال: هو مثل القرلى: إن رأى خيراً تدلى، وإن لم يره تولى ﴿قَابَ قَوْسَيْنِ﴾ مقدار قوسين عربيتين: والقاب والقيب؛ والقاد والقيد، والقيس: المقدار. وقرأ زيد بن علي: قاد. وقرئ: «قيد» وقدر. وقد جاء التقدير بالقوس والرمح، والسوط، والذراع، والباع، والخطوة، والشبر، والفترة، والأصبع. ومنه: «لا صلاة إلى أن ترتفع الشمس مقدار رمحين» (١٥١٣). وفي الحديث: «لقاب قوس أحدكم من الجنة وموضع قده خير من

١٥١٢ - قال الحافظ ابن حجر: لم أجده هكذا.

وأخرجه البخاري في صحيحه (١٥٦/٩)، كتاب التفسير (٦٥)، باب «يا أيها الرسول بلغ ما أنزل إليك من ربك» حديث رقم (٤٦١٢) وأطرافه حديث رقم (٤٨٥٥) وكتاب التوحيد (٧٣٨٠)، ومسلم (٨/٢ - ٩ - نووي)، كتاب الإيمان (١) - باب معنى قول الله عز وجل: «ولقد رآه نزلة...» حديث رقم (٢٨٧/١٧٧)، (٢٨٨، ٢٨٩)، والترمذي (٢٦٢/٥ - ٢٦٣)، كتاب تفسير القرآن (٤٨)، باب «ومن سورة الأنعام». حديث رقم (٣٠٦٨) وباب «ومن سورة النجم (٣٢٧٨)، والنسائي في التفسير (١٧٥/٢) - رقم (٤٢٨)... كلهم من طريق عامر الشعبي عن مسروق أن عائشة قالت: يا أبا عائشة ثلاث من قال بواحدة منهن فقد أعظم على الله الفرية... وقال الحافظ:

لم أجده. هكذا. وذكر المرتين، تقدم في الذي قبله. انتهى.

١٥١٣ - أخرجه أبو داود (٢٥/٢)، كتاب الصلاة، باب من رخص فيهما إذا كانت الشمس مرتفعة - حديث رقم (١٢٧٧)؛ وابن خزيمة في صحيحه (١٢٨/١ - ١٢٩) (٢٦٠)، والحاكم في مستدركه =

(١) تدلى عليها بين سب وخيطة تدلى دلو المائح المتشمر

يروى لأبي ذؤيب بدل الشطر الثاني: بجرداء مثل الكوف يكبو غرابها. والسب - بالكسر -: الحبل، والخمار، والعمامة، والخيطة كذلك الوند ونحوه: في لغة هذيل. والمائح: مائي الدلو من أسفل البشر. والمائح - بالتاء -: المستقي، يصف جاني العسل بأنه تدلى على النحل أو العسل؛ لأنه يؤنث أيضاً، أي: نزل متمسكاً بحبل مشدود في وتد، كتدلى دلو المائي النشط. والجرداء: فرس قليلة الشعر. والكوف: النطع. وكبا الجواد يكبو: سقط على وجهه. وغراب الدابة: أعلى ظهرها، أي: كأن غرابها ينحدر لسرعة سيرها.

ينظر: شرح أشعار الهذليين ص ٥٣، ولسان العرب (سبب)، (جرد)، (دعس)، (خيطة)، (كوف)، وديوان الأدب ٢٠٧/٣، والتنبيه والإيضاح ١٤/٢، وتاج العروس (سبب)، (دعس)، (خيطة)، وتهذيب اللغة ٧٥/٢، ٣٩٤/١٠، ٣١٣/١٢، وللذهلي في مقاييس اللغة ٢٣٤/٢، ٦٤/٣، ومجمل اللغة ٥٨/٣، وبلا نسبة في المخصص ١٠٢/٤، ١٧٢/٩، ومجمل اللغة ٢٣٠/٢.

الدنيا وما فيها» (١٥١٤) والقدّ: السوط. ويقال: بينهما خطوات يسيرة. وقال [من الطويل]:

وَقَدْ جَعَلْتَنِي مِنْ حَزِيمَةِ أَضْبَعَا

= (١/٤٠ - ٤١ - ٤٢).

كلهم من طريق أبي توبة الربيع بن نافع ثنا محمد بن المهاجر، عن العباس بن سالم عن أبي سلام عن أبي أمامة عن عمرو بن عبسة قال: أتيت رسول الله - صلى الله عليه وسلم - في أول ما بعث وهو بمكة وهو حينئذ مستخفى... وفيه قلت: أي الليل أسمع؟ قال: «جوف الليل الآخر فصل ما شئت، فإن الصلاة مشهودة مكتوبة، حتى تصلي الصبح، ثم أقصر حتى تطلع الشمس، فترتفع قيد رمح أو رمحين...» ورواية أبي داود مختصرة.

وقال الحاكم: قد خرج مسلم بعض هذه الألفاظ من حديث النضر بن محمد الجرشي عن عكرمة ابن عمار عن شداد بن عبد الله عن أبي أمامة قال: قال عمرو بن عبسة وحديث العباس بن سالم هذا أشفى وأتم من حديث عكرمة بن عمار، أ. هـ.

والحديث أخرجه أحمد (١١٢/٤، ١١٤)، والترمذي (٥٦٩/٥)، كتاب الدعوات (٤٩) حديث رقم (٣٥٧٩)، والنسائي (٩١/١ - ٢٧٩) وعبد بن حميد (٢٩٧) من طرق عن عمرو بن عبسة به والروايات مطولة ومختصرة وله شاهد من حديث أبي سلمة بن عبد الرحمن بن عوف عن أبيه قال: سئل رسول الله - صلى الله عليه وسلم - أي الليل أسمع؟ قال: «جوف الليل الآخر، ثم الصلاة مقبولة حتى تصلي الفجر، ثم لا صلاة حتى تكون الشمس قيد رمح أو رمحين...».

أخرجه الطبراني في الكبير (١٣٣/١ - ١٣٤) (٢٧٩)، وقال الهيثمي في المجمع (٢٤٦/٤): رواه الطبراني، وأبو سلمة لم يسمع من أبيه، وبقيه رجاله حديثهم حسن.

وعزه الزيلعي في تخريج الكشاف (٣٨٠/٣) لإسحاق بن راهويه في مسنده من طريق جرير عن منصور عن سالم بن أبي الجعد عن كعب بن مرة الأسلمي قال: سئل رسول الله - صلى الله عليه وسلم - أي الليل الأخير... ثم لا صلاة حتى تكون الشمس قيد رمح أو رمحين...». وقال الحافظ:

أخرجه الحاكم من حديث عمرو بن عبسة في حديث طويل ورواه إسحاق والدارقطني من حديث كعب بن مرة نحوه في حديث، ورواه الطبراني من حديث عبد الرحمن بن عوف مختصراً. انتهى.

١٥١٤ - أخرجه البخاري في صحيحه (٩٢/٦)، كتاب الجهاد والسير (٥٦)، باب الحور العين وصفتهن (٦) (٢٧٩٦)، والترمذي (١٨١/٥)، كتاب فضائل الجهاد، (١٦٥١)، وأحمد في مسنده (٣/١٥٣) مختصراً.

وقال الحافظ:

أخرجه البخاري من طريق حميد عن أنس أتم من هذا. انتهى.

(١) فأدرك إبقاء العراوة ظلّعها وقد جعلتني من حزيمة أضبعا

للكَلْحَةِ، وهو لقب لعبد الله بن هبيرة. وقيل: جرير بن هبيرة. وقيل: هبيرة بن عبد مناف. وقيل: هو للأسود بن يعفر. وقيل: لرؤية وليس بشيء. والإبقاء: ما تبقى الفرس من الهمة لتبذله قرب بلوغ المقصد. والعراوة كجراة. وقيل: بالكسر اسم فرسه. والظلع - بالفتح -: غمز في المشية من وجع الرجل، أي: أدرك الظلع ما أبقت الفرس فلم تقدر على بذله، والحال أنها جعلتني قريباً من =

فإن قلت: كيف تقدير قوله: ﴿فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ﴾؟ قلت: تقديره فكان مقدار مسافة قربه مثل قاب قوسين^(١)، فحذفت هذه المضافات كما قال أبو علي في قوله:
..... وقد جعلتني من حزيمة أصبعا

أي: ذا مقدار مسافة أصبغ ﴿أَوْ أَذْنَى﴾ أي على تقديركم، كقوله تعالى: ﴿أَوْ يَبْذُوكَ﴾ [الصفات: ١٤٧]. ﴿إِلَىٰ عَذِيبٍ﴾ إلى عبد الله، وإن لم يجز لاسمه عز وجل ذكر، لأنه لا يلبس؛ كقوله: ﴿عَلَىٰ ظَهْرِهَا﴾ [فاطر: ٤٥]. ﴿مَا أَوْحَىٰ﴾ تفخيم للوحي الذي أوحى^(٢) إليه: قيل أوحى إليه «إن الجنة محرمة على الأنبياء حتى تدخلها وعلى الأمم حتى تدخلها أمتك» ﴿مَا كَذَّبَ﴾ فؤاد محمد ﷺ ما رآه ببصره من صورة جبريل عليه السلام، أي: ما قال فؤاده لما رآه: لم أعرفك، ولو قال ذلك لكان كاذباً، لأنه عرفه، يعني: أنه رآه بعينه وعرفه بقلبه، ولم يشك في أن ما رآه حق وقرئ: «ما كذب» أي صدقه ولم يشك أنه جبريل عليه السلام بصورته ﴿أَفْتَمَرُونَهُ﴾ من المراء وهو الملاحة والمجادلة واشتقاقه من مرى الناقة^(٣)، كأن كل واحد من المتجادلين يمرى ما عند صاحبه. وقرئ: «أفتمرونه» أفتمربونه في المراء، من ماريته فمريته، ولما فيه من معنى الغلبة عدى بعلى، كما تقول: غلبته على كذا: وقيل: أفتمرونه: أفتمجدونه. وأنشدوا [من البسيط]:

لَيْسَ هَجَوْتُ أَخَا صِدْقٍ وَمَكْرَمَةٍ لَقَدْ مَرَيْتُ أَخَا مَا كَانَ يَمْرِيكَ^(٤)

= عدوي حزيمة بمهمل مفتوحة فمعجمة مكسورة: رجل كان قد أغار على إبل الشاعر فتبعه. وقيل: قبيلته وليس بذاك. ويروى: فأدرك إرقال العراوة. والإرقال: رجل كان قد أغار على إبل الشاعر فتبعه. وقيل: قبيلته وليس بذاك. ويروى: فأدرك إرقال العراوة. والإرقال: الإسراع في السير، أي: أبطل إسراعها العرج؛ ولا بد من تأويل قوله: جعلتني أصبعا أي: جعلتني ذا مسافة أصبغ. أو جعلت مسافتي مقدار أصبغ.

ينظر: خزانة الأدب ٤/٤٠١، وشرح اختيارات المفضل ص ١٤٦، ولسان العرب (حرم)، (بقي)، وتاج العروس (حرم)، (بقي)، وللأسود بن يعفر في ملحق ديوانه ص ٦٨، وشرح المفصل ١/٣١، وللأسود أو للكلجة في المقاصد النحوية ٣/٤٤٢، ولرؤبة في مغني اللبيب ٢/٢٦٤، وليس في ديوانه، وبلا نسبة في شرح الأشموني ٢/٣٢٥.

(١) قال محمود: «تقديره: فكان مقدار مسافة قربه مثل قاب قوسين إلى آخره» قال أحمد: وقد قال بعضهم: إنه كناية عن المعاهدة على لزوم الطاعة؛ لأن الحليفين في عرف العرب إذا تحالفا على الوفاء والصفاء ألقوا وتري قوسيهما» قال أحمد: وفيه ميل لقوله: (أو أدنى).

(٢) قال محمود: «هذا تفخيم للوحي الذي أوحى الله إليه» قال أحمد: التفخيم لما فيه من الإبهام، كأنه أعظم من أن يحيط به بيان، وهو كقوله: ﴿إِذْ يَتَنَبَّأُ الْمَلَائِكَةُ مَا يَفْعَلُ﴾ وقوله: ﴿فَعَشِيَهُمْ مِّنَ الْيَمِّ مَا غَشِيَهُمْ﴾.

(٣) قوله: «من مرى الناقة» في الصحاح: مريت الناقة، إذا مسحت ضرعها لتدر. (ع)

(٤) يقول لصاحبه:

وقالوا: يقال مريته حقه إذا جحدته، وتعديته بعلى لا تصح إلا على مذهب التضمين ﴿زَلَّةٌ أُخْرَى﴾ مرة أخرى من النزول، نصبت النزلة نصب الطرف الذي هو مرة، لأنَّ الفعلَةَ اسم للمرة من الفعل، فكانت في حكمها، أي: نزل عليه جبريل عليه السلام نزلة أخرى في صورة نفسه، فرآه عليها، وذلك ليلة المعراج. قيل: في سدره المنتهى: هي شجرة نبق في السماء السابعة عن يمين العرش: ثمرها كقلال هجر، وورقها كآذان الفيول، تنبع من أصلها الأنهار التي ذكرها الله في كتابه، يسير الراكب في ظلها سبعين عامًا لا يقطعها. والمنتهى: بمعنى موضع الانتهاء، أو الانتهاء، كأنها في منتهى الجنة وآخرها. وقيل: لم يجاوزها أحد، وإليها ينتهي علم الملائكة وغيرهم، ولا يعلم أحد ما وراءها. وقيل: تنتهي إليها أرواح الشهداء ﴿جَنَّةُ الْمَأْوَى﴾ الجنة التي يصير إليها المتقون: عن الحسن. وقيل: تأوي إليها أرواح الشهداء. وقرأ علي وابن الزبير وجماعة «جنة المأوى» أي ستره بظلاله ودخله فيه. وعن عائشة: أنها أنكرته وقالت: من قرأ به فأجنه الله ﴿مَا يَغْشَى﴾ ٢٠١/٢ أعظم وتكثير لما يغشاها، فقد علم بهذه العبارة أن ما يغشاها من الخلائق الدالة على عظمة الله وجلاله: أشياء لا يكتننها النعت ولا يحيط بها الوصف. وقد قيل: يغشاها الجم الغفير من الملائكة يعبدون الله عندها. وعن رسول الله ﷺ: «رأيت على كل ورقة من ورقها ملكًا قائمًا يسبح الله» (١٥١٥). وعنه عليه السلام: يغشاها رفر من طير خضر (١٥١٦). وعن ابن مسعود وغيره: يغشاها فراش من ذهب (١٥١٧) ﴿مَا زَاغَ﴾ بَصُر رسول الله ﷺ

١٥١٥ - أخرجه ابن جرير الطبري في تفسيره (٥١٨/١١) (٣٢٥١٩) حدثني يونس قال: أخبرنا ابن وهب قال: قال ابن زيد في قوله: «إذ يغشى السدرة...» قيل: يا رسول الله، أي شيء رأيت؟...» وفيه: «ورأيت على كل ورقة من ورقها ملكًا قائمًا يسبح الله». وعبدالرحمن بن زيد بن أسلم العدوى ضعيف كما في التقريب (٤٨٠/١) والحديث معضل وقال الحافظ:

أخرجه الطبري من طريق عبدالرحمن بن زيد بن أسلم قال: قيل له: يا رسول الله، أي شيء رأيت يغشى تلك الشجرة؟ فذكره وأتم منه، وعبدالرحمن ضعيف وهذا معضل. انتهى.

١٥١٦ - قال الزيلعي في تخريج الكشاف (٣/٣٨١): غريب وقال ابن حجر، لم أجده.

١٥١٧ - عزاه الزيلعي في تخريج الكشاف (٣/٣٨١ و ٣٨٢) لإسحاق بن راهويه في مسنده.

لئن ذممت أخا صدق ومكرمة، يعني: نفسه. ويقال: مرى الناقة، أي: حلبها. ومنه المماراة. كأن كلا من المتجادلين يمرى ما عند صاحبه. ومنه: فقد مريت أخا صدق، أي: غلبته في الجدل وأنفذت ما عنده، لأن من حلب الناقة يتركها يابسة الضرع؛ أو جحدت حقه كأنك أخذته منه، أو تسببت في إخراج ما عنده، فيذمك كما ذمته. ما كان يملك، أي: ما كان يفعل بك كذلك. ينظر: البحر (٨/١٥٩)، الدر المصون (٦/٢٠٦).

﴿وما طغى﴾ أي أثبت ما رآه إثباتاً مستقيماً صحيحاً من غير أن يزيغ بصره عنه أو يتجاوز، أو ما عدل عن رؤية العجائب التي أمر برؤيتها ومكن منها، وما طغى: وما جاوز ما أمر برؤيته ﴿لَقَدْ رَأَى﴾ والله لقد رأى ﴿مِنْ آيَاتِ رَبِّهِ﴾ الآيات التي هي كبراهها وعظماها^(١)، يعني: حين رقي به إلى السماء فأري عجائب الملكوت.

﴿أَفَرَأَيْتُمُ اللَّكْتَ وَالْعُزَّىٰ ۖ وَمَنْوَةَ الثَّالِثَةَ الْآخِرَىٰ ۚ ﴿٢٠﴾ أَلَكُمُ الذَّكْرُ وَلَهُ الْأُنثَىٰ ۖ ﴿٢١﴾ تِلْكَ إِذًا قِسْمَةٌ ضِيزَىٰ ۖ ﴿٢٢﴾ إِنْ هِيَ إِلَّا أَسْمَاءٌ سَمِيَّتُوهَا أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ ۖ إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَمَا تَهْوَى الْأَنْفُسُ وَلَقَدْ جَاءَهُمْ مِنْ رَبِّهِمْ الْهُدَىٰ ۖ ﴿٢٣﴾﴾

﴿اللَّكْتَ وَالْعُزَّىٰ وَمَنْوَةَ﴾ أصنام كانت لهم، وهي مؤنثات؛ فاللات كانت لثقيف بالطائف. وقيل: كانت بنخلة تعبدتها قريش، وهي فعلة من لوى؛ لأنهم كانوا يلون عليها ويعكفون للعبادة. أو يلتون عليها^(٢): أي يطوفون. وقرئ «اللات» بالتشديد. وزعموا أنه سمي برجل كان يلت عنده السمن بالسويق ويطعمه الحاج. وعن مجاهد: كان رجل يلت

= وقال الحافظ: أما حديث ابن مسعود فرواه إسحاق بن راهويه من طريق مرة عنه بهذا وأتم منه وأما غيره فرواه. انتهى.

(١) قال محمود: «معناه قد رأى من آيات ربه الآيات التي... إلخ» قال أحمد: ويحتمل أن تكون الكبرى صفة آيات ربه، لا مفعولاً به، ويكون المرئي محذوفاً لتفخيم الأمر وتعظيمه، كأنه قال: لقد رأى من آيات ربه الكبرى أموراً عظماً لا يحيط بها الوصف، والحذف في مثل هذا أبلغ وأهول، وهذا - والله أعلم - أولى من الأول، لأن فيه تفخيماً لآيات الله الكبرى، وأن فيها ما رآه وفيها ما لم يره، وهو على الوجه الأول يكون مقتضاه أنه رأى جميع الآيات الكبرى على الشمول والعموم، وفيه بعد؛ فإن آيات الله تعالى لا يحيط أحد علماً بجملتها. فإن قال: عام أريد به خاص، فقد رجع إلى الوجه الذي ذكرناه والله أعلم.

(٢) قال محمود: «اشتقاق اللات من لوى على كذا إذا قام عليه لأنهم كانوا... إلخ» قال أحمد: الأخرى تأنيث آخر، ولا شك أنه في الأصل مشتق من التأخير الوجودي؛ إلا أن العرب عدلت به عن الاستعمال في التأخير الوجودي إلى الاستعمال حيث يتقدم ذكر مغاير لا غير، حتى سلبته دلالة على المعنى الأصلي، بخلاف آخر وآخر؛ على وزن فاعل وفاعلة؛ فإن إشعارهما بالتأخير الوجودي ثابت لم يغير. ومن ثم عدلوا عن أن يقولوا: ربيع الآخر، على وزن الأفعول، وجمادى الأخرى: إلى ربيع الآخر، على وزن فاعل، وجمادى الآخرة على وزن فاعلة؛ لأنهم أرادوا أن يفهموا التأخير الوجودي، لأن الأفعول والفعل من هذا الاشتقاق مسلوب الدلالة على غرضهم، فعدلوا عنها إلى الآخر والآخرة، والتزموا ذلك فيهما. وهذا البحث مما كان الشيخ أبو عمرو بن الحاجب - رحمه الله تعالى - قد حرره آخر مدته، وهو الحق إن شاء الله تعالى، وحينئذ يكون المراد الإشعار بتقدم مغاير في الذكر، مع ما نعتقه في الوفاء بفاصلة رأس الآية، والله أعلم.

السويق بالطائف، وكانوا يعكفون على قبره، فجعلوه وثناً، والعزى كانت لغطفان وهي سمرة، وأصلها تأنيث الأعز، وبعث إليها رسول الله ﷺ خالد بن الوليد فقطعها، فخرجت منها شيطانة ناشرة شعرها داعية ويلها، واضعة يدها على رأسها، فجعل يضربها بالسيف حتى قتلها وهو يقول [من الرجز]:

يَا عَزُّ كُفْرَانِكَ لَا سُبْحَانَكَ إِنِّي رَأَيْتُ اللَّهَ قَدْ أَهَانَكَ^(١)

ورجع فأخبر رسول الله ﷺ فقال عليه السلام: تلك العزى ولن تعبد أبداً (١٥١٨).

١٥١٨ - أخرجه ابن سعد في الطبقات (٢/ ١١٠ - ١١١)، (٢٧٨/٧) بسنده عن محمد بن إسحاق وموسى بن عقبة وعبد الرحمن بن أبي الزناد وجماعة فذكر سرايا رسول الله - صلى الله عليه وسلم - ومنها سرية خالد بن الوليد، وأخرجه أيضاً في ترجمة خالد بن الوليد من طريق محمد بن عمر الواقدي....

وأخرجه النسائي في الكبرى (٦/ ٤٧٤)، كتاب التفسير (١١٥٤٧).

والبيهقي في «دلائل النبوة» (٥/ ٧٧)،

وأبو نعيم في «دلائل النبوة» (ص ٤٠٦)، باب قصة هدم بيت العزى كلهم من طريق محمد بن فضيل عن الوليد بن جميع عن أبي طفيل قال: لما فتح رسول الله - صلى الله عليه وسلم - مكة بعث خالد بن الوليد....

وقال الهيثمي في المجمع (٦/ ١٧٩) رواه الطبراني وفيه يحيى بن المنذر وهو ضعيف. قلت: كذا وقع في المجمع «المطبوع» يحيى بن المنذر وهو خطأ، والصواب علي بن المنذر، فرواه أبو نعيم في الدلائل كما تقدم من طريق الطبراني، ثنا الحسين بن إسحاق قال: ثنا علي بن المنذر قال: ثنا محمد بن فضيل به، وكذا رواه النسائي عن علي بن المنذر حدثنا محمد بن فضيل به.

«وعلي بن المنذر» هو ابن زيد الأودي أبو الحسن الكوفي....

قال أبو حاتم: محله الصدق، وقال النسائي، شيعي محض الثقة وذكره ابن حبان في الثقات وقال الحافظ في التقریب (٢/ ٤٤): صدوق يتشيع.

وتابعه أبو كريب محمد بن العلاء عند البيهقي في الدلائل (٥/ ٧٧).

قلت وإسناد هذا الحديث حسن فرجاله كلهم موصوفون بالصدق إلا أنهم فيهم تشيع.

والحديث عزاه الزيلعي في تخريج الكشاف (٣/ ٣٨٤) لأبي يعلى الموصلي في مسنده - ولم أجده فعله من المفقود، والله المستعان.

وعزاه أيضاً للواقدي في كتاب المغازي، وابن مردويه في تفسيره.

(١) لخالد بن الوليد - رضي الله عنه - وعز: مرخم عزى.

وترخمه شاذ؛ لأنه ليس رباعياً ولا مؤنثاً بالهاء، وهي شجرة كانت تعبد بها الجاهلية، فضربها بسيفه فخرجت منها جنية صارخة، فقال لها ذلك البيت. وقيل: ضربها بالفأس حتى قطعها وقتل الجنية. وكفرانك: نصب بمحذوف وجوياً، كسبحان، أي: أكفر كفراناً بك، لا أنزه تنزيهاً لك؛ فهما مصدران مغنيان عن اللفظ بفعليلهما. والإهانة: الإذلال.

ينظر: لسان العرب (عز)، وتاج العروس (عز) والمخصص (١٥/ ١٩٠).

ومناة: صخرة كانت لهذيل وخزاعة. وعن ابن عباس رضي الله عنهما: لثقيف. وقرئ: «ومناة» وكأنها سميت مناة؛ لأنّ دماء النسائك كانت تمنى عندها، أي: تراق، ومناة مفعلة من النوء، كأنهم كانوا يستمطرون عندها الأنواء تبركاً بها. و﴿الْآخِرَى﴾ ذم، وهي المتأخرة الوضيعة المقدار، كقوله تعالى: ﴿قَالَتْ أَخْرِجْنِي وَلَوْلَهُ لَكُنَّ مِنَ الْأَعْرَافِ ۝٣٨﴾ أي: وضعاؤهم لرؤسائهم وأشرفهم. ويجوز أن تكون الأوليّة والتقدّم عندهم لللات والعزى. كانوا يقولون إنّ الملائكة وهذه الأصنام بنات الله، وكانوا يعبدونهم ويزعمون أنهم شفعاؤهم عند الله تعالى مع وأدهم البنات، ف قيل لهم ﴿الْكُفْرُ أَكْبَرُ وَلَهُ الْأَنْثَى ۝٢١﴾ ويجوز أن يراد: أنّ اللات والعزى ومناة إناث، وقد جعلتموهنّ لله شركاء، ومن شأنكم أن تحثقروا الإناث وتستكفوا من أن يولدن لكم وينسبن إليكم، فكيف تجعلون هؤلاء الإناث أنداداً لله وتسمونهنّ آلهة ﴿فَسِنَّةٌ ضِرَى﴾ جائرة، من ضازة يضيّزه إذا ضامه، والأصل: ضوزى. ففعل بها ما فعل ببيض؛ لتسلم الياء. وقد قرئ: «ضزى» من ضازة بالهمز. وضيّز: بفتح الضاد ﴿هِيَ﴾ ضمير الأصنام، أي: ما هي ﴿إِلَّا أَشْمَاءٌ﴾ ليس تحتها في الحقيقة مسميات، لأنكم تدعون الإلهية لما هو أبعد شيء منها وأشدّه منافاة لها. ونحوه قوله تعالى: ﴿مَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِهِ إِلَّا أَشْمَاءٌ سَيَّئُوهَا﴾ [يوسف: ٤٠] أو ضمير الأسماء وهي قولهم، اللات والعزى ومناة، وهم يقصدون بهذه الأسماء الآلهة، يعني: ما هذه الأسماء إلا أسماء سميتموها بهواكم وشهوتكم، ليس لكم من الله على صحة تسميتها برهان تتعلقون به. ومعنى ﴿سَيَّئُوهَا﴾ سميت بها، يقال: سميت زيداً، وسميته يزيد ﴿إِنْ يَتَّبِعُونَ﴾ وقرئ بالتاء ﴿إِلَّا الظَّنَّ﴾ إلا توهم أنّ ما هم عليه حق، وأنّ آلهتهم شفعاؤهم، وما تستهيه أنفسهم، ويتركون ما جاءهم من الهدى والدليل على أنّ دينهم باطل.

﴿أَمْ لِلْإِنْسَانِ مَا تَمَنَّى ۝٢٢﴾ فَلِلَّهِ الْآخِرَةُ وَالْأُولَى ۝٢٥﴾

وقال الحافظ:

أخرجه ابن مردويه من طريق محمد بن إسحاق عن محمد بن السائب الكلبي عن أبي صالح وعن عكرمة عن ابن عباس أن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - بعث خالد بن الوليد إلى العزى ليهدمها، وكانت بنخلة عليها سادن فجاءها خالد فهدمها فذكر نحوه إلى آخره، ورواه الواقدي في المغازي والأزرق في التاريخ من طريقه عن عبدالله بن يزيد الهذلي عن سعيد بن عمرو الهذلي قال: «قدم رسول الله - صلى الله عليه وسلم - مكة فذكر القصة وفيها: فبعث خالد بن الوليد إلى العزى يهدمها فذكر القصة. وكذا ذكره ابن سعد في الطبقات في السرايا وأصل هذه القصة رواها النسائي وأبو يعلى والطبراني وأبو نعيم في الدلائل من حديث أبي الطفيل قال: «لما فتح رسول الله - صلى الله عليه وسلم - مكة - بعث خالد بن الوليد إلى نخلة - وكانت بها العزى فأتاها خالد، وكانت على ثلاث شجرات فقطع الشجرات». انتهى.

﴿أَمْ لِلْإِنْسَانِ مَا تَمَنَّى﴾ (٢١) هي أم المنقطعة ومعنى الهمزة فيها الإنكار، أي: ليس للإنسان ما تمنى، والمراد طمعهم في شفاعة الآلهة، وهو تمنى على الله في غاية البعد، وقيل: هو قولهم: ﴿وَلَكِنْ رُجِعْتُ إِلَىٰ رَبِّي إِنَّ لِي عِنْدَهُ لَلْخُسْرَىٰ﴾ [فصلت: ٥٠] وقيل: هو قول الوليد بن المغيرة «الأوتين مالا وولدا» وقيل هو تمنى بعضهم أن يكون هو النبي ﷺ فلله الآخرة والأولى أي هو مالهما، فهو يعطي منهما من يشاء ويمنع من يشاء، وليس لأحد أن يتحكم عليه في شيء منهما.

﴿وَكَمْ مِنْ مَلَكٍ فِي السَّمَوَاتِ لَا تُغْنِي شَفَاعَتُهُمْ شَيْئًا إِلَّا مِنْ بَعْدِ أَنْ يَأْذَنَ اللَّهُ لِمَنْ يَشَاءُ﴾

وَرَضَىٰ ﴿٢٢﴾

يعني: أن أمر الشفاعة ضيق وذلك ٢٠١/٢ ب أن الملائكة مع قربتهم وزلفاهم وكثرتهم واغتصاص السموات بجموعهم لو شفَعُوا بأجمعهم لأحد لم تغن شفاعتهم عنه شيئاً قط ولم تنفع، إلا إذا شفَعُوا من بعد أن يأذن الله لهم في الشفاعة لمن يشاء الشفاعة له ويرضاه ويراه أهلاً لأن يشفع له، فكيف تشفع الأصنام إليه بعدتهم^(١).

﴿إِنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ لَيَسْمُوكَ الْمَلَائِكَةَ تَسْمِيَةَ الْإِنثَىٰ﴾ (٢٣) وَمَا لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنَّ الظَّنَّ لَا يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئًا ﴿٢٤﴾ فَأَعْرَضَ عَنْ مَنْ تَوَلَّىٰ عَنْ ذِكْرِنَا وَلَوْ يُرِيدُ إِلَّا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا ﴿٢٥﴾ ذَلِكَ مَبْلَغُهُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ صَلَّىٰ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ

أَهْتَدَىٰ ﴿٢٦﴾

﴿لَيَسْمُوكَ الْمَلَائِكَةَ﴾ أي: كل واحد منهم ﴿تَسْمِيَةَ الْإِنثَىٰ﴾ لأنهم إذا قالوا: الملائكة بنات الله، فقد سموا كل واحد منهم بنتاً وهي تسمية الأنثى ﴿بِهِ مِنْ عِلْمٍ﴾ أي: بذلك وبما يقولون^(٢). وفي قراءة أبي: «بها»، أي: بالملائكة. أو التسمية ﴿لَا يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئًا﴾ يعني: إنما يدرك الحق الذي هو حقيقة الشيء وما هو عليه بالعلم واليقين لا بالظن والتوهم ﴿فَأَعْرَضَ﴾ عن دعوة من رأته معرضاً عن ذكر الله وعن الآخرة ولم يرد إلا الدنيا، ولا تهالك على إسلامه، ثم قال: ﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ﴾ أي: إنما يعلم الله من يجيب ممن لا يجيب، وأنت لا تعلم، فخفض على نفسك ولا تتبعها، فإنك لا تهدي من أحببت، وما عليك إلا البلاغ. وقوله تعالى: ﴿ذَلِكَ مَبْلَغُهُمْ مِنَ الْعِلْمِ﴾ اعتراض أو فأعرض عنه ولا تقابله، إن ربك هو أعلم بالضال والمهتدي، وهو مجازيها بما يستحقان من الجزاء.

(١) قوله: «بعدتهم» لعله لعبتهم، كعبارة النسفي. (ع)

(٢) قوله: «وبما يقولون» لعله أو بما يقولون. (ع)

﴿وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ لِيَجْزِيَ الَّذِينَ أَسْتَوُوا بِمَا عَمِلُوا وَيَجْزِيَ الَّذِينَ أَحْسَنُوا بِالْحَسَنَى﴾ (٣١) الَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَثِيرَ الْإِثْمِ وَالْفَوَاحِشِ إِلَّا اللَّمَمَ إِنَّ رَبَّكَ وَاسِعُ الْمَغْفِرَةِ هُوَ أَعْلَمُ بِكُمْ إِذْ أَنشَأَكُم مِّنَ الْأَرْضِ وَإِذْ أَنتُمْ أَجْنَةٌ فِي بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ فَلَا تُزَكُّوْا أَنْفُسَكُمْ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ اتَّقَى﴾ (٣٢)

قري: «ليجزي» ويجزي، بالياء والنون فيهما. ومعناه: أن الله - عز وجل - إنما خلق العالم وسوى هذه الملكوت لهذا الغرض: وهو أن يجازي المحسن من المكلفين والمسيء منهم. ويجوز أن يتعلق بقوله: ﴿هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ صَدَّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ اهْتَدَى﴾ لأن نتيجة العلم بالضال والمهتدي جزاؤهما ﴿بِمَا عَمِلُوا﴾ بعقاب ما عملوا من السوء. و﴿بِالْحَسَنَى﴾ بالمشوبة الحسنى وهي الجنة. أو بسبب ما عملوا من السوء وبسبب الأعمال الحسنى ﴿كَثِيرَ الْإِثْمِ﴾ أي: الكبائر من الإثم؛ لأن الإثم جنس يشتمل على كبائر وصغائر، والكبائر: الذنوب التي لا يسقط عقابها إلا بالتوبة. وقيل: التي يكبر عقابها بالإضافة إلى ثواب صاحبها ﴿وَالْفَوَاحِشِ﴾ مافحش من الكبائر، كأنه قال: والفواحش منها خاصة: وقري: «كبير الإثم» أي: النوع الكبير منه وقيل: هو الشرك بالله. واللمم: ما قل وصغر. ومنه: اللمم المس من الجنون، واللوثة منه. وألم بالمكان إذا قل فيه لبثه. وألم بالطعام: قل منه أكله؛ ومنه [من الطويل]:

لِقَاءِ أَخِلَاءِ الصُّفَاءِ لِمَامٍ^(١)

والمراد الصغائر من الذنوب، ولا يخلو قوله تعالى: ﴿إِلَّا اللَّمَمَ﴾ من أن يكون استثناء منقطعاً أو صفة، كقوله تعالى: ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلَّا اللَّهُ﴾ [الأنبياء: ٢٢] كأنه قيل: كبائر الإثم غير اللمم، وآلهة غير الله: وعن أبي سعيد الخدري: اللمم هي النظرة، والغمزة،

(١) لقاء أخلاء الصفاء لمام وكل وصال الغانيات ذمام

أي: لقاء الأحباب الذين صفت مودتهم لمام. أي: قليل فهو فعال من الإلمام وهو الزيادة بلا تلبث ولا تمكث وكل وصال النساء المستغنيات بجمالهن عن التحلي بالحلي أو المخدرات المقيمات في بيوتهن، من غنى بالمكان كرضي: أقام به، ذمام أي شيء قليل من حقوق الحرمة والذمة. وإطلاقه على ذلك مجاز، وحقيقته: الحرمة والذمة والمعاهدة والعهد الذي يتعاهد به المتعاهدان وما يذم الشخص على إضاعته من العهد، فهو إما مفاعلة من الذمة، وإما اسم آلة: كالحزام والوثاق، وقد يستعمل صفة لبشر قليلة الماء، ويستعمل جمع ذمة. والمعنى أن رؤية الأحباب قليلة إما حقيقة في العادة، وإما ادعاء واستقلالاً لها. ورؤية غيرهم كثيرة. وفيه معنى التحزن. ويجوز أن يقرأ: الدمام بالمهملة، وهو ما يطلى به الوجه ليحسن، والمعنى: أن وصالهن مجرد تمويه لا حقيقة له، والمعنى على التشبيه.

ينظر: البحر (٨/١٥٥)، الدر المصون (٦/٢١٢).

والقبلة، وعن السدي: الخطرة من الذنب، وعن الكلبي: كل ذنب لم يذكر الله عليه حدًا ولا عذابًا، وعن عطاء: عادة النفس الحين بعد الحين ﴿إِنَّ رَبَّكَ وَسِعَ الْمَغْفِرَةَ﴾ حيث يكفر الصغائر باجتنب الكبائر^(١)، والكبائر بالتوبة ﴿فَلَا تُزَكُّوا أَنْفُسَكُمْ﴾ فلا تنسبونها إلى زكاء العمل وزيادة الخير وعمل الطاعات: أو إلى الزكاء والطهارة من المعاصي، ولا تنسبونها إليها واهضموها، فقد علم الله الزكي منكم والتقي أولاً وآخراً قبل أن يخرجكم من صلب آدم، وقبل أن تخرجوا من بطون أمهاتكم. وقيل: كان ناس يعملون أعمالاً حسنة ثم يقولون: صلاتنا وصيامنا وحجنا، فنزلت: وهذا إذا كان على سبيل الإعجاب أو الرياء: فأما من اعتقد أن ما عمله من العمل الصالح من الله وبتوفيقه وتأييده ولم يقصد به التمدح: لم يكن من المزيكين أنفسهم، لأن المسرة بالطاعة طاعة، وذكرها شكر.

﴿أَفَرَأَيْتَ الَّذِي تَوَلَّى (٣٣) وَأَعْطَى قَلِيلًا وَأَكْدَى (٣٤) أَعِنْدَهُ عِلْمُ الْغَيْبِ فَهُوَ يَرَى (٣٥) أَمْ لَمْ يُبَيِّنْ بِمَا فِي صُحُفٍ مُوسَى (٣٦) وَإِبْرَاهِيمَ الَّذِي وَفَّى (٣٧) أَلَا نَزَّرَ وَزَرًا وَزَرَ آخَرَى (٣٨) وَأَنْ لَيْسَ لِلْإِنْسَانِ إِلَّا مَا سَعَى (٣٩) وَأَنَّ سَعْيَهُ سَوْفَ يَرَى (٤٠) ثُمَّ يُجْزَاهُ الْجَزَاءَ الْأَوَّلَى (٤١) وَأَنَّ إِلَى رَبِّكَ الْمُنْتَهَى (٤٢) وَأَنْتُمْ هُوَ أَصْحَاكُ وَأَبْنَى (٤٣) وَأَنْتُمْ هُوَ أَمَاتٌ وَأَحْيَا (٤٤) وَأَنْتُمْ خَلَقَ الزَّوْجَيْنِ الذَّكَرَ وَالْأُنثَى (٤٥) مِنْ تُلْفَةٍ إِذَا تُمْنَى (٤٦) وَأَنَّ عَلَيْهِ النَّشَاءَ الْآخَرَى (٤٧) وَأَنْتُمْ هُوَ أَغْنَى وَأَقْنَى (٤٨) وَأَنْتُمْ هُوَ رَبُّ الشِّعْرَى (٤٩) وَأَنْتُمْ أَهْلَكَ عَادًا الْأُولَى (٥٠) وَتَمُودًا فَمَا أَبْقَى (٥١) وَقَوْمَ نُوحٍ مِنْ قَبْلُ إِنَّهُمْ كَانُوا هُمْ أَظْلَمَ وَأَطْفَى (٥٢) وَالْمُؤَنَفَكَةَ أَهْوَى (٥٣) فَمَنْشَاهَا مَا غَشَى (٥٤)﴾

﴿وَأَكْدَى﴾ قطع عطيته وأمسك، وأصله: من إكداء الحافر، وهو أن تلقاه كدية: وهي صلابة كالصخرة فيمسك عن الحفر، ونحوه: أجبل الحافر، ثم استعير فقل: أجبل الشاعر إذا أفحم. روي: أن عثمان - رضي الله عنه - كان يعطي ماله في الخير، فقال له عبد الله بن سعد بن أبي سرح - وهو أخوه من الرضاعة -: يوشك أن لا يبقى لك شيء، فقال عثمان: إن لي ذنوباً وخطايا، وإنني أطلب بما أصنع رضا الله - تعالى - وأرجو عفوه، فقال عبد الله: أعطني ناقتك برحلتها وأنا أتحمّل عنك ذنوبك كلها، فأعطاه وأشهد عليه وأمسك عن العطاء. فنزلت. ومعنى ﴿تَوَلَّى﴾ ترك المركز يوم أحد، فعاد عثمان إلى أحسن من ذلك وأجمل ﴿فَهُوَ يَرَى﴾ فهو يعلم أن ما قاله له أخوه من احتمال أوزاره ٢٠٢/٢ حق ﴿وَفَّى﴾ قرئ مخففاً ومشدداً، والتشديد مبالغة في الوفاء. أو بمعنى: وفر وأنتم، كقوله

(١) قوله: «يكفر الصغائر باجتنب الكبائر» هذا عند المعتزلة، وعند أهل السنة بذلك. أو بمجرد الفضل. وكذا ما بعده. (ع)

تعالى: ﴿فَأَتَيْنَاهُ﴾ [البقرة: ١٢٤] وإطلاقه ليتناول كل وفاء وتوفية، من ذلك: تبليغه الرسالة، واستقلاله بأعباء النبوة، والصبر على ذبح ولده وعلى نار نمرود، وقيامه بأضيافه وخدمته إياهم بنفسه، وأنه كان يخرج كل يوم فيمشي فرسخًا يرتاد ضيفًا، فإن وافقه أكرمه، وإلا نوى الصوم. وعن الحسن: ما أمره الله بشيء إلا وفى به. وعن الهزيل بن شرحبيل^(١): كان بين نوح وبين إبراهيم يؤخذ الرجل بجريرة غيره، ويقتل بأبيه وابنه وعمه وخاله، والزوج بامرأته، والعبد بسيده؛ فأول من خالفهم إبراهيم. وعن عطاء بن السائب: عهد أن لا يسأل مخلوقًا، فلما قذف في النار قال له جبريل وميكائيل: ألك حاجة؟ فقال: أَمَا إِلَيْكُمَا فَلَا. وعن النبي ﷺ: وفى عمله كل يوم بأربع ركعات في صدر النهار (١٥١٩)، وهي صلاة الضحى. وروي: ألا أخبركم لم سمى الله خليله ﴿الَّذِي وَفَّى﴾؟ كان يقول إذا أصبح وأمسى: ﴿فَسُبْحَانَ اللَّهِ حِينَ تُمْسُونَ﴾ إلى ﴿وَحِينَ تَنْظُرُونَ﴾ (١٥٢٠) [الروم: ١٧، ١٨]

١٥١٩ - أخرجه الطبري في تفسيره (٥٣٣/١١) (٣٢٦١٨).

والبيهقي في تفسيره (٢٥٤/٤)، وابن مردويه، وابن أبي حاتم، والثعلبي في تفاسيرهم كلهم من طريق جعفر بن الزبير عن القاسم عن أبي أمامة عن النبي - صلى الله عليه وسلم - أنه تلا هذه الآية: «وإبراهيم الذي وفى» ثم قال: «أتدري ما الذي وفى...».

وجعفر بن الزبير هو الحنفي الباهلي قال الحافظ في التقريب (١٣٠/١) متروك الحديث وكان صالحًا في نفسه.

وذكره السيوطي في الدر المنثور (١٦٨/٦) وزاد نسبه لسعيد بن منصور وعبد بن حميد والشيرازي في الألقاب والدليمي وقال: سنده ضعيف.

وقال الحافظ:

أخرجه الطبري، وابن أبي حاتم وغيرهما من رواية جعفر بن الزبير عن القاسم عن أبي أمامة مرفوعًا به وأتم منه. انتهى.

١٥٢٠ - أخرجه أحمد في المسند (٤٣٩/٣)، والطبراني في «معجمه الكبير» (١٩٢/٢٠) (٤٢٧)،

كلاهما من طريق ابن لهيعة عن زيان بن فائد عن سهل بن معاذ بن أنس عن أبيه عن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - قال: «ألا أخبركم...».

قلت: وهذا إسناد مسلسل بالضعفاء، فابن لهيعة وزيان كلاهما ضعيف، وسهل بن معاذ بن أنس الجهني قال الحافظ في التقريب (٣٣٧/١): لا بأس به، إلا في روايات زيان عنه.

وتابع ابن لهيعة رشدين بن سعد عند الطبري في تفسيره (٥٣٣/١١) (٣٢٦١٧) ورشدين بن سعد، وهو أبو الحجاج المصري قال الحافظ في التقريب (٣٥١/١): ضعيف رجح أبو حاتم عليه ابن لهيعة. أ. هـ.

وعزه الزيلعي في تخريج الكشاف (٣٨٤/٣) لابن السني في كتاب عمل اليوم والليلة لابن مردويه والثعلبي وابن أبي حاتم.

وقال الحافظ:

(١) قوله: «وعن الهزيل بن شرحبيل» لعله: الهذيل. (ع)

وقيل: وفي سهام الإسلام: وهي ثلاثون: عشرة في التوبة ﴿التَّائِبُونَ﴾ [التوبة: ١١٢] وعشرة في الأحزاب: ﴿إِنَّ الْمُسْلِمِينَ﴾ [الأحزاب: ٣٥] وعشرة في المؤمنين ﴿قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ﴾ [المؤمنون: ١] وقرئ: «في صحف»، بالتخفيف ﴿أَلَا تَرَى﴾ أن مخففة من الثقيلة. والمعنى: أنه لا تزر، والضمير ضمير الشأن، ومحل أن وما بعدها: الجبر بدلاً من ما في صحف موسى. أو الرفع على: هو أن لا تزر، كأن قائلاً قال: وما في صحف موسى وإبراهيم، فقيل: أن لا تزر ﴿إِلَّا مَا سَعَى﴾ إلا سعيه. فإن قلت: أما صَحَّ في الأخبار: الصدقة عن الميت، والحج عنه، وله الإضعاف؟ قلت: فيه جوابان، أحدهما: أن سعي غيره لما لم ينفعه إلا مبنياً على سعي نفسه - وهو أن يكون مؤمناً صالحاً وكذلك الإضعاف - كان سعي غيره كأنه سعي نفسه، لكونه تابعاً له وقائماً بقيامه. والثاني: أن سعي غيره لا ينفعه إذا عمله لنفسه، ولكن إذا نواه به فهو بحكم الشرع كالنائب عنه والوكيل القائم مقامه ﴿ثُمَّ يُجْزَى﴾ ثم يجزى العبد سعيه، يقال: أجزاه الله عمله وجزاه على عمله، بحذف الجار وإيصال الفعل. ويجوز أن يكون الضمير للجزاء، ثم فسر بقوله: ﴿الْجَزَاءُ الْأَوْفَى﴾ أو أبدله عنه، كقوله تعالى: ﴿وَأَسْرُوا النَّجْوَى الَّذِينَ ظَلَمُوا﴾ [الأنبياء: ٣]، ﴿وَأَنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ الْمُنْتَهَى﴾ [الفتح: ٢٤] قرئ بالفتح على معنى: أن هذا كله في الصحف، وبالكسر على الابتداء، وكذلك ما بعده. والمنتهى: مصدر بمعنى الانتهاء، أي: ينتهي إليه الخلق ويرجعون إليه، كقوله تعالى: ﴿وَلِئَلَّا اللَّهُ الْمَصِيرُ﴾ [فاطر: ١٨]. ﴿أَضْحَكَ وَأَبْكَى﴾ خلق قوتي الضحك والبكاء^(١) ﴿إِذَا تَنَفَّسْتَ﴾ إذا تدفق في الرحم، يقال: منى وأمنى. وعن الأخفش: تخلق من منى الماني، أي قدر المقدر: قرئ: النشأة والنشأة بالمد. وقال: (عليه) لأنها واجبة^(٢) عليه في الحكمة^(٣)، ليجازي

= أخرجه أحمد والطبراني وابن السني والطبري، وابن أبي حاتم من رواية ابن لهيعة عن زياد عن زبان عن ابن فائد عن سهل بن معاذ عن أبيه به. انتهى.

- (١) قال محمود: «أي خلق قوتي الضحك والبكاء» قال أحمد: وخلق أيضاً فعلي الضحك والبكاء على قواعد السنة، وعليه دلت الآية غير مثابرة لتحريفه، والله الموفق.
- (٢) قال محمود: «إنما قال عليه لأنها واجبة عليه... إلخ» قال أحمد: هذا من فساد اعتقاد المعتزلة الذي يسمونه مراعاة للصالح والحكمة، وأي فساد أعظم مما يؤدي إلى اعتقاد المعتزلة الإيجاب على رب الأرباب، تعالى الله عن ذلك. ومثل هذه القاعدة التي عفت البراهين القاطعة رسمها وأبطلت حكمها لا يكفي فيها كلمة محتملة؛ هي لو كانت ظاهرة لوجب تنزيلها على ما يوفق بينها وبين القواطع، والذي حملت عليه لفظة عليه غير هذا المعنى؛ وهو أن المراد أن أمر النشأة الأخرى يدور على قدرته عز وجل وإرادته، كما يقال: دارت قضية فلان على يدي. وقول المحدثين: على يدي دار الحديث، أي هو الأصل فيه والسند، والله أعلم.
- (٣) قوله: «لأنها واجبة عليه في الحكمة» هذا عند المعتزلة لا عند أهل السنة. (ع)

على الإحسان والإساءة ﴿وَأَقْنَى﴾ وأعطى القنية وهي المال الذي تأثله وعزمت أن لا تخرجه من يدك ﴿أَلَشَّرَئِي﴾ مرزم الجوزاء^(١): وهي التي تطلع وراءها، وتسمى كلب الجبار، وهما شعريان الغميصاء والعبور وأراد العبور. وكانت خزاعة تعبدها، سنّ لهم ذلك أبو كبشة رجل من أشرفهم، وكانت قریش تقول لرسول الله ﷺ: أبو كبشة، تشبیهاً له به لمخالفته إياهم في دينهم^(٢) (١٥٢١)، يريد: أنه رب معبودهم هذا. عاد الأولى: قوم هود، وعاد الأخرى: إرم. وقيل: الأولى القدماء لأنهم أول الأمم هلاكاً بعد قوم نوح، أو المتقدمون في الدنيا الأشراف. وقرئ: «عادا لولى». وعاد لولى، بإدغام التنوين في اللام وطرح همزة أولى ونقل ضممتها إلى لام التعريف (وتمودا) وقرئ: وشمود ﴿أَطْلَمَ وَأَطْنَى﴾^(٣) لأنهم كانوا يؤذونه ويضربونه حتى لا يكون به حراك، وينفرون عنه حتى كانوا يحذرون صبيانهم أن يسمعوا منه، وما أثر فيهم دعاؤه^(٤) قريباً من ألف سنة ﴿وَالْمُؤْتَفِكَةَ﴾ والقرى التي ائتفكت بأهلها، أي: انقلبت، وهم قوم لوط، يقال: أفكته فائتفك: وقرئ «والمؤتفكات» ﴿أَهْوَى﴾ رفعها إلى السماء على جناح جبريل، ثم أهواها إلى الأرض أي: أسقطها ﴿مَا عَشَى﴾ تهويل وتعظيم لما صب عليها من العذاب وأمطر عليها من الصخر المنضود.

﴿فَبَآئِيَ ءَالَآءَ رَبِّكَ لَتَمَارَيْنَا ۚ هَٰذَا نَذِيرٌ مِّنَ النَّذِرِ ۖ أَلَوَلَىٰٓ أَزِفَتِ ٱلْآزِفَةُ ۚ لَن لَّسَ لَهَا مِن دُونِ ٱللَّهِ كَاشِفَةٌ ۖ﴾

﴿فَبَآئِيَ ءَالَآءَ رَبِّكَ لَتَمَارَيْنَا ۚ﴾ تتشكك، والخطاب لرسول الله ﷺ، أو للإنسان على الإطلاق، وقد عدد نعماً ونقماً وسماها كلها آلاء من قبل ما في نقمه من المزاجر والمواعظ للمعتبرين ﴿هَٰذَا﴾ القرآن ﴿نَذِيرٌ مِّنَ النَّذِرِ ۖ﴾ أي إنذار من جنس الإنذارات

١٥٢١ - قال الزيلعي في تخريج الكشاف (٣/ ٣٨٥) - كأنه وهم إنما يقولون له: ابن أبي كبشة.

قلت وجاء ذلك في حديث أبي سفيان الطويل - وتقدم تخريجه -.

وقال الحافظ:

هذا وهم، والمعروف أنهم كانوا يقولون له: ابن أبي كبشة، كما في حديث أبي سفيان الطويل في الصحيحين حيث قال: لقد أمر ابن أبي كبشة أن يخافه ملك بني الأصفر. يعني هرقل. انتهى.

(١) قوله: «مرزم الجوزاء» في الصحاح «المرزمان»: مرزما الشعريين، وهما نجمان: أحدهما في الشعري، والآخر في الذراع اهـ. (ع)

(٢) هذا وهم، والمعروف أنهم كانوا يقولون له: ابن أبي كبشة، كما في حديث أبي سفيان الطويل في الصحيحين حيث قال: لقد أمر ابن أبي كبشة أن يخافه ملك بني الأصفر؛ يعني هرقل.

(٣) قوله: «وقرئ وشمود أظلم وأطنى» يفيد أن قراءة التنوين أشهر. (ع)

(٤) قوله: «وما أثر فيهم دعاؤه» أي دعاؤه إياهم إلى الإسلام. (ع)

الأولى/ ٢/ ٢٠٢ ب التي أنذر بها من قبلكم . أو هذا الرسول منذر من المنذرين الأولين ، وقال : الأولى على تأويل الجماعة ﴿ أَزِفَتْ آلَازِفَةٌ ﴾ ﴿٥٧﴾ قريت الموصوفة بالقرب من قوله تعالى : ﴿ أَفْتَرَيْتَ السَّاعَةَ ﴾ [القمر : ١] ، ﴿ لَيْسَ لَهَا ﴾ نفس ﴿ كَاشِفَةٌ ﴾ أي مبينة متى تقوم ، كقوله تعالى : ﴿ لَا يُجِيبُهَا لَوْفَهَا إِلَّا هُوَ ﴾ [الأعراف : ١٨٧] أو ليس لها نفس كاشفة ، أي : قادرة على كشفها إذا وقعت إلا الله ، غير أنه لا يكشفها . أو ليس لها الآن نفس كاشفة بالتأخير ، وقيل الكاشفة مصدر بمعنى الكشف : كالعافية . وقرأ طلحة : ليس لها مما يدعون من دون الله كاشفة وهي على الظالمين ساءت الغاشية .

﴿ أَفَئِن هَذَا الْحَدِيثِ تَعَجُّبُونَ ﴾ ﴿٥٩﴾ وَتَضْحَكُونَ وَلَا تَبْكُونَ ﴿٦٠﴾ وَأَنْتُمْ سَمِيدُونَ ﴿٦١﴾ فَأَسْجُدُوا لِلَّهِ
وَأَعْبُدُوا ﴿٦٢﴾

﴿ أَفَئِن هَذَا الْحَدِيثِ ﴾ وهو القرآن ﴿ تَعَجُّبُونَ ﴾ إنكاراً ﴿ وَتَضْحَكُونَ ﴾ استهزاء ﴿ وَلَا تَبْكُونَ ﴾ والبكاء والخشوع حق عليكم . وعن رسول الله ﷺ : أنه لم ير ضاحكاً بعد نزولها (١٥٢٢) . وقرئ : تعجبون تضحكون ، بغير واو ﴿ وَأَنْتُمْ سَمِيدُونَ ﴾ ﴿٦١﴾ شامخون مبرطمون^(١) . وقيل : لاهون لاعبون . وقال بعضهم لجاريته : اسمدي لنا ، أي غني لنا ﴿ فَأَسْجُدُوا لِلَّهِ وَأَعْبُدُوا ﴾ ﴿٦٢﴾ ولا تعبدوا الآلهة .

عن رسول الله ﷺ : « من قرأ سورة النجم أعطاه الله عشر حسنات بعدد من صدق بمحمد وجحد به بمكة » (١٥٢٣) .

١٥٢٢ - عزاه الزيلعي في تخريج الكشاف (٣/ ٣٨٥) لأحمد في الزهد والثعلبي من حديث صالح بن أبي الخليل ، ورواه ابن مردويه من طريق سعيد بن جبير عن ابن عباس - قال الحافظ ابن حجر : بإسناد ضعيف أ. هـ .

وقال الحافظ :

أخرجه أحمد في الزهد والثعلبي من حديث صالح بن أبي الخليل . ورواه ابن مردويه من طريق سعيد بن جبير عن ابن عباس بإسناد ضعيف . انتهى .

١٥٢٣ - تقدم برقم (٣٤٦) .

وقال الحافظ :

أخرجه الثعلبي وابن مردويه والواحدي من حديث أبي بن كعب - رضي الله عنه . - انتهى .

(١) قوله : « شامخون مبرطمون » في الصحاح « البرطمة » الانتفاخ من الغضب اهـ . وفيه « السامد » : رافع رأسه تكبراً ، واللاهي ، والمعنى ، والقائم ، والساكت ، والحزين الخاشع ، واسماد الرجل بالهمز اسمئداً : أي ورم غضباً . (ع)

سورة القمر

مكية [إلا الآيات ٤٤ و ٤٥ و ٤٦ فمدنية]

وآياتها ٥٥ [نزلت بعد الطارق]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿أَفَرَأَيْتِ السَّاعَةَ وَانْشَقَّ الْقَمَرُ ﴿١﴾ وَإِنْ يَرَوْا آيَةً يُعَرِّضُوا وَيَقُولُوا سِحْرٌ مُسْتَعْمَرٌ ﴿٢﴾ وَكَذَّبُوا وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ وَكُلُّ أَمْرٍ مُسْتَقَرٌّ ﴿٣﴾﴾

انشقاق القمر من آيات رسول الله ﷺ ومعجزاته النيرة. عن أنس بن مالك رضي الله عنه: أن الكفار سألوا رسول الله ﷺ آية فانشق القمر مرتين (١٥٢٤). وكذا عن ابن عباس وابن مسعود - رضي الله عنهما -، قال ابن عباس: انفلق فلقتين فلقة ذهب وفلقة بقيت^(١)

١٥٢٤ - ورد انشقاق القمر عن جماعة من أصحاب النبي - صلى الله عليه وسلم - وهم أنس بن مالك، وابن مسعود، وابن عمر، وجبير بن مطعم، وابن عباس. حديث أنس بن مالك:

أخرجه البخاري (٧٣٠/٦) كتاب المناقب: باب سؤال المشركين أن يريهم النبي - صلى الله عليه وسلم - آية فأراهم انشقاق القمر حديث (٣٦٣٧) وفي (٢٢١/٧) كتاب مناقب الأنصار: باب انشقاق القمر حديث (٣٨٦٨) وفي (٤٨٤/٨) كتاب التفسير: باب (وانشق القمر) حديث (٤٨٦٧)، (٤٨٦٨)، ومسلم (٢١٥٩/٤) كتاب صفات المنافقين: باب انشقاق القمر حديث (٢٨٠٢/٤٦) والترمذي (٣٩٧/٥) كتاب التفسير: باب ومن سورة القمر حديث (٣٢٨٦)، وأحمد (٢٧٥/٣)، (٢٧٨)، وأبو داود الطيالسي (١٢٣/٢) منحة رقم (٢٤٤٩)، والطبري في «تفسيره» (٥٤٤/١١) - (٥٤٥) رقم (٣٢٦٨٨ - ٣٢٦٩٣) وأبو يعلى (٣٠٦/٥) رقم (٢٩٢٩)، والطحاوي في «مشكل الآثار» (٣٠٣/١)، والبيهقي في «دلائل النبوة» (٢٦٢/٢ - ٢٦٣) من طرق عن قتادة عن أنس بن مالك أن أهل مكة سألوا رسول الله - صلى الله عليه وسلم - أن يريهم آية فأراهم انشقاق القمر مرتين».

وقال الترمذي: حديث حسن صحيح.

(١) أخرجه أبو نعيم في الدلائل، من رواية الكلبي عن أبي صالح عنه، وفي الصحيحين عنه: «انشق القمر على زمان رسول الله ﷺ».

= - حديث عبدالله بن مسعود:

أخرجه البخاري (٧٣٠/٦) كتاب المناقب: باب سؤال المشركين أن يريهم النبي - صلى الله عليه وسلم - آية فأراهم انشقاق القمر حديث (٣٦٣٦) وفي (٢٢١/٧) كتاب مناقب الأنصار: باب انشقاق القمر حديث (٣٨٦٩) وفي (٣٨٧١) وفي (٤٨٣/٨ - ٤٨٤) كتاب التفسير: باب (وانشق القمر) حديث (٤٧٦٤، ٤٨٦٥) ومسلم (٢١٥٨/٤ - ٢١٥٩) كتاب صفات المنافقين وأحكامهم باب انشقاق القمر حديث (٤٣، ٤٤، ٤٥/٢٨٠٠) والترمذي (٣٩٨/٥) كتاب التفسير: باب ومن سورة القمر حديث (٣٢٨٧) والطبري في «تفسيره» (٥٤٥/١١) رقم (٣٢٦٩٤، ٣٢٦٩٥) والحاكم (٢/٤٧١ - ٤٧٢) والبيهقي في «دلائل النبوة» (٢/٢٦٥) كلهم من طريق أبي معمر عن عبدالله بن مسعود قال: انشق القمر على عهد رسول الله - صلى الله عليه وسلم - فقال لنا النبي - صلى الله عليه وسلم -: اشهدوا.

وقال الترمذي: هذا حديث حسن صحيح.

وقال الحاكم: صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه بهذه السياقة إنما اتفقا على حديث أبي معمر عن عبدالله بن مسعود مختصرًا وهذا حديث لا نستغني فيه عن متابعة الصحابة بعضهم لبعض لمعاينة أهل الإلحاد فإنه أول آيات الشريعة أ. هـ. وللحديث طرق أخرى عن ابن مسعود.

فأخرجه الحاكم (٢/٤٧١) والطبري في «تفسيره» (٥٤٥/١١) رقم (٣٢٦٩٨) من طريق الأسود عن ابن مسعود وقال الحاكم: صحيح الإسناد ولم يخرجاه بهذه السياقة وبهذا اللفظ. ووافقه الذهبي

وهذا الطريق ذكره السيوطي في «الدر المنثور» (٦/١٧٦) وزاد نسبه إلى عبد بن حميد وابن مردويه وأبي نعيم في «الدلائل».

وأخرجه الطبري في «تفسيره» (٥٤٥/١١) رقم (٣٢٦٩٩) وأبو نعيم في «دلائل النبوة» (ص ٢٠٢) والبيهقي في «دلائل النبوة» (٢/٢٦٦) من طريق أبي الضحى عن مسروق عن ابن مسعود به. وذكره السيوطي في «الدر المنثور» (٦/١٧٦) وزاد نسبه إلى ابن المنذر وابن مردويه.

- حديث ابن عمر:

أخرجه مسلم (٢١٥٩/٤) كتاب صفات المنافقين: باب انشقاق القمر حديث (٢٨٠١) والترمذي (٣٩٨/٥) كتاب التفسير: باب ومن سورة القمر حديث (٣٢٨٨) والطبري في «تفسيره» (١١/٥٤٥) رقم (٣٢٦٩٦) والحاكم (٢/٤٧٢) وأبو نعيم في «الدلائل» (ص ٢٠١) والبيهقي (٢/٢٦٧) كلهم من طريق شعبة عن الأعمش عن مجاهد عن ابن عمر بمثل حديث ابن مسعود المتفق على صحته.

وقال الترمذي: هذا حديث حسن صحيح.

- حديث جبير بن مطعم:

أخرجه الترمذي (٣٩٨/٥) كتاب التفسير: باب ومن سورة القمر حديث (٣٢٨٩) والطبري في «تفسيره» (١١/٥٤٦) رقم (٣٢٧٠٥) من طريق حصين عن محمد بن جبير بن مطعم عن أبيه قال: انشق القمر على عهد رسول الله - صلى الله عليه وسلم - صار فرقتين على هذا الجبل وعلى هذا الجبل فقالوا: سحرنا محمد، فقال بعضهم: لئن كان سحرنا ما يستطيع أن يسحر الناس كلهم.

(١٥٢٥). وقال ابن مسعود: رأيت حراء بين فلقتي القمر^(١) (١٥٢٦). وعن بعض الناس: أن معناه ينشق يوم القيامة. وقوله: ﴿وَإِنْ يَرَوْا آيَةً يُعْرَضُوا وَيَقُولُوا سِحْرٌ مُّسْتَعْتَبٌ﴾ (٢) يردّه،

= وقال الترمذي: وقد روى بعضهم هذا الحديث عن حصين عن جبير بن محمد بن جبير بن مطعم عن أبيه عن جده جبير بن مطعم نحوه أ. هـ.

قلت: والطريق الذي أشار إليه الترمذي رحمه الله أخرجه الحاكم (٤٧٢/٢) والبيهقي في «الدلائل» (٢٦٨/٢).

وقال الحاكم: صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه. والحديث ذكره السيوطي في «الدر المنثور» (١٧٦/٦) وزاد نسبه إلى عبد بن حميد وأبي نعيم في «الدلائل».

- حديث ابن عباس:

أخرجه البخاري (٧٣٠/٦) كتاب المناقب: باب سؤال المشركين أن يريهم النبي - صلى الله عليه وسلم - آية فأراهم انشقاق القمر حديث (٣٦٣٨) وفي (٤٨٤/٨) كتاب التفسير: باب (وانشق القمر) حديث (٤٨٦٦) ومسلم (٢١٥٩/٤) كتاب صفات المنافقين: باب انشقاق القمر حديث (٢٨٠٣/٤٨) والحاكم (٤٧٢/٢) والطبري في «تفسيره» (٥٤٦/١١) رقم (٣٢٧٠٧) من طريق عراك بن مالك عن عبيد الله بن عبد الله عن ابن عباس قال: انشق القمر في عهد رسول الله - صلى الله عليه وسلم -.

تنبيهات

(١) صحح الحاكم رحمه الله حديث ابن عمر وابن عباس على شرط الشيخين وهذا منه وهم رحمه الله فحديث ابن عمر قد أخرجه مسلم وحديث ابن عباس قد اتفق الشيخان على إخرجه.

(٢) عزا السيوطي رحمه الله حديث أنس بن مالك وجبير بن مطعم إلى أبي نعيم في «الدلائل» ولم أجد حديث واحد منهما عنده بعد البحث والتحري.

(٣) الحديث من هذه الطرق يبلغ حد التواتر على شرط بعض العلماء.

وقال الحافظ: متفق عليه من رواية قتادة عن أنس - رضي الله عنه - انتهى.

١٥٢٥ - ينظر الحديث السابق وقال الحافظ:

أخرجه أبو نعيم في الدلائل، من رواية الكلبي عن أبي صالح عنه، وفي الصحيحين عنه: «انشق القمر على زمان رسول الله - صلى الله عليه وسلم -». انتهى

١٥٢٦ - ينظر حديث (١٥٢٤)

وقال الحافظ:

أخرجه ابن مردويه من رواية منصور عن زيد بن وهب عن ابن مسعود قال: «ولقد رأيت والله حراء بين الشقتين» وفي الصحيحين عن أبي معمر عنه: «بينما نحن مع رسول الله - صلى الله عليه وسلم - بمنى إذا انفلق القمر فلقتين، وكان فلقة وراء الجبل وفلقة دونه. فقال «اشهدوا» وفي الباب عن ابن عمر في مسلم. وعن جبير بن مطعم. عن الحاكم في المستدرک، وعند أحمد أيضًا. انتهى.

(١) أخرجه ابن مردويه من رواية منصور عن زيد بن وهب عن ابن مسعود قال: «ولقد رأيت والله حراء بين الشقتين»، وفي الصحيحين عن أبي معمر عنه «بينما نحن مع رسول الله ﷺ بمنى إذا انفلق القمر فلقتين، وكان فلقة وراء الجبل وفلقة دونه. فقال: «اشهدوا» وفي الباب عن ابن عمر في مسلم. وعن جبير بن مطعم عن الحاكم في المستدرک، وعن أحمد أيضًا.

وكفى به رأداً، وفي قراءة حذيفة «وقد انشق القمر» أي: اقتربت الساعة وقد حصل من آيات اقترابها أن القمر قد انشق، كما تقول: أقبل الأمير وقد جاء المبشر بقدمه. وعن حذيفة أنه خطب بالمدائن ثم قال: ألا إن الساعة قد اقتربت وإن القمر قد انشق على عهد نبيكم (١٥٢٧). مستمر: دائم مطرد، وكل شيء قد انقادت طريقته ودامت حاله، قيل فيه: قد استمر. لما رأوا تتابع المعجزات وترادف الآيات، قالوا: هذا سحر مستمر. وقيل: مستمر قوي محكم، من قولهم: استمر مريره^(١). وقيل: هو من استمر الشيء إذا اشتدت مرارته، أي: مستبشع عندنا، مرّ على لهواتنا، لا نقدر أن نسيغه كما لا يساغ المر الممقر^(٢). وقيل: مستمر ماز، ذاهب يزول ولا يبقى، تمنية لأنفسهم وتعليلاً. وقرئ: وإن يروا ﴿وَأَتَّبِعُوا أَهْوَاءَهُمْ﴾ وما زين لهم الشيطان من دفع الحق بعد ظهوره ﴿وَكُلُّ أَمْرٍ مُّسْتَقَرٌّ﴾ أي كل أمر لا بد أن يصير إلى غاية يستقر عليها، وإن أمر محمد سيصير إلى غاية يتبين عندها أنه حق، أو باطل وسيظهر لهم عاقبته. أو وكل أمر من أمرهم وأمره مستقر، أي: سيثبت ويستقر على حالة خذلان أو نصره في الدنيا، وشقاوة أو سعادة في الآخرة. وقرئ: بفتح القاف، يعني «كل أمر ذو مستقر» أي: ذو استقرار. أو ذو موضع استقرار أو زمان استقرار. وعن أبي جعفر: «مستقر» بكسر القاف والجرّ عطفاً على الساعة، أي: اقتربت الساعة واقترب كل أمر مستقر يستقر ويتبين حاله.

﴿وَلَقَدْ جَاءَهُمْ مِنَ الْأَنْبَاءِ مَا فِيهِ مُرْدَجَرٌ﴾ حِكْمَةٌ بَلِغَةٌ فَمَا تُغْنِ النُّذُرُ ﴿٥﴾
 فَوَلَّ عَنْهُمْ يَوْمَ يَدْعُ الدَّاعِ إِلَى شَيْءٍ نُّكْرٍ ﴿٦﴾ خُشْعًا أَبْصَرُهُمْ يَخْرُجُونَ مِنَ الْأَجْدَاثِ كَأَنَّهُمْ
 جَرَادٌ مُّنتَشِرٌ ﴿٧﴾ مُّهْطِعِينَ إِلَى الدَّاعِ يَقُولُ الْكَافِرُونَ هَذَا يَوْمٌ عَسِيرٌ ﴿٨﴾

﴿يَنَ الْأَنْبَاءِ﴾ من القرآن المودع أنباء القرون الخالية أو أنباء الآخرة، وما وصف من عذاب الكفار ﴿مُرْدَجَرٌ﴾ ازدجار أو موضع ازدجار. والمعنى: هو في نفسه موضع

١٥٢٧ - أخرجه الحاكم (٦٠٩/٤)

وقال: صحيح الإسناد ولم يخرجاه ووافقه الذهبي.

وقال الحافظ:

أخرجه الحاكم والطبراني وأبو نعيم من رواية ابن عُلَية عن عطاء بن السائب عن ابن عبد الرحمن بهذا وأتم منه ورواه عبد الرزاق من وجه آخر عن عطاء وكذا أخرجه أحمد من رواية شعبة عن عطاء. انتهى.

(١) قوله: «استمر مريره» في الصحاح «المريه»: الغريمة وما لطف وطال واشتد فتله من الحبال. (ع)

(٢) قوله: «كما يساغ المر الممقر» في الصحاح مقر الشيء وأمقر، أي: صار مرّاً. (ع)

الازدجار ومظنة له، كقوله تعالى: ﴿لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ﴾ [الأحزاب: ٢١] أي: هو أسوة. وقرئ: «مزجر» بقلب تاء الافتعال زايًا وإدغام الزاي فيها ﴿حِكْمَةً بَلِغَةً﴾ بدل من ما. أو على: هو حكمة. وقرئ بالنصب حالاً من ما. فإن قلت: إن كانت ما موصولة ساغ لك أن تنصب «حكمة» حالاً، فكيف تعمل إن كانت موصوفة؟ وهو الظاهر. قلت: تخصصها الصفة؛ فيحسن نصب الحال عنها ﴿فَمَا تَتَنَزَّلُ﴾ نفي أو إنكار. وما منصوبة، أي: فأني غناء تغني النذر ﴿فَتَوَلَّ عَنْهُمْ﴾ لعلمك أن الإنذار لا يغني فيهم. نصب ﴿يَوْمَ يَدْعُ الدَّاعِ﴾ بيخرجون، أو بإضمار اذكر. وقرئ: بإسقاط الياء اكتفاء بالكسرة عنها، والداعي إسرافيل أو جبريل، كقوله تعالى: ﴿يَوْمَ يَأْتِ الْنَادِ﴾ [ق: ٤١] ﴿إِلَى شَيْءٍ نُّكَرٍ﴾ منكر فظيع تنكره النفوس لأنها لم تعهد بمثله وهو هول يوم القيامة. وقرئ: «نكر» بالتخفيف؛ ونكر بمعنى أنكر/ ٢/ ٢٠٣ أ ﴿خُشَعًا أَبْصَرَهُمْ﴾ حال من الخارجين فعل للأبصار وذكر، كما تقول: يخشع أبصارهم. وقرئ: «خاشعة» على: تخشع أبصارهم. وخشعاً، على: يخشعن أبصارهم، وهي لغة من يقول: أكلوني البراغيث، وهم طيء. ويجوز أن يكون في ﴿خُشَعًا﴾ ضميرهم، وتقع ﴿أَبْصَرَهُمْ﴾ بدلاً عنه. وقرئ: خشع أبصارهم، على الابتداء والخبر، ومحل الجملة النصب على الحال. كقوله [من البسيط]:

وَجَدْتُهُ حَاضِرَاهُ الْجُودَ وَالْكَرَمُ^(١)

وخشوع الأبصار: كناية عن الذلة والانخزال، لأن ذلة الدليل وعزة العزيز تظهران في عيونهما. وقرئ: يخرجون من الأجداث؛ من القبور ﴿كَأَنَّهُمْ جَرَادٌ مُنْتَشِرٌ﴾ الجراد مثل في الكثرة والتموج. يقال في الجيش الكثير المائج بعضه في بعض: جاءوا كالجراد، وكالدبا^(٢) منتشر في كل مكان لكثرتهم ﴿مُهْطِعِينَ إِلَى الدَّاعِ﴾ مسرعين ماذي أعناقهم إليه. وقيل: ناظرين إليه لا يقلعون بأبصارهم. قال [من الطويل]:

تَعَبَّدَنِي نَمْرُ بْنُ سَعْدٍ وَقَدْ أَرَى وَنَمْرُ بْنُ سَعْدٍ لِي مُطِيعٌ وَمُهْطِعٌ^(٣)

(١) إن الذي كنت أرجو فضل نائله وجدته حاضراه الجود والكرم

يقول: إن الذي كنت أرجو بقية عطائه أو زيادة عطائه - وجدته مصاحباً للجود والكرم. وهما مبتدأ خبره حاضراه، والجملة محلها نصب مفعول ثان، وحضورهما: كناية عن قيامهما به.

(٢) قوله: «كالجراد وكالدبا»، في الصحاح «الدبا» الجراد قبل أن يطير، والواحدة دابة. (ع)

(٣) الكلام على حذف حرف الاستفهام الإنكاري، أي: أيتخذني عبداً هذا الرجل، وحذف مفعول أرى لدلالة الحال عليه، وهو قوله: ونمر بن سعد مطيع لي ومهطع، أي: منتظر أمري ليمثله، أو مسرع إلى امتثاله، وأظهر في مقام الإضمار تعجباً منه واستخفافاً بشأنه، ونمر: بسكون الميم.

ينظر: لسان العرب (عبد)، (نمر)، (هطع)، وديوان الأدب ٢/ ٣١٢، ومقاييس اللغة ٤/ ٢٠٦،

وكتاب العين ١/ ١٠١، ٢/ ٤٨، وأساس البلاغة (عبد)، (هطع)، وتهذيب اللغة ١/ ١٣٥، وتاج =

﴿كَذَبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ فَكَذَّبُوا عَبْدَنَا وَقَالُوا مَجْنُونٌ وَازْدُجِرَ﴾ ﴿٩﴾ فَدَعَا رَبَّهُ أَنِّي مَغْلُوبٌ فَأَنْتَصِرْ ﴿١٠﴾ فَفَتَحْنَا أَبْوَابَ السَّمَاءِ بِمَاءٍ مُنْهَمِرٍ ﴿١١﴾ وَفَجَّرْنَا الْأَرْضَ عُيُونًا فَالْتَقَى الْمَاءُ عَلَى أَمْرٍ قَدْ قُدِرَ ﴿١٢﴾ وَحَمَلْنَاهُ عَلَى ذَاتِ أَلْوَاحٍ وَدُسُرٍ ﴿١٣﴾ تَجْرِي بِأَعْيُنِنَا جَزَاءً لِمَن كَانَ كُفِرَ ﴿١٤﴾ وَلَقَدْ تَرَكْنَاهَا آيَةً فَهَلْ مِن مُّدَكِّرٍ ﴿١٥﴾ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرٍ ﴿١٦﴾ وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَكِّرٍ ﴿١٧﴾

﴿قَبْلَهُمْ﴾ قبل أهل مكة ﴿فَكَذَّبُوا عَبْدَنَا﴾ يعني نوحًا. فإن قلت: ما معنى قوله تعالى: ﴿فَكَذَّبُوا﴾ بعد قوله: ﴿كَذَبَتْ﴾^(١)؟ قلت: معناه: كذبوا فكذبوا عبدنا أي: كذبوه تكذيبًا على عقب تكذيب، كلما مضى منهم قرن مكذب تبعه قرن مكذب. أو كذبت قوم نوح الرسل فكذبوا عبدنا، أي: لما كانوا مكذبين بالرسل جاحدين للنبوة رأسًا كذبوا نوحًا؛ لأنه من جملة الرسل ﴿مَجْنُونٌ﴾ هو مجنون ﴿وَازْدُجِرَ﴾ وانتهروه بالشتم والضرب والوعيد بالرجم في قولهم ﴿لَتَكُونَنَّ مِنَ الْمَرْجُومِينَ﴾ [الشعراء: ١١٦] وقيل: هو من جملة قبيحهم، أي: قالوا هو مجنون، وقد ازدجرته الجن وتخبطته وذهبت بلبه وطارت بقلبه. قرئ: أني، بمعنى: فدعا بأني مغلوب، وإني: على إرادة القول، فدعا فقال: إني مغلوب^(٢) غلبي قومي، فلم يسمعوا مني واستحكم اليأس من إجابتهم لي ﴿فَأَنْتَصِرْ﴾ فانتقم منهم بعذاب تبعته عليهم، وإنما دعا بذلك بعد ما طمَّ عليه الأمر ببلغ السيل الربا^(٣)، فقد روي: أنَّ الواحد من أمته كان يلقاه فيخنقه حتى يخرَّ مغشيًا عليه. فيفيق وهو يقول: اللهم اغفر لقومي فإنهم لا

= العروس (نمر)، (هطم).

(١) قال محمود: «إن قلت: ما فائدة كذبوا بعد قوله: كذبت قبلهم قوم نوح... إلخ» قال أحمد: قد تقدم كلامه على قوله تعالى: ﴿وَكَذَّبَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَمَا بَلَّغُوا مَعْشَارَ مَا آتَيْنَاهُمْ فَكَذَّبُوا رُسُلِي﴾ وأجاب عنه بجوابين: أحدهما متعذر ههنا، والآخر: ممكن وهو أن ذلك كقول القائل: أقدم فلان على الكفر فكفر - بمحمد عليه الصلاة والسلام -، وقد مضى لي جوابان: أحدهما: يمكن إجراؤه هنا، وحاصله منع ورود السؤال؛ لأن الأول مطلق والثاني مقيد؛ فليس تكرارًا. وهو كقوله في هذه السورة: (فتعاطى فعقر) فإن تعاطيه هو نفس عقره، ولكن ذكره من جهة عمومته، ثم من ناحية خصوصه إسهابًا، وهو بمثابة ذكره مرتين، وجواب آخر هنا: وهو أن المكذب أولاً محذوف دل عليه ذكر نوح، فكأنه قال: كذبت قوم نوح نوحًا، ثم جاء بتكذيبهم ثانيًا مضافًا إلى قوله: (عبدنا) فوصف نوحًا بخصوص العبودية، وأضافه إليه إضافة تشريف؛ فالتكذيب المخبر عنه ثانيًا أشبع عليهم من المذكور أولاً لتلك اللمحة، والله أعلم.

(٢) قوله: «فدعا فقال: إني مغلوب» لعله: أي فدعا فقال. (ع)

(٣) قوله: «وبلغ السيل الربا» لعله جمع ربوة، وهي ما ارتفع من الأرض كالرابية. أفاده الصحاح؛ لكن فيه في حرف الزاي: والزبية الرابية لا يعلوها الماء. وفي المثل: قد بلغ السيل الزبى. والزبية: حفرة تحفر للأسد في موضع عال لأجل صيده. اهـ ملخصًا. (ع)

يعلمون. وقرئ: ففتحنا مخففاً ومشدداً، وكذلك وفجرنا ﴿مُنْهَرٍ﴾ منصّب في كثرة وتتابع لم ينقطع أربعين يوماً ﴿وَفَجَّرْنَا الْأَرْضَ عُيُونًا﴾ وجعلنا الأرض كلها كأنها عيون تتفجر، وهو أبلغ من قولك: وفجرنا عيون الأرض ونظيره في النظم ﴿وَأَشْتَعَلَ الْأَرِئُسُ شَيْبًا﴾ [مريم: ٤]. ﴿فَالْتَفَى أَلْمَاءُ﴾ يعني مياه السماء والأرض. وقرئ: «الماءان»، أي: النوعان من الماء السماوي والأرضي. ونحوه قولك: عندي تمران، تريد: ضربان من التمر: برني ومعقلي. قال [من الطويل]:

لَنَا إِبْلَانٍ فِيهِمَا مَا عَلِمْتُمْ (١)

وقرأ الحسن «الماوان»، بقلب الهمزة واواً، كقولهم: علباوان ﴿عَلَى أَمْرٍ قَدْ قُدِرَ﴾ على حال قدرها الله كيف شاء. وقيل: على حال جاءت مقدرة مستوية: وهي أن قدر ما أنزل من السماء كقدر ما أخرج من الأرض سواء بسواء. وقيل: على أمر قد قدر في اللوح أنه يكون، وهو هلاك قوم نوح بالطوفان ﴿عَلَى ذَاتِ الْوَجِّ وَدُسِرَ﴾ أراد السفينة، وهي من الصفات التي تقوم مقام الموصوفات فتنبئ منابها وتودي مؤداها. بحيث لا يفصل بينها وبينها. ونحوه [من الخفيف]:

..... وَلَكِنْ قَمِصِي مَسْرُودَةٌ مِنْ حَدِيدٍ (٢)

أراد: ولكن قميصي درع، وكذلك [من الطويل]:

(١) لنا إبلان فيهما ما علمتم فعن أيهما ما شئتم فتنكبوا؟

يقول: لنا قطيعان من الإبل فيهما قرى الأضياف وصلة الفقراء، فاحملوا ما شئتم منهما على منابككم، أي: خذوه وافصلوه عن الباقي. أو المعنى: اعدلوا عنهما وانصرفوا عما أردتموه منهما في منابك الأرض، فإننا حماه. وأيهما: بالسكون لغة في أي المشددة. وما شئتم: بدل منه. ويجوز أن «ما» زائدة، أي: ففي أيهما شئتم فانصرفوا في منابك الأرض وطرقها مبعدين عنهما. ويجوز أن «ما شئتم» مفعول به، أو مفعول مطلق مقدم على عامله، والفاء الثانية تكرير للأولى. ويجوز أنها إشارة إلى ما في المعمول من معنى الشرط، أي: فلما عن أيهما، أو فلما ما شئتم فتنكبوا، أي: تجنبوا.

وهو لشعبة بن قميّر في شرح شواهد الإيضاح ص ٥٦١، ولعوف بن عطية في الأصمعيّات ص ١٦٧ (بتغيير القافية، فيه «فسالما» مكان «فتنكبوا»)، وبلا نسبة في خزانة الأدب ٥٦٤/٧، ٥٨٠، وشرح المفصل ١٥٤/٤، ولسان العرب (نكب).

(٢) مفرشي صهوة الحصان ولكث قميصي مسرودة من حديد

الصهوة: مقعد الفارس من ظهر الفرس. يقول: مفرشي ظهر حصاني. وقميصي: درع من حديد متباعدة النسج، يعني أنه ليس من أهل التنعيم، بل من أهل البدو والغزو. والاستدراك من باب استتباع المدح بما يشبه الذم، مبالغة في المدح. البيت للمتنبي، ينظر: ديوانه ٦٣/١، الدر المنصور (٢٢٧/٦).

..... وَلَوْ فِي عُيُونِ النَّازِيَّاتِ بِأَكْرَعٍ^(١)

أراد: ولو في عيون الجراد. ألا ترى أنك لو جمعت بين السفينة وبين هذه الصفة، أو بين الدرع والجراد وهاتين الصفتين، لم يصح، وهذا من فصيح الكلام وبديعه. والدرس: جمع دسار: وهو المسمار، فعال من دسره إذا دفعه؛ لأنه يدرس به منفذه ﴿جَزَاءٌ﴾ مفعول له لما قدم من فتح أبواب السماء وما بعده، أي فعلنا ذلك جزاء، ﴿لَئِنْ كَانَ كُفْرٌ﴾ وهو نوح - عليه السلام -، وجعله مكفوراً لأن النبي نعمة من الله ورحمة. قال الله تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ﴾ [الأنبياء: ١٠٧] فكان نوح - عليه السلام - نعمة مكفورة، ومن هذا المعنى ما يحكى أن رجلاً قال للرشيد: الحمد لله عليك، فقال: ما معنى هذا الكلام؟ قال: أنت نعمة حمدت الله عليها. ويجوز أن يكون على تقدير حذف الجار وإيصال الفعل. وقرأ قتادة: كفر، أي جزاء للكافرين. وقرأ الحسن «جزاء»، بالكسر: أي مجازاة. الضمير في ﴿تَرَكْنَهَا﴾ للسفينة. أو للفعله، أي: جعلناها آية يعتبر بها. وعن قتادة: أبقاها الله بأرض الجزيرة. وقيل: على الجودي دهرًا طويلاً، ٢٠٣/٢ ب حتى نظر إليها أوائل هذه الأمة. والمذكر: المعتبر. وقرئ: «مذتكر» على الأصل. ومذكر، بقلب التاء ذالاً وإدغام الذال فيها. وهذا نحو: مذجر. والنذر: جمع نذير وهو الإنذار ﴿وَلَقَدْ سَبَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ﴾ أي سهلناه للدكار والانتعاض، بأن شحناه بالمواعظ الشافية وصرفنا فيه من الوعد والوعيد ﴿فَهَذَا مِنْ﴾ متعظ. وقيل: ولقد سهلناه للحفظ وأعنا عليه من أراد حفظه، فهل من طالب لحفظه ليعان عليه. ويجوز أن يكون المعنى: ولقد هيأناه للذكر، من يسر ناقتة للسفر: إذا رحلها، ويسر فرسه للغزو: إذا أسرجه وألجمه. قال [من الطويل]:

وَقَمْتُ إِلَيْهِ بِاللَّجَامِ مُيَسَّرًا هُنَالِكَ يَجْزِينِي الَّذِي كُنْتُ أَصْنَعُ^(٢)

(١) وإنني لاستوفي حقوقي جاهداً ولو في عيون النازيات بأكرع

يقول: ولا بد من الاجتهاد في تخليص حقوقي وأخذها، ولو كانت في أخفى مكان وأبعده كعيون الجراد النازيات الواثبات بأكرع، أي أرجل دقيقة جمع كراع: فحذف الموصوف وكنى عنه بالنازيات صفته لجريانها مجرى الاسم. وقيل: المعنى لا بد من أخذ إبلي ولو كانت هزلاً جداً بحيث ترى في عيون الجراد لصغرها، أي: ولو كانت كأنها كذلك. ينظر: الدر المصون (٢٢٧/٦).

(٢) أرى أم سهل لا تزال تفجع تلوم وما أدري علام توجع

وما تستوي والورد ساعة تفزع

إذا هي قامت حاسراً مشمعة

وقمت إليه باللجام ميسراً

للأعرج المعنى الخارجي. وتفجع وتوجع: أصلها بناءين حذف إحداهما تخفيفاً. وعلام: استفهام عن علة التوجع. وأمنح: أعطى والورد: اسم فرسه. واللقة: اللبن الحليب. والحاسر: العريانة =

ويروى: أن كتب أهل الأديان نحو التوراة والإنجيل لا يتلوها أهلها إلا نظراً ولا يحفظونها ظاهراً كما القرآن.

﴿كَذَّبَتْ عَادٌ فَكَيْفَ كَانَ عَدَايَ وَنَذِيرِ﴾ (١٨) إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِم رِيحًا صَرْصَرًا فِي يَوْمِ نَحْسٍ مُّسْتَمِرٍّ (١٩) تَنْزِعُ النَّاسَ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ مُّنْقَعِرٍ (٢٠) فَكَيْفَ كَانَ عَدَايَ وَنَذِيرِ (٢١) وَلَقَدْ بَشَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُّذَكِّرٍ (٢٢)

﴿وَنَذِيرٍ﴾ وإنذاري لهم بالعذاب قبل نزوله. أو إنذار أتى في تعذيبهم لمن بعدهم ﴿فِي يَوْمِ نَحْسٍ﴾ في يوم شؤم. وقرئ: «في يوم نحس» كقوله: ﴿فِي أَيَّامٍ نَّحْسَاتٍ﴾. [فصلت: ١٦]. ﴿مُسْتَمِرٍّ﴾ قد استمر عليهم ودام حتى أهلكهم. أو استمر عليهم جميعاً كبيرهم وصغيرهم، حتى لم يبق منهم نسمة، وكان في أربعمائة في آخر الشهر لا تدور. ويجوز أن يريد بالمستمر: الشديد المرارة والبشاعة ﴿تَنْزِعُ النَّاسَ﴾ تقلعهم عن أماكنهم، وكانوا يصطفون آخذين أيديهم بأيدي بعض^(١). يتدخلون في الشعاب، ويحفرون الحفر فيندسون فيها فتزعهم وتكبههم وتذق رقابهم ﴿كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ مُّنْقَعِرٍ﴾ يعني أنهم كانوا يتساقطون على الأرض أمواتاً وهم جثث طوال عظام، كأنهم أعجاز نخل وهي أصولها بلا فروع، منقعر: منقلع، عن مغارسه. وقيل: شبهوا بأعجاز النخل، لأن الريح كانت تقطع رؤوسهم فتبقى أجساداً بلا رؤوس. وذكر صفة ﴿نَخْلٍ﴾ على اللفظ، ولو حملها على المعنى لأنث، كما قال: ﴿أَعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ﴾ [الحاقة: ٧].

﴿كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِالنَّذِيرِ﴾ (٢٣) فَقَالُوا أَإِشْرًا مِّنَّا وَحَدًّا نَّبِيعُهُ إِنَّا إِذَا لَفِيَ ضَلَالٍ وَسُعُرٍ (٢٤) أَلُمْلِقَ الذِّكْرُ عَلَيْهِ مِنْ بَيْنِنَا بَلْ هُوَ كَذَّابٌ أَشِرٌّ (٢٥) سَيَعْمُونَ عَلَانًا مِّنَ الْكَذِّبِ الْآثِرِ (٢٦) إِنَّا مُرْسِلُوا النَّاقَةِ فَنَنَّةٌ لَهُمْ فَازِقَتِهِمْ وَأَصْطَبِرُ (٢٧) وَيَنْتَهَمُ أَنْ أَلْمَأَ فِسْمَةً بَيْنَهُمْ كُلٌّ شِرْبٍ مُّحْضَرٍّ (٢٨) فَنادَوْا صَاحِبَهُمْ فَتَعَاطَى فَعَقَرَ (٢٩) فَكَيْفَ كَانَ عَدَايَ وَنَذِيرِ (٣٠) إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ صَيَّحَةً وَاحِدَةً فَكَانُوا كَهَشِيمِ الْحَخِيطِ (٣١) وَلَقَدْ بَشَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُّذَكِّرٍ (٣٢)

= الوجه. والمشمعلة: السريعة الجري. والنخب: الخالية المجوفة. والمراد: التي ذهب عقلها ورأسها، ما يقطع: أي ما يستر بالقناع لدهشتها وخجلتها. وقوله: «الورد الأول» مفعول به، والثاني مفعول معه: هذا حال أم سهل. وأما حال مهره، فبينها في قوله: وقمت إليه مهيناً ومعداً له باللجام. أو مسهلاً له به، دلالة على أنه كان صعباً لولا اللجام. وهنالك إشارة إلى مكان الحرب، أو إلى زمانها، يجزني: أي يعطيني جزاء صني معي، وشبهه بمن تصح منه المجازاة على طريق المكنية، وصنعه: هو سقيه اللبن.

ينظر: البحر المحيط (١٧٨/٨)، الدر المصون (٢٢٨/٦).

(١) قوله: «آخذين أيديهم بأيدي بعض» عبارة النسفي: آخذين بعضهم بأيدي بعض. (ع)

﴿أَبْشِرْنَا وَحَدًّا﴾ نصب بفعل مضمر يفسره ﴿تَتَّبِعُهُ﴾ وقرئ: «أبشر منا واحد»، على الابتداء. «ونتبعه» خبره، والأوّل أوجه للاستفهام. كأن يقول: إن لم تتبعوني كنتم في ضلال عن الحق، وسعر: ونيران، جمع سكير، فعكسوا عليه فقالوا: إن اتبعناك كنا إذن كما تقول. وقيل: الضلال: الخطأ والبعد عن الصواب. والسعر: الجنون. يقال: ناقة مسعورة. قال [من الطويل]:

كَأَنَّ بِهَا سُغْرًا إِذَا الْعَيْسُ هَزَّهَا ذَمِيلٌ وَإِرْخَاءٌ مِنَ السَّيْرِ مُثْعَبٌ^(١)

فإن قلت: كيف أنكروا أن يتبعوا بشرًا منهم واحدًا؟ قلت: قالوا أبشرا: إنكارًا لأن يتبعوا مثلهم في الجنسية، وطلبوا أن يكون من جنس أعلى من جنس البشر وهم الملائكة^(٢)، وقالوا: ﴿يَتَنَا﴾ لأنه إذا كان منهم كانت المماثلة أقوى، وقالوا: ﴿وَحَدًّا﴾ إنكارًا لأن تتبع الأمة رجلًا واحدًا. أو أرادوا واحدًا من أفئتهم^(٣) ليس بأشرفهم وأفضلهم، ويدل عليه قولهم: ﴿أَلَيْسَ الذِّكْرُ عَلَيَّ مِنْ يَتِينَا﴾ أي أنزل عليه الوحي من بيننا وفينا من هو أحق منه بالاختيار للنبوّة ﴿أَشِيرُ﴾ بطر متكبر، حمله بطره وشطارته وطلبه التعظم علينا على ادعاء ذلك ﴿سَيَعْمُونَ عَدَا﴾ عند نزول العذاب بهم أو يوم القيامة ﴿مَنْ أَلْكَذَّابُ الْآيُرِ﴾ أصلح أم من كذبه. وقرئ: «ستعلمون» بالتاء على حكاية ما قال لهم صالح مجيبًا لهم. أو هو كلام الله تعالى على سبيل الالتفات. وقرئ: الأشر، بضم الشين، كقولهم حدث وحدث. وحذر وحذر، وأخوات لها. وقرئ: الأشر، وهو الأبلغ في الشرارة. والأخير والأشر: أصل قولهم: هو خير منه وشر منه، وهو أصل مرفوض، وقد حكى ابن الأنباري قول العرب: هو أخير وأشر، وما أخيره وما أشره ﴿مُرْسِلُوا النَّاقَةَ﴾ باعثوها ومخرجوها من الهضبة^(٤) كما سألوا ﴿وَيَنَنَّهُ لَهُمْ﴾ امتحانًا لهم وابتلاء ﴿فَارْقَبْهُمْ﴾ فانظرهم وتبصر ما هم صانعون ﴿وَأَسْطَرِ﴾ على أذاهم ولا تعجل حتى يأتيك أمري ﴿فَسَمَةُ يَتِيمٍ﴾ مقسوم بينهم: لها شرب يوم ولهم شرب يوم. وإنما قال: بينهم، تغليبًا للعقلاء «محتضر» محذور لهم أو للناقة. وقيل: يحضرون الماء في نوبتهم واللبن في نوبتها ﴿صَاحِبِمْ﴾ قدار بن سالف

(١) السعر: الجنون، والمسعور: المجنون والذي ضربته السموم. يقول: كأن بناقتي جنون لقوة سيرها؛ فالعيس: جمع عيساء وهي النوق البيض، حركها ذميل وإرخاء: وهما نوعان من السير متعب كل منهما. وإسناد الهز إليهما مجاز عقلي من باب الإسناد للسبب؛ وإن أريد بالهز التسيير فيكون من الإسناد للمصدر. كجد جده؛ لكن المسند هنا من المتعدي، والمسند إليه من اللازم.

(٢) قوله: «أعلى من جنس البشر وهم الملائكة» تفضيل الملك على البشر مذهب المعتزلة. وأهل السنة يفضلون البشر على الملك. (ع)

(٣) قوله: «واحدًا من أفئتهم» وفي الصحاح: يقال هو من أفناء الناس، إذا لم يعلم ممن هو. اهـ، ولم يذكر له واحدًا. (ع)

(٤) قوله: «ومخرجوها من الهضبة» في الصحاح «الهضبة» الجبل المنبسط على وجه الأرض. (ع)

أحيمر ثمود ﴿فَتَعَاطَى﴾ فاجترأ على تعاطي الأمر العظيم غير مكترث له، فأحدث العقر بالناقفة. وقيل فتعاطى الناقفة فعقرها، أو فتعاطى السيف ﴿صَبَّحَهُ وَجِدَةً﴾ صبيحة جبريل. والهشيم؛ الشجر اليابس المتهشم المتكسر. والمحتظر: الذي يعمل الحظيرة وما/ ٢/ ٢٠٤ يحظر به ييس بطول الزمان وتتوطؤه البهائم فيتحطم ويتهشم. وقرأ الحسن بفتح الظاء وهو موضع الاحتظار، أي: الحظيرة.

﴿كَذَبَتْ قَوْمٌ لُوطًا بِالنَّذْرِ﴾ (٣٢) ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ حَاصِبًا إِلَّا آلَ لُوطٍ نَّجَّيْنَاهُمْ بِسَحَرٍ﴾ (٣٤) نِعْمَةً مِّنْ عِندِنَا كَذَلِكَ نَجْزِي مَنْ شَكَرَ ﴿٣٥﴾ وَلَقَدْ أَنْذَرَهُمْ بَطْشَتَنَا فَتَمَارَوْا بِالنَّذْرِ ﴿٣٦﴾ وَلَقَدْ رَاودُوهُ عَنْ صَيفِيهِ فَطَمَسْنَا أَعْيُنَهُمْ فَذُوقُوا عَذَابِي وَنُذِرَ ﴿٣٧﴾ وَلَقَدْ صَبَّحَهُمْ بُكْرَةً عَذَابٌ مُّسْتَقَرٌّ ﴿٣٨﴾ فَذُوقُوا عَذَابِي وَنُذِرَ ﴿٣٩﴾ وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَكِّيرٍ ﴿٤٠﴾

﴿حَاصِبًا﴾ ريحا تحصبهم بالحجارة، أي: ترميهم ﴿سَحَرٍ﴾ بقطع من الليل، وهو السدس الأخير منه. وقيل: هما سحران، فالسحر الأعلى قبل انصداع الفجر، والآخر عند انصداعه، وأنشد [من الرجز]:

مَرَّتْ بِأَعْلَى السَّحَرَيْنِ تَذَالُ^(١)

وصرف لأنه نكرة. ويقال: لقيته سحر: إذا لقيته في سحر يومه ﴿نِعْمَةً﴾ إنعامًا، مفعول له ﴿مَنْ شَكَرَ﴾ نعمة الله بإيمانه وطاعته ﴿وَلَقَدْ أَنْذَرَهُمْ﴾ لوط - عليه السلام - ﴿بَطْشَتَنَا﴾ أخذتنا بالعذاب ﴿فَتَمَارَوْا﴾ فكذبوا ﴿بِالنَّذْرِ﴾ متشاكين ﴿فَطَمَسْنَا أَعْيُنَهُمْ﴾ فمسخناها وجعلناها كسائر الوجه لا يرى لها شق. روي أنهم لما عالجوا باب لوط - عليه السلام - ليدخلوا قالت الملائكة خلهم يدخلوا، ﴿إِنَّا رُسُلُ رَبِّكَ لَنَ يَصِلُوا إِلَيْكَ﴾ [هود: ٨١] فصفقهم جبريل - عليه السلام - بجناحه صفقة فتركهم يترددون لا يهتدون إلى الباب حتى أخرجهم لوط ﴿فَذُوقُوا﴾ فقلت لهم: ذوقوا على ألسنة الملائكة ﴿بُكْرَةً﴾ أول النهار وباكراه، كقوله: مشرقين، ومصبحين. وقرأ زيد بن - علي رضي الله عنهما -: «بكرة»، غير منصرفة، وتقول: أتيت بكرة وغدوة بالتنوين. إذا أردت التنكير، وبغيره إذا عرفت وقصدت

(١) يا سائلي إن كنت عنها تسأل مرت بأعلى السحرين تذال

يقول: يا من تسألني إن كنت تسألني عن الحمر الوحشية لا غير، فقد مرت بأعلى السحرين وهو السحر الذي قبل انصداع الفجر. والأدنى: هو الذي عند انصداعه، أي مرت في السحر الأول تذال بالهمز، أي: تسرع في المشي من ذال كمنع: إذا مشى في خفة. ومنه: ذؤالة الذئب، وبين تسأل وتذال الجنس المضارع.

ينظر: لسان العرب (سحر)، (ذال)، وتهذيب الغة ٢٩٣/٤، وتاج العروس (سحر)، (ذال)، وجمهرة اللغة ص ١٠٩٧، والمخصص ٤٧/٩، وكتاب العين ١٣٦/٣، ١٩٨/٨.

بكرة نهارك وغدوته ﴿عَذَابٌ مُّسْتَقَرٌّ﴾ ثابت قد استقرّ عليهم إلى أن يفضي بهم إلى عذاب الآخرة. فإن قلت: ما فائدة تكرير قوله ﴿فَذُوقُوا عَذَابِي وَنُذِرْ وَلَقَدْ يَسْرَنَ الْفَرَّءَ أَنْ لِلذِّكْرِ فَهْلٌ مِّنْ مُّذَكِّرٍ﴾ (١٧)؟ قلت: فائدته أن يجددوا عند استماع كل نبيّا من أنباء الأولين اذكّارًا واتعاظًا، وأن يستأنفوا تنبهاً واستيقاظًا، إذا سمعوا الحث على ذلك والبعث عليه، وأن يقرع لهم العصا مرات، ويقعق لهم الشن^(١) تارات؛ لئلا يغلبهم السهو ولا تستولي عليهم الغفلة، وهكذا حكم التكرير، كقوله: ﴿فَأَيُّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ (١٢) [الرحمن: ١٣] عند كل نعمة عدها في سورة الرحمن، وقوله: ﴿وَلَيْلٌ يُّؤَمِّدُ لِلْمُكَذِّبِينَ﴾ (١٥) [المرسلات: ١٥] عند كل آية أوردها في سورة والمرسلات، وكذلك تكرير الأنباء والقصص في أنفسها لتكون تلك العبر حاضرة للقلوب. مصورة للأذهان، مذكورة غير منسية في كل أوان.

﴿وَلَقَدْ جَاءَ آلَ فِرْعَوْنَ النُّذُرُ﴾ (٤١) ﴿كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا كُلِّهَا فَأَخَذْنَاهُمْ أَخَذَ عَزِيزٌ مُّقَدِّرٌ﴾ (٤٢)

﴿النُّذُرُ﴾ موسى وهرون وغيرهما من الأنبياء، لأنهما عرضا عليهم ما أنذر به المرسلون. أو جمع نذير وهو الإنذار ﴿بِآيَاتِنَا كُلِّهَا﴾ بالآيات التسع ﴿أَخَذَ عَزِيزٌ﴾ لا يغالب ﴿مُقَدِّرٌ﴾ لا يعجزه شيء.

﴿أَكْفَارُكُمْ خَيْرٌ مِّنْ أُولَئِكَ أَمْ لَكُمْ بَرَاءَةٌ فِي الزُّبُرِ﴾ (٤٣) أَمْ يَقُولُونَ نَحْنُ جَمِيعٌ مُّنْتَصِرٌ ﴿٤٤﴾ سَيَهْرَمُ الْجَمْعُ وَيُولُونَ الدُّبُرَ ﴿٤٥﴾ بَلِ السَّاعَةُ مَوْعِدُهُمْ وَالسَّاعَةُ أَذَى وَأَمْرٌ ﴿٤٦﴾

﴿أَكْفَارُكُمْ﴾ يا أهل مكة ﴿خَيْرٌ مِّنْ أُولَئِكَ﴾ الكفار المعدودين: قوم نوح وهود وصالح ولوط وآل فرعون، أي أهم خير قوة وآلة ومكانة في الدنيا. أو أقل كفراً وعناداً يعني: أن كفاركم مثل أولئك بل شرّ منهم ﴿أَمْ﴾ أنزلت عليكم يا أهل مكة ﴿بَرَاءَةٌ﴾ في الكتب المتقدمة. أن من كفر منكم وكذب الرسل كان آمناً من عذاب الله، فأمنتم بتلك البراءة ﴿نَحْنُ جَمِيعٌ﴾ جماعة أمرنا مجتمع ﴿مُنْتَصِرٌ﴾ ممتنع لا نرام ولا نضام. وعن أبي جهل أنه ضرب فرسه يوم بدر، فتقدّم في الصف وقال: نحن ننتصر اليوم من محمد وأصحابه، فنزلت ﴿سَيَهْرَمُ الْجَمْعُ﴾ عن عكرمة: لما نزلت هذه الآية قال عمر: أي جمع يهزم، فلما رأى رسول الله ﷺ يشب في الدرع ويقول: «سيهزم الجمع» عرف تأويلها (١٥٢٨) ﴿وَيُولُونَ﴾

١٥٢٨ - ١) أخرجه عبدالرزاق في تفسيره (٢٥٩/٣)، وابن جرير الطبري (٥٦٧/١١) (٣٢٨٢٣) كلاهما من طريق معمر عن أيوب قال: لا أعلمه إلا عن عكرمة أن عمر قال لما نزلت: «سيهزم» =

(١) قوله: «ويقعق لهم الشن» القرية الخلق، كذا في الصحاح. (ع)

الدُّبْرِ ﴿٤٦﴾ أي الأدبار كما قال [من الوافر]:

كُلُوا فِي بَغْضِ بَطْنِكُمْ تَعْفُوا (١)

وقرى: «الأدبار» ﴿أَذْهَى﴾ أشد وأفظع. والداهية: الأمر المنكر الذي لا يهتدى لدوائه ﴿وَأَمَّرُ﴾ من الهزيمة والقتل والأسر. وقرى: «سنهزم الجمع».

﴿إِنَّ الْمُجْرِمِينَ فِي ضَلَالٍ وَسُعُرٍ﴾ ﴿٤٧﴾ يَوْمَ يُسْحَبُونَ فِي النَّارِ عَلَى وُجُوهِهِمْ ذُوقُوا مَسَّ سَقَرَ ﴿٤٨﴾ إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ ﴿٤٩﴾ وَمَا أَمْرُنَا إِلَّا وَاحِدَةٌ كَلَمْحٍ بِالْبَصَرِ ﴿٥٠﴾

﴿فِي ضَلَالٍ وَسُعُرٍ﴾ في هلاك ونيران. أو في ضلال عن الحق في الدنيا، ونيران في الآخرة ﴿مَسَّ سَقَرَ﴾ كقولك: وجد مس الحمى وذاق طعم الضرب؛ لأن النار إذا أصابتهم بحرّها ولفحتهم بإيلامها، فكانها تمسهم مساً بذلك، كما يمس الحيوان ويباشر بما يؤدي ويؤلم. وذوقوا: على إرادة القول. و«سقر»: علم لجهنم. من سقرته النار وصقرته إذا لوحته. قال ذو الرمة [من الطويل]:

إِذَا ذَابَتِ الشَّمْسُ اتَّقَى صَقَرَاتِهَا بِأَفْنَانٍ مَرْبُوعِ الصَّرِيمَةِ مُغْبِلٍ (٢)

الجمع = ...

قلت: وهذا إسناده منقطع، فإن عكرمة لم يسمع من عمر

لكن للحديث شاهد من حديث ابن عباس.

أخرجه البخاري في صحيحه (١٣١٨) كتاب المغازي (٦٤) - حديث رقم (٣٩٥٣) وأحمد في مسنده (٣٢٩/١) والطبراني في الكبير (٣٤٨/١١) عن عكرمة عن ابن عباس قال: قال النبي - صلى الله عليه وسلم - يوم بدر «اللهم أنشدك عهدك ووعدك اللهم إن شئت لم تعبد» فأخذ أبو بكر بيده فقال: حسبك، فخرج وهو يقول «سيهزم الجمع ويولون الدبر» وحديث عمر عزاه الهيثمي في المجمع (٨١/٦) للطبراني في الأوسط وقال فيه محمد بن إسماعيل الأنصاري ولم أعرفه.

وعزاه السيوطي في الدر المنثور (١٨٤/٦) لابن أبي شيبة وابن راهويه وعبد بن حميد وابن المنذر وابن أبي حاتم وابن مردويه.

وقال الحافظ:

أخرجه عبدالرزاق عن معمر عن قتادة، وعن أيوب عن عكرمة «أن عمر - فذكره» وأتم منه. ورواه من هذا الوجه إسحاق، والطبري، وابن أبي حاتم، ورواه الطبري في الأوسط من رواية عبد المجيد بن أبي رواد عن معمر عن قتادة عن أنس عن عمر موصولاً. انتهى.

(١) تقدم.

(٢) لذي الرمة يصف بقر الوحش، يقال: ذابت الشمس إذا اشتد حرها حتى يتساقط من شعاعها مثل اللعاب، وصقر الصخرة بالمصقر: ضربها بالمعول ليكسرها. وصقرته الشمس: إذا ضربته فغيرت =

وعدم صرفها للتعريف والتأنيث ﴿كُلُّ شَيْءٍ﴾ منصوب بفعل مضمر يفسره الظاهر^(١) وقرئ: «كل شيء» بالرفع. والقدر والقدر: التقدير. وقرئ بهما، أي: خلقنا كل شيء مقدراً محكماً مرتباً على حسب ما اقتضته الحكمة. أو مقدراً مكتوباً في اللوح. معلوماً قبل كونه، قد علمنا حاله وزمانه ﴿وَمَا أَمْرُنَا إِلَّا وَجِدَةٌ﴾ إلا كلمة واحدة سريعة التكوين ﴿كَلِمَةٍ﴾ بِالْبَصْرِ أراد قوله كن، يعني أنه إذا ٢٠٤/٢ ب أراد تكوين شيء لم يلبث كونه.

﴿وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا أَشْيَاعَكُمْ فَهَلْ مِنْ مَّذَكِّيرٍ﴾ ﴿٥١﴾ و﴿كُلُّ شَيْءٍ فَعَلُوهُ فِي الزُّبُرِ﴾ ﴿٥٢﴾ و﴿كُلُّ صَغِيرٍ وَكَبِيرٍ مُسْتَطَرٌ﴾ ﴿٥٣﴾

= لونه. وصقرة الشمس: اشتداد وقعها على الأرض. والأفنان، جمع فن وهو مجتمع الورق الملفت المتكاثف في الغصن. والمربوع: الذي أصابه مطر الربيع. والصريمة: الرملة المتصرمة من الرمال. والمعليل: كثير الورق مفتوله. يقول: إذا اشتد حر الشمس توقى شدائده بأغصان شجر سقاء الربيع في هذا الموضع من الرمال. والمعليل: كثير الورق. ومعليل: بدل من مربوع، كأنه جامد. ويجوز أنه نعت له، على أن إضافته من إضافة الوصف إلى الظرف، فلا تفيد التعريف، فيصح وصفه بالنكرة.

ينظر: ديوانه ص ١٤٥٨، ولسان العرب (ذوب)، (صقر)، (ربيع)، (عبل)، وتهذيب اللغة ٢/ ٣٧٥، ٤٠٩، ٣٦٥/٨، ٢١/١٥، وتاج العروس (ذوب)، (صقر)، (عبل)، وأساس البلاغة (ذوب)، وكتاب العين ٦٠/٥، وبلا نسبة في جمهرة اللغة ص ٣٦٦، ومقاييس اللغة ٢/ ٣١٤، ٣/ ٢٩٧.

(١) قال محمود: «منصوب بمضمر يفسره الظاهر» قال أحمد: كان قياس ما مهدد النحاة: اختيار رفع (كل) لكن لم يقرأ بها واحد من السبعة، وإنما كان كذلك؛ لأن الكلام مع الرفع جملة واحدة، ومع النصب جملتان، فالرفع أخصر، مع أنه لا مقتضى للنصب ههنا من أحد الأصناف الستة، أعني: الأمر، والنهي... إلى آخرها، ولا أجد هنا مناسب عطف ولا غيره مما يعدونه من محال اختيارهم للنصب، فإذا تبين ذلك فاعلم أنه إنما عدل عن الرفع إجماعاً لسر لطيف يعين اختيار النصب: وهو أنه لو رفع لوقعت الجملة التي هي: (خلقناه) صفة لشيء، ورفع قوله: (بقدر) خبراً عن كل شيء المقيد بالصفة، وبحصل الكلام على تقدير: إنا كل شيء مخلوق لنا بقدر، فأفهم ذلك أن مخلوقاً ما يضاف إلى غير الله تعالى ليس بقدر، وعلى النصب يصير الكلام: إنا خلقنا كل شيء بقدر، فيفيد عموم نسبة كل مخلوق إلى الله تعالى، فلما كانت هذه الفائدة لا توازيها الفائدة اللفظية على قراءة الرفع مع ما في الرفع من نقصان المعنى ومع ما في هذه القراءة المستفيضة من مجيء المعنى تاماً واضحاً كفلق الصبح، لا جرم أجمعوا على العدول عن الرفع إلى النصب، لكن الزمخشري لما كان من قاعدة أصحابه تقسيم المخلوقات إلى مخلوق الله ومخلوق لغير الله، فيقولون: هذا الله بزعيمهم، وهذا لنا: فغرت هذه الآية فاه، وقام إجماع القراء حجة عليه، فأخذ يستروح إلى الشقاء، وينقل قراءتها بالرفع؛ فليراجع له ويعرض عليه إعراض القراء السبعة عن هذه الرواية. مع أنها هي الأولى في العربية، لولا ما ذكرناه، أيجوز في حكمه حينئذ الإجماع على خلاف الأولى لفظاً ومعنى من غير معنى اقتضى ذلك أم لا؟ وهو المخير فيما يحكم به، فإلى الله ترجع الأمور.

﴿أَشْبَاهَكُمْ﴾ أشباهكم في الكفر من الأمم ﴿فِي الزُّبُرِ﴾ في دواوين الحفظة ﴿وَكُلُّ صَغِيرٍ وَكَبِيرٍ﴾ من الأعمال ومن كل ما هو كائن ﴿مُسْتَظَرٌّ﴾ مسطور في اللوح.

﴿إِنَّ الْمُنَّاقِينَ فِي جَنَّتٍ وَنَهْرٍ ﴿٥٤﴾ فِي مَقْعَدٍ صِدْقٍ عِنْدَ مَلِكٍ مُّقْنَدٍ ﴿٥٥﴾﴾

«ونهر» وأنهار، اكتفى باسم الجنس. وقيل: هو السعة والضياء من النهار. وقرئ بسكون الهاء. ونهر: جمع نهر، كأسد وأسد ﴿فِي مَقْعَدٍ صِدْقٍ﴾ في مكان مرضي. وقرئ: «في مقاعد صدق» ﴿عِنْدَ مَلِكٍ مُّقْنَدٍ﴾ مقرّبين عند ملك مبهم أمره في الملك والاقتدار، فلا شيء إلا وهو تحت ملكه وقدرته، فأى منزلة أكرم من تلك المنزلة وأجمع للغبطة كلها والسعادة بأسرها.

عن رسول الله ﷺ: «من قرأ سورة القمر في كل غب^(١) بعثه الله يوم القيامة ووجهه مثل القمر ليلة البدر» (١٥٢٩).

١٥٢٩ - تقدم برقم (٣٤٦)

وقال الحافظ: أخرجه الثعلبي، وابن مردويه، والواحدي بأسانيدهم إلى أبي بن كعب. انتهى.

(١) قوله: «في كل غب بعثه الله» في الصحاح «الغب»: أن ترد الإبل الماء يوماً وتدعه يوماً. والغب في الزيارة: قال الحسن: في كل أسبوع. (ع)